المشروع القومى للترجمة

إسبانيا فى تاريخها

المسيحيون والمسلمون واليهود

تأليف : أميركو كاسترو

ترجمة : على إبراهيم منوفى

مراجعة : حامد أبو أحمد



٢٠٠٢

المجلس الأعلى للثقافة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٥٢٢
- اسم الكتاب : إسبانيا فى تاريخها
- تأليف : أميركو كاسترو
- ترجمة : على إبراهيم منوفى
- مراجعة : حامد أبو أحمد
- الطبعة الأولى ٢٠٠٣م .

هذه ترجمة لكتاب :

ESPAÑA EN SU HISTORIA
CRISTIANOS, MOROS/Y JUDÍOS

AMÉRICO CASTRO

EDITORIAL CRITICA
Grupo editorial grijalbo
BARCELONA

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo
Tel : 7352396 Fax : 7358084 E.Mail:asfour@onebox.com

المحتويات

تصدير المترجم

كثيراً ما تتردد مقولة إن الوجود العربى الإسلامى ظل فى إسبانيا لثمانية قرون، وهذه مقولة بعيدة كل البعد عن عين الحقيقة إذا ما كان منظورنا هو البحث عن فاعلية الوجود العربى الإسلامى على الأرض والشعب حتى الآن، لكن المقولة تكسب شيئًا من الحقيقة إذا ما تعلق الأمر بوجود نظام سياسى موالٍ ومناصر لهذا التوجه أو ذاك.

وإذا كان لنا أن نستدل على بقاء واستمرارية هذا الوجود وتلك التأثيرات العربية الإسلامية حتى أيامنا هذه – ولو بشكل يتضاءل مع مرور الأزمنة وتداخل الأنساق الأيديولوجية وتراكبها – فإننا لا نلجأ إلى الإشارة المبسّطة التى تتحدث عن الآثار الإسلامية المعمارية والفنية... إلخ، وإنما نشير فقط إلى بعض الأمور التى تبدو كأنها إحدى الطرائف، غير أنها حميمة الصلة بالوجود العربى الإسلامى، ومنها أن العلاّمة إميليو جرثيا جومث أشار فى إحدى الدراسات التى نشرها – وهى كثيرة – حول الحضارة الأندلسية إلى أن مقاييس الجمال الأنثوى لدى الرجل الأندلسى لازالت حتى اليوم هى نفس مقاييس الجمال عند العرب قديماً.

إنها ثمانية قرون – كنظام حكم – من المعايشة والصراع الجدلى الذى يمثل فى محاولات من "ذلك الجزء الذى لم يسيطر عليه العرب فى شبه الجزيرة الأيبيرية" لإثبات وجوده واكتشاف كيان له أمام تفوق حضارى عربى إسلامى أخذ بكافة المبادئ التى تحقق له التفوق والتفاعل مع الآخر والتعايش معه فى إطار رحابة المفاهيم والقيم التى آمن بها إيمانًا واعيًا متفتحًا.

وعندما أخذ هذا المبدأ – أى التفوق والتفاعل مع الآخر والتعايش معه – يعتريه الوهن ولا يحظى برؤية واعية وعميقة تضمن له الاستمرارية، فقد كان ذلك إيذانا بأفول

النجم الحضارى لأمة نرجو لها أن تستعيد من جديد زمام المبادأة وتسترد القدرة الخلاقة على التعايش مع الآخرين، وإنه إذا كانت تمدّ اليوم ببعض الصعاب وتعيش مواقف شائكة فليس عليها إلا أن تنهض من كبوتها وتصحو من خفوتها وتواصل مشوار وجودها الذى منها كلفها الأمر؛ فالغاية - أن تتبوأ مكانها المعهود فى عالم الخلود - جديرة بأن تبذل فى سبيلها كل جهد واعٍ ومتحضر.

هذا الكتاب الذى بين يدى القارئ العزيز هو ثمرة جهد خلاق ومبدع لباحث وعلامة - أميركو كاسترو - أخذ طريقا غير طريق السرد التاريخى ليحدثنا فيه لا عن الوجود العربى الإسلامى فى شبه جزيرة أيبيريا كسلسلة من الأحداث والتواريخ، وإنما كمكوّن أصيل وفاعل فى تكوين الهوية الإسبانية، ويستدل أمريكو كاسترو على ذلك بالإشارة إلى عدم ملاءمة مفاهيم مثل "الثقافة الغربية" أو "الثقافة اللاتينية" لتدخل فى حظيرتها كل من إسبانيا وإيطاليا وفرنسا، ذلك أن كل واحدة من هذه الدول تمثل فى إطار مفهوم "العالم اللاتينى" سمات شديدة الاختلاف. ومفتاح السرّ فى هذا هو المراحل التاريخية التى مرت بها كل دولة على حدة، وليس هناك مخرج لفهم واعٍ وواضح لهذا التنوع، وذلك الاختلاف إلاّ سرد كل حالة على حدة، والحالة التى بين أيدينا هى الخاصة بإسبانيا، ذلك البلد الحميم إلى النفس والقلب معا، والذى لا يكاد المرء يشعر فيه بالغربة أبدا.

السارد أو الشارح أو المفسّر هو العلامة أميريكو كاسترو الذى جمع أدواته، ومنها ألمعيته وقدرته العجيبة على أن يرينا ما لا نراه وكشفه النقاب عن موضوعية شديدة فى التناول، وكانت النتيجة الملموسة لها هى الانتصار للفاعلية الإيجابية للوجود العربى الإسلامى.

غير أن ظهور هذا الكتاب فى حينه - منتصف القرن العشرين تقريبا - قد أثار جدلاً قويًا بين أقطاب الدراسات التاريخية والاجتماعية حول درجة تأثير الثقافة العربية الإسلامية فى تكوين الهوية الإسبانية.

وها هى البشائر تقول لنا اليوم بملء السمع والبصر، إن هذا الباحث الحصيف المدقق كان - ولا يزال - على حق فى هذه القراءة الواعية للوجود العربى الإسلامى فى شبه الجزيرة الأيبيرية ولا أقول الأندلس، فربما اختلفنا فى تحديد المعالم السياسية والجغرافية للأندلس. غير أننا لا نختلف فى فاعلية وتأثير الثقافة العربية الإسلامية فى ذلك الآخر الذى كان يعيش فى شبه الجزيرة الأيبيرية، لكنه لا يخضع مباشرة للحكم العربى الإسلامى؛ فكأنى بذلك أتحدث عن أندلس يتجاوز المفاهيم الضيقة للحدود الجغرافية والسياسية.

تنويه

اعتمدت فى ترجمة الكثير من النصوص القديمة على بعض الطبعات المحققة مثلما هو الحال فى كتاب الحب المحمود ، وعلى بعض الترجمات الحديثة كما نجده فى ترجمة قصائد رولان أو رولدان الفرنسية، وعلى بعض الترجمات النثرية الحديثة لقصائد مديح العذراء مريم حيث هى فى الأصل مكتوبة بالجليقية القديمة.

وهناك استثناء لهذه القاعدة، ألا وهو الخاص بترجمة بعض أبيات «ملحمة السيد» إذ رجعت فيها إلى ترجمة الأستاذ الدكتور الطاهر مكى الذى قدّم ويقدم للمكتبة العربية جهداً تشكره له أجيال من الباحثين .

المترجم

الخطة لا تصنع الحياة ، فهذه

الأخيرة ترسمها لنفسها من خلال المعايشة

ميجل دى أونا مونو

مقدمة

لا يمكن لأى أمة أن تكون كيانًا جامدًا أو مجرد خشبة مسرح يقوم الزمن عليها بأداء مسرحية الحياة ، فالأرض وحدودها هى هدف علم الجغرافيا ، إلا أن تاريخ الشعب – أى تاريخ الإنسان كفرد اجتماعى – يرتبط أساسًا بالمهمة التى تطرحها عليه حياته فى كل لحظة . ونحن لم نفكّر فى تأليف هذا الكتاب انطلاقا من مفهوم الحضارة، أى من مفاهيم ذات قيمة كبرى تمّ انتزاعها ممّن أنجبوها ، ثم ظلت تعيش فى إطار تلك القيم وقوانينها . ولو كان ذلك مقصدنا لما أقدمنا على ما فعلنا ، ولأصبح لكل من ثربانتس Cervantes وبيلا ثكيث Velazquez وجويا Goya وإيرنان كورتيس H.Cortés المكانة التى يستحقها كل منهم مسبقا ،فى سلّم القيم الإنسانية . ورغم المصاعب فإننا نعرف اتجاه التاريخ والحياة التى ساعدت على بروز هؤلاء الرجال وكثيرين آخرين غيرهم من العظماء ، وهذا هو الباعث وراء إعدادنا لهذا العمل ، ذلك أننا فى حاجة ماسّة إلى أن نعرف كيف أنه منذ القرن الثامن استطاعت جماعة من البشر – خلال حقبة حسّاسة فى تاريخها – أن تُوجد لنفسها آفاقًا جديدة – انطلاقا من الموقف الذى كانت تعيشه – وأن تدرأ عن نفسها مخاطر محيقة بها تهدد كيانها ، كما أردنا أن نبحث الكيفية التى تكون فيها ما يمكن أن نطلق عليه " نمطية الحياة الإسبانية "

وأحيانًا ما تجد الشعوب نفسها (شأنها فى ذلك شأن الأفراد) وهى تعيش مواقف صعبة وتصبح على شفا الزوال ، وعندما تحدث مواقف شائكة مثل هذه نجد البعض يُسلّم نفسه للموت ، أو يظل على قيد الحياة ، غير أنها حياة خُلْو من الثراء أو الطموح إلى احتلال مكانة معينة فى عالم المُثُل العليا ، وهنا لا نجد من يعمل تطلّعًا إلى الخلود ، ويحدث أحيانا أن تصحو الشعوب من غفوتها وتقرّر مواصلة وجودها مهما كلفها الأمر ، فتضع نصب عيونها طموحاتها وتحلم بمستقبل الخلود فيه هو المآل،

وما يمكن الوصول إليه فى تلك الظروف الحسّاسة للغاية يعتبر عنصراً فعّالا وحاسماً يتحوّل إلى أحداث وأفعال محدّدة تَخْلُق بدورها - وبفعل التكرار - مجرى الحياة ، ويرتبط عمق ذلك المجرى بقوة وصلابة وإصْرار الموقف الحيوى الذى تمخض عن تلك الأحداث ؛ وبذلك يتم إبداع منهج وجود تؤدى الاستمرارية فيه إلى تحويله إلى ملامح قوية وثابتة .

إننا ننظر إلى التاريخ على أنه أحد السّير وأنه عملية وصفية عميقة ، وذات قيمة كبيرة ، لنمط حياة كريمة ، كما نعثر من خلال هذه العملية الوصفية على مجموعة القيم التى تدخل فى إطار حدود لا يمكن تجاوزها ، ومن الواضح أن درجة المرونة فى أى نمط من أنماط الحياة لها حدودها سواء تعلّقت بحياة الفرد أو الجماعة ، وإذا ما كان اتصالنا بالحياة التى نتحدث عنها حميما لأمكننا تخمين الأحداث التى لا يمكن لها بلوغها ، ومن الواضح أن معارفنا الضئيلة فى ميدان علم النفس الوجودى للشعوب يجعل من الصعب الكشف عن الفترات التاريخية والظروف الضرورية لصقل الطابع الجماعى ، وعلى أية حال يجب أن نميّز بدقة بين المفاهيم المجرّدة للثقافة والحضارة وبين أنماط الحياة الجمعية التى تعبّر عنها، وعندما نصل إلى هذا الوضع يتضح لنا عدم ملاءمة مفاهيم مثل " ثقافة الغرب " أو " الثقافة اللاتينية " أو " الثقافة السلافية "أو " الثقافة الشرقية " ، وهنا سنرى - على سبيل المثال - أن كلا من إسبانيا وفرنسا وإيطاليا تمثل - فى إطار مفهوم " العالم اللاتينى " - سمات شديدة الاختلاف ، وهى سمات لها تأثيرها الحاسم أكثر من مجرّد وجوه التشابه الثانوية ، وحتى يمكن أن نفهم ذلك نجد التاريخ يتولى تقسيمها إلى وحدات لكل منها سيرتها الخاصة بها .

ورغم أن ما نقوم به محفوف بمخاطرة تتمثل فى احتمال الخطأ فى التقدير وعدم الاكتمال ، يجب أن ندلف إلى حياة هؤلاء الذين عاشوا حياتهم الخاصة بهم ، بمعنى أننا يجب أن نكون فى داخل هذه الحياة وليس خارجها ، أى أن نكون فى صُلب التاريخ ، وأن ننسى الأسلوب السّردى الخارجى للحكاية، وعندما لا يحدث ذلك " فإننا نرى " - مسبقا - الشكل الذى تسير عليه، وهنا تفقد العملية السّردية كثيراً من جدواها إذ أن المحصلّة عندئذ هى ثُلّة من الوقائع غير المحددة ، وعلينا بذل الكثير من الجهد حتى نرى - من خلال وحدات هيكلية - أين تبدأ الحياة وما هى توجّهاتها ،

فـ"الأحداث" ليست التاريخ بل هي مؤشر عليه ، وهذا هو السبب في عدم التوازن بين " المواد " التي يمكن جمعها منذ القرن الثامن عشر وبين التفسيرات التي تحاول إيجاد معنى لها في غاية " ما هو إسباني " المليئة بالغموض ؛ ومن الأمثلة الواضحة على هذا التخبّط المناقشات الصبيانية والحادة حول ما إذا كانت إسبانيا قد عاشت عصر النهضة أو العلوم أو لا ، وهنا يبدو الأمر وكأن إسبانيا فتاة متمرّدة وكسولة رفضت الذهاب إلى المدرسة التي يتعلم الآخرون فيها وهم أولئك الجادّون الذين يستحقون الانتساب إلى عصر النهضة .

ولقد كان من العسير على كاتب هذه السّطور أن ينسى الاعتقاد القائل بوجود كيان " ثابت " هو إسبانيا ، ويمكن مساواة ذلك الاعتقاد بأرضها التي تكاد تصبح جزيرة ،حيث عاشت أحداثًا أليمة وأخرى سعيدة ، إلا أن التاريخ ليس تسلسلاً للأحداث بل هو عيشها أو اللاعيش ، وقد كان على إسبانيا – مثلها في ذلك مثل أي كائن له إشكاليته الخاصة به – أن تشكلّ نفسها وتُبقي عليها وهي تحيا ، وهنا تكتسب الأحداث – بما فيها الخطوب – مدلولا ومعنى على أساس إشكالية الوجود ، يقول هملت " العالم المحيط بالأنا يُنْسب إليها ويتجه نحوها بوصفها منظورًا" (١)

وتقع الأحداث في انسجام مع نوعية القيم المفضّلة أو المرفوضة ، والتاريخ هو في جوهر الأمر عبارة عن سلّم القيم الذي يصبو إليه كل شعب ، أي أنه اللوح المسطور الذي يحكم سلوكه التاريخي ، ويمكننا رسم تاريخ إسبانيا المسيحية على إيقاع ما تفضلّه من جهد ملحمي- بطولي ، وكذلك عدم اهتمامها بالفكر ، ويحدث شيء آخر لإيطاليا (فهي بلد بدون ملحمة أو رواية أو دراما) حيث يمكننا رسم تاريخها على أساس القيم التي تفضلّها ، وهي مختلفة عن تلك التي سبق أن عرضنا لها .

وهانحن نرى – ولكن بشكل ضبابي ومن خلال ما يقصّه الأعداء – كيف كانت حياة أهل بيرياتو **Viriato** وحياة البَشْكنس وحياة أبناء نومانثيا **Numancia** الذين واجهوا الغزاة الرومان ، وهذه الشخصيات هي بالنسبة لنا عبارة عن شخصيات صامتة يمكن أن نجد لها ما يعادلها في الصراعات التي شارك فيها هؤلاء الذين

(١) Theodor Litt, individuum und Gemeinschaft 1919 ed. 1923

سيطرت عليهم روما في أماكن عديدة ، إلا أننا لا نعثر لهم على شكل من أشكال حياتهم خلال القرن الخامس الميلادى ، أى فى الفترة التى ظهرت فيها إسبانيا كجزء له ملامحه فى العالم الرومانى ؛ إننا نتحدث عن تأسيس المملكة القوطية على معالم التراث الرومانى المسيحى والتى تعتبر استمرارًا للحياة الإقليمية الرومانية المسيحية الجرمانية ، غير أن الحياة القوطية لم تخلق شيئا يمكن القول عنه بأنه إسبانى خالص؛ وعندما اختفت مملكة القوط من الوجود عام ٧١١م لم يكن هناك ما يمكن أن يطلق عليه أنه فرنسى أو إيطالى ، اللهّم إلا إذا تركنا أنفسنا نهبًا للسّراب ، غير أن الأحوال تبدّلت عند اكتمال الألفية الأولى (عام ١٠٠٠م) حيث نجد أن جوهر إسبانيا هو ما كانت عليه عام ١٦٠٠م ويمكننا تمييز ملامحها بوضوح من خلال المقارنة بفرنسا وإيطاليا .

وخلال القرن الثامن وجد الجزء الإسبانى الذى لم يسيطر عليه الإسلام نفسه أمام معضلة تتمثل فى: إما مواصلة البقاء وإما أن يزول من الوجود [٢] ، وهنا كان عليه أن يصطنع لنفسه طريقة للعيش مختلفة ، وعن منهج عمل جديد كل الجِدّة بينما هو معزول عن باقى العالم المسيحى الأوربى ، أى عن روما وعن القسطنطينية ؛ وفى هذا المقام يجب على المؤرخ أن يركز نظرته الفاحصة على تلك المرحلة المبكرة والخاصة بما ستكون عليه إسبانيا فى المستقبل ، فالتاريخ الذى ستعيه يرتبط ارتباطًا وثيقًا بطريقة العيش التى اصطنعتها لنفسها ، فقد أخذت تَتَمَحْوَر وجهات النظر بشأن البداية والقرارات المتخذة فى شكل حياتى معيّن يختلف عن الشكل الإسلامى وعن الشكل الأوربى رغم أنه نسيج من كلا العنصرين. وبدخول إسبانيا فى ذلك الإطار وسيرها فى تلك التيّارات نجدها تواصل حياتها طوال قرون عديدة ، وهذا ما سوف نراه فى فصول هذا الكتاب الذى بين أيدينا ، فلقد تحددت ملامح الإسبان منذ القرون الأولى " لحرب الاسترداد " **Reconquista** كما نجدهم – لأول مرة – قد وعوا بكيانهم وبما يريدون أن

(٢) أستند هنا على ما أشار به كلاوديو سانشيث ألبورنوث C.S.Albornoz من أن " المملكة الأستورية لم تكن الاستمرار الطبيعى ، ولم تكن الوريث الشرعى للمملكة القوطية" {الخلافة على العرش فى كل من مملكتى قشتالة وليون " – بوينوس أيرس – عام ١٩٥٤م}

يكونوا ، وهذا لأنهم لا يريدون العيش مثل المسلمين ، كما يشعرون بقدرتهم على مواصلة السير فى طريقهم .

وعندما ننظر بهذه الطريقة إلى واقع العيش تختفى من أمام نواظرنا التجريدات القائلة بأن إسبانيا لها ملامحها " المسبقة " على الأرض الأيبيرية ، فلقد كنا نظن أن الوجود الإسلامى (واليهودى) غير المرغوب فيه قد سقط على هذه الصورة المفترضة لإسبانيا ، وعندما ذهب الوجود الإسلامى واليهودى استعادت البلاد كينونتها الأبدية بعد فترة انقطاع أليمة استمرت ثمانية قرون ، لكن الأمر ليس بهذا الشكل ، فعندما أتحدث الآن عما هو " إسبانى " أدركه فى وعيى ، كما أنه ذو ملامح وشكل لا يمكن لى البحث عن جذوره قبل عام ٧١١م ، ولا يجب أن نُعنَى – مؤقتًا – بالنظر لما حدث منذ ذلك الحين من منظور الصالح والطالح ، بل يجب أن تحدونا الرغبة فى سَبْر أغواره من خلال رؤيتنا التاريخية ، أى بالشكل الذى يجعل للأحداث التاريخية دلالاتها ويساعدنا على قراءتها تاريخيًا ، والكائن المتعلق بذلك التاريخ الذى حاولنا رسم ملامحه بطريقة غير مكتملة وغير وافية هو الكيان الإنسانى الذى يقع على عاتقه مشروع الحياة ومواصلة العيش ، إنه " الأنا " التاريخى الذى سلك مسلكًا دون آخر ، ذلك أن كليهما – أى المسلكين – لا يجتمعان معا ؛ كما أخذت الإرادة الإنسانية ترسم لنفسها مجراها بإرادتها ، وهو مجرى مختلف وغريب إذا ما قارنّاه بما حدث للشعوب المجاورة ، إذ لا يوجد فى الشرق ولا الغرب أى بلد يشبه إسبانيا وقيمها الرفيعة والفريدة (وليس مهما فى هذا المقام القول بأنها أرفع أو أقل رفعة من غيرها) ، وكل من ثيلستينا Ce-lestina وثربانتس وبيلاثكيث وجويا وأونامونو وبيكاسّو وفايّا Falla إسبان خُلّص ولكل واحد من هؤلاء ملمح أساسى يشير إلى أنه إسبانى ولا شىء أكثر ، ومن المعروف أن كل شعب يمتلك صيغة حياة وإلا فلن يكون له وجود ولن نستطيع قراءته قراءة جيدة ، غير أن كل الشعوب لم تصل إلى آفاق عظيمة قابلة للانتشار ودائمة ، فهناك شعوب أوربية تحتل مكانها فى " صدر الحضارة الحديثة " لكن ليس بها ملامح مهمة ، كما لا تملك قيمًا قابلة للانتشار ومتسمة بالدوام ، وهنا علينا أن نضع الأمور فى نصابها ابتداء من هذه اللحظة.

تولّى الإسبانى الذى جاء إلى الدنيا بعد القرن الثامن الميلادى رسم طريقة حياة لنفسه ترتبط بعالم متميّز تستند جذوره إلى العقيدة وليس على الفكر ، كما أن تلك العقيدة استقرّت فى ضميره الشخصى وخبرته المُعَاشة ، وكانت العقيدة هى حجر الأساس الذى ارتكز عليه هؤلاء الأفراد ، أى الإيمان بعالم متميز وبقيمة الشخص وغيره من الأفراد ، ولا نجد ما قد يدلّ على قلقه لمعرفة ماهية وكيان ذلك العالم المتميز بمنأى عن الخبرة أو لمعرفة " ذات " الأفراد أو ماهية الأشياء المحيطة ، وحلّ الانشغال بما يجب أن يكون عليه وبالسلوكيات التى تستهدف مستقبلاً أخلاقيًا معينًا محلّ ذلك الشغف بالبحث عن ملامح الماهية .

إننى أدرك جيداً أن هذا البحث غير مكتمل وتَعْتَوره جوانب القصور ، فلقد عملت فيه وأنا بعيد عن مكتبات إسبانيا وأرشيفاتها الحميمة إلى قلبى والتى كانت مُستقرّى طوال أعوام كثيرة ، كما لم أتمكن من طرح أفكارى ومضاهاتها بأفكار علماء أجلاء فى البحث عما هو إسبانى ، كما اعتمدت على ترجمات عن العربية، ورغم أنها قد تكون ممتازة فهى لا تعدل ما عليه كل من أسين بلاثيوس وجارثيا جومث فى هذا المقام، وعلى أية حال علىّ أن أقول – وبتجرّد – إن هذا الكتاب لم يستهدف البحث عن جديد بل هو محاولة لفك طلاسم الشكل الفريد لطريقة العيش الإسبانية من المنظور التاريخى، وهى طريقة مستكنة فى " سويداء القلب " كما يقول أصدقائى العرب ، والأحداث الجديدة فى هذا الكتاب تستند إلى مفهوم مسبق يقول " كان يجب أن تكون هكذا " .

ما هى الطرائق التى ظهرت من خلالها – على سطح التاريخ – تلك الأعاجيب وهذه المصاعب المتعلقة بالسّير فى هذا العالم ؟ كان من الضرورى أن نسْبر أغوار الضمير ، كما كان الأمر مُلحًا وعاجلاً لدرجة أننى كرّست له هذه السنين من عمرى القريبة من مرحلة الأفول ، ولمّا كان الكتاب محصلّة تشكيل للذات فهو لا يتبع تنظيمًا منطقيًا فهناك التفاصيل الكثيرة التى تتناوب مع التخمين ، وربما اقتربا لدرجة تثير الغيظ ، ويمكن أن نعالج الموضوع الواحد أكثر من مرّة ويرجع هذا إلى ارتباطه بمنظور جديد ، كما أن القصد هنا ليس سرد تاريخ بل إدراك الموقف ونمط الحياة ، وهنا تكتسب الأحداث والمعلومات قيمتها من حيث هى تعبير عن شىء يستكّن خلفها ،

وغاية هذا الكتاب – سواء أخطأ أو أصاب – هى إلقاء نظرة شاملة ، ولهذا أرجو من القارئ العزيز ألا يحكم عليه قبل قراءته بالكامل .

كان علىّ استبعاد الكثير من المادة العلمية التى تمكنت من جمعها بشق الأنفس ، وعلى أية حال فإن ما كُتبَ حتى الآن عن المرحلة الأولى للحياة الإسبانية (وليس عن العصور الوسطى) قُصِدَ منه أن يكون تقديماً موجزاً لدراسة تتعلق بالقرنين السادس عشر والسابع عشر ، ومع هذا أدركت أنه من غير المناسب – ويدخل فى باب التجريدات – ذكر مصطلحات مثل " عصر النهضة " و " مناهضة الإصلاح Contrarre-forma وعصر الباروك دون أن أدرك – وبوضوح – من خلال ضميرى ماهية ما أتحدث عنه ، أى ماهية ذلك الكيان الذى ننعته بالسّمات التى تجعله ينتسب إلى عصر النهضة أو الباروك أو أى شىء آخر ، أو حتى نَضِنّ بها عليه ، وهنا أدركت ما أنا عليه من جهل شديد بتلك " الذات " التى يمكن لى الحديث عنها من خلال أهليتى الثقافية ، وأن أنسب إليها هذه الأحداث وتلك التأثيرات ومنظومة القيم أو اللاّقيم :من هذا ؟ وكيف يكون " ذلك " الذى يعيش ذلك الوجود الثرىّ والدرامىّ ؟ وحينئذ فكّرت فى أن المسار الحيوى هو فى الكيان التاريخى والإنسانى الذى هو نتاج الوجود المسيحى والعربى واليهودى ، وهنا أصبح من غير الملائم القول بأن ما هو إسبانى كان أوربياً أو مشرقياً، ولا مفرّ إذن من البحث عن ماهية ثالثة هى " ما هو مرتبط بإسبانيا Hispanidad حتى تكون الإشكالية سهلة الفهم ، وعندئذ اتضحت ملامح الأفق بجلاء ، وأصبحت الفكرة المطروحة مجدية ، وظهر القديس سانتياجو فجأة وهو بمثابة " مضاد لمحمد " ، وبدا لى أرثيبريستى دى إيتا {قُمُصّ إيتا} Arcipreste de Hita رجلاً يُنْسب إلى المدجّنين وقد سار على نهج ابن حزم ، كما ظهرت محاكم التفتيش وكأنها النقمة العمياء والحانقة بالنسبة للضياع اليهودى ، وتم تفسير غيبة الشعر الغنائى خلال الفترة من القرن الحادى عشر وحتى الثالث عشر على أنها ردّ فعل على شعر الغزل فى العصر الإسلامى ، واتخذت كل من قشتالة وقطالونيا وجليقية مكانها الصحيح وأصبح كل واحد من هذه الأقاليم يقوم بما هو متوقع منه ... الخ .

أصبحت قشتالة بين فكّي رحا ، هما الطوفان الإسلامي والطموحات الفرنسية ، فما كان منها إلا أن تعمل على تطوير وجودها بقوة ومهارة وتمثل ذلك في الهجمات والوقفات ، وقد أدت الحاجة إلى العيش تحت تهديد أعظم حضارة في العالم آنذاك – خلال الفترة من القرن التاسع وحتى القرن الثاني عشر – إلى قيام قشتالة بتكليف المسلمين واليهود الذين يخضعون لها بمهمة التعامل مع الأشياء والبحث عن التقنيات وباقي المهام التي تتطلب التفكير ، وأصبح اليهود والمسلمون من السّلالات الخاضعة ، وتم استغلالهم على أنهم عناصر ضرورية وأحياناً كان يُنظر إليهم بإعجاب ويسير الآخرون على نهجهم .

وبهذه الطريقة بدأت تظهر لنا الحسابات ، ومما لا شك فيه أن الموضوع غير مكتمل ويمكن أن تتسم بعض جوانبه بالقصور وبعضها الآخر بالمبالغة ، إلا أنني أجرؤ على القول بأن الرؤية البانورامية هي تلك ، ولا يمكن أن تكون غير ذلك .

أتوجه بالشكر إلى بعض الأصدقاء الذين زوّدوني بالكثير من البيانات والأخبار التي ضمنتها هذا الكتاب ، وأخص بالذكر زميلي فيليب ك.حتي Philip K. Hitti لصبره وأناته معي وتحمله أسئلة شخص مثلي لا يعرف من العربية إلا القليل ، وأشكره أيضا على موافقته بقيامي بالاطلاع على ما في مكتبة قسم الدراسات الشرقية بحريّة تامة .

أميركو كاسترو

جامعة برنستون U.Princeton

أبريل ١٩٤٦

الفصل الأول

إسبانيا أو تاريخ القلق

تتمتع أبرز الحضارات الأوربية بملامح واضحة للغاية ، فعلى سبيل المثال هناك " قراءة دينية " لتاريخ فرنسا أو انجلترا تقوم على أسس مثالية ومضامين يقبل بها الجميع ، فكل من الإنجليزى أو الفرنسى يصدر عن عقيدة راسخة عندما يتأمل ماضيه الذى تظهر ملامحه فى أشكال وصيغ تبدو مؤكدة ألا وهى التجريبية والبراجماتية والعقلانية والوضوح . وقد عاشت الشعوب الأوربية الكبيرة حتى عام ١٩٣٥م (بزيادة عام أو انتقاص آخر) ، ولازالت تعيش ولو بشكل جزئى على الاعتقاد بأنها تحيا تاريخًا عاديًا وتقدميًا يقوم على أسس ثابتة الأركان ، ولا يستطيع أحد أن يشكك فيه اللهم إلا شخص مجازف Outisder ؛ ويتم النظر إلى كل لحظة من الماضى على أنها بمثابة الإعداد لثروة وثقافة وسلطة فى المستقبل ، وهنا يشعر الناس بالماضى على أنه مقدمة الحاضر .

أما تاريخ شبه جزيرة أيبيريا فهو مختلف تمامًا عن ذلك ، فقد سادت كل من إسبانيا والبرتغال العالم طوال ثلاثة قرون ، إلا أنهماً لا تتمتعان فى اللحظة الراهنة بنفس الطاقات السياسية والاقتصادية التى عليها دول مثل هولندا أو اسكنديناڤيا ، ومن المعروف أن هذين البلدين جزء من أوربا المتلألئة ، وقد عاش العالم الإسبانى البرتغالى على أمجاد الأمس الغابر الذى لازال غامضًا فى نظر الكثيرين ، كما أن إنتاجهما فى ميدان الفن والأدب والقيم المطلقة – على مستوى الأفراد – يحظى بشهرة واسعة ، وفى الوقت نفسه نجد التقنية والعلم أقل شأنًا عندهما ، كما أنهما ليسا على قوة اقتصادية أو سياسية تذكر ، وعندما يتم النظر إلى الماضى من منظور إشكالية

الزمن الحالى يتحوّل إلى مشكلة تتطلب من المراقب أن يسلط الضوء عليها ذلك أن الأحداث الكبرى فى التاريخ البعيد تبدو وكأنها مُغلّفة ببوادر أفول نهائى ومأساوى ، وهنا يشعر المرء بالحاضر على أنه مقدمة لمستقبل ظنى ومفترض .

إنه مستقبل ظنّى فيما يتعلق باليسر المادى والإحساس بالسعادة والمتعة التى أخذ الأوربى يعتادها منذ القرن التاسع عشر ، إلا أنه مستقبل آمن ومؤكد فيما يتعلق بالقدرة على إبداع أشكال ورموز تعبر عن المشاعر الخاصة بالحياة والموت والأزمة القائمة بين ما هو عرضىّ وما هو أبدىّ ، أما الدقّة التى هى من سمات الثقافات الأخرى ، والمستخدمة كوسيلة لمعالجة مشكلة الكيان والمناقشة العقلانية لما عليه العالم ، فقد أصبحت بالنسبة للإسبانى وسيلة تعبير – لا عن وعيه بكينونته – بل عن معيشته فى هذا العالم ، كما حلت الرغبة فى العيش كنوع من التقدم ، الراغب فى منطقة ما يجب أن يكون محل الرؤية الواثقة للحاضر غير الزمنى للكيان ؛ ويقابل العمل واستخدام العقل اللجوء إلى الموقف التأملى – فى شبه جزيرة أيبيريا – الذى يصعب إيجاد مقياس لنتائجه العملية ، غير أنه يمكن النظر إليه من خلال التأمل مثلما يفعل ذلك المتصوّف والفنان والحالم والذى يرتاد عوالم جديدة ليضمها إلى دائرة حياته ، وتعتبر شخصية " الشّاطر " **Pncaro** نموذجًا كاريكاتوريًا لكل ما سبق ومعها شخصية الهائم على وجهه أو الكسول أو ذلك الذى يتحين الفرصة لتحقيق ما يصبو إليه ، وهى فرصة لن تحين أبدًا ، وهناك مقولة لها مغزى عميق هى " إما البلاط وإما الأبعدية " **O Corte O Cortijo** بمعنى إما أن يطلب المرء العلا وإما أن يقعد ويرى تصاريف الزمن فى مدار القدر (١) .

ومن المفهوم لدينا أن طريقة العيش هذه أصبحت مشكلة بالنسبة لمن يحيونها ، وهى مشكلة أخلاقية مفعمة بالأمل واللايقين ، ومن المعروف أن إسبانيا كانت جزءًا من أوربا وعلى اتصال حميم بها ، كما تعيش أحداث التأثير والتأثر المستمرة ، ولم تكن إسبانيا غائبة أبدا عن أوربا ، ومع ذلك فلها ملامح خاصة تختلف عن تلك التى عليها كل من إنجلترا وفرنسا ، أو التى عليها هذه الأخيرة عند مقارنتها بألمانيا أو هولندا ، والأثر المباشر لتلك الظواهر هو أن تاريخ إسبانيا لم يتمخض عن عملية بناء يتفق عليها الجميع ، بأنها عملية نفسية دقيقة ، وهى تلك التى تُدْخل تحويرًا على ما يتصل بها

سواء فى قوميّاتها أو مفاخرها أو آلامها أو إحباطاتها والشعور بالضيق إزاء الغرباء ، وفى كل ما سبق هناك نوعان من الازدراء وعدم الدقة الفاضحين ، وأحيانا نجد الحماس الذى يتجاوز الحدود .

وإذا ما كان لنا أن نتّخذ البراجماتية التطبيقية المتعلقة بالقرن الأخير كمقياس للحكم فى الأمور فإننا نجد أن ماضى شبه الجزيرة الأيبيرية يتبدّى وكأنه سلسلة من الأخطاء السياسية والاقتصادية التى تمخض عنها الفشل والانحطاط ، وهاتان سمتان تفادتهما شعوب أوربية أخرى ابتعدت عن الطنطنة العسكرية والدينية وعن الركون الكسل (؟) التأملى والحالم ، كما أن المفاخر الناجمة عن طريقة العيش التى عليها الحضارة الإسبانية تصل إلى ذروتها إذا ما بلغت أقصى حدود الكمال [ثربانتس وبيلاثكيث وجويا] شريطة ألا تُصاب بالغرور أو تؤثر على مصلحة دول أقوى سياسيا ، ولا يتم الاعتراف بشكل عفوى بأن مدينة المكسيك وبعض المدن الأخرى " أمريكا الإسبانية " كانت أجمل مدن القارّة الجديدة معماريا ، فالقبول بهذه المقولة سوف يؤدى بالضرورة إلى الاعتراف بأن السيادة الإسبانية لم تكن مجرّد عملية استغلال استعمارى ، فالشعور بالمفاجأة السّارة الذى عبر عنه البارون هومبولد **Humboldt**، حوالى عام ١٨٠٠م ، لم ينتقل إلى الكتب أو دوائر الحوار بين المعاصرين ، وما حال دون ذلك هو الشعور بالتفوق الذى يعيشه العالم الأنجلوساكسونى ، وكذلك نقمة الكثيرين من أبناء " أسبانوأمريكا " فهم يجدون فى الماضى الاستعمارى تبريراً سهلاً لضعفهم السياسى والاقتصادى فى الوقت الراهن ، كما أن هناك عقبة أخرى تتمثل فى حالة اللاوعى بأن إسبانيا منكفئة على نفسها وعلى ماضيها خلال القرن التاسع عشر ، وهى حالة لا يمكن تعويضها بمجرد العبارات الخطابية لبعض الاتجاهات السياسية ذات المصالح المعينة ، غير أن البعثات التبشيرية ودور العبادة فى كل من لويزيانا وتكساس والمكسيك الجديدة أو كاليفورنيا – وهى الفُتات الذى بقى من ذلك المجد الفنى التليد – لازالت تحتفظ بما لديها من ثروات وتحيطها بعنايتها وحبها بدرجة تزيد على ما يتوفر لدى إسبانيا والمكسيك بالنسبة لعملية الحفاظ على ما لديها من تراث وكنوز لا تقدّر بثمن .

وهذا يعنى أن الثوابت غير القابلة للنقاش فى ماضى إسبانيا ليست كذلك ، فقد ظلت لوحات الجريكو Greco مدفونة طوال ثلاثمائة عام رغم أنها أُبْدِعت فى إسبانيا وكانت إسبانيا مُلْهِمتها ، ولم تدخل إلى مصاف الفن العالمى حتى القرن العشرين (٢) وبالنسبة لتاريخ الأدب فقد كان أساتذتى يكتبون ويقولون بأن شعر لويس دى جونجورا L. de Gongora لم يكن إلا نتاج عقل مريض به الكثير من الشّطحات ، وظلت تلك الصورة على ما هى عليه حتى عشرين سنة مضت ، وبعد ذلك اطلعنا على قراءة لشعر هذا الرجل تتّسق مع الحقبة الفنية وهى قراءة يتفق عليها اليوم الإسبان والأجانب ، ويرجع هذا كله إلى أن أقصى مظاهر التعبير عن الحضارة الإسبانية لا يمكن تقديرها من المنظور العقلى بل من خلال الأحاسيس والمشاعر وهنا نرى أن لا شئ بِمَنْجى من المناقشة أو الثبات .

وما حدث هو أن تاريخ تلك المنطقة - القائم على أوضاع نفسية صعبة ، والمُتّصل بالعالم الأوربى الذى تقوم دعائمه على أساس انتصار الإنسان على العقبات الطبيعية- أخذ ينتابه فقدان الأمل ، ولقد بدأ الإسبانى يشعر - منذ القرن السابع عشر- بِقَزْمِيتّه فيما يتعلق بالمنجزات المشتركة (٣) وأصبح الهدف الوطنى منذ ذلك الحين العمل على إيقاف ذلك المصير السيء ، أو بمعنى آخر الوقوف ضد زحف هؤلاء الذين يطبقون حكم العقل على الأمور الحياتية ويبنون القوة الحديثة للغرب من خلال تقنياتهم ؛ إلا أن قوة الدفع الإسبانية ظلت فى عملها المتمثل فى التوسّع الإمبراطورى والإبقاء عليه حتى القرن الثامن عشر ، وعندما فقدت إسبانيا ممتلكاتها فى أمريكا عام ١٨٢٤م تلقى الإسبان ، فى أسبانوأمريكا ، ميراثا شبه كامل لثلاثة قرون من الاستعمار التحضّرى رغم الهجمات الشرسة التى قامت بها كل من إنجلترا وفرنسا وهولندا ، ومعنى ذلك أن التحليلات النقدية والغضبية التى سار عليها المفكّرون لم تكن تتسق مع قوة الدفع الحيوية التى كان عليها هؤلاء الذين استطاعوا مدّ دائرة السيادة الإسبانية فى لويزيانا وكاليفورنيا خلال القرن الثامن عشر بالرغم من أن الأمة كانت تعيش مرحلة انحطاط وتفكك ، وقد تمكنّ هؤلاء من إحداث نهضة جديدة فى إسبانيا خلال حكم كارلوس الثالث ، وقد تمثلت فى الكتب والعلوم والمنشآت وعظمة الفنان جويا ، وتتهاوى الأهداف المشتركة عندما نقترب بها من تاريخ إسبانيا تلك الأمة التى عاشت فى دائرة صراع غامض بين الحياة والموت .

نحن إذن أمام ثقافة تؤكد ذاتها وتدمّر نفسها بشكل مستمر ، ففى عام ١٤٩٩م وجدنا أن ثيلستينا (القوادة) ما هى إلا نتاج قريحة - فاقدة للأمل - لذلك اليهودى الذى تحوّل إلى المسيحية وهو / فرناندو دى روخاس F. de Rojas، ثم تظهر أمامنا بعد ذلك رواية " دون كيخوته " محاطة بأشعة الغروب والجو المليء بملامح عصر النهضة ومضاداتها ، وكأن هذه الرواية تجسيد أبدى للمستحيل الإنسانى الذى يتحقق ولكن من الناحية الجمالية ، وفى نهاية القرن الثامن عشر - أى بعد أن أصبحت الامبراطورية الإسبانية هيكلا عظميًا وظلالاً من الماضى - خرج علينا جويا بعبقريته التى تجاوزت تلك الأطلال ؛ وقد وصف اللورد ساليسبورى Salisbory إسبانيا - حوالى عام ١٩٠٠م - بأنها " أمة تحتضر " وأثناء " سكرات الموت " جرى الإعداد للحركة الفنية والعلمية والفلسفية التى رفعت إسبانيا إلى الساحة الدولية ، وهو وضع لم تحظ به منذ القرن السادس عشر ، وهنا نجد أمامنا أونامونو ومعه هذه الثلّة المبدعة من الشعراء والروائيين وكتّاب المقالات الذين استطاعوا أن يضيفوا الكثير إلى التراث الأدبى الإسبانى المعاصر (أنطونيو ماتشادو ولوركا وهنا لم أذكر إلا هؤلاء الذين رحلوا عن دنيانا) ، كما نجد بيكاسو والموسيقيّين ألبانيث Albaniz وفايّا Falla، ولست بحاجة إلى نعتهم بأكثر من ذلك فهم أغنى من كل النعوت ؛ كما نجد سانتياجو رامون إى كاخال S. R. Y Cajal ذلك العالم الذى أضاف الجديد فى ميدان الجهاز العصبى للإنسان وفاز بجائزة نوبل فى تخصص تشريح الأنسجة Histología، وهاهو رامون منندیث بیدال R. M. Pidal المؤرخ واللغوى الذى احتل درجة رفيعة فى عالم اليوم ، كما نجد أيضا خوسيه أورتيجا أى جاسيت J. O y Gasset الكاتب والفيلسوف الذى استطاع تغيير مسار الفكر لكل السلالة الإسبانية Genshispana؛ إننى لم أذكر هنا إلا القليل من الأسماء غير أنه يكفى على سبيل التذكرة لهؤلاء الذين يقولون عن إسبانيا بأنها بلد خُلْو ، وهو حكم غير قائم على أساس ؛ ولا توجد حالة مناظرة لتلك التى نحن بصددها حيث تتصارع الحياة واللاحياة ، ويزداد الأمر غرابة إذا ما وضعنا فى الاعتبار تلك الأسباب الداخلية والخارجية والتى كان من " المنطقى " أن تُحْدث تأثيرها منذ القرن السابع عشر وتجعل إسبانيا أمة من الفلاّحين الذين لا يسترعون انتباه الزائر اللّهم إلا من خلال ما يرتدون من ملابس فلكلورية .

علينا إذن ألا نختال إذا ما كانت هذه الطريقة فى العيش بحاجة إلى تمحيص ، بحيث نتناسى بعض الشىء أفكار التقدم والانحطاط الماديين وكذلك القوة السياسية والفعالية التقنية ، لقد كان التفكّك أحد سمات الإرادة الجماعية منذ القرن السابع عشر، فعلى الصعيد الخارجي أخذت كل من هولندا والمقاطعة الحرة Franco ondado تنشقان عن التاج ، أما فى الداخل فنجد أن قطالونيا كانت على وشك الانفصال بعد الخطوة التى قامت بها البرتغال عام ١٦٤٠م ، إذن فالأسطورة القائلة بوجود إمبراطورية عالمية تقوم على أساس العقيدة الكاثوليكية قد فقدت فاعليتها إذا ما وضعنا فى الاعتبار الكيفية التى كان يشعر الإسبان بها والتى لا تتوافق تمامًا مع مفهوم الكنيسة فى روما بالرغم من وجود اتفاق خارجى بين الطرفين ، ولم تقم لتلك الإرادة الجماعية قائمة بعد تهاويها فى ذلك القرن ، وسوف يحدثنا المستقبل عن رغبات للبعض ورغبات مناقضة للبعض الآخر [٤] ، وكان هناك عدد كبير قد فقد رغبته فى شئ محدّد وأصبح يعيش إيقاع العادات والعقيدة الدينية دون أن يهّتم بمعرفة أى شيء آخر ، وحتى القرن العشرين نجد أن بعض المناطق الريفية فى إسبانيا لازالت تستخدم المحراث الرومانى ، وكذا تستعين بالثيران فى فصل الحبوب عن القش عند جنى محصول الغلال .

ورغم أننى سوف أعود من جديد لتناول تلك القضية الجوهرية فما أقوله يكفى للتدليل على أنه لا يكفى أن نطبّق الآن المناهج المتبعة لفهم التاريخ ، أى أن الحضارات تولد وتنمو ثم تندحر ، أو أن التاريخ هو محصلّة الإرادة الجمعية التى رسمت لنفسها أهدافًا عظيمة ، وحتى نفهم ذلك نجد أمامنا المثال القريب البعيد الذى يتمثل فى فرنسا، فقد كان هدف الشعب الفرنسي – منذ القرن الحادى عشر – بناء صرح أمة تحت الراية الملكية بحيث تضم تحت لوائها – سياسيا – كل ما تمتد إليه الحضارة واللغة الفرنسية ، أمّا هدفها الأعظم فهو السيطرة على الأرض وليست العقيدة الدينية ، إلا أن العقلانية أصبحت إحدى سمات هذا الهدف القومى منذ عصر إنريك الرابع ، وتمكن العلماء – باستخدام الرواقية الجديدة لعصر النهضة – من قيادة العامة ، وساندتهم الملكيّة فى ذلك ، واعتبارا من ذلك الوقت دخلت الحياة والحوار ضمن إطار عقلانى يشمل الجميع ، كما أن فكرة الكُلّ سوف يقبل بأن السلطة تبدأ من التاج ثم

تنتشر لتشمل جميع المواطنين ، كما أن فكرة الدولة (الملكية المطلقة) وما يمكن أن يطلق عليه بالكلاسيكية الأدبية هما وجهان لنفس الهدف ، تمثل بالنسبة لفرنسا إذن فى معرفة منجزات العقل المستقلة والواضحة وتطبيقها ، فكل سلوك إنسانى ذو طبيعة جمعية لابد وأن يدخل فى أُطُر مرسومة سلفا رغم أن ذلك قد يكلف الكثير من التضحيات ، وما يقول به العلماء وما يجب استبعاده من اللغة لابد وأن ينفّذ وبذلك أصبحت اللغة الفرنسية قابلة للفهم منذ تلك العصور ، وتحول الإنسان إلى كائن متأمل قلّل من اهتمامه بالجوانب الحياتية البسيطة والفردية (٥) ، وسار الفن والحياة العامة على قواعد صارمة ، وذات يوم قالت العقلانية بوجوب قطاف بعض الرءوس بدءا بالملك، وحدث ما حدث ؛ وبعد ذلك تم توحيد التقسيم الجغرافى للبلاد ، وكذلك التربية والتقاليد وأنماط الحياة ؛ إذن نجد أن التاريخ الفرنسى قد عاش وهو يسير على قواعد محددة ، وأصبحت فرنسا بلداً عظيمًا . وعندما يقوم المرء بدراسة وشرح تاريخ بلد مثل هذا فالأمر سهل نسبيًا ، إذ نجد أن الرغبة فى السيطرة قد تحالفت مع الرغبة فى المعرفة، ومن هنا نجد سرّ عبقرية الفكر المعرفى Cognoscitivo (ديكارت) ومن هذا المنطلق أيضا يستحيل أن نرى عملاً فنيا يضم جماع ما هو إنسانى يتمثل فى الفكر المعرفىّ وأمور أخرى كثيرة ، فلا يمكن أن نجد فى فرنسا ما يمكن مقارنته بثربانتس أو شكسبير أو جويا أو مايكل أنجلو

وإذا ما استخدمنا منهجًا مشابهًا يمكننا أن نتأمل تاريخ إنجلترا وباقى الشعوب الأوربية رغم أن ذلك المنهج قد تَعْتوره بعض الصعوبات الإضافية ، غير أن تلك المناهج لا تجدى كثيرا فى حالة التاريخ الإسبانى ، وهنا علينا أن نسير فى طرق أخرى ، وأيا كان الموقف فالبنية الحيوية للشعوب غير الإسبانية (ليس مقصدى هنا معالجة ذلك الموضوع) تصبح محصلة مراحل تم التمسّك بها فى طريق صاعد – عندما يتم النظر إليها اليوم – مع ما يصحب ذلك من رؤية مؤرخ تتسم بالتفاؤل والثقة ، فالمؤرخ ينطلق من حَدْس يقول بأن فرنسا – على سبيل المثال – هى واقع تم الوصول إليه ، وربما أسهم هذا التفاؤل فى المبالغة فى تقييم بعض الأمور التى ربما لم تكن كذلك لو أن فرنسا اليوم كانت أمة فقيرة وغير قادرة ، فعندما يكون المرء قويًا ومسيطراً فكل ما ينطق به هو الحكمة بعينها حتى ولو كان ما يتفوّه به حماقات . وعندما نتناول الأمر

بعقلانية شديدة – أى بشكل مناقض للحيوية – يتضح لنا أن أغلب مؤلفات فولتير مليئة بالنثر والشعر ذوى المستوى المتواضع ، إلا أن فولتير حاز شهرة طبقت الآفاق بالاستناد إلى القليل من مؤلفات له تتسم بالروعة وأصبحت له إمبراطوريته الثقافية فى اللحظة المناسبة ، وهنا ليس من المعتاد إبراز الكثير من النقائص التى تَعْتور الكثير من أعماله ؛ لكن يحدث العكس عندما نجد مؤرخًا من الدرجة الثالثة أو الرابعة يجرؤ على مهاجمة المسرحىّ لوبى دى بيجا Lope de Vega لثرائه الثقافى الواسع وقدرته العجيبة على تأليف المسرحيات وسطحيته وأشياء أخرى يعدّها من النقائص . وقد قلتُ منذ سنوات خلت إن إسبانيا لو كانت تمتلك قدرة عسكرية واقتصادية كافيتين لكانت النّغمة السائدة بين المؤرخين الأجانب قد تغيّرت .

لكن الأمر ظل على ما هو عليه وهذه هى طبيعة الحياة ، وبالتالى ليس من الضرورى اللجوء إلى الافتراضات ، فالموقف الحيوى للمؤرخ ، فى إطار الزمان الذى يكتب فيه ، هو عنصر حيوى من عناصر التاريخ الذى يتم سرده ، فقد أشار سجنر دى برانتوم Seigneur de Brantome– خلال القرن السادس عشر – إلى عظمة الأطباق الإسبانية وحسن الضيافة ، غير أن تلك العناصر لم يرها ثريانتس وآخرون غيره – وهم كُثُر – على هذا النحو ، ولسنا نشعر بالمفاجأة للرأى الحماسىّ لـ برانتوم خاصة إذا ما تعرّفنا على المنظور الحيوى الذى يستخدمه للحكم ، إلا أن هذا لا يعنى الوقوع فى أحكام نسبية ، إذ أنها عندما تكون مطلقة وشاملة يجب علينا البحث عن اسم مغاير ألا وهو التكامل والانخراط الكامل لذلك الكائن فى الحياة التى يحياها والتى تتضمن ما يفكّر فيه .

وإذا ما وضعنا أنفسنا فى إطار ذلك المنظور لأدركنا على الفور أن أفضل كتابة لتاريخ إسبانيا خلال السنوات الأخيرة كانت مُفْعمة ومشروطة بجرعة من الحزن ، وهذه يمكن لنا رؤيتها حتى بين أعظم مؤرخى العصر ، فعندما يتم تأمل ذلك التاريخ نجد هناك رغبة فيما لو أن الأحداث أخذت مساراً آخر عما هى عليه فى الواقع ، ولا يصدر ذلك عن طيش أو حنين يداخل هؤلاء المؤرخين بل لأن تاريخ إسبانيا كان مترعًا منذ قرون مضت وحتى الآن بالرغبة فى اللاحياة والهروب من النفس ، وهنا نجد أن أفكاراً مثل " العظمة " و " الانحطاط " لا تخدمنا كثيراً .

الحياة من خلال ممارسة اللاحياة :

تتطلب دراسة جانب معين من تاريخ شعب أن تكون هناك رؤية متكاملة لذلك الجانب وكذلك القيم المتعلقة به ، غير أن ذلك ليس ضمانًا لقدرتنا على الإجابة على كافة الأسئلة التى تطرح علينا ، والسبب هو أننا نستهدف " الفهم " أكثر من " المعرفة " وقد كتبتُ عن جوانب محدَّدة فى التارخ اللغوى والأدبى والدينى والتربوى للعالم المتحدث بالإسبانية طوال سنوات مضت ، كما طُلِبَ منى منذ فترة التعبير عن أفكارى تلك فى مقال عن عصر النهضة فى إسبانيا ، وهنا أدركت استحالة المهمة الموكولة إلىّ اللهم إلا إذا كان هناك ما يساعد عليها وهو وجود رؤية عامة للثقافة الإسبانية ، ولو لم يكن الأمر على هذا النحو لوقعنا فريسة سرد الطرائف والاعتساف والمبالغة ، وعلى ذلك تحوّل مشروع مقالى عن عصر النهضة إلى الكتاب الذى بين أيدينا ، وأتقدم به دون انتظار لأية مصلحة ، وأقول هذا لأؤكد على أهمية الوضوح الداخلى وعلى قلة اهتمامى بجمع الأخبار وقد سلختها عن الإطار العام ، وهنا يمكن القول – وبحق – أن أحد ملامح العصر الحاضر هى الخلل فى التوازن بين ما " نعرف " وما " نفهم " .

وأول شىء يجذب انتباه المراقب هو أن القشتاليين قد شعروا خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر بضرورة تحديد ماهية إسبانيا ، ومما لا شك فيه أيضا أنهم توصلوا إلى اقتناع يقول بأنهم قد حسموا أمرهم فى كفاحهم ضد الإسلام وأن المستقبل الواعد ينتظرهم على الأبواب ، وفى هذه اللحظة أيضا بدأ القشتاليون – وهم حَمَلَة صوت إسبانيا – يقلقون لشكل وجودهم ، كما أصبحوا مولعين بما كان يجب عليهم أن يفعلوه من أجل الحياة ، وأول شىء شعرت بالمفاجأة له ما قاله ألونسو دى بالنسيا A. de Palencia – عالم الدراسات الإنسانية المعروف – من أن إسبانيا – ١٤٥٩ – هى " بلد لا يميل للتفكير العقلى " كما أن الكتاب الذى وردت فيه هذه العبارة يحمل عنوانًا ذا دلالة ومغزى وهو " اكتمال النصر العسكرى " ؛ وقبل ذلك بفترة طويلة – أى فى عام ١٤٣٤م – ألقى السيد ألونسو د. كارتاخينا A. de Cartagena أسقف برغش Burgos خطابا شهيراً أمام مجمع الأسقفة فى بازل للبرهنة على أسبقية قشتالة على إنجلترا ، ومن خلال الحجج التى ساقها نرى أول وصف لجوهر الطبيعة الإسبانية ، ومن المعروف أن السيد ألونسو كان يهوديا تحوّل إلى

المسيحية وكانت له مكانة كبيرة بين العبرانيين الإسبان ، وبلغ فى التدرّج الكنسى الوضع الذى أشرنا إليه ، وبغض النظر عن الدخول فى تعقيدات هذا الأمر نلاحظ أن ذلك الفقيه القانونى الشهير كان يتحدث وكأنه دبلوماسى شغوف بأرضه ، وقد اشتهر العبرانيون الإسبان منذ قرون عديدة بأنهم خير سفراء للملوك المسيحيين والمسلمين على السواء ، وليس من المُعتقد أن أسقف برغش ألقى بخطابه هذا دون أن يتوفّر لديه الاقتناع الداخلي بما يقول ؛ كانت كلماته تخرج من ضمير ما هو إسبانى كما أن إعرابه عن المزايا وعمّا يزدريه هى نفس السمات التى ميّزت ملامح إسبانيا منذ ذلك الحين وخلال القرون التالية :

> اعتاد القشتاليون ألا يفضلوا الثروة على الفضيلة، كما أن مقياس الشرف عندهم ليس بالمال بل من خلال الأعمال الجميلة (طبقًا لما كان يفعله الإنجليز)، وإذا ما كانت الثروات مقياس الأسبقية لتقدم كوسمى دى ميديسس Cosme de Medicis أو آخرون غيره من أغنياء التجار على أن دوق" (٦)

وهنا نجد أن روح النبل وازدراء النشاط التجارى من الفوارق الجوهرية بين إسبانيا وأوربا الرأسمالية ، ويرى ذلك اليهودى المُغرِق فى إسبانيته ، أن كوسمى دى ميديسيس لم يكن إلا تاجراً حقيرا، وهنا يتجلّى التاريخ وكأنه الأمان الكامل " فالملوك الإسبان – وعلى رأسهم ملك قشتالة وليون – لم يكونوا تابعين أبداً للإمبراطور ، وهذه هى إحدى السمات الفريدة للملوك الإسبان الذين لم يكونوا تابعين أبداً للإمبراطورية الرومانية أو لأى جهة أخرى ، فهم قد انتزعوا ملكهم من بين أنياب أعدائهم " [ص ٢١٤] وهذه ملاحظة دقيقة للغاية ولن نرى مغزاها إلا بعد ذلك . أما من الناحية الاسمية فنجد أن كلا من ليون وقشتالة كانتا استمرارا للمملكة القوطية ، والسبب هو أنها كانت تستمد قوتها الروحية وألقابها السياسية بما فيها الإمبراطورية من سانتياجو (شنت ياقب) ، وهى المكان الذى يضم رفات ذلك القديس ، وقد كانت هذه المدينة بالنسبة لأولئك الملوك على نفس المكانة التى كانت لروما بالنسبة

للإمبراطورية الرومانية المقدسة Sacro Romhno Imperio ؛ ويرى السيد ألونسو دى كارتاخينا أن قوة قشتالة لا تقوم فى الأساس على دعائم مادية بل على المآثر الروحية والجوهرية التى عليها الملكية ، وإلا لما وجد الجرأة على ذكر ذلك فى خطابه والتأكيد عليه وعلى أنه ميزة لإسبانيا أمام إنجلترا وأن " الجليقيين والباسك والقشتاليين هم أمم مختلفة وتتحدث لغات مختلفة " {ص ٣٥٠}. وهنا نجد فكرة ضمنية عبّر عنها جونثالو فرنانديث دى أوبيدو G. F. de Oviedo بعد ذلك بقرن من الزمان ، وتقول الفكرة بأن الجامع المشترك لهؤلاء الناس الإسبان أنهم رعيّة ملك إسبانيا ، كما نرى أن كلمات أسقف برغش تَسِمُ السياسة المستقبلية للإمبراطور كارلوس الخامس ، بأنها سياسة تستهدف نشر العقيدة أكثر من مجرد بسط نظام للمصالح الإنسانية : " ورغم أن السيد ملك إنجلترا قد يشعل حربا لكنها ليست حربا مقدسة كما أنها ليست حربا ضد الكفّار وليست لإعلاء الكاثوليكية ولا لنشر العقيدة المسيحية ، بل الباعث فى ذلك هو أسباب أخرى " {صـ ٣٥٣ }، وعلى ذلك نجد أن العقيدة هى حجر الزاوية الذى تقوم عليه الحياة الجمعية ، وقد أسفرت فعالية الكفاح ضد غير المؤمنين عن الثروة والسلطة وذاع صيت وشهرة الملكيّة التى تقف وراءه :

"لا أريد الحديث عن بهاء المملكة وعظمتها، فلو فعلت ذلك وذكرت أسماء كافة الأمراء لقلت بأنه لا يوجد فى هذا الجزء من العالم الذى نعرفه بلاط مليء بالحركة والحديث فى شئون الحرب ويؤمه الكثير من البارونات والكونتات والكثير من النبلاء وباقى أفراد الشعب مثلما عليه الحال فى بلاط قشتالة" (ص٣٥١)

كان البلاط بمثابة معبد يتم اللجوء إليه للحصول على نفع مادىّ مثلما هو الحال عندما يقوم المرء بزيارة الكنيسة ليحظى بالغفران الإلهى ؛ وكانت حياة النبل والكهانة من الأسس المتينة التى يتدثر بها الإسبانى ، ولما تمكن أسقف برغش من التعبير عن تلك المفاخر ، ما كان من مجمع الأساقفة فى بازل إلا الاعتراف بأسبقية قشتالة على إنجلترا .

أما حجج الإنجليز أمام القشتاليين فهى أن هؤلاء عندهم أرض خصبة وغنيّة ، وهنا يتولى الأسقف الرّد على تلك الحجة : " إننى لم أشأ التعرّض لخصوبة الأرض فتلك ذريعة واهية عندى وبعيدة عن مقصدى ، فنحن لا نتحدث هنا عن العمّال بل عن ملوك غاية فى النبل ، كما لا نتحدث عن خصوبة الحقول وإنما نقول بأن الفضيلة عند الرّجل هى الشرف " {صـ ٣٣٥}.

لقد كان من الصعب على السيد ألونسو أن يهبط بمستوى المناقشة إلى تناول الماديّات رغم أن الإنجليز يريدون ذلك وهنا نراه يقول :

> "الكرم والزيتون نراهما فى كل مكان على أرض مملكة قشتالة إلا أنهما محكوم عليهما بعدم الظهور أبدًا فى مملكة إنجلترا ... أما فيما يتعلق بما يستخلص منهما فنجد أن النبيذ والزيت يرتبطان بخصوبة الأرض وتعرف ذلك كل الأمم ... وإذا ما تحدثنا عن صناعة المنسوجات وعن النساجين فإنهم سيعترفون بأنه لا يوجد نساجون يستطيعون أن يصنعوا نسيجًا رقيقًا مثل النسيج "القرمزى اللندقى" إلا هؤلاء الذين هم على أرضنا إذ أن المتتج يتسم بحسن الرائحة وبها اللون، ويولد هذا فى قشتالة ثم يذهبون به إلى إنجلترا ... يمكننى الحديث أكثر وأكثر عن الماديات غير أننى أرى ذلك نوعًا من التنازل وغير جدير بجلال ما نتحدث عنه" (صـ ٥٣٣ - ٥٣٤).

وأخيرًا نجد أن الثروات تحتل مرتبة ثانوية فهى تساعد على ممارسة الفضيلة لكنها ليست هدفًا فى ذاتها ، وعلى أية حال فقشتالة غنية بشكل ربما يزيد عن الحد لدرجة أن البعض يخشى " أن وفرة الثروة فى قشتالة يمكن أن يكون لها تأثيرها السلبى على الفضيلة " . وحتى تكتمل تلك الصورة الأدبية التى رسمها السيد ألونسو للروح الإسبانية نجده يختتم مفاخره - وليس حججه - بعبارة فيها الكثير من

الغطرسة : لن آتى إلى هذا المكان بشاهد إلا هذه السّفارة التى ترون ، فليس من عادة أولئك السفراء أن يخرجوا من ممالك فقيرة " {صـ ٥٣٦} .

ولا أظنّ أن أيّا من الشعوب الأوربية قد استطاع التعبير عن مكنونه فى بداية القرن الخامس عشر وبهذه الطريقة القاطعة ، فلقد شعرت قشتالة بالحاجة الملحّة للخروج إلى الدنيا وقد واجهت هؤلاء الذين كانوا يبغون التقليل من جدارتها بقوة وصرامة ، واعترفت بأسبقية الإمبراطورية الجرمانية التى تعتبر الاستمرار المثالى لإمبراطورية روما ، وبفرنسا التى هى انبثاق عن الإمبراطورية الشارلمانية ولا شىء بعد ذلك، ومع كل هذا فإن كلمات الأسقف تعكس بشكل غير مباشر رغبة التبرير وحججًا دفاعية تتوارى خلف صلف الهجوم ، وهذا هو ما يظهر من خلال الوثيقة السّرية التى وجهّها فرناندو دى لاتورّى F. de la Torre إلى إنريكى الرابع ملك قشتالة عام ١٤٥٥م عندما كان على وشك تولى مهام منصبه (٧).

ويبدو أن هذه الوثيقة تتضمن أول تحليل نقدى لحياة الإسبان وطباعهم ، وهى أول مقال فى ميدان التبرير العلنى أمام انتقادات الغُرباء ، وهى تلك التى سمعها المؤلف عندما حضر إلى بلاط الملك كارلوس السابع ملك فرنسا ، وهاهى قشتالة تبدأ خطواتها الأولى نحو الشهرة العالمية ، كما استرعت انتباه الممالك الأخرى عندما قرّرت فى عام ١٤٥٣م تنفيذ حكم الإعدام فى القائد العسكرى / ألبارو دى لونا A. de luna وهو ذلك القائد الشهير الذى كان يحظى بتقدير ورعاية السيد / خوان الثانى ، ولقد شعر الفرنسيون بالذهول لما حقّقه ذلك القائد من ثراء مادى وما جمعه من ثروات فى قلعته إسكالونا Escalona ، لدرجة أن ملك فرنسا نفسه لم يكن على هذا القدر من الثراء ، وكان فرناندو دى لا تورّى يتحدث ملء فمه عن الكفاح " ضد أكبر وأعظم مملكة مسيحية وهى فرنسا " ، ولم تكن الوثيقة التى كتبها مجرّد طنطنة خطابية بل كانت وصفا واضحا للسّمات الإسبانية ، إذْ نراه يتحدث عن الثروات الطبيعية مثل الحديد والصلب والصوف والقمح والأنبذة والزيت والفاكهة والزئبق ، وفوق هذا وذاك نراه يتحدث عن " الخيل الرائعة والبغال " ، وللوهلة الأولى نرى أن المؤلف سوف يقدّم لنا تصورّه " للمفاخر الإسبانية " وهو أمر شائع فى العصور الوسطى ، إلا أننا نكتشف

بعد ذلك كيف أن الوطنية تختلط بالموقف النقدى الحديث رغم أن هذا أمر سابق لأوانه كما يجرى الحديث عن البشر وليس عن ثروات الأرض فقط .

كان القرن الخامس عشر قرن الأزمة ، فهناك عالم ما وراء الطبيعة ، وهناك المكان والزّمان (أى الواقع اليومى) وقد كتب ماركيز دى سانتيّانا M. de Santillana قصيدة عن موقعة بونثا Ponza، التى حدثت على أيامه ؛ كما أن قصائد الرّومانث تتحدث عن وقائع معاصرة أو مرّ عليها وقت قصير ، كما اهتمت كتب السّير بالشخصيات المعاصرة (مثل السيد ألبارو دى لونا وبيرو نيينو Pero Ni?o ،والقائد ميجل لوكاس دى إيرانثو M. L. de Iranzo، ولا تتحدث عن الماضى، تحدث] فقط عن الحاضر الذى يشهده الجميع ، ويمكننى أن أطلق على هذه الظاهرة مصطلح " المعاصرة " ؛ ومن هذا الموقف الحيوى يقول لنا فرناندو دى لا تورّى – وللمرة الثانية – شيئًا عن ماهية إسبانيا وكيف تبدو عند مقارنتها بغيرها من الأمم ، ولا أعرف أية وثيقة سابقة على تلك حيث نجد فيها أحد أفراد الرعيّة وقد أعطى لنفسه الحق فى توجيه نصائح لملك إسبانيا بشأن ما ينتظره شعبه منه ، ويستند فى مقولته إلى الوضع الفعلى الذى تبدو عليه البلاد وليس على أفكار مجرّدة تتحدث عن الفضيلة وحُسْن إدارة دفّة الحكم ، وتتحصر نظرية فرناندو دى لا تورّى فى أن قشتالة (التى كانت تعتبر عمليا إسبانيا) تمتلك ميزتين عظيمتين هما : الأرض الخصبة والغنيّة وروح الفداء والقتال ، غير أنه توجد عقبات حادة فى مواجهة هذه الميزات وهى أن قشتالة تعيش على الماضى ولا تعيش على كدّ أبنائها .

> " وليكن ذلك من باب الغرور – وليس مدعاة للفخر أو السطحية إلى غير ذلك من الصفات، فالكثير من تلك الأشياء التى يتم تصنيعها فى أماكن أخرى تظهر (فى قشتالة) بكميات كبيرة، ومع هذا يقومون بتصنيعها هناك بعد أن تكون قد خرجت من قشتالة صورتها الخام، وهناك (فى الخارج) يقومون بإعادة تشكيلها، ثم استخدامها واستهلاكها

(في قشتالة) أكثر من أي مكان في الدنيا، ففي مقاطعة فلاندس ينتجون المنسوجات الحريرية والسجاد والأقمشة الرقيقة، وفي ميلانو يصنعون الأسلحة، أما الحرير ففي فلورنسا، ومن نابولي تأتي سروح الخيل، ويمكنكم الاستغناء عن ذلك أو أن تصنعوه إذا ما أردتم أن يتوفر لديكم، فعندكم حرفيون مهرة، وهناك الكثير من الألوان والأصواف والأعشاب الشهيرة والضرورية، وإذا ما استطاع الناس تصنيعها مثل الفلامنكيين فهذا مبلغ السعادة ، وهناك الحديد والصلب لمن أراد أن يتولى طرقه وإعداده مثل أهل ميلانو، وقد قلنا بأنه موجود ، وهناك الفضة والحرير والذهب، وليت الناس يعرفون كيفية صناعة ذلك ويقومون بنسجه مثل أهل فلورنسا، ومن المؤكد أن ذلك متوفر وهو: الجلود الشجاعة جلود أفضل الثيران في الدنيا[٨]، وليتهم يعرفون دبغها مثل أهل نابول Napol إلى غير ذلك من الأشياء" .

تتسم قشتالة بالجرأة وأنها تمتلك الكثير من الثروات الطبيعية لكنها لا تقوم بصنع الأشياء التي تتطلب الجهد العبقري ، ويلاحظ أن الأسلوب المتواضع الذي يكتب به فرناندو دي لا توري يكتسب قوة عند الحديث عن الخيل .

" فالخيول الرائعة في قشتالة ليس لها مثيل في العالم سواء في القوة أو البنية أو الخفة أو الرشاقة ... وهذا ما لا نجده في خيول بولا Pulla، ومع ذلك فهي أكبر وأعرض ، وعند الألمان خيول ذات رءوس كبيرة وغير متسقة ، وخيول صقلية تختلف عن ذلك إذ لا تتسم بالخفّة كما لا تتحمل مشقة العمل "

ولا يقتصر المؤلف هنا على تعداد المزايا والنقائص إذ نرى أنه يتمتع بعقلية فيها الكثير من الصراحة كما يستخدم أسلوبًا لم يكن شائعًا قبل ذلك بقرن من الزمان ، فى محاولة منه للوصول إلى الأسباب التى تكمن وراء عدم قدرة الإسبان فى ميدان التقنية "وباستثناء خصوبة الأرض [فى قشتالة] أين يمكننا العثور على ذلك الذى نجده لدى الممالك الأخرى ؟ . وعندما يعمل الناس هناك نجدهم قادرين على تحويل ما تقع عليه أيديهم إلى ثروة ومنفعة ، أما فى قشتالة فإن خصوبة الأرض هى التى تصنع كل شىء، ونحن فخورون بذلك لكننا لسنا بالعاملين أو العباقرة " ، وبمقولة أخرى نجد أن الحاجة هى أم الاختراع وأن الوفرة المادّية السهلة هى السّر فى هذا الغرور والكسل ، ولأول مرة يتم الحديث فى عام ١٤٥٥م عمّا سيدور حوله الكلام طوال قرون لاحقة فى إسبانيا وخارجها ، والشئ المثير للانتباه فى هذا الأمر هو أن فرناندو دى لا تورّى يجعل من خصوبة الأرض كأنها شىء سحرىّ ومثير وذلك لإحداث نوع من التعادلية أمام عيوب مواطنيه فى ميدان العمل " فالشجر هنا يمكن أن يثمر فى بعض المناطق أكثر من ثلاث مرات فى العام بالمقارنة بذلك فى أى مكان آخر " ، وهاهى قشتالة تنتج ما يكفيها بينما يستورد الآخرون ما تنتجه ، غير أن فرناندو دى لا تورّى يكتب من موقع دفاعى رغم الحماس الذى يبديه ، فهو يشعر بالفارق بين إسبانيا وباقى شعوب أوربا ويشعر بأنه يتعرض لهجوم فيقوم بهجوم مضاد ، ولأول مرة يتم طرح ماهية الكيان الإسبانى وتقييمه ، وهى مشكلة لازالت ماثلة أمام أعيننا حتى الآن ، ويجمع دى لا تورّى بين خبرات الحياة اليومية وبين الإحساس بالألم لأنه عاجز عن فهم هذه الوضعية الثقافية : العظمة وقلّة العمل .

ولسنا نقول بأن ذلك الناقد كان متشائمًا ، فإذا لم تكن العظمة الإنسانية فى المهارات والثروات الصناعية والتجارية فإنها كذلك بروحها ومفاخرها " فإذا ما قرأتم الحكايات والتاريخ الرومانى لوجدتم أن قشتالة قد أنجبت رجالاً كانوا أباطرة روما ، ولم يكن رجلاً واحدًا بل كانوا سبعة ، ونحن اليوم نرى قادة عظامًا فى أماكن مختلفة مثل إيطاليا وفرنسا وغيرها من البلدان الأخرى " (٩) والنّغمة هنا تبدو إمبراطورية وقد أعلنت عن المفاخر الكبرى التى سوف تحدث فى القرن التالى ، وكان فراى دييجو دى

بلنسية F. D. de valencia قد تحدّث قبل فرناندو دى لا تورّى عن أنه إذا ما اتفق أهل قشتالة فيما بينهم :

فلست أعرف أى ركن فى الدنيا

إلا وقد غزوه بما فى ذلك غرناطة .

وبعد ذلك بقليل نرى جومث مانريكى G. Manrique [1468] وهو يعلن عن رغبته فى أن يقوم الأمير ألفونسو " بغزو ثيتارا Citara وما وراء البحار وكذلك أمم البربر " (١٠)؛ نجد أن الإمبراطورية الإسبانية التى أسّسها كل من فرناندو وإيزابيل لم تولد صدفة بل كانت حميمة الصلة بنمطية الحياة القشتالية التى كانت واعية بما تفعل فى مواجهة الأمم الأوربية الأخرى ، إنها أرض الثيران القوية والخيل ذات القلب الحديدى والعيون النارية والرجال الذين أثاروا دهشة الآخرين بإقدامهم وجرأتهم ، ماذا بقى إذن ؟ إن الشجاعة هى إحدى الصفات التى لا تقف عند آفاق معينة أو حدود ، إنها تبحث عن المطلق فى الزمان والمكان ، وهذا هو عكس ما عليه العقلية التى تفكّر وتحسب وتخرج النتائج ، لقد كانت قشتالة تشعر – ونحن فى منتصف القرن الخامس عشر – بالثقة فى قدراتها وفيما تريد ، وكانت تطمح للوصول إلى القوة المطلقة ، أى غزو Citara وما وراء البحار ، فالإمبريالية القطلانية – الأرغنية فى البحر المتوسط لم تقم خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر بالمهام التى ترضى الهِمَمْ العالية والتى لا تقبل بإدخال تعديل عقلانى على العالم المحيط الذى نشأت فيه ، وسوف نرى بعد ذلك السبب الكامن وراء ما حدث ، فما تصبو إليه قشتالة هو النفير الذى يوحد الهِمَمْ ويأمر بالبدء فى الهجوم ، ومن هنا ندرك السّر فى إقدام دى لا تورّى – المتعطش للمغامرات – على إسداء النصح إلى صاحب الحظ العاثر الملك إنريكى الرابع ، إذا كانت قامته أقل من طموحات أرض تصبو إلى القيادة والسير إلى العلا ، ويرى ذلك الناصح أن الملكية القشتالية يمكن أن ترنو إلى غايات كبرى على أساس عدم مشاركة السادة وعلية القوم فى سلطانها مثلما هو الحال فى فرنسا فهو العاهل وأساس العدل فى تطبيقه على الجرائم والحياة المدنية ، ورغم أن بعض الشعوب الأخرى قد أعطت كل ذى حق حقه بحيث يشمل الدوق والماركيز والكونت وباقى الأثرياء ، فإن السيادة ظلت تابعة دائمًا

للتاج " ، فالملك الفرنسي يفتقر للسيادة على دوق بورجونيا Borgona ، ويحصل منه على ما يتراوح بين ٧٠٠ و ٨٠٠ رمحاً في حالة الحرب ، وجيش قشتالة هو إذن قوى العدد والعُدّة " فلا يوجد جنود مثل هؤلاء على هذه الدرجة من الاستعداد " كما أنه كان الجيش الوحيد الذى " على أهبة الاستعداد دائما " رغم أنه قد لا تكون هناك حالة حرب ، وهذا معناه أن التّفرد الإسباني كان ملحوظًا منذ القرن الخامس عشر ، ويتمثل في الإبقاء على الجيش فى حالة استنفار دائم ، ولقد تمكن فرناندو الكاثوليكى من استغلال تلك السّمة وأمكنه القيام بالتوسّعات فى أوربا ، وقد تنبأ دى لا تورّى بأن الأسلحة القشتالية " يمكن أن تدمر الأراضى القريبة وكذا البعيدة إذا ما استعدت لذلك باللجوء إلى العمل وتوحيد صفوفها " ، ولن يحدث هذا " بسبب الآثام والمفاخر التى توجد فى قشتالة " ، ولو كان الأمر كذلك لوجدنا أن الملك الشاب إنريكى الرابع قد وضع " تحت إمرته الملكية مملكة غرناطة " ، هذه الرغبة الجامحة فى وجود قائد يتولى الأمور سوف تكون بمثابة النبوءة التى تتحقق مع قدوم الملوك الكاثوليك .

وهنا نجد أن دى لا تورّى يتولى وصف بنية النظام الملكىّ من الداخل مثلما فعل سابقا ووصف لنا الثروات الطبيعية فى إسبانيا فالبلاط غنىّ وفى ظلّه يعيش " عدد غفير من الناس ممّن لهم مناصب دائمة حتى فى زمن السلم ... وهناك الكثير من الطعام والبُسُط والأوانى ... وهذا أمر ظاهر للعيان ، والأمر كذلك بالنسبة لبعض العوام الذين يحظون بالرعاية والعناية وهذا شيء يثير الدهشة " (١١) .

ومن لا يشاركون فى هذا الازدهار – وهم كُثُر – نجدهم " يطوفون فى كل مكان ، ولا يقتصر التطواف على البلاط بل يشمل أماكن أخرى مثل المدن والأراضى ، وعددهم لا يحصى ، إنهم لا يسرقون أو ينهبون أو يرتكبون المعاصى ، ومع هذا يعيشون على خصوبة الأرض "؛ من الواضح إذن أن دى لا تورّى أراد أن يَسْخر الفرسان الفرنسيين الذين كان يحارب معهم فى بلاط كارلوس الرابع ، فقام برسم صورة وكأنها العصر الذهبى ، إذ كان يتحدث عن أناس يهيمون على وجوههم ويعيشون على ما تغلّه الأرض، ومثلما هو الحال عند الحديث عن غيبة التقنية والصناعة نجده لا يفصل بوضوح بين الإطراء والفخر بما تملك إسبانيا وبين الشعور بالمرارة لأنها لا يتوفّر لديها ما لدى الآخرين ، ويضيف دى لا تورّى قائلاً عن هؤلاء الكسالى الذين يجدون قوت

يومهم " أعتقد أنه لا يوجد مكان فى العالم يعيش فيه الجميع ، وخاصة فى فرنسا ، على أساس اتباع قواعد العقل (١٢) ،فى منازل السادة ، أما فى الخارج فهم يعيشون من خلال المعاملات وممارسة المهن " أى بفضل العمل والتجارة .

وفى منتصف القرن الخامس عشر أصبح لإسبانيا ملامحها الخاصة بها وهى تلك التى ستكون طابعها خلال القرون التالية : أى كثرة موظفى البلاط ومعهم النبلاء وكذلك الكنيسة ، وكانت الحاجة للقيام بدور اجتماعى لصيق بالطابع الإسبانى هى التى تدفع النبلاء لأن يحيطوا أنفسهم بالكثير من الخدم والحشم ، وهناك إحصاءات دقيقة تتضمنها رسالة فرناندو دى لا تورّى ، فنائب الكونت الفرنسى يبلغ دخله خمسة عشر ألف كورونا وقد قام وبرفقته عشرة رجال مسلحون بحصار كاديلاك Cadillac ، أما فى زمن السلم فإنه لا يحتفظ إلا بعشرة من الخدم " كما أن الجميع يأكل فى قاعة الملك " ، " ونتساءل : أى فارس قشتالى يحظى بثلث ذلك الدخل ولا يحيط نفسه إلا بثلاثة رجال مسلحين وستة آخرين يعولهم ثم يذهب جميعهم لتناول الطعام فى حضرة الملك ؟ " ، ولأسباب سوف نتحدث عنها فيما بعد نجد أن الفارس الإسبانى كان فى حاجة إلى أن يحيط نفسه بهالة من المهابة والتديّن والملكيّة أو الشرف ، كما كان فى حاجة للشعور بأنه يدخل إطاراً ما ورائيًا وأسطوريًا وكأنه شعاع هبط على الأرض ، ومن هنا يمكن أن نفهم سرّ ازدرائه للأعمال التقنية والتجارية أو غير ذلك مما يتطلب إعمال العقل إعمالاً كاملاً ، وهنا أسوق فكرة مسبقة وأقول بأن دى لا تورّى مثال واضح على ما سوف أطلق عليه " التكامل الإسبانى Integralismo Hispanico" فالوحدة الحيوية التى يلاحظها بين الصّيت الملكى وجرأة الفارس والثروات الأسطورية التى فى الأرض تملؤه بالرضا والغبطة ، إذ أن العيش فى قشتالة رخيص ويمكن الحصول على الكثير بالقليل من المال وهذا عكس ما عليه الحال فى فرنسا " فمن أين يأتى ذلك إلا من خلال النبلاء وخصوبة الأرض ؟ وأى أرض أكثر وفرة وإجادة بالخيرات من أرض قشتالة ؟ ومن المؤكد أن دوق بورجونيا قد استطاع الحصول على ثروات ضخمة فى فلاندس Flandes" غير أن تلك الأرباح ليست وليدة ممارسة الخداع ونقل السلع وما يترتب على ذلك من حقوق ، إلا أنها لا تَنْبتُ هناك إذ يأتى بها الألمان ويحملها الإيطاليون ، ويرسل بها القشتاليون " ، إذن نجد أن نقل السلع يجعل المرء

بعيدا عن أرضه ويصيبه بالشّتات ويباعده عن الطبيعة ويوقعه فى الغش ، وفى ثنايا هذه الشقوق تسقط البذور التى ستنبت بعد ذلك وتخرج علينا بأحلام العصر الذهبى والمتمثلة فى التقليل من شأن البلاط والتغنّى بالحياة فى الريف والرواية الرّعوية وفزع دون كيخوته من استخدام الأسلحة النارية ، وهؤلاء الذين لا يعتمدون بالكامل ، فى حياتهم ، على ما تنتجه الأرض فإنهم يخسرون أنفسهم وتتهاوى كياناتهم ، وهنا يصبح ما هو إنسانى متوافقًا مع الفكرة عن الأرض ومع الشعاع السحرى للإيمان

فلا يوجد قائد

دون أن يكون هناك فلاّح .(١٣)

وتوزّعت الروح الإسبانية بين الأرض التى أخذت هالة القدسية وبين السماء التى أضفى عليها طابع الإنسانية ، وقد رأينا كيف أن دى لا تورّى يؤسس افتخاره على " خصوبة " الأرض الإسبانية ، وكان العرب قبله يؤكدون على نفس الأمر ألا وهو خصوبة الأرض فى الأندلس ويلفّونها بحنان كحنان الأمومة ، وهى مشاعر تعلو على مشاعر حب الثروة ، فقد جَرَتْ مقارنة بين أرض أشبيلية وأرض سوريةمن حيث غزارة الإنتاج وأن كل " ما يبذر فيها ينبت وينمو ويصبح يانعًا " وفى بعض الأماكن الأخرى تنبت أشجار الفواكه دون أن يتم استزراعها ورعايتها اللّهم إلا تسميد الحقول (١٤) ؛ ومن خلال وصف قام به شخص مجهول الاسم ، من ألمرّية ، لإسبانيا القرن الثانى عشر نرى أن سرقسطة " بها الكثير والكثير ولا يغيب عن أرضها شئ سواء من الفواكه أو القمح ، وقد رأيت قمحًا عمره أكثر من مائة عام وكذلك الكروم فى عناقيده منذ حوالى ست سنوات ، كما أن الحبوب والأنبذة والفواكه وفيرة لدرجة أنه لا يوجد على ظهر البسيطة أرض أكثر خصوبة من تلك الأرض " (١٥) وما يفتقده كتاب **Loor de Espana**– "مديح إسبانيا" هو تلك المِسحة السحرية والأسطورية ، وهو مُؤَلَّف يرجع إلى العصر القوطى كما قام الملك ألفونسو العالم **A. de Sabio** بإدراجه ضمن كتابه التاريخ العام "**Cronica General**" فالوديان والسّهول ... بها الكثير من الثمار المتنوعة ... وإسبانيا غنية بحبوبها وفواكهها " {صـ ١١٣} كما لا نرى تلك الارتعاشة الصوفية

المشرقية ، إلا أن ليون العبرانى Leon Hebreo اليهودى الإسبانى الذى عاش خلال القرن الخامس عشر يرى أن الصفات الإلهية تبدو لنا من خلال العناصر المختلفة :

" إلا أنها لا تتأكد إلا على الأرض ويتمثل ذلك فى خصوبتها ووجودها فى منطقة مركزية حيث تسلط عليها جيداً أشعة الشمس، أى أن تلك هى زوجة الجسد السماوى ، وما العناصر الأخرى إلا وصيفاتها ، فمن خلالها تنجب السماء أغلب ما تريد، أما هى فتتزيّن بالكثير " (١٦)

ويأتى الارتقاء الجنسى بالأرض ، رغم جذوره التى تضرب فى الفلسفة الأفلاطونية الجديدة ، ليؤكد منهج التفكير والإحساس الإسلامى اليهودى .

وإذا ما قمنا بجمع كل الموادّ التى تتحدث عن الأرض فى الأدب الإسبانى لأضحى ما نقول جليا ، ولعرفنا السّمات والأسلوب المستخدم ؛ ومن الأمور المألوفة أن يفكر أحد المتخصصين فى الدراسات الإنسانية – مثل خوان خنيس دى سيبولبيدا J. G. de sepulveda – فى أن الزراعة " هى من أشرف الأعمال وأقربها إلى الطبيعة وهى مهنة تقوّى الجسد والعزيمة وتجعلهما مهيأين للعمل والقتال : ويصل الأمر – فى هذا المقام – إلى أن بعض القدماء فضلوا العمل فى الحقل على التجارة ، كما أن الرومان قد أخذوا من الحقول الكثير من القناصل والحكام " (١٧)

كما أثنى لوبى دى بيجا هو الآخر على خيرات أرض إسبانيا ، وكان فى ذلك على نفس الإيقاع الذى كان عليه المسلمون خلال العصور الوسطى

هى الأرض الخصبة التى لا تتعب
من إنتاج الحبوب والفضة والذهب ..
ما رأيك يا سيّدى فى هذه الأرض ؟
ألا يسعدك النظر إليها

وإلى زروعها اليانعة والجميلة

والمليئة بالعديد من الفواكه والأشجار ؟

ألا تفخرون بمشاهدة هذه العظمة ؟ (١٨)

كما تظهر الأرض فى صورة الأم الروحية alma mater الجديرة بكل الاحترام إذ يقول أحد العرقى فى " طُعْم فينيسا " : El anzuelo de Fenisa

أعرف أن الأرض فى انتظارى

أتشوّق لتقبيل الأرض

الأرض هى الأم فى النهاية

وهى تغذّى مثل الأم

وقد كانت حياة الريف أحد الموضوعات المهمة فى مؤلفات لوبى دى بيجا خاصة ، وكذلك فى الأدب الإسبانى عامة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وليس معنى هذا أن الرؤية تسير على منهج فيرجيل أو أن عصر النهضة كان يتجه إلى إطراء الطبيعة والعصر الذهبى ، بل إن العامل الزراعى بدا وكأنه يقوم بزراعة أرض سحريّة وأبدية وإلهية تعطينا الفواكه والنبيذ وكأنها نظير السماء التى تتنزّل منها الرحمات بفضل هؤلاء الزرّاع الإلهيين الذين لا نراهم رأى العين ؛ إذن فالإسبانى المسيحى – خلال العصور الوسطى – كان يزدرى الأعمال الميكانيكية والعقلية وتلك الأخرى التى تخلو من الغموض أو عدم وجود بُعدٍ خالد يرفع من قيمتها ويصعد بها إلى مصاف السماء والأرض ، وتضافرت أهمية العامل الزراعى وكل ما هو ريفى فى الحياة ومجال الآداب الإسبانية مع الهيمنة الكهنوتية ، وتم الوصول إلى حل للتعارض بين السماء والأرض من خلال الإيمان ، وإذا لم تكن لدى الإسبانى فكرة عن الأرض تتّسم باللانهائى والجوهرى لما استطاع ماتيو ألمان Mateo Aleman– اليهودى الأصل – أن يكتب تلك العبارات الجديرة بالإعجاب :

" كانت هناك صعوبة دائمة فى طريق العثور على صديق صدوق وأمين ... وقد وجدت واحداً له نفس طبيعتنا وهو أفضل صديق وأكثر الناس صراحة ، كما أنه صديق حقيقى للجميع ، كما نجده عندما نحتاجه ولا يخذلنا أبداً كما لا يملّ من عطائه لنا ، هذا الصديق هو الأرض .. فهى تسمح لنا بأن نفعل كل ما نريد وتتقبّل منا المعاملة الطيبة والرديئة ... ولا تبوح بكل ما نبشها من أسرار ... وكل خير بين أيدينا هو من الأرض ، فهى تجود به ، وبعد أن نموت ويوارينا التراب ويذهب عنا الأب والابن والزوجة والأقرباء والأصدقاء ، ولا يريد أحد البقاء إلى جوارنا ويودّعنا الجميع ، بل ويهربون منّا لا نجد إلا الأرض التى تحمينا وتأخذنا فى بطنها وتحافظ علينا كوديعة حتى نعود من جديد الى الحياة الأبدية "

{جوثمان دى ألفَرَجى – الجزء الثانى ٢ ، ١}

أما فيما يتعلق بمفهوم الوطن ، أى أرض الآباء والأجداد فإن النّغمة تتّسم بالتكثيف والقوة عند الحديث عن أرض الأجداد ، ويرى لوبى دى بيجا – ذلك المؤلف مرهف الحس – أن عظمة الإمبراطور كارلوس الخامس – حفيد الملكين الكاثوليكيين – لا ترجع إلى مولده فى بلد آخر :

" فلو كان الأمر ممكنًا لأضحى من المستّحب محاولة أن يولد المرء فى فرنسا ويعيش فى إيطاليا ويموت فى إسبانيا ، فمحل الميلاد هو أساس النبل فى فرنسا ذلك البلد الذى كان ملكها

من الأمّة ، ولم يختلط دمه بدم آخر ، أما العيش فيكون فى نطاق الحرية والخصوبة فى إيطاليا ، وإذا ما كان على المرء أن يموت فى سبيل العقيدة فإسبانيا هى البلد الكاثوليكى الحقيقى والصادق " (١٩)

كانت إسبانيا إيمانا وعقيدة يغذيها كل من الحياة والموت والسماء والأرض ، وكانت الأرض التى تقام فيها الشعائر المسيحية ، هى أرض الغلال التى يُصنع فيها الخبز المقدس ، وقد كتب كالديرون Calderón عملاً معقّدا فيه الكثير من التورية ، وقام بتقديمه فى قرية ييبس Yepes أمام جمهور من الفلاحين الذين يحبون الأرض ويجدون أسباب الخلود فى أحضانها ، وهو نوع من الخلود يختلف عن الخلود السماوى رغم أنه يتفق معه من منظور اللانهائى ، وعنوان هذا العمل " العملاق السّحرى " El mágico Prodigio ، ويتكون نسيج العقيدة الإسبانية من عناصر كثيرة ، ونجد أن الأرض تحتل مكانة مهمة ، ومن هنا نجد هناك مزجًا بين ما هو ريفىّ وما هو ملكىّ وإلهى على خشبة المسرح خلال القرن السابع عشر ، وهذا ينطبق على المقولة الشعبية التى ذكرناها من قبل " إما البلاط وإما الأبعدية " ؛ ويتسم أونامونو بأنه أحد أبرز الكتّاب الذين يدركون حقيقة الكثير من السّمات الإسبانية ، ففى عام ١٩٢٧م قال بأنه " لا توجد شعوب كثيرة على هذه الأرض – المقدسّة أو الشيطانية إن شئنا القول فالأمر عندى سيّان – إلا وتركت الأرض عليها بصماتها القوية مثل الشعب الإسبانى " ، فإسبانيا هى " تلك الأرض التى تستظل بالسماء ، وهى هذه الأرض المليئة بالسّماء ، وهى الأرض التى تحوّلت إلى جسد ولهذا فهى الرّوح " ، وهذه المقولة ليست من باب القول الحسن بل هى تعبير عن جوهر الحياة وأكثر واقعية وعمقا من ذلك الوصف الذى نجده فى كتب التاريخ ، وقد برهنت هنا على أنه يَستكِنّ خلف هذه العبارات الجميلة عشرة قرون من الإنسانية المتعطشة .

لم ينطق فرناندو دى لا تورّى إذن إلاّ صدقًا ، وهو أول إسبانى حاول التأمل بجدّية بشأن وطنه انطلاقا من الأرض وواقعها وواقع سحريتها ومشاعره الذاتية ، كما

أن ناصح الملك لم يكن يجهل الثمن الذى يجب سداده حتى تكون قشتالة مثلما كانت ، إذ كان دى لا تورّى ينتظر ويأمل كل شىء من الملك الشاب ، فرغم " خصوبة الأرض " لابد من انتظار هبوط حلّ من السماء لمواجهة المصاعب التى تمرّ بها إسبانيا ؛ وهذا الإسبانى الذى عاش خلال القرن الخامس عشر هو أول رجل يتأمل أحوال وطنه وهو يشعر بالرّضا ويوجّه انتقاداته المرّة ، ولقد استمر هذا الخط وذلك القلق بشأن الوجود الإسبانى ابتداء من القرن الخامس عشر وحتى اليوم ، واعتمادًا على هذا أرى أن على التاريخ شرح تلك الظاهرة الجوهرية وهى : وجود نمط من أنماط الحياة تكمن مشكلته الجوهرية فى اللاأمـان والكدر عند تأمل الوجود الذاتى، وكذلك عـدم اتضـاح الأمـور والعيش فى ظلّ الحذر المشكوك فيه ، لكن سوف يقال إن هناك شعوبًا أخرى بما فيها تلك التى تعيش حالة ازدهار وتقدم ، لم تكن بمعزل عن سوط النقد الذاتى وعدم الرضا ولو كان ذلك لوقت وجيز ، إلا أننا يجب أن ننظر إلى تلك الأصوات النقدية عند تلك الشعوب بأنها كانت مهمشية بالمقارنة بمجريات الحياة اليومية الجمعية التى تسير فى خطها المرسوم لها دون أن تلقى بالا للتحذيرات والصّرخات التى توجّه إليها من الشاطئ ، لكن الوضع فى إسبانيا يختلف ، وكأننا بالنهر يتساءل دومًا فيما إذا كانت مياهه تسير بالفعل فى المجرى الذى يجب أن يكون أم لا؟ .

ولو أن كتابى هذا قد ظهر قبل نصف قرن من الآن لنُظِر إليه بأنه تعبير عن التشاؤم، وربما أدى إلى أن ينظر القارئ - باستغراب أو بشفقة مثيرة للكثير من السخرية - إلى تلك الثقافة التى تمثل ملمحها الأساسى أنها لم تمتلك الثقة بنفسها. إلا أن الاعتقاد السائد منذ خمسين عامًا هو أن الشىء الوحيد الذى له قيمة هو ما ينحو نحو الوضوح ونحو التفاؤل ، وأن نظام الحياة فى الغرب ينطوى على ثقة تتجه إلى التقدم الذى لا تحده حدود. واليوم نعرف أن الأمر ليس كذلك، بعد أن عشنا تجارب مأساوية جدا ، ونعرف فضلا عن ذلك أن هناك أشكالاً من الفن ومن الحياة الراقية جدا ويرجع ذلك فقط إلى وجود حالة إشكالية جذرية ومثيرة للألم. وأيا كان الموقف فالملمح الحيوى لإسبانيا يمكن تفسيره بأنه غير تشاؤمى ولا يثير الاكتئاب ، ولو كان الأمر كذلك لكنا قد رفضنا قراءة التاريخ وفهمه ، كما أن هذا ليس له علاقة بالعملية التعليمية ، ففهم التاريخ يتطلب الانخراط فيه وأن ينتزع المرء من نفسه رداء

الشعور بالوطنية والشعور بالمرارة وخاصة إذا ما كانت هناك حياة تاريخية معينة تتسم بعدم الثقة وهنا أيضا يجب على المؤرّخ أن ينزع عن نفسه كل إحساس بعدم الثقة وأن يقبل بما حدث ، فى عظمته أو انحطاطه ، وأن يفكر فى ماهية كليهما ، وإذا ما كانت إسبانيا قد انخرطت فى طريق الثقافة العقلانية والرّخاء المادّى والسّلمى لما رأينا على أرضها أعمالا اكتسبت الصيغة العالمية ابتداء بقصيدة أو ملحمة السيد وانتهاء بالمؤلفات الموسيقية لفايّا Falla.

يجب أن نفترض أن القارئ يعرف جيدا تلك الجدلية المتعلقة " بالأسطورة السوداء " أو " الأسطورة البيضاء " ، فهذا لا يعنينى طالما أنها أساطير. وعلينا أن ننتقل من القرن الخامس عشر ونصل إلى وقتنا الراهن ، وذلك لكى نتحدث عن دراسة مهمة للغاية تتعلق بتاريخ إسبانيا نُشرت منذ حوالى عشرين عامًا ، ففى عام ١٩٢٢م صدر كتاب " إسبانيا المفككة Espana Invertebrada لخوسيه أورتيجا إى جاسيت [٢٠] ؛ وتقول نظرية ذلك المؤلف بأن إسبانيا لا تعانى مرضًا عضالاً فحسب بل إن وجودها هو وجود باثولوجى بشكل راديكالى [صـ ٨٠٠]، وسبب تلك الآلام يرجع إلى زمن القوط الذين سيطروا على شبه جزيرة أيبيريا منذ القرن الخامس وحتى عام ٧١١م وهو تاريخ الغزو العربى ، ولقد كانت سلالة القوط من أضعف السلالات الجرمانية ، فهى ليست سلالة مليئة بالحيوية الدّافقة مثل الفرنجة (الذين هم أساس الأمة الفرنسية) ، واتّسم القوط بالضعف وافتقروا إلى " وجود الصفوة " والتى بدونها لا توجد ثقافات جديدة [صـ ٨١٩] ، وقد قُضى على هذا الشعب الذى يشبه الطيف فى الضعف والوهن إذ قضى عليه بمجرد أن " هبت عليه رياح أفريقية " ؛ وبعد ذلك بدأت عملية الاسترداد Reconquista التى استمرت حتى عام ١٤٩٢م وانتهت بدخول الملكين الكاثوليكيين غرناطة ؛ " إننى لا أفهم أبدا أن تطلق لفظة الاسترداد على أمر استمر ثمانية قرون " [صـ ٨١٩]، ولما كان القوط يفتقرون إلى أقليات متميّزة سادت شبه جزيرة أيبيريا تكتلات ثقافية تتسم بعدم الانصياع وأنها متمردة على تدخل هذه الأقليات المتميزة ، " فلم يكن من بين هذه الأقليات من هم على درجة عالية من الكفاءة كما لم يكونوا كثيرى العدد " [صـ ٨٢٠]؛ نحن إذن أمام بلد مريض وظيفيا ، كما أن إسهاماته الكبرى كانت عملاً شعبيًا مثلما هو الحال فى استعمار أمريكا ، " أما الاستعمار الإنجليزى فكان

نتاج عملية مدبّرة سلفًا تولت أمرها أقلية متميزة سواء على الصعيد الاقتصادى أو على مستوى قيام مجموعة معينة باختيار أرض جديدة يتم فيها التقرّب إلى الله بشكل أفضل " {صـ ٨٢٢}، ورغم كل ذلك " أسهمت إسبانيا ، سواء بشكل جيد أو لا ، فى صنع تاريخ الإنسانية ، وهى واحدة من مجموعة الأمم الأوربية الغربية التى أدت دورًا مهما فى تقديم نموذج الحكومة العالمية " {صـ ٨٢٣}، إلا أن البلاد تعانى من مرض عضال ، فهناك كراهية " لكل شخص متميّز والسبب هو ما عليه من تميز " {صـ ٨٢٥}، والأسوأ من هذا أن إسبانيا لم تتوفر على عدد كاف من هذه الصفوة المتميزة ، ولو كان الأمر كذلك لكانت هذه الكثرة فى عدد الصفوة كافية لإحداث نوع من التعادلية مع تلك الجماهير صعبة المراس " {صـ ٨٢٥}، ومن هنا نجد أن الجماهير المتمرّدة لا تفعل شيئًا خلال قرون عديدة اللهم إلا الهدم والتفكيك ودغدغة البنية القومية {صـ ٨٢٦}... الخ .

وتسيطر على الكتاب من بدايته وحتى نهايته تلك النغمة الحزينة والساخطة ، كما يعرف الجميع أن أورتيجا هو واحد من أبرز الكتاب والمفكّرين فى ميدان اللغة الإسبانية ،كما أن مؤلفاته تحظى بتقدير واهتمام عالميين ، ولأبحاثه فى الميدان الفكرى الخاص بالمتحدثين بالإسبانية نفس التأثير الذى كان للشاعر روبين داريو R. Dario على الشعر الإسبانى فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وقد جلبت عليه أنشطته فى دائرة الحياة العامة الكثير من العداوات ، غير أنه مع مرور الزمن – وعندما يتم التغاضى عما هو غير جوهرى – سوف نرى بوضوح إسهاماته الفريدة والتى تعتبر الأولى من نوعها منذ عصر لويس بيبس { L. Vives توفى ١٥٤٠م}، وأريد بذلك القول أنه منذ وفاة هذا الأخير لم يظهر على الساحة الإسبانية مفكر على صلة قوية بمشاكل عصره ، كما أن كتاب أورتيجا الذى نتحدث عنه يعتبر من الأعمال الصغرى التى جاءت على عجل ضمن إنتاجه الغزير ، وهو عبارة عن سوط قوى يستهدف بعث الثقافة الإسبانية من جديد ، وهاهى قد بدأت تظهر عليها بوادر النهضة من جديد منذ عام ١٩٢٠م، وكان مطمح أورتيجا هو تغيير إيقاع الزمان فى مشتل الشكوى ذات الطابع الغنائى الشعرى ، ومن هنا أرى من غير المناسب تقييم دقة آرائه بشأن القوط أو حرب الاسترداد ، ومن غير المناسب أيضا النقاش حول ما إذا كان

محور التاريخ يمكن أن يكون عملية رفض – أى غيبة الأقليات المتميزة وتمرّد الجماهير – أو أن مجرد سيطرة جمهور يتسم بالغلظة يمكن أن تفسر لنا استمرار القيم الكبرى التى ظلت ابتداء من العصور الوسطى حتى وجدنا أمامنا النثر الغنائى والأيديولوجى لأورتيجا . لكن الأمر المهم لا يتمثل فى اشتمال الكتاب المذكور على ما يسمى " التعارض المضاف " Contradictio in adjecto بل هو حالة أخرى تضاف إلى ما نطلق عليه " العيش فى اللاعيش " والذى نعتبره ملمحًا جوهريًا فى التاريخ الإسبانى ، ويتضمن هذا الكتاب أحكامًا مطلقة وهدامة ترتبط بتراث العدميّة ، إذ كتب أورتيجا يقول بأن الناس فى إسبانيا " تكره كل شخصية متميزة " كما أن كيبيدو Quevedo قال معلقًا على طرد الموريسكيين فى عام ١٦٠٩م : " وعمومًا فإذا ما كان المسلمون الذين دخلوا إلى إسبانيا عام ٧١١م قد تركوها بدون بشر لأنهم ذبحوهم جميعا ، فهؤلاء الذين طُردوا تركوها بدون بشر لأنهم خرجوا ؛ الدمار إذن هو دمار نابع من الذات والفارق هو فى حمل السكين فقط [Chiton de les tarabillas] ، نرى إذن أن كيبيدو ذهب إلى أبعد مما ذهب إليه أورتيجا الذى كان يشعر بأن إسبانيا ألم لا شفاء منه ، أما كيبيدو فيراها خواء ليس بها شىء بما فى ذلك البشر ، نرى أيضا هذه الرؤية العدمية للواقع الاجتماعى فى كتاب " الناقد اللوذعى " el Criticon لبلتسار جراثيان B. Gracian (١٦٥٧) حيث يُلاحظ أن أبرز موضوعات الكتاب هو كراهية السوقة أى من يطلق عليهم اليوم لفظة " الجماهير masa" فالسوقة تعنى اجتماع ثلة [٢١] من الجهلة المتعالين الذين يتحدثون كثيراً عن الأمور التى تقل درجة فهمهم لها "[الثانى – ٥].

ويتوجه جراثيان أكثر من مرة إلى السوقة وينعتهم بالكثير من الصفات " فهم بربر وأغبياء وكثيرو الكلام وفيهم من القذارة واللؤم والحقارة والفوضوية وعدم الإيمان والكذب "{ الثانى – ٥} ، ويرى المؤلف أن الأمر الخطير " هو أن الرجال من ذوى الأصول الرفيعة والسلالات العريقة وأصحاب المنازل المنيفة يمكن لهم أن يفعلوا الكثير إذا ما تضامنوا ، وعندما يتكاتف الجميع سوف يؤثرون فى كل شىء ، لكنهم يودون لو أفسدوا كل شىء وأن يُدفنوا أحياء فى بحر العدم " {الثالث – ٨}، لكن هؤلاء المتميزين إذا لم يفعلوا شيئا فليس جزاؤهم عند جراثيان إلا السقوط " فى بحر العدم "؛ ويرى

كلٌ من كيبيدو وجراثيان أن العالم المحيط بهما هو عالم الشخصيات القزمية والظلال الباهتة .

كما سبق فرنان بيريث دى جوثمان F. P. de Guzman كل هؤلاء حيث نجد فى كتابه " شخصيات وأجيال " {١٤٦٠هـ} مفاهيم تسبق النظرية التى قدمها أورتيجا بعد ذلك بشأن الحقد الإسبانى على كل شخصية متميزة : " فلم يذهب الفارس النبيل وحده ضحية هذه التحركات فى قشتالة بل ذهب الكثير من النبهاء ومن هم على مستوى متوسط ، وأصبحت قشتالة ذات طبيعة تفضل أن تكسب مواقع جديدة ولا تستطيع الحفاظ على مكاسبها ، وكثيراً ما يحدث أن تقوم بتدمير ما بذلت جهدها فى الوصول إليه " ؛ هذه العبارة الأخيرة هى محصلة لما قاله السيد ألونسو فرنانـديث كورونيل A. F. Coronel، عندما ذهبوا إليه لتنفيذ حكم الإعدام فيه تطبيقا لأمر ملك قشتالة / بدرو القاسى :P. el Cruel" هذه هى قشتالة التى تصنع الرجال كما تقضى عليهم "(٢٢) ؛ نرى إذن أن هناك وعيًا واضحًا – منذ ستة قرون – بالصعوبات التى تحول دون تقدّم الصفوة ، ومن غير المجدى هنا بالنسبة لما أهدف إليه إثارة جدل حول الموضوع والقيام بمقارنة قوائم المضطهدين والذين لا يتفقون مع السلطة فى الدول الأوربية المختلفة : فهناك القديس / خوان دى لا كروث S. J. de la Cruz الرجل الذى تعرّض للكثير من المضايقات على يد الرهبان من جماعة الكرمل " Carmelitas ، وهاهو جيور دانو برونو G. Bruno يُحرق حيا فى روما ، ثم نجد لويس دى ليون L. de Leon الذى كان ضحية لمحاكم التفتيش التى أقامها السوقة من الجامعيين ، وجاليليو الذى استبد به الكرادلة الرومان ، وميجل سيربيت M. Servet الذى أحرقه كالبينو Cal-evino ؛ أما ديكارت فقد هرب إلى الخارج ... الخ. وأؤكد هنا أنه بالنسبة للأهداف التى ابتغيتها من وراء هذا الكتاب ليس من المهم القول بأن الإسبان كانوا على حق فيما كتبوه أم لا خلال القرن الخامس عشر أو السابع عشر أو العشرين ، بل الأهم هو ملاحظة الشعور بالفراغ الحيوى الذى عاشه هؤلاء ، وآخرون غيرهم من الصفوة الإسبانية ، كما أن ما يهمنا هو الصدق النفسى فى أحكامهم الصادرة ؛ إذن فكتاب خوسيه أورتيجا قد أثار ضجة واسعة مثله فى هذا مثل أى كتاب يمسّ مشاكل جوهرية ، كما أننا لا نريد هنا الدخول فى مناقشة الانتقادات الموجهة لنظرية أورتيجا .

والقيام بتصنيف الأسباب المذكورة التى تتحدث عن المحن الإسبانية هو مهمة غاية فى الطول كما لا تتسق مع مبتغانا ، فقد تم الحديث عن الطقس وعن الكسل وعن مقاومة قبول الاستنارة العقلية وعن التعصب وعن عدم مشاركة إسبانيا فى عصر النهضة ، وخلال القرن السادس عشر نسبوا متاعب إسبانيا وآلامها للمسلمين ، يقول إيرنان بيريث دى أوليبا H. P. de Oliva – أحد علماء الإنسانيات – " إنه لو تمكنت كل المدن من مقاومة العرب Sarracenos مثلما فعلت قرطبة لما استطاع هؤلاء القضاء على ديننا وطرده من دور العبادة ، ولما بكينا دماء أبنائنا المسفوكة حتى اليوم " (٢٣) ، ولقد استخدم المؤلف صفة الملكية nuestros أربع مرات فى سطرين ، الأمر الذى يعكس أن المؤلف يشعر بأن العرب أغراب ، إذ كان يريد أن يباعدهم تماما عن حياته .

كما تحدث مؤرخون آخرون عن سمة إسبانية ، أى عن شئ أساسى أو أرض سبق الإعداد لها حتى تتمكن إسبانيا من أداء دورها التاريخى ، فجرى الحديث عن الأيبيرية وعن الفردية وعن اتجاهات لا تتصالح أبدا مع الاجتماعيات ، كما تحدث عن ذلك القدامى والمحدثون الذين يتمسكون بهذه التحليلات النفسية المجرّدة فنجدهم يربطون بين أيبيريا التى صورها استرابون مع شبه الجزيرة الأيبيرية اليوم وهنا نجد أننا نسقط فى حتمية أسطورية وفى إطار تاريخ غير مرئى وسابق على الحياة التى تمت ممارستها خلال قرون طويلة هى اليوم فى متناول أيدينا ، غير أن الحقيقة تقول بأن الإسبانى قد بنى نفسه فى إطار تاريخ حياته ، ولم يكن البناء قائما على أسس عقلية بحيث تكون تستقبل تاريخ لا يتمكن المؤرخ من إدراك فحواها .

وغايتنا الآن هى غاية متواضعة وغير دوجماطية ، وتتمثل فى طموحنا لوصف كيفية ما حدث للإسبانى ، ومعرفة القواعد الحياتية التى هيأتها له الظروف ووضعها القدر أمامه ، وبهذه الطريقة سنتمكن من تأمل التاريخ كنوع من إنجاز القيم ، وليس على أنه الخلفية القبيحة للسجّادة , ما يهمنا هو معرفة الإسبانى وما الذى وصل إليه وهذا كله هو خلاصة وثمرة أفراحه وأحزانه , وإذا ما كان الإسبانى متمردا على القانون أو أية قواعد تفرضها الدولة فقد كان طوع صوت التراث وطوع أهوائه هو ، ولو لم يكن كذلك لتحولت شبه جزيرة أيبيريا إلى امتداد لأفريقيا أو امتداد لفرنسا وربما لإنجلترا ، ولقد تمسك الإسبانى بمعتقداته الأسطورية والدينية والفنية

ولم يضارعه فى هذا أى من الشعوب الأوربية ، كما انكفأ على نفسه واستخرج منها العزيمة والإيمان ليقوم ببناء إمبراطورية استعمارية ضخمة منذ عام ١٥٠٠م وحتى عام ١٨٢٤م ، كما حافظ على لغته التى ورثها منذ القرن الثالث عشر دون تغيرات جوهرية، واستطاع خلالها خلق إبداعات فنية جابت الآفاق ، فلم يترك الإسبانى نفسه يتوحد مع غيره معتمداً على قواعد المنطق والمعرفة والقانون وإنما تم ذلك من خلال الأساطير والمعتقدات ؛ إلا أن كل هذا لا يتسق بشكل جيد مع " الفردية " التى صهرها الفكر خلال القرن التاسع عشر ولكن من منظور آخر وبُغْية التوصل إلى حل مشاكل أخرى .

وقد أردنا – قبل أن ندلف إلى الحياة التاريخية – فهْم سر فى محاولة الإسبان تفسير الوجود الإسبانى وكأنه مرض مستعص ؛ إذن يظهر هؤلاء الإسبان وكأنهم حالات بارزة تمثل " العيش فى اللاعيش "، أى أن تفسير ما هو إسبانى إنما هو شكل من أشكال الإسبانية ، ولم يحدث لحضارة فى هذا العالم أن عاشت قروناً طويلة وهى تشعر بأن الأرض تميد من تحت قدميها ، ومع ذلك استطاعت تحقيق منجزات من الطراز الأول ، وسار هذا الشعب أكثر من مرة فى طريق تدمير ذاته وكأنه حفل بهيج ، غير أننا سوف نتوقف عن متابعة ذلك – ولو بشكل مؤقت – ولن نحكم على هذا النمط من العيش بأنه حسن أو قبيح ، وكل ما سنفعله هو أن ندلف إلى حياة الإسبانى نفسها ، وسوف نبدأ بالعصر الذى نتمكن من خلاله تأمل تلك الحياة من الداخل وكأنها وعى أو مقصد حياة ووجود ، علينا أن نبدأ بالقرون التالية للغزو الإسلامى ، وهنا – أى فى هذه اللحظات – نجد الإسبانى يشعر بأنه ينتسب إلى شعب ، ثم أخذ يكافح بضراوة للإبقاء على نفسه حيًا ويرسم وجوده ، وقبل هذه الفترة نجد أننا نجهل ما كان عليه الوعى بما هو إسبانى وما هى القواعد الخاصة بحياة قومية ثم التفكير فيها والشّغف بها .

الهوامش

(١) أجابت أوجينى – تلك المرأة الجميلة – نابليون الثالث بأنه إذا لم يكن يراها جديرة بأن تكون إمبراطورة فرنسا فإنها تشعر بأنها أكبر من مجرد كونها وصيفة إمبراطور ، ووصل الأمر بالجميلة الغرناطية أن أصبحت إمبراطورة فرنسا .

(٢) وهذه النهضة لا ترجع فقط إلى الجيل المسمى " بجيل ١٨٩٨م " {فهذا ما يراه هانز جيسك H. Jeschk فى كتابه عن جيل الـ ٩٨ فى إسبانيا – طبعة ١٩٣٤م وغيره كثيرون} وذلك أن عام ١٩٠٨ أتى إلينا بكتاب لـ M. B. Cossio بعنوان "الجريكو"، غير أن كوسيو وأستاذه خينر دى لوس ريوس ظلا يتحدثان عن ذلك أكثر من عشرين عاما (وهذه عادة إسبانية تتمثل فى الحديث الشفهى فى أمور يراها الأوربى جديرة بأن تضمها دفتا كتاب) وقد كانت الروائية الإسبانية الشهيرة إميليا باردو باثان من الذين يؤمون هذه اللقاءات التى يعقدها دى لوس ريوس ، وقد ألفت كتابا بعنوان " المسرح النقدى الجديد – يوليو ١٨٩١ ص ٥٥ حيث تقول " كانت جنازة كونت أورجاث " بسيطة بالمقارنة بأفضل أعمال مؤلف hilauderas النسّاجات {بيلا ثكيث}.. وأى رسّام حديث يبدو أمامى غير قادر عندما يتأمل اللوحة الرائعة التى تسمى " جنازة كونت أورجاث.

(٣) كتب كيبيدو فى ١٦٤٥/٨/٢١م يقول : " أقلام جديدة سيئة تكتب فى كل مكان ، والأسوأ هو أن الجميع ينتظر الأمر على هذا النحو ، وهناك الكثير من الأشياء التى تبدو موجودة ويجب أن تكون كذلك إلا أنها ليست إلا مجرد لفظ وصورة شعرية الأعمال النثرية ، طبعة أستدانا. ص ١٦١٦

(٤) حاول البعض ، خلال القرن الثامن عشر وضع الثقافة الأسطورية واللاعقلانية على نفس الدرجة التى عليها ثقافة التنوير فى العالم الخارجى ، وفضل أغلب الناس مواصلة العيش فى إطار تراث كان يتهاوى مثل تلك المدن التى يقتلعها بركان أو زلزال ثم تعود لترسى قواعدها فى نفس المكان .

(٥) كتب دوق روشيفوكالد Rochefoucauld فى إحدى شطحات قلمه "مثل الروماتيزم والأمراض المعدية " وقد كان ذلك فى نص مكتوب بخط اليد ، أما النص المطبوع فيشمل فقط " الأمراض المعدية " وهو مفهوم تجريدى يبعد أعراض الحكّة والعطس والألم ، إننا فى عالم " حسن الذوق " وسيطرة المشاعر.

(٦) عبارة عن خطاب ألقاه السيد/ ألونسو دى كارتاخينا فى المجمع الكنسىّ فى بازل حول أحقية الخلافة على العرش للك قشتالة على ملك إنجلترا {مدينة الله عام ١٨٩٤م ، الجزء الخامس فرناندو دى لا تورّى ٥٣} .

(٧) انظر " كتاب القصائد والأعمال النثرية " لفرناندو دى لا تورّى – طبعة Dresde، A.Paz Melia لعام ١٩٠٧م ، ولم يتمكن الناشر من إدراك مغزى النص " إن قضية تفوق أمة على غيرها ... هى أمر شائع

خلال تلك القرون " (صـ ٢٣) وبذلك يحول ظاهرة تاريخية إلى مجرد إحدى الطرائف ، لكن القراءة الواعية لذلك العمل أكدت لى الفكرة التى تقول بأن المؤلف ينسب إلى الطبقة الاجتماعية المسماة بالمسيحيين الجدد .

(٨) يمكننا أن نلمح الأهمية التى يوليها ناصح الملك للجـرأة فى هـذه العبارة " فجرأة الثور تملأ جلده بالفضيلة وهو بالنسبة للإسبان حيوان يكاد يكون مقدّسا. "

(٩) ربما فكّر المؤلف فى فرسان مثل رودريجو دى بيّاندراندو - كونت ريباديو الرجل الذى حارب يائسا فى فرنسا دون أن يتخلى عن ولائه لخوان الثانى ملك قشتالة، أو فى السيد بيرو نينيو كونت بويلنا

(١٠) انظر ما قلته فى ,RHF- الثانى (١٩٤٠م) صـ ١٤

(١١) إنها فترة العيش ببذخ غير معروف قبل عهد خوان الثانى ، فالثروة متوفرة (وقد شهدنا ذلك عند دى لا تورّى) وتعددت أنماط العيش على الطريقة الموريسكية كما سنتحدث عن ذلك فيما بعد ، وتم تقليد ما يتبعه الفرسان فى فرنسا وقد عبّر عن كل ذلك خورخى مانريكى فى مرثيته الشهيرة

(١٢) من الملاحظ أن يسترعى انتباه الأسبانى آنذاك أن العيش فى فرنسا يسير " طبقا لقواعد منظمة " وهى بالتالى متسقة مع العقل .

(١٣) كالديرون : عمدة سلمية

(١٤) La penisule Iberique au Moyen Age (طبقا للحميرى) ترجمة ليفى بروفنسال - ليدن عام ١٩٣٨ صـ ٣ ، ٥ ، ٢٧ ، ٢٩.

(١٥) انظر رينيه باسـت فى " تـكـريم السيـد فرانثيسكـو كوديرا " ١٩٠٤ - صـ ٦٤٣

(١٦) حوارات الحب - المكتبة الجديدة Au.bsp.xx pa 314

(١٧) De appetenda Gloria ed. Madrid, 1780, iv pa 206

(١٨) هذه الأمثلة منقولة من مسرحيات " روما تحترق " و " الطاحونة " كما توجد عند R. del Arco، فى " المجتمع الأسبانى فى الأعمال المسرحية للوبى دى بيجا " صـ٥٩.

(١٩) " الحاج فى وطنه " عام ١٦٠٤ صـ ٣٠٤ - وعندما يخمن لوبى دى بيجا وجود إسبانيا فى وحدة واحدة حيث يراها على أنها خواء ، ويفعل نفس الشئ كيبـيدو (حيث نفتقد وجود مملكة قومية ورخاء وحرية) إلا أن كل السلبيات تتحول إلى إيجابيات فى فنه كنوع من التعويض التناقضى والمكن فى هذا البلد الذى يوجد فى مخيلة الأفراد فى صورة رائعة وليس فى الأمور الملموسة ، غير أن التشاؤم والحزن وفقدان الأمل لم يكن لها فى تلك الآونة ما يمكن أن تنتظره العقليات المعاصرة .

(٢٠) خوسيه أورتيجا أى جاسيت : الأعمال الكاملة - مدريد ١٩٣٦ .

(٢١) لقد أوردنا فى النص لفظة Sinagoga بمعنى ثُلّة ، اجتماع . وهنا نلاحظ أن أرستقراطية المؤلف تباعده عن النزول من خلال اللجوء إلى المصطلحات اليونانية التى لا يفهمها العامة .

(٢٢) أجيال وشخصيات – سلسلة Clasicos Castellanos عدد ٥٦ صـ ٩٠ ، ١١٠ وقد تضمن الكتاب نماذج أخرى لها نفس الدلالة التى سبق أن أشرنا إليها .

(٢٣) الأسباب المتعلقة بالإبحار فى نهر الوادى الكبير " الأعمال – الجزء الثانى – ٢ – ويرى فرنان بيرث دى جوثمان أنّ احتلال العرب لإسبانيا كان " تاريخًا محزنًا ومثيرًا للبكاء/ وغير جدير بكتابته شعرًا أو نثرًا " [Loores de los claro Varones de Espana] Nueva b. Aut. Bsp. xix pa718

الفصل الثانى

الإسلام وأيبيريا

لم تكن القرون التى حكم فيها القوط عصراً من عصور البربرية ، فقد برز فى بداية القرن الخامس مؤرخ مهم هو باولو أسوريو P. Osorio، كما وجدنا مؤرخًا آخر خلال القرنين السادس والسابع هو إيسيدورو الأشبيلى Isidoro؛ إذن فالصفوة الإسبانية لم تقم بدور سىء فى الإطار المتهاوى الذى عاشته البلاد إثر الغزوات الجرمانية (١) ، وكان هناك كُتّاب السِّير والمؤرخون والشعراء غير أنهم لم يكونوا أفضل أو أسوأ من هؤلاء الآخرين الذين يملئون الأرض الرومانية الوليدة ، كما جرى اتصال بين إسبانيا والإمبراطورية الرومانية الشرقية ، إلا أن المسلمين حلّوا عام ٧١١م ، واستطاعوا فى غضون فترة قصيرة السيطرة على معظم الأراضى الأيبيرية ، وقد جاء المسلمون مدفوعين بقوى تثير الإعجاب وهى الوحدة السياسية والوازع الدينى ، وقد نشأ هذا الدين الوليد متفقًا تمامًا مع الطموحات الروحية والجسدية للبدوىّ ، كما هبطت الغزوات البربرية على أوربا دون أن تخلّف وراءها إدارة مركزية يمكن الحديث عنها ؛ أما المسلمون فقد توسّعوا بمرونة وهم يحملون على ظهورهم ميراثًا دينيا وسياسيا وكذلك أصداء أفضل الثقافات الخاصة بالعالم القديم ، وسرعان ما أعادوا الحياة إلى تلك الأصداء ، كما امتلك الأدب العربى – منذ القرن السابع – ثروة هائلة من الأفكار ووسائل التعبير التى لا يمكن أن نجد لها مثيلاً فى رومانيا Romania، إذ يتحدث النحاة عن الفرزدق (المتوفّى عام ٧٣٢م) بقولهم أنه " لولا الفرزدق لضاع ثلث اللغة العربية " (٢) ؛ ولو كان مضيق جبل طارق عند مدينة مارسيليا لكانت فرنسا قد عاشت أحداثا تاريخية مختلفة رغم أن الفرنجة ليسوا هم القوط ، غير أن هذه الملاحظة هى مجرد خاطرة فقط ، وحقيقة الأمر هى إذعان إسبانيا ، أو بالأحرى إبعادها عن

المسار الذى كان عليه باقى الشعوب الأوربية، ورغم هذا فسرعان ما أخذت المقاومة المسيحية فى الظهور ووجد المسلمون أنفسهم مجبرين على البدء فى معارك جديدة لم تنته إلا فى القرن الخامس عشر ، ولم يتمكن المسلمون من خلق بُنىً سياسية صلبة ومتينة البنيان ، والأمر هو أن الطابع الأسطورى لتلك الحضارة حال دون أن تحيط بالزعماء شعوب قادرة على خلق أنظمة مستقرة للتعايش ، ولقد استمرت قوة الإسلام فى إسبانيا مرتبطة بزعامات قوية وقادرة على شحذ الهمم بالانتصارات وإبهار الجماهير بالثروات التى كانت فى الأندلس (هذا هو الاسم الذى تم إطلاقه على إسبانيا الإسلامية) ، وبقيت أعداد كبيرة من الجماهير المسيحية تحت السيطرة الإسلامية (المستعربون) ، واستمر هؤلاء فى ممارسة حياتهم فى ظل التسامح الإسلامى طوال أربعة قرون إلى أن هبت الغزوة المرابطية (١٠٩٠م) وتلاها الموحدون (١١٤٦م) ، وهى قبائل أفريقية متعصبة ، استطاعت القضاء على هؤلاء المستعربين [٣] .

وقد سيطر على تاريخ شبه جزيرة أيبيريا الصراع بين المسلمين والمسيحيين حتى منتصف القرن الثالث عشر ، فقد تمت استعادة قرطبة عام ١٢٣٦م وبلنسية عام ١٢٣٨م ثم أشبيلية عام ١٢٤٨م ، وابتداء من هذه خمد أُوَار الحماس المسيحى ذلك أنهم (المسيحيين) قد تابعوا النوذج الإسلامى عن قرب، أى أنه أمام ملوك الطوائف المسلمين (مملكة فى طليطلة وأخرى فى سرقسطة وثالثة فى أشبيلية ... الخ) هناك ملوك الطوائف المسيحيون (مملكة أرغن ، ونابارّة ، وقشتالة ، والبرتغال) ؛ أما من الناحية العملية فنجد أن حرب الاسترداد قد تباطأت خلال القرون الثلاثة التالية وهى الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر حتى، تمكن فرناندو وإيزابيل من توحيد شبه الجزيرة (ما عدا البرتغال) وألقيا بذلك الشعب بعيداً عن إسبانيا وقاما بالمهمة التى يعرفها الجميع .

وسرد الوقائع المعروفة للجميع يخرج عن الإطار الذى رسمته لهذا الكتاب ، وبوسع القارئ العثور عليها فى كتب ممتازة لدوزى وليفى بروفنسال ومارثينو مننديث بيدال M. M. Pidal وفى الموسوعة الإسلامية ومؤلفات أخرى شائعة الانتشار ، وينصّب اهتمامى على تلك الجوانب المتعلقة بالحياة فى العصور الوسطى حيث تعايشت

الحضارتان ، وليس المقصد من وراء ذلك رصد أثر الإسلام فى إسبانيا المسيحية فقط بل التوصل إلى وجهة نظر جديدة بشأن معرفة نسيج الحضارة الأيبيرية ، وقد كنت حتى سنوات مضت أتصوّر وأتأمل هذه النقطة مثلما هو الحال عند غيرى ، ففى عام ١٩٣٨م كنت أكتب مقالاً حول بعض المشاكل خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وهنا أدركت الصعوبات التى تحيط بإدراج ما هو إسلامى فى إطار التاريخ وكذا صعوبة مباعدته ، وانتهى بى الأمر إلى التوصّل إلى حل مُرْضٍ للقضية ، ولم أتمكن آنذاك من تناول المشكلة ذلك أنها كانت تُثقلُ على كاهلى المناهج الموروثة لقراءة التاريخ وكذلك تأثير بعض كبار المؤرخين ، كنت آنذاك أفكّر معتمداً على " المادة " وليس على " الصياغة" التاريخية ؛ ولقد اعتقد المؤرخون أن إسبانيا المسيحية كانت عالمًا يتصف بالجمود تتنزل عليه الكلمات والآداب والأنظمة الإسلامية ، إلا أننى بعد أن كتبت مقالى عن " الوضع الإسبانى ومذهب إيرازمس" Erasmo على أساس أن ذلك جانب من " المواقف الحيوية " ،أخذ يتضح أمام ناظرىّ مفهوم ما هو إسلامى فى هذا التاريخ (تاريخ هذا البلد) ، وهنا نجد أن العصور الوسطى المسيحية تبدو كمهمّة تقوم بها الجماعات المسيحية من أجل المحافظة على بقائها أمام عالم ظل طوال النصف الثانى من تلك الفترة المذكورة متفوقًا عليها فى كل شئ عدا الهمّة والشجاعة والتعبير الملحمى ، ولقد استخدم المسيحيون العديد من المبتكرات التى ابتدعها المسلمون سواء على الصعيد المادى أو الإنسانى ، غير أنهم لم يتمثّلوا جيدا الأنشطة الإنتاجية لتلك المبتكرات ، والسبب أنهم كان عليهم أن يفعلوا أموراً أخرى حتى يتمكنوا من مناوأة المسلمين وأن يتمكنوا من هزيمتهم بعد ذلك ، وبالنسبة لى فما لم يفعله المسيحيون بسبب الموقف الحيوى الذى وضعهم فيه المسلمون إنما يرجع لتأثيرات إسلامية أيضا وله نفس الفاعلية التى عليها الكلمات التى استعارها المسيحيون من اللغة العربية ، كما أن منظومة القيم التى كان عليهم تطويرها لمقاومة أعدائهم بقوة الكلمات مهمة للغاية وتدخل فى إطار الدائرة الحياتية نفسها ، وربما أضحى ما نقوله غامضًا ، وقد يستمر ذلك الغموض لبعض الوقت ، ومهمة الصفحات التالية توضيح هذه المقولة ، إذن فإسبانيا العصور الوسطى هى نتيجة التوليف بين موقف الإذعان وموقف الإعجاب بعدوّ أقوى ، وهى محصلة الجهد المبذول لتجاوز الإحساس بالدونية ،

وهناك بعض أبيات الشعر التى نأخذها من ملحمة السيد Cid تتضمن كلمات لها مغزاها عن البطل :

أسمعنى يا ألبار هانيث ، وكل الرجال

لقد ربحنا الكثير باستيلائنا على هذا الحصن

فالمسلمون يرقدون موتى ، وأرى قليلين منهم على قيد الحياة

وليس بوسعنا أن نبيع الأسرى من المسلمين والمسلمات

ولن نجنى من وراء قطع رءوسهم شيئا

إذن فليبقوا معنا داخل الحصن ، وقد أصبحنا سادته

نحن نقيم فى بيوتهم ، وهم على خدمتنا يقومون

{الأبيات من ٦١٦ - ٦٢٢}

إذن فالسيطرة على المسلمين والإفادة منهم كان الهدف وليس تقليدهم فيما يقومون به من مِهَن تقنية أو أنشطة ثقافية ، وهذا التقليد لم يكن يدخل فى دائرة الإمكان لأسباب سوف أقوم بتفصيلها فيما بعد وهنا أتساءل : ألم يكن ذلك يشبه بشكل ما الذى وقع بين روما واليونان ؟ فقد فرض الرومان سيطرتهم وقوتهم السياسية أما اليونانيون فقد ظلوا مع الفلسفة والعلوم وكذا العديد من الأنشطة النافعة التى لم يفكر المنتصرون فى تقليدهم فيها وعلينا أن نحاول تأمل هذه المشكلة التاريخية الحسّاسة من الداخل .

وهنا يجب ألا يغيب عن أذهاننا البعد الزمى للمشكلة ، فإذا ما تأملنا الماضى من منظور الحاضر ، حتى لو كان هذا الماضى قد مرّ عليه مائة عام أو مائتان ، لكان لنا ميل أن تكون الفترة أطول حتى تكون كافية لميلاد عادات جديدة سوف تكون حاسمة فى تشكيل الملامح الذاتية التى نحن عليها اليوم ، إلا أننا لا نتصرف بهذا الشكل عندما نتأمل فترة طويلة مضت من منظور فترة ماضية أيضا ، فقرون الفترة شبه الإسلامية (من ٧١١م حتى ١٤٩٢م) ينظر إليها كثير من الناس على أنها مرحلة

انتقالية طويلة وتثير الغيظ وعلى أنها فترة أليمة ومليئة بالحملات العسكرية ، وبعد انتهاء تلك الفترة استعادت إسبانيا وضعها الطبيعى ، غير أنها ورثت بعض النُدَب وعاشت التخلف ، ولا ينتهى الأمر عند هذا الحدّ ذلك أن المسلمين لم يرحلوا جميعا عن إسبانيا عام ١٤٩٢م فقد بقى الموريسكيون كرعايا الملك والمسيحيين وهم أناس من " المور Moros " احتفظوا بدينهم وعاداتهم ، وكان لهم تأثير واضح فى مجال الأدب والمجال الدينى ، ولقد تمسّكوا بملامحهم الثقافية لدرجة أن الملك الرحيم فيليب الثالث قرّر طردهم من ملكه عام ١٦٠٩م وأتساءل هنا : هل ذهبوا جميعا عن بكرة أبيهم ؟ يبدو أن الأمر ليس كذلك فهناك الذين يؤكدون أن آثارهم مازالت موجودة فى مزارع مرسية وبلنسية وأرغن (٤) ؛ولقد كان من حسن الحظ استمرار تواجد المور والمويسكيين فى إسبانيا لأكثر من تسعة قرون ، كما أن أغلب المتخصصين يعرفون أن صدى الإسلام ظل باقيًا فى الآثار التى خلّفها فى قرطبة وغرناطة وأشبيلية وطليطلة وكذلك العديد من المدن الأخرى قليلة الأهمية فى هذا المقام ، أما فيما يتعلق باللغة فهناك الآلاف من الألفاظ والمصطلحات العربية التى لازال بعضها حيًا ، بينما عفا الزمان على بعضها الآخر ، كما أن الأدب استلهم المصادر العربية ووضح هذا الإلهام فى "قواعد الكهنوت "Disciplina Clericalis ، فمن خلال هذا الكتاب انتشرت فى إسبانيا المسيحية وأوربا – ابتداء من القرن الثالث عشر – ثلاث وثلاثون حكاية ذات أصول مشرقية ، واستمر ذلك الاستلهام حتى كتاب " الناقد اللوذعى " El Criticon لبلتسار جراثيان (القرن السابع عشر) ، ومن المعروف أن الأصول الأولى لذلك الكتاب توجد فى قصة شاعت بين الموريسكيين فى إقليم أرغن ورغم الأهمية القصوى للموضوع وكثرة المصادر والمراجع لم يبدأ أحد بدراسة جادة للموضوع إلا عندما قام السيد / أسين بلاثيوس بالغوص فى تاريخ المفاهيم الدينية والبرهنة – فى نظرى – على أن تصوّف كبير الزّهاد : سان خوان دى لا كروث لا يمكن فهمه خارج نطاق الزهد والتصوف الذى كان يمارسه الموريسكيون القشتاليون ، وعندما نفكّر فى الشخصية الإسبانية لا يمكننا أن نباعد جانبًا تسعة قرون من النسيج الاجتماعى الإسلامى المسيحى .

وحرصًا منا على ضرورة الحفاظ على مفهوم الزمن التاريخي حيًا يجب ألا ننسى أن هناك فاصلاً زمنيًا بين وصول المسلمين وتأليف أول عمل أدبي هو ملحمة " السيد " يقدر بحوالي ٤٢٩ عامًا حيث كان الاحتلال والرغبة في القضاء عليه السمتين البارزتين، وقد أسهم الماضي القوطي والروماني في الإبقاء على الوعي بعدم التحوّل إلى الإسلام ، غير أنه لم يساعد على مناوأة الحضارة الإسلامية المسيطرة على أغلب البلاد وعلى الوقوف في مواجهة الثقافة ومجموعة القيم التي تسمح مع العدو بندّية ، ولقد عاش المسيحيون طوال أربعة قرون وهم منقسمون على أنفسهم يعانون الفقر ولا يرون للمستقبل أفقًا واضحًا، وأخذوا يتأملون المسلمين على أنهم العدوّ القوى الحصين ، وأن الظروف أجبرتهم على التفاهم معه وقد استطاعت قرطبة خلال القرن العاشر – أي خلال القرن الثالث للاحتلال – أن تسيطر على الممالك الشمالية الضعيفة، ففي عام ٩٨٠ استطاع المنصور بن أبي عامر التوغل في أعماق قشتالة ، وعندئذ قدّم سانشو جارثيس **S. Garces** ملك نابارّة ابنته كفدية فقبلها المنصور عن رضا واتخذها زوجا له وأعلنت إسلامها وأصبحت واحدة من حريم الوزير وكانت أفضلهن جمالاً وتديّنا ، وفي عام ٣٣٩م قام ملك ليون برمودو الثاني **Vermudo**؟؟ " بإرسال ابنته تيريا إلى القائد المسلم الذي اتخذها أمة له ثم أعتقها وتزوج منها " (٥)
وقبل هذه الأحداث كان عبد الرحمن الثالث (المتوفى عام ٩٦١م) قد استقبل سفارة مسيحية في قصره بمدينة الزهراء التي تعتبر إحدى عجائب الفن والعظمة ، وقد تم فرش الطريق الموصل بين قرطبة والقصر (ثلاثة أميال) بالحصير واصطّف على جانبيه الجنود وقد شهروا أسلحتهم التي يمر تحتها السفراء وهم يشعرون بالهلع ، وعند الوصول إلى القصر يخرج لاستقبالهم كبار رجالات البلاط وهم يرتدون الملابس الحريرية الموشّاة بخيوط الذهب والفضة ؟؟؟؟؟؟ ، ثم يلقون عليهم التحية (أي الفراء) ظنًا منهم أن أحدهم هو الخليفة ، لكن هذا الأخير كان يجلس في صحن مفروش بالرّمل ويرتدي ثوبًا ليس فيه أية نعومة علامة على الزّهد ، ثم قام المسيحيون بالتوقيع على معاهدة السلام التي فرضها العاهل ، وأصبحوا يعيشون تحت وطأة التهديدات الرهيبة (٦) ، وهناك الكثير من هذه الأحداث التي وقعت خلال القرون الأولى للسيطرة الإسلامية ، كما نجد أن المور واليهود المستعربين قد اقتصر نشاطهم على العلوم ،

وكان المسيحيون المقتدرون يسافرون إلى قرطبة للعلاج من الأمراض ، وهذا هو ما كان يفعله الأوربيون والأمريكان المقتدرون بذهابهم للعلاج فى ألمانيا القرن التاسع عشر ، وإيجاز القول نجد أن المور واليهود يسيطرون على النشاط التجارى والتقنى ؛ فإذا ما كان الوجود مسيحيا فإن الاستمرارية والازدهار لا سبيل لهما إلا بالإفادة من الحضارة التى تسود وهى حضارة أرقى وأعلى وليس ذلك بفضل القوة العسكرية فقط.

ورغم أن الهيبة العسكرية للمسلمين قد بدأت فى الاضمحلال ابتداء من القرن الحادى عشر ومقابل ذلك أخذت الحياة المسيحية تنتعش بفضل جهودهم ونشاطهم ، فإن القيم الأندلسية لم يقل شأنها حتى فى نظر الأعداء ، كما أن الإقدام القائم على الإيمان بالمؤسسة الملكية (وليس بالقائد) والعقيدة الدينية ، قد سمح بانتزاع الغُصّة المرتبطة بحالة التبعية التى طال أمدها ، ولم يكن الحماس للمسيح هو العنصر الوحيد الذى حسم المعركة لصالح المسيحيين بل كان الأساس فى ذلك هو الثقة فى سانتياجو ماتاموروس (قاتل المور) التى دفعت إلى مقاتلة المسلمين ، ولقد تمثل قول الفصل فى مزيج من الإيمان والمشاعر المسيحية القائلة بأن الإنسان يمكن أن يصل إلى السيطرة والثروة والنبل والحرية بفضل الجرأة والإقدام ، وقد هيأ الوعى الإيجابى بقيمة جهد الفرد صعود السوقة إلى السلطة ، وهى سلطة استعارية وتمثيلية أكثر من كونها مجموعة من الأعمال الإبداعية الموضوعية .

ورغم الانتصارات الكبرى على المسلمين كان على القشتالى أن يذعن ويقبل بتفوّق عدوّه فى مجال الإفادة العقلانية مما تقدمه الطبيعة المحيطة ، وقد قام أتباع الملك فرناندو الثالث بغزو أشبيلية بعد صراع برز من خلاله الانحطاط العسكرى للمسلمين ، غير أن الجنود المنتصرين لم يخفوا إعجابهم بعظمة المدينة التى استسلمت لهم فلم يكن لدى المسيحيين أعمالٌ بهذه الرِّفعة ، وهذا الرخاء الاقتصادى والنظام المدنى والتقنى والازدهار العلمى كانوا يفتقرون إليه :

" يا للعظمة والجمال والبهاء الذى عليه (مئذنة جامع أشبيلية) ... وكذلك العديد من الأعمال العظيمة التى لا تتوفر عندنا " فقد كانت تصل الى أشبيلية سلع من كافة المدن " من

طنجة وسبتة وتونس وبوجيه Buía والاسكندرية وجنوة
والبرتغال وانجلترا وبورديوس وبايونة وصقلية وجاسكونيا
وقطالونيا وأرغن وفرنسا " أي الشمال "[٧]

وكانت شكوى رجال البلاط فى المملكة دائمة بشأن الأراضى ، واستمرت حتى القرن الرابع عشر : " فالأرض قاحلة وفقيرة " {١٣٠٧م} " كانت الأرض قاحلة وفقيرة وليس بها بشر " {١٣٦٧م} " كانت ممالكنا تعيش الحاجة والعوز " {١٣٨٨م} [٨] أما الثروة الوحيدة – حتى بعد بداية القرن الخامس عشر – فهى الدافع الحيوى وروح القتال التى خبا أوارها كثيرا عند المور ، وإذا ما قلنا بأن الشريط المطل على حوض البحر المتوسط فى كل من قطالونيا وبلنسية كان مختلفا بعض الشىء ، فإنه لا يغيّر كثيراً من الصورة المرسومة ، فرغم الرخاء النسبىّ الذى كانت تعيشه هاتان المنطقتان فلا يعتبر شيئا إذا ما قورنتا بالمدن الإيطالية، كما أنهما افتقرتا إلى العون والدعم القليل القادم من قشتالة .

علينا أن نلحّ على الحقيقة المعروفة للجميع والقائلة بأنه لم يكن هناك فصل جغرافى كامل ، أو عنصرى ، بين المسلمين والمسيحيين خلال القرون الوسطى ، وقد أشرنا قبل ذلك إلى المستعربين والمسيحيين ممن يجيدون اللغتين وقد أقاموا فى ديار المسلمين وكانوا يهاجرون أحيانا إلى الأراضى المسيحية خلال القرون الأولى ، كما كانوا ينتقلون بشكل جماعى أثناء غزوات المرابطين والموحدين خلال القرن الثانى عشر، كما هاجر مستعربو بلنسية إلى قشتالة عام ١١٠٢ ، وفى عام ١١٢٥م تم إجلاء عشرة آلاف مستعرب غرناطى والذهاب بهم فى رفقة القوات الأرغنية التابعة لألفونسو الأول وهى القوات التى قامت بغزو المملكة المذكورة ، كما وقعت حالة نزوح مشابهة عام ١١٤٦ حيث انتقل المستعربون الأشبيليون إلى قشتالة [٩] ، ومن المؤكد أن تلك التنقّلات قد وقعت فى حالات أخرى لم تسجلها كتب التاريخ ، وبالإضافة إلى تلك الفئة الاجتماعية المذكورة كانت هناك أخرى تسمّى " المدجنين " وهم المور الذين يعيشون كرعايا للملوك المسيحيين الذى عاشوا تحت تأثير التسامح الإسلامى خلال القرون الأربعة الأولى للحكم الإسلامى ،وهذه نقطة سوف نتحدث عنها فيما بعد . وقد أسهم

هؤلاء المدجنون فى تشييد الآثار الجميلة ومنها قصر أشبيلية و " وبوابة الشمس " فى طليطلة (١٠) ؛ وكانت هناك حالات انتقال وتحول من دين إلى دين ، فهناك المولدون أى المسيحيون الذين اعتنقوا الإسلام ، وهناك المرتدون أى المسلمون الذين ارتدوا عن الإسلام واعتنقوا المسيحية ، ويشير كتاب Las Partidas الألفونسو العالم (الجزء السابع ، ٢٥ ، ٨) إلى أنه يوجد أحيانًا " رجال من أهل السوء يخلون من أى جانب خيّر يرفضون الإيمان بالمسيح ويتحوّلون إلى الإسلام ... وهذا لأنهم يريدون العيش فى رغد أو لأنهم يخشون فقدان ما لديهم " ويُعاقب هؤلاء المارقون بفقدان أملاكهم وقتلهم عندما يقعون فى قبضة المسيحيين ، كما أن التشريع القانونى يتحدث عن الحياة الصعبة التى يعيشها المرتدّون (الجزء السابع ٢٥ ، ٣) وهذا ما ساعد على تقليل عدد المرتدين ، وكان من الممكن أن يتحول الكثيرون إلى المسيحية " لولا الخزى والعار الذى يلحق بهؤلاء الذين يعتنقون المسيحية حيث يطلق عليهم " المرتدون " ، كما كانوا يلقبون بالكثير من العبارات السيئة وغير الكريمة " ، نرى إذن أن التعايش بين كلتا الديانتين كان سهلاً باستثناء عمليات الرّدة عن المسيحية أو الإسلام .

وختامًا نشير إلى فئة اجتماعية أخرى ، وهم هؤلاء الذين يطلق عليهم Enaciados أى الذين يتنقلون بين هذا الدين وذاك الآخر ويقومون بدور الجاسوسية بفضل معرفتهم باللغتين ، وكان هؤلاء يقيمون فى مناطق الحدود ، وأحيانًا نراهم يقيمون جميعًا فى قرية وهو نفس ما يحدث اليوم فى عمليات التهريب فى مناطق الحدود فى مختلف أنحاء العالم ، ولازالت توجد فى إكستريمادورا قرية تسمّى إلى اليوم Naciados

ورغم انتهاء السيطرة السياسية للمسلمين فقد بقى فى شبه جزيرة أيبيريا عدد لابأس به من الموريسكيين ، وقد تمرّد هؤلاء أكثر من مرة ، وبالتالى لم تجد جيوش الملك فيليب الثانى مناصًا إلا الدخول فى صراع جادّ للسيطرة على المتمردين فى البشرات Alpujarra الواقعة جنوب غرناطة (١١) ، ومن المعروف أنه تم طرد الموريسكيين عام ١٦٠٩ على يد الملك فيلب الثالث ، باستثناء القساوسة والرهبان والراهبات ، وقد عاشت تلك السلالة تعسة الحظ على روح التعايش بين المسيحيين والمسلمين واليهود ، وعندما اختفى ذلك النموذج الشهير للتسامح الإسلامى وجدنا المسيحيين والمسلمين لا يتعايشون بشكل مثالى ، وكانت مشكلة مستعصية على الحلّ

مثل غيرها من مشاكل الحياة الإسبانية ، ومن نافلة القول الدخول فى نقاش حول ما إذا كان من الضرورى طرد المسلمين من بلدهم أو لا ، ومما لا شك فيه أنهم كانوا يمثلون خطرًا سياسيًا وكانوا على صلة بأجانب أعداء لإسبانيا التى أخذت تشعر بالضعف ، ووصل الأمر إلى استدعاء بعض القوات التى كانت متواجدة فى إيطاليا ذلك أن القوات المتواجدة فى الأراضى الإسبانية لم تكن كافية لِدَرْء المخاطر الناجمة عن عملية الطرد ، ولقد أسهمت حرب غرناطة التى جرت عام ١٥٦٨م " فى الكشف عن أن الجنود الإسبان لم يكونوا على نفس درجة الحماس التى هم عليها عندما يكونون خارج الوطن " (١٢).

كان الموريسكيون عمالاً ومهندسين ، ولقد لاحظ الجميع مدى الكارثة الناجمة عن إبعادهم ، ووّضُح ذلك على قطاعى الزراعة والصناعة ، وقد تحدث أورتادو مندوثا H. Mendoza عن الأمر فى عبارات تقطر حدّة " أصبحت البشرات قاحلة لا زرع فيها اللهم إلا فى السهّول ، رغم أنها كانت خضراء يانعة فى أيدى الموريسكيين الذين لم يتركوا شبرًا واحدًا من الأرض دون عناية " {صـ ٧٥} ؛ ولقد برزت شخصية الموريسكى فى الأعمال اليدوية التى يزدريها المسيحيون (١٣) ؛ وعلى ذلك نراه مفيدًا للغاية ومُحْتَقرا فى آن ، وأفضل وصف لأعمال الموريسكيين وميولهم نجده فى " تاريخ بلاسنثيا H. de Plasencia لفراى ألونسو فرنانديث F. A. Fernandez:

> "كانوا يقومون بالأعمال البستانية ويعيشون بعيداً عن تجارة المسيحيين القدامى، ولم يكونوا يقبلون بمراقبة أحد منهم لحياتهم، وهناك آخرون يقومون بأعمال التجارة إذ كانت لهم محلات لبيع الأطعمة فى أفضل المواقع فى المدن والقرى، وكان الكثير منهم يعيش من مهنته التى يمارسها، كما نجد آخرين يقومون بأعمال ميكانيكية مثل اللايات والحدادة ، وصناعة النعال والصابون ، وأعمال البقالة، أما ما يجتمعون عليه فهو

دفع البقالة وما يجب سداده من التزامات، والاعتدال فى الملبس والمأكل .. لم يكونوا يـرضون أن يتسـول واحـد منهم فكل له عمله" (فانير، صـ ١٦٢) [١٤] .

كانوا يَتَنَاسَلُون بسرعة كبيرة :

"فلم يكن من بينـهم من يلجأ إلى عـمليـة العـقم الجسـدى بتَـرْسيـمه راهبًـا أو قِسّـا أو راهبة ... إذ يتـزاوجون ، الأغنيـاء والفقـراء والأصحاء والمرضـى ، ... والأسوأ من هذا أن بعض قدامى المسـيحيـين الذين يتباهون بأنهم السّادة كانوا يتـزوجون من موريسكيّات ، وبالتالى يزيدون الطين بلّة بالـنسبة لنسبهم ، وسبب هذه الزيجات هو المصلحة ليس إلا " [١٥] .

أما فيما يتعلق بطباعهم وأمزجتهم :

" فـقـد كـانوا من الذين يمـيلون للمـرح وسـرد الحكايات والمبـالغـة فى القـول ومن هواة الرّقص .. (كـانت لهم أدواتهم الموسيقية مثل الدف والمزمـار والجلاجل) والطرب والغناء ... كما كانوا من أنصار الأعمال التى لا يُبذل فيها الكثير من الجهد (ومعـنى هذا : الأعمـال التى تتطلب مهـارة كبـيرة وقليـلاً من استـخـدام العـضـلات)؛ كـان منهم النسّـاجـون والخـيّـاطون

وصـانعـو المقاطف والأوانـى والأحذية والبـيطريون وصـانعـو الحـبال والمراتب والدبّاغـون وبائعـو الزيـــت .. الـخ (خـــانر صـ ١٥٩) [١٦] .

واختصـارًا للقول نشير بأن العلاقة بين المورسكيين والمسيحيين تذكرنا بما كان سائدًا خلال العصور الوسطى ، مع وجود فارق واضح وهو أن الثقافة الأدبيّة والعلمية التى كان عليها المورسكيّون لم تعد تنجب عمالقة مثل ابن رشد أو ابن حزم ، كما أن إنتاجهم الأدبى الإسبانى المكتوب بحروف عربية Aljamiada يفتقر إلى قيمة خاصة ، فقد سيطر عليهم المسيحيون سواء فى القوة العسكرية أو الروحية ، وعلى أية حال فإن الكتب المؤلفة خلال الفترة من ١٦١٠م وحتى ١٦١٣م يبلغ عددها عشرين كتـابًا بين مـحـفـوظ ومطبـوع ، وكـان السـبب فى قلة هذا العـدد طردهـم ، وتؤكـد هذه الكتب أن أحـداث طرد المورسكيين كـانت تهم الرأى العـام آنذاك ، ولقـد تم اللجـوء إلى الردّ ع والعنف ، ومع هـذا كـــان من المســتــحـيل أن تذعن تلك الســلالة ، إذ كـــانوا (أى المورسكيون) يشعرون بأنهم إسبان مثل المسيحيين القدامى ويؤسسـون وعيهم الأمّمِىّ على الماضى التليد [١٧] ، غير أن قـدراتهم على العمل والنشـاط الاقتصـادى ، مع مـا يعنيه كل ذلك ، تم التضحية بها على يد الملكية الإسبانية حيث أنها كانت ترى أن الثراء والرخـاء الاقتصـادى ليس لهمـا قيمة أمام الشرف الوطنى القائم على الوحدة الدينية وهيمنة السّلطة الملكية . إذن فالتحالفات والتسويات مع غير المؤمنين كانت إحدى ملامح العـصـور الوسطى ، وبالتـالى أصـبح المورسكيـون لا مـحلّ لهم من الإعـراب رغم أن النظام الخـاص بالحـيـاة اليومـيـة الإسـبانيـة ظل على نفس منهج العـصـور الوسطى : فـالرجل المسلم يقوم بالعمل والإنتـاج أمـا المسيـحى فيسود ويسيطر ويعيش فى غبطة ذاتية ، إلا أن شـخـصـيـات الأشـراف والمتـصـوّفـة الذين رسـمـهـم الجـريكو El Greco بريشـتـه لا يمكن لهـا أن تتـفـاهـم مع طغـمـة من العـمـال والصنّا ع الذين كـانوا آنذاك يشعرون بالفخار ويتآمرون ضد أمن الدولة .

كانت إسبانيا تشعر بقوّتها الضاربة زمن الملك كارلوس الخامس ، كما كان لديها بعض المرونة التى تسمح لها بالتعامل مع الموروث الثقافى ، أما فى عهد فيليب الثانى فقد أصبحت الأمور أكثر شدّة وظهر ذلك من خلال اللاّتسامح مع الموريسكيين ، كما قام هؤلاء بالتمرّد ولجئوا إلى استخدام السلاح

عندما شعروا أن الإمبراطورية الإسبانية آخذة فى الانحطاط ، وقد عبر ابن أمية فى الخطبة التى أشرنا إليها بقوله :

" لا تهمنى الإمبراطورية الإسبانيـة مترامية الأطراف ، وثقوا فيـما أقول؛ ذلـك أن الدول عندما تصل الى ذروة العظمـة تبدأ على الفـور رحلة الانحطاط .فـالقـوى العظمى تتـهاوى بفـعل الهدايا والُمتَع والملذات التى هى صنوان الرخاء ... ونحن لسنا طغـمـة من اللصـوص بل نحن مملكة ، وليسـت إسـبـانيـا أقل انغماسا فى الملذّات من روما "

ولقد كان فـيليب الثانى فى حـاجة ملحّة لاستـخدام كل مـا أوتى من قـوة لهزيمة الموريسكيين فى الجبـال المحيطة بغرناطة حـيث تمت السيطرة على قـواتهـم المسلحـة تسليحًـا سـيئـا بعـد ثلاث سنوات من الصـراع الذى قـاده القـائد الشـهـير خـوان دى أسـتـوريـا J. de Asturia بعـد أن فـشل العـديد من الـقـادة العـظـام فى إنجـاز هذه المهمة قبله .

وقد انتهت تلك الحرب الأهلية ومـا آلت إليه من طرد تلك السلالة المستعصية على السيطرة ، وكانت هذه هى النهاية للمشكلة القائمة ، وقد نجم عن ذلك التمزق الكثير من الآلام لكلا الطرفين ، ذلك أن عدم المصالحـة مع " العقل " كانت تصاحبها عملية استلطاف تلك " الحياة " ، وكان الاستلطاف يقوم على نفس الأسـس الأخـلاقـيـة التى لا تتـوافق مع " مـفـاهيم دولة " خـاصـة بإمبـراطـورية ثيوقـراطية ، فلم يعـد المسلمـون والمسيحيون يعيشـون تحت مظلة التسامح التى كانت سـائدة خلال العصـور الوسطى ،

أما الموريسكى فقد كان يشعر بأنه إسبانى :" نبكى إسبانيا أينما كنا فهناك وُلِدْنا وهى وطننا الطبيعى ... وها أنا أعيش وأعرف ما اعتاد الناس أن يرددوه وهو أن حب الوطن أمر ممتع " ، وقد وردت هذه العبارة فى رواية " دون كيخوته " على لسان موريسكى يعيش طريداً خارج إسبانيا [الجزء الثانى صـ ٤٥] . ويزداد هذا الشعور قوة عندما نلاحظ ما يشعر به المسيحيون المخلصون ، إذا كان فراى إيرناندو الطّلبيرى [F. H. de Talavera وهو أول أسقف لغرناطة [يعتقد أنه لكى يكون الموريسكيون وباقى الإسبان ممن حَسُنت مسيحيتهم فيجب " علينا أن نجعلهم يعتنقون ديننا وأن نأخذ عنهم صالح الأعمال " (١٨) ؛ ولم تكن تلك مشاعر وقتية أو ذات طابع سياسى ففى عام ١٦٣٨م لاحظ المؤرخ برمـوديث دى لا بيـدراثا B. de la Pedraza أنه إذا مـا غـاب الإيمان بين صفوف الموريسكيين وكثرت هالات التعميد ، فيجب أن نعترف " بأنهم يفعلون أموراً تتسم بالصلاح الأخلاقى وخاصة فى ميدان التعامل والعقود ، كما كانوا رحماء بالفقراء منهم ولا يميلون إلى اللهو بل يعمل الجميع " [لونجاس ص ٤٢].

وهانحن نشهد أزمة فى زمن شديد " التأزّم " وقد وجدت تعبيراً عن نفسها فى أساليب فنّ الباروك ، وعلينا ألا ننظر للمسألة ببساطة ونقول بأن روح اللاتسامح الإسبانية قضت على التصلّب الإسلامى المتمرّد على الاتحاد القوى لإسبانيا فى عهد فيليب الثانى ، وإذا ما كان الأمر على هذا النحو فليس إلا صداماً بين العقل والحياة وهو صدام يعيه جيداً هؤلاء الذين كانوا يحلمون بالتوفيق بين " الإيمان بلا عمل " – الذى عليه المسيحيون القدامى – وبين " العمل بلا إيمان " الذى عليه مناوئوهم ، وعندما تم الفصل بين الطرفين كانت الكارثة التى لا مناص منها ، وقد لاحظ بدرو جوثـمان P. Guzman (من اليسوعيين) فى عام ١٦١٤م أن بعض المارقين من البروتستانت يعيشون حياة " سعيدة " لما يقومون به من أشغال وينظرون إليها على أنها إحدى الفضائل الاجتماعية البناءة (١٩) ؛ وقد كان فى إسبانيا دوماً شعور بما يجب أن يكون عليه العمل الطيب ، غير أنه كان من المستحيل وضع ذلك موضع التنفيذ وبذلك فإن هذه الازدواجية بين الضمير والسلوك هى الأساس الذى تنبثق عنه الملامح الدائمة والثابتة للحضارة الإسبانية .

وخلال القرن السادس عشر كان فى إسبانيا بعض علية القوم فى إقليم أرغن من الذين قَبِلوا على مضض ضغوط محاكم التفتيش على الموريسكيين الذين كانوا يقومون آنذاك على أمر الزراعة :" ولما لم يكن لهؤلاء السادة دخل رئيسى آخر يعيشون منه وينفقون منه على أُسَرِهم ، شعروا بوطأة قيام محاكم التفتيش بمعاقبة أتباعهم ، وقد ظهر أثر ذلك فى المال والأفراد حيث عمّت الشكوى من ظلم تلك المحاكم ومن القائمين عليها " ، والعبارة السابقة جزء من نص توجه به أحد أعضاء محاكم التفتيش فى إدارة سرقسطة إلى الإدارة المركزية فى مدريد خلال عام ١٥٥٣م وبعد ذلك بقليل – أى فى عام ١٥٦٩ – تم تقديم السيد/ سانشودى كاردونا S. de Cardona – أحد القادة المشهورين فى عالم البحار – إلى محاكم التفتيش بتهمة تسامحه المبالغ فيه مع الموريسكيين ، حيث سمح لهم بإعادة بناء مسجد ، ونسبت إليه المحكمة نيته الذهاب إلى حضرة بابا روما والى سلطان تركيا للإعلان عن احتجاجه على التعميد الإجبارى للموريسكيين البلنسيين (٢٠) ، ولما لم يكن من السهل المزاوجة بين " الإيمان بلا عمل " وبين " العمل بلا إيمان " أصبح من المستحيل إحداث نوع من الانسجام فيما يتعلق بالمصالح الاقتصادية ، فأمور الحياة الدنيا الملموسة والمُعاشة لم تكن شيئًا جوهريًا للروح الإسبانية التى وقع على عاتقها تقرير مصير شبه جزيرة أيبيريا ، نجد إذن أن من كانوا آنذاك على رأس القيادة لم يروا فى الموريسكى إلا شخصًا متمردًا ، ولم يكن هناك ميدان مشترك من الأنشطة والمصالح المتبادلة التى يجتمع فيها حب إسبانيا الموريسكيين والمشاعر الطيبة التى يكنها لهم بعض أولئك الناس من ذوى الحسّ المرهف، وأخذت المشكلة أبعادًا جديدة هى الصراع بين الإرادات وقد تجرّدت من منافع الحياة التى تم تحييدها رغم أنها تتعلق بالجميع ولا تخص فردًا بعينه ، والمحصلة الطبيعية لهذا الصراع هى القضاء على أحد الطرفين دون أى نوع من الالتزام ، وقد تم إرضاخ سادة إقليم أرغن وأصبحت حقولهم جرداء ، وهنا ألمح نوعًا من نقْمة أرغن على السلطة المركزية فى قشتالة وظهر خلال القرن السابع عشر عندما تحوّلت المطابع فى تلك المنطقة لطباعة الكتب التى تتضمن عبارات مُرّة كتبتها أقلام ساخرة استطاعت وضع صورة سيئة للنظام القائم :، والأعمال الأولى لكيبيدو كانت تقطر مرارة وكان أول ظهور لها فى أرغن وليس فى قشتالة ، وإذا ما كانت السياسة التوحيدية التى اتبعها

فيليب الثانى ، والمناهضة لقوانين أرغن ، هى السبب فى التّغاضى عن أية كتابات تهاجم المجتمع فإننى أرى أن طرد الموريسكيين قد أسهم فيضرب ذلك التضامن الهشّ الذى كان قائما بين الممالك الإسبانية .

وبوسعنا حساب المسافة الزمنية الفاصلة بين طرد الموريسكيين عام ١٦٠٩م وبين طرد اليهود ١٤٩٣م ، فقد كان أولئك جزءًا من إسبانيا وامتدادا لشعبها ، وهذا ما يفسّر المديح والهجوم اللذين أشرنا إليهما قبل ذلك ، أما هؤلاء (اليهود) فقد شعر الناس أنهم بمثابة شظية غرست فى اللّحم ، كما أن الشعب لم ينظر إليهم بعين الاعتبار أبدًا ، ولم يجرؤ أى فرد على الدفاع عنهم جهارًا حتى بعد طردهم ، ولم تذعن لهم إلا تلك الفئات الاجتماعية الراقية التى كانت مأخوذة بتفوقهم الثقافى وقدراتهم التقنية والإدارية (٢١) ، كما أن دورهم الاجتماعى كان مختلفًا عن الموريسكيين الذين كانوا -- على أسوأ الأحوال – أدوات مفيدة ومُسلّية، كما أنهم انخرطوا منذ قرون عديدة فى الحياة القومية ، إلا أن إيمانهم المشكوك فيه جعلهم يقاومون غلظة محاكم التفتيش لأكثر من قرن من الزمان ، كما حظوا بالكثير من الحماية واستطاعوا التأثير على بعض قدامى المسيحيين بمعسول القول وعبقريتهم فى كسب المال ، كما أدخلوا إلى الكاثوليكية الإسبانية أنماطًا من التصوّف ، وأدخلوا إلى الأدب – خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر – موضوعات وأساليب موروثة من التراث العربى ، وكانت التقاليد التليدة هى ساعدهم فى ذلك فهناك الكثير من مناطق الروح الإسبانية وقد تأثرت بالإسلام والنمط الحياتى الذى سوف نتحدث عنه ، وخلال القرن السابع عشر نشهد ختام المرحلة التى بدأت فى القرن الثامن بخضوع المسيحيين المستعربين للمسلمين ، وتمثل الختام فى إذعان الموريسكيين وطردهم بعد ذلك على يد الثيوقراطيين.

وعندما تنشر تسعمائة العام أمام نواظرنا نتساءل :أى غرابة فى مطالبة اللغة والعادات والدين والفن والأدوات وبعض الملامح الأساسية فى الشخصية الإسبانية بأن نضع فى اعتبارنا كل هذه الفترة الطويلة ؟ سوف نحاول أن نضع ذلك فى الاعتبار على أنه صيغة بنيوية للتاريخ وليس مضمون حياة ، ونؤكد من جديد على أن إسبانيا المسيحية لم تكن كيانًا له وجوده الثابت والخاص به ثم تعرّض بعد ذلك للتأثير المؤقت

للإسلام وكأنه " موضة " أو منهاج حياة فى تلك الأزمنة الخوالى " فلقد " تشكّلت إسبانيا المسيحية وضمّت فى دائرتها الحياتية كل ما تمخّض عن احتكاكها بالإسلام وتطعّمت به" .

ولن أقوم بسرد تفصيلى لتاريخ الحضارتين الإسلامية والمسيحية فى إسبانيا العصور الوسطى ، فهذه مهمة تم القيام بها بجلّها رغم وجود بعض الأحداث التى لم تتم معالجتها ، وليس باستطاعتى الوفاء بها ، ويتلخص هدفى فى توضيح كيفية تشكيل القيم الكبرى لما هو إسبانى ، وهنا يمكن أن أخدع نفسى ، ورغم هذا أريد المخاطرة ، وربما ارتكاب الخطأ ، من أجل الخروج بنتيجة تقول بأن أكثر السّمات أصالة فى المزاجية الإسبانية تضرب بجذورها فى أنماط حياة تشكلت خلال تسعمائة عام من التعايش المسيحى – الإسلامى – اليهودى .

اللُّغة :

اللغة هى خير برهان ، فهناك آلاف المفردات العربية فى اللغة الإسبانية والبرتغالية ، وهذا انعكاس لحاجات وضرورات ملحّة ، فقد حدث نفس الشىء بالنسبة للغة اللاتينية فى اتخاذها الكثير من المفردات اليونانية (٢٢) فلازال هناك الكثير من المفردات العربية فى لغة الأدب واللغة الدّارجة (٢٣) غير أن التراكيب النحوية لم تتأثر بالعربية وذلك لأن التراث المكتوب – ذا الأصل اللاتينى الرومانى – لم يُفْقد بكامله بل تم التأكيد عليه متزامنًا مع درجة الوعى القومى الذى كانت عليه الدولة المسيحية ، وإذا ما كانت إسبانيا قد خضعت بكاملها للسيطرة الإسلامية – مثلما حدث لإنجلترا تحت سيطرة النورمانديين – لكانت التراكيب النحوية قد تعرضت لتغيّرات جوهرية ، غير أن الرومانية الإسبانية قد اتخذت الكلمات العربية شديدة الصلة بالحياة وكأنها شىء تفرضه الظروف وليست السلطة الحاكمة ، ولقد كان على الإنجليز أن ينطقوا ألفاظًا مثل Veal و beef ذلك أن السادة الذين يحكمون المدن كانوا يتحدثون بهذه الطريقة التى لا مناص منها حيث كان عليهم أن يبيعوا لهم اللحوم ، ومن الواضح أن العنصر النورماندى فى اللغة الإنجليزية جاء نتيجة أمر فُرض عليهم ، أما العنصر العربى فى

اللغة الرّومانية الأيبيرية فيرجع إلى ضرورة مُلحّة تتعلق باستيراد الحاجيات التى هى ثمرة القدرات الإنتاجية العربية المتفوّقة ، وتتعلّق تلك الواردات اللغوية العربية بمناحى شتى فى الحياة إذ تشمل الزراعة وتشييد المبانى والفنون والحرف المختلفة والتجارة والأدوات العامة والعلوم وشئون الحرب ، ومن الدلالات البالغة أن ألفاظا مثل tarea أو tarefa بالبرتغالية هى مفرد عربى بمعنى " طريحة " فقد كان العرّيفة alarifes يقومون بتخطيط المنازل بينما يقوم البناءون albaniles بالتشييد (٢٤) ولهذا فالكلمات التالية هى من أصول عربية : alcazar (القصر) و alcoba (القبة) و azulejo (الزليج) و azotea (السطح) و baldosa (البلاطة) و zaquan (الزقوان) و aldaba (الضبّة) ، أما بالنسبة لتقنية استخدام المياة فنجد acequia (الساقية) و aljibe (الجُب) و alberca (البِرْكة) والعديد من المفردات الأخرى ، كما أن الخياطين كانوا من المسلمين ولذلك أطلق عليهم مسمى alfayates (الخياطون) وأطلقت لفظة alfa- jemes على الحلاقين ، وبالنسبة لنقل البضائع كان يقوم بها البغّالون arrieros وسائقو قوافل الدواب recueros ويتم البيع فى zocos (السوق) و azoquejos (السويقات) و almacenes (المخازن) ... ؛ كما يتم دفع حقوق الديوان aduanes ويكيلون ويزنون باستخدام الرّبعة arrobas والرّلدة arreldas... ، ويقوم بعملية التفتيش zabazoque والمتزن almotacén ، أما المجرّف almojarife فقد كان يتلقى الإتاوات التى تدفع بالعملة المرابطية maravedis أو المثقال meticales ، ويسيطر على المدن والقرى القائد alcaldes و alcaide .. كما يتم إعداد الحسابات بالأرقام والخوارزميات guarismas أو بالجبر lgebra ؛ أما الكيميائيون alquimistas فقد كانوا يقومون باستخلاص الكحول alcohol من خلال القطّارات alquitaras... أو يقومون بإعداد الكليس alcaeis والأكسير alixires والشرات jarabes ويضعونها فى re domas ؛ وتتكون المدن من أحياء وأرباض arrabales ، والناس يأكلون السكر az?car والأرز arroz والنارنج naranjos والليمون limones والباذنجان Berenjenas والجزر zanahorias والبرقوق albaricoque والترمس altramuces والخرشوف alca- chofas... والكثير من الأشياء الأخرى ، وبالنسبة للزراعات التى أشرنا إليها قبل ذلك، فقد كانت تنبت فى أرض الريّ الدائم ، ولما كان المطر قليلاً فى إسبانيا (ماعدا المنطقة

الشمالية) فقد تطلّب الرى الكثير من الجهد واستخدام الطرق الفنية لتوزيع المياه وجريانها ، وقد برز العرب فى ذلك كثيراً إذ كانوا فى حاجة للمياه للاستحمام وريّ الأرض ؛ كما ذكرتُ قبل ذلك كلمات مثل البركة والجب والساقية ، إلا أن الألفاظ ذات العلاقة بريّ الحقول كثيرة وها أنا أذكر بعضًا منها noria (الناعورة) و arcaduz (القادوس) و almatrich المتريس و alcantarilla (القنطرة) ...الخ .

أما فيما يتعلق بالمفردات الخاصة بالمياه فإننى أودّ لفت الانتباه إلى أن الدراسات الخاصة بالمصطلحات العربية الإسبانية لم تهتم بعملية نقل المصطلحات ، وبالتالى لم تتوقف كثيراً عند مفرد مثل ojo (عين مياه تفيض فى السهل) ، وهذا مفهوم لا يندرج تحت إطار ما هو رومانى ، وهى كلمة محرّفة عن اللفظة العربية " عين " بمعنى النبع وبمعنى عضو الإبصار ، وهذا يفسر لنا المسمى الجغرافى " عين وادى يانه " El ojo del Guadiana ؛ وتكفى هذه العينة من الكلمات لنعرف مدى عمق وامتداد النسيج الإسلامى المسيحى كما أننى لم أُشِر إلى المصطلحات العسكرية مثل الجرادة algarada والرباط rebato.. الخ (٢٦) أو إلى تلك المتعلقة بصناعة الأشياء مثل almazara (المعصرة) و alfiler وajorcas.. الخ . ومما سبق يتضح أنه لايكفى القول بأن المسيحيين أدخلوا مسميات كثيرة أو أنهم عانوا من " التأثيرات " ذلك أن ما تكشف عنه هذه الكلمات هو المساحة التى تحتلها تلك الأنشطة فى الحياة المسيحية وليس مجرّد ذكر المسميات أو تأثير المسلمين ، والأمر ببساطة عبارة عن نمط حياة تتمثل إحدى عناصره المهمة فى العناية بالأرض الأم وعشق بعض الملذّات الحسّية والجمالية وخوض غمار الحروب ، وقد انساق الإسبانى خلال القرون الأولى لحرب الاسترداد (كانت فترة طويلة) وراء ذلك النمط الحياتى، إلا إنه لم يتخذ الأنشطة الثقافية فهو لم يكن يفهمها ولم يمارسها خلال العصور الوسطى ، كما أن مهمته الكبرى تمثلت فى إعادة استيطان الأرض التى خلت من سكانها فى المناطق التى وراء الحدود وأن يتقدم بقوّاته كلما كان ذلك ممكنا ، وكان المسيحى يعيش على مسيحيته ولم يستخدم إلا القليل من المفردات ذات الطابع الدينى الإسلامى عندما يتحدث عن الإسلام مثل alquibla (القبلة) و azala (الصلاة) و almuédano (المؤذن) ، أما فيما يتعلق بالعلوم فنلاحظ أن الملك ألفونسو العالم قد اتخذ الكثير من أسماء النجوم

(مثل aldebaran على سبيل المثال) (٢٧) ، لكن لا يوجد شيء فى المفردات العربية التى دخلت اللغة الإسبانية مما يمكن أن يقال عنه إنه مماثل لما حدث بالنسبة للمفردات اليونانية عندما دخلت اللاتينية (مثل Categoria و theoria) فلم يقم أى قشتالى بالتعمق فى كتابات عظماء العرب (مثل الغزالى وابن رشد وابن حزم ... الخ) مثلما فعل شيشرون وسنيكا مع الفكر اليونانى إذ قاما بترجمته وإكسابه الطابع اللاتينى ، وما حال دون ذلك بالنسبة للعربية يعود إلى أسباب دينية والى ظروف الحياة المسيحية، كما يجب ألا يغيب عنا أن كافة المسمّيات ذات الأصل العربى لم تكن تشير فقط إلى المُحسّات فهناك بعض الصفات الأخرى مثل : rahez و gandul و zaharreno و jarifo و garrido ... وأتصور أن كلاً من reacio و Mohin من أصل عربى .

وليكن معلومًا أنه لا يوجد قاموس صرفىّ للغة الإسبانية كما لم يقم أحد حتى الآن بمهمة جمع المكونات الشرقية فى هذه اللغة وتحليلها تاريخيًا، ومن هنا نرى أنه من الممكن اكتشاف المزيد من الصفات والأفعال ذات الأصول العربية، كما نجد أن هناك جانبًا آخر لا يكاد يكون ملحوظا ألا وهو المتعلق بالتعبيرات شبه المتحوّلة -Seudo morfosis التى تعبر عن توافق فى المعايشات ، فهناك نقل للفظة عين: عين ماء Ojo de agua أى أن لفظة ojo تشير إلى نبع مياه ، وهنا نجد أنفسنا أمام ظواهر تسمى " الاستلطاف الحيوى " وهذه تختلف عن عملية اتخاذ الكلمات الأجنبية كمؤشر على استخدام الأشياء المذكورة ، وسوف أقدم الآن بعض الأمثلة كما سأترك بعضها الآخر لأقوم بتحليله فيما بعد فى الإطار المرسوم لها ، وهناك استخدامات خاصة فى اللغة الإسبانية لكلمة Sombra (ظل) فالأشخاص " يعطون الظل " و " لهم ظل " وهذه ظاهرة غير معروفة فى لغات رومانية أخرى :

عندما وصل إلى الباب ذلك الذى ولد فى ساعة طيبة

ألقى بظلاله على المنازل وجعل الجير يلمع

وإذا لم يكن بالمنزل بشر فلا قيمة له (٢٨)

واللفظة تعنى نوعًا من " الحماية الأخلاقية " وهو تعبير مجازى للظل الفيزيقى الذى يظهر عند خوان رويث J. Ruiz قُمُصّ إيتا Arcipreste de Hita وقد اكتسب معنًى جديدًا :

لن أعصى الله ولن أضيّع جنته

بسبب إثم فى الدنيا التى هى ظل غَرُور (ص ١٧٣)

... فعندما تحب امرأة

فعليك ألا تعشق أخرى غيرها

وإلا فكل ما لديك هو ظل القمر . (ص ٥٦٤)

فالظل الغرور وظل القمر باهتان وزائلان ، وأحيانا أخرى نجد أن اللفظة لا تعنى انعكاس شىء خارجى (فيزيقى أو أخلاقى) بل تعنى شيئا يشكل جزءًا من وجود الشخص " وكان للفتى ظلٌ قوى فى جسده لدرجة استعصى معها أن يزول منه " (٢٩) والمعنى هنا هو الفزع والرعب ، فالظل هنا واقع مستقل عن الشئ الذى يعكسه ، ثم ينسحب على كيان آخر طبقًا لنمط الحياة العربية ، فالواقع ما هو إلا شىء زائل وهذا يختلف عن الجوهر ، وهذا مانراه عندما نقترب من مؤلفات قُمصّ إيتا (خوان رويث) (٣٠) .

ولفظ "الظل" العربية تعنى الظل والملاذ ..الخ ، أما لفظة " الخيال " فتعنى أيضًا الظّل وتعنى كذلك خيال الإسان فى المرآة ، وكذلك الشخص أو الجسد ، والشكل أو الإنسان وهو يُرى من بعيد (٣١) ، كما نجد أن " خيّل " تعنى فكّر فى شئ أو تخيّله ، وقد سمعت ذات مرة هؤلاء اليهود الذين يقطنون فى المغرب ويتحدثون القشتالية القديمة وقد تخللتها مفردات عربية ، وهم يصفون المرأة الجميلة بقولهم " إنها ذات خيال جيد " وذلك بلهجة مغربية (٣٢) وبهذا يمكن أن ندرك سر العبارة الإسبانية القائلة بأن فلانًا خفيف الظل ، أو ثقيله ..buena sombra o mala" (٣٣) وهذا المعنى الإضافى للفظة sombra الإسبانية ليست له سوابق لاتينية أو رومانية ، ولابد أنه مرتبط بالفكرة الشرقية ذات الوجود الخاص بها، وقد دخلت إلى الشخص وكأنها ملاك أو شيطان ،

ولهذا يمكن أن نقول بالإسبانية بأن شخصًا ما " tiene angel" وهنا نجد أن لفظة angel تقوم بوظيفة وجودية وتقوم فى الوقت ذاته بوظيفة اسمية كما أنها صفة لوجود، فكأننا نقول بأن " له حياة ملائكية ، أما الظلال كعالم موجود ومتنقل فلا يفهم ذلك إلا فى اللغة العربية ، وهذا ما سنوضحه بجلاء أكثر فى موضع آخر من هذا الكتاب .

وهناك حالة أخرى من حالات التوافق الإسبانى العربى ، وهى تلك التى نراها فى معانى لفظة correr وهى معانى لا يمكن إدراكها فى اللغات الرومانية تقول ملحمة السيد " Davan sus corredores { البيت رقم ١١٥٩ } ومعناه " يقدمون جنوداً يقومون بالغارات " ويلاحظ مننديث بيدال أن هذا المفهوم الغريب للفظة corredor قد استمر حتى القرن السادس عشر ، ومع ذلك لا يقدّم لنا تفسيراً للظاهرة ، والتفسير ممكن إذا ما أخذنا اللفظة على أساس أنها نقل لمعنى اللفظة العربية " المغاوير Almogauar أى الذى يمتطى صهوة الجواد ، وأن لفظة corredor مشتقّة من غوارة gawara بمعنى المُغير والذى يقوم بالسلب depredor وهما معنيان أدخلا على اللفظة الإسبانية .

كما تتضمن لفظة palacio معنًى آخر لا يمكن لنا أن نعيه جيدا إلا من خلال العربية وهو " حجرة فى منزل " ، وقد كان هذا المفهوم قائمًا خلال القرن العاشر " palacios duos et supratos dous ..in ipsa casa" بمعنى {فى المنزل .. حجرتان وسقفان} (عام ٩٦٧م) ، وقد ورد لدى مننديث بيدال فى كتابه " ملحمة السيد " ، ص ٧٨٣ ما يلى " حجرات منزله ...Los suos palacios de su {بلاط قشتالة وليون} {٥١٢} ،وبمعنى الحجرة الكبيرة لتلك المنازل El palacio mayor de aquellas casas {التاريخ العام ص٦١٥} ، أما فى إقليم طليطلة الذى خضع لتأثيرات بعيدة من المستعربين فقد أطلقت اللفظة palacio على حجرة فى الدور الأرضى خلال القرن السابع عشر ، كما أن اليهود الإسبان الذين يعيشون فى المغرب يحتفظون بهذا المعنى مع وجود فارق بين palacio بمعنى حجرة فى الدور الأرضى ، و"غرفة" بمعنى حجرة فى الدور الذى فوقه ،وهذا هو نفس ماورد فى الوثيقة التى ترجع إلى القرن العاشر [٣٤] ، ولا يوجد فى اللاتينية أو اللغات الرومانية ما يشير إلى هذه المعانى الغريبة ، وهى معانى كان من الضرورى أن تضعنى فى الطريق الصحيح للتعمق فى

الخصائص الإسبانية ، غير أن المفهوم الخاطئ القائل بأن الإسبانية والبرتغالية هى لغات رومانية فقط حال دون أن أدرك المعنى الغريب حيث تطلق لفظة palacio على غرفة فى منزل ، لكن تزول عنا الغرابة عندما نضع أنفسنا فى الجانب العربى من الناحية التاريخية ، فاللفظة هى Palacio بمعنى Alcazar وعندما ننطقها نتخيل قصراً أو قلعة حصينة مقامة على ربوة عالية ، وهنا ينبغى أن نعرف أن أحد المعانى الأساسية للفعل " قَصَرَ " من القصور بمعنى أن السهم لم يصب الهدف ، وهناك معنى آخر هو تحديد المكان وقصره على أحد ما أو الانكفاء على أو الاقتصار على، وعلى هذا فإن عبارة مثل " قَصَرَه فى بيته " تعنى حبسه فى منزله وهو معنى نجده فى الفعل Encastllarse بمعنى انزوى وانحبس على أفكاره ، تصبح لفظة قصر إذن بمعنى حجرة يحبس فيها المسلم حريمه (٣٥) أى فى سراى خاص ...الخ.

والإسبانى الرومانى الذى كان يسمع كلمة قصر يترجمها palacio بالإسبانية و paço بالبرتغالية وهى ترجمة لا تمت بصلة فى هذه الحالة للفظة اللاتينية palatium؛ ومن الواضح أن القواميس تخلط بعنف بين المفردين رغم أن كل واحد منهما غريب عن الآخر ، فالمنزل الذى كان يعيش فيه الأشراف يطلق عليه قصرٌ (ولهذا لازالت لفظة القصرٌ palacio تطلق حتى اليوم فى مدينة جيبوثكوا Guipuzcoa على تلك المنازل التى يعيش فيها الأغنياء والمقامة خارج المدينة) ، وهذا نوع من الاستخدامات القديمة ؛ كما أن لفظة paço تستخدم فى البرتغالية والجليقية بالشكل الذى نراه فى رواية الكاتبة باردو باثان Pardo Bazan بعنوان " منازل أيّوا " Pazos de ulloa ، وبكثير من السذاجة نعتقد أن الاسم يرجع إلى شبه بين منزل الشريف وقصور الملوك ، وهو نوع من التفاخر يزيد عن الحد بالنسبة للخيال الإسبانى البرتغالى ، فهذه الكلمات لم تكن تعنى إلا Quinta بمعنى بيت ريفى أو فندق Hotel بلغة أهل مدريد أو Villa فيلا بالفرنسية أى " منزل فى مكان منعزل ولاشىء أكثر " (٣٦) .

وحتى نتمكن من فهم مهمة المؤرخ فهمًا جيدًا فإن لفظة palacio تضم بين أحد معانيها ، الحجرة المنعزلة فى المنزل ، فالمسلم كان يُسْكِنُ زوجاته فيها ، ثم استخدمها المسيحى أيضا لنفس الغرض ولكن لزوجته الوحيدة ، ومن هنا اكتسبت اللفظة معنًى آخر هو " الصّالة " (٣٧) أو غرفة النوم فى الدور الأرضى ، فلم تكن المعيشة أو النوم

إلا فى هذا المكان فى المنزل وليس فى باقى أجزائه " الغرف " ، ومن هنا ندرك سرّ عبارة تيرسو دى مولينا التى وصف فيها الكيفية التى عثر بها أحد الفرسان على امرأة جميلة نائمة " فى صالة يطلقون عليها هنا فى طليطلة قصرا " (٣٨) .

غير أن التعقيدات بشأن المَسْكَن لم تنته عند هذا الحد ففى ملحمة السيد نجد أن لفظة casa تعنى بلدة ومدينة ، فاللفظة العربية " دار " تعنى المنزل وتعنى أيضا المقر والمدينة فهناك عبارة " دار الولاية " أى العاصمة ، أو بلاد مثل " دار الحرب " بمعنى الدول المسيحية ، و " دار السلام " أى بلاد المسلمين ... وهكذا ومن هنا ندرك سرّ عبارات مثل "Molina, buena y rica casa" كانت (مدينة) مولينا داراً جيدة وغنية " {ملحمة السيد البيت رقم ١٥٥٠} (٣٩) .

وبالإضافة للمعانى التى ذكرناها للفظة Casa (البلدة والمدينة) نجدها تعنى أيضا حجرة فى منزل، وهو استخدام قديم استقرَّ فى اللغة البرتغالية -Oprmeiro an dar tem sete casas { بمعنى أن الطابق الأول به سبع حجرات}، ومن هنا أيضًا ندرك سرّ تسمية الحمام بـ Casa de bonhos أو تسمية غرفة الطعام Jantar a casa de ، وحتى القرن السابع عشر كان الجمع لهذه اللفظة unas casas يطلق على المفرد ، أو يقال " زوجان من المنازل un par de casas على البيت الواحد المكونّ من طابقين ، ويحدث نفس الشىء فى اللغة العربية حيث أن لفظة " الدوّر " (مفردها دار بمعنى منزل يتكون من عدة حجرات وصالة { Lane ، Lexicon } ، أما الكلمة العربية الأخرى المرادفة للدّار فهى بيت و يمكن أن يكون معناها : " بناء له سقف واحد وله مدخل " إذ نجد أن نفس الظاهرة المتعلقة بلفظة Palacioتتكرر بالنسبة للفظة Casa حيث يمكن أن تطلق على الجزء والكل وهذا أمر لا غضاضة فيه بالنسبة للعربية .

وهناك تأثيرات عربية يمكن أن تلتقطها فى أحد معانى لفظة Vegüenza وهو معنى من الصعب اتساقه مع التقاليد الرومانية " أما فى المقدمة أو المؤخرة ... يجب وضع ... أكثر الناس قوة والرجال الأكثر "وفاء " وخبرة " (٤٠) ، " وهذه الأعداد القليلة التى ظلت مع الملك لم تكن مكوّنة إلا من الفرسان وأتباعهم وأناس آخرين ربّاهم الملك فى بيته وتحت كنفه وقد كانوا جميعًا من الرجال الشجعان والشرفاء " (٤١) ، إذن

فمعنى اللفظة فى هذا السياق هو الشرف والوفاء وهما من السمات الإيجابية ، وينتفى عنها هنا معنى " الخَفْر" أو " الاحترام " الذى يحول دون ... وهذا المعنى الجديد للفظة لا نجده فى أى من اللغات الرومانية فمن من غير المفهوم أن تقول " un homme de honete أو نقول un uomo di vergogna ، ومن هنا أعتقد أن اللفظة الإسبانية التى نتحدث عنها قد أخذت هذه المعانى الإضافية من اللغة العربية ، ويلاحظ بدور دى ألكالا P.de Alcala– الذى نرى فى لغته تأثير اللغة العربية التى كانوا يتحدثون بها فى الأندلس – [٤٢] أن لفظة Verguença تعنى العـــار ، وهذه اللفظة ، " عـــار " ، استخدمها أ.ويستر ماك E.Westermack [٤٣] ، فالمسلمون يطلقون لفظة " عار " على ما يجب أن يقوم به شخص آخر فيقال مثلا " أنا فى عار الله أو فى عارك " وهذا يعنى أنه لابد أن يمد لى يد المساعدة أحد الناس وإن لم يفعل فهو يعرض نفسه لسوء المثال كما تستخدم اللفظة أيضا للدلالة على ما يجب أن يقوم به الفرد لمدّ يد العون " هذا عار عليك " ، وهذا المفهوم هو الذى يتسق مع ما ورد فى كتاب التاريخ الذى أشرنا إليه آنفا وبالتالى يمكن ترجمة عبارة en quien avia verguenza بقولنا "لدى من عنده عار" كما أن لفظة العار تحمل فى طياتها لعنة مشروطة : إذا لم تفعل ما أريد يمكن أن تلقى حتفك أو يَمسك سوء ، قد رأينا فى النصّ المشار إليه أن كتاب التاريخ يشرح الأسباب التى من أجلها كان الرجال القليلون الذين مع الملك شرفاء أو على"عار" ، ولو لم تكن إمكانياتى فى الأبحاث متعلقة بالصّرف محدودة لكنت قد كشفت ما سبق أن عرضته شرحًا وافيًا حتى تكون الحجة دامغة ، ويتجلى هنا بوضوح أن المشاعر الإسبانية الخاصة بالشرف بها الكثير من التأثيرات العربية واليهودية [٤٤] .

الشريف : Hidalgo

يعتبر مفهوم الشرف والإحساس به من الصفات الإنسانية ، فمنذ أن بدأ تدوين الأحداث نجد أن لفظة fijodalgo تشير إلى فرد ينتسب إلى الفئة المميزّة والمصطفاة لكن " الشرفية " لا توجد كلقب اجتماعى رغم أن أصداءها ترّن فى تعبيرات مثل " شرف المشاعر " ، " الوضع الشرفى " ...الخ ، وكانت اللفظة المذكورة تعنى خلال

العصور الوسطى ، الرجل الحّر من ناحية السّلالة ، وطبقا لما يقوله رامون منذيث بيدال كان هذا الرجل عضواً ينسب " إلى أعلى طبقة من طبقات النبلاء " (٤٥) ، ويعرفّ الملك ألفونسو العالم " الشرفاء " على أنهم " الأبناء الأصلاء الذين تم انتقاؤهم من أماكن طيبة ، كما أن لفظة algo الإسبانية تعنى المال " ، وقد وجد بيدال (فى العمل المشار إليه سابقا) (٤٦) نصّا رائعًا يعود إلى عام ٩٨٥م حيث وردت لفظة fijodalgo، وقد كتبت بصياغة لاتينية غريبة ، فى التعبير التالى fili i bene natorum" " للإشارة إلى بعض النبلاء الذين كانوا يرتادون بلاط الملك.

ومن الواضح أن ذلك التعبير غريب ، ولا تكمن الغرابة فى الترجمة اللاتينية فقط بل فى اللغة الإسبانية ، والأغرب من هذا أنه لم يسترع انتباه المؤرخين قيام فئة من النبلاء يتأسّس اسمها على الأبوّة (صله النسب) والجغرافيا ، ولا توجد فى اللغات الأوربية ألفاظ من تلك التى تشير إلى طبقة النبلاء وهى تحتوى على لفظة hijo (ابن) كما أن لفظة algo تعنى " المال " و "الخلق " ، وسوف أتحدث تفصيلاً عن هذا فيما بعد [fili i bene natorum]؛

ولا نجد مثل هذه المعانى خارج دائرة الإسبانية والبرتغالية ، وإذا لم نقع نحن معشر المؤرخين تحت الضغط النفسى _ وهو الخوف من إضفاء الطابع الإسلامى على الماضى الإسبانى – لكنا قد اكتشفنا منذ زمن طويل أن لفظة fijodalgo (أى المفرد وليس اللقب الاجتماعى) لابد وأن تكون انعاكسا لعبارة عربية ، وعندما نتخلّص من هذه الضغوط المناهضة لما هو إسلامى نجد أن اللفظة المذكورة تشير – مثل غيرها من الكلمات – إلى ظروف الفرد ووضعه بناء على مفهوم أسطورى : " فالإنسان الغنى " هو " ابن الليل " ، و" الرجل الشريف " هو " الابن الحر " والإنسان الحسن التربية هو " ابن أناس جيّدى التربية " (أى ابن قوادم) ، ومحارب هو " ابن الحرب " ... الخ .

أما تعبيرات مثل " أمراء كاريّون " infantes de Carrion وأمراء صالاس أو أمراء لارا " إنما هى تحوير لتعبيرات عربية على شاكلة " بنوجومث " وهو الاسم الذى أطلق على أمراء كاريوّن فى ملحمة السيد ، كما كان المسلمون يطلقون على ملوك ليون أو الأسرة الملكية هناك عبارة " بنو ألفونسو " وعبارة " بنو فرناندو " وهم من سلالة

كونت قشتالة ، وفى هذه الحالة نجد أن لفظة " بنى " hijo يتبعها اسم الشخص ، ومع ذلك فهناك حالة نعثر فيها على الاسم الفكرة مثل بنو الأخماس جمع خمس ، ويعرّف دوززى هذه اللفظة بقوله "إنها تعنى الأراضى الخاصة بالبلاد التى يتم غزوها وتنتقل إلى أملاك الدولة"، أضف إلى ما سبق أننا نجد أصل هذه التسمية فى القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ {سورة الأنفال – الآية رقم ٤١}.

ولما كانت أرض إسبانيا من غنائم الحرب ، يتم تخصيص خمسها للأغراض المذكورة فى الآية الكريمة ، وقد أطلق على هؤلاء الذين يقومون باستزرا ع ذلك الخمس " بنو الأخماس " (٤٧) هم وأبناؤهم، ويشير محمد بن مزين المؤرخ الذى عاش خلال القرن الحادى عشر إلى أن أراضى الخمس تم فصلها عن باقى الأراضى ، كما كانت تزرع لحساب بيت المال على زمن الولاة ، وعندما عاشت الأندلس تحت حكم الأمراء الأمويين وخلفائهم ظلت تزرع ولكن باسمهم حتى عصر التمرد حيث تمرد ولاة الأقاليم فى كل مكان {أى عند سقوط الخلافة القرطبية مع بداية القرن الحادى عشر}. وعلى ذلك فقد ظل الخمس موجوداً طوال فترة طويلة وتحت الأنظمة المختلفة فالله يرث الأرض ومن عليها .

ويرى ذلك المؤرخ أن موسى بن نصير الذى جاء إلى إسبانيا عام ٧١٢م بعد غزوها أعلن أن الخلافة لها خمس الأراضى والمنازل وأمر بتقديم مائة ألف رجل لإرسالهم إلى الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك غير أنه ترك القرويين والأطفال الصغار يعيشون فى الخمس لاستزراعه وتسليم بيت المال ثلث المحصول، و هؤلاء الناس كانوا من ساكنى السّهول وأطلق عليهم : الخمس ، أما الأبناء فقد أطلق عليهم " بنو الأخماس " .

ورغم أن هذه الفقرات موجزة للغاية إلا أنها تزودنا بمعلومات مهمة تقول بأن المسيحيين الذين ظلوا تحت الحكم الإسلامى كانوا يقومون بزراعة الخمس على أن يدفعوا لبيت المال ثلث ما ينتجون ، ويشير النص السابق إلى أن المزارعين قد أطلق

عليـهم " الأخـمـاس " وكذلك على أبنائهم " بنو الأخـمـاس"، وهم الذين ظلوا يزرعون الأراضى المذكـورة ، وقد شـكّل هؤلاء الأفـراد فـئـة خـاصـة كـانت تابعـة للدولة وتحت حمايتها ، ومعروف أن " بنو الأخماس " مفردها " ابن الخمس " .

ولقد بحثت كثيرًا عن بيانات تتعلق بتنظيم ملكيّة الأراضى فى إسبانيا الإسلامية خلال القرنين الثامن والتاسع وكذا القرن العاشر لكنّنى لم أهتد إلى شىء ، ويحدث نفس الشىء بالنسبة لطبيعة العلاقة بين المسلمين والمسيحيين فى هذا المقام (٤٨) ، والشئ الوحيد المتاح أمامنا هو تأمل معنى عبارة hijo de algo أى hidalgo ، ولا أعتقد أن لفظة algo مشتقة من اللاتينية aliquod ، كما لا أتصور أن المفهوم غير المحدّد للعبارة اللاتينية aliquod-algo يمكن أن نخرج منها بمعانى متعددة للفظة algoالتى تدخل فى تكوين عبارة hijo de algo؛ وقد ورد فى الإنجيل عبارة باللاتينية تقول ut faciam cum eo mesericordiam dei (Regum, II, 9,3) وترجمتها خلال القرن الثالث عشر تقول " إلى من فعلت له شيئا " أى بمعنى " الخير والفضل " ، كما أن نفس المعنى نراه فى العبارات التالية " الملك .. هو من يفعل شيئًا لشعبه " {كليلة ودمنة – طبعة الأكاديمية الإسبانية ص ٤٩} " فلنبكه جميعًا وعلينا أن نفعل شيئا " {التاريخ العام ، ٥٠٦ب ،٦ } ويرد نفس الشىء فى اللغة البرتغالية " وهذا الذى نقدمه لكم هو من أجل شىء ومن أجل الحب الذى نناله منكم ..." (٤٩) .

يمكن لنا إذن أن نفسر لفظة hijodalgo على أنها تعنى ابن الخيرات والفضائل ، وهذا ما يتّسق مع الترجمة التى أشرنا إليها سابقًا والتى تمت خلال القرن العاشر fili i bene natorum أى ابن سلالة طيبة ، إلا أن لفظة algo تعنى أيضا الأموال والثروة سواء فى الإسبانية أو البرتغالية :" كسب المسلمون الكثير من الغنائم " algo" فى ذلك اليوم {التاريخ العام: ٦٠٦ب،٤١} ، و el algo هو المال الذى تقدمه المرأة لزوجها لعقد قرانه عليها ويطلق عليه صداق " {Partidos IV, 2, 1} " إذا ما كان هناك مال كثير algo فسوف يفقد نصف ما هو موجود { Fuero Juzgo طبعة الأكاديمية الإسبانية ٢٠٦ ب }، والأمر الشائع هو أن لفظة algo كانت تستخدم فى سياق قضائى أو أخلاقى يقول السيّد {التاريخ العام} متوجهًا إلى ألبار هانيث : " أعرف جيدا أن ما كسبتُه هناك وما قدمتموه سوف يُجمع وتحصل على الخمس " وقد تقدم ألبار هانيث

بالشكر لهذا العرْض " غير أنه لم يرد أن يأخذه لأنه شيء algo {525 A} أى لأنه ثروة ضخمة .

ولا يمكن إدراك هذه المعانى كلها إذا ما كانت منطلقات التفسير تعتمد على اللفظة اللاتينية aliquod ، ويمكن القول بأن لفظة algo كانت نوعًا من الاشتقاق البعيد من كلمة عربية تتضمن معانى هى " شيء وثروة وفضل " غير أننى لم أعثر على ما أريد، وبناء على ذلك أعتقد أن اللفظة الإسبانية ترتبط بالخمس بالمعنى الذى عرضناه ، وتستند عملية الانتقال من الخمس إلى algo – من الناحية الصوتية – على نفس القاعدة التى انتقلت بها لفظة الخليفة إلى alcalifa بالإسبانية ، وكذا لفظة خرّوب algarroba.. الخ (٥٠) ؛ أما بالنسبة لنهاية الكلمة فربّما كان algom(e)s أوalgoms مع اختصار فى الأحرف الساكنة والسّير على قواعد الصوتيات القشتالية ، وربما استُخدمت اللفظة جمعًا فى البداية وهذا طبقا لما نراه فى هذه الجملة un mer- cader muy rico.. habia muchos algos (كان هناك تاجر غنى جداً ... عنده الكثير من الثروة Teodor, La doncella ed. Kunst، p. 507) ، كما أن الشّبه الذى يجمعها بـ (aliquod) algo هو الأساس فى وضعيّة النّبرة ، ولنَرَ مثالاً على ذلك : هناك كلمة برتغالية Faro ، وهى اسم مكان ، وكانت التسمية القديمة Fárum ومن اللازم أن يكون التحوّل هكذا Faróm طبقا للنبر الخاص بالصرف العربى مثل هارون Harün (٥١) .

ومما يتفق مع السّمة الاجتماعية التى ننسبها فى الأصل إلى " الشريف " (الحرّ) الذى يقوم بزراعة الأرض المخصص ريعها للأغراض الخيرية) هو أن الشرفيّة كانت درجة فى سلّم النبلاء ، وهنا نتصوّر الشريف – فى بداية الأمر – وكأنه موظف عمومى مسجّل فى دائرة أموال الدولة ، وبالتالى نجد أن لقب " ابن الخمس" ، سوف يتم تقليده أو تحويله مثلما حدث لأشياء كثيرة يعرض لها الكتاب ، فعلى سبيل المثال ، أعثر على وثيقة طليطليّة ترجع إلى عام ١٢٢٥م تتحدث عن (٥٢) de la orta thesorería وهى عبارة لا نفهمها إذا لم نَرَ أن لفظة thesorería هى ترجمة للعبارة العربية " بيت المال " أى الجهة التى تملك الأموال التى لا وريث لها وتديرها ، كما تتولى أمر الخمس وكذلك الموارد الأخرى المشابهة ، وإذا ما كانت الوثيقة بعيدة عن التراث الخاص بالمستعربين فإن المعنى يمكن أن يكون " مزرعة المَلِك "

وإيجازًا للقول نجد أن fijo d' algo هى اتخاذ تعبير عربى ، ولا توجد طريقة أخرى لفهمها على أنها مصطلح رومانى خالص ، كما وجدنا فى إسبانيا المستعربين هيئة واسما يرتبطان بالجذور العربية بشكل منطقى ، ومن المؤكد أن الطبقة الاجتماعية التى ارتبطت بزراعة " الخمس " – الثروة المادة والثروة الأخلاقية – خلال القرن الثامن هى التى قامت بعد ذلك بمهمّة تصريف شئون بيت المال كما تمتعت ببعض الاستقرار والمكانة الجيدة التى جعلتها من الطبقات المميزة ، وعندما نرى فى كتاب Las Partidas { كتب القوانين – الجزء الثانى ٢١ ، ٢} أن الأشراف قد تم اختيارهم من أماكن طيبة، وشىء بمعنى الخير بلغة إسبانيا ، ولهذا يطلق عليهم أشراف fijosdalgo أى أنهم أبناء خير " فإن كل ما نعرض له يفتقر إلى معنى ومغزى إذا لم تحمل لفظة fijo أحد المعانى الشرقية ، ذلك أن عبارة " أبناء خير " fijos de bienليس لها مدلول بالرومانية، وإذا ما تمكنّا ذات يوم من التعمّق فى الجوانب الاقتصادية والاجتماعية فسوف نرى بوضوح أن قلة المعلومات لدىّ تجعلنى أميل إلى اعتبار الحل الذى أعرضه على أنه افتراض شديد الاحتمال ، ويدخل فى دائرة الاحتمال تلك العلاقة بين fijo d' algo وبين ابن الخمس ، لكن ليس معنى هذا أن العبارة الإسبانية هى محصلة أخرى من محصلات التأثيرات الإسلامية وخاصة على المستوى اللغوى والمؤسسى [٥٣] .

ولمزيد من الإيضاح لما سبق أقول بأن العلاقة بين Hidalgo وبين ابن الخمس يمكن مقارنتها بتلك التى توجد بين لفظة encomienda التى تشير إلى الأملاك الإسبانية فى العالم الجديد ولفظة encomienda التى تشير إلى أصحاب الأوسمة العسكرية فى إسبانيا ، فلفظة encomendero لم تكن encomendador ، ومن كانت تطلق عليه اللفظة لم ينتسب إلى أى تدرّج عسكرى أو اجتماعى أو الصراع مع غير المؤمنين ، ورغم كل هذه الفروق الجوهرية لم توجد اللفظة كلقب ولم تكن لتطلق بهذا الشكل دون أن تكون هناك أسبقية فى شبه جزيرة أيبيريا ، إذن فإن التغيّرات الدلالية عبارة عن انتقال المفهوم اللصيق بالكلمات .

يمكننا أن نسوق معلومة أخرى موازية لموضوع fijodalgo وهى المتعلقة بـ Infante" أى ابن الأب النبيل " ، وقد استخدمت اللفظة بذلك المعنى العام حتى القرن الثانى عشر [٥٤] ويقول السيد / رودريجو خيمنث دى رادا R. J. de rada فى كتابه

"De rebus Hispanie" عن شئون إسبانيا " ضمن الحديث عن أعداء السيّد " هناك رجلان شقيان ومن السافلة هما نبلاء كاريون " ، فمن الواضح أن التسمية infante لم تكن فى نظر السيد رودريجو ذات أصول لاتينية بل هى من الألفاظ الشعبية المتداولة ولا تقتصر على إسبانيا بل هى كذلك خارجها infantes et pueri, promiscue, dicti etiiam magnatum fili I [glosario du Cange } {الأطفال والصبية لا فرق بينهم حيث يقال عنهم إنهم أبناء لعظام }؛ وهناك شخص يدعى جييرمو (طفل البكتافيين) -in fante pictavorum عاش خلال عام ١٠٨٨م ، وهناك لقب هو infans Apuliae (طفل أبوليا) وأحيانا أخرى يطلق عليه 1, enfant de Pulle. .. الخ ، كما لم أعثر فى معجم Du Cange على أمثلة ترجع إلى ماقبل القرن الحادى عشر ، ومع هذا نجدها فى إسبانيا منذ القرن العاشر (٥٥) ، وقد استمر ذلك الاستخدام فى أوربا العصور الوسطى ، أما فى إسبانيا فقد استمر استخدام ذلك اللقب بمعنى " ابن الملك " ، ورغم أن الدلالة التى تشير إليها هذه الحالة تتّسم بالعمومية إلا أنها ذات دلالة عميقة ، وقد أطلقت اللغة اللاتينية فى مراحلها المتأخرة لفظة infans على الطفل الصغير وعلى الابن بصفة عامة (Casidoro) aliorum parentes infantium (أباء أبوىّ أطفال آخرين) ومن هنا جاءت اللفظة الفرنسية infant ، أما الذى لا نفهمه فهو كيف دخل إلى لفظة infans معنى ابن شخص نبيل أو ملَكىّ ، وهنا لا أجد طريقة أخرى لتفسير الأمر إلا باللجوء إلى اللغة العربية حيث رأينا أن infantes de Carri?n كانوا يدعون بنى جومث ، وبمقولة أخرى كان نبلاء كاريّون يدعون infantes ذلك أن العرب كانوا يطلقون لفظة بنى على هؤلاء الذين ينتسبون إلى قبيلة أو أسرة أو أرض أو طبقة اجتماعية معينة ، وغنىّ عن القول الإشارة إلى أن ذلك الاستخدام مناظر للعربية وأنه لا يمكن مقارنته باستعارات مثل " ابن المريخ " أو " أبناء البحر " أو " أبناء البيون " ... الخ ، كما لا يمكن مقارنته باللاتينية filius celtiberae" ابن السلت – الأيبيرى " ذلك أنهم لم يكن يطلق عليهم باللاتينية fili i celitberae بل Celtiberi ، وأريد بذلك القول بأن استخدام لفظة hijo سواء فى اللاتينية أو الرومانثية يعتبر نوعًا من الاستعارة عندما تشير إلى ابن رجل ما ، لكنها فى العربية تشير إلى معنى غاية فى الموضوعية ، وإذا ما قلنا بالفرنسية ، enfants de la patrie, enfants de paris (أبناء الوطن هم أبناء

باريس) فإن العبارة تحمل شحنة عاطفية أما في العربية فإن عبارة " ابن المدينة " لا تعني نفس الشيء ففي العربية نجد الأمر منطقياً ، أما عندنا فهي عبارة استعاريّة .

أما بالنسبة لوريث العرش فقد أطلق عليه بالعربية " الولد " دون إضافة أية ألقاب أخرى ، وقد لاحظ دوزى فى " ملحق القواميس العربية " أن هذا الاستخدام يماثل استخدام لفظة infante فى اللغة الإسبانية وهى ملاحظة لم يتنبّه إليها أحد ، وأعتقد أن هذا الاستخدام المطلق لـ "ولد" {ابن ، أمير ، نبيل} ينبثق منه المصطلح الإسبانى infante الذى يعتبر ترجمة أو نوعًا من التحوير للفظة العربية ابن أو ولد ، ومن هنا جاء استخدام اللفظة الفرنسية enfant قديماً بهذا المعنى Jeune homme noble non encore adoubé chevalier، وهذا يسهم فى زيادة عدد الكلمات التى انتقلت من الإسبانية إلى الفرنسية خلال العصور الوسطى التى كانت تتسم بكثرة تناقل المصطلحات وشيوعها بين الأمم مثلما يحدث اليوم ، ومن المنطقى أن كل ذلك الحجيج من الفرنسيين إلى قبر القديس شنت ياقب فى جليقية (سانتياجو) لم يخرج من إسبانيا وهو خالى الوفاض ، فهناك الكثير إلى جانب I, or de Galice (ذهب جليقية) الذى تحدثت عنه قصيدة رولان (رولدان) وهى قصيدة تدين لإسبانيا المعرّبة بأكثر ممّا يُنظَر إليه لأول وهلة .

إذن فإن لفظة infante التى تأكدنا من وجودها خلال القرن العاشر ما هى إلا لفظة من أصل لاتينى بالمقارنة باللفظة شديدة الشيوع fijo (ابن) فى fijodalgo، والفارق بينهما هو الفئة الاجتماعية التى تشير إليها كل واحدة ، ولابد أن لفظة infante قد أُدْخلت على يد المستعربين المثقفين الذين كانوا يميلون للحفاظ على اللاتينية كوسيلة دفاعية وتعبيراً عن التميّز وهذا ما سوف نتحدث عنه فيما بعد ، وأطلقت اللفظة على ابن الملك أو ابن أسرة نبيلة بصفة عامة فهى لفظة يلتقى فيها معنى الولد والابن فى عبارات مثل بنى جومث وبنى ألفونسو وبنى فرناندو ... الخ . وقد دخل هذا المعنى الخاص بـ infante إلى الفرنسية ، وانتقل من هناك إلى دول أوربية أخرى ، غير أننا نشير أيضا إلى أن هناك بعض المصطلحات المشار إليها فى معجم Du Cange ، قد دخلت عن طريق صقلية وعن طريق الصليبيين فيما بعد ، وكلما أخذت تتهاوى الفكرة القائلة بأن الإسلام والمسيحية كانت تفصلهما أسوار لايمكن تجاوزها كلما كان من

السهل العثور على هذه التأثيرات العربية وقد نفذت إلى اللاتينية فى العصور الوسطى والى اللغات التى كانت سائدة فى أوربا ، ويقبل الجميع الآن أن اللفظة الفرنسية Ogive هى من أصل عربى بمعنى الجُبّ وقد أخذت الإسبانية عنها (العربية) algibe، وقبل ذلك كان الفرنسيون ينطقون تلك الكلمة هكذا augive وهى كتابة لم يتم التدليل على وجودها وربما ترجع إلى القرن العاشر أو الحادى عشر .

وترتبط لفظة (Quinto) باللفظة العربية الخمس ، وقد ذكر ذلك مينينديث بيدال فى مؤلفه " مفردات فى ملحمة السيد " ، وقد ظل هذا التأثير العربى الدينى الإسلامى سائدًا لدرجة أن الغزاة ونوّاب الملوك الذين ذهبوا إلى إسبانوأمريكا (أمريكا اللاتينية) كانوا يقتطعون للملك خمس ما يغتنمون من ذهب وفضة مما يحصلون عليه من مناجم تلك الأماكن .

تأثيرات قرآنية :

هناك تعبيرات قرآنية يتم تداولها فى لغة الحياة اليومية ، ومن يقرأ القرآن بعناية سيعثر على الكثير ونقول على الآلاف من الأقوال والأمثال الإسبانية ، فيقال بالإسبانية – مجازًا – " إن فلانا حمار محمّل بالعلوم " وهذا معناه أن القيمة الثقافية لذلك الإنسان ضعيفة رغم أنه يعرف الكثير ، وهنا نعثر مرة أخرى على صدى الرغبة فى التكامل ، وهى حالة مثالية تعنى التوافق والانسجام بين وجود الفرد وعمله، أى توافق وانسجام بين الداخل والخارج ، وقد كتب ألفونسو نونيث دى كاسترو – خلال القرن السابع عشر – يقول : " لقد أكدوا ذلك فى مدريد وأطلقوا عليه حمارا يحمل كتب الأدب " (٥٦) ، وإذا نظرنا لهذه العبارة قاموسيا لوجدنا أنها تعنى " العالم ذو الأفق الضيق " ، وتأمّل الاستعارة بشكل مجرّد يوضح أن ليس هناك تبرير منطقى يشير إلى أن واقعًا غير مادى (الآداب والعلوم) يمكن أن ينسحب على واقع مادى فظ هو ظهر الحمار ، لكن عندما ننتقل إلى الوراء ونلاحظ اللّغة فى أحوالها القديمة تتضح الأمور أمامنا ، ففى البرتغالية عبارة مرحة تقول " إن الحمار المحمّل بالكتب دكتور " وهنا يتضح معنى الاستعارة بشكل أفضل ، وعندما نقرأ القرآن نجد أنه يوضحها بجلاء

لا لبس فيه إذ تقول الآية ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ [سورة الجمعة – الآية رقم ٥] ، وقد لام القرآن اليهود على أنهم لم يعملوا بما جاء فى التوراة رغم أنهم يعرفون الرسول جيداً ، وهذا النوع من عدم الانسجام أى الخلل الذى يحول بين تكامل المعرفة والسلوك قد تمّ التعبير عنه فى صورة أدبية وفى منطقة جغرافية كان الحمار فيها يستخدم كوسيلة نقل ، وبعد ذلك دخل على هذه الاستعارة تحوير عن طريق إنسان اطلع على النص القرآنى ، فأدخل التعديل المناسب حيث حلت كتب الأدب أو العلوم محل الأسفار وأصبحت على الشكل الذى هى عليه الآن (٥٨) .

ونختتم حديثنا مؤقتًا عن التأثيرات اللغوية العربية ، وهى تأثيرات مهمّة حيث إنها مؤشر على منهج حياة وليست بحثا لغويا ، فلسنا هنا فى معرض جمع الطريف من القول بل لتأمل ميلاد بعض العبارات كجزء من محاولة بناء هيكل تاريخى ، والأمر لا يتعلق بالحدث فى حدّ ذاته بل بما يعكسه وما نعمل على إبرازه ، إذ يمكن أن نرى هذه الظاهرة أو تلك وأن نجمع بعضًا منها بُغْية إيضاح أن ذلك لم يأت عن طريق الصدفة بل كان محصّلة وسيلة فى التعبير أدخلت على نسيج الحياة ، وسوف نستعين فيما بعد ببعض التفاصيل اللغوية لهذا الغرض ، أى على اعتبار أنها شواهد على شىء أو وسيلة تعيننا على فهمه بشكل أكثر جلاء

استطراد حول إقليم قطالونيا :

عاشت كل من الإسبانية والبرتغالية وقائع الاتصال باللغة العربية أو المستعربين وأحيانا ما تنضم اللغة القطلانية مثلما هو الحال فى عبارة **Ojo de agua** (أى النبع) **Olho de agua** (بالبرتغالية) و **ull d'un riu** (بالقطلانية) ، غير أن الشائع هو أن القطلانية قد سارت فى طريق مختلف إذ تقلّ فيها الكثير من التحويرات المعجمية والنحوية فى كثير من الأمثلة والشواهد التى سوف أسوقها فى هذا الكتاب ، وهذا ما يتسق مع المسار العام الذى عاشه ذلك الجزء من إسبانيا ، وهنا يجدر أن نشير إلى بعض جوانب المشكلة رغم أننا سنعالج الموضوع برمّته فيما بعد ، إن أى شعب (مثل

الشعب القشتالى والشعب القطلانى) يتفاعل مع ما يقوم به وما يحدث له ، والأمر أننا لا نتحدث عن " جوهر " طبعته الأحداث بالموضوعية ، فهناك بعض المؤرخين القطلانيين يبذلون جهدهم للبحث عما يميّزهم ولو كان من بعيد ، وعندما تحدث ف. سولدبيلا F. Soldvila عن الفترة التى نحن بصددها (٥٩) نجده يشير إلى أن قطالونيا كانت جزءًا من الإمبراطورية الشارلمانية ، وهذا ما هيأ لها " وجود تنظيم مختلف عن باقى شبه جزيرة أيبيريا وحررّها من التأثيرات التى جاء بها المستعربون والتى سادت إسبانيا " ، وهذا الكلام حقيقى غير أنه علينا أن نفهمه بكل النتائج المترتبة عليه ، فقطالونيا لم تكن تملك شيئًا جوهريًا لتكون مختلفة عن باقى شبه الجزيرة الأيبيرية ، فالشعوب ليست خلاصة ميتافيزيقية بدون تاريخ وهذا معناه تأثير ما نفعله وما يجب أن نقوم به ، فلم تلعب قطالونيا دورًا مهمًا فى حرب الاسترداد ، والسبب هو أن المنطقة الشمالية كانت واقعة تحت تأثير التوسّع الإفرنجىّ ، وبالتالى لم يكن لها دور خاص بها منذ البداية على غرار إقليم جليقية وليون وقشتالة ونابارّة وأرغن ، إذ تعثّر الفرنجة فى جبال نابارّة بينما كان طريقهم معبّدا فى الشمال الشرقى لشبه الجزيرة الذى كان بمثابة منطقة الحدود مع الفرنجة ألا وهى " الحدود الإسبانية " ، وهنا نجد أن قطالونيا قد أخذت تدور فى فلك الشمال ، أما من الناحية الكنسيّة فقد كانت تابعة لناربونة Narbona حتى عام ١١٨٩م فلم يتم إعادة أبرشيّة طرّاغونة Tarragona إلى وضعها ، وتم إحلال الحروف الفرنسية محل القوطية ، ولم تكن الحروف الأولى شائعة فى قشتالة حتى القرن الثالث عشر ، كما كانت الوثائق تُؤرّخ حسب سنوات الحكم التى يستمر فيها ملوك فرنسا على العرش وظل ذلك النظام مستمرًا حتى قبل عام ١١٨٠م ،وبعد ذلك تم اتخاذ تقويم التجسّد Encarnación وليس التقويم الإسبانى (٣٨ قبل ميلاد المسيح) ، وقد أطلق المسيحيون والمسلمون لفظ الفرنجة Francos على القطلانيين خلال القرن الثانى عشر ، ويتضح ممّا سبق أنه بينما قام الجليقيّون – البرتغاليون والقشتاليون بتشكيل حياتهم ولغتهم بالتعاون مع المستعربين (أو العرب) نجد أن القطلانيين يتحركون فى آفاق مختلفة ، ولقد اتّسمت العلاقات السياسية مع جنوب فرنسا بالقوة ، وهنا نُذكّر بالعلاقة القائمة مع مقاطعة Foix على سبيل المثال (٦٠) .

وابتداءً من القرن الثانى عشر نلاحظ أن القوة والحيوية السياسيتين فى باقى أنحاء إسبانيا المسيحية قد جذبتا قطالونيا لتدور فى فلك تأثيرها مثلما حدث لها قبل ذلك مع الإمبراطورية الشارلمانية، وبذلك تحوّلت مقاطعة برشلونة إلى تابع سياسى لأرغن رغم أنها كانت تحيا مستوى معيشياً أفضل سواء من الناحية التجارية أو الاجتماعية ، وإذا ما تحدثنا عن اللغة القطلانية فى أقدم مراحل تطوّرها لوجدنا أنها مرتبطة بباقى المراحل السائدة فى شبه جزيرة أيبيريا وتتوافق ، فى كثير من الجوانب مع الجليقية – البرتغالية ، فالمفردات ترتبط بمفردات اللغات فى شبه جزيرة أيبيريا [٦١] ولولا تدخّل الفرنجة لكانت قطالونيا وكذا لغتها قد سارتا فى طريق يشبه الذى كانت فيه أرغن ، وعندما بدأت قطالونيا تدور فى فلك المنطقة القشتالية – الأرغنية، بعد القرن الثانى عشر ، كانت قد انقضت فترة الازدهار الإسلامية – المستعربة ، وانطلاقًا من هذه الظروف التاريخية التى عرضنا لها ندرك أن الإقليم الواقع فى الشمال الشرقى لشبه جزيرة أيبيريا لم تتحدّد ملامحه السياسية بالكامل ، وخلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الثانى عشر – أى حوالى ٤٠٠ عام – نجد أن قطالونيا أخذت تحذو حذو الشعوب التى تعيش وراء جبال البرانس ، إلا أنها اضطرت منذ القرن الثانى عشر أن تعيش كمقاطعة Condalment تابعة للقيادة السياسية لأرغن التى وَضُحت فيها التأثيرات القشتالية ، وتعكس اللغة تلك الذبذبات التى تعتبر الأساس فيما نراه من حيرة أساتذة اللغويّات الذين انقسموا فيما بينهم ، ففريق يربط اللغة القطلانية باللغة البروفنسالية ، بينما هناك فريق آخر يربطها باللغات السائدة فى شبه جزيرة أيبيريا ، أما الفريق الثالث فيرى أنها لغة ذات سمات خاصة بها ، وكل رأى من هذه الآراء يتضمن جزءًا من الحقيقة ، والمحصلة الطبيعية لتاريخ مثل هذا هو أن القطلانية بها القليل من المصطلحات التى جلبها المستعربون ، على شاكلة Ull d'un riu (عين ماء) ، أما المفردات العربية فهى أقل من ذلك إذا ما قارنّاها باللغة الإسبانية، ويوجد فى تلك اللغة مفردات عربية ذات دلالة خاصة) [٦٢] ، كما نلاحظ أن الشعر القطلانى خلال العصور الوسطى كان شديد التأثر بشعر بروفنسا ، أما النثر القطلانى المعاصر فهو عبارة عن تراكيب نحوية قشتالية بها كلمات قطلانية ، وهذه الكلمات يمكن أن تكون أقل ممّا هى عليه فى وقتنا الحاضر لو تخلّى الكُتّاب عن مباعدة

المفردات القشتالية كثيرة الشيوع فى كتاب Crónica (التاريخ) لخايمى الغازى Jaime el Conquistador (القرن الثالث عشر) ، ونظرا لعدم وجود اتصال مباشر باللغة العربية نجد أن اللغة القطلانية لم تتخذ تعبيرات مثل amaneci bueno y anoch-eci malo (أصبحت صحيحًا وأمسيت عليلاً) [الفصل السادس] كما لا تستخدم المصدر الشخصى مثل اللغة البرتغالية أو تحويل الأفعال اللازمة إلى أفعال منعكسة (ذات ضميرين) ، كما لا يوجد العديد من الظواهر اللغوية الأخرى والتى سوف نلاحظها فى الإسبانية والبرتغالية ، ولقد تشكل تاريخ شبه جزيرة أيبيريا خلال الفترة من القرن الثامن وحتى الثانى عشر ، ففى الوقت الذى نجد فيه الشمال الغربى لإسبانيا يلتف حول سانتياجو (الفصل الرابع) نرى الشعب القشتالى يتمرّد سياسيًا ولغويًا وملحميًا (الفصل الساس) ، ونرى أن قطالونيا كانت تعيش وهى تدير ظهرها لكل هذا ولا تقوم بمبادرات تتسم بالقوة والجرأة ، كما لم تتوافر فيها الظروف التى ساعدت على استقلال البرتغال ، ذلك أن طريق سانتياجو لم يمر بقطالونيا (الفصل الرابع) ؛ وخلاصة القول هو أن قطالونيا لم تنتسب أبدا بشكل مطلق لإسبانيا كما لم تنقطع الصلات معها أبدا ، إنها دراما وتمزّق ، وهى أنها تعيش إسبانيا من داخل تاريخها ومن هنا يمكن فهم الوضع ؛ فإسبانيا عاشت وتعيش اللاعيش ككيان واحد ، كما تسير قطالونيا فى نفس المدار رغم أنها محكومة بالدوران حول نفسها ، وهو نوع من الإدانة طالما أن قطالونيا تبحث عن نفسها ولا تجدها ، وهذا هو الثمن الذى تدفعه نظير قلة التأثيرات المستعربة لديها .

الهوامش

(١) فيما يتعلق بالبنية السياسية للقوط انظر مانويل تورّس فى " مقال دولة القوط " المنشور فى مجلة " الكتاب السنوى لتاريخ القانون " – العدد الثالث (١٩٢٦) صـ ٣٠٧ – ٤٧٥

(٢) انظر ديوان الفرزدق – الطبعة الفرنسية لـ R. Boucher باريس ١٨٧٠م

(٣) انظر رامون مننديث بيدال " أصول اللغة الإسبانية " صـ ٤٤٥ – ٤٤٩

(٤) ونظرا لعدم وجود المعلومات الأكثر دقة انظر ف فرنانديث جونثاليث فى " حول الموريسكيين الذين عاشوا فى إسبانيا بعد قرار الطّرد الذى أصدره فيليب الثالث " والمنشور فى " مجلة إسبانيا " العددين التاسع عشر والعشرين (١٨٧١م) ، " ما قاله أبناء الموريسكيين الذين بقوا فى Onteniente. 1611 ، " نشره ب كاستانيدا BAH, ، LXXX11, (1923 pp 4121 - 427) ،

(٥) رامون مننديث بيدال " التاريخ والملحمة " صـ ١٩

(٦) ليفى بروفنسال " إسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر صـ ٤٩

(٧) التاريخ العام صـ ٧٦٨ – ٧٦٩

(٨) رامون كاراندى فى " الكتاب السنوى لتاريخ القانون " العدد الثانى صـ ٢٦٧

(٩) انظر رامون مننديث بيدال " أصول اللغة الإسبانية " صـ ٤٤٥ – ٤٤٦

(١٠) انظر ف فرنانديث إى جونثاليث " الوضع الاجتماعى والسياسى للمدجنين فى قشتالة ، (١٨٦٦م)، ن إستيناجا " الظروف الاجتماعية المدجنين فى طليطلة " نشر فى " جريدة الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة بطليطلة " العدد السادس (١٩٢٤م) صـ ٥ – ٢٧

(١١) فى " حرب غرناطة " للسيد ديجو أورتادو دى ميندوثا ورد وصف لصراع خلال الفترة من ١٥٦٨م و ١٥٧١م على أساس الاعتقاد الكامل بأن تلك الأحداث عبارة عن حرب أهلية بين الإسبان (مكتبة المؤلفين الإسبان ، العدد الحادى والعشرون صـ ٧٣ وقد تم تفريق الموريسكيين الغرناطيين إلى أماكن قاصية . كما تولى لويس دل مارمول سرد تفاصيل التمرّد الغرناطى فى مؤلفه " تمرّد الموريسكيين الغرناطيين وما حلّ بهم من عقاب "

(١٢) ماركوى دى وادى الحجارة وخابير " الطرد الشهير ... للموريسكيين– بمبلونة عام ١٧١٣ صـ ٧٩ – ٧٥

(١٣) وأحيانًا يتزوج الأشراف بالموريسكيات وقد انجذبوا إليهن لما لهن أو لجمالهن . أما مليتشور دى سانت كروث (floresta I p.53) فيحدثنا عن فارس هو ابن لموريسكية .

(١٤) كانت المراجع الخاصة بالموريسيكيين كثيرة ومليئة بالشجّن وقت الطرد ، وقد ساد ذلك الشجن عند مناقشة الباحثين لها خلال القرن التاسع عشر وأورد هنا بعضا منها : فلورنثيو خانير " الوضع الاجتماعي للموريسكيين ١٨٥٧م وهو كتاب يتسم بتواضعه غير أنه يورد فقرات مهمة ، ب. بورونات وبارّتشينا: " الموريسكيون الإسبان وطردهم (١٩٠١م) كتاب من جزءين يتضمن جدلاً موثّقًا لتبرير الطرّد .

(١٥) بدور أثنار دى كاردونا " الطرد المُبّررّ للموريسكيين الإسبان (١٦١٢) ولقد اعتمد ثربانتس فى مؤلفه " بيرسليس وسيخموندا " على هذا الكتاب عند الحديث عن الموريسكيين . انظر أيضا كتابى " فكر ثربانتس " صـ ٢٩٤

(١٦) وهذه الكلمات لها دلالة كبيرة فالكلمات التالية هى من أصل عربى adufe(الدف) و albeitar (البيطرى) ركوة ، زيت .. الخ ، ولقد كان الموريسكيون من عشاق الطرب والموسيقى وتركوا لنا الكثير من المفردات .

(١٧) " هل تدرى أننا فى إسبانيا وأننا ملكناها منذ تسعمائة عام ؟ " كان السيد فرناندو دى بالور (ابن أمية) يتحدث بهذه الطريقة متوجهًا إلى أنصاره قبل بداية التمرد عام ١٥٦٨م (انظر : حياة وأعمال بيو الخامس ، السيد فرناندو دى قوين مايور لعام ١٥٩٥م . خانير صـ ١٤٤

(١٨) يرى برومـديث دى لا بدراثا فى " آثار ومآثر غرناطة " ورقة ٩١ (من خلال ب. لونجاس فى " الحياة الدينية للموريسكيين " - مدريد ١٩١٥م صـ LXXV

(١٩) " فى الكثير من الممالك التى بها مؤمنون وتلك الأخرى التى بها غير المؤمنين والملاحدة (مثلما هو الحال فى Rochela) يولى الحكاّم عناية واهتمام بالاينتشر فى ملكهم اللهو والملذات وهذا مبعث سعادة هؤلاء " إكنوز العمل الشريف - مدريد ١٦١٤م صـ ١١٩ - ١٢٠

(٢٠) انظر لونجاس . العمل المذكور سابقاصـ ٥٧

(٢١) انظر yss RFH, IV (1942) PP 229 وكذا الفصل العاشر من هذا الكتاب .

(٢٢) المصطلح المستخدم فى عالم اللغويات " استعارة Prestamo" ليس دقيقا ذلك أن هذه المفردات تم الحصول عليها ولا يمكن ردها ، ويجب أن نقول " اتخاذ الكلمات أو الاستيراد اللغوى "

(٢٣) لا يوجد حتى الآن إحصاء كامل للكلمات الأيبيرية الرومانية ذات الأصول المشرقية . انظر دوزى وإنجيلمان فى "معجم المفردات الإسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية " ١٨٦٩م - انظر ل. إيجالث " المعجم الصرفى للكلمات الإسبانية ذات الأصول العربية " ١٨٨٦م - انظر ب ريفز " الكلمات العربية والإسبانية الموريسكية فى رواية دون كيخوته " مجلة اللغويات (١٩٠٧ - ١٩١٤). انظر كورمبتاس " كلمات قطلانية ذات أصول عربية " . انظر أ . ستيجر " الصوتيات الإسبانية العربية " (١٩٣٢م) ..

(٢٤) نقرأ فى حسابات بلدية أشبيلية بعد قرن ونصف من غزوها أنه فى عام ١٣٩٣ " تولى اثنان من المورس البنائين أعمال إقامة مجرى للمياه وقاموا بإعداد تلك القنطرة .. وللقيام بتلك الأعمال كانوا يستخدمون الزيت والزلاقة " (نشر هذا النص ر. كاراندى فى " أرشيف تاريخ القانون الإسبانى - العدد الثانى - ١٩٢٥ م صـ ٣٩٩) ..

(٢٥) ولما كانت صلات اللغة البرتغالية بباقى أوربا أقل مقارنة بالإسبانية فقد حافظت على الكثير من الكلمات العربية والتى حل محلها فى الإسبانية كلمات من أصل رومانى .

(٢٦) ومن بين الكلمات الكثيرة ذات الأصول العربية نجد real بمعنى المكان الذى يرابط فيه الجيش وهى بالبرتغالية arraial وليس للكلمة علاقة بكلمة rey والأصل العربى هو الرّجَل ومعناها مجموعة من الحيوانات ذات العدد الضخم ، أو الجيش ولذا لازالت تستخدم عبارة el real de la feria بمعنى المكان الذى تتجمع فيه قطعان الماشية. ولما كان الملك يتواجد أحيانا فى تلك الأماكن أدى ذلك إلى الاستخدام الشعبى للفظة real التى توردها القواميس .

(٢٧) انظر O.J. Tallgren "الأسماء العربية للنجوم والوصف الألفونسى " فى HMP,#,PP.633-718

(٢٨) خوان رويث صـ ٧٥٦

(٢٩) بدور دل كورّال " تاريخ المشارقة " الجزء الثانى الفصل ٨٩ (من خلال : رامون مننديث بيدال فى" غاية الأساطير البطولية الإسبانية – الجزء الأول صـ ٥٤٢

(٣٠) ولما كانت الثقافة اليونانية اللاتينية تؤمن بالواقع الجوهرى للأشياء فإن كلمة umbraفى اللاتينية يمكن أن تكون بمعنى يعطى أو يتلقى الظل : مثل الشجرة المنزل والمدرسة والحّية..الخ.ويمكن أن يكون الشبح فهو ليس إلا ظلا، لكنها لا تدل أبدًا على وجود سحرى يَنْسَلّ إلى الفرد .

(٣١) E. E. Lame, "An Arabic - English Lexicon, I, p. 835

(٣٢) يرى خ.ليدتشوندى فى " المفردات الإسبانية العربية – ١٩٣٢م صـ ٧٦٨ أن " خيال " هى بمعنى طيف وشبح يمكن أن يظهر كظل .

(٣٣) انظر المسرحية الفكاهية المعروفة للأخوين كينتيرو " الظل السيئ"

(٣٤) انظر الحاشية التى كتبتها فى RfE, XII (1925) p 407 - 408

(٣٥) "Any house or chamber (bayt) of stone ... so called because a mans's wives and the like are confinded in it", "one room if forming part of a lager building", "any house or chamber of stone" (cf. Lane, Lexicon). Otro derivado es qusüra `cámara nupcial, `lo mismo que qosära 'armario, habitaciones particulares', etrc.

(٣٦) لازال عرب فلسطين يطلقون لفظة قصر على العُشّة التى يقيم بها حارس الجنينة . (معلومة عن السيد زيادة) .

(٣٧) هناك لعبة من ألعاب الأطفال تقول " ريكوتين ريكوتان ، دى لابيدا بيدا يذهبون من الحجرة (Palacie) إلى المطبخ ، كم عدد الأصابع الموجودة فوقك ؟ (الأندلس) وفى قشتالة يقولون (من الصالة إلى المطبخ)

(٣٨) المنازل النائية فى طليطلة Cigarrales طبعة سعيد أرمستو صـ ٥٢ ، ويقال على التوالى أن الجميلة النائمة " كانت تظهر من خلال الطاقة التى تنام بها acereswأن ذلك كان الثلث الأول من حلمها " ونتساءل من جديد كيف يمكن أن تتضمن كلمة عشر ؟ والسبب هو أن لفظة " ذُكرى" تعنى الصُلب المستخدم فى صنع السيف وتعنى أيضا رهافة حد السيف ، وتعنى أيضا الحدة وقوة العزيمة ...

(٣٩) أو تلك النصوص الأخرى " أعطى المور لسانشو جارثيا منازلهم Casas وهى نموذج و أوسما Osma (انظر منندبث بيدال فى ملحمة السيد صـ ٥٦٠)

(٤٠) السيد خوان مانويل : كتاب الدول (سلسلة مكتبة المؤلفين الإسبان) العدد ٥١ صـ ٣٢٠ أ

(٤١) تاريخ ألفونسو الحادى عشر (سلسلة مكتبة المؤلفين الإسبان) العدد ٦٦ صـ ٣٢٠أ

(٤٢) تاريخ فنون معرفة بعض من العربية – غرناطة ١٠٠٥ م

(٤٣) " "L-Âr, or the transfereonce of conditional curses in Marocco", en Antbrop- ological Essays presented to E. B. Taylor, Oxford, 1907, p. 365.

(٤٤) تساعدنا تلك الدراسة التى أعدها E. westermack على فهم الكثير مما بدا لنا غريبًا فى أسطورة " أمراء لارا السبعة " فقد أرسلت السيدة لامبرا بأحد خدمها لملء إناء بالدم وإلقائه على أحد الأمراء، فقام الخادم بفعل ما أمر به " فأصاب الدم كل ملابسه " وهنا غضب الأمراء لهذه الفعلة النكراء فقتلوا الخادم الذى احتمى بعباءة سيدته وغطى الدم ملابسها ، وهذا النوع من الممارسات العنيفة الذى يؤدى إلى الأعمال الانتقامية؛ يقول منديث بيدال فى كتابه (أمراء لارا صـ ٦) إننى لا أعرف مثالاً شبيهًا لهذا النوع من الإهانة " لكن ويستر ماك قال (صـ ٣٦٥) أن الدم هو أفضل الوسائل الفاعّلة لصب اللعنات ففيه تكمن قوى خفية ؛ ويُعتقد فى المغرب أن الدم المُراق به جنون أو مسكون بالأرواح الشريرة ، ولهذا فإن السيدة لامبرا أمرت خادمها بأن يريق الدم على ملابس الأمير جونثالوا جونثاليث وهو أصغر الأمراء السبعة وأحبّ الأبناء إلى أمه السيدة سانشا التى كانت تكرهها لامبرا كرها شديدا .

(٤٥) ملحمة السيد صـ ٦٨٩ ، ٨٩٠

(٤٦) كتاب القوانين Partidas II, 21,2.

(٤٧) دوزى : بحث – ١٨٨١ صـ ٧٣ وما بعدها

(٤٨) انظر المراجع الكثيرة التى ذكرها ك. سانشيث ألبورنوث فى " حول أصول الإقطاع " – دار نشر ميندوثا – الأرجنتين – الجزء الثالث صـ ١٩٢ .

(٤٩) النصوص الخاصة لعام ١٢٩١ و ١٢٧٨ فى Eluciadero de Samta Rosa de Viterbo

(٥٠) انظر ستيجر " الصوتيات الإسبانية العربية " صـ ١١٧ ، ٢٢٩

(٥١) انظر ستيجر " الصوتيات الإسبانية العربية صـ ١٧٥

(٥٢) " وثائق لغوية " نشرها منندبث بيدال صـت ٣٧١

(٥٣) فكرت فى البداية أن قد تكون هناك علاقة بين Joms خُمس واسم الشخص جومث لكن ما باعدنى عن هذه الفكرة بعض المعلومات التى زودنى بها كل من منندبث بيدال ورفائيل لابيسا وأشكرهما كثيراً على هذا . ومن الصعب على المرء ألا يتوه فى ظلمات تاريخ القرنين التاسع والعاشر.

(٥٤) بيدال " ملحمة السيد " صـ ٧٢١

(٥٥) هناك أميرة infantisa تسمى Fronilde لم تكن ابنة ملك وقد ذكرها فلورس فى " إسبانيا المقدسة " – القرن التاسع عشر– صـ ١٤٢ ، وكذلك منندبث بيدال ـ العمل المذكور سابقا صـ ٧٢٢

(٥٦) انظر " المعجم التاريخى للأكاديمية الإسبانية . s.v. asno

(٥٧) أدين بهذه المعلومة للبروفسور ج.ل.دلا بيدا

(٥٨) هناك إشارة أخرى لنفس الموضوع فى الأدب العربى (انظر المسعودى فى مروج الذهب ترجمة باربيردى مينارد - الجزء الثالث صـ ١٣٨

(٥٩) تاريخ قطالونيا - الجزء الأول صـ ٣٤

(٦٠) انظر ما كتبه Ch. Baudon de mony" العلاقات السياسية لمقاطعة Foixمع قطالونيا حتى بداية القرن الرابع عشر " ١٨٩٦م

(٦١) انظر أمادو ألفونسو " التكوينات الفرعية الرومانية فى اللغة القطلانية " فى REF, XIII, (1926)

(٦٢) انظر كوروميناس " الأسماء القطلانية ذات الأصل العربى " نشر فى "جريدة الحوار القطلانى العدد الرابع والعشرون (١٩٣٦) .

الفصل الثالث

التراث الإسلامى والحياة الإسبانية

هناك بعض الأنماط التقليدية للحياة ، ووسائل للتعبير تفتقر إلى معنى واضح خارج السياق الإسلامى ، ولم يتم سبر أغوار الكثير منها على نحو ما هو موجود - بل وأكثر من هذا - بالنسبة للألفاظ العربية فى أمريكا اللاتينية ، ولا فرق عندى أن تكون هذه الاستخدامات سائدة فى مناطق احتكّت بها الحضارة الشرقية (بيزنطة والهند وروسيا ..الخ) أو لا ، فالفلكلور لا يهمنى بل الآثار التى خلّفتها فى أيبيريا تسعمائة عام من المعايشة الإسلامية المسيحية ، ولا يعنينى كثيراً أن يدين المسلمون الإسبان ببعض عاداتهم إلى بيزنطة أو فارس أو أى شعب آخر ، فالعادات التى حافظ عليها المسيحيون الإسبان ما هى إلا انعكاس حىّ للحضارة الإسلامية التى تصيبهم أحياناً " بالاكتئاب وتذلّهم " {مننديث بيدال} ومع هذا فهى حافز لتقليد غير واع حتى بعد أن ولى الازدهار السياسى والعسكرى للمسلمين.

ولو وضعنا قائمة للقرى التى يوجد بها " حمّامات " فى إسبانيا العصور الوسطى لتوفرت لدينا معلومة مهمة لقياس حجم التأثير الإسلامى فهناك الكثير من القرى الصغيرة فى قشتالة كان بها حمّام عام خلال القرن الثالث عشر رغم أن القليل منها اليوم لا يستخدم المياه الساخنة فى الاستحمام ، وقد حدّثتنا لوائح البلديات عن هذا الأمر فاللائحة الخاصة بزوريتا Zorita (وادى الحجارة) تحتّم :

" على الرجال أن يذهبوا الى الحمام يوم مارس ويوم جوبيتر ويوم السبت أما النساء فيذهبن يوم جونو ويوم ميدكوريوس ،

ويذهب اليهود يوم فينوس ويوم الأحد ، ولا يمكن لأحد أن يغادر المكان دون أن يدفع الأجر فى شكل أوبولات (عملة إغريقية)كثيرة "

" كما على مالك الحمّام تزويد المستحمّين بتلك الأدوات الضرورية مثل المياه وغير ذلك من الأشياء [1]... وإذا ما سرق أحد أدوات الحمّام فعقابه قطع أذنه " {نفس المصدر صـ ٦٩ }. كما نعثر على نفس النص فى اللوائح الخاصة بـ قوينقة Cuenca، وتشير اللوائح الخاصة ببلدة بريهويجا Brihuega (وادى الحجارة) إلى أن الأطفال والخدم لا يدفعون شيئا مقابل الاستحمام " [2] ، ووصل الأمر أن كان لقرية صغيرة جدا حمامها وهى قرية Usagre أوساجرى { محافظة بطليوس } رغم أنها غير ذات قيمة " فالنساء لهن حق دخول الحمّام أيام الآحاد والثلاثاء والخميس بينما يحق للرجال فى الأيام الأخرى " وكان يُسْمَح لمن يذهب للحمام أن يأخذ معه ثلاثة من الخدم على أن يتولى " أحدهم عملية استحمام سيده" [3] ، وتتضمن هذه اللوائح إجبار مالك الحمام على تزويد الزبائن بالمياه الساخنة والصابون والمناشف ، غير أن استخدام الحمامات العامة أخذ ينحسر بين المسيحيين ، وابتداء من عام ١٥٢٦م جُرِّبت محاولات لإلغاء الحمّامات الخاصة بالموريسكيين ، ولم يُنفذ هذا الإجراء إلا فى عام ١٥٧٦م وذلك كنوع من العقاب على التمرّد الذى حدث عام ١٥٦٨ ، إذ تم منع الموريسكيين من ممارسة عاداتهم ، وقد تولّى أحد الفرسان الموريسكيين وهو فرنثيسكو فونيث مولاى F. N. Mulay الرّد على ذلك الأمر الملكى بقوله :

" أنشئت الحمامات بغية نظافة الجسم وتطهيره ، أما القول بأن النساء يجتمعن هناك مع الرجال فهذا أمر لا يُصدّق فالمكان الذى تؤمه كثيرات لا توجد به أسرار... ولقد كانت هناك حمامات فى كل الأقاليم ، وإذا ما كانت قد أزيلت من قشتالة ذات يوم فهذا مردّه أن قوة الرجال وعزائمهم قد خارت أمام

الذهاب إلى ميدان المعركة ، فأبناء مملكة غرناطة ليس عليهم
القتال كما أن النساء لسن بحاجة الى القوة بل إلى النظافة ،
وإذا لم يغتسلن هناك (أى فى النبع أو الجداول أو الأنهار
أو بيوتهن فهذا ممنوع عليهن) فأين يذهبن ؟ "

وفى عام ١٥٦٧م عُقد اجتماع مهيب ، وعلى أثره تم هدم " كافة الحمامات المنشأة فى غرناطة " (٤) ونسى الناس فى إسبانيا عادة الاستحمام مثلما هو الحال فى أوروبا ، وظل الأمر كذلك إلى أن قام البريطانيون بإدخال هذه التقاليد من جديد .

كما أعتقد أن تغسيل الموتى هو تقليد للمسلمين ، ففى قصيدة فرنان جونثاليث (١٢٤٠م) نجد أن الكونت القشتالى يأمر بتغسيل جسد كونت تولوسا :

غسلوه ولفوه بقماش ثمين (بيت رقم ٣٧٣)

ويشير كتاب " التاريخ العام " إلى أن الكونت فرنان جونثاليث قام بنفسه بنزع السلاح والملبس عن كونت تولوسا " فى المكان الذى لقى حتفه فيه وأمر بغسله " {٣٩٩ أ} (٥) .

وفى رواية عبرانية تتحدث عن تاريخ المسيح ورد :

أمر يوسف بتنفيذ تعاليمه بشكل خاص
فقد أمر بغسل الميت وتطييبه بعد ذلك .

ويمكن أن نقرأ ذلك فى كتاب " التاريخ العام " **G. Historia** لألفونسو العالم " وقاموا بغسله جيداً وتطييبه " {صـ ١٥٦} ؛ وكان بدرو كومستور **P. Comestor** يعتقد أن الأمر عبارة عن " سلوك موروث " كما ظن السيد جونثاليث يوبيرا **G. Llubera** أن تلك هى عادة الحاخامات (٦) ؛ ومن الواضح أن كثيراً من العادات التى أقوم بتحليلها يمارسها أيضًا اليهود الإسبان الذين تربطهم صلاة قوية بالمسلمين إلا أن غسل الميت أخذه المسيحيون الإسبان عن المسلمين .

وقد ظلت عادة تغطية النساء وجوههن (الخِمَار) قائمة حتى وقت قريب فى طريف (قادش) ، وفى بعض المدن فى بيرو ، كما أن كلمة tapada تطلق فى الأرجنتين على معاطف النساء قبل ذلك ، وهى كلمة مرجعها إلى عبارة manto tapado وهو العباءة التى ذكرها tirso de Molina فى مسرحيته " ظئر أشبيلية " {أو دون جوان} ، الجزء الثانى صـ ١٠١ . وكانت تستخدمها النساء فى تغطية الرأس والوجه وهناك العديد من مسرحيات القرن السابع عشر التى تتضمن مواقف تعتمد على قيام النساء بالسَّير فى الطريق وهن يضعن الخمار (تيرسو فى : الغيورة من نفسها ، وكالديرون فى المختبئ ، ومرتدية الخمار .. الخ) ، وبذلك نرى أنه قد سُمِحَ للمسيحيات القيام بما مُنِعْت منه المسلمات خلال القرن السادس عشر :" الرغبة فى أن تسير النساء فى الشوارع وهن سافرات الوجوه ، أليس معنى هذا إعطاء الفرصة للرجال لاقتراف المعاصى برؤية هذا الجمال " (٨) .

ومن تأثير العادات الإسلامية نجد جلوس النساء على الأرض وهى عادة كانت تمارس فى إسبانيا حتى القرن الثامن عشر وكانت الـ tarima وهى قاعدة ترتفع عن الأرضية قليلاً وتغطى بالسجّاد والمخدّات هى المكان الذى تجلس عليه النساء ، وهذا ما نقرؤه فى نص يعود إلى بداية القرن السادس عشر " أدركت المَالكة أنه مَلِك فنهضت واتجهت نحوه لتقبل يده ، غير أن الملك لم يشأ أن تفعل ذلك وذهب ليجلس معها على القاعدة " (٩) ؛ وقد ظل الأمر على هذا الحال حتى بداية القرن التاسع عشر بالنسبة لأسرة السيد / دمنجو سارمينتو D. Sarmiento فى بلدة دون خوان D. Juan بالأرجنتين) ، ويؤكد ذلك ما ورد فى كتاب " ذكريات إقليم " ، وكان ثربانتيس يعرف جيداً أن جلوس النساء على القاعدة إنما هى عادة شرقية " قاعدة وعليها مخدات مخملية " {دون كيخوته – الجزء الثانى صـ٥} ، " كما كان سانشو بانثا يطمح أن تجلس امرأته فى الكنيسة على القطيفة والمخدّات " {نفس المصدر السابق} وهذه الكلمة هى إحدى المفردات العربية ، كما نضيف إليها كلمة alfombra السجادة ، ولهذا لازالت تطلق كلمة Estrado على الكنبة والكراسى الخاصة بحجرة الاستقبال كما كان ذلك التأثير ملحوظاً من خلال تقليد متبع فى البلاط الإسبانى وهو تغطية الكبار لأنفسهم وجلوس سيدات القصر على المخدات .

وهناك العديد من التقاليد الرفيعة التي لا نفهم لها مدلولاً إلا من خلال السياق الإسلامي ، فعندما يرى أحد الأصدقاء شيئًا جديدًا ذا قيمة ويثنى عليه فإن التقاليد تشير إلى أن نقول " تفضّل " ، وقد حدث ذات مرة أن كان هناك أحد الأجانب الذين يجهلون أن هذه العبارة هي مجرّد سلوك لطيف فسأل عما إذا كان العَرْض حقيقيًا فكانت النتيجة خلق موقف شائك للغاية ، وتحكى ملحمة السيد أن الملك ألفونسو السادس أثنى على حصان السيد وعلى فارسه " هذا هو الجواد الذى سمعت عنه خير الحديث .. ولا يوجد مثله على أرضنا " (بيت ٣٥١٠) فما كان من البطل إلا أن أجاب حسب التقاليد التي يمارسها المسلمون " إنى أقدمه لكم على سبيل الهدية فأمر ياسيد بقبوله (البت رقم ٣٥١١) ، ولما كانت العادة السائدة خلال القرن الثاني عشر وحتى اليوم هي أن الملك لا يقبل الهدية فكان الرّد " لا يمكن لى قبول هذا " .

ويمكن أن نعثر على هذا السلوك في أكثر من مناسبة فالأسطورة المتعلقة باستقلال قشتالة – على سبيل المثال – تشير إلى أن فرنان جونثاليث قد مَثُل فى حضرة ملك ليون ، عاهله ، وهو يحمل " باشقًا ممتازًا وحصانًا نبيلاً " فطلب الملك من الكونت أن يبيع له هذين الحيوانين الممتازين ، غير أن الكونت قال له متبعًا التقاليد الملكية ، :" تفضلوا فهما ملككم " فلم يقبل الملك لكنه وعد بدفع ألف " مارك " مقابل الحصان والباشق فى وقت محدد ، وإذا لم يتم السداد فسوف تتضاعف القيمة كل يوم، وبعد ثلاث سنوات لم يكن الملك قد سدّد ما عليه من دين إذ كان مبلغًا طائلاً وانتهى به الأمر بأن منح قشتالة استقلالها (١٠) .

ولايزال المسلمون حتى اليوم حريصين على هذه العادة التى لا تُمارس أحيانًا خاصةً عندما يكون الطّرف الآخر أجنبيًا ، وهذا هو ما يحدث على الأقل فى المغرب (١١) .

ومن العبارات ذات الأصل العربي : " هذا هو بيتك esta es su casa" وهى العبارة التى نوجهها اليوم لمن يقوم بزيارتنا فى المنزل لأول مرة ، وعندما يذهب الزائر نقول له " هاأنت تعرف أن البيت ملكك" ويقولون له فى البرتغال "تصرف كأنك فى

بيتك"، البيت تحت أمرك " وهناك عبارات بالقطلانية معناها "أنت صاحب هذا المنزل"، " البيت ملكك " ، وهذه العبارات هي ميراث عربي " البيت بيتك " ويستغرب الأوربيون عندما يقومون بزيارة أحد في لشبونة أو مدريد أو برشلونة عندما يسمعون عبارات مثل هذه حين يقومون بزيارة أحد في منزله أول مرة .

وعندما يأكل المرء أو يشرب أمام أحد من الناس فمن طيب العادات دعوته إلى تناول الطعام أو الشراب بقولنا Usted gusta? "تفضّل " وفي القرى الأندلسية نجد أنه عندما يمرّ أحد بأناس يتناولون طعامهم فيقولون له " تفضل بالغداء معنا " ، ومن الطبيعي أن أحداً لا يقبل الدعوة ؛ وفي البرتغال يقولون له " نحن في خدمتك " أو " هل تجلس برفقتنا ؟ " ، وفي جليقية يقولون " بالهناء والشفاء " ، و " بالصحة والعافية " ، وهذه عبارات ترتبط بأقاليم وفئات اجتماعية معينة ... أما الإجابة على تلك الدعوة عند البرتغاليين فهي بالهناء والشفاء " Bom proveito

إلا أنه لم يَعُد لهذه العادات وجود قوي في المدن الكبرى أو بين هؤلاء الذين تطبّعوا بالطابع الأجنبي ، لكن الأمر يختلف عند القرويين ، كما يوجد في إيطاليا صدى للتواجد الإسباني ، ونلاحظ هذا في عبارة مثل Voul favorire؟ " هل تصنع لي معروفًا ؟ "وهي عبارة تقال – على سبيل المثال – في القطارات عندما يهم أحد بتناول الطعام أمام مسافرين لا يتناولون طعامًا في هذه اللحظة ، ومن يعرف الأدب العربي بشكل جيد سوف يسهل عليه أن يعثر على الأمثلة المتعلقة بهذه الاستخدامات الأسَرية السائدة ابتداءً من المغرب وحتى سورية .

وهناك عبارات شائعة مثل " إن شاء الله " Si Dios quiere، و " إذا ما أراد الله " " لو أن الله أراد لها أن تمطر " ..الخ وسرعان ما يتبادر إلى الذهن أن تلك العبارة ترجع إلى الديانة الكاثوليكية التي تضرب بجذورها في إسبانيا ، إلا أن استمرار عبارات مثل ojala إن شاء الله ، " وشاء الله " تشير إلى الأصول الأولى ، وما نراه ليس إلا مثالاً آخر من أمثلة إدخال تحوير على العبارات (مثلما هو الحال في كلمة " المغاوير " التي تظهر اليوم وهي ذات مضمون مسيحي [١٢] ، والدليل على هذا أنه

لا يمكن القيام بترجمة حرفية لعبارة **Hasta manana si Dios quiere** {إلى اللقاء غدا إن شاء الله} إلى أى من اللغات الأوربية رغم أنها من العبارات العادية لدى الجماهير الغفيرة من الإسبان الذين ينطقونها دون إدراك البعد الدينى ، وعموماً يمكن القول بأن الإسبان استخدموا كلمة " الله " ولازالوا يستخدمونها بشكل أكثر من الشعوب الرومانية الأخرى ، وهنا لا يسعنا إلا أن نقارن بين كلمة **Dios** فى معجم الأكاديمية الإسبانية والكلمة المماثلة لها فى المعجم الفرنسى **Littre** ، وهنا يدرك القارئ ما نريد قوله ، كما أعتقد أن صدى لفظ الجلالة " الله " يكمنّ فى كثير من الحالات خلف المسمّى المسيحى **Dios** ويحدث ذلك فى عبارة التعجب **Olé!** (الله أو بحق الله) التى ننطقها لمزيد من حماس مصارعى الثيران أو الراقصين .

وترتبط عبارات التحية والاحترام التى تتضمن كلمة الله بكل ما سبق ، فقد كان المستعربون يقولون خلال القرن الثالث عشر العبارة التالية " حماك الله وحفظك " ويعلق مننديث بيدال قائلا " يمكن أن تكون هذه العادة أكثر شيوعًا من مجرّد التأثيرات الآتية عن طريق المستعربين إذ لازلنا نحتفظ حتى اليوم ببقايا منها فى العبارة القائلة " **que Dios quarde**" حفظه الله " عندما يتم ذكر اسم الملك رسميًا " (١٣) ، ويبدو أن عالم اللغويات الشهير لا يجد تأثيراً إسلامياً بما فيه الكفاية ليفسر كلاً من العادة المستعربة والعادة الحديثة ، إلا أن المسألة تتضح عندما نفكر بأن عبارة **Dios guarde** كانت صيغة عامة وشائعة ذات طابع إسلامى ، وقد بقى أثرها فى التقاليد الملكيّة وفى التحايا المتبادلة بين الفلاحين الأندلسيين " حفظك الله أيها الرجل **Dios guarde a ust-ed caballero** ، وهذا ما سمعته فى محافظة غرناطة التى تتسم بأن اللغة المستخدمة فيها تميل إلى القدَم ، كما يتضمن نفس المصدر عبارة أبقاك الله **Dios manatenga** والتى كان يُنظر إليها خلال القرن السادس عشر على أنها عبارة يستخدمها القرويون ولهذا كانت تثير الضّيق لدى شخصية التابع فى قصة " لاثاريوّ دى تورمس **Lazarillo de Tormes** (١٤) ، ولازال الفلاحون الأندلسيون يتفوّهون بهذه العبارات حتى اليوم **a la paz de Dios**" فى حفظ الله " ، وينظر إلى هذه العبارة وكأنها العبارة الكنسية **Pax Domini sit vobiscum**، غير أن شيوع العبارة الإسبانية لا يمكن فهمه إلا بأنها " نقل مسطرة " للعبارة العربية " السلام عليكم " .

ولقد استمرت فى إسبانيا فقط عادة تقبيل اليد ، وتقبيل القدم عندما يتعلق الأمر بالسيدات ، إذ كانت النساء حتى القرن التاسع عشر يودعن الرجال قائلات " أقبل يدك يا سيدى فيرد الرجل قائلاً: " أقبل قدميك يا سيدتى ، وهذه العبارات لازالت تتردد فى المحافظات الأخرى التى احتفظت بهذه العادات أكثر من مدريد ، فالأديب ماريانو خوسيه لارا M. J. Lara كان يعرف تقليد تقبيل الابن ليد أبيه : " كان السيد الوالد ، الذى لم يكن يطلق عليه حينذاك بابا ، يحظى بتقبيل يديه أكثر مما تحظى به إحدى الموروثات الأثرية المقدسة " {الزواج بسرعة وبشكل جيد} ، وبين المسلمين نجد أن الابن يختتم رسالته التى يبعث بها إلى والده قائلا " وبعد تقبيل يدك الكريمة " (١٥) .

وقد وجّه السيد لويس دى ريكيسنس رسالة إلى الإمبراطور فيليب الثانى عام ١٥٦٦م – محفوظة الآن فى الجمعية الإسبانية فى نيويورك – يقول فيها " يتقدم إلى جلالتكم تابعكم وخادمكم الذى يقبّل يديكم وقدميكم الملكية " ، كما أنه من الشائع أن نجد فى المسرح الإسبانى خلال القرن السابع عشر هذه العبارة " اعطنى قدميكم " وذلك عندما يريد الأدنى أن يعبر عن امتنانه العميق للملك " اعطنى يا سيدى العظيم قدميك " ، وورد فى رواية دون كيخوته {الجزء الثانى صـ ١٦} أن سانشوبانثا " قبّل قَدَمَىْ السيد دييجو دى ميراندا مرة بعد مرة " وهو أمر بدا طبيعيًا فى نظر الشرّاح لدرجة أنهم لم يفسّروها ، أما فى ملحمة السيد فنجد البطل يحاول فى إحدى المرّات تقبيل قدمى الملك ألفونسو السادس لكن هذا الأخير لم يسمح بذلك " قبّل اليدين أما القدمين فلا " (١٦) ؛ وقد ورد فى كتاب شهير لرامون لول R. Lull أن بلانكيرنا Blan-querna ودع والده قبل الانخراط فى حياة الرهبنة : " وقبل يديه وقدميه " (١٧) ، ولا يعنينا فى هذا المقام أن هذه العادة قد تعلّمها العرب من البيزنطيين أو من أية حضارة أخرى فالمهم أن المسيحيين الإسبان قد أخذوها عن المسلمين الإسبان ، كما أن عملية تقبيل اليد ليس لها علاقة بالنظام الإقطاعى الذى ساد فى أوربا ، بل لها علاقة حميمة بتاريخ إسبانيا ، وننقل هنا فقرة لابن دراج (المتوفى عام ١٠٣٠م) حيث يتضح لنا من خلالها أن تقبيل الأيدى كدليل على الخضوع والتكريم كانت شائعة بين العرب :

تخوفني طول السفار وإنه   بتقبيل كف العامريّ جدير   (صـ٦٣

{ورد فى : فضائل الأندلس وأهلها - دار الكتاب الجديد - القاهرة ١٩٦٨ - صـ٣٦}

ولست أدرى فيما إذا كان تقبيل كسرة الخبز عند رفعها من الأرض هو محصلة تأثير مسيحى فى الإسلام أو العكس ففى الأندلس نجد أنه عندما تسقط كسرة خبز على الأرض يأخذونها ويقبّلونها ويقولون إنها " خبز الله " ، وكذلك يفعل المسلمون " نعمة الله "

غير أن العادة العربية الأصيلة نجدها فى الاعتذار لمن يطلب صدقة " perdone por Dios" " اعذرنى بحق الله " و Dios lo ampare {ساعدك الله} lo socorra أى ساعدك} . (١٩) .

ومن الصعب هنا ألا نربط بين الحياة المسيحية الإسلامية فى العصور الوسطى وبين الأشكال المثيرة فى طلب الصّدقة فى إسبانيا عامة والأندلس خاصة Dios lo con-serve la vista" حفظ الله لك نور عينيك " وهى عبارة يقولها الأعمى ، ومن الشائع الحديث عن قدسيّة يوم معين أو أكثر وخاصة الخميس والجمعة فى عيد القيامة المجيد ، وعند الاحتفال بالقديس حامى القرية ..الخ ، ويتحدث كيبيدو فى مؤلفه el busc?n (النصّاب) عن عبارات موروثة للحضّ على الصدقة ، فالشحاذون الذين يعانون العجْز يتحدثون عن " الهواء النّحس " و " ساعة النكد " التى وقع لهم فيها هذا المكروه حتى أصبحوا على هذا الحال ، وقد ألف خوان رويث (قُمُّص إيتا) أغانى من تلك التى يردّدها العميان {مجموعة أبيات رقم ١٥١٤} ، كما كان هؤلاء يشكلون مؤسسة اجتماعية مثلما عليه الحال فى مصر القرن التاسع عشر طبقا لما يرويه لان Lane، إذ يذكر ذلك المؤلف العديد من جمل الحَضّ على الصدقة ، وهى جمل شديدة الشبه بتلك التى نسمعها فى إسبانيا مثل O exciter of compassion ،O lord for the sak od god!.. وفى اليوم السابق على الجمعة (الخميس) يقولون ما معناه " متّعك الله بليلة الجمعة " .[Lane II,23].

وفيما يتعلق بالدعاء بالبركة أو أن تحل اللعنة فهناك الكثير من الجمل المعبرة ، ومن المؤكد أن فيها الكثير من التأثيرات الشرقية ، ولست أعرف أيا من اللغات الرومانية ، باستثناء تلك التى نجدها فى شبه جزيرة أيبيريا – تتحدث بعبارة " الأم التى أنجبتك " بشرّ أو خير ، إذ يمكن أن تقال أشياء أخرى عن الأم بالإيطالية أو الفرنسية إلا أنها لا تتضمن " التى أنجبتك " ، وهنا نجد أن الخليفة العباسى المنصور قال لأحد الناس ذات مرة " حفظ الله الأم التى ولدتك " [٢٠] ، واليوم نجد أنه بعد مرور ١٢٠٠ عام لازلنا نقول فى إسبانيا " بارك الله فى الأم التى ولدتك " كنوع من الغزل Bendita sea la madre que te parió

يمكننا إضافة المزيد إلى قائمة التأثيرات ، ومن المؤكد أن مثل هذه المهمة أسهل بكثير عند من يعرف حياة المسلمين بشكل جيد ، أما بالنسبة لما أهدف إليه فيكفى أن ألفت الانتباه إلى أحد الجوانب الجيدة والثرية فى تاريخ إسبانيا . ولمّا أصبح الوضع فيه تكرار وإثارة للملل فإننا سوف نتحدث هنا عن بعض التأثيرات الموريسكية خلال مرحلة متأخرة من العصور الوسطى ، وهى فترة نرى فيها التأثير الإسلامى واضحًا فى نواحى الحياة والعادات ، كما نرى الزخرفة المدجنة فى العمارة الداخلية للحصون، ونقرأ قصائد الرومانث الخاصة بالحدود التى تتسم بالعذوبة والشعبية :

كنت مسلمة

مسلمة من سلالة طيبة

وفى قصيدة للشاعر ألونسو ألباريث دى بياساندينو A. A. de Villasadino (المتوفى عام ١٤٢٧م) نجده يتحدث عن متعة حب الموريسكيات وهن من الأجيال السابقة على هؤلاء اللاتى كُنّ يدغدغن مشاعر المسيحيين القدامى فى بداية القرن السابع عشر ؛ يقول الشاعر :

من يعشق الجميلة

فله المغفرة

إن كانت مورا .. (مسلمة)

وردة جميلة يانعة

رأيها فى حديقة

ومفتاح سرّها

فى سلالة إسماعيل ...

ومحمد المقدام

أمر أن تكون هكذا

ذات سلالة نبيلة

نهداها شفافان :

من الألباستر الناعم

لابد أن هناك سببًا قويًا

لإخفائها هذا الجمال ..

وللوصول إلى تلك الشفافية

أضع ، رهن الإشارة ،

روحى الآثمة [٢١]

وخلال القرن المذكور تكثر القصائد الغنائية مجهولة المؤلف التى تتحدث عن الموريسكيات ، وقد ألف الموريسكيون أنفسهم بعضا منها ، فقد نسى الكثير منهم لغته لدرجة أنه فى عام ١٤٦٢م وجد فقيه شيقوبية Segovia نفسه مضطراً للكتابة بالقشتالية : Suma de los principales mandamientos de la ley alcoránica (مختصر التعاليم الدينية القرآنية) [٢٢] ؛ وتقدم لنا بعض القصائد مِسْحة راقية من الحنان:

أحببت ثلاث مسلمات

من جيان Jean

عائشة وفاطمة ومريم

ثلاث مسلمات غاية فى الجمال

ذاهبات لجمع الزيتون

وبعد جمعه

فى جيان

وبعد جمعه

عدن وقد اعتراهن الإرهاق

وذهبت حُمْرة خدودهن

فى جيان :

وفى قصيدة أخرى تبدأ بهذين البيتين

تلك المسلمة الجميلة (٢٣)

يملأ حبُّها حياتى عذابا

وقد غزا نمط الحياة الموريسكية طبقات النبلاء خلال حكم الملك إنريكى السادس (١٤٥٤ - ١٤٧٤م) ، كما توافق هذا الأمر مع الأزمة الروحية التى عادة ما يطلق عليها أزمة العصور الوسطى والتى كان بعض نتائجها التّراخى فى أداء الشعائر الدينية ، ووصل الأمر ببعض النبلاء أن تحدثوا إلى الملك بطريقة غير لائقة باستخدام عبارات مثل " من الملاحظ أن بلاطك وقصرك وأتباعك هم أناس من غير المؤمنين وهم أعداء الديانة الكاثوليكية المقدّسة ، وهناك أشخاص آخرون ليسوا إلا مسيحيين اسما فهم مشكوك فى عقيدتهم حيث يؤكدون بأنه لا توجد حياة آخرة " (٢٤)

وقام الرحّالة التشيكى البارون روزميتال Rosmithal بزيارة قشتالة فى منتصف القرن الخامس عشر، ودوّن فى مذكراته اليومية عدة ملاحظات عن الحياة التى تتوالى ظواهرها أمامه ، فقد لاحظ أن لا أحد يركع أثناء القدّاس فى أولميدو Olmedo وخاصة عند تناول القربان المقدّس – إذ يبقون واقفين كأنهم حيوانات – وهذا ما يعكس عدم التديّن الملحوظ فى بلاط الملك إنريكى الرابع غير الكفء ، ولا يرجع ذلك إلى الملك بل إلى الأوضاع القائمة منذ زمن مضى (٢٥) ؛ وهناك العديد من الأسباب التى أدت إلى هذا النوع من لين المشاعر الدينية ، لكنه لا يرجع أبدًا إلى التعايش بين الأديان الثلاثة فى وقت أخذت المعتقدات تخبو إزاء التصوّف خلال العصور الوسطى ، وهذه الممارسة الدينية الأخيرة لم تكن قوية فى إسبانيا ، وبذلك فالأمر يرجع إلى أفول عصر هو ذلك العصر المذكور ، كما أننى أؤكد على ما أقول إذ لازال هناك من يرون وجود فرق بين ماهو تعبير عن انحطاط عصر وبين الأحداث التى تقع فيه .

ولقد تسرّبت أنماط الحياة الموريسكية إلى الحياة الخاصة ، والأجدر بنا القول بأن تلك الأنماط إنما هى إسبانية غير أن من عاشوا خلال القرن الخامس عشر قد كتبوا عن هذه الأنماط دون الأخذ فى الاعتبار أنها كانت مركّزة على عالم المحسّات ، وهذا ما كان منسجما مع تحوّل الاهتمام وانتقاله مما هو روحى وسماوىّ إلى ما هو أرضى ومادىّ ، ولنعد مرة أخرى إلى مذكرات البارون المذكور لنجده يقول : " ويقيم فى برغش Burgos كونت قوىّ الشكيمة ، وقد أخذ سيدى إلى قصره " [من يكتب هذه العبارة هو سكرتير البارون] ومعه رفاقه ، كما حضرت إلى القصر فتيات جميلات وسيدات وقد ارتدين أبهى الثياب على الطريقة الموريسكية وكن يتبعن نفس الطريقة فى المظهر والمأكل والمشرب ، كما كن يغنين أغانى عذبة على الطريقة الموريسكية ويرقصن ، كنّ سمراوات سوداوات العيون ، يأكلن ويشربن القليل ويحيين سيدى بابتسامة وكن لطيفات مع باقى الحضور " (٢٦) .

وإذا ما كان ذلك يحدث فى برغش ، تلك المدينة التى يعيش فيها المسلمون منذ القرن العاشر ، فما بالنا بالتأثير الموريسكى فى مناطق تم استعادتها حديثًا ، ومن

الواضح أنه خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر أخذت تزداد ثروات قشتالة وأدى الميل إلى حياة البذخ فى الملبس والعادات إلى استخدام ما هو موريسكىّ ، وقد كان النموذج الأمثل للدلالة على الثراء والتميّز منذ ما يزيد على خمسة قرون ، وكان ميجل لوكاس دى إيرانثو M. L. de Iranzo – المفضّل لدى الملك إنريكى الرابع – يمتطى صهوة " الجواد على طريقة المور Jineta وهو يرتدى جلباباً موريسكيّا متعدد الألوان " . (٢٧) .

ونكتفى هنا بما سبق عرضه – فلسنا فى معرض وصف الحياة الاجتماعية خلال القرن الخامس عشر– فهو كاف لنرى أن العادات الإسلامية لم تكن مجرد عَرَض أو شيئًا إضافيًا إلى الحياة المسيحية ، إذ تم قبولها كنوع من التنازل الظريف من قِبَل المنتصر نحو المهزوم ، وهذا أيضًا ما يفسر ميل الناس فى الغرب الأمريكى إلى الأسلوب الاستعمارى الإسبانى ، والبرهان على ذلك هو أن اللغة مرتبطة بالحياة ، وكذا ما سأعرض له فى الفقرات التالية .

التأثير الدينى للإسلام

لا توجد أية دولة كاثوليكية يشكل فيها الدين أكبر مخزون اجتماعى إلا فى إسبانيا والدول التى تتحدث الإسبانية ، والحقيقة أن العقيدة الدينية لم تحل محلها أية قوى أخرى إلا إذا كانت مساوية لها فى الانتشار والقوة ، غير أن ذلك لا يعنى أن المتحدثين بالإسبانية يفكرون فى العيش طبقا للنمط المسيحى أو أن الكنيسة تحتل فى قلوب الناس مكانة أكبر من طموحاتهم الاجتماعية والرغبة فى الثراء والمتعة ، فالدّين لم يعد يصنع الأبطال الذين يستحثّون الهمم ويرسمون معالم الطريق للآخرين ، ويجعلون الشباب يشعر بالرغبة فى تقليدهم روحيًا وسلوكيًا ، فشباب اليوم يحلم بشغل منصب فى البنوك والزعامة السياسية والبطولة الرياضية ، أو أن يكون كاتبًا مشهوراً... الخ. وكل واحد من هؤلاء الشباب مشغول اليوم بتحقيق طموحاته الذاتية أكثر من التعبير عن إعجابه بما حققه الآخرون ، وبالتالى أفسح الإعجاب مكانه للحقد ،

فكل شىء يبدو قابلاً للتحقيق إلا أن الحصول عليه أو عدمه يخضع للصدفة ، وهاهى القباب العظيمة قد اختفت بعد أن كان الجميع يشعر تحتها بالحماية وتهاوت مع الجوهر والماهية قيمة المُثُل التى كان يجسّدها ، ورغم كل ذلك فإن المفهوم الدينى لدى الإسبانى والبرتغالى وابن أمريكا اللاتينية (أمريكا الأيبيرية) لازال قائمًا كواقع لا يتجزّأ لكنه لا يظهر وتتضح معالمه إلا عندما يحاول أحد إلغاءه، كما أنه ليست هناك صلة بين ما نقول وبين اقتناع المتحدثين بالإسبانية – فى أغلبهم – بأن الكنيسة الإسبانية لم تعد تجسّد قِيَمًا مُثُلى من أى نوع ، والدليل على ذلك أن العقيدة الدينية قائمة وبشكل ما ، وأن كل محاولة للقضاء عليها أو إسكاتها ينتج عنها كوارث لا تُحْمد عقباها ، ولقد قامت كل من المكسيك وإسبانيا وغيرها من الدول المتحدثة بالإسبانية بكتابة هذا الفصل من تاريخها بأحرف من دم ، ولازال الناس الذين يتحدثون الإسبانية والبرتغالية يعيشون فى عالم سحرىّ وليست له استقلالية على أرض الواقع كما أنه لا يرتكز على أسس موضوعية أرساها الإنسان المتحدث بالإسبانية ، وعلينا أن نعترف بذلك دون حزن أوْ وَجَل فنحن فى أشد الحاجة إلى هذا الاعتراف اليوم أكثر من أى وقت مضى ، فقد أصبحنا فى عالم نتحدث فيه إلى بعضنا البعض على قدم وساق فى الوقت الذى نجد فيه بلادًا كانت قد أسهمت إسهامًا فعّالاً فى عصر النهضة وعصر الإصلاح لكنها اليوم سقطت فى وهدة البربريّة والابتذال بشكل غير مثير ولا أحد يعرف كيف ستخرج منها .

وهناك بعض الإبداعات الحضارية الإسبانية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر وكذلك القرن الثامن عشر والتى تعتبر انعكاسًا للتفرّد الدينى لهذا الشعب ، ونجد أبرزها فى دور العبادة وفى الأعمال الدينية الفنية فى إسبانيا والأراضى التى كانت تابعة لها فى زمن الإمبراطورية ، وهى مُنْجزات تُعْلى من شأن الحضارة التى تُنْسب إليها ، وهناك الكثير من الشخصيات الأدبية التى برزت عالميًا وقد خرجت من بين صفوف الرّاهبات والقساوسة ، ونذكر منها : سان خوان دى لاكروث ، وتيريسا دى خيسوس ولويس الغرناطىّ ، ولويس الليّونى ، وفرانثيسكو دى بيتوريا ، وخوان دى ماريانا ، ولوبى دى بيجا ، وكالديرون ، وتيرسو دى مولينا ، وجراثيان ، والأب فييخو ، كما أن الإمبراطورية الإسبانية انتهجت سياسة جوهرها أن تضع على أرض الواقع

أى عمل فنّى مجرد ومقصود لذاته ، وكان ذلك عندها دافعًا وغاية ، وأقول لهؤلاء الذين يتناولون تلك الجوانب بنوع من الازدراء والاستخفاف إن عليهم تكريس جهدهم لمهام ثقافية أخرى تساعدهم على الفهم بطريقة أقل سوءًا ، والتاريخ الخاص بما هو إسبانى هو فى حقيقة أمره تاريخ عقيدة ومشاعر دينية وبالتالى فهو تاريخ العظمة والانحطاط الناجمين عن ذلك .

عاشت إسبانيا ديانتها بكل ما تمخض عنها من نتائج وهى تعرف فى كل بُرْهة ماهيّة ما تقامر به مع القدر فى هذه اللّعبة ، وقد حازت هذه اللعبة الكثير من الجديّة التى تفوق ما أسهم به البابوات الرومان الذين حاربوا من أجل الدفاع عن مصالحهم الدنيوية الزائلة كما أنهم لم يحطموا دولهم أو يجعلوا السكان ينزحون عن أرضهم وهم يحاربون غير المؤمنين والملاحدة ، فلقد أضحى الدين بالنسبة للكثير منهم عملية سياسية دنيوية وبيروقراطية ذكية وكهنوتا ليس فيه حرارة القلب ومَسْرَحةً رائعة للأحداث ، ولست أقول ذلك بقصد النّقد الساخر واللاذع فهذا بعيد عن مقصدى (٢٨) ؛ فلقد حاربت روما فى معركة ليبانتو Lepanto (١٥٧١م) تحت إمرة أمير إسبانى هو السيد خوان دى أوستريا J. de Austria، غير أن دوق أوسونا Osuna ونائب ملك إسبانيا فى صقلية أخذ يصبّ لعناته على البابا لأن سفنه جاءت لشحن منسوجات حريريّة فى ميسينا Mesina ورفضت محاربة الأتراك فى الوقت الذى كان الأسطول الإسبانى يستعد لخوض المعركة {انظر كتابى : القديسة تيرسا صـ ٢٤٥ ، ٢٤٦} كما كتب العبقرى ماكيافيلى يقول " تلك الشعوب القريبة إلى الكنيسة الرومانية التى هى زعيمة الكاثوليكية ، هى شعوب قليلة التديّن " {من خطابه حول المرحلة الأولى لتييوس ليفيوس – الجزء الأول ،صـ١٢} ؛ كما أن الإصلاح جعل الاهتمام الدينى ينحصر فى سلوك الإنسان وأثره فى المجتمع ، وابتداء من هذا أُغْلق باب التأمل الروحىّ وحديث النفس مع الله وتحوّل المفهوم الدينى فى عصر الإصلاح إلى مفهوم علمانى وتوافق مع مستوى التعبير الأدبىّ المُتَدنِّى (الذى اتسم بالموضوعية الدرامية) ، وقد لوحظ ذلك بين الشعوب التى رفضت الكاثوليكية رفضًا مطلقًا ابتداء من القرن السابع عشر ، ومما لاشك فيه أن فرنسا بلد كاثوليكى إلا أنها أدخلت على هذه الكاثوليكية الكثير من العناصر المفيدة ، وانتهى بها الأمر أن وجدت نفسها فى الدائرة العقلانية التى عليها

أعداء الكاثوليكية ، ومن هنا ندرك سرّ وجود الكاثوليكية الثقافية التابعة " للمعهد الكاثوليكى" فى باريس وكلك جماهير القرى ، وأصبحت الكاثوليكية الفرنسية - ابتداء من القرن السادس عشر - فى خدمة الدولة الوطنية التى تتجسّد فى ملوكها (٢٩) ، وفى أحضان هذه الكاثوليكية وُلِدَ عالم فيه الكثير من العقلانية والبعد عن الدين ، وأصبحت فرنسا تنظر إلى المسرح الدينى خلال القرن السادس عشر وكأنه أحد عناصر زمن قديم وغير مسموح باستمراره ، ثم قرر البرلمان إلغاءه عام ١٥٤٨م ، أما هذا النوع من العروض المسرحية فقد استمرّ فى إسبانيا حتى عام ١٧٦٥م ، ولم ينته هذا النوع من العروض إلا تحت تأثير الضغوط الثقافية القادمة من الخارج .

نجد إذن أن الديانة الإسبانية تقوم على كاثوليكية تختلف عن المفاهيم السائدة فى كل من روما وفرنسا ، ولا نريد الحديث هنا عن الكاثوليكية فى الولايات المتحدة فهى نوع من العقيدة شبيه بالإسبانية ، ولا يمكن فهمه إلا فى إطار " الموقف الحيوى " لتاريخ تلك البلاد ، والديانة الإسبانية ، ومثلها اللغة والهيئات والضعف الإسبانى فى ميدان العلوم التجريبية والمبالغة فى التعبير والتكامل ذى الملامح الفريدة ، لابد أن ينظر إليها من خلال القرون التسعة من الصلات المسيحية الإسلامية ، فالثيوقراطية الإسبانية واستحالة تحوّل إسبانيا أو منطقة إسبانوأمريكا إلى دولة أو دول مدنية محضة تعتمد على المصالح ودنيا الواقع وليس على السحرية الفرديّة ماهى إلا صدى بعيد للروح الإسلامية اليهودية (انظر الفصل العاشر) .

ولم يستطع أحد أو أى عنصر أن يقضى على الكنيسة الإسبانية بصفتها مؤسسة اجتماعية أو يزحزحها وهذا أمر طبيعى يحدث فى العديد من الدول حيث من الملائم والمرغوب فيه ألا تختفى تلك الأديان ، إلا أن الشىء الذى يميز إسبانيا هو أن الكنيسة لازالت تمثل قوة تقف أمام الدولة بشكل لا نجده فى فرنسا أو إيطاليا أو غيرهما من كبريات الدول الكاثوليكية (٣٠) ، وقد كان لإسبانيا دولة مثلها مثل تلك الأمم التى تدخل فى دائرة الثقافة الأوربية ، إلا أن هذه الدولة عاشت حتى وقت قريب وكأنها سلطة مساعدة إلى جوار الكنيسة ، وهذا ما أبقى ملامح الصورة الموروثة عن العصر الذى

كانت الثيوقراطية تحكم فيه إسبانيا ، ولم يكن للمحاولات التى جرت للتخلص من السلطة الكنسيّة إلا صدى مؤقتًا وسطحيًا ، ولمّا حُرِمت الكنيسة من أملاكها عام ١٨٣٦م استطاعت أن تكون لها سلطة اقتصادية من خلال الطوائف الدينية وممارسة تأثيرها الواسع من خلال مراكزها التعليمية ، ولا يجدى هنا محاولة تفسير الوضع باللجوء إلى أسباب خارجية ، ذلك أن الجماهير لازالت تستلهم عقيدة جامدة لا تتزحزح ولا تَسْتَلْهم واقعًا موضوعيًا تحكمه الأحداث والمصالح الإنسانية ، فقد كان أصحاب رءوس الأموال الإسبان يفضلون إيداع أموالهم فى الحسابات الجارية أو يستثمرونها فى سندات حكومية بدلا من المخاطرة بالاستثمار فى مؤسسات صناعية ، ويلاحظ أن الصناعات الكبرى والمناجم الضخمة وطرق السكك الحديدية تملكها شركات أجنبية ، وفى عام ١٩٣٥م كان يوجد فى إسبانيا سبعة عشر فنيًا أجنبيا ، هناك إذن نكوص وقعود وعقيدة لكن لا يوجد أى نوع من الهجوم على الواقع والاحتكاك به ، وقد أشرت فى الصفحات السابقة من هذا الكتاب إلى عبارة من أصل عربى تقول **Si Dios quiere** " إن شاء الله " ، وهأنذا أضيف إليها فى هذه اللحظة " كل من عند الله وكان من الله " أو " قدّر الله وماشاء فعل " وهى عبارة تمكنت من أعماق الشعب وتستخدم فى كل خطوة .[٣١] .

وأمام هذا القعود والنكوص الذى تسانده الكنيسة والذى عليه الطبقات الاجتماعية القادرة نجد الثّقة التى ترفع الجماهير رايتها والقائمة على عقيدة مضادة رغم أنها ترجع إلى نفس الجذور ، والفوضويّة هى واحدة من المعتقدات الشعبية المضادة للدولة ، كما أن الكنيسة كذلك ، وقد أدّى هذان العنصران الفوضويان إلى إقحام إسبانيا فى مَعْمَعة حرب أهلية دارت منذ عام ١٩٣٦ حتى ١٩٣٩م تحت ستار أيديولوجيّات أجنبية، فالإسبانى لا يعتقد أنه عضو فى جماعة قومية وأن مسار هذه الجماعة ومصيرها مرتبط بما يفعله الجميع وما يفعله كل فرد ، إنه ينتظر وقوع الأحداث أو أن يخرج إليه زعيم مقدام ، فالشعب الذى حارب ضد الفاشيّة كان يؤمن – فى كثير من الحالات – أنه يقدم حياته فى سبيل قضية عليا وعالمية ، وأن التضحيات التى تقدمها الجماهير الإسبانية الفقيرة سوف تسهم فى تغيير مسار هذه الدنيا البسيطة ، وهذا ليس بجديد

ففى نهاية القرن الخامس عشر نجد أن الجماهير الإسبانية اعتقدت أن الملوك الكاثوليك كانوا قد جاءوا مبعوثين من عند الله حتّى تمتلئ الأرض بهجة ، وكذا للقضاء على طغيان الجبابرة ، وقد كتب بعض مفكرى عصر النهضة عن " يُوتوبيّات " لكن الإسبان قدّموا دماءهم فداءً لتلك الأحلام وفعلوا ذلك فى أكثر من مناسبة ، وبذلك ضربوا بالحدّ الفاصل بين الممكن والمستحيل ، والواقع والخيال عرض الحائط ، وأمام هذه المآسى علينا أن ننسى المواقف الطائشة واللامسئولة والمبتذلة التى عليها البرجوازى الذى كان يرى أن العيش يعنى السعادة عبر أقصر الطرق ، كما أن الازدهار الذى عاشته بعض المدن الإسبانوأمريكية ، والذى يعتبر تجسيدا للأحلام الجامحة ، إنما يؤكد أن الحدود الفاصلة بين الخيال والواقع ليس من السّهل وضعها ، ولم يكن التاريخ السياسى لإسبانيا والبرتغال وأمريكا الأيبيرية إلا سلسلة – لا تنفصم حلقاتها – من الطموحات والآمال الضائعة وقد تراكبت وأصبحت هالةً أسطورية تحيط بنثر الحياة اليومية .

وسوف يقول البعض إن كل مجتمع من المجتمعات الإنسانية قد عاش شيئًا من هذا عبر تاريخه ، وهنا أقول بأن الفارق الجوهرى بين العالم الأيبيرى وباقى الشعوب الغربيّة هو أن جِمَاع تاريخ هذه الأخيرة ليس فقط هؤلاء الأشخاص الذين يحلمون أو ينتابهم الإحباط (كرومويل ونابليون ...الخ) وإنما أيضًا فى الواقع الذى نجده خارج إطار ما هو ذاتى (الاقتصاد والمفاهيم السياسية التى تتّسم بالأصالة والتقدم العلمى والصناعى...الخ) ، وقليلاً ما نجد وقائع مثل هذه فى تاريخ العالم المتحدث بالإسبانية ، رغم أنها أسهمت بعض الشئ فى تكوينه ، لكنه إسهام غير قوى إذ هى واردة من الخارج وليست تجديداً بزغ من الداخل ، وأمام كل هذا نجد أن ما هو " شخصى " ينهض بقوة ويعلو على ثمار الثقافة الجماعية التى تصلح للجميع ، وبذلك يتحوّل التاريخ إلى عملية تناوب بين الآمال والإحباطات التى شكّلها الإيمان أو الانخداع بزعماء الأمة ، والثقة الدينية ، و " مضاد المسيحية " ، والإعلاء من شأن القدوة ، والنزول بالمُذْنب إلى أسفل سافلين ، وقد شغل الأدب الإسبانى نفسه – منذ بداية العصور الوسطى وحتى القرن التاسع عشر – بلوذريق Rodrigo آخر ملوك القوط ، وكذلك بالخائن خوليان Julián الذى فتح أبواب إسبانيا أمام المسلمين لكى ينتقم ممّا فعله ذلك الملك الفاجر بابنته ، وقد كان كلاهما " مذنبين" فى مسألة تدهور

أحوال إسبانيا ، كما أن الأساطير أوقعت الكثير من الأعمال الانتقامية بهذا الملك التّعس ، وبعد ذلك بقرون تم وضع سبب آخر - شخّص - لتفسير مسار التاريخ ، ففى عام ١٤٩٧م توفى الأمير خوان الابن الذكر الوحيد للملوك الكاثوليك ، وقد كانت هذه الحادثة الأليمة السبب وراء الوقائع المتعلقة بالتاريخ اللاحق عليها والتى قام بها ملوك الأسرة النمساوية ، وبمقولة أخرى نجد أن ما هو شخصى يمكن أن يتمثل فى حماس الشعب الإسبانى للملك فرناندو السابع إذ أطلق عليه الشعب لقبًا هـو " المرغوب فيه " el Deseado رغم أن هذه المشاعر ترجع إلى نوع من المتعة الدينية ، فالملك المذكور كان يتسم بالصعلكة واللؤم لأقصى درجة ، ومع هذا أفاد فرناندو السابع من هذه المشاعر فى دفع الجماهير الإسبانية لطرد جيوش نابليون من البلاد (١٨٠٨م - ١٨١٤م) ، كما أن الازدهار الثقافى لإسبانيا خلال القرن الثامن عشر ينسب إلى كارلوس الثالث وهو الملك الذى لم يكن له خبرة تذكر إلا أنه يحاول الوقوف ضد عمليات الإصلاح التى قامت بها مجموعة من الأرستقراطيين الذين دافعوا عن قضية الثقافة ، وحالنا اليوم هو ما كنا عليه بالأمس ، أى أنه ملىء بالمفاهيم الإيمانية أو المضادة للمسيحية وكذلك الكثير من الأصداء الأسطورية ، ومن هنا لا نستغرب أن العقيدة الدينية فى إسبانيا لها ملامحها الفريدة ، كما نتساءل : أى من تلك البلاد الكاثوليكية نجد فيها احتفالية بعيد القيامة المجيد مثلما نجده فى أشبيلية ؟ فالتماثيل مُفعمة بالبذخ والبهاء ، وتتسابق الجماعات الدينية تسابقًا محمومًا ، وتدور بينها حروب نفسيّة وحروب تتعلق بالمشاعر ، ومن بين أفراد هذه الجماعات التى تشارك فى المواكب الدينية نجد رجالاً من أبناء الشعب الذين يمكن أن يكونوا من ذوى الاتجاهات الفوضوية ويحلمون بالقضاء على البنية الاجتماعية والكنسية معا ، ولكن لما كانوا يحملون صورته أو تمثالاً له (أى تمثال المسيح - مسيح القوة العظمى - أو تمثال عذراء ماكارينا) فهم قادرون على أن يقدموا أرواحهم دفاعًا عن شرف صورته ورفعتها، وعادة ما يتم تفسير هذه الظاهرة تفسيرًا ساذجًا بالقول بأن الشعب " يعيش حالة تَطيّر " ، لكنه تفسير لا يؤدى إلى شىء فالتطيّر موجود فى جنوب إيطاليا أو فى بولندا غير أنه لا يحدث هناك شىء مماثل، والتطيّر مبعثه الإحساس بالأذى أو الفائدة اللّذَيْن يمكن أن يصدرا من قوى

لا يمكن السيطرة عليها ، كما نلاحظ أن حامل التماثيل فى المواكب الدينية فى أشبيلية يتّحد تماما مع تطيّره ويحوّله إلى جوهر حياته، ويعانى فى سبيل ذلك من بذل الجهد وتحمل الآلام ، وغنى عن القول الإشارة إلى أننى لا أظن أن الكثير من الكاثوليك الذين يشاركون فى هذه المواكب - التى تعقد فى أشبيلية - يؤمنون ويُقرون بكل ما تقول به الكنيسة ، وهناك أسباب عديدة لذلك منها أنهم يجهلون الأمر ، إذن فما يَهُم هو أن ينخرط الشخص فى دائرة ما هو جوهرى أى فى " ذاته " وبذلك يتحول إلى " ما ورائيته " وكأننا بذلك نرى أحد المظليين بقى معلقًا فى الهواء ، ويعيش الناس وهم يؤمنون بشئ ما يتجاوز الحدود التى قد يصل إليها الإنسان ، أى أنهم يعيشون على ما تعطيه الأرض التى هى " الأم الروحية " ، وعندما يصعب الحصول على خيراتها فالمخرج الوحيد هو رأس المال أو التقنية الأجنبية ، ولهذا نجد أن المناجم وآبار البترول فى الدول المتحدثة بالإسبانية عادة ما تكون فى أيدٍ أجنبية ، وإمّا العيش فى كنف الكرم الأسطورى للدولة التى تقوم بتوزيع العديد من الوظائف ، وكأنها هنا " الأب الروحى " ، دون الاهتمام بكفاءتهم وقدراتهم فيما يقومون به ، أى أن الناس يعيشون وهم يطفون على سطح الإيمان بالدولة ، وهذا ما يحدث أيضا بالنسبة لمفهوم العقيدة الدينية ، ويبقى المرء فى كلتا الحالتين منكفئًا على نفسه (وليس لها كبير صلة بما يطلق عليه عامة المفكرين بالفردية ، فالإسبانى يعيش منغلقًا على نفسه ، وعيناه على " الماورائية " ، ويعبّر عن نفسه مقدما ، ويجسّد وجوده وكأننا أمام مشهد من مشاهد وجوده هو من خلال الإشارات والكلمات والمواقف ، وأحيانا ما يحدث ذلك من خلال مظاهرة فنية عملاقة أو سجايا رفيعة ، أما غير ذلك - وأكرر هنا - فقد كان ولا يزال يُستورد من حضارات أخرى ، ومع ذلك فليس من المستحيل على الإسبانى أن يسير فيه إلا أن الأبقى والأكثر دومًا هو ذلك الآخر .

ويجب على حضارة مثل هذه أن تدافع عن ماهيتها ومفاهيمها الدينية الخاصة بها بأسنانها وأظافرها ، وأن تقف فى مواجهة أية محاولة لصياغة شكل دولة مفروض عليها من قِبَل الموضوعية أو العوامل غير الشخصية ، ومن ثم نجد أن الدول المتحدثة بالإسبانية تُدَمّرها عدم الكفاءة واللاّ أخلاق ، كما لم ينفذ إليها أبدًا وعى دينى يتسم

بالموضوعية بالنسبة للجميع ، فالديانة فى البلاد المتحدثة بالإسبانية عبارة عن عقيدة لها ملامحها الشخصية لكنها ليست دليلاً ونبراسًا للسلوك ، وعلى هذا فالإنسان حامل الحضارة الإسبانية قادر على القتل وعلى تقديم نفسه فداءً لدينه ولعالمه الذاتى الذى تهيمن عليه إرادته وأحلامه ونزواته ، كما أنه يشعر بالضياع فى عالم تحكمه القواعد التى لا يستطيع التأثير فيها بإرادته ، وحتّى يحول دون ظهور ذلك العالم إلى النور نجده قادراً على ارتكاب الجرائم والفظائع التى لا تتفق مع أبسط قواعد الديانة المسيحية ؛ وعندما نسلط الأضواء على ذلك فى أرض الواقع نجد أن الحرب الأهلية الإسبانية (١٩٣٦ - ١٩٣٩) كانت عبارة عن صراع بين المفاهيم الدينية الإسبانية القديمة التى أصابها الجمود بمرور الزمن وبين الدخول فى تجربة دينية أبدعها أفق آخر جوهرى وغامض وملبّد بالغيوم حيث تضافرت من خلاله عناصر مثل " بروت لى " على الطريقة الإسبانية ، وكذا مشروع " يوتوبيا " السعادة الكونية ، أما باقى العناصر فلم تكن إلا إضافات غير ذات قيمة كبيرة وتم إدخالها من الخارج .

وأظن أن تلك الطريقة فى مواجهة الحياة قد نَمَتْ وترعرت فى مهد التعايش مع الثقافة الإسلامية التى تقوم على الخضوع لعقيدة تتولّد عنها عقائد أخرى ، فطبقًا للعقيدة الإسلامية نجد الرسول محمداً هو آخر الأنبياء ، ومن المعروف أنه بعد وفاة الرسول بوقت قصير وحتى عصرنا هذا نجد المسلم ينشّط سكونه الحيوىّ بحلم المسيح المنتظر - المهدى [٣٢] ، وإذا ما أضفنا إلى ذلك التأثيرات اليهودية الإسبانية ، وتأثيرات الذين تحوّلوا إلى المسيحية على الفئات القادرة اجتماعيًا وعلى بعض أنماط الروحية الدينية لوجدنا أنفسنا فى طريق يساعدنا على فهم جانب جوهرى لهذا الوجود الدرامى الإسبانى .

ومن الصعوبة بمكان أن نقدم - وبوضوح -- مراحل نفوذ بعض المفاهيم الإسلامية إلى المفاهيم المسيحية الإسبانية ، فنحن لا نتعامل مع " مُحَسّات " بل مع مواقف حياتية وأنماط متعلقة بالمشاعر لمواجهة العالم المحيط بنا ، وعندما تسيطر هذه الأنماط على أخرى غيرها نجدها تصبح منهج وجود ، ومن الطبيعى أن كثرة الظواهر اللغوية

وتلك المتعلقة بالسلوك اليومي لم تكن لتوجد لولا انضمام المسيحيين إليها بلطف والاعتراف بتفوق أنماط حياتية تختلف عن المسيحية ، إلا أنه لا مناص منه ، ولقد فرضت الحياة الإسلامية نفسها وتقابلت مع حياة جيرانها ، ومن هنا فإن هؤلاء الجيران أخذوا عنها كل ما طاب لهم وما كانوا بحاجة إليه سواء روحيًا أم ماديًا بدءًا بالكحول وحتى أشكال المعجزات ، غير أننا إذا ما اقتصرنا على تعداد المؤثرات فالمحصلة هى ظهور المسيحيين الإسبان وكأنهم مستوطنون تابعون للمسلمين وهنا لا نستطيع أن نفهم كيف تمكنوا من الخروج من رِبْقة هذه الصفة وكيف كان تاريخ إسبانيا، أما الطريقة الوحيدة لكتابة التاريخ - والتى تتّسق مع الموضوع الذى أعالجه - فهى تبدأ بطرح الافتراض التالى والقائل بأن الشرقيين فرضوا أنفسهم ووقفوا ضد المسيحيين ، وهؤلاء بدورهم قاموا بتقليدهم غير أنهم - من الداخل ومن منطلق الموقف الحيوى - وقفوا ضد ما فرضه عليهم المسلمون ، أى من منطلق الاعتقاد فى سلطة ماورائية ؛ وتمكن المسيحيون من الوقوف فى وجه المسلمين والانتصار عليهم بعد ذلك بفضل إيمانهم بقوة سلاح مناهضة الإسلام ، وبفضل هذا السلاح كسبوا المعارك ثم تحوّل السلاح بعد ذلك إلى نمط فريد لطريقة العيش الإسبانية ، فلم يَعِشْ الإسبان عقائدهم مثل الإيطالين والفرنسيين والألمان ولهذا فإن تديّن أولئك كان مختلفًا عن هؤلاء؛ فقد كان خارج إسبانيا " الماورائية " وكذلك " الحياة " ، ولقد أقامت إيطاليا حياتها على أسس دنيوية (التجارة والبذخ والسفر عبر البحار والعقلية المتسلطة وقلة الهمّة العسكرية وإنزواء الروح القومية ، وبالتالى لم يكن لديها شعر ملحمىّ...الخ) ، ولم يكن الدين مكونًا أساسيًا فى تاريخها الذى كثيرًا ما كان مسرحًا للصراع بين الأجانب الطامعين فى الحصول على ثمار العقلية الإيطالية وفنونها أما فرنسا فقد أقامت دعائمها على أساس السلطة المركزية لملوكها حيث كانت الأسر الملكية عصب تاريخ ذلك البلد ، كما نجد أن كلا من إنجلترا وألمانيا ، وباقى أمم أوربا الغربية ، قد أقامت وجودها على أسس مادية إلا أن إسبانيا أسّست دعائمها على قواعد " إلهية " مثلما أشار قبل ذلك السيد ألونسو دى كاستراخينثا فى معرض حديثه عن الفروق بين الحروب القشتالية وتلك الأخرى التى خاضها الإنجليز ، فتاريخ إسبانيا تاريخ " روحى

"divinal" وعندما نترك أنفسنا لهذه الحقيقة البديهية نستطيع فهمها ، ولقد كانت العقيدة ، التى تشكلت كنوع من الرّد البطولى على عقيدة معادية تحتضر تحت سيطرتها بقايا إسبانيا القوطية ، وهى العمود الفقارى لتاريخ إسبانيا ابتداء من القرن التاسع وحتى القرن السابع عشر ، إنها حالة فريدة ودراما غير عادية ، ولقد تمكنت إسبانيا القرن التاسع من أن تعيد تشكيل ذاتها وتواصل بقاءها بفضل إيمانها بسانتياجو دى كومبوستيلا ، ولولا هذه الخميرة لكان مصير إسبانيا قد ارتبط بشمال أفريقيا أو سيطر عليه الأوربيون القادمون من الشمال ، ومهمة الصفحات التالية إيضاح ملامح هذه الفكرة وتنقيتها من كل ما يبدو مجرد نزوة للوهلة الأولى .

الهوامش

(١) قانون ثوريتا دى لوس كانس ، طبعة R. de Ureana صـ ٦٧ ، ٦٨

(٢) قانون بديهويجا J. Catalina ص ١٦٢

(٣) قانون أوساجرى - طبعة أ. بومبيا صـ ٤٨

(٤) لويس دى مار مول " تمرّد الموريسكيين وعقابهم " مكتبة المؤلفين الإسبان العدد ٢١ صـ ١٦١، ١٦٢ ، ١٦٤

(٥) هناك العديد من الأحاديث التى تتحدث عن عادة المسلمين فى " غسل الموتى " والتى وردت فى البخارى

(٦) انظر الجزء الأول لجونثاليث يوبيدا " Coplas de Yoçef" صـ ١٩ ، ٤٢ - وقد كان أنطونيو دى جيفارا أسقف موندونيدو Mondo´nedo يعرف جيدا عادات الموريسكيين واليهود وقد تحدث عن بعض منها فى " الدساتير المجمعية " والذى قدمه للإبراشيات عام ١٥٤١م {ورد فى R. Costesبعنوان " أنطونيو دى جيفارا " Sa Vie, {Burdeos 1925 pp 57 yss

(٧) انظر ل. بيفاندل Pfandl" مدخل إلى العصر الذهبى " صـ ٢٧٣ .

(٨) لويس دى مارمول ، المصدر المشار إليه صـ ١٦٥

(٩) كتاب الفارس ثيفا - طبعة فاجنر صـ ١١٠

(١٠) انظر " التاريخ العام " صـ ٤١٠ - فأسطورة الحصان والباشق ذات أصول شرقية .

(١١) ولما سيطرت إسبانيا فترة طويلة على إيطاليا انتقلت إلى هذه الأخيرة بعض العادات الإسبانية الإسلامية وخاصة فى مملكة نابولى التى ظلت تحت السيادة الإسبانية لمدة قرنين من الزمان

(١٢) وتؤكد هذه العلاقة الرواية الموريسكية ليأجوج ومأجوج ، التى أشار إليها جيّين روبلس فى " أساطير يوسف بن يعقوب وأساطير الاسكندر الأكبر من خلال المخطوطات الموريسكية الكائنة فى المكتبة الوطنية فى مدريد " - سرقسطة - ١٨٨٨ - صـ ٥٣ - فهؤلاء الناس الملعونة التى حبسها الاسكندر وراء أسوار من حديد " أخذت تلعق السور بألسنتها الخشنة ... "

(١٣) أصول اللغة الإسبانية صـ ٤٦٠

(١٤) انظر مقالى " منظور رواية الشطّار " فى RBAM - مدريد - العدد الثانى (١٩٣٥) صـ ١٣٨ ومابعدها .

(١٥) " بعد تقبيل أيديكم الكريمة " ويقول E. W. Lane: " It is a common custom for a man to kiss the hand of a superior... To testify abject submission, in craving pardon for an offence, or begging any favor of a superior, not unfrequently the feet are kissed of the hand. The son kisses the hand of the hand of the father" (Manners and Customs of the Modern Egyptians, Londres, 1836, I, p. 252).

(١٦) البيت رقم ٢٠٢٨ – منديث بيدال – ملحمة السيد – صـ ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، فهو يذكر الكثير من الأمثلة من هذا النوع لكنه لا يتحدث عن أصولها الإسلامية .

(١٧) إيفاست وبلانكيرنا – برشلونة ١٩٣٥ صـ ٨٤

(١٨) وتقبيل اليد تعبيرا عن الاحترام كان أحد ممارسات العبرانيين الإسبان فقد ورد فى " قصائد يوسف " مايلى :

وعند الاستقبال خرج لتكريم والده

وطلب منه يده ثم قبّلها .   (طبعة إ. جونثاليث يوبيدا صـ ٧)

(١٩) والعبارة العربية " الله يعطيك "

(٢٠) انظر خيرار دوميلونى فى Saggi di filologia Semitica – روما – ١٩١٣ص، ويشير إلى الطبرى الجزء الثالث صـ ٤١٣ ،

(٢١) انظر الشعر الإسبانى (العصور الوسطى) طبعة داماسو ألونسو – دار نشر لوسادا بوينوس أيرس – ١٩٤٢ صـ ١٧٥ – ١٧٦ . .

(٢٢) انظر " مذكرة تاريخية إسبانية " – لعام ١٨٥٣ V.

(٢٣) يجب التنبيه أن لفظة Garrido هى صفة من أصل عربى ؟ غرِّيد

(٢٤) انظر أ. باث ومليا " المؤرخ ألونسو دى بالنسيا " صـ ٦١

(٢٥) أعنى بذلك النهضة فى مجال الرحمة الدينية فى نهاية القرن الرابع عشر ، فى إطار مجموعة من المجدّدين ، " ما هو إسبانى والايراسمية " فى RFH العدد الرابع (١٩٤٢) صـ ١ وما يليها .

(٢٦) طبعة Liluos de a´nla´no- الثامن صـ ١٦٢

(٢٧) " مذكرة تاريخية إسبانيا – الثامن صـ ٢٦٢ . و Jineta هى عبارة عن طريقة لامتطاء صهوة الجواد وهى طريقة كان يتبعها المور .

(٢٨) عندما نتحدث عن الذكاء والمظهرية كأساس للحياة الإيطالية فليس القصد هو السئ أبدا بل العكس تماما فلقد استطاعت إيطاليا بهذه الطريقة " أنسنة " أوربا القرن السادس عشر ولولا ذلك لظلت فى إطار مفاهيم العصور الوسطى .

(٢٩) وعبارات العزاء الشهيرة التى تحدث بها سان فرانثيسكو دى سالس تكريما لدوق ميركور (١٦٠٢) هى عبارة عن خطبة رجل سياسى وأحد رجال البلاط وبذلك يعنى بالبعد الإنسانى على حساب الإلهى ، وهو لم يعد يؤمن بأن القيم المادية عرض زائل لا قيمة له .

(٣٠) ونظرا للطبيعة غير المحلية للكنيسة فإننا نلاحظ أثر ذلك فى رقابة فرضت على ملكية كاتدرائية طليطلة ضد كتاب علمى محض ألّفه كاتب اتسم بعد ذلك فى عالم السياسة بأنه أحد روّاد الفاشية الإسبانية .

(٣١) تقول إحدى الأغانى الشعبية :" هل تريد العيش بلا طموحات ؟ / إذن اترك العجلة تدور / فما شاءه الله / سوف يصلك " {ف. رودريجيت مدين " الأغانى الشعبية الجزء الرابع صـ ١٤٣} .

(٣٢) انظر " Le messianisme daus l'hétérodoxi e musul "E. Bloch ". "باريس ١٩٠٣

الفصل الرابع

المسيحية فى مواجهة الإسلام

الإيمان بسانتياجو الجليقى : (شنت ياقب)

لا يمكن التفكير فى تاريخ إسبانيا إلا فى إطار تقديس سانتياجو وفى إطار الحج إلى المدينة التى تحمل اسم ذلك القديس " سانتياجو دى كومبوستيلا " كما لا يمكن التفكير فى تاريخ إسبانيا بمعزل عن الإيمان بوجود أحد حواريى المسيح ، فقد قتل فى فلسطين ثم نقل إلى إسبانيا بمعجزة ، وبذلك يعود إلى الأرض التى اعتنقت المسيحية على يديه ، وهذه تقاليد كانت قائمة قبل مجىء العرب إلى إسبانيا ولا نجد هنا دافعًا قويًا لمناقشتها ، فالإيمان بحضور هذا القدّيس الرسولى كان بمثابة تأييد لهؤلاء الذين يحاربون المسلمين ، وكان التقرّب إليه أحد العناصر التى أسهمت فى إقامة الكثير من المنشآت الضخمة فى مدينة سانتياجو وكذا على طول الطريق الذى يسلكه الحجيج متوجهين إلى قبره ، كما كانت له تأثيرات أدبية سواء داخل إسبانيا أو خارجها ، فقد استقرت الجماعة الدينية كلونى Cluny وأخريات أقل منها شأنًا فى شمال شبه جزيرة أيبيريا ، وفعلت ذلك متأثرة بنجاح طريق الحجيج ، كما سلك الطريق الذى أطلق عليه " الطريق الفرنسى " ملايين الناس خلال الفترة من القرن التاسع وحتى القرن السابع عشر وبذلك أسهموا فى الإبقاء على إسبانيا المسيحية مرتبطة بباقى أوربا ، ولقد تشابك الفن والأدب والمؤسسات والعادات ووسائل التعبير اللغوى مع الاعتقاد فى هذه المعجزة التى كان مكانها أقصى موقع فى أوربا المسيحية حيث يطفو وسط ضباب أفق غير محدد الملامح .

ورغم كثرة ما كُتب عن القديس سانتياجو الجليقى فإننا نتساءل عن إمكانية حدوث ذلك ، فمن المعلوم لدينا أن روما - التى كانت رأس الإمبراطورية - وجدت استمراريتها فى روما المسيحية ، وأن القدس أخذت تحتل مكانة بارزة ، أما جليقية فلم تكن ذات أهمية تذكر فلم تكن لها طبيعة متميزة سواء فى ظل الحكم الرومانى أو فى عصر القوط ، وليس أمامنا فى هذا المقام إلا انتظار حدوث معجزة كان لها صدى محلى ، وأنها لو عُرفت فى الخارج لرُفضت ، لكن الأمور لم تأخذ هذا المسار وبالتالى فليس أمامنا إلا التفكير من جديد فى واقعة مهمة حتى لا يصبح الأمر مجرد واقعة عرضية لا مفهوم لها .

كان الناس فى بداية القرن التاسع يزورون ضريحًا بالقرب من مدينة " إيريا فلابيا " القديمة Iria flavia ، ويقولون إنه يضم رفات سانتياجو الرسولى ، أما الرأى الأكثر تشددًا فيقول بأن ذلك القديس هو سانتياجو الرسولى الكبير ابن زيبيديو Zebe-deo، ويذكره بهذه الصفة جونثالو دى بيرثيو Berceo وكذا قصيدة فرنان جونثاليث F. Gonzalezخلال القرن الثالث عشر ، وهذا ما يتفق مع الموروث الكنسىّ ، غير أن العقيدة الشعبية تختلف عن عقيدة العلماء ، إذ أخذ الشعب يبجّل سانتياجو مُعيّناً وهو نموذج بضم سانتياجو الكبير ، وذلك الذى يطلق عليه " شقيق يسوع " فى الإنجيل ، وهى صفة تم نقلها حرفيا كما سنرى فيما بعد ، وفعل هذا أولئك الذين يقدّسون الضريح ، وقد شكّلت هذه الأخوّة - التى نسبتها الرواية الأرثوذكسية – عصب ذلك الاعتقاد طوال قرون عديدة واكتسب أبعادًا مهمة وخاصة عندما يتعلق الأمر بشقيق (المخلّص) أى بألوهية مساعدة ، ويرتكز ذلك الاعتقاد على التعبّد ، الذى سبق المسيحية، لآلهة توأم مثل كاستور وبولكس Cástor y Pólux – ديقورس أو أبناء جوبتر – ، وقد صعد أحدهما إلى السماء أما الآخر فقد ظل على الأرض (لبعض الوقت) ليقوم بحماية الإنسان ، ومن هذا المنطلق كانت العقيدة الكنسية انعكاسًا لمعتقدات أخرى سابقة عليها ، كما كانت فى الوقت ذاته أداة تحلّ محلها ، وحقيقة الأمر أن المعتقدات الشعبية فى إسبانيا وغيرها من الأماكن الأخرى يعتريها الغموض خلال الألفية الأولى، كما كانت خليطًا من المسيحية والوثنية ، ثم أخذت الأرثوذكسية تشق لنفسها طريقًا بين هذه الموروثات التى اختفت مع مرور الزمن .

ولو لم تكن إسبانيا واقعة تحت الحكم الإسلامي لما ازدهر التّبرك بسانتياجو جليقية ، غير أن حالة الضيق والكدر التى عاشتها البلاد خلال القرنين الثامن والتاسع أسهمت فى تقوية الإيمان بسانتياجو كشقيق للمسيح ، أى أن تبجيل كاستور قد أسهم فى نهوضه فى صورة فارس يمتطى صهوة جواد أبيض ويساعد على تحقيق انتصارات ضخمة ، وقد أسهمت ظروف أخرى فى تحويل ما يمكن أن يكون معجزة عارضة فى أماكن أخرى إلى بِنْية حميمة لإسبانيا والى نمط حياة عفا عليه الزمن يقع بين السماء والأرض ، وبين عظمة التجربة وواقعها ، يبدأ الأمر بالاعتقاد بأن سانتياجو يتضمن نمط وجود أصيلاً يمكننى أن أطلق عليه مسمى **Teobiosis** المتكامل ، وهو نمط ليس له نظير متطابق معه فى أوربا المسيحية ، ولم يكن التعبد لسانتياجو مجرد نوع من الرّحمات يتم استخدامها فيما بعد ضد المسلمين ، وحقيقة الأمر أن ذلك الاعتقاد قد خرج من الجعبة المتواضعة للفلكلور ، وبلغ شأوا بعيداً كنوع من الرّد على ما كان يحدث فى المعسكر الإسلامى : إذ كان لابد من إيجاد معادل لحرب تدور رحاها ويتم الفوز فى معاركها اعتماداً على عقيدة الإيمان ، وهو معادل غير عقلانى غير أنه إيمان عسكرى تم تكبيره وأصبح قادراً على دفع المسيحى إلى الأمام وتحقيق الانتصارات وفى الوقت الذى يتم فيه تقليد المسلمين فى الكثير من نواحى حياتهم ، يتم أيضًا وضع معادل فى ميدان الاستخدام العسكرى للمعتقدات .

وفى بداية القرن التاسع – أى بعد مائة عام على غزو المشارقة – شعر المسيحيون الذين يقيمون فى الشمال الغربى بالتدهور معنوياً ومادياً ، وكانوا فى بداية الأمر – أى فى عصر القوط – معزولين كثيراً عن باقى العالم المسيحى ، ثم أصبحت العزلة شبه كاملة فلم يتصوّر أحد عودة الملكيّة القديمة التى كانت فى طليطلة ، إلا أن المسيحيين فى هذه المنطقة أخذوا ينهضون مع بداية القرن العاشر تحت حكم ألفونسو الثالث (٨٦٦ – ٩١٠م) ، وأخذت حدود المملكة الأستوريّة اللّيونية تتّسع بشكل واضح ، وقد لقّبه كل من أبنائه وأتباعه بالإمبراطور المعظّم (١) **Magnus Imperator**، فلم يعد المسيحيون يشعرون بأنهم أقزام أمام المسلمين ، فهاهم يطلقون لقب " إمبراطور " على ملوكهم الذين كانوا قبل ذلك مجرّد " أمراء " أو " ملوك " ، ما هو المبرر إذن لهذا التسامى فى الدرجة ؟ أجرؤ على القول هنا بأن لقب إمبراطور لم يكن ينفصل عن لقب

البابا (الحبر) Pontifice الذى أُطلِق على أسقف سانتياجو ، وبرهاننا على هذا وثيقة ترجع إلى عام ٩٥٤م ، ومن المؤكد أنها ليست الوثيقة الأولى من نوعها : " أنا أوردونيو Ordono الأمير والخادم الأمين لخدم يسوع ، أنحنى أمامكم وأمجّدكم كأب والسيد سيسناندو Sisnando أسقف حامينا سانتياجو وبابا كل هذه الدنيا ، وأتمنى لكم الصحة الدائمة من عند الله ربّنا " (٢) ، ولقد كان الملك أوردونيو الثالث ملك ليون هو الذى كتب هذه الرسالة ، وبالتالى كانت لديه بواعث قوية ، لا تقتصر فقط على عالم السياسة ، ليُطلق هذا اللّقب البابوى على أسقف سانتياجو ويتجاهل التدرّج فى الإكليروس الرومانى (٣) ؛ فلقد قبل الملك استخدام ذلك اللقب لأن أساقفة سانتياجو كانوا يعتقدون أنفسهم بابوات ، وهذا لأن سانتياجو كانٍ حَوَاريًا أعظم من القديس بطرس فهو شهيد مفضل عند الله وشقيق للمسيح ، و"ابن العواصف" طبقا للإنجيل ، وقد حولته المعتقدات الشعبية (التى سنرى ملامحها فيما بعد فى الطقوس الدينية) إلى توأم ليسوع (٤) ، وأعتقد أن الأسقف سيسناندو لم يكن أول من ظن أنه على حق فى لقب البابوية ، فهناك الوثائق التى تؤكد أنه لم يكن الأخير ، ففى عام ١٠٤٩م تم إبعاد الأسقف كريسكونيو Cresconio وقرّر ذلك المجمع الكنسى فى ريمس "Reims وذلك أنه وقف ضد الحق الإلهى وادعى لنفسه أعلى لقب فى السلطة الرسولية " (٥) ، وأثناء أسقفية أو باباوية دييجو جيلميرث (١١٠٠ - ١١٤٠م) - وهى أعلى فترة ازدهار بالنسبة لسانتياجو - نجد أن هذه الشخصية العظيمة قد أضافت إلى المراسم التى تجرى فى بلاطها تلك التى تخص البابوية ، وهنا انتقده الكثيرون وأخذوا يذكّرونه " بأن بعض أفراد عائلته من السابقين حاولوا مساواة كنيستهم بكنيسة روما "-L. Fe] {reiro III p. 274 ، كما قام جيلميرث بتعيين كرادلة يرتدون عباءات أقحوانية اللون ويستقبل الحجيج " Apostolico more" وكأنه البابا ، وقد تدعّم هذا الحلم بإطلاق لقب Romeros على الحجيج الذين كانوا يزورون ضريح سانتياجو .

إنى ذاهب مع قافلة الحجيج

إنى ذاهب إلى روما المقدسة (٦)

ونكتفى بهذه المعلومات ، التى تشمل فترة تزيد على ثلاثة قرون ، للتدليل على الرغبة الدائمة فى أن تبلغ الكنيسة فى كومبوستيلا الذيوع والانتشار ، كما أنى أعرف أن سانتياجو لم تكن هى وحدها التى نازعت روما السيادة خلال العصور الوسطى ، حيث أن ميلانو اعتقدت أن بها الدرجات الدينية الأعلى، أضف إلى ذلك أن أسطورة جرال Graal تشير إلى أن محور المسيحية لم يمرّ بروما فقط ، غير أن كل ذلك لم يكتسب صفة محددة كما حدث فى سانتياجو ، أو كان قويًا ومرتبطًا بمعنويات شعبية ومتضمنًا الطقوس والتبجيل ، ولقد ساد شعور بأن مدينة سانتياجو هى مركز الكاثوليكية عن حق وعن جدارة ، ومن المؤكد أنها كانت مشاعر قوية أثناء عهد ألفونسو الثالث { ٨٦٦ - ٩١٠ } ، فقد كان هو الذى أمر ببناء أول معبد مَنيف تكريما للقديس الرسولى ، " وأقام كنيسة سان ياجوى S. Yagüe مستخدمًا كتلاً حجرية منقوشة وأعمدة من الرّخام فقد كان البناء السابق مشيدًا من مواد ترابية " [٧] وسارت عملية الارتفاع بدرجة التّبجيل للقديس متوازية مع النشاط العسكريّ المكثف الذى قام به ألفونسو الثالث .

لم نعثر على أية إشارة إلى رفات سانتياجو فى مدينة " إيريا فلابيا " قبل القرن التاسع ،ومع ذلك نجد الحديث عن مجيء ذلك القديس الرسولى إلى إسبانيا لنشر المسيحية فى شبه الجزيرة ، وقد تمّ آنذاك دمج كلتا الشخصيتين [٨] واستمر الأمر على هذا الحال فيما بعد .

وقد أشارت كتب سير الاستشهاد التى ظهرت قبل عام ١٠٠٠م إلى ذكرى سانتياجو يوم ٢٥ مارس ، ورغم ذلك فقد جاءت بهذه الطريقة " آلام القديس يعقوب شقيق يسوع كما ورد فى كتاب أعمال الرّسل " [٩] والذكرى التى يتحدث عنها " أعمال الرّسل " تتعلق بسانتياجو الكبير ، بينما نجد أن سانتياجو العادل هو شقيق يسوع أى الأصغر ، غير أن الجمع بين كليهما لم يكن حالة فريدة من نوعها فقد حدث ذلك مع الأغلبية [١٠] ؛ أما فى الحالة التى نحن بصددها فإن ذلك الثالث (سانتياجو) هو محصلة دمج الاثنين ، وكانت ذكراه (أو آلامه) فى ٢٥ مارس أى نفس ذكرى المسيح

{L. Ferreiro I pp. 311 - 312]، وهى مناسبة تزيد من تآخيهما ، وتتضمن المخطوطة المسماة " Códice Calixtino" التى نُسبت بهتانا لكل منهما فى ٢٥ مارس ، وبعد ذلك انتقلت الذكرى الخاصة بسانتياجو إلى ٢٥ يوليو عندما لم تعد هناك ضرورة لإثبات الطبيعة الرّبانية للقديس الرّسولى ، فقد تم الحصول على أمر غير مسموح به من وراء هذه القرابة .

ولما كان سانتياجو الجليقى محصلة عملية دمج لكلتا الشخصيتين الإنجيليتين اللتين تحملان نفس الاسم فإن النشاط الفُرُوسىّ والعسكرى لسانتياجو الجليقى هو صفة بعيدة تمامًا عمّا يُذكر به فى الأناجيل وكذا فى " أعمال الرّسل " و " التاريخ الكنسىّ " لأيوسيبيو دى ثيسارا Eusebio de Cesara، و" تراجم القديسين " فسانتياجو الذى يؤمن به الإسبان خلال القرن التاسع هو ذلك الذى وصفه الملك ألفونسو العالم بعد ذلك – فى كتابه التاريخ العام – فى معرض حديثه عن معجزة ظهورالقديس فى معركة كلابيخو Clavijp (٨٢٢م) وبأسلوب يتفق مع ما يأمله الناس الذين اعتادوا تصوّر سانتياجو – وقبله الشقيقان Dioscuros– وهم يحاربون بقوة ويمتطون صهوة جواد أبيض دفاعًا عن رعاياهم ، وقد ظهر القديس للملك راميرو الأول وقال له :–

> " قام يسوع بإرسال باقى الرسوليين من إخوتى وأنا معهم إلى كافة أقاليم الأرض ، وأعطانى أنا وحدى أسبانيا وطلب منى المحافظة عليها وحمايتها من أيدى أعداء الدين... وحتى لا تَشُكّ فى شىء مما أقول لك حاول أن ترانى وأنا أمتطى صهوة جواد أبيض وأضع خوذة بيضاء وأحمل سيفًا يتلألأ فى يدى " (صـ ٣٦٠)

وهنا وثق المسيحيون فى " هذا التجلى الرّبانى وهذا العون الإلهى وعون القديس سان ياجوى " فانتصروا على المور.

وفى عام ٤٤٩م قبل ميلاد المسيح نجد أن التوءمين كاستور وبولكس كانا قد ظهرا وكل منهما يمتطى صهوة جواده الأبيض وحسمًا الأمر لصالح الدكتاتور بوستوميو Postumio إلى جوار بحيرة ريخيلو (١٢) ، ويتحدث إسترابون [الجزء السادس صـ ٢٦١] عن مذبح أقيم على شواطئ نهر ساجرا Sagra لإحياء ذكرى ذلك النصر الذى حدث بمساعدة هذين الشقيقين Dioscuros حيث انتصر عشرة آلاف من أهالى لوكريدا Locrida (اليونان) على مائة وثلاثين ألفا من كروتوما Crotona.

ونجد أغلب حالات ظهور القديسين فى إسبانيا فى سيرة " القدّيس ميّان " لجونثالو دى بيرثيو G. de Berceo خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر ، فقد انتصر الكونت فرنان جونثاليث فى معركة سيمنقه Simancas (٩٣٩م) طبقا لما أورده الشاعر بفضل مساعدة القديس سانتياجو والقديس ميّان ، وقد كان المسيحيون يخشون التفوق العددى للمسلمين :

وبينما كان هؤلاء الناس الطيبون فى حيرة من أمرهم
نظروا الى السماء فأصابهم الذهول
إذ رأوا شخصين وسيمين يشعّان نوراً
كانا أكثر بياضًا ونصاعةً من الثلج الذى نزل من السماء
يمتطيان جوادين أبيضين كأنهما زجاج
كان وجهاهما ملائكيين وجسداهما كذلك
يهبطان فى الهواء فى عجلة من أمرهما
ويقاتلان المور بقوة
ويحملان سيفيهما فى أيديهما علامة على الإقدام (٤٣٧ - ٤٣٩)

لقد خسر المسلمون المعركة :

وكانت المعركة ناجحة بفضل الله والقديسيْن (٤٢٥) (١٣)

نجد أنفسنا أمام خليط من المعتقدات / وهذا أمر شائع خلال القرون الأولى حيث يحدث تشابك بين الوثنية والمسيحية ، كما نجد ذلك فى الإنجيل " والى يعقوب بن زبيدو

ويوحنا شقيق يعقوب حيث أطلق عليهما أبناء الرعد " {مرقص – الثالث – ١٧}، وقد برهن ريندل هاريس R. Harris على أن كلمة Boanerges ساميّة الأصل حيث يتضمن الجزء الأول منها bn (ابن) {من العبرية bnaym أى أبناء ، ومنها bny، وهناك كلمة rges التى ترتبط بالكلمة العبرية ra'am الرعد} كما أن كلمة ra?asa العربيـة تعنى يرعد (١٤) ، وكلمة Boanrges تعنى نفس الشىء مثل عبارة Kuroi – Dios أى أبناء جوبتر تونانتى ، وأن Banaba-Tilo تعنى أبناء السماء فى أفريقيا الشرقية البرتغالية ، وبذلك فلا مجال للشك فى معنى كلمة Boanerges الواردة فى الإنجيل إذا ما ربطنا الآية السابقة بآية وردت فى إنجيل لوقا { – التاسع – ٥٤ } حيث تشير إلى سانتياجو ويوحنا يعرضان على يسوع أن يقوم بإنزال نار من السماء لتحرق بعض السامرّائيين ، لكن يسوع الروح الخالصة يرفض ذلك " أنتما لا تعرفان من أى روح أنتم "، كما أن الاعتقاد فى قدرة سانتياجو على إنزال الرّعود (كواحد من الأخوين (Boanerges نراه فى قُدّاس كانَ يُتْلى خلال القرن الحادى عشر فى كنيسة سانتياجو حيث يتم تكرار عبارة " ابن الرعد " : " هكذا فى حقيقة الأمر تهزّ أصواتُ الرعد الأرضَ ، وهكذا اهتزت الدنيا كلها بأصوات هذين" ، وتم إحلال الكلمة محلّ الرعد الفعلى ، غير أن الأمر البديهى هو ألاّ يوجد هذا إلاّ بذاك .

فابن الرعد يسخّر شعاع السماء ويحارب كإله نورانى وهو يمتطى صهوة جواد ناصع البياض وسيفه طَيِّع فى يده ، وبناء على ما عرضناه وما سنعرضه فيما بعد ، يتضح بجلاء أن سانتياجو – طبقا للاعتقاد الشعبى – عبارة عن توليفة من العديد من الآلهة السابقة ، وندين بالفضل لجورجينا ج. كينج Georgina G. King فى تنبيهها على أن هذه الشخصية للآلهة وثنية أيبيرية رومانية (١٥) كما أشار خ. ر. ميليد J. R. Meli-da إلى العلاقة بين الفارس الذى نراه بكثرة فى العُملات الأيبيرية وبين عبارة كاستور بصفته إلهًا محاربًا ، وأحيانًا ما نجد الفارس وهو يستخدم حربة ، كما ظهرت الأشعة على عملتين (ج. ج. كينج صـ ٢٩٨ ، ٢٩٩) ، والعلاقة بين ما قدّمنا وبين الشقيقين Dioscurosهى علاقة بديهية ، فقد عثر توتاين Toutain (١٦) على نقشين لبولكس فى بيتيكا Bética (الأندلس) ، ونضم إليهما نقشًا آخر فى طرطوشة (١٧) وبذلك نرى توليفًا بين تبجيل الشقيقين ومارتى Marte وسرابيس وآلهة أخرى غيرها.

وأياً كانت درجة الدقة التى قامت بها جورجينا كنج فإن النتائج التى توصلت إليها تقول بأن مشكلة سانتياجو الإسبانية تدخل فى الإطار التجريدى العام لتاريخ الأديان إذا ما قمنا بربطها بزمان ومكان معينين ، فسانتياجو يحارب مثل الشقيقين وهو يمتطى صهوة جواد أبيض ، غير أن الذى أحدث تأثيراً على التديّن الذى كان وراء حرب الاسترداد إنما هو الشعور بأن سانتياجو كان شقيقًا ليسوع ، وقد ظهرت العقيدة القائلة بأن هناك عدة أشقاء رسوليّين للمسيح فى سورية وفلسطين ، وقد فسّر آباء الكنيسة هذه الأخوّة تفسيراً روحيًا ، إلا أن الشعب (الذى تعكس النصوص غير الكنسية وجهة نظره) قد فسّر هذه الأخوة بمفهومها الحسّى فاسم القديس توما يعنى التوأم بالسّريانية ، وفى الجزء المتعلق Ortu et obitu patrum يقول " توما رسول يسوع والمسمى Didimo (ومعناها التوأم فى اللغة اليونانية) وفى اللاتينية " الأخ التوءم ليسوع ومثيل المُخلّص " (١٨) ؛ وقد أشار المؤلف المشهور للفتوى الإلحادية {وهو الجليقى بريسثيليانو Prisciliano الذى كان يكثر من قراءة الكتب التى لا تقرها الكنيسة } القائلة بأن الحوارىّ " يهوذا " الذى ورد اسمه فى الرسائل الكنسية هو القديس توما ، الوارد اسمه فى الإنجيل الرابع ، وحوّله بذلك ليكون شقيقًا ليسوع: " يهوذا الرسولى ، شقيق توءم للرب (didy mus Domini) وهو من آمن أكثر من غيره بالمسيح بعد أن تحسّس جروح آلامه " (١٩) .

ومن خلال النصّين المذكورين يتوفر لدينا الدليل على أنه قد سَرى فى إسبانيا الاعتقاد القائل بأن المسيح كان له أشقاء توائم كثيرون ، وهى هرطقة ، ورغم ذلك فقد قبلها البعض أو الأغلبية فى إطار الجوّ الذى يحاول التوفيق بين المتناقضات الدينية فى نهاية حياة الإمبراطورية الرومانية ، فهناك بعض النصوص التى تُظهر المسيح شقيقًا توءمًا لبعض الحواريين ، وهناك مؤلفات أخرى تجعله كذلك لآخرين ، وقد قالها القديس متى { الثالث عشر – ٥٥ } : " أليس ذلك هو ابن النجار ؟ ألا يطلق على يعقوب ويوسف شقيقيه ؟ " ؛ ولا يعنينا هنا دراسة طبيعة مشكلة النص وما يمكن أن تعنيه كلمة " شقيق " بل الذى يهم هو فَهْم الجماهير لهذه الآية ، وهو فهم يخلط بين كلا الفردين اللذين يُدعى كل واحد منهما سانتياجو ، وما يمكن فهمه من كلمة "شقيق " هو

ما نقرؤه فى رسالة غير كَنَسيّة لشخص كنيته إيجنايثو بعث بها إلى يوحنا Juan، فبعد أن عبر عن رغبته فى زيارة العذراء مريم فى القدس أضاف بأنه يريد التعرّف على سانتياجو " أى سانتياجو المبجّل والملقّب بالعادل والذى يشبه - حسبما اشتهر عنه - المسيح عيسى سواء فى حياته أو فى تعامله مع الناس ، فكأنه شقيق توءم ولد من نفس الرّحم ، ويقولون إننى لو رأيته فكأننى رأيت يسوع نفسه دون أن يكون هناك أى اختلاف جسدىّ بينهما " (٢٠) .

وهذا الحوارىّ - توءم المسيح - يعانى أيضا استشهاده بشكل متزامن مع آلام المسيح ، وهذا ما يحدث عنه " التاريخ الكنسىّ " لأيوسيبيو دى ثيساريا { الجزء الثانى - صـ ٢٣ } ، ويقول الأسقف خ. ب. ليتفود J. B. Lightfood { المصدر السابق - الجزء الأول - صـ ٥٩٦ } بأن الكنيسة قد توفّر لديها منذ الفترات الأولى اتجاه للعثور فى حياة القديسين والشهداء على نوع من التوافق الحَرْفى مع آلام المسيح، وبالنسبة لحالة سانتياجو العادل نجد أن أعداءه هم الكَتَبة والفريسيون ، ونجده يموت فى عيد القيامة ونجده يدعو لجلاّديه :" اغفر لهم أيها الرّب فهم لا يعرفون ما يفعلون " ، كما أن تدمير القدس كان نوعًا من العقاب لقتلهم إياه ، وقد قيل نفس الشىء عن شهداء آخرين، كما سوف نرى انعكاسات تلك التقاليد على حالة سانتياجو الجليقى .

وتتضمن روايات أخرى إلحاحًا على أخوّة المسيح وسانتياجو " أليس ذلك هو ابن النجار وأمه مريم وشقيقاه هما سانتياجو وسيمون ؟ " ، وفى هذه الرواية نجد أن الأشقّاء الأربعة الذين ذُكروا فى إنجيل متّى {الثالث عشر - ٥٥} (٢١) قد تم اختصارهم إلى اثنين فقط ، وبالنسبة لهؤلاء الذين كانوا يحجّون إلى ضريح جليقية خلال القرون الأولى لتبجيله فإن القديس الرسولى كان " ابن الرّعد " و " شقيق المسيح " وبالتالى يدخل هذا التصوّر فى إطار التراث القديم الخاص بالشقيقين Diod-curos، وقد كانت هناك آثار مقدّسة لسانتياجو شقيق يسوع Sancti Jacobi، germa-ni Domini (٢٢) ؛ ثم نُسِبتْ إلى سانتياجو الجليقى وليس إلى سانيتياجو الصغير ، ولم يكن مردّ ذلك لما أشرنا إليه فى السطور السابقة بل من خلال رواية المؤرخين العرب

الذين كتبوا عن الموضوع فهم قد سمعوا أن سانتياجو الذى يتم تبجيله فى جليقية " كان ابن النجار " .

ونرى الاعتقاد بأن المسيح وسانتياجو (الجليقى) كانا توءمين متمثلا فى الرّسم ، إذ يقول كارل كونستل [I Konographie der Heiligen Friburgo 1926 - II, p. 318] إن لوحة سانتياجو التى رسمها جيوفانى سانتى فى غرفة الملابس التابعة لكاتدرائية أوربينو Urbino توضح شخصية المسيح من خلال العكاز الطويل الذى يميز الحاج وقد قام مارتين شانتر بتصويره بنفس ملامح المسيح وهذا ما نجده فى المتحف الجرمانى فى نورمبرج ، وكدليل واضح على هذا الأمر المهم أورد فى الكتاب المذكور عدة لوحات تمثل عملية صلب جرت فى القرن الرابع عشر ، حيث نجد سانتياجو الذى يقف إلى جوار الصليب وله وجه المسيح [نقلا عن مجلة Dedalo – العدد الحادى عشر ١٩٣٠م صـ ١٢٨٤] ، وكذلك صورة لسانتياجو تماثل تلك التى تحدث عنها كارل كونستل Karl Künstle حيث يمكن تمييز المسيح من خلال العكاز الخاص بالحاج [Florentine pait-ing III , 2 pt. 1 pl 33 [3] por dfne] الذى أشكره على السماح لى بإدراجها ضمن هذا الكتاب .

وقد كان العرب يشعرون بفضول غريب إزاء كل ما هو دينى ، كان ابن حزم القرطبى (٩٤٤ – ١٠٦٣) العربى والإسبانى هو أول مؤرخ للعقائد الدينية إذ يتحدث فى كتابه الشهير " الفصل فى الملل والأهواء والنحل " – والذى قام أسين بلاثيوس بترجمته – عن بعض المسيحيين الإسبان الذين يقولون بوجود أشقاء للمسيح ولا يفهم هذا الأمر اللهم إلا إذا " قالوا إن مريم قد أنجبتهم من يوسف النجار ، وهذا ما تؤكده طائفة من قدامى المسيحيين يدعى أحد أفرادها خوليان من طليطلة " (٢٣) كما يشير ابن حزم إلى سانتياجو الصغير على أنه ابن يوسف النجّار [الجزء الثالث صـ ١٠٩ من الترجمة] غير أننى لم أعثر فى كتابه هذا على أية إشارة محددة لضريح سانتياجو دى كومبوستيلا ، وهناك معلومات أخرى شديدة الأهمية قدمها مؤلفون آخرون ومنهم ابن عذارى الذى كتب خلال القرن الثالث عشر " البيان المغرب فى أخبار الأندلس

والمغرب " وقد أورد فيه – طبقا لما هو متبع لدى المؤرخين العرب – فقرات نقلها عن مؤلفين أسبق منه ومنها فقرة تقول :

"سما {أى المنصور} إلى مدينة شنت ياقب قاصية غليسية وأعظم مشاهد النصارى الكائنة ببلاد الأندلس وما يتصل بها من الأرض الكبيرة ، وكانت كنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا بها يحلفون وإليها يحجّون من أقصى بلاد رومة وما وراءها ... وقد زعم جماعة منهم أنه ابن يوسف النجّار (٢٤)... يقصد نسّاكهم له من أقاصى بلادهم ومن بلاط القبط والنوبة وغيرها (٢٥) .

" وأكثر من هذه الفقرة أهمية ما نجده عند ابن حيان المؤرخ القرطبى (٧٨٩-١٠٧٦م) حيث أوردها المقرى فى كتابه " نفح الطيب " ، فى بداية القرن السابع عشر :

" ومن ذلك غزوة المنصور لمدينة شنت ياقب قاصية غليسية ، وأعظم مشاهد النصارى الكائنة ببلاد الأندلس ، وما يتصل بها من الأراضى الكبيرة ، وكانت كنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا ، وللكعبة المثل الأعلى ، فبها يحلفون وإليها يحجون من أقصى بلاد رومة وما وراءها ويزعمون أن القبر المزور فيها قبر ياقب الحوارى أحد الاثنى عشر ، وكان أخصهم بعيسى ، على نبينا وعليه الصلاة والسلام! وهم يسمّونه أخاه للزومه إياه ، وياقب بلسانهم يعقوب (٢٦) وكان أسقفًا ببيت المقدس فجعل يستقرى الأرضين داعيًا لمن فيها حتى انتهى إلى هذه القاصية ، ثم عاد إلى أرض الشام فمات بها ، وله مائة وعشرون شمسية ، فاحتمل أصحابه رمته فدفنوها بهذه الكنيسة التى كانت أقصى أثره ، ولم يطمع أحد من ملوك الإسلام فى قصدها ولا الوصول إليها ، لصعوبة مدخلها وخشونة مكانها ، وبعد شقتها ، فخرج المنصور إليها من قرطبة غازيا " (٢٧) .

ولقد كان والد ابن حيان حاجبًا للمنصور بن أبى عامر ، وبالتالى كان الابن يسمع الحديث كثيرًا عن سانتياجو سواء كان المتحدثون مسلمين أو أسرى مسيحيين وخاصة بعد الحملة الشهيرة التى لم يفكر أحد فى القيام بها قبل المنصور ، فلقد كان

القديس الرسولى الجليقى بالنسبة للمسيحيين (سواء أفصحت عنه النصوص الكنسية بوضوح أو لا) على نفس الصورة التى أوردتها مصادر أخرى ، أى أنه خليط من كلتا الشخصيتين اللتين تحملان نفس الاسم ، كما أنهما متشابكتان مع أسطورة الشقيقين Dioscuros، والانطباع الذى نقله ابن حيان هو أن المسيح وسانتياجو كانا ينظر إليهما على أنهما شقيقان ، فكلاهما عبارة عن ثنائى لا ينفصل بعضه عن بعض ، وهذا هو ما كان الشعب المسيحى يؤمن ويشعر به حوالى عام ١٠٠٠م ، وقد ورث هذا الاعتقاد منذ قرون مضت ، وكان ابن عذارى يعرف أن سانتياجو هو ابن يوسف النجّار ، أما ابن حزم فقد أعرب عن استغرابه أن يقبل أناس يعتنقون المسيحية أن يكون هناك أخوة للمسيح ، وهنا نجد أن المؤرخين العرب الثلاثة يبرهنون – كل من وجهة نظره – على افتراضنا الذى يتحدث عمّا كان الإسبان يشعرون به خلال الفترة بين القرن التاسع والقرن الحادى عشر .

ونجد فى المواعظ التى نُسبت زُوراً إلى البابا كالستو الثانى ، والتى ألّفها رجال من كنيسة كومبوستيلا خلال القرن الثانى عشر للحض على مزيد من هذا التبجيل لهذا القديس الرسولى ، إشارة إلى أُخُوّته للمسيح رغم أنها ترد فى لغة مجازيّة " من الأهمّ أن يكون المرء شقيقًا روحيًا للمسيح وليس من منظور اللحم والدم ، وعلى ذلك فمن يطلق على سانتياجو الكبير أو على سانتياجو الصغير بأنه شقيق يسوع فلا يقول إلا الحقيقة " (٢٨) ؛ إذن فقد كان الاعتقاد فى أخوّة المسيح أمرًا حيًا وكذلك الحال فى مسألة المساواة بين كلتا الشخصيتين اللتين تحملان نفس الاسم ، وهذا مالا يتوافق تمامًا مع المصادر العربية ، كما تكتسب مواعظ من لُقِّب بكالستو أهمية خاصة نظرًا للشكل الذى يعبر عما بقى من الاعتقاد فى سانتياجو الدّيْسقُورى Dioscurcio ، وهنا نجد أن السيدة ميكائيلس دى باسكوثيوس ، التى لم تشكك فى الصلة بين سانتياجو والشقيقين Dioscuros تلحّ على أن هناك " ميلاً واضحًا لدى أهل الشمال الغربى لإسبانيا للتطيّر والإيمان بالطالع " (٢٩) ؛ كما أن صفة سانتياجو فى كونه ابن الرعد ووجوده فى التجسّد الذى حدث فى جبل تابور Taborيؤدى إلى إيجاد تلك العلاقة القائمة على الإيمان بالنجوم وليس على التطيّر ، حيث نلاحظ صدى ذلك فى أسلوب

تلك المواعظ " كان يتلألأ وهو يتحدث وكأنه الجواد الذى يشعّ نوراً فى الصباح وهو بين النجوم وكأننا أمام فلق عظيم " [٣٠] ؛ وهناك جملة أخرى مجازيّة تقول بأن سانتياجو " رَعَدَ - بناءً على أوامر المسيح - فى كل من يهوذا والسّامرة ووصلت رعوده إلى أقصى أطراف الأرض ، أى إلى جليقية ؛ إنه يقذف برعوده المرعبة بصوتها ويروى الأرض بأمطاره ويشيع النور " ، وقد قام كلا الشقيقين بريّ الأرض بأمطارهما عندما أبلغا المؤمنين بأنهما باركا المطر بالعناية الإلهية (Col 1383) ، والأكثر من ذلك أن الفلاح البرتغالى يتحدث فى عصرنا عن الرعد وكأنه آت من عند سانتياجو .

لقد جاء كل عنصر من مكوّنات ذلك الاعتقاد عبر طرق وعصور مختلفة ، ولا تتوافر بين تلك العناصر أية روابط منطقية من أى نوع ، فسانتياجو الجليقى بوجهيه يراه البعض على أنه شقيق المسيح ، ويرى آخرون أنه يشبه الشقيق فهو ابن وثمرة الزواج الأول ليوسف النجّار وقد رفض القديس خيرونيمو (٣٤٦ - ٤٢٠م) هذه الفكرة وأحلّ محلها فكرة أخرى تتسق مع حبّه للعذرية : فهؤلاء الذين يطلق عليهم أشقاء المسيح ما هم إلا أبناء عمومة ، فلم يكن ليوسف النجّار إلا العذراء زوجة ، كما أنه ظل على حاله ولم يغيّره ، إلا أن هناك قصة عن يوسف النجار انتشرت بالعربية خلال القرنين الرابع والخامس تقول بأنه قد عاش تسعةً وأربعين عاما مع زوجته الأولى ، وكان له منها أبناء أربعة هم يهوذا والعادل وسانتياجو وسيمون [٣١] ، وفى إطار هذا التعداد نجد أن سانتياجو العادل ينقسم إلى شخصين حيث أن المدعو إيجناثيو كذباً يتحوّل إلى شقيق توءم ليسوع ، وهى قرابة كان يعتقد فيها بعض المسيحيين الإسبان ، كما أن الموضوع القديم الخاص بالشقيقين قد تسرّب إلى المعتقدات المسيحية [٣٢] كما ازدهر بقوة واكتسب بعداً جديداً وهذا ما يجدر الاهتمام به بالمقارنة بمضمون المُعْتَقد وأصوله .

كما تُعلى الصلوات التى تجرى فى كاتدرائية كومبوستيلا خلال القرن الحادى عشر من مآخذ القديس الرسولى بشكل مبالغ فيه وأتصوّرها هكذا منذ زمن أبعد من هذا ، وقد تم تغيير تلك الصلوات خلال القرن الثانى عشر ، واستناداً إلى إنجيل

مرقس { الثالث - ١٧ } وإلى إنجيل متى {العشرون - ٢١} وما يليها } نجد الصلوات كانت تقول :

" نادى يسوع على يعقوب بن زبدى Zebedeo وسماه ابن الرعد Boanerges كما أطلق عليه سانتياجو المبارك فى الجبل وظهر أمامه ، فقال خوان وسانتياجو ليسوع : امنحنا أن نكون فى ملكوتك بحيث يكون أحدنا عن يسارك والآخر عن يمينك

- هل يمكنكما أن تشربا الكأس الذى سأشربه ؟

فقالا : يمكننا . (٣٣)

وتتضمن عظات كالستو المزّيف محاولة الإعلاء من شأن سانتياجو فى التجسّد لكنها تضيف ، على الأقل أن من شهد ذلك كان كل من بطرس وخوان ، كما أن كالستو المزيف يعمل على تصحيح تلك الرغبة فى الجلوس عن اليمين وعن الشمال ونسى الكلمات العذبة للمخلص {متّى العشرون - ٢٣} وتقول العظة " يبدو مستحيلاً جلوس أحد بين الأب والابن وبذلك يكون الابن على يمين الأب والابن على يسار الابن {Cool 1394} .

إلا أن كل شيء له تبرير فى نظر من يبجّلون القديس الرسولى وخاصة عندما يردد الحجيج هذه العبارة الغامضة : " أعن يارب سانتياجو ! " (٣٤) وبذلك نجد أن هذا يساعدنا على فهم مغزى أكبر حدث دينى فى إسبانيا العصور الوسطى .

ولما تملّكت هالة الألوهية - التى تحيط بالقديس الرسولى منذ قرون - أتباعه لم يقفوا عند حد التغنّى بها يوم الاحتفاء به ، وهو ٢٥ مارس ثم ٢٥ يوليو ، إذ كان هناك ألم يعقوبى مقدّس Passio Snncti Jacobi حيث يتم التركيز على السير فى خط متواز مع المسيح بالشكل الذى أشرنا إليه قبل ذلك وبذلك تكتمل ملامح الأخوّة :

" آلام سانتياجو... التى تعرض لها فى عهد الملك هيرودس " ، وجاء ذلك فى أسلوب يذكرنا بأسلوب كثير من الأناجيل المظنونة ، ففى تلك الأيام كان سانتياجو

رسول الرّب يسوع المقدس وهو شقيق يوحنا (القديس الرسولى المبشّر) بزيارة كل أراضى يهودا والسامرا ودخول بِيَع اليهود " كان القديس الرسولى يأتى بالمعجزات والأعمال العظيمة ، وقد طلب من جلاده ماءً قبل أن يهم بذبحه ، وهو نفس ما فعله المسيح {يوحنا – التاسع عشر – ٢٨} ، وأثناء الصلاة التى جرت قبل قتله نجد النصّ يذكر المسيح بعظمة شخصيته أى شخصية سانتياجو! : " لقد تفضّلت بأن أفصحت لنا عن أسرار أفعالك العظيمة... وبينما أنت على جبل تابور Tabor تجسّدت وظهرتَ فى ألوهية والدك ، ولم تسمح لأحد من الحواريين أن يتأمل هذه العظمة إلا أنا وكذلك بطرس ويوحنا شقيقى...الخ " ، وعندما مات سانتياجو " وقع زلزال عظيم فانشقت السماء وهاج البحر وسُمِعَ رعد جبّار ، وفغرت الأرض فاها فابتلعت أغلب الناس الملعونين وغمرذلك الإقليم شعاع نورانى " ، أما جسده فقد حمله تلاميذه " ووضعوا جسده ورأسه فى كيس مصنوع من جلد غزال ومعطّر بأفضل العطور وانتقلوا به من القدس إلى جليقية ، وقد رافقهم فى رحلتهم البحرية أحد ملائكة الرّب ثم قاموا بموارات جسده التراب وتم تبجيله منذ ذلك اليوم " (٣٥) .

وبالنسبة لهؤلاء اليعقوبيين ، أى أتباع سانتياجو ، فإن المسيح كان مجرّد ابن عمومة Primus inter pares، ولم يكن الأمر عبارة عن حماس إيمانى لهؤلاء الذين يبجّلون قديسًا أو عذراء بعينها ويثقون فى قدراتها الخارقة ، بل إن ما يميز تقديس سانتياجو حتى القرن الثانى عشر هو محاولة مساواته بيسوع المسيح وبالرّب .

وقد قام بعض الكاثوليك الموثوق فيهم بالتشكيك فى رفات أحد حوارىّ المسيح فى ضريح جليقية ، كما زادت قوة الجبهة المضادة لسانتياجو خلال القرن السابع عشر ، فقد ذهب الأعداء من المسلمين الذين يجب خوض الجهاد المقدس ضدهم ، كما أن المفاهيم الدينية الإسبانية لم تعد تلك السائدة خلال القرنين العاشر والحادى عشر فالسيد خوان دى ماريانا هو أحد رجال جماعة اليسوعيين ومؤرخ كبير ، وقد شكك – عام ١٦٠١م – فى صحة وجود ضريح سانتياجو :" هناك بعض العلماء المشهود لهم يشككون فى رحلة القديس الرسولى سانتياجو إلى إسبانيا ، وآخرون يشككون فى وجود جسده المقدّس ويعتمدون فى هذا على أسانيد ونصوص " (٣٦) وبعد ذلك بسنوات

رأى الأب / بدرو بيمنتل (من اليسوعيين) أن من الأفضل لإسبانيا أن تثق فى حماية القدّيسة تيريسا لها :" ومن حيث النتائج فمن الأفضل كثيراً تبجيل القديسة تيريسا أكثر من سانتياجو " (٣٧) ، ومنذ سنوات قليلة مضت كان اليسوعى ب. ث. جارثيا بيّادا P. C. G. Villada يلح على ضعف الوثائق التى تتحدث عن اكتشاف رفات سانتياجو ذلك أن أقدمها يعود إلى القرن الحادى عشر وبالتالى فالشّبهة واردة فى أنها نصوص تم إعدادها لاحقًا لتبرير عقيدة شعبية قديمة ، وهذه النصوص توضح السبب الذى أدى إلى الاعتقاد بأن الضريح يضم رفات القديس الرسولى ، ألا وهو مشاهدة الملائكة والنور فوق مكان الضريح أثناء بعض الليالى ، غير أننا لا يمكن أن نتأكد من صحة هذه الرواية " (٣٨ ، وقد أوجز السيد / ل. دوتشنسى L. Duchense أحد الأساقفة الكاثوليك رحلته فى البحث عن أدلة عقلية للبرهنة على معجزة سانتياجو ، لكنها جهود باءت بالفشل " فخلال الثلث الأول للقرن التاسع كان يتم تبجيل قبر يعود إلى زمن الرومان ، وشاع الاعتقاد حينذاك بأنه قبر سانتياجو ، فلماذا اعتقد الناس ذلك ؟ إننا نجهل الأمر تماماً " (٣٩) .

ولا يمكن لى موافقة عَالِمى اللاهوت هذين على رأيهما فالمعجزات إما أن نؤمن بها أو لا ، ولا يمكن التدليل عليها بالبراهين التى تستخدمها فى ميادين أخرى مثل إظهار حقٍّ ما ، فالبرهان الصادر عن كاتب بالعدل ليس له محل من الإعراب هنا ، ومن الواضح أن العقلانية أخذت تظهر كعنصر أساسى فى التاريخ الدينى منذ القرن السابع عشر ومن الصعب الإفلات منها ، لكننا يجب أن نحاول بذل جهد فى الموضوع وذلك لسبب بسيط هو استحالة التدليل على ظاهرة وجودية باستخدام الأسباب والعقلانية " وقد حاول البعض البحث عن براهين تؤكد هذه المعجزة دون أن يفكّروا فى مغزى إمكانية البرهان " العلمى " على أن رفات القديس الرسولى قد تم نقله من يافا إلى جليقية عام ٤٤م تحفّ به الملائكة ، وبعد ذلك بثمانية قرون أخذت تتبدّى علامات وجوده ، فهذه المحاولة هى مَسّ من الجنون ، فالتاريخ - أى الحياة الكاملة للبشر - ليس سلسلة من الأحداث التى يمكن عزلها من خلال التجريدات المنطقية ، وما يهمنا فى هذا الموضوع هو حيوية الاعتقاد فى سانتياجو وما تمخض عنها من نتائج رائعة ،

ويمكن القول بأن حدثًا فارقًا قد وقع " بالفعل " بالشكل الذى يلح عليه الكهنوتيون الذين أشرنا إليهم سابقا ، وهو فى الوقت نفسه لا قيمة له ولا ثراء فيه كحدث وواقعة ترتبط بتصرفات وتقديرات إنسانية .

كان جسد سانتياجو فى جليقية وقد أمر الملك ألفونسو الثالث أن تبنى له كنيسة عظيمة يستخدم فى بنائها الحجر والرخّام ، كما أن الواقع الإنسانى لتلك الحادثة يعتمد على نفس الأسس التى تعتمد عليها عقيدتنا فى الحرية وحقوق الإنسان إذا ما دقّقنا فى الأمر جيداً ، وفعالية هذا الاعتقاد يدعمها ويبرهن عليها وجود برلمان ودستور، وفى غياب العمل السليم للبرلمان والدستور فإن الحرية وحقوق الأفراد تبتعد عن كونها حقائق إنسانية يؤمن بها الجميع ويعيشونها وتتحوّل حينئذ إلى مجرّد مبادئ نظرية ، ويحدث نفس الشيء فى حالة سانتياجو : فقد كان ولايزال فى ضريحه الجليقى طالما كان هناك من يبجّله ويعظّمه وهم أناس يأتون من أقصى مكان على الأرض ، ورغم أن الشّوق والمعتقدات الدينية تتضمن أشياء مختلفة عن الإيمان السياسى أو الأخلاقى ، إلا أنها لا تختلف أبداً من حيث هى مظهر من مظاهر الحياة ، فهناك فرق بين الحقيقة العلمية الموضوعية وبين أى جانب آخر من جوانب الوجود الإنسانى وتختفى الحدود الفاصلة بين ما هو واقع وما هو خيال عندما ينضم هذا الأخير إلى تيّار الوجود نفسه ، فقد قال شكسبير – وقد سبق بمقولته هذه فلسفات حديثة – " إننا نتكوّن من نفس مادة أحلامنا"، وعندما تتضمن مادة أحد هذه الأحلام الحياة الكاملة لملايين الناس ، فهنا يتحوّل الحلم إلى حياة والحياة إلى حلم ، فقد كان الشهداء المسيحيون يعيشون فى واقع المسيح عندما كانوا يبتسمون راضين بينما الوحوش الضارية تنهش أجسادهم ، ولم يعش أى شعب حياته كاملة وهو غير قادر على أن يموت دفاعًا عن إيمانه ، كما أن أشكال الحياة الجماعية التى تتسم " بإيجابيتها " وماديتها ينتهيها الأمر إلى عبادة آلهة غير مرئية ، رغم أن الناس يقبلون، خارجيًا ، بوجود الجرّار الزراعى أو ناطحة سحاب .

من غير المعقول إذن أن نطالب بالوثائق للتدليل على أن جسد سانتياجو – ما عدا رأسه – تم نقله من فلسطين حتى جليقية ، ومن جانبى فإننى أفضل الإيمان فى هذه

الحالة وهو إيمان مستبشر وبسيط وقد عبّر عنه اللاهوتى السيد / أنطونيو لويث فيرّيرو الذى قام بوصف الحدث وكأنه قد عاشه ، وصحة وجود ضريح سانتياجو ليست فكرة أكثر أو أقل من صحة وجود تمثال الحرية فى ميناء نيويورك ، وثبات تلك الوقائع يستند على ما هو موجود فى الحياة الجمعية ، وربما اختلف الأمر تمامًا لو ارتبط وجود رفات سانتياجو الجليقى بوجود الأدلة العلمية التى يبحث عنها اللاهوتيون الذين أشرنا إليهم قبل ذلك ، ولأصبح الأمر غاية فى السّوء بالنسبة له كما أن المعجزات سوف تكون فى حاجة إلى صكّ من أكاديميات الطب .

لقد أصبح سانتياجو آنذاك وكأنه المقابل للكعبة من حيث الباعث الروحى ، وأخذت مدينة سانتياجو تطمح فى أن تكون مناوئة لروما والقدس وليس مجرّد مكان يؤمه الحجيج ، فإذا ما كان رفات القديس بطرس والقديس بابلو فى روما ، وإذا ما كان الإسلام الذى سيطر على إسبانيا المسيحية أخذ يقاتل تحت راية الرسول محمد فإن إسبانيا القرن التاسع – ومن الركن الجليقى – أخذت تفرد جناحى عقيدة قديمة تم الإعلاء من شأنها بسبب حالة الكدر التى كان عليها الناس ودون أى نوع من العقلانية، كما أن وجود سلالة قوية لا تؤمن بالمسيحية فى الأراضى الإسبانية سوف يكون حافزًا للهمم التى ستساند العناية الإلهية فى جليقية القرن التاسع ، ومن المستحيل علينا أن نعرف اليوم خريطة المعتقدات التى انتشرت بين المسيحيين عندما غزا الشرقيون البلاد ، وفى كتاب بعنوان : Correctione rusticorum للقديس مارتين دوميان نجده يصف بعض معتقدات الفلاحين الجليقيين خلال القرن السادس الأمر الذى يؤكد على استمرارية المفاهيم الوثنية القديمة " هناك الكثير من الشياطين – الذين طردتهم السماء – يسيطرون على البحار والأنهار والينابيع والغابات ويتعبد إليهم الجهلة وكأنهم آلهة ، كما أن الناس يقدمون لهم الأضاحى : ففى البحر يعبدون نبتون ، ويعبدون الحيوانات الخرافية Lamias فى الأنهار ، ويعبدون الحوريّات فى الينابيع ، وديانا فى الغابات " (٤٠) ، وتصلح هذه الصورة تماما لأن يدخل فيها كل من كاستور وبولكس ، أضف إلى ذلك أن جليقية تميل بطبيعتها إلى ما هو خارج عن المألوف والى الحلم

الشعرى ، فقد عكست لغتها التلاحق الغامض للأمواج ، كما أن الجو الضبابى فيها كان ملجأً لكل أنواع السحر والغموض ، وقد كان بريسشيليانو الذى ذبح فى تريبرس Treveris عام ٣٨٥ جليقيًا ، إذ اتهمه أعداؤه بممارسة الشعوذة ، كما أنه كان من هواة نصوص غير معتمدة من العهد الجديد ، فقد كان يعتبر ذلك أمرًا مشروعًا ، وكان يعرف النصوص المسماة " أعما توما " ، واعتمادًا على تلك النصوص قال بأن يهوذا هو توما الديمى T. Didimo أى أنه شقيق توءم للمسيح (٤١) .

كان ذلك هو حال الركن الواقع فى الشمال الغربى لشبه الجزيرة ؛ فابتداء من القرن التاسع وجدنا الاعتقاد بوجود ضريح سانتياجو يضرب بجذوره ، كما أنه سانتياجو خاص حيث تتلاقى فيه أصداء آلهة مغرقة فى القدم ، وإذا ما قمنا بالتعمق فى ذلك الموضوع فسوف نرضى فضولنا لكننا لن نصل إلى فهم الكيفية التى سيطر بها الاعتقاد فى القديس الرسولى الجليقى على تاريخ إسبانيا خلال العصور الوسطى وأحدث تأثيراً واضحًا على أوربا ، ونعود لنجد أنفسنا أمام المشكلة من جديد : إن وجود واقعة إنسانية، تمثلت فى سانتياجو أو أى شىء آخر ، ليس مجموعة عناصر يستطيع المؤلف فصلها باللجوء إلى منهجية معينة وإلا لأصبح الأمر عبارة عن نوع من الفحص الدقيق أو القيام بفحص جُثّة ، وعلينا أن نبدأ بشىء وهو أن نطلق كلمة أسطورة على الاعتقاد فى سانتياجو فالكلمة Leyende هى عبارة عن شاهد قبر على ما كان مُعتقداً ، ويصدق هذا إذا ما قمنا بتخمينها وهى تتمتع بالحياة والحسّ الإنسانى ، وبالتالى فإن تاريخ سانتياجو دى كومبوستيلا سوف يتمثّل فى أن نعيش مرة أخرى ما قام به الناس منذ أن ظهرت كعقيدة حتى تحولت إلى أسطورة وذلك من خلال التحليل العقلانى ومن خلال هيكل التاريخ .

ولا توجد دراسة فى ميدان الأديان المقارنة تسمح بقراءة تبجيل قبر سانتياجو وكأنه حالة تعرض وصراع بين المعتقدات ، فهذه لا تولد ولا تزدهر من وحى الخيال أو من لؤم الكهنة أو تشابك الأسباب بل تنبثق من رغبات الإنسان وحاجاته كما أن الوسط الذى تعيش فيه هو الجماهير سواء من الأطفال أو البالغين أو القرويّين وعِلْية

القوم أو من أبناء الوطن ومن هم خارجه ، وليس من المستغرب أن يولد ما يطلق عليه اليوم أساطير كنوع من ردّ الفعل أو الإجابة على معتقدات أخرى مناوئة ، وقد تربى الأسقف دوتشنسى Duchense على الفلسفة الوضعية والعقلانية الفرنسية ، ولا يعرف كيف أن ضريحًا رومانيًا قد تحوّل إلى ضريح القديس الرسولى سانتياجو ، وإذا ما قمنا بطرح الموضوع من منظور استعراض منهج حياة فالإجابة تبدو بسيطة ، فقد بسط المسلمون نفوذهم من لشبونة وحتى الهند وكان دافعهم فى هذا هو الإيمان بمحمد رسول الله ، كما أن المسيحيين فى الشمال الغربى لم تكن تتوفر لديهم القوة لمجابهة هذا المدّ الذى لا يقاوم ، وضجّت آلاف الأصوات طلبًا للنجدة من أعلى ، الأمر الذى يساعد على تقوية العزيمة والصمود ، ومن المعروف أن الباعث والحافز عند المحارب أمر حاسم فى القتال وذلك عندما تدور رحى الحرب اعتمادًا على الجرأة والوحدة فى اتخاذ القرار وليس اعتمادًا على الأسلحة المتقدمة ، وكان من الضرورى أن تكون هناك ثقة فى قوة ملموسة وقادرة على مناوأة الصيحات التى تهز الأركان " الله أكبر " ، وقد شاع فى إسبانيا منذ قرون أن سانتياجو الكبير جاء للتبشير بالديانة المسيحية على هذه الأرض ، ويعرف أسقف طليطلة / القديس خوليان ذلك التراث ولا يقبل به إذ كان يرى أن سانتياجو بَشّر فى فلسطين وليس فى إسبانيا (٤٢) وهذا ما يعكس عدم ميل الكنيسة فى إسبانيا (عام ٦٨٦ أى قبل الغزو العربى) إلى تشجيع بعض المعتقدات الشعبية . وفى القرن التاسع ظهرت الحاجة لتشجيع الاعتقاد بأن سانتياجو حىّ وأن جسده المقدس موجود ولم يتضمن الأمر نوعًا من التدخل اللاهوتى بل كان عبارةً عن تطوّر طبيعى لعقائد قديمة أخذت شكلاً من المستحيل أن نعرفه اليوم اللهم إلا نتائجه ، فإذا ما كان سانتياجو قد جاء إلى إسبانيا فقد كان من الممكن التفكير بأنه رجع بعد وفاته رغم أن هذا الاعتقاد قد اختلط بكاستور ومارتى Marte على أرض كان بعض سكانها يتعبد إلى نبتون وغيره من الآلهة حتى القرن السادس .

ولم تكن هى الحالة الوحيدة للصراع بين المعتقدات ، فالجميع يعرف أن الشخصية الأسطورية لبرناندو دل كاربيو B. del Carpio قد ظهرت كنوع من التعادل مع شخصية رولان (رولدان) وشارلمان اللتين حظيتا بالثناء والمديح فى قصائد فيها

إذلال لإسبانيا ، وفى عام ١١١٠م احتج راهب دير سيلوس Silos فى كتاباته على ما ورد فى الملاحم الفرنسية حيث تم تصوير شارلمان على أنه محرر إسبانيا ، فالإمبراطور لم يهزم المسلمين ولم ينقذ بقواته طريق سانتياجو ، ولم يكن هناك شيء يستحق أن يشكر الإسبان عليه كلا من رولدان وسيده ، وخلال نهاية القرن الثانى عشر ألقى شاعر شعبى إسبانى (Juglan) ببرناردو دل كاربيو B. del Carpio ضد الفرنسيين المتغطرسين ، فى معركة رونثيسباييس Roncesvalles، وقد كانت الرؤية من منظور إسبانى ، وفيها نجد أن رولدان يموت ، كما أن شارلمان قد ولى الأدبار (٤٣ ؛ وهناك قصيدة من الرومانث مستوحاة من العقيدة القديمة التى لم نعثر لها على أثر :

لقد وقع لكم مكروه أيها الفرنسيون

فى معركة رونثيسباييس

إلا أننا إذا ما صدقنا ما قام به برناردو دل كاربيو فهذا ليس موضوعًا حيويًا ، ذلك أن الملك ألفونسو العاشر شكك فى صحة ذلك " هناك من يقولون إنه فى زمن الملك ألفونسو (المحمود) وقعت معركة رونثيسباييس ، ولكنها لم تكن مع كارلوس الأكبر بل مع كارلوس الملقب بالأصلع... آه لو استطاع أحد أن يوضح لنا ذلك بشكل أفضل ويحكى ما وقع بصدق يجعلنا نفهمه ، إلا أننا ننقل هنا ما ورد فى الكتب القديمة " (٤٤)، وهانحن نرى الملك ألفونسو العالم يغسل يديه من الموضوع ذلك أن القضاء على الفرنسيين لم يكن موضوعًا ذا حيوية بالنسبة لإسبانيا ، ودائمًا ما نظر الشعب الإسبانى للفرنسيين نظرة رفض بينما نجد أن علية القوم يعيشون تحت التأثير التنويرى للفرنسيين بشكل آخر ، ورغم أن رجالات ألفونسو العالم قد نقلوا أغانى برناردو نقلاً حرفيًا فإن الملك لم يكن متشوقا لتصديقها (٤٥) .

ونسوق مثالاً آخر على الأسطورة – المعتقد وهو الخاص بالملك أرثر ملك إنجلترا فالروايات السابقة على القرن الثانى عشر كانت تتحدث عن ذلك الملك العظيم دون إثارة أى انتباه ، غير أنه خلال الفترة من ١١٣٦م وحتى ١١٣٨م كتب جيفرى دى مون ماوث مؤلفه Historia regum britanniae" تاريخ ملوك بريطانيا " حيث حاول تخليد ذلك الملك

الذى لا وجود له والذى أحدث كبير الأثر فى الحساسية الشعرية الأوربية وترجع أسباب ذلك إلى أن الأسرة النورماندية فى إنجلترا كانت تشعر بالإحباط أمام ملوك فرنسا الذين كانوا يفخرون بأنهم أحفاد شارلمان ، ولم يكن لدى السلالة البريطانية الخاضعة لهذه الأسرة أى شىء تقف به أمام الفرنسيين قبل أن يأتى جيفرى دى مون ماوث ويقدم لنا العاهل الأكثر قدما وشهرة من الإمبراطور العظيم شارلمان [٤٦] ، وهنا نجد أن السلالة البريطانية قد حازت الشهرة والمجد وعبّرت لأول مرة عن رغبتها فى أنها لن تركع أمام القارة .

وقبل أن يحدث ذلك بوقت طويل تحولت شخصية سانتياجو الرسولى والمُسَالم إلى سانتياجو المحارب المقدام ، ويرجع هذا إلى الظروف شديدة الدرامية والتى تعتبر أكبر الظروف التى أحاطت بانتشار قصة الملك أرثر ، ومن المحتمل أن سانتياجو المحارب لم يكن قد دخل بعد الأدب الكنسىّ خلال القرن الثامن ، فهناك قصيدة ترجع إلى عصر الملك ماوريجاتو **Mauregato** (٧٨٣ – ٧٨٨) لكننا لا نجد فيها أية إشارة للضريح وإنما إلى العظَة فى إسبانيا :

وأخوه سان خوان قد سيطر على إسبانيا [٤٧] .

وقد أطلق على القديس الرسولى فى هذه القصيدة " الرأس الذهبى المتلألىء لإسبانيا " ويتضرعون إليه ليحميهم من الطاعون ومن كل شر [٤٨] ؛ وبعد ذلك بنصف قرن نجد الناس يطلبون منه القضاء على المشارقة ويتحول بعد ذلك إلى " مضاد للإسلام " ويصبح قبره " ضداً للكعبة " ، وعلى أساس هذه الخلفية يمكننا أن نفهم معنى هذا المعتقد الضخم وتأثيره داخل إسبانيا وخارجها ، وقد بدأ هدير هذا الإيمان من المصادر الشعبية والقديمة ، أما تنظيمه فقد كان مهمّة كنسيّة وسياسية وقومية ودولية ، وحتى القرن الثانى عشر يمكننا أن نلمس التداخل الخاطئ بين التبجيل الزائد عن الحدّ لسانتياجو متعدد الملامح وبين الفكرة الأرثوذكسية التى تدخله فى دور سانتياجو الكبير ، رغم الاتفاق بين الملمحين فى مناهضته للمسلمين ، كما نجد خطأً آخر فى هذا الزّعم الذى عليه أساقفة كومبوستيلا وادعائهم البابوية خلال الفترة بين

القرن العاشر والثانى عشر ورغم هذا فإن الادعاء لم يأخذ صورة قوية أبدًا أمام روما كما أن مدينة سانتياجو لم تتمرّد بعنف على أولويّة طليطلة مُنَافستها التى لا تحبها كثيرا ؛ إذن نجد أن طموحات رجال الكنيسة فى سانتياجو كانت عبارة عن إشارات قوية تناسب ظروف الحرب المقدسة ومن أجل جذب المزيد من الحجاج ، غير أنها لم تكن أبدًا محاولة للانشقاق على الأكليروس ، فالاعتقاد فى المحارب المقدام أمر يفهمه المسلم وهو درع قوى للمسيحية ، وهكذا نجد أن الخيال قد جمح بهؤلاء الذين رأوا فى القديس الرسولى قوة إلهية وفارسًا يمتطى جوادًا أبيض اللون ويحمى الزرع ويأتى بالمعجزات[٤٩] .

وأكثر ما يميز هذا الاعتقاد هو أنه يضم ما هو إلهى وما هو حربىّ وأن هذا التناقض نراه أيضًا فى الرهبان والمُبَجِّلين ، ولقد كان سانتياجو نوعًا من رد الفعل على الجهاد فى الإسلام وسندًا للحرب المقدسة التى كان على المسيحيين القيام بها وبذلك يتحول القدّيس إلى القائد الأعلى للجماعات المحاربة ، وذلك قبل أن يكون لها وجود شرعى بوقت طويل ، ويقول المثل القديم " أسقف سانتياجو إما السيف ، وإما العكاز "[٥٠] فقد كانت هذه الجماعات تقوم بمحاربة الغزاة من النورمانديين والمور أو محاربة أتباعها من المتمردين ، كما كان أفرادها يحملون العكاز علامة على السلطة الدينية ؛وفى عام ٢٤٩م تمكن الأسقف روديسندو Rodesindo (سمّى بعد ذلك بالقدّيس روسندو Rosendo) من هزيمة الغزاة النورمانديين بأن تضرّع إلى الربّ[٥١] وفى عام ٩٦٨م توفّى الأسقف سيسناندو Sisnando وهو يحارب الأعداء القادمين من الشمال " Sagitta Percussos"[٥٢] ، وذلك بعد أن أصابه سهم ، ويمكننا ذكر العديد من تلك السمات لدرجة أصبح معها من المعتاد أن الأساقفة ورؤساء الأديرة يحاربون زعامات قوية ويتدخلون فى السياسة بصفتهم مستشارين للملوك أو يتزعمون قيادة الحملات العسكرية ، وقد سيطر الطابع الكنسىّ على ماهو مدنى ، وكانت مساعدة السماء وإلهامها على نفس الإيقاع وهو أكثر قيمة من أى شىء على ظهر الأرض ، وهذه هى إحدى السّمات التى تميز إسبانيا ، أما بالنسبة لأوربا فإن النبلاء

من الإقطاعيين وكذلك المصالح الدنيوية كان لهما تأثير على الفترة السابقة على القرن الثاني عشر يصل إلى نفس الدرجة التي عليها التأثير الكنسيّ وربّما أكثر .

ومن الأمثلة الدالة على ما نقول قيام فرناندو الأول بغزو مدينة كويمبرا Coimbra عام ١٠٦٤م ، وهو نمط حياة أُطلق عليه " Teobiosis" وهذا يختلف عن مفهوم " الثيوقراطية" وقد اتخذ الملك عدة خطوات في مراحل الإعداد لعملية الغزو الصعب لهذه المدينة الحصينة متينة الأسوار / ومن هذه الخطوات قضاؤه ثلاثة أيام أمام ضريح القديس الرسولي وذلك حتى يتمكن هذا الأخير من أن يمنحه الله النصر المنشود ، وبعد تقديم الأضاحي أخذ الجيش طريقه وهو واثق من الحماية الإلهية (٥٣) ، وبدأ حصار المدينة في يناير عام ١٠٦٤م ، واستسلمت المدينة جوعًا في شهر يوليو من نفس العام ، ويشير كتاب Cronicon Cumplutense إلى أن الملكة سانشا كانت ترافق الملك ومعها رجال الكنيسة التالية أسماؤهم : كريسكوينو ، من المقرّ الرسولي لسانتياجو (وهو تلك الشخصية التي تم طردها من الكنيسة عام ١٠٤٩م لأنه استخدم اللقب الذي أطلقه على نفسه منذ عام ١٠٦٤م) ، وصحب الحملة أيضا بيسترواريو من مدينة لوجو Lugo، وسيسناندو من بيسيو Viseo وساوريو من مدينة مومدونيدو Mondonedo ؛ ومن بين رؤساء الأديرة نجد كلا من بدرو ، من جيمارانس Guimarans وأريّانو ، من ثيلانوبا Celanova ؛ ويذكر بعد ذلك أن الكثير من النبلاء قد رافقوا الحملة لكنه لم يعين واحداً منهم .

استسلمت المدينة في شهر يوليو وقد مرت الحملة الملكية الأسقفية بعدة مشاكل قوية تتعلق بالمؤن ، إذ نفذت وتولّى رهبان لوربان Lorvan {وهو دير للمستعربين يقع في الأراضي الإسلامية ، وهذا دليل على التسامح الإسلامي} حل تلك المشكلة ، ولقد أخفى هؤلاء الرهبان في صوامعهم كميات كبيرة من الغلال وقاموا في اللحظة المناسبة بتزويد الجيش المسيحي بها ، وإذا ما كانت القيادة العليا للجيش تتكون من الأساقفة ورؤساء الأديرة فإن خدمات التموين والإمداد تقع على عاتق الدير ، فأي واقع أفضل من هذه الطريقة التي تساعدنا على فهم هذا النمط المعيشي الخاص جدا ؟ . لندع الآن جانبًا المقولة التي تشير إلى أن سانتياجو كان تجسيداً أو بقايا لمجموعة من المعتقدات

فالشيء المهم والجوهرى هو أن نسيج الحياة الإسبانية قد أسهم فى خلق نمط من الوجود يُعَضّد هذا الاعتقاد الذى تزول فيه الخطوط الفاصلة بين ما هو إلهى وما هو إنسانى ، وإذا ما نظرنا إلى الأمر من الناحيتين التاريخية والإنسانية فإن فكرة الديسقورية Dioscurismo الخاصة بسنتياجو ، والمفاهيم الدينية التى لا تقبلها الكنيسة - والخاصة بشخصه - لهما نفس القيمة التى عليها " رواية " ساكسو جراماتيكو S. Gram?ticoعن مهملت شكسبير، أو " رؤية " والدة نابليون لابنها فالحياة -أى حياة الفن والحياة الأخرى - تندمجان دومًا فى ظل ظروف ضرورية وغير ضرورية .

وتكمل " رواية " راهب سيلوس Silos وصفنا لغزو مدينة كويمبرا من خلال إشارة لها قيمة كبيرة ، فخلال الشهور السبعة للحصار قام شعب سانتياجو بحصار القدّيس الرسولى بضراعاته طلبًا العون السريع والحاسم ، وقد كان هناك حاج يونانى يصلى ليل نهار إلى جوار الضريح ، وكان يسمع هؤلاء الذين يطلبون من سانتياجو أن يحارب كجندى باسل ، ولم يكن الرجل يتصوّر كيف يتحوّل أحد حواريىّ المسيح - الرجل الذى كان يعمل بصيد السمك وأحد الذين لم يمتطوا صهوة أى جواد - إلى محارب ، إن الأمر محتمل الوقوع ولن يكون ذلك الحاج اليونانى الرجل الوحيد الذى يشعر بالمفاجأة أمام هذه الصورة التى لا تمت للإنجيل بصلة ، وقد تجاوزنا هذه المفاجأة لنعرف أن الإسبانى فى العصور الوسطى قد ألغى الحدود الفاصلة بين ما هو إنسانى وما هو إلهى ، ويضيف المؤرخ أن القديس الرسولى سارع فى إزالة الشكوك من ذهن الحاجّ وسوف نورد هنا ما قام به الملك ألفونسو العالم من ترجمة للنص فى كتاب " التاريخ العام " حيث نرى الحاجّ وقد تحوّل إلى أسقف اسمه إستيانو :

" فقد كان يقوم بالصلاة والتهجّد ، وسمع ذات يوم أبناء المدينة وكذا الحجاج وهم يقولون بأن القديس ياجوى قد ظهر للمسيحيين فى صورة فارس ، وعندما سمع الأسقف هذا الكلام نهض وقال لهم " أيها الأصدقاء لا تدعوه فارسًا بل

قـولوا إنه صيـاد سمك " ، وبينمـا هو على هذا الحـال تـضـرع إلى الله أن يهـبـه سِنَة من النوم فـرأى القـديس ياجـوى وهو يحمل مفاتيح فى يده وتعلو وجهه إبتسامة وقال له : يا إستيانو إنك تَضْرع لأن الحـجيج يلقـبوننى بالفارس وتـقول إنى لست كذلك، لـهذا أتيت إليك الآن وتجسّدت أمامك حـتى لا تشك أبدا فى أننى فارس المسيح ومُساعدٌ للمسيحيين ضد المسلمين " وكان وهو يقـول ذلك معـه حصـان ناصع البياض ، ثـم امتطى القـدّيس الرسـولى الجـواد وكـأنه فـارس متـمـرّس ومـدجج بالسـلاح ، وقـال له فى ذلك الحلـم إنه يريد الذهاب لمسـاعـدة الملك فرناندو الذى يحـاصر كويمبرا منذ سـبع سنوات " وحتى تتأكد مما أقـول لك فإننى سوف أستخـدم المفاتيح التى فى يدى لفتح بوّابات مدينة كويمبرا.. وكان الأمر كما قال ، واستسلمت المدينة " (صـ ٤٨٧ ب) .

وبعـد الاسـتيـلاء على المدينة توجـه الملك فـرناندو إلى قـبر القديس يـاجوى وقـدّم القـرابين والأمـوال وصلى له (صـ ٤٨٨ أ) ، وبذلك تمت الحـملة فى الإطار المناسب والتاريخ المحدد .

وإذا ما كان الأسقف فى العصور الوسطى مناسباً من حيث قوة البنية الجسدية فقد كان يشارك فى الحرب مثله مثل النبلاء ، ولما كان الأمر يتعلق بسانتيـاجو الذى دانت له إسبانيا بالطاعة وأصبح كأنه محارب ، فلم لا يكون القساوسة المكلفون بتبجيله كذلك ؟ وإذا مـا كـان الأسـاقـفـة ورؤسـاء الأديرة رجـال حـرب فـمن البـديهى أن يكون الرجال الأقل درجة فى الكهنوت على هذه الشـاكلة ، وكان هؤلاء قد اعتـادوا استخدام الأثواب المسترسلة ، كمـا كانوا يطلقون لحاهم ويسيرون وهم يحملون السلاح ، ونحن

نعرف ذلك فهذه العادات قد نهت عنها ومنعتها المجالس الكومبوستولية التى حرّمت عام ١٠٦٠م ، ١٠٦٣ " على الأساقفة ورؤساء الأديرة أن يستخدموا أثوابًا مُسْترسلة... وعليهم أن يحلقوا لحاهم ورءوسهم وألا يحملوا الأسلحة " (٤٥) .

وكانت هيئة رؤساء الأديرة فى سانتياجو - خلال القرنين العاشر والحادى عشر - تشبه هيئة الفرسان التابعين للجماعات العسكرية ، وسوف أتناول هذه النقطة فيما بعد ، ومن الطبيعى أن التعليمات الخاصة بسانتياجو لم تكن شديدة الصرامة بالمقارنة بالأديرة التابعة للطوائف الأولى التى ظهرت فى القرن الثانى عشر ، ومرجع هذا هو الثقة الزائدة فى قوة القدّيس الرسولى وكذلك بسبب الأموال التى ترد من الحجاج ، لكن الشىء الجوهرى هو الصلة بين ما هو إلهى وما هو حربى ، وهو جانب يدفعنا لتأمّله، فالإيمان " بابن الرعد " قد تطوّر خلال أعوام من الكدر والإحباط اللّذين خفت حدتهما مع النجاح الذى حققته معارك الاسترداد خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، وما كان قبل ذلك حافزًا للهمم أصبح عنصر تثبيط ، وثقة مفرطة ، فسنتياجو قد جلب معه الأمن والرّخاء والشهرة العالمية التى فاز بها بشكل سحرىّ مثلما حوّلت الأموال التى كانت تقدم عند ضريح القديس بطرس فى تحويل روما إلى مركز اللاّتدين واللامبالاة الروحية ، قد ظل الأمر كذلك حتى انعقاد مجمع ترينتو Concilio de Trento، وقد وجد أسقف سانتياجو / دييجو جيلميرث (١١٠٠ - ١١٤٠) نفسه مضطرًا لمنع القساوسة من حضور الصلوات وهم يرتدون الملابس غير الكنسيّة أو لم يحلقوا ذقونهم ، أو الحضور بالملابس المتّسخة أو الملونة أو انتعال المهماز وكأن الكنيسة الخاصة بالقديس بها فرسان وليس قساوسة (٥٥) ، ومن السّذاجة بمكان أن نتحدث فقط عن " التحلّل فى العادات " فحقيقة الأمر تكمن فى أن ذاتًا إلهية تتسم بسمات المحارب تستلزم أتباعًا محاربين وقساوسة من الفرسان ، ولقد كان على الأسقف دييجو جيلميرث أن يقيد قبل كل شىء من ملامح قدّيسه الأسطورى وبذلك يمكن أن يحيط نفسه بكل سمات البابوية ، إلا أن تاريخ إسبانيا لا يمكن أن يخرج عن مداره فهناك ثلاثمائة عام تقوم بتشكيل عقلية شعب وحساسيته ، وبذلك فإن العقلية الإسبانية قد وصلت إلى حالة تشكيل ملامح شخصيتها ، فالجماهير لا تعرف التحوّلات المفاجئة

التى أحيانا ما تسهم فى تغيير مسار حياة الفرد ، وعند النظر إلى الإسبانى عن بعد نجده وكأنه كائن غريب ، ومن المثير للفضول أن يكون الشخص الوحيد الذى يظهر فى كتاب " تاريخ ملوك بريطانيا " لجيفرى مون ماوث { الثانى عشر - ٤ } " خبيراً فى الطيور والنجوم " وهى تقنيات إسلامية يهودية " ، كما أن هذه الخبرة تتوافق مع ما ورد فى ملحمة السيد حيث كان يعرف قدَره ومصيره من توجّه طائر الزّاغ .

كانت إسبانيا القرنين الحادى عشر والثانى عشر أرض سانتياجو ، أى Jakobs Land وهى تسمية أطلقها عليها الحجاج القادمون من شمال أوربا ، ويمكننا أن نتخيل كيف كان إيمان الناس وإذعانهم لحاميهم المقدس عندما قام الملك ألفونسو السادس (ملك ليون) ، بمنح بعض المزايا القانونية (١٠٧٢م) لمدينة قريبة من سانتياجو وذلك " محبّة للقديس الذى ترتكز عليه أرض إسبانيا وحكومتها " [٥٦] ، أما شقيقته الأميرة إلبيرة فتقدم هدية لسانتياجو (١٠٨٧م) وهى على فراش الموت " إليك أيها القديس الرسولى سانتياجو المنتصر دائمًا والفائز الأعظم " [٥٧] ؛ وفى عام ١١٧٠م وعد الملك فرناندو الثانى أن يهب للقديس كنيسة ماردة Merida التابعة لكنيسة كومبوستيلا عندما يتم استردادها وبذلك يستمر طريق الهبات التى قدّمها الملوك السابقون من أبنائه وأجداده للقديس الرسولى " ونحن واثقون من النصر على المسلمين بفضل حمايته " [٥٨] ، كما أن الملك ألفونسو العالم (المتوفى ١٢٨٤م) يتضرّع فى وصيّة لسانتياجو قائلا " إنه الرب والأب ونحن أبناؤه " [٥٩] .

ومن غير المجدى أن نسوق المزيد من الاستشهادات عن العلاقة الحيوية بين ليون وقشتالة والقدّيس الرسولى الذى يُتَقرّب إليه فى مدينة سانتياجو منذ القرن الحادى عشر لا على أساس أنه من ذُخر الماضى المقدّس فقط بل أيضا على أساس أنه واقع مُعاش فى الحياة الإسبانية ، وأنه كان يقود دفّة السياسة الوطنية ، وقد كان بالنسبة للملوك الأساس الذى ترتكز عليه جهود المملكة وسمعتها وطموحاتها ،أما أهمية سانتياجو كشقيق ليسوع وكقوّة إلهية فقد كان ذلك عنصر دعم وتنشيط للهمم فى حرب الاسترداد ، كما أن مسار الحياة اليومية كان بمثابة دعم لهذا الاعتقاد الذى يرتبط

بالعديد من المصالح السياسية والدينية والاقتصادية ويؤدى إلى خلق تلك السّلوكيّات الدينية التى ينظر إليها اليوم على أنها هرطقة وإلحاد .

إلا أننا لا نفهم التاريخ إذا ما نظرنا للموضوع من منظور الأرثوذكسية اليوم أو من منظور الهرطقة أو من المنظور العقلانى الذى يقدّم عبارات عن الحياة لا تخدمنا مثل " الأسطورة والتطيّر " ، فالتاريخ لا يحدث من فراغ بل من خلال حياة الأفراد ، كما أن الإيمان بسانتياجو لا ينفصل عن الرغبة فى الوجود ومواصلة البقاء ، وقد عبر عن ذلك أناس من العامة وجدوا أنفسهم محاصرين فى الشمال بشبه الجزيرة ، وقد لجأ الملوك ورجال الدين لتلك العقيدة مثلما فعل العامّة وهو توافق كانت له نتائج لا يمكن تقديرها ذلك أن الشعب شعر أنه على نفس القدر الذى عليه زعماؤه أمام السيف البتّار للقدّيس الذى وحّد بينهم ، وهنا يتلاشى مفهوم الطبقية ، فالجميع – ابتداء بالملك وحتى أبسط أبناء الشعب – يقومون بالذود كلّ عن كيانه إلا أنهم جميعًا يدخلون تحت سلطة النجوم والألوهية ، ولم يكن الأمر عبارة عن القيام بفهم هذه الدنيا بشكل أفضل أو أسوأ بل كان متمثّلاً فى الاعتقاد والأمل فى شىء كان يطفو فوق سطح عالم المُحسّات ، وكانت فعالية العمل تتراجع أمام الإلحاح فى الطلب ، فكلما زادت الهبات للقدّيس الرسولى كلّما زادت رحمات السماء ، وبذلك يمكننا تفسير ضعف القواعد الاجتماعية وكذلك حالات التمرّد الكثيرة التى وقعت فى مدينة القدّيس الرسولى حيث نرى الأسقف دييجو جيلميرث محوطًا بكل أبّهة البابوية وزخرفها ، ثم نراه مرة أخرى يختبئ وكأنه أحد الفارّين ويعتلى أسطح المنازل لتفادى غضب العامة ، وفى الوقت ذاته نجد السّلطة الملكيّة يتم تجاهلها ، فهى نادرًا ما تستطيع السيطرة على الموقف الناجم عن الطموحات المتعارضة ، وعندما تهبط من السماء أسس السّلطة فإن الملكية لا تحقق السلطة كاملة إلا إذا كانت هى الأخرى فى دائرة هالة النور الرّبانى ، أما الإقطاع الوحيد القوى فى كل من ليون وقشتالة فنجده فى ديرين قويين هما دير جماعة كلونى Cluny ودير ثيستر Cister.

وعلى ذلك نستطيع تلخيص ميلاد وتطور الإيمان بسانتياجو قائلين بأنه ربما كان هناك فى الزمن القديم ضريح لكاستور وبولك أو لأى إله من السّلت على الشواطئ

الجليقية المعرّضة لكثير من المخاطر (٦٠) ، ثم نرى التراث وهو يسير برفات سانتياجو ابن الرعد إلى بلدة إيريا iria الواقعة على مصب نهر سار Sar وهو مكان " معرّض للكثير من الفيضانات العاتية " {L. Ferreiro Op. Cit I p. 140} ، كما أننا لن نعرف أبداً كيفية اختلاط المفاهيم الوثنية بالمسيحية لحظة ميلاد الاعتقاد في القديس ، لكن الأهم هو النتائج وهذا ما يتضح لنا من خلال الصيحات المُجلْجِلة التى تتردد " القديس ابن الرعد " .

لقد فقدنا المفتاح الذى يساعدنا على فهم نمطيّة عجيبة من التديّن وتشابك العناصر المكوّنة لها ، إذ يتم تبجيل جسد رفيق ليسوع بحماس لدرجة تنكمش معها المفاهيم الدينية عن المسيح نفسه ، إننا ندرك كيف أن المسيحية الإسبانية خلال العصورالوسطى كانت أكثر ثراء فى الحروب المقدسة والدعاية وصناعة المعجزات ، وهى فى هذا تتفوق على الجانب الآخر وهو التأمل والتصوف وفى إطار هذا التديّن لا يبقى إلا مكان صغير لقدّيس هو سان برناردو وآخر هو سان فرانثيسكو أو القديس توما أو إيكاهارد Eckehardt ؛ أما القدّيسون الإسبان الذين بلغوا شهرة عالمية فنجد منهم القديس دُمنجو دى جوثمان الذى عاش خلال القرن الثالث عشر ، والقديس بيثنتى فيدّير الذى عاش خلال القرن الخامس عشر ، وكلاهما من المناهضين للهرطقة وغير المؤمنين الذين يبجّلون سان إيجناثيو خلال القرن السادس عشر ، وهذا لا يُنقص من قدرهم ، وبدونهم لم يكن تاريخ أوربا ليصل إلى ما آل إليه ، وقد كان على المسيحية المنتشرة فى شمال إسبانيا أن تلجأ إلى استخدام العقيدة كدرع لها منذ القرن التاسع، لكنها لم تترك نفسها أبدا لمتعة حبّ الرب ، أى أنها لم تنتج أدبًا صوفيًا {هناك سان برناردو... Ifioretti} كما لم تدخل فى دائرة الفكر اللاهوتى ، وسوف أتحدث عن هذه النقطة فيما بعد ، وما يهمّنا الآن هو أن نباعد أنفسنا عن فكرة فهم سانتياجو الجليقى فهمًا كاملاً من منظور علم مقارنة الأديان ، وعلينا ألا نُضفى على مشروع الحياة أى نوع من التشاؤم الثقافى ، فالعناصر الوثنية أو تلك المتعلقة بالتراث الإنجيلى الذى لا تقرّه الكنيسة التى نراها أمامنا – ما هى إلا عناصر ثانوية وكأننا نشاهد

فونيمات (صوتيات) وأشكال لغة أدبية تساوى فى قيمتها ما تساويه اللغة الأدبية فالاعتقاد فى سانتياجو هو جوهر الأمر ، وبالتالى فإن العناصر الديسقورية أو غير المعترف بها من قبَل الكنيسة إنما هى نوع من اللهجات فى لغة ما أو هى فترة ما قبل التاريخ ، وقد وجدنا مثيلاتها فى معتقدات أقل أهمية ، غير أن العناصر التى تتدخل فى تشكيل الصورة المقدّسة فى جليقية (خلال الفترة من التاسع وحتى الثانى عشر) تتّسم بالأهمية ، غير أنها نسبية ، فأهميتها ليست فى حد ذاتها بل تلك الطموحات والإرادات الخلاّقة بما أضفَته عليها وما تحمله من معانٍ ، فاللغة الإيطالية لم تخلق دانتى وإنما العكس ، وقد ساعدت الظروف التاريخية والحياة على الإبقاء على الملامح الديسقورية أو غير الأرثوذكسية للتراث الشعبى ، فلم تكن تلك الملامح إلا اللّباس والشكل الخارجى للحماية الإلهية ، ومن ناحية أخرى نجد أن الأرثوذكسية المحضة هى نوع من المعانى التجريدية التى وضعتها المجالس الكنسية ورغم ذلك لم توجد أبداً فى دائرة الخبرة الدينية ، وقد كان التديّن الإسبانى مسيحيًا صادقًا ، ومن خلال هذا التديّن كان الإيمان بسانتياجو كشقيق للمسيح ، فالذين يتعبدون للقديس الرسولى لم يتشككوا فى علاقته بكاستور وبولكس وهى علاقة ظاهرة لمن يريد أن يعيد قراءة التاريخ حيث يجب عليه عدم الخلط بين اللحظة التاريخية وجذورها القديمة ، وعلينا أن نتصور أن الطفل عندما يلعب لا يقوم بشىء فلكلورى ، وهذا الخلط يشبه ما نعانى من اللغويات عندما ظن البعض أن علم الصوتيات وعلم الصرف كانا هما الجانبين العمليّين فى اللغات ، أما الأدب والنحو فهما تطورات مهمشية أو تكميلية ، إلا أننا نعرف اليوم أن اللغات هى كل لا يتجزأ وتنصبّ فيها الحياة بكاملها ، وهذا بعيد كل البعد عن عالم الفيزيقا .

ولا يمكن فصل سانتياجو الإسبانى عن طموحات هؤلاء الذين بحثوا ووجدوا فيه سنداً وذخراً لوجودهم ، كما لا ينفصل عن حياة هؤلاء الذين عاشوا ذلك الاعتقاد وهو إيمان دفاعى تم صهره وإعادة تشكيله بأداة الحاجة للتمسّك به ، وقد شعر المور الإسبان بذلك جيداً فعندما قرّر المنصور بن أبى عامر – وهو فى عنفوان بأسه – أن يوجّه للمسيحيين فى الشمال ضربة قاصمة ، فشتّت الجماعات الدينية وطاردها فى

ليون وقشتالة ثم قام بهدم معبد القديس الرسولى (٩٧٧م) ولم يحترم إلا تلك المنطقة التى تحتوى على الرفات المقدس وذلك كنوع من التسامح الخالص ، فقد كان المسلم يعرف أن فضل ما هو مقدس لا ينتهى عند حدود دينه ، وقد حمل المنصور معه - فى طريق عودته إلى قرطبة - أجراس الكنيسة على أكتاف الأسرى ليقوم بصهرها واستخدامها فى صناعة الثريّات لإضاءة مسجد قرطبة ، وقد أدت هذه العملية العسكرية التى قام بها نور الإسلام هذا إلى زيادة الإيمان بالرّفات المقدس الذى لم يستطع المنصور القضاء عليه .

وأخذ الاعتقاد الغامض وغير المنطقى فى سانتياجو - وهو اعتقاد قديم جدا رغم أن الكنيسة القوطية لم تُعْنَ به - يَتَقوْلب ويأخذ شكل إيمان معارض يتّسم بوجود أوجه شبه مع ما هو إسلامى ، ولا يمكن لنا تبسيط الموضوع كغيره من الموضوعات بطريقة أسطورية مثل : القديسة جوادالوبى أو عذراء بيلار فى سرقسطة والقديسة مونسّرات وغيرهن كثيرات ، لقد كان سانتياجو قداسة إيجابية جىء بها للوقوف فى وجه المسلمين، وتم ذلك فى إطار حمايته والفوز بمعارك ليس فيها شىء من الوهمية ، وتحوّل اسمه إلى صيحة قوية من أجل الحرب ، وهى صيحة تقابل الصيحات التى يطلقها الشرقيون ، وفى عام ١١٤٠م نجد فى ملحمة السيد التى تُعد تعبيرًا عن أفضل بطل فى المسيحية :

صاح المور وامحمداه وصاح المسيحيون يا سان جوى (البيت رقم ٧٣) .

سانتياجو ، الشهرة العالمية :-

كان يُنظر إلى ضريح سانتياجو آنذاك من زوايا مختلفة فالشرقيون يرون أنه بمثابة حرم مقدّس وقد شعروا بذلك وحاولوا القضاء عليه ، ويرى المسيحيون الإسبان ما سبق أن عرضنا له ، أما الأجانب فقد حوّلوه إلى مقصد ليحجوا إليه وله نفس قداسة روما ، وقد أسهم أحد حواريىّ المسيح فى الصراع ضد غير المؤمنين وخاض غمار الحرب دفاعًا عن قضية الحق ، وقد وقع ذلك العمل العظيم على أرض جليقية

أرض المعجزات وأرض الفرصة السانحة للحصول على فوائد مادية ، وعندما قامت كلونى بالتحالف مع المصالح الإنسانية لبورجونيا Borgona كان ذلك بداية طريق الإصلاح فى المسيحية ، وسرعان ما رأت الجماعة قيمة الطرق التى يسلكها الحجيج كنوع من الانتشار العالمى لها ، وقد استطاعت فرنسا الوصول إلى نتائج أكثر فعالية عبر الطريق الدبلوماسى وليس عن طريق الدخول فى حرب مباشرة مع المسلمين فالحرب الصليبية التى دارت رحاها فى إسبانيا لم تجذب الشعب الفرنسى إليها أبداً .

وقد كانت الممالك المسيحية فى حاجة إلى فرنسا لتبتعد ما أمكنها عن الجاذبية الإسلامية فقد كان الملوك يعرفون أن قوتهم تعتمد فقط على الاعتقاد والإقدام الفردى ، وما عدا ذلك فإن الأفق الذى يمتد أمامهم هو الأراضى الإسلامية ، وبفضل الإمبريالية التى سارت عليها كلونى أخذ الملوك المسيحيون ينجذبون نحو فرنسا الدولة التى أسهمت حضارتها فى إدخال تحويرات واضحة على الجانب المسيحى خلال الفترة من القرن الحادى عشر وحتى الثالث عشر ، وقد استخدم أولئك الملوك سانتياجو كمصدر اعتزاز على المستوى الدولى وهذا ما كان ينقصهم ، وقد عرفت أوربا القرن العاشر ما عليه طليطلة من بسالة ، كما كانت تفكّر فيها عندما تتوجه بناظريها نحو هذا العالم وقد وهب الإسلام أوربا علوم الرياضيات والفلسفة والطب والشعر وتقنيات مختلفة كما قدّم لها مدنًا تتسم بجمالها مثل أشبيلية وقرطبة والمرّية ، وهى مدن كانت لها صلات تجارية بشمال أوربا ، أما الممالك المسيحية فلم تكن قادرة على التباهى بشىء اللهم إلا أن العناية الإلهية أحاطت بهم وهيأت لهم رفات سانتياجو .

إننا لا نستطيع أن نفهم جيداً معنى وجود رفات فى مكان ما خلال تلك العصور التى نجد فيها أن لباس العناية الإلهية هو أفضل من أى جهد إنسانى ، فالألوهية كانت لها فاعليتها وقوتها ، والله تردد اسمه الألسنة إلا أن الحرب والسلام يرتبطان بأسباب أخرى ، ولم يعد الإيمان بالله هو الباعث الآن لاجتماع رؤساء الدول ، غير أن ألدوينو Alduino (١٠١٠م) راهب سان جان دى أنجلى Saint Jean- d'Angely قد أعلن عن اكتشاف رأس القديس يوحنا المعمدان وأرسل يستدعى عدداً من الملوك

لحضور ذلك الحدث المهم وتوضيح ذلك للمؤمنين ، وقد حضر كل من روبرتو الثانى الشّفوق – من فرنسا – وسانشو الكبير – من نابارّة – وجييرمو الخامس – دوق أكيتانيا – وكذلك عدد من الأمراء والكونتات ورؤساء الأديرة الذين يمكن أن نبرز منهم أودون دى شامبانيا ، ولاند دولفو دى تورين (٦١)؛ ويبدو أن هذا الحضور قد ساعد على تأييد الرأى القائل بأن الرأس المكتشفة تخص القديس يوحنا المعمدان ومع هذا لم يفز الضريح بالكثير من التبجيل ، وهذا عكس ما حدث لسانتياجو ، فقد كان من غير المجدى منافسة المدينة الجليقية والإلقاء بمُعتقد فيه سمات كاثوليكية ، وقد ورد فى Acta Sanctorm أن الأمر عبارة عن بدعة ، ورغم هذا فإننا نتساءل : كيف أمكن أن يصل رفات إلى هذه الشهرة العالمية رغم أن المعاصرين يعتبرونه غير حقيقى ؟ ويلاحظ أديمار دى شاباناّس (٩٨٨ – ١٠٣٤م) راهب دير سان ثيبار دى أبجوليما أنه " ليس من الواضح فى هذه الرواية حمل الرفات إلى هذا المكان ولا حتى بعد ذلك ومن أين أتوا بالرأس أو ما إذا كانت لشقيق المسيح " (٦٢) .

وعلينا أن نلاحظ الطريقة التى يتم بها عرض الموضوعات فى الأديرة الفرنسية فى بداية القرن الحادى عشر ، فهذا الراهب يعرض الأمر بموضوعية ودقّة وهذا ما يؤكد لنا أن فلسفة ديكارت هى فلسفة فرنسية ولم تكن وليدة الصدفة ، وإذا ما كان هناك – إلى جوار قبر سانتياجو – راهبٌ مثل أديمار، خلال القرن التاسع ، أو رجلٌ مثل السيد / دوتشنسى فإن الاعتقاد فى ابن الرّعد لم يكن ليتعدى حدود مدينة أيريا فلابيا ، لكن أحداث التاريخ تقع فى كل مكان بشكل مختلف .

ومن المحتمل أن يكون وجود دار العبادة المقامة فى الطريق المؤدى إلى بلاى Blaye وإلى بورديوس (بوردو) هو السبب الحاسم فى ظهور رأس يوحنا المعمدان فى سان دى أنجلى ، والطريق المذكور هو الذى يسير فيه الحجيج صوب سانتياجو ، ومن المعروف أنه من القرن الحادى عشر كانت تظهر بعض الأعمال الخارقة على طول الطريق المسمى Via francigena حيث أن باريس هى إحدى معالمها الأولى "أى شارع سان جاك" ، وقد أطلق عليه هذا الاسم للسبب المذكور ، كما أخذ الرهبان جماعة

كلونى فى نشر العديد من المرغّبات الدينية والتاريخية والأدبية ، فأسطورة رولدان (رولان) كانت تعلى من شأن دور العبادة فى رونثيسبابيس [٦٣] كما أن المؤلفات المكتوبة باللاتينية والفرنسية - والتى تتناول هذا الطريق - كانت مخصصة لهذا الغرض ومنها : تاريخ توربين ، زرت إسبانيا ، وغيرها .. ويقابل المسار السماوى لسانتياجو ، وهو سكة التبّانة ، مسار على الأرض ، مليء بالأعمال الخارجة ، يبدأ من فرنسا وينتهى عند ضريح القديس المحارب وهنا أدرك السّر فى الظهور المفاجئ لرأس يوحنا المعمدان وقيام الملك جييّرمو الخامس ، ملك أكيتانيا والرجل الشديد الصلة بمقاطعة كلونى من خلال الارتباطات الأسرية ، باستدعاء الراهب أودلون على الفور ليقوم بإدراج تلك الملاحظة وهذه الواقعة فى سان جان دى أنجلى وبذلك ارتفعت أسهم المكان بين يوم وليلة ليصبح داراً للعبادة الرسولية.

ولسنا فى حاجة الآن لأن نولى اهتماماً بحضور سانشو الكبير ذلك الاجتماع ذلك أنه قام بعد ذلك بوقت قصير بتسليم ديرسان خوان دى لا بييتا ، وسان سلبادور دى ليدى (١٠٢٢م) إلى رهبان جماعة كلونى ، وهما من الأديرة التى يراها الحجيج بعد عبور جبال البرانس بمسافة قصيرة والدخول فى طريق يؤدى بهم إلى المسار الرئيسى عند جسر الملكة P. la reina، وقد تأسست الجماعة الدينية " البندكتان " فى كلونى عام ٩١٠م ، بناءً على مبادرة من جييرمو الشّفوق دوق أكيتانيا ، وسرعان ما ذاع صيتها بفضل مساندة بعض من كبار السادة حيث تمكنت الطائفة من الحصول على مساندة روحية وسياسية من روما ، غير أن ذلك كان على هامش السلطة البابوية، وقد تداخلت وتشابكت مصالح كل من دوقيّة كلونى وبورجونيا .

وفى عام ٩٦٢ كانت هناك أديرة تابعة للطائفة المذكورة فى قطالونيا [٦٥] بالقرب من جبال البرانس ، وهذا ليس غريباً، ذلك أن قطالونيا القديمة كانت امتداداً لفرنسا ، أى أنها كانت الحدود الإسبانية لأسرة الملك شارلمان ، إلا أن وجود أديرة فرنسية فى قطالونيا القرن العاشر لم يكن سنداً كافياً حتى توجد أديرة أخرى تابعة لهذه الجماعة فى باقى أنحاء إسبانيا ، وقد كان هناك رهبان تابعون لطائفة الكرتوزيين Cartujo

(ابتداء من القرن الثاني عشر) إلا أنهم لم يظهروا في قشتالة إلا في نهاية القرن الرابع عشر ، كما يجب أن نُرجع الأسباب التي سبقت مجيء رهبان جماعة كلوني إلى نابارة إلى العلاقة القائمة بين سانشو الكبير وجييرمو الخامس دوق أكيتانيا حيث كان قد ضمهما لقاء عام ١٠١٠م حول حادثة العثور على رأس القديس يوحنا المعمدان ، وإذا ما كان ملك نابارّة (الذي حكم خلال الفترة من ١٠٠٠ إلى ١٠٣٣م) أول من اهتم " بإخراج إسبانيا من عزلتها عن أوربا " { طبقًا لما قاله مننديث بيدال – المصدر السابق صـ ١٨٨ } فهذه الواقعة لا تنفصل عن الاتصال بأوربا الذي تم عن طريق سانتياجو، ورغم أن سانشو الكبير كان أهم الملوك الإسبان حينذاك إلا أن الحجيج هم الذين رفعوا إسبانيا إلى هذه الدرجة من الشهرة العالمية وليس حكمة للمنطقة التي كان يفد إليها الحجاج المتجهون إلى كومبوستيلا بأعداد متزايدة اعتبارًا من القرن الحادي عشر ، وكان دوق أكيتانيا (٩٥٩ – ١٠٣٠) أحد هؤلاء الحجاج " فقد اعتاد منذ ريعان شبابه القيام – كل عام – بزيارة أضرحة الحواريين في روما ، وعندما لا يذهب إلى هذه المدينة يتجه إلى سانتياجو " (٦٦) ، وقد كان جييرمو يمارس حياته كأنه ملك وليس دوقا وبالتالي فقد كانت رحلات الحجيج التي يقوم بها ملفتة للانتباه ، وقد تمكن من خلال رحلاته هذه أن يجري اتصالات ودية مع سانشو ملك نابارّة وألفونسو ملك ليون (٩٩٩ – ١٠٢٨) :" فلقد فاز بودّ هذين الملكين لدرجة أنه كان يستقبل سنويًا سفراء لهما يقدمون له هدايا فخمة فيرد بالمثل أو أكثر" (٦٧) .

وأرى أن هذه الهدايا المقدمة إلى دوق أكيتانيا سابقة ومقدمة للإسهمات التي سوف يقدمها إلى كلوني كل من سانشو الكبير وابنه فرناندو الأول والحفيد ألفونسو السادس ، وقد كان الحج أحد المناسبات التي تجعل كلا من ليون ونابارّة ترنوان إلى فرنسا رغم أن ليون لم تكن تتوفر لديها وسائل القوة مثل نذابارّة للوصول إلى مزايا مثل ذلك النوع من الاتصالات ، والسبب هو أن المنصور بن أبي عامر كان يعيث فيها تدميرًا ، وعلى أية حال فإننا نجد في الزيارات المتكررة التي قام بها دوق أكيتانيا والشديدة الارتباط بكلوني أحد الأسباب المباشرة لدخول تلك الطائفة الدينية الفرنسية إلى الممالك المسيحية .

وقد كان الحج بالنسبة للملوك الإسبان بمثابة مصدر للقداسة وذيوع الصيت والسلطة والثروة لدرجة أن الوضع الوطنى لم يكن مهيأ للإفادة من الواقع القائم إفادة جيدة ، فقد كان من الضرورى التعاقد مع " مهندسين " من الخارج لتنظيم عملية التفاعل بين إسبانيا وباقى الدول المسيحية ، ومن هنا يرتفع مقام ملوك شبه جزيرة أيبيريا أمام الإسلام وأمام باقى أوربا ، فقد أسهم قيام المنصور بتدمير مدينة سانتياجو دون أن يمسّ القبر فى شيوع القدّيس الرسولى وأتاح فرصة فريدة من نوعها لمجىء رؤساء أديرة تلقّوا علوم اللاهوت ودرسوها بعمق ، وعندما يقوم الملك سانشو الكبير بتسليم دير أونيا Ona ، عام ١٠٣٣م إلى رهبان كلونى يقول " كانت هذه الجماعة الدينية الشهيرة مجهولة فى كافة أنحاء وطننا " (٦٨) ، ويوافقه الرأى فى هذا الملوك والنبلاء خلال القرن الحادى عشر ، وقدأدى وجود الأديرة التى تضم رهبانًا وراهبات فى وقت واحد إلى إحداث نوع من الخلل – ولم يكن ذلك قاصرًا على إسبانيا وحدها – الأمر الذى يبرر سياسة الرّهبنة التى سار عليها الملوك ، فما يعنيهم هو جذب علية القوم والثروة والثقافة الأوربية ، وقد عبرت إسبانيا فى وقت مبكر عن رغباتها فى الانخراط فى أوربا وأن تنتزع من جسدها شوكة العزلة وقلّة الشأن ، وفى عام ١٢٤٠م ألّف الراهب سان بدرو دى أرلنثا قصيدة عنوانها " قصيدة فرنان جونثاليث " عبّر فيها عما كان يعتمل فى صدور الكثيرين منذ أمد بعيد فالله قد حبا إسبانيا برفات القديس الرسولى ذلك أن

إنجلترا وفرنسا أرادتا أن تبزاها

غير أنه لا يوجد رفات قديس رسولى فى تلك الأماكن (١٥٥)

ولنلاحظ هنا الدرجة العالية التى كان ينظر بها إلى سانتياجو حيث شكل حجر زاوية فى تاريخ شبه جزيرة أيبيريا .

ولقد حبا الله إسبانيا هذا الكرم وتلك الشهرة ، وهانحن نرى التعاقد مع رهبان كلونى ليقوموا بتنظيم الجانب الدنيوى فى الأمر ، وأخذ التدخل الفرنسى يزداد خلال القرن الحادى عشر ، وبعد إحدى معارك الاسترداد (١٠٨٥م) التى تم فيها استعادة

طليطلة كان أول أسقف لها فرنسيًا ، كما كان هناك الكثير من الراهبات والكهنة الفرنسيين ، ومما يدل على هذا الاستعمار الدينى ذى الأصل الفرنسى وجود عدد كبير من المفردات الفرنسية قبل القرن الثالث عشر ، كما أن الكثير منها مرتبط بالحياة الكنسية مثل راهب monje ، وراهبة monja ، وراهب fraile وآنية Vinajeras.. الخ وبالنسبة للتنظيم العام نجد أن الفرنسيين يؤثرون فى طريقة العيش وبالتالى فى نمطية المساكن وما حولها مثل Jardin (حديقة) ، chimenea مدخنة و Hostal (فندق صغير) و Gozne (عقب الباب) ، و Colcha (مرتبة) ..الخ ؛ كما كان يتم تناول لحم الخنزير المملّح Jamon وتَتْبيل الطعام بما يلى citool و girofle وجارينجال وتركت المنسوجات والمصنوعات الأخرى آثارها على اللغة وذلك حسبما عرضت له فى موضع آخر (٦٩) ، إلا أن إدخال المفردات الفرنسية إلى الإسبانية والبرتغالية لا يمكن مقارنته بما حدث مع إنجلترا حيث اختلطت الفرنسية والأنجلوساكسونية لنرى أمامنا بعد ذلك لغة ثالثة ، ولقد ظلت الإسبانية محتفظة بجوهرها الذى كانت عليه رغم أن ثروتها قد زادت بالمقارنة بوضعها خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر وكذلك ما استعارته طوال القرون السابقة من اللغة العربية ، فاللغة الإسبانية فى علاقتها بالطبيعة تبدع قليلاً وتستورد كثيرًا ذلك أن اهتماماتها قد انصبّت فى الأساس على الماورائية سواء فى بعدها الإلهى أو الإنسانى ، وكان ذلك على حساب الجوانب الحياتية ويتم تبرير وجود هذا النمط الحياتى من خلال الإبداعات الخارقة التى يجب أن تحاط بأى نوع من الحزن ، وعمومًا فقد كان الراهب الطيب سان بدرو دى لانثا على حق فيما قاله .

وقد أدى غزو جماعة رهبان كلونى وما أتى بعد ذلك إلى تعديل الملامح المستعربة – الإسلامية لشبه الجزيرة فى المنطقة المسيحية ، فقد حلت الطقوس الرومانية التى تستخدمها جماعة كلونى محل الطقوس السابقة وتم تغيير طريقة الكتابة والأسلوب المعمارى وفنون الأدب رغم أصالة بعض النماذج المحلية (إذ كانت ملحمة السيّد أفضل شىء فى عصرها) وتم اللجوء إلى المصادر الفرنسية (المسرح الدينى وبعض أبحر العروض والموضوعات الدينية والدنيوية ذات الصبغة العالمية) ، ورغم أن الإسبان

بدءوا ينامون على المرتبة بدلاً من المَدْرَك العربى فقد ظلوا محافظين على همّتهم وتضحياتهم البطولية .

انتشرت الأديرة التابعة لجماعة كلونى ابتداء من سان خوان دى لابيينا وحتى جليقية ، وكان ذوو الحاجة يجدون فى هذه الأديرة ما يعينهم ورغم ذلك فالأمر المهم " هو العمل على زيادة عدد المسافرين والحجاج من الأغنياء الذين يدفعون بسخاء مقابل ضيافتهم " (٧٠) ووصل الأمر أن كان لبعض الأديرة - مثل دير ساهاجون - أملاك واسعة تبرّع بها هؤلاء الذين يبغون الخلاص الأبدى من خلال تضرّعات الرّهبان لهم ، وهذا يدل على أنه إذا ما كان الشعب ينظر إليهم نظرة ريبة فإن للأغنياء نظرتهم المختلفة ، ولقد تبرّعت الكونتيسة تيريسا دى كاريّون ابنة حفيدة الملك بيرمودو الثانى، ملك ليون ، وأرملة الثرى جومث دياث (٧١) لجماعة كلونى بإهدائها دير سان ثويل دى كاريّون عام ١٠٧٦م وقالت " وصلت إلى أسماعنا نحن الذين نقيم فى إسبانيا شهرة جماعة كلونى وشهرة الراهب / هوجو قدّيس تلك الجماعة ، وأن رهبانها يعيشون لتقديس الله وعبادته فى إطار القواعد التى وضعها الراهب وأخذوا يسيرون فى طريقهم إلى السماء دونما وجل أو ضجر " ؛ وفى عام ١٠٧٧ أكدت الكونتيسة هيبتها وقد شهد أسقف سانتياجو على ذلك وهو السيد / دييجو بيلايث (٧٢)؛ وكل هذا يؤكد على أساس أن موضوع رهبان كلونى والحج إلى سانتياجو هما وجهان لعملة واحدة .

وسارت الأرستقراطية على دين ملوكها ، فقد كان فرناندو الأول (المتوفى عام ١٠٦٥م) يدفع لجماعة كلونى مبلغًا سنويًا قدره ألف مثقال من ذهب mencal ، كما ضاعف ابنه المبلغ ، وهذا دليل على التبعية الروحية وذلك ما تعكسه العبارة التالية " إلى هوجو راهب كلونى والشعلة التى تنير النار الرّبانية وبحر العسل والطلاوة " ؛ كما أننا قد عرفنا أسباب هذه التبعية ، إلا أننا يجب أن نضع فى اعتبارنا أنهم لم يشعروا بانتقاص قدرهم فالكاثوليكية الحقّة تزيل الحدود فى مملكة الله ، وعموما فالاستسلام لكلونى يعنى التنازل عما يمكن أن نطلق عليه اليوم مناطق سيادة ، ذلك أن الرهبان

كانت لهم مؤسساتهم المستقلة تمامًا ، لكن دعم وتقوية الممالك المسيحية أصبح أمرًا ضروريًا وهى ممالك ليس لها سند إلا ملوكها وهذا ما يختلف عن الإقطاعيات الموجودة فى فرنسا ، ومن الأسباب الرئيسية لغياب الإقطاع هو أن السلطة الملكيّة كانت على صلة بالشعب من خلال الموظفين اليهود والمسلمين (انظر الفصلين العاشر والثانى عشر) كما لم تكن هناك مراكز للثروة الاقتصادية والثقافية يتم من خلالها تنظيم الحياة العامة ، وهنا نجد أن نتاج القيم الإنسانية يتسم بقِلّته عند مقارنته بنهر المعجزات الإلهية ، فلقد كان سانتياجو أكبر صانع للخوارق ، فهناك كل من القديس فاكوندو والقديس بريميتيبو فى ساهاجون ، والقديس ميّان فى ريوخا ، وكذلك العديد منهم ، كما كان هناك صانعو المعجزات من البشر الحقيقيين ، ففى عام ١٠٨٣م أعطى الملك ألفونسو السادس " عباءة القديس سان خوان ومقرًا للإقامة يقع عند البوابة الشرقية لمدينة برغش " (٧٣) إلى أحد الزّهاد الفرنسيين ، فقد كان رجلاً يمتطى حمارًا ويأتى ببعض المعجزات أمام الملك ، ومن المعلوم أن مقر الإقامة كان يقع فى طريق الحجيج ، ولقد كانت إسبانيا فى ذلك العصر مُتْرعة بالمفاهيم الدينية بسبب إضفاء الطابع الإسلامى عليها ، وكادت تصوم عن تأمل عالم المُحسّات ؛ إذن لم تكن المفاهيم الدينية السائدة فى العصور الوسطى والتى تتسم بدرجة من الانسجام فى أوربا الغربية هى التى حددت ملامح إسبانيا ، فمفهوم العصور الوسطى - دينيا - هو نوع من التجريد لا يساعدنا إلا فى القليل عندما نجد أنفسنا أمام الواقع اليومى لمجموعة من البشر فى ظل ظروف معينة ، فلم يكن التجريد الخاص بالعصور الوسطى هو ما يميّز الحياة الإسبانية بل ذلك الخلل الكبير بين الولع بما وراء الطبيعة والاهتمام بالفكر ونتائجه الموضوعية ، وهو خلل ظل مؤثرًا على الحياة الإسبانية حتى الوقت الراهن ، ولقد سيطرت المفاهيم الدينية وكانت لها الغلبة ، بالمقارنة بمفاهيم الحياة اليومية ، خلال القرن الحادى عشر ، كما كانت الغلبة للأدب والفن على حساب العلوم خلال القرن السابع عشر ، وفيما يتعلق بأية وحدة تاريخية (الشعب مثلاً) فإن كل ظاهرة من الظواهر ترتبط بما يحيط بها وبالتالى فإن التديّن الذى كانت تعيشه إسبانيا القرن الحادى عشر ليس مماثلاً لما كان فى فرنسا خلال نفس الفترة ، ولم يكن الإنتاج الأدبى

خلال القرن السابع عشر مماثلاً للأدب المعاصر له فى أوربا ، وقد شهدنا فى فرنسا محاولة لإيجاد نوع من العبادة القائمة على العثور على رأس يوحنا المعمدان ، ويبدو أن هذا الحدث هو أحد الملامح العامة للعصور الوسطى من الناحية الظاهرية ، إلا أننا سرعان ما نرى الرّاهب أديمار يخرج علينا بانتقاداته التى نسقت الموضوع ، وفى بداية القرن الثانى عشر كان دير سان ميدرادو Soissons يعرض أحد الأسنان اللبنية ليسوع الطفل ، وهنا نهض رئيس دير Nogent Sous-Coucy ضد هذا الأمر وحاول تأليب باقى الرّهبان "..Attendite falsari" ؛ ويقول الوضعيّون إنها المنافسة بين الرهبان ، لكن ألم يكن هناك شيء مشابه لذلك فى إسبانيا وربما أكثر قوة ؟ غير أن الأدقّ فى الأمر القول بأنه كانت توجد بين الرهبان الفرنسيين (خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر) بذرة الشك التى عند جان دى مينو Jean de Meung وعند ديكارت وفى الموسوعة ، أى أن فرنسا كانت هى نفسها خلال القرن الحادى عشر وخلال الثامن عشر ، مع مراعاة مرور سبعمائة عام ؛ ولما كانت فرنسا على ذلك الحال فإن ملحمة رولدان غير ملحمة السيد ، كما لا يوجد فى فرنسا بطل قوميّ من لحم ودم مثل رودريجو دياث (بطل ملحمة السيد) أو القديسة تيريسا أو ثيرفانتيس بل كان هناك ديكارت وراسين وفولتير .

وينبغى أن نولى المزيد من الاهتمام لنؤكد على أن المشاعر الدينية فى كل من فرنسا وإسبانيا كانت متباعدة بشكل واضح رغم وجود السمات المشتركة وهى العصور الوسطى رغم عدم دقّتها ، ففى عام ٩٨٧م تم تنصيب روبرتو الثانى الملقّب بالشّفوق ملكًا على فرنسا ، وكان هذا الملك هو أول من استطاع مُداواة داء الخنزير escrofulas بأن يضع يده ويُحْدث علامة الصليب ، وقد صحبت هذه الصفة فى تحقيق المعجزات الأسرة الملكيّة الفرنسية طوال القرن الحادى عشر وكذلك خلال القرن السابع عشر ، فروبرتو الثانى بن المغتصب هوجو كابينو لم يشعر بالأمان على عرشه وكان يخشى أن يجادله أحد فى شرعية الأسرة المالكة الجديدة وبالتالى نجد الأوفياء من أتباعه ينسبون إليه قدرته على مداواة داء الخنزير أو داء البقعة Lamparon كما كان يطلق عليه فى إسبانيا ، وإذا كان الملك مغتصبًا للعرش لم يكن الله ليمنحه هذه المعجزة

فى شفاء المرضى [٧٥] ، ورغم أننا قد نسلّم بأن ذلك كان التجديد المفاجأة فما يهم الآن هو النظر إلى الوجه الآخر للظاهرة والخاص بقيام أسرة ملكيّة - هى Capetos - باغتصاب القدرة على شفاء داء البقعة ، وفى عام ١٠٠٠م عمّ الذّعر بين الناس لخوفهم من أن نهاية العالم قادمة لا محالة ، وحلّت ثقتهم فى كل شىء ما عدا أنفسهم وهنا يظهر بعض الفرنسيين الذين رأوا من المفيد ومن الممكن إلصاق قدرات خارقة بإنسان من البشر وقيامه بصنع المعجزات التى لا يقوم بها إلا من اصطفاهم الله ، إذن فقرار إضفاء بعض الصفات الخارقة على ملوك فرنسا يحمل فى طياته الرضا عن سلالة ملكية ويعبّر عن مصلحة وطنية تستند إلى مكان وزمان معيّنين وعلى أن هناك حُقنة سماوية قد أُعْطيت لواقع يعيش به الناس على أرض الواقع ، وإذا ما بدا لنا أن القدرة على شفاء مرض البقعة أقوى من تدخل سانتياجو ، فلو فكّرنا فى الأمر بُرهة لكان عكس ذلك تمامًا ، فمن خلال ممارسة تلك الطقوس يظهر الأمر وكأنه تقنين وتنظيم لقدرات خارقة بشكل يستحيل على البابا القيام به .

وقد التقطت الأسرة الملكية النورماندية فى إنجلترا هذه الفكرة ووجدت لها جدوى كبيرة ، ومن هنا نجد الملك إنريكى الأول بيكليرك يبدأ هو الآخر بعلاج مرض البقعة خلال القرن الثانى عشر وينجح فيه مثلما نجح زميله على أرض القارّة الأوربية ، والاستثناء الوحيد هو الاختراع القائل بأن آخر ملوك الأنجلوساكسون - إدواردو ألكونفيسور - كان يداوى مرض البقعة ، وبذلك نرى أن كلاً من هذه المعجزة وقصة الملك آرثر قد أسهما فى دعم ومساندة الأسرة النورماندية على الأراضى الإنجليزية دون الحاجة إلى البحث عن مساندة سماوية ، وقد بدأت كل مَن إنجلترا وفرنسا حياتهما الحديثة بالارتباط بالمصالح الدنيوية .

كان الملوك الفرنسيون يشيعون - بحريّة - قدرتهم على العلاج ، لدرجة أن بعض الإسبان كان على وشك أن يلحقه " مَسّ " من الملك ، وهناك ما يدل على استمرار ذلك حتى عام ١٦٠٢م [٧٦] ، لكن ردّ فعل الإسبان الذين هم ليسوا بحاجة إلى ذلك النوع

من العون كان السّخرية والاستنكار ، وهناك مثال على ذلك فى القصيدة cantiga رقم ٣٢١ للملك ألفونسو العالم ، فقد كانت هناك طفلة تعانى ذلك المرض فى قرطبة :

كان مرضًا شديدًا للغاية

وكان مركّزا فى الحنجرة

ويطلقون عليه مرض البقعة .

ولم يتمكن الأطباء من علاجها ، وهنا تقدم " رجل طيب " إلى أمها ونصحها بأن تذهب بها إلى الملك :

ذلك أن كل الملوك المسيحيين

لديهم جميعًا تلك الخصال

وهانحن نرى ردّ الملك :

بالنسبة لما تقولين وتسألين

أجيبك وأقول...

A esto que me dizedes,
vos assí, e digo
que o que me consellades,
sol non val un muy mal figo,
pero que falades muito
e tan toste como andoriña.
Ca dizedes que vertude
ei, dizedes neicidade .

كان الرجل الطيب يتحدث بعفوية حديثا يكاد يكون لغوًا ، وبدلاً من ارتكاب حماقة الإرشاد بأن الملك يشفى الأمراض فقد أمر هذا الأخير بأن يذهبوا بالطفلة إلى " حضرة العذراء " .

الملفوفة

فى الأقحوان القانى

والعلاج هو غسل تمثال العذراء والطفل يسوع بالماء ثم وضع السائل فى الإناء " الذى يعدّون فيه دم الرّب من نبيذ الكروم " ثم يقدّم للطفلة فى صورة جرعات وتستمر الجرعات بعدد الأيام التى تماثل عدد الحروف فى اسم العذراء María، وبعد أربعة أيام ذهب عنها المرض .

تتسم الحكاية بالطرافة ، ومن السفاهة الظن بأن إنسانا يستطيع تحقيق المعجزات لمجرّد أنه ملك، لكن يدخل فى باب الطّيبة صنع مشروب به مكونات مسيحية بعد أن تم التوصل إليه تطبيقًا لأفضل قواعد السحر عند المسلمين واليهود ، وعلينا رؤية الأمر وكأنه لعبة قوى وأحداث تخرج عن نطاق الفرد ، كما أن اللغة نفسها تعبر عن ذلك فالعذراء تظهر " ملفوفة " فى عباءتها الأقحوانية وترسل ببركاتها من خلال الماء الذى تلمسه ثم يتحول الماء إلى Cáliz وهو أكسير القدرة الإلهية ، كما أن أحرف اسم María لها تأثيرها حسب عددها ، فالأشياء ليست كما نراها بل هناك جوهرها ، إذن فكل واحد من هذه الأشياء ينزلق فوق الآخر وهذا ما نراه عند المسلمين فالجوهر الوحيد هو الله (٧٧) أما الواقع الطبيعى فهو تتابع للأشكال ، وكل شئ ينصبّ " خارج " شئ آخر ليجد نفسه " خارجه " أيضا وهكذا إلى مالا نهاية، أى أننا نشهد فن الأرابيسك الذى ليس له موضوع آخر اللهم إلا التتابع اللانهائى ، وكانت تلك هى رؤية الملك ألفونسو العالم لبينية العالم الطبيعى عند النظر إليه على أساس أنه واقع وروح موضوعيّان، لكن المُلفت للنظر هو أن تلك الممارسة السحريّة - التى أشرنا إليها - تقع فى دائرة نشاط ملكى وليس فى دائرة " الشعوذة " حيث تتحدث النساء من وراء النار، فلم تكن هناك حدود فاصلة بين ما هو ملكى وما هو شعبى سواء أثناء ذلك الزمان أم بعده ، ومن هنا ندرك السّر فى وصف محاولة الملوك الفرنسيين (بإلصاق صفات خارقة لأنفسهم) بأنها بَلْهاء ، ولقد كان الملوك الإسبان يباعدون أنفسهم عن فكرة البناء السحرىّ للعالم ، وكانوا يتمثّلون مفاهيم الماورائية ويبسّطونها ويحوّلونها إلى " جوهر " ملكىّ وليس إلى لعبة ظاهرية يسيطرون بها على الإنسان ، فلم يكن من الممكن تَقْنين ما هو إلهى أو إضفاء صفة الإنسانية عليه وإلا لكان معول هدم لكل النظام الإسبانى بدءا بسانتياجو ، وهو اعتقاد لم يجرؤ أحد على القول بأنه زيف قبل عام ١٦٠٠م ، فالملوك الإسبان لا يرتبطون بأنفسهم بل بالعذراء وسانتياجو وسان ميّان.

ولقد كان من السهل أن يأتى الحجاج إلى سانتياجو ، وكان من السهل الانتصار على المور بفضل الهمّة المتوقّدة والإقدام ، والأكثر من ذلك دقة هو المواءمة بين المنح الرّبانية وأمور الحياة اليومية، ومن هنا تمّ الاتصال برهبان جماعة كلونى الذين لم يتأخروا فى الحضور ، وقد كان من غير العدل أن ننتظر من الرهبان الإسبان القيام بتنظيم ممالك حدودها غير مأهولة بالسكان وأرضها قد دمّرتها الحروب وأصبحت غير قادرة على الإنتاج مثلما كان عليه الحال عند اليهود والمسلمين ،فالثروة المسيحية عادة ما يكون مصدرها غنائم الحرب ضد المشارقة أو عوائد الحجاّج إلى سانتياجو ، وقد ظن ألفونسو السادس أن رهبان كلونى سوف يحلّون مشاكل السماء ومشاكل الأرض بضربة واحدة (٧٨) لكنه لم يخدع إلا نفسه ، فالراهب الذى اعتزل الدنيا يمكن أن يكون قدّيسًا أو عالمًا ، غير أن الجماعة الدينية هى عبارة عن مؤسسة مرتبطة بمصالح الفترة الراهنة ، ومن هنا نجد أن رهبان هذه الجماعة كانوا فى خدمة المصالح السياسية لدوقيّة بورجونيا ، ولا يمكن أن نبنى التاريخ بالبكاء على الأطلال أو التغنّى بها ، ولذلك فإن أهم النتائج المترتبة على مجىء رهبان كلونى دخلت - للأسف - فى باب السياسة، فقد ساعد رئيس هذه الجماعة على زواج ألفونسو السادس بابنة دوق بورجونيا وتدعى كونستانسا ، وبعد ذلك تزوجت ابنتا الملك - أورّاكا وتيريسا - بالكونت رامون والكونت إنريكى ، إذن نرى أمامنا ليون وقشتالة تَفِرّان من المحليّة (ذات الطابع الإسلامى) والتراث الخاص بالمستعربين ، لتسقطا فى شباك بورجونيا وكلونى ، وفى الوقت الذى كان الإسبان يحاربون فيه المرابطين تحت حماية سانتياجو نجد أن الأبرشيات قد امتلأت بالأساقفة الفرنسيين وكان أغلب هؤلاء ممّن ينتمون إلى جماعة كلونى ، أما التاج الخاص بألفونسو السادس فقد أصبح على وشك الانتقال إلى أجنبى هو رامون البرجونىّ ، وأسبانيا بالنسبة لجماعة كلونى هى الأرض المقدسة الثانية - حيث من الممكن أن تُقام فيها مملكة مثل مملكة القدس كما أنها قريبة من جبال البرانس ، وهنا نجد أن الأهداف الفرنسية المتعلقة بنظامها كانت فى عام ١١٠٠م تشبه تلك التى تصبو إلى تحقيقها عام ١٨٠٠م ، فقد تمثل نابليون ذلك الأمس البعيد فى شخصية راهب الرهبان / هوجو دى كلونى .

اجعلوا البرتغال مستقلة :

سوف نقص الآن وقائع أحداث تاريخية يجب ألا تغيب - فى مجملها - عن أذهاننا ، فلقد ظهر سانتياجو فى جليقية كإبداع حقيقى يضارع فى عبقريته وأصالته أعظم الأعمال الفنية مثل دون كيخوته أو مهملت ، وقد تلاشت العوامل التى كانت السبب فى ظهوره ، وسانتياجو الذى نتحدث عنه لا يرجع فقط إلى الضرورات التى جعلته يتخذ الشكل المسيحى - الوثنى بل كان له وجود فردى ومستقل ، فعندما ولد فى دائرة الاعتقاد بسط كراماته السياسية والدينية ، كما أن ثراء شخصيته جعله مقبولاً خارج إسبانيا بنفس الدرجة التى هو عليها فى الداخل ، ونظرا لأصالته فقد فشلت كافة المحاولات الرامية إلى إحلال مُعتقدات أخرى محله ، وهذا ما رأيناه فى حالة Saint- Jean d'Angely ، وكان الحج إليه محصلة هذه الصلاحية والقبول الدوليّين ، وفى مجراه العريض سارت الشفقة والصيت والفساد والثروة ، وقد شجعت أكيتانيا وبورجونيا الحج لتحقيق أطماع خاصة بهما تتمثل فى السيطرة على إسبانيا المسيحية (٧٩) ، كما أدى ضعف ألفونسو السادس واستعجاله فى الإعلاء من شأن مملكته إلى أن يُستخدم كأداة طيّعة فى يد السياسة التى تنتهجها كلونى ، وهى نفس الأهداف التى كانت عليها دوقيّة بورجونيا ، فتزوج فى بداية الأمر من إينس Inés، من أكيتانيا { وهذه الفعلة هى من تأثيرات جماعة كلونى من خلال دوقيّة أكيتانيا ونابارّة} ، ثم تزوج ثانية من كونستانسا ابنة دوق بورجونيا ، كما أن صهْرَيه إنريكى ورامون كانا على صلات قرابة بالأسرة الدوقية فى بورجونيا مثلما هو الحال فى قريبه / هوجو كلونى رئيس الجماعة ، وقد أصابت وفاة الكونت رامون وريث المُلْك خُطَط كلونى بشأن ليون وقشتالة بضربة قوية ، وهى خطط أخذت تتركز آنذاك على البرتغال تلك الإقطاعية التى منحها ألفونسو السادس لصهره الكونت إنريكى ، ومن هنا نرى أن استقلال البرتغال كان شديد الارتباط بالاعتقاد فى سانتياجو ولكن بطريق غير مباشر رغم وضوح معالمه.

وبعبارات ملؤها الدّقة كتبت السيدة ميكايليس دى باسكوثيّوس ، وكتب تيوفيل براجا يقولان " بأن الأحداث وحدها هى التى جعلت من البرتغال دولة مستقلة وتغذى أهلها شيئًا فشيئًا على أنهم شعب مختلف " (٨٠) ، غير أننا يجب أن نرى تلك الأحداث تحت الضوء غير المباشر الذى يسلطه عليها موضوع القديس الرسولى سانتياجو والإمبريالية التابعة لبورجونيا ، فلقد جاء الكونت إنريكى إلى إسبانيا مدفوعًا بنفس الأسباب التى جعلت جماعة كلونى تقيم أديرتها فى الأماكن الاستراتيجية فى طريق سانتياجو ، وللأسباب نفسها تزوج من تيريسا التى هى ثمرة رباط غير شرعى لألفونسو السادس ، وأخذ الأراضى الواقعة جنوب جليقية كإقطاعية له ، وقد كان إنريكى يَحْسُد ابن عمومته رامون الذى ارتبط بالابنة البكر والشرعية / أورّاكا ووقعت بينهما مشادّات خطيرة كانت لها آثارها الوخيمة على سياسة كلونى ، فأرسل رئيس الدير / هوجو أحد رسله الذى تمكن من التوصل إلى اتفاق مع كل واحد منهما والذى بمقتضاه أنه بعد وفاة الملك سوف يتقاسمان ثروات طليطلة مناصفة ، كما سيضع إنريكى يده على طليطلة كإقطاعية له ، وإلا فلتكن جليقية البديل ، غير أن وفاة رامون البرجونى ضيّعت الاتفاق ، ثم توفى الملك عام ١١٠٩م فتولت مكانه أرملته أورّاكا حتى بلغ ابنها ألفونسو السادس سن الرشد ، وقد خشى كثير من النبلاء ألا تتمكن امرأة من مواجهة المخاطر المحدقة بكل من ليون وقشتالة ، وبالتالى نصحوا أورّاكا بالزواج من ألفونسو الأول ملك أرغن ، وربما كان دافعهم فى ذلك هو إحداث توازن مع التأثيرات الفرنسية ، وكانت فكرة الزواج ممتازة من الناحية النظرية حيث كان الهدف هو جمع شمل إسبانيا تحت إمرة مملكة واحدة ، إلا أننا لم نكن قد وصلنا بعد إلى زمن الملوك الكاثوليك ، فأدّت تلك الزّيجة إلى خلق عداوات كثيرة ، فمن ناحية نجد أن ألفونسو الأول لم يتولّ عرش المملكة بل قُضِيَ عليه وكأنه أحد الغزاة الذين خلت الرحمةُ من قلوبهم ، ووقفت كنيسة سانتياجو ورهبان كلونى ومقاطعة البرتغال ضد الملك الأرغن ، ولا نعلم حتى الآن شيئًا عن الخلفيات الداخلية لتلك الأحداث ، إلا أنه من المشروع الاعتقاد بأن الفوضى الناجمة عن هذه الحرب الشعواء تعود إلى استحالة المواءمة بين الأكليروس الفرنسى وبين شخصية كل من مملكتى ليون قشتالة والعنف

الذى مارسه ألفونسو الأول ، فقد قتل بيديه أحد النبلاء الجليقيين الذى احتمى بتنّورة أورّاكا ، حيث كان ينظر إلى هذا الوضع على أنه مجال لايمكن اختراقه ، وقد أفاد الكونت إنريكى إفادة بالغة من هذه الفوضى (توفى عام ١١١٢م) ومعه فى ذلك أرملته تيريسا التى تلقّبت بالملكة اعتبارًا من عام ١١١٥م (٨١) ، وهنا هدأ روعها حيث كانت تعتبر أقل من ناحية المولد والدرجة مقارنة بالملكة أورّاكا أختها من الأب ، أما المصالح الفرنسية فقد حظيت بالمزيد من المساندة فى مقاطعة البرتغال مع مجيء فرسان المعبد Temple ورهبان ثيستور Cistor المرتبطين ببورجونيا ، أضف إلى ما سبق وجود عنصر حاسم يتلخص فى أن إنريكى وتيريسا أصبح لهما وريث هو ألفونسو إنريكيث الذى ظهرت عليه مواهب الفروسية والحُكْم فى سن مبكّرة ، وازداد صقل تلك المواهب فى ظل الظروف المحيطة وهى التمرّد الذى بدأه والده والذى وصفته السّيرة التى كتبها الأسقف رودريجو خيمنث دى رادا فى بداية القرن الثالث عشر بقوله :

" بدأ الكونت إنريكى البرجونى يتمرّد بعض الشيء أثناء حياة الملك ألفونسو السادس ، ومع ذلك لم يسحب تأييده للملك طوال حياته ، وأخذ يزيح المسلمين بعيدًا عن الحدود بكل ما تمكن من سُبُل ، إلا أنه طالب ببسط سيادته ، ورغم ذلك كان يأتى الى بلاط الملك يرافقه أتباعه ليطلب من الملك مدّ يد المساعدة ، وكان ألفونسو السادس يتسامح مع إنريكى فى محاولاته نيل الاستقلال، انطلاقا من السماحة أو الهجران، ذلك أنه أحد أصهاره ، وقد أظهر الملك فى ذلك قِصَر نظر " (٨٢) .

تلك كانت " الأحداث " التى أسفرت عن استقلال البرتغال وأدت إلى خلق الأسباب التى أبعدتها عن قشتالة وليون (٨٣) ، إذن فقد وُلدت البرتغال كمحصّلة لطموحات

إنريكى وسـاندته فى ذلك كل من بورجـونيـا وكلونى ، كـمـا سـاعـد على ذلك ضـعف ألفـونسـو السـادس الذى كـان نـهب الحـروب الأهـلية ، وولدت البـرتغـال ونَمَتْ بفـضل إرادتها فى ألا تكون مثل قشتالة وقد رافق هذه الرحلة الكثير من الأعمال المأثورة وبعض النكبات .

حـاولت بورجـونيـا أن تفـعل بقـشـتـالة مـا فـعله النورمـانديون بإنجلترا قـبل ذلك بسنوات : أى تنصيب أسرة أجنبية على العرش ، غير أن الصّراع ضد المسلمين والطابع الحيوى لقشتالة حالا دون تحقّق المشروع رغم أنهما لم يمنعا ظهور مملكة فى غرب شبه جزيرة أيبيريا ، غير أن هذه المملكة لم تولد من رحم وجودها {مثلما حدث لقشتالة الكونت فرنان جونثاليث} بل من رحم الطموحات الخارجية ، والدليل على ذلك هو أن الجوهر الإسبانى الجليقى فى البرتغال لم يُمَسّ ، وما يدل على ذلك هو غيبة أى نوع من الشعر الملحمىّ فى ذلك البلد ، وإذا ما كانت الإرادة الحربية البرتغالية قد جاءت من بنات أفكار الشعب مثلما حدث فى قشتالة لتحوّل الكونت إنريكى أو ابنه ألفونسو أنريكيث إلى مادة لشعر ملحمى ، غير أن المستوطنين الأجانب لا يمكن أن يخلقوا ملحمة وطنية ، أما الجليقيون القادمون من الشمال فقد ظلوا غنّائيين وحالمين وبالتالى فنزعة الحرب غير أصيلة فيهم ، والقصيدة الوحيدة التى تتحدث عن ألفونسو إنريكيث تتفق مع النموذج الجليقى والنموذج الخاص بالقدّيس الرسولى : إنها تعبر عن انتصار أوريك Ourique (١١٣٩م) ، وبعده أُعلن عن تنصيب ألفونسو ملكًا ، وقد وقع ذلك يوم ٢٥ يوليو ، أى يوم الاحتفال بذكرى القديس الرسولى ، كما أن المسيح نفسه قد تجلى أثناء المعركة وترك بصمة]علامة على الجروح الخمسة عند صلبه [على أطراف التّرس البرتغالى [٨٤] ، وصنعت البرتغال نفسها من خلال حروبها مع المور على الحدود الجنوبية ، وكانت معها قشتالة فى المؤخرة ، وقد تنامى الإحساس لدى هذه المقاطعة من قشتالة بأنها مدينة محاصرة لن تتمكن الملكيّة القشتالية الضعيفة من السيطرة عليها خلال العصور الوسطى ، ولم تتكمن من تمثُّل إسبانيا فيليب الثانى (العظمة التى تطاول السحاب) ، كما أن الغيرة من قشتالة والنقمة عليها صنعتا البرتغال التى ولدت بفضل الدفعة القوية التى هيأتها لها بورجونيا خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر .

أما جليقية – الأخت الكبرى – فقد ظلّت على سلبيتها وعاشت تتمتع بثروات جاءت إليها عن طريق القديس الرسولى ، كما حظيت بأصداء التكريم الذى يقدمه الحجاج للقدّيس فقد كانوا يتصارعون على الصلاة إلى جوار القبر المقدس ، وأحيانًا يقتل بعضهم بعضًا ، وبالتالى كان لابد من تبعية المكان لكنيسة روما ، وكانت تلك مهمّة معقدة ، ووصل الأمر بالبابا إلى تبسيط الأمور نظرًا لكثرة المشاكل التى تحدث ، وبقيت جليقية ساكنة بلا حركة إذ كانت تحصل على ما تريد دون أن تفعل شيئا : كان يزورها الملوك والنبلاء ، ويرد إليها البذخ ، ويكثر فيها الشِّعر الذى يقرضه الشعراء الجوّالون ، وكانت بها تجارة نشطة ، وتتلقى هبات لا يتوقف سيلها ، أما سِكّة اللبّانة التى يتنقل فيها حصان القدّيس فقد استقرّت فى أعماق الروح الجليقية ولم تكن بحاجة لمساعدة فرسان المعبد أو مساعدة بورجونيا – وبالتالى لم تخرج من أرضها طلبًا للتوسع وأن يكون ثمن ذلك إراقة الدماء ، كما أن الجليقى لم يتوجه حتى لغزو البرتغال الشقيقة ، لكن لا يعنى هذا أن الجليقى – بدءا بأساقفته – لم يكن يحارب بهمة وإقدام فى المعارك التى يشارك فيها ملوك قشتالة وليون ، ولقد قام الجليقيون بذلك ضد الغزاة النورمانديين ، وقد شارك رجال الدين والفرسان الجليقيون وهم يحملون أرواحهم على أكفّهم فى المعارك الكبرى والاستيلاء على المدن مثل ألمرّية وقرطبة وأشبيلية وطريف ، إلا أنهم لم يشاركوا إلا بصفتهم مساعدين للملوك ، ولم تَغْزُ اللغة الجليقية آفاقًا جديدة مثلما حدث مع البرتغال ، والأمر هو أن الإمبريالية الجليقية كانت مُتَلقِية وغير عدوانية ، أو أنها كانت تهدف لنشر صيت القديس الرسولى فى كافة أنحاء العالم المسيحى . (٨٥)

وعندما جفت ينابيع الرّحمات أخذ الجليقيون – الذين يتسمون بأنهم لّينو العريكة وأن بهم مسحة الحزن – ينتشرون ويهاجرون إلى الأراضى البعيدة وهم يحملون الحب والخير – ولقد تَلَقّت مدينة كومبوستيلا الكثير من المديح والإطراء كأنها روما ، على مدى عدة قرون ، ولكن هذا الفخار لم يهيّئ لها ممارسة كاثوليكية إمبريالية خارج حدودها ورغم ذلك فقد كانت لها أملاك كثيرة فى جنوب فرنسا وإيطاليا وأماكن أخرى فى القارّة العجوز ، ولم يكن " للحبر الأعظم للدنيا كلها " **antistes totius orbis** مجال كما لم تتمكن من احتلال موقع الصدارة بين الممالك الإسبانية .

ولمّا امتد الوضع الحيوىّ من القرن التاسع وحتى القرن السابع عشر كان لابد أن يترك بصماته على أنماط الحياة ، فالقرب الدائم والمعايشة لحالة الغموض التى عليها الضريح ساعدا على وجود مِسْحة من السخريّة والتشاؤم ، وقد كانت هناك أناشيد تُغَنّى تحت قباب الكاتدرائية وتركز على " البعد الإنسانى الساخر والفاسق " (٨٦) ؛ وقد لا حظ ماكيافيلى التناقض بين اللاتديّن فى روما والتواجد الدائم للبابا فى عاصمة العالم المسيحى ، ولقد حدث شىء من ذلك فى جليقية ، حيث ظهرت الحاجة إلى استخدام العقل والتلاعب حتى تتم الإفادة من الحجّاج إلى أقصى درجة ، ومحصلّة ذلك هو أن ساد نوع من الإحباط ، ومعاداة البطولة ، وتوجّه غريب نحو الدّس والتآمر السياسيين ، وتركز أفضل مالدى الشخصية الجليقية فى الشعر الغنائى المفعم دومًا بمسحة من المشاعر الحزينة ، ولم يكن من الممكن زراعة الشعر الملحمى أو الدراما بعد ذلك ، وهى أنواع أدبية لم تصل فيها إيطاليا أيضًا إلى درجة مرموقة ، وليس من باب الصّدفة أن يكون الأديب الأب فييخو Feijo (١٦٧٦ - ١٧٦٤) جليقيًا ، فهو أول إسبانى ذى عقلية نقدية ، ورجل ينقّب عن المعجزات الزائفة والشعوذة الشعبية ، كما كان يتناول الموضوع بجدية تتناقض مع حالة السُّبات التى عاشتها جليقية ، ولقد كانت الصلات بين جليقية وسانتياجو أكثر حيوية من الانتساب إلى السلالة السلتيّة التى تعتبر ذات مفهوم مجرّد بعض الشىء ، فالأرض والسلالة ما هما إلا تجريدات من المستحيل الإمساك بها كما أن التاريخ يتحوّل إلى واقع فى إطار الأحداث التى تقع للناس ، أى ما يحدث دوما وما يُتَوقع حدوثه فى المستقبل .

الأدب واختلال النظام

كانت الحرب المقدسة ضد المسلمين هى السبب الأوّلى للغزو الديرّى القادم من فرنسا ، فقد وصلت أنباء تلك الحرب إلى فرنسا فى بداية القرن الحادى عشر فى إطار هالة من التصوّف الذى يتسم بالازدهار، ويقول رولفو جلابير (المتوفى عام ١٠٥٠م) إن " تعداد الجيش فى زمن سانشو ملك نابارّة كان قليلاً وبالتالى لم يكن هناك مخرج

إلا أن يقوم الرهبان فى ذلك المكان بحمل السلاح " [٨٧] ، لكن هذا المؤرخ يجهل أن السبب فى انخراط رجال الدين فى القتال لم يكن لقلّة عدد أفراد الجيش وإنما كان سيرًا على النهج الإسلامى ، فالجهاد ضد غير المؤمنين كان شديد الارتباط بالمفاهيم الدينية ، وعلى أية حال يتوفر لدينا أول شاهد على الأنشطة التى سيتم تنظيمها بشأن الجماعات المسلحة بعد ذلك بقرنين من الزمان ، ولقد كانوا يعرفون فى فرنسا أن الموت جهادًا ضد المشارقة يقود إلى الجنّة وهذا ما نفهمه من رؤيا أحد الرهبان القدّيسين التى يوردها المؤرخ " ووجد كنيسته وقد امتلأت بالناس وكان الجميع يرتدون جلابيب بيضاء وألفحة حمراء ، وترأس القداس الأسقف الذى يقودهم ، وبعد ذلك تحدث عن أن هؤلاء قد استشهدوا وهم يقاتلون ضد المهاجرين (المسلمين) فى إسبانيا ، وكيف أنّهم قد مرّوا بهذا الدير وهم فى رحلتهم المباركة {Loc. Cit , col. 641] ولولا تلك الرؤى ما تمكن الأسقف توربين Turpin من محاربة المشارقة طبقًا لما ورد فى قصيدة رولدان (حوالى عام ١١٢٠م) :

يااللروعة فالأسقف يحارب باستخدام الرمح (البيت رقم ١٦٨٢)

ولم يكن ليقدر على أن يرفع إلى السماء تلك الأرواح التى تتساقط حوله:-

أدعو لأرواحكم جميعًا أن تصعد إلى ملكوت الله

وأن تكون بين زهور جناته المقدسة {البيتان ٢١٩٦ - ٢١٩٧}

وهكذا نعيش جوًا من المعجزات يحيط بالأرض التى عليها رفات القدّيس الرسولى، والتى قصدها الكثير من الحجاج الذين يتفوق عددهم على الصليبيين ، إذ نجد أن أوربا المسيحية لم تساعد إسبانيا إلا بالقليل ذلك أن ضريح المسيح لم يكن فى أشبيلية ، أما ضريح سانتياجو فقد كان طريقه معروفًا ، ولم نر الكفاح إلا فى أبيات الشعر حيث حارب شارلمان لجعل الطريق مفتوحًا للجميع .

كما أن الجو الليبرالى الذى عاش فيه الملوك ، والفئات الاجتماعية الأدنى ، مع الأديرة التابعة لبورجونيا قد وصل إلى أقصى درجاته خلال القرن الحادى عشر حيث

بلغ عدد التبرعات بالأراضى والمناطق المأهولة حوالى ٣٧٥ تبرعًا ، لكن هذه التبرعات هبطت إلى ١٣٨ خلال القرن الثانى عشر [٨٨] وعلى هذا فإن التأثير الفرنسى ظل مكثفًا ، وأصاب الانحطاط مقاطعة كلونى ، كما أن ثيستور - الذى أعيد من جديد - لم يعد له نفس التأثير على أصحاب المزارع ، وقد نشأت رئاسة دير سيتو Cîteaux وديجون Dijon عام ١٠٩٨م تحت رعاية دوق برجونيا ، كما فاز الزهد والتصوف بأقصى نجاح وذلك بفضل عظمة شخصية برناردو دى كلارابال B. de Claraval، أما ألفونسو السابع - الذى نسيته دوقية كلونى - فقد ركّز جهده مع الرهبان البيض الجدد حيث انتشرت أديرتهم بشكل واضح خلال القرن الثانى عشر ، وهى أديرة يمكن أن نبرز منها - معماريًا - دير بوبليت Poblet فى قطالونيا ودير لاس أويلجاس Las Huelgasفى برغش ودير أنكوباسا فى البرتغال ، أما إسبانيا فلم تزل - آنذاك - غير قادرة على التوصّل إلى أنماط وطنية تستطيع من خلالها التعبير عن مشاعرها الدينية، فكانت تخرج من سجن بورجونيا لتدخل آخر ذا قيمة أعلى رغم أنه ليس له علاقة بطريق سانتياجو ، وأخذت أوضاع كلونى تتدهور على طول طريق سانتياجو ، ومن هنا يمكن أن ندرك سرّ الدعاية القوية التى بدأ بها أولئك الرهبان والمتمثلة فى تزييف ما أُطلِقَ عليه " المخطوطة الكالستية " التى نسبت إلى البابا كالستو الثانى ، ويتناول جزء من تلك المخطوطة القديس الرسولى وأعمال الحج : هناك مواعظ تتناول سانتياجو ، وهناك صلوات وطقوس ووصف للطريق الموصل إلى كومبوستيلا وهو وصف يمكن أن نقول عنه إنه أول دليل سياحى مكتوب فى أوربا [٨٩] ؛ والجزء الأول هو فى واقع الأمر " كتاب عن سانتياجو " ، وهو كتاب أقل أهمية من الناحية الأدبية إذا ما قارنّاه بكتاب " سيرة توربين المزيّف " مع ما يتضمنه من الحكاية المفترضة والخاصة بشارلمان ورولدان ، وتعلى الرواية المذكورة من شأن الإمبراطور الذى غزا إسبانيا وكذا رولدان بطل رونثيسباييس ، لكنها لا تكاد تشير إلى سانتياجو رغم أن الموضوع يتناول أماكن تقع فى طريق الحجاج ، وأعتقد أن خ. بيديير Bedier .كان على حق عندما ربط بين هذه السيرة وبين طريق سانتياجو ، بينما نجد ميريدت جونس Meredith-Jones يرى أن الهدف هو حفز الهمة للقيام بحملة صليبية ، إلا أن إطلاق صفة حملة صليبية على

أحداث وقعت على طول " الطريق الفرنسى " يدعونا للتساؤل :ألم يكن ذلك بمثابة نداء فعّال للقيام بارتياد ذلك الطريق ومشاهدة الضريح المقدس فى حالة عدم توفّر النية لمحاربة غير المؤمنين ؟ ولقد كانت الكتب التالية وهى " سيرة توربين المزيف " و " قصيدة رولان " والملاحم الإسبانية التى أشرنا إليها وكذلك العديد من الكتب الأخرى مجرّد دعاية مباشرة أو غير مباشرة تهدف إلى دعم مصالح كلونى التى أخذت تتدهور خلال القرن الثانى عشر ، ولقد أخذت المعتقدات فى القديس الرسولى تكتسب أبعاداً لم تكن محسوبة فى الأدب الأوربى ، فقد كانت سبباً غير مباشر فى ظهور أجمل الملاحم الفرنسية .

ويجب ألا ينتهى الأمر بنا بتصوير القرنين الحادى عشر والثانى عشر على أنهما قد خضعا للتأثير الرهبانى لبورجونيا ، فلقد طلب هذا التدخل ملوك حَسُنَتْ عقيدتهم وكانوا يعملون على أن تكون صلتهم بالرّب جيدة ولصالح شعوبهم ، وهذا يمكن أن يتأتّى عبر الرهبنة الحرّة بدلاً من تركيز الجهود فى البحث عن العون لدى الأكليروس التابع لكنيسة روما ، ولم يكن فى مثل هذا النوع من التصرّفات أى خلل فمملكة الله ليس لها حدود ، إلا أن الملك ألفونسو السادس قد أُرْغِمَ على الرضوخ للضغوط التى يمارسها البابا جريجوريو السابع ، حيث قام بتغيير الطقوس المستعربة وإحلال طقوس روما محلها ، وتم القضاء نهائيًا على الأولى من خلال العمل المشترك بين البابا ورهبان كلونى ، ولم تكن هناك مقاومة من قِبَل الرهبان ، ولأول مرة يلاحظ الملوك الخواء فى الحياة الإسبانية ويعملون على ملئها ، ومن هنا نشأ الاتجاه للاتصال بالخارج وطلب المساعدة التى أضحت معلومة وظاهرة خلال القرون التالية والتى تجسدت أبرز مظاهرها فى الأيراسمية Erasmismo خلال القرن السادس عشر ، وفى " الثقافية الفرنسية Culturalismo خلال القرن الثامن عشر ، وفى محاولة أوْربا إسبانيا فى بداية القرن العشرين ؛ ولقد شعرت إسبانيا القرن الحادى عشر بحاجتها إلى الفكر التركيبى Constructivo وهو نوع من الشعور بالعجز لم يتم علاجه أبداً ، فرغم هذا الفكر وبسببه استطاعت إسبانيا أن تبدع قيمًا فريدة خارج إطار الفكر رغم أنها كانت تشعر دوما بالكدر من عدم تحقيق الوجود الخاص بها كاملاً إلى جوار كمال الوجود.

ويرجع ذلك الموقف فى حقيقة الأمر إلى الظروف الناجمة عن الغزو العربى ، فلقد كانت إسبانيا – قبل مجىء العرب – تحتفظ بعلاقات عادية مع تلك الجوانب التى يقل فيها الجانب الثقافى فى حوض البحر المتوسط ، وقد كان هناك بعض المثقفين الذين يعرفون اليونانية ، كما ازدهرت التجارة مع بيزنطة حيث وصلت سفنها إلى ماردة وقرطبة وسرقسطة عبر الأنهار الإسبانية ، كما ذهب الإسبان الذين فرّوا من الغزو العربى للتبشير فى أماكن مهمة فى أوربا ، وكان سان برمينيو هو الذى أسس ديَرىْ ريشنو Rwichnau وموورباح Murbach ، كما نقل إلى هذين الديرين الكثير من المخطوطات التى كانت فى إسبانيا (٩٠) كما كان لإسبانيا القدّيس إيسيدرو فى أشبيلية والقديس إيوخينيو فى طليطلة دورٌ مهمٌ إلى جوار الأقاليم الأخرى التابعة للإمبراطورية الرومانية ، ورغم ذلك فمن المستحيل تصوّر مصيرها لو لم تكن قد تعرّضت لغزو المشارقة ، إلا أنه قد حدث ما حدث ، وكان لابدّ للحياة الإسبانية – بالمعنى الدقيق للكلمة – أن تُستأنف فى شمال غرب شبه جزيرة أيبيريا ، لكنها حياة ضعيفة إلى أن تدعّمت بفضل الاعتقاد فى سانتياجو وكأنه نقيض للمسلمين ، وفى بداية الأمر نجد مملكة ليون تقوم على أسس ذلك المُعْتَقَد ، ثم تليها قشتالة ، وبفضل هاتين لم تتحوّل كل من نابارّة وأرغن وقطالونيا إلى امتداد لفرنسا مثلما كانت عليه الحال مع قطالونيا عند بداية حرب الاسترداد Reconquista ، وقد كان العرب يطلقون على أهل قطالونيا " الفرنجة " {وهو نفس الاسم الذى يطلق عليهم فى ملحمة السيد} ، أما مسيحيّو الشمال فقد أطلق عليهم المؤرخون العرب " الجليقيون " وربّما كان السبب فى هذا وجود الضريح المقدس عند المسيحيين ، ويرجع إلى القطلانيين ذيوع صيت شارلمان ، أما بانسبة لباقى الإسبان فهناك الجليقى سانتياجو ولم يكن عدد الجليقيين كثيرا فى إسبانيا الإسلامية حتى يتم تناسى كلٍ من ليون وأستورياس ، غير أن أهل هذين الإقليمين لم يتميزا آنذاك بشئ ينالا به الشهرة ، والعكس صحيح بالنسبة لأهل جليقية وقد تعرّضت نابارة لعملية ضمها إلى فرنسا ، ولم تنتسب تماما لإسبانيا حتى جاء فرناندو الكاثوليكى وضمها إلى إسبانيا (٩١) .

أخذ المسيحيون الذين يعيشون جنوب جبال البرانس يدورون فى فلك فرنسا ، وتأخروا كثيرا فى الوقوف ضد المسلمين ، وقد كان الشمال الشرقى لشبه الجزيرة أكثر تقدمًا من الشمال الغربى (٩٢) ، ومع ذلك ظهرت فى هذه المنطقة الأخيرة القوة التى كانت بمثابة القاسم المشترك فى توحيد صفوف المسيحيين خلال القرن الحادى عشر والذين كانوا يتسمون بالجلافة والانقسام على أنفسهم ، واستطاعت حكومة ليون بفضل تلك القوة أن تكتسب ملامح الأمة وأن يتوفر لديها مثال ، يتجاوز حدود المقدرة الإنسانية ، استطاعت به مواجهة العدوّ ، ولا يمكن أن نفهم الميول الإمبريالية لملوك ليون بدون الحماية الإلهية ، وعادة ما يصعب فهم إطلاق أعلى ألقاب الأكليروس الكنسىّ على أساقفة سانتياجو ، كما قامت إسبانيا العصور الوسطى على معتقدات " ماوراء الطبيعة " وكانت واعية لفقرها فى العناصر الإنسانية بما فى ذلك تلك التى تتولى رعاية المصالح الإلهية وانضمت البلاد إلى باقى أوربا بفضل الرهبان الذين أتوا من الخارج وذلك فى فترة عانت فيها الكدر والضيق فى سبيل تأكيد وجودها وشعورها أنها ليست كما ينبغى أن تكون ، وتعتبر عملية خروجها عن ذاتها وشرنقتها ثم انكفائها بعد ذلك على نفسها وطبيعتها التى لا يمكن مداراتها بمثابة الملامح الأساسية لما هو إسبانى ، وبفضل هذه السّمة نجد أن إسلام قيادها للأجنبى لم يؤد أبدا إلى تخليها عن طبيعتها حلوة أو مرّة ، ولقد وقفت الروح القشتالية حائلاً دون ذلك وأصبحت المعقل الأخير الذى لا يمكن للمؤرخ أن يضع يده عليه .

نرى هذه العملية بوضوح شديد خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، فكل من كلونى وثيستور لم تتمكنا من تعديل المفاهيم الدينية الإسبانية ، ولم يتمخض عن وجودهما فى إسبانيا ظهور أسماء ذات شهرة عالمية ، ولقد ركّزت الأديرة التابعة لطائفة كلونى اهتمامها على صراعات لا طائل من ورائها سواء كانت بين الرهبان أو بين الرعية والملوك ، وبذلك لم تَفُزْ أىّ من هذه القوى بالمعركة ، وربما كانت رئاسة دير **Sahagun** أفضلها جميعا وهى التى اختارها ألفونسو السادس لمراسم دفنه ، وحول ذلك الدير أقيمت مساكن عاش فيها أناس من كل صوب للإفادة من الثروات الآتية من طريق سانتياجو وكانوا من " الجاكسون والألمان والبريطانيين والإنجليز وأهل بورجونيا

والنورماند والطولوزيين والبروفنساليين واللومبارديين وآخرين غيرهم من التجار الذين وفدوا من بلاد مختلفة " (٩٣) ؛ ويساعدنا ذكر هذه الأسماء على تصوّر الظروف الاجتماعية ومنهج الحياة على طريقة القديس الرسولى ، إذ كان كاهن ساهاجون يقود هذه الجماهير غير المتجانسة والتى كثيراً ما تقف ضد سلطة الدير ، وبعد وفاة ألفونسو السادس (١١٠٩م) تمرّد " البرجوازيون "وعمت الفوضى المنطقة التابعة للدير واستمر الأمر على هذا الحال لفترة طويلة ، ثم قام ألفونسو الأرغنّى بغزو كل من قشتالة وليون ، وهنا أخذت الجماعة الدينية تعانى المتاعب وبعد ذلك بدأ التمرّد واستمر، وكأنه أحد الأوبئة ، حتى القرن الثالث عشر ، ولسنا الآن فى حاجة للبحث عن تفاصيل وإنما علينا أن نلاحظ كيف تحوّل المقصد الأساسى من مجيء الراهبات {تنظيم الحياة وربطها بمبدأ روحى} إلى صراع مرير حاول فيه كل طرف الإفادة من الثروة التى هبطت على الطرف الآخر :

" كان البرجوازيون فى سان فاجون يقومون بأعمالهم التجارية بشكل سلمى فيعقدون الصفقات بهدوء ويأتون بالبضائع من كل حدب وصوب ، ويتاجرون فى الذهب والفضة والأقمشة ، وكثر عدد الأغنياء منهم ومن المقيمين وكثرت المتع ، و كانت المتع العارضة هى التى تسيطر ، وبالتالى تؤدى إلى الأذى وتغيّر النفس وممارسة الصّفات المرذولة مثل الغطرسة والتكبر ، ومثالنا على ذلك هو أن قلوب البرجوازيين أصابها العمى ، وهذا ما يحدث كثيراً من الذين هم فى الدرك الأسفل من المجتمع ثم يجدون أنفسهم فجأة وقد أحاط بهم عرَض الدنيا " {Loc. Cit p. 33]

هاجمت مجموعة التجار التى كثر مالها الدير واتضح أن ليس له مهابة وسلطة وأنه انخرط فى الاهتمام بالأمور الفانية ، وانضم العمال والفلاحون إلى البرجوازيين ، وأطلق عليهم " الأخوة " ، وهذه التسمية سوف تكون البذرة لما سوف يكون فيما بعد الشعب المسلح الذى ينخرط فى ميليشيات الملوك الكاثوليك ، ورفض " الأخوة " فى ساهاجون دفع الجزية وأخذوا يقتلون اليهود الذين كانوا فى المنطقة ، وهذه واحدة أخرى من مقدمات المذابح التى جرت خلال القرن الرابع عشر ، والسبب فى هذه المواقف هو أن الشعب الإسبانى جمع فى داخله جنين الهالة النورانية لأسطورة تملك عليه جماع قلبه ، وهنا نجده يخلط بين حقوقه وبين الفوضى واختلال النظام ، ومحصلة هذا هو أنه لا يوجد شعب يتحدث الإسبانية وقد احتكم للموضوعية الخاصة بهيئة ما ، كما سيطرت الديماجوجية على التمرّدات التى وقعت فى ساهاجون وهى صنوان للمبالغة فى المعتقدات الدينية والتى بدأت بقوة مع القديس الرسولى ، ولم يقابلها الفكر والمرغّبات الدنيوية ، وفى هذا الإطار لم تتحدّد ملامح طبقة الصناع فقد كان كل ما يحدث يدور حول ثروات " مجلوبة " لم يتم إنتاجها ، وقد أحاطها التجار البرجوازيون والرهبان بجشعهم ومعهم العمال الزراعيّون ، كما لم تتحدّد ملامح ملكية قوية أو أى نوع من الازدهار الصوفى واللاهوتى ، وما بقى هو المبانى الجميلة التى تخلّى عنها الحظ وحال دون استمرارها حتى اليوم .

يعرف الجميع طبيعة الوضع الداخلى لأديرة أخرى تابعة لكلونى ، خلال الفترة من ١٢٥٩م وحتى ١٤٨٠م ، ونعرف ذلك من خلال الوثائق التى نشرها عُلَيس روبرت Ulysse R. (٩٤) ، وقد ورد فى بعضها أن رؤساء الأديرة والرهبان كانوا يعيشون مع محظياتهم فى الدير ويقومون بتربية الأبناء فى نفس المكان ، أما الملوك وعلية القوم والأساقفة فقد كانوا يصادرون أملاك الدير لصالحهم ، إذ كان الجميع يطمعون فى تكديس الثروة الموجودة دون التوصل إلى فوائد فيها استمرارية ، وكان تبرير هذه الخطوة المدمرة سهلاً حيث ظلت الدولة على ما هى عليه من فقر وهذا ما نجده فى إسبانيا والمكسيك ، والنتيجة هى أن الكثير من الكنوز المعمارية والفنية التابعة للطوائف العسكرية وللكنيسة تحوّل إلى أطلال ، أما فيما يتعلق بأتباع دير كلونى من الإسبان

فقد ولّى عنهم ذلك الإيمان الذى يحدوه الأمل والذى كان عليه ألفونسو السادس الرجل الذى لقّب نفسه إمبراطور إسبانيا وتبرع لجمعة كلونى بدير سانتاماريًا دى ناخيرا عام ١٠٧٩م وهو دير يعتبره الإسبان أحد الأعمال الفنية الرائعة " Juxta ipsm viam que ducit apud Sanctum Jacobum" [يسير فى نفس المستوى الذى عليه القديس جاكوب] (٩٥) .

شروق عقيدة ومغيبها :

أدى الحماس والرغبة إلى الإبقاء على الاعتقاد فى القديس الرسولى حيًا لا جدال حوله طوال العصور الوسطى ، ولستُ أحاول هنا سرد تفاصيل ذلك فقد قام به قبلى إنسان جدير بالتقدير وهو أ. لوبث فيريّرو A. Lopez Ferrero واستغرق بحثه أحد عشر مجلدًا ، غير أن ما يهمنا الآن يختلف عن ذلك وهو أن نعرف أن الإيمان بسانتياجو كان بمثابة العمود الفقارى لجسد إسبانيا ولهذا أُلِحّ كثيرًا على ما شعر به الملوك وعبروا عنه فى هذا الموضوع ، فلقد قال ألفونسو السابع إن سانتياجو قد ساعده على غزو قورية Coria عام ١١٤٧م وقد تجلّت له يد القديس وهى تحمل سيفًا من نار عندما همّ بالاستيلاء على بايثا Baeza، ومقابل هذا الاعتقاد الفعّال هو التبرعات والتكريم ، وعندما قَدِمَ لويس السابع (الفرنسى) إلى قشتالة انطلقت ألسنة السوء تردد أن زوجته (ابنة ألفونسو السابع) ليست ابنة شرعية ، وكانت أفضل طريقة للقضاء على الشكوك وعقد اتفاق بين الطرفين هى القيام برحلة إلى كومبوستيلا، وقد قام الملك ألفونسو السابع وابناه سانشو والسيد فرناندو ، وملك نابارّة بمرافقة الملك الفرنسي فى هذه الزيارة " وقدّم الملك وأبناؤه الكثير من التبرعات والهدايا الثمينة " ، وعاد لويس السابع من هناك إلى بلاده وقد ملأته الغبطة " (٩٦) .

وفى عام ١٢٢٨م يقول الملك ألفونسو التاسع ملك ليون : إن ملكنا مصون بفضل حماية القديس " وفى عام ١٤٨٢م تطلق إيزابيل الكاثوليكية على القدّيس الرسولى عبارة تقول فيها " إنه النور والحامى وهدى الممالك الإسبانية " (٩٧) .

ظلت الجماهير وفية لحاميها لفترة طويلة واستمرت على هذه الحال حتى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، (٩٨) ورغم ذلك فقد كانت هناك طبقة جديدة لم تَسِرْ على إيقاع ذلك الاعتقاد وهى طبقة كانت مجهولة خلال القرون السابقة ، إنها طبقة المؤلفين الذين يعبرون عن آرائهم فى الحياة المحيطة بهم ، وسوف نرى تأثيرهم على تلك العقيدة فيما بعد ، وهنا نتوقف بعض الشىء لنرى شيئًا آخر مما كان يحدث فى كومبوستيلا خلال العصور الوسطى .

وتحت غطاء ازدهار العقيدة التى ملأت المكان المحيط بالبهاء والعظمة نجد رجال الدين وقد غرقوا فى الملذّات الدنيوية مثلهم فى هذا مثل رهبان كلونى ، فالتديّن هنا لم يؤد إلى الزهد والتصوف ، فلقد كان تدينًا ظاهريًا وبالتالى لا يجمع بين القول والعمل ، ولم يكن أحد ينتظر من سانتياجو علامات تدل على قداسته بل البركات التى تساعد على حلّ مشاكل الحياة اليومية مثل : الانتصار فى الحرب والتمتع بالصحة ، والمحصول الوفير ، وهنا يكفى التضرع وتقديم الهبات دون الحاجة إلى الغوص فى أعماق الروح التى تعتبر قاعدة التّماسك الاجتماعى ومعها العمل التقنىّ والفكر العملى، وقد أشرتِ فى مكان آخر إلى العلاقة القائمة بين الأشكال الحرة للروحانية الدينية وقيمة العمل اليدوى الذى يعتبر علامة على استقلال الفرد ، فالعمل الذى يخرج من بين يدىّ يجعلنى حُرًا ويباركنى ، وتتولى المشاعر الدينية الذاتية والشعر الغنائى تقريب الإنسان للعالم المحيط به ، وهذا أقوى من تأثير الملحمة وصناعة المعجزات ، فالأولى تساعد على العزلة وتهيئ النفس للتأمل وبدونها لا نجد فكرًا ذا فاعلية (٩٩) ؛ فالاعتقاد فى سانتياجو كان يباعد عن المسيحية الحقّة ، وقد تحدثنا قبل ذلك عن أن المسيح لم يقبل رغبة الشقيقين Boanerges (ابنىْ الرعد) بأن تنزل صاعقة من السماء ، وقد أظهر الشقيقان اللذان هما صدى لآلهة النجوم عدم توافقهما مع جوهر الروح المسيحية التى تحاول البحث عن الحقيقة الإلهية داخل الروح أو من خلال التكوين الأصيل للطبيعة ، ويرى جاليليو أن جوهر الحقيقة الإلهية يتجلى فى الطبيعة بوضوح أكثر

بالمقارنة بما هو مدوّن فى صفحات الكتب المقدسة ، أما صناعة المعجزات فتباعد عن المسيحية التى يراها سان أغسطين مركّزة فى أعماق الروح " لا تحاول الخروج والابتعاد عن ذاتك "

وقد ساعد الاعتقاد فى الخوارق التى يقوم بها القديس الرسولى على وجود قشتالة وليون وساندهما على الوقوف فى وجه المور والأوربيين ، وكان الملوك الإسبان الذين قاموا بجهد جبّار فى هذا المقام يعرفون الأمر جيداً أكثر منّا معشر المؤرخين ، فنحن ندين لسانتياجو بالجهد البطىء والمتعرّج الطريق الذى سارت فيه حرب الاسترداد ، وندين له بعظمة وبهاء كل ما أنشئ على الأراضى الإسبانية ، وإليه يرجع ردّ فعل هؤلاء الذين شعروا بأن ذلك هو " اللاعيش " وعبروا عنه فى أول أعمال جميلة بها مسحة من الكدَر كما أنها صالحة لكل زمان ومكان ، وبقيت تلك الأعمال حتى اليوم كمرفأ وملاذ للنفوس راقية الحس والمرهفة ، كما أنها - أى تلك الأعمال - تقف شامخة أمام الخوارق التى تأتى بها الحضارة اليوم التى جعلت المادة هى الغاية وبالتالى أصبحت الثقافة عاقراً ومعرضة لتحوّلها إلى خواء ، ولهذا فإن تاريخ إسبانيا يكتسب صفة المعاصرة أكثر من أى وقت مضى رغم أن السوقة بمختلف أصنافهم لا يرون إلا الفشل والغطرسة ، وتكمن أفضل مميّزات التاريخ الإسبانى فى المهارة الغريبة وفى فن غير مسبوق للعيش فى العدم وعدم الذوبان فيه ، فوراء العدم كان هناك الوعى بمواصلة الوجود وكأننا أمام جذر حى للخلود الإنسانى ، فلن يأتيه الموت طالما لديه الوعى بأنه يحيا فى إبداعات دائمة وخالدة ومتجدّدة .

وعلينا أن نعود إلى مجرى الأحداث التاريخية ، فلم يكن بمقدور سانتياجو - محارب المور - أن يدفع إلى خلق تجارب دينية ذات قيمة عالية ، وبذلك نفهم (كما سأشرح فيما بعد) أن المتصوّف سان برناردو قد تردّد كثيراً قبل القبول بالإشراف على جماعة رهبان المعبد **Templarios** التى كانت معنية بالجهود الحربية أكثر من التصوّف والزهد ، وهنا نصل إلى محصّلة متناقضة تقول بأنه كان على الإسبان أن يبتعدوا عن جوهر المسيحية عندما وقفوا فى وجه المور ، بينما أخذوا يعودون إلى جوهر

المسيحية بنفس القدر الذى يقتربون فيه من العقيدة الروحية للإسلام أو إلى المفاهيم الدينية السائدة فى أوربا مثل الأغسطية والفرنسيسكية الصّوفية ، فهناك الرهبان التابعون لجماعة سان خيرونيمو وهم فرانثيسكو دى أوسونا ، وسانتاتيريسا ، وسان خوان دى لاكروث ، وخوان دى بيلا ، ولويس دى جارنادا ،وسوف نتمكن من خلال هذا المنظور من فهم الهجمات العنيفة التى وجهها أفراد جماعة الكرمل Carmelitas ضد سانتياجو ، وهى نقطة سوف نتحدث عنها فيما بعد .

لم يفكّر الملوك أو الشعب أن عليهم أن يفعلوا شيئًا مع أنفسهم طالما هناك السيف الذى لا يُقْهر لسانتياجو ، وعندما لا يأتى منه العون فى الوقت المناسب يتوجهّون إلى الكنوز التى جاءت من الحجيج ويستخدمونها باللجوء إلى الحيلة تارة وإلى العنف تارة أخرى ، وقد قدّموا لألفونسو العاشر الأموال التى طالبهم بها رغم أنهم أجبروه على الإعلان بأن ما طلبه " كان هبة وليس جزية " (١٠٠)، ومن المعروف أن الملك ألفونسو العالم لم يحجّ إلى كومبوستيلا، فقد كان أكثر ما يعنيه هو تقديس مريم العذراء التى مدحها فى قصائده Las Cantigas ، وهذا ما يتفق مع الحساسية الأوربية الجديدة خلال القرن الثالث عشر ، كما أن ابتعاده عن سانتياجو - كما أشار إلى ذلك أ. لوبث فيدّيرو - يرجع إلى أسباب معقدّة لا أجد الفرصة سانحة الآن لتفصيلها ، وربما كان السبب الجوهرى هو كثرة اليهود فى بلاط الملك .

لم يخصص رجال الدين – وعلى رأسهم الأسقف – وقتًا كثيرًا للتأمل والزهّد ، فقد كانت المدينة تغصّ بالكثير من الأجانب الذين أتوا من مختلف البلاد وأخذوا يصدرون صيحاتهم التى لا تهدأ أبدًا ، أما دار العبادة التى كانت مفتوحة دائمًا فقد ظهرت الحاجة إلى فرض النظام على جماهير الحجيج الذين كانوا يتدافعون ليكونوا على مقربة من القبر المقدسّ ، وأحيانًا ما نجد المجموعات الوطنية المختلفة وهى تتضارع فيما بينها لتفوز بالبركة المرجوّة ، ولم يكن غريبًا أن تحلّ بهذه المدينة بعض الأمراض الوبائية الفتاكة ، وهانحن نرى الجميع من الأمراء وعلية القوم والتجار والشحاذين وأناس فقدوا الحياءَ (١٠١) وهم يُبَجِّلون القديس الرسولى ويقدمون

تبرعاتهم ، وقد كانت العناية بهذه التبرعات تكلف الكرادلة الكثير من الوقت والجهد ، كما أن كل حاج يتلقى شهادة مكتوبة بأنه مرّ بالمدينة كما كان يشترى الصدفة كرمز للقديس ، وهى تجارة رابحة فى يد ما يقرب من مائة تاجر ، وقد انشغل رجال الدين صغيرهم وكبيرهم بإدارة تلك الثروات التى تراكمت وكذلك بالبحث عن مسكن لكل هذه الجماهير ، وأدى كل ذلك إلى وقوع أزمات كثيرة بين الكنيسة والبرجوازيين ، أضف إلى ما سبق قيام رجال الدين ببعض المهام الحربية عندما يناديهم الملك ، فرجل الدين كان يحمل السلاح أيضًا وبذلك تتحول المشاعر الدينية إلى مجرّد بيروقراطية وطقوس ومشاكل تمويل .

ولقد حاول الأساقفة فرض العادات الطيبة باللجوء إلى فرض العقوبات والقواعد العامّة ، وهذه أمور لا فاعلية لها ، وقد أصرّت المجالس الإبراشية – طوال عدة قرون – على أن يقوم رجال الدين Clérigos بحلق شعورهم ويبتعدوا عن حمل السلاح ، لكنهم لم يتمكنوا من ذلك حتى ونحن فى عام ١٢٨٩ ، ومن المعروف أن السلوك لا يستقيم طبقا لقواعد معينة إلا إذا توّفرت الرغبة فى الانسياق لتك القواعد ، وقد قرر المجلس الذى عقد عام ١٢٨٩م (١٠٢) ألا يطلق رجال الدين لحاهم رغم أنهم قد يكونون صغارًا فى السن وألا يرتدوا أثوابًا مقلمّة وملوّنه بالأخضر أو الأحمر ، وألا يسيروا فى المدينة ليلاً وهم يحملون السلاح وألا يحتسوا النبيذ فى الخمارات وألا يلعبوا النرّد على الملأ وألا يتدخلوا لفض المنازعات التى تحدث بين الجنود والمواطنين باللجوء إلى استخدام السلاح كما حرّم على الرهبان ممارسة التنبؤ بالغيب وقراءة الطالع والشعوذة .

ورغم أن كل ما أشرنا إليه لم يكن قاصرًا على الأكليروس القائم فى كومبوستيلا فإن اللافت للانتباه هو التناقض بين تأليه القديسّ وسلوك من يقومون على خدمته ، وهذا لا يمكن أن نعزوه إلى " القلق الذى عاشت فيه المملكة " لأن الفضيلة كانت مطوّقة بالقلق ، وحقيقة الأمر هى أن الروّحية لم تزدهر إلى جوار ضريح القديس الرسولى كما أن هذا العصر البعيد يدفع إلى الميل إلى الفوضى الاجتماعية والأخلاقية التى تتعايش مع القوانين ومع البراجماتية التى اتسمت بكثرتها وعدم فاعليتها ، وقد ارتبطت مقاومة

الانصياع للقانون بسيطرة نوع خاص من أشكال التدين لا يُعنى بخلق أوامر اجتماعية ومادية ، وعندما لا ينبع السلوك من قواعد داخلية وخارجية ، تكون بمثابة القالب ، فإن من لا يكون قديسًا يصبح فوضويًا ، وما يطلق عليه عبارة " الفردية الإسبانية " - وهى عبارة غير صحيحة - إنما هو بقايا تاريخ ليس لها من وجهة إلا الاعتقاد في الخوارق أو الرغبات الجامحة دون أن توضع تلك الرغبة فى إطار اجتماعى ومادى ، ولقد كانت المبادئ التى تستند إليها السلطة عالية الرفعة لدرجة أنها لم تستطع قولبة أمور الحياة اليومية ، كما أن التنظيم المسيحى اليهودى للدولة قد زاد من التوجه نحو التصدع ، وهنا على العودة إلى الفكرة الرئيسية لأقول بأنه لو لم يكن أهل إسبانيا مدفوعين بالأمل والطموح لقام بحرب الاسترداد رجال من غير الإسبان .

ولقد تأرجح البندول فى سانتياجودى كومبوستيلا بين الاستسلام للعطايا السماوية وبين التمرد الفوضوى الذى وصل إلى حد ارتكاب الجرائم ، فأثناء الصراعات الأهلية بين بدرو القاسى وشقيقه إنريكى (كونت تراستمارا) كان السيد / سويروجومث (أسقف طليطلة) يميل إلى الثانى ، ولقد كان إنريكى سيداً لمعظم أرجاء المملكة كما أن منطقة تمركزه Trastamara تقع فى جليقية ، وهرب الشقيق بدرو القاسى من أخيه إلى سانتياجو عام ١٣٦٥م وترك المقاطعة المذكورة إلى صديقه وتابعه الأمين السيد فرناندو دى كاسترو ، ولما كانا غير واثقين من انضمام الأسقف إليهما قررا التخلص منه فاتصل الملك بالأسقف الذى احتمى فى حصنه المسمى لاروشا Rocha وأمر بقتله (١٠٣) عندما كان قريبًا من الكاتدرائية ، أما نائبه فقد تعرض لنفس المصير رغم أنه تحامل على جروحه وأسلم روحه بجوار مذابح القديس الرسولى .

وبعد اغتيال الملك بدرو القاسى على يد شقيقه إنريكى (١٣٦٩م) ظل السيد فرناندو دى كاسترو محافظًا على قوته فقد انضم إليه البرجوازيون ضد كنيسة سانتياجو الأمر الذى عجل بفرار الأسقف الجديد رودريجو دى موسكوسو ، وهو أسقف تشكك فى تمرد المدينة ، كما أن العقوبات الروحية لم تلطف من حدة مشاعر

البرجوازيين الغاضبين فدخلوا الكاتدرائية (يوم الثلاثاء المقدس الموافق الأول من أبريل لعام ١٣٧١م وأغلقوا صالة الكنز Sala del Tesoro بقضبان حديدية ، وهى المكان الذى اختبأ فيه الكرادلة ، ومنعوا أن يصل إليهم أى طعام أو شراب، واستمر الحال على هذا النحو لمدة تسعة أيام ، إلا أنهم لم يموتوا بفضل الطعام الذى كان يصل إليهم من ذويهم من وراء ظهر الحراس . (١٠٤) .

وعندما وطدّ إنريكى الثانى سلطانه أسرف فى حُبّه وتقديم عطاياه لكنيسة كومبوستيلا ، ويقول أ. لويث فيرّيدو أن السيد إنريكى كان يعتقد اعتقاداً صادقًا أن جزءًا كبيراً مما هو فيه يرجع إلى القديس الرسولى [VI P.198]، وكانت الكنيسة الرسولية تتأثر بالنسائم التى تأتى من العقيدة أو البركان الناجم عن المعاصى والكبائر، ولما لم يكن تدين رجال الدين نابعًا من الروح فقد كان المقابل له الفوضى الاجتماعية التى يقوم المواطنون ببطولتها ، فالجميع يعيش بعيداً عما فى داخله ويثق فى الثروات التى تنهمر على الجميع بفضل القديس الرسولى ، ولم يتوصلوا بذلك إلى إبداع شيء ثابت من خلال الجهد المشترك فقد كانوا يعيشون – وقد اجتمعوا صدفة – على أموال كثيرة كانت السبب فى كثير من الإحن والفوضى ولم تنفعهم السلطة الكنسية ، كما أن حصن لاروشا الذى شُيدّ عام ١٢٢٣م أصبح بمثابة تقليد للدور الذى كان يقوم به حصن سانتانجيلو Santangelo فى روما ، ومن أطلق عليهم كرادلة لم يكونوا إلا قساوسة فى كنائس المدينة مثلما كان عليه الحال عند الكرادلة الرومان .

وعلى أية حال فإن الأموال التى كانت ترد إلى سانتياجو تكفى لكل شيء (١٠٥) ولم تَقِلّ رحلات الحجاج حتى بعد مرور سنوات كثيرة من القرن السابع عشر ، لكن الملوك لم يواصلوا الحج إلى سانتياجو كما كان يفعل أسلافهم خلال القرن الثانى عشر، فلم تعد الملكيةّ بحاجة إلى القديسّ الرسولى لهزيمة الشرقيين ، كما اعترى التوجهّات الدينية تغيير واضح ، إذ ظلت أشكال العقيدة كما هى لكن الاختلاف طرأ على المنظور ، كانت هناك التوسعات الجديدة للإمبراطورية الإسبانية حيث يمكن للمرء الفوز بالمجد سواء كان رجل دين أو غازيًا ، وتحوّلت الرغبة فى الفروسية والوصول إلى

درجة النبلاء إلى قوة توحّد البلاد ، فالأمر سواء بين تَلَقّى الهبات التى تمطرها السماء أو بلوغ الآمال والطموحات ، ولم يكن ممكنًا إقامة تلك الصلة من خلال الأمور الدنيوية والعمليات التجارية أو التنظيمات العمالية وقد انتقلت الأموال القادمة من الأراضى الجديدة إلى أيدى الأجانب ، فلما ذهب الموريسكيون ومعهم صناعاتهم وتجارتهم أصبحت الزراعة هى النشاط شبه الوحيد للشعب أما المصنوعات الأوربية – من تلك المبتكرات التى تحدث عنها قبل ذلك بيريث دى إيرّيرا وكذا الأمشاط والإبر والدبابيس التى يشير إليها كيبيدو حانقا ـ فهى تأتى من الخارج ويتم الحصول عليها مقابل دفع ثمنها وهى المعادن النفيسة المجلوبة من الأراضى الجديدة ، إذ كانت الصناعة الوطنية بدائية ونادرة وتكون المجتمع من العمّال الزراعيين والرهبان والموظفين والجنود والنبلاء وواقع الأمر هو أن الإسبانى لم يتعايش مع بنى جلدته بل توافق وجوده معهم تحت سقف عقيدة واحدة – دينية كانت أو مَلَكيّة – ضمتهم جميعا واستطاعوا التغلب على مشاكل الحياة اليومية ، ولم يكن هناك عمل أو فكر مشترك بل العقيدة هى العنصر المشترك ، وبذلك فإن الفرد الذى ينسلخ من التعامل المباشر مع الأشياء ينكفئ على نفسه ويشحذ روحه بنفس الدرجة التى يشعر بها بالخواء من حوله ، وهنا يكمن سرّ هذه الشخصيات العملاقة وأبطال الجهد الجسدى المبذول (إيرنان كورتيس) وأبطال التعبير اللغوى (ثربانتس وبيلاثكيث) وأبطال القداسة (القديس إيجناثيو والقديسة تيريسا) والبطل المجهول الذى لم تتحدد ملامحه فى شكل معين أو تعبير خالد ، وهى تلك الشخصية التى يشعر بها كل صاحب عقل متفتح وروح كلها انشراح ولم تكن إسبانيا بربرية أبدا بل كانت نمطًا خاصًا فى الوجود وهذا لم يكن متسقًا مع أوربا العقلانية التقنية ، إنها حياة يحياها الناس بكل مخاطرها وما يترتب عليها .

كانت العقيدة ترتبط بسانتياجو حتى القرن الخامس عشر وإلى جوارها ولدت آفاق جديدة : فهناك عذراء جوادا لوبى على سبيل المثال [(١٠٦)] وانتهى الأمر بذلك الاعتقاد إلى تفككه وذوبانه فى اعتقادات عدة بما فى ذلك الإيمان بالملكية ، فقد كان الملوك الكاثوليك يحظون بذيوع صيتهم وكأنهم المخلصون ، وابتداء من القرن السادس عشر نجد الإيمان بالقيمة الذاتية (فكل من كيبيدو وجراثيان أصبحا أسطورة مؤلهة) ،

وهناك رجل هو ألبار نونيث كابيثا دى باكا A. N. Cabeza de Vaca يعبر المنطقة الجنوبية معتمداً على نفسه وهى المنطقة التى سميت بعد ذلك بالولايات المتحدة ، وقد أحاط الجنود المتوحشون به لكنه سيطر عليهم ولابد أنه شعر بأن العناية الإلهية أحاطت به ، إنه عصر عبادة الزعماء ابتداءً من جونثالو القرطبى وحتى السير خوان الأستورى ، وها نحن نرى الصيت الذى يحيط بالزعامة الروحية لسانتياجو ينتقل الآن إلى البطل الإنسانى ، وهى ظاهرة أُطْلِق عليها تعبير دقيق هو " عصر النهضة " .

وقد أسهم فى تغيير الأفق والمقصد ، وانتقاله من سانتياجو ، إضفاء الصبغة الوطنية على الجماعات الدينية وفقدان الصلة بالجماعات الفرنسية وهى كلونى وثيستور، وعندما انتهت الحروب على الأراضى الإسبانية ولم يعد هناك يهود أو مشارقة يمكن إجبارهم على اعتناق المسيحية أو طردهم ملأ التدين جنبات الحياة الاجتماعية ، وفاض النهر ، فهناك آلاف الرهبان والراهبات فى المدن والحقول والقرى وهبت رياح العصور الوسطى على المفاهيم الدينية طبقًا لرغبة كل واحد ، أما الآن فإننا نرى الدين على كل ناصية فلم يعد التدين غاية بل أصبح منهج حياة ، ووجدنا أن أكثر من ثروات البلاد ملك للكنيسة سواء التابعة لروما أو غيرها ، وكان ينضم إليها كل هؤلاء الذين لا يذهبون إلى العالم الجديد أو يشاركون فى الحروب التى تدور رحاها فى أوربا ، إنه العصر الذى يتحول فيه النفاق الدينى إلى مصدر للدخل والى موضوع تتناوله الأعمال الأدبية .

وأسهم العديد من الأديرة المخصصة للرهبان والراهبات فى خلق إسبانيا أخرى داخل إسبانيا ، فحاولت كل جماعة دينية توسيع شعبيتها على حساب الأخريات ، وأصبح مؤسسوها كأنهم الملوك الروحيون الذين يضفون شرف الفروسية على كل راهب ، وقد كانوا نبلاء " على الطريقة الدينية " وهذا جانب لم أشر إليه بوضوح فى مناسبات أخرى رغم أهميته ذلك أن الرأى العام كان شديد الارتباط بالرهبان مقارنة بالعالم الدنيوى الذى لم تكن له بنية واضحة كما أنه ليس وسيلة للتعبير مقارنة بالمنابر، وهذه الأخيرة تشبه الصحافة ومنصة إلقاء الخطب السياسية فى عالم اليوم ، ولم تكن

هناك صلوات إلا تلك الصلوات المقدسة وتمت ترجمة الجانب النبيل للجماعات الدينية إلى نوع من الدوائر الروحية وبذلك ازداد تدمير الوحدة الهشة لسكان شبه جزيرة أيبيريا الذين لم يكن هناك جامع مشترك مدني بينهم اللهم إلا الإعلاء من شخص الملك، غير أن هذا لم يمنع من انفصال البرتغال نهائيًا ولم يمنع قطالونيا من محاولة ذلك أو أن تظهر في أرغن بوادر تمرّد .

وفي مجتمع يتّسم بالهشاشة والقابلية الشديدة للكسر كان من المنتظر ألا يستمر الإيمان بالقديس الرسولي الذي لا يقهر بنفس القوة وحتى نتمكن من فهم الوضع فقد تحدثنا في الفقرات السابقة عن أفكار سوف نخصص لها مساحات كبيرة في هذا الكتاب ، ولقد أصبحت مدريد مركزًا إسبانيًا وبعدت مدينة سانتياجو دون أن تربطها أية صلة اقتصادية بالمملكة ، وقد أخذ مؤلفون من الصف الأول – مثل/ ماريانا نيجابان – ينفون وجود الرّفات الرسولي ، كما تحدث ثريانتس ساخرًا من صفة الفروسية التي أضيفت على سانتياجو ، وتحدث بحماس عن القديس الرسولي بابلو قديس أُضحِّي بروحي في سبيله (دون كيخوته ، الجزء الثاني ، ص ٥٨) ، كما أن إمبراطورية سانتياجو قامت على أسس واهية لدرجة أن أي جماعة دينية كانت قادرة على الوقوف ضدها وزحزحتها عن عرشها ، إلا أن الأمور لم تصل لتلك الدرجة ، وجابهتها قوة محلية مناوئة شاركتها في سيادتها المتقلصة ، وهذا هو السر في أن جماعة الكرمل الحُفَاة C. descalzos ، أو الإصلاحيين ، استطاعت أن تحصل من الملك فيليب الثالث ومن البابا على موافقة بترسيم القديسة تيريسا كحامية مساعدة لإسبانيا .

وهنا هاجت البلاد وماجت وكأننا أمام خَطْب يهدد الأمة وكيانها ، واهتزت المنابر وظهرت الكُتَيِّبات وانتشرت في كل مكان (١٠٧) ، ولم يبق منها إلا ذلك الذي ألّفه كيبيدو " سيفك من أجل سانتياجو " وكان موجهًا إلى الملك فيليب الرابع عام ١٦٢٨م (١٠٨) ؛ وإذا ما كان الاعتقاد في سانتياجو قد ساعدنا قبل ذلك على فهم جوانب مهمة في تاريخ إسبانيا خلال العصور الوسطى ، فإن تحلّل ذلك الاعتقاد خلال القرن السابع عشر يساعدنا على تأمل حميمية ذلك القرن الذي لم تتضح معالمه بالشكل الكافي ،

وسرعان ما أخذ الصراع بين أنصار واحد وأنصار آخر بعداً شيطانيًا لدرجة كاد يشبه معها المعركة بين الجزّارين فى رواية " دون كيخوته " ، وجوهر الأمر هو أزمة قوية فعندما حلّ الضعف بالمعتقدات السائدة فى العصور الوسطى ، نجد أن السّمة العقلانية أخذت تفسح لها مكانًا بين أطلال تلك المعتقدات ، وإذا ما كان هذا التوجّه الجديد قد باعد – فى البداية – المشاكل المتعلقة بالدين [البعد العقلى إلى جوار البعد الدينى ، أو العلم إلى جوار اللاهوت] إلا أنه مع استمرار الوقت أخذ يعالج المسائل المتعلقة بجوهر الاعتقاد ، ولقد ازدهر الفكر الأوربى على حساب المعتقدات الدينـية ، إلا أن الأمر فى إسبانيا كان مختلفًا إذ تم إغلاق كل باب للتجديد [باستثناء حالات نادرة مثل ميجل سيربت] ، وأخذت المعتقدات – فى واقع الأمر – تزداد حجمًا وتنتشر فى أماكن لم تكن لها قبل ذلك ، والدليل على هذا أن القرن السابع عشر يبدو شبيهًا بالعصور الوسطى إذا ما قورن بالقرن الخامس عشر ، ورغم أنه قد لا يجدى التفكير فى أن القرن السابع عشر كان أكثر " رجعية " من العصور الوسطى فإن الأمر المهم لا يكمن فى الزمن وإنما فى البشر الذين يعيشون كل لحظة فى دائرة الممكن والمتاح ، ولم يكن من الممكن العيش على أساس سلطان العقل فقط اللهم إلا إذا قرّر الشعب الموت وإحياء نفسه من جديد ، وهذا مستحيل الوقوع إذ يمكن استئصال شأفة شعب ما لكنه لا يقرّر الانتحار أبداً ، وفى عام ١٥٥٠م بلغ الإسبانى قمة المجد بشخصيته التى تجرّدت عن أى لباس والتى أصبحت محاطة بالعقيدة ذات الطابع الأسطورى ، وظل لمدة قرون يسود المور واليهود الذين اكتشفوا آنذاك ما يجب على الإنسان معرفته، وأفاد من التقنية الأوربية وباركها سانتياجو ، ثم اكتشف بعد ذلك إمبراطورية مترامية الأطراف وحكمها ، فهل كان سَيَسْمح ، من خلال " سيربت " بعدم إمكانية قبول مبادئ عقيدة التثليث لأنه توجد صعوبات فى مناهج التفكير ؟ ويستطيع دلتى **Diltgey** أن يقول بأن سيربت مفكر عبقرى ، إلا أن السير على منهجه خلال القرن السادس عشر كان أمراً غير متصوَّر ، وهذا ما يحدث مع فيلسوف قديم فلا يمكن للمرء أن يصبح بطلاً فى كرة القدم وقد بلغ الخمسين من العمر ، فلم تكن إسبانيا قادرة على أن تكون غير ما كانت ، وشرح ما كان هو ما نهدف إليه من خلال هذا الكتاب .

وقد تجاوزت المعتقدات الدينية – خلال القرن السابع عشر – الحدّ فى دفاعها عن نفسها ضد أى بادرة لمقاومتها ولو كانت ضئيلة فلم تعد تلك الجماعات تعبر عن نفسها ببراءة على شاكلة تلك التى كانت عليها خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر عندما لم يكن هناك مجال للمجادلة معها ، ولم يكن هناك هواء " طبيعى " العقيدة يتم تنفّسه خلال القرن السابع عشر ، بل كان بمثابة أوكسجين الإيمان وهو وضع شديد التوتر ومثير لقلق الكثير من المراقبين ، وسوف نرى فى الفصلين العاشر والحادى عشر أنه عندما ذهب التعاون المسيحى – الإسلامى – اليهودى أدراج الرياح نجد الكاثوليكية وقد امتصت المفهوم الدينى المهيمن ، الذى كان عليه المسلمون واليهود بصفة خاصة .

وما حدث بالنسبة للعقيدة المسيحية نجده يحدث بالنسبة للعقائد والمفاهيم الأخرى مثل الملكية والحب والفضيلة والشرف إذ أخذت كل واحدة منها تعد العدة توقّعًا لخوض معركة دفاعية ، وهنا – أى فى إطار موقف حيوى مثل هذا – نجد الصدام بين المعتقد والفكر وبين الرغبة والواجب وبين الأمل والخداع ، وهو تناقض كانت له سمات فريدة فى إسبانيا ، فالحياة فى إسبانيا خلال القرن السابع عشر تنصبّ فى قوالب مزدوجة بحيث ينمو كل واحد فى اتجاه معاكس للآخر ، وهذا ما نراه فى حالة الراهب التابع لجماعة الكرمل Carmelitas ويدعى / جاسبار دى سانتا ماريا (ولد فى غرناطة) ، فإذا ما قيل بأن سانتياجو مدفون فى جليقية فلا يمكن أن يمتطى صهوة جواده لقتال الأعداء [١٠٩]، كما يهزأ البعض من هؤلاء الذين يعتقدون أن حصان سانتياجو عندما يتحرك يتسبب فى حدوث الرعد ، ولما كان البسطاء من الناس هم الذين يعتقدون ذلك فهنا نجد العقيدة الشعبية الغرناطية وقد عكست السخرية من الاعتقاد .

الجَلَبة التى نسمعها عندما يرعد السّحاب

يقول عنها خوانيكو

إنها من جراء حركة حصان سانتياجو (نفس المصدر صـ ٤٥١)

وقد كتب أبيات هذه القصيدة الساخرة الراهب جاسبار وذلك ردًا على ما كتبه كيبيدو فى " سيفك من أجل سانتياجو " والموجهة ضد أنصار القديسة تيريسا الحامية المساعدة لإسبانيا وتتألف القصيدة من جزء أول نُسِبَت إلى كيبيدو ، وكذلك الرّد عليه ، ويقصد سيّئ (فسوء النوايا لم يوجد فى الأدب الإسبانى قبل القرن السابع عشر) يتم استنطاق كيبيدو بهذه الأبيات :

وهكذا يا تيريسا ، فمن المعروف

أنك مدينة لسانتياجو

بالنور الذى تشربين إنه واهب النور لإسبانيا (نفس المصدر ٤٥١)

فيقوم راهب جماعة الكرمل بالرّد :

لا يمكن الذهاب فى القول إلى ما هو أبعد

لا تقلْ أبدًا تشرب النور : النور الذى يُشْرب

(ادفع لك بعملة جونجور)

الفضل لسان – تراجو وليس لسان – تياجو (نفس المصدر ٤٥٣)

تنفجر أى عقيدة عندما نقوم بحقنها بالمفاهيم العقلية ، وهذا ما حدث لسانتياجو الذى ينقسم اسمه إلى قسمين كل له رمزه ، فالجزء الأول من الاسم " سان " يتضمن مسحة من القداسة ، أما الجزء الثانى " تياجو " فيدخل فى دائرة اللهو والمجون وهى الحانة ، فكل شيء فى الحياة قابل للتفتيت ، وكذلك الأمر فى القصيدة الشعبية للراهب الغرناطى : إنه يؤمن بالقديسة تيريسا ، وهنا يقوم بتدمير سانتياجو بِنَقْده ، كان الراهب يدعى جسبار دى سانتا ماريا ، كما كان يستخدم اسمًا مستعارًا هو باليريو بيًا بيثنيو ، وقد جعل قصيدته مكونة من جزأين ألصق أولهما بكيبيدو يقوم فيه بتجزئة اسم سانتياجو ليكون على النحو التالى Trago – San، وتجدر الإشارة إلى أن الازدواجية الراديكالية فى الحياة الإسبانية خلال القرن السابع عشر ، وهى القضية

التى أتحدث عنها منذ سنوات ، ترتكز على تجزئة الوحدة المتكاملة لبعض العقائد {بدءا بسانتياجو وانتهاءً بالشرّف} وهى مفاهيم لم يكن ليجرؤ أحد على مناقشتها قبل ذلك ، وقد حدث خلال القرن السادس عشر أن وضعت قيود على أمور عديدة وخاصة تلك المتعلقة بالسلوكيات والعادات ، لكن لم يتم رفض أى شىء رفضاً مطلقًا ، أما إسبانيا القرن السابع عشر التى تم بناؤها من خلال سانتياجو ومعه فنجدها تتخلى عنه ، ولم يصدر هذا التخلى عن السوقة الجهلاء بل عن رهبان ولاهوتيين ، ورداً على هذا يكتب كيبيدو أفكاراً لا تصدق ، وهى تلك التى أطلقتُ عليها الإغراق فى مفاهيم العصور الوسطى .

" سوف تجدون فى كتب التاريخ والحوليات القديمة أنه قد جرت فى إسبانيا سبعمائة وأربعة آلاف معركة ميدانية ضد المور ، وقد ساهمت فى ذلك كل من قشتالة وأرغن والبرتغال ونابارّة ، وسوف ترون أنه قد لقى حتفه فى هذه المعارك ما يزيد على خمسة عشر ألف وأحد عشر مليونًا من المور ، كما سترون أن القديس الرسولى قد شارك فى الحرب بنفسه وظهرللعيان وقتل عدداً لا يحصى من الأعداء " (صـ ٤٣٩)

وقد لجأ مناهضو سانتياجو إلى استخدام شعورهم بخيبة الأمل للقضاء عليه ، غير أنهم لم يفعلوا ذلك ، بهدف إعداد فكرى بل كان الهمّ الأكبر لهم قتل اعتقاد وإحلال آخر محلّه بنفس الطريقة المبالغ فيها والمستخدمة فى العصور الوسطى ، ولم يكن من المنتظر أن تتولد لدينا نتائج عقلية عند القيام بتحليل نقدى لأى ظاهرة إنسانية، وإلا لكانت البلاد قد تطايرت أشلاؤها فى كل مكان ، والشىء الوحيد الذى كان يحدث هو تأكيد وتوطيد اعتقاد معين من خلال تدمير الناس وبالتالى يكسب إلى جانبه فى تَجَاوز غير مريح ، بعض الأسباب التى سيقت لمحاربة العقيدة المعادية ، فحماية القديسة تيريسا لأسبانيا تقوم على أنقاض الاعتقاد فى سانتياجو فى ازدواجية

شخصية ظاهرية ، ولمّا كانت هذه الازدواجية أحد ملامح الحياة خلال القرن السابع عشر نجدها تتضمن " لا " لسانتياجو ، و " نعم " لتيريسا ، كما نجد أن شرذمة من المجانين الذين يقومون بدور إصدار الوصايا أو إيجاد الحلول لما تعانى منه إسبانيا ، كانت تعتقد فى مثل هذا النوع من الحلول ، فهى لا تثق فى قدرات الملك وحكومته ؛ ومن المؤشرات على وجود تلك الحياة وتعبيراً عنها مانجده فى اللعب بالألفاظ ، بمعنى رفض التعبيرات والألفاظ التى تدخل ضمن تجربة الآخرين {مائدة Mesa} وأن يحل محلها الصاروخ الاستعارى {الصنوبر المربع Coudrado Pino} سيراً على إبداعات الشاعر جونجورا G?ngora، كما يتم اللجوء إلى إلغاء الاعتقاد فى الأشياء المحسة وإغراقها فى بحر العدم وهذا ما يفضّله كيبيدو بعدميته ، كما تتعايش أصداء الأدب العربى مع حالة الضياع اليهودية وهذا ما سنراه فيما بعد .

وفى هذا الجوّ تجثم الأزمة التى رأينا بدايتها (والقائمة بين العيش الدنيوى للمجمع الدّيرى للقديس الرسولى وبين القدّيس المحارب) على أرض لا يمكن السيطرة عليها وفى سماء لا يمكن الوصول إليها ، غير أننا إذا ما أرجعنا الازدواجية التى حدثت فى إسبانيا القرن السابع عشر إلى الظروف المحيطة والتى سادت أوربا ، وخاصة بعد المجمع الكنسى فى ترينو Treno ، فهذا لا يكفى فى نظرى كما أن فيه الكثير من التجريد ، فقد عاش الإسبان ما أطلق عليه عصر النهضة ومناهضة الإصلاح أو البارّوك ، وكان العيش من الداخل أى من قلب وجودهم القائم على مجموعة من الميول والأعمال والمصالح ذات الخصوصية الشديدة ، وإذا ما تناسينا هذا فمعناه تجزئة الحياة وتفصيلها على قدر المائدة التى نعمل عليها ، والأسوأ من هذا أننا نحصرها فى دائرة المفاهيم الاعتيادية والمطروقة التى تتضمنها بعض الكتب ، وفى الروتين التاريخى الذى يحدث منذ ثلاثين عامًا وهى فترة مليئة بالأفكار الجيدة والمخاوف والميول الطائشة .

شعر كيبيدو (الفارس المدافع عن إسبانيا) بأنهم وضعوا القديس بين السوقة إذ انتزعوا منه صفة الحامى الأعظم لإسبانيا لمصلحة القديسة تيريسا ، وهم أناس

يتسمون بالضعف ومناصرة النساء طبقًا لرأى كيبيدو " كيف يتصوّر آباء الإصلاح (جماعة الكرمل) أن سانتياجو سوف يعطيكم أسلحة {متحدثًا إلى الملك} وأنكم تردونها إليه فى نحره ، وكيف يمكن أن تأخذوا من مذبحه السيف وتنتزعوا السيف الذى فى يده لتعطوه للقديسة تيريسا التى صورها أبناؤها بأنها تحمل مغزلاً ؟ " {صـ ٤٤٣} ، قام كيبيدو بهدم كافة القيم وبدا العالم المحيط به وكأنه بساط موضوع بالمقلوب ، غير أنه واصل تعبّده فى محراب الإقدام والشجاعة وهما آخر المعاقل فى يد الروح المستسلمة (١١٠) التى أصبحت على شفا الهاوية ، ووَضع شاهد قبر – كلّه سخرية مرّة – على كل شىء من هيئات وأفراد ، غير أنه زأر كأنه الأسد عندما أطاحوا بالقاعدة التى يتكئ عليها نبله الإسبانى وهى آخر أسباب وجوده ، ومن هنا كان يحاول الإبقاء على هيبة القدّيس الرسولى باللجوء إلى تعداد المعارك وإحصاء القتلى ، وهى طريقة للتفكير لم تكن مألوفة خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، أى عندما كان الإسبانى يطفو فوق بحر عقيدته التى لا نقاش فيها ، وهنا يشعر المرء بالموقف الإسبانى خلال القرن السابع عشر : فلم يكن قادراً على تجاوز اعتقاده من خلال التعرف على الأشياء والثقة فى جدواها وفى فائدتها ، كما لم يكن قادراً على البقاء فى داخلها محتفظًا بنفس درجة الثقة فالعالم من حوله – فى أوربا – أخذ ينهض ويسير ، ومن هنا جاء الميل الشديد لإدخال " العقلانية " على العقيدة وجعل ذلك ملموساً بالشكل الذى سوف أتحدث عنه فى كتاب آخر ، أى من خلال البحث عن المأثورات القديمة والأعمال الخارقة ، ومن هنا أيضا ندرك هذه الأساليب فى التعبير عند كل من كيبيدو وجونجورا وجراثيان فى إسقاط وتجاوز جميلين لأنماط من الحياة تسبح فى الهواء دون أن تستقر وتصبح حميمةً ودون أن تتوفر لديها أفكار أو أشياء تركن إليها ، ولم يكن من الممكن أن يتغير الموقف وخاصة بعد تسعمائة عام من التعايش الإسلامى واليهودى، والهيمنة الرسولية ، فلا شىء يقدر على تغيير الوضع الإسبانى أو تغيير المصالح الكبرى التى نشأت فيه ، ولم يُجْد نفعًا قيام ثريانتس بالإعلان عن تفضيله لسان بابلو والسخريّة من سانتياجو ، أو أن يرى الأب مارينا أن عَدْو حصان سانتياجو عبارة عن حكايات الأم العجوز ، والأمر كذلك بالنسبة لجراح المسيح التى

يرمز إليها الترس البرتغالى ، فلقد كانت كل تلك الانتقادات بمثابة إيماءات رفض دون أن يتمخض عنها شىء ، إذ بقى الاعتقاد الرّاسخ بأن مصير الحياة تقرره السماء وأنه توجد سكرتارية خاصة للشئون الإسبانية : " إنها أخت طيّبة (القديسة تيريسا) فهى تحب إسبانيا وهى وكيلة أعمالها فى السماء ، ولذلك تطلب المقابل أى أن تكون حامية البلاد " {صـ ٤٣٧}، وكانت القدّيسة تطالب بأن يتم سداد الخدمات التى تقدّمها فى أن تكون حامية إسبانيا ، وهى عبارة نلاحظ فيها لغة التجارة التى كانت تتسم بحداثتها وأهميتها Librar Gajes (سداد الثمن) ، وكذلك بارتباطها بالتراث الإسبانى ، وجرى حوار حول من يكون حامى إسبانيا وكأننا أمام قضية ينظرها القضاء " وعلينا أن ننظر للموضوع من منظور أسلوب فض المنازعات ، إذ هى كذلك بسبب ما نرتكبه من معاصى " {صـ ٤٣٥} ؛ وفى الوقت الذى لا تألو فيه جهداً فليس أمام المحكمة إلا أن تحافظ لها على هذا اللقب " {صـ ٤٣٥} ، وهنا يأتى ردّ كيبيدو " لقد أراد المسيح أن تكون الحماية فى يد ابن عمه فقط " {صـ ٤٣٥} ، أى أننا نرى بقايا إيمان بالقديس الرسولى على أساس درجة قرابته للمسيح ، فهو الآن ابن عمومة بعد أن كان شقيقًا وأمام هذا الزعم تولى رهبان جماعة الكرمل ذكر الأسباب والحجج القوية : فالملك فيليب الثانى كان من الممكن أن يبقى فى المَطْهَر زمنا لا يعلم مداه أحد لولا أن قدّيسة مدينة أبيلا Avila قد انتشلته من هناك فى اليوم الثامن ، " فليس هناك ما هو أعظم من هذا العمل ذلك أنه كان يجب أن يبقى فى المطهر زمنًا طويلاً " {صـ ٤٣٨} ؛ وقد كُتبَت هذه العبارات بعد وفاة الملك فيليب الثانى بثلاثين عامًا ، كما حرّرها أحد رهبان الجماعة المذكورة وهو رجل ينتسب لأسرة أرستقراطية ، وبذلك نرى صوتًا آخر ينضم إلى كورس الغاضبين وغير الراضين عن سياسة الملك الرصين (١١١) ؛ ولكن هذا لا يهمنا الآن ، ويجب أن نتناول الحديث الذى يجرى فى حميميّات المَطْهر ببساطة شديدة وكأننا نشهد اتصالات عادية بين عالم الدنيا وعالم الآخرة ، وليس من الغريب أن يقرأ بلتثار جراثيان – من على المنبر – رسالة جاءت من الجحيم ، كما أن بعض الرهبان كانوا يرون أن القدّيسة تيريسا لابد أن تحظى بالفضل على غيرها لأنها امرأة وأن الله يستجيب لكل ما تطلب " وإلا لشعر المسيح بالخجل إذا لم يجبها " {صـ ٤٤٥} ، وعندما

كان سانتياجو الكعبة الحقيقية لإسبانيا كان المجتمع المرئى والذى ينخرط فى الحياة اليومية هو عالم الذكور فى المقام الأول ، أما فى القرن السابع عشر فإن المجتمع - كوحدة إنسانية - دخل الآفاق التى كان للمرأة فيها حضور نشط وأصبحت موضوعاً من موضوعات الفن ، والدليل على هذا اشتمال القصة والمسرح على موضوع ملاطفة النساء ، وكانت أديرة الراهبات توازى " من الناحية الروحية " الصالونات الأدبية ، وأصبحت القدّيسات والراهبات الإسبانيات (مثل القديسة تيريسا والأخت ماريّا دى أجريدا والأخت خوانا إينس دى لا كروث) مثل سيدات رامبوى Rambouillet أو سفنى Sevigne فلم يكن هناك فرق بين الإقامة فى السماء أو الإقامة على الأرض" فإذا ما تعارف قديس وقديسة فى هذه الأيام لكانا قد فازا بحب الكثير من القلوب على طريقة المشعوذين ، وهذا هو حال القديسة تيريسا " {صـ ٤٣٦} ، وقد كانت القديسة على وشك مقاسمة سانتياجو تولى الشئون الإسبانية فى ما وراء الطبيعة ، فلقد انضم فيليب الرابع (ذو الميول الأدبية) إلى أنصارها واستطاع أن يجعل البابا يقبل بأنها الحامية المساعدة ، فثار أغلب الإسبان على الانتقاص من قدر سانتياجو ، وتغلبت قوة التقاليد على الملك ، وهنا قرر البابا باولو الخامس - فى عام ١٦١٨م - إعلان القديسة تيريسا الحامية المساعدة بناء على طلب رهبان جماعة الكرمل ويعضدهم فى ذلك الملك فيليب الثالث غير أن الأغلبية ظلّت على ولائها لسانتياجو والسبب هو أن المفاهيم الحربية كان لها الغلبة على التأملات الصوفية ، وإذا ما كان علىّ استخدام لغة خارج إطار السياق أقول بأن الصالونات كانت تؤيد القديسة أما السوقة فكانت إلى جانب القديس الرسولى ، وفى عام ١٦٢٦م قام البابا أوربانو الثامن بتعديل القرار السابق وترك للأكليروس وللشعب حرية قبول سانتا تيريسا كحامية مساعدة أو لا ، وبالتالى لم يكن للقرار الصادر أى تأثير خارج الأديرة التابعة لجماعة الكرمل ، وفى القرن التاسع عشر - ١٨١٢- ناقش البرلمان المنعقد فى قادش موضوع الحماية لكل من القديس سانتياجو والقديسة تيريسا ، كما كان للقرار الصادر فاعليّة قانونية أثناء ولاية الملكة إيزابيل الثانية التى تم إقصاؤها عن العرش عام ١٨٦٨ وعموماً فلازال فى إسبانيا القرن التاسع عشر - وأتصور ذلك فى إسبانيا عام ١٩٤٥م

– أشكال وأصداء لإسبانيا التى بدأت مسيرتها خلال القرن الحادى عشر ، وهذه حالة فريدة فى تاريخ أوربا .

لم يعد سانتياجو يجذب الانتباه ، كما لم تحل القدّيسة محله كشخصية وطنية ، غير أن الصراع بين النموذج العسكرى المتمثل فى القديس والشّوق إلى الحنان الأنثوى تحولا إلى حالة من الانسجام فيما بينهما فى الشعائر التى تقام لعذراء البيلار V. del Pilar حيث تظهر فيها بقايا العسكرية التى كان عليها ابن الرعد (١١٢) ، وفى عام ١٨٠٨م تم وصف عذراء سرقسطة بأنها " قائدة القوات الأرغنية " التى خاضت حربها ضد الغزاة الفرنسيين ، وفى القرن العشرين نرى تمثالها وقد حصل على رتبة " القائد العام " وهذا مؤشر ضعيف ومتأخر زمنيًا على هذا النوع من التقديس العسكرى ولاشك أن القارئ قد ألِفَ هذه الأمور بعد أن قطع هذا الشّوط فى قراءة الكتاب (١١٣)؛ وتدين إسبانيا لتلك المفاهيم فى تكوين بعض ملامحها ، وحتى نتعرف عليها يجب أن نتأملها من بعيد ومن مسافة مرتفعة وألا نستخدم عيون القروىّ التقدمىّ ، فالمسارات التى تتوصل إليها الإنسانية لا حصر لها ولا يعلم أحد إلا الله ما هى الطرق الحقيقية والحقّة .

بقيت أمامنا كلمات نقولها بشأن كتيب كيبيدو " سيفك من أجل سانتياجو " فلقد كان ذلك الكاتب أول مؤرخ للأحداث المعاصرة ، وانحصرت المعاصرة فى هذه الحالة التى طُرح فيها على الملأ نقاش حول مشاعر تستكن فى اللاشعور ، فالحياة الإسبانية بدأت تتخذ أبعادًا اجتماعية جديدة ، إذ أنه إضافة إلى الظروف الجديدة (لم يعد هناك حرب ضد المور) نجد أن أزمة سانتياجو تنجم عن تغيير حدث فى المسار الدينى خلال النصف الثانى من القرن السادس عشر ، وهذا بفضل التوجّه الصوفى الذى عليه القديسة تيريسا والقديس خوان دى لا كروث فالحياة الروحية الحميمة هى طريقهما وهذا أمر يحدث لأول مرة وخاصة فى أرقى صوره ، إذن نرى هناك التيارات البعيدة للروحانية الإسلامية التى تساعد على إضاءة النور فى قلوب هؤلاء الذين احتكوا بالتصوف الأجنبى ، وكان هذا مسار التاريخ الذى قد لا يلاحظه القارئ إذا لم يطلع

على هذا الكتاب بكامله ويدرك كل جزئية فيه ، ورغم أننا سوف نتناول تعقيدات السياق الإسلامي المسيحي في الصفحات التالية نبادر من الآن إلى القول بأنه في الوقت الذي طغت فيه الحياة الإسلامية المفعمة بالكثير من القيم ، على الحياة المسيحية كان من المستحيل التشبّه بها في شيء يؤدي إلى اتخاذ أشكال وأنماط مشابهة ، ولقد كان حافز المقاومة هو البند الوحيد في عملية الكفاح السياسي التي يوجّهها نجم سانتياجو، ولما كانت القيم هي أكثر ما في الإنسان صلابة وهي الأساس في نجاح شعب قليل الموارد الثقافية الخاصة به ، فإن أساس وجوده خلال الفترة من القرن التاسع وحتى الرابع عشر ينحصر أساسًا في رغبته أن يكون مختلفًا ، أي ألا يكون مسلمًا أو يهوديًا ، وبذلك يحقق ذاته ، ولقد استعان المسيحي بالكثير من المبتكرات العربية ويشمل ذلك شكل مجاله الحيوي (بمعنى القدرة على الجمع بين ما هو دنيوي وما هو أخروي) أما سبب الاستعانة بكل هذا فهو الحاجة الماسة ، وربما فعلها الشعب بشكل غير واع وقد كان لهذا الموقف الحيوي تأثيره على التجربة الداخلية للفرد ، ولا تتم ترجمته في أنماط خارجية ، أما فيما يتعلق بنمط الوجود المتكامل والواقعيّ للإسبان (الشعبية والالتصاق بالتقاليد وسيطرة الإيمان على العقل ..الخ) فلم يكن بقدرته – في حد ذاتها – الإبداع في الدين أو الفن أو العلوم بشكل موضوعي ولم يكن ليوقظ الانطباع بأن هناك تقليداً للعرب ، إلا أن الرجل الليوني القشتالي كان يمكن أن يشعر بأنه يقلد منافسه المخيف إذا ما قام خلال خمسمائة العام التي انصرمت آنذاك (من القرن التاسع حتى القرن الرابع عشر) بالتعبير عن مشاعره في شكل شعر غنائي أو ممارسة الرفاهية الفكرية أو أطلق العنان لروحه في بحر التصوف ، ولم يبدأ القشتالي – لهذا السبب وغيره – في الانقياد للشعر الغنائي أو التأمل الصوفي إلا عندما شعر بابتعاده كثيراً عن جيرانه الألداء ، ولم يخرج الشعر الغنائي للنور إلا في القرن الرابع عشر بعد أن احتك بالقوالب العربية واليهودية ، وبعد ذلك بقليل ظهرت إلى الوجود جماعة القديس خيرونيمو التي تعتبر أول نموذج للحياة الروحية على الطريقة الإسبانية، ثم مضى قرن آخر حتى أخذنا نرى بعض من خاضوا تجارب صوفية ولم يظهر التصوف بمعناه العميق إلا في النصف الثاني من القرن السادس عشر ،

والسبب فى هذا التأخير هو ذلك الإقليم من أقاليم النفس التى يعتورها الكثير من الشكوك والترددات ، فالقشتالى الذى كان يعيش خلال العصور الوسطى ، والذى ساهم فى حرب الاسترداد ، وأضفى طابعه على إسبانيا ، قد رفض الميل للمشاعر والتعبير الغنائى عنها ، كما شعر بالنفور من الحديث بشكل علنى عن التجربة الروحية وعلاقتها بالله ، فهذه أمور تخص المور ، ورغم أن مؤلفات سان برناردو يتم تداولها فى أديرة ثيستور لم تقدّم لنا العصور الوسطى متصوفا واحداً جديراً بالذكر ، إلا أن من كانوا فى هذا الميدأن من المسلمين (١١٤) .

ورغم أن التصوف العميق يرجع إلى القرن السادس عشر فقد اتسم بندرته وقلة استمراريته ، ولم يكن السبب الرئيسى هو محاربة الكنيسة ومحاكم التفتيش له ، إذ يمكن أن نبحث أسباب هذه القضية وأخريات من خلال الناس وليس من خلال ما أحيط بها من بواعث ، فلم يَرُق الإصلاح الذى أدخلته جماعة الكرمل لكيبيدو وكذا الجماعات الدينية الأخرى ، وتمثل الإصلاح فى دعوة جماعة الكرمل إلى الاعتزال والتأمل فى الذات الإلهية واللجوء إلى العمل اليدوى وطبقًا لما كان سائداً لدى جماعة سان خيرونيمو خلال القرن الرابع عشر (١١٥) وهى طائفة ترفض التسوّل ، كما أنها رفضت أن تكون القديسة تيريسا الحامية المساعدة ، كما أن كيبيدو يزدرى هذا النوع من التصوف ، فقبل هذه الجماعة " تم الحديث عن هذا النوع من الصلوات واللاهوت فى إسبانيا " فى كتاب عنوانه " عربة ذات حياتين " Carro de dos vidas {أشبيلية عام ١٥٠٠م} : " لايوجد شيء يتعلق باللاهوت التصوفى والتجليات والذهول والرؤى وكل ما يتعلق بالقديسين وكبار الكتاب إلا وجمعه ودوّنه ريكاردو وسان بوينا بنتورا " {صـ ٤٤٨} ، غير أن الرغبة فى الجدل عند كيبيدو وجفاف روحه حالا دون أن يفهم أعمال سانتا تيريسا وما تتضمنه من قيم ، إلا أن تلك الأسباب لا تجدى نفعًا لدى جماعة الفرنسيسكان التى رأت كل أشكال الحب الإلهى من منظور جيد . وترى هذه الجماعة أن السبب الكامن هو الشعبية والتسوّل وهنا يتحدث الفرنسيسكان – باستخفاف – عن جماعة الكرمل لما تقوم به من أعمال ولمحاولتها إحياء الحياة الحقيقية " دون أى تأثير من الحياة العامة ، فعليهم أن يعملوا ويكسبوا قوتهم من عمل أيديهم ... ولما بدا

أن ذلك هو من السماء صدرت الموافقة على وجود مغازل وعدد أخرى فى الأديرة لكسب القوت بطريقة شريفة " ، إلا أن التجربة فشلت طبقًا لما عبّر عنه الفرنسيسكان بنبرة فيها غبطة " فإذا ما أقيم شيء من ذلك نجده لا يستمر إلا أيامًا قليلة ، انظر الآن إلى العديد من الأديرة التى تم تأسيسها بغية هذا الإصلاح ، ويااليتها كانت فى الصحراء فقط أو كانت تعيش مما تُنتِج أو تطلب الصدقات أى كان لها دخل " {صـ ٤٤٧} .

حاول رهبان الكرمل فى بداية القرن السابع عشر (١٦٠٠م) السير على تجربة جماعة " أخوة الحياة المشتركة " Hermanos de la Vida Comun (فى فلاندس) وفعل ذلك رهبان خيرونيمو ابتداء من القرن الرابع عشر : أى الانخراط فى التأمل الروحى وممارسة الصناعات اليدوية لتحقيق أهداف اجتماعية ، وقد أشار عامة الفرنسيسكان إلى فشل التجربة ، وفى موضع آخر حاولتُ الإشارة إلى أن طائفة خيرونيمو لم تحصل على ثمار تكتسب صفة الدوام / فلقد كانت الحياة الإسبانية تبتعد عن حياة التأمل وعن العمل اليدوى ، وهى أنشطة مارسها قبل ذلك المتصوفة المسلمون على طريقتهم وبشكل واضح ، ثم تولى سان خوان دى لا كروث إدخال إصلاحات على جماعة الكرمل، وكانت كلماته وعباراته الصوفية صورة طبق الأصل – فى بعض النقاط الجوهرية – لكلمات ابن عبأد الرّوندى ، وهذا ما أكّده أسين بلاثيوس ، وسوف أبرهن فيما بعد على الكيفية التى يقوم بها راهب من جماعة الكرمل بترجمة مباشرة أو غير مباشرة لبعض فقرات كتاب ابن حزم وهى تلك المتعلقة بالحياة الجنسية – الدينية ، كما أن هذه الجماعة تعمل فى الوقت ذاته على الجمع بين المهام الجسدية والروحية وبذلك نجدها تقف ضد الروح العسكرية لسانتياجو وتحبذ الحماية الحميمة لقديسة مدينة أبيلا ، غير أن تأثير هذه الجماعة على الحياة الإسبانية كان ضعيفا ، وذهبت محاولاتها فى تغيير التوجهات المتمكنة من النفوس أدراج الرياح مثلها فى ذلك مثل محاولات أخرى سبقتها ، وعندما تولت محاكم التفتيش القضاء على نفوذ الروحانية الحميمة كانت متوافقة مع توجّهات جوهرية .

كان الجدل العنيف (والبعيد عن السلام على الطريقة المسيحية) حول الحماية الوحيدة أو المشتركة لإسبانيا من قِبَل القديسين بمثابة التأكيد على أن سانتياجو هو العنصر الجوهرى فى التاريخ الإسبانى ، كما أن كيبيدو قد شعر بذلك بقوة " فلقد جعله الرّب حامى إسبانيا ، التى لم تكن قبل ذلك ، وأن يقوم على رعايتها بالعقيدة والسيف حتى أصبحت إسبانيا " {صـ ٤٤٥} ، " إنها تدين بكل شىء لسانتياجو " {صـ ٤٣٨} ؛ وأمام المفهوم السياسى العسكرى للتاريخ نجد جماعة الكرمل ترى أن الناس كانوا يعرفون القليل عن الذات الإلهية قبل مجىء القديسة تيريسا {صـ ٤٤٩} وهنا نجد مواجهة بين مفهوم برجماتى ونشط لما هو إلهى وبين مفهوم آخر هو أن يعيش المرء الذات الإلهية من خلال التأمل المحض الذى لا يعنى بالأمور العسكرية ، ولم يبق مكان للحوار والعمل مع المُحَسّات التى هى من صنع الله ، أى نعيش بين التوجه العسكرى وبين الاستجداء (١١) .

لم أحاول فى هذه الصفحات كتابة تاريخ سانتياجو الجليقى ، ولكن الهدف هو توضيح الكيفية التى جعلت ظهور ليون وقشتالة إلى الوجود أمرًا ممكنًا ، وبعد ذلك إسبانيا ، وذلك من خلال الاعتقاد فيه ، ولقد زادت العقيدة من روح الإقدام وجعلتها أكثر فعالية لكنها أسهمت فى الوقت نفسه فى التقليل من قيمة الفكر والتعامل المباشر مع الأمور الدنيوية ، وعندما تهبط أسهم ذلك الاعتقاد فى القرن السابع عشر فليس هناك أى باعث دنيوى يمكن أن يحل محله ، ومنذ ذلك الحين نرى الإسبانى فى حالة تذبذب بين تراث مرغوب فيه (لكن من الصعب الإمساك به) وبين حاضر تحكمه التوجهات التكوينية لشعوب أخرى ، ثم تحل معتقدات أخرى محل الإيمان بسانتياجو ومنها - على سبيل المثال - الملوك الكاثوليك ، حيث أخذ أحد الكُتّاب وهو كادالو Cadalos يتنسّم رائحتهم مع نهاية القرن الثامن عشر ، وفى القرن السابع عشر تبدأ المهمة الضخمة المتمثلة فى تحويل المجرى العام للوجود المشترك والذى ابتعد عن المسيرة " التقدمية " التى عليها باقى الدول الأوربية ، وقد حاول الكثير من العظماء الإسبان (خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر) القيام بالمهمة النبيلة والبطولية للبدء بتاريخ ونمط حياتى جديدين ، وقد تمخض هذا الجهد عن إبداعات عظيمة

وإنجازات وتربية رجال معروفين للجميع ، ومع هذا فقد كان رد الفعل هو المزيد من ممارسة الوجود الذى أطلقتُ عليه " العيش فى اللاعيش " والذى بدأ مساره بوضوح خلال القرن الحادى عشر ، وارتبط بالحاجة إلى مواجهة المسلمين سواء فى تناغم أو تعارض .

وقد أجبرتنا الحاجة إلى القراءة الواضحة لهذا المُعتَقد الإسبانى على تجاوز إطار العصور الوسطى ، وبعد أن تنتهى محاولتنا ستكون العودة إلى نقطة البداية إجبارية لنرى نتائج أخرى ترتبت على التعايش الإسبانى الإسلامى خلال القرون التى نحن بصدد دراستها .

الهوامش

(١) بيدال " إسبانيا السيد " صـ ٧٤ ، ٧٧ ، ٧١٠

(٢) " إسبانيا المقدسة ، الجزء التاسع عشر ، صـ ٣٦٦ . أ. لوبث فيرّيرو " تاريخ كنيسة سانتياجو ، الجزء الثانى صـ ٣٢٩ - بيدال ، المصدر السابق ، حيث يقول النص اللاتينى Totius Orbis antistiti

(٣) إذا ما عرفنا جيداً ما كان عليه البابوات الرومان خلال القرن العاشر ، وكيف كانت ليون وسانتياجو تنظران إليهم لفهمنا بشكل أفضل توجهات رجال الدين فى كومبوستيلا :" فبابوات ذلك الزمان يختفون ويظهرون حسب أهواء الجماعات الإقطاعية ، فمنهم من يموت اغتيالا ومنهم من يقضى نحبه فى السجن ، وكانت اللاأخلاق - فى هذا الجو الرومانى - تسير فى خط موازٍ للفظاظة ، وكانت الدسائس النسائية فاعلة فقد اعتمدت كل من ماروثيا وتيودورا على عشيقيهما أو كل واحدة على زوجها لتعْيين أبنائهما بابوات { انظر " تاريخ أوربا " - ١٩٣٦ صـ ١١٥ لـ H. Pirenne } .

(٤) كانت محاولة خلق ثنائية " البابوية - الإمبراطورية " واضحة للعيان فى إسبانيا

(٥) لوبث فيرّيرو " تاريخ الكنيسة المقدسة " - المصدر السابق - الجزء الثانى صـ ٤٨٣ (u Quia Contra fas sibi Vcndicaret Culmen apostolici nominis

(٦) C. Michaëlis فى Cancionero da Ajuda الجزء الثانى صـ ٨٠٥ ، حيث تتضمن هذه الأغانى الأستورية التفكير فى سانتياجو عند ذكر روما .

(٧) " التاريخ العام " صـ ٣٦٩ ط ، كان ذلك الملك مساهمًا عظيمًا فى بناء الكنائس ، فعلى طريق سانتياجو نجد مقرّ اثنين من القديسن التوءمين وهما فاكوندو وبريميتيو (...)

(٨) فيما يتعلق بـ" Ortu et obitu patrum" الذى نسب للقديس إيسيدورو دون أى سند على ما يبدو، فقد أسهم فى إحداث اللّبس ، وهو ما نجده أيضا فى نصّ بيزنطى هو بمثابة الأساس ويرى الأب دوشنسى فى (Annales du Midi , 1900 X11, pp 156 - 157) أن ذلك كان خطأ كبيرا

(٩) لوبث فيرّيرو -المصدر السابق - الجزء الأول صـ ٦٣ حيث يشير إلى قائمة الشهداء خلال القرن الثامن والقرون التالية

(١٠) رندل هاريس "The Twelve Apostoles" Cambridge 1927 passim"

(١١) تترجم القصة النص اللاتينى لما أطلق عليه " Votos de Santiago]فلوريث " إسبانيا المقدسة" - ، التاسع عشر ، صـ ٣٣١ . وعلى أساس ذلك النص نجد أن مهمة سانتياجو تم تصويرها على

أنها عمليات حربية ترتبط بحرب الاسترداد ، فالرّب لم يرسل بأى من الحواريين للصراع باستخدام السلاح بل بعث بهم ليعلموا الناس ويدعوهم بالحكمة .

(١٢) " تجلّت الآلهة لنا ولبوستميو فى بحيرة ريجيلو ولباثينو فى طريق سلاريا ... هل تظن أنهم كانوا يمتطون خيلاً أبيض عندما تجلوا لباثينيو ؟ (Cicerón , De natura deorum III,5,II,6) وفى هذا المكان الأخير يقال إنه قد شوهد كل من كاستور وبولكس وهما يحاربان فى معركة بحيرة ريجيلو ، وحول هذا الموضوع وغيره انظر المقال الممتاز عن الديسقوريين تأليف Pauly Wissowa – الموسوعة الملكية الجزء التاسع – عمود ١٠١٩ . ظهر هذان الإلهان منذ القدم وهما مرتبطان بالخيل ذات اللون الأبيض .

(١٣) أرى أنه تحدث عن الطابع الديسقورى لذلك التجلّى . انظر A. H. Krappe Spanich twin cults e' Stusi e materiali di storia delle relígioni 1932 - VIII pa 13. ويتضمن هذا المقال معلومات أخرى حول ثنائيات من القديسين فى إسبانيا ، بالإضافة إلى ملاحظات أخرى مهمة .

(١٤) ر. هاريس "Boanerges , 1613, pp. 2 - 4"

(١٥) The Way of S. James, 1920, III, pp. 294 y ss.

(١٦) Les cultes païens dans l' Empire Romain, I, I, p.411.

(١٧) "Castori et Polluci M. Valerius Anthus Votum Solvit Libens (CIL, II, Suppl. " 6.070).

(١٨) Thomas apostolus Christi, Didymus nominatus, et juxta Latinam linguam " Christi geminus, ac similis Salvatoris." (En R. Harris The Twelve Apostles, p.55.)

(١٩) Ed. Shepss, p. 44. R. Harris, Boanerges, p.408, no gemelo حيث يلاحظ أن بريستليانو لا يرى مصاعب فى الجمع بين ألوهية المسيح ووجود شقيق توءم له

(٢٠) Similiter et illum venerabilem Jacobum qui cognominatur Justus; quem re- " ferunt Christo Jesu simillimum vita et modo conversationis, ac si ejusdem uteri frater esset gemellus; quem, dicunt, si videro, video ipeum Jesuni secundum omnia corporis ejus lineamenta." (Texto en J.B. Lightfoot, the Apostolic Fathers, parte II, vol. II, p.655.)

(٢١) Hechos de Andrés y Matias, en A. Walker, Apochryphal Gospels1873, p.364

(٢٢) وقد عثر عليها فى كاتدرائية ليون ، فى أحد الصناديق ومرفق بها نص مكتوب بخط قوطى ولهذا فهى سابقة على القرن الثانى عشر (انظر غ. اى. دياث خيمنث BAH، 1892, XX p. 126

(٢٣) الجزء الثالث صـ ٥٨ ، ويلاحظ أسين أن ذلك الرأى نعثر عليه فى مؤلفات سان خوليان الطليطلى، ودافع عنها أبولينار – حيث كان أحد تلاميذه يدعى خوليان ، ومن هنا كان اللبس الذى وقع فيه ابن حزم . وقد

سادت فى إسبانيا القوطية عدة معتقدات من هذا النوع الكبير من الهرطقات مثل الذى واجـهته الكنيسة الإسـبانية (H. of Dofma لندن ١٨٩٨م - الجزء الخامس - صـ ٢٨٢) .

(٢٤) انظر الملحق رقم (١) يوسف النجّار .

(٢٥) " البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب " - الجزء الثانى - دار الثقافـة - بيـروت لبنان - صـ ٢٩٥ - ٢٩٦

(٢٦) وهى بالعربية " لزوم " طبقا لمعجم : Lane وكأننا نقول فى الحـالة التى نحن بـصددها " أنهما لا يفترقان عن يسوع أبداً "

(٢٧) (نفح الطيب للمقرّى - الجزء الأول صـ ٣٩٠ - ٣٩١ (الطبعة الأولى) ١٩٤٩ المكتبة التجارية

(٢٨) " Majus est esse fratrem Domini spiritualiter quam carnaliter. Quisquis ergo aut Jacobum zebedaei au Jacobum Alphaei fratrem Domini, verum dicit." (Sermones quatuor de Sancto Jacobo Apostolo in Gallaecia habiti", en Patrologia, de Migne S. L., vol. 163, col.1.387.) وهانحن نرى دليلاً آخر على الخلط بين كلتا الشخصيتين من خلال "Historia Compostelana ولقد اكتشف السيد ماوريثيو أسقف كويمبرا رأس سانتياجو الصغير فى القدس وأتى بها إلى إسبانيا (" إسبانيا المقدسة " - الجزء التاسع عشر صـ ٢٥٢ لكن كتاب H. Compostellana (فى إسبانيا المقدسة ، الجزء العشرون صـ٢٢٢) يرى أن هذه الرأس تنسب إلى الجسد المدفون فى كومبوستيلا ، وهذا ما يبرهن على عدم وجود صعوبات بإسناد رأس شقيق المسيح إلى حامى إسبانيا .

(٢٩) Concionero de Ajuda , II, p 842

(٣٠) Patrologia , loc. Col. 1398

(٣١) انظر E. Amann "Le protevangile de Taques, 1910 pp. 216 - 217 P. Santyves, 43s, Deux Mythes evangeliques , 1938, p. 89

(٣٢) لم أعرف أى دراسة تتعلق بتسرّب المادة المتعلقة بالنصوص المزّيفة للعهد الجديد إلى إسبانيا واستمرارها ، وقد رأينا قبل ذلك أن بريسثيليانو قد استخدمها ، ولابد أنها استمرت فى الطقوس المسيحية التى كـان يمارسـهـا المسـتـعـربون ، فـهناك نشـيـد " Hy mnus in diem sancti thome Apostoli" والمستوحى من " أعمال توما " الديدمى ، أى الأخ التوءم للمسيح ، ومن خلال " أعمال توما " يظهر المسيح على نفس الصورة التى عليها توما " أى على شكل يهوذا توما " وعلى المسيح أن يوضح لهؤلاء الذين يخلطون بينه وبين القديس الرسولى " فقال له الرّب أنا لست يهوذا ، وهو أيضًا توما ، أنا شـقيق " { The Ante- Nicene Fathers نيويورك ١٩٢٥ - الجزء الثامن - صـ ٥٣٧} أما توما فقد كان من البنائين المهرة طبقا لأصوله اليسقورية ، كما نراه هكذا فى الأنشودة التى يرددها المستعربون . وقد جاء أناس من الهند ليطلبوا من الرّب مهندساً فعيّن لهم توما فهو " المهندس المناسب " ، لكن النشيد المستعرب لا يشير إلى أن كليهما قابل للمبادلة بالآخر واقتصر على إطلاق لقب " الرّسل الديدميون " عليهما (انظر The Mazarabic psaler ed. Par J. P. Gilson , Londres, 1905 p. 199

Ihesus uocauit lacobum Zebedei et imposuit eis [sic] nomina Boanerges. " (٣٣)
Eduxit Ihesus beatum lacobum in montem seorsum,et transfiguratum est ante eum
أما " اليهم " فيشير إلى أن اسم يوحنا كان يذكر (A. López Ferreiro, Hist. Igl. Sant.,I,p.427)
أيضًا فى طبعة سابقة فعلى جبل تابور (إنجيل متى - السابع عشر) كان هناك بطرس ويوحنا وسانتياجو ،
إلا أن مؤلف هذه الترانيم لم ترق له صحبة الحواريين الآخرين ويقصر عملية التجلى على سانتياجو فقط .

(٣٤) " Clamabat namque modo peregrinali، voces ezcelsa: Deus، adiuva،
sancte Jacobe"(Patrologia , 163, col . 1, 390).

(٣٥) النص اللاتينى عند لوبث فيرّيرو " تاريخ الكنيسة " الجزء الأول صـ ٣٩٢ - ٤٠٥

(٣٦) تاريخ إسبانيا الجزء السابع صـ ٥

(٣٧) سلسلة مكتبة المؤلفين الإسبان العدد ٤٨ صـ ٤٤٥ b

(٣٨) التاريخ الكنسى لإسبانيا - الجزء الأول - صـ ٩٣

(٣٩) Annales du Midi, XII (1900) p. 179

(٤٠) انظر منندث إى بيلايو " تاريخ الهرطقات " الجزء الثانى صـ ٢٦١ ، يجب قراءة هذا النص المهم للغاية فى طبعة C.P. Caspari بعنوان Martin Von Bracara's Schrift De correctione rusticor-um, Christiania 1883. وقد كتب ذلك العمل خلال الفترة بين عام ٥٧٢م و ٥٧٤م وكانت موجهة للفلاحين الذين يقطنون فى الإقليم الشمالى الغربى (أبرشية أستورجة ، وبراجا ، وبالإضافة للفقرة التى ذكرها منندث إى بيلاريو ، نجد فى الطبعة القديمة " إسبانيا المقدسة - الجزء الخامس عشر " نصا يقول " عجبت لرجل مسيحى لا يحتفل بيوم الرّب (الأحد) الذى بعث فيه ، لكنه يحتفل بيوم جوبتر وميركوريو وفينوس وساتورنو ، وهؤلاء ليس لهم أى يوم كما أنهم كانوا من الزناة والسّحرة واللاعين وكانت نهاية حياتهم مؤلة كل فى أرضه " (صـ ١٢).

(٤١) E. Ch. Babut, Priscillien et le Priscillianisme, 1909 pp. 120 y 233.

(٤٢) Véase L. Duchesne,en Annales du Midi,XII (1900), p.153

(٤٣) Véase R. Menéndez Pidal, en RFE, IV (1917), pp. 151 - 152. Th. Heiner-man, Berardo del Carpio, 1927.

(٤٤) " التاريخ العام " صـ ٣٧٦ أ

(٤٥) ووصل الأمر إلى ما هو أبعد من ذلك وهو أن أحد المنشدين من نابارّة قبل خلال القرن الثالث عشر أن يقول شارلمان فى " رونيسبابين الإسبانية " : عبّد الطرق الخاصة بالقديس الرسولى سانتياجو " ويعترف بشرعية الموضوع الفرنسى المتعلق بملحمة رولدان (انظر منندث بيدال فى RFE ، الرابع ، عام ١٩١٧م صـ ١٥١ وما بعدها.) وربما كان مؤلف هذا النشيد على علاقة بالأديرة الفرنسية التى كانت تعنى بزيارة الحجيج أكثر من الاهتمام بحسن صيت قشتالة .

Véase G. H. Gerould. King Arthur and Politics", en Speculum, II (1927) (٤٦) p.37. Desde hace mucho se conoce que el rey Arturo antagoniza a Carlomagno: véase W.A.Nitze, ibid p.318.

The Mozarabic Psalter, ed. Por J.P. Gilson,1905, pp.208 - 209. (٤٧)

"O uere digne sanctior apostole,/ caput refulgens aureum Ispaine,/ tu- " (٤٨) torque nobis et patronus uernulus, / uitando pestem este salus celitus, / omonino pelle morbum, ulcus, facinus (p.210). La raz?n para fechar este him no entre 783 y 788 es el siguiente acróstico O rex regum, regem pium mavrecatum exaudi cui probe hocamore prebe".

C. Michaëlis de Vasconcellos, Cancioneiro da Aiuda, II, p. 834, para la pro- (٤٩) tecci?n dada por Santiago a plantas y ganados.

(٥٠) وهى بالبرتغالية " Bispo de Santiago, ballista e bago". (Véase C. M. de Vasconcellos, Cancioneiro da Aiuda, II, p. 816.)

(٥١) إسبانيا المقدسة – الثامن عشر – ملحق ٢٣

(٥٢) إسبانيا المقدسة – العشرون –ـ ٣١

(٥٣) النص عند أ. لوبث فيريرو – المصدر السابق – الجزء الثانى صـ ٤٨٦ – ٤٨٩

(٥٤) النص عند أ. لوبث فيريرو – المصدر السابق – الجزء الثانى صـ ٢٣١ ، ٢٣٩

(٥٥) H. Compostellana الجزء الثانى – صـ ٣ (من خلال : إسبانيا المقدسة العشرون – صـ ٢٥٦) .

"Sancto Jacobo Apostolo in cuius ditione terra vel regimen consistit totius (٥٦) Hispania" (C.M. de Vasconellos, Cancioneiro, da Aiuda, II,p. 797)

(٥٧) أ. لوبث فيريرو – المصدر السابق – الجزء الثالث – صـ ٢٥ من الملحق

(٥٨) أ. لوبث فيريرو – المصدر السابق – الجزء الرابع – صـ ١٠٨ من الملحق

(٥٩) ذكره كيبيدو فى " سيفك من أجل سانتياجو " سلسلة مكتبة المؤلفين الإسبان – ٤٨ صـ ٤٤٣ ب.

(٦٠) يوجد بالقرب من يافا (فى فلسطين) مكان يطلق عليه ابن أبرق ، إبرق " أى ابن الرعد " والجمع أبناء الرعد . وابن برق توجد فى مرتفع يسيطر على ميناء يافا . كما أن فنارة الإسكندرية كانت مكرّسة للديسقوريين (استرابون – السادس عشر – ١ ، ٦) وكذلك الحال فى مناطق أخرى تطل على حوض البحر الأبيض المتوسط (R. Harnis , Boanerges p 199

E. Sackur, Die Cluniacenser, II, p.68. (٦١)

(٦٢) "A quo tamen vcl quo temporc vcl unde huc delatum, vcl si praecursoris Domini sit, haudquaquam fidcliter patct" (" Historiaarum libri tres", en Patrologia, 141 .col.67).

(٦٣) J. Bédier, Les légendes épiques, III, pp. 34 y ss.

(٦٤) ر. بيدال – إسبانيا السيد صـ ١١٩

(٦٥)خ. بيريث دى أور بيل " الرهبان الإسبان خلال العصور الوسطى " – ١٩٣٣م الجزء الثانى صـ ٤١٦ والتالية لها .

(٦٦) أديمار دى شابان فى Patrolog?a , 141 . col. 56

(٦٧) يمكن الاطلاع على سيرة جييرمو الأكيتانى فى " التاريخ الأدبى لفرنسا " الجزء السابع صـ ٢٨٤ ، فى La Patrologia de Migne 141, col 823

(٦٨) أ. دى يبس " التاريخ العام لجماعة سان بنيتو ، ١٦١٥ ورقة ١٦٧

(٦٩) " ضرائب الجمارك خلال القرن الثالث عشر " فى RFE صـ ١٩٢٢ – ١٩٢٤

(٧٠) خ. بيريث دى أوربل – المصدر السابق – الجزء الثانى – صـ ٤٤٦ – ٤٤٨.

(٧١) كانت لها صلة قرابة بأمراء كارّيون فى ملحمة السيد ؛ انظر بيدال : ملحمة السيد صـ ٤٥٠ وما يليها

(٧٢) Recueil des chartes de l'abbaye de Cluny, 1888. IV, pp. 406. 336.

(٧٣) ر. بيدال " إسبانيا السيد " صـ ٢٧٣

(٧٤) Migne, Patrologia, 156. col. 653. Véase M. Bloch, Les rois thaumaturges, p. 39.

(٧٥) M. Bloch, Les rois thaumaturges, pp. 79 - 81.

(٧٦) M. Bloch, op. cit., p. 312.

(٧٧) يمكن أن نعثر على شرح مفصّل لذلك عندما نتحدث عن خوان رويث مؤلف كتاب " الحب المحمود.

(٧٨) والتفسير غير المعقول هو القول بأنه تم استدعاء كلونى لتهدّم الأديرة بعد الحملات التى قام بها المنصور بن أبى عامر ومن جاءوا بعده ، والحجة فى ذلك هى أنه عندما تم تسليم الأديرة الكبرى للرهبان القادمين من بورجونيا كانت حالة جماعاتها جيدة لدرجة يصعب معها فى بعض الأحيان وضع الأجانب فيها . ومن ناحية أخرى نلاحظ المبالغة فى وصف التدمير الذى ألحقه المنصور فدير أبيّار المجاور لمدينة ليون لم تتوقف الحياة فيه غير فترة قصيرة ، وقد كان الراهب ثيودو يتلقى الهبات فى الدير خلال الأعوام ٩٩٤م ، ٩٩٧م و ١٠٠١م وهو العام الذى يحل محله فيه الراهب فرديناندو ، ولم يكن المنصور هو الذى دمّر دير أبيّار

بل كان النابارّيون فى عام ١٠٣٤م و ١٠٣٥م (انظر خ إى. دياث خيمنث فى DAH .XX, 1893. pp. 149-150 ، كما لم أطلع على مقال رفائيل ألكوثيو " العلاقات الاقتصادية بين ملوك إسبانيا وكلونى " المنشور فى المجلة التاريخية فى بلد الوليد – العدد الأول (١٩١٨) صـ ١٦١ – ١٦٨ ، ٢٠١ – ٢٠٩ .

(٧٩) لندرك جيدا أن التدخل الدولى خلال القرن الحادى عشر لا يجب أن نخلطه بمفاهيم العصر الحاضر التى تنحصر فى التوصل إلى المكاسب العسكرية والاقتصادية ، فالناس – خلال القرن الحادى عشر – يعيشون فى كنف الذات الإلهية ويشعرون بقوتها وهو نفس ما نشعر به اليوم من جراء ما تحدثه القوى الجسدية ؛ إذن لم يكن هناك فصل بين ما هو روحى وما هو عرضىّ ، إلا أن درجة القيم المرتبطة بكل واحد من نواحى الحياة – وإعطاء الأولوية لأحدها على الآخر – أدت إلى إحداث اختلافات جوهرية بين الشعوب الأوربية ، وبالتالى فمن الخطأ تفسير سياسة الجماعات الدينية الفرنسية على أنها مناورات – خفية – بغية تحسين أوضاعها المالية ولاشئ أكثر ، فكل ما هو إنسانى كان يدخل فى دائرة ما هو إلهى خلال القرون : العاشر والحادى عشر والثانى عشر

(٨٠) "Geschichte der portugiesischen Literatur", en Grundriss, de Gr?ber, II,2, p.129.

(٨١) P. B.Gams, Kirchengeschichte von Spanien, 1876, III, pp.64 y ss.

(٨٢) De rebus Hispanie , VIII , 5, ed la Hispanie illustratae , II, p. 114

(٨٣) ان يكون هناك معنى لتأسيس انفصال البرتغال على مزايا خاصة تتمتع بها المنطقة المجاورة لجليقية ، فأى مجتمع إنسانى هو محصلة مجموعة من الظروف ، ولولا هؤلاء الكونتات البرجونيّون لما قامت للبرتغال قائمة كأمة مستقلة .

(٨٤) يقول الأب خوان دى ماريانا (العاشر/ ١٧) إن هناك البعض يعتقد ("Stulte Scilicet et inaniter (لاشك أنها حمقاء ولا جدوى من ورائها) أن التروس الخمسة هى جراح المسيح ولا تشير إلى الأعلام الخمسة للقادة الخمسة من المور الذين هُزموا فى معركة Ourique، ولكن الأب ماريا يكتب – فى الطبعة الإسبانية – متخذا المزيد من الحذ – " لست أدرى ما إذا كان ذلك يعتمد على أسس صلبة أم لا " ، والسبب النقدى الذى ساقه الأب ماريانا تم التعبير عنه باللاتينية التى لا نقرؤها إلا قليلا ، وليس باستخدام لغة الجميع ، وهذا ما يجب مقارنته بما كان يكتب فى فرنسا القرن الحادى عشر حول رأس القديس يوحنا المعمدان ، وبعد ذلك عن السّن اللبنيّة للطفل يسوع .

(٨٥) وقد كانت الشهرة الواسعة للقديس الرسولى سببا واضحا فى مدى انتشار الجليقية التى تستخدم فى الوثائق القانونية فى سامورة Zamora وسلمنقة حتى بداية القرن الثالث عشر ، أو فى الشعر الغنائى الذى ألفه الملك ألفونسو العالم وآخرون غيره.

(٨٦) أ. لوبث فيريرّو " تاريخ " المصدر السابق – الجزء الخامس ص ٣٦٩

(٨٧) Historiarum libri quinque , en Pathologia , 142, Cal 640

(٨٨) خ. بيريث دى أوربل " الرهبان الإسبان خلال العصور الوسطى ، الجزء الثانى ، صـ ٤٥٠

(٨٩) VéC. Meredith - Jones, Historia Karoli Magni et Rotholandi, o Chronique du pseudo - Turpin, París, 1936. Véase p. 43 para el contenido del códice, y la abundante bibliografía de las pp. 353 - 357.

(٩٠) غ. بيريث دى أوربل – المصدر السابق – الجزء الأول صـ ٢٥٣ ، ٧٢٥

(٩١) ويقول غ. أ. بروتيل بشئ من المبالغة " ربما تنتسب نابارّة العصور الوسطى إلى فرنسا أكثر من إسـبـانيا) Documents des archives de la chambre des comptes de Navarre. 1890, p.II).

(٩٢) " كان القرن العاشر فى المنطقة الأستورية الليونية صعبا للغاية ويتعارض مع ازدهار الحياة الروحية " (سانشيث ألبورنوث : ملاحظات حول الكتب المقروءة فى مملكة ليون) مجلة " كراسات تاريخ إسبانيا – بوينوس أيرس العددان الأول والثانى – ١٩٤٤ صـ ٢٧

(٩٣) المذكرات المجهولة لساهاجون – طبعة خ بويول صـ ٣٢ .

(٩٤) "Etat des monastéres espagnols de l'ordre de Cluny aux XIII et XV' sié-cles",en BAH,XX (1892), pp.321- 431.

(٩٥) Recueil de chartes de Cluny , IV , p. 666

(٩٦) التاريخ العام صـ ٦٥٧ أ

(٩٧) تاريخ الكنيسة المقدسة – الملحق – صـ ٤٤ – الجزء الثامن صـ ٧٠٤ . وقد تدخل سانتياجو ذات مرة فى بعض الانتصارات التى حققها الفرنسيون ولكن بشكل آخر ، وقد قال فيليب أوجوستو لأسرى معركة Bouvines (١٢١٤م) بأنه لم يكن هو الذى حقق النصر بل كان سانتياجو حامى Lieja (الجزء الخامس صـ ٨٠) وقد فكر الملك الفرنسى كمؤمن أن انتصاره كان انتقاصًا إلهيًا من الأعداء لأنهم أساءوا إلى حامى Lieja. ويمكن أن نرى هنا تأثير سانتياجو الإسبانى ولو أن الصورة تنحصر هنا فى البعد الروحى ، فليست هناك معجزة مرئية رأى العين ولا نجد الحصان الأبيض وهو يعدو فوق الجيوش ، كما أن أوجوستو لم يوكّل أى قديس بحماية أمّته

(٩٨) ظهر سانتياجو عام ١٥٣٥م " وشاهده الإسبان ومعهم الهنود وهو يمتطى صهوة جواد أبيض " وهذا ما يقوله جارثيلاسو (من أبناء الحضارة الأنكية فى كتابه " تعليقات فعلية – الجزء الثانى – اا، ٤٢ (..).

(٩٩) ما هو إسبانى والأيراسمية ، ١٩٤٢ – صـ ٣٨ ، ٥٢

(١٠٠) تاريخ الكنيسة المقدسة – المصدر السابق – الجزء الخامس – صـ ٢٢٠ – وقد قام ألفونسو السابع بمطاردة الأسقف جيلميرث (الجزء الرابع صـ ٢٠٨ ، ٢١٤) .

(١٠١) أعتقد أن الحج أدخل إلى الإسبانية عددًا كبيرًا من المصطلحات المتعلقة بحياة السوقة: Gallo-fero - Jaque - Truban - Picaro - Jerigozna وأخرى غيرها وهى كلمات من أصل فرنسى أو من

اللهجات الفرنسية . وقد كتب السيد/ كريستوفل بيريث دى إيريرا عام ١٥٩٨م يقول " يدخل مستشفى برغش كل عام ثمانية آلاف أو عشرة آلاف فرنسى وجاكسونى ، ويمكث البعض منهم يومين أو ثلاثة يتلقى فيها طعامه وشرابه ، وكانوا يدخلون أحياناً أثناء الاحتفالات التى تقيمها تلك الممالك ويقال إنهم يَعُدون البنات بالمهر الذى يمكن أن يجمعوه فى رحلة الذهاب والعودة إلى سانتياجو وكأنهم ذاهبون إلى العالم الجديد ..".

(١٠٢) تاريخ الكنيسة المقدسة – المصدر السابق – الجزء الخامس – الملحق صـ ١١٦ ، ٢٣٥

(١٠٣) وبغض النظر عن أية اعتبارات أخرى كان لابد للمقر الخاص بالقديس الرسولى أن ينحاز إلى فرنسا فى مسألة السياسة الدولية ، فالسيد إنريكى يحظى بمساندة ملك فرنسا ، والسيد بدرو يحظى بمساندة إنجلترا ، وعندما تم اغتيال الأسقف فإن الملك يقترف جريمة أخرى لكنه قد تخلص من عدوٍّ قوى ولو أن ذلك جاء متأخراً وبدون فائدة تعود عليه ، وظلت سياسة مدينة سانتياجو على ما هى عليه ، ففى عام ١٢٥٥م هيأ ألفونسو العاشر زواج ابنته البكر بيرنجيلا بوريث عرش التاج الفرنسى لويس – بن سان لويس ، ولست أرى جيداً مقاصد الملك ألفونسو العاشر من وراء جعل قشتالة امتداداً لفرنسا رغم وجود نابارّة وأرغن فى منطقة فاصلة بينهما، وينص عقد الزواج على سيطرة فرنسا على قشتالة إذ وافق الملك ألفونسو على أن تتلقى تعليمها فى فرنسا ولم يطالب بأن يقيم الأمير فى قشتالة ، إننى أجهل الأهداف الخفية لهذه الاتفاقية الغريبة فلقد كان الملك شديد الذكاء والضعف والتعقيد ، وربما كانت خطوة للبحث عن صداقات دولية تفيد فى خطط ذات طموحات أعلى . وفى اليوم الخامس من مايو عام ١٢٥٥م طلب الملك من بلاطه قسم الولاء لابنته كوريثة لعرشه وأعلن أن الملكة / بيولانتى تنتظر مولوداً آخر جاء إلى الدنيا فى ٢٣/ ١٠/ ١٢٥٥م وهو الأمير فرناندو ذو الحظ العاثر ، وقد حضر الاجتماع المذكور الذى عقد فى بالنسيا أساقفة برغش وبالنسيا وأشبيلية وطليطلة لكن لم يحضر أسقف سانتياجو . والشيء الغريب أنه فى العاشر من فبراير لعام ١٢٥٦م قام مندوبان عن أسقف سانتياجو بتسليم وثيقة إلى الملك ألفونسو العالم يقرّ فيها إعلان الابنة البكر وريثة للعرش ويعرض فيها قبول سيادة الأمير الفرنسى . وقد جاءت هذه الوثيقة لتلافى عدم حضور الأسقف مؤتمر البلاط الذى أقر مشروع الزواج ، ولما أصبحت حقوق هذه الأميرة ضعيفة بعد ذلك أى بعد أن ولد فرناندو فإن ألفونسو العاشر كان يريد أن يؤكد للملك لويس الحادى عشر بأن الاتفاق تؤيده الأبرشية التابعة لكومبوستيلا وأنه لا يوجد ما يؤثر سلباً على فرنسا . ومن هنا كان لطف الملك القشتالى فى عباراته التى يشكر فيها الأسقف .

(١٠٤) روى أحد الضحايا تلك الأحداث باستخدام لغة جليقية طريفة .

(١٠٥) انظر الملحق الثانى :" الطعام تكريما الموتى "

(١٠٦) ولقد تدخل القديس خوسيه فى الحياة العامة والرسمية – خلال القرن السادس عشر – مثلما فعل سانتياجو قبل ذلك وذلك كما نراه فى مجمع دينى مكسيكى . وقد تلقى المجمع الذى عقد عام ١٥٥٥م القديس خوسيه على أنه حامى الكنيسة المكسيكية (المجامع الكنسية الإقليمية التى عقدت فى مدينة المكسيك فى عام ١٥٥٥ و ١٥٦٥م – المكسيك ١٧٦٩م صـ ٦٧

(١٠٧) يوجد بعض منها فى مكتبة الجمعية الإسبانية بأمريكا – انظر كلارا ل. مبنّى A list of books printed 1601 - 1700 00. 624 - 626

(١٠٨) فى سلسلة مكتبة المؤلفين الإسبان - ٨٤ - أما الأرقام الموضوعة بين الأقواس فهى تشير إلى أرقام الصفحات .

(١٠٩) "El cuerpo de Santiago está en Galicia, / que el orbe nos codicia ; / de donde cierto infiero, / que no anduvo en las lides caballero." . (Bib. Aut. Esp , XLVIII,p.453)

(١١٠) " فى الطريق إلى جهنم كان هناك الكثير من رجال الكنيسة واللاهوتيين ، وقد رأيت بعض الجنود لكنهم قلّة ، غير أنهم كانوا جمعًا غفيرًا فى الطريق إلى الجنة وكانوا يسيرون فى صفوف مرتبة يكلل جبينهم المجد والفخار بالنصر (حلم الجحيم). يرى كيبيدو أن كل شىء هو الفوضى بعينها طالما كان خارج إطار الإقدام ، وهذه الأخيرة يعلو معها أسلوب كيبيدو بالمديح وينسى موقفه العَدَمىّ وتكشف عبارة " صفوف مرتبة " الشئ الإيجابى الوحيد الذى يؤمن به .

(١١١) انظر الملحق الثالث " لماذا يحب الإسبان الملك فيليب الثانى "

(١١٢) كانت عذراء جوادا لوبى (إكستريما دورا) مركز إشعاع ، وقد أعلن أبناء هذه المنطقة ومنهم كورتيس وبيثارّو أنهم مدينون لها بالكثير .

(١١٣) يعكس القديس بيثنتى والقديس أنطونيو وآخرون غيرهم من القديسين البرتغاليين موقفًا مشابهًا نظرا لوحدة أنماط الحياة فى شبه الجزيرة ، ولا يمكن أن نتحدث عن ذلك الآن

(١١٤) انظر الملحق الرابع " العزلة الثقافية كنوع من الدفاع "

(١١٥) إن من طبعوا بأيديهم ترجمة إنريكى هرب " Espellho de perfeiç?o" كويمبرا عام ١٥٢٥م كانوا من جماعة القديس خيرينمو فى البرتغال .

(١١٦) لم يكن فى جليقية من يجيد صناعة المراكب أثناء أعلى فترات ازدهار سانتياجو تحت حكم دييجو جيلميرث . ولم يكن هناك مناص إلا اللجوء إلى أرلس وجنوة وبيا للقيام بذلك ، واستطاع جيلميرث التوصل إلى اتفاق فى هذا الشأن مقابل مبلغ كبير ، ولقد تمكن ألفونسو السابع - بمساعدة سفن جنوة - من احتلال ألمريّة (تاريخ كنيسة سانتياجو - الجزء الرابع صـ ٢٣٥) . ومن هنا فإن أغلب المصطلحات البحرية ليست ذات أصول قشتالية أو برتغالية فهى إما فرنسية أو بروفنسالية أو إيطالية أو جرمانية أو اسكندنافية .

الفصل الخامس

الجماعات الحربية - الحرب المقدسة - التسامح

الجماعات الحربية :

احتلت كل من جماعة قلعة رباح وجماعة سانتياجو وجماعة القنطرة مكانة الصدارة فى تاريخ إسبانيا خلال الفترة من القرن الثانى عشر وحتى الخامس عشر بصفتها قوة سياسية وعسكرية ، ويمكننا أن نعثر من خلال تلك الجماعات على النظام الأوّلى لما سيكون عليه الجيش الدائم للملوك الكاثوليك ، والباعث الدينى هو الأساس فى ميلاد هذه الجماعات وهو باعث يجمع بين ما هو روحى وما هو حربىّ ، ثم تحوّلت هذه الجماعات إلى مؤسسات سياسية أكثر منها دينية خلال القرن الرابع عشر ، كما هيأت لها أملاكها المترامية قوة أضعفت من قوة الملكية وأسهمت فى زيادة الإحن والخصومات بين المسيحيين، الأمر الذى أدى إلى تباطؤ عملية حرب الاسترداد ، وأحيانا ما طغى رؤساء تلك الجماعات فى المدن التى أوكلت إليهم مما أسهم فى زيادة الحقد بين الشعب والنبلاء وتفضيل المصلحة المحلية ذات الطابع السلبى ، وربما كان القرن الخامس عشر هو الفترة التى شعرت فيها طبقة النبلاء بدورها القيادى ، وخلال هذا القرن أيضًا اهتم بعض قادة تلك الجماعات **maestres** بممارسة مهام إنسانية رفيعة وأحدثوا أثرا فى المفاهيم الروحية وفى العلوم والآداب ، واستمرت تلك الجماعات على ما هى عليه من قوة اقتصادية حتى فجر القرن التاسع عشر ، ولازال للزى أو الأزياء التى ترتديها تأثيره فى الاحتفالات الملكية والدينية حتى عصرنا هذا على أساس أنه ملمح زخرفى للأرستقراطية ، أما طبقة النبلاء التى تعتبر الوعاء الخاص بالتقاليد

المجيدة لتلك الجماعات فلم تنشأ ولم تستطع إنقاذ مقرّى قلعة رباح وقلعة أوكليس Uclés حيث كان القادة القدامى يقيمون هناك أى أن هذه الجماعات أصبحت اليوم من آثار الماضى مثل الملكية والأرستقراطية والكنيسة " إنها مجرّد صورة وكلمة " (١) .

لكننا بحاجة لمعرفة التاريخ المناسب والحياة التى كانت عليها هذه الجماعات وسرّ وجودها رغم توفّر عدد كبير من الوثائق ، إلا أننى أبتعد عن تلك المواد وأولى اهتمامى فقط بما يؤثر على العلاقات المحتملة بين الإسلام والمسيحية ، وتقول الفكرة الشائعة بأن الجماعات الحربية الإسبانية نشأت كردّ فعل على وجود مثيلاتها الفرنسية مثل جماعة أوسبيتال Hospital وجماعة المعبد Temple اللتين ظهرتا فى إسبانيا خلال القرن الثانى عشر (٢) ؛ وأمام هذا الرأى نجد بعض المستشرقين يرون أن هذه الجماعات الإسبانية كانت متأثرة فى ظهورها بما هو موجود فى المعسكر الإسلامى (٣)، وأعتقد أن طرح الموضوع فى أن نختار بين الأصل الأوربى أو الإسلامى خاطئ ، إذ تصبح ظاهرة الجماعتين الفرنسيتين غير مفهومة بدون الرجوع إلى النموذج الشرقى ، وهو جانب لا تتحدث عنه الكتب التى صدرت حديثًا بشأن أصول جماعة المعبد (٤) ، كما يجب أن نأخذ فى الاعتبار أن العالم الإسلامى وحده هو الذى يجمع بين نموذج حياة الزهد ونموذج الصراع ضد الأعداء ، ورأى المستشرقين الإسبان لا يُدْحض فى هذا المقام ، إذن ليس من باب الصدفة أن تولد هذه الطوائف – فى القرن الثانى عشر – على الحدود الإسلامية ، أى فى فلسطين وإسبانيا ، وليس فى أى مكان آخر ، وقد بدأت جماعة Templarios فى حماية الحجاج الذين يذهبون إلى القدس من هجمات غير المؤمنين ، وقبلها كانت جماعة Hospitalarios التى كانت تعنى بالفقراء والمرضى الذين يأتون إلى المدينة المقدسة ، " غير أن الأعمال الخيرية والتطوّعية المتمثلة فى العطف على الفقراء والمرضى ومرضى الجذام وتقديم الخدمات للزهّاد ..الخ كانت شائعة بين المسلمين ويقوم بها عدد كبير من الزهّاد ، ورغم هذا لم تطلق عليها مسمّيات معينة ، أما كلمة المرابطين فقد كانت تطلق على هؤلاء الذين يجمعون بين حياة الورع وحياة الجندية دفاعًا عن الحدود ، ويقيمون فى أديرة تعتبر بمثابة الرباط " {الإسلام على الطريقة المسيحية صـ ١٤١} (٥) .

وإذا ما اتخذنا وجهة نظر مسيحية محضة فلن نفهم كيف يمكن أن يجتمع فى شخص واحد حياة الزهد وحماس المحارب ، كما لا يوجد فى أوربا ما يساعدنا على فهم صورة سانتياجو محارب الأعداء ، ومن المعروف أن الكنيسة لم تكن تميل لقيام أفراد بعينهم بتكريس حياتهم للعبادة والحرب وحمل السلاح ، ورغم ذلك فقبل ظهور هذه الجماعات الحربية ببضعة قرون كان المسلمون يعرفون الرِّباط وهو مكان يجتمع فيه المرابطون الذين يجمعون بين العبادة وحمل السلاح دفاعًا عن الحدود وهنا نجد كلمة " رباط " تعنى الجهاد وخاصة الحرب الدفاعية ، كما ندرك السرّ فى وجود الكثير من أسماء الأعلام الجغرافية التى تحمل كلمات مثل Rápida ، Rabida ، وقد أوضح أسين بلاثيوس أن كلمة الرباط هى الأصل لكلمات إسبانية هى rabato، arrebatar وكذلك الكلمة القديمة arrobda بمعنى الحارس الذى يشغل موقعًا متقدمًا ، واتخاذ هذه الكلمات يعنى الوجود المسبق لتلك الأشياء التى تدلّ عليها [٦] ، وإذا ما ذهبنا إلى ما هو أبعد من الحدود المسيحية لوجدنا أن ميلاد الجماعات الحربية يبدو طبيعيًا ، ولو نظرنا إليه من على الأرض الإسبانية لما شعرنا بالمفاجأة فقد كانت بلدًا إسلاميًا خلال القرن الثانى عشر ، ولا نشعر بالمفاجأة أيضا عندما نقرأ فى ملحمة السيد (١١٤٠م) أن السيد/ جيروم هو شخصية من لحم ودم وغير أسطورية مثل شخصية توربين فى ملحمة رولدان الذى نراه يحارب فى مقدمة صفوف المسيحيين كأنه الأسد ، وعندما تحدثنا قبل ذلك عن سانتياجو شهدنا نموذج الأسقف المحارب الذى يظهر فى الملحمة الخاصة بالعصور الوسطى الفرنسية ، وأنه يجب أن يدخل فى دائرة التأثيرات الشرقية، إذ أننا عندما نعالج تلك الفترة لا يمكن أن نقصر الأمر على إسبانيا وحدها ، فقد ورد فى Le Jeu de Saint Nicolas لجان بودل {نهاية القرن الثانى عشر} أن هناك ملاكًا يتجلى ويقول للمسيحيين الذين يحاربون " سوف تُقْتَلون وأنتم تحاربون فى سبيل الرّب لكنكم سوف تتلقّون التاج الأعظم " . ومن الواضح أن الحماس للحرب الصليبية قد اختفى مع اختفاء الصليبيين ، لكنه ظل يعيش فى إسبانيا حتى القرن السادس عشر ، فعندما ظن الناس – فى عام ١٥٦٨م – أن المور قد تمرّدوا فى غرناطة " هبّوا لحمل السلاح بمن فيهم رهبان دير سان فرانثيسكو وعندما كانت بلدة دوركال Durcal

(التابعة لألبوخارّاس Alpujàrras البشرات) تعيش لحظات صعبة " هبّ لنجدتها ثمانية من رجال الدين ، منهم أربعة من الرهبان من سان فرانثيسكو وأربعة من اليسوعيين وقالوا إنهم يريدون الموت فى سبيل المسيح ، غير أن الجنود لم يجرءوا ذلك وهنا لم يقبل القائد جونثالو دى ألكانترا انخراط رجال الدين فى صفوف الجيش {لويس دى مارمول : تمرّد الموريسكسسن وتعقبّهم، الكتاب الخامس ، الفصل الثانى} .

علينا أن نتناول كيف كان ردّ الفعل على هذا التجديد الإسلامى من قِبَل أكبر المراكز الروحية المسيحية خلال القرن الثانى عشر ، أدى إلى جوار برناردو دى كلارابال Claraval ، إذ نلاحظ أن هوجو دى باين قائد جماعة المعبد قد عاد من القدس وتوجه إلى فرنسا للحصول على الموافقة على إنشاء هذه الجماعة الجديدة ، ومن هنا كانت خطوته الأولى باتجاه صديقه (القديس برنارد فى المستقبل) رئيس دير كلارابال الرجل الذى كان أكثر الشخصيات تأثيرًا فى العالم المسيحى آنذاك ، إذ كان باستطاعته التأثير فى تعيين البابوات ويرفض أن يتولى هو هذا المنصب ، وكان هدف هوجو دى باين أن يؤثر الراهب ورئيس الدير بقلمه من أجل إنشاء تلك المؤسسة الغريبة ، وأخيرًا تمت الموافقة على القواعد التى تتبعها فى المجمع الكنسى المنعقد فى تروى Troyes (١١٢٨م) وبهذه المناسبة كتب القدّيس برناردو رسالته الشهيرة " عن مجد العسكرية الجديدة " بعد أن ألح عليه كثيرًا القائد الجديد " للمرة الأولى والثانية والثالثة – إن لم أكن مخطئا – رجوتنى يا هوجو ، يا من أعتزّ بك كثيرًا أن أكتب لك ولجنودك كلمة ورسالة لحضهم وتشجيعهم " (٧) . نرى إذن أن ذلك القائد توجه إلى رئيس الدير بالرجاء ثلاث مرات حتى يكتب شيئًا لجماعة المعبد ، لكن القديس برناردو لم يحسم الأمر فى انتظار أن يكتب شيئًا أفضل منه وخوفًا من أن تكون الهيئة الجديدة مثيرة للمخاوف ، " لكن خشيت أن تكون الموافقة المتعجّلة محل لوم " ، وأخيرا حسم أمره ذلك أن الجماعة الجديدة كانت فى حاجة إلى من يدافع عنها ويشرح أهدافها ، ويعكس كل هذا أن الصليبيين فى فلسطين قد أتوا إلى أوربا بالجديد الذى يدخل فى صدام مع التراث المسيحى : " فهم أناس من العسكريين لكن لا خبرة لهم " (٨) وترك القديس برناردو نفسه لينساق وراء حماس الحرب المقدسة التى حقنها

الإسلام للمسيحية " كم كانت الانتصارات التى تتمخض عنها المعركة المجيدة ! كم كانوا سعداء أولئك الذين يستشهدون فى المعركة ! " ، ولقد كان حماسه غريبًا ، إن سان برناردو يرى أنه من غير المشروع قتل الآخر حتى ولو كان ذلك دفاعًا عن النفس " وإذا ما كان هناك اثنان من الأشرار فربّما أحدهما أنحف جسداً لكن الآخر أكثر خفّة فى استخدام الرمح " لكن الدفاع فى سبيل الله – فى حالة الفرسان الجدد – يهون معه كل شىء " معارك الرب تدوم وهم غير خائفين أو هيّابين قتل الأعداء " .

وهكذا دخلت إلى المسيحية الأوربية نظرية جديدة وتوجهات كانت فى الإسلام منذ عدة قرون رغم أنها جديدة وغير معهودة لدى الرّهبان الفرنسيين لثيستور Cistor وكلونى ، فإن يقوم المرء بالجهاد وقتل أعداء الرّب والزهد والتصوف هو أمر طبيعى عند المسلم ذلك أن الحدود الفاصلة بين ما هو روحىّ وما هو جسدى قد زالت لديه ، وكذلك بين ما هو دنيوى وما هو أخروى ، وبالتالى فإن المواقف المتناقضة تتضافر فى إطار الوحدة الحيوية للفرد ،وعندما نجد أن هناك انسجاماً بين إراقة الدماء والشفقة نجد أيضا جماعات من المتصوفة وقد أطلقت العنان لنفسها فى التصوف والعشق الإلهى من خلال التأمل والتدبّر " Presence charnelle " وتذوب وجداً فى " جمال الوجه الشاب والجذاب " (٩) ونرى هذا الانسجام للازدواجية (فى إطار ما هو إنسانى) الذى يتناقض مع اللاهوت المسيحى مطبقاً فى القدس وقام بذلك هؤلاء الذين كانوا على اتصال بثقافة غريبة ومزدهرة ، وتم اتخاذ أنماط حياتها الروحية ، كما تم تعلّم طريقة العيش ، فقد كان الملك بلدوين الأول يرتدى ملابسه مثل الشرقيين كما أن عاداته وتقاليده الملكية وغيرها تشبه تلك التى عليها ملك مسلم ، والأمر معروف للجميع غير أن أحداً لم يشأ أن يرى أن المزج بين الشفقة الدينية والعنف الدموى كان لباساً شرقيًا للروح ، كما أن استغراب برناردو دى كلارابال وكذلك حماسه مؤشر على الهوّة الشاسعة التى تفصل بين الجماعات الحربية الجديدة وبين المفهوم المسيحى للحياة ، وإذا ما تم قبول جماعة المعبد واستطاعت تكوين ثروات ضخمة فى غضون فترة قصيرة فهذا يرجع إلى أن هؤلاء الفرسان قد عزموا على مواصلة القتال للسيطرة على الأماكن المقدسة ، وهى سيطرة تثير الكثير من المشاكل بالنسبة للمسيحيين لدرجة أنه عندما

سقط " سان خوان دى أكرى " – فى نهاية القرن الثالث عشر – تهاوت كل الحملات الصليبية وتهاوى معها الباعث فى وجود جماعة المعبد ، لقد بدءوا مثل المرابطين أو المجاهدين المسلمين ، ورغم هذا فسرعان ما سيطرت عليهم شئون الحياة اليومية وطغت حياة التصوّف ، وتحوّلت هذه الجماعة إلى مجتمع مَصْرفى استطاع القيام على شئون التجارة بين أوربا والشرق طوال قرنين من الزمان [١٠] ، فالتاريخ هو نسيج حياة وليس أحداثًا مجرّدة ، وتحوّل الرهبان المحاربون إلى موظفى بنوك لدى الملوك وتخلوا عن صفاتهم الروحية بشكل شبه كامل ، وعندما زالت السيطرة المسيحية على فلسطين حصل الملك فيليب الوسيم – ملك فرنسا – على موافقة البابا بحل تلك الجماعة واستولى على ثرواتها الضخمة ، وحتى يؤكد سلطانه أمر بإحراق القائد وعدد كبير من فرسانه بعد أن سامهم سوء العذاب {١٣١٠م – ١٣١٤م} .

وهذا يعنى أن الملكيّة الفرنسية استطاعت فى بداية القرن الرابع عشر التخلص من منافس قوى يستند على طبيعته الدينية أكثر من اعتماده على قدراته الحربية ، حيث وصل تعداد الرجال خمسة عشر ألفا ، ويجب أن نأخذ فى الاعتبار (إضافة إلى الأسباب المادية) ما عليه فرسان هذه الجماعة من مفاهيم دينية لا تمت بصلة لما عليه الجماعات الأخرى ، ولم تكن السلطة المدنية آنذاك قادرة على الوقوف ضدها ، كما أن فرسان هذه الجماعة اتسموا بشىء ما لا يتوافق مع الحياة الفرنسية ، وبرهاننا على ذلك هو الأسطورة المتعلقة بهرطقتهم ومروقهم ، كما تمّ التسامح مع الطبيعة الحربية لهم طالما ظلوا فى فلسطين ، وعندما انكمشوا وأصبحوا يعيشون فى ديارهم بدت الأزمة واضحة بين الكنيسة والحرب ، وبين الروحية والأعمال الدنيوية ، وهذه مسائل يصعب على العقلية الفرنسية فهمها حيث ترى أن رجل البنك هو مصرفىّ ورجل الدين هو رجل الدين ، وهاهى الجماعة تفقد الهالة الأسطورية وتفصح عن واقعها وتنفتح على جشع الكبار وتعانى نقمة الطبقات الفقيرة ، وبالتالى لم يكن هناك مناص من اختفائها رغم أن الإحساس بالشفقة قد يخالج النفس اليوم على ضحايا محاكم التفتيش الساديّة ، كما أن عدم الوفاق بين ما عليه جماعة المعبد وبين الفصل الواضح بين الدنيوى والدينى وبين الأسطورة والعقل – سمة الحياة الفرنسية – يساعدنا على فهم

الازدهار وطول العمر الذى حظيت به الجماعات العسكرية فى إسبانيا ، فهانحن نراهم كأنهم المرابطون ، ولقد تكوّنت جماعات قلعة رباح وسانتياجو والقنطرة خلال القرن الثانى عشر ، فى عهد الملك سانشو الثالث وألفونسو الثامن ملك قشتالة ، ومن المحتمل أن كان هناك مسيحيون متصوفة - قبل ذلك الوقت - أضافوا مبدأ قتال المسلمين إلى واجباتهم الروحية ، ومن هنا نفهم سر البلبلة عند الحديث عن أصول هذه الجماعات ، لكن ذلك لا يتنافى مع القول بأن المَثَل الذى تقدمه الجماعة الفرنسية (المشار إليها آنفا)، أسهم فى أن ينتظم الزهّاد المحاربون فى مجتمعات منظمة [(١١)] ، ولنقم بسرد موجز للوقائع المعروفة ، فقد دخلت كل من جماعة أوسبيتال Hospital وجماعة المعبد إلى إسبانيا خلال الثلث الأول من القرن الثانى عشر وخاصة فى كل من أرغن وقطالونيا وقد مُنِحتا القلاع والمدن والأتباع والأراضى كنوع من الاعتراف بالخدمات التى تُؤَدى من خلال الحرب ضد غير المؤمنين ، كما طبقت شهرتها الآفاق عام ١١٣٤م عندما قام الملك ألفونسو الأول (ملك أرغن) بتعيينهما ورثة لملكه ، وهذه خطوة غير مسبوقة فى أوربا ذلك العصر ، غير أن الرغبة الجموحة للوصى لم تنفذ ذلك أن راميرو الثانى الراهب هو الذى خلفه على العرش ولقد أزال ألفونسو الأول أية حدود فاصلة بين الدين والدنيا بموجب وصيته وحول المثالية " إلى واقع ملموس ونسى مفهوم الفرد والحدود الوطنية (فقد كانت تلك الجماعات أجنبية) وحوّل الحكومة الملكيّة إلى ثيوقراطية خالصة ، وأخذ يفكر فى أنه من الممكن الصعود بقدميه الفانيتين على سلّم يعقوب (سانتياجو) .

كما تمتع رهبان المعبد بما أغدقه عليهم ملوك قشتالة رغم أنه كان أقل بالمقارنة بما سبق أن عرضنا له ، وعندما قام ألفونسو السابع بالاستيلاء على قلعة رباح عام ١١٣٤م وكلّ جماعة المعبد مهمة الدفاع عنه ، وهذا دليل آخر على أنه لم يكن فى قشتالة أى نوع من الميليشيات المنظمة على شاكلة الجماعات الحربية [(١٢)] ، وبعد ذلك بعشرة أعوام أعلن فرسان الجماعة الفرنسية عدم قدرتهم على مقاومة المور فى ذلك الجزء من الحدود وقالوا للملك سانشو الثالث بأنهم لا يقدرون " على مجابهة القوة الكبرى للعرب ... كما أنهم لم يعدّوا العدة اللازمة للوقوف ضدهم ، أضف إلى ذلك أن

الملك نفسه لم يجد أحداً من علية القوم فى قشتالة ليقوم بمجابهة تلك المخاطر " [التاريخ العام صـ ٦٦٦] ، وعندئذ تقدم راهبان هما : رايموندو دى فيتيرو وديجو بيلاثكيث للدفاع عن حصن رباح ، وعلينا أن نرى أن كليهما يقدمان نموذجًا لرجل الدين - رايموندو دى فيتيرد - الذى يهب للحرب ضد غير المؤمنين ، ويقدمان نموذج الفارس - دييجو بيلاثكيث - وهو " الرجل الذى كان فى يوم من الأيام رجلاً حراً مهنته الفروسية " ثم يتحول إلى الرهبنة ويبدأ الصراع وهو يحمل هذه الصفة ، ولا نظن أنها أول حالة يحدث فيها هذا النوع من السلوك رغم أننا فى حاجة إلى وثائق تعضد حكمنا (١٣) .

وخلال الفترة نفسها تظهر كلٌّ من جماعة سانتياجو وجماعة القنطرة وقد انتظم عقد كل واحدة منهما وهذا ما يساند الفكرة القائلة بأن النموذج الذى أخذت تحذو حذوه هو الفرنسى الإسلامى لفرسان جماعة المعبد ، وأمام تلك التعقيدات علىّ التنويه قائلاً بأنه إذا ما كانت الجماعات الحربية الإسبانية قد استلهمت النظام الذى عليه جماعة المعبد فإن المادة المستخدمة للتشكيل والروح التى عليها كانت إسبانية إسلامية ، فما هو عبارة عن عمليات عسكرية متقطعة هنا وهناك تحوّل إلى قوة نظامية تعترف بها السلطة العامة ، ولا أتصوّر أن الروح البطولية والزهد اللذين أفصح عنهما فرسان حصن رباح لا يرجع إلى الجماعة الفرنسية التى تركت الموقع الحدودى عام ١١٥٨م مهما كانت أسباب انسحابها ، وأعود مرة أخرى إلى الإلحاح على أن الصراع ضد المور فى إسبانيا لم يكن بحاجة إلى تنظيم خاص حتى نرى توليفة " البطولة الحربية والسلوك الزاهد " فقد كان ذلك السلوك يحدث بشكل مستمر ، ومن المحتمل - بناء على هذا - أن يكون مرجع التنظيم البدائى الأوّلى لفرسان حصن رباح ليس التقليد للجماعة الفرنسية وإنما يرجع إلى رد فعل صوفىّ وحربىّ أمام فشل هذه المنظمة الأجنبية فى أداء المهمة الموكلة إليها ، غير أن هذا لا يمنع أن تكون البنية الاقتصادية - السياسية للجماعات الإسبانية قد جاءت من خلال استلهم النموذج الفرنسى الأسبق ، ويبدأ ذلك الاستلهم بكلمة Maestre التى هى من أصل فرنسى ، أى أن المادة الإسلامية المسيحية ، يتم وضعها من جديد فى قوالب فرنسية .

يتسم كتاب " التاريخ العام " لألفونسو العاشر بتنوع موضوعاته وثرائه ، وفيه نعثر على فقرة تتضمن وصفًا نموذجيًا للجماعات الحربية فى نثر كله سجع ومنزع بالتأثيرات الشرقية التى يمكن أن تكون عبرية أو إسلامية ، وعندما يقوم الكتاب بتلخيص الأحداث الكبرى التى جرت فى عهد ملك قشتالة (ألفونسو الثامن ١١٥٨ – ١٢١٤م) [صـ ٦٧٩] نجد أنه يعتمد على كتاب De rebus Hispanie للسيد رودريجو خيمنث دى رادا وكأنه مصدره : " يتحدث الأسقف السيد رودريجو دى رادا ويقول بأن الملك ألفونسو استولى على ألاركون .. وأن معه رفقة " ، وهذا يتفق مع النص اللاتينى " الاركون هى ذات طبيعة جغرافية ليست أقل من قوينقة Cuenca التى دخلت فى السلطة " [المتاب الحادى عشر – الفصل الرابع عشر] وهنا تتوقف ترجمة النص اللاتينى ويبدأ المحرر القشتالى فى الإطراء على جماعتى سانتياجو وحصن رباح ، وهى فقرة يتم إدخالها على النص الموضوعى الخاص بحرب الاسترداد وإعادة توطين بعض القرى القريبة من قوينقة ، ويوضح لنا الأسلوب حالة جيّاشة ، كما نرى الطِّباق فى تراكيب الجمل ، وقد ملأت الصور الأدبية والبلاغية جنبات النص :

عمّر القرى الجبلية بالبشر

واستبدل بالبلوط الصلب كرْماً لذيذاً

انتصر الملك فى أوكليس وأقام فيها رأس النظام

وأصبح فرد هذا النظام سيفًا للدفاع

فقد طرد العرب

ومن أقام فيها أصبح مدافعًا عن الدين

وتُسمع أصوات تمجيد الرّب

والأناشيد المحببة

وتخضبت سيوفهم بدم الأعداء

ويفيض الإيمان بالشفقة والحب

ويحل غضبهم بهؤلاء الذين يتعبدون للأرواح الشريرة

هناك يحيا ويشرف هؤلاء الذين يؤمنون بالله

وقد قدم الملك هذه الأرض لله وخصصها لجماعة

سانتياجو، حتى يكون هذا القديس أميراً للدين

ولمزيد من مجد الملك فقد زاد عدد فرسانه

كما أن ما عليه الرهبان من العلم يخدم أمير التاج

ومن كانوا يعبدون الله بقراءة المزامير ، أصبحوا يحملون السلاح

ومن كانوا يبكون خشوعًا أثناء الصلاة هبوا دفاعًا عن الوطن

وطعامهم القناعة ولباسهم خشن

... يلتزمون الصمت

وكثيراً ما يباعدون الغضب عن أنفسهم وينسون الكبرياء ،

ويجعلهم صلاح الخشوع علماء (صـ ٦٨٠) [١٤] .

ولا نجد فى الشعر الإسبانى أو النثر خلال القرن الثالث عشر ، أسلوبًا يشبه الأسلوب الذى عليه هذه الأبيات بما فيه من استعارات وجمل اسمية ، فبدلا من اللجوء إلى العبارات المطروقة القائلة " يدافع فرسان سانتياجو عن الحدود بسيوفهم " نجده يقول هم " سيف للدفاع " وما كان ذاتيًا وخاصًا نجده يتحول إلى رمز مستقل يسبح فى بحر الخيال ، فالسيف قد اكتسب صفة إنسانية فهو الذى يقوم بالدفاع ، ولما لم نجد تراكيب بلاغية مثل هذه فى الأدب الذى كان سائدًا فى ذلك العصر لابد من البحث عن مصدر عربى أو عبرى " لقصيدة الجماعات العسكرية " والتى ليس لها صلة بالأدب الرومانى آنذاك .

ويتضمن كتاب " التاريخ العام " بعض فقرات غنائية (" فخر إسبانيا " ، " تدمير إسبانيا " صـ ٣١١ ، ٣١٢) لكن الأسلوب يختلف عن الفقرة التى أوردناها ، وذلك لأنها لا تُغْفِل النسق المنطقى للجملة الرومانية وليس فيها استعارات أو جمل اسمية أو مقابلة ... الخ (١٥) .

إلا أننا نجد مثل هذه التراكيب اللغوية شائعة فى ترجمة الشعر العربى إلى الرومانث حيث يورد كتاب " التاريخ العام" بيتا لمرثية عربية قالها الشاعر الوقاشى Alh بمناسبة ضياع بلنسية :

حيث نجد لهذه التركيبة اللغوية ما يشبهها فى القصيدة التى أوردناها ونكرّر هنا أول بيتين

Las alcarías de las pe?as dom?las con pueblos,

Et torn? en uvas sabrosas la dureza de la encina. (صـ ٦٧٥)

ولا أجد أمثلة أخرى لجمل تشتمل على أدوات الربط asindéticas يقوم الجزء الثانى منها بدور تقابلىّ أو مضاد (١٦) بل إنه – أى الجزء الثانى – مرآة لتجميل الأول :" المقيم فيها مدافع عن الدين [El morador de ello , defendor de la fe] وأشعر بشىء من الاستغراب بوضع حرف العطف " "y هناك " Son oida y ... Moran y...." حيث يتضح القصد الإيقاعى ، ويزداد الأمر غرابة إذا ما وضعنا فى اعتبارنا ميل كتاب " التاريخ العام " إلى تحويل أغانى الأحداث (الملاحم) إلى نثر وهى من المصادر السردية التى يلجأ إليها ، مما يعنى أن موضوع الجماعات الحربية كان ينظر إليه على أنه ينصبّ فى قالب شرقى وليس رومانسيًا ، كما نجد أنفسنا أمام أبيات من الشعر الصوفى ليس لها ما يماثلها فى أدب العصور الوسطى ، كما أن رهافة الحسّ الشعرى عند المؤلف (هل كان يهوديًا اعتنق النصرانية ؟) تتكثف فى الحميمية الدينية الثابتة – والتى لا تحظى بالحركة التى عليها الشعر الملحمى -- أكثر من الحديث عن الجهد الحربى . ولا توجد صفات حسيّة يمكننا من خلالها تأمل شخصية الفارس اللهم

إلا إشارة تقول بأنه يحمل السيف ، أما الصفة الوحيدة التى تتحدث عن لون معين فهى " يخضب " الدم السيف ، كما أنها أقل حدة مما ورد فى قصيدة السيد " ومن كوعه راح يقطر دمًا أحمر متوهجًا " {البيت رقم ٧٨١} ، والسمة الغالبة على فرسان تلك الطوائف هى الزّهد الذى يتغلب على روح الحرب : " فلقد هزلت أجسادهم لقلة تناولهم الطعام كما كانوا يرتدون الصوف الخشن " (١٧) ويصمتون ويصلّون وكثيراً ما يخرّون سُجّداً ، والأبيات التى أوردناها تعنى بالإعلاء من شأن الدين وحب الله وإبراز الانسجام بين العنف ضد غير المؤمنين وقداسة المحارب ، وظل ذلك التناقض بين العنف والرحمة قائما حتى نهاية القرن الثالث عشر ، ولهذا يتم التأكيد على ملامح الحياة الصوفية التى أصبحت مألوفة فى العالم المسيحى لكنها لم تر النور قبل ذلك فى قالب شعرى به مسحة من الغنائية ، ومن هو على اطلاع بالشعر الصوفى سواء من المسلمين أو اليهود قد يعثر على أبيات تشبه تلك التي قمت بتحليلها ، وسوف أقتصر مؤقتاً على الإشارة إلى أن الدراسة الأسلوبية لنص معين تؤدى إلى نفس النتائج التى يتم الوصول إليها من خلال عقد مقارنات بين الجماعات العسكرية المسيحية وبين جماعات الرباط أو " المرابطون " فى المعسكر الإسلامى .

وإذا ما كانت درجة الحماس التى عليها " قصيدة الجماعات الحربية " ترجع إلى أن القصد هو تبرير سعة أملاكها وحث الملوك على مزيد من إغداق عطاياهم على أفرادها ، أو أن الذى قَرضَها إنسان يعبر عن إعجابه بها ، فلا شيء من ذلك يقلل من المغزى الذى عرضنا له فى النص أو يقلل من دقة الصورة التى نقدمها : وهى أن تجتمع فى شخص واحد الروحانية المتصوفة والإقدام العسكرى ، ومعنى هذا أن الحرب ضد غير المؤمنين حرب مقدسة ، وهى رؤية إسلامية تنتقل إلى المسيحية حسبما نرى فيما بعد ، كما يتضمن النص الذى أوردناه عينة رائعة للتكامل الإسبانى الإسلامى ، وهو نوع من الدمج والخلط بين ما هو إنسانى وما هو سماوى أى أنه جماع الخبرات الخارجية والحميمية سواء على مستوى أخلاق الفرد أو فى الأسلوب : التعبد إلى الله وحمل السيف ، أو الدفاع عن الدين ومطاردة المور ، إنه الإذعان والخشوع وغرس السيوف (المادة والقيم) ؛ ومن هنا ندرك سرّ التشبيه والانتقال من

التجربة إلى الأسطورة وانضمامهما فى وحدة واحدة ، إذ يتحول القتال باستخدام السيف إلى " سيف دفاعى " ، ويتم إضفاء الذاتية على الموضوعية : فصلابة شجرة البلوط (التى أحياها بشكل موضوعى) تتحول إلى عنب ذى طعم شهى (أتذوقه وألوكه) .

لنتذكر الآن المنهجية التى تسير عليها بنية هذا الكتاب ، فنلاحظ أننا نتجاوز إطار المقارنة بين الجماعات الحربية و " الربّاط " الإسلامى من خلال الوقائع المحددة ، ونعمل على أن نضم المشهد المسيحى فى إطار الأفق الإسلامى ، وكأن ذلك نوع من العيش تحت ذلك الأفق والتوجه صوبه ، وهذا ما نراه الآن فى تركيبة الزّاهد - المحارب ، ونراه كذلك من خلال التعبير الأدبى الذى يرصد هذه التجربة ، وإذا ما تحوّلت تلك المؤسسة إلى شىء فيما بعد فعلينا أن نفسّره كنوع من الانتقال إلى الأفق التاريخى الذى كان وراء بداياتها ، وعندما لم تعد هناك عجلة وإلحاح فى أمر حراسة الحدود ، وأن المسلمين لن يتمكنوا من كسب أى معركة حاسمة أخذت الجماعات الحربية تتناسى جانب الزهد وتسير فى وجهة تستطيع التأثير فيها بقوتها الاقتصادية وسمعتها الدينية فى بلد لا يميل كثيراً إلى القيم الروحية الخالصة، ولم يحدث لتلك الجماعات ما وقع لمثيلاتها فى فرنسا فى بداية القرن الرابع عشر ، فلقد وضعت الجماعات الحربية هالة حول نفسها وكان لها صيتها وتمثيلها " لأنها تريد ذلك ، أما الرغبات الإنسانية فقد أطلقت العنان لنفسها من خلال فرسان تلك الجماعات ، وتحدث مثل هذه المواقف عندما لا يجد القوّى أى هدف يضعه نصب عينيه ، وهنا نجد سرّ وجود الحكام " الطغاة " الذين خلّدهم لوبى دى بيجا فى مسرحيته " فوينتى أو بيخونا " وفى " حاكم أوكانيا " وهى شخصيات لها علاقة بهؤلاء الذين عاشوا خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر " والصوف الخشن للباسهم "

وقد لَمَسَ العامة هذا الجانب السلبى للجماعات الحربية منذ القرن الخامس عشر عندما كان ذلك الشعب - الذى استأصل اليهود وغزا العالم الجديد - يتقدم ليحتل مكان الصدارة فى تاريخ البشرية ، ولقد كان العامة ينظرون إلى الفرسان الأقوياء على

أنهم أبناء " الذوات " Senoritismo وهى كلمة حديثة نستخدمها اليوم وفحواها اللّهو والمجون والسلوكيّات البعيدة عن كسب الثروات ، كما أن القصيدة الرائعة " قادة قرطبة " [١٨] تتحدث عن اثنين من أبناء " الذوات " فى الأندلس لقيا حتفهما فى مغامرة عاطفية، وبذلك توضح لنا ملامح الأفق الذى كان الشعب يرى فيه الحكام التابعين للجماعات الحربية ، وقد تولى لوبى دى بيجا التعبير عن تلك المشاعر لأنها شعبية .

والأمر الغريب هو أن يتم إبراز الجوانب المضيئة فى تاريخ هذه الجماعات ، فقد اعتادت الإبداعات الأدبية -- ابتداء من القرن الخامس عشر - معالجة رؤية الإسبان الساخرة وعدم رضاهم عن تلك القوى التى تسيطر على مقاليد الأمور فى بلادهم اللّهم إلا استثناءات قليلة (هناك la celestina " القوّادة " و " دون كيخوته " و " قصص الشطّار " وعمدة سلمية ..الخ) ، إنه النقد وخيبة الأمل والاحتجاج والضيق والهروب من العالم ، وقد أسهمت كل تلك العناصر فى إخراج أفضل الأعمال الأدبية وهى أعمال " تعيش فى اللاعيش " ، ومن هنا يتجلّى أمامنا التغنى بالانتصار وهذا ما عبر عنه خورخى مانريكى J. Manrique عندما رثا والده قائد جماعة سانتياجو ، لكننا رغم كل هذا السيل من الوثائق نفتقر إلى السّير والأخبار المحلية التى تساعدنا على فهم ومعرفة الحياة الحميمة لتلك الطوائف فى تلك المناطق التى تمارس فيها سلطاتها ، كما نفتقد أكثر من ذلك مؤلفات من مثل هذا النوع خلال القرن الخامس عشر، وهو القرن الذى عبرت فيه الطبقة النبيلة عن نفسها أكثر من أى وقت مضى ، إننا بحاجة إلى معرفة الجوانب الحياتية الخاصة للسيد لويس دى جوثمان قائد حصن رباح ، فقد تأثر ذلك الرجل بتيّارات روحية لم تُدْرس بعد ،إذ شعر بالحاجة إلى قراءة ترجمة دقيقة للعهد القديم ، ولهذا دفع مبالغ طائلة إلى حاخام أرّاخيل (من وادى الحجارة) ، وظل ذلك العالم العبرى يعمل لمدّة عشرة أعوام متواصلة فى قرية ماكيدا Maqueda التابعة لجماعة حصن رباح ، وبعدها سلّم سيّده مخطوطة رائعة بها الكثير من المنمنمات ، وربما تم إعداد هذه المخطوطة بالتعاون مع القائد [١٩] .

هناك واقعة أخرى مهمة رغم أننا لا نعرف عنها إلا الخطوط العامة ، فقد تردّد السيد خوان دى نوثيخا – آخر قائد لطائفة القنطرة – على قاعة الدرس التى كان اللغوى أنطونيو نبريخا A. Nebrija يلقى دروسه فيها فى سلمنقة ، ومعروف أن هذا الأخير أدخل إلى إسبانيا البعد اللاتينى لعصر النهضة ، وتحوّل التلميذ إلى راعى المدرّس ، وأخذه معه إلى قصره فى سلمية Salamea (التابعة لإقليم كاثيرس) وأسس هناك أكاديمية علمية وكان من بين أعضائها العبرانى / أبراهم ثاكوثو ابن مدينة سلمنقة (٢٠) الذى كان أكبر علماء الفلك فى عصره ، والصورة التى أرفقها بهذا الكتاب (٢١) يظهر فيها نبريخا وقد لبس وشاح أحد فرسان جماعة القنطرة وهو يلقى دروسه على القائد وأسرته ، إلا أننى لا أعرف شيئًا عن المدّة التى استغرقتها هذه العملية التعليمية أو مضمونها وما هى الآثار المترتبة على المبادرات التى تقدم بها القائد إلى الطائفة التى كانت تقيم فى إقليم إكستريمادورا ، ويجب أن نلاحظ أن ذلك الإقليم كان يحظى بنوع من الوحدة الثقافية والأدبية والعلوم الإنسانية خلال النصف الأول من القرن السادس عشر ، فهل هذا محض صدفة ؟ ربّما ، ومع هذا أجرؤ على التعبير عن شكوكى فى أن جماعة القنطرة لم تكن بعيدة تمامًا عن ذلك الازدهار الأدبى، فلقد نشأت الدّراما فى إسبانيا ، مع نهاية القرن الخامس عشر ، على يد خوان دى أنثينا de Encina .لكفرع للدراسات الإنسانية التابعة لجامعة سلمنقة ، وكان الهدف من ذلك أيضًا إرضاء الميول الفنية لبلاط الأمير السيد / خوان ، وكذلك دوق ألبا فى ألبا دى تورمس Alba de Tormes (سلمنقة) ، ثم انتشر الفن الجديد نحو الجنوب ، وثمار ذلك نراها فى أعمال أبناء إقليم إكستريمادورا : تورّس ناأرّو ، وميجيل دى كارباخال وسانشيث دى باداخوث ودياث تانكوا وآخرين غيرهم ، وقد كانت هناك علاقات حميمة تجمع بين الجامعة والأكليروس وجماعة القنطرة فى إكستريمادورا رغم أننى لا أملك الوثائق اللازمة التى تساعدنى على الحديث عن الموضوع بما فيه الكفاية، وربما يأتى يوم نستطيع فيه البرهنة على أن جامعة سلمنقة ودير جوادالوبى (التابع لجماعة خيرونيمو والذى كان فى الزمن الذى مضى مركزًا ومقصدًا للكثيرين) كما أن جماعة القنطرة كانت جزءًا من ذلك المثلث الأسطورى فى

إكستريمادورا الذى خرجت منه أفضل ثُلّة من فاتحى أمريكا ومن مؤلفى الفن الدرامى الجرىء ، حيث الرقى والرّفعة فى سلَميه وبلاسنثيا وألبا دى تورمس ، وظل الحافز العسكرى - الذى بدأ فى العصور الوسطى - قائمًا حتى بداية القرن السادس عشر ، وتمثل ذلك فى صورة حب المغامرة لدى الشعب ، وفى صورة القلق الرّوحى لدى العلماء، وانتهى عند هذا الحد من الاستعراض السّريع والجوهرى للكيفيّة التى حاولت بها الجماعات الحربية ربط وجودها بأشكال خاصة من التديّن الإسلامى ، وسوف نتحدث فيما بعد عن قادة هذه الطوائف عند حديثنا عن اليهود .

الحرب المقدسة

إذا ما أصبح هناك معنى ومغزى للجماعات الحربية عند ربطها بالإسلام فإن الأمر يساعدنا على رؤية جانب جوهرى من المشكلة ألا وهو اتخاذ المسيحيين لفكرة ومبدأ الجهاد كبوّابة لدخول الجنة ، وأثناء معركة ناباس **Navas** (واقعة العقاب) (١٢١٢م) مرّ المسيحيون بلحظات حرجة حيث خشى الملك ألفونسو الثامن على النصر وعلى حياته ، وعندئذ قال الأسقف السيد / رودريجو الرجل الذى كان يحارب إلى جوار الملك وحكى عن بطولاته فيما بعد : " ياسيّدى إذا لم يكن من الموت بدّ فأبشر ، فالجميع ذاهبون إلى الفردوس " [٢٢] ، كما يورد كتاب " التاريخ العام " للملك العالم مقولة القديس بهذه الطريقة " يا سيدى إذا ماشاء الله ذلك فالتتويج يأتينا من النصر " {صـ ٧٠١} ، ويشير المصدر السابق أن بلدة مارتوس **Martos** المحصنة كانت على وشك السقوط فى يد المسلمين مرة أخرى إذ كانوا قد أحكموا حصارها ، وقد هبّ الكثير من الفرسان لرفع الحصار ، وقبل أن يبدأ القتال - حيث ذهب عدد كبير منهم ضحية المعركة - ألقى دييجو بيريث خطابًا حماسيًا فيهم يقول فيه " إن الذين لن يتمكنوا من النجاة ويلقون الموت فإننا نكون قد افتدينا أرواحنا وسوف نذهب إلى أمجاد الفردوس " {صـ ٧٣٨} ، وبعد ذلك بعام كتب الأمير السيد خوان مانويل فى " كتاب الدول " يقول :

"المسيحيون الطيبون على حق لأن الرّب أراد أن يلاقوا المتاعب من المور ، وهنا توافرت الأسباب لقتالهم ، ومن يمت أثناء القتال - أي عند قيامه بتنفيذ تعليمات الكنيسة المقدّسة - فهو شهيد ، أى أن الاستشهاد قد طهّر أرواحهم مما اقترفته من آثام (٢٩٤) كما أن العصاة الذين يقتلهم المور لهم أمل كبير فى الخلاص أكثر من هؤلاء الذين يموتون فى الحرب ضد المور ... فإذا ما مات المرء دفاعًا عن الدين الكاثوليكى ورفعًا لشأنه فهو قديس وشهيد وليس عليه أى ذنب " (صـ ٣٢٤).

غير أن هذه النصوص التى وردت على لسان السيد / خوان مانويل لا تعنى أن المسيحيين " كانوا يخوضون حرب الاسترداد وفاءً لواجب نحو الديانة فى الغرب " أى على أساس أنهم " شهداء " أو ضحايا تَخَلَّى أوربا عنهم ، وإذا ما كنت أتحدث عن رؤيتى المختلفة فلكى أبين أننا كنا بعيدين جداً عن إدراك مفهوم الحياة الروحية لكلتا الأسبانيتين خلال القرون الوسطى [٢٣] ، والنصوص السابقة ما هى إلا انعكاس للأفكار والمعايشة مع المسلمين ، وحتى نقتنع بذلك علينا أن نقرأ أى كاتب مسلم يتحدث عن الجهاد ضد الكفار : " وحقيقة الأمر أنه لا يوجد فى إسبانيا إلا عيون ساهرة فى طاعة ومحاربون يجاهدون فى سبيل الله وجنود يقاتلون طاعة لله ، ومن مات على هذا الحال مات شهيداً ، ومن قُدّر له العيش عاش سعيداً فالجهاد فى سبيل الله حق ومن يقم به فإنما يقوم بعمل عظيم فى سبيل التقرب إلى الله " [٢٤] كما ورد فى القرآن الكريم ﴿ لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً

وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴿٩٦﴾ {سورة النساء – الآية رقم ٩٥ و ٩٦}، وهذا هو ما تتحدث عنه كافة النصوص المسيحية التى أشرنا إليها ، ويلاحظ أن القمم الثقافية الإسبانية (خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر) تضفى على الحرب معنًى يوازى المعنى الذى لها عند المسلمين ، ونجد هذا الاعتقاد الذى تم استلهمه من الإسلام واضحًا فى كلمات الأسقف السيد/ رودريجو وفى عبارات ألفونسو العالم وابن أخيه السيد خوان مانويل . واستنتاجًا مما سبق نقول بأن التوازى والتقليد اللذين بدآ خلال القرن التاسع عن طريق المقابلة بين الرسول محمد وبين القديس الرسولى سانتياجو ، يمتدان حتى ينقلا نموذج " الرباط " إلى الجماعات الحربية ثم اتخاذ النظرية الإسلامية الخاصة بالجهاد فى سبيل الله ، غير أننا لم ننته عند هذا الحدّ .

التسامح :

يرى السيد خوان مانويل بوجوب محاربة المور لا لأنهم يعتنقون ديانة مختلفة بل لأنهم يحتلون أرضنا وهى أرض الإسبان المسيحيين :

> " وقد وقعت حرب بين المسيحيين والمور وسوف تستمر الحرب حتى يتمكن المسيحيون من استرداد الأراضى التى استولى عليها المسلمون ، ولم يكن فعلهم هذا بفضل ما يعتقدون أو قانونًا مطبقًا ، فلم يأمر المسيح أبدا بقتل أحد أو إيذائه من أجل تطبيق شريعته ، فهو لا يريد إجبار أحد بل يقبل على ذلك بإرادته واختياره "
>
> {كتاب الدول : الطبعة المشار إليها – صـ ٢٩٤}

وقد أورد مننديث بيدال النص السابق ولاحظ أن المفاهيم الدينية خلال العصور الوسطى " أخذت شيئًا من التسامح بين السلالات ، وقد وضح ذلك فى العصر

المسيحى – البربرى " ، وهنا لا يمكن أن نتوقف فقط عند " الواقعة " فالأعمال الإنسانية هى فى حد ذاتها تجريدات لا واقعية إذا لم تعتمد على " البرهان " الذى يهبها الحياة التى تتجسّد فيها ، فلقد كان الإسبان المسيحيون يعيشون تحت أفق التسامح الذى وضعه الإسلام وأسسوا حياتهم على هذه القاعدة ، فهذه هى الحياة التى كانوا يعيشونها ، يقول الله : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة البقرة – الآية رقم ١٩٣] ويقول أيضًا ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [سورة البقرة الآية ٢٥٦] ويقول أيضًا ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) ﴾ [سورة يونس الآيتان ٩٩ ، ١٠٠] .

والقرآن الذى جمع بين الجهاد والزهد فى الحياة هو مثال عظيم للتسامح ذلك أنه يمزج المعتقدات الإسلامية بالمعتقدات اليهودية والمسيحية ، وقد نوّه القرآن الكريم بالفكرة الصوفية القائلة بأن كل الطرق تؤدى إلى الله ، كما تقوم الفكرة أيضًا (وهذه جرأة منى) على الاعتقاد بأن لا شىء باقيًا إلا وجه الله ، إذن فإن اللامبالاة بالواقع المحيط ترتبط بأفكار مثل هذه " الطرق التى تؤدى إلى الله متعددة بعدد النفوس" (٢٦)، وقد تدعّم هذا الموقف المتسامح (والذى يتم نسيانه أحيانًا فلا توجد مفاهيم دينية صادقة تماما مع جوهر العقيدة) مع انتشار الإسلام حيث دانت لسلطته شعوب ذات عقائد مختلفة كما أن التعايش الدينى كان يساعد على الاستغلال الأمثل للبلاد التى تم غزوها ويفتح أمام المسلم آفاقًا جديدة بحيث يجد نفعه سواء فى الرافدين أو فى ضفاف نهر إبرة Ebro، وهناك إلى جانب تلك الاعتبارات البراجماتية ، التصوف والزهد اللذان جعلا من التسامح مع (أو من اللامبالاة الدوجماطيقية) أساس التجربة الدينية القائمة على حب الله والالهم وليس على المعرفة ، وهانحن نجد ابن عربى المرسى يقول:

لقد صار قلبى قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان

وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب دينى وإيمانى (٢٧)

يسير المسلم تحت وهج الشمس أو يسبح بخياله – هناك شيء من البدويّة – نحو آفاق بعيدة وقابلة للانتقال رغم رسوخها فى أعماق قلبه ، لا يفزعه التعايش مع الغرباء أو قربهم ، فقد كانت قرطبة تَغصّ بالمسيحيين واليهود ويختلط بهم العبيد السلافيون الذين يجلبهم تجّار الرقيق الفينيقيون إلى إسبانيا ، وقد ترك المسلمون الناس الذين يتركون ذويهم فى سلام ،وظلوا على هذا الحال منذ أن جاءوا إلى إسبانيا حتى القرن الحادى عشر اللّهم إلا استثناءات قليلة من أعمال العنف .

وبعد ذلك جاء المرابطون والموحدون من أفريقيا ودخلت معهم عناصر التشدّد ، ولم تعد حياة غير المؤمنين من المسالمين حياة كريمة مريحة ، غير أن التسامح كان السّمة الأكثر قوة خلال أربعمائة العام الأولى لدخول المسلمين إلى شبه الجزيرة الأيبيرية ، كما أن التسامح لا ينفصل عن التوفيق بين المتناقضات الأسطورية – العقلية فى الثقافة الإسبانية التى تدخل فى مكوّناتها الرياضيات لأقليدس وحكايات الشعوذة وقراءة المستقبل دون أن يخطر على بال أحد الاعتماد على هذا الكنز الهائل من العلوم البحتة ويقوم ببثّ أفكار " واضحة ومختلفة " فى عقول الطبقة المتوسطة أو طبقة العوام ، واستمرت حالة التعايش والتسامح حتى أتى إبليس أو القدر وحوّل كل ذلك – أى أعظم قاطرة لتاريخنا – إلى تراب مطلىّ بالأعمال العظيمة التى تفوق قدرات البشر

وما سبق أن قرأناه من كتاب السيد خوان مانويل يرجع إلى عمه الذى اقتصر على الترجمة وشرح الآيات القرآنية :

" على المسيحيين أن يلجئوا الى الحكمة والموعظة الحسنة

حتى يعتنق المور المسيحية ... وألا يجبروهم على ذلك

(لا إكراه فى الدين [فـإذا ما شـاء الرّب أن يؤمنوا وألا يكونوا مجبـرين على اعتناق المسيحيـة لفعل) ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض جـمـيعـا [والله لا يرضى عن عـمل هؤلاء الذين يخـيفـون الناس ويجبـرونهم ويكْرِهونَهم (كـتاب القـوانين - الجزء السابع - الفصل رقم ٢٥ قانون رقم ٢) [٢٨] .

كمـا نفـهم لماذا كتب رامـون لول R. LLull بالعـربيـة - قبل القطلانيـة وطبع بهذه اللغة كتابه " الوثنى والعلماء الثلاثة " ، وفيه نجد مسيحيًا ويهوديًا ومسلمًا يتحاورون حوارًا هادئًا لا تشدّد فيه ويقوم كل واحد بعرض جوهر عقيدته ، ورغم أننا لا نشكّ فى صدق تدينْ رامـون لول فـإنه قد ترك قِيادَ نفسـه لخيـال وتصوّر فيـه استيـعـابه للأديان الثلاثة مـجتمـعة ، ويتـضمن كتاب القـوانين (لألفونسو العـالم) تعايشـًا قـانونيًا بين الأديان الثلاثة [٢٩] ، كما نتعايش أيضا فى الموروث الثقافى الحالم لرامون لول ، وهو فى هذا يسـير على خطوات يهوذا اللاوى فى كتابه Cuzari ، أما عند ألفونسو العالم فنجدها تتحوّل إلى موضوعية قانونية مُعْرفة فى قشتاليّتها رغم أنها تظهر فى أعمال رامون لول - ابن جزيرة مـايوركا- فى صـورة حمـاس غنائى وود وذلك طبقًا لما يجب أن تكون من المنظور التاريخى ، وهذا الودّ مع غير المؤمن نجده فى عبارات مثل هذه " عندما تؤدى روحنا الصلاة لا تنسى غير المؤمنين فهم من دمنا وعلى شاكلتنا غير أنهم يجـهلون أمر الدين والعلم ولا ذنب لهم فى هذا " Evast e Blanquerna , 1935, p.202؛ ولو رأى إيراسـمو Erasmo ذلك لصفقّ له ، ولا توجد حتى اليوم دراسة جادة لمؤلفات رامـون لول وهى مؤلفـات بدأها بنفس الروح التى كـانت وراء هؤلاء (العلمـاء الثـلاثة) واعتـمد فى ذلك على مـعرفته العـميقة بالثقـافات الثلاث التى تلاقت فى داخله، وهنا أقتصـر على الإشارة إلى المشكلة كمـا أُورد شيئا للتدليل على شيوع روح التسامح الإسبانى خلال العصور الوسطى خلال صلاتها بالإسلام [٣١] ، وسادت هذه المفاهيم

النبيلة وقت ازدهار النظام الذى كانت عليه أوربا فى العصور الوسطى ، أى عندما أخذت القوطية تؤكد ذاتها من خلال الحريّة الروحية القائمة على أساس الانسجام الكونى ، ومن الخطأ الربط بين الظاهرتين ؛ ذلك أن الفترة الإسبانية المعاصرة لما يسمى بالعصور الوسطى تتميز بتفرّدها فهى قريبة وبعيدة فى آن معًا وهذا ما يؤكده استخدام القشتالية كلغة علمية خلال القرن الثالث عشر (الفصل العاشر) فلقد كان التسامح الإسبانى إسلاميًا وليس مسيحيًا .

وتظهر صورة المسلم – فى مؤلفات ألفونسو العالم وابن أخيه دون خوان مانويل – كمنافس سياسى يجب إلحاق الهزيمة به وليس كعدّو فى الدين ، فغير المؤمن – سواء كان المسلم أو اليهودى – نزل عليه الكتاب مثلما هو الحال عند المسيحى (طبقًا لما ورد فى القرآن) ويجب اعتراضه للأسباب التى ذكرناها كما أن فكرة التسامح تعكس أيضًا ما كان يتمتع به اليهود من ميزات إلى جوار علية القوم خلال القرنين وكذا فى مؤلفات السيد خوان مانويل ، إلا أن التسامح اعتراه التفكّك عندما ابتعد المسلمون عن ممارسة دورهم كبديل ثقافى مطروح وعندما أخذ العامة يعتدون على اليهود فى نهاية القرن الرابع عشر ، وهنا لم بعد المسلمون واليهود والمسيحيون قادرين على التعايش تحت سقف واحد ، إذًا اختل النظام السائد فى إسبانيا : فالشعب المسيحى كان يخوض غمار المعارك أو يفلح الأرض أما المسلم فقد كانت مهمتّه بناء المنازل ، ويتولى اليهودى تدبير شئونه المالية والفنية ، وعلى أساس هذه القاعدة المتشابكة قامت سلطة الملوك والأغنياء وظلوا فى تعايش سلمىّ دون صداقات كبرى وهو تعايش حاولت الكنيسة هدمه بكل ما أوتيت من قوة اعتبارًا من القرن الثالث عشر ، وفى نهاية القرن الرابع عشر أسهم التيار الشعبى فى مباعدة المور وضرب اليهود ، وسادت عقيدة واحدة فى إسبانيا اعتبارًا من القرن الخامس عشر وامتصّت ما فى العقيدتين الأخريين،ولم يعد قانون التعايش مطبقًا وهو قانون يقضى" بأن يعيش المورو بين صفوف المسيحيين ويحافظ على عقيدته ولا يعتدى على عقيدتنا "[كتاب ـ القوانين السابع – ١,٢٥] ؛ وأتصور أننى قدمّت بذلك بداية التسامح الإسبانى وانهياره وهو

مـفـهـوم ليس له مكان فى العـصـور الوسطى الأوربيـة ، وهناك فـارق زمنى ، يبلغ خمسمائة عام من الحكم الإسلامى ، يفصل بين القوانين الصارمة التى تضمنتها " لائحة القانون Fuero Juzgo ضد اليـهـود (القرن السـابع) والقـوانين التى تتسم بمرونتها فى عهد ألفونسو العالم . (٣٢) .

وأثناء القرون الخمسة المذكورة تعارضت المعتقدات وتشابكت بشدة فى الوقت ذاته وقد ساعد على هذا الانسجام التوجه المسمى deismo {عقيدة تؤمن بالله وتنكر الوحى} وهى فكرة عبر عنها الصوفيون مرات كثيرة كما وجدناها فى مؤلفات رامون لول ، وقد درس ابن حزم تفصيليًا الريبة التى عليها هؤلاء الذين يُلغُون أى حكم بشأن صدق أو زيف أية نظرية فلسفية أو أية ديانة فكل برهان يؤيد نظرية أو عقيدة يقابله برهان مضاد ، وهذا هو ما قال به قبل ذلك المفكّرون السكندريون طبقًا لرأى أسين بلاثيوس (٣٣) ، وقد كان فى إسبانيا وحدها – خلال القرن الحادى عشر – أناس من المسلمين الذين يقولون بوجود دين واحد ، يشير ابن حزم فى كتابه " الفصل فى الملل والأهواء والنحل " إلى هؤلاء الذين يفكرون بأنه لابد أن يكون هناك الدين الحق بين كل تلك الأديان لكنه لا يتضح لأحد بشكل بديهى وواضح ومن هنا فالله لا يكْره أحداً فى الدين {Asim- Loc . cit p. 304]

ولست أدرى كيف وصلت للمفاهيم الدينية التى عليها جماعة الفرنسيسكان مسْحة من هذه الفكرة الشمولية ،فعندما سئل القديس فرانثيسكو عن السبب فى جمعه المؤلفات الوثنية بنفس الهمّة التى عليها بالنسبة للمسيحية أجاب قائلا: " لأننى كنت أجد فيها الحروف التى يتكون منها اسم الله ... وما تتضمنه هذه المؤلفات من أفكار جيدة لا ينتسب إلى الوثنية أو الإنسانية بل مردّه إلى الله خالق كل شىء". وقبل ذلك بوقت طويل كتب اليهودى الإسبانى بن يقوده (الذى عاش خلال الفترة بين القرنين الحادى عشر والثانى عشر) يقول : " يشير الحاخامات بأن من ينطق بكلمة حكيمة يقال عنه عالم حتى لو كان وثنيا" (٣٥) .

وهناك آثار لكل ذلك فى الشعر وخاصة فى " أغانى العذراء " لألفونسو العالم فالعذراء تُنْقذْ إحدى المسلمات وطفلتها {رقم ٢٠٥} ويتمكن ملك المغرب من إلحاق الهزيمة بعدوِّه بفضل راية العذراء {رقم ١٨١} وانتشل المور صورة العذراء مريم بعد أن ألقوا بها فى البحر ليكون الصيد وفيراً {١٨٣} ؛ وفيما يتعلق بحالات معاكسة أتذكر تضرّعات اليهود فى حالات الجفاف أو انتشار الأوبئة ، وقد وافق على واحدة من هذه الأدعية مجمع كاتدرائية أشبيلية (انظر الفصل العاشر) .

وقد أدى الاتصال الروحى بين أديان التوحيد الثلاثة - خلال فترة التعايش المسيحية الإسلامية اليهودية - إلى أن يستند ألفونسو العالم إلى ما ورد فى القرآن لبناء نظريته فى التسامح دون أن تكون هناك غضاضة فى نظر الكنيسة إذ كان الملك ابنها المؤمن ، إلا أن ذلك قد مضى وأخذت الحياة الإسبانية تتجهّ نحو آفاق أخرى ، وكانت هناك عبارات تتردد عن التسامح حتى نهاية القرن الثالث عشر مثل تلك التى قالها أنطونيو دى جيفارا : " إن من أكبر العيوب وما لا يتسق مع المسيحية أن يطلق على أحد بأنه مورو كلب أو أنه يهودى زنديق ... وأن يطلق على من اعتنق الديانة المسيحية بأنه مورو أو يهودى أو خنزير إذ أن ذلك يساوى قولنا له بأنك زنديق أو كاذب أو حنثت فى اليمين " (٣٦) ، وقد عرضنا قبل ذلك لجمل إنسانية قيلت فى حق الموريسكيين ، لكن الناس مع مرور الزمن يزدادون تشدداً ، فقد انتهت الأسباب التى كانت وراء المصالح المشتركة والاحترام المتبادل ، وحدث ذلك عندما قام الشعب بطرد اليهود أو إجبارهم على الدخول فى الديانة المسيحية ، وقد كتب السيد / أرتال دى ألاجون Artal de Alagón كونت ساستاجو Sastago يقول (١٥٩٣م) :

" يجب ألا نختلط بأسر أخرى وهذا ما تفعله المسيحية إذ يجب عليها ألا تقبل أو تسمع أخطاء الأمم الحقيرة التى ابتعدت عن الله ... ورغم أن المسيح قد جاء لهداية الجميع نجد أنه قال للكنعانية الوثنية أنه ليس من العقل أن تقدمى خبز

الأولاد إلى الـكلاب ، وهذا يعـنى أن الوثـنـيين ينــبــغـــى أن يعاملوا معاملة الكـلاب طالما أنهم لـم يعتنقوا الديانة ولـم يؤمنوا بمبادئها " (٣٧)

لم تعد العقيدة تلعب دوراً بنَّاءً واقتصرت على الدفاع عن نفسها بكل ما أوتيت من سُبُل .

أصبح جليًا أن المرونة الدينية خلال القرون الوسطى أمر لا ينفصل عن الروح الإسلامية التى رأيناها كما سنرى آثارها على الصفحات التالية .

الهوامش

(١) هُدمَ حصن رباح (دار العبادة والدير والحصن) عام ١٨٠٤ . وقد كتب م. دانْبيلا عام ١٨٨٨م يقول " لم تجد نفعًا الأصوات الطيبة للحيلولة دون أن تقوم يد الإهمال بعملها فى القضاء على الأطلال المتبقية من حصن رباح {BAH, X11, 1882, p125} ، وقد هُجِّر الدير وأفضل مكان فى أوكليس ثم زالا من الوجود فى منتصف القرن التاسع عشر ، وكان الأرشيف والمكتبة على وشك الاختفاء تمامًا ، وفى عام ١٨٦٠ قامت لجنة الأرشيف بإخراج الكتب من بين الأنقاض وغيرها {انظر : خوسيه ماريا أسكوديرو دى بينيا فى BAH XV , 1889, pp 308 - 309

(٢) H. Prutz, Entwickelung und Untergang des Tempelsher- renordnes, 1888, p.8: " Ein Seitenstück bieter der Ritterorden von S. Jago". Lo mismo en J. piquet, Les Templiers, 1939: "Les Temple et de l'Hôpital excitaient une grand jalousie en Es- la?pagne, car la plupart des Fréres étaient des étrangers, aussi la tendence fut- elle création d'Ordres militaires nationaux" (p.234).

(٣) خ أوليفر أسين " الأصول العربية لكلمتى Rebat, arrobda... عام ١٩٢٧ . وطبقا لأسين بلاثيوس فإن الرباط هو النموذج الدقيق للجماعات الحربية {الإسلام الإسلام على الطريقة المسيحية} صـ ١٣٧ ، ١٤١ .

(٤) G. A. Campbell , The Knights, Templars, 1937

(٥) يقوم أسين بلاثيوس فى كتابة " سيِّد المتصوفة الأندلسيين " صـ ١٥٧ بتقديم ترجمة كاملة لحياة أبى العباس أحمد بن همأم طبقا لما أورده ابن عربى فى " رسالة القداس "

(٦) " The multiplication of rabitas in Spain and their possible confusion with ri- bats are connected with the greats movement of mystic piety which, starting in Per- kh?naka in the east, zawia sia, had brought about the substitution of monasteries - in Bar- bary - for the foundations more military than religious, of the heroic age of Is- lam (G. Marçais en Encyclopaedia of Islam, s.v.rib?t).

(٧) Patologia de Migne , S.L. , 182. col 921 y ss

(٨) يشير الناشرون لهذا الكتاب Patologia إلى فقرة وردت فى رسالة لبدرُ و المُبجل راهب لكونى (١١٥٦ تقول " Quis non laetetur, quis non exsultet, processisse vos,non ad simplicem," "sed ad duplicem conflictum. Estis monachi virtu- tibus, milites actibus."

(٩) L. Massignon, La passion d'Al-Hallaj.p.798. M. As?n, Islam cristianiza-do,p.327.

(١٠) انظر J. Piquet, Les Templiers. Etude de leurs opérations financiéres,1939.

(١١) قارن بين ذلك وبين ما وقع خلال القرن الرابع عشر ، لرهبان جماعة سان خيرونيمو الإسبانية والتى عاشت مشتتة طوال فتره من المستحيل تحديدها واستمر ذلك حتى عام ١٣٧٣م عندما قبل البابا بوجودها .

(١٢) كما أن الملك سلم حكم الحصن الذى تم الاستيلاء عليه إلى الحاخام يهوذا ابن الأمير العبرى الحاخام يوسف بن عزرا . ويفترض ف . فيتو أن الرهبان Templaries قبلوا بهذه السلطة بسبب بداياتها الماسونية التى توضحها طقوسهم اليهودية (BAH , XIV, 1889, p>267) وإذا ما كان هذا هو السبب أو غيره فإن الواقعة تعبير عن التسامح الشرقى أثناء حكم الملك الفونسو السابع .

(١٣) ترجع أول اشارة إلى هذه الجماعة لعام ١١٥٨ م ، عندما تبرع سانشو الثالث بحصن رباح لرايموندو دى فيتيرو . (إسبانيا المقدسة 50, p. 413) .

(١٤) قدم المؤلف فى هذا المهمش شرحًا حديثًا للنص الشعرى المذكور (المترجم).

(١٥) نورد هنا عينة هى فقرات لأشعار غنائية تتحدث عن وفرة الغلال والفواكه والأسماك والخيل وكأنها النار – ورءوسها السوداء كأنها السمك أو آنية الطعام . "Españ es abondada de mieses, de-leitosa de fructas, viciosa de pescados ... "(p. 311). Las riendas de lossus cavallos tales erancomo de fuego, las sus caras deellos negras como la pez, el m?s fremoso de era negrocomo la olla, ass? luz?en sus ojos como candelas " (p. 312).

(١٦) وهناك جمل كثيرة تعكس مثل هذه التركيبة النحوية Como en frases del tipo de l"Summum jus, summa inijuria"; "Mis fueros, mis bríos; mis premáticas, mi voluntad"; o en proverbios : "En casa, del herrero, cu-chillo de palo"; Corto oficial, mocos y su-dar" ('el obrero perezoso no hace sino so-narse las narices y secarse el sudor'), dtc

(١٧) أطلق اسم " الصوفى " لاشتقاق الكلمة من الصوف الذى هو لباس الزّهاد.

(١٨)

Los Comendadores,	en hora menguada,
por mi mal os vi !	para la ciudad
Yo vi a vosotros,	de Córdoba la llara,
vosotros a mi!	con ricos trotones
....	Y espuelas doradas.
Los Comendadores	Lindos pajes llevan
De Calatrava	delante de sí
Partieron de Sevilla	(Véase Bib. Aut. Esp,
	XVI, p. 697.)

(١٩) انظر أ. باث و ملّيا " مكتبة أرّاخيل " فى تكريم مننديث بيلايو " وقد نشر هذا النص الرائع عام ١٩٢٢م على نفقة دوق ألبا طبقا لما أورده السيدان باث ومليا ، ولم تكن هذه أول مرة يقوم فيها رئيس إحدى الجماعات باستخدام عبرى فى الشئون الثقافية ، فقد قام فيها السيد/ لورنثو سواريث دى فيجيروا قائد جماعة سانتياجو بإصدار الأوامر للسيد يعقوب صادق ، من أوكليس بترجمة كتاب " العلماء والفلاسفة وبعض الأمثال والمفاهيم الطبية " من القطلانية إلى القشتالية ، وقد انتهى من هذه المهمة عام ١٤٠٢م ، (خ.رودريجيث دى كاسترو " المكتبة الإسبانية للكتّاب اليهود " مدريد ١٧٨١م، الأول – صـ ٢٦٣ . ومن المؤكد أن يعقوب صادق قد اعتنق المسيحية بسبب المذابح التى جرت عام ١٣٩١م ولابد أن الكتاب الذى قام بترجمته يشبه بدرجة ما كتابًا بعنوان Lliebre de la Saviesa لليهودى القطلانى خافودا Jafuda ، ومن هنا نرى كيف كان كبار الرجال فى الجماعات يعنون بالأدب التعليمى – التهذيبى ، وهو أدب شديد الصلة بالعرب واليهود كما يروق كثيراً للمسيحيين ، وسوف أتحدث عن ترجمة قام بها ابن ميمون بناء عليطلب من ابن أحد قادة جماعة سانتياجو .

(٢٠) انظر ف كانتيرا " اليهودى السلمنقى أبراهم زاكوت Zacut، ١٩٣٤، لم يكن ذلك الرجل برتغاليًا بل من أبناء سلمنقة وعاش تحت حماية الأسقف جونثالو دى بيبيرو (المتوفى عام ١٤٨٠م) وقد كرّمه أثناء حياته ، وبعد مماته ترك له ميراثًا من خلال وصيته ، وهنا عاش أبراهم فى قصر قائد جماعة القنطرة حيث يصفه بأنه " عاشق لكل العلوم وعارف بها وبلغت شهرته أن كان العلماء والأدباء يتركون أرضهم ومسقط رءوسهم للبحث عن السكينة الحقيقية والكمال " (...) ونستطيع أن نجد مزيدًا من التفاصيل عمّا قيل عن السيد / خوان دى ثونيجا فى " تاريخ جماعة القنطرة " بقلم ألفونسو تورسّ طابيا ، ١٧٦٣م ، الجزء الثانى صـ ٥٦٩ .

(٢١) نقلاً عن مقال لـ . أباث ومليا فى مجلة الأرشيف (١٨٩٨) صـ ٨ .

(٢٢) انظر : أمادور دى لوس ريوس فى تاريخ الأدب الإسبانى ، الجزء الثالث صـ ٦٢٤ .

(٢٣) نفهم مقاومة العلماء قبول نفاذ الحياة الإسلامية إلى تاريخ إسبانيا كنوع من الدفاع ضد الفكرة الرومانية القائلة بأن إسبانيا كانت جزءًا من المشرق ، وهى بلد لا تربطه بأوربا أوجه شبه كبيرة ...الخ .

(٢٤) " وصف إسبانيا " لمن أطلق عليه " مجهول المدّيه " ترجمها رينيه باسق فى " تكريم السيد فرانثيسكو كوديرا " صـ ٦٤١ (...)

(٢٥) إسبانيا السيد (صـ ٦٧٥

(٢٦) I. Goldzieher, Le dogme et la loi de l'Islam, p.143.

(٢٧) ترجمان الأشواق دار صادر للطباعة والنشر – دار بيروت للطباعة والنشر – بيروت ١٩٦١م صت ٤٣ – ٤٤

(٢٨) إن ما تضمنه هذا النص من الإشارة إلى الآيات القرآنية يعكس جيدًا فتاوى الفقهاء العرب التى تقول بأن الإكراه على اعتناق الدين الإسلامى ليس من الدين فى شىء (انظر I. Goldzieher -ا- المصدر السابق صـ ٢٥٧) حيث يورد حكمًا فقهيًا يرجع لنهاية القرن السادس عشر

(٢٩) ومن بين القوانين الإنسانية الأخرى المتعلقة باليهود نجد ذلك النص " ولما كان الكنيس يذكر فيه اسم الله فإننا نقول بأنه لا يجوز لأى مسيحى هدمه أو إخراج أهله أو أخذ شىء منه عنوة " (السابع – الخامس والعشرون ، ٤)

(٣٠) لقد حاولت الصوفية – كما رأينا سابقًا – إزالة الحدود الفاصلة بين الديانات المختلفة ووصل الأمر ببعض المتصوفة إلى الدفاع عن الفكرة القائلة بأن معرفة الإله الواحد أتى معها عنصر توحيد الإنسانية رغم أن القوانين الدينية تشجع على الانفصال ومن المعروف أن رامون لول انساق كثيرا وراء تلك النظريات التى تتفق مع الحالة الوجدانية الشعرية التى كان يعيشها ،وقد سبق الـ Deismo العقلانى نوع آخر منه يتعلق بالصوفية .

(٣١) والدليل على أن هذا التسامح قد أثر كثيرًا فى الطبقات البسيطة من أبناء الشعب الإسبانى هو ما ورد فى بعض القوانين المحلية القائمة على العادات المتبعة : ـ ' E los iod?os ayan foro como chris-tiano; que lo firiewe o matare, tal omezfo peche ocmo si fuesse christiano, o matasse uezino de Salamanca" (Fuero de Salamanca, ed. De Américo Castro y Federico de Onis, p. 202).

(٣٢) " ألا يحتفلوا بعيدهم الدينى وألا يتزوجوا حسب شريعتهم وألا يمارسوا الختان " أما اليهودى الذى لا يقوم بتعميد أبنائه فعقابه " مائة جلدة وحلق شعر رأسه وإخراجه من الديار ويتعلق مصيره والمحمودو عنه بقرار الملك " (الكتاب الثانى عشر المادتان الثانية والثالثة ، كما قام سالمون كيتز بدراسة أوضاع اليهود خلال العصر القوطى The Jews in the Visigothic and Frankish Kingdoms of Spain and Gaul, 1936. ولقد وجد الملوك القوط عقبات جمّة فى سبيل تنفيذ القوانين الصادرة ضد اليهود ، ذلك أن هؤلاء كانوا يرشون رجال الدين (صـ ١٣) ويحميهم النبلاء (صـ ١٩) ، وبذلك نرى ملامح الموقف خلال القرون التالية ، حيث أقوم بتحليله فى الفصلين العاشر والحادى عشر فى كتابى هذا .

(٣٣) فى " الثقافة الإسبانية ، ١٩٠٧م ، الجزء الخامس ، صـ ٢٩٩

(٣٤) Ozanam, Les poétes franciscains en Italie ap. Fr. Michel-Ange, en Etudes Franciscains, 1909, XXII, 6100 Duns Scoto descubre en todo los vestifios de Dios, porque ' In commendando enim Christum, malo excedere quam (3, Dist. XIII, qua est. 4, n. o9) (ibid.). deficere a laude"

(٣٥) Duties of the Heart, ed. M. Hyamson, 1925. P. 16.

(٣٦) الرسالة رقم XIV، من الجزء الثانى فى مكتبة المؤلفين الإسبان - الثالث عشر صـ ٢١٢ ب

(٣٧) " توافق الشرائع الإلهية والإنسانية " مدريد عام ١٥٩٣ - صـ ١٠٤ Ro- كما أن أزمة الشعور بالتسامح وتأسيس الحرب ضد غير المؤمن على أسباب دينية إنما هى مظاهر المفاهيم الجديدة للبحث عن " قضايا عادلة " للحرب ضد الهنود الأمريكان فى العالم الجديد .

الفصل السادس

الإبداع الأدبى ونمط العيش

الإسلام والحياة الروحية للإسبانى المسيحى :

اعتمدنا فيما مضى من فصول هذا الكتاب على الكلمات والسلوكيات والمعتقدات والتنظيمات التى هى اتصال مباشر أو غير مباشر بالحياة الإسلامية الإسبانية ، وعلينا أن ننتقل الآن إلى جوانب غير مباشرة حيث يصعب أن نلاحظ بوضوح شديد - خلافًا لما وجدنا سابقا - الآثار التى خلفها الإسلام فى أعماق النفس الإسبانية وخاصة ما يتعلق بالحياة الداخلية للمرء ، وكان من المتصوّر أنه بعد عرض هذا المحتوى المهم (١) والمحدّد أن تكون هناك توجّهات عامة تتفق مع الأنماط الإسلامية الخاصة بالتجربة الحميمة ، ولقد عاش المسيحيون قرونًا طويلة تحت الأفق الأخلاقى للإسلام ، وبالتالى لابد من تأثيره فى الوعى على المدى الطويل ، إلا أن المظاهر الخارجية لما هو موجود فى اللاشعور لا تفصح عن جذورها الإسلامية ، وترتبط تلك الظواهر بما أطلق عليه الطبيعيون " شبه التحوّل " Seudo morfosis ، وأنوّه بهذه النقطة حتى يسهل فهم ما أتحدث عنه ذلك أن الإنسان يختلف عن معدن يتبلّور ، وقد لاحظنا شيئًا من ذلك عندما تحدثنا عن أصول كلمة hijodalgo ذات الشكل الرومانى والإسلامية فى وظيفتها الدلالية .

فالشخصية الداخلية تُحْدِثُ فى نفسها إشارات وإيماءات مثلما يحدث مع الجسد ولهذا يقول الناس إن فلانًا " تتنزه روحه فى جسده " فأحيانا ما تتوقف الروح والنفس وتعملان أحيانًا أخرى ثم تحتفظان فيما بينهما بعلاقات طيبة أو سيئة بمعزل عن

الجسد أو رغم تمرّده ، فذات مرة كانوا يعدّون السّلاح لكونت دى كابرا للدخول فى معركة ، وعندما لاحظوا أنه يرتعد سألوه عن السّر فى ذلك وهو الرّجل المقدام ، فأجاب قائلاً " اللحم يخشى من السّهم الذى سيغرسه فيه القلب " (٢) ؛ وتحدث الأمير كوندى Condé بعد ذلك بزمن عن نفس المعنى ، وأن كل لحظة تمرّ بالإنسان يعيش فيها أعراضًا مشابهة لهذه ، فالعالِم الجليل والبطل أو رجل المبادئ الملتزم يمكن أن ينكفئ على ذاته ولا يُظهر صراعات النفس أو أحاسيس الجسد (٣) ؛ فالمشكلة إذن شائكة وحميمة وعلينا أن نحللها ، لكن علينا أن نتذكر أنه إذا ما كان هناك من يرغبون فى الانعزال والانكفاء على الروح ويتمكنون من ذلك فهناك آخرون ممّن لا يعزلون " الأنا " الروحى عن مجاورة النفس والجسد (٤) .

وما يهدف إليه التفكير هو التوصل إلى حقيقة يستطيع أن يتملكها من قد يعرفها ومن قد فكّر فيها لأول مرة ، والأسباب عامة تتجاوز حدود الفرد ولا تدعو إلى التعرّف على نفس وجسد من قام بصياغتها، كما أن من يقبل الحقيقة وعناصر الواقع الموجودة بها يعترف بوجود شىء لا يمكن لحياته التدخّل فيه، وعلى ذلك فإن المفكِّر الذى يعرض الأمور بموضوعية ينتزع من داخله شيئًا ملّكه ، كما أن الاعتراف بوجود شىء موضوعى يعنى قبولنا بأنه لا يمتّ لنا بصلة مثل وجود ذلك الوجود ، ورغم ذلك فهناك شعوب كانت فى حاجة ماسة للتعبير عن مشاركتها الوجدانية فى العالم المحيط بها بدلاً من الانعزال عنه ، وهدفها فى ذلك هو التدبّر فى الصعوبات والمشاكل الناجمة عن هذا العالم ، ونجد محصلة تلك التأملات فى وقائع لا تعكس مكنون من آثارها ولا تقول شيئًا لنفس من قام بالاتصال بها (إنها إحدى المفرقعات الصناعية أو الحاجز أو القضية) ، ولم يكن الإسبانى ينجذب كثيراً إلى هذه الأنشطة لأنه لم يتمرّن كثيرا على استخدام العقل ، وهذا هو ما قاله ألونسو دى بالنسيا خلال القرن الخامس عشر ، ولكى يستخدم العقل فهو فى حاجة إلى عدم التخلى النهائى عن النفس وربما يشمل ذلك الجسد أيضًا ، وقد وضع أنطونيو دى نبريخا أحد أبرز علماء الدراسات الإنسانية الإسبان جدولاً لحساب الساعات ومعرفة التوقيت فى باقى المدن الأوربية ، ويقول فى مقدمة الجدول إنه قام بهذه المهمة حتى لا يأتيه راهب صديق ويمطره بالأسئلة عندما

تتعطل ساعته فى المنزل ، ولابد أن يكون الفكر أحد مكونات الحياة الشاملة للفرد وبذلك تبقى مساحة صغيرة للتنظير ، ومن هنا ندرك السّر فى قلة الفلاسفة والعلميين فى إسبانيا من الذين لهم فكر أصيل ، وعلينا أن نتذكر بأن الخلود عند ميجل دى أونامونو يندرج تحته خلود الجسد بما فى ذلك الرداء الخارجى الذى يستره .

وإذا ما كان التعبير عنه يتطلب الموضوعية المطلقة فإن الإسبانى يفضل التعبير الحميم عن روحه الفردية ولهذا تطيب له الاستعارة والمجاز والتنويه وهذه العناصر لها صلة قوية بما تم التعبير عنه ، وإذا ما كان للتنويه والموقف قيمة خاصة لدى الإنسان الإسبانى ، حسبما أشرت إلى ذلك فى مقام آخر (٥) فهذا مردّه إلى أن حياته تركّزت أكثر فى اقترابه إلى النفس بدلا من انغلاقه على الروح ، وبالنسبة لهذا الشعب لم تكن هناك مشكلة على المستوى الوطنى حتى ولو كان يتعلق بما وراء الطبيعة ، غير أن المشكلة الكبرى التى واجهها هى وسيلة التعبير وتمثيل الفرد ، فقد نقل لنا أنطونيو بيرث عبارة جميلة قالها دوق ألبا فيما يتعلق بما " ينبغى أن يكون عليه الرّجال فى الأماكن العامة " ، يقول الدوق " عندما يخرج المرء من المنزل ويضع العباءة على كتفيه فمعنى هذا أنه يحجب عن الناس ما يعتمل فى داخله ، ولما كانت العادة – عند العودة إلى المنزل – خلع العباءة حتى يتمدّد المرء ويكشف عن نفسه فكأنه يتحلل من الإطار الذى وضع نفسه فيه " (٦) ، والعواطف قائمة دومًا سواء انتابها التوتر أو التراخى وعلى أساسها يتم تشكيل هيكل الحياة – الإطار .

لندخل ونتعمق فى حميميّة هذا النمط من أشكال الوجود ففى البيت رقم ١١٨٦ من ملحمة السيد نجده يقول " أصبح سيدى فى أرض مون ريال " **"amaneció a Mio Cid en tierras de Mon Real** وهنا يتساءل المرء كيف يمكن أن يصبح شخص ، أى بمعنى مشاركته فى إحداث ظاهرة طبيعية بشكل ما رغم أنها لا علاقة لها به ، لا يوجد فى اللغة اللاتينية أو أىٍ من اللغات الرومانية أى بناء لغوى مثل هذا ، والأكثر غرابة هو تصريف الفعل **amanecer** (أصبح) مع ضميرى المتكلم والمخاطب **Amanez co**
["Siempre de buen humor Has amanecido ya ? amanecerá Dios y medraremos

أصبح معتدل المزاج ، هل أصبحتَ ؟ سوف تشرق شمس الله ونربح } ، ويحدث نفس الشيء مع الفعل anochecer (أمسى) ، وغنىٌ عن القول الإشارة بأن هذه الظاهرة تشمل الإسبانية والبرتغالية (٧) .

ندين لأولف لومبارد Alf Lombardبأمر الكشف عن ذلك الاستخدام اللغوى الذى يرجع إلى العربية فالمصدر " صبح " ومنه " أصبح " بمعنى أن يحيا الصباح فى ... أما " أمسى " فمعناه دخول الليل ..(٨) وهذه حالة أخرى من حالات شبه التحول Seu-do morfosis التى تطرأ على شكل رومانى ومعايشة عربية ، غير أنها مهمة للغاية فى معرض تحليلنا لتاريخ إسبانيا ذلك أن عملية التطعيم العربى لا تخص فقط مفاهيم موضوعية (مثل النبيل) بل تندرج ضمن الخبرات الداخلية وكيفية التصرف داخليًا عند التعبير عن وجود واقع موضوعى ، فبدلاً من الاقتصار على تلقى وجود ظاهرة طبيعية (أصبح وأمسى) يتولى نفس الشخص تحويل ما يتلقّاه إلى إبداع من عندياته وإلى شىء يحدث فى داخل الفرد وليس من خارجه فقط " أمسيتُ " بمعنى أظلمت الدنيا بالنسبة لى كما أنى دخلتُ الليل ...

وعندما تأتى المناسبة للحديث عن خوان رويث (قُمصّ إيتا) سوف نجد أن العربية تنتقل بسهولة شديدة من مفهوم يتعلق بشىء من الداخل إلى مفهوم يتعلق به من الخارج ، وكذلك الانتقال من الذاتية إلى الموضوعية والعكس بالعكس، وكلا جانبى الواقع وجهان لعملة واحدة (٩) وبذلك يمكن القول بأن amanecer y anochecer (يصبح ويمسى) تعنيان معنى موضوعيًا وتعنيان ما أعيشه من جرّائهما أوْ بهما ؛ وواقع ما هو موضوعى ومُعَاش يتداخل فى صورة الأرابيسك الذى لا نهاية له ، ويكون هذا من خلال التجربة العاطفية والحسيّة لكنها لن تكون عقلانية أو انتقائية ، فالواقع " يكتسب صفة الحياة " والشخص لا " ينتزع نفسه " تمامًا مما هو ليس هو فهو لا يعزله فى مفاهيم مجرّدة ، وعلى هذا فالإصباح ظاهرة موضوعية – ذاتية تندرج عليها مشاعرى وأحاسيسى (أصبح راضيًا ، أو وأنا أعانى من الصداع) وهذه تجربة يمكن أن أطلق عليها Centaurica قنطورية أو مهجنة ومعنى هذا أن الحياة بالنسبة

للعادات والتقاليد الظاهرية (مثل تقبيل الأيدى وغُسل الميت والجلوس على الأرض) ، ويقول الشاعر الأندلسي :

أكرّ على الكتيبة لا أبالى أَحَتْفى كان فيها أم سواها (صـ ٤٩)

" أما أشبيلية فمن محاسنها اعتدال الهواء وحسن المبانى ، وتزيين الخارج والداخل " (صـ ٥٠) .

ويكشف التعبير العربى عن عدم استقرار حاد مثلما هو الحال فى محاولة الجمع بين العالم ومن يعيش فيه فى إطار واحد ، فالواقع هو الذى نعيشه من خلال الأنا الكامل ، وليس هو ذلك الواقع من المنظور العقلى ، فالإنسان الغربى يرى اليوم كوحدة زمنية تحدث خارج إطار الشخص ، لكننا نقول بالعربية " رحل طول يومه ، عدتُ ليلتى، وجد نفسه فى ليلة نهاره " [(١١)] وبذلك نفهم سرّ عبارة " ابن الأيام " أى الشخص المحنّك والواعى فالإنسان يمكن أن يكون ابنًا لكل ما يحيط به (ابن شىء ..) أو أن يكون أبًا ، فمن أسماء الخبر فى العربية " أبو جابر " وهذه ظواهر طبيعية فى هذه اللغة .

وعلينا بالتالى أن نضع المسلمين الإسبان فى حساباتنا عندما نعثر على حالات فيها تداخل بين ما هو موضوعى وما هو ذاتى ، أو بمقولة أخرى علينا أن نشير إلى أنماط الحياة الحميمة التى بدأت أثناء فترة المعايشة الطويلة مع المشارقة ، كما أن صيغة المصدر الشخصى فى اللغة البرتغالية – على سبيل المثال – لا يمكن أن نفهمها جيداً إلا من خلال هذا المنطلق كما نجد أمثلة على ذلك فى لهجة أهل ليون قديما **nom a mestr de tal vida <u>avermos</u> de pasar ; Senhor Deus , prazate <u>averes</u> Cuidado d'esta tuva Serva** ..الخ ، وهذه الظاهرة نجدها فى أقدم نصوص اللغة [(١٢)] ، وبدون أن ننفى أن التصريف الشخصى للمصدر وقد وجد أساسًا له فى التوافق بين صيغة المصدر **Cantar** وبين تصريف الفعل فى المستقبل فى الصيغة الإنشائية **Subjuntivo**، فإن هذا التوافق لا يفسّر المصدر الشخصى الذى يعتبر أحد ظواهر التعبير الإنسانى، وليس مجرّد لعبة شكلية ، ويصل الأمر إلى أن بعض الأجانب لا يتقنون ممارسة هذا

التداخل بين الإحساس الشخصى وبين الحدث العام وغير الزمنى للمصدر . فالمصدر الشخصى لا يضيف شيئًا إلى المدلول الموضوعى للجملة ، فجملة podeis comer [يمكن أن تأكلوا] لا تعنى أكثر مما تدل عليه ، كما أن الاستعداد النفسى الذى ساعد على ميلاد تلك التصريفات لازال يعيش فيها ، ولا يكفى أن نتذرع بأنه عندما حُذِف الحرف المتحرك الأخير فى التصريف فى زمن المستقبل (الصيغة الإنشائية) مع ضمير المتكلم أصبح مماثلاً للمصدر ؛ وألحّ هنا على أن ما هو جوهرى يكمن فى التحوّر الدّلالى الذى اكتسبته الكلمة ، وهو عبارة عن ترجمة لقصد أو رغبة لدى المتكلم، والفارق بين جملة " dizeres me tu é loucura" وجملة " dizer me tu isso él loucura" هو أن الأولى فيها صرامة فى التعبير وتشير إلى الشعور بالمفاجأة فى أن ذلك الشخص يتفوّه بهذا الجنون ، كما أنها لا تضع مسافة بين القول والشخص الذى ينطق به (إنه بناء قُنطورىّ ، أى ذاتى – موضوعى) كما أنها تولد على مسئوليته (ما تقوله أنت لى هو الجنون) ، وهنا نجد أن الدواعى مختلفة فى كل حالة ، والسبب هو أن هناك منظورًا عاطفيًا حالة معنوية " لحدث ، ولا تجدى القواعد المجرّدة فى مثل هذه الحالة ، إلا أن العامة يستخدمون المصدر الشخصى بدرجة أقل (١٣) مقارنة بأصحاب الأقلام. وهذا يعكس أن تلك الصّيغ تتضمن وعيًا بالأمان أو السلطان العاطفى الذى كان لدى العامة ولكن بدرجة أقل ، وهنا نجد أن المشاكل المتعلقة باللغة تستعصى على الاستخدامات الظاهرية فى تطبيق القواعد المسمّاة بالقواعد التاريخية فهو تاريخ يعرض لِلحاء الشجرة أكثر من تناوله جوهر المشكلة ، كما أن صيغة المصدر التاريخى تسير بنا نحو نفس الميول النفسية التى أسهمت فى تصريف الفعل amanec-er(أصبح) وهى حالة تتمثل فى ولوج الشخص داخل شىء كان يجب أن يكون خارجه من الناحية المنطقية ، ولم تكن تلك الحالة لتوجد فى البرتغالية أو الجليقية دون تأثير المستعربين الذين هم الوسطاء الرئيسيون بين المسلمين والمسيحيين ، وهذا ما سوف نراه فيما بعد .

وفى نفس هذا الإطار تدخل التركيبة اللغوية التى نطلق عليها " التصريف المنعكس " refleja مع الأفعال غير المتعديّة فلا يمكن أن نقول La casa se llueve

{البيت يمطر إلا فى اللغة الإسبانية ، وهى جملة تقال للتدليل على نفاذ المياه من السقف ، وهناك جملة أخرى La mesa cae أو el cántaro se sale {المائدة تسقط ، الإبريق يخرج من مكانه} ، ومن المستحيل أن نعثر على تراكيب لغوية مثل هذه خارج دائرة اللغة الإسبانية أو البرتغالية .

وللتدليل على أن هذه التراكيب النحوية شبه متحوّلة من العربية يكفى أن نذكر جملة تقول Nos ha llovido (بمعنى أمطرتنا) ، والأفعال المستخدمة مع ضمير المتكلم المفرد غالبًا ما تصبح أفعالاً متعدّية مع ضمير الغائب مثلما نقول فى اللغة العربية " أمطرنا " nos llovi? وجملة el cielo me llovi? (السماء أمطرتنى) حيث تتضمن الضمير فى حالة المفعول به المباشر . وهذه التداخلات تتسم بكثرتها .

لنقفز قفزة هائلة ولنترك النحو والصرف ثم لندخلْ إلى ميدان الفن ، فقد لاحظت منذ سنوات أن الكاتب أو الفنان أحيانًا لا يهتّم بإبعاد الجوّ أو الإطار الذى ألهمه الموضوع عن الموضوع نفسه وعن عملية الإبداع ، فكل شىء نراه فى العمل الذى يتبدّى أمامنا وقد تضمن انعكاسات وإضافات جاءت من كل ما هو قائم فى ضمير الفنان ، ومن هنا نجد أن بيلا ثكيث يضيف إلى لوحته الشهيرة Las meninas {الوصيفات} الحامل ولوحة الألوان وعملية الرّسم وهؤلاء الفضوليين الذين يطلّون برءوسهم على ما يدور فى المَرْسم (١٤) وقد رأيت ذلك فى بداية الأمر على أنه نوع من البدائية " حيث لا توجد المسافة المطلوبة والحد الفاصل بين الآلهة والبشر " ، وبعد ذلك لاحظت نفس عملية الدمّج بين الأسطورة الأدبية والتجربة المباشرة فى ملحمة السيد ، وربطت تلك الظاهرة بالسّرد القصصى حيث يمثل ثربانتس أعلى وأكمل درجاته " فملحمة السيّد تشير من بعيد للسرّد القصصى الحديث " (١٥) .

أما بالنسبة للدراسة التى أعددتها عن القديّسة تيريسا ، فقد أفلح أوبرى ج.ب.بيل Aubrey G.B.Bell عندما أطلق لفظة التكامل Integra lismo على ذلك الجانب الحيوى للعبقرية الإسبانية، وقد قال العلامة ألونسو لوبيث بنثيانو – A.L.Pinciano – عام ١٥٩٦م – أنه لكى يقوم إنسان " بإعداد كتاب فمن الضرورى أن يكون إنسانًا

متكاملاً " وينطق بيل بنفس هذا المعنى قائلا " ويمكن اعتبار ذلك على أنه شعار الفن والأدب الإسبانيين " (١٦) كما سجلّ كارل فوسلير انطباعات مماثلة ، ومع هذا فقد سعدنا جميعًا بملاحظة الظاهرة وعبرنا عن أفكارنا بشأنها سواء مؤيدة أو معارضة ، وهى الأعمال الفنية والأدبية التى قامت على أساس هذا التكامل أو الواقعية (١٧) ، غير أن الأدب والفنّ لم يكونا إلا جوانب مهمة لصيغة حياة ، أىْ نفس تاريخ إسبانيا الذى نحاول أن نوضح معالمه ، ولقد ساعدتنا الفصول السابقة – وخاصة ذلك الذى تناولنا فيه الاعتقاد فى سانتياجو – على أن نرى كيف أن الإسبان – القوط كان عليهم أن يرهنوا حياتهم بإيقاع الإسلام ، والهدف من وراء ذلك هو الوقوف ضده والتمكنّ من المقاومة ، ولقد فازوا بهذا الهدف الأخير بعد أن أبلوا بلاء حسنا وكانت العقيدة هى حافزهم ، كما لم يتغلبوا ببطء على المصاعب من خلال تصرفات تقوم على الفكر ، أى أنهم انكفئوا على أرواحهم لإيجاد حلول مناسبة ولهذا لا يوجد فى إسبانيا المسيحية خلال العصور الوسطى علم أو لاهوت يتسّم بالأصالة ، ولو كانت هذه الروح الإيمانية المتحمسة قد تراجعت بعض الشيء لتترك الساحة للتأمل اللاهوتى أو الصوفى لتعرضت لضربات قاصمة ذلك أن الاعتقاد فى سانتياجو لم يكن إيمانًا عاطفيًا لشعب ساذج ، كما يفكر البعض ، بل كان حجر الزاوية فى بناء الدولة والمملكة ، وحتى ندرك وظيفة تلك العقيدة فمن الأفضل الإشارة إلى مثال فيه شيء من الشبه والمقابلة ، أو بمعنى آخر " اعتبار سلامة الدولة " لدى الملوك الفرنسيين خلال القرن السابع عشر إذ أعملوا العقل وقاموا بتطبيق مبدأ وضع هيكل الدولة فى كل شيء بدءا من الديانة وانتهاء بطريقة الكلام ، وحتى لا تتحول فرنسا إلى فوضى اجتماعية و دينية قررّ الملوك وأشياعهم إسكات الغرائز الجموحة للنفس الفرنسية بإغراقها فى بحر العقل وقواعده الموضوعية ، وبذلك ضحوّا بالكثير بدءا بالشعر وانتهاء بالمحمودوية فى التعبير اللغوى ، لقد ألبسوا فرنسا مَرْيلة للسيطرة عليها حيث بدا ظاهرها مليسًا جميلاً ، وعندئذ نسى الفرنسى الروح الملحمية وعاش لنفسه ولبلده دون أن يكون هناك شيء يذكرّه بالمشاعر السابقة والمتعلقة بالحرب الصليبية .

وإذا ما تم كبح جماح الغرائز الجموحة فى فرنسا ففى المقابل نجد ضعف الاهتمام بالتفكير العقلانى بين الإسبان المسيحيين اللهم إلا بعض الاستثناءات العابرة أما الحياة نفسها فقد أخذت تبدع لنفسها قوالب وأنماطًا استعدادًا للمستقبل بينما تنغمس فى العقيدة وتنقذ نفسها من خلالها ، ولقد كان من المهمّ فتح طريق أمام الإرادة ومن هنا كانت الأخلاق والقانون من العلوم التى يتم تدريسها جيداً فى بلاط ألفونسو العالم وكذا الملوك الآخرين ، لكن لم يكد يكون هناك مكان للعلوم الطبيعية ، فحيث لا يوجد تقنين عقلى للاهوت يختفى معه أى فكر علمى خلال العصور الوسطى وقد كانت العلوم الإسبانية إسلامية فى هذه القرون ، وقد تميزّت جامعة سلمنقة – ابتداء من القرن الثالث عشر – بدراساتها القانونية ، إلا أنها لم تقدم لنا خلال العصور الوسطى فيلسوفًا أو عالم لاهوت من الطراز الأول ، وكانت مدرسة طليطلة المتخصصة فى الثقافة الإسلامية معروفة للجميع " أى بين الباريسيين حيث تزدهر المعارف الخاصة بتعبيد الطرق عند أهل طليطلة Tholetanosوعلوم quadrivii بين أهل ساليرنو وعلم الطب بين البولونيين " (١٨) وبذلك نرى أن طليطلة النصف الثانى من القرن الثانى عشر تظهر فى صورة المدينة المتقدمة فى مجالات مهمة مثل الرياضة والفلك والهندسة والموسيقى ، وعندما فكر الملك ألفونسو الثامن فى إقامة مركز للدراسات لم يستطع جلب الأساتذة المسلمين فقشتالة لم تكن مثل الأندلس ، كما لم يتمكن من اللجوء إلى أساتذة مسيحيين فلم يكن هناك أحد على ما يبدو ،لهذا نجده يقوم فى عام ١١٨٥م بإرسال بعض المبعوثين إلى فرنسا وإلى لومبارديا Lombardia حتى يؤسس فى أرضه علومًا ومعارف يجب ألا تكون مملكته خلوًا منها ، وأن تقوم مدارس العلم بنشر العلوم حتى تفيد فى الإعلاء من شأن المملكة ومن فيها .

ويشعر المرء بشىء من الدهشة عندما يرى أن المسيحيين لا يتعلمون من المسلمين التوجهّات الثقافية والصناعية رغم أنهم قلدّوهم فى الكثير بما فى ذلك ردّ فعل تجاربهم الباطنية ، غير أن علينا ملاحظة أن ظواهر " التكامل " على شاكلة : " أصبحنا ، أمطرتنا على طول الطريق ، أتجمدّ ، مات عنه ابنه " ما هى إلا نتيجة ردّ فعل لا شعورى إزاء شهرة المسلم وإشعاعه الثقافى على المسيحيين ، وعندما يترك المرء العنان

لنفسه لينجرف فى هذا التيار نجد أن العزيمة الشخصية (التى كانت العقيدة تطوّرها فى الفرد) أخذت تقوى ، وكلمّا قلت الفواصل بين الوعى الفردى والعالم الذى يحيط به كلمّا كان " ما وراء الطبيعة" أكثر " طبيعة " ، وقد رأينا قبل ذلك كيف أوصى الملك العالم باللجوء إلى مشعوذ لمعالجة مرض من الأمراض ، ولقد كان محور تاريخ إسبانيا هو القبول بطبيعة المعجزة ، ولم يكن على طريقة " تلك الأزمنة الخوالى " أو " نوعًا من التطير " تعيشه الجماهير الساذجة مثلما حدث ويحدث فى أماكن مختلفة من العالم [٢٠] ؛ ولقد كانت التوليفة الإنسانية – الإلهية تعضّد توليفة المعَاَيشة – العالم الموضوعى ، وتصبح بذلك النخاع الشوكى للحياة والتاريخ بحيث يصبح من المستحيل البحث عن نظير مماثل فى أوربا ، ومن هنا ندرك السرّ فى قلة أهمية المشعوذات والمحموداريت والأشباح فى إسبانيا بينما يزدهر ذلك النوع من الأنشطة فى دول أخرى ، وبهدف إثارة الجدل (من خلال المقارنات الساذجة بين إسبانيا والعالم الخارجى) تُساق الحجة القائلة بأن إسبانيا لم تَعِشْ حالات " إحراق المشعوذات " مثلما هو الحال فى فرنسا وألمانيا ، إلاّ أننا نذكرّ بأن الشعوذة كانت تمثلّ نوعًا من تحول العقيدة إلى لهجة وهذا يحدث فى أماكن تأخذ مجريات الأمور فيها طريقًا لا يتسَم بأنهّ العقيدة كلها ، وقد أشرنا قبل ذلك إلى أنه عند العثور على رأس يوحنا المعمدان فى فرنسا تبدّت على الفور الحجج العقلية القاطعة على لسان هؤلاء الذين يضعون الحادثة موضع الشك ، وهذا أمر طبيعى فى أوربا غير الإسبانية [٢١] ، وهنا نجد أن المشعوذات هى نوع من البذخ – غير الضرورى – فى مكان تسيطر عليه مفاهيم ما وراء الطبيعة وتفرض سلطانها المشروع وغير القابل للجدل .

كما أن الدّمج البراجماتى بين ما هو إلهى وما هو إنسانى (سانتياجو حامى إسبانيا) ، والذى يعتبر مسلكًا موازيًا لما هو إسلامى أخذ يتدّعم عندما تم الجمع بين الواقع والخيال فى وحدة واحدة حيث الروح والمادة ، وما يخفّى الآخر ويخصّنى ... الخ. وقد كان على ألفونسو الثامن أن يجلب أساتذة أجانب للإسهام فى بدء الدراسات العلمية فى بالنسيا Palencia، ويرجع هذا لأسباب سوف أشير إليها فى أكثر من موضع من هذا الكتاب ، فقد كان من المستحيل على المسيحى أن يقلدّ العلوم والفلسفة

العربية دون أن يقرر – عن وعى – تربية نفسه على أيْديهم ، وهذا ما لم يخطر على باله، أما دراسة الفلسفة فقد كانت أمرًا استثنائيًا مثلما هو الحال مع Dominicus Gundisalvus خلال القرن الثانى عشر وهو الرجل الذى سار على نهج الفكر الإسلامى ، أى أنه الممثّل للشيء الوحيد الذى يعتبر فكرًا بمعنى الكلمة فى أوربا حتى القرن الثالث عشر، وقد اتخذ الإسبان المسيحيون موقفًا عدائيًا (بصفة عامة) ضد العلوم العربية الوحيدة فى السّاحة ، وهم فى هذا يشبهون ما فعلته روما برفضها الفلسفة والفكر اليونانيين ، ومع وجود فارق يتمثل فى أن روما – بقوّتها وسطوتها – لم يكن لديها من الأسباب ما يجعلها تخشى العبقرية اليونانية مقارنة بالإسبان المسيحيين خلال القرنين التاسع والعاشر حيث عاشوا موقفًا دفاعيًا أمام جحافل جيش خليفة قرطبة .

ومن السهل أن نفهم كيف أن الإسبان أخذوا يميلون إلى الاستعلاء والسيادة عندما أخذوا يستردون الأجزاء الغنية من إسبانيا ويتركون الحرف اليدوية والفنية فى يد المسلمين واليهود ، والعبارات التى وردت فى ملحمة السيد " سوف نفيد منهم " تعكس ما كان يشعر به المسيحيون ، وقد كان استخدام المور عوضًا عن قرون طويلة من الحياة الصعبة والإحساس بالدونية ، بينما يقوم المسيحى بمهمة القتال والسيطرة وممارسة فنّ أن يعيش الحياة بطولها وعرضها ، ولن ينظر إلى العالم المحيط بمنظار العقل بل بالإرادة والرغبة ، كما تتولى الرّوح قيادة السلوك نحو مستقبل أخلاقى دون الاهتمام كثيرًا بحلّ المعضلة النظرية أو العملية للخّطة الراهنة ، وبذلك نجد أن الأخلاق والفن هما القناتان اللتان تسير فيهما العبقرية الإسبانية وهى قنوات كان من السهل على التاريخ شقّها بجهد بسيط .

ويدين تاريخ هذا البلد كثيرًا للإسلام ، ومع ذلك فإننى ألح كثيرًا على جوهرية الاختلافات خاصة فيما يتعلق بالقيم المتنوعة التى يلحقها المسلمون والإسبان المسيحيون بالإرادة الإنسانية ، فمهما ردّد الإسبان عبارة " إن شاء الله " وعبارة " إذا أراد الله " فإننا نجد شخصية مثل " دون خوان " (٢٢) تتطاول وتحوّل نفسها إلى يدٍّ

الذات الإلهية ؛ فلقد كانت إسبانيا إسلامية خلال العصور الوسطى ، وفى الوقت نفسه مسيحية وأوربية وبالتالى فهى تؤمن بالحرّية وباستقلال الإنسان فى إطار حدود معينة ، والإيمان يشمل الواقع الموضوعى والجوهرى لهذا العالم ، وهناك فرق بين عدم استخدامه العقل فى الكشف عن ماهية الأشياء ، أى الجانب الفيزيقى (باستثناء حالات نادرة مثل سيربيث) ، وبين عدم قبوله لذلك الواقع وتقييمه له . وعلى أية حال فالثقافة الأوربية كانت حاضرة دومًا فى شبه جزيرة أيبيريا سواء تأخر التوقيت قليلاً أو كثيرًا ، إذ نجد أن ألفونسو السادس يستدعى رهبان كلونى خلال القرن الحادى عشر ، كما قام ألفونسو الثامن باستدعاء العلماء الأجانب خلال القرن الثانى عشر وحدث نفس الشىء بعد ذلك مع اليهود الذين كانوا على صلة بالمعارف العقلية ، كما أن العمارة والنحت خلال العصور الوسطى كانتا مثل باقى أوربا الغربية ، وكثيرًا ما شغل بعض الأساتذة الإسبان مناصب فى جامعات أوربية كان يذهب إليها عدد لا بأس به من طلاّب شبه جزيرة أيبيريا [٢٣]، وأمام هذا الموقف نلاحظ أن المسلم الإسبانى لم يمارس فن النحت أو الرسم فهذا ما يخالف تعاليم الدين وما خلق الله الذى هو الحقيقة الوحيدة ، كما أنه لم يقرض الشعر الملحمى أو يبرع فى فن الرواية أو المسرح ذلك أن مصير الإنسان بيد الله وليس من المتصوّر أن يصنع الإنسان قَدَره بنفسه وتحدث مواجهة بين إرادته الشخصية وبين العالم الذى يقابله ، كما أن الأدب العربى لا يتضمن وجود شخصيات تصنع ذاتها وملامحها من خلال الاحتكاك بالآخرين ، أى من الناحية السّردية . وهنا نجد أن الشىء الوحيد الممكن فى هذا المقام هو " سَرْد "ما يتعلق بالشخصيات والأحداث التى تقع لها أو ترك الفرد منعزلاً وتصوير مشاعره من خلال الصور البلاغية ووعيه بالوجود فى عالم ليس له حدود واضحة ، أما فيما يتعلق باللغة فالإسبانية هى لغة غربيّة رغم ما طرأ عليها من تحويرات وقولبة من خلال العربية، وربما كان ذلك بشكل أكبر مما تحدثت عنه فى هذا الكتاب ، وهذا الأمر هو ما سيكشف عنه آخرون فى المستقبل ، فالتاريخ الإسبانى – سواء فى البعد اللغوىّ أو الأبعاد الأخرى – هو واقع تم تصويره ولا يمكن فهمه إلا بالجمع بين ما هو لاتينى ومسيحى وأوربى وبين ما هو إسلامى ويهودى ، وفى هذا الإطار الشامل نجد أن كل العناصر كانت شديدة الثراء وعالية القيمة .

ولم يكن الطريق الذى سارت عليه حياة الإسبانى (أو من خلال شخصيات إبداعاته الأدبية) ممكنًا فى إطار التاريخ الإسلامى ، غير أنه فيما يتعلق بالشحنة الحيوية التى عليها الإسبانى نجد أن رصيد الإسهم الإسلامى له قيمته الكبيرة وأدى بالتالى إلى التأثير على بنية الأنواع الأدبية التى لم تتغير طبيعتها الغربية رغم ذلك - وقد رأينا أن اللغة تدمج العناصر الموضوعية بالذاتية بشكل يستحيل أن نجد له مثيلاً فى اللغات الرومانية - فمن خلال اللغة والحياة والتعبير الأدبى يجمع المسلم بين العام والخاص، والمجرّد والملموس ، والروحى والُمحَسّ ، والغثّ والرفيع ، والحميم وما هو غير شخصى ، كل ذلك فى وحدة واحدة ، ومن هنا يصبح مستحيلاً على إنسان أوربى - شريطة ألا يكون صغير السّن - السير بخطوات واثقة فى دهاليز وأسرار اللغة العربية التى يعتمد الجانب الدّلالى فيها على حدْس وتخمين لا يخطر على بال العقلية الهندسية الأوربية ، وقد قمنا بمقارنة ذلك برجل عالم وعلى درجة قليلة من العلم غير أننا لم نستخدم كلمة Saber (معرفة) حتى نستطيع أن نعثر فيها على أحد المشتقات التى قد تعنى بئرًا يعطى ماءً وفيرًا (عالِم : دكتوراه فى القانون ، عَيْلَم : بئر به الماء الكثير)، وعلى أساس هذه الخطوات نقول إن كلمة " صبح ترتبط بكلمة صُبْحُه (حلم الصباح) وصبَاحة (الرقّة والجمال) وكلمة صَبُوح (النبيذ الذى يتم تناوله فى الصباح { معجم لان } ومن هنا نستطيع أن نفهم العبارة الإسبانية Tomar la manana (بمعنى تناول كأس خمر (a guardiente) بدون إفطار ، وسيرًا على نفس النهج نقول Tomar Las once بمعنى تناول بعض الطعام فى الحادية عشرة ، وكل هذا ما هو إلا محصّلة التأثيرات العربية مثلما هو الحال فى الفعل ذى الضمير المنعكس desayunarse.

وتأسيسًا على اللغة وعلى نمط الحياة الداخلية التى يتم التعبير عنها من خلالها نجد أن الأدب يقوم على نفس القاعدة . إذ يشير ابن عربى (١١٦٥م - ١٢٤٠م) إلى أن قوة الإيماء فى الشعر تكمن فى أنه إبداع مخلوق ناقص بطبعه وغير قادر على بلوغ النقاء المطلق نظرًا لطبيعته التى يمتزج فيها الكمال والنقص معًا. وأقصى ما يمكن للشعر بلوغه هو أن يجمع بين النقيضين : الكمال والنقص دون بلوغ النقاء المطلق [٢٤] .

ونلاحظ هنا أن ابن عربي يتناول عجز الشعر وعجز التأملات الدينية وقدمها كنوع من الشكل الخارجي لما يعتمل داخل الإنسان، وكنوع من الصعود والهبوط بين الكمال والعجز ، وهذا ما يحدث في أدب التصوف وكذلك في الحياة اليومية ، وتُظْهر الأحاديث النبوية الرسول محمداً في صورة عاشق للإله الواحد الأحد من خلال أبسط الحاجات الإنسانية (٢٥) كما أن كبار العلماء والكتّاب لا يجدون غضاضة في الجمع بين ما هو دونيّ وقبيح وبين ما هو ساميّ ورفيع ، كما نجد إسبانيًا آخر هو ابن حزم (٩٩٤ – ١٠٦٤م) يحدثنا عن الواقعة التالية التي ساقها لتكون عبرة وعظة إذ كان هناك زاهد يدعى ابن السمّاك (المتوفى عام ٧٩م) إلى جوار الخليفة هارون الرشيد عندما أتوا له بكوب من الماء ليشرب فقال له : " يا أمير المؤمنين لو منعت هذه الشربة بكم كنت ترضى أن تبتاعها ؟ فقال له الرشيد بملكي كله . قال : يا أمير المؤمنين فلو مُنعتَ خروجها منك ، بكم كنت ترضى أن تفتدى من ذلك ؟ قال بملكي كله . فقال : يا أمير المؤمنين أتغتبط بملك لا يساوى بولة ولا شربة ماء ؟ وصدق ابن السمّاك رحمه الله (٢٦) إذن فما قلناه – وسوف نقوله فيما بعد – يجعل القصة لتلك الدلالة المناسبة ويحوّلها إلى نموذج واضح لحالة تكامل الجوانب المتباعدة والمتناقضة والتي لا تبحث عن الغرور وهذا القفز من اللاّماديّة رفيعة الشأن إلى المادية القبيحة هو أمر شائع في الأدب الإسباني ، ويحدث نفس الشيء في اللغة استناداً إلى ما أوردناه من أمثلة ، وليس لهذا كله تفسير واضح إلا في إطار التراث الإسلامي ، ولقد استخدم رامون لول القصة السابقة لكنه قلل من وقعها بشكل واضح إذ قال " بينما كان الإمبراطور يتناول طعامه فسأله بلانكيرنا Blanqyerna عما إذا كان الخبز الذى يأكله أفضل من مُلكه أم العكس فأجابه الملك بأنه في هذا المكان (أى الغابة) يجد أن الخبز أكثر فائدة وجدوى من ملكه ، فقال له بلانكيرنا " ياقلة قيمة المُلْك الذى لا يرتقى إلى قيمة الخبز الذى يتناوله المَلِك " (٢٧) .

ويلاحظ هنا أنه تم تخفيف وقع القصة ، وهذا يساعد على معرفة كيفية نفاذ المادة العربية إلى المنطقة المسيحية والحالة التي أصبحت عليها ، وليس ذلك لأن رامون لول كان داعية مسيحياً لأنه جرت العادة على عدم تقليد المسلم – خلال العصور الوسطى

– فى الكثير من أنماط حياته الحضارية ، إذ كان المسيحى يعتبرها من الآثام أو ضارّة، ورغم ذلك لم يتخلّ عن الاطلاع على ما يقوله المسلمون ويكتبونه كما رأينا من خلال تقليد القصة السابقة وبالإضافة إلى شواهد أخرى . وعندما ذهب المشارقة عن إسبانيا نجد أن كلا من ثربانتس وكيبيدو لا يشعران بأى حرج إزاء عمليات التكامل بين الحاجات الجسدية لدون كيخوته وموقف الفارس النبيل ، أما كيبيدو فيذهب بالأمر إلى درجة تثير النفور .

وقد قام الرّواقيون بتحليل وتقييم الثلاثية الداخلية للإنسان وهى : وعى الروح والنفس والجسد ، وارتقوا بشأن الأنا العقلانى إلى أعلى درجات الإنسانية ، أما العواطف والجسد فقد كانا غريبين على ماهية ما هو إنسانى ، وقد أبقى الفكر الرّواقى – المسيحى على الفصل بين ما هو إنسانى عام وشامل للإنسان (أى روحه العقلانية) وبين ردود الفعل الفردية للنفس ، وانتقل ذلك الفصل إلى ما هو أخلاقى والى الأدب والحياة كافة وذلك فى شكل تقابلى بين القيم : البطولة الملحمية / جُبْن الخائن ، الحب المحمود / الحب الجسدى ، الأدب الدينى / الأدب الشعبى ... الخ ، كما أن الحياة كانت تسير نحو السموّ بالروح التى تتولى التجريد والرفض ، أو نحو العواطف والمشاعر المتعلقة بالنفس – الجسد المتصل بكل ما يظهر أمامه لكنهما لا يريدان الخروج من الإطار الداخلى والخارجى ، ونلاحظ على ضوء ذلك أن الأدب الإسلامى كان يجب أن يظهر بالنسبة للغة الإسبانية كأقصى أنواع الاستنكار ، وقد رأينا أن رامون لول يجرّد القصة حتى تدخل فى دائرة الممكن ، إنه استنكار وخطأ جوهرى وذلك بفضل السّهولة المتوفرة فى اللغة العربية والمتمثلة فى إزالة الحدود بين ما هو روحى وما هو مادىّ ، وكذلك بين الشخص المتلقى وبين هدف خبرته " أمسى " ، ومع هذا فالمسيحى لم يتمكن من الفرار من إعجابه الشديد بما هو إسلامى، ولدى شعوب تخلط اللغة عندها بين هذه الأمور نجد من الصعب أو من النادر انتهاج مواقف نظرية كاملة ، أى أننا نجد أن حياة الناس وطبيعة حضارتهم أمران لا ينفصلان عن الوظيفة والقيمة الملقاة على عاتق كل واحد من هذه العناصر الأساسية للكائن الإنسانى وهى : الروح والنفس والجسد .

سمات خاصة بالشعر الملحمى القشتالى :

عندما نتعرض لتاريخ جزيرة أيبيريا أثناء العصور الوسطى نجد أن الأمر المثير للحيرة هو أن هذا التاريخ يتداخل فيه نمطان شديدا الاختلاف فى تعاملهما مع العالمين الداخلى والخارجى أولهما : الإسلامى والمسيحى الأوربى ، ففى قشتالة نجد أن المفاهيم الجرمانية التى أسّسها القوط أقوى بالمقارنة بأى إقليم آخر ، وهذه المفاهيم هى الشّرف والأخذ بالثأر ، وكان القاضى – فى مثل هذه الحالات – يقتصر على إظهار الدليل ، وعلى الشخص الذى تعرّض للإهانة أن ينفذ العقوبة (٢٨) ؛ وهناك إذن نوع من التلاقى فى بعض الأسس القانونية بين إسبانيا واسكندينافيا ، ويبدو أن قشتالة حاولت تنظيم نفسها خلال القرن العاشر اعتماداً على القوى الاجتماعية الأكثر ديموقراطية وواقعية مقارنة بكل من ليون وجليقية ، وقد تحدثنا قبل ذلك عن أن هذين الإقليمين اللذين بدآ حرب الاسترداد عثرا على اعتقاد عظيم ، وقبعًا تحت قُبّته ، وقد أجبرت السلطة البابوية والامبراطورية باقى الملوك فى شبه جزيرة أيبيريا على تكريم الملكية الجليقية الليونية (٢٩) ، أما الشمال الشرقى لشبه الجزيرة فقد بدا خلال القرن الثالث عشر كامتداد للمملكة الإفرنجية الشارلمانية ، وبعد ذلك بأربعمائة عام وجدنا أن كلا من المور والمسيحيين يطلقون كلمة " الفرنجة " على سكان ذلك الإقليم الذى لم تتوطد روابطه بعد ذلك أبداً بباقى شبه الجزيرة، ولما استقلت البرتغال نتيجة تدخل بورجونيا والجماعات الدينية الفرنسية فإن قطالونيا (الحدود الإسبانية للفرنجة) أخذت تدور فى فلك مصالح خارجة عن إطارشبه الجزيرة خلال القرن الثالث عشر ، ولو كان طريق الحجاج يمرّ بقطالونيا لتوفّر هذا الإقليم على البواعث التى تجذبه نحو وسط شبه الجزيرة وليس نحو حوض البحر المتوسط فقط ،ونرى ذلك بوضوح فى حالة الجزيرة ، كما رأينا قبل ذلك الصّلات القديمة بين نابارّة وسانتياجو ، وقد ظهرت قشتالة معتمدة على نفسها وواقعة بين الطرف الشمالى الشرقى والطرف الغربى اللّذيْن تُمسك بهما قوى ما وراء الطبيعة أو إمبريالية الفرنجة ، غير أن ذلك لا يعنى أن قشتالة لم تكن فى دائرة حماية القدّيس الرسولى ، ولم يكن لها صلات بالعالم الخارجى إلا عن

طريق نابارّة " والطريق الفرنسى " ، ومن المؤسف ألا يتوفر لدينا الكثير من المعلومات عن أصول قشتالة خلال القرون الثلاثة : الثامن والتاسع والعاشر (٣٠) ، وعموماً نجد إقليم كانتبريا الواقع شمال بُرغش يظهر على خريطة القرن العاشر وقد اتضحت ملامحه الاجتماعية ، فالحكومة يديرها اثنان من القضاة ، ورغم تبعيّتهما لملك ليون لم يطبقا قوانين ذلك الإقليم ذات الأصول الرومانية ، بل اعتمدوا على عاداتهم وتقاليدهم وهناك قصة تقول بأن أهل برغش أحرقوا كتاب القوانين Fuero Juzgo وكان يتضمن مجموعة القوانين التى تطبّق فى ليون ، وهذه قصة فيها الكثير من العناصر الأسطورية، ورغم ذلك فلها مدلولها العميق ، كما نشر مننديث بيدال دراسة ممتازة عن أول مظاهر اللغة القشتالية خلال القرنين العاشر والحادى عشر ، فربما استطاعت قشتالة أن تشكّل لغتها قبل أن يكون لديها أعمال أدبية، وهى أسبق فى ذلك بالمقارنة بالأقاليم المجاورة (ليون وأرغن) ، وتعكس الدراسة الإرادة الصلبة فى العمل ، والعجلة فى إنشاء روابط وصلات اجتماعية لا تتسق مع اللغة غير المنظمة وسريعة التغير ، وأيا كان الموقف بشأن وجود أعمال أدبية تعكس التنظيم المتسارع للهجة القشتالية { فعندما كان أهل ليون وأرغن يكتبون كلمة باب puerta بأكثر من طريقة : puorta، puarta ، اتخذت قشتالة لفظة puerta منذ القرن العاشر ... } فعلينا التفكير فى وجود طبقة حاكمة ذائعة الصيت حتى يتم السير على حدودها .

وقد ارتكز مستقبل شبه الجزيرة على هذه السّمات القشتالية ، ومن الصعوبة تخيّل بواعث الحياة التى أثّرت على الإنسان القشتالى وبالتالى لا يوجد سرد تاريخى ممكن دون أن يتوفر لدينا هذا التخيل ، ولقد اتسمت هذه الظروف باختلافها عن تلك التى وجدناها فى المنطقة الشمالية الغربية التى تسيطر عليها منهجية حياة " ثيوقراطية " تضرب بجذورها عبر الزمان رغم أنها تدلّ على أنها محصلّة الجوار الضاغط للمسلمين ، لكن الأمور تحدث عكس ذلك فى الإقليم القشتالى – النابارّى حيث أخذت تتضح ملامح موقف حيوى فى وقت مبكر وهو موقف يميل إلى الأمور الدنيوية أكثر من الأخروية ، والنتائج هى وحدها التى تثير الرّيبة فى وجود هذا الواقع ذلك أن التاريخ الحميم لقشتالة الشمالية خلال الفترة من القرن الثامن وحتى العاشر ملىء بالغموض

أو كله غموض ، ونظن – مع ذلك – أن حاجة الشمال للدفاع عن نفسه قد دعّمت من المعتقدات الخاصة بالماورائية ، أما في قشتالة فقد كان الرجل المحارب والمقدام هو الذى أصبح محط كل الإرادات ، إلا أن تقدير السّمات الشخصية سوف يعتمد على نفس الأسس التى عليها النموذج الإسلامى أكثر من الاعتماد على إعلاء شأن الهالة الأسطورية الإلهية لكل ما هو قائم ؛ فالإنسان المسلم كان متواجداً داخل التجربة الإنسانية وخارجها ورغم ذلك استطاع الجمع بين كلا النقيضين فى حياته ، وعلى ذلك نجد أن الإسبان المسيحيين خلال الفترة من القرن الثامن وحتى العاشر وجدوا أنفسهم فى ظل أفق لا فكاك منه وكان عليهم أن يحققوا ذاتهم .

ولقد تميّز أهل الباسكون وكانتابريا بصلابتهم فى القتال سواء فى العصر الرومانى أو العصر القوطى [٣١] لكنهم ظلوا بمنأى عن الثقافة السائدة فى جنوب وشرق شبه الجزيرة فلم يحدث هناك شيء يمكن مقارنته بما فى طليطلة أو ترّاجونا ، ولقد اتسمت اللهجة القشتالية منذ البداية بقدرتها على المبادأة واتخاذ ملامح صوتية أيبيرية باسكية ، وهذا ما برهن عليه مننديث بيدال فعدم نطق حرف الـ F (azer وليس Fazer) هو الدليل على ذلك ، كما توجد ظواهر أخرى (وهى تغير حرفى ctالى حرف ch الذى يرجع أيضًا إلى نفس المصدر) إذ نجد أن أوائل القشتاليين والباسك كانوا على صلات قوية .

ويعتبر الإنسان – بما فيه من قيمة وكموطن للقيم الاجتماعية – أحد أهم العناصر فى قشتالة القرن العاشر ، ويقوم بناء تلك القيم على السلّوك الدنيوى وعلى قدرة الإنسان فى أن يصبح نموذجًا وقدوة للآخرين ، وهنا نجد أن قشتالة كانت خصبة فى تقديم الزعامات وليس فى تقديم الأساقفة ، البابوات أو الأباطرة الذين تحوطهم هالة الألوهية ، فلقد تركّز الاهتمام على الفرد أكثر من الهالة المحيطة به وبذلك نجد نمطًا حضاريًا لا يمكن تفسيره انطلاقًا من البسالة والجرأة التى عليها أهل إقليم الباسكون القبلّى والغليظ ، كما لا يفسّره القول بوجود رواسب قوطية مهما حاولنا ربط الشعر الملحمى القشتالى بالجرمانى ، فالملاحم القشتالية تختلف كثيرًا عن الملاحم الجرمانية

والخبرات المعيشية ، ويعتبر البعد " التاريخي " المثير للحيرة في الملحمة القشتالية ظاهرة فريدة كما أن قراءة هذه الوقائع ممكنة إذا ما وضعنا في الاعتبار الأفق الإسلامي أمام القشتالي أي الميل للعناية بكل ما له صلة بالخبرة الذاتية أي الأحداث اليومية والشخص الذي يقوم بها وشكله الجسدي وطبيعته الحميمة ، ولما قام الجليقي بتوطيد معتقداته سيراً على النموذج الإسلامي ، شعر القشتالي بميله إلى الإعلاء من شأن الفرد ، واستلهم في ذلك شخصيات مثل المنصور بن أبي عامر أو الخلفاء العظام الذين سبقوه ، نرى إذن ظهور أسلوبين متعارضين في الحياة اعتماداً على النموذج الإسلامي فالمسيحي كان يفتقر إلى نماذج فريدة على أرضه ولم تكن له صلات قوية مع أوربا الشارلمانية والبريطانية خلال القرنين التاسع والعاشر ، إذن نجد أن ميلاد النماذج الإسبانية المسيحية كان مشكلة من مشاكل شبه الجزيرة .

ويورد لنا ابن حيان صفحة مشرقة (٩٨٧ – ١٠٧٠م) لايكتبها إلا عربي مثله ولا يستثير كتابتها إلا قشتالي في إسبانيا ذلك الزمان ، فقد حكم الكونت سانشو جارثيا قشتالة خلال الفترة من ٩٩٥ حتى ١٠١٧م وهو " صنيعة المنصور " [٣٢] ، ولقد اتسم الكونت بالشجاعة والإقدام والصلابة وبذلك دفع النبلاء إلى مزيد من النبل وأصبح الصغار عظماء بخدمتهم " [٣٣] ؛ وعندما توفّي المنصور قام بغارة على قرطبة (١٠٠٩م) وظل على حالة التمرّد التي عليها قشتالة ضد ليون ، وقد حفظ لنا التاريخ العربي وصفًا لشخصه وهذا بفضل الحياة المتفتّحة التي كان عليها المسلمون ، حيث كانت تحتضن داخلها كافة الظواهر الأخلاقية أو البطولية التي تصادفها ، وعندما كان الكونت متجهًا إلى برشلونة ومعه جيشه ليلتقي مع الكونت رامون مرّ ببلدة تطيلة وعبّر عن رغبته في الحوار مع بعض من علِّية القوم هناك ، وقد أفضى أحدهم وهو أبو أميّة إلى ابن حيّان بانطباعاته الشخصية مشيراً إلى أن الكونت قد حل بهذه الأرض بمعرفة الأمير منذر ووعد بألا يلحق جنوده الأذى بالمكان ، غير أن سكان تطيلة – الذين كانوا يعيشون حالة من الفخار والقوة – لم يوافقوا على هذا العهد وأبلغوا موقفهم للأمير وتضرّعوا إليه أن يقيهم عار دخول ذلك الأمير المسيحي إلى مدينتهم وعندما اقترب سانشو من المدينة بعث برسول لإبلاغ أهلها برغبة الأمير في التحدّث مع بعض

الأفراد. ويشير أبو أمية إلى أنه كان واحداً من كبار رجالات المدينة وأنه ذهب مع الباقين إلى معسكر الأمير الذى كان يحيط به حوالى ستة آلاف فارس وراجل ورغم ذلك فإن سانشو لم يأت إلا ببعض قوّاته وعندما وصل الوفد إلى خيمته وجده جالساً على منصة مغطاة بالمخدات ويرتدى ملابسه على الطريقة الإسلامية كما أن شعر رأسه غير الكثيف لم يكد يُلاحظ عليه الشّيب ، كما أن الشمس دبغت جلده وكان حسن المحيّا، وقد تحدث للوفد برقة ولطف وشرح سبب مجيئه وتحدث عن العهد الذى وقعه مع الأمير منذر ، أما الوفد فقد عبر له من جانبه عن استيائه لمرور الأمير بالقرب من تطيلة ، كما أن الهدف هو الحيلولة دون ذلك بالقوة ، وهنا نصح الأمير الوفد بألا يفعل أهل المدينة ذلك ونوه بأن نتيجة المعركة لن تكون فى صالح أهل تطيلة .

ورغم هذا التحذير الرصين قام أهل تطيلة بالهجوم على مؤخرة جيش الكونت مما جعله يطلق عليهم خمسمائة من فرسانه وأسفر ذلك عن إجبار المهاجمين على الاحتماء بأسوار المدينة ، ثم يواصل أبو أمية حديثه عن الأمير مشيراً إلى أنه لم يَرَ بين المسيحيين عدداً هائلاً من المحاربين مثل العدد الذى رافق سانشو ، كما كان حوله عدد من الأمراء يتسمون بسرعة البديهة والحضور والطلعة المهيبة والجرأة والمعرفة والإنسان الوحيد الذى يمكن مقارنته به هو زوج ابنته (الذى يحمل نفس اسمه) سانشو (شنجة) بن جرثيا ملك الباسكن [أى سانشو الكبير ملك نابارّة] (٣٤) .

هانحن نرى الصورة التى ظهر عليها القشتاليون - النابارّيون فى عيون أعدائهم المسلمين ، وهذا شاهد فريد وعظيم ، إذ يقدِّم لنا الشخص متكاملاً سواء جسدياً أو أخلاقياً واعتباره شخصية فريدة تأسر العدوّ بتميّزها ونجاحها ، كانت هذه هى قشتالة فرنان جونثاليث ، أى إقليم القصائد الملحمية الذى برّ الشرقيين وأضفى طابع الأمة على الممالك المسيحية ، ويلحّ المورو - ابن بلدة تطيلة - على رقة الكونت القشتالى وقدراته البلاغية ، وهنا لا يعنينا كثيراً أن تكون اللغة المستخدمة فى الحوار هى الرّومانث القشتالى أو اللغة العربية فالأهم هو وجود تفاهم بين كلا الطرفين كما أن اعتباراتهم فى النظر إلى الأمور كانت جد متشابهة ، وقد قام سانشو جرثيا ومن

سبقوه برعاية تلك القيم الإنسانية لأنها نفس القيم التى كان العدو يقدرها ويرعاها كما كان المنصور بن أبى عامر نبراسه فى الحياة إذ كان ذلك القائد العربى يجمع بين الجسارة التى هيأت له القيام باثنتين وخمسين معركة انتصر فيها وبين " المُحَيّا النبيل وقدراته على غزو قلوب النساء " (٣٥) ومن هنا ندرك سرّ استلطاف " صبح " له وتمكنّه بعد ذلك من صعود درجات سلّم الشهرة ، وقد رافقه فى حملاته الحربية الكثير من الشعراء والكتّاب الذين كانوا يعلون من شأن عملياته العسكرية وينشرون أخبارها على الملأ بالإضافة إلى الحديث عن مآثره وألمعيته ، ويتركز اهتمام المؤرخين على بعض التفاصيل التى يستحيل أن تجتمع فى إطار الدائرة النفسية للمؤرخين المسيحيين يحكى أن المنصور منع ذات مرة إشعال أى نار فى معسكره حتى لا يكتشف العدو مكانه ، ويلاحظ بعض المؤرخين أنه رأى أبا جعفر وهو ينفخ بين الحين والآخر فى موقد صغير به فحم من خشب البلوط وقد أشعله وأخفاه بعناية بين أمتعته حتى لا ينفذ الضوء ، كما رأى عثمان بن جعفر وهو يحمل إلى خيمته معجنًا مليئًا بالعجين ويكاد يئن من ثقل الحمل ذلك أنه كان الطعام الوحيد الذى بقى له ولوالده بهذه المناسبة .

كان الإطار الشخصى الذى يتحرك فيه المسلم رحبًا ! إذ كانت كل من حياته الداخلية والخارجية تتضافر وتتواءم مع كل ما قد يتصل بوجوده ، وكان يعجب بهذا النموذج الإنسانى ويخشاه كل هؤلاء الذين حاربوا ضد الأندلس خلال القرن العاشر ، أو المسيحيون الذين حاربوا تحت راية المنصور ، وقد وصل عددهم إلى درجة أن يوم الأحد كان عطلة عند القوات {انظر المقرى ص ٢١٤ - ٢١٥} وما أبرزه العبقرى ابن حيان فى شخصية الكونت القشتالى هو التكامل بين القيم الداخلية والقيم الاجتماعية : الشكل الخارجى والهيئة والكلام وتميزّه وقدرته على التأثير (٣٦) ؛ كما أن حديث المؤرخ عن هذه القيم يدل على أنها كانت جزءًا من وجوده ، وحتى نفهم ذلك الوجود وهذا التعبير لابد أن نلقى عليها بظلال الحياة الإسلامية التى أخذت تُحدث تأثيرها فى المسيحيين منذ ثلاثة قرون ؛ ومعنى الشخصية بالنسبة للقشتالى هو أن يكون المرء واعيًا للواقع المحيط به (جسده وشكله وتصرفاته) وللأهمية الاجتماعية لصفاته الأخلاقية ، فما نطلق عليه تربية هو عبارة عن التعوّد على ممارسة نمط من

العيش والتعبير عنه ، وتمثل هذا النمط بالنسبة للقشتالى فى العيش كفرد وإضفاء الطابع الذاتى على الواقع المحيط به (٣٧) وبالتالى لم يُعْنَ كثيراً بالتجريدات أو الرموز وهذا ما نتمكن من معرفته لو قارنا شخصية السيد - من خلال ملحمته - بشخصية رولان من خلال ملحمته أيضا .

لم يكن خلفاء قرطبة أو المنصور هم الذين زرعوا الشجاعة والإقدام وحب السيادة فى نفس القشتالى القديم لكنهم أسهموا فى قولبتها وتحويلها إلى منهج حياة ، ولقد اعتاد القشتالى وأهل كانتابريا على الخشونة والصلابة ، كما اعتادوا على شحذ همَمِهم وأن يتوفر لديهم الإحساس بأن يكون المرء رجلاً قادراً على أن يجمع الناس من حوله مستنداً فى هذا إلى سمعته الشخصية وإلى وجوده ، وبالتالى لا يستند إلى أسباب أو أشياء مُحَسّة ، وقد أسهمت الاحتكاكات بالمسلمين فى صهر همة قشتالة الشمالية وكان ذلك عنصراً غير مباشر فى إبداع الشعر الملحمى الذى لا يمكن فهمه إلا إذا وضعنا قشتالة ضمن تاريخها الأصيل والمعاصر فى ذلك الحين ، وإذا ما قيل إن نمط الحياة الملحمية الشخصية كان فى حاجة إلى بعض وسائل التعبير القادمة من فرنسا حتى يرى النور فهذه مشكلة أخرى تسهم فى تعقيد المسار التاريخى الذى يتسم بغناه فى البواعث والأصداء وكذلك باقى العناصر التى قمنا ونقوم بتحليلها ، كان القشتالى عنيًدا ومعتداً بنفسه ومحارباً وقد بنى شخصيته وهو يضع نصب عينيه النماذج التى يقدمها له المسلمون وهم فى أوج عظمتهم واستطاع إبداع وسائل التعبير من خلال " الرومانث " عن طريق الاتصال بالتوجهات والنماذج الأوربية ، وهى نماذج اتسمت بتعددها من جراء الاهتمام الأوربى بسانتياجو ، كما أن مصيره قد أجبر إسبانيا المسيحية على قولبة حياتها بناء على عمليات الجذب والرفض التى لا مناص منها .

لقد قامت قشتالة على أكتاف قوة نموذجية لبعض الرجال العظام ، وحول فرنان جونثاليث وأتباعه كانت تقع أحداث شبيهة بتلك التى أوردها ابن حيان عن المنصور بن أبى عامر حيث يشير إلى أن أخبار انتصارات المنصور كانت تملأ قلوب أهل قرطبة

فرحًا، كما أسر قلوب جنوده الذين سيطر عليهم الشغف للعمل تحت قيادته عندما أدركوا فضائله وقدراته الفذّة { المقرىّ - الجزء الثانى -صـ ١٨٩ من الترجمة الإسبانية } .

والأمر السىء هو أن المنصور كان آخر الإسبان العرب الذين رزقوا حنكة سياسية وعبقرية مريبة فى مجتمع غير متجانس وغارق فى أسطورية عقيدته ، وكان الخط التاريخى الذى سارت عليه الأندلس مماثلاً لذلك الذى اتخذته إسبانيا المسيحية دون أن تظهر قشتالة على الساحة التاريخية ، إلا أنه يقوم على أكتاف رجال عظماء وعلى مصالحة بين هؤلاء الذين يؤمنون بهم ، وتؤكد الوثائق التاريخية (شعرًا ونثرًا) على هذا الجانب الحيوى ، فقد كان فرنان جونثاليث يتشاور مع الجميع قبل أن يتخذ قراره كما أن الكونت سانشوجارثيا قد زاد من نُبْل علية القوم وقلّل من تبعية الفئات البسيطة .

وترعرع الشعر الملحمى فى ظل هذه الظروف ، ويلاحظ منندیث بیدال - بدقة رائعة - أن الملاحم - سواء فى فرنسا أو فى إسبانيا - تظهر فى المناطق التى يسيطر عليها قانون العُرْف وليست القوانين الرومانية ، فلا توجد ملاحم فى جنوب فرنسا أو أى مكان آخر كانت تطبق فيه لوائح القوانين المعروفة باسم **Fuero Juzgo** فى ليون والعرف بالنسبة للقانون هو عبارة عن تلازم بين الوجود وبين ماهية القواعد المفروضة عليه (ويكفى فى هذا المقام صدق هذه العبارة بمعناها العام) ، وعندما يعيش المرء فى إطار عاداته القانونية فهو يتكئ على الإحساس بالاكتفاء الذاتى وأنه ليس فى حاجة للجوء إلى القاضى وتطبيق قوانينه ، ولقد أسهمت المؤسسات ذات الموروث الجرمانى - الأخذ بالثأر والشرف - فى دعم وتوطيد صيغة الحياة القشتالية التى تقوم على أسس لا تتزعزع وتتمثل فى الأمور الدنيوية والقطاعية الإنسانية **Cis-humanas** وتدخل الشخصيات الملحمية - من لحم ودم - فى تناغم مع كل هذا وقد ارتبطت - فى تعايش مؤقت - مع الشاعر ومستمعيه : فرنان جونثاليث وسانشو الثانى والسيد ... الخ ، وليس من المجازفة القول بأن قصيدة فرنان جونثاليث كانت تنوّه خلال

القرن العاشر إلى وجود أمراء لارا Infantes de Lara كما توجد البراهين الدّالة على ذلك (٣٨) ؛ إذن لم ينشأ الشعر القشتالي الحديث عن أبطال أسطوريين مثل رولدان أو الملك آرثر أو نيبلونجس Nibelungos ؛ فلقد كان أبطال قشتالة من أرض الواقع .

ولما كانوا على هذا النحو فقد تواجدوا من خلال اللغة التي يتحدث بها الجميع ويفهمونها وهذا أمر من الصعب إدراكه ذلك أن اللغات لا تُكتب عندما تنضج وتَعْلُو مهماتها بل الحياة التي يحياها الرجال هي التي " تنضج " وقفزت اللغة المحكية على اللاتينية التي يستخدمها القساوسة مثلما طغى العُرْف على القانون المكتوب وهذا أمر حيوي بالنسبة للباعث الإرادي للشخص وهذا هو نفس ما حدث مع قشتالة التي تمردت على الوصاية السياسية لليون ، تلك المملكة التي كان يحكمها القديس سانتياجو وسان أيسودورو دون أن تكون هناك صلات قوية بمشروعات الحياة القشتالية (٣٩) .

ومعنى استخدام اللغة الرومانية كوسيلة للتعبير عن مفاهيم الحياة هو أن تاريخ أوربا الغربية (وقشتالة أيضًا) كان - خلال القرنين العاشر والحادي عشر - محصلّة تكامل نظام ولا نظام ، أي الماهية التراثية والبواعث للحيلولة دونها ، وليس صحيحًا أن العصور الوسطى كانت كُلاً منسجمًا وبحيرة هادئة من الروحانية ، كما تنعكس على صفحة مياهها صور مدينة الله الأغسطية والمدينة الدنيوية ، ولو كان الأمر على هذا النحو لما تحرّك المجتمع الأوربي أبدًا ؛ وعادة ما نفكر أن الانسجام في العصور الوسطى لم يتعرض للتفكك إلا في القرن الرابع عشر ، لكننا لم نلح كثيرًا على أن أوربا الجرمانية - اللاتينية - المسيحية دخلت التاريخ وهي محملة بالعناصر التي ستعمل على تفكيكها ، ومن ملامح هذه التطورات جبروت شارلمان عندما حدّد للبابا دائرة سلطانه (٤٠) وكذلك إعطاء الأولوية للقيم الدنيوية بالمقارنة بالقيم الروحية وتمجيد الأبطال الدنيويين الخلّص ، والثورات ضد الممالك التي تعتبر أنها تحكم باسم الرّب والجرأة في استخدام اللغة الدارجة للوفاء بالحاجات اليومية ، والنقد العقلي للمعجزات (مثلما كان يحدث في فرنسا) وخصوصية أو قومية الجماعات الدينية (كلوني وثيستر) ، التي أخذت ترتبط بمصالح الحكّام والمصالح الدنيوية وليس بالروح الكَوْنية

للكنيسة ، والمذهبية الاسمية التى فتحت الأبواب أمام إعمال العقل الفردى لمواجهة الواقع ... الخ . وفى كل بلد وكل لحظة حدث هروب من قواعد النظام الموروثة عن طريق التراث اللاتينى واللاهوتى ، غير أن الطريقة اختلفت من وقت لآخر(وسوف نرى فى الفصل العاشر أن ميلاد النثر الرصين فى قشتالة - فى وقت غير متزامن مع باقى الدول المسيحية - كان ظاهرة يهودية .

ويمكن القول - بصفة عامة - بأن قشتالة لم تتوفّر على ثقافة من النوع الرصين وعلى لاهوت ، وكلاهما لم يكن متوافقًا مع أوربا [٤١] فالثقافة العربية والتقنية اليهودية كان لهما تأثيرهما القوى على المسيحية الإسبانية التى كانت فى حالة ضعف ثقافى واضحة ، فلم يكن هناك شئ يمكن أن نضمّه إلى ما يسمى بعصر " النهضة خلال القرن الثانى عشر " ذلك أن الإسبان المسيحيين (حسبما نرى ذلك فى مواضع متعددة من هذا الكتاب) قد تأثروا بالفكر والعلوم الإسلامية ولكن بدرجة ضعيفة ، فلم يكن لإسبانيا نصيب فى هذه النهضة الفلسفية واللاهوتية التى بدأت مع القرن الحادى عشر والتى كان القديس توما الأكوينى أشهر شخصياتها ، وقد تمت المحافظة على نظام التدرّج الهيكلى (رغم محاولات الإخلال بالنظام) ابتداءً من أكثر الناس تواضعًا (فى الهيكل الاجتماعى) وحتى الذات الإلهية ، إذن نجد أن العصور الوسطى الأوربية صراع لا يتوقف بين محاولات التفكيك والنظام القائم على الماهية الإلهية .

كانت لقشتالة سماتها الإنسانية الخاصة بها وهى سمات لا تقوم على الثقافة بل على الإحساس بقيمة الشخص وهى سمات تؤكد ذاتها من خلال الصراع والتناقض مع الطرف المناوئ ، فالملاحم واللغة الدارجة المستخدمة فى صياغتها ظهرت فى هذه البقعة من العالم وكانت موضوعاتها الأخذ بالثأر مثلما هو الحال فى " أراء لارا " والنبلاء الذين يسيئون معاملة ملوكهم (فرنان جونثاليث والسيّد) وملوك تم اغتيالهم مثل سانشو الثانى عند حصار سامورة Zamora ، ولم يكن النظام المسيحى هو النموذج المثالى الذى تتجه إليه شخصيات الملاحم والمُغنّيين الشعبيين الذين يخلّدونهم وعلى أية حال نجد أن عدم التوافق التاريخى بين ميلاد التعبير الشعرى والعامى فى

كل من قشتالة وفرنسا يطرح أمامنا مشكلة تذهب إلى ما هو أبعد من الحدود التى ترسمها جبال البرانس ومعنى هذا أن الدنيوية طمحت للانتشار بشكل متوازٍ مع الروحية الماورائية . المسألة صعبة ويمكن أن نقوم بتحليلها جزئيًا ، وتتمثل فكرتى فى أن القشتالية أخذت تكتب باللغة الدّارجة كتعبير عن " اتفاق " جماعى يؤسس عليه وجوده ، وإضافة إلى ذلك نجد أن النموذج الذى بدأ الجيران الرومانيون يطبقونه ، والذى جلبه الحجاج معهم إلى سانتياجو ، شجّع على استخدام القشتالية لغة غير لغة الجهابذة ودخلت بذلك فى صراع مع اللاتينية التى يتحدث بها رجال الدين .

ولننظر بعض الشىء إلى ذلك الذى يحدث وراء الحدود الإسبانية ، فلقد كانت المسيحية الغربية تطمح أن تكون أفضل نموذج لصوفية مدينة الله طبقًا لما فكّر فيه القديس أغسطين المهندس الروحى العظيم فقامت الكنيسة بتنظيم الحياة بشكل فيه مركزية ، فكل شىء ينحو فى اتجاه مركز الروح الإلهية ، وقد عرض جونتر مولر **Günther Müller** بدقة فكرته القائلة بأن العصور الوسطى هى عملية تحوّل تدريجى من الإنسانى إلى الربّانى دون حدوث أزمة فى الازدواجية أو أى تناقض فكل شىء يتم النظر إليه أخلاقيًا من خلال قواعد ذاتية (٤٢) ، ويتحدث مولر عن الأدب الألمانى فى العصور الوسطى لكن أفكاره يمكن أن تكون لها دلالتها إذا ما نظرنا إليها كمفهوم عام يتعلق بالعصور الوسطى ، والنصوص التى يعتمد عليها نجدها عند القديس توما الأكوينى " وعلى هذا فكل المخلوقات هى تقليد كامل للرّب حيث تم الكشف عن درجات مختلفة له بين الخلق " (٤٣) وعلينا أن نضع فى اعتبارنا أن القديس توما يمثل ردّ الفعل لصالح النظام العقلى ، بعد فترة طويلة من القلاقل ، التى استمرت وانتهى بها المطاف إلى إقصاء اللاهوت ، وعندما نستند إلى نصوص للقديس توما الأكوينى للقيام بتحليل عام للعصور الوسطى فالأمر يشبه قيامنا بالاستناد إلى ما صدر عن " مجمع ترنتو " ولاهوت بيلارمينو **Belarmino** لشرح توجّهات الأدب الأوربى الكاثوليكى خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

والفكرة التى ليست محل جدال هى وجود التدرّج فى العصور الوسطى ، كما أنها تعبِّر ميتافيزيقيا عن الماهية اللاهوتية لتلك الفترة الطويلة ، فقد فعل ذلك القديس أنسلمو Anselmo (١٠٣٥ - ١١٠٩م) عندما فكر بأن الله هو أعلى درجات الكمال ، وهو كمال يرتبط بالأشياء بشكل تدريجى : الخشب والجواد والإنسان ... (٤٤) ؛ وتساعد فلسفة تلك المدرسة على فهم الجانب اللاهوتى (الحيوى حينئذ) خلال تلك العصور ، غير أن الصيغة التجريدية لا تشمل تكامل الحياة ،ومن الواضح أن الوجود تحت الأفق الإلهى ينظم كل ما يفعله الإنسان أو يفكّر فيه ، كما نجد أن النظام الدنيوى الإلهى كان يغير بِنْيَته حسب درجة الأهمية التى توليها لهذا الجانب أو ذاك (الله أو الدنيا) ؛ إذن فقد كانت تصحب التدرّج المنظّم حركة بندولية بين ما هو إلهى وما هو إنسانى ، وعندما يعيش الإنسان حياة مفكّكة العُرى - أى بعيدة عن الله - نرى ردود الأفعال متمثلة فى الزهد مثلما هو الحال عند جماعة كلونى ، وعندما تعترى الرّخاوة البعد الروحى لجماعة كلونى نجد جماعة ثيستور تظهر لإعادة التوازن وعندما تخطئ كلتاهما يدخل القديس فرانسيسكو إلى خشبة المسرح .

لم تُعْنَ إسبانيا بالجانب الباطنى للدين وحاولت نشره ملحميًا من خلال سانتو دومنجو وجماعته خلال القرن الثالث عشر ، وكذلك جماعة يسوع خلال السادس عشر ، وعندما بدأ النظام الكنسى يترنح خلال القرن الرابع عشر نجد أن إسبانيا تسهم فى إقلاق بعض الدول ، ومحصلّة ذلك ظهور جماعة القديس خيرونيمو التى قام على أمرها زهّاد يفضلون حياة العزلة ، غير أنهم - ومعهم الدومنيكان الإسبان - لم يؤثروا فى التوجّه الأيديولوجى للمسيحية ، أى ذلك الدين الذى يمارسه الناس كل بطريقته مثلما هو الحال بالنسبة للملاحم القشتالية ، وكأننا بذلك نرى شيئًا عمليًا وشديد الصلة بمصالح الشخص ورغباته ، وقد حال ذلك دون صعود أساقفة سانتياجو للجلوس على كرسىّ البابوية خلال القرنين العاشر والحادى عشر ، والسبب هو أن تحليلهم الشخصى للنظام الإلهى كان يستحوذ على اهتمامهم بدرجة أكبر من الإذعان للتدرّج التقليدى ، وقد عاشوا فترة طويلة وهم موزّعون بين " أريد أن أكون " ، "على أن أطيع" ومنطق ذلك هو الإرادة أكثر من التعبير عن الرأى ، كما أن وجود المور واليهود بكثرة

فى بلاط الدول المسيحية هو السبب وراء صدور أكثر من تحذير من البابوات ولإسبانيا فى هذا المقام ملمح شديد الخصوصية .

وقد ساعدت المقارنة بين قشتالة وأوربا جارتها على توضيح عدم وجود مظاهر فكرية نقدية بين القشتاليين تتناول البِنْيَة المثالية للعصور الوسطى ، كما لم يكن هناك وعى بالإمبراطورية الدنيوية (شارلمان) القادرة على مواجهة الغَلَبة الروحية لروما ، ولقد حاولت عاصمة سانتياجو ذلك ، غير أن المحاولة استندت إلى الاعتقاد فى أحقية أساقفتها فى البابوية وليس على أسس إنسانية ، ومع هذا فالتلقائية الحيوية والغامضة لقشتالة (المفعمة بالدوافع الإنسانية) هيأتها لتكون لها خصوصية تباعدها عن النظام المتبع فى سانتياجو وليون وقرّبتها من هؤلاء الذين يميلون إلى المصالح الدنيوية كما هو الحال فى فرنسا . ولقد قام مفهوم القومية فى فرنسا على الإحساس بالعظمة الشارلمانية ، أما فى قشتالة فقد اعتمد على القوة والتمرّد وشهرة القادة مثل فرنان جوثاليث وسانشو جرثيا وآخرين غيرهم ، وأصبح من غير الممكن أن تدخل تطلعات وآمال هؤلاء المتمرّدين فى إطار التراث اللغوى والقانونى والروحى الرومانى ، ومن الطبيعى أنهم لم يقفوا فى وجه تلك التقاليد مباشرة إذ كانت نوعًا من الفيضان الحيوى ولم تكن تسير على خطّة مرسومة ، غير أن الحيوية والتمرّد القشتالى الذى له ما يبرره والتوتر والخيال الملحمى والميل لاستخدام لغة الشارع والبعد عن اللاتينية تعتبر كلها مراحل لظاهرة واحدة (٤٥) .

أسهمت الموضوعات فى استيعاب اللغة والعكس صحيح ، وإذا ما فكّرنا بشكل تجريدى فلن نجد مبررًا لتلك الكتابة والحديث باللاتينية ، فقد كان الناس – قبل القرن الحادى عشر – يتحدثون بطريقة ويكتبون بطريقة أخرى وقد حدث ذلك فى رومانيا القديمة ، أما الناس غير المثقفين فلم يتمكنوا من التفاهم لغويًا مع الأقاليم المجاورة ، غير أن شارلمان لم يفكر فى إذْكاء استخدام لغات الحديث اليومى بدلاً من الرومانية والجرمانية بل حاول بث النبض من جديد فى اللاتينية ، ومن المغالطات التاريخية القول بأن اللغات لم تكن قد تشكلت حتى ذلك الحين ذلك أن اللغات ليست نباتات يتم إنباتها

فى مشاتل ثم استزراعها بعد ذلك فى حدائق الأدب ، ولقد كان من الممكن الكتابة باستخدام اللغة الدارجة خلال القرن الثامن ، فلم لا تتم الكتابة بها خلال القرن الخامس عشر ؟ وعادة ما يحدث أن تكون هناك فروق بين لغة الثقافة واللغة الدارجة : فاللغة الباسكية لم يكتب بها حتى وقت قريب ، وتم ذلك فى إطار صعوبات كثيرة اعتراها التصنّع : فالكثير من الإيطاليين لا يتحدثون ولا يكتبون اللغة التوسكانية ونجد أهل سويسرا يكتبون ألمانية غير التى يتحدثون بها ، وفى إسبانوأمريكا نجد لغات هندية ، أما الكتب فهى بالإسبانية ... الخ. وهنا لا يمكن القول بأن اللاتينية قد اعتراها التغير خلال العصور الوسطى ، والفروق بين اللاتينية خلال القرن الثانى عشر وخلال القرن الأول تعتبر طفيفة مثل تلك التى نجدها فى اللغة الإنجليزية المستخدمة فى أحد الأعمال الدرامية فى نيويورك ولغة القرن الخامس عشر ، فطريقة الكلام لا تنفصل عن القيمة التى يضْفيها عليها المتحدث ، فإذا ما شعر أن حديثه يتسم بالخشونة والانحطاط فإنه يُحجم ولا يكتبه ، وعلى ذلك فليس مهمًا القول بأن اللغات الرومانية المستقبلية لم تكن آنذاك على درجة كبيرة من التقدم أو أن اللاتينية قد تدهورت حالتها [٤٦] ، وفحوى الأمر هو الحافز والقدرة على الكتابة واستخدام قواعد إملائية فيها بعض التذبذب ، فى إعداد الأعمال الكبرى التى تتناول موضوعات دنيوية ، وإذا ما نُظِرَ للأمر من هذه الزاوية نجد أن القرنين العاشر والحادى عشر يشبهان عملية الانتقال من الكلاسيكية الجديدة إلى الرومانسية ، أى عندما بدأت الكتابة بلغات لم يكن لها آداب أو لهجات مكتوبة ، والسبب فى هذا أن بعض الأقاليم الأوربية أخذ يتنامى لديها الحسّ الوطنى [٤٧] ؛ وقد حلّ محل العموميّات العقلية - التى كانت سائدة فى القرن الثامن عشر - المشاعر الرومانسية الفردية ومعها إدراك الواقع التاريخى ، لكن أحدًا لم يناقش هذه الظاهرة خلال القرن الحادى عشر ، ذلك أن العقل كان بحاجة آنذاك إلى صِيَغ تمكّنه من اقتناص مغزى ما يفعله الإنسان وما يشعر به ليعبر عنه بعد ذلك ، ويمكننا أن نشبّه ما حدث خلال القرن الحادى عشر بصورة طفل تصدر عنه تصرفات نُخَمِّن نحن من خلالها ما يشعر به ويريده ، فلقد قام البعض خلال ذلك القرن باستخدام لغة جديدة ليعبّر من خلالها عن أمور لا يمكن للغة التى يستخدمها رجال

الدين – قراءة وكتابة – القيام بها ، وهنا نجد أن الإرادة القوية لبعض المجتمعات أدّت إلى كسر شبكة النّسق اللغوى ، فالقشتاليون أرادوا أن يكون هناك تمثيل لما يعتمل فى صدورهم ألا وهو حياتهم اليومية .

ملحمة رولان وملحمة السيد

إذا ما قمنا بعملية مقارنة موجزة بين كلتا الملحمتين لتأكدنا من الفكرة التى نتحدث عنها فى هذا الكتاب ، وهى أن الإسبانى المسيحى يرتبط بشدة بأوربا ويأخذ منها كل ما يمكن الحصول عليه ، وهذا ما تؤكده لغته وإبداعاته الأدبية ، كما أنه يحتفظ بتفرد واضح لا يمكن كبح جماحه ، وهذا يرجع فى الأساس إلى الآثار التى طُبعت فى روحه بفضل التعايش مع الإسلام ، ومن خلال ضوء معين يمكن أن ننظر إلى طبيعته على أنه اعتراها ما يشبه التحوّل على شاكلة ما شهدناه من التحويرات اللغوية ، وتفصح لنا عن ثنايا وميول داخلية يكمن أساسها فى الصراعات التى جرت – بشكل تبادلى أحيانا ومتزامن أحيانًا أخرى – ضد السيطرة الإسلامية والمسيحية الأوربية ، واستطاع الإسبانى المسيحى أن يطفو على السطح وهو فى إطار إشكالية وجوده ، وقد استند – بشكل تبادلى – على الجنوب ضد الشمال والعكس ، ومن المعروف أنه نادرًا ما حدث فصل كامل بين المسيحيين والمور ، أما الشائع فهو التحالف المؤقت فى وجه العدو المشترك ، ولقد عاش السيد Cid فى مملكة سرقسطة التابعة للمور خلال الفترة من ١٠٨١ حتى ١٠٨٧م ، وكانت الغاية من إقامته حماية الملك المستعين ومن هنا ندرك سرّ حروبه ضد ملك لاردة Lérida المسلم وعدوّه ، كما أن هذا الأخير كان يحظى بحماية كونت برشلونة ، وكان على السيد أن يحارب ملك أرغن المسيحى الذى كان حليفًا لملك لاردة ، وقد استطاع الملك ألفونسو السادس – قبل ذلك بسنوات –أن يجد لنفسه ملجأ فى بلاط المأمون ملك طليطلة عندما انتزع منه شقيقه مملكته ، واستمرت هذه الأحداث حتى القرن الخامس عشر ، وسوف يجد القارئ وقائع أخرى فى كتاب " إسبانيا السيد "لعلامة رامون مننديث بيدال ، وأمام هذا الموقف

أسهمت عناصر كثيرة فى إجبار المسيحى للتعبير عن خصوصياته الإسبانية الإسلامية كوسيلة دفاعية طبيعية ، وتمثلت هذه العناصر فى وجود الكثير من الرهبان ورجال الدين والفرسان والكثير من العامة الذين يدفع بهم الأجنبى (خاصة الفرنسى) إلى شبه الجزيرة الأيبيرية ، نحن إذن نرى النّول الذى استُخدم فى نسج طبيعة الإسبانى ، ونرى النسيج الرائع لأدبه وفنه .

ربما يرجع تاريخ كتابة ملحمة رولدان إلى بداية القرن الثانى عشر أى قبل كتابة ملحمة السيد بحوالى ثلاثين عاما ، ويتسم عَرُوض الملحمة الفرنسية بأنه منتظم ، أما الملحمة الإسبانية فتجمع بين الأبيات قصيرة المقاطع دون السير على نهج محدّد (٤٨) وهذه ظاهرة لها دلالتها ، وتبسيطًا للأمور بأن الملحمة الفرنسية قد كتبت للشعب ، أما الإسبانية فقد عبّرت عن وجهة نظر الشعب ، ومن المؤكّد أن الرهبان الفرنسيين – ربما كانوا رهبان جماعة كلونى – هم الذين أوعزوا أو رعوا تأليف هذه الملحمة وذلك حتى يزيد عدد الحجاج الذين يزورون قبر سانتياجو ، وهذه الفكرة هى التى طرحها بيدير Bedier وقد تأكّدتْ من خلال الدراسة التى قمنا بها حول المغزى التاريخى للقديس الرسولى سانتياجو ، وأخذ الحجاج يتأملون – فى بورديوس Burdeus – البوق العاجى الذى عزف عليه رولان :

يراه الحجاج الذين يمرّون بالمكان (بيت رقم ٣٦٨٧)

غير أن النسخة أو الرّواية الأكثر قدَما لا تذكر سانتياجو رغم أنه أشير إليه بشكل غير مباشر " Trestut l'or de Galice" (بيت رقم ١٤٧٦) عند الحديث عن المشرقى الذى يفضل جرائمه على كل ذهب جليقية " ، وتمجد الملحمة الفرنسية أهدافًا عمليّة وقد قام الرهبان الذين يقيمون على طول " الطريق الفرنسى " بإعداد الدليل السياحى الذى ذكرناه قبل ذلك ليتم شرحه على المنابر ، وساعدوا فى المهم قصيدة ، بها الكثير من الجاذبيّة ، تدعو إلى الحجّ وتزويد من يؤدون هذه الرحلة بالشهادات الدالة على ذلك ، وتم الربّط بين طريق سانتياجو وشارلمان الذى يعتبر محطّ المشاعر الوطنية ، وكانت الكارثة الكبرى التى حلّت برولان ، وما ترتب عليها من تبعات ، محط

إعجاب الجميع إذ استُخدمت اللغة الشعبية والصور البلاغية الجميلة ، والمرئية التى تسهم كوسيلة للتعبير عن نظريات روحية ، وتقدّم البديل فى باب المثال الملكى والنبيل شديد الارتباط بالطبيعة الفرنسية ، ولا تتضمن القصيدة الفرنسية شخصيات من عامة الشعب فالهدف هو إثارة إعجاب الجماهير وليس دخولها إلى خشبة المسرح وبالتالى فالقصيدة عبارة عن حامل مهيب للأيقونات وقد وُضع على ارتفاع معين حتى يمكن مشاهدته جيداً دون لمسه ، كما نجدها مفعمة بالصور البلاغية التى تذكرنا بشخصيات الإنجيل الموضوعة على ظُلّة رومانية ولا يمكن التعايش معها إلا روحياً :

تحت شجر التنّوب وإلى جوار حوض للزهور البريّة

أقاموا عرشاً من الذهب الخالص

جلس عليه الملك الذى يحكم فرنسا الجميلة

لحيته كبياض الثلج وشعره كالزهور

جميل المحيا وقوى العارضة (الأبيات ١١٤ - ١١٧)

يتم التحدّث إلى الشعب من مستوى يفوق ما عليه ، حيث تحدّثه القصيدة عن أمور تبتعد كثيراً عن حياته اليومية البسيطة ، فالقصيدة الفرنسية تقدم لنا صورة النظام العلْوى الذى يربط بين عالم المحسوس والعالم غير المرئى " رولان مقدام وأولفر رصين رصين " {بيت ١٠٩٣} ، ويجسّد رولدان (رولان) الجرأة والجسارة ، أما أوليفر فيدمر رصانة العقل ، وتعلو كليهما صورة الأسقف الذى يجمع بين كلتا الصفتين :

الأسقف هو الإقدام وهو الرصانة (بيت ٣٦٩١)

ولما كان موقع الأبطال يأتى بعد الراهب المحارب نجد أن خوض المعارك يدخل فى دائرة المستوى الأعلى فى الحرب المقدّسة ضد غير المؤمن (٤٩) حتى يؤمن وهذا هدف علوى لم يتمكن شارلمان نفسه من تحقيقه لكن تم إبلاغه لفرنسا خلال القرن الحادى عشر من خلال الإسلام الإسبانى :

وهناك سيتلقى (الملك المسلم) القانون الذى تحفظونه (بيت ٦٩٥)

فى هذه الحرب المقدسة :

وسوف يُقبِّل فمك إعرابًا عن الصداقة (بيت ١٤٨٧)

ويضمن الجنة لهؤلاء الذين يسقطون فى المعارك فهم قدّيسون وشهداء :

إذا ما قتلتم فسوف تكونون قديسين وشهداء (بيت رقم ١١٣٤)

نحن نعرف ما الذى يعنيه هذا وعلى القارئ أن يتذكر هذا العدد الهائل من القديسين الشهداء الذين قدّموا أرواحهم وهم يحاربون ضد المشارقة فى إسبانيا وأنهم عبروا الأراضى الفرنسية وهم يلبسون عباءاتهم البيضاء والكوفيّة الحمراء ، قاصدين المجد فى الأعالى ، ولقد كان ذلك يحدث فى بداية القرن الحادى عشر الأمر الذى يجعلنا ندرك سر التلقائية التى يتحدث بها المغنى الشعبى للقصيدة الفرنسية عن الحرب المقدسة حيث نرى الطرفين يطمحان لدخول الجنة :

يتأكد الفرنسيون من كثرة من يريدون الاستشهاد

Marsile veit de sa gent martirie (بيت ١٤٦٧)

ويعترف رولدان أن هؤلاء الكفرة Paiens أخذوا يسيرون فى طريق الشهادة {بيت ١١٦٦} كما تعلّم توربين – الأسقف المتبحّر – من زملائه الإسبان أن يكون " فارسًا أفضل من الفرسان " { بيت ١٦٣٧ } وأن يحارب مثل باقى الأساقفة الجليقيين، خلال القرن العاشر وأن يحذو حذو من سيكونون فيما بعد فرسان الجماعات الدينية

ويتم تقديم النظرية فى إطار عملية مسرحية مثيرة ، إذ نجد رولدان يمرق مسرعًا وهو على صهوة جواده المسمّى " فيلانتيف " ويرسم خطًا فى الهواء بالرّاية البيضاء التى تحملها حربته المشرعة نحو السماء (٥٠) علامة على المصير المنتظر ، وتتتابع أمام أعيننا المؤثرات البصرية ، فما يهدف له الشاعر هو استثارة التأمل وليس الحقن بجرعة الحيوية التى تُحْدث آثارها ببطء كأنها إحدى الطقوس ، ويصاحب ذلك عناصر ثلاثة :

يطلب أوليفير من رولدان – ثلاث مرات – أن يعزف على آلته لكنه يرفض كل مرة:
وتنتاب شارلمان الغيبوبة ثلاث مرّات أمام جسد البطل .

لقد كتبتْ ملحمة رولدان من منظور مشاعر التعبير عن الاستغراب بهدف إذكاء الروح الحماسية بين المستمعين ، كما أن الشخصيات والأحداث والمسرح الذى تقع عليه تحدث تأثيرها المباشر لضخامتها كمبالغات إنسانية أو طبيعية

تميل الصخور للّون الرمادى ، والوديان شديدة الظّلمة (بيت ٨١٥)

الوادى رهيب للغاية ، والمقاطعة مترامية الأطراف (بيت ٣٣٠٥)

وهى أبواق من قرون طويلة جداً (بيت ٣٣١٠)

وقد لاحظ منندیث بیدال " عدم الطبيعية في الملحمة الفرنسية " فصوت نفير رولدان يُسمع على بعد ثلاثين فرسخًا ، أما توربين فقد تعرّض لأربعة حراب دخلت جسده ، كما نجد رولدان وقد انشق رأسه وخرج ما بداخل الرأس من أذنيه ، ومع ذلك يحارب كلاهما وكأنهما لم يتعرضا لشيء ، أما تعداد الجيوش فكان ضخمًا إذ بلغ ٣٦٠٠٠٠ ، ٤٥٠٠٠٠ فارسًا ، وتمكن خمسة من الفرنسيين من قتل أربعة آلاف مشرقى " (٥١) ، ونحن نطلق اليوم على هذا النوع من التصوير " دعاية " لا نستطيع أن نقرأ مغزاها الغنىّ إذا لم نتصوّر المستمعين خلال القرن الثانى عشر وهم فاغرو الأفواه وقد التفّوا حول المُنشد الذى يلقى أبياتًا تم قرضها لاستثارة كل هذا الإعجاب كان الشاعر يحسّ وكأنه يستعرض – بمهارة – قضية اجتماعية ودينية ، ويعزف الفنان من خلال أشعاره المقطوعة المؤلفة سلفًا ، ويهدف من وراء ذلك استثارة الإعجاب وليس كـ primeus inter pares الذى يتدخل فى الحالة المعنوية وفى دائرة التجربة " المَعيشة " أو " القابلة للعيش " عند مستمعيه ، ويشعر المؤلف أنه يقوم بدور الوسيط فى الحالتين أى أنه يردد صدى ما يحدث حوله أو فوقه ، ولهذا السبب لا يفصح لنا عن اسمه إذ لا يقوم بدور قيادى يشبه الشاعر رجل الدين ، كما لا يقدّم لنا نظرية استقاها من كتاب، فهذه كانت مهمّة جديدة بأن يسجل المرء اسمه عليها خلال القرن الثالث عشر ، إذ نجد

أن إنشاء كلمات جديدة تنير أفق الخيال ولا تؤثر على السلوك الدينى أو الأخلاقى للمستمع لم يكن إلا فنًا يرتبط ببعض المسرحيات التى تعجب الجماهير دون أن يفكر المرء فى الشخص الذى قام بتأليفها .

وتتسم الملحمة الفرنسية بأنها مشهد مسرحى مهيب أكثر من كونها قصة تُحكى فإذا ما كانت تستهدف النظر والتأمل فلابد من التركيز على المؤثرات البصرية :

وكانت باقى الفيالق تتلألأ معه (بيت ١٠٠٣)

والرايات البيضاء والأقحوانية والزرقاء (١٨٠٠)

فوجهه الوضىء لا يفقد تلألؤه أمام أشعة الشمس (٢٦٦٠)

وعندما رأى شارلمان شكله الرائع (٣٣٠٦)

.... الخ

ويدخل المؤثر السمعى فى تحالف مع المؤثر البصرى :

هناك ألف نفير تُعْزف وكان كل شىء جميلاً (١٠٠٤)

ومعنى ذلك أن الهدف هو التعبير عن قوة جيش المشارقة وضخامته ولهذا " سمعت أصوات ألف نفير وكان كل شىء جميلاً " كما نرى ذلك الاستعراض الهائل للخوذات الواردة من سرقسطة والسيوف المصنوعة من الصلب من فيينا والنّبال من بلنسية وعباءات بيضاء وزرقاء وأقحوانية ودروع تتلألأ تحت حرارة الشمس

لقد استطعنا أن نرى فى الملحمة الفرنسية تلك العلاقة الحميمة بين المقصد الشعرى والغاية الدينية من وراء ما ورد فيها من تعبيرات ، إذ تتضافر الكلمات مع السياق التاريخى فى هذه المسرحية الدينية ، كما أن شخصياتها شديدة المهابة والوضوح فى ملامحها وكأنها صور لقوس النصر عند إحدى قيادات الرهبنة الرومانية، كما تم رسم الشخصيات لإفادة المؤمنين ولتحقيق الغايات الروحية لمن يقومون على ذلك الأمر ، فالقصيدة إذن هى نسيج من المُثُل والمصالح اللاهوتية والفروسية التى تستهدف

أغراضًا اقتصادية وحماسًا دمويًا ووحشيًا ، وتم تصميمها من منظور علوى لمن هو أدنى رغم أن النبيل كان أحد الأهداف المرجوّة أيضا ، والغاية هى إلهاب مشاعر جماهير المؤمنين وحثهم على الذهاب إلى الأماكن التى خضبتها دماء الشهداء الذين سقطوا فى الحرب المقدسة حيث كان كلا الطرفين - المسيحيين والمشارقة - يريدون الاستشهاد الذى هو فكرة إسلامية دخلت فرنسا المسيحية ، كما تم اتخاذها حتى يكون هناك مغزى (من المنظور المسيحى) لمتعة إراقة الدماء التى يشعر بها رولان وكأنه حيوان غابة أو كأنه أحد أبطال ملحمة جرمانية :

وعندما عرف رولان أن المعركة قادمة لا محالة

زادت شراسته عما عليه الأسد أو النمر (١١١٠)

عرفت فرنسا فكرة الحرب المقدسة لكنها لم تتعايش مع المسلمين الذين لم يتركوا آثارًا فى السلوكيات الحميمة للنفس الفرنسية التى ترسو على شاطئ التراث الجرمانى وعندما يشعر أوليفيروس أن أحشاء عدوه تنبض تحت وقع ضربات النّبلة تصيح نفسه الحيوانية بفرح غامر " كم هى رائعة معركتنا ! " {١٢٤٧} ، فإما هذا وإما الرمزية والتعليمية المسيحية النبيلة .

يحرص الشاعر على الفصل بين خبرة الحياة اليومية والمستوى الشعرى الذى يبحر فيه خياله ، لكنه محكوم برغبته فى الإعلاء من شأن الشهداء فى الجزء الفرنسى من " طريق سانتياجو " الملىء " بذهب جليقية " جيئة وذهابًا ، والغاية من هذه الملحمة وأخريات غيرها إلهاب المشاعر لشدّ الرحال إلى ضريح القديس الرسولى ، فالأعمال الخارقة نشهدها قبل الوصول إلى الغاية المنشودة بمسافة كبيرة ، وهنا نرى أن جماعة كلونى تبدو وقد تزينت بنفس شبَاك سلطانها الاجتماعى والاقتصادى ، وإذا ما كانت البداية هى العمل على إنقاذ الشعب فهى الآن فى حاجة إليه لتبقى نفسها على مسافة مرتفعة بما فيه الكفاية ، ولهذا تفيد من اللغة الشعبية ، أى أنها تشجع على استخدامها والإنشاد بها ، ومبرر ذلك هو إسداء الخدمات الدينية ، وقد أجبرت الأهداف المادية المرجوّة خلال القرن الحادى عشر على زيادة مساحة العمل الروحى

وقبول القطيعة مع التراث اللاتيني ، والغاية هي إيجاد مسار لمجرى الحياة الذي يصدر عن أي مكان ، وتولت قصيدة رولان تقنين مشاعر العنف في دائرة جميلة من الطقوس الفنية ، وأخذت تسير في هذا على طريق تصاعدي يبدأ بالجرأة الدّموية ويمرّ بالاعتدال والوقار وينتهي بالقداسة ، ومن السيطرة على هذا البناء الضخم تنبثق شخصية توربين الذي تمكّن من قتل ملك الدانمارك [١٤٨٩] وفتح أبواب الجنة أمام الشهداء الأبطال ، ومعه نجد شارلمان الذي لا تغرب شمس عمره وبالتالي لا نستطيع معرفة سِنّه ، ونراه في صورة رجل له لحية بيضاء يمتطي صهوة حصان بحيث يبدو المشهد وكأنه أيْك مزهر .

هذه هي الوقائع الجديدة للسيد (تلك هي قصة سيدي القنبيطور) :

بهذه العبارة يودّع المغني الشعبي مجهول الاسم مستمعيه عندما انتهى من إنشاد ما قام به رودريجو دي بيبار وهنا نلاحظ أنه من المستحيل علينا أن نفهم كيف أن كلمة " الجديدة تعني في هذا المقام " سرد وقائع مشهورة " طبقًا للتحليل الذي قدمه منديث بيدال ، أما بالنسبة للعقلية الرومانية فلفظة nueva تعني الشيء الجديد أو الشيء الذي عرفناه من جديد أو الخبر ، ومن الصعب أن تستوعب معنى آخر هو " واقعة شهيرة " ورغم هذا يمكن العمل على تطويعها من الناحية الدلالية بالرجوع إلى كلمة novae res بمعنى ثورة وأشياء تثير المفاجأة ، لكن لا تتوفر أمامنا أية وسيلة حتى ندخل الكلمة في قوالب التفكير الغربي بمعنى الشيء الجديد ، والبارز وغير المسبوق والذي يصيب المرء بعدم الاتزان ، ويقدم في الوقت ذاته " سرد " الأحداث الجديدة ، وعندما يجد مؤرخ اللغة الإسبانية نفسه أمام وضع شائك مثل هذا فالحرص يدفعنا إلى الاطلاع على قاموس عربي ، وهنا لا يخيب ظنّنا ، فالفعل " أحدث " يتضمن من بين معانيه واشتقاقاته المختلفة " شيء جديد ، يقع ، يقصّ شيئا لأحد " كما أن الاسم " حديث " يعني حكاية وسردًا أو خرافة ، ولما كان مفهوم الواقع لدى العربي يقدم لنا " الباطن " و " والظاهر " كوجهي عملة فالحدث الجديد الذي تتضمنه الكلمات التي تسرده يعتبر واقعًا ذا وجهين يمكن إدراكه من خلال أحد أوجهه أو أن نأخذ إذا

ما أردنا الشكل مكان المضمون أو العكس ، ومن يسمع هذه الكلمة العربية (حديث) يدركها بمعنييها " الجديد " و " التعبير عن الجديد " وبذلك يمكن القول بلغة الرومانث Cuento o nueva { حكاية أو جديد } ، إلا أن كلمة nuevas التى نجدها فى ملحمة السيد تعبر عن شيء أكثر دقة رغم أن لها صلة بالمعانى التى نتحدث عنها ، وكلمة حداثة هى إحدى اشتقاقات حدث وهى شائعة الاستخدام طبقا لمعجم لان Lexicon بمعنى حدث أو مصيبة ، وهناك لفظة " حواديت " التى تعتبر أكثر شيوعا من المفرد كما نجد ألفاظًا أخرى تدخل نفس دائرة الاشتقاق وهى " أحداث " بمعنى أحداث وتصاريف الزمن والأقدار ، كما تعنى الجديد ، وهنا نفهم السرّ فى أن كلمة nuevas تعنى سرد الأحداث المتعلقة بأقدار " السيّد " ، ولقد كانت كل هذه الأفكار تدور فى رأس ذلك المستعرب المجهول الذى ألف الملحمة – فى رأى بيدال – عندما استخدم الكلمة التى أشرنا إليها .

وهناك معايير أخرى للكلمة تتّسم بالغرابة لكننا ندرك سرّها إذا لم تغب الكلمة العربية " حديث " عن نواظرنا Poco precio Las nuevas de los de Carrion {بيت رقم ٢٦٨٣} ، Las nuevas de Mio Cid Sabet Sonando van {بيت ريم ١١٥٤} أى أن الأحداث التى ألّفوها هى إبداعاتهم كما أن كلمة " حدوث " هى إحدى الاشتقاقات بمعنى الإبداع ، لكنه إبداع يضم فى دائرته المبدع أيضًا ، ويشير ابن سينا إلى أن " الحديث " {الذى وقع منذ هنيهة ، أى ما أُبْدع} مسبوق بقوة الذات والفاعل..... أى بذلك الذى توجد قيه قوة الذات للشيء (٥٢) ، فالوجود معناه أن يتم الإبداع من خلال السّرد ، وعلى هذا فكلمة " حديث " وكلمة " حدوث " تتضمنان الجوانب التالية :–

(أ) حدث وواقعة : وقائع السيد تسبقه بكثير {١٨٨١} وأفعال الفارس ها أنت تراها إلى أين تصل { ١٢٣٣ } حيث تسيطر نتيجة الحدث على النشاط الذى يحددها وكأننا نقول : " الحملات والموضوعات " .

(ب) الوقائع المهمة بما فى ذلك تصرفات من يقوم بها " الأعمال التى يقوم بها المحارب {١٣٤٣} " رجل ليس فى حياته أحداث كبيرة {بيرثيو :

المعجزات : ٣١٢ } " عملاق قام بأعمال عظيمة وحقق غزوات كبيرة "
{بيرثيو : Loores : ١٠} .

(جـ) يمكن للواقعة أو الحدث أن تعكس قيمتها إلى الخارج وكأن ذلك رغبة فى الشهرة " وقائع عظيمة قام بها الأمراء {٢٠٨٤} .

(د) الواقعة : هى حدث أو فعلة يتم سردها " هذه هى وقائع قام بها السيد {٢١١٣} .

ولا يمكننا أن نفهم شيئًا من ذلك إلا إذا اطلعنا على السّحر اللفظى الإسلامى الذى يعتبر سنده القوى وهو المفهوم العربى للحياة ، فالحديث هو ما بدأ حدوثه والجديد هو ما بدأ إبداعه واستمر عليه الوضع وهو موجود فى السابق واللاحق والداخل والخارج ، بين الزمن الجديد لما يتم إبداعه والزمن الماضى لما أُبْدع ، ويواصل كل هذا وجوده مستشرفًا المستقبل غير المحدّد بالنسبة لتطوّر السّرد ، والمعانى المتعلقة بكلمة nuevasخلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر تقودنا إلى فهم مراحل الوجود للحياة العربية ، إنها نوع لا نهائى من الإغلاق والفتح أى أنها أرابيسك ، وسوف نتحدث بإسهاب عن هذا الموضوع عندما نتطرق للمفهوم الإسلامى " للإبداع " (٥٣) .

نجد إذن أن النّسق التاريخى للأشياء يتضمن رواية novelaو Relato قصة ، و Cuento de Vieja حكايات المسنّات ، وكذلك nuevas بمعنى أحداث ووقائع السيّد ، وكلها على صلة باللغة العربية ذلك أن الشرق كان المورّد الرئيسى للحكايات والقصص، كما أن أول مجموعة من القصص فى أوربا ترجع إلى أصول شرقية وهى " Discipli-nas Clericales" {الوصايا اللاهوتية} حيث ترجمت من العربية إلى اللاتينية ، وتولى الترجمة بدرو ألفونسو اليهودى الإسبانى الذى عاش خلال الفترة بين القرنين الحادى عشر والثانى عشر .

وعلى ذلك فكلمة nuevas الخاصة " بالسيّد " هى الحديث أو حكاية البطل الذى يظهر اسمه العربى { Cid ، سيد} ، كما تظهر بعض الجوانب المشرقية الأخرى وهذا

مـا تحـدثنا عنه فى مناسبـات سـابقـة ، ورغم أن تلك السـمـات ليست من العناصـر الأساسية فى العمل فمن المستحسن الإشارة إلى أن اعتقاد السيد فى الطّالع والتطيّر يعتبر واحداً من التأثيرات الإسلامية ، ولقد تعلّم المسيحيون الأوربيون (وليس الإسبان فقط) السحر وقراءة الطالع على يد المور فى الأندلس ، وكان البابا سيلفسترى الثانى (جيربرتو) أحد تلاميذهم (٥٤) فقد كانوا ينحون باللائمة على " السيّد " لتطيّره ، تقول الملحمة :

وهم خارجون من بيبار رأوا الغربان عن يمينهم

وهم على مشارف برغش كانت تحلق على يسارهم (١١ - ١٢)

كمـا خصص المسـعودى - الذى عـاش خلال النصف الأول من القرن العـاشر- فصلاً من كتابه " مروج الذهب " لآراء العرب فى قراءة الطالع والتطيّر ، ومـا إذا كانت الطيور تمرّ من اليمين إلى اليسـار أو العكس ، ويلاحظ أن العرب يرون حسن الطالع فى الطيـور التى تعبـر من اليسـار إلى اليمين ، أمـا سـوء الطالـع فـهـو عندمـا يحـدث العكس (٥٥) .

ورغم أهمية هذه التفاصيل وغيرها من تلك التى تنقل لنا الجوّ الشّرقى الذى كان يحيط بالسيد وبالشاعر ، فهى لا تساعدنا فى الكشف عن الماهية الإنسانية - الشعرية للملحمة ، وهى قائمة تكاملات فى الشخصية تشبه ذلك التكامل الذى سبق أن أشرنا إليه عند الحديث عن الظواهر اللغوية مثل " أصبحت والأحداث تمطرنا ... الخ." ، كما أن الموضوع الأدبى هنا لا يعلو عن مهمة المنشد أو مستمعيه أى أنه على غير شاكلة ملحمة رولان ، فالشخصيات ليست أنماطًا مُصَفّاة بدون حياة داخلية يمكن رؤيتها وبدون أفق حميم وأفق خارجى ، فالأسطورة لا يُنْظَر إليها من بعيد حتى يمكن تأملها وتمجيدها ، وإذا ما كانت كلمتا amanecer و anochecer (أمسى وأصبح) قد تحوّلتا إلى ظواهر تدخل فى دائرة الخبرة الخاصة بمن يتحدث ، نجد نفس الشىء يحدث فى الموضوع الملحمى حيث يكتسب آنيّة من خلال الحياة اليومية للفنان ومستمعيه :

" يا إلهى ... ياله من تابع صالح لو كان له سيد طيّب " (٢٠) (٥٦)

السيد إذن هو الشخصية المثالية التى تمتطى صهوة الجواد وهو فى الوقت ذاته ذلك الشخص الذى عرفه الشاعر وعرفه الكثير من المستمعين ، وقد سمع آخرون آباءهم وهو يتحدثون عنه ، وكانوا يعرفون أن الملك الذى طرد السيّد هو جدّ ألفونسو السابع الذى كان فى الحكم آنذاك ، كما أن الشاعر أضفى عاطفته على البطل ، فالسيد المحارب كان أكبر من مجرّد شخصية يتم تمجيدها ولا يمكن الوصول إليها من خلال سلّم التصوّف ، وهنا نجد أن الشخصية والشخص يتداخلان بحيويّة ، وشخصية بهذا الشكل نراها من خلال عبارات تحيطها بلباس المهابة : " اللحية الخفيفة {٢٧٤} ذو الطالع الحسن عند مولده {٢٩٤} الذى يتمنطق سيفه {٥٠٧} ... الخ. كما أن بعض تلك الصفات لها مذاق قصصى " أشكركم يا سيدى المحارب على ما قصصتموه {٤٩٣} فهذه الجملة تشير إلى دمج بين الشخص والشخصية التى يتم الحديث عنها ، وهانحن نرى بذور ما سنراه بعد ذلك بقرون فى رواية " دون كيخوته " (٥٧) فى الجزء الثانى منها حيث نراه وما قصته فى الجزء الأول ، ونرى هذا البعد قريبًا من مفاهيمنا اليوم ولهذا لا نشعر بالمفاجأة رغم أنه مكتوب منذ عام ١١٤٠م ، ولا يوجد فى الأدب ما يشير إليه من قريب أو بعيد ، فالشخص الذى يظهر هناك هو نفسه الذى جرى الحديث عنه سيرًا على نفس النهج الذى جعل كلمة nuevas أو كلمة novela تحمل المعنى الذى تحمله الآن (٥٨) أى الجديد والحديث والسّرد ، فالسيّد هو " وقصته " مثل دون كيخوته ، ونجد مثل ذلك فى كل أنماط التعبير الجوهرى عن الحياة الإسبانية ، وهذه هى الهوّة الفاصلة بين الملحمة الفرنسية والملحمة الإسبانية ، إذ أن الأولى تقدّم لنا مادة لنمجّدها أما الإسبانية فهى تطرح أمامنا أعاجيب تمت معايشتها :

فما إن رآنى الأسد قادما حتى تملكه الحياء والخجل

وأمام سيدى طأطأ رأسه ، وأرخى مخلبه

وسيدى دون لذريق أمسك به من رقبته

ثم ساقه مطيعًا ورده إلى القفص من جديد

وكل الذين معه رأوه ، ولم يخفوا دهشتهم معجبين (٢٢٩٨ - ٢٣٠١)

فالشخصية تقوم بدور البطل ويخضع لها الأسد احترامًا ، كما أن المشهد به جمهور وينضم إلى ذلك الأخير جمهور الشاعر ، لكن هذه الشخصية الأسطورية تنزع عن نفسها هذه الهالة الأسطورية وتجلس لتناول الطعام مثل أى إنسان من لحم ودم :

" وأعدوا لسيّدى لذريق طعامًا شهيًا " (١٠١٧)

لقد أعدوا له طعامًا ممتازًا دعا إليه كونت برشلونة الرجل الذى رسمت الملحمة ملامحه قبل ذلك :

" ركب الغرور الكونت فردّ مزهوًا :" (٩٦٠)

ولما كان الكونت متألمًا لهزيمته وأسْره على يد السيّد رفض تناول الطعام فيهدده السيد بطول أمد الأسر إذا لم يذعن ، كما يعرض عليه - من حين لآخر - إطلاق سراحه :

وقال السيّد :" كلْ ، كلْ طعامك . تناول شيئًا ،

فإذا بقيت ممتنعًا فلن يتاح لك أبدًا أن ترى وجوهًا مسيحية! (١٠٣٣)

والعمل الشعرى هنا هو أيضًا سيرة يتم سردها ، كما أن أسلوبه قريب من النثر فالحميمية والبساطة الشديدة فى التعبير لا تنضويان تحت لواء أبيات موزونة ومقفّاة ، كما أن الأبيات التى من هذا النوع تتطلب إدخال الحقائق العارية التى لا يمكن الإمساك بها ، وهنا لم نكن لنُفْلِحَ فى قولبتها من خلال اللغة الدّارجة ، فكلمة **poema** بالمعنى الذى نستخرجه لها من كتب البلاغة لا تناسب أبدًا هذه الملحمة التى هى " حدث وحكاية " لا تدخل فى آفاق التاريخ الأدبى ، إنها نوع أُطْلِقَ عليه قنطورىّ **Centáurico** حيث تتداخل تجربة الماهية الشعرية وتجربة الحياة الفعلية ، أو التى

يعيشها المستمع أو القارئ ، وعلينا هنا أن نقارن بين وصف شخصية شارلمان وبين ما جاء فى السطور التالية :

فهمز السيد فرسه واقترب من الباب

ثم انتزع قدمه من المهماز ، وركله بخبطة قوية

ولكن الباب لم ينفتح لأنه كان محكم الإغلاق . (٣٧ - ٣٩)

وهذه الأبيات لا يمكن أن نطلق عليها وصف العروض التقليدى regular والعروض غير المنتظم irregular، فإذا ما أطلقنا الصفة الثانية فمعناه أن من الممكن أن تتبع قاعدة معينة ، وهذا أمر غير وارد، وإذا ما كان بيت الشعر غير موزون فالخلاصة أن القصيدة لا تخضع لأى قاعدة كما أنها تتقولب حسب الحاجة الداخلية لكيانها ولاشىء أكثر ، كما أن الدّندنة التى ترافق الإنشاد وعدم انتظام القوافى يهيئان الحد الأدنى من المَسْرحة حتى يكون هناك فارق بين حكاية عادية وهذه " الوقائع " المهمة التى تعالج موضوعات على درجة عالية من الأهمية ، حيث كان الجمهور يتابع الخطوط العامة لها وينتظر الاستماع إليها بعد أن تمّ تطريزها ونقشها ، إلا أن ذلك الجمهور يعرف جيداً أن المُنْشِد لن يتعمق كثيراً إذ يمكن أن تزّل قدمه ، أما " البرجوازيون والبرجوازيات " الذين يقفون ويطلّون من نوافذ بيوتهم فى برغش إلى مشهد دخول البطل المنفى ، فهم ينتظرون أن تحكى " أحداثهم " بعد ذلك ، ويريد الجمهور رؤية بطله وهو شديد القرب منه فعملية التأمل فى حد ذاتها لا تعنيه فى شىء لأن عليه أن يكون هكذا ؛ " كانت هناك طفلة تبلغ التاسعة من العمر " تقدم للسيّد رسالة الجيران ، كما نرى فى الملحمة أطفالاً من نفس المرحلة العمرية وهن يصحبن هؤلاء الذين يستمعون إلى المنشد ، وإذا ما كان على هذا الأخير أن يقول إن " الطفلة ذات الأعوام التسعة عادت إلى منزلها " بعد أن انتهى من الإنشاد ، فلابد أن يقول ذلك باستخدام مفردات الحياة اليومية ودون اللجوء إلى الأبحر الشعرية والإيقاع والأبيات ذات الشطرين والقوافى ، فعودة الطفلات إلى منازلهن كانت أمراً عادياً ليس فى حاجة إلى التكلف ، ويتواكب مع تلقائية التعبير شىء من التوتر التعبيرى أيضاً وهنا ليس من المناسب أن نطلق عليه أنه وزن شاذ أو غير منتظم [٥٩] .

وهنا ندرك السرّ فى أن الشعر الملحمى الإسبانى كان تاريخيًا ، فلقد اقترب الموضوع من الواقع الفعلى بنفس الدرجة التى يقترب فيها بيت الشعر من النثر ، كما أن الأسطورة المهيبة تدخل فى تلاحم مع الخبرة المحددة التى يعيشها أحد أبناء الجيران ، كان من الضرورى أن تكون الملاحم تاريخية ، بمعنى ألا تتجاوز الأفق القريب للمستمعين ، وذلك للتعايش بين الحافز والالهم اللذين يجعلانها أمرًا ممكنًا [٦٠] أما القصيدة الفرنسية فقد وُجِّهتْ إلى المستمعين من علٍ أى من القمّة الملكية ، ثم مرّت عبر مصالح رهبانية ، وهذا كله يتجاوز نمط الحياة البسيطة ، وفيما يتعلق بالعناصر الجوهرية فى التاريخ الفرنسى فقد ظلت فى طريقها من أعلى إلى أسفل ، وإثارة الهمّة على قرض الشعر تأتى من البلاط فى باريس (لنتذكر هنا ما حدث للشاعر كونون دى بيتون Conon de Bethune حيث ضحكت وصيفات الملكة عندما سمعنه يتحدث بلهجة إقليمية) أو عند كبار الإقطاعيين (مثل ماريا دى شمبانيا وشيريتان دى توديس) أو من الأديرة الكبرى (أغانى الأحداث) أو من الجامعات والمدارس (النثر الأكاديمى والشعر اللاتينى ورجال الدين) ، إلا أن علْيَة القوم فى إسبانيا قد حافظت على صلابتها بالمنبع العام الذى بدأت منه ، وقد شهدناها عندما تحدثنا عن الحج إلى سانتياجو " نظام كل إسبانيا " طبقا لألفونسو السادس ، وقد انضوى تحت لواء هذه القبّة كل الناس سواء الملوك أو الشعب ، وبذلك يصبح الجميع على نفس المستوى . ولنتذكر المغزى العميق الذى تمثل فى رفض ألفونسو العالم لصفة صانع الخوارق التى كان عليها ملوك فرنسا ، وعندما تتحول المعجزة إلى محور للسياسة القومية (دون أن يتدخل فيها النقد أو سلطان الملوك) نجد أن ما هو إلهى ينضم إلى الخبرة الحياتية ويصبح فى متناول اليد ، وهنا لم يكن من الضرورى الصعود إلى السماوات عن طريق اللاهوت أو التسامى الصوفى ، إذن فالجانب الدينى بدأ الدخول فى تيار الحياة اليومية [٦١] .

وإذا ما كانت الحماية الإلهية لكل الممالك الإسبانية هى الشكل الذى يطمح إليه الشعب فإن الملوك ظلوا محتفظين بآثار الجذور التى ينتمون إليها : " الرجال القشتاليون ... حوّلوا قرية فقيرة إلى مقاطعة"، نقرأ الجملة السابقة فى قصيدة فرنان

جونثاليث ، وهى قصيدة لها دلالتها العميقة فقد كانت (حسب علمنا) ملحمتنا الوحيدة من النوع الوطنى الدينى المكتوبة بالقشتالية ، كما أن المؤلف هو أحد رهبان دير بدرو دى أرلانثا (برغش) وقد بث فيها قصيدة ترجع إلى القرن الحادى عشر كما لازال صداها باقيًا حتى اليوم فى ملحمة السيد وفى الشعر الرومانسى ، وقد أكّد الدير شهرته اعتماداً على بطل فى نفس مستوى أراضى قشتالة إذ أن الكونت فرنان جونثاليث هو مؤسس الدير ، ومن خلال النسيج الأكاديمى للملحمة نرى الإيقاع الشعبى للقصيدة الأصلية حيث يظهر السيد فرناندو وقد تجسّد فيه التفاف الشعب حوله :

أتى القشتاليون ليروا سيدهم

كان الكبار والصغار فى فرحة غامرة (١٨٥)

تحدث مع رجاله حول ما سيتفقون عليه

أراد أن يسمع الجميع وأى المواعظ سيقدمون (٢٠٢)

واتسمت القرية التى ظهر فيها السيد فرنان جونثاليث كقائد عام بتمرّدها الشديد، وكذلك الكونت الذى نعرفه :

ظل يحارب ملوك إسبانيا بشكل دائم

لم يقدّرهم فهم عنده أقل من " أبى فروة " (١٧٧)

لم تُعْلِ الملاحم الإسبانية من شأن الملك بصفته القوة المركزية ، كما لا يوجد فيها ما يتوافق مع نظيراتها الفرنسية التى تعود إلى عصر شارلمان ، ومن ملامح الملاحم الإسبانية أن الأبطال العظام كانوا إما من معارضى الملوك أو ضحايا معاملتهم غير العادلة : فهناك برناردو دل كاربيو ، وفرنان جونثاليث ، والسيّد كما أن الطبقة الشعبية تشجع على مثل هذا النوع من الإبداعات الفنية وبالتالى لابد أن تبقى فى إطارها ، ويرى هؤلاء الذين يقدمون للمُنْشد أجره فى صورة نبيذ وأموال - بمن فيهم من ليسوا

من هذه الطبقة – أن بطل الملحمة يعنى إعلاء وتقديرًا لنهجهم فى الحياة وتجسيدًا لأبطال مرّ عليهم الزمان لكن من الممكن الوصول إليهم ، أضف إلى ذلك أن كلا من فرنان جونثاليث ، وبرناردو ، والسيد تعتبر نماذج للمبالغة الشعبية ، ومن هنا ندرك السرّ فى ظهور أمراء كاريّون (الأرستقراطيون الخُلّص) فى صورة شديدة السّلبية فهم جبناء لابد أن يلقوا جزاءهم على نذالتهم .

وإذا ما كان تاريخ إسبانيا (التى نستطيع الوصول إليها خلال العصور الوسطى) قد قام على أسس هى وجود الحُمَاةِ الذين نعرفهم من خلال المفاهيم الدينية واللغة والأدب ، فإنه يحمل فى طيّاته سيطرة الأنماط الشعبية ، وهى " استبدادية " تعطى للتعبير عما هو إنسانى آفاقًا خارجية ، غير أنها تعنى عدم الالتزام بشكل راديكالى أو الالتزام بالكاد ، ومعنى هذا هو القطيعة بين القيمة الموضوعية لنظام معين (وقد تجسّد فى مبادئ وأشخاص معترف بتفوقهم) وبين الفرد الذى يخضع لها ، وبذلك تقلل من بواعثه العاجلة والآنية ، وإذا لم يحدث الأمر على هذا النحو وشعرنا أن المبدأ العلوىّ هو ملكنا وبوسعنا التحكّم فيه وكان أحد مكوّنات وعينا حينئذ نرى القواعد والوعى الفردى وقد تلاحما بطريقة " قنطورية " ، وفى هذا المقام سوف ينحو الفرد إلى السيطرة على القواعد من الداخل وهى نفس الفكرة التى تحدثنا عنها بشأن بعض الألفاظ مثل أصبح وأمسى ، ويؤدى التكامل والتلاحم الحميم بين ما هو موضوعى وبين المشاعر الفردية أن يجذب الفرد نحوه الـ " هُوَ " الموضوعى ويحاول السيطرة عليه ، كما أنه يقوم بذلك الفعل . أما البطل (أى الرجل الأكثر تفوقًا) فلا يمكن له أن يكون كذلك إلا إذا شعر " ابن الجيران " أنه قد انضم إليه أو شاركه فى هذا التفوق ، وهنا ندرك السرّ فى قيام قشتالة " بصنع رجالها وهدمهم " وأن الشخصية الملحمية هى من صفوف الشعب وأن مسرح أغانى الأحداث به الكثير من العناصر التاريخية ، أى أنه يتأقلم مع ما يعرفه الناس ويدركونه ، فهؤلاء المستمعون لم يعنوا بجغرافية معينة وأحداث متخيلة على طريقة ملحمة رولان وبالتالى لا يجدى معهم هذا النوع الأخير ، وهانحن ندرك الآن السبب الذى دفع مُنشِد ملحمة السيد أن يخصص مائة وثلاثين بيتًا للقصة الحقيقية للسيد (أى الحصار الطويل والمرير الذى تعرضت له بلنسية والاستيلاء

على جيريكا Jérica وأوندا Onda والمينار وبوريّانا Burriana وموربيدو Murviedo وبنيا كاديلا P. Cadiella) ، كما يخصص أربعمائة وخمسين بيتا للحديث عن الاستيلاء على موقعين على الحدود ليست لها أهمية كبيرة وهما كاستيخون وألكوثير وكذلك الحال عن الرحيل عنهما (٦٢) فما كان المنشد معنيًا به ليس " السيد " الموضوعى بل السيد الذى يتصوره والذى حارب حول مدينة سالم حيث كان يعيش (الشاعر) ويكتب هذه القصيدة ، وللأسباب نفسها نجد أن قصيدة نبلاء لارا أخذت تغيّر فى طبعاتها المختلفة خط الحدود مع المور حتى يزداد المستمعون شوقا لمتابعة وقائعها وكأنها أحداث تقع فى وقتهم الرّاهن (٦٣) فالإبداع الأدبى لابد أن يكون فى إطار الاقتراب من الفرد .

وقد حاول بعض المستشرقين العثور على نماذج عربية تسبق الملحمة القشتالية ، غير أنهم فشلوا فى ذلك ، فالملحمة القشتالية ليست مشرقية الموضوع ، وإذا ما نظرنا إليها كنوع من أنواع السّرد ذات الخصوصية نجدها ترتبط بالتراث الفرنجى الجرمانى وقد ألمح مننديث بيدال إلى العديد من السّمات الأسلوبية التى توضح أن المنشدين وضعوا نصب أعينهم الملاحم فى شمال فرنسا ، كما أن الملاحم الإسبانية لا تقلّد الشعر العربى الذى لم يبدأ تحوّله إلى نموذج يحتذى إلا خلال القرن الرابع عشر وتتضمن ملحمة السيد العديد من المفردات ذات الأصل الفرنسى ، كما أن المفردات العربية التى توجد فيها (سواء المباشرة أو القنطورية) ليست قاصرة عليها ، وهنا نجد أن الأمر الجوهرى هو الشكل الذى يعيش به المُنْشد موضوعه ويرتفع به من الناحية العاطفية من خلال أسلوب اتسم خلال القرن الثانى عشر بالرّقى والبلاغة ، كما كان فى الوقت ذاته فى متناول الجميع .

نرى أمامنا إذن نوعًا أدبيًا يجمع بين الإيقاعات الشعرية والنثرية ، فنرى البطل فى صورته البطولية وفى حياته الحميمة فالسيّد فى الملحمة " هز كتفيه وحرّك رأسه " بنوع من التعالى ، وبعد ذلك يجبر الأسد على الإذعان والتذلل ، كما نراه فى البلاط الملكى فى كامل أبّهته ، ونراه وهو يخادع وكأنه محترف فى هذا الفن حيث يتمكن من خداع اثنين من اليهود اللّذين وثقًا بكلمة شرف منه ، كما نراه مالكًا لبعض الطواحين

وقد ارتدى زىّ البرجوازى المتواضع ، ونستطيع معرفة مظهره الخارجى من خلال الملابس التى يرتديها " نعل من نوع جيد " أى من النوع الممتاز " وقميص من قماش الرشّان " العربى وحليته من الذهب والفضة ومئزر من الحرير الموشّى بالذهب ... وحتى لا يلمس أحد لحيته التى كانت رمزًا للرجولة نجده وقد ربطها بخيط (الأبيات من ٣٠٨٥ إلى ٣٠٩٧) ويشير المنشد فى عجالة سريعة إلى كيانه الحميم :

لأى سبب مزقتما شغاف قلبى (٣٢٦٠)

هنا نجد السيّد وهو ينهر الأميرين الغادرين الخائنين لأنهما ألهبا ابنتيه بالسياط وتركاهما فى غابة تعج بالوحوش الضارية : أى جعلاه يكشف عن مكنون صدره ، ويتم إنقاذ الابنتين على يد ابن العمّ فليث مونيوث ، وهما الآن تشعران بعطش شديد فتطلبان ماء ، ولكن كيف يمكن أن يأتى لهما بالماء ؟ فهما لا تستطيعان السير إلى حيث يوجد الماء " وبقبعة كان يحملها فيليث مونيوث / جديدة ولامعة أتى بها من بلنسية / اغترف من الماء ما استطاع ، وقدمه لبنتى عمه / كانتا منهكتين ، تحاملتا كثيرًا لتشربا من الماء {٢٨٠٠} ؛ وفى مشهد آخر يظهر آثور جونثاليث شقيق أميرْى كاريّون (يأتى وقد علا الاحمرار وجهه فقد تناول غداءه) وينعت السيّد بأحطّ الألفاظ فى البلاط الذى سوف يحكم فى قضية الذين أهانوا البطل ، فيصفه معنيا بشكل يزيد عن الحد بالطواحين التى يملكها على شاطئ نهر وأوبيرنا Ubierna :

فليذهب إلى نهر أوبييرنا يعمل فى طواحينه !

وليقبض ثمن عرقه حفنات من دقيق ، وهو ما يدفعونه هناك !

(٣٣٧٩ - ٣٣٨٠)

وقد تأكد مننديث بيدال من خلال دراساته أن السيد كان يملك بعض الطواحين إلى جوار ذلك النهر ، نحن إذن خارج الإطار الشعرى وخارج دائرة السّرد غير الواقعى وأمام وقائع محددة تدخل كجزء من سرد الأسطورة الملحمية : قبعة جديدة اشتراها من بلنسية ، وشخصية تاريخية قد احمرّ خدّاها بعد تناول طعام الغداء وبطل

فى صورة مالك بعض الطواحين ، إذ كان يملكها بالفعل ...الخ. السيّد إذن هو الرجل المتميّز الذى تناقل الناس بطولاته قبل كتابتها ، وهو المادة الخام والوجه الآخر للصورة الشعرية ، وليس لهذا النوع من القرض الشعرى مثيل فى أدب الغرب ولا يتوافق مع باقى الأدب الأوربى أو العربى الذى يتسم بكثرة الصور البلاغية وابتعاده عن الفكرة التاريخية – الوطنية ، فالشخصيات فى الأدب العربى تذوب فى دائرة الحدث الذى يتم سرده وتتحول إلى تعبيرات استعارية أو مواعظ أخلاقية ، لكنها لا تتجسد أبداً بالمقارنة مع شخصيات أخرى أو من خلال الجوّ المحيط بها ، فالأشخاص والأشياء ليس لها حضور محدد ، وأن نشعر بحضور شخصية فهذا معناه الشعور كحاضر وليس كتيار من خلال تسلسل الأحداث . والأدب العربى ليس فيه شخصيات قصصية أو درامية ، فالحضور البارز لا يدخل فى الإطار الإسلامى ، وهناك العديد من الأعمال السردية التى تتناول الحياة فى مسارها ، وكذلك سير ذاتية رائعة لكن لا توجد شخصيات لها ملامحها المحددة وتدير حواراً مع شخصيات أخرى مثلها ، وهنا علينا الحديث عن تلك الأمور التى لا يمكن أن تكون مشرقية فى ملحمة السيّد ، ورغم ذلك فسوف نتحدث عنها بإسهاب عند الحديث عن خوان رويث ، فليس تأثيراً مشرقيًا قيام الشخصيات بحمل أرواحها على أكفّها ، يقول ذلك النموذج الكامل للتابع " أنا ياسيّدى لا أريد الدخول فى صراع مع ألفونسو {٥٣٨} كما أن مشهد البلاط الذى يرأس فيه الملك مجلس الفصل فى القضية القائمة بين السيّد والأميرين اللذين أهاناه ، لا يتعدى كونه مشهداً سرديًا ، فالأحداث تدور من خلال الحوار ويعبر كل واحد منهما عما يريد باستخدام ضمير المتكلم ويبرز شخصيته ويضع لها ملامحه المتّجسّدة وكأنها تماثيل مليئة بالحياة والحيوية تتحدث عن نفسها :

حينئذ حاول بدرو برموديث أن يتحدث

فخانه لسانه ، وضاعت على شفتيه الكلمات ،

لكنه عندما بدأ ، ليكن معلومًا ، اندفع بلا توقف :

" سيدا!.. أعترف بأن لك عادة فريدة

في مجالس البلاط كم من مرة دعوتني بيرمودو!

وأنت تعرف أنني في مثل هذه الحالات لا أستطيع شيئًا "(٣٣٠٦ - ٣٣١٠)

هانحن نرى بيدو برموديث المتلعثم ، فقبل أن يدلي بشهادته لصالح السيد ، ذكّر سيده وصديقه بطريقة مرحة بعادته السيئة حيث كان يناديه بيدو مودو {بيدرو أبكم} Pero Mudo، إذ ينعقد لسانه عند الحديث على الملأ ، ورغم ذلك نجده يتحدث بطلاقة بعد أن ينطق بالجملة الأولى ، ولنا أن نتخيل ابتسامة هذا الحشد المهيب حيث يُلقى الأعداء بكل ثقلهم أما الأصدقاء فيسرفون في المديح والثناء وعندما يتواجه الخصمان أمام المحكمة :

فكل واحد منهما يحاول الدفاع عن نفسه (٣٦١٤)

لا يمكن أن نجد في الأدب العربي شيئًا كهذا ، الأمر يدفعنا للسؤال عمّا تدين به الملحمة للأدب العربي ، وهنا نقول إنها تدين له بما لا يدخل في الشكل والأسلوب الأدبيين السائدين في أوربا الغربية، فالقيمة التي يلصقها المنشد والجمهور للسيّد (أو إلى رولان) سابقة على سرد مآثره كما يُنتظر منه القيام بها لكونه " تابعًا جيدًا " ولد في ساعة حظ وتمنطق بالسيف في لحظة مواتية وهو غير قادر على " الخيانة " ... الخ. ولم تؤد شخصيته مثل المنصور بن أبي عامر إلى تأليف قصيدة ملحمية وهذا يرجع إلى التركيبة العقلية والخيالية الإسلامية ، فالشخصيات الأكثر شهرة في الأدب العربي (السندباد البحري أو علي بابا) تذوب في دهاليز مغامراتها الأسطورية ، ومع هذا فإذا ما كان المفهوم الأساسي لشخصية السيّد غربيّ الجذور كنسيج إنساني يوجد بشكل موضوعي ويتصرف بالشكل الذي هيأه له الربّ فإننا نجد الأسلوب الأدبي لحياته يخرج من منظور الآداب الأوربية الأخرى خلال القرن الثاني عشر حيث كان من المستحيل حدوث اتصال بين السيّد – كشخصية أدبية – والسيد كشخصية تاريخية مرئية وملموسة وإحدى مكوّنات الخبرة الذاتية لكل من المُنشد والجمهور ، يمكن أن يكون كل واحد من هذين السيّدين أوربيًا أو مسيحيًا ولكن بشكل منفصل ، إلا أن جمعهما في وحدة لا تنفصم عُراها غير ممكن إلا في مجتمع مسيحي ومستعرب في

الوقت ذاته ، ولما كنت حريصًا على الوضوح التام أكرّر أن السيّد بصفته شخصية بعيدة وموضوعية من خلال الأسطورة (مثله فى هذا مثل رولان فى أى قصيدة ملحمية) هو بالنسبة للسيد الذى تم رسم ملامحه كشخص من لحم ودم ، يربط لحيته ويكشف عن شغاف قلبه ..الخ ، بمثابة العلاقة الحميمة بين المطر والشخص فى جملة me llueve (تمطرنى) التى تضرب بجذورها فى اللغة العربية ، كما أن الجمع بين ما هو رفيع وما هو شعبى أمر غير متصور إلا من خلال ميول تم تعلمها من خلال المعايشة الطويلة مع المسلمين ، يبدأ بيدو برموديث كلمته فى البلاط الملكى ، حيث يتم تقرير مصير السيد ومن معه ، والبداية سرد إحدى الطرائف الشخصية المتعلقة بمزحة قالها السيّد تعليقًا على تلعثمه ، وقد شهدنا قبل ذلك هذه الوحدة من خلال الجمع بين البلاط المهيب لهارون الرشيد وما تحدث به إليه أحد جلسائه بشأن كوب الماء وقضاء الخليفة لحاجته الفسيولوجية (٦٤) .

ومن اعتادوا قراءة الأدب العربى لا يشعرون بالمفاجأة لهذا حيث من الممكن أن يعيش المرء صباحه ويشربه ، وهذا هو المفتاح الذى يساعدنا على فهم أسلوب الملحمة فهو مثل غيره من الأساليب الفنية وقد أضاف إليه الجوّ المحيط به وملأ جنباته بالوضوح ، أما فى ملحمة رولان فنجد أن الشروق يتسم بالموضوعية " حتى طلع النهار" { ١٦٢ } لكنه فى ملحمة السيد شروق أتى به صياح الديكة " وصاحت الديكة للمرة الثانية فأسرعوا يُسْرجون. " {٢٣٥} ، إننا نشهد هنا عملية تحقق الظاهرة وبنفس الشكل الذى نرى الفجر ينبلج نشهد تنامى الهمّة القتالية فى صدر السيد : إذ يتحدث البطل إلى السيدة خيمينا قائلاً " إن قلبى ينبض لأنك أمامى " {١٦٥٥} ، ويدور الأسلوب على نفس النمط ومن نافلة القول إذن سوق المزيد من الأمثلة فأى قارئ يمكن له أن يفعل ذلك بمفرده ، وغنى عن القول الإشارة إلى أن باقى الملاحم الإسبانية تسير على نفس النهج وهنا نذكر مقطعًا صغيراً من ملحمة رونثبسبايّس التى تعتبر النسخة القشتالية لملحمة رولان الفرنسية ، حيث نرى شارلمان يتأمل جسد أوليفيروس .

" لم يرَ فيه إلا كَمْ من المال يكفى ...

أمر الإمبراطور الطيب برفع الرأس

وإزالة التراب عنها والدماء .

وعندما رأى الإمبراطور الجثث " شعر بالألم والكدر " {٢٨٨٠} ، أما النسخة الإسبانية " رونثيسبايّس " ففيها أنه صاح متألما " قلبى يريد أن ينخلع منّى من شدة حقدكم " وعندما يصاب الإمبراطور بالإغماء يقوم فرسانه بإلقاء الماء على وجه الإمبراطور " .

وقد كتب المسعودى (المولود فى بغداد) عملاً موسوعيًا خلال القرن العاشر يعبر فيه بوضوح عن الرؤية الإسلامية للعالم ، حيث يشير إلى أن الأخبار تأسر سمع العالم والجاهل ويسعد كل من الإنسان قليل الذكاء والألمعى لتفاصيلها ويطلبها ، فالأخبار تضم كافة الموضوعات .... كما أن تفوقها على كافة العلوم أمر بديهى ويوليها كبار العلماء الأهمية الكبرى . وصدق العلماء حين قالوا إن الكتاب خير صديق .... فهو يقدم لك فى الوقت نفسه البداية والنهاية فى كثيرها وقليلها ، ويجمع بين البعيد وما هو قريب منك ، وبين الماضى والحاضر ، ويؤلف بين الأنماط شديدة التنوّع والأصناف شديدة الاختلاف ، فهاهو الميت يتحدث إليك باسم الأموات ويجعل المرء قادرًا على فهم لغة الأحياء ، إنه شخص حميم يسعد بسعادتك وينام على أحلامك ويحدثك عما يروق لك (٦٥) .

يشير المسعودى إلى ما هو إلهى وما هو إنسانى من منظور حياته هو : الجغرافيا والتاريخ الاجتماعى والسياسى والمعتقدات واللغات ، وفيما يتعلق بالفيلة يروى لنا طُرْفة عن بغلة تابعة لحاجب الخليفة المنصور ، تخاف من هذه الحيوانات ، وقص عليه ذلك الشخص أنه مرّ ذات يوم ، فى بغداد ، ببوابة المقنطر Arcadas ، فوجد عدداً من الفيلة مهيأة لنقل واحد من علِية القوم ، ويسهب فى تفاصيل الحكاية ، فأصاب البغلة الهلع وماجت بعض الإبل التى كانا تسير بالقرب من المكان ودخلوا فى حارة وانحشرت

البغلة بين الإبل " وكأنها عاشت طيلة حياتها محوطة بالإبل " ...الخ {الجزء الثالث صـ ٢٧ } . والى جانب هذه الطرائف نجد تاريخ العالم القديم والعالم المعاصر وقد وَضُحا أمامنا بكل التفاصيل المثيرة ، فهو يعرف أن جليقية هى أمة قوية وقريبة الحدود مع الفرنجة ، وهى أمة بلغت من القوة لدرجة أن الفرنجة يخشون الدخول فى حرب معها فأبناؤها أكثر جلداً فى الحرب {الجزء الثالث صـ ٧٢} ، ومن الواضح – فى نظره– أن الحرب بين المسلمين والمسيحيين أسفرت عن انتصار إسلامى حتى الوقت الحاضر ، وطبقا لرواية المسعودى فحاكم جليقية هو راميرو الثانى {أى خلال الفترة من ٩٣٠ إلى ٩٩٠م }. ولست أقصد هنا تحليل كتاب من السهل العثور عليه بل الهدف هو التنبيه إلى هذا الخلط من الموضوعات وإلى طبيعة الكتاب الذى يتسم أسلوبه بالفخامة والرصانة ، وتضمن الحديث عن العقيدة وسرد بعض الطرائف التى لا تجد لها مكانًا فى الأدب الغربى إلا فى دائرة الأساطير ، (٦٦) ؛ إذن لا توجد مسافات فاصلة بين المادة والروح ، ويجتمع الطرفان من خلال الخبرة الذاتية وتعلو قيمتها، إلا أن حياة الفرد تصبح وحدة ثابتة لا تتغير ولا ترسم طريقها من خلال ما يتخذ من قرارات بإرادتها ومن خلال المعارف التى تحصلها من خلال تجاربها أو من خلال تصاريف الدهر إذ لا يمكن تأليف رواية أو مسرحية ، فالرجل المسلم غارق فى هذا العالم ولا يصنع وجوده ولا يقف فى وجه القدر فهو يضم إجمالى العالم الخارجى المحيط به فى دائرة التعبير عن حياته ، وهى حياة شديدة الثراء ومن المستحيل أن نجد لها مثيلاً فى العالم الغربى ، وإذا ما كانت المحسّات ترتبط بالفرد بالشكل الذى رأيناه فهذا يعنى أن ليست هناك موضوعية مطلقة فالواقع نجده يطفو على صفحة خيال السرْد أو نراه أحد مكوّنات الخبرة الغنائية أو الذاتية للفرد ، وغالبًا ما كانت العلوم البحتة عند العرب تعبيراً عن الحاجات الشخصية والآنية ، إذ نجد أن الجغرافيا وعلم الفلك يرجعان فى الأساس إلى ضرورة البحث عن الوجهة الصحيحة للقبلة (٦٧) ، ويبدو أن التنظير المحض لم يحظ إلا بالقليل من الاهتمام بين المسلمين حتى وهم فى أزهى عصورهم ثقافيًا ، ومن المستحيل أن توجد العلوم البحتة دون النظرية الحقيقية أيا كان حجم التطبيقات العملية لتلك العلوم التى يبتكرها من هو قادر على الانعزال بالكامل عن

العالم المحيط به، والمأساة الكبرى التى يعيشها الإنسان (وهى اليوم أكثر حدة عن أى وقت مضى) تكمن فى الخيار المأساوى بين رفض الذات والتجرّد من الإنسانية أو رفض التوصل إلى حل للمشاكل التى تطرحها الحياة فى طريق الفكر الإنسانى ولقد فضل المسلم هذا الخيار الثانى ورفض المعرفة ، أما الإسبانى فقد عاش ولم يحسم أمره بين الخيارين وله أنه يفضل الحل الأوّل بوضوح ، ورغم هذا فهو يشعر بالكدر لأنه يسير ببطء فى طريق الخيار الثانى .

وبفضل هذا الصراع بين الخيارين واعتمالهما فى داخل نفس إسبانيا نجدها وقد تحرّرت من الركون الكامل القائم على ما هو إسلامى ، كما أن وجود عالمين متضادين هيأ لهما القيام بتقديم قمم رفيعة فى ميدان الفن والحياة ، ومن الواضح أن طبيعة علومها وفكرها تشبه بعض الشيء ما تحدثنا عنه فى الفقرة السابقة ، فقد ارتبطت المعرفة بدرجة ما بالمشاكل العملية ، وبدرجة أقل بالمشاكل النظرية ، فهناك الحرب والسير فى البحر والعمارة والتعدين والفقه القانونى والطب والأخلاق ونشر الدين ...الخ ، ورغم ازدهار الثقافة الفلسفية بين المسلمين واليهود الإسبان لم تظهر بينهم نظريات أو أسس فلسفية تتسم بالأصالة الكاملة ، ويحدث نفس الشيء عند الدول المتحدثة بالإسبانية حيث نجد اشتقاقات رائعة لفكر الدول الأخرى وخاصة تلك التى لها علاقة بمشاكل الحياة اليومية والسلوكية ، وإذا ما كان لنا العثور على فلسفة عظيمة فى العالم المتحدث بالإسبانية فهذا هو مسارها ، وهو غالب على مسار العلوم الفيزيقية – الرياضية ، وفى حقيقة الأمر نلاحظ أن بعض المفكّرين المعاصرين – اليوم – مثل أورثيجا أى جاسيت وأونامونو ولويس بليس يذكروننا بابن رشد وابن حزم وابن خلدون أكثر من تذكيرنا بأرسطوا وديكارت وكانط .

وهناك ملاحظات قيمة لمننديث بيلايو(يزيفها له هؤلاء الذين يريدون أن يجعلوا منه وثنًا لا يخدم فى شيء) يتحدث فيها عن ابن طفيل وعن " المثالية الواقعية حيث تنقذ الشخصية الإنسانية نفسها من خلال الضمير لكنها تغرق فى مآزق المنطق ... وهذا الشعور المتأصّل للأنا هو الذى ينقذ ابن طفيل ... من الهزال التأملى الحادّ ...إذ

تسقط كل السفسطة ضد الحضارة العربية بالشكل الذى ازدهرت فيه على أرضنا أمام عمل كهذا " ، وعندما ينظر إلى قضية الكونية النفسية Ontopsi Cologismo التى نجدها فى فكر ابن باجه وابن طفيل ، وفوكس مورثيللو، وجراثيان يقول بيلايو " يظن المرء أن هناك بعض القوانين التى لم تكتشف بعد لكنها سوف تُعْرفَ فى يوم من الأيام، غير أن هذه القوانين تتحكم فى الحبكة التاريخية للفلسفة عندنا " (٦٨) .

والمشكلة التى يتحدث عنها بيلايو (بدرجة كبيرة أو صغيرة) ليست قاصرة على البعد الفلسفى بل تؤثر على إجمالى تاريخ إسبانيا ، وقد وصلنا إليها انطلاقًا من ملحمة السيد .

الموروث والحاضر :

إذا ما كان الإنسان يريد أن يتعايش مع المحسوسات وأن يتواءم ما هو روحى مع ما هو مادى والرّفيع مع الوضيع والمهم مع قليل الشأن والبعيد مع القريب فمن السهل أن نفهم زوال ما بين الماضى والحاضر ، ولقد تحدثنا قبل ذلك عن معنى الأرض أى ما كنا نطلق عليه " الثقافة الأرضية " Culto Tel?rico وصلات ذلك بالمفهوم الإسلامى للحياة ، ويرى المسعودى أن هناك عالمًا عربيًا يؤكد أن الله خلق البلاد وألهم أهلها حب الأرض التى ولدوا عليها ، كما تولى كل من ابيقراط Hipocrates و جالينو Galeno وأفلاطون الشرح الفسيولوجى للروابط (المخدرات والهواء والغذاء) التى تربط الإنسان بالأرض التى ولد عليها ، غير أن المسعودى يبدى كبير اهتمام بالشروح الفيزيقية أكبر من حب المرء للأرض التى ولد عليها فهذا موضوع تم شرحه فى كتبه عن سرّ الحياة وطب النفوس ، ذلك أن القوة الحميمة والهواء يبلغان بالإنسان مبلغًا يجعله يضحى بوجوده مقابل العودة إلى وطنه {الجزء الثالث صـ ١٣٤ - ١٣٧} (٦٩) ؛ ولن نقول إن هذه السمّة عامة وإنسانية فهذا لا يكفى الآن لكن الأهم هو كيفية معالجة المسعودى للموضوع ، ويتولى أحد الموريسيكين (بعد سبعة قرون) دراسة الأمر أيضًا ، فالتاريخ لا يتكوّن من مقولات موروثة نجدها فيما ينطقه الناس بل ما تقدمه لنا

من معانٍ فى إطار السياق الوجودى له ، فالأرض معناها هنا ميتا فيزيقا مجسدّة ، أو ماضى وحاضر مادى يتداخل معه الماضى والحاضر الروّحى للتاريخ ، وقد عاشت إسبانيا (خلافًا لما عليه الحال فى أوربا الغربية) تحت سقف معتقد معين وارتبطت بأرض كانت تعنى الهوى والتراث (٧٠) .

ولقد كان الحاضر فى إسبانيا هو وجه الماضى الحىّ دائمًا والماثل فى مخزون المعتقدات والتراث التاريخى الشعرى ، كما أن تجديد الموضوعات الملحمية كان يزود تلك المعتقدات بالحيوية الدائمة فلقد انبثق الرومانث من أناشيد البطولة وألهم بدوره المسرح الإسبانى خلال القرن السابع عشر ، ولازالت له فاعلية لتغذية خيالات بعض الكُتّاب الرومانسيين ؛إذن فالرغبة العنيدة فى البقاء هى إحدى ملامح الأدب الإسبانى وهو جانب جوهرى فى نمط الحياة لهذا الشعب ، وقد تحدثنا قبل ذلك عن المسعودى وعن أفكاره بشأن التاريخ (٧١) وعن أنه علم يتجاوز العلوم الأخرى ورأينا أن ذلك المفهوم يرتبط بانتمائه إلى الأرض ، وإذا ما كنا نتلقى ماديًا ما تجود به الأرض فالتراث هو الأرض الروحية التى تجود علينا " بأقوال العلماء " ، وتتلخص مهمة التاريخ " فى الحديث عن أفضالها وقدراتها " فالحياة تعود إلى الماضى ، فما مضى هو الأساس لكل علم ، ويكفى ما نعثر عليه فوق أرض مثالية أو مادية ، وبالتالى فالإنسان ليس هو المُنطَلَقَ بل محطة الوصول .

أناشيد البطولة بالنسبة لعالم ومؤرخ ضليع (مثل ألفونسو العالم) جديرة بالتصديق مثل السيرة التى كتبها السيد/ رودريجو خيمنث دى رادا **R. J de Rada** فإذا لم يكن هناك حائط يفصل بين الشعر والواقع فى نظر المُنْشِدين فإن المؤرخين لم يميزوا بين الأسطورة الشعرية والتاريخ الموثّق (٧٢) ولقد كانت الملاحم ثم الرومانث المجرى الذى سار فيه التراث التاريخى للشعب وهو الموروث الذى تتناقله الأجيال وتضيف إليه ، إذن فالتراث والاعتقاد يشكلان بهذه الطريقة الأفق الذى يوحّد الحياة الإسبانية غير المترابطة والتى تحتاج إلى شىء ملموس وحاضر يقوم بدور المركز الذى يدور حول كل شىء ، وقد كانت قشتالة بحاجة إلى عاصمة دائمة إذ أن بلاطها كان

يتنقل من مدينة إلى أخرى ، كما ينقصها الإحساس بوجود أسرة قومية ، فإسبانيا المسيحية مقسّمة إلى " ملوك طوائف " بالفعل (قشتالة ونابارة وأرغن) وهى ممالك كثيرا ما تدخل فى صراعات مع بعضها البعض مثلما كان عليه الحال فى ملوك وطوائف الأندلس خلال القرن الحادى عشر ، ورغم ذلك فالجميع يشعرون بأنهم جزء من إسبانيا ، كما أن أرشيف بلاط قشتالة لم يتم الاحتفاظ به فى أى مكان ، إلا أن التراث الشفهى أبقى لنا ذكريات الأحداث العظام والمخاطر العامة التى حاقت بالجميع، ولازال الشعب (حتى القرن السابع عشر) يحتفظ فى ذاكرته بمعارف ومعلومات مثيرة عن تاريخه رغم أنه لم يتعلمها من الكتب أو فى المدرسة ، فالشّاطر جوثمان دى ألفاراتشى كان يقص على أحد سادته - إلطالى - جزءًا كبيرًا من تاريخ وطنه ، وعندما سأله أين تعلم كل هذا فأجاب " ما حدثتك عنه هو أمر يعرفه الجميع وتتناقله الألسنة ، ومن الضرورى أن تكون لدى المرء القدرة على نسيانها ، فهذه أمور معروفة رغم أنها تتعلق بأحداث مضت ، ورغم ذلك فهى ليست أقل أهمية من تلك التى تحدث الآن كما أنها ثابتة وواضحة مثل روما ونابولى " (٧٣) وفى معرض مدح جوثمان لإسبانيا نجده على اقتناع بأن وطنه هو أفضل وطن وهو أكبر بلاد الدنيا " ولا يعلوه أى بلد فهو فى القمةّ " ، ثم يستعرض الملاحم الإسبانية منذ العصر الرومانى إلى اليوم الذى يعيش فيه ، ونلاحظ أنه يبتعد عن ذكر الأشياء ، أى لا شىء يأخذ الطبيعة المجرّدة والموضوعية (مثل المدن والاكتشافات والإبداعات ... الخ) إذ يقتصر على عرض اعتقاده فى عظمة إسبانيا بطريقة دوجماطيقية (عماد الكنيسة المدافعة عن الدين والناشرة لرايته) وأخذ يذكر أسماء خالدة ، فالعيش بالنسبة للشعب هو التعبدّ فى محراب السماء والتراث التليد والأرض التى كانت نوعًا آخر من التراث ، ولم تخطط إسبانيا لوجودها وهى تضع فى اعتبارها إنجازات مادية فى المستقبل بل كانت تنظر إلى الخلود أو إلى الشهرة التى يخبو أراءها ، لقد كان العيش بمثابة الإحساس بالسيرّ فى إطار التراث الذى أصدر حكمه مسبقًا على ما سيكون عليه الإنسان . " حياتنا هى النهر الذى يأخذ اتجاهه ليصب فى البحر " ، وقد جاءت لحظة شعر فيها الشعب - وهو فى خضم الروحية الإسلامية - اليهودية أنه قد آن الأوان

وأن الملوك الكاثوليك يمثلون تجسيداً لكل الأحلام والتحرر من كل قيد وطغيان (٧٤) ، ولم تتأخر الصحوة كثيراً رغم أنه قد ظهر فى الوقت نفسه أضخم سراب رجعىّ فى التاريخ الحديث ، وكما كان نمط الحياة يدخل فى إطار التراث من جانب وفى إطار الأمل الروحى من جانب آخر (وهما ملمحان مشرقيان جوهريان) نجد أنه عندما فشل الإطار الثانى لم يكن هناك مناص إلا العودة إلى الأول ، ومن هنا نشأ ما أطلق عليه أحياناً " الإيقاع التراجعى " لتاريخ إسبانيا ، ومن هذه الزاوية ندرك السّر فى محاولة إسبانيا العودة من نفس الطريق الذى سارت فيه إلى الأمام أى بتذكّر زمن الملوك الكاثوليك .

ورغم ضخامة الإمبراطورية الإسبانية التى كانت تُحْسد عليها ويخشى بأسها حتى القرن الثامن عشر فقد اعتادت إسبانيا الحنين إلى عصر فرناندو وإيزابيل ، إذ تعتبره عصراً فريداً ، وهنا يجب أن نقوم (فى عجالة سريعة) بمقارنة هذه الحالة النفسية بما حدث لروما الإمبراطورية التى كانت تحن كثيراً إلى قرون العصر الجمهورى المجيد ، والفارق هو أن روما كانت تفكر فى مؤسسة أما فى إسبانيا فالأمر يرتبط بما فعله شخصان ، وكان السبب الرئيسى فى حرب الطوائف Guerra de las Comunidades (١٥٢٠ – ١٥٢١) المطالبة بإقرار الوضع الذى عليه الشعب فى ظل الملوك الكاثوليك وخاصة ما يتعلق ببند الضرائب ، ولم يتمكن كارلوس الخامس من ملء المكانة الرفيعة التى عليها أجداده ، ولم يشأ أحد من الناس العودة إلى عهده الملكى أما فيليب الثانى فقد كان أعداؤه أكثر من أنصاره ، وقد كتب ثربانتس عدة أبيات فيها سخرية مُرّة من ذلك العهد ، ولم يكن يستغرب أن يترك البلاد وهى غارقة فى ذُل الحاجة " ذلك أنه كان يخفى كنوزه فى السماء " ، أما كيبيدو فقد أشار إليه بطريقة غير مباشرة ووصفه بشكل غير مباشر بعدم الكفاءة عسكريًا " كان عظيماً جداً ومهيباً عندما يتعلق الأمر بأسرار الدولة وليس عندما يصاحب القوات والشعب " ، وكان كيبيدو يعرف مثل باقى الناس أن الملك قال فى معركة سان كينثين S. Quintin إنه لا يفهم كيف كان والده يعجب بتلك الأمور ، ثم يختتم الكاتب تصويره الدقيق لجسد الملك الرصين وروحه بهذه الجملة الحادة والقاطعة " لقد كان خوفه مكلّفًا ونادراً ما عرف

مجابهة هذه المخاوف " [٧٥] ، كما نتذكر ذلك الراهب (من جماعة الكرمل) الذى رأى أن من الطبيعى بقاء فيليب الثانى وقتًا طويلاً فى المَطْهر ومع ذلك فقد خرج منه بعد عدة أيام بفضل القديسة تيريسًا .

وعلى أية حال فعندما يتأزّم الموقف بالنسبة لإسبانيا تعود بناظريها إلى الملوك الكاثوليك وليس إلى كارلوس الخامس أو فيليب الثانى ، ويرى كيبيدو أن الملك فرناندو " عرف كيف يكون ملكًا وعلّم الآخرين هذا الدّرس " [٧٦] وفى عهده كانت القيمة الفعلية للعُمْلة المتداولة تساوى قيمتها الاسمية [٧٧] ؛ ويضيف بلتسار جراثيان إلى أفكار كيبيدو بقوله : " من الممكن أن نصنع مائة ملك من الملك فرناندو الكاثوليكى ويتبقى منه الكثير لصنع عدد آخر " {الناقد اللوذعى ١٦٥٧م} ، وقد استخدم تصويرًا مشابهًا لذلك فى كتابه {السياسى لعام ١٦٤٠م} إذ يقول : " أضع ملكًا واحدًا مقابل كل من مرّوا وأقترح ملكًا لكل من سيأتى : إنه الملك فرناندو الكاثوليكى ذلك المايسترو العظيم فى فن المُلْك وحجر الزاوية فى أسرار الدولة " ، كما وردت عنه عبارات إطراء مشابهة فى كتابه البطل {١٦٣٧م} .

ولا يجب أن ننظر إلى هذه المدائح على أنها من عصر الباروّك ، فهى تظهر من جديد فى كتاب " رسائل مغربية " {١٧٩٣م} لخوسيه كادالسو الذى كنا ننتظر منه موقفًا تقدميًا فى لحظات كان العلم والعقل يغذيان الثقة فى التقدم والكمال بلا حدود ، ونلاحظ أن كادالسو يرجع بناظريه إلى كارلوس الثالث وجهوده الجبّارة فى تحديث إسبانيا إذ يعتقد ببساطة :

> "إن الملكيـة الإسبـانيـة لم تشعـر أبدًا برضًـا داخلى ولم تشعر بأنها تحـظى باحترام من الخارج مثلما كانـت تشعر به بعد وفـاة فـرناندو الـكاثوليكى (١٥١٦م). ولـننظر هنا كـيف أن الأحـداث العظيمـة التى تشكل جـماع هذه الـسياسة الرائعـة فقدت اليوم قوتها وحيويتهـا، وعليها أن تعيد لها الحيوية، ومن هنا سـوف تكون لدينا ملكيـة تقف على قـدم المسـاواة مع التى وجدتها العائلة النمساوية"

وما يهدف إليه كادالسو هو إعادة عقارب الساعة إلى الوراء والجمع بين الروحانية الرّجعية للإسبان والثقافة المجرّدة والعلمية خلال القرن الثامن عشر ، ويتحدث السيد / دييجو كليمنتين بنفس درجة الثقة ، وهو أحد جهابذة العلم (توفى عام ١٨٣٤م) " لو كانت القرون الماضية قد سارت على نفس المسار الذى أوضحته إيزابيل وعضدت أهدافها باللجوء إلى التجربة والعلم لكانت إسبانيا قد ملكت القوة البحرية التى لإنجلترا " (٧٨) .

وبهذه الطريقة نجد أن التراث والروحية يتكاملان فى الواقع الشخصى للّذين يعيشونهما ، إذ كان السيد دييجو كليمنتين يؤمن بإيزابيل الكاثوليكية بنفس الدرجة التى يؤمن بها مُنشِد ملحمة السيّد ببطله، ويفترض كلاهما أنه " السيد الطيب " ولو كان للسيّد " سيد طيب " وكان الملوك الكاثوليك خلفاء طيبين .. إن التاريخ والواقع بهذه الطريقة يتحولان إلى مساحة فى إطار حلم حيث تقوم الإرادة برسم أرابيسك جميل فوقها .

الهوامش

(١) ألح هنا على أننى لا أهدف إلى وضع عرض شامل للموضوعات والنقاط التى تم تقليد الحضارة الإسلامية فيها ، فقُدُراتى ضعيفة فى الموضوعات العربية ، أضف إلى ذلك أننى سوف أركز البحث فى أنماط الحياة وليس فى استقصاء الأحداث والوقائع ، وتطاردنى الفكرة القائلة بوجود أمثلة أخرى عديدة .

(٢) Melchor de Santa Cruz " Floresta general , 1574-N0 174 : حيث يتحدث ابن عربى عن أحد أساتذته فى التصوف ويصفه بأنه قوى القلب ضعيف البنية وشاحب اللون وقاس على نفسه وإذا ما سأله أحد التلطّف معها يشير إليه بأن الطريقة الوحيدة لذلك هو عقابها ، كما كان ينهض من فراشه ليسهر بعض الليل ويظل يصلّى حتى تخور قواه (أسين بلاثيوس : حياة المتصوفة الأندلسيين صـ ١٠٣) . كما أن اللغة الإسبانية تتضمن جملا مثل " ملعونة نفسك هذه " ، " تتبدّى نفس المرء من خلال شكل جسده " ولما لم تكن هذه التعبيرات موجودة فى باقى اللغات خارج شبه جزيرة أيبيريا فمن البديهى ربطها بالأدب الصوفى ، ومن المؤكد أن دارس الآداب العربية سوف يجد التعبيرات المماثلة لها فى اللغة العربية .

(٣) Cf خوسيه أورتيجا إى جاسيت فى " الحيوية والنفس والروح " الأعمال الكاملة صـ ٩٨٤ وما بعدها – انظر أيضا فرانثيسكو روميرو " فلسفة الشخص " بوينوس أيرس ١٩٤٤م .

(٤) من المعروف أن هذا النوع من الصراع فكرة قديمة وقد كان مصدر المهم للمتصوّفة على مدى العصور . كما تحدث الأدب عن هذه الظاهرة منذ زمن هوميروس (الأوديسا ، العشرون ، فى البداية) إلا أن ما يميز الشكل الإسبانى للحياة لا يكمن فى المعرفة أو الإشارة إلى هذه الفكرة الشائعة وإنما شعور المرء بأنه ليس أمامه مخرج من هذه التركيبة التى خلقتها هذه الثنائية .

(٥) RFH, III (1940) pp. G ss

(٦) مكتبة المؤلفين الإسبان – الثالث عشر – صـ ٥٠٥ أ ، ويصنف أنطونيو بيديث تلك المقولة للدوق " لأنها (اللغة الدارجة) أقرب إلى الروح والفهم من لغة الفن .

(٧) " A tropa amanhecera na formatura de batalha. Amanheceste hoje, Deus se anoiteceras (véase Fernandes, Diccionario de verbos e regimes, Rfo de Janeiro, 1941)

(٨) ZRPb, LVI (1936), pp. 641 - 643.

(٩) انظر الدراسة الصرفية لكلمة mesturar وporidad فى الملحق رقم ٥

(١٠) الشقندى : " فضائل الأندلس وأهلها " - دار الكتاب الجديد (سلسلة رسائل ونصوص - ٥) القاهرة صـ ١٩٦٨- قدم له د./ صلاح الدين المنجد .

(١١) G. Meloni, "Alcuni studi sul tempo presso I semeti" en Saggi di Filologia Semitica, Roma, 1913, p. 132.

(١٢) فيما يتعلق بالمراجع المتعلقة بهذا الموضوع فى اللغات الرومانثية انظر J. Huber, Altportugiesisches Elementabuch, 1933, párrago 364; E. B. Williams, From Latin to Portuguese, 1938, pp. 179 y ss.

(١٣) انظر : " Grurides " de Gröber, I, 1904, p. 1204 " وكذلك المراجع المذكورة ، وهناك فقرات تتناول " اكتشاف أمريكا وغزو غينيا " كتبها جومش إيانش دى أزورارا (القرن الخامس عشر) وهى فقرات تجعلنا نشعر بالبعد الوجودى الكامن فى صيغة " المصدر " البرتغالية .

(١٤) " القديسة تيريسا ومقالات أخرى " ١٩٢٩ ، صـ ١١

(١٥) " الشعر والواقع من خلال ملحمة السيّد " نشر فى "Tierra Firma" مدريد ١٩٣٥ الأول - صـ ٢٢

(١٦) Rhi, LXXX (1930) p. 372

(١٧) يمكن أن نقرأ مقال فوسلير " Realismus in der spanischen Dichtung der Blütezeit " فى " بعض ملامح الحضارة الإسبانية " (١٩٤٢) .

(١٨) Geoffroi de Vinsau, "Documentum de arte versificandi" en E Faral, Les arts poétiques, p. 283.

(١٩) " التاريخ العام " صـ ٦٨٦. من المعروف أن مراكز بالنسيا Palencia التى أنشأها ألفونسو العالم هى السابقة الأولى على إقامة جامعة سلمنقة .

(٢٠) فعلى سبيل المثال نجد البعض فى انجلترا يؤمن بالأشباح كما أن الفلاحين يعتبرون القمل شيئًا جيدًا ..الخ وهذا ما يمكن أن نجده فى الكلمة التى ألقاها وزير الصحة أمام البرلمان (نيويورك تايمز - ١٩٤٣/٩/٢١).

(٢١) يروى Joinville أنه بينما كان على وشك الاستسلام لسفن سلطان مصر هو ومن معه أشار عليه أحد صغار أتباعه بألا يفعل ذلك وأن يحاربه فإن مات فالمآل هو الجنة (تاريخ سان لويس طبعة ن. ويليامرن صـ ٣١٩) ؛ إذ مازال هذا الرجل الذى ينسب للطبقة البسيطة يؤمن بمزايا الجهاد ، غير أن من كانوا يديرون دفة الأمور فى فرنسا لم يكونوا غارقين فى المعتقدات القديمة وكانوا يضعونها فى حجمها باستخدام العقل .

(٢٢) هى كلمة ذات أصل إسلامى حسبما نرى فيما بعد

(٢٣) عندما يهرب الإسبانى من الجو المحيط به ويبدأ تغيير أفكاره فى الخارج أو من خلال قراءة الكتب الأجنبية عندئذ يمكن أن يصل إلى أن يكون فيلسوفًا أو رجل علم أو تقنية رغم احتفاظه بطبيعته الإسبانية .

(٢٤) " حياة المتصوفة الأندلسيين – ترجمة أسين بلاثيوس صـ ٤٦

(٢٥) انظر صحيح البخارى من خلال الترجمة الفرنسية التى قدمها كل من O. Houdas ومارسيه صـ ٧٢ – باريس ١٩٠٣م .

(٢٦) " الأخلاق والسيد " اللجنة الدولية لترجمة الروائع – بيروت ١٩١٦ صـ ٦٧ وترجمة أسين بلاثيوس إلى الإسبانية – مدريد ١٩١٦ – صـ ١١٥

(٢٧) أترجم ذلك عن الطبعة القطلانية لـ " إيفاست وبلانكيرنا " برشلونة – ٩٣٥م

(٢٨) انظر : إدواردو دى إينوخوسا " المكوِّن الجرمانى فى القانون الأسبانى

(٢٩) بينما سانشوماير – ملك نابارّة – يعيش أزهى عصوره (١٠٢٩م) نجده يعترف بالدرجة الإمبراطورية للملك ليون الشاب / برمودو الثالث (انظر رامون منندیث بیدال : إسبانيا فى عصر السيِّد صـ ١١٨ وأعتقد أن السبب الكامن وراء هذا اللقب العظيم هو سانتياجو ، ومن خلال النص الذى أورده بيدال يلاحظ أن الملك سانشو لا يطلق على برمودو لقب إمبراطور ليون بل إمبراطور جليقية.

(٣٠) انظر رامون منندیث بیدال " إسبانيا فى عصر السيد " صـ ١٠٢

(٣١) أثناء حرب غرناطة كان يتم البحث عن جنود من ذوى القدرة على الجَلَد ، ويوجه أحد الأشراف/ دييجو دى باليرا نصائحه للملك الكاثوليكى (فرناندو) بأن يجلب أفضل الجنود وأكثرهم قدرة على التحمل من بيثكايا وجيبوثكوا وأستورياس (الرسائل : Bibliofilos Esp. – السادس عشر – صـ ٥٦) وهنا يظهر اسم الباسك فى المقدمة .

(٣٢) بيدال " إسبانيا فى عصر السيد " صـ ٧٩ – يتحدث المؤلف عن المساندة السياسية للكونت القشتالى .

(٣٣) التاريخ العام – صـ ٤٥٣

(٣٤) دوزى " أبحاث فى تاريخ إسبانيا وآدابها – الجزء الأول (١٨٨١م) صـ ٢٠٣

(٣٥) المقرّى سيرة النبى محمد .

(٣٦) نؤكد على أن ذلك هو مفتاح الواقعية الإسبانية . وعندما نقوم بتحليل كتاب " الأجيال والشخصيات " لفرنان بيريث دى جوثمان نجد أن المؤرخ فوتير E. Fueterيقول بأن أدب السيَر فى إيطاليا ليس به كتاب يناظر هذا الكتاب ولا يوجد كتاب يضارع الكتاب المذكور فى رسم الملامح النفسية والمعرفة الدقيقة بالعالم والاستقلال فى الرأى والواقعية التعبيرية (تاريخ السيَر الحديث صـ ١١٢) ، ومن هذا المعين ينبثق الأسلوب العظيم لـ ف. لوبث دى جمارا ، وقد استطاع رامون إيجليسياس أن يجعلنا نشعر به من خلال كتابه " كتاب السيَر والمؤرخون فى العالم الجديد – ١٩٤٢ .

(٣٧) انظر الملحق السادس " أسماء الأشخاص وتحولها لتكون علماً على الأماكن.

(٣٨) بيدال " شعر المنشدين " صـ ٣٢٢ - ٣٢٤- أسطورة أميرا لارا - ١٩٣٤م صـ ٤٥٨ .

(٣٩) يجب هنا أن نقوم بتوضيح : لو كانت قشتالة قد تمكنت من الجمع بين الطاقة الإبداعية والاهتمام بالأمور الدنيوية فى إطار منظومة من المبادئ الموضوعية .. لكان مصيرها مثل شمال فرنسا ولتحوّل ملوكها إلى خبراء فى علاج داء البقعة ، لكن هذا الركن الصغير اقتصرت حياته على مواصلة العيش والتوسع لأسباب بديهية فى نظر القارئ ، وبعد ذلك انخرطت قشتالة فى دائرة المعتقدات الدينية - السياسية لكل من ليون وجاليقية وتم إقامة مملكة بقيادة فرنانيو الأول (١٠٣٨ - ١٠٦٥م)، وكان سانتياجو يهيمن على المقاطعة القديمة وبفضله تم غزو كويمبرا كما رأينا . أما بالنسبة لقطالونيا فقد كانت فى حاجة إلى تلك الدفعة التى توفّرت للقشتالى ولم تتمكن من وضع مسار مناسب لتوجهاتها الدنيوية ..ولم تتوسع قشتالة نحو الشرق خلال القرنين العاشر والحادى عشر .فمن سخريات القدر أن الإسبانى المسيحى كان يعتبر ما يتلقاه من خلال سانتياجو بأنه أوربى ، كما أسهمت الأعمال الضرورية التى يقوم بها المسلمون واليهود فى إضفاء مزيد من الغرابة على الحياة الإسبانية . وسوف نتحدث عن ذلك فيما بعد .

(٤٠) " مهمتنا هى الدفاع عن المسيحية أما مهمتكم فهى الحصول على العون الربّانى " انظر هنرى بيرن : محمد وشارلمان (١٩٣٩م) صـ ٢٣٠

(٤١) وعندما يريد خوان خينيس دى سيبولبيدا الحديث عن المفكرين الإسبان والعلماء خلال العصور الوسطى يقتصر على القول بأن أبرز الأسماء فى ميدان الفلسفة هى : ابن رشد وابن باجة أما فى الفلك فنجد الملك ألفونسو (حول الأسباب الحقّة للحرب ضد الهنود - المكسيك عام ١٩٤١م صـ ١٠١

(٤٢) " Gradualismus " en Deutsche Vierteljahrschrift für Literaturwissenschaft, 1924, II, pp. 681 - 720.

(٤٣) Summa contra gentiles, II, cap. 54 (Müller, p. 694).

(٤٤) G. Grünwald, Geschichte der Gottesbeweise صـ ٣٠ فخلال الفترة بين القرنين العاشر والحادى عشر ظهرت فى أوربا أزمة بين الحياة الدنيوية بخبراتها القائمة على أحكام العقل وبين النظام اللاهوتى ، فأخذ الناس يتحدثون خلال القرن العاشر عن دلائل وجود الله ولم تكن هذه مشكلة منذ ظهور القديس أغسطين ، أى قبل تلك الفترة بخمسمائة عام ، وتحولت هذه المحاولات الضعيفة التى ظهرت خلال القرن العاشر إلى الأسس الكبرى التى قامت عليها المفاهيم اللاهوتية التى طرحها القديس أنسلمو والقديس أبيلاردو خلال القرن الحادى عشر (نفس المصدر - صـ ٢٦) ، وقد أخذ الصراع بين فلاسفة الواقعية وفلاسفة مذاهب الاسمية منحى مشابها ، فأمام الاعتقاد فى واقع المفاهيم العامة التى تساعد على التوصل إلى الحقيقة الإلهية دون جهد كبير ، نجد أن مذهب الاسمية يطرح منهجا إدراكيا (cognoscitivo) طويل الخطوات ومشكوكا فيه ، ويقوم هذا التوجه على التجربة المُحسّة ، والفردية ، بالأشياء وقد كان بيدينجر دى تور أحد أنصار مذهب الاسمية (توفى ١٠٨٨م) فقد رأى أنه لا يمكن الوصول إلى حقيقة القربان المقدس دون إحداث تغيير فى شكل المادة التى يتكون منها ، ومن هنا كانت مقولتهم " لقد تخلّيت عن السلطة المقدسة

ولجأت إلى الجدلية " ، كما كان هناك عطيل دى إيميران (المتوفى ١٠٧٠م) الذى اعترف بأنه شك فى حقيقة الإنجيل وكذلك فى وجود الله ، لكنه تاب بعد ذلك ، ومن هنا تم منع الرهبان من ممارسة العلوم على اعتبار أنهــا خطر Grundriss der Geschichte der Philosophie, II, p. 186 "Uberwg Heinze,

وإضافة إلى ذلك نلاحظ حالة من المقاومة لقبول صدق وجود رأس يوحنا المعمدان وكذلك بعض المخلّفات المقدسة الأخرى ، وبذلك نرى بوضوح كيف ظهرت خلال القرن الحادى عشر البذور الأولى التى أسهمت على المدى الطويل فى تغيير النظام السائد فى العصور الوسطى . وقد تمخضت الفلسفة الاسمية عن ظهور فلسفة Ockam (القرن الرابع عشر) وهو مذهب يرى أنه عندما يستحيل التوصل إلى معرفة الله من خلال العقل فمن المستحيل وجود اللاهوت .

(٤٥) أدى استخدام اللغة المحكيّة فى كل واحدة من البلدان الرومانسية كوسيلة التعبير عن المشاعر إلى إحداث شرخ فى المفاهيم الروحية التقليدية حتى ولو كانت الموضوعات المطروحة دينية . ولست فى معرض الحديث عن ذلك فى هذا السياق .

(٤٦) استمرت اللاتينية وسيلة للتعبير عن الفكر حتى القرن الثامن عشر ، وبعد ذلك وجدنا أعمالاً أدبية ذات قيمة كبيرة مكتوبة بهذه اللغة

(٤٧) تظهر فى روسيا السوفيتية الآن بعض الصحف بلغات لم تكن مُدَوّنة قبل ذلك ، وهذا لأسباب سياسية واضحة .

(٤٨) انظر : بيدال " الشعر الشعبى " صـ ٣٤٢

(٤٩) انظـر : " Die Geschichtsmetaphysik des Rolandsliedes und ihre Vorgeschichte "ZRPb, LV (1935) pp. 1 - 87.

(٥٠) الأبيات ١١٥٢ – ١١٥٧

(٥١) ملحمة السيد – طبعة ز. بيدال " الكلاسيكيون القشتاليون " عام ١٩٢٩ صـ ٥٨

(٥٢) A. M. Goichon La distinction de l'essence et de l'existence d'après ibn Sina (Avicenne), Paris, 1937, p. 249.

(٥٣) انظر أيضا الملحق الثامن " nuevas novas، novella"

(٥٤) انظر فى المقام الأول بيدال " Cantar" صـ ٤٨٦ ، ٤٩٦

(٥٥) الجزء الثالث صـ ٣٣٣ – ولقد كان المسعودى يعرف أن ذلك الاعتقاد لم يكن قاصراً على العرب إذ أشار إلى أن ذلك لو ظهر بين الفرنجة أو غيرهم من أمم الغرب فمن المحتمل أنهم أخذوه من جيرانهم عرب الأندلس التى هى جزء من الأرض الكبرى . ولنقل إن تعبير " الأرض الكبرى " هذا هو الأساس فى مصطلح Ter Major فى ملحمة رولان (صـ ٥٣ ، ٧١) .

(٥٦) فيما يتعلق بعلامات الترقيم وفهم هذا البيت نحويًا انظر أمادو ألونسو فى R FH – السادس – ١٩٤٤م صـ ١٨٦ .

(٥٧) ليكن معلومًا منذ هذه اللحظة أن ثربانتس أودع فى هذا النمط الحياتى أبرز ما أبدعه ، فلقد كان دون كيخوته محصلة عدد من الكتب قرأها ألونسو كيخانو ، ثم ظهر وقد تحوّل بطريقة سحرية إلى فارس جوّال دون أن تكون فيه ملامح للفصل بين الواقع والخيال ، كما أن دون كيخوته فى الجزء الثانى من الرواية عبارة عن صورة أسطورية – إنسانية للشخصية التى جرى الحديث عنها فى الجزء الأول ، كما أن الشخصيات تأتى إلينا من قصص سابقة ثم تعود للدخول فيها ، ومثال ذلك الفرس الجوال للشريف ألونسو كيخاتو الذى يعود بعد للالتحام به ، أى أن وجود دون كيخوته له نفس الشكل " النمطى " الذى عثرنا عليه عندما كنا نتحدث عن كلمة " حديث " . أما الواقع الذى يتأمله دون كيخوته فيتذبذب أسطوريًا بين عمليات الظهور المتعدّدة التى يبدعها السَّحرة ، عباقرة المشرق ، ومن نافلة القول الإشارة إلى أن كتاب ثربانتس يتضمن جوانب وقيما من المستحيل العثور عليها فى المشرق ، لكننى اليوم أعتقد أن الحياة الإسلامية المسيحية أحدثت تأثيرها فى ذلك العمل أكثر من تأثير الأيراسمية ..

(٥٨) ولقد اتخذ أدب إيطاليا كلمة novela وصدرت روايات لا تعبر عن النسيج المعقد لمعنى الكلمة . أما أدب قشتالة فقد فعل ذلك منذ البداية ذلك أن الحياة فى هذه المنطقة كانت كذلك .

(٥٩) رغم أن الجملة قد تتسم بالبساطة فى التركيب إلا أنها ليست كذلك من الناحية الفنية فالصورة المرسومة تتمثل فى وقع وقوة ما يقوم به السيد من قرع الباب باستخدام قدمه بينما هناك صوت واهن لطفلة تقف خلف الباب ترجوه أن يرحل وإلا فإن أسرتها سوف تفقد كل ماديها " بما فى ذلك البصر " وهذه القصيدة لم تكن تعرف الكثير عن الاستعارة ولم يكن أمامها إلا التكرار كوسيلة للتعبير الشعرى ، ويحكى المنشد أنه قد جاء رسول الملك تُرافقه مجموعة حراسة لغرض التهديد ، وقد حمل معه رسالة تحمل ختم الملك ، الأمر الذى يجعلها ذات أهمية كبيرة ، وتكمن الجمالية الأسلوبية هنا فى أن ما قام المنشد بسرده يتكرر على لسان صوت أنثوى لم يتعد تسع سنوات ، ومن هنا كان جمال الجملة التى لا تعتبر بيت شعر Esto la nina dijo e tornos pora su casa. (...) ومن المعروف أن مصادر الملاحم الشعبية نجدها فى التراث المحكى وهذه المصادر ترتبط بنمطية حياة لها ظروفها الصعبة (....).

(٦٠) ربما كان علينا أن نغير المفهوم الغامض لكلمة popular ونطرح مكانه أفكارًا أكثر ارتباطًا بالشيء الذى نحاول التعبير عنه .

(٦١) لا أعرف تعبيرات مثل ?Hablarle a Dios de t" تحدّث إلى الله بأنت " أو " nos ha veni- do Dios a ver] أتى الله إلينا ليرانا [فى اللغات الغربية .

(٦٢) بيدال " ملحمة السيد " – صـ ٢٩

(٦٣) لقد برهن منديث بيدال فى الطبعة الجديدة لـ " أسطورة أميرا لارا (١٩٣٤) على أن الرحلة المأساوية التى هلك فيها الأمراء السبعة تقوم على أساس واقعة حدثت خلال شهر سبتمبر لعام ٩٧٤م (صـ ٤٥٨) .

(٦٤) ولما كان من المهم للغاية البرهنة على أن هذه التناقضات لم تكن كذلك عند الروح الإسلامية وأنها ليست مجرد إحدى الطرائف الشعبية ، فإننى سوف أذكر بالأسلوب الذى اتبعه ابن حزم فى كتابه " الفِصَل فى الملل والأهواء والنحل " والذى قام أسين بلاثيوس بترجمته إلى الإسبانية ، ومن المعروف أن ذلك العمل هو الأول من هذا النوع والأكثر غرابة ، وهو أنه كُتب خلال القرن الحادى عشر بينما لم يكن ذلك ممكنًا فى أوربا المسيحية ، وهنا نجد ابن حزم كعالم ورجل دين على اطلاع واسع بالأديان السائدة فى عصره يقوم بتحليلها تفصيليًا من خلال النصوص . ولهذا العالم مؤلف مهم هو الذى ذكرناه وهو يضم فقرات فى هذا الموضـوع وردت فى الجـزء الثـانى {صـ ٢٥٥ ، ٢٩٣ ، ٣٢٧ ،، طبقًا لترجمة أسين بلاثيوس} وكذا فى صـ ٦١ { الجزء الثالث طبقا للترجمة المذكورة } .

(٦٥) مروج الذهب –الجزء الثالث صـ ١٣٤ – ١٣٨ {الطبعة الفرنسية – باللغتين}.

(٦٦) حاول شاعر ذات يوم أن يتحدث لأحد ملوك العراق ، لكن الحاجب لم يجرؤ على مقاطعة العاهل ، وهنا قال له الشاعر بأن ينقل رسالته إلى خالد وهو أحد علية القوم الذين دُعُوا إلى الحفل المقام ، ولحسن الحظ وجد خالد نفسه مجبرًا على الخروج من الحفل لقضاء حاجته فَأُبلِغ بالحالة (الجزء الثالث صـ ٢٠٢

(٦٧) "Their books remind one of good secondary or university text books. The Arabs were traders, travellers, and lawyers; they had the positive mind; their science therefore had a practical object; arithmetic had to serve the needs of commerce and the divisions of states; astronomy the requirements of travellers and those who cross the desert, or of religion which has to know the hours of prayer, the azimuth of Mecca and the moment of the first appearance of the month of Ramadan" (Bar? Carra de Vaux, en the Legacy of Islam, ed. Por sir Th. Arnold, 1931, pp. 378 - 379). ويمكننا أن نستثنى من كل ذلك كلا من البطانى وعمر الخيام، اللذين وصلا بالرياضيات، فى القرنين العاشر والحادى عشر إلى مناطق لم يصل إليها اليونانيون (صـ ٣٩٢) ، غير أن الفرس يحتلون مكانة خاصة فى الحضارة الإسلامية ويشير Carra de Vaux فى ختام دراسته أنه لم يتمكن من فهم تدهور القدرة العلمية للمسلمين ، ونعتقد أن المشكلة ترتبط بظروف الحياة الإسلامية وبالعلاقة التى تربطها بالحياة فى الغرب ، ونشير إلى الأمر فى عبارات بسيطة قائلين إن الفردية المطلقة للإسلام والهيمنة المطلقة أيضًا للعقيدة أجهزا على تلك الحضارة خنقًا .

(٦٨) مقدمة الترجمة الخاصة بابن طفيل " الفيلسوف ابن طفيل " لـ F. Pons Boigues عام ١٩٠٠م صـ ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٤

(٦٩) ويقول ريكوتى Ricote نفس الشيء وهو شخصية موريسكية تظهر فى الجزء الثانى لرواية دون كيخوته (الثانى صـ ٥٤) " إنها أكبر رغبة لدينا وهى العودة إلى إسبانيا ، وأغلب من هم مثلى أى الذين يجيدون اللغة يريدون العودة ويتركون نساءهم وأبناءهم بلا عائل : (...) كما أننى أعرف وأعيش ما يقال عادة وهو " كم أن حب الوطن جميل "

(٧٠) الميول والعادات توجد فى كل مكان وكذلك الأمر بالنسبة للمعتقدات ، لكن ما يحدث هو أن فرنسا – على سبيل المثال – أقامت وجودها فى العصور الوسطى على الاستمرارية الإنسانية والزمنية، أى السلالة الملكية ، أو أنها قَوْلبت مفاهيمها الدينية على أساس الرغبة فى الربح والرخاء (ولهذا قدم الكثيرون لزيارة ضريح سانتياجو ولممارسة الأعمال التجارية ..) كما فعلت إنجلترا شيئًا آخر فى هذا المقام عندما أحلت المفاهيم الإيمانية محل رهبنة الرهبان ، كما قامت قبل ذلك بإضفاء قيمة سياسية على الثروة .. ولقد استخدمت العادات فى هذه الدولة وتلك وغيرها من البلدان الأخرى طبقًا للمصالح التى تحتمها اللحظة الراهنة وليس العكس .

(٧١) فيما يتعلق بالنص الذى نتحدث عنه (الجزء الثالث صـ ١٣٥) نجد أن الكلمة المستخدمة هى " أخبار " ومفردها خبر بمعنى الحكاية أو القصة [معجم لان] أو بمعنى آخر الحديث عن شىء يعرفه المرء لأنه طلب من آخر أن يقصه عليك . أما الكلمة اليونانية فتعنى : الذى يعرف ، أو القاضى الذى يصدر حكمه فى مُشادّة . فكلمة Historia تعنى ما تلقيناه عبر التراث وتعنى ما تم التثبّت منه.

(٧٢) يريد الملك العالم أن يفهمه الجميع وأن يحوّل القارئ المفهوم الأخلاقى والقانونى والتاريخى إلى واقع عملى ، فهو لم يكتب بالقشتالية وانتهى الأمر عند هذا الحد ، بل كان يقوم بتفسير كل الكلمات العلمية التى ترد فى أعماله وبذلك كتب أول قاموس إسبانى .

(٧٣) مكتبة المؤلفين الإسبان – الثالث – صـ ٣٦٩ – ٣٧٠

(٧٤) تحدثت عن ذلك فى RFH – الثانى – (١٩١٤) ص ١٤ وما يليها

(٧٥) " Grandes anales de quince dias"

(٧٦) " رسالة من الملك فرناندو الكاثوليكى (١٦٢١)

(٧٧) el chitón de las tarabillas حيث يقوم كيبيدو بإجراء الحوار على لسان العملات " يقول ريال الفضّة ... إنه كان يساوى أربعة ريالات نحاس على زمن السيد فرناندو الكاثوليكى ، لكنه فقد فى عهد الإمبراطور المعظّم كارلوس الخامس – ونظرا للحاجات أو الفوضى والتمردات – (...) فقد ريالاً وأصبح يساوى ثلاثة . وفى عهد فيليب الثانى نقص ريالاً آخر ... ثم ريالاً ثالثًا فى عصر الملك السيد فيليب الثالث وأصبح ريال الفضة يساوى ريال نحاس (يلاحظ القارئ أن المؤلف وضع لقب السيد/ أمام اسم فرناندو الكاثوليكى ، لكنه لم يضعه أمام الملوك الآخرين ما عدا فيليب الثالث ذلك أنه كان فى سُدّة الحكم آنذاك . أما صفة " المعظّم " التى ألصقت بكارلوس الخامس فقد قلل من قيمتها بالحديث عن الحاجات والفوضى والتردّدات حيث بدأت تتهاوى المزايا التى عليها الملكية التى بدأت فى نظر كيبيدو وغيره من معاصريه مع فرناندو وإيزابيل.

(٧٨) " تقريظ الملكة الكاثوليكية صـ ٣٢ . ومن الأقوال المعادة الإشارة إلى أننى لم أقصد طرح العديد من النصوص واقتصر فقط على الحديث عن تلك التى وجدتها عفو الخاطر كما أنها ذات دلالات عميقة (...) .

الفصل السابع

الفكر والمشاعر الدينية

نحن فى حاجة لتاريخ ملائم للأفكار والمشاعر الدينية الإسبانية المسيحية خلال القرون الوسطى ، لكننا لن نقوم – من خلال هذه السطور – بملء هذا الفراغ المهم ، وعمومًا فالسيد/ دومنبيكو جونديسالبو Dominico Gundisalvo (أى دومنجو جونثاليث) – رئيس الشمامسة فى شيقوبية – هو الشخصية المحورية لما أطلق عليه " مدرسة المترجمين فى طليطلة " التى أقيمت تحت إشراف رئيس الأساقفة دون رايمون [1] (١١٢٦ – ١١٥٢م) ؛ وقد كان دومنجو جونثاليث يكتب باللاتينية ما يقوم خوان اسبالنسى بترجمته من العربية J. Hispalense ومعه اليهودى/ ابن داوود ، كما كتب جونثاليث – بالإضافة إلى هذا النشاط الذى يخلو من الأصالة – أعمالاً من تأليفه حاول فيها المواءمة بين الفكر الأرسطى والأفلاطونى الجديد وبين الفكر الإسلامى، وكانت الفلسفة آنذاك تدخل فى الإطار المتوقع لها فى الحياة الإسبانية ، أى أنها خلاصة الشرق والغرب وهذا ما ستكون عليه الأنماط العليا للحضارة الأيبيرية ، ولو كان لإسبانيا المسيحية فلسفة واضحة الملامح لوردت فى الصورة التى رسمها رئيس شمامسة شيقوبية ، وهو رجل يعتبره مننديث بيلايو رجلاً أرثوذكسيًا ، وتتمثل أعماله المهمة فى :– De unitae ،De processione mundi ،De inmortalitate animae ،De visione philosophiae فالله (طبقًا لوجهة نظره) لم يخلق النفوس مباشرة بل من خلال الملائكة الذين لم يخلقوها من العدم ، بل من " المادة الروحية " وهذا المفهوم ربما قد حظى برضى أونامونو ، كما أن الروح والجسد لا يبليان من حيث الماهية ، وهما لا نهائيان " فكل جسد فى حد ذاته دائم " ، إننى لا أريد القيام بتحليل فكر

جونثاليث الذى لم يؤت ثماره فى إسبانيا بل كان له تأثير فى كل من جيرّمو دى أوبيرنا G. de Auvernia، وفى القـديس بوينابنتـورا Buenaventura، وفى ألبـرتو مـاجنــو A. Magno وبذلك يكتسب قيمـة كبرى فى علم اللاهوت فى أوربا [٢] ، وكانت هذه العقلية الفذة وحيدة خلال القرن الثالث عشر ، كما تؤكد أن إسبانيا كانت تجمع بين الممكن والمستحيل ، وسيراً على إيقاع العصر نجد أن جونثاليث كان يعمل بصفته عالم فلك وهذا هو نفس ما حدث لـ لويس بيبس خلال القرن السادس عشر .

إطلالة خاطفة على قطالونيا :

ظهرت شخصية رايمون لول (١٢٣٢؟ - ١٣١٥م) خارج قشتالة ، وقد كانت ضمن الإطار الإسلامى المسيحى للحياة الإسبانية ، ورغم هذا فموقع لول فى ذلك الإطار يتفق مع الوضع الذى كانت عليه قطالونيا آنذاك ، ولا يشعر لول بأى غضاضة فى الاعتراف بوجوه الشبه التى تجمعه بالصوفية التى يتخذها نموذجًا له :

> "وقد ذكر بلانكيرنا أنه - وهو قـدّيس رسولى - تقدم إليه أحد المشـارقة وقـال له إنه يوجد بينـهم رجال متـدينون ، وأبرز هؤلاء هم من يسـمّـون بالصوفـيين الذين يتـحـدثون بعبـارات الحب ويذكرون القـصص المختصرة التى تساعـد على مزيد من التقوى ، كـما أن عباراتهم فى حـاجة إلى تفسيـر، وعند العمل على إدراكـهـا ينهض الـفهـم وتتـضـاعف الإرادة ويزيد الورع وعندمـا نظر بلانكيـرنا إلى هـذه الأسبـاب أخـذ يؤلف كـتـابه مستخدمًا نفس هذه الطريقة" [٣]

وما يهمنا الآن هو هذه العلاقة مع الإسلام كمنهج حياة وليس نظرية لول التى تعتبر كاثوليكية وأرثوذكسية فى نظر الجميع بما فيهم الأكثر تشدداً ، كما يوجد حولها الكثير من المراجع العلمية [٤] ففى الوقت الذى كان القشتاليون يمتنعون فيه عن التقليد

الواعى والأدبى للذاتية الدينية والغنائية الإسلامية ويقاومون بذلك " الاعتراف الشخصى " نجد أن ابن جزيرة مايوركا (رامون لول) يضع نفسه على مستوى الأعداء الذين كان يحاول تنصيرهم ، ومحصلة ذلك هو أننا نجد أسلوبًا جمع فيه بين موضوعات عالية الروحانية وإشارات مادية تثير المفاجأة ، كما أن خَلْط المُستَوَيَيْن يقود إلى انطباع بالشعبية الساذجة والبعد عن كل ما يؤدى إلى الإحساس والتفكير فى عالم الواقع ، كما نجد عبارات فيها تجريدات ومجاز مثل :

"يجب تربيــة الأطفـال على اللبن وإلا فســوف يكونون نُجَلاء وفيهم حُلْبة كما سيصابون بالسّنطة والبهاق ... وسوف تخرج من كل منزل خادمة تحمل عباءة واقية من المطر وأحذية من نفس النوع لسيدتها وسيدها اللذين ذهبا إلى الكنيسة .. فرأت داخل البيت سريرين من خشب الكرم لم يكن عليهما إلا القليل من القش ، وعلى كل واحد لحاف" (٤)

لم نعثر فى قشتالة القرن الثالث عشر على شىء مثل هذا إذ كانت بعيدةً عن الشعر الغنائى وعن الصوفية وعن النثر الذى يكتب به لول ، كما نعرف أن الأنواع الأدبية المفروضة هى الشعر الملحمى والشعر الأكاديمى [الحديث عن القدّيسين والأبطال القدامى] والتاريخ وكتب المواعظ أو الكتب القانونية ، ولم تدخل الحياة الحميمة للمؤلف (سواء الحقيقى أو المتخيل) ضمن الموضوعات التى يتم التعبير عنها (٦)، أما فى قطالونيا القرن الثالث عشر فمن الممكن العثور على سيرة ذاتية مثل سيرة خايمى الفاتح J. Conquistador (1276 - 108) وهو حَمُو ألفونسو العالم ويدور النقاش حول ما إذا كان الملك قد كتبها بنفسه أو كان أحد كتّاب السّير العارف بدقائق حياة الملك ، أو أن هذا الأخير أملى عليه النص وأضاف إليه بعض الملاحظات ، لكن لا يعنينا مدى صحة هذا الكلام بل الأهم هو وجود سيرة ذاتية ووجود موضوع إنسانى له دلالة فى إطار السيرة الذاتية ، فما يتم التعبير عنه مرئى معاش على نفس القياس الخاص بميكروسكوب الوعى الذاتى ، فقد عبّر الملك أو من دوّن السيرة ، عما يعتمل

فى النفس ، واعتبره أمراً عادياً وجديراً بالذكر ، أى أن السبب هو العيش فى جو من المعتاد فيه الفضفضة والبوح للآخرين بالحياة الحميمة ، فقد قضى الملك ليلة صعبة أثناء الاستيلاء على بلنسية .

> "ذهبنا لننام ولم نشأ أن نكشف لأحد ممن كانوا معنا عن شيء مما جرى ، لكن النوم لم يداعب جفوننا رغم أن الجو كان بارداً فنحن فى شهر يناير، وكنا نتصبب عرقًا كأننا فى حمام ، ثم نمنا بعد طول تفكير وبعد أن أصابنا الإعياء من طول سُهاد ، ثم عاودنا التفكير بين الفجر ومنتصف الليل" {Ed. Aguilo, " 2874, p. 281}

وما يتم وصفه هنا ليس الوقائع التى تحدث لأحد من الناس بل ما يحدث للنفس ، فالمسافة بين هذا الأسلوب وكتاب " التاريخ العام " الذى ألفه ألفونسو العالم تتماثل مع أنماط الحياة الكائنة فى قطالونيا وفى قشتالة ، وقد صيغت السيرة الذاتية للسيد/ خايمى بنفس الإيقاع الذى تستخدم فيه القطلانية – لغة الحديث اليومية – وهى لغة نادراً ما تم استخدامها لقرض الشعر آنذاك ذلك أن أدوات التعبير بها كانت هى نفسها المستخدمة فى بروفنسا على يد المنشدين (٨) لكن ما يحول دون سقوط هذا الأسلوب وما يعطيه هذه الحيوية هو المشاعر المتعلقة بكل ذلك الذى يحدث لشخصية ملكية تعى جيداً كل تصرفاتها ، وأكرر هنا أن الموضوعية المتعلقة بالأحداث لا تعنينا كثيراً هنا بل إن المهم هو الوعى بعيشها والاهتمام بها ولهذا فإن السيد خايمى – مثل رامون لول – يدخل فى إطار التعبير عمّا هو روحىّ ومُحَسّ وعن الجمال والقبح (العرق الناجم عن العرق والمرض الجلدى الذى يصيب الأطفال) ، ويسير هذا كله فى إطار المعالجات الروحية الإسلامية التى سنتحدث عنها فيما بعد ، والتى ندين لها بالبساطة الجميلة التى عليها السيرة الذاتية للسيد خايمى ، كما ندين لها بعبق الحقول الخضراء كما أن البراءة الواثقة هى الأساس فى الانطباع بالنسبة لما هو قريب وما هو بعيد .

هانحن نرى كيف يتحاور الملك مع السيد/ برناردو جيين قبل بدء إحدى العمليات الحربية :

"فـقلنا : كـيف ؟ ألم تأخـذوا المؤن إلـى بدريانا بحـراً وأرضًا؟ ولما لـم يكـن لدينا شيء قال السيـد برناردو "عندى فى طرطوشة Tartosa ثلاثمائة كـيس من القمح من عـبوّة أرغـن Aragon وخمسـين من شحم الخنزير ، غير أنى حـصلت عليهم مقابل ١٥٠٠ sueldo قلنا : بالله علـيك يا سيـد برنـاردو إنـك لم تحسن التصـرّف فقد وثقت فيك ولهذا لـم أعِدَّ نـفـسى، كما لا يمكننى مساعدتك أو مساعـدة نفسى" ... وعندما أقبل السيد برناردو صبـاح اليوم التالى كنـا قد تدبرنا الأمر ومـاذا سنفعل ، فقلت له : الشيء الوحـيد الذى أجدنى قادراً عليـه هو الرحيل إلى بورّيانا إذا زوّدتنى بكل الدّواب المتوفـرة لديك" ... فذهب إلى هناك ، وعندما أخـذتُ أنصب خيمـتى رأيت طائر الخطّاف يعشش على الخيمة فأمرنا بأن نتركه وشأنه حتى يذهب بأفراخه إذ جاء إلينا ووثق فينا" [٩] .

والطائر هنا ليس أحد الأحداث العسكرية وليس أحد البواعث العاطفية (حب الطيور) أو الدينية، (فالشعب يحترم طائر الخطاف اعتقاداً منه أنه هو الذى اقتلع الشوك من رأس المسيح) ، وهنا نجد الطائر وقد دخل هالة الملكيّة والاحترام وحسن الضيافة وواجب السيد نحو الرّعية ، كما دخل فى دائرة الوعى التى عليها السيد خايمى بالنسبة لكل ما يتعلق بشخصه الملكى ، ومن هذه الدائرة يخرج النور الذى يجعلنا نرى أجولة القمح وشحم الخنزير وطائر الخطّاف ، إذ تتضافر هنا مجموعة من العناصر العامة (البنية الأخلاقية التى عليها مجتمع ما بشخصياته وسلّم التدرج الاجتماعى) والعناصر المتعلقة بالمشاعر الفردية : فقد كان السيد خايمى يتقلب فى سريره من الأرق وليس هو " الملك " ، والأمر هو أن السيد/ برناردو أساء التصرف

وبذلك نرى أن الأحداث التى يتم سردها لا تدخل كلها فى الهياكل الموضوعية والتعليمية ، وتلك التى تتجاور مع الإطار الفردى فهى تتلاقى جميعها فى دائرة المعايشة الذاتية لشخص معين .

ومن المؤكد أن القارئ يفكر هذه اللحظات فى سيرة الملك سان لويس والتى كتبها السيد جوان فيل Join Ville ، وهو عمل مهم من الناحية الإنسانية والفنية حيث تتداخل سيرة الملك مع السيرة الذاتية للكاتب ، إلا أن ما يهم فى هذا المقام ليس إحداث المقارنات الأدبية بل فهم خصائص أسلوب، ولهذا نأتى هنا بفقرتين إحداهما لجوان فيل والأخرى للسيد خايمى:

"وبعد مرور يومين تم إعداد المذبح وقمنا بزخرفته فى الصباح الباكر بما يوجد فى المصلى .. وخرجنا من مقر إقامتنا الملكى وتوجهنا ونحن نحمل الصلبان وأيقونة العذراء ورحلنا على أقدامنا ، ودخلنا المدينة حتى وصلنا إلى الكنيسة ، وعندما رأينا المذبح ركعنا أمامه وشعرنا بالتقوى تملأ قلوبنا بفضل الله ورحمته وبفضل ضراعة والدة الرب ... واحتضنا المذبح وبكينا بحرارة من قلوبنا وظللنا وقتًا نبكى ولا نستطيع الكف عن البكاء أو مغادرة المذبح ، ثم أدينا صلاة "روح الخالق" ، وبعد ذلك القداس Salve, Sancta parens ثم عدنا إلى القصر تغمرنا السعادة" (١٠) .

" حدث حينئذ أن ارتفعت حرارتى فجأة، فذهبت للنوم مثلما فعل الذين معى، ولم أجد طوال ذلك الوقت من يساعدنى على النهوض، ولم أكن أنتظر إلا الموت بسبب شيء كنت أسمعه جيداً: فلم يمرّ يوم إلا ويأتون فيه إلى الكنيسة بعشرين ميتًا، وعندما يدخلون بهم كنت أسمع وأنا على سريرى صلاة " خلّصنى أيها الخالق " وعندئذ بكيت وشكرت الله وقلت له " أيها الرّب تقدست فى الأعالى لقد عانيتُ الكثير من مرض أصبتنى به، أتضرع إليك يارب أن تساعدنى وترفع عنى هذا المرض. وهكذا رفع الله المرض عنّى وعمّن هم معى "(١١) .

والاختلافات بين النصين أكثر أهمية من أوجه التلاقى – البكاء وشكر الرب – إذ نرى أن جوان فيل يسيّر حياته على طريق التأمل فهو يعرف أنه معرّض للموت إذ كان

يسمع كيف كانوا يأتون إلى الكنيسة بضحايا الوباء، ثم يشرح أن الله ابتلاه بالمرض جزاءً له على ما فعل، كما أن سبب بكائه هو الهزال الجسدى والخوف من الموت، ثم تضرّع إلى الله حتى يشفيه؛ إذن نجد أن تديّن جوان فيل غنائيًا أو تعبيرًا عن المشاعر بل يقوم على فكرة نظام موضوعي ناشئ عن أن الإنسان هو من رعايا الله، ويتحدث عن الكوارث التى وقعت فى سان خوان دى أرثى والهدف هو أن يؤمن القرّاء "بالله وبقدرته على كل شيء وأنه سيساعدهم كما ساعدنى " {ص ٤٠٦} ويلاحظ أن جوان فيل يؤمن ويفكر أكثر مما يشعر، فلا تدخل الحرب المقدسة ضمن معتقداته، وعندما يقترح أمين خزائنه أن يلقى الجميع أنفسهم فى الأتون وهم على ثقة بدخولهم الجنة نجد جوان فيل يقول بصرامة : "اننا لا نعتقد ذلك {ص ٣١٩} ، وعندما يعترف الجميع نجد أن جوان فيل لا يتذكر أى إثم ارتكب: وتأملت وقلت بأننى إذا ما دافعت عن نفسى واختفيت فهذا أسوأ لى {ص ٣٥٤} ، لقد كان كبير الأشراف هذا (ابن شمبانيا) يشعر بأنه يدخل فى بنية اجتماعية ينسجم فيها ما هو إلهى وما هو بشرى ، كما عاش مغامراته وهو يفكّر فى سردها إذ يقول له كونت سويسون : علينا - سيادتك وأنا - أن نتحدث عن ذلك اليوم الذى كنت فيه فى حجرات النساء {ص ٢٤٢}.

نجد أن جوان فيل يربط كل ما يراه ويحدث له برباط موضوعي له تبريراته ، لكنه لا يُدْخله فى دائرة " اللاعقلانية " الخاصة بتجربته الذاتية ، أما السيد خايمى فتكمن أهمية ما يتحدث عنه فى معايشته ، ولا يمكن العثور فى رواية جوان فيل على طُرْفة مثل تلك الخاصة بطائر الخطاف ، فجوان فيل لم يستطع البكاء من شدة الانفعال وعكس ذلك يحدث للسيد خايمى عندما احتضن مذبح العذراء لفترة استمرت بشكل وجودى وليس موضوعياً ، أى الوقت الذى يستغرقه لسير مائة فرسخ ، وهنا نجد الملك يفصح عن أساسه الإسبانى - المحمودية والمبالغة وانكماش النظام الموضوعي بحيث يستوعبه الوجود الذاتى - ويقوم ملك أرغن بالتخطيط لحرب صليبية وكأنها موضوع يتعلق به ، فالسخاء والإقدام هما من سمات السيد خايمى ، إذ يرفض الاعتراف بأنه دافع ضرائب للبابا ، وعندما خرج العجوز من الحضرة البابوية جعل حصانه يَجْفِلُ

ويشبّ ، ويلاحظ كاتب السيرة تعليق الفرنسيين الذين رأوه " الملك ليس طاعنًا في السّن لهذه الدّرجة " وهنا يقول لباروناته " اليوم شرُفتْ إسبانيا " {صـ ٣٥٣} .

كان السيد خايمي يثق بنفسه أكثر من ثقته في النظام القائم ، كما أن ديانته الحقيقية تقوم على إيمانه بالعذراء وحبها ، إذ كانت العذراء عنده على شاكلة صورة سانتياجو عند أهل ليون وقشتالة ، رغم وجود فارق هو البعد الغنائي والشعوري الذي لا يوجد في تبجيل القديس الرسولي (١٢) كما أن السيد خايمي قليلاً ما يؤمن بالسّحر الخاص بما وراء الطبيعة فعندما يتحدث الفرنسيسكان عن رؤيا راهب آخر (حيث يظهر الملك في الرؤيا في صورة مخلّص إسبانيا) نجد أن السيد خايمي دي أوريًا يعقب قائلا : " كانت رؤيا طيبة " ، لكن كان عليهم أن يفكروا في أمور عملية {٣٨٩ – ٣٩٠} ولست أتصوّر أن تتضمن سيرة قشتالية ملاحظة مثل هذه ، فتكثيف المشاعر الشخصية له ثقل معاكس للقيمة المتعلقة بالنظام الموضوعي ، ويتحرك السيد خايمي في مجتمع متفكك ويثق في قدراته هو أكثر من ثقته في قدرة النبلاء، فعندما يأتونه برسالة من ملك بلنسية المسلم كتب يقول " لم أُبلِغ هذه الكلمات لأحد في جيشي – أيًا كانت درجته – فقد كان هناك الكثيرون ممّن لا يروق لهم غزو المدينة ويفضلون أن تكون في يد المسلمين" {صـ ٢٧١} ، وعندما أبلغ النبلاء باستسلام بلنسية " امتقعت وجوههم وكأن سهمًا غُرِس في قلوبهم ، أما الأسقف وبعض رجال الدين فقد كانوا هم الوحيدين الذين شكروا الرّب على ما أنعم به عليهم ، أما الباقون فلم يحمدوا الله ويشكروه على ما حدث واقتصروا في قولهم على سؤالنا عن الكيفية التي وضع بها ذلك الغزو " {صـ ٢٨١} ، كما نجده يتوجه إلى الرجال الأغنياء ذات مرة قائلاً : اذهبوا في ساعة نحس فسوف نفعل ما نريد بدونكم {صـ ٥١٩} ، وقد أسدى السيد خايمي عدة نصائح لصهره ألفونسو العاشر ملك قشتالة يقول فيها :

إذا لم تستطع أن تربط الناس جميعًا من أهل مملكتك بك
فعليك أن تبقى فئتين منهما الكنيسة وقرى المملكة فهؤلاء
أناس يحبهم الرّب أكثر من الفرسان الذين يتمردون سريعًا

على السيادة ، وعندما يحظى المرء بمساندة رجال الدين والشعب يستطيع تحطيم قوة الفرسان" (صـ ٤٩٨)

هناك علاقة وطيدة بين الأسلوب الحميم ، والشديد البساطة أحيانًا ، {فى التاريخ Cronicsas} وبين قلة الاحترام التى يكنّها الملك للمجتمع المحيط به ، والأكثر أهمية من النظام الموضوعى هو الشعور بالاستناد إلى حياة المرء نفسها ، والتى يدور فى فلكها ما هو روحى وما يتعلق بمراقبة الواقع ، وهذا الأخير يتم رصده على أساس المصلحة الشخصية ، وفى دائرته تذوب الحدود بين الرفيع والوضيع والمرتفع والمنخفض، وبذلك نجد أنفسنا من جديد فى دائرة التراث الإسلامى الذى اعتاد تجاهل الخطوط الفاصلة بين الخبرة الذاتية وعالم المبادئ الموضوعية ، ولم يجد هذا النموذج بين أهل قطالونيا المقاومة التى وجدناها عند أهل قشتالة المولعين بتحقيق ذواتهم إلى أقصى درجة ، كما أنهم مولعون أيضًا بحياة تقوم على أسس موضوعية على الطريقة القشتالية التى تختلف كثيرًا عن الإسلامية ولهذا هربوا من الغنائية ومن التعبيرات المبالغ فيها عند الحديث عن المشاعر الحميمة ، ومن هنا أيضا نجد بين أيدينا كتاب " القوانين " الذى قدم فيه ألفونسو العالم النمط الأخلاقى والقانونى للمجتمع الذى يعيش فيه ، ورغم أن ملك قشتالة قد عانى من تمرّد الفرسان (وعلى رأسهم ابنه سانشو) فقد ظل على رؤيته لسلّم القيم على أساس متدرّج ، ولم تكن الأحداث هى الأهم بل روح من يعيشونها .

وكمثال على ما نقول نعرض هنا الوصف الذى قدّمه السيد خايمى لوفاة والده بدرو الثانى ملك أرغن فى معركة موريت Muret :

"ليلة المعركة نام مع امرأة ووصل به الأمر (طبقًا لما سمعته منه عندما كان يتحدث مع حلوانى عنده يدعى خليل الرجل الذى أصبح راهبًا فى جماعة أوسبتال - ويتحدث مع آخرين يعملون لديه) أنه لم يتمكن من الاستمرار واقفًا أثناء القدّاس

الذى أقيم قبل المعركة ولم يجد مناصًا إلا الجلوس على مقعده" (صـ ٩) .

لا يمكن أن نعثر على هذا البوح الذى لا حدود له فى سيرة قشتالية ، كما أنها لم تكن أبدا سيرًا ذاتية ، أما بالنسبة لسيرة جوان فيل فالاختلاف واضح : فالسيد خايمى يَسْرُد معايشة الأحداث التى تقع له ، أمّا الفرنسى فيصف الوقائع المتعلقة بحياته ويرتبها فى نظام يسير على سلّم معين يتسم بالموضوعية وهو : قداسة الملك لويس ، وفروسية السيد جوان فيل ، والمُلمّات الناجمة عن إرادة الله ، والسيدات اللاتى سوف يستمعن يوما ما لهذه المغامرات ، كما نرى جوان فيل وخلفه التراث الخاص ببلاط ماريا شمبانيا وشرتيان دى ترويس (١٣) ، وأمام كل هذا نجد حصان السيد خايمى يرفع مقدمته إلى أعلى ويثير إعجاب الفرنسيين ، ثم توافق ذلك مع إنقاذه لشرف إسبانيا ، وهذه كلها مظاهر لحياة طبيعة جمالية ووجودية .

كتاب الصديق والمحبوب

قدّم لنا رامون لول – قبل ذلك – المفتاح الأوّلى لفهم بعض أنماط الحياة فى قطالونيا ذلك أنه يقول فى كتابه " الصديق والمحبوب " {صـ ٢٦٨} بأنه يسير على النهج الصوفى ، ومع هذا فهناك بعض المؤرخين الذين يصرّون على أن رامون لول لا يدين للثقافة الإسلامية بشىء ، غير أن هذا لن يمنعنا من الاهتمام بكل ما يكتبه لول ويؤكده وتصديقه ، كما لن يغير هذا الرأى الرافض كثيرًا ، يقول لول " الصوفيون هم أكثر الناس علوًا فى الشأن " كما أن بلانكيرنا (يدخل جزء منه فى كتاب الصديق) يستلهم النماذج الصوفية ، ولا نفهم هنا أن المؤلف يكذب على قرّاء كانوا يعرفون جيدًا من هو الصوفى ، وقد كان المتصوفة آنذاك يجوبون الطرق وشوارع المدن مثلهم فى هذا مثل الرهبان المسيحيين ، ولم يشعر لول بغضاضة فى الإعلان عن استلهمه الصوفية الإسلامية فهو الرجل الذى اعتنق الفكرة الإسلامية المتعلقة بالتسامح ، وهذا واضح فى كتاب " الوثنى والعلماء الثلاثة " {صـ ٢٠١} ؛ وقد أوضح أسين بلاثيوس –

فى أكثر من مناسبة – تلك التأثيرات المشرقية فى لول ورغم هذا فهناك من لم يحسم أمره إزاء هذه القضية (١٤) ؛ ومع هذا لا أعتقد أن أسين قد ركز اهتمامه على تحليل كتاب " الصديق والمحبوب " رغم أنه كان يكفى ما كتبه ليندرج تحت لواء المنطقة المتأثرة بالإسلام ، أى يكفى ما اعترف به لول فى كتاباته ، فأعماله لا تنفصم عراها على طريقة البعض الذين جعلوا منها " طريقة " و " مادة " أو " تعبيراً " و " مضموناً " ، فكتاب لول مماثل لما يعبّر عنه وللطريقة التى يعبّر بها ولهذا فهو ذو معنى وقيمة من الناحية الفنية .

وهذا الكتاب الرائع " الصديق والمحبوب " نموذج للحياة المدجّنة الأدبية ، حيث نجد التراث الأفلاطونى الجديد والمسيحى للحب الإلهى وقد تداخل مع الصوفية الإسلامية ، وهذا ما حدث بعد ذلك فى حالة / خوان رويث الذى أضفى الطابع المسيحى على أعمال إسلامية تتعلق بالحب الدنيوى ، وهذا ما سوف نتحدث عنه فيما بعد ، فالأمر ليس مجرد أفكار (فهى قليلة ومستكنّة فى كتاب لول) جاءت من القديس أغسطين أو من الإسلام ، أو أن طريقة ذلك العشق الإلهى يمكن أن تكون إحدى السمات الفريدة فى التراث المسيحى :

> " كان الصديق يرقد على فراش الحب : ملاءته المُتَع وغطَاؤه النحافة ومخدته البكاء ، ويمكن التساؤل حول ما إذا كان قماش المخدة مثل قماش الملاءة والغطاء .
>
> كان المحبوب يُلْبِس صديقه بطانية وزردة وجونلة gonela، ويضع له قبعة من الحب وقميصًا من الفكر وحذاءً من الآلام وإكليلاً من النواح " (١٥)

نلمح هنا التكامل والغنائية الفنية والنحت السائد فى القرن السابع عشر وعلاقته بالروح والمادة وبالألوهية والإنسانية (فهناك تماثيل ألونسو كانو أو بدرو دى مينا) ولا نجد عند القديس أغسطين أو القديس برناردو شيئًا يشبه الأسلوب الذى يتخذه لول، كما لا نعثر على سابقة له فى قصيدة القصائد ، فالواقع شديد القرب من المرء (الملاءات والأغطية والمخدات) يتم حقنه بالبعد الشعرى والرّمزية ، كما أن الآلام من

أجل متعة الحب ليست من القيم المسيحية وهى موضوع نألفه فى الجنس العربى سواءً من المنظور الصوفى أو الدنيوى ، ولنقارن بين هاتين الفقرتين .

كان الصديق يرى نفسه معلقًا ومشدودًا ويضرب نفسه ويقتلها فى سبيل عشقه للمحبوب ، فسألوه عن السبب فى قلقه هذا : أين هو محبوبك؟ فأجاب ترونه فى عشقى له وفى إبقائه على آلامى ، {الصديق والمحبوب صـ ٥٢} ، كان الصديق يشكو المحبوب عندما يصيبه بالآلام والعناء ، وكان المحبوب يعتذر قائلاً بأن الأعمال والعناء هما نوع من الحب وتنويعات منه {٧١} .

سَقَمى فى الحب عافيتــى * ووجـودى فى الـهـوى عدمى

وعـــذاب ترتـضـون به * فى فمـى أحلـى من النـعـم

(....)

أريدك لا أريدك للثواب

ولـكـنـى أريـــدك للـعـقـــاب

وكل مآربى قد نلت منها

سوى ملذوذ وجدى بالعذاب (١٦)

كما نجد أيضًا موضوعات أخرى للعشق الإسلامى سوف نتناولها بالتفصيل عند الحديث عن كل من خوان رويث وابن حزم ، ويكفينا – مثالاً على ذلك – إشارات الحب التى يرسلها الصديق إلى محبوبه ، فهى النواح فى البداية ... كان الصديق يبحث عن العزلة وقلبه مشغول ... وعندما يعود الصديق إلى رفقة الناس يجد نفسه وحيدًا بينهم {الصديق ٢٢٧ – ٢٢٨} ، كما نجد ذلك الذى افترى عليه (أى لاوسنجير Lauzengi-er فى شعر البروفنسال الذى يرجع إلى أصول عربية) : المجاملون المزيفون الذين كانوا يتحدثون يالسوء ذات يوم عن الصديق فى حضور المحبوب {صـ ٢٤٧} ، وهذا مالا نفهم معناه إذا لم نستحضر فى أذهاننا القوالب الإسلامية التى يشكلها رامون

لول ، وإليها يُنسب إذعان الصديق لإرادة المحبوب ، أى التوكّل الصوفى . وإليكم أحد الأمثلة :

اشترى المحبوب تكريماً لنفسه إنساناً عبداً وابتلاه بالفكر والنحافة والتنهدات والبكاء وسأله عما يأكل ويشرب فأجابه: ما شئت ، وسأله عما يلبس فقال له ما شئت أن تعطينى ، وسأله عما يريد فأجابه ماشئت ، فقال المحبوب : هل عندك إرادة؟ فأجاب بأن العبد ليس له إلا طاعة سيده ومحبوبه {الصديق ٢٤١} .

أين الخضوع وأين الدموع

وأين السهاد وأين الأرق

(....) ثم إنى تأملت ما يعطيه الله سبحانه وتعالى للعبد إذا أطاعه ولزم خدمته وسلك طريق عمره فوجدتها على الجملة أربعين كرامة..."

نفس المصدر السابق: محاسن المجالس ص ٩٨ ، ٩٩} (١٧)

كما نقدم مثالاً آخر يتسم بأهميته فى هذا المقام :

كان الصديق يمدح محبوبه ويقول بأنه نقل المكان فهو هناك لا يحده مكان، ولهذا عندما يسألون الصديق عن مكان محبوبه يجيب : إنه موجود لكنّى لا أعرف أين، ومع هذا كان يعرف أن صديقه يسكن عقله {نفس المصدر صـ ٢١٣} .

رأيــــت بعــــين قلـبى

فقلت لا شك أنتا أنت

أنت الذى حزت كل أين

فحيث لا أين ثم أنتا

وجزت حد الدنوّ والبعد

لا يعلم الأين أين أنتا

{المصدر السابق : محاسن المجالس صـ ٨٩}

والنص العربى هو أبيات للحلاّج (٨٥٨ - ٩٢٢م) أوردها ابن العريف (فى الطبعة المشار إليها) وقد أشار ذلك الشهيد المشهور إلى أن من يبحث عن حرف الياء بين الألف والنون لن يعثر عليه (١٨) وهذا ما يفهم منه أن الياء بمعنى أين ، ومعناه أنه لا يمكن وضع الله فى دائرة المكان ، ويرى الحلاّج إمكانية الوصول إلى الله من خلال الاتصال الكونى به والمحصلة هى الفيء الإلهى فى داخلنا {Massignon : p. 542] ، أما بالنسبة لرامون لول فالمحبوب أو الله هو فى عقل الصديق ، وعلينا أن ندرس صوفية لول بعناية وخاصة علاقاتها بالصوفية المرتبطة بنظريات الحلاج ، وهذه مهمة مستحيلة بالنسبة لى فى هذا المقام ، كما يجب أن نلاحظ الدور الرئيسى الذى يلعبه الحب فى اللاهوت الدوجماطيقى للحلاج إذ يتم تأمل الذات الإلهية فى شمولية الحب ، والأمر هو أن الحب فى جوهره خلاصة الخلاصة كما أنه من صفات الله وهو موجود فى كل ما عنده ، وهذا ما يشرح بيت الشعر الذى قرضه الشاعر الفارسى أبو الخير : يقول الله أنا الحب وأنا العاشق وأنا المعشوق [Massignon- p. 406] ومن الصعب ألا نربط بينه وبين هذه الفقرة من كتاب " الصديق والمحبوب " فرامون لول يعلنها صراحة أنه يسير على نهج الصوفية :

> " المحبوب على يمين الحب أما الصديق فهو على اليسار ولهذا إذا لم ينتقل الصديق عن طريق الحب فلن يصل الى محبويه، وأمام الحب هناك المحبوب وخلف ذلك الأخير هناك الصديق ، ولهذا لا يمكن للصديق أن يحب حتى تنتقل مشاعره وأحاسيسه ورغباته عبر المحبوب (نفس المصدر ص ٢٥٠) قل لى أيها المجنون ماذا كان يفعل محبوبك قبل خلق الكون ؟ فأجاب : كان يتكوّن من عدة سمات أبدية وشخصية ولانهائية حيث هو الصديق والمحبوب " (نفس المصدر ص ٢٥٢) .

وبالنسبة للحلاّج فالله جعل صفاته مرئية إذ خلق صورة - وهى صورة منه - صورة الماهية ، والله ينظر إلى الشىء فيخلق فيه صورة تدوم أبد الآبدين حيث نجد

فيها العلم والسلطة والحركة والإرادة وباقى الصفات ، وعندما يتجلّى الله من خلال العبد فهذا منه آت وهذا هو الله {نفس المصدر صـ ٦٠٥ - ٦٠٦} وهنا نرى أمامنا " الصفات الأبدية " التى يتوافق فيها " الصديق والمحبوب " طبقا لرؤية رامون لول وهى صفات قائمة قبل خلق الكون طبقا للحلاج [١٩] .

وهناك حالة أخرى توضح لنا العلاقة القائمة بين رامون لول والتصوف الإسلامى وهى المتعلقة بالكرامات أو الخوارق التى يهيئها الله للإنسان الصالح :

كان الصديق يسير فى أرض غريبة ، وأثناء ذلك خرج عليه أسدان ، فشعر الصديق بدنوّ الأجل وخشى ذلك فهو يريد العيش لخدمة محبوبه ، فأرسل ذاكرته لمحبوبه [٢٠] حتى يرافقه الحب فى رحلته وبذلك يتمكن من تحمّل سكرات الموت ، وبينما يتذكر الصديق المحبوب أتى الأسدان طواعية للصديق ولعقا دموعه وقبّلا يديه وقدميه ، ثم ذهب الصديق فى سلام بحثًا عن محبوبه {نفس المصدر صـ ١٠٩} .

هناك خضوع الحيوانات والوحوش الضارية ...الخ " فوحوش الصحراء تحبه وتهز الأسود أذيالها علامة على لطفها معه {وهذه هى الكرامة رقم ١٧ التى يهبها الله فى الدنيا لعبيده كما يرى ابن العريف ، ويمكن الاطلاع على تلك الكرامات ووصف دقيق لها من خلال ابن عربى والتى أوردها أسين بلاثيوس فى كتابه الإسلام على الطريقة المسيحية {صـ ٣٩٧ ، وما يليها} .

ورغم أننا نرى كرامات من هذا النوع ، وكذلك من أنواع أخرى فى "حياة الأول" للعاقر (يلاحظ أسين) فالاحتمال الأقرب هو أن لول يستلهم الصوفية كما أنه يسير على خطاهم فى باقى الجوانب [٢١] .

وإذا ما أدى التحليل الموجز لكتيب لول إلى تلك النتائج فعلينا أن نتخيل ما يسفر عنه التنقيب الدقيق والمنهجى لكافة مؤلفات ابن مايوركا وعلاقتها بالأدب الإسبانى العربى ، وكيف أصبحت ملاحظات أسين بلاثيوس موثّقة ومؤكدة حول بعض الجوانب .

الموضوعات الأخلاقية فى إقليم قشتالة حتى القرن الرابع عشر:

لا يعنينا فكر أو صوفية رامون لول فى حد ذاته بل ما يشير إليه وما يدل عليه من أنه كان يوجد فى إسبانيا القرن الثالث عشر (المنطقة القطلانية) صوفية مطعمة بالمفاهيم الإسلامية ، لكنها غير قائمة فى قشتالة تلك الفترة ، وقد كان ممكنًا لدى القطلانى التعبير عن مكنون الذات وبكاء خايمى الفاتح وهو يحتضن مذبح العذراء أو بوادر العشق الإلهى عند رامون لول ، فهذه الرؤية الذاتية ترتبط بالأشكال الروحانية الإسلامية حيث تذوب الحدود بين الروحانيات والماديات ، ولم يقتصر المؤرخون العرب على الإشارة إلى الوقائع والأحداث بل يضمون فى رواياتهم الحياة الحميمة للشخصية التاريخية ، وهنا نجد أن السيّر شائعة فى الأدب العربى ولا نعثر للدراما أو الرواية على أثر .

إننا لا نبحث الآن عن السبب فى هذه الموضوعية القشتالية بل عن " التكيف وعن نمط التاريخ حيث ترتبط أسبابه بالوجود نفسه ، وتكمن المشكلة فى الغيبة شبه الكاملة للتعبير عن مكنون النفس (سواء دينيًا أو أدبيًا) فى قشتالة الفترة السابقة على القرن الرابع عشر ، ومن غير المجدى البحث فى أسطورة السّلالة أو السمات الوراثية إذ أن الغنائية القشتالية أخذت تكثر ابتداءً من القرن الرابع عشر ، وهنا نجد الزهد الذى عليه جماعة سان خيرونيمو ، كما نعيش حالة انفجار حقيقية من حيث كثرة الظواهر الصوفية سواء على المستوى الشعبى أو على المستوى الرفيع الذى تمثل فى القديسة تيريسا والقديس خوان دى لاكروث وآخرين ممّن هم أقل أهمية ، إذن نجد أن غيبة التعبير الذاتى خلال العصور الوسطى إنما هو ظاهرة تاريخية وليست عِرقية ، وعلينا محاولة فهم هذه الظاهرة رغم أننا قد نقع فى الخطأ عندما نعمل فى هذا الإطار ، فالمشكلة قائمة ولا يمكن تفاديها ، غير أن علينا فهمها من المنظور الذى أطرحه أو من خلال منظور آخر يطرحه من هم أكثر قدرة منّى .

لم تتأسس فى قشتالة أية جماعة دينية قبل النصف الثانى من القرن الرابع عشر ولم نر من بين الجماعات التى أتت من الخارج (ثيستور والفرنسيسكان) أى متصوف

جدير بالذكر فقد كوّن القديس دومنجو القشتالى ميليشيا تقوم بمهمة محاربة المارقين والكفرة ، ولم يخلف لنا أى كتاب يشبه ما ألفه الفرنسى سان برناردو ، وهنا أشك فى أن هذه الظاهرة (غيبة التعبير الذاتى) لا تنفصل عن المهمة الملقاة على عاتق قشتالة ، أى الوعى بأنها العماء الأكثر قوة لمفهوم قومى مؤسس ومدعّم وهى تحاول الفكاك من ربقة الإسلام ومن ربقة أوربا الغربية ، وأخذت قشتالة تتحول إلى محور للقومية الإسبانية بفضل تَدَيّنها العسكرى ، كما اعتمد ترابطها السياسى على مفهوم أخلاقى مناهض للإسلام ، واتسم بتقشفه كما وجد ضالته فى السلطة عوضا عن المُتَع والازدهار المادى . وكانت قشتالة مغروسة فى رصانتها وتوجهها القانونى وهما عنصران يشجعان على تلاحم الجماهير واستطاعت أن تحمى نفسها من الميل إلى الأهواء الذاتية ، أيًا كان نوعها غير أن القطلانى لم يخش تلك الأهواء لأنه كان يفتقر إلى الوعى بكيان الأمة وهذا ما تعبر عنه بوضوح قصيدة فرنان جومث المليئة بالتنظير السياسى :

قشتالة هى أفضل من جاراتها

إذ نجد أن من يقيمون هنا أفضل

وهم رجال يتسمون بالرصانة والحكمة

وهؤلاء من أفضل رجال الدنيا كلها (١٥٥)

وقد عملت قشتالة على ألا تقل الرصانة والحكمة لديها وإلا فالضعف والتفكك ، كما كانت قشتالة تراقب بدقة نظام البلاط الإسلامى الملىء بالبذخ والمتع والشعر والمعرفة وهو بلاط كان فريسة سهلة للإرادة القشتالية أو الغارات الأفريقية التى تتسم بجهلها وتشددها وهيمنتها .

وكانت ملحمة السيد شاهدًا واضحًا على ما تفعله قشتالة فالسيّد يظهر فى هذه الملحمة وقد تحلّى بالشجاعة والإقدام والرصانة والخبرة بالقوانين وأنه أب جيد يرعى أسرته ووفىّ لملكه ولا ينقطع عن تبعيته له ، كما نعرف أيضًا (٢٢) أنه انحاز إلى صف الملكة كونستانثا عندما وافق آخرون فى البلاط على ابنة الملك ألفونسو السادس رغم

صغر سنها ، وقد مجّد الشعب القشتالى بطلاً محبًا للعفاف ومسيطرًا على عواطفه ، وقد كان من المحتمل أن يفقد صبره ورصانته عندما عامل صهراه ابنتيه معاملة إجرامية ، وقد حاول شاعر الملحمة التركيز على السّمات القانونية والاجتماعية للسيّد فى عمل يتسم بالجمال والرصانة ، كما أن هناك مرحلة أخرى من حياة السيد تم التعبير عنها وإطراؤها من خلال قصيدة مختلفة ألا وهى حلف اليمين فى سانتا جاديا S. Gadea وهى اللحظة التى أُجبر فيها بطل قشتالة الملك ألفونسو السادس على أن يعلن أنه لم تكن له يد فى اغتيال شقيقه الملك سانشو ، وقد أعجب القشتاليون بالسيد كتابع وكقائد مظفّر وغير قادر على الخيانة ، كما لم يروا فى ألفونسو ، الملك " السيد الطيب"، فهو مندفع وراء شهواته ، ولقد كان أبطال تلك الملاحم نموذجًا سلوكياً٣٣٧ فى إطار الحياة الأسرية للشعب وليس من خلال فانتازيا الأسطورة ، فقد كان كل من الكونت فرنان جونثاليث وأميرا لارا من أفضل الفرسان الذين يحضّون على الفضيلة التى توطّد الأواصر بين الشعب وسادته ، وقد ساعدت الموضوعية الأخلاقية بالتضافر مع التديّن الموضوعى (القائم على معتقدات ذات فعالية قوية) على أن تنتقل قشتالة من العدم ومن تواجدها فى " الركن الصغير " (حيث تعبر قصيدة جونثاليث عن ذلك) إلى " مقام رفيع لدى العالم أجمع " ، وأصبحت المملكة الأكثر قوة فى شبه الجزيرة ، وهى التى رسمت خُطى حرب الاسترداد وإيقاعها ، كما ساعدت فعاليتها وحيويتها على توسيع مجرى تاريخها ، وهو المجرى الوحيد أمام المورو ، وكان القشتالى من الذين يفضلون السير على القواعد الأخلاقية والقانونية والدينية ، وكلها صفات تقف فى وجه الميول الذاتية ، وهنا نجد غيبة المناخ الملائم للتعبير عن التمرّد ، أى من خلال الغنائية والصوفية ، لكنه كان مناخًا مناسبًا لهذا العمل الرائع الذى جاءنا به ألفونسو العالم وهو Summa pragmática الذى يناقش القواعد الأخلاقية والقانونية .

واتسمت محاولات إنتاج أدب فى العشق (الإلهى أو الإنسانى) بفقرها خلال الفترة بين القرن الحادى عشر والثالث عشر هذا إذا ما عثرنا عليها فى اللغة القشتالية، فلقد كان الجو مشحونًا بحضور ما هو إسلامى وبالتالى فأى محاولة للتعبير الحميم كانت قد جذبت قشتالة نحو المعسكر الإسلامى وليس نحو إسبانيا المسيحية ،

وكان يمكن أن تكون الصوفية للصوفيين مثلما أصبحت خلال القرن السادس عشر ولأصبح الشعر الغنائى مثل الإسلامى ، وهذا ما سنجده عند خوان رويث خلال القرن الرابع عشر، وهو الرجل الذى سار على نهج كتب العشق على الطريقة العربية وخاصة ما تحدث به ابن حزم ، ولن تكون الصوفية مثلما عليه سان برناردو أو تستلهم – ظاهريا – أعمال سان أغسطين . ولَّا أصبحت التوجهات الحميمة للقشتالى متأثرة بالنموذج الإسلامى رأينا الصوفية لا تفصل بين ما هو روحى وما هو مادى يتعلق بالفرد ، وقد رأينا قبل ذلك أن هذا هو ما وقع فى القصائد والملاحم حيث انسجم واختلط الشعر والتجربة غير الشعرية (فخامة ومهابة القصر الملكى وتجشّؤ غير طيب الرائحة صادر عن أسور جنثاليث) ورأينا السيِّد بصفته البطل ، وكذلك بوصفه صاحب الطاحونة ... الخ. ولأصبحت الصوفية القشتالية مثل صوفية رامون لول وصوفية من كُشِفَ عنهم الحجاب ومن يمارسون الهرطقة وقتلة الأخوة (٢٣) ولكانت قد انتقلت إلى هؤلاء المكشوف عنهم الحجاب خلال القرن السادس عشر . وفحوى الأمر هو أن اللاشعور عند قشتالة كان مترعًا بالمفاهيم الإسلامية اليهودية خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر، وعندما يتناول الجهبذ ألفونسو العالم الموضوع الدينى فى كتابه "أغانى العذراء" فإنه رغم محاولته التزام الحيدة والموضوعية عند الحديث عن معجزات العذراء ، يفعل ذلك بأسلوب يجمع بين الرصانة والشعبية وهو أسلوب ليس له مثيل فى أوربا . ولم تكن الصوفية القشتالية بقادرة على الدخول فى مكان واحد مع الأرثوذكسية ، وإذا لم يحدث كل ما سبق لكان التوازن الذى تم الحفاظ عليه بفضل الرصانة والموضوعية الأخلاقية قد أصابه الخلل .

ندرك الآن السِّر فى أن قشتالة تركت الإيقاعات والنغمات الشعرية الغزلية الإسلامية تمرّ عبر أراضيها إلى بروفنسال وباقى دول أوربا دون أن تلمس أى شىء من هذا حتى القرن الرابع عشر ، وما كان ممكنًا لدى كل من بروفنسا وجليقية وقطالونيا (اللاتى افتقرن إلى وعى قومى يهدده الإسلام) لم ينسحب على قشتالة إذ أن نفسها الرصينة والمحمودة خير حصن لها ، أما سوقها للشعر فقد روته الملاحم الشعبية ، ولقد كان هناك تناقض حيوى بين هذا النمط من الحياة وبين الغنائية

والفيض الصوفى أو الهرطقة الدينية فهذه عناصر تضعف وحدة الجماهير ، ولمّا كانت أرغن وقطالونيا لا تشكلان وحدة قومية حميمة وتضطلعان بمهمة قيادية فى الصراع مع المسلمين فقد انضمتا إلى سكان مدينة ألبى Albi الفرنسية ، وفى هذه المعركة فَقَد بدرو الثانى - ملك أرغن - حياته عام ١٢١٣م ، ولو كان ملك قشتالة مكانه لما أقدم على هذه الخطوة .

انتشرت فى ليون (نهاية القرن الثانى عشر) هرطقة شبيهة بتلك التى حدثت فى مدينة ألبى (٢٤) ؛ وقد تحدث عنها السيد لوكاس دى تُوىْ (مؤرخ القرن الثالث عشر) فى كتاب ألفه باللاتينية ، ولا أعرف من هذا الكتاب إلا فقرات نقلها عنه مننديث بيلايو يقول السيد لوكاس إن هراطقة ليون كانوا يسيرون على نظرية أماريكو دى شارتر Amalrico de Chartres (أى بينيه Bene) ودافيد دى دينان :

> " ويتظاهرون بالفلسفة حتى يفسدوا الكتب المقدسة ويفضّلون أن يطلق عليهم الطبيعيون أو الفلاسفة ، فالفلاسفة القدامى قريبون من الملاحدة ومن كثير من الطبيعيين المحدثين الذين يحملون وصمة الهرطقة ، فهم ينسبون للطبيعة كل ما خلق الله ... ويقولون بأن الله وكلّ الطبيعة القيام بفعل كل شيء ... وغايتهم فى هذا دخول جماعة المانويين Maniqueos والتأكيد على وجود إلهين أحدهما الشرير الذى خلق كل ما هو مرئى (٢٥) .
>
> ويقول بعض الملاحدة إن مضمون العهدين القديم والجديد صحيح وحق إذا ما فهمناه فى إطار صوفى ، أما إذا ما نظرنا إليه بحرفيته فهو لَغْو كله .. وكتاباتهم مليئة بهذه الأخطاء وغيرها مثلما نجد فى كتاب " الخط العمودي " للعلوم Perpendiculum Sientiarum (٢٦) ؛ وهناك بعض الملاحدة

الذين يحاولون - بطريقة مستترة - أن ينضوى تحت لوائهم هؤلاء الذين لم يتمكنوا من الإيقاع بهم بطريقة مباشرة فى هوّة أخطائهم ، فيتظاهرون فى صورة رهبان أو كهّان ويستخدمون الخداع لمغالطة الكثيرين حول سرّ الاعتراف ... أما الآخرون فيحاولون الظهور فى صورة من يدينون باليهودية ، وهم يتسمون باللطف عند الأمراء إذ يقدمون لهم الهدايا ويجعلون القضاة فى صفوفهم بفضل ما يقدمون لهم من رشاوى .. ويشككون فى عذرية مريم ، وهم على هذه الحال ضد العادات الإسبانيــة " (الفصل الثالث) .

لا نرى مدى الصدق أو المبالغة فى الوصف الذى قدمه لوكاس دى توىْ ، فلم يحفظ لنا التاريخ الكتابات التى تتضمن الهرطقات التى تحدث عنها ، كما لا ندرى شيئا عن أىّ القطاعات فى مجتمع ليون قد تأثرت بتلك الأفكار ، لكن الأمر المهم هو تعليق أسقف توى Tuy على تأثير تلك الهرطقات فى أراضى ليون " هاهى عزيمة الحرب والكاثوليكية تصابان ببرود فى الدول الإسبانية ، وهاهى حميّة كان لهيبها يلتهم أعداء الديانة الكاثوليكية (الفصل الثالث) ، ويضيف المؤلف أن الملاحدة " خلطوا الأدعية الدينية بالقصائد الغزلية حتى يباعدوا الحاضرين عن عبادة الله .. يقومون ببعض الحركات الصامتة ويدنسون أركان الدين باستخدام الترانيم والألعاب البهلوانية " .

ورغم أنه تحدث قليلا عن بعض الأحداث المهمة فقد أصبحت لدينا قاعدة لنؤكد من خلالها ظهور توحّد بين الفكر الطبيعى والفكر القائل بوحدة الوجود naturalistico-panenteista (بمعنى أن الطبيعة تمتلك قدرات إلهية) ، وتوحد بين التحليل الصوفى (الرمزى أو المجازى) للنصوص المقدّسة وبين الأدب الغزلى أى الشعر الغنائى ، وقد كان كل ذلك يحدث فى ليون ولُيس فى قشتالة حيث لا نعرف فيما إذا كانت قد انتشرت فيها هذه الهرطقة أم لا ؛ وتشير " الحوليات الطليطية " إسبانيا المقدسة - الجزء الثالث

عشر} إلى أن فرناندو الثالث قام فى عام ١٢٣٣م " بشنق الكثير من الرجال وألقى بعدد آخر فى النار " وذلك لمروقهم ، لكنه لم يقدم المزيد من التفاصيل .

ومن قراءة تقارير السيد لوكاس دى توى يمكن أن ندرك وجود توجه إنسانى دينى وأدبى فى إسبانيا المسيحية خلال القرن الثانى عشر ، لكن تم إسكاته قبل أن تتجسد ملامحه ، كما ذكر التقرير اسم كل من أملريكو دى بيثيه ودافيد دنان ، الأمر الذى يؤكد وجود بذور الثقافة الفلسفية فى ليون خلال نهاية القرن الثانى عشر ؛ويدخل فكر هذين الأجنبيين فى إطار التراث الخاص بوحدة الوجود للصوفية الأفلاطونية الجديدة كما أن له علاقة بالبؤرة الثقافية الطليطلية التى أشرنا إليها سابقا ، ويمكن ربط دافيد دينان بديونيسيو أريوباخيتا **Dionisio Areopgita** و **Avicebrón** ودمنجو جونثاليث (جونديسالبو) (٢٧) ؛ إذن يمكننا أن نلمح – ولو كان ذلك بشكل غير واضح – وجود تيار ثقافى دينى وأدبى تم الإجهاز عليه بيد من حديد على يد الكنيسة والسلطة الملكية فى قشتالة وليون ، إذ كانتا واثقتين من أن هذه الأفكار سوف تقلل من حمية المشاعر الحربية والدينية فى إسبانيا ، ويحدث ذلك فى لحظة كان فيها القشتاليون يتهيئون للاستيلاء على قرطبة وأشبيلية وهما أكبر حصون الإسلام الإسبانى وعندما تخلّى القشتالى عن الأهداف المتعلقة بالحياة اليومية كان نمط حياته قد تشكّل بقوة واكتسب صلابة لكى يتخلى عن " الرصانة الموروثة " فقد كان التعايش مع المسلمين واليهود جيداً لكن لم يكن ممكنًا التعبير بوعى على شاكلتهم ، فالقشتالى لم يعد كما كان ، فلم يدخل الشعر الغنائى الراقى البلاط المسيحى وهو شعر ملوك الطوائف (خلال القرن الحادى عشر) الذين استسلموا لفظاظة المرابطين ، فقد كانوا (ملوك الطوائف) غارقين فى الاسترخاء الدينى والأخلاقى ، وأخذوا يقضون وقتهم فى الاستمتاع بخرير الماء فى الجداول والتغزل فى الأجساد الجميلة الشابة ، ولاسيّما أنه كان من الممكن لملك مثل ألفونسو السادس أن يعيش مثل أى مسلم ، غير أن المغزى الجماعى الذى يعبر عنه أدب وفكر هؤلاء الذين يقومون بمهمّة القيادة لم يكن ليأخذ مسار الشعر أو التأمل الثقافى الإسلامى أو فكر الفلاسفة الأجانب الذين أسفرت أفكارهم عن فكّ عُرَى الوحدة وعن التمرّد .

نرى بوضوح كيف أن الصوفية تمكنت من شق طريق لها فى قطالونيا رامون لول، ولم تتمكن من ذلك فى قشتالة ، كما أشرنا قبل ذلك إلى أن قطالونيا ظلت حتى القرن الثانى عشر بعيدة عن المهم الكبرى المتعلقة بحروب الاسترداد ، وكانت فرنسا هى محطّ أنظارها وليس ما يجرى داخل إسبانيا ؛ وهنا لم يكن الشعر القطلانى ملحمياً بل غنائياً وتمت صياغته بلغة ليست للشعب القطلانى بل كانت لغة المنشدين فى بروفنسا ، أما قشتالة فقد قرضت الشعر باستخدام لغة الشعب خلال القرن الحادى عشر ، ولقد أبانت اللغة القطلانية الحقيقية عن نفسها نثراً قبل أن تكون شعراً ورغم ذلك فقد تقدمت غير واثقة ، أى بشكل تبادلى مع اللغة اللاتينية ، وبمعنى آخر دون أن يكون عندها وعى بأنها أمّة فى دائرة الثقافة العالمية السائدة خلال العصور الوسطى [٢٨] ؛ وتحركت قطالونيا بين جنوب فرنسا وأرغن وقشتالة والإسلام ، وهذا ما أعطى الثقافة القطلانية قيمة كبرى حيث أنجبت لنا رامون لول خلال العصور الوسطى – وهو المسيحى الإسبانى الوحيد الذى بلغ شهرة عالمية خلال القرن الرابع عشر – وكانت صلات البلاط الأرغنى – القطلانى بالعالم الخارجى أكثر من صلات قشتالة [٢٩] كما كانت له اهتمامات ثقافية أوسع وأرحب ، والدليل على هذا هو أن كتاب Drag-mation Philosophiae] {تأليف جيرّمو دى كونش G. de Conches (1145) } قد ترجم خلال القرن الرابع عشر بعنوان " خلاصة الفلسفة " Suma de filosofia ، وهذه خطوة مهمة لها قيمتها عندما نرى أن قشتالة لم تعش شيئًا مماثلاً فى ذلك الزمان ، كما أن كتاب Consolatio للمؤلف بويثيو Boecio قد ترجم إلى القطلانية قبل ترجمته إلى القشتالية ، ويمكن أن نقول نفس الشيء عن درجة تلقى قطالونيا وبلنسية للتوجهات الإنسانية الإيطالية ، فقد انطلقت كل من أرغن وقطالونيا فى مهم دولية (صقلية وسردينيا واليونان وإيطاليا) ، أما قشتالة فلازالت تسعى من أجل الوصول إلى إسبانيا التى تطمح إليها ، وهنا نجد أن حرب الاسترداد قد انتهت بالنسبة لأرغن وقطالونيا فى عهد خايمى الثانى (١٢٩١ – ١٣٢٧م) .

وليس هناك ما يساعدنا على أن ندرك بوضوح اختلاف الآفاق المستقبلية لكلتا المملكتين إلا مقارنة تلك الوقائع المتزامنة وهى : وفاة بدرو الثانى ملك أرغن عام ١٢١٣م وهو يحارب فى فرنسا إلى جوار أهل ألبى Albi ؛ وفى عام ١٢١٢م يتمكن

ألفونسو الثامن من تحقيق النصر فى معركة العُقاب Navas de Tolosa الأمر الذى جعل كفة الميزان ترجح نهائيًا لصالح المسيحيين الإسبان ، وفى عام ١٢٣٩ يتمكن خايمى الأول ملك أرغن من الاستيلاء على بلنسية ، وخلال الفترة نفسها يتمكن فرنادو الثالث من الاستيلاء على قرطبة (١٢٣٦م) وأشبيلية (١٢٤٨م) ، وبلغ ذلك الأرغنى النصر بفضل موهبته الشخصية ورغم أنف النبلاء كما سبق أن أشرنا ، أما القشتالى فقد حمل على عاتقه المهمة الكبرى فى الاستيلاء على أشبيلية حيث شارك الشعب فى المهمّة بحماس وإقدام ، وبعد ذلك ينصح خايمى الأول صهره ألفونسو العالم بأن يعتمد على كل شىء ما عدا النبلاء ذلك أن قطالونيا كانت تشعر بالفوضوية فى الداخل ولها " رقعة طبيعية " لكنها " بلا رصانة موروثة " .

ومع هذا نجد أن قشتالة استطاعت أن تظل محور حرب الاسترداد بفضل الجهود الفردية لخايمى الأول ، وقلة ميل ألفونسو العاشر للحرب ، كما أثار المور مشاكل كبيرة حتى بعد الاستيلاء على قرطبة وبلنسية وأشبيلية ، فعندما تمرد المور فى مرسيه على ألفونسو العاشر طلب ملك أرغن العون من مملكته وهيأ جيشًا لمساعدة صهره من باب الذوق العام فقد توجه إلى النبلاء وقال لهم " إذا ما خسر ملك قشتالة أرضه فسوف نكون فى وضع حرج على أرضنا " (٣٠) ولقد جاء هؤلاء المفترسون من الشمال الأفريقى إلى إسبانيا فى ثلاث موجات ، كما كانت تتهددها موجة رابعة ؛ ويلاحظ أن أرغن تعترف من خلال الكلمات السابقة بأنها قوة من الدرجة الثانية مقارنة بقشتالة ــ وهذا كله يساعد على أن نفهم السبب الذى جعل للتصوف الإسلامى والتعبير عن الذات والغنائية مكانتها فى قطالونيا بينما أغلقت قشتالة الطريق فى وجه كل ذلك ومعها المناطق التى تدور فى فلكها مثل ليون وأرغن ، أما جليقية فقد أفادت من الشعر الغنائى خلال القرن الثالث عشر إذ لم يكن لها دور سياسى معين .

والمحاولة التى أقوم بها فى الربط بين أنماط التعبير عما يجول فى أعماق النفس وبين البنية الموضوعية للمجتمع يمكن أن تتأكد من خلال التاريخ الإسبانى الإسلامى نفسه ، إذا ما ذكرنا أن كلا من المرابطين والموحدين قد جاءوا إلى الأندلس للقضاء على الفوضى السياسية الناجمة عن الفوضى الدينية ، ويرى أسين بلاثيوس أن

الثورات السياسية فى الإسلام تأخذ أحياناً شكل التعصب غير العدوانى ، وهذا ما تفسره عملية مطاردة الزّهاد والمتصوفة ؛ فقد أمر قاضى قرطبة بإحراق أعمال الغزالى ، أما صوفىّ ألمرّية/ ابن العريف (١٠٨٨ - ١١٤١م) فقد طورد كثيراً وقيل إنه مات مسموماً ، وهنا قام أحد تلاميذه بتنظيم " ميليشيا دينية فى إقليم الغرب (البرتغال) ، مكونة من مريدى مدرسة ابن العريف ، وأعلن نفسه إماماً وحقق انتصارات عسكرية ضد الموحدين ، كما حكم عشر سنوات كعاهل لذلك الإقليم " [٣١] ؛ كانت الصوفية تقود إلى التمرد والخصوصية السياسية ، ولم يكن انعدام الموضوعية الدينية فى الإسلام هو العنصر الذى أسهم بدرجة أقل فى انحطاط ذلك المجتمع وتفككه ، ولقد تراجعت قشتالة بغريزتها ووعيها عن كل ما يقربها بشكل مباشر من الأخلاق والعقيدة الإسلامية ، كما كان من المستحيل عليها تفادى قربها منها ، وكانت الصوفية تشمل الأنماط الرفيعة كما تضم تلك الخوارق الشعبية التى تحدث على يد الأولياء والمتسوّلين، وكانت المواقف الشخصية ومواقف الطوائف المتعددة تنبثق من التهاب المشاعر الدينية والتعبير عنها ، كما انبثقت أيضاً التحليلات الباطنية (الرمزية والمجازية) أو الظاهرية (الحرفية) لنص القرآن الكريم وكذلك وحدة الوجود وعدم الإذعان سواء من الناحية الأرثوذكسية أو الاجتماعية ، كما أننا نجهل تأثير تلك الجوانب الإسلامية على الأراضى القشتالية ، غير أن ما تحدثنا به سابقاً يكفى لتخمين الدرجة التى كان عليها عنف العملية القَمْعية الدفاعية .

وانطلاقاً من المنظور الذى اتخذناه أعتقد أن من الممكن فهم موقف المستعربين ثم القشتاليين من غزو المسلمين لإسبانيا وهو ما لم يحاوله الجليقيون أو القطاليونيون حيث لم تتعرض أى من هاتين اللغتين بطريقة أصيلة لموضوع/ لذريق وهو آخر ملك قوطى حكم إسبانيا، فكيف انهارت المملكة القوطية فجأة ؟ لا يوضح التاريخ هذه النقطة غير أن الأساطير تقدم لنا الإجابة ، فطبقا لإحداها قام غيطشة Vitiza(الملك قبل الأخير فى الأسرة القوطية) بالاعتداء على ابنة الكونت خوليان أو أوليان Olian حاكم سبتة ، وحتى ينتقم هذا الأخير منه فتح أبواب إسبانيا أمام المشارقة ، وهناك رواية أخرى تنسب للسيد لذريق اغتصاب الفتاة [٣٢] ، وأيا كان الموقف فقد نسب المستعربون

والقشتاليون الكارثة التى حلّت بالبلاد إلى فِسْق ملوكها ، وأخذت هذه الأسطورة (التى لا تعنينا تفاصيلها الفلكلورية) تضرب بجذورها بعمق وتنضم إلى التاريخ وذلك كاستجابة شديدة الحيوية فى روح الناس ، ولا يشير " التاريخ العام " (الذى ألّفه ألفونسو العالم) إلى مجرّد قيام لذريق " بالاعتداء بالقوة " على ابنة الكونت بل يَقدّم سلفه الملك غيطشة فى صورة داعرة للغاية :

> " لقد صرح – عن خبث ولؤم – لكل رجال الدين بأن يتزوج كل واحد منهم بأكثر من امرأة ومحظية بشكل علنى وطبقًا لما يشاءون ... كما أمر بعدم إطاعة القوانين والقواعد الصادرة فى هذا المقام بما فى ذلك الصادرة عن روما التى تمنع فعل تلك الأمور التى كان يدعوهم إليها " (٣٣) .

وبهذه الطريقة نجد الملك غيطشة متهما بالشبق والفوضى الدينية مثل اتهام المسلمين بممارسة الرذيلة ، وحث الناس على أن يفعلوا ما يشاءون وألا ينصاعوا لقوة القانون (أى أن ذلك يعنى الفردية والشبق والفوضى) ، ومعنى ذلك هو تعدد الزوجات عند رجال الدين وهو أمر ربما لم يخطر على بال الملك القوطى أبدًا ، إذن فصلاح حال إسبانيا يكمن فى فعل كل شيء يناقض تلك الأفعال التى أدت إلى الكارثة ، ويكمن مغزى تلك الروايات ليس فيها فى حد ذاتها بل فيما يدور ويؤثر على عزيمة الناس ، وقد ساعد مسار التاريخ على ازدهارها ، ولم يكن الأمر مجرد خيالات شاردة أو تداخلاً بين الموضوعات المتعلقة بالفلكلور المجرد ؛ فالرغبة فى الترابط الاجتماعى تحض على المحمودة والسلوك الرصين وخاصة أمام الناس ؛ ولقد كان رجال الدين يعاشرون المحظيات خلال القرن الثالث عشر ، غير أن الخطير هو موافقة الملك القوطى على أن يكون ذلك بطريقة علنية ، ولما كانت قشتالة تحمل على عاتقها أمر الكفاح ضد شعب يتسم بالشّبق ويستعرض الحب فى أكثر صوره إباحية من خلال آدابه فقد تصوّرت أن إجبار فتاة والاعتداء على عِرضها وتعدد النساء عند رجال الدين قد أدّيا إلى انتصار

المشارقة ، أضف إلى ما سبق أن الأسطورة هى نوع من التنفيس العاطفى والعظة وتمثل إصلاح أحوال إسبانيا فى صلاح السلوك وعدم الوقوع فى الخطأ الأخلاقى الذى كان عليه من ضيعوها ومن قهروها ، وإذا ما تمثلنا الأمر على هذا النحو لأدركنا الميل القشتالى للأخلاقيات كأحد الجوانب الجوهرية فى حياتهم ، ولأدركنا سر كثرة الترجمات للأعمال والمؤلفات التعليمية العربية فالمثال الذى يحتذى كان قويًا فى هذا السياق ، أى أنه كان على نفس درجة مهارة البنائين وكثير من الأمور التقنية ، وكان هذا هو البرنامج الذى تضمنته ملحمة السيد " نحن نقيم فى بيوتهم وهم على خدمتنا يقومون " (٣٤) .

ولو كان المسلمون يتسمون بالمحموداف والزهد أو لو لم يحتلوا أرض شبه الجزيرة لكان القشتاليون على شاكلة سلفهم مارثيال أو باقى الدول الأوربية ، ولكان قد تحرر خايمى الأول من القيود القشتالية وكتب عن نقطة ضعف والده وهى ولعه بالنساء وكذا عن الآخرين الذين تحدثنا عنهم ، غير أن القشتاليين لم يتحدثوا فى الموضوعات الجنسية إلا فى وقت متأخر ، أى خلال القرن الرابع عشر (خوان رويث) والقرن الخامس عشر بصفة خاصة حيث لا يجد الشاعر الماركيز دى سانتيانًا أى غضاضة فى وصف جسدى ابنتيه .

أنثيان من الجنة

كاعبات الأتراب

ولم نكن لنشعر بالمفاجأة لهذه الأبيات

جعل الله قدرته

تبدع فى كل شئ جميل لهما

لم يكن علية القوم فى قشتالة يخشون المور ، فقد بدءوا يتحركون فى اتجاه آخر ولم يغضوا الطّرف عن إطراء جمال المرأة ، وقد تحدث اليهودى شيم طوب (خلال

القرن الرابع عشر عن عذوبة فم الأنثى، وفى القرن الخامس عشر تولى يهودى آخر هو أنطون دى مونتور وصف الجِمَاع وصفًا دقيقًا ، إلا أن القرن الثالث عشر لا يتضمن إلا ترجمة الأعمال الأخلاقية العربية : كليلة ودمنة وحيل النساء .. إلى غير ذلك من الأعمال الأخرى المعروفة ، كما نلاحظ أن الشعر الرصين خلال القرن الثالث عشر (وينظر إليه على أنه قشتالى) يرتبط بمناطق كائنة على أطراف قشتالة ، وهذا ما نستنتجه من اللّهجة المستخدمة : الاسكندر ، أبولونيو ، ملوك الشرق ، مريم القبطية وإيلينا وماريًا ، ولم يكن قشتاليّو القرن الثالث عشر من الذين يُسْلِمون أنفسهم للملذّات الشعرية اللهم إلا إذا تعلقت بالموضوعات الأخلاقية والعامة ، كما لا نجد أى ترجمة قشتالية (أو لم يَرِد إلينا) لكتاب " القواعد الكهنوتية **Disciplina clericalis** رغم أنه ترجم إلى الفرنسية خلال القرن الثانى عشر كما أن مترجم تلك الأقاصيص المشرقية هو يهودى من أرغن .

نفهم – من هنا – السّر فى استخدام القشتاليين للغة الجليقية فى قرض الشعر أو التعبير عن الحياة الحميمة قبل القرن الرابع عشر ، إذ كانوا يشعرون بالحرج عندما كانوا يعبرون بلغتهم ، كما أن البرجماتية الأخلاقية لقشتالة حالت (مثلما حدث بعد ذلك مع البوريتانية أو العقلانية) دون أن تكون هناك مواقف حيوية للنفس تتدخل فى عملية التعبير الذاتى عن المشاعر ، وهنا لا يجدى أن نقول إن السبب فى كتابة ألفونسو العالم " القصائد الغنائية **Cantigas**" باللغة الجليقية هو أهمية التعبير بهذه اللغة فى هذا المضمار ، وكأننا بذلك نفصل التعبير الإنسانى عن المراحل الداخلية المؤثرة فيه وقد اتسمت القشتالية المكتوبة (خلال النصف الثانى من القرن الثانى عشر) بثرائها وعمل مضامينها ، والفضل فى ذلك يرجع إلى من قاموا بالترجمة وجمع المادة العلمية (سواء اليهود أو الأجانب) على يد ألفونسو العالم الرجل الذى كان دينامو السياسة الثقافية ، وكمثال على ما نقول نشير إلى ترجمة الكتاب المقدّس ، وترجمة أوفيديو **Ov-idio** إلى القشتالية ، فلقد كان الكاتب قادراً على التعبير عن الدقائق والتفاصيل الموضوعية التى ترد فى الإنجيل أو عند أوبيديو ، وعندما يبدأ فى التعبير عن مشاعره الحميمة (الحب الذى يكنّه الملك للعذراء مريم) يتوقف القلم عن الكتابة ، وكان من

الضرورى توفّر روح الثورة والحزم لكسر القوالب الموروثة ، ومن لا يتوفر على هذه المواصفات فليصمت أو فليلجأ فى تعبيره إلى وسائل غير مباشرة ، فاللغة الجليقية المكتوبة بها تلك القصائد هى عبارة عن القول الحسن فنيًا ، ومن المعروف أن الجليقيين لم يكونوا فى مقدمة الصفوف فى معارك حرب الاسترداد وإنما ملئوا حياتهم بأمور لا تستلزم أية روابط اجتماعية أو السيطرة على السّمات الفردية وبذلك تركوا الطريق مفتوحًا لتراثهم الغنائى وللتأثيرات العربية المباشرة أو غير المباشرة أى من خلال البروفنسالية ، كما لجأ الشاعر القشتالى إلى الجليقية وارتدى القناع الرقيق حتى لا يُرى احمرار وجهه عندما يعبر عن مكنون صدره (٣٥) ، ولن يشعر ابن حفيد ألفونسو العالم (الملك ألفونسو الحادى عشر) بالخجل عندما ينطق بهذه الأبيات

أخذت زهورا فى زمن

من جنة عدن

رعيتها بحبى

وابتسامته العذبة (٣٦)

ويمكننا من خلال هذه الأبيات أن نقيس المسافة الفاصلة بين قشتالة القرن الثالث عشر وبين قشتالة القرن الرابع عشر .

الدين والأنماط الحميمة للوجود :

تفادى القشتاليون (حتى القرن الرابع عشر) التعبير عن مشاعرهم سواء المتعلقة بحب الله أو الحب الإنسانى ، وفضلوا موضوعية الأفكار الأخلاقية أو الشعر القصصى وخاصة الملحمى منه والمتعلق بالموضوعات القومية والتاريخية ، ولهذا الشعر الملحمى ملامح فريدة أطلقتُ عليها " السّمات القنطورية " ذلك أن التعبير الأدبى تجتمع فيه الجوانب الموضوعية (الأسطورة والأخلاق والموروثات ...) وكل ما يتعلق بالأمور

الحياتية الدّالة على حياة الفرد فى سياق تلك الأشياء الموضوعية ، ومن بين الأمور التى ذكرناها كانت قضية ابنتى السيّد حيث تركهما زوجاهما فى غابة كوربس Corpes حتى تأكلهما السباع وهذا ما يعتبر موضوعًا من وحى الخيال ، وهنا يظهر قريب لهما هو فليث مونيوث وينقذهما وهذا هو أحد الموروثات الأخرى (الطيبون ضد الأشرار) أى أننا أمام جزئية من الروح الأخلاقية وقد اتسمت بالموضوعية ، غير أن ذلك يدخل فى نسيج واحد مع واقعة قيام فيليث مونيوث الذى يمزق قبعته الجديدة ،وهذه هى إحدى التفاصيل التى تكسر من قوة ورصانة الملحمة ، وفوق هذا المسطح الضخم للروح نلاحظ تلألؤ روح تولد وتسهم فى خلق الشعور بأن الأحداث تتطور من داخلها بطريقة إبداعية .

ونم يكتمل تاريخ التعبير الإنسانى إذا اقتصر على تقديم المناطق العامة التى يتكون منها، والتى أدخلت فى هذا التاريخ بفضل رواسب الروح الموضوعية والسبق الوجودى. يقول هيدجر: " الإنسان وريث الأشياء وتلميذها " ، ولم يكن الرجل القشتالى استثناء من هذه القاعدة فلم يكن مجرّد صار عقيم تمرّ من فوقه أسلاك تلغراف التاريخ بل حقن طاقته فى الخط الذى يساعده على البقاء ، ومن الضرورى استحضار موروثات العنصر التقليدى ، غير أن التاريخ لا يظهر واضحًا وجليًا إذا لم نحسّ بالإنسان الذى يعيش وينشأ فى جوّ روحى يحاول به ومن خلاله أن يكون على ما هو عليه ، ونقلاً منا لمقولة اسبينوزا natura naturans, natura naturata نقول بأن التاريخ هو محصلة الارتباط بين spiritus spirituatus وبين spiritus spirituans وعندما لا نعثر على صدى ذلك يصبح التاريخ منقوصًا ويتحوّل إلى موضوع يخضع للتشريح الأكاديمى .

والأسلوب " القنطورى " فى الأدب هو علامة على وجود أنماط أرحب للحياة ، وهناك شيء يشبه ذلك فى الأدب العربى وذلك من خلال تكوينه الداخلى وهذا تشبيه مقبول على أساس أن الموضوعات والأنواع التى يتم إبداعها تختلف كثيراً فى كلا

الأدبين . المشكلة إذن معقدة ويجب طرحها من أكثر من منظور رغم أننا قد نقع فى محظور التكرار ، كما أن البحث عن المصادر وإبراز تشابه الموضوعات يساعدنا بشكل جزئى ذلك أن ما نبحث عنه يستكن وراء الموضوعات ، وما يهمنا هو حَميميّة الوجود أكثر من " تاريخ الأفكار " الذى يستغنى أحيانًا عن العلاقة الحيوية بين الأفكار والتاريخ نفسه (٣٧) ؛ وهنا لا يكفى أن نقيم العلاقة بين العمل ومصدره فإذا ما قلنا إن عملاً إسبانيًا اعتمد على مصادر عربية (وذلك ما سنراه فى حالة كتاب خوان رويث) فلا يماثل هذا قولنا بأن دانتى لجأ إلى قوالب عربية فى كتابة الكوميديا الإلهية ، وهذا ما أوضحه أسين بلاثيوس بجلاء والسبب واضح وهو أن إيطاليا لم تخضع للحياة الإسلامية ولم تتعايش مع الإسلام ولم تشعر به كشوكة فى جسدها .

لقد أفاد المسيحى من المورو ، كما أسرته الحضارة الإسلامية المتفوقة فى كثير من جوانبها ، و اتخذ الاحتياطات التى تساعده فى اتخاذ وجهة أخرى لحياته ، وهذا الموقف ثلاثى الأبعاد (الخدمة والانجذاب والحذر) يجب أن يكون نصب أعيننا حتى لا نتوه عندما نقوم بتحليل طبيعة الحياة خلال العصور الوسطى .

وقد كان ميدان الخبرة الدينية والأخلاقية المكان الشائع الذى التقى فيه المسيحيون والمور أو تباعدوا ، وسبق أن رأينا كيف أن ألفونسو العالم ضمَّ فى كتابه " القوانين " نظرية القرآن فى التسامح (٣٨) وكيف أن الزّهاد المحاربين من المسلمين قد أصبحوا فرسانًا تضمهم الجماعات الحربية ، وقد اجتمع فى هؤلاء الحرب والقُدُسية بشكل غير مسبوق لدى المسيحيين ، غير أن ذلك لم يكن إلا أحد جوانب الانسجام العميق بين الروحية والمادية والموضوعية والذاتية ، وهو انسجام بين وقائع وقيم متناقضة كان الغرب يجهلها خلال العصور الوسطى ، وعلينا أن نقوم فى هذه الحالة بالبحث عمّا يمهّد لنا الطريق الذى سنسير فيه وهو إلقاء نظرة سريعة على الصوفية والروحانية الإسبانية العربية وأسسها التى تقوم عليها .

القرآن الكريم كتاب سماوى يتدخل فى حياة الفرد ، أما المسيحية فالأب بالنسبة للابن وللكلمة مثلما هو الله للرسول والقرآن ، فكاتب الإنجيل يتحدث عما يراه ويسمعه

غير أن شخصه ليس من الماهيّة ، فالمسيحية لا ترتبط بأن يكون عدد الأناجيل المختصرة ثلاثة أو أربعة ، أما القرآن " إن هو إلا وحى يوحى " [سورة النجم – الآية رقم ٤] ، والرسول يتحدث بما يوحى به الله ، ويرى بعض رجال الدين أن هناك علاقة أبدية وضعها الله بين شخص الرسول والقرآن وهى نفس العلاقة القائمة بين المشكاة والنور [٣٩] ، لكن رسالة كاتب الإنجيل أكثر أهمية من شخصه ، أما ماهية محمد فهى أكبر من القرآن ، ولهذا أطلقوا عليه الحجة الكبرى أى التجلّى الإلهى الذى انطبع بعد ذلك فى عقول البشر [٤٠] فهو كتاب الله وكتاب محمد وهو كل شىء يرتبط بالذات الإلهية من خلال الكلمة إنما هو روح الله ، ويصبح الدين ذاتيًا ويظهر فى صورة كلامية، إنه التجلى الإلهى على الأشياء التى لا قيمة لها اللهم إلا بارتباطها بالخالق ، وبالتالى نرى أن مجىء العناية الإلهية ووجودها فى الدنيا يتم إدراكها بطريقة يستحيل على المسيحى تصوّرها إذ أنه قد عنى بالمراحل المقابلة لتلك التى عرضنا لها ، أى الوصول إلى الله من خلال بؤس العالم الدنيوى ، ولقد طارد الضيق والكدر (على الطريقة اليهودية) المسيحى فى حياته ، ومردّ هذا الضيق هو الخطيئة الأولى لكنها خطيئة لا يعنى بها المسلم فقد أنقذه إيمانه ، ولقد أقام الرسول محمد جسراً بين عالمى الدنيا والآخرة وتكفلت العقيدة بعد ذلك بوضع أسسه من خلال التأملات الافلاطونية الجديدة ، فأمور الحياة الدنيا نجدها أيضًا فى الآخرة والعكس صحيح يقول الله (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ، أؤلئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار يحلّون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابًا خضراً من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقًا) [سورة الكهف الآيتان ٣٠ ، ٣١] ، وقال أيضًا (وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين فى سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة وفرش مرفوعة ، إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً عربًا أترابًا لأصحاب اليمين) [سورة الواقعة – الآيات من ٢٧ إلى ٣٨] .

إذن لا توجد فوارق جوهرية بين ما فى هذه الدنيا وما فى الآخرة ، كما لا يوجد فارق بين الواقع الملموس والواقع الروحى ، الأمر الذى يساعدنا على إحداث التبادل

بينهما وتداخل أحدهما فى الآخر ، كما أن الاعتقاد الدينى يساعد على إقامة صلات بين وجود الإنسان وموضوعية الأشياء التى يعيشها ، وتنصهر كلتاهما فى وحدة المعايشة والتعبير ، وعندما ننطق بكلمة " دين " فنحن نفكر فى الحياة ككل فالعقيدة الدينية تشمل كل شىء بما فى ذلك ما يُنْظر إليه فى العالم المسيحى على أنه المؤسسات المدنية بلغة لا يعرفها الشعب حتى القرن الثالث عشر ، أما القرآن فهو الكتاب الذى يرتّله الجميع وهو مكتوب بنفس اللغة التى لازال المسلمون يكتبون بها حتى اليوم وهى اللغة العربية ، وهذا هو السّر فى عدم تحوّلها إلى لهجات أدبية .

ويشير القرآن إلى أن الإنسان يفتقر إلى الحرية ، يقول الله تعالى (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) {سورة الأحزاب - الآية ٣٦} .

وهناك بعض الآيات القرآنية التى نزلت قبل الآيات السابقة ، حيث ترسى أسس " حرية الاختيار ، غير أن إ. جودزهير I. Godzieher يقول " بأن الشعور الذى ساد الوعى الإسلامى تمثل فى ميله إلى رفض حرية الاختيار " (٤١) وبذلك يتم الإقرار بوجود الله وإرادته فى كل مكان وتُلغى إرادة الإنسان دون أن تتمكن أىٌ من الطوائف التى تقول بأن الإنسان مخيّر من زحزحة البعد الإيمانى ، فالإسلام والقدَريّة هما نفس الشىء .

ولنفكر الآن فيما يترتب على تلك العقيدة ، فإذا ما كان الله هو الذى يسيّر كل شئ صغر أم كبر فهذا معناه أن الخلق هو الحاضر الأبدى ، وطبقا لعقيدة المسلم فالله يفعل الآن ما كان يفعله عندما خلق الكون إذ لا توجد " أسباب ثانوية " فلا يمكن قبول الطبيعة أو الإنسان على حالهما ، فعندما يُخْلق المرء فهو غير قادر على التصرّف فى نفسه والسّير فى خط مستمرّ ، غير أن الباعث الإلهى ، أى النقطة أو اللحظة A يمكن أن نلمسها عند النقطة B أو العكس ، أى أن الفرد يمكن أن يكون شيئًا والشىء فردًا ، وهنا يرفض الإنسان خلق شىء له وجود موضوعى فالله وحده القادر على كل شىء ولا يجوز للإنسان أن ينافس الله ، أما الشىء الوحيد الممكن فهو إبداع واقع

أو إبداع " بروفيل " مفتوح مقابل للتفسير وأشكال تبدو كالنبات أو الحيوان لكنها لا تقلّد الأشكال الطبيعية (٤٢) ومن حقه اللجوء إلى الرسم غير المحدد أو اللانهائى مثل الأرابيسك أو الأعمدة التى تتكرر أشكالها فى مسجد قرطبة أو إبداع الحكاية التى لا تنتهى أبدا مثل ألف ليلة وليلة ، أو العودة إلى نقطة البداية مثل كتاب " الحب المحمود " لخوان رويث.

وكل شىء فى الدنيا له قيمته صغر أم كبر والله يرعاه ويحفظه ويمكن أن ينشأ عنها أى نشاط مثلما هو الحال مع البشر ، ويدخل هذا كله فى تيار الخلق الإلهى الذى لا يتوقف ، كما أن كل شىء عبارة عن لحظة عابرة تليها لحظة أخرى ، والدنيا إلى زوال ولها شرعية الوجود ، وبذلك نرى أن الوعى الشخصى يضم معايشة الأشياء والأشخاص المجاورين لها ، والعالم الإسلامى إنما هو عالم حسن الجوار حيث يقف الشحّاذ على نفس درجة علية القوم ، وما نطلق عليه الوضيع والحقير يدخل فى عملية تبادلية مع ما هو ربّانى مثلما ورد فى الأحاديث النبوية عن أن الرسول يطهّر نفسه بعد قضاء حاجته فلا شىء يخرج عن الديمومة الخاصة بالخلق الإلهى .

ولما كان الحجر أو العصفور لا ينطقان أما الإنسان فنعم ، فإن هذا الأخير عندما يتحدث أو يكتب يجتمع فى وعيه عدد هائل من المضامين إذ يغذى عقله بكل ماله صلة به سواء من قريب أو بعيد وهناك بعض المؤلفين العرب – الذين عاشوا خلال القرن العاشر (مثل المسعودى وكتابه مروج الذهب – يصنعون فى أعمالهم الكثير من الموضوعات التى تشمل مناطق فى العالم لا يمكن لأحد الوصول إليها فى وقت متزامن خلال العصور الوسطى (مثل **Polibio** و **Plinio** و **Pausanias**.. الخ) ، وهذا كله له صلة بالاعتقاد فى وجود صلة حميمة ودائمة بين المخلوقات وبين الله ، أما الوعى الذاتى فيصبح مفعمًا وينبسط بعد ذلك على ما يحيط به وهو وعى رحال لا مرفأ له ، كما أن مقارّه تنتقل من مكان لآخر كما سنرى عند ابن حزم وكذا تلميذه خوان رويث .

ومن المعروف أن المفكرين المسلمين قد لجئوا إلى فلسفة الفيض الأفلاطونية الجديدة والفلسفة القومية التى عليها ديمقراطيس **Demócratio** عند التدبّر فى المشاكل

المتعلّقة بهم ، كما لجئوا إلى كل ما هو فى اليونان أو المشرق ويتلاءم مع أنماط معينة فى تأمل الكون ، أضف إلى ذلك أن الاتصال الذى جرى فى سوريا ومصر بالثقافة اليونانية قد لا يفسّر وحده أمرًا بهذه الخطورة .(٤٣) .

فالوعى الذاتى يتكثف كنوع من المقابلة لصعوبة التوصل إلى أبنية ثابتة وموضوعية ، يقول ماسينيون Massignon فى تحليله الرائع لمفاهيم التصوف عند الحلاّج :

" الذرة هى الجزء الذى لا يتجزأ فى واقع كل شىء مخلوق ... فالله الذى خلق الذرّة ثم يعيد خلقها فى كل لحظة ويجمعها حسب إرادته ويخلق منها أجسادًا وكأننا أمام عملية بناء متقطّعة ومؤقتة ، وهذه العملية تفتقر إلى وجود خاص بها لكن الذرّة هى الشىء الوحيد الموجود ، فكل شىء - ابتداء من الوحدات الهندسية حتى الحالات الإنسانية - ليس إلا عدمًا محضًا ، وأحداثًا ذاتية وزائلة متراكبّة فوق حشاشة القلب " (٤٤) .

يتداخل كل من الدين والفلسفة بشكل قوى ، ولا تقوم الفلسفة على فكرة موضوعية أو على المعرفة الثقافية بل على " حشاشة القلب " ويوجد فى العالم الإسلامى فلسفات أكثر رصانة لكنها أقل قربا من المشاعر الدينية من تلك التى ترتبط بالأفكار أو الاتجاهات الشائعة وهذه التى تهمنا ، ذلك أنها الأكثر انتشارًا والأكثر تأثيرًا على الجو الذى يتلاقى فيه المسلمون والمسيحيون فى إسبانيا وتدخل الصوفية والغنائية والترجمات الذاتية وتكامل الوعى مع جماع الشخص والظروف المحيطة به (أى بكل كيانه طبقًا لابن عربى) فى هذا النمط ، أما المسيحى الذى لم يتأثر بالإسلام فيعيش حياة مختلفة - إذ يؤمن بالعالم الذى خلقه الله وأنه ليس هناك إعادة خلق فى كل لحظة حتى ولو كان ذلك فى أصغر مكونات العالم ، ويعتمد المسيحى على حريته الداخلية

وعلى "الروح التى أصبحت روحانية" Espiritu espirituado لكنيسته التى تحدد له بوضوح الصالح من الطالح وتتولى ترتيب العالم بشكل تدرّجى يبدأ من الأدنى إلى الأعلى وهو الذات الإلهية ، كما تتولى الكنيسة تقييم سلوك البشر ، أما المسلم فعليه أن يحمل حياته كلها " فى حشاشة صدورنا " وهو على وعى تام بالروح التى تصنع الروحانية Espiritu espitituante والتى تمارس تأثيرها على " الروح التى أصبحت روحانية " إذ ليس هناك فاصل بين الحياة والعالم وعيشها وبين الوعى بأن الإنسان يعيش مثل هؤلاء الناس الذين يراقبون الدورة الدموية التى تجرى فى عروقهم .

وعندما نقرأ أدب العصور الوسطى الذى لم تكن له صلة بالإسلام من قريب أو بعيد نخرج بانطباع هو السكون إذا ما قارنّاه بالأدب الإسلامى - العصبية الفيّاضة وغير المتحفّظة - ويشعر الغربىّ بذلك الأسلوب كأنه نوع من الشعبية وسلوك العامة ويَسِمُ ذلك بأنه واقعى أو أنه أدب الصدمات ، غير أن ذلك الحكم يبدو وكأننا نشعر بالمفاجأة عندما نرى السمك يعوم جيداً .

وعلينا أن نتوقف الآن لحظةً عند واحد من أعظم الشخصيات الإسلامية ألا وهو ابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧م) الفيلسوف والعالم الموسوعى حيث حاول التوفيق بين الأفلاطونية الجديدة والقرآن (٤٥) وهو بذلك سابق لما قام به القديس توماس فى المزج بين أرسطو والكاثوليكية ، والمشكلة التى يطرحها هى علاقة الله بالكون مثلما كانت عند الحلاّج فالفيض الإلهى يؤكد الثقة فى التبعية والجوهرية والديمومة التى عليها المخلوق " كما أن العقيدة الإسلامية تتكون من الفكر الحىّ الذى يصل إلى أدق خصائص الوجود الفردى والجماعى وهو علم العلوم والإيمان الأصيل ، ومن هنا نجد أن الفكر الإسلامى لم يدخل فى دائرة المرحلية مثلما حدث فى أوربا المسيحية وذلك أن القرون الوسطى أخذت تقبل بالفصل بين العقيدة والعقل ، ثم أخذت تنفّذه بعد ذلك ، وليست مهمتنا هنا تناول فكر ابن سينا بل النظر إليه على أنه مثال على كيفية تشابك النمط الداخلى الفلسفى العَقَدى مع طريقة التعبير عن ذلك الفكر (٤٦) وسوف يساعدنا فى هذه النقطة كتاب صغير لابن سينا " يتحدث فيه عن تشكل الصخور " (٤٧) حيث يتم وصف كل

شيء لا من الناحية الفنية بل من منظور التشكّل المستمر ، فيبدأ بالجبال أولاً وكيف تشكّلت وكيف تكوّنت الأحجار والصخور والقمم الجبلية ... وهناك الكثير من الأحجار التي تتكون من مادة صلبة .. وأحياناً ما يجف الطين ويصبح في حالة وسط بين الطينية والحجرية أي يتحول إلى حجر فيه ليونة ثم يزداد الجفاف فيصبح صلباً . وبعد ذلك يعرج المؤلف على حياته هو كشخص وأنه شهد في طفولته محاجر من هذا النوع من الطين حيث كان الناس يستخدمونها لغسل رءوسهم ، ولاحظ بعد ذلك أن الطين المذكور تحول إلى حجر طري وقد استغرقت عملية التحوّل هذه حوالي ثلاثة وعشرين عامًا (٤٨) وقد رفض المترجم اللاتيني هذا الأسلوب المشرقي (أي التكامل الوجودي) وحوّله إلى أسلوب تعليمي وموضوعي " نحن نعرف أيضًا ما في تلك الأرض "{صـ ٤٦} وهو بذلك يقدم لنا فرصة سانحة لقياس المسافة الفاصلة بين نمطين للعيش ، فقد رأى المترجم اللاتيني أنه لا يجوز الخلط بين طفولة المؤلف وغسل الرأس ومن ثم استخلص منه المفاهيم الموضوعية ، وهذا ما فعله مؤلفو الدراما الفرنسيون قبل ذلك بقرون عند ترجمة مسرح لوبي دي بيجا وفرنسته حيث تشابكت الأشياء والأفكار بحياة ووجود من يعيشونها ، ويوضح لنا ذلك المثال الأهمية الكبرى في مقارنة هذه النصوص بالأصول العربية وكذلك بتلك النصوص التي ترجمت إلى اللاتينية في طليطلة القرن الثاني عشر.

وعلينا أن نواصل قراءتنا لابن سينا حيث يشير إلى أنه يوجد في الجزيرة العربية جزء من صخور بركانية تكْسبُ لونها كل ما يسقط عليها من أشياء . ويقول بأنه رأى كسرة خبز رقيقة وقد تحجرّت إلا أنها حافظت على لونها الأصلي كما لوحظ أن أحد وجهيها به آثار الفرن { صـ ٢٣ } {وقد لوحظ أن من قام بترجمة النص العربي إلى اللاتينية فضل ابتسار النص وقصره على المادة الوصفية العلمية دون إدخال التجربة الشخصية والمعايشة القائمة في النص الأصلي} (صـ ٤٧) .

وينتزع بذلك بعدًا حياتيًا ممتعًا ويقدمها لنا عن تجربة ويلطف بالمقارنة بمن قام بترجمته (٥٠) .

ويواصل المؤلف سرد الصعوبة فى التعامل مع جسم ثقيل ، وعند القيام بقطعه لجأ إلى استخدام هذه الأدوات وتلك الأخرى ، وفى هذا المقام يتحدث ابن سينا عن صديق يعمل محاميًا وكان قد حضر كل التفاصيل إذ تمكنوا من صنع سيف باستخدام حجر نيزكى ، ويسرد له الناس هنا أن الكثير من السيوف الجميلة المصنوعة فى اليمن هى من ذلك الحديد النيزكى { وهو حجر مكون من النيكل والكوباق } كما أن الشعراء العرب تحدثوا فى قصائدهم عن ذلك الأمر (ص٢٤) .

وهانحن نرى ظاهرة طبيعية مرتبطة بالزمن الذى يعيش فيه المؤلف وكأنها حدث إنسانى بكل ما يتعلق بها ، فكأننا أمام تطوّر حيث تنشأ عن كل لحظة لحظة أخرى فى تسلسل مفتوح وكأن ذلك جزء من عملية الخلق الإلهى ، ثم نجد الشعر فى النهاية . ولا يمكن أن نعثر على ما هو أفضل من ذلك للتدليل على ما قلناه والذى يعكس بشكل جلىّ الطبقات العميقة للوجود الإسبانى الإسلامى ، وغنى عن القول أن المترجم اللاتينى يعرض كل ذلك فى شكل مجرّد " وفى فارس يسقطون أيضا من جراء وميض أجسام نحاسية {صـ ٤٧} ، ويتولى المترجم (دون أن يشعر بحشاشة الصدر) اختصار ابن سينا واعتصاره، ويباعد عنه العصارة ثم يتركه وقد حوّله إلى ألياف لا طراوة فيها ، ولو أن الإسبان فعلوا نفس الشىء لملكوا سرّ علوم الفيزياء والرياضيات ، ولكن لم يكونوا لينتجوا أدبًا مثل أدب لوبى دى بيجا أو فن بيلاثكيث أو أشعارًا مثل أشعارِ أونامونو .

ومن المعروف أن أسلوب ابن سينا أسلوب عادى فى الأدب الإسلامى بصفته انعكاسًا لنمط داخلى للعيش ، ونعثر على ذلك سواء فى الأعمال والمؤلفات الكبرى أو تلك المتواضعة ، ومن اعتاد قراءة الأدب الإسبانى وعرف طبيعة الإسبان لن يندهش عند قراءة تلك الأمور ، فقد كان خايمى الفاتح وبيرثيو ولوبى دى بيجا وجونثالو فرنانديث دى أوبيديو والقديسة تيريسا والفلاح الأندلسى يتحدثون بنفس الطريقة ، والسبب فى اختيارنا لابن سينا هو عدم وجود أى صلة لهذا المفكّر العظيم بإسبانيا ، كما أنه ولد بعيدًا وراء بحر قزوين وتربّى فى أصفهان ، وأحيانًا يقال بأن الإسبان من

المسلمين كانوا قد شكلوا أرواحهم فى إسبانيا فقد قاموا بامتصاص الثقافة الإسبانية القوطية ، غير أن هذا التأكيد لا يخرج بنا من دائرة الغموض ولا يفصح بوضوح عمّا يوجد فى الإسلام الإسبانى ولا يوجد مثله فى الحضارة المسيحية فى كل من سوريا ومصر ، وعلى أية حال لن يُشَار إلى نص واحد سابق على مجىء المسلمين {سان إيسودورو وسان براوليو مارثيال وسينكا ولوكانو وبومبونيو وميلا ... الخ} وقد تمّت صياغته بالطريقة التى عليها مؤلفات ابن سينا حيث نجد أن العلم يختلط بكسرة الخبز وغسل الرأس وبالصديق ...الخ ، لكن هذا هو ما نراه لأول وهلة عندما نبدأ قراءة ملحمة السيد : إذ هناك ارتباط بين الأسطورة والتجربة الذاتية حيث يعبر البطل عن نفسه من الداخل والخارج ويقص علينا بعض الطرائف ويصف بيرو برموديث بأنه أبكم لأنه يتلعثم ، كما نجد شخصية أخرى تتجشّأ بطريقة منفّرة ، ونتصوّر ما أكلته تلك الشخصية من خلال رائحة فمها ...الخ . إننى أكرر ما أقوله مرات ومرات بهدف توضيح أن البعد التاريخى فى الملحمة الإسبانية يمثل جانبًا من التكامل القائم على خمسمائة عام من التعايش مع الإسلام .

لكن الإسلام بقى رغم الطائفية والخلافات والسبب هو أن القرآن هو الجوهر وهو إعلان الإيمان (لا إله إلا الله) وليس الانتساب إلى كنيسة تقوم على التدرّج الذى يتجاوز الفرد ولقد عاش أبناء الدول الإسلامية – وكذا الحكومات – خاضعين للعقيدة سواء من الناحية الفقهية أو الحكومية اللهم إلا إذا تخلوا عن الدين مثلما فعلت تركيا فى زماننا المعاصر ، ولقد كان الأفق مليئًا بأشخاص يرتبطون بعقيدة وليس من خلال المفهوم الموضوعى للواقع عندما أحدث تأثيره فى وقت واحد على الجسد والنفس والروح ، ولم يبق هناك مكان للتأمل (اللهم إلا استثناءات ضئيلة) وهذه صفة تنعزل عن المشاعر والأحاسيس .

والصوفية والسكون ووحدة الوجود كلها من صفات المتصوفة حيث نرى ذلك فى أدبهم ، ويمكن للقارئ العثور على المراجع التى ذكرناها سابقًا ، كما أن هناك جانبًا آخر ، ولو أنه لا يقتصر فقط على الأدب الدينى ألا وهو أن الشخص يظهر هنا (كما

سبق أن أشرنا) كرأس تلتقى فيها النعم الربانية (الخوارق) مع عالم المحسوسات المرتبط بتلك الخبرة ويتذكر المتصوف سعيداً الظروف التى عاشها حتى وصل إلى اللحظة التى يتلاشى فيها كل ما هو عرض ومؤقت وهنا ينبسط فى الذاكرة – ككل – مشهد كامل لما هو إنسانى وإلهى وهذا ما نجده عند ابن عربى (١١٦٥ – ١٢٤٠م) فهو رجل لا يمل من ترديد تفاصيل حياته دون إهمال الزمان والمكان وسوف أسوق هنا مثالاً لأوضح كيف أنه فى عام ١٢٠١م استطاع متصوف مسلم أن يحدثنا عما يحدث بتلقائية كاملة ويبتكر الصيغ الأدبية فى الوقت الذى لم يكن الأدب المسيحى قادراً على أن يسرد الواقع المعاصر الذى يعيش فيه الكاتب بطريقة واضحة، فقد ذكر أنه كان يعيش خلال عام ١٢٠١م فى مكة ويتعامل بعض الناس رجالاً ونساءً من ذوى المعشر الطيب والحيوية وسعة الثقافة لكن لم يكن هناك من بينهم من يشبه العلامة زاهر بن روستام المولود فى أصفهان والقاطن مكة، وكذا من يشبه ؟ طاعنة فى السن هى بنت روستام فخر النساء. وكان لذلك العلامة ابنة شابة يطير لها شغاف قلب من رآها وهى زينة المجالس وقرة العيون. واسمها نظام وتلقب بعين الشمس، كلها حيوية وتديّن وعلم وتتجسد فيها كل طهارة وقداسة البيت الحرام وبراءة الشباب، تجلب العقول بنظراتها وعذوبة حديثها.

ويشير ابن عربى إلى أنه تعامل معها بعض الوقت ولاحظ السمات الحميدة التى عليها روحها، وعلى ذلك فقد اتخذها مصدراً لإلهامه وخاصة فى نظم القصائد التى يتضمنها كتابه وأنها أشعار مكتوبة بعبارات رشيقة لها مفاهيم رفيعة تميز بأنها لو تعبر بصدق كامل عما كان يعتمل فى صدره نحو هذه الفتاة التى أصبحت محط آماله وأشواقه الروحية [٥١] .

وملهمة كتاب ترجمان الأشواق هى الجميلة " نظام " وقد ترجم هذا الكتاب على يد ر. أ. نيكلسون R. A. Nicholson، غير أن المرأة كغاية ومحرض على الإبداع الروحى يُرى أثرها فى الأدب العربى قبل عام ١٢٠٠ بكثير (وقد ظهر ذلك عند القرطبى ابن حزم على سبيل المثال (٩٩٤ – ١٠٦٣م) وتتعارض هذه الصورة للمرأة

مع صورتها الأخرى لدى العامة والقائلة بأن النساء يجب أن تقتصر مهمتهن على الأعمال المنزلية أى أن تكون أما وزوجة ، غير أننا نجد عند ابن عربى حالة فريدة من حالات تبجيل الفتاة المثالية وهى حالة سابقة على امرأتين أخريين هما: بياتريث ولاورا ولم يتم تناول الموضوع من زاوية الأسلوب بل من المنظور القصصى : إذ كانت نظام تتحدث بلهجة أهل العراق ، ويلاحظ أن الأسلوب يحلّق فى الشعر الغنائى ثم يتدرّج الأسلوب ليتناول أبسط التفاصيل التى يمكن إدخالها عن جدارة فى التركيبة المعقدة وهى الواقع المثالى والواقع اليومى ، وهنا نرى بين أيدينا جزئية مما ستكون عليه ذات يوم رائعة ثربانتس (دون كيخوته) ، ومن المعروف أن ابن عربى لم يكن يحاول كتابة رواية كما لم يتمكن من ذلك إذ كان يطمح لشىء مختلف وهو أن يضم قلبه حبه لله وحبه للنظام ، إنه يطمح إلى اللانهائى ، وهذا ممكن من خلال التداخل بين ما هو إلهى وما هو إنسانى ، ولا تشبه كتب ابن عربى تلك الكتب التى أطلق عليها فيما بعد مذكرات فلم يكن قصده الحديث عن وقائع مهمة يمكن أن يكون قد شارك فيها بل الحديث عن كل شىء أسهم فى تشكيل " الأنا " الأكثر حميمية ، فالأحداث هنا معايشة خالصة ، والنموذج الأقرب لهذا النمط من الأدب (وليس النوع) قد يكون " حياة القديسة تيريسا وهذا أكثر من " الاعترافات " على لسان القديس أغسطين حيث نلاحظ أن عالم المحسوسات يتلاشى من وعيه .

وحتى يتمكن ابن عربى من اقتناص انعكاسات الحياة المحيطة به يحدثنا عن سيرة خمسين من عمالقة التصوف فى الأندلس تركوا أكبر الأثر فى نفسه "نونا فاطمة" الأشبيلية واحدة من هؤلاء ، فقد توفيت عن عمر يناهز التسعين عاما ، ويلاحظ أن تأثير الأنثى لا يرتبط دومًا بالحديث عن جمال وفتنة الجسد الشاب . كان ابن – طبقًا لما يرويه – عندما يجلس للحديث معها يشعر بخجل عندما يتطلع إلى وجهها لرقة ملامحها واحمرار خديها رغم بلوغها التسعين من العمر. ولقد قام بنفسه بإقامة منزل صغير لها من الأعشاب تعيش فيه برفقة اثنين من رفاقه وعادة ما كانت تتفوه بعبارة تشير إلى تفضيلها لفلان من الناس على غيره ، وهى بذلك تقصده هو. وعندما كانت تُسأل عن السبب تشير إلى أنهم عندما يجلسون إليها للحديث معها لا يفعلون ذلك بكل

كيانهم وروحهم أى أنهم موزعو الشتات بين الحديث معها وبين مشاغل الحياة اليومية. لكن محمد بن العربى هو ابنها الروحى وعزاء عينيها. إذ عندما يدخل ليتحدث إليها فهو بكل كيانه وروحه ويظل على هذا الحال منذ أن يجلس حتى ينهض وهذا ما يجب أن يكون عليه طريق حياة الزهد والتصوف (٥٢) .

وتتولى العجوز الأشبيلية ، من خلال كلماتها ، (وبكل كيانها) الوصف الدقيق لما أطلقنا عليه التكامل الإسبانى " وإذا ما تحدثنا عن الصوفية لم يكن الهدف هو أن نأتى بالجديد فى دائرة المضمون العَقَدى بل الوصول إلى هذه النقطة حتى نتمكن من تأمل المشكلة المطروحة أمامنا ، فابن عربى يربط رغبته فى الخلود بوجود شخص تتوفر عنده نفس الرغبة ، وهذا الشخص نراه فى أبسط حالاته وتصرّفاته اليومية – حيث يتحدث وينهض ويجلس – ويقدم لنا كتابه ترجمان الأشواق وبداياته فى وقت وزمن معينين ، ويشعر " بنظام " فى داخله وهى امرأة كانت تعيش فى مكة عام ١٢٠١م لكنها تتحدث بلهجة أهل العراق ، وهنا نفهم كيف كان ممكنًا عند " السيد " فى الملحمة التى تحمل اسمه – وهو البطل المثالى – أن يضم فى داخله ذلك " السيّد " البرجوازى الذى يملك عدة طواحين إلى جوار نهر أو بيرنا – وقد كان يملك بالفعل تلك الطواحين ، كما أن المنشد ومستمعيه يعرفون ذلك .

هانحن نرى المسار الحياتى الذى أراد القدر لإسبانيا أن تخطو فيه وتقوم بعمل الأشياء " بكل روحها " (٥٣) " وكل كيانها " ، ومن خلال هذا الطريق الملىء بالطموحات والأشواك جرت أكبر المحاولات الناجحة ، والفاشلة أيضًا ، فالعيش بكل الكيان يرتبط ارتباطًا حميمًا " بالعيش فى اللاعيش" وعندما نتخذ هذا المنظور أجدنى أفهم دون كيخوته وسانشو وحياة القديسة تيريسا ولوبى دى بيجا بشكل أفضل كما ندرك بوضوح الظواهر التاريخية الصادقة التى تعتبر مجرّد محصلة للواقعية الإسبانية أو النزعة الفردية ؛ وعندما تحدثت فى مكان آخر من هذا الكتاب عن اعتراض كل من أونامونو وأورتيجا إى جاسيت على " تاريخ الأفكار " الصادر عن " فيلسوف مجهول " أشرت إلى أن ما يهدف إليه هذان المفكران هو " الأفكار بكل كيانها " دون عزلها عن محيطها الإنسانى التاريخى .

علينا العودة إلى عالم التصوّف ، لنرى أن إحدى تفريعات نمطية الحياة الإسلامية (التى قدمها القرآن كبديل) تتمثل فى أن العقيدة الجديدة تضم فى مسارها التنازل والتخلّى الصوفى مثلما هو الحال فى الأبيقورية ، وقد ظهر من بين صحابة الرسول نموذج المسلم شديد الورع واسع الثراء (٥٤) وهذا يرجع إلى التكامل " السماوى – الأرضى) فى عقيدة تولى اهتماماً كبيراً بآثام الروح بالمقارنة بآلام الجسد ، وفى هذا المقام نجد أن الصوفيين والزهّاد (فيما يتعلق بالرخاء المادى ورفض الثروة) جمعوا بين الحياة الصوفية وأن يكون لهم فتاة جميلة ، وكان هناك ما هو أسوأ وهو التغنى بجمال الفتيان، فقد كان لعبد الله بن موررون (أشبيلية) امرأة جميلة وشابة تفوقه ، كما كانت تعيش حياة روحية كثيرة النشاط ، وهناك أبو على الشقاز " الرجل الذى اتسم بالظرف والفكاهة حيث يروق له سرد النكات المتعلقة بالحقيقة ، ولما كان لقبه يعنى القيام بدبغ الجلود الرقيقة والناعمة كما أنه كان عاجزاً جنسيًا ، فقد حاولت امرأة السخرية منه من خلال اللعب بالألفاظ فكان ردّه عليها كله ذكاء " (٥٥) وقد ذكر ابن عربى كل ذلك فى كتابه الذى يتحدث عن سيرة هؤلاء الذين كان لهم تأثير فى حياته .

أما فيما يتعلق بالأدب الدينى أو الأخلاقى فى العصور الوسطى المسيحية فنجد أن المرأة هى رمز الإثم وهى فى الأدب العربى – خلال نفس الفترة – رمز وحافز للتوجه إلى الله ، ولا يقتصر الأمر على كونها جميلة مثل نظام ، كما احتلت المرأة مكانة رفيعة فى حياة هذا المتصوف وهى " نونا فاطمة " رغم بلوغها سن التسعين ، كما كانت امرأة أخرى تدعى ياسمين وشمس على نفس الحالة حيث يشير إلى أنه (ابن عربى) لم ير فى حياته إنسانًا يفعل مثل ما تفعله هذه المرأة بحرصها الشديد على معاقبة روحها {نفس المصدر صـ ١٨٠} .

لقد صمت الأدب فى إسبانيا المسيحية عن الحديث عن تلك الظواهر (تأثير نفس على الأخرى) حتى جاءت القديسة تيريسا (٥٦) وقصت علينا مراحل تشكّل وجودها الروحى وكيف أثرت فيها القراءات ، ومن مَثُلت أمامهم للاعتراف ، غير أن هذه الظاهرة شائعة الانتشار فى الأدب الإسلامى قبل ذلك بقرون ، أى قبل أن يكون للكتّاب

الرومانيين عيون لإدراك ذلك الموضوع ، وعلينا أن نتنحى عن الاعتقاد العقيم والقائل بأن المرأة فى الإسلام لا تمثل إلا واقعًا فسيولوجيا ونتناسى أثر جمالها وروحانيتها وحسّها المرهف فى تشكيل فن التعبير اللغوى ، ولما كانت المرأة عبارة عن فسيولوجيا خاصة فهى تقود إلى الروح مثلما هو الحال فى الأرواح التى تتجه إلى دائرة المشاعر ، ولم نعثر على أى من الأشعار الرومانية (خلال العصور الوسطى) التى تمكنت من تضمين الكدر والضيق (الذى يعيشه الجسد والضمير فى وقت معًا) فى وسائلها التعبيرية دون تجريد أو رمزية ، والخروج من وراء كل ذلك بخلاصة شعرية تماثل فى صورتها الوردة عندما تتفتح وتعطينا عبقها ودلالة النبات الذى يحملها .

وعلى القارئ أن يحكم بنفسه على هذه الأشعار ، واضعًا فى اعتباره أن الترجمة تسىء إلى النص الأصلى ، وسوف نعرض هنا بعض أبيات من الشعر لابن فرج المولود فى جيان Jean (الأندلس) والمتوفى عام ٩٧٦م . ويتحدث فى القصيدة رجل عفّ فيه روح الصوفية التى يجتمع تحت سقفها كل من هو عفيف ومن به شبق ، يقول أبو عمر بن فرج :

وطائعة الوصال عففت عنها	...	وما الشيطان فيها بالمطاع
بدت فى الليل سافرة فباتت	...	دياجى الليل سافرة القناع
وما من لحظة إلا وفيها	...	إلى فتن القلوب لها دواعى
فملّكت النّهى جَمحَات شوقى	...	لأجرى فى العفاف على طباعى
وبتُّ بها مبيت السّقْبِ يظما	...	فيمنعه الكعام من الوضاع
كذاك الروض ما فيه لمثلى	...	سوى نظر وشم من متاع
ولست من السوائم مهملات	...	فأتخذ الرياض من المراعى (٥٧)

ليت العبارات والصور العربية تتمكن من مسامعنا مثلما هو الحال بالنسبة لدانتى الرجل الخبير فى مجسّمات الأصوات ذات الدلالة البليغة :

الحب والقلب الرقيق شئ واحد — Amore e'l cor gentile una cosa .....

امرأة رحيمة وشابة ... — Dona pietosa e di novella etate .....

وعندئذ سوف نتمكن من إدراك القيمة الكاملة لأشعار ابن فرج ، إلا أننا يجب أن نلاحظ الفروق الشاسعة بين الفن الأندلسى والفن الخاص بالفلورنسى دانتى حيث تبدو أشعاره موضوعية وتَصْدر فى سلسلة من الأحكام القيمة :

Tanto gentil e tanto onesta pare...

La vista sua fa Onna Cosa unile

تبدو رقيقة وعفيفة جداً

يخشع كل شىء مع طلعتها البهية

وهى أبيات تتسم بجمالها وتأثيرها الآسر الذى يجعلنا نستسلم لها دون تحفظ أو أن نسأل أنفسنا عن قائل هذه العبارات النابضة قوية البنيان ، غير أننا لا نعثر على وجود من ينطق هذه الأبيات بصفته عنصراً شعرياً حيوياً ، لكن الأشعار العربية (بغض النظر عن تقييمها العام بالرقيعة أو المبتذلة) تستلزم وجود من ينطق بها فهو نفس تسكنها الرغبات المحموديفة التى تشعر بخوائها عندما لا تروى عطشها ، وهنا يمتلئ خواء الحب بالشعور الكامل للفرد : " أنا لست كالسوائم " وهذا تعبير يبدو منطقياً لأول وهلة ومانعاً للاحتضار ، غير أن قوة التشبيهات والاستعارات توضح بجلاء الثمن الباهظ الذى يتم سداده مقابل البذخ الأخلاقى المتمثل فى التخلّى ، وتتحوّل الفكرة الرواقية – المسيحية – الإسلامية إلى مشروع حياة كاملة وشعرية ، كما لا تنحصر فى مجرّد درس فى الأخلاق فالمرأة هى الإثم وهى الأعجوبة حيث ينقشع ظلام الليل بجمالها ، وقبل أن يظهر دانتى إلى الوجود بثلاثة قرون نجد نصوصاً تتحدث عن الجمال وأن جمال المرء يشع ويبسط ضياءه ولا يمكن لأشعار ابن فرج أن تفعل شيئاً فى موضوع الزاهد وتأملاته وهو موضوع محبب لمترجمى السِّير فالزاهد يصارع ميله من خارج نفسه ويعيش التوبة المتشددة أو يطلب العون الإلهى ، والهوى

فى الشعر الإسبانى عبارة عن مخلوق غاية فى الجمال كما أن مقاومة الأهواء تنشأ من أعماق النفس " عضّدت المعنى الإلهى " و " لست مثل السوائم الهائمة " .

وقد دار نقاش فيه شىء من الإبمهم حول العلاقة بين الشعر الرومانسى والشعر الإسلامى وربما لم يوضع فى الاعتبار الاختلاف بين التعبير عما يشعر به " الفرد الغنائى " للشعر وبين التعبير عن مشاعره كمرحلة حيوية ، أى نوع من العمل الدءوب الذى يقوم عليه الوعى حيث نجد أن " الداخل " و " الخارج" قد تداخلا ومن المستحيل الفصل بينهما ، وعلى أية حال فالبعد الإسلامى فى قصيدة السيد والذى لا نجده فى أى من الملاحم الأوربية أو لدى أى كاتب آخر هو :

من عينيه يبكى بحرقة شديدة

كان السيد " يدير رأسه إلى الوراء " وينظر إلى منزله الذى يجب عليه أن يغادره ويبقى مفتوح الأبواب بدون مفاتيح والصوارى بلا صقور غير أن البطل أحزنه ظلم الملك فكان ردّه :

فهزّ لها سيدى كتفيه ونتر رأسه :

" الغنائم يا ألبار هانيث أخرجتنا من أرضنا

لكن ، وبشرف عظيم ، سوف نعود إلى قشتالة (١٣ - ١٥)

الروح الحزينة لها رد فعل ينعكس عليها ثم يتحول إلى صيحة فرح وحسم ، فهو فى اللحظة الأولى يبكى وتصدر عنه الآهات ثم " يهز رأسه " ويتحدث والأمل يملؤه ، ومن يتذكر قصيدة رولان سوف يلاحظ الفارق الشاسع بين هذا التصوير وبين مشاهد يمكن أن تكون مشابهة :

عندما استعاد الكونت رولان القدرة على التفكير

هب واقفًا ، لكنه يعتصره الألم .

كان ينظر إلى الأمام ، وبعد ذلك نحو الخلف : (٢٢٣٣ - ٢٢٣٥)

وهنا نرى رولان داخل عالمه الأسطورى أى فى مضارع لازمانى ، أما السيد فيقوم بتصرفات كان لها استمرارها فى الماضى {كنّا .. نغنى} ، لكن رولان يتأمل (من خلال كونه أسطورة) موت توربين (أسطورة أخرى) ، والسيد يتأمل الأبواب والأقفال والصوارى الخاصة بالصقور التى غابت ، إضافة إلى ذلك نجد رولان يدخل فى سرد أسطورى يَجعله عاجزًا عن الحركة ، غير أن السيد يتحرك من داخله ويشعر بالحزن أحيانًا وبالبهجة أحيانًا أخرى وإلى جوار حزنه وفرحه نجد ترجمة ذلك فى جسده والأشياء المحيطة به : هناك قصر مهجور ، ونعيق الغربان ..الخ ، كما أن العبارات الموروثة " من عينيه يبكى بحرقة " والمعهودة فى القصائد الملحمية ، (والتى نراها فى هذه القصيدة) فلها وظيفة مختلفة ، غير أن الأكثر أهمية هو السيد (مثلما هو الحال فى الأشعار العربية التى تحدثنا عنها سابقًا) ينقل حالته المعنوية لتعضيد " مفهوم " يمكن إدراكه رغم أنه غير مباشر ألا وهو أن القائد يجب أن يشيع الثقة بين من هم معه وذلك باللجوء إلى خفة الظل والمرح المناسب " ائتنى بالبشارة يا ألبار هانيث ، إذ أبلغك أنهم طردونا من المملكة! " ؛ هاهو يكسر الإطار الموضوعى للسّرد وبدلا منه نجد أنفسنا أمام أسلوب وصفى ، فالحياة تصبح حاضرة داخل المرء وقرينها هو الأدب والحياة الإسلامية .

الزهّاد والمتصوفة :

وجد الزهد والتصوف مكانة لهما فى الإسلام (٥٨) ذلك أن جوهر الدين الجديد يدعو إليهما أكثر من مجرد الاتصال بالفلسفة الأفلاطونية الجديدة عند المسيحية أو البوذية ، فالأفكار لا ترحل ضمن أحمال القافلة بل إنها لا تنفصل عن إنسان وعن العالم المحيط به وهنا توجد ويصبح لها مغزى ، وتتميز العلاقة القائمة بين المسلم ودينه بالقرب والرحابة أكثر مما عليه المسيحى فأسس الاعتقاد الإسلامى هى الإيمان والمتاب والله ، كما أن الرباط الدينى يتم من خلال الصلاة والحج إلى البيت الحرام وصوم رمضان وإيتاء الزكاة ، إذن لم تكن هناك هيئة دينية لها أصولها الواضحة

(على الطريقة المسيحية) من الناحية الدينية من حيث الاعتراف وتناول القربان اللذان يضمان المؤمنين فى دائرة المجتمع الروحى ، وكانت القنوات المتاحة بين المسيحى وربّه محدودة من جانب القوى الروحية والسياسية للكنيسة التى تظهر ملامحها فى تدرج منقول نقلاً حرفيًا عن الإمبراطورية الرومانية .

فالإنسان المسيحى يجب عليه – أولاً – الاعتراف بهذا التدرّج الذى يضم أعوانًا للرّب وهم وحدهم المخوّلون بتنفيذ الطقوس الدينية وتوجيهها الوجهة الصحيحة ، ومن هنا نجد أن المنطقة الخارجية المنظمة كانت أكثر رحابة من الحميميّة الحرة للضمير أى الاتصال المباشر بروح الرّب ، لكن الإسلام له موقف مختلف فليس هناك رجال دين أو سلطة دينية متدرّجة ، وكان العلماء فى فقه القرآن يحتلون هذه الأماكن وكذا الفقهاء والأئمة الذين يتولون الإمامة فى الصلاة ، والعلاقة بين الله والمؤمنين مباشرة كما أنها كذلك بين الله والرسول ، ويتم كل هذا من خلال الصلاة والأعمال الروحية الأمر الذى يتضمن نوعًا من المواقف الشخصية الأكثر تحررًا بالمقارنة بالحالة التى عليها المسيحى، وقد ظهرت الجماعات المتصوفة خلال القرنين السابع والثامن وكانت تضم زهّادًا ومتصوفةً يرتدون الملابس الخشنة ، كما أن الصلاة هى عماد الحياة الدينية وذكر الله " واذكروا الله ذكرًا كثيرًا " ، كما أن المسلم متوكل على الله ، وسرعان ما أصبح للصوفى الكثير من المريدين الذين هم على نفس الدرجة التى عليها الكثير من المؤمنين، وإذا ما كانت هناك اتجاهات مشابهة فى كيان الكنيسة المسيحية لَعُدَّ ذلك أمرًا خطيرًا ومضادًا لطبيعة الكنيسة ، فعندما ازدهرت هرطقة أهل مدينة ألبى – خلال القرن الثانى عشر – كان من الضرورى القضاء عليها بفضل التعاون بين الكنيسة والدولة .

وقد أدى التصوف خلال القرن العاشر إلى تمكّن الشعر من بلوغ مكانة فى التعبير مثل التى عليها شعر ابن فرج وهذا يرجع إلى زوال الحدود بين ما هو إلهى وما هو بشرى ، وبين النظرية وبين التعبير عن الوجود الكامل للفرد ، ومن هذا المنطلق نستطيع فهم فنّ القديسة تيريسًا الذى يصبح بلا معنى عندما ننظر إليه فى داخل

الأطُر الخاصة بالتصوف العالمي الذى لازمن له ولا وطن أو طعم أو لون ، وهو مفهوم غير مرضٍ عندما نقوم بالتجوّل فى تاريخ إسبانيا .

جونثالو دى بيرثيو : G. de Berceo

هانحن نرى أمامنا أول شاعر قشتالي معروف يقف بين فرسى رهان خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر فالموضوع الذى يتناوله دينى وعالمىّ وهو حياة القديسين ومعجزات العذراء ، أما القالب الشعرى فهو ما يسمى بـ Cuaderna Via أى الرباعيات وهو قالب من أصول فرنسية طبقا لما بيّنه مننديث بيدال ، غير أن بيرثيو يعطينا انطباعًا مميزًا وغريبًا ، وعادة ما تنسب التلقائية التى عليها الشاعر إلى بدائيته، كما أننا لا نعرف شيئًا عن حياته إلا ما أورده لنا كنوع من السيرة الذاتية :

جونثالو كان اسم من قام بذلك العمل

فى سان ميّان دى سوسو عاش مرحلة الطفولة

ابن بيرثيو حيث ولد سان ميّان

حفظ الله روحه من سطوة الآثام [٦٠]

تتكرر الإشارات إلى شخصه وليس ذلك عن غرور وخيلاء بل تدل على أنه عندما يكتب فإنه يقوم بمهمة مقدسة ويضم وجوده إلى قرضه للشعر ، وكان بيرثيو يعرف اللاتينية والفرنسية كما أن حياته الداخلية تدخل فى القالب الذى عليه أى إسبانى ، ونحن نعرف ما الذى تعنيه تلك العبارة [٦١] ففى مقدمة " حياة سانتو دومنجو دى سيلاس " يحدثنا المؤلف عن نيته فى الكتابة بلغة يفهمها الجميع والسبب هو أنه لا يجد فى نفسه القدرة على قرض الشعر باللاتينية

أريد كتابة شعر بالعامية الرومانية

التى يتحدث بها الجار إلى جاره

فأنا لست مؤهلاً لقرضه باللاتينية

وهذا يستحق - على ما أعتقد - كوبًا من النبيذ الجيد .

وفى صفحة أخرى يحدثنا عن عدم معرفته بمكان حدوث واقعة معينة ذلك أن المخطوطة التى كان يقرؤها اتسمت بالغموض وصعوبة اللغة اللاتينية :

لم تشر المخطوطة بوضوح إلى اسم المدينة

فقد كانت رديئة الخط وصعبة اللغة (اللاتينية)

لم أتمكن من فهمها بحق السيد القديس مارتين (مجموعة رقم ٦٠٩)

وأحيانًا يعزى عدم ذكره بعض الأمور التى لا يريد البوح بها إلى عدم كفاية المصادر :

ما إذا كان عريق السلالة أو وضيعًا

لا تفصح القصة عن ذلك كما لم يبلغه علمى (٣٣٩)

وأحيانًا أخرى نعثر فى سرده على شىء من عدم الانسجام إذا فقد المخطوطة التى كانت تحت يديه:

أعرف من أى مصدر خرجت هذه المقولة

فقد اختفى الكتاب الذى تعلمت منه ذلك :

ضاع دفتر لكن لم يكن ذلك ذنبى

ومن المخاطرة كتابة أى مغالطة (٧٥١)

يمكننا العثور على المزيد من هذه الامثلة لكنها كافية لنرى كيف أن الشاعر يدرج عمله فى الإبداع كما يعى أنه يقوم بالكتابة ، وقد ارتكب البعض حماقة عندما اتهموا بيرثيو بالسذاجة والبدائية ذلك أنهم لم يتأملوا ويمحصوا جيداً صبّه لأفكاره فى القوالب الشعرية ولتوجيهه فى الدعاية للأديرة ، إذ كان ذلك أهم شئ لديه ، وإذا ما

نظرنا إلى بيرثيو بصفته سارداً للمعجزات والخوارق التى تحدث على أيدى القديسين فهو ليس أقل أو أكثر سذاجة من الكتّاب المعاصرين له والمهتمين بموضوعات مماثلة ، وما حدث هو أن العثور على التكاملية فى أسلوبه (وهى تكاملية نشعر معها بالمفاجأة) جعل المؤرخين ينسبون الأمر للسذاجة والبدائية كتفسير للموقف ، إلا أن الموقف الحريص يتمثل فى أن ننظر إلى بيرثيو على أنه قد اجتمع فيه المنظور الإسبانى الإسلامى الذى طرح على أساس الحيوية المتأصلة لخمسمائة عام من الوجود الإسلامى ، ذلك أن كل واحد يتخذ طريقه فى طرحه الموضوعات التى يعالجها مما يؤدى إلى حدوث تأثيرات مختلفة وأصيلة .

والاستمرارية التاريخية التى نحاول إقرارها لا تقوم الآن على أمور تتسم بالموضوعية وأدّى مرور الزمن إلى وضعها فى بعض الأعمال الأدبية ، فالنظر إلى هذه الموضوعات مهم وضرورى ، فهو يهيئ لنا تحديد المستوى العام الذى قامت على أساسه الاتجاهات التعبيرية فى أوربا الغربية ،ويوضح الكيفيّة التى تم بها تنظيم الروح الموضوعية ، أى الذى كان أمام الكاتب قبل أن تجرى ريشته على الرق أو الورق، غير أن المشكلة المطروحة أمامنا مختلفة فهى عبارة عن محاولة تأمل ما اطلقتُ عليه " الروح الروحانية Espiritu espirituado (سواء كانت كثيرة أو قليلة) نعثر على مضمون الإبداع الأدبى وأفكاره والجو الذى نشأ فيه وأصالته أو تقليديته ، أما حَدْس " الروح الروحانية " فيساعد على أن نرى كيفية ظهور نوع أدبى جديد (ابتكار ثربانتس لروايته على سبيل المثال) أو ظهور أسلوب جديد لا يمكن أن يُفهم من خلال تحويله بالكامل إلى جزئيات ، إننا بذلك نخمّن " جوّ " العمل وذلك الواقع الغامض الذى نطلق عليه خصوصية Carácter أو طبيعة شعب على صلة بنمط وجوده الداخلىّ والذى تنبع منه الأعمال نفسها ، ويدخل فى إطار هذه الظواهر عمليات الرفض الدفاعية التى تحدثت عنها فى بعض المناسبات مثل : غيبة الشعر الغنائى فى قشتالة قبل القرن الرابع عشر أو ظهور النثر خلال القرن الثالث عشر .

ويركز " تاريخ الأفكار " على الجانب الثابت والمدفوع بالتطور الروتينى للتاريخ، أما تاريخ ردود الفعل الحيوية فهو تكملة للتاريخ السابق ذلك أنه يوضح لنا التنويعات فى إطار الشمولية ، وعلى ذلك ففى الوقت الذى نحاول فيه أن ندلف إلى تاريخ إسبانيا خلال العصور الوسطى فى إطار تعايشها طوال تسعة قرون مع المور فإننا نوضح أن نتاج الحضارة الإسبانية يختلف فى الأساس عن الحضارة الإسلامية فالمسلمون لا يكتبون الرواية ولا يؤلفون أعمالاً مسرحية ولا يمارسون فن الرسم أو النحت .

علينا أن نعود مرة أخرى إلى بيرثيو ، فإذا ما قمنا بتحليله موضوعياً من حيث الموضوعات والقوالب الشعرية نراه كاتباً من كتّاب العصور الوسطى لا يتسم بالعبقرية أو ابتكار شئ مهم ، إذن لماذا يَسْعد القارئ اليوم بالاطلاع على أعماله ؟ لقد كنا نتسلّى كثيراً ونحن فى المدرسة بأشعاره حتى قبل أن نفهم طبيعة مدلولها ، وبعد ذلك شهدنا عصر نهضته فرأينا كلا من أثورين Azorin وروبين داريو R. Dario وأنطونيو ماتشادو A. Machado وآخرين غيرهم ، يتحدثون عن نغمته " المحمودوية " المرحة والمجسّدة والحميمة ، ويرى روبين داريو أن شعره:

يتمتع بحرية ويبتعد عن الوقار

ويعود إلى قبضة اليد كما يعود الشّاهين

ويجلب من الزّرقة قوافى من الذهب

أما أنطونيو ماتشادو فقال عنه :

شعره عذب ورصين ، مرتب ترتيباً

هو من شجر الحور فى الخريف ، لا شىء يلمع

سطور محفورة فى أرض مزروعة

وبعيداً نجد الجبال الزرقاء لقشتالة ..

وقال: " ما أقوله ليس حديث منشدين

كتبناه ، وهو قصة حقيقية .

إننا نعثر فى هذه الأبيات على ما هو أكثر من حماس جيل أو الميل إلى ما هو قديم ، فقد دخل بيرثيو إلى أعماق النفس عند هؤلاء القرّاء ذوى السّمات الخاصة ولدى قرّاء آخرين أقل منهم ، والسبب هو النغمة " المرحة " التى تجسّد " الحميمية " طبقًا لمقولة أثورين ، فليس الأمر بسبب موضوعاته بل طبقًا للكيفية التى يعيش بها تلك الموضوعات وكيف تعيش هى فيه وكيف يُدْخل نفسه فى حكاياته ويقول " هى قصة حقيقية " .

لننظر إلى قصة القدّيس دومنجو راهب دير سيلوس خلال القرن الحادى عشر ، كان هناك راهب من رهبان ذلك الدير يدعى جريمالدو يتحدث باللاتينية عن حياة ذلك القديس الذى وُصف بعد ذلك بأنه " صانع المعجزات " [٦٢] فقد صدرت عنه أعمال خارقة سواء فى حياته أو بعد وفاته ، ثم قام بيرثيو بصياغة هذه القصة شعرًا بأسلوب ليس له مثيل خارج إسبانيا فهو أسلوب يوصف فى العصر الحديث بالتلقائية " و " التجسيدية " وهو أسلوب الأدب الصوفى الذى بدأنا هذا الفصل بالحديث عنه فالقديس دمنجو هو صانع المعجزات وصاحب الكرامات التى نجدها فى حياة المتصوفة المسلمين ، ويتحدث بيرثيو عن تلك الخوارق ببساطة بالغة ، كما يعرض للمعجزة بكل تفاصيلها التى تتعارض مع رصانة القالب الشعرى الذى نقل من فرنسا وهو أكثر الأبحر الشعرية فى فرنسا رصانة ، وتتضمن المعجزة الصيحات التى يطلقها المرضى ، ثم ظهور الروح القدس حيث تمكن القديس من جعله ينزل من عليين ، وهانحن نرى الأعمى الذى أصيب بألم شديد فى أذنيه :

فى مقاطعة سيلوس ولا تعرف المكان

كان هناك رجل أعمى ، وعنه سوف نتحدث

عَمَاه مطبق لم نسمع له سابقة

ولا نؤكد ما ليس مكتوبًا

كان اسمه جوهان وهذا ما يعرفه به الآخرون

له هذا السّجن ...

هذا المرض الذى ألمّ بأذنه لدرجة أنه كان يعض الحائط .

فأخذه إلى بيت القديس دمنجو :

وعندما وصلوا إلى بوابة سان سباستيان

لم يشأ المسكين أن يطلب خبزًا أو نبيذًا

وكان يقول: " يا أبى ، بحق السيد القديس ميان

....

ضع يدك علىّ ، أشر إلىّ بإبهمك

ما أصبو إليه ، تقبيل يدك

حتى أبرأ مِمّا بى "

وهنا يتدخل الراهب القدّيس :

فرشه بإناء الماء المملح

وأشار إلى عينيه بالصليب المقدس

فأخذت الآلام والعاهة تنزاحان عنه

واستعاد عافيته بعد مرض

نتلقى الأمور والظواهر من خلال لغة بسيطة وفى جو مهيب وسحرىّ ، وهى نفس الظاهرة التى تحدث فى كتاب حياة المتصوفة ، إذن هم الملهمون لبيرثيو فى هذا الأمر، ففى نهاية القرن الثانى عشر كان يعيش فى بلدة الشرف Aljarafe (أشبيلية) رجل يدعى أبو الحجاج يوسف وهو أحد جهابذة علم الروحانيات وأحد معلمى ابن عربى ، يقول عنه هذا الأخير :

وهى معجزة تناسب طبيعة الحياة فى شبه الجزيرة وتتمثل فى عتق الرقاب ، فلقد استطاع القديس دومنجو أن ينجّى أحد الأتقياء من أيدى المور :

وضعوه فى الحديد ووضعوا السلاسل فى يديه

كان غذاؤه سيئًا أما العشاء فليس بأحسن حال

كانوا يطعمونه خبزًا مصنوعًا من البُرّ

فذهب أقرباؤه يتضرعون للقديس حتى ينجّيه ويفكّ أسره فقام بطلب العون الإلهى:

هرب الأسير من الأسر

فتحت الأبواب التى كان يرقد وراءها مغلولاً

ولم تعقه أبواب السجن المغلقة

وعاد إلى أهله مغلول اليدين

وكان يشعر بالدهشة لما حدث

ويلاحظ أيضًا أن المتصوف أبا مدين قام بعمل مماثل لموسى البيدرانى الذى أدين بالسجن ظلمًا على يد سلطان المغرب ، يشير ابن عربى إلى أن السجين قد حُمِلَ وهو فى الأصفاد إلى حضرة السلطان، وعندما أصبح بالقرب من فاس وضعوه فى حجرة بأحد الدور الكائنة على الطريق وأغلقوا عليه الباب بالمفتاح وأقاموا عليه حراسة طول الليل . وفى صباح اليوم التالى فتحوا الباب فلم يجدوا إلا الأصفاد التى كان مقيداً بها أما هو فلم يعثروا له على أثر (نفس المصدر صـ ١٤٧) .

ولما كان القديس دومنجو راهب سيلوس قد أتى إليه أحد موظفى المخازن ليبلغه بخوائها من المؤن توجه القديس للجمع قائلاً :

أراكم أيها الأصدقاء تهمهمون

فمخازننا خاوية على عروشها.

ثم وعدهم بسدّ العجز وهنا توجه إلى الله بالتضرع والدعاء قائلا :

اللهم أنزل علينا غيثك

حتى لا يتهدم هذا الدير

فأنت تراه وحوله الناس يهمهمون

وقد أتوا إلىّ جميعا وأنا فى ضيق من أمرى .

وبعد وقت قصير جاء رسول من الملك يحمل نبأ تبرع ملكىّ للدير :

ثلاث وعشرون وزنة من الدقيق المنخول

وبذلك استعاد الراهب الثقة التى ضاعت :

فمن كانوا يسيئون الظن هاهم تائبون

فقد فعلت كلمات الأب الكثير

وهنا نجد أن الصوفى أبا جعفر يجد نفسه فى مأزق مماثل ، لكن المأزق حدث لأسرته فقد ترك عمله ليتفرغ لعبادة الله وكانت زوجته تؤنبه كثيراً لانخراطه فى هذه المهمة التى لا طائل من ورائها وأن يحاول سد حاجة البيت ، فما كان من الصوفى إلا أن توجه إلى الله بالضراعة بأن زوجته سوف تكون عائقًا بينه وبين عبادة الله فطلب من الله أن يعتقه من القلق الذى تسببه له زوجته ، فوعده الله أن يمن عليه بعشرين جوالاً من التين ، وكانت الكمية كافية لتقيم أود أسرته لعامين ونصف ، وأعطاه الله المزيد والمزيد . فلم تغرب الشمس إلا وأصبح فى منزله عشرون جوالاً كاملة ، ففرحت الزوجة والأولاد وشكرت زوجها وهى راضية عنه تمامًا {المصدر السابق} . تأمل يا عزيزى القارئ فى أن التجرّد لله وحده كان عرضة للمخاطر بين المسلمين والمسيحيين على السواء كما أنه يؤدى إلى نتائج طيبة .

وتكملة للخوارق السابقة نجد تلك التى تصدر عن القديسين الذكور بعد مماتهم ، وهى خوارق معروفة فى إسبانيا قبل مجىء العرب إليها . يقصّ علينا سان براوليو السرقسطى (المتوفى عام ٦٤٦) بعض الخوارق التى أتى بها سان ميّان وقصّ ذلك بأسلوب بسيط وموضوعى :" ظننت أن الشئ الوحيد الجدير هو أن أعهد بكتابة النصوص بعد ترجمتها إلى عينين أخريين تريان الضوء " [Patrologia, s., L. L, LXXX, 713} كما أن الكرامة التى تصدر عن ضريح القديس ميان تحوّل اللمبة التى انطفأت نارها إلى لمبة مليئة بالزيت تشع ضوءًا " عينان تشعان ضوءًا " {نفس المصدر} ؛ إذن لا يوجد إلا نظام بسيط فنحن لم نصل فى تلك الآونة إلى الأسلوب المتكامل والحيوى لنرى كيف يقوم بيرثيو بتحويل الجملة السابقة التى تتسم بعدم السلاسة ، فنراه يبدأ بالإشارة إلى أن المدينة كان يقيم فيها عجوزان تعسان لا يملكان أى شىء ، فسمعا ذات يوم عن الكرامات الجديدة التى أتى بها القديس فحدتهما الآمال لاستعادة بصرهما ، فخرجا من منزليهما ومعهما من يقودهما ، وأخذا يضربان فى الأرض بالعكازين اللذين يتكئان عليهما ووصلا إلى الضريح بعد لأى لكنهما كانا يشعران بفرحة غامرة ، ثم أخذا يصدران صيحاتهما ، فذلك كان مسلك العميان :

أخذا يصيحان صياحًا شديدًا فتلك هى طبيعتهما

والمحصلة هى استعادة نعمة البصر ومن ثم وتحولت المفاهيم المجرّدة للقديس براوليو إلى صورة تجسدت فى كلا المكفوفين اللذين يسيران وهما يضربان بعكازيهما فى الأرض ، إنهما يعانيان عمى البصر لكن لهما نور البصيرة ، وأخذا يصيحان كعادة العميان التى يعرفها بيرثيو جيدًا ، هانحن نجد أنفسنا أمام تعبير آخر عن جزئية تكاملية وقد تضافر فيها " الداخلى " و " الخارجى " وكأننا أمام صورة مكتملة اجتمع فيها الجسد والروح والمشاعر ، وعندما تحدث عن معجزة اللمبة جاء الحديث كما يلى :

لم يخل منها الزيت ليلاً أو نهارًا

ما عدا لحظة قيام المختص بتغيير الفتيل .

ويلاحظ أن المؤلف فى حاجة لاستيعاب الوجود الكامل للمصباح ولهذا أشار إلى اللحظة الوحيدة التى تخلو فيها من الزيت (٦٤) .

يستفاد مما سبق أنه فى حوالى عام ١٢٠٠ نشأت علاقة حيوية بين المعجزة ومن يقوم بسردها وهذا لم يكن موجوداً خلال العصر القوطى ، وأضيف أنها لم تكن موجودة فى النصوص اللاتينية المعاصرة لبيرثيو أو عند الفرنسى جوتيير دى كوينثى Gutier de Coincy؛ وعودة إلى نصوص بيرثيو نرى أن سرد الخوارق يضم الشخص الذى يتحدث عنها والظروف المحيطة والجو العام للمعجزة وردود الفعل الحيوية (سواء الرفيعة أو الدنيا) الصادرة عن الضالعين فى الأمر وإعلاءً لكرامات ضريح القديس دومنجو بشأن أحد المُقْعَدين :

أقرباء المريض وأتباع آخرون

اشتروا الكثير من الشمع وصنعوا منه تمثالاً

وأحاطوا الضريح بالشموع

وسهروا الليل وهم يتضرّعون .

وإذا ما كانت المعجزات التى يسوقها بيرثيو مسيحية الجوهر والتراث إلا أنها تظهر وهى مترعة بالعادات الإسلامية وبغير ذلك لن نفهم السبب فى تدخل الأمور الشخصية فى السياق أو السبب فى زوال الحدود بين ما هو سحرى وما هو منطقى وما هو مُحَسّ ، وإذا كان الكمّ ضروريا كما أقوم بالبرهنة عليه لأتيت بعشرات الأمثلة التى تعكس ذلك ، غير أن الأمر ليس ضروريا إذ رأينا المكان الذى يأتى منه الأسلوب المتعلق بالخوارق ، ثم أضفى عليه بيرثيو الحيوية أى نفحة من نمط حياته ، أى التوجه لتقييم ما يرفضه الأوربى ولا يلمحه ، وتعتمد كافة الخوارق التى ذكرها ابن عربى ، فى معرض حديثه عن أئمة الصوفية الذين كانوا بمثابة المثل والسند ، على تراث رحب من الخوارق الصوفية التى تضرب بجذورها فى العالم الإسلامى المفعم بالواقعية السحرية، ومن هنا يأتى تواجد بيرثيو فى عمله وليس السبب هو مجرد السذاجة والبدائية :

أنا جونثالو أكتب ذلك تكريمًا له

فقد رأيتها «كنيسة سانتو دومنجو»

ومهما كانت ضآلة هذه الإطلالة الشخصية من داخل العمل فإنها تكفى لتضفى طعم الواقع المعاش على الموضوع الذى يخرج من زمن السّرد ، كما أن أسلوبه يذكرنا بالكتابات العربية التى أشرنا إليها حيث تظهر الخوارق ضمن الجو الروحى والمادى الذى وجدت فيه وبذلك يتضافر السّرد مع الوصف ، كما أن هذا العمل يبدو أمامنا وهو فى لحظة التشكل المستمر والكشف عن داخله ، وبذلك تنكسر حدة الروتينية فى السّرد، كما أن القارئ المعاصر يجد متعة فى قراءة هذه النصوص إذ لم يكن يتوقعها ، والتوابل التى تحدد معالم هذا الإحساس هى - ببساطة - جزء من الصوفية للتواجد فى الحياة الدنيا ، وأقول إنها جزء صغير فقبل القديسة تيريسا لم يصل أحد فى إسبانيا إلى هذه الدرجة فى التصوف أو تجاوزها فى فن التعبير الكامل عن الوجود الحميم ، أما ابن عربى المعصر لبيرثيو فقد كتب يقول بأنه دخل ذات مرة على ذلك المُعلّم فنصحه هذا الأخير بأن يعنى بنفسه، فرد عليه بأنه قام بزيارة مُعلّمه أحمد الذى قال له بأن يشغل نفسه بالله. ويتساءل ابن عربى عن أى منهما يأخذ بنصيحته مهما كان من المعلّم إلا أن أجاب عليه بأنه يعيش مع روحه أما أحمد فهو مع الله وكل واحد منها يطلب منه أن يكون على ما تتطلبه منه حالته الروحية (٦٥) .

قصائد مديح العذراء لألفونسو العالم Las cantigas:

لم تبلغ اللغة الإسبانية خلال القرن الثالث عشر قدرة تمكنها من كتابة الشعر الغنائى بها فقد سرد بيرثيو معجزات العذراء بنغمة فيها انفعال غير أنه عبّر عن مشاعره الحميمة من خلال سرد موضوعى ، وعندما نرى قصائده فى مديح العذراء مريم مكتوبة بصيغة غير سردية أو تعليمية نجدها تدخل فى إطار الضراعة التى تخلو من البعد الذاتى ، أما القالب العروضى الذى يستخدمه لصب ما يقول فهو الرباعيات Cuaderna vía وهو شعر موضوعى كهنوتى يدخل فى إطار عَقَدى مضروب سلفا

وفى دائرة عبادة ومفهوم لاهوتى ، إلا أن هذه القصائد الغنائية Las cantigas تختلف - فقالبها الشعرى ليس من فرنسا، بل هو القالب العربى المسمى بالزجل (٦٦)، وقد جاء ذلك إما بشكل مباشر (إذ كان بلاط ألفونسو العالم يعجّ بالعلماء المسلمين) وإما بشكل غير مباشر ، أى من خلال الأدب الجليقى الذى كان يستخدم ذلك القالب الشعرى قبل ذلك بزمن طويل ، ويتسم الزجل بتنوعه ورشاقته كما أن القصائد الغنائية التى نحن بصددها كتبت لتُغَنّى ، وهذا ما يفسّر حالة الرضا الجزئية التى يخرج بها القارئ المعاصر عند قراءتها وخاصة من الناحية الفنية ، فقد ربط الشاعر أبياته بإيقاع موسيقى موجّه إلى النفس وليس إلى العقل ومن هنا يكتسب المفهوم الغنائى قوة لا تتوافق مع الإيقاع الرتيب للقالب الذى صاغ فيه بيرثيو أشعاره táca –tácata –táca –tácata táca– إذ كان ذلك صدى للتنظيم الروحى للكنيسة خلال العصور الوسطى ، إلا أن تعبير الروح عن نفسها لا يدخل فى إطار هذا المُعْتَقَد وذلك الثبات العقلى ، فهذه الأخيرة يناسبها التراث التليد ومعجزات القديسين ، أو أبطال العالم القديم ، وهنا لا يمكن التعبير عن المشاعر الحميمة :

Rosa das rosas e fror das frores,	وردة الورود وزهرة الزهور
Dona das donas, Sennor das sennores.	سيدة السيدات وسيد السادة
Rosa de beldad e de parecer,	وردة الجمال والصالح
fre fror d'alegria e de prazer;	وزهرة السعادة والمتعة
dona en mui pïadosa seer,	سيدة فى شخصها التقى
Sennor en toller coitas e dolores.	سيدة فى صنع الأحلام وتحمل الآلام
Rosa das rosas e fror das frores. (٦٧)	وردة الورود وزهرة الزهور

وتدخل هذه الأبيات فى قالب زجلىّ فالتعبير عن الحياة الحميمة فى قشتالة يدخل بشكل مباشر وغير مباشر فى المنطقة العربية ، ولما كان الأمر على هذا النحو لم يشعر

القشتالى بالعجلة فى التعبير عن مكنون صدره ، ولا يعتبر لجوء الشعر الجليقى وكذا ألفونسو العالم إلى الزجل نوعًا من المظاهر الشكلية فالقالب والوزن ليس هامشيًا فى الشعر فقد جاءت البتراركية إلى إسبانيا وهى تحمل معها الفكرة الأفلاطونية عن الحب من خلال البحر الشعرى الإيطالى المكوّن من أحد عشر مقطعًا **endecasilavo** خلال القرن السادس عشر :

لم أولد إلا لعشقكم

فقد جاءت روحى لتلائمكم ﴿جارثيلاسو﴾

ورافقت هذا البحر الشعرى طريقة مثالية لفهم الإنسان ، وبفضل ذلك نجد أن كلا من الشاعر جارثيلاسو **Garcilaso** وإيريرا **Herrera** يختلفان عن الشاعر خوان دى مينا **J. de Mena** كما أن أشعارهما يتخللها ما نسميه روح عصر النهضة ، وإذا ما كان عدد هذه القصائد الزجلية التى نظمها ألفونسو العالم قد بلغ ٣٣٥ قصيدة من إجمالى ٤٠٢ فمما لا شك فيه أن شيئًا من المفاهيم الإسلامية للحياة قد استكنّ فى أعماق هذا القالب الشعرى ، فما يرقد هناك هو ذلك العنصر الذى يخرج من " حشاشة الصدر " طبقا لمقولة الحلاج ، وهذا نشاط حكم عليه القشتاليون بالخطورة قبل القرن الرابع عشر ، فقد كانوا فى حاجة ماسة للرصانة والعقل ، ولن نستطيع أن ندرك جيدا تاريخ الشعر إذا ما قمنا بالنظر إليه من خلال الأوزان العروضية (ويصل الأمر إلى ما هو أبعد من ذلك حيث نتناول الإيقاع والنغمات) والموضوعات ، ذلك أننا نقوم بتحويل تلك القوالب العروضية إلى نثر فى اللحظة التى نتأملها بموضوعية ، ونُخرج الشعر من الوحدة المتلاحمة " التعبير الشعرى عن مضمون شعرى " فبيت الشعر " وردة الورود وزهرة الزهور " يعتبر بمثابة جزيرة صغيرة تظهر وسط أرض يغلّفها الضباب وتغمرها المياه كما أنها هى أساسها الذى لا يُرى ، وعندما ندقق النظر فى بعض تلك القصائد نستشف طبيعتها المسيحية الإسلامية .

وقد لاحظ أمادور دى لوس ريوس **A. de Los Rios** (٦٨) الأهمية الخاصة لهذه القصائد التى تتناول تاريخ إسبانيا لأنها تقوم " بتقديم رسم حىّ للعادات الإسبانية "

ويرى أن الملك العالم قد سار على نهج " المنشدين " وهذا لا يعنى الشىء الكثير ذلك أن ما يثير المفاجأة هنا هو وجود ملمح لا يرتبط بالسياق الاجتماعى الذى عاش فيه الشاعر ، فأن نقول إن ألفونسو العالم يكتب بطريقة شعبية فهذا معناه أنه ارتدى قناعًا لكننا لا نعثر على ذلك القناع فى الحالة التى بين أيدينا والأمر هو أن القصائد لا تتضمن شيئًا من الكوميدية أو السخرية . والمشكلة إذن لا تكمن فى الفئة الاجتماعية بل فى نمط الحياة حيث يتلاقى الرفيع والوضيع ، ويرتبط الطابع التاريخى للكثير من هذه الأشعار بنفس الأسباب التى جعلت من الملحمة القشتالية ملحمة تاريخية وتتعقد تلك الأسباب بإطلال المؤلف من خلال عمله من حين لآخر ، كما توجد بعض الملامح التى تذكرنا بالسّرد الملحمى أو بأشعار بيرثيو وسيرة خايمى الفاتح ، وأحيانا نلاحظ إيقاعًا يشبه الدردشة العادية التى تخفف الموسيقى من حدتها ، غير أننا لا يمكن أن نسمع تلك الإيقاعات الموسيقية اليوم ، ونعرض فيما يلى لقصة كيفية معالجة العذراء مريضًا بالحصوة :

الروح القدس، / وجدها كاملة / حصوة فى السرير / كبيرة وحقيقية / كأنها ثمرة القسطل {قصيدة رقم ١٧٣} .

وعلينا أن نطّلع على حالة من حالات التكامل التى يمكن مقارنتها بكثير مما سبق ذكره ، فقد كانت هناك كنيسة مكرّسة للعذراء فى مرسية ، وقام ببنائها – على ما يبدو – عدد من التجار الإيطاليين عندما كانت المدينة تعيش تحت الحكم الإسلامى ، وعندما سيطر عليها المسيحيون طلب المور هدمها نظرا لوجودها فى مكان مقدس عند المسلمين، فأمر خايمى الفاتح بهدمها غير أن المور لم يتمكنوا من لمس أى شىء فيها كما أمر ألفونسو العاشر – بعد ذلك – بهدم دار العبادة تلك مقابل تبرّع سخىّ لكن الملك المسلم لم يسمح له، وحدث بعد ذلك أن هاجم أبو يوسف مدينة مرسية لكنه هزم بفضل مساعدة العذراء ، ولنر كيف يربط الملك العالم حياته بمعجزة العذراء مريم .

وهذه هى معجزة كبرى	E d'aquest'un miragre
أقول بأنى رأيتها	Direi, que vi

Desque mi Deus deu Murça,	بعد أن منّ الله على بمرسية
Et oy outrossí	وسمعت الكثيرين يتناقلونها
Dizer a muitos mouros	وهم الكثير من المور
Que morauan ant'´y,	الذين كانوا يقطنون هناك
Et tijnnan a terra	وكانت هذه الأرض ملكًا لهم
Por nossa pecadilla	بسبب ما كنا فيه من إثم .

فـقـد كـان يذهب للصـلاة فـى هذه الكنيسـة " أناس من جنوة وصـقليـة " كـمـا لم يدنسها المور ، وبعد فشل محاولة هدمها طبقا لتعليمات السيد / خايمى الفاتح :

Depós aquest'aueo	
Que fui a Murça eu,	وحدث بعد ذلك
Et o mais d'Arreixaca	أن ذهبت إلى مرسـية
A aljama mi deu Arreixaca	فطلب منّى أغلب أهلها
Que ['para que'] tolles'a eigreia	أن أحـولها إلى جـامع
D'ontr'eles; más mui greu	فـقد كـانت باهيـة اللون
Me foi, ca era toda	ورغم أن ذلك كان صعبًا علىّ
De nouo pintadilla.	فقد منحـتها وأنا مكره على ذلك .

ورغم أن المور قدّموا للملك جزءًا كبيرًا من الحى الغنىّ المسمى Arreixaca فقد كان من الصـعب عليه إرضاؤهم إذ كـانت الكنيسـة حـديثة الزخـرفة وهـنا نجـد ملك المسلمين يقف ضد القرار المذكور ويقول :

لن أفعل

وإلا فالسيدة مريم

سوف تغضب عليكم

ثم يختتم الملك قائلاً :

ولهذا فإن الكنيسة	E porenda eigreia
أصبحت حرة	Sua quita e iá,
ولن يكون لمحمد أبدًا	Que nunca Mafomete
أى سلطان عليها	Poder ´yauerá;
ذلك أن العذراء غزتها	Ca a conquereu ela
كما أنها ستغزو	Et demais conquerrá
إسبانيا والمغرب	Espanna et Marrocos
وسبتة وأصيلة (٦٩)	Et Ceuta et Arcilla.

وتدخل العذراء فى إطار الوطنية مثلما حدث قبل ذلك مع سانتياجو ، فالملك يُدْخِل المعجزة فى إطار حياته الخاصة كما يتوفّر لدينا مثال حى عن الأفق الذى استولت عليه قشتالة فى نهاية القرن الثالث عشر وهو المغرب ، وبالتحديد كل من سبتة وأصيلة ، وهنا نرى أن الإمبريالية المستقبلية لإسبانيا تتسق مع معتقداتها خلال العصور الوسطى كما أنه نوع من التوسع فى دائرة حرب الاسترداد ، ثم تخف حدة هذا التوسع خلال القرن الرابع عشر ، لكنها تعود للظهور مرة أخرى – وبقوة – خلال القرن الخامس عشر ، ويقول اليهودى الذى تحوّل إلى المسيحية (ويدعى ديجو البلنسى الليونى) والذى يعتبر أبرز شعراء " مجموعة أشعار باينا Cancionero de Baena" بأنه لو كان أهل قشتالة :

على وفاق فيما بينهم

واجتمعوا على قلب رجل واحد

فلن يستعصى أى ركن فى الدنيا

عليهم بما فى ذلك غرناطة

وبعد ذلك بأعوام (أى عام ١٤٦٨م) يكتب جومث مانريكى أشعارًا موجهةً إلى الملك إنريكى الرابع (وهو ملك غير كفء) متمنيًا له أن يقوم ابن القديسة مريم

بتولى العرش

وأن يعم السلام ربوع أرضك

وأن تتمكن جلالتك

من احتلال ثيترا وما وراء البحار

والسيطرة على أمم البربر .

لم يعد سانتياجو أو العذراء مريم مُلْهِمَى الطموحات الإمبريالية : إذ نجد المسيحى ذا الأصل اليهودى دييجو البلنسى يركن إلى بواعث إنسانية بحتة (أى الاتفاق وتأليف القلوب بين القشتاليين) أما جومث مانريكى فهو ينتظر كل العون من يسوع المسيح وليس من المعتقدات التقليدية واللاّهوت ، غير أن ذلك كان موقفًا أرسطيّا فى إسبانيا لكنه لم يغير من روح الجماهير .

يتضح مما سبق أن القصائد الغنائية لألفونسو العالم تقودنا إلى الطرق الرئيسية فى تاريخ إسبانيا فالنمط التكاملى الذى كان عليه أدخل جو الأشياء والأفراد فى دائرة متراكزة ومتشابكة وأصبح كل شئ " مرسومًا رسمًا حيًا " ؛ وأفضل خطوة نقوم بها لنلاحظ تلك السّمة هى مقارنة قصة معجزة واحدة عند كل من جوتيير كوينثى G. Co- incy وبيرثيو وألفونسو العالم :

En lieu de prestre vint l'ymage,
Desus l'autel prise a l'oublée
Que le prestre avoit sacrée.
Si doucement le communie
Que li cuers l'en rasazie. (٧١)

Quand'o moç'esta visión
viu,tan muito lle prazía
que por fillar seu quinnón
ant'outros se metía;
Santa Mar?a entón
a mao lle porregía,
e deulle tal comunyón
que foi más doce ca mel. (٧٢)

عندما رأى الصبىّ هذا الحلم
أصبح شغوفًا بالحصول على نصيبه
فاندس وسط الأطفال
وعندئذ مدت له العذراء مريم
يدها وأعطته خبز التناول
الذى كان عنده أشهى من العسل .

نلاحظ أن السّرد الموضوعى لكوينثى Coincy يتحول إلى مسلك إنسانى يتم تطويره من الداخل إلى الخارج وهذه هى اللمحة الإسلامية ، أى أننا نلمس الاتصال بين الصيغة الزجلية والنمط الداخلى للحياة (أى حياة معينة) ، وهذا يعنى أننا أمام العملية الإبداعية " حديث – رواية " ، و " بكل الكيان " على طريقة ابن عربى ، فالطفل اليهودى معنى برؤية " العذراء مريم " " وحتى يتمكن من ذلك يندسّ ويأخذ مكانه بين باقى " أقرانه " ، ولنا أن نتصوّر مزاحمته مثله مثل أى طفل يريد الحصول على شئ يعجبه ، تمدّ العذراء يدها ، كما أن " التناول "عند الطفل له طعم " أشهى من العسل"؛ هناك حالة انسجام بين ما هو مادى وما هو إنسانى روحى وقد وجدنا عند بيرثيو شيئا من ذلك غير أن الشكل كان فقيرًا .

كان بريسول فى سوق كبير للتناول

وتناول " الحَمَل الصغير " مع الآخرين (٧٣)

وفى مناسبة أخرى نجد العذراء تُحْيى الطفل الذى يغنى لها : Gaude Virgo Maria لأنه عذب الصوت عند الغناء :

A son mengier chancun le maire (col 12)

وهذا البيت يتحول فى القصيدة رقم ٦ إلى ما يلى :

فكل شىء كان يسمعه	Qualquer que o o´ya
يحفظه على الفور	Tan toste o fillava,
وحتى يأخذوه معهم	Et por leval-o consigo
احتفلوا فيما بينهم	Con os outros barallava,
وقالوا: على أن أعطيه طعام الغذاء	Dizend': eu dar-ll'-ei que iante,
وطعام ما بعد الظهيرة	Demáis que merende.

كما أن دعوة الطفل لتناول الطعام يتم تصويرها بحيوية : هاهم يتعاركون ويتصايحون ، أضف إلى ذلك ظهور من يقدم له وجبة الغداء ووجبة ما بعد الظهيرة

لكن كوينثى يتولى وصف الموقف الطبيعى دون مواربة ، كما أن التقنية الشعرية تمسك بتلابيبه أكثر من ألفونسو العالم إلا أنه لا يتجاوز الإطار الموضوعى ولا يربط الحديث بحياة الشخص الذى يقوم به فالعذراء تداوى بلبنها تقرّحات الرّاهب:

La douce Dame, la piteuse,
Trait sa mamèle savoureuse,
Si la boute de denz sa bouche
(COL. 349)

E deitou-lle na baco e na cara
do seu leite, e tornou-ll'a tan crara
que semellava que todo mudara
Como muda penas a andorinna. (٧٤)

فحلبت له من لبنها على فمه ووجهه

وتغير حاله بوضوح

لدرجة بدا معها أن كل شيء زال عنه

وكأنه طائر قد بدّل ريشه

وتساعدنا هذه المقارنات على ملاحظة نقاط الأصالة وكذا نقاط الضعف التى عليها أشعار الملك العالم الذى يتضح طابعه المتردّد من خلال أشعاره الغنائية ولقربه الشديد من الموضوع وعدم قدرته على الإمساك بناصية اللغة (سواء كان هو الكاتب لهذه القصائد أو غيره) من حيث كونها أداة فنية ، فعندما تأتى العذراء بمعجزة ظهور خمس وردات فى فم الراهب الميت كنوع من المقابل للتراتيل الخمسة التى كان يدعو بها نجد أن كلا من ألفونسو العالم وكوينتى يقولان :

En sa bouche V fresches roses,	Na boca ll'apareceu
Clères, vermeilles et foillues,	rosal que viron teer
Com s'il fussent lors droit coillues	cinque rosas. (٧٥)

(vol. 361).

ظهر فى فمه

حقل ورود به

خمس وردات

كان الملك العالم وحاشيته – من القشتاليين – يميلون للعقلانية والحيوية ولا يستطيعون وصف وردة، غير أنهم يدركون جيداً كيفية دخول حدث حيوى والخروج منه ولذلك فهذه القصائد الغنائية خير وثيقة (لم تستخدم لهذا الغرض وهذا أمر مؤسف) للاطلاع على التقاليد السائدة آنذاك بكل تفاصيلها ، وهذا العمل يتضمن بذوراً تصلح

للقصة الحديثة أكثر من العناصر الغنائية ، إلا أننى لا أقوم بهذه المهمة فى هذا السياق ، وما قصدته هو الكشف عن المخطط العام الذى تتدرج فيه قصيدة " السيِّد " وقصائد بيرثيو الغنائية ، وكيف أن الزجل (ذلك القالب الإسلامى) قد أخذ بأيدينا إلى أماكن حميمة فى الحياة الفنية ، كما أن تلك الغنائية المتواضعة كان لابد أن تدخل فى قالب باللغة الجليقية وليس القشتالية وهذا يطرح أمامنا مشكلة ذات بعد تاريخى كبير .

الهوامش

(١) لم توجد فى واقع الأمر مدرسة منظمة بالشكل المعهود بل كان هناك عدد من المترجمين الذين قاموا بأعمالهم استجابة للفضول الفلسفى والعلمى الذى كانت تعيشه أوربا المسيحية ، ويبدو أنهم كانوا يقومون بهذه المهم قبل القرن الثانى عشر ، ولم يقتصر الأمر على مجموعة المترجمين فى طليطلة رغم أن هذه الأخيرة كانت المحور الرئيسى لتلك الأنشطة : انظر م. مياس بايّكروسا فى " الترجمات المشرقية لمكتبة كاتدرائية طليطلة " – مدريد ١٩٤٢ صـ ٩،٨ .

(٢) انظر خ. أ. إندرس .

J. A. Endres, ' Die Nachwirkung von Gundissalinus' De immoralitate animae" en Philosophisches Jabrbuch, 1900, XII, pp. 382 - 392, y la importante bibliograffa sobre Gonz?lez en B. Geyer, Die patristische und scholastische PhilosOPHIE, Berl?n, 1928, pp.729-730.

(٣) Libre de Amich e Amat, M. Obrador, ed., 1904, p. 47.

(٤) انظر مننديث بيلايو فى " الهرطقة " الثالث ، ١٩١٨ ، صـ ٢٥٧-٢٧٢ ؛ وكذلك patristische und scholastische PhilosOPHIE, 1928, p, 759. E. Allison Peers, Ramon Llull, 1929, pp. 422 - 434.

(٥) صـ ٣١ ، ١٠٠ ، ١٠٨ (طبعة برشلونة ١٩٣٥ – انظر قبل ذلك صـ ٢٢٠ .

(٦) رغم أن بيرثيو يتحدث عن شخصه فإنه يقوم بذلك بطريقة الذى يتحدث عن موضوع لا يتناول حياته هو بل يتناول حياة القديسين ، فالمنظور الغنائى للأنا الذى يتحدث عن نفسه لم يظهر إلا فى القرن الرابع عشر (١٣٣٣م) مع خوان رويث وهذا ما سنوضحه فيما بعد ، ورغم هذا فإن الاعتراف الحميم والحديث عن الحياة الشخصية لا نجده إلا عند القديسة تيريسا وكذلك فى التراث الإسلامى المحكى .

(٧) يتحدث السيد خايمى باستخدام ضمير الجمع " نحن " وهذا ما يتفق مع شخصه الملكىّ .

(٨) أثناء حواره مع ابنه نجد أن السيد خايمى ينقل كلماته هو وكان يتكلم بالأرغنية وليس القطلانية .

"Sen[n]yor, lo que yo feyto he me pesa muyto, e muyto gran dolor n'he en mon coraç?n ... E viengo aqu? a Vostra Mercé, e fets de m? e de les mies coses lo que vos queredes", etc. ((p. 501). Lo mismo acontece en otros casos, cuando son castellanos los que hablan.

(٩) الطبعة المشار إليها – صـ ٢٥٧ – ٢٥٨

(١٠) [ينقل المؤلف فى هذا المهمش ترجمة باللغة الإسبانية الحديثة وهى التى اعتمدنا عليها عند الترجمة إلى العربية – المترجم] .

(١١) [ينقل المؤلف فى هذا المهمش ترجمة باللغة الإسبانية وهى التى اعتمدنا عليها فى الترجمة إلى العربية – المترجم] .

(١٢) "Car lo be que jo ni vosaltres havem que Deus nos fa, tot ho havem per ella quen prega la sue fiyl per nos" (§453).

(١٣) إن من يقوم بدراسة متعمقة لـ" تاريخ جوان فيل " لابد أن يحدوه تساؤل عما إذا كان الاتصال بالمشرق قد ترك أثره فى هذا الكتاب

(١٤) "ابن مسرّه ومدرسته" ١٩١٤م – صـ ١٢٥ – ١٢٦ وهناك يشير إلى عدد آخر من الكتاب

(١٥) طبعة SS Obrador، ١٢٧ ، ١٢٨

(١٦) ننقل هذه الفقرات عن ابن العريف (١٠٨٨ – ١١٤١) وهو أحد المتصوفة من المرية ، انظر كتابه محاسن المجالس (المؤلف) [محاسن المجالس لابن العريف صـ ٨٣ وما بعدها – طبعة باللغتين الفرنسية والعربية ترجمها أسين بلاثيوس – الناشر Librairie Orientaliste, Paul Geuthmer-Paris 1933

(١٧) فيما يتعلق بإنكار الذات والتفانى الكامل المرتبط بالمتعة الصوفية انظر بعض مؤلفات ابن حزم التى يتحدث فيها عن الحب الإنسانى . أما فيما يتعلق بالتوكل كمفهوم من مفاهيم التصوف انظر المعجم الفنى للتصوف الإسلامى (لماسينيون) صـ ٢٢٨ حيث يتحدث عن ذلك . لكن ابن عربى هو أكثر من يتحدث عن هذا المفهوم وكما كان يعتبر ذا أصول مسيحية فإنه بلغ تطوراً خاصا فى التصوف الإسلامى . انظر أسين بلاثيوس فى الإسلام الإسلام على الطريقة المسيحية صـ ٥٦ ، ١٤٦ وما يليها

(١٨) ماسينيون " الحلاج شهيد التصوف الإسلامى " صـ ١٣٠

(١٩) من الصعب معرفة الدرجة التى يعتبر بها هذا الذوبان الصوفى نوعا من التجلى ، ويخرج عن دائرة هذا البحث التعرض لتلك المشكلة ، ويكفى القول أن كلا من الصوفية والتحليلات الأفلاطونية الجديدة التى تعتبر بمثابة القاعدة له تنحوان دوما إلى تذويب الحواجز بين الله والإنسان . ويلاحظ ب بورّات أن شرّاح ديونيسيو الأريوباخيسنا " قد أخطئوا فهم نظرية عودة الكائنات إلى الله وسقطوا فى أخطاء تتعلق بالتجلّى "] الروحية المسيحية – الجزء الأول صـ ٣٥٣] يقول أحد المتصوّفة " فى البدء لم تكن روحى وروحك إلا روحًا واحدة ... فأنا لست أنا ، وأنت لست أنت ، فأنا فى وقت معا هو أنت وأنا ، وأنت فى وقت معا أنا وأنت " [إ. جولدزيهر : " عقيدة الإسلام وقانونه " صـ ١١٢٧ حيث نجد المزيد من النصوص الصوفية التى تتحدث عن حب الله بين المتصوفة وأنه عبارة عن الجهد الذى تبذله الروح لاقتناص ظاهرية الوجود الشخصى لواقع الكيان الإلهى الذى يضمه بالكامل .

(٢٠) لا يتم التفكير فى الله بل إن ما هو إلهى يحيا فى الذاكرة والعودة إلى الصفات الأبدية والذاتية التى لا حدود لها " وهذا طبقا لرامون لول (صـ ٢٥٢) .

(٢١) وعندما أفكر فى قُرّاء ممن يرفضون هذا الأمر البديهى أقول لهم أن لول لم يتخذ المتصوفة كنبراس له فقط بل - وطبقا لقوله - يودّ تقليد بعض الممارسات الدينية الإسلامية : " كان الصديق يلوم المسيحيين بأنهم لا يبدءون رسائلهم بالبسملة التى تحمل اسم المحبوب يسوع المسيح ولا يوفونه حقه من التكريم مثلما يفعل المسلمون مع رسولهم محمد ... " (صـ ١٤٩) وقد كرّس لول حياته لتنصير المسلمين وكان يريد فى الوقت ذاته إضفاء الطابع المسيحى على العادات الإسلامية كما أن التقليد ملحوظ فى بعض التفاصيل الصغيرة :" إننى أرتدى لباسًا مهلهلاً - يقول الصديق - لكن الحب يُلّبيُ قلبى بالأفكار المغرمة " (....) .

(٢٢) مننديث بيدال " إسبانيا فى عصر السيّد " صـ ٢٧٤ ، ٤٢٧ ، ٤٤٥ .

(٢٣) انظر الأرشيف الأيبيرى - الأمريكى (١٩١٩ - ١٩٢٣) و RFH - الخامس (١٩٤٢) صـ ١٤

(٢٤) انظر مننديث بيلايو " الهرطقة " ، الثالث ، ١٩١٨م صـ ١٦٩ وما يليها

(٢٥) De altera vita fideique controversiis adversus Albigensum errores, lib. III, cap. II.

(٢٦) لست ادرى فيما كان قد بقى حتى الآن أم لا .

(٢٧) B. Geyer, Die patristische u. scholastische Philosophie, 1929, p. 252.

(٢٨) ومن بين الأمثلة التى يمكن ذكرها " وثائق الثقافة القطلانية خلال العصور الوسطى (١٩٠٨ - ١٩٢١) لـ A. Rubio y Lluch ويفحص الوثائق التى ترجع إلى الفترة من ١٢٧٥م حتى ١٣٥٦ (أى حوالى ١٧٦) يتضح أن ١٣٩ منها مكتوبة باللاتينية وثلاثين بالقطلانية وسبعة بالقشتالية - الأرغنية . وتبدأ النصوص المكتوبة بالقطلانية مع عام ١٣١٠م لكنها ليست الأكثر أهمية أو طولا فالوثيقة رقم ١٧٣ (لعام ١٣٥٦م) عبارة عن قائمة جرد تبدأ باللاتينية وتنتهى بها لكنها تستخدم القطلانية عندما تصف محتويات القائمة وبذلك تتخذ طبيعة الفرق بين الاسلوب الرسمى والأسلوب الشعبى ، وفى عام ١٣٥٦م كان الملوك الأرغنيون من المتحدثين بالقطلانية لا يشعرون بوجود علاقة لا تنفصم بين الشعب ولغة الدولة ، ومع هذا فقد عثر على بعض الأعمال النثرية القطلانية المهمة والممتازة، وكانت قطالونيا مقاطعة من الناحيتين السياسية واللغوية ، وكان الملوك لا يعتبرون لغة سرقسطة أو اللهجة القطلانية فى برشلونة من اللغات ذات الأهلية ولهذا استمرت اللاتينية .

(٢٩) انظر على سبيل المثال H. Finke, Acta Aragonensia. Quellen zur deutschen, italienischen, franz?sichen, spanischen, zur Kirchen-u. Kulutugeschte aus dem diplomatischen Korrespondenz Jaymes II (1291 - 1327) 1908 - 1922.

(٣٠) .Chronica del rey En Jacme Primer, ed. Aguil?, p. 400.

(٣١) ابن العريف - محاسن المجالس .

(٣٢) انظر مننديث بيدال " "Floresta de leyendas h. espanolas الجزء الأول

(٣٣) ط. منندیث بیدال صـ ٣٠٤

(٣٤) يقول فرنان بيريث دى جوثمان (وهو قشتالى له حسّ وطنى) أنه عندما تم غزو قرطبة خرجت قوات محمد ... (انظر Claros varone فى المكتبة الجديدة للمؤلفين الإسبان – التاسع عشر – صـ ٧٣٨ – ٧٣٩) (....)

(٣٥) يحدث فى المقام على نطاق واسع ما يحدث فى اللغات الأخرى على نطاق ضيق (....)

(٣٦) منندیث بیلایو : مختارات ، الجزء الأول ، ١٨٩٠م صـ ٥٣

(٣٧) يقول أونا مونو الوفىّ للتكامل ولجوهره الإسبانى " إن أغلب تواريخ الفلسفة التى اطلعت عليها تقدم لنا الأنظمة وكأنها تتوالد الواحد من الآخر كما أن المؤلفين – الفلاسفة – لا يكادون يظهرون كأنهم مجرد ذرائع فالحياة الخاصة للفلاسفة وللرجال المتفلسفين تحتل مكانة ثانوية (عن الإحساس المأساوى للحياة – ١٩١٢ – صـ ١) وقد أضاف أوتيجا هذه الفكرة بقوله عام ١٩٤٤ " لا يوجد ما يمكن أن يطلق عليه بالفعل " تاريخ الأفكار " فنظرية ما هى مجموعة من الأطروحات ، وهذه الأخيرة هى جمل والجملة هى التعبير المحكى عن " معنى " – أى ما اعتدنا أن نطلق عليه " فكرة" أو " فكرى – إننا نسمع الجملة أو نقرؤها لكن ما نفهمه هو معناها هذا إذا ما فهمناه ، وهذا أمر جلىّ ، ومن الخطأ الافتراض بأن الجملة " لها مفهومها " المطلق منسلخة عن الزمان والقائل ، فلا يوجد شىء " جلىّ على الإطلاق " كما أن تواريخ الفلسفة تعنى عكس ذلك تماما فالنظريات تُقدم لنا وكأن قائلها " فيلسوف مجهول " أى بدون تاريخ ميلاد أو مكان ميلاد ، أى أنه ذات مجهولة ومجردة وليس إلا ذاتا خالية من القول أو الكتابة وبذلك لا تضيف شيئا إلى ما قيل أو كتب أو تضفى عليه الأوصاف أو تحدد ماهيته (مقدمتان ١٩٤٤م صـ ١٥٧ – ١٦٠) ونجد خوسيه أورتيجا الذى ترعرع فى ظل الفكر الجرمانى يعبر هنا عن طبيعته الإسبانية التى ترغب فى التحديد والتكامل الحيوى ويبدع لنا شيئًا جديدًا وذا قيمة لكنه يرنّ فى آذاننا وكأنه ألف سنة من الإسبانية .

(٣٨) أو يستخدم حرفيًا الترجمة القشتالية لأحد مؤلفات القرن الحادى عشر وهو أبو الوفا مباشر Bocados de oro ".

(٣٩) فيما يتعلق بهذا المفهوم اللاهوتى انظر ل. ماسينيون " الحلاج " (صـ ٨٣١ – ٨٣٢)

(٤٠) يرى ماسينيون أن النظرية التى تختصر الهم الروح فى عملية ميكانيكية قدرية وتملأ النفوس السلبية لمن هم مهيئون لها سلفًا قد اتخذها بعد ذلك كل من ابن مسرّة وابن عربى (أى اثنين من المسلمين الإسبان أحدهما عاش خلال القرن التاسع أما الآخر فخلال القرن الثانى عشر) وقد كان لنظريتهما الأهمية البالغة التى أشار إليها أسين بلاثيوس .

(٤١) Le dogme et la loi de l'Islam صـ ٧٤

(٤٢) ل. ماسينيون " مناهج تحقيق الذات الفنية للشعوب الإسلامية فى سوريا " ١٩٢١م الجزء الثانى صـ ٤٧ – ٥٣ ، ١٤٩ – ١٦٠

(٤٣) حدث شىء مماثل فى إسبانيا فقد ضرب فكر كل من ديكارت وكانط على أراضى شبه جزيرة أيبيريا ولم يؤد إلى ظهور الجديد أو شىء ذى قيمة غير أن كراوس ظهر فى بداية القرن التاسع عشر بفلسفته

الروحية والأخلاقية والقانونية التى تناولت المشكلة الكاملة للعيش ، وانكب عليها أفضل الإسبان وحصلوا منها على نتائج لا يمكن لكراوس أن يدحضها ، ويحدث شئ مشابه اليوم مع الفلسفة الوجودية (دلتاى، ياسبرز ..الخ) حيث يتولى أورتيجا إعادة طرحها وهو رجل ذو فكر موازٍ لفكر هيدجر واستطاع إحداث نهضة ثرية فى الفلسفة الإسبانية وفى الأرجنتين والمكسيك . فكل شكل إنسانى يتطلب الاقتراب منه باستخدام الأدوات المناسبة ولم يكن ذلك الكتاب ممكنًا دون وجود الفلسفة المعاصرة ، فإذا ما سألنا إسبانيا من منظور عقلانى أو وضعى فلا نكاد نحصل على شىء فليست هذه هى الأدوات المناسبة للاقتراب ، وقد كنا جميعًا نطلب ذلك من إسبانيا وهو ما لا تملكه ونحكم عليها بما ليس هى وهذا ما يسبب الغيظ العقلى ولا يساعدنا على العمل الجاد.

(٤٤) " الحلاج " صـ ٥٥١

(٤٥) انظر A.-M. Goichon, La distinction de l'essence et de l'existence d'après Ibn Sin? (Avicenne), 1937, pp. 208 y ss.

(٤٦) ربما وجب علينا التذكير بأن العقيدة المسيحية خلال القرون الوسطى تقول بأن الله خلق الدنيا ونظام الكون لكنه لم يشغل نفسه بخلق كل شئ تفصيليا ، بما فى ذلك الإنسان وهذا نوع من النشاط يطلق عليه عادة " الخلق الثانى " لكنه لا يعنى الخلق بمعناه العميق { الموسوعة الكاثوليكية : مقال فى الخلق - نيويورك - ١٩٠٨ ومن الملاحظ أن أفكار صوفى مثل Eckehardt تختلف كثيرا عن الأفكار الإسلامية " يكمن تشابه المخلوق مع خالقه فى الكيان فقط ... فالله يحفظ كافة المخلوقات فى خطوة واحدة (Meister Eckehardt : Das System seiner religiosen Lehre, por) Otto Karrer 1922, pp. 72.77

(٤٧) rabe, ؟Avicenne de congelatione et conglutinatione lapidum editado en lat?n e inglés, por E. J. Holmyard y D. C. Mandeville, Par?1927.

(٤٨) انظر الملحق الثامن :" الإسبان الجهابذة يكتبون بطريقة تذكرنا بابن سينا .

(٤٩) هو بالعربية " رغيف " وقد أصبحت الكلمة فى البرتغالية هكذا regueifa

(٥٠) أشكر الناشرين الأفاضل على ما قاموا به من جهد لنشر مؤلف ابن سينا وجعله فى متناول أيدينا غير أنهم لم يتناولوا المشكلة التاريخية المتعلقة بالاختلافات بين النص العربى والترجمة اللاتينية . وأنا لا أتحدث عن ذلك من منظور النقد بل لألفت الانتباه إلى أن " التطبيق الحرفى " للمناهج العلمية قد يشكل عائقا فى بعض الأحيان

(٥١) استخدمت هنا النص الذى أورده أسين فى كتابه " الإسلام على الطريقة المسيحية " صـ ٨١ ، ٨٢

(٥٢) " حياة المتصوفة الأندلسيين " ترجمة أسين بلاثيوس .

(٥٣) لا أعلم لغة أوربية أخرى يتحدث أهلها بمثل هذه العبارات " أن يفعل المرء شيئا حتى ولو كان توجيه ضربة بكل روحه " أما التعبيرات الفرنسية التى تُحلّ القلب مكان الروح فهى مختلفة بعض الشئ De tout Coeur ومعناه بكل ما استكن فى قلب المرء من مشاعر لكن التعبير الإسبانى يعنى بكل ما للإنسان من جسد وروح أى القوة الخاصة بالمشاعر والقوة الجسدية

J. Goldzieher, Le dogme et la loi de l'Islam (٥٤)

(٥٥) حياة المتصوفة الأندلسيين " صـ ٨٩ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٧

(٥٦) قبل أن تكتب القديسة تيريسا هذه الفقرات بقرن من الزمان ، كتبت الراهبة السيدة تيريسا القرطاجية :" شجرة المرض " {حوالى عام ١٤٧٠م} حيث نجد فقرات تتحدث عن الكدر والضيق اللذين ينتابانها لصممها " إذا ما نظرتم للأمر جيداً لوجدتمونى أعيش وحيدة رغم أننى فى رفقة الكثيرين ، ولست وحدى فى ذهابى إلى صومعتى . فهذا هو السبب : فعندما أكون وحيدة أرافق نفسى وأرافق هذا العقل الفقير الذى لدىّ " – بمعنى قدرتها على التفكير وذكائها وهو ما عبرت عنه بتواضع مصطنع – وعندما أكون فى رفقة الآخرين أجد نفسي وقد تخلى عنى كل شىء فأنا لا أعرف ماذا يقولون ولا أستطيع التفكير مع نفسى " (...) {طبعة م. سيرّانو وسانز – مكتبة المؤلفات الإسبانيات – الجزء الأول – صـ ٢٢٠} .

(٥٧) قام بالترجمة / إميليو جارثيا جومث " قصائد عربية أندلسية " صـ ١٠٤ – يمكن العثور على أشعار ابن فرج فى " كتاب الجنان]"رسالة فى فضل الأندلس " – رسائل ونصوص ٥ – دار الكتاب الجديد – القاهرة الطبعة الأولى ١٦٩٨ صـ ٧٣]– المترجم .

(٥٨) نورد هنا بعض المراجع المهمة فى هذا المقام :

M. Asín, Abenmasarra y su escuela (orígenes de la filosfía hispano-musulmana), 1914. R. A. Nicholson, The Mystics of Islam, 1914. I. Goldzieher, Le dogme et la loi de l'Islam, 1920. R. A. Nicholson. The Idea of Personality in Sufism, 1923. Ibn Hazm, Los caracteres y la conducta, trad. De M. Así 1916. Sobe Ibn ' el gran místico de Murcia, es capital el libro de M. Asín, El Islam cristianizado, 1931, obra que parece ignorar A. E. Affifi The Mystial Philosophy of Muhyid Din-Inbul 'Arabi, 1939. M Asín, Vidas de santones andaluces, de Ibn 'Arabi, 1933. M Asín, Huellas del Islam, 1941. Ténganse además presentes otras obras antes mencionadas.

(٥٩) ومن هنا ندرك سرّ ذكر اسم الله فى اللغة الإسبانية حيث نجدها تذكر ببساطة وكأنها انعكاس لوجود الله الدائم وتأثيره فى كل شىء صغر أم كبر . إنها الآية القرآنية ﴿واذكروا الله ذكرا كثيرا﴾ ، ويبدو هذا التوجه مسيحياً مثله مثل الكثير من الأمور الأخرى وهو كذلك لكنه أمر يتعلق بالمفاهيم المسيحية الإسبانية، والمضاد نجده فى الوجه الآخر للعملة وهو التعرض بالألفاظ الشائنة لله والعذراء والقديسين . ويحدث نفس الشىء مع شعوب البلقان (طبقا لما قاله لى صديقى سبنسر) وأعتقد أن ذلك هو نتيجة الاتصال بالثقافة الإسلامية .

(٦٠) " حياة المتصوفة " – مجموعة أبيات رقم ٤٨٩

(٦١) عندما يريد جوتيير دى كوينثى التعبير عن شىء لا يتفق مع موضوعية معجزات العذراء (نقد المجتمع المعاصر ...الخ) فإنه يورد ذلك فى نهاية الحديث عن المعجزة كأحد الملاحق . وهو يسير على طبيعته الفرنسية فى الفصل بين الأشياء غير المتجانسة .

(٦٢) Véase M. Ferotin, Histoire de l'abbaye de Silos, 1897.

(٦٣) وهذا ما يقوم به القديسون :" قام القسّ الذى يتلقى الاعتراف بالصلاة والدعاء طول الليل للملك" {القديس دومنجو – مجموعة أبيات ٣٤٥} قضى تلك الليلة بكاملها يدعو الله .. (القديسون صـ ١٥٠) .

(٦٤) يمكن أن نجد معجزة القنديل ، وقد أدخلت عليها حيوية بالغة ، بالمقارنة بما أورده القديس براوايو ، فى التراث الإسلامى : عندما غابت الشمس أدينا صلاة المغرب ولما تأخر صاحب البيت الذى نزلنا عليه ضيوفًا فى إضاءة القنديل قال صديقى " أود لو أن القنديل مضاء " فقال له أبو عبد الله " حسن " فأخذ حفنة من الحشائش الجافة فى يده ودخل بها الحجرة التى كنا بها وضربها بسبّابته وقد انتابتنا الدهشة لما يقول " هاهى النار " فقد اشتعلت الحشائش واستخدمنا اللهب فى إضاءة القنديل (القديسون صـ ١٤٤)

(٦٥) " القديسون " صـ ٩٤ – انظر أيضًا " الإسلام على الطريقة المسيحية " Passim

(٦٦) فيما يتعلق بشكل هذه المجموعة واتخاذ الأدب الرومانى لها ، انظر ر. منديث بيدال " الشعر العربى والشعر الأوربى " فى Bhi, XL لعام ١٩٣٨م صـ ٣٣٧ – ٤٢٣

(٦٧) قصيدة رقم ١٠

(٦٨) التاريخ النقدى للأدب الإسبانى – الجزء الثالث – ص ٥٠٨

(٦٩) قصيدة رقم ١٥٩

(٧٠) ذكرت ذلك النص والنص الذى يليه فى RFH– الثانى (١٩٤٠م) صـ ١٤

(٧١) طبعة Poquet سلسلة ٢٨٣

(٧٢) قصيدة رقم ٤

(٧٣) المعجزات ، ٣٥٦

(٧٤) القصيدة رقم ٥٤

(٧٥) القصيدة رقم ٥٦

الفصل الثامن

مواقف جديدة مع نهاية القرن الثالث عشر

شهدت الحياة القشتالية تحولاً ضخمًا فى نهاية القرن الثالث عشر، وترجع أسباب ذلك إلى النمط التقليدى الذى عليه الوجود القشتالى و إلى الظروف الطارئة فأثناء حكم ألفونسو العاشر(العالم) (١٢٥٢ - ١٢٨٤م) لم يعد المسيحيون يعيشون فى ظل نفس الظروف التى أثرت على وجودهم فى بداية القرن الثالث عشر، كما لم تعد قشتالة بالنسبة للمسلمين واليهود على نفس صورتها المعهودة بعد الانتصار فى معركة العُقاب **Navas de Tolosa** التى جرت عام ١٢١٢م وبعد الاستيلاء على قرطبة (١٢٣٦م) وعلى أشبيلية (١٢٤٨م) ذلك أنهم كانوا يخشون قيامها ببعض العمليات غير المسبوقة والتى حدثت قبل ذلك بقرن من الزمان، وعندما يأتى الحديث عن المشكلة اليهودية سوف نشير إلى أننا أخذنا نرى فى منتصف القرن الثالث عشر بعض الأعمال التعليمية والعلمية التى يتم ترجمتها من العربية إلى النثر القشتالى، وقد تضمن كتاب **Summa Pragmatica,** الذى رعاه ألفونسو العاشر، الإنجيل والتاريخ العام والقانون والفلك والأحجار الثمينة والشطرنج، إننا نرى الشرق والغرب يزيلان الحدود القائمة فيما بينهما فى عملية تقسيم بضخامتها، وبذلك نجد قشتالة نفسها وقد أصبح لديها أدب شعبى ليس له نظير فى أوربا منتصف القرن الثالث عشر (١) ، وهى تزداد ابتعادا عن الدوائر العلمية فى أوربا التى تعبر عن نفسها باللغة اللاتينية، فلم يكتب القديس توما أو فقهاء القانون فى بولونيا **Bolonia** باللغة الإيطالية .

وقد تزامن مع ذلك الابتعاد القومى - والذى كان يدل عليه استخدام لغة الحوار اليومى فى صياغة الكتب العلمية - اختيار ألفونسو العاشر كإمبراطور لألمانيا، ولم

تنفع آراء الناخبين ذلك أن البابا لم يقبل الأمر إذ أن الكنيسة كانت تنظر إلى بلاطه على أنه يميل بشدة إلى المشرق، وقد تجاهلت أوربا ذلك الإنتاج الضخم الذى صدر عن البلاط الملكى لألفونسو العاشر واستطاع الإسبان بمفردهم الحفاظ على كتاب "القوانين" وهذا يرجع إلى طبيعتهم القانونية والتى كانت عليها المملكة، أما باقى الأعمال الأخرى فقد بدأت طباعتها خلال القرن التاسع عشر (كتب الفلك) وخلال القرن العشرين (التاريخ العام)، ولم ينشر من هذا الكتاب الأخير إلا النذر اليسير، ومع ذلك تأكد التفوق اللغوى لقشتالة بعد هذا العدد الهائل من العلوم التى تمت صياغتها بلغة الحديث اليومية.

كان المور - واليهود بخاصة - ينظرون إلى قشتالة القرن الثالث عشر على أنها القوة السياسية التى أخذت تحتل مكان الخلافة القرطبية، إذ تأكد تفوقها بعد فشل تمرد المسلمين فى الأندلس فى عهد ألفونسو العاشر، وقد أدى الاستيلاء على كثير من المدن الإسلامية إلى زيادة عدد المسلمين فى قشتالة، كما أن سلطة الإسبان العبريين وصلت إلى أقصى ازدهار لها خلال القرنين الثالث عشر و الرابع عشر، وقد كان هؤلاء شديدى الارتباط بالتراث العربى، و النتيجة - كما نرى - هى كثرة المؤلفات التعليمية والقصصية ابتداء بكليلة ودمنة وانتهاء "بالفارس ثيفار" ومروراً بالكتب التى تعالج المبادئ الأخلاقية (Bocados de oro و Poridad de Poridades) ، كما نرى - لأول مرة - ظاهرة من هذا النوع فى الممالك المسيحية التى لم تعهد قبل ذلك أن تكون لها إنتاجها فى ميدان ترجمات العلوم أو الفكر الفلسفى رغم أنها توفرت قبل ذلك على الكثير من كتب الوعظ والأخلاق التى تتناسب مع الميول الأخلاقية لقشتالة.

ونظراً لزيادة الضغط الثقافى الإسلامى اليهودى الذى كان محصلة التزايد المستمر فى أعداد غير المسيحين، أخذت تخف حدة الروح العدوانية، كما بدأت تخبو جذوة الروح الملحمية وروح الحياة اليومية، وعندما تم صياغة القصائد الملحمية نثراً فقدت تفردها الأسلوبى وذابت فى نثر رصين أو سردى ممثل فى "التاريخ العام" (٢) وهو نثر عالى الجودة من الناحية الفنية، وبعد الانتصار فى معركة ناباس دى تولوز

(العقاب) والاستيلاء على قرطبة (المدينة الملكية وأم المدائن الإسبانية) وأشبيلية العامرة بكل شيء بما في ذلك الأعداد الغفيرة من النبلاء [٣] ، لم يكن لدى المسيحين القدر الكافي من المخزون "الغربي" كما لم يكن هناك عدد كافٍ من الناس ليحل محل تلك الثقافة الإسلامية اليهودية أو يحوّلها، وأصبح من غير المجدى الصراع ضد الغنائية والسرد القصصي باللغة العربية والاقتصار على المبادئ الأخلاقية التي تتسم بوداعتها وتهدئتها للنفوس [٤] ، كما أن جيل ألفونسو العاشر لم يبق على حالة الإقدام والبطولة السابقة ولم يتمكن من القضاء نهائيًا على السيادة الإسلامية على الجنوب،ولقد أثمرت جهوده العظيمة في تشكيل ثقافة قشتالية من خلال التاريخ الوطنى وباستعادة مواد أخرى مثل الترجمات اللاتينية الرومانية و اللاتينية الأوربية والعربية والعبرية، وإذا ما حاول النفاذ إلى أوربا سياسيًا فثقافته المكتوبة باللغة الدارجة كانت تنحو إلى التركيز على الخصوصية الإسبانية، إذ فالرجل يقع في إطار ترانيم مستعربة ثقافيًا ذلك أن المواد المستخدمة لم تجبر الأجنبى على تعلّم القشتالية مثلما حدث بعد ذلك بثلاثة قرون.

وقد أسهمت واقعة عابرة في إضعاف البعد الغربي في قشتالة، وهي وفاة الأمير فرناندو دى لاثيردا F.de la cerda وريث عرش الملك ألفونسو العاشر وبذلك انتقلت السلطة إلى الابن الثاني وهو سانشو الرابع الذى لم يلق بالا لحقّ ابن أخيه المدعو السيد/ ألفونسو، فقد تم الحفاظ على تناقل السلطة في إسبانيا المسيحية –الأوربية والإسلامية، ومن المعروف أن العاهل في إسبانيا كان يطلق عليه أمير المؤمنين ويستند في حكمه على المبادئ السماوية، أما الملوك المسيحيون فقد كانوا يعيشون على أرض الواقع ويستندون إلى الرغبة في الاستمرار في الزمان والمكان المتعلقين بالإنسان (لم يكونوا خلفاء، أو أبناء الشمس ....الخ مثل الأباطرة في المشرق)، وكانت الأمم الأوربية تقوم على استمرارية الأسر الحاكمة (غير محاطة بالهالة السحرية) وعلى ثبات مكان العاصمة، لكن إسبانيا كانت تفتقر لهذا العنصر الأخير إذ أن بلاطها – آنذاك – في ترحال دائم واستمر حتى ١٥٦٠م لكن الملكية هي من طراز أوربي، ولهذا السبب استطاعت أن تنجو من الموقف الصعب وغير المتسق للمشارقة.

كانت إسبانيا تفتقر لبيئة إقطاعية متجانسة ومرنة كما أن العلاقات الاجتماعية فيها متأثرة بالتداخلات اليهودية والإسلامية،غير أننا نجهل الشكل الذى كانت عليه، ورغم هذا سوف نحاول – من خلال الفصل العاشر – التعرف على ملامحها، و اكتسبت الملكّية فى ظل هذه الظروف أهمية كبرى ذلك أن أى صدع بها لا يمكن علاجه بأية بدائل قومية أخرى فإما الملكّية وإما الفوضى وذلك لغيبة نمط يمكن مقارنته بما كان قائمًا فى الدول الإقطاعية الكبرى (بورجونيا ولورينا)، ومن هنا كان اهتمامنا الكبير بالصدْع الذى حدث فى خط ولاية العرش بعد وفاة ألفونسو العاشر، ومع بداية عهد سانشو الشجاع (أى العنيف والسّيئ) نرى عصراً ينتهى بالحروب الأهلية على يد ابن حفيده، بدرو القاسى **Pedro el Cruel** وقد كانت مظاهر الحياة الإسلامية اليهودية قوية فى تلك الفترة، كما حال السياق المسيحى- الإسلامى- اليهودى دون ميلاد أمة لها ملامح غربيّة، وسوف نرى ذلك الموقف بوضوح خلال القرن الرابع عشر من خلال مظاهر عديدة، إلا أن الفن الإسبانى- خلال تلك الآونة – يدين بكتاب "الحب المحمود" **El libro de buen amor**، والمعبد اليهودى الترانستو **El transito** فى طليطلة.... الخ، والتاريخ العادى لا يرى مفاجأة فى ظهور هذين العملين العظيمين الذين لا يتسقان مع إيقاع الحياة فى أوربا الغربية، كما أن تلك المظاهر الفنية ليست أقل أهمية من النثر الرصين فى بلاط إسبانى خلال القرن الثالث عشر، ولهذا فنحن نسير بحذر فى هذا الكتاب كما نعيد قطع الطريق الذى سبق أن قطعناه سابقًا خوفًا من الوقوع فى الخطأ.

مرض الأمير السيد فردناندو – والملقّب بـ دى لاثيردا – ثم وافتة المنية عام ١٢٧٥م عندما بلغ عشرين عامًا من العمر، وقد كان فى هذه الآونة يتولىّ قيادة قشتالة فى فترة غلب فيها والده "لدرجة أن كافة الممالك أصبحت أكثر التصاقا به" (٥) ؛ ويدفعنا موت الأمير المفاجئ إلى التفكير فى كارثة ملكية أخرى هى موت الأمير دون/ خوان الوريث الوحيد لعرش الملوك الكاثوليك، إذ مات فى ريعان شبابه فى الوقت الذى كان فيه محط أمل إسبانيا قاطبة، وقد رفض الأمير سانشو – شقيق السيد/ فرناندو- الاعتراف بنظام التوريث الذى أدخله ألفونسو العاشر فى كتابه " القوانين" (الجزء

الثانى ١٥ ، ٢) ، وهذا نوع من التجديد الذى يستلهم الأفكار القانونية للرومانيين والإيطاليين، إذ كانت العادة فى قشتالة قبول ولاية الابن البكر وليس لباقى الورثة الذى ينسبون إليه، وهنا نجد أن سانشو يعكس بتصرفاته الفكرة الشعبية والمحلية، أما والده فقد اعتمد على تجديد أتى من الخارج وهنا تعرضت الحياة فى المملكة للتفكك الكامل، ولم يكن أمام ألفونسو العاشر – الذى تقدم به السن وأصابه الإعياء – أية وسيلة يستطيع بها كبح جماح التمرد الأسرى كما أن أبناء الأمير فرناندو كانوا صغاراً ولم يتمكنوا من الدفاع عن حقوقهم، وسوف نورد إحدى الوقائع التى تؤكد حالة الفوضى السائدة، قام ألفونسو بحصار الجزيرة الخضراء Algeciras عام ١٢٨٧م فى ظل ظروف صعبة وذلك لقلة المؤن، وكان أمل الجنود مركزًا على الأموال التى سيرسلها السيد / زاج دى لاماليا Zag de la Malea جابى الضرائب الملكية فى ليون وقشتالة إذن نجد أن مفتاح الحياة الوطنية فى يد اليهود كما سنرى ذلك بالتفصيل، وقد ظل السيد زاج و من معه على الساحة بفضل قدراتهم المالية– والتى تضاعفت بفضل الحماية الملكية– كما سعدوا كثيراً لأن الرياح كانت تهب لصالح الأمير سانشو، إذ طالب ذلك بالضرائب الملكية لاستخدامها لأغراضه السياسية بينما أخذ الهزال يحل بألفونسو العاشر ورجاله وهم يحاصرون الجزيرة، قام السيد زاج بتسليم سانشو الأموال التى جمعها وبذلك تعرضت قوات ألفونسو العاشر وأسطوله للخراب والدمار، ثم أمر ألفونسو بعد ذلك بالقبض على زاج لكن الأذى الذى لحق به لم يستطع رأبه وقد تردد ذلك الملك العالم – الذى اتسم بتردده – بين واجبه وخوفه من استخدام ابنه العنف، ثم لعنه ولم يورّثه شيئًا وهو على فراش الموت، ورغم ذلك فكتاب "التاريخ العام" يقول شيئًا آخر، وأسفر عصيان سانشيث الرابع عن آثار تعتبر كارثة بعينها،فقد قدّم طموحاته و رغباته– التى تعتبر من سمات البلاط الإسلامى– على صوت القانون والعقل التراثى فى قشتالة وهما عنصران تناساهما ألفونسو العاشر عندما ساعد على اغتيال شقيقه السيد فادريكى، ثم بدأ عصر من العصيان والتمرد المدنى مع بداية حكم سانشو الرابع ولم ينته حتى فرض الملوك الكاثوليك قوتهم وعزمهم على الحيوية اللاسياسية للإسبان.

وأسفر نموذج الملك العنيف عن انتشار الفوضى بين كبار السادة، فسرعان ما كانوا يتمردون إذا لم تذعن السلطة الملكية لطموحاتهم، ومن الأمور ذات الدلالة البالغة أن الملك تقاسم سلطته مع أحد أصفيائه هو السيد/لوبى أرو Lope Haro سيد بثكايا Vizcaya الذى أذل سانشو وأجبره على أن يسلمه بعض القلاع كرهينة لديه غير أن السيد لوبى كان عليه أن يعتمد على السيد/ أبرامهم البرشلونى الذى كان يسيطر على الإدارة المالية للمملكة ويقرّ الوثائق الملكية (٦) وهذا ما يفسر الخط الصاعد لليهود منذ حكم ألفونسو العاشر، وهنا نعثر على أحد المفاتيح التى تساعدنا على فهم مسار الحياة الغريب للمسيحيين فى قشتالة،فقد حرموا من الثروة و التقدم الفنى بما فى ذلك إدارة الدولة، فقد كان اليهودى يقوم بتلك الأعمال بل وأكثر منها (الفصل العاشر) طالما أن نفور المسيحى من القيام بالعمل المنتج قد جعله غير قادر على تصريف شئون أرضه، وبالتالى لا يجوز لنا مقارنة المشاكل الإسبانية التى وقعت خلال القرن الرابع عشر بتلك الأوربية حيث اختلفت ظروف كل طرف.

وقد ظهرت أسرة كل من آل أرو Haro ، وآل لارا Lara كأكثر الأسر تأثيراً ونفوذاً رغم أنهما لم تكونا من الأسر الإقطاعية، فلم تقم قوة هاتين الأسرتين على أملاك ثابتة و محددة بل على اللا أمان الذى تعيش فيه المملكة وعلى الدسائس وعلى أموال اليهود. لم تكونا إذن قوة تأسيسية صلبة، وعلى أية حال نلاحظ أن أهمية بعض الأسر تطفو على السطح كواقع جديد وحاسم بالنسبة للأحداث التاريخية التالية، فقد كان هؤلاء النبلاء يميلون لبسط مصالحهم والبعد عن محاربة المور، وإذا ما كانت دعائم قشتالة قد قامت قبل ذلك على الإيمان بالقديّسين والأبطال، فإننا نراها الآن رهينة الحياة الروحية والدينية، ولن ترفع راية القديسين أو الأبطال فوق المنصّة الأسطورية، وليس الأمر هو أن العقيدة أخذت تنزاح ليحل محلها النقد العقلى بل لأن بواعث الهمة لم تجد العقائد الجمعية والصادقة التى يمكن لها أن تسير عبر قنواتها (٧) . وقد أدى ضعف الملكيّة إلى الغطرسة و الخيلاء ورفض فتح بوابات القلاع أمام الملك وإلى العيش فى ظل التمرّد وأخذ القشتالى يعى ذاته ولم يشعر بغضاضة فى الحديث عن مكنون ذاته، وهنا أصبح من الممكن الاقتراب من السير الذاتية، ومن الشعر الغنائى العربى

وبغير ذلك لم تكن شخصية مثل الملك دون خوان ما نويل تجد لها مكانًا فى بلاط ألفونسو العاشر.

وقد شجعت أطماع الأمير ألفونسو دى لاثيرا فى العرش على تمرد بعض أنصاره من القشتاليين، وخلقوا بذلك حالة عداء بين قشتالة وأرغن، والأمر هو أن ملك ذلك الإقليم – أرغن Aragon – كان يحمى الطامع فى العرش الذى لم يتخل عن مقاصده إلا أثناء ولاية ألفونسو الحادى عشر حفيد سانشو الرابع، وعلى ذلك فقد انتاب إسبانيا المسيحية شعور بعدم التكاتف مثلما كان عليه حالها خلال القرن الثالث عشر أى عندما قام كل من ألفونسو العاشر وخايمى الأول Jaime I بتوحيد صفوفهما للوقوف ضد المور ومع ذلك أخذت الحالة الاقتصادية للممالك المسيحية تزدهر، إذ زادت الحاجات وكان على التجارة أن تعنى بها، وتلك أنشطة فى يد اليهود والمور وأهالى جنوده، وها هى قشتالة تدور الآن فى فلك الازدهار فى كل من قرطبة وأشبيلية ومرسية وتنسى الأفق الخاص بالقديس الرسولى سانتياجو فى زمن كانت تسيطر فيه كل من جماعة كلوتى وثيستر، كما هبّ على الهضبة القشتالية هواء جديد يحمل فى نسماته حياة الأندلس والبحر الأحمر والأنماط الروحية الإسلامية .

وها هى حرب الاسترداد لا تعيد لقشتالة الأرض المسيحية وإنما تضيف إليها ثقافات سكانية هائلة من المسلمين المتقدمين للغاية، كما لم ترد لها صحراء كان عليها أن تعمرها بالسكان بكل سرعة ممكنة، فإسبانيا التى تم استردادها ابتداء من القرن الثانى عشر (بدون المستعمرين) لا تشبه تلك التى نجدها خلال القرن الثامن بما فى ذلك أسماء الأعلام الجغرافية التى عُرِّبت أو كانت عربية، وقد قبل المسيحيون ذلك الأمر كحقيقة لامناص منها وأصبح مسمّى نهر Tago نهر التاج Tajo ونهر Anas وادى أنه Guadiana، وأصبح نهر Betis الوادى الكبير، أما مدينة إيسباليس فقد أصبحت أشبيلية و Compluto (القلعة) Alcala ، وإيليبدس Iliberis غرناطة وتحولت Caesar Augusto إلى سرقسطة، وأكثى Acci إلى جواديكس Guadix ؛ ويحدث نفس الشىء فى العديد من الجوانب الأخرى. حقًا لقد بقيت بعض الأسماء اللاتينية مثل قرطبة

وطليطلة وبلنسية لكن لم يكن هناك إلا قليل صلة عثر عليها الغزاة بين عاصمة القوط وتلك التى استولوا عليها عام ١٠٨٥م ، بغض النظر عن الاسم وبعض الآثار الرومانية؟ لم يقم ألفونسو السادس بتسليم المسيحيين المستعربين - الذين يمثلون المدينة القوطية- كنيسة الغزاة بل سلمها للأساقفة والرهبان و رجال الدين الفرنسيين، كما لم تتم المحافظة على التراتيل التقليدية الموروثة عن إسبانيا القوطية التى حلت محلها التراتيل الفرنسية ومعها تراتيل روما بشكل قهرى.

وعندما دخل المسيحيون أشبيلية عام ١٢٤٨م رأينا استغرابهم وإعجابهم منعكساً على صفحات كتاب "التاريخ العام" كما سبق القول، ولابد أن الانطباع كان متشابهاً فى الكثير من الأماكن التى تم غزوها، إذ ظهر واضحاً للعيان عالم جديد ليس له علاقة بفترة ما قبل الإسلام فى إسبانيا، ولم يكن الذين عاشوا خلال القرن الثالث عشر على علم بذلك العالم، فالجديد كان كثيراً إذ ترى مظاهره فى العمارة والصناعة والحرف والتجارة والعلوم والفنون وتمكن فرناندو الثالث من إعادة احتلال المدينة القديمة His-palis (أشبيلية) حيث وجدها عام ١٢٤٨م وقد أصبحت مدينة ليس لها علاقة بتلك التى كانت ٧١١م، وقد صدقت كتب التاريخ عندما أطلقت كلمة "تدمير" إسبانيا على الغزو الإسلامى، وأخذ المُلاَّك الجدد - الذى وزّع عليهم الملوك الأراضى التى يتم الاستيلاء عليها - يستأنفون التاريخ المسيحى على أرضية إسلامية من المستحيل التخلى عنها حسبما رأينا على صفحات هذا الكتاب، ونتصور أنفسنا فى وضع يتمكن فيه المكسيكيون بعد قرون من الاستيلاء على كاليفورنيا ولوس أنجلس وسان فرانسيسكو، ثم نتساءل هل هى حرب استرداد؟ إذن علينا أن ننظر إلى الاستيلاء على قرطبة وطليطلة وأشبيلية أو غرناطة من نفس الزاوية، وقد رأينا السيد خوان مانويل يقول بأن الحرب ستستمر حتى يتمكن "المسيحيون من الاستيلاء على الأراضى التى اغتصبها منهم المسلمون" كان من الضرورى استعادة الموقع الجغرافى لإسبانيا والذى كان بشكل وحدة واحدة وعاش عليه المسيحيون لقرون، وهنا نجد أن اللغة تُحْدث تفريقاً لا يدخل - على ما أعتقد - فى دائرة منهج التفكير التاريخى فكلمة Reconquista وتعنى بصفة عامة استعادة الأراضى الإسبانية التى استولى عليها المسلمون، غير أنه

ليس من المعتاد القول بأن الملوك استعادوا غرناطة Reconquistaron بل استولوا عليها La tomaron أو قاموا بغزوها، ومن هنا الاستغراب عند الحديث عن طليطلة التى تم استردادها، وتقول كتب التاريخ إن الفونسوا العاشر" كسب خيريث xerez "ويتحدث كتاب "التاريخ العام" عن الاعتقال أو الاستيلاء على أشبيلية.

ولما كان الواقع التاريخى على هذا النحو فقد كانت " استعادة " المسيحيين لأراضى إسبانيا عملاً شاقًا ومضنيًا إذ كان الصراع يدور مع أناس أقوياء تساندهم أفريقيا والإمبراطورية الروحية الإسلامية، وعندما وصل المسيحيون إلى شبة الجزيرة لم يتمكنوا من غزو أفريقيا التى لم يستعمرها الإسبان أو البرتغاليون اللهم إلا بعض البؤر التى احتلوها فلم يكن المسلم الأفريقى مثل الإمبراطوريات فى أمريكا حيث استطاع كل من كورتيس corte's وبيثارّو Pizarro هزيمتها، ولم يكن مثل جنوب إيطاليا الذى استولى عليه جونثالو القرطبى Gonzalo de Cordoba فى معركتين ناجحتين، فلقد غرق كل سلطان كارلوس الخامس فى أفريقيا وتوفى على أرضها الملك سباستيان ملك البرتغال، وإذا ما استثنينا الانتصار النورماندى الذى وقع على أرض صقلية فقد فشلت كل محاولات أوربا فى السيطرة على العالم الإسلامى قبل القرن التاسع عشر وبالتالى فقد كانت الحروب الصليبية فشلاً عسكرياً، واستطاع الأتراك أن يحافظوا على سيطرتهم على مناطق شاسعة حتى القرن التاسع عشر. كما نجد قشتالة وحدها تقريبًا استطاعت استعمار مساحات واسعة فى أمريكا، ورغم ذلك لم تحرز انتصارات حاسمة على المور إلا من خلال اتحادها مع باقى الممالك الإسبانية وقد شارك فى معركة ناباس دى تولوزا (١٢١٢م) القتشتاليون والأرغنيون والنابارّيون، وكان القشتاليون يحاربون جنبًا إلى جنب مع البرتغاليين فى معركة سالادو Salado (١٣٤٠م)، لكن الاستيلاء على غرناطة (١٤٩٢م) كان مهمّة وطنية خالصة، ولنتذكر أنه عندما تمرد الموريسيكيون خلال القرن السادس عشر تصرف بعض الجنرالات المشاهير تصرفات محزنة فى Alpujarras إلا أن العبقرية العسكرية للسيد خوان دى أستوريا أسهمت فى علاج الموقف، فلم يكن المسلم عدواً سهلاً، وعندما لم يتم طرده فى الفترة الأولى أصبحت عملية استعادة الأرض بالشكل الذى رأيناه، أى أنه نَوْل يتم عليه نسج تاريخ إسبانيا.

و عند الاستيلاء على الأماكن المهمة خلال القرن الرابع عشر أصبح من المتوقع حدوث تغير على الموقف القشتالى بالنسبة للمور، فلم تعد هناك عجلة فى اتخاذ إيقاع حياتى متقشّف والهروب من كل ما يقرّب – وبوضوح – من طرائق الحياة الإسلامية وحينذاك كان الجميع يعرفون ويدركون أن المورو لم يعد خطرًا كبيرًا كما أن هزيمته نهائيًا رهن بتوحيد الصفوف المسيحية ونجاحها أكثر من ارتباطها بهمّة العدو، كما نجد أن ملوك غرناطة – ابتداء من عهد ألفونسو العاشر– يوافقون على المواثيق بصفتهم أتباعًا لملوك قشتالة (٨) كما كانوا يدفعون لهم الإتاوات.

نحن إذن أمام موقف يتمثل فى أنه خلال القرن الرابع عشر أصبحت قشتالة تسير على منهج حياتي معين، كما أن طموحاتها تختلف عما كانت عليه خلال القرن السابق، وأخذ القشتالى يعى ذاته ويعى العالم الذى يعيش فيه كما أخذ يعبر عن نفسه بشكل لم يحدث من قبل:"أنا ولدت فى إسكالونا" هذه العبارة نطق بها الأمير السيد/خوان مانويل، ثم استطرد:" ولدت يوم الثلاثاء فى الخامس من مايو عام ١٣٢٠م كما توفى والدى فى بينا فيل يوم السبت فى عيد الميلاد المجيد عام ١٣٢١م" {من كتاب الأسلحة} ، كما يقول أيضًا : " وعندئذ كنت فى مملكة مرسية حيث أرسلنى الملك إلى هناك لحرب المور وكنت آنذاك صبيًا لم أبلغ الثانية عشرة من العمر" {نفس المصدر} ؛ نرى إذن أن الترجمة الذاتية "المحترفة" التى عليها البحر الشعرى "الرباعيات" تتحول الآن إلى ترجمة ذاتية لشخصية فريدة.

وإذا ما كان النبيل الواثق من قوّته، يعبر عما يجول فى نفسه وعن ذاته فقد اتخذ الشعب بدوره خطوة إلى الأمام وبدأ يعبر عما يشعر وأخذت جماعات القوة فى قشتالة تمارس حياة نشطة ابتداءً من القرن الثالث عشر وتزامن ذلك مع قيام المملكة بكسر قواعد التوريث على العرش بعد وفاة الأمير السيد فرناندو، فقد أعلنت المجالس المحلية فى كل من قرطبة وجيان **Jaen** وبياسة **Baeza** وأوبيدا **Ubeda** وأندوخار **Andujar** وعرجونة **Arjona** ولاءها للسيد الأمير سانشو عام ١٢٨٢م وهذا حتى تتمكن من

حماية قوانينها وحرياتها ضد عدوان أى سيّد" قد يـأتى ويحـرف أو يخـالف قوانينـها أو المزايا التى نحن عليها " وكانت "جماعات الأخوة " تتكون من "العُمَد وجيراننا" (٩) .

كثرت هذه الجماعات بعد موت سانشو الرابع عام ١٢٩٥م إذ كانت المجالس البلدية تتحدث فيما بينها للوقوف ضد تجاوزات القادرين حتى ولو كان التجاوز قانونيًا وليس باستخدام القوة العمياء، وهنا نجد اللغة الديموقراطية والقانونية تعاود ظهورها وهى اللغة التى وجدناها فى "قصيدة فرنان جونثا ليث"، وفى حالة ظهور مخالفات قانونية فمن الأفضل" أن نقوم جميعًا بالتعبيـر عن ذلك أمام حضـرة مولانا الملك أو الملوك الذين يأتون من بعده، وفيما إذا كانوا يقبلون بإصلاح الوضع، وإلا فلنكن جميعًا صفًا واحداً لندافع عنه ونسانده طبقًا للمزايا التى منحنا إياها مولانا الملك سانشو عندما حظى بأصوات كل الذين يعيشون على الأرض" (١٠) ، إننا نلاحظ فى الوقت ذاته كيف أن سانشو الرابع – الذى كان فى حاجة للعون للقفز على قواعد توريث العرش فى المملكة – أقلق الأوساط العامة، وبذلك يمهد الجوّ للثورات الشعبية التى كانت أحد ملامح القرن الرابع عشر حيث وقعت عمليات تمردّ من كل فجّ ولون، واتخذ بدرو القاسى سياسة ديما جوجية ووقعت تمردات ضد اليهود كما حدثت تحولات اجتماعية ذات أهمية بالغة، ها نحن نرى أن وفاة الأمير السيد/ فرناندو دى لاثيردا حدث ملىء بالدلالات، كما تشير بعض تلك الجماعات – عند تأسيسها – أنه إذا ما أتى أحد يحمل رسالة من الملك يطلب فيها ضرائب غير التى تخوّلها قوانيننا أو ما إلى ذلك من المطالب غير القانونية، فإذا ما كان حامل الرسالة من الجوار أو من الجماعة أن يبلغوا المجلس بذلك Benavides {نفس المصدر – الجزء الثانى، ص٦ }. وهناك اتفاقيات مماثلة تعالج الأمر فى مرسية ولوركا وقوينقة ومدن أخرى غيرها {الجزء الثانى ص ٤٥ ، ٤٦ ، ٧٥}؛ وأمام هذه البلبلة القانونية لم يجد الشعب مناصًا من وضع أطُر لإراداته التى حفزها من جاءوا طلبًا لتعاونه، وابتداء من الآن سوف نجد أن الحدود الفاصلة بين العدل والعنف غير ثابتة.

ويشكل الجمع بين مصالح الملك وعامة الناس، فى زمن سانشو الرابع ، (عندما حظى بأصوات كل من هم على الأرض) بداية الدخول فى تاريخ الشعب الذى يلعب دور البطل بعد أن كان كل همّه قبل ذلك هو الصراع ضد المسلمين، كما أن الركون العسكرى لم يقابله عمل سلمّى، فالشعب المسيحى فى إسبانيا لم يكن لديه شىء آخر يشغله سوى إعداد النفس للدخول إلى طبقة السادة وذلك من خلال إبراز مواهبه وقدراته الشخصية - وليس إنتاجه - وعلى القارئ أن يضع فى اعتباره أن المور واليهود بصفة خاصة هم الذين ظلوا- خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر- يمارسون معظم الأعمال الخارجة عن نطاق زراعة الحقول، وكانت بنية المجتمع آنذاك - حسب رؤية السيد خوان مانويل [١١] - عبارة عن خطباء ومحاربين وفلاحين (رجال الدين والنبلاء وكل أنواع المقاتلين وأناس من حرث الأرض) وهذا نوع من التجريد الذى يستثنى الفنيين والموظفين العموميين والأطباء...الخ، وإذا ما أخذنا فى الاعتبار الصورة التى نعرضها فى الفصل العاشر عن اليهود فسوف ندرك سرّ دخول الشعب إلى مسرح الأحداث (وهم المسيحيون الذين ينسبون إلى الطبقات الدنيا) وكذلك للأسباب التى أدت إلى ذلك، لقد كان المال فى يد اليهود الإسبان الذين يقرضونه بفائدة تبلغ ٣٣٪ سنوياً، ولم يعرف الشعب كيفية التخلص منهم وزحزحتهم عن الأماكن التى يحتلونها فلم يكن من المتصوّر قبول وصاية اليهود كسلالة تحكم مع النبلاء وهذا ليس لأنهم غير ذلك بل هم سلالة ليس لها قيمة فى نظر المسيحى، أما التسامح الذى كان سمة العصور الوسطى (الذى شهدناه معشر المحدثّين بعيون القرن الثامن عشر) فقد كان واحداً من صور التقليد لما هو إسلامى ومحصلّة ضعف المسيحيين، إذ قامت كل من إنجلترا وفرنسا بطرد اليهود ولم يتركوهم ليتدخلوا فى إدارة الدولة وحكمها، ومع ذلك لم تُتهم أى من الدولتين بالبربرية، أما مأساة إسبانيا فقد كانت الحاجة الماسّة لليهود الإسبان من ناحية وعدم قدرة هؤلاء على الانخراط فى الحياة العامة من جهة أخرى.

أخذ الشعب المسيحى يعبر عن غضبه الأعمى ابتداء من نهاية القرن الثالث عشر وعندما كسر سانشو الرابع القواعد الهشة التى تقوم عليها الأمة [١٢] خلال العصر

الملكى التالى كان الشعب يعرف الدور الذى عليه أن يقوم به فى برلمان تورو Toro (١٣٠٤) تقول الرئيسة السيدة ماريا دى مولينا :

> "لأنكم - أنتم مجلس بلد الوليد، بينتم لى الآن، عندما حضرت إلى بلد الوليد، أن الكنيس الخاص باليهود والخاص بهذا المكان كان بناء على موافقة مولاى الملك (فرناندو الرابع) من خلال رسالة ممهورة بتوقيعه مقابل الديون التى عليكم وأشياء كثيرة أخرى..... وقلتم إنكم تعانون من غبن (وأبلغتمونى أنكم) إذا ما استمر الحال على هذا الوضع فإن جماعة الأخوة فى مدينة بلد الوليد والجوار سوف تتكون وسوف يعم الأذى ومخالفة القانون وعصيان الملك وعصيانى ...." (١٣).

وبناء على هذا اتخذ البرلمان بعض القرارات لفرض النظام فى مسألة القضايا المتعلقة بالديون بين المسيحيين واليهود، وحتى يتمكن الشعب من الوصول إلى ما يريد أخذ يهدّد بالتجمع فى شكل جماعات الأخوة - أى جماعات شعبية تقف ضد السلطة الملكية - وهى بداية ما يسمى" بالطوائف" المتمردة على حكم كارلوس الخامس (١٤)، إلا أن الملوك الكاثوليك هم وحدهم الذين استطاعوا المواءمة (لبعض الوقت) بين مصالح التاج ومصالح الشعب وحوّلوا جماعات الأخوة إلى بوليس تابع للدولة حتى تقل عمليات السطو والنهب، ومع هذا يجب أن نتذكر جيداً أن التحالف بين الملك وعامة الشعب كان شديد الارتباط والتأثير على عملية طرد اليهود وأمكن استمرار ذلك أن فرناندو الكاثوليكى بحث لهذا الشعب عن المهمة التى يفضلها وهى حرب المور ونقل الحرب إلى ما وراء الحدود، وبدون هذه الحروب التى دارت فى أوربا وفى ما وراء البحار (والتى تجلت فيها سمات الشعب الإسبانى) لكان الشعب قد تحول إلى نيران تأكل نفسها بنفسها.

وقد بدأ العصر – الذى اختتمه الملوك الكاثوليك – بقيادة سانشو الرابع الذى فتح أبواب الجحيم، ومثالاً على هذا نقول إنه فى عام ١٢٨٧م تصارع على الإدارة المالية فى المملكة كل من مانويل بيلورادو وأبرامهم البرشلونى وكان كلاهما يحظى بحماية الملك سانشو وكذا محظية لوبى دى آرو، وحسمًا للنزاع حضر كلا اليهوديين أمام السيد مارتين جرثيا أسقف أستورقة Astorga الذى كان يقوم بدور يشبه دور وزير العدل فحكم السيد مارتين لصالح السيد/ صمويل، وعندما علم بذلك السيد/ لوبى دى أرو دخل إلى ساحة المحكمة ونعت الأسقف " بأقذع الألفاظ" وقال له على الملأ " إننى أتعجب أنه لم يتم إزهاق روحك بالوخز" (١٥) ؛ وبعد ذلك بعام (١٢٨٨م) استدعى الملك سانشو السيد لوبى وبعض النبلاء الآخرين للمثول أمامه فى مدينة أرو وعقد معهم اجتماعًا مغلقًا وطالبهم أن يعيدوا له القلاع التى اغتصبوها منه، وهنا صاح السيد غاضبًا " هل نحن سجناء؟ كيف؟ إلى الجحيم؟ النجدة يا قوم!" ويسجل التاريخ لأول مرة سبًا موجهًا بشكل مباشر ضد ملك قشتالة؛ نحن إذن فى مراحل البداية لأمور كثيرة وفيها نجد أيضًا تنامى القدرات التعبيرية للقشتاليين الذين كانوا غير قادرين حتى ذلك الحين على التعبير عما يعتمل فى نفوسهم وما يحدث لهم فى مكان وزمان معينين، ومن المؤسف أن السيد لوبى رأى أن ما حدث كان شيئًا لم يتوقعه فلم يهب قومه لنجدته وقام حرس الملك – أول الأمر – بقطع إحدى يديه بضربة واحدة وبعد ذلك دقوا رأسه دقًا {نفس المصدر ص ٧٩} ؛ لقد قتل سانشو واحدًا من فرسانه بسيفه، وتذكرنا مشاهد مثل هذه (تحوّل المشاعر الحميمة للملك إلى كراهية تفضى إلى الاغتيال) بنمط الحياة فى الممالك الشرقية، فلقد كان للمعتمد بن عباد ملك أشبيلية (خلال القرن الحادى عشر) صديق حميم ومحظى طوال فترة طويلة يدعى ابن عمار، وقد خان هذا الأخير ملكه، فما كان من المعتمد إلا أن وجه إليه ضربة ببلطة " حتى علت البرودة جسده، وقبل أن يفعل سانشو الرابع فعلته، أمر الملك ألفونسو العاشر بإغراق شقيقه السيد فادريك لأنه عرف أشياء عنه وقبل ذلك بقرون قام الملك المعتضد ملك أشبيلية ووالد المعتمد بقتل ابنه بيديه وعاقب نساء القصر عقابًا صارمًا (١٦).

ويفضل هذا الأسلوب الجديد فى التعبير عن الحيوية - وهو الذى نحاول أن نفصح عنه - سوف نرى بوضوح التصرفات التى أتى بها سانشو الرابع، وسوف ندخل لأول مرة فى دهاليز النفس القشتالية ونحمل معنا الضيق والكدر كدليل، ولا نجد هذه التجربة الجديدة مرسومة باللون الوردى بل بألوان رمادية لا تبعث على الراحة، وندين بالفضل السيد خوان مانويل فى كتابة أول صفحة حميمة وحية تتمثل فى اعتراف مكتوب بالقشتالية فى صورة قصصية خلال زمن ومكان محددين وقد كتبها بضمير ووعى يصل إلى أعماق النفس ثم يخرج علينا باكتشافه العظيم.

توقف الملك سانشو الرابع فى مدريد فى منتصف شهر مارس عام ١٢٩٥م، فقد ألمّ به مرض شديد (مرض السلّ على ما يبدو) فذهب للاستشفاء فى دير الراهبات الدومنيكان [١٧] لكننا نسمع السيد خوان مانويل يقول وبعد عدة أيام ذهبنا لنعود الملك لكنه كان قد توفى فى مدريد، وكان يقيم فى منازل هذه الجماعة الدينية [١٨]، وساءت حالته وأراد بعض الأشخاص المشاركة فى العلاج ومن بينهم " السيد زاج طبيبى وهو الأخ الأكبر للسيد أبراهم طبيب الملك وطبيبى، إذ عنيا جيداً بالملك ألفونسو وبوالدى أثناء حياتهما، كما حدث نفس الشىء مع الملك سانشو أثناء حياته ومعى، فقد كانت بيوتنا واحدة وكذلك أتباعنا".

حدث ذلك المشهد الذى تحدث عنه السيد خوان مانويل عندما كان فى الثالثة عشرة من العمر ، كما أن هذا الطفل السابق لأوانه كان قد رحل إلى مرسية وهو فى الثانية عشرة من العمر فى مهمة الدفاع عن الحدود ، أضف إلى ذلك أن الأطباء الذين يتحدث عنهم هم يهود يوصفون بأنهم كاتمو الأسرار الحميمة للملوك ، وهذا ما سنراه فى موضع آخر من الكتاب ، لكن هيا بنا نتابع ما يقوله السيد خوان مانويل عن هذه المرحلة من طفولته:

> "وبعد ذلك ذهب كل هؤلاء مع الملك كما خرج الباقون من الغرفة فأمسك بذراعى الملك ، الذى كان يعانى من شدة المرض ، وأجلسنى بالقرب منه ثم أخذ يقول لى يا سيد خوان :

أنت تعـرف أن كل مالى لكم وأن كل مـالكم لى وأخصّ
بالذكر هؤلاء الناس الذين هم قريبون منى ومنكم أيضا ... "

شعر الملك بأن المنية قريبة وأخذ يتحدث عن مكنون صدره ويريد البوح والحميمية بالنسبة للاعتراف المأساوى الذى سيفضى به لحفيد سان فرناندو :

" علىّ أن أذكـر لكم يا سـيـد خوان ثلاثة أمـور : أولهـا : أرجـو كم أن تصلّوا من أجل روحى فـقد ارتكبت الكثيـر من الآثام ! وهنا أجد نفـسى تخجل من الله . أما الأمر الثـانى فهو أن تصلّوا علىّ عند موتى فـأنتم تجدون فىّ ملكًا وسيـدًا فأنا ابن عمـومتكم الذى تحـبونه كـثيرًا فلـيس لكم ابن عمـومة فى هذه الدنيـا إلا ذلك المذنب الآثم الذى أمـر باغـتـيال ابن جـوثمـان البوينو أثناء حصـار طريف ، وها أنتم تروننى أموت أمامكم ولا تسـتـطيـعـون نجـدتى ، إننى أمـوت وحـيـدًا ، ولو أرادوا أن يقذفـونى بمائة سـهم لفعلوا ، والآن أرى أنكم شبـاب قـوى البـدن ولا تسـتطيعون مـساعدتى أو غـوثى ، فأنتم تعـرفون أن هذا الموت الـذى يحـيق بى ليس عن ألـم بل هو بسـبب آثامى وخاصـة غضب والدى علىّ وهذا بسـبب ما فعلتـه .. وأتضرع الى الله أن تحـيوا حـياة مـديدة وأن تعـاصروا كـثيـرًا من ملوك قشتالة لكن لن يكون هناك ملك يـحبكم ويخاف عليكم مثـلى (وهنا يتـحـدث ضـمـيـر السـيـد خـوان مـانويل ، المتـمـرد والمضطرب حـيث أدى طمـوحـه وعناده الى خلق الكثـيـر من المصاعب فى مواجـهة فرناندو الرابع وألفونسو الحـادى عشر)

وبعـد أن قال كل ذلك وافـته نوبة سُعـال قوية ولم يسـتطع أن يتـخلص من البلغم الذى خـرج من صـدره ، ثم واتتـه نوبتـان

أخريان وبعدها وافته المنية ، وقد قال لى إنكم تعرفون جيدا الألم الذى يعتصر قلبى ... " والآن يا سيد خوان أريد وداعكم وأن أحظى بمباركتكم ، يالى من مذنب ، فلا أستطيع أن أتركها لكم أو لأى أحد آخر فليس بوسع أى شخص أن يعطى ما ليس فى حوزته "

كما سيقوم الملك بتفسير وذكر السبب الذى لم يحصل به على صالح الدعاء ولماذا تتوفر هذه الميزة للسيد خوان ، ورغم أن هذا النثر يتّسم بالمباشرة والسّرد الخاص بالسيّد إلا أنه ملفوف بالخطابة السائدة خلال العصور الوسطى ويسير على سرد الأسباب المنطقية فالعالم المسيحى اتسم بالنظام والقواعد المتبعة ، غير أننا نسمع هنا أسبابًا هى الضيق والكدر فى إطار سكَرات الموت ونوبات السّعال ، فهاهو الملك الملعون يشعر بهالة اللعنة تطوّقه وتغرقه فى نوبات السعال وكأنها لعنة تحلّ بالأسرة جميعها ، لقد كان الملك غارقًا فى جوّ يهودى إسلامى حيث يعتقد فى تأثير اللعنات والدعوات الصالحة ، وهى مؤثرات قوية – صالحة أم طالحة – تربط بين جيل وآخر ، كما أن الصوت الرهيب الذى نراه فى العهد القديم يتوافق مع المقولة العربية " إذا غضب والدك عليك فلن يجيبك الصلحاء " [١٩] ، ويؤدى كل ذلك إلى مصير محتوم ليس فيه من المسيحية إلا القليل لكن ذلك هو اعتقاد سانشيث الرابع والسيد خوان مانويل :

لا يمكن لى أن أباركـكم فلم يباركنى والدى بسبب ما فعلته به ، وبذلك حلّت علىّ لعنته ، ودعا علىّ كثيراً أثناء حياته كما فعل ذلك عند موته ، أما أمى فلم تفعل مثل والدى وهى الآن حيّة وقد باركتنى الآن وسوف تفعل ذلك عند مماتها ، ورغم أنهم يريدون الدعاء لى فلن يتمكنوا فلم يرثها أحد كما لم يتلق البركات من والده أو أمه "

وبالفعل بارك الملك فرناندو الثالث الملك ألفونسو العاشر شريطة عدة أمور لم يفِ الوريث بها ، أما فيما يتعلق بوالدته فيقول الملك سانشو الرابع

أعتقد أنها لم تحظ بدعاء والدها لهـا إذ لم يكن يحبها فهو
يظن أنها وراء موت شقيقتها الأميرة كونستانسا "

وفى مقابل فرع العائلة الملكيّة القشتالية " الملعون " وعلى رأسه الملك ألفونسو العالم ، يعرض لنا السيد خوان مانويل فرع عائلته فهو ابن السيد/ مانويل الابن الأصغر لفرناندو القدّيس ، وهو فرع حظى بكل أنواع البركات والدعوات ، كما أن وصف احتضار سانشو الرابع وصفًا فيه بعض العناصر القصصية لم يكن الغرض من أجل الكتابة بل تعبيراً عن الشعور بالراحة عند تبرير سلوكيات معينة فى الحياة ، وكذا لتبرير الطموحات الجموحة للسيد خوان مانويل ، أضف إلى ذلك أن " كتاب الأسلحة " هو سيرة ذاتية ، ولذلك يتضمن بعض الجوانب الحياتية للملك سانشو ، ولهذا السبب لا نستطيع أن نُدخِل العمل فى إطار الإبداع الأدبى المحض الذى لا يتوافق مع الواقع الآنى والمحيط بالأديب إذ يطلع علينا نثرًا السيد خوان مانويل من خلال إرادة فنية وحاجات وجودية ، ومع هذا نجد أمامنا شكلاً جديداً من أشكال الفن بفضل هذين العنصرين ، وعندما استطاع الشخص " الواقعى " التعبير عن ذاته (بفضل تغيير المناخ الأدبى) أخذنا نرى الشخص الأدبى يحصل على هذا النوع من التعبير بشكل تدريجى حيث إن ما يقع له لا يمتّ لما يحدث لذلك الشخص الذى هو من لحم ودم ، فالفن ليس هو الصراحة الساذجة .

وحتى تتمكن الذاتية فى الإبداع الأدبى من الخروج إلى الوجود فقد كانت فى حاجة إلى كسر الحاجز الأخلاقى الذى يحول دون أن تطفو المشاعر القشتالية على السطح ، وتحدث الظواهر الأدبية (مثلها مثل الظواهر الإنسانية) فى إطار سياق تاريخى معين ، فقد كتب السيد خوان مانويل الفقرات المؤثرة التى عرضنا لها لأنه كان فى حاجة لأن يتحدث عن نفسه ، ووجد فى نفسه الجرأة والشجاعة لفعل ذلك ، وهانحن نرى مسرح الأحداث والشخصيات والصدق المؤثر الذى نراه فى كلمات الملك الذى يحتضر وكلها تعتبر كثيرة للتأكيد على أنه (أى السيد خوان مانويل) ينحدر من سلالة ملكيّة أكثر طهارة وتنعم بالبركات مقارنة بالملك الحاكم الذى حُرِم من البركة

وبالفعل نجد السيد سانشو يختتم حواره مع السيد خوان مانويل على هذا النحو : لقد دعا لكم والدكم أفضل الدعاء وأنا واثق أن والدتكم تحظى بدعوات والديها ، وعندما أنتهى من أمر إسكالونا Escalona فأنا واثق أنكم أعطيتم بركاتكم " (٢٠) .

وتتزامن ظاهرة التعبير عن المشاعر ومكنون الصدر نثرًا مع الغنائية فى شعر خوان رويث وشعر اليهودى شيم توب دى كارّيون Sém . de Corrion ، وقد ألّف السيد خوان مانويل " كتاب القصائد الغنائية " الذى كان فى يد أرجوتى دى مولينا Ar-gote de Molina خلال القرن السادس عشر وبذلك تم إقرار الصلة بين النثر والشعر الغنائى خلال ذلك العصر ، ولا ينفصل كل ذلك عن السياق التاريخى لقشتالة بعد عام ١٣٠٠م ولما تولّى السيد خوان مانويل التعبير عن ذاته بشكل غير معهود سلفًا قد استطاع الولوج فى حياة الآخرين وسردها ، وتعتبر قصصه القصيرة تعبيراً عن حياته الشخصية وعن الظروف التاريخية المحيطة : " يقول باترونيو : سيدى الكونت لوكانور ، كان اليسّد لورنثو سواريث جاليناتو يعيش مع ملك غرناطة وظل على ذلك الحال زمنًا طويلاً ، وبعد أن دعا الله وتضرّع إليه أصبح فى حمى الملك فرناندو " .

نرى إذن أن أسلوب كتاب القصص القصيرة (الكونت لوكانور) للسيد خوان مانويل هو بمثابة قصيدة ملحمية حيث يخرج من مخبئه الشّعرى ويسرد القصة فى زمان ومكان يلتقى فيهما المؤلف والقارئ ويطلعان على المشاعر الحميمة التى عليها الشخصيات ، وتتضمّن الحكاية الخاصة بالسيد بيرو ملنديث دى بالديث موضوع " فارس شريف من فرسان مملكة ليون " وقد حدث أن كُسِرَت ساقه وسمعنا ما يقوله الناس عنه " آه يا سيّد بيرو ملنديث! إنك تردّد دائما عبارة :" ما قدّره الله هو الخير بعينه وعليك أن تستحضر هذه المقولة جيداً " ، وكان الموضوع الشعرى الذى نجده فى الملاحم هو الحدث الكبير ذو الطبيعة الوطنية أو الجماعية أما موضوع هذه الحكاية القشتالية فهو حادثة عارضة لا تتجاوز حياة فرد بعينه ، ويتحول العام إلى خاص وذاتى وبذلك يتم تعبيد الطريق أمام الرواية الحقيقية ، وحضور الرّاوى باترونيو يرمز إلى العلاقة بين القصة والمناخ السّحرى المحيط بها وبين الظروف الشخصية والمغزى

الأخلاقى وسوف تظهر حكاية سيدى حامد البنجلّى (ناصح دون كيخوته) كصدى للحكاية السابقة غير أن الأمر الجوهرى يتمثل فى أن هذه العناصر القصصية تتبدّى مصحوبة بالتعبير عن الذات " الأنا " ولهذا كتبتُ فى موضوع آخر وأشرت إلى أن الأسلوب الغنائى " للرواية الرعوية " وكذلك للأدب الصوفى كانا وراء التجسيد التاريخى والأدبى للسيد كيخوته ، وفى عمق هذه التعقيدات ننصت لصوت " الجَلَبة " الصادرة عن الموسيكيين ونبض " حشاشة الصدر " التى يحدثنا الحلاّج عنها .

وسوف يُلْقى اعتراف الملك سانشو وهو يحتضر ، (والذى حدثنا عنه السيد خوان مانويل) بظلاله المشئومة على الممالك الإسبانية خلال القرن الرابع عشر ، فلقد عاشت الأسرة الملكيّة القشتالية (سواء حلّت عليها اللعنة أو لا) حالة من القلق والتوتر المستمر ، إذ أمر الملك فرناندو الرابع بالتخلص من اثنين من الفرسان بإلقائهما من مُرتَفع ، وكان ذلك حكمًا ظالمًا طبقًا للرواية التاريخية ، وقد دعا هؤلاء على الملك أن يمثل أمام الله ليحاسبه على فعلته بهم وبعد ذلك بثلاثين يوما " عُثر على الملك ميتًا فى سريره ولم يره أحد وهو يعانى سكرات الموت " ، وأيا كانت حقيقة الأمر فقد أطلق على الملك فرناندو " المُستدعى " **Emplazado** أما ابنه -الملك ألفونسو الحادى عشر- (أفضل ملوك القرن الرابع عشر) فقد أحب السيدة/ ليونور دى جوثمان " إذ كانت أجمل امرأة فى المملكة " كما كانت سيدة ألمعية ، ومنذ أن عاشت فى كنف الملك عملت على خدمته فى كثير من شئون الحياة " حتى ازداد حب الملك لها " ، لكن الخطير فى الأمر هو أن الملك له أبناء من الملكة الشرعية ومن غير الشرعية وبذلك أسهم فى الإعداد لكوارث قادمة ، إذ بلغت مشكلة أبناء السّفاح فى هذا القرن أبعادًا خطيرة، وقد ورث بدرو (الابن الشرعى) العرش ، وأطلق عليه آخرون لقب " القاسى " أما الباقون (أى الشعب فى صراعه مع النبلاء) فقد فضّلوا إطلاق لقب " العادل " إلا أن إنريكى – الابن غير الشرعى – قام بطعن أخيه بعد المعركة التى دارت بينهما فى مونتيل **Montiel** عام ١٣٦٩م .

وعندما وعى شعب " جماعات الأخوة Hermandades لقدرته أخذ يقوم بدور فعّال فى الأحداث، كما تشير إلى ذلك الأخبار ، فعندما وقعت بعض الدسائس التى شارك فيها أشخاص من الأسرة الملكية:

> " هؤلاء الذين هم من بلد الوليد ، والذين استطاعوا تحريض العمال وبسطاء الناس ويقولون إن الأميرة ستتزوج الكونت ، وعندما همّت الأميرة بركوب البغلة هجم عليها العامة وأرادوا الفتك بالسيد يوسف ومن معه ... كما أن أعضاء المجلس البلدى صعدوا درجات السلّم وأرادوا هدم الحائط الذى اختبأ وراءه ذلك اليهودى حتى يقتلوه " (٢١) .

لم تسجل السّير أحداثًا على هذه الشاكلة قبل ذلك ، فقد أصبح إيقاعها السردى أكثر شمولية ولم تعد الأحداث الخاصة بالحياة اليومية تصلح للدخول فيها ، نجد إذن أسلوب السيّد يسير بشكل موازٍ للحكايات والشعر الغنائى فى تضمّنه جوانب غير مألوفة فى الحياة القشتالية التى لم تقتصر فقط على الحروب والتمرّد ، وقد اتسم عصر ألفونسو الحادى عشر (١٣١٢ - ١٣٥٠م) بإحراز انتصارات على المور كما شهد أحداثًا عامة عظيمة وازدهارًا فى الفروسية لم يعرف من قبل ، فقد أسس الملك جماعة باندا Orden de la banda واحتفل بأعياد تتويجه ، كما اعتلى اليهود أرفع المناصب فى عهده وأكثروا من تداول الأموال ، وأخذنا نرى مظاهر الحيوية فى كل مكان فأثناء رحلة قام بها ألفونسو الحادى عشر إلى أشبيلية وجدنا " أن أهل هذه المدينة من الأغنياء والفرسان وعامة الناس ينتظرون مجيء الملك بلهفة وشغف ، وأنهم يُعْزون إليه نجاتهم من كل المصاعب والآلام التى تعرضوا لها حتى الآن " وعمّت الروحانية المشرقية للإسبان فى أجمل المدن التى يملكها المسيحيون " كانت المدينة شديدة النبل إذ تجيد استقبال سيدها كما استقبلت الملك بترحاب وسرور بالغين " ؛ عمّ الرقص والموسيقى " وفى نهر الوادى الكبير نجد المراكب الحربية تقوم ببعض المهارات العسكرية وكأنها تتحارب فيما بينها " ووجد الملك " الشوارع التى طاف بها وقد

زينتها الأقمشة المخيطة بسلوك الذهب والحرير ، وكذلك الأمر بالنسبة لحوائط المدينة ، كما وضع أمام كل باب مواد تفوح منها روائح عطرة من أفضل الأنواع " [٢٢] ؛ حدث ذلك عام ١٣٢٤م عندما ذهب الملك ألفونسو الحادى عشر إلى المدينة وهو الرجل الذى لم يكن " ضخم الجثة إلا أنه شديد الذكاء ووافر القوة وأشقر الشعر وأبيض اللون ومغوار فى الحرب " {صـ ٣٩١}؛ " كانت عباراته قشتالية ولم يتلعثم فيما يريد قوله " {صـ ١٩٨} ، وعمّ السلام والنظام ملْكِه ، وعندما عقد مجلس البلاط فى مدريد عام ١٣٢٧م تشير السّيرة إلى " أن العدل يسود كل مكان يذهب الملك إليه إذ أمن التجّار على بضاعتهم ، وناموا فى الميادين كما لم تكن هناك حراسة على البضائع ، والخوف من بطش العدالة هو العنصر الذى حال دون الخارجين على القانون "{صـ ٢٣٣} .

وقد سيطرت شخصية العاهل الفارس المغوار على الحياة العامة آنذاك ، ففى عام ١٣٣٠م استطاع تهدئة السيد خوان مانويل الرجل الذى كان تابعًا له والذى اعتاد " فعل أى شىء للعصيان رغم وفرة ماله " كما أن صيت الملك فرض نفسه على المتمردين " فهذا الملك كان نبيل النسب وحاز شرف تولى العرش وشرف الفروسية " وقد كان للملك حسّ إسبانى عظيم حيث حاول جمع شعبه حوله بأن أحاط نفسه بهالة من العظمة والأبّهة " لدرجة توفّرت معها الإرادة لتشريف التاج والملوك الذين يضعونه فوق رءوسهم " ؛ ولّت العادة القديمة فى منح ألقاب الفروسية للنبلاء : " فمنذ زمن طويل كان الجميع يعتذر عن حمل لقب فارس وظل الحال على ما هو عليه حتى عهد الملك ألفونسو " ، وقد جاء ذلك الملك فأحيا تلك العادات القديمة والنبيلة رغم أنها أصبحت ذات معنى مختلف فقبل ذلك بقرنين من الزمان كان الملوك يحجون إلى ضريح سانتياجو ويتضرعون للقديس الرسولى حتى يكون النصر حليفهم ، أما ألفونسو الحادى عشر فقد ذهب لينصب نفسه فارسًا وكان ذلك فى حفل بهيج :

> " وقبل أن يصل إلى المدينة، ترجّل عند مكان يسمى مونويا Monjoya وفى الصباح الباكر تولى الأسقف خوان دى ليما الصلاة وبارك الأسلحة وتسلّح الملك بكل ما معه: السترة

الواقية والزرد وواقى الفخذين والساقين والنعل الحديدى وربط
غمد سيفه فى حزامه، وكان قد أخذ كل تلك الأسلحة بيديه
من مذبح سانتياجو، كما استطاع الملك الوصول إلى صورة
سانتياجو التى كانت فوق المذبح، وبعد ذلك أمر أن يُلبسوه
الخوذة، وبهذه الطريقة أصبح فارسًا من فرسان القديس
سانتياجو "(ص ٢٣٤)

إن سمعة القديس لم تستخدم هنا إلا لإحراز انتصارات ضد الكافرين، وإنما للإعلاء من شأن معتقد إنسانى خالص، هو الإيمان بعظمة الملك التى منحها القديس، على المستوى المادى دفعة رمزية. لقد حدث تضافر بين ما هو إلهى وما هو إنسانى، بين الجهد الحربى الوطنى والطقس الدولى للفروسية التى أنعشها فى خيال السادة قراءتهم لقصائد الفروسية، التى كانت ذائعة الصيت فى ذلك الوقت :

فلم يكن بلانسكافلور وفيًا لفلورس
وليس – الآن – تريستان بكل ما عنده من حب (٢٣)

يتم تتويج الملك فى جوّ مهيب وينظم إثر ذلك دورات ومبارزات واحتفالات ، وكان النصف الأول من القرن الرابع عشر يتسم بالعظمة فى قشتالة رغم بذور الكوارث التى تنمو فى داخله ، فهاهو الملك الفارس والمحارب العنيد يقع فى حب أجمل نساء إسبانيا، إلا أن الأوبئة التى كانت سوْط ذلك العصر انتزعته وهو يحاصر " الجزيرة " عام ١٣٥٠م . وأصبحت قشتالة مقسمة إلى عائلتين متعاديتين ، ونستطيع معرفة درجة هذه العداوة من خلال إراقة الدم .

لدينا اثنان من كبار الشخصيات الأدبية التى ملأت الساحة الإسبانية خلال تلك الفترة : وهما السيد خوان مانويل ، وخوان رويث (قمّص إيتا) إذ يمثلان ملامح الهواء الجديد الذى أخذ يهب على الحياة القشتالية التى أثرت فيها الثقافة الأوربية ، فضلاً عن أنها شديدة الارتباط بنمط الحياة الإسبانية المشرقية ، وقد تحدثت فى بحث

لى بعنوان " ما هو إسباني وما هو إيراسمى Erasmo" عن الموقف الروحى فى إسبانيا خلال النصف الثانى من القرن الرابع عشر والتى تمثلت أبعاده الرئيسية فى إنشاء جماعة " سان خيرنيمو " وميلاد الشعر الشعبى " Romancero، والمُؤلَّف الرابع للسيد بيرولوبث دى أيالا ، وليس لدينا متّسع للعودة للحديث عن هذه الدراسة حيث إن الكتاب الذى بين أيدينا يمثل مقدمة وسابقة لها ، ويكفى القول أن المسافة الفاصلة بين كلتا الفترتين - النصف الأول والنصف الثانى من هذا القرن - يمكن قياسها بمقارنة أعمال الوزير أيالا وأعمال خوان رويث (قمّص إيتا) ، وقد سطّرت هذا الفصل على سبيل التمهيد حتى نفهم هذا الأخير .

الهوامش

(١) يجب قبل كل شيء أن نعرف أن هذا الأدب المكتوب بالرومانث يرجع إلى البلاط ويرتبط بخطة ثقافية محددة وليس مجرد مبادرة فردية ومنعزلة، وفي عام ١٢٨٤م كان رجل القانون الفرنسي/ شابو لازال يردد أنه يقرأ الشعر في اللغة الفرنسية أفضل من النثر (G. Gröber, Grundriss, II, p. 757) يمكن أن يكون قد مرّ ببلاط ألفونسو العالم عام ١٢٦٠م بصفته سفيراً .

(٢) انظر على سبيل المثال " الفصل الذي يتناول كيف أن جارثي بيديث ..." { طبعة مننديث بيدال صـ ٧٥١ - ٧٥٢ }

(٣) " التاريخ العام " صـ ٧٢٩ b، ٨٦٧ a

(٤) لم يكن الجهل باللغة هو العنصر الذي حال دون الوصول إلى أنماط الشعر الإسلامي ، فالكثير من المسيحيين كانوا يعرفون العربية . ففي إحدى اللحظات الصعبة التي واكبت الاستيلاء على قرطبة " تحدث المسيحيون وقالوا : ماذا نحن فاعلون ؟ " فقال لهم دومنجو مونيوثا (القائد) " أنصحكم بما يلي : يمكننا أن نصعد {السلالم} وليصعد أفضل من يتحدث العربية منا وليرتدوا ملابس المور بحيث إذا ما تحدثوا مع المور لا يعرفونهم " وكان أول المسيحيين الذين صعدوا من الذين يجيدون العربية كل من ألبار كولودرو وبنيتو دي بانيوس ، ثم أتى الآخرون بعدهم ، وقد ارتدى الجميع ملابس المور " {التاريخ العام ٧٣٠ أ} فهؤلاء الناس من القشتاليين الخُلّص أمكنهم أن يبدوا مثل المور عندما ارتدوا ملابسهم .

(٥) تاريخ ألفونسو العاشر – الفصل التاسع .

(٦) مرثيدس جايبروبس "تاريخ مملكة سانشو الرابع" الجزء الثالث ، صـ ١٠٤ ، ١٠٥

(٧) من الشائع أن تنسب هذه القلاقل التي طال أمدها في قشتالة النصف الأول من القرن الرابع عشر إلى الأقليات لفرناندو الرابع وألفونسو الحادي عشر ؛ وإلى الصراعات بين بدرو القاسي وإنريكي الثاني خلال النصف الثاني من القرن المذكور . غير أن المشكلة يمكن أن تبدو بشكل آخر عندما نسأل أنفسنا عما كان يفعله المسيحيون واليهود والمور خلال القرن الر ابع عشر ، وعندما نلاحظ التوجه الجديد الذي أخذته وسائل التعبير الأدبي .

(٨) مرثيدس جايبروبس " تاريخ مملكة سانشو الرابع -الجزء الثالث – صـ ٩٦ ، ففي عام ١٣١٠ " السيد ناصر ملك غرناطة ، تابع الملك " وهذا ما تؤكده وثيقة لفرناندو الرابع (أ. بينابيدس " مذكرات الملك فرناندو الرابع – الجزء الثاني – صـ ٧٥٢) ورغم أنه كان من المعتاد أن تدفع الممالك المسلمة الجزية ولها

علاقة حميمة مع الممالك المسيحية فإن مملكة غرناطة كانت أكثرها صلة بقشتالة وأرغن ، فقد قام الملك خايمى الأرغنى (عام ١٢٩٧م) بطلب معونة يقدمها ملك غرناطة لصالح الأمير دى لاثيودا وضد الملك فرناندو الرابع ؛ وفى عام ١٣٠٠ يطلب قرضًا قدره ٢٠٠٠٠ وحدة عملة ذهبية **doblas** باسم تاج والده (بينابيدس نفس المصدر - الجزء الثانى - صـ ١٢٤)، وفى عام ١٣١٠ وجد الملك المسلم نفسه مجبرًا على أن يدفع للسيد خايمى ثلاثة آلاف وحدة عملة سنويا ولمدة سبع سنوات كما يجب عليه أن يعترف بأنه دافع الضرائب للملك فرناندو الرابع ملك قشتالة . ويلاحظ أن الوثيقة تسير على نهج الأسلوب الذى يتبعه الملوك المسيحيون " السيد ناصر ، بفضل الله ، ملك غرناطة وملقة والمرية وروندا وجوادكس وأمير المؤمنين (بينابيدس - الجزء الثانى - صـ ٧٥٦) وهذا يجعلنا نشير إلى أن هذا الطرف أو ذاك كان يحكم عددًا من ملوك الطوائف ولا يحكم أمة بكاملها ، فقد كانت الممالك تتحد فى ظل انضوائها تحت اللواء الأسطورى للتاج وليس من خلال ضم الأراضى لبعضها . أما ملوك فرنسا فكانوا يلقبون بملوك فرنسا .

(٩) " سلسلة الوثائق غير المنشورة لكتابة تاريخ فرنسا - رقم ١١٢ - عام ١٨٩٥ صـ ١-٦ . أعتذر عن عدم تمكنى من العثور على كتاب **J. Puyol** " جماعات الأخوة فى قشتالة " .

(١٠) بينابيدس " مذكرات الملك فرناندو الرابع - الجزء الثانى صـ ٤

(١١) يبدو أن السيد خوان مانويل يتذكر " كتاب القوانين " - الثانى - صـ١٢ : فالمدافعون يمكن أن يكونوا إحدى الفئات الثلاث التى أراد الله للعالم أن يبقى بها وهى : الذين يتضرّعون إلى الله من أجل الشعب والذين يفلحون الأرض ... والذين يدافعون عنها " ؛ وهذه الفكرة - التى لم تكن تتسق مع الواقع الإسبانى - عرض لها ألبرتو دى لاون (المتوفى عام ١٠٣٠م) فى شعره الذى وجهه إلى روبرتو التقى **(Migne, Pato-logía latina, CXLI, p. 782)**

(١٢) ندم على ذلك فرناندو بيريث دى جوثمان ندمًا شديدًا خلال القرن الخامس عشر " ... لقد عاشت إسبانيا فى حالة عدم استقرار وقلاقل ولم تنج من الفضائح وغيرها إلا زمنًا يسيرًا {الأجيال وصورها ، طبعة " الكلاسيكيون القشتاليون " صـ ١٤٣

(١٣) " بلاط ليون وقشتالة " الجزء الأول صـ ١٧٢

(١٤) وفى لحظات الضعف الكبرى التى يعيشها التاج كان الشعب ينفرط عقده ، يقول بلاط أوكانيا منذ ما يقرب من أربعة أعوام وأثناء القلاقل وشيوع الفضائح فى عهدكم {عهد إنريكى الرابع الملقب بغير القادر} تمردت بعض البلدان وشكلت جماعات الأخوة وكوّنوا مجالس عامة وحملوا على عاتقهم ممهم عظيمة مثل العدل (..) .

(١٥) تاريخ سانشو الرابع - مكتبة المؤلفين الاسبان - ٥٦ ، ٦٧ ب

(١٦) انظر دوزى "تاريخ مسلمى إسبانيا" ١٩٣٢ - الجزء الثالث ١١٧ صـ ٦٧ . " تاريخ ألفونسو العاشر " مكتبة المؤلفين الإسبان ٥٦ - صـ ٥٣ (يمكن ذكر المزيد من هذه الأمثلة التى تتحدث عن الانتقام والعقاب) لكن ليس هناك داع .

(١٧) توجد وثائق تتحدث عن مرض الملك وموته ، وسوف توردها مرثيدس جايبروبس فى كتابها " تاريخ سانشو الرابع " الجزء الثانى صـ ٣٦٦ - ٣٧٨

(١٨) تم كتابة هذه " الوثيقة " بناء على طلب فراى خوان ألفونسو الراهب الواعظ الذى طلب من السيد خوان مانويل أن يكتب " عن الحديث الذى جرى بينى وبين الملك سانشو فى مدريد " - انظر مكتبة المؤلفين الإسبان ٥١ - صـ ٢٥٧

E. Westermack, Origin and Development of Moral Ideas, I, p. 622. (١٩)
Cursing and Blessing", en J. Hasting, Encyclopae-"Véase adem?s el art?culo dia of Religion and Etbics.

(٢٠) يعتبر كتاب " الدول " من الكتب الفريدة وهو عبارة عن عمل نظرى يقدم لنا أسطورة بارلام ومصنفات كإطار سردى ، اما من ناحية المحتوى فهو عبارة عن مراجعة شاملة للمجتمع ، وفى هذا الإطار وذلك المحتوى (...) يقحم الكاتب نفسه بطريقة بسيطة ؛ فخوليو (= بارلام) من مواليد قشتالة وتعامل مع والدى السيد خوان مانويل ورباه هو ، كما أنه يتذكرهم جميعًا : صـ ٣١٢ نجد نصيحة دون خوان مانويل لصهره دون خوان نونيث - صـ ٣١٣ محاولة دسّ السمّ للسيّد خوان مانويل ، صـ ٣١٦ ، ٣١٧ : فترة الرضاع والتأديب التى عاشها السيد خوان مانويل (...)

(٢١) تاريخ ألفونسو الحادى عشر - مكتبة المؤلفين الإسبان ٦٦ صـ ٢١٥ أ

(٢٢) تاريخ ألفونسو الحادى عشر - مكتبة المؤلفين الإسبان ٦٦ صـ ٢٠٤ ب

الفصل التاسع

كتاب "الحب المحمود" لقمص إيتا (خوان رويث)

عندما نقرأ الصفحات السابقة نخرج بانطباع لا نشعر معه بالدهشة الكبيرة لظهور هذا الكتاب الذى لا يرتبط بالشعر القشتالى خلال العصور السابقة أو بالأدب الرومانى Romanic، إذ يتسم الكتاب الذى ألفه خوان رويث (اسم قمّص إيتا) بعدم التجانس كما يتسم بالتكرار ، أما المؤلف – شخصية شعرية – فيطل علينا من خلف أشعار ذات مذاق إنسانى واضح كما تتخللها سحابة من الأخلاق والمجازية ، وتخطئ المناهج المعدّة سلفًا لدراسة الشعر الرومانى – المسيحى وخاصة فى هذه الحالة التى بين أيدينا فكتاب " الحب المحمود " هو تأثر قشتالى بنماذج عربية هى الأدب الجنسى وقد تم تأليفه عام ١٣٣٠م، ووصلت إلينا ثلاثة مخطوطات منه نشرها جان دوكامين Jean Ducamin، بنفس نمط الخط القديم ، عام ١٩٠٠م ، كما نشرت قبل ذلك بشكل غير مكتمل فى طبعات معروفة ، ولا توجد حتى الآن طبعة كاملة وناجحة لعمل فى غاية الأهمية مثل هذا ، كما أن اللغة المستخدمة لازال يكتنف بعض تراكيبها الغموض

الكتاب فيه العظة والخطأ ، يتحدث بتلقائية كاملة عن المرأة من الناحية الجنسية لكن ليس على شاكلة أوفيديو Ovidio أو على شاكلة شعراء المجون فى أوربا المسيحية رغم وجود صلة ظاهرية بهم ، غير أن قصيدة خوان رويث هى إسبانية عربية وهذا لم يكن حائلاً أمام معالجة موضوعات أوربية ومسيحية مثل " المشاجرة بين السيد كارنال والسيدة كوارسما " أو ترجمة القصة القصيرة De amore . ولأول مرة نسمع صوتًا شعريًا بالقشتالية يتحدث عن ضمير شخص ، ولا يهمنا أن يكون ذلك هو الشاعر أو لا . فالحقائق التى صمت عنها الأدب قبل ذلك نجدها تطفو أمامنا وقد أخذت قالبًا

شعرياً وهي : الأصوات العالية في الشوارع والحوارات المليئة بالإيحاءات وفتاة تتحدث باللغة العربية وأثاث المطبخ والأشغال المترتبة عليه والأعمال الزراعية " والعجائز اللاتي يتحدثن عن أفعالهن وهن إلى جوار المدفأة (مجموعة أبيات رقم ١٢٧٣) ، كما يتم الحديث لأول مرة عن طبيعة بعض الإسبان : أخذت ذلك الأمر كما يفعل الأندلسيون {١١٦} فلم يكن الفن القشتالي يعرف تلك التفاصيل الحياتية .

نرى في القافية القشتالية مكنون النفوس والعالم المحيط بها ، ونشعر بالمدن وكأنها مدننا وباختلاط السلالات الثلاث والمعتقدات الثلاثة ، ويجرى الحديث عن علماء الفلك والقوادات وإشارات لكتب ذات شهرة كبيرة وعمال وفرسان يقدمون أرواحهم فداءً لإسبانيا وسيدات ورهبان وراهبات ، هناك خليط من الموسيقى والغناء وطعام يروق للإنسان ومواكب دينية وممرات في جبال جوادرّاما (وادي الرُّمة) Guadarrama ولغة رفيعة المستوى وعبارات على لسان السوقة، وقد اختلط كل هذا وتداخل وتم تقديمه في خضم خليط من المشاعر إلى جوار مزيج ضخم من المثل الأخلاقية المجردة ، إلا أن من كتب هذا فنان أصيل ومقتدر وليس مجرّد داعية أخلاقي أو مجرد داعر يلعب على وتر الآثام تارة والأخلاق الحميدة تارة أخرى ، ولايمكن أن ننظر إليه على أنه مجرّد مُنْشِد يتولى نقل الميراث الثقافي مجهول الاسم والزمان ، كان خوان رويث يعيش في زمن ألفونسو الحادي عشر ، أي عندما بدأت قشتالة تعبر عن رغباتها في المُتَع ولا تخجل من الحديث عنها ، وعلى أي الأحوال فهذا الكتاب يقدم لنا ثلة من متع الحياة في ذلك الزمان ويطرح الحوار بشأن نواحي الجذب فيه وتعقيداته والمخاطر المترتبة على ذلك ، والمؤلف هو رجل أعمال المتع الخاصة والعامة يتولى الحَضّ والعقاب ، وهو على خبرة كبيرة بما رأى وسمع وقرأ ، كما نراه أحياناً في صورة شاب مندفع أو في صورة واعظ ذي خبرة ورصانة ، ولن نجد هذه اللعبة الفنيّة في أي من الكتب الخاصة بالمنطقة الرومانية خلال ذلك العصر ، كما لن نجده عند شوسر Chaucer فالأمر يختلف .

كان المؤلف أول من استمتع بما كتب – أرابيسك خالص بدون بداية أو نهاية – ثم دعا الجمهور للمشاركة في هذه اللعبة المرحة ، وأن يترك نفسه لتتقاذفه الأيدي وكأنه

كرة يمسك بها من يصل إليها (مجموعة أبيات ١٦٢٩) ، إنه لا يطلب منا تعليقًا أو تحليلات علمية فهو وكتابه ليسا على هذه الشاكلة، وما يرغب فيه هو المتعة الفنية ، كما خمّن الجزء الذى سوف يجذب إليه الكثير من القراء لدرجة أنه أحس برد فعل القارئ الذى يشعر بشىء من الضياع فى هذه الدهاليز ، والشىء الفريد هو أن يعيش كاتب – سواء كان اسمه خوان رويث أو غير ذلك – العملية الشعرية لتسليم كتابه لجمهور غير معروف وذلك حتى يستمر فى أعمال الأرابيسك التى لا تنتهى ، فهذا الكتاب ليس مثل " ديوان بايينا Cancionero de Baena أو الدواوين الأخرى المشابهة حيث تتكون من أشعار وقصائد ليس بينها رابطة ، أما هنا فنحن أمام الترابط والاستمرارية رغم أنها قد تكون شكلية محضة كما نشهد أيضًا المناطق الفارغة التى تركها لنا المؤلف ، ولا توجد أى من الشخصيات ، التى تطل برءوسها من هذا العمل وقد توافرت لها الحيوية الكاملة ما عدا شخصية تروتاكونبنتوس Trotaconventos التى كانت قاب قوسين من بلوغها كاملة ، لكن الشىء الذى لا جدال فيه هو أن المؤلف أبدعه إبداعًا كاملاً وكأن إحدى الشخصيات هو الكتاب نفسه ، فخوان رويث يضع له عنوانًا ويناقش معناه ويفخر بأنه كتبه شعرًا ويخشى أن تمتد إليه أيدى العابثين ، ويدلّنا على الطريقة التى نقرأ بها الكتاب وبعد ذلك يتركه للزمن فى ظل عدة شروط ، وقد ظهرت الطبعة الأولى منه عام ١٣٣٠ أما الثانية ففى عام ١٣٤٢م .

ويتبدّى لنا تفرّد الشاعر فى رغبته أن يستمر ديوانه " على يد أى إنسان يسمعه طالما توفرت لديه القدرة على قرض الشعر " {١٦٢٩} وذلك بالإضافة والتعديل بالطريقة التى تروق له ، غير أننا لا نعرف شيئًا فى هذا الصدد فلست أمام موضوع أو حدث قابل لإعادة الإمساك بخيوطه من جديد مثلما هو الحال فى ملاحم العصور الوسطى وفى القوادة Celestina وفى المسرح خلال القرن السابع عشر ، حيث تم إعادة صهرها دون أن يتولى أحد الدعوة إلى ذلك ، ولم يبق على قيد الحياة إلا تروتاكونبنتوس ، ثم عاد ليظهر فى " القوادة " ، وقد استمرت بعض الأشعار فى الإنتاج الشعرى خلال القرن الخامس عشر (طبقا لما أوضحته ماريًا روساليدا) وهذا هو كل ما فى الأمر ، غير أن الأمر الحاسم هو أن " كتاب الحب المحمود" يستخدم

القشتالية – ولأول مرة – فى قالب شعرى للتعبير عن تجربة محسّة خارج نطاق الأسطورة ومن منظور حياة من يعبر عن ذلك :

فوق الجسر

ظننت أنى ميت

من الثلج والبرد

وهذا الندى

والصقيع الذى عمّ (١٠٢٣)

وعبر هذا الطريق الأسلوبى الذى افتتحه خوان رويث سوف تقوم شخصيات أخرى بالسير فيه مثل الكورباتشو Corbacho فى " القوادة " وكذلك دون كيخوته ؛ غير أن ديوان خوان رويث لا يمكن لأحد أن يعيد قولبته من جديد نظرًا لتنوع موضوعاته ، كما أنه إبداع شخصى غير مقولب فى موضوع معين ، وفى كل سطر تقرؤه تخرج وتطل علينا شخصية إنسان يتحدث ، وسوف يكون من السذاجة طرح حوار حول ما إذا كان المتحدث هو خوان رويث أو غيره ، وعندما أخذ المنشدون يضفون الحيوية على ما يقدمون بإلقاء بعض أبيات ذلك الديوان لم يحددوا الموضوع الذى سوف ينشدونه بل يقولون " نبدأ الآن فى إنشاد كتاب القمّص " (١) ؛ نرى إذن النغمة الذاتية لإنسان انصهر فى داخل عمله كما أن ملامحه الأدبية لم تصبح مجهولة الاسم .

ومما لا شك فيه أن الاقتراب من فن غريب ومعقّد يطرح أمامنا تساؤلات تتجاوز صفحات كتاب خوان رويث الذى كان هدفًا للكثير من " التحليلات " حتى قبل طباعته فى القرن الثامن عشر ، وقد قام البعض ممن يخدشهم الحياء بانتزاع بعض الصفحات منه. ومن المؤكد أن المخطوطة الأصلية كان بها أكثر من هذا بكثير ، وقد قام السيد / توماس أنطونيو سانشيث بإدخال تعديلات على النص لأسباب أخلاقية، وبعد ذلك رأينا الآراء المتضاربة بشأن الموضوع .

نحو معرفة مغزى كتاب الحب المحمود

تحدث الكاتب قائلاً بأن عنوان الديوان هو " كتاب الحب المحمود الذى يسعد الأجساد وينعش القلوب " {١٣} وهو يتجاوز عملية الانتقال التدريجية من الدنيوى إلى الدينى ومن ملذّات الحياة إلى كبح جماح النفس ، إذ نرى ضفيرة كاملة تجمع بين الرغبات الأبيقورية والحسّ الأخلاقى ، نحن إذن بعيدون عن المناقشات الحادة بين الروح والجسد التى كانت سمة العصور الوسطى فهذا العالم والماورائية يتلاقيان ويتكاملان فى وحدة حيوية يرمز لها الأسلوب الذى يستخدم ضمير المتكلم ، ولهذا فإن المنشدين خلال القرن الخامس عشر كانوا يذكرون الكتاب بقولهم " كتاب القمّص " وليس مجرد ذكر الكتاب وكفى ، ويرى المؤلف أن الحياة هى كل شامل من المتعة الجسدية والحسية والذاتية ومن المثل والأخلاق والماهية ، ولو كان القمّص مسلماً لكانت عملية الانتقال من قطاع إلى آخر تتسم ببساطة شديدة دون مفاجأة أو جهد يذكر ، لكن لما كان مسيحيًا (رغم أنه مغمور بالروح الإسلامية) كان عليه أن يعكس لنا التناقض بين المحمودية الحسية والتأمل الأخلاقى ، فالكاتب المسيحى (وليس عمله فقط) لم يكن بمقدوره أن يظهر وهو يحمل الصنفين : الداعر والواعظ ، وهذا ما كان خوان رويث يراه ويقرؤه بين المسلمين : فالمتعة الجسدية لا تستلزم مباعدة المتعة الروحية والعكس صحيح (٢) فالمسيحى خلال العصور الوسطى لم يكن متمنّعًا عن العيش الجسدى غير أنه كان يعرف أنه إثم يقترفه ورغم ذلك فهو يفعله ويحوّله إلى موضوع أدبى كوميدى : " ليس من السهل تشغيل الخادمات ... كما أن نموذج الحياة الخالية من العيوب أمر صعب جداً ، فحياة الملائكة هى وحدها التى تتسم بالطهارة " (٣) .

غير أنه لم يخطر على بال ذلك المسيحى أو غيره كتابة قصائد تضم المتع الجسدية والمواعظ ، ولما كان خوان رويث معتاداً على الحياة الإسلامية أمكن له أن يفعلها رغم أنه قام بمدّ جسر كوميدى ، الحسّى والأخلاقى ، غير أن فكاهته خاصة به وليست ذات طبيعة إسلامية ، هذا التوليف " القنطورى " بين نمطين للحياة هو الذى يُعَمِّى الأمور

ويضيّع أحيانًا معالم الطريق عندما نقوم بإطلالة نقدية على عمل القمّص ، والشيء الطبيعى عند المسيحى - عندما يتحدث عن موضوعات تتعلق بالأخلاق مستخدمًا ضمير المتكلم - هو ألا يستغرق فى سرد مباهج الحياة الدنيا ، والاعتماد على وصف المتع الحسية كطريق للفضيلة تبدو كنوع من النفاق أو المخاتلة ، غير أنه ليس كذلك ، وإذا ما كان خوان رويث يكتب ذلك " ليعطى المثل وحتى يتضح كل شىء بجلاء " فإن ابن حزم (طبقًا لنصوص سوف أشير إليها فيما بعد) يتحاشى معالجة بعض الموضوعات " كنوع من الحيطة " ، وإذا ما كان خوان رويث ينصح الإنسان بأن يمارس بعض المتع حتى يريح العقل ... " فالحزن الكثير يثير الكثير من الحذر " نجد أن كلا من ابن حزم وأبى الدرداء يقولان " روحوا عن أنفسكم بشىء من المتع الدنيوية " كما ينصح الرسول فى حديث له بالترويح عن القلوب وإلا اعتلاها الصدأ كالحديد .

وإذا ما نظرنا إلى الموضوع من الزاوية المناسبة فسوف نجد أن خوان رويث ليس مُخَاتلاً أو منافقًا ، فالفن الذى يكتبه عبارة عن إضفاء الروح المسيحية على ميول وموضوعات إسلامية، وهذا يسير فى خط موازٍ للإبداعات المدجنة شديدة الشيوع فى عصره ، ويمكن للحب أن يكون علاجًا للمشاعر والروح ؛ ولهذا فكتابه يتسم بالإمتاع والتعليمية كما أن أسلوبه نسيج مما هو إسلامى ومسيحى ، فالمرأة الجميلة تظهر هنا فى صورة الحبيبة والعاشقة ومع هذا تُطرح المواعظ حول مخاطر الحب ، أما النبيذ وما يترتب عليه من إذهاب للعقل فقد عالجه الشاعر فى ٨٤ بيتًا مكونًا كل منها من شطرين " حذار ، خاصة ، من شرب الكثير من النبيذ" {٥٢٨ - ٥٤٩} ، ورغم أنه يعترف أن :

النبيذ جيد بطبيعته

وله فوائد كثيرة إذا ما تم تناوله بقدر (٥٤٨)

أما النصيحة القاطعة فهى الهرب منه :" وعلى ذلك أهرب من النبيذ "{٥٤٩} وهذا ليس فجوراً، وإذا ما كان هناك موضوع طُرح كثيرا وتناوله الفَسَقة والدّعاة الدينيون فهو النبيذ :

فى الفصل الثالث أذكر الحانة ...

لم أحتقر تلك الحانة أبدًا ولن أحتقرها ...

وغايتى الموت فى الحانة ،

فليوضع النبيذ إلى جوار فم الميت

كما أننى أقول إن أفواج الملائكة عندما تأتى

فلعلّ الرّب يكون رءوفًا مع هذا السكّير [٤]

يتضح لنا أن القمّص يصف لنا ملامح الجسد الأنثوى وصفًا مثيرًا ويقدم لنا محصلة السكْر وقد علّتها الظلال :

إذا ما كنت تبحثين عن الحب والإمساك به فابتعدى عن الخمر (٥٤٥) [٥]

ومما لاشك فيه أن هناك الكثير من المواعظ الأخلاقية فى أوربا المسيحية وكان موضوعها " Ebrietas plura vitia inducit" [٦] وقد استخرج منها خوان رويث حكاية الراهب السكّير ، غير أن الاعتراضات الكثيرة على النبيذ { C ٢٩٦،ط ٣٠٣ } لم تكن بسبب الآثار الأخلاقية الضارة الناجمة عنه ، وإنما بسبب تأثيره على الجسد {٥٤٤ – ٥٤٥} وقد كانت الخمر موضوعًا تعرض له اليهود والمسلمون الإسبان بالدرس : فالنبيذ يعمى العيون ويغيّر لون الأسنان ويؤثر على الذاكرة ويصيب العقل بالجنون ... ويقلل من الطاقة الجسدية ويوقف الأعضاء عن العمل ويحدث الخلل فى الأعصاب " ..الخ [٧]؛ ويقول خوان رويث " إنه يُذْهِبُ البصر ويضعف الجسد ... ويجعل الأطراف ترتعش ويفقد المرء الذاكرة " الخ {٥٤٤} كما توجد خطبة بمناسبة عيد الفطر (من المؤكد أن نصها قديم جِدا) ورغم أنها لا تتفق حرفيًا مع " الديوان " مثل النص اليهودى الذى ذكرناه فإنها تشبهه إذ إنها مكتوبة شعرًا دون ثبات لعدد المقاطع ، وهى نص إسبانى مكتوب بحروف عربية aljamiado [٨] ويذكرنا إيقاعها بكتاب الحب المحمود غير أننا لا يمكن أن نؤكد أنّ أحدًا منهما يأخذ من الآخر رغم التشابه بينهما .

من الشرب والنبيذ احرص جيداً

(" احرص على عدم شرب الكثير من النبيذ " (خوان رويث ٥٢٨)

فالقليل منه مثل الكثير

فهو عدو لدود للرفيع والوضيع

يضر بالجسد حتى ولو كنت قوى البنية ...

فالنبيذ ضار بالجسد كثيراً

ويُفقد الرجل الطيب ولاءه

ويسبب الكثير من المشاحنات والعدوات ...

ويسبب الكثير من الإصابات والوفيات بين الرجال

(" ولهذا نجد الأموات والمشاحنات والخَبَل ") (خوان رويث ٥٤٧)

والتوافق بين هذين النصين فى إدانة النبيذ ، وكذلك التشابه شبه الحرفى بين النص اليهودى والنص الخاص بخوان رويث يجعلنا نقول بأن ما جاء فى " كتاب الحب المحمود " من نقد للنبيذ يرجع إلى أصول مشرقية : إسلامية أكثر منها مسيحية فالقرآن قد وصف النبيذ بأنه رجس من عمل الشيطان (٩) أما الإنجيل فلم يتعرض له ولهذا يشكل النبيذ وآثاره أحد الموضوعات التى يتم الإلحاح عليها خلال شهر رمضان ومن السمات المعروفة عن الشعب الإسبانى تقَشّفه فى موضوع تناول المشروبات الكحولية كما أن السكْر كان من المفاسد الاجتماعية التى يتم انتقادها بشكل دائم ابتداءً من القرون الوسطى وفى عام ١٣٢٤م دخل الملك ألفونسو الحادى عشر فى موكب مهيب إلى مدينة أشبيلية وقد ذكرت كتب التاريخ أن الملك " حكم على السيد إبراهين بن أوثمين ، ولما كان يشرب الخمر أطلق عليه لقب السكِّير (ص ٢٠٤ ط) ، والسُكْر فى إسبانيا هو من الموضوعات الجادة لدى الشعب الإسبانى فالألمان الذين

كانوا أحد أعضاء الحرس السويسرى للملوك خلال القرن السابع عشر جذبوا الانتباه بميلهم إلى السّكر ، كما أن اللغة المستخدمة فى الشراب مثل Brindis وcarauz جرمانية : فلفظة Brindis كلمة توريسكية تم إدخالها إلى إسبانيا عندما تُشرب الأنخاب ويمكن أن تعنى الانتهاء من تناول الكأس " [١٠] إذن لا يجوز لنا أن نُقصر ما ورد فى " كتاب الحب المحمود " عن الخمر على العصور الوسطى وانتهى الأمر ، كما أن نقد مفاسد الخمر مرتبط بالحياة الإسبانية وعلينا أن ننظر إلى الأمر فى إطاره التاريخى فليس له مغزى إلا فى هذا السياق .

قلنا إن خطبة الجمعة المذكورة مكتوبة بحروف عربية

افهم كلماتى جيداً وخذ حذرك ...

لا تشرب الخمر أو أى شىء إلا الماء

وإلا فإنك يمكن أن تكون حمار البغّال

ماذا يفعل الحمار عنما يقومون بوضع البردعة

يهز أذنيه وينهق عند التحميل

هكذا أنت أيها الأحمق ... (ص ٢١٦)

وسواء أكانت هذه الخطبة متأثرة بكتاب الحب المحمود أم أن كليهما يرجع إلى جذور مشتركة فالمحصلة هى وجود أسلوب أخلاقى يتلاقى عنده الموريسكيون وخوان رويث ، وهذه الأشعار كانت قبل ذلك مكتوبة بالعربية إلا أن صعوبة فهمها جعلتهم يترجمونها [١١] غير أنى لا يمكن أن أجزم بتاريخ الترجمة ، كما تتناول هذه الخطبة موضوع الموت فهو يشغل المسيحى والمسلم وإذا ما كان من قرض ذلك الشعر قد اطّلع على " كتاب الحب المحمود " لحاز شعبية كبيرة بين المور ، ورغم ذلك فنحن فى حاجة للاطلاع على الأصل العربى لنعرف فيما إذا كان الشبه فى معالجة موضوع النبيذ يرجع إلى أن المترجم أقحمه على النص أو كان فى الأصل العربى .

ومن خلال هذه الخطوات نقترب رويداً رويداً من حقيقة الديوان الذى ينحصر موضوعه فى تقديم مشاريع حياة سعيدة وممتعة وتقليل الميل إلى الملذّات والمتع التى أخذت تفتح طريقًا لها بين جمهور القشتاليين ، فقد كان الجو العام هو الذى نقله إلينا رجل دين يعرف جيداً إقليم طليطلة كما عرف عن العالم شيئًا من خلال قراءاته بالعربية (١٢) واللاتينية وكذا من خلال خبراته الذاتية ، وعندما خرج على الناس بهذه الطريقة المستحدثة فى مجال الأدب - موضوعها الحب - نجد أنه لم تتوفر له مساحة الحرية التى كان عليها الشعراء اللاتينيون - الأوربيون (١٣) أو الحرية فى الأدب العربى نظرا للأسباب التى ذكرناها ، لقد شعرت قشتالة بضعف القيود التى تحدّ من قدرتها على التعبير لكنها غير قادرة على كسرها ورغم أن الكتاب المذكور يمكن أن يكون أول وأبرز كتاب شعرى فى دائرة الأرض الروحية للإسلام إلا أن قشتالة ظلت هى قشتالة وقد قلنا قبل ذلك إن بعض القراء - خلال العصور الوسطى - قد انتزعوا بعض صفحات الكتاب كما أن مخطوطة سلمنقة أدخلت تعديلات على أكثر من جملة مُجَاهِرةْ وردت فى الطبعات السابقة (المخطوطتين المعروفتين بـ G و T) فالاقتصاد فى التعبير المكتوب كان أحد جوانب الدفاع عن النفس الذى انتهجته قشتالة ضد المور وكذلك لحماية طابعها الذى يتغير ، وهكذا كان حال الوجود الإسبانى المسيحى وبقاؤه (١٤).

غير أن الإطار الأدبى لقمّص إيتا أوسع من ذلك بكثير ويختلف الأسلوب عندما يعالج " الحب النبيل " عنه عندما يعالج " الحب عند العوام " ، ولما كانت قد أدخلت تعديلات على الكثير من الجمل فيه بالمقارنة بما حدث مع عمل جان دى ميون **Jean de Meuan** وشوسر **Chaucer** وغيرهما ، يمكننا أن نتحدث بصراحة عن وجود تجارة للجنس وهذا ما نراه فى قصيدة الراعية الجبلية .

تقول راعية البقر اللعوب " لنمارس بعض الوقت

هيا انهض بسرعة وتخلص من هذا الرباط

فأخذتنى من معصمى وفعلت لها كل ما أرادت

وأعتقد أنه كان ثمنًا رخيصًا (٩٧١)

نلاحظ أن اللغة تهبط إلى مستوى الحدث ، وبهذه الطريقة نجد فى خوان رويث أول كاتب قشتالى يدخل تحويرات على الأسلوب بحيث يكون لكل مقام مقال فلم يكن فنّه مغلق الدوائر مثلما هو الحال فى القصائد الملحمية أو الرباعيات Cuadernа v?a، لأنه يركز على مواقف حيوية وعلى كيفية تكوين الشخص وما سيفعله ، فراعية الأبقار تستخدم الفكاهة الفجة تقول " نمارس Luchemos " " اخلع ملابسك des buélvete وتستخدم لفظة hato وهى لفظة قاصرة على الرعاة ، وأخذت الرجل من معصمه ولم تأخذه من كفه وهذا دليل على قوتها وحزمها ، وفعل لها كل ما تريد ذلك أنه أداة لقضاء حاجات غريزية ، فلا شىء من هذا فيه رفعة ولهذا قالت " كان الثمن زهيدًا " وهو تعبير فج يتسق مع باقى المشهد ، وهنا يتم قبول طبيعة المشهد ولكن مع تجنب مفهوم القشتالى آنذاك ومنظوره لماهية الفُحْش، وخوان رويث ليس مثل غيره من الكتاب الأوربيين إذ يقتصر على تصوير الحدث الإنسانى مع التبرير الأخلاقى القائل بتصويره كما هو ، كما أن ابن حزم يتصرف بنفس الطريقة دون التواء أو غمز للقارئ .

غير أن خوان رويث ينزل حتى يصور المشهد الطبيعى مثل الذى ذكرناه ثم يعود للتأمل فى مشكلة السلوك ، يعظ ويمارس هذه الوظيفة على الطريقة الإسلامية كما أن القشتالى قد تصوّر نفسه وسط المشهد المتعلق بالسلوكيات ، فعندما ينتصر يقضى على الإحساس بالذل والضعف :

من خلال الخدمة الجيدة ينتصر فرسان إسبانيا (٦٢١)

ويمكن لخوان رويث قرض شعر المجون للأسباب التى ذكرناها كما أن أوربا قد قطعت ردحًا من الزمن وهى تنظر للحب كوسيلة للكمال الروحى وكظاهرة للحب الإلهى ومن هنا يتضمن ذلك الديوان عشق الرجل للمرأة الجميلة وكذلك للعذراء مريم التى توجه إليها عبارات الحب بشكل مباشر

أريد أن أكون معك يا زهرة الزهرات (١٦٧٨)

ويعتبر " كتاب الحب المحمود " ثمرة غامضة للسعادة الحيوية والمبادئ الأخلاقية ، كما أن كلا الموضوعين يتصادمان ويتشابكان فى دهاليز أسلوبه ، فلا يجدينا تأييده للمتع الحسيّة والواقع اليومى ، ونرى شغفه بالحياة من خلال الموضوعات وكيفية تعبيره عنها ، ينتقد الكسول وغير الطموح ويتوافق كل من السيد/ حب والقمّص فى الدعوة إلى النشاط والهمّة :

حاول القيام بالأنشطة وبعض الأعمال الجريئة (٥١٨)

مثل :

نوع الكلب السلوقى الخفيف سريع العدو والشجاع (١٣٥٧)

إنه بيت شعر حقيقى وواضح ، وهى أشعار تنبض بالحياة والحيوية وتنطق بالبشر والمتعة وهو بذلك – أى الكتاب – سابقة قديمة لأدب الرحلات والمشاهدة ، أى رؤية هذه الدنيا والاستمتاع بها وهذا طموح يصل إلى مرحلة الكونية عند لوبى دى بيجا .

وهاهو خوان رويث يخرج إلى النور تفاصيل من الواقع ثم الصمت عنها ، وقد نظرت إليها القصائد الملحمية والمفاهيم الدينية أو التعليمية على أنها غير ذات جدوى ، وقد رأينا فى السطور السابقة كيف أن فتاة قروية تقول عبارة لعاشق متردد " انزع ملابسك {٩١٧} ويدعو الشاعر إلى " تجربة كل شىء " {٩٥٠} صغر أم كبر :

جاء جمع كبير برفقة الإمبراطور

الملكات والرهبان – كان هؤلاء يتقدمون المسيرة

بينهم الآخرون بأعداد كبيرة

كانت الأصداء و الجلبة تدويان فى جنبات الوادى الكبير (١٢٤٥)

وبعد ذلك السعى والمشى " لتقضى يوما فى ميناء مالانجوستو " {٩٥٩} " ثم ذهبت إلى شيقوبية " {٩٧٢} وقد بدأت رحلتى يوم الاثنين قبل طلوع الفجر {٩٩٣}

ذهبت إلى الأرض التى ولدت فيها {١٠٦٧} أريد الذهاب لأرى بلدة ألكالا وسوف أنتظر الاحتفالات هناك {١٣١٢} الخ وهناك الموسيقى والغناء والرقص ، وأنشدت الكثير من القصائد الراقصة .. والرحالة {١٥١٢} وفيما يتعلق بالرحّالة Trotera نجد لفظة Trota-conventos (وهى التى تقوم بدور الوسيط فى الكتاب ورمز الترحال فى الدنيا والتدين والتنقل) وفيما يتعلق بالترحال وفيض السعادة البريئة [١٦] نجد باقى الأمور تدور فى إطارها ، فالعالم الإسلامى الطيب والمحبب للنفس ينفتح أمام قشتالة المسيحية التى أصبحت لها قامتها الأدبية الجديدة، وتُناصر الميل الإنسانى للمتعة التى نراها على كل صفحة من صفحات الكتاب .

موضوع السعادة

يتحدث الكتاب فى البداية عن أنه " كتاب الحب المحمود .. يدخل الفرح على الأجساد ويغمر القلوب بالسعادة {١٣} فمن المرغوب فيه أن " يجمع الإنسان المتع ويدخل السعادة على العقل/ فالحزن الشديد غير مرغوب فيه {٤٤} كما أن العميان الذين يتسوّلون يتضرعون إلى العذراء أن تباركهم : " بإسعاد الجسد وخلاص الروح " {١٧١٢} المرأة تريد الرجل المرح صديقًا {٦٢٦} " تشعر الراهبة بسعادة وهى تنتقل من الكورس إلى المنصة/ ويذهب الناسك سعيداً من بيت الأعشار إلى المطعم {١٣٩٩} وسعادة الرجل هى فى قوّته ووسامته {٦٢٧} ... الخ [١٧] .

فهذه السعادة ليست مجرد عبارة معهودة أو إطاراً لموضوع أو لفظة تم الاستعانة بها من نصوص أخرى ، إننا نراها بكثرة وسبب وجودها يرجع إلى أمور دينية وهذا ما يبرهن على أن ورود اللفظة بكثرة ليس مجرد صدفة بل هى علامة على الحالة المعنوية الشعرية للمؤلف ولهذا يتغنى " بالمتع " والسعادة وليس بآلام العذراء {٢١ ، ٢٨، ٣٤} ثم تعود هذه المتع للظهور فى مجموعة الأبيات رقم ١٦٣٥ وكذا فى المجموعات التالية :

" أقدم لك مُتعك التى أتغنى بها " غير أننا نلاحظ غيبة الآلام Mater dolorosa. أما الآلام الوحيدة فهى التى أحيانًا تؤثر على الشاعر الذى يصبح متألمًا (١٦٧٨ – ١٦٨٣) وينادى على أمّ السعادة حتى تخلصه من محنته " من المحنة ، دون إبطاء تعالى وخلصينى "لم يكن خوان رويث يكتب عفو الخاطر على الطريقة المتبعة فى العصور الوسطى ،

فالشاعر لا تروق له الأحزان والآلام بل يميل إلى الملذات المضادة للدرامية والتى تميل إلى الحب – المحمود وغيره – وتتجنّب الموت الذى يقضى على السعادة ، وشاعرنا هو أول قشتالى يجد المتعة فى اللعب بالألفاظ واستخدام أبيات شعرية " غريبة " {١٦٣٤} هى الزجل المُقفّى داخليًا والذى يشعره بالغبطة كفنان وليس كعالم جهبذ [١٨] وهذه هى ملامح أول شاعر غنائى فى اللغة القشتالية مولع بأن يبين للآخرين صورة الشعر الحى الذى يقوم على الحياة وليس فقط على نماذج دينية " بدون آثام " ، ونرى وراء خوان رويث أصداء تراث عريق فى ميدان الأدب الإسبانى الإسلامى [١٩] ، ويدرك الشاعر أنه ألف كتابًا جديدًا {ص ٥ } وفيه " أشعار غريبة " إلا أنها مألوفة لديه فى الشعر ومن هنا سرّ الشعبية والملمح الثقافى فى إنتاجه .

لنعد ثانية إلى موضوع السعادة ، فنجد تسع مجموعات تتحدث عن العذراء السعيدة ، أما آلام المسيح فيخصص لها مجموعتين {١٠٤٩ – ١٠٦٦} كما أن الأسلوب يوضح ميوله بشكل قاطع ، إذ نرى وصف الآلام بحنان وعبارات تكاد تكون أنثوية أو طفولية " اعطوا شيئًا للبائع المزيف ... وهؤلاء الكلاب قيدوه من كل ناحية { ١٠٥٠ – ١٠٥١ } ...الخ [٢٠] ويتألم الشاعر لآلام الأم وللفظائع التى ارتكبها أولئك الجلاّدون ، غير أن المسيح الذى يعيش فيه لا يعرق دمًا ولا يتم التعبير عن الآلام مثلما هو الحال على الطريقة الفرنسية ، أو من خلال الأعمال الكاثوليكية خلال عصر الباروّك (القرن السابع عشر) [٢١] وإذا ما كان الشاعر قد قال ذات مرة " خرج دم وماء " من أضلاع المسيح فالصورة يتم تحييدها بعبارة " كان عذوبة الدنيا " {١٠٥٦ – ١٠٦٥} كما أن مشهد الهلع يفيد الشاعر ليخرج منه بدرس عن السلام والعزاء [٢٢] .

فالعذراء التى يصورها خوان رويث ليست " الأم المتألمة " المكلومة وليست هى العذراء التى تحقق المعجزات مثلما كان حالها خلال القرن الثالث عشر ، لكنها تلمس شغاف النفس ، فالموضوع هنا هو الحميميّة وليست الأحداث الملحمية والمرئية ، ومعنى هذا أن الدوافع الأبيقورية لم توضع فى الكتاب بغرض العظة وتقويم السلوك بل جاءت ونبعت من الأعماق الشعرية للمؤلف وليست لإسعاد وتسلية الجمهور بحكايات مخجلة وقد بث خوان رويث - أحد أجداد لوبى دى بيجا - حنانه ومشاعره الفياضة فى صورة قصائد غنائية لأم الرب واستخدم أسلوبًا يتسق مع روح تلك الأشعار ، كما أن جمعه للأبيقورية والأخلاق (والإنسانية والماورائية ، والإسلامية والمسيحية) متطابق تمامًا مع روح العمل .

ولو كان الشاعر قد لجأ إلى موضوعات الحزن والقلق لَعُدَّ ذلك غير مثمر فهو غير قادر على أن يترك قياده للزّهد والتأمل أو الفكر .

حالة مسيحية - إسلامية خاصة

بعد كل ما عرضناه يمكننا القول بأن الفن الذى قدّمه خوان رويث لا يمكن فهمه فى الإطار المحض الخاص بالآداب المكتوبة بالرومانية ، وهذا هو الواقع رغم استغرابنا له وإذا ما أراد أحد فهم خصوبة الفن البلاتيرى {أسلوب زخرفى ساد فى إسبانيا خلال القرن السادس عشر} دون أن يشك فى وجود عناصر قوطيّة وعناصر من عصر النهضة لاتهمناه بالسذاجة والجهل وهذا بالضبط هو ما فعلناه جميعًا - وأنا منهم - عندما أخذنا ندرس الأدب الإسبانى خلال العصور الوسطى ، فقد بدأت الطريق بالتجريد : قائلين إنها لمّا كانت مكتوبة بالقشتالية والجليقية والقطلانية فهى رومانية مسيحية أوربية ولا شىء أكثر ، وقد صَمَمْنا آذاننا وباعدنا حساسيتنا عن كل ما كان يحدث فى شبه الجزيرة ، وابتعدنا عن الواقع الذى يقول إنها كانت محكومة وسعيدة بالحضارة الإسلامية طوال قرون عديدة وقد تحدث قمّص إيتا عن اطلاعه على الكثير من الأغانى والآلات الموسيقية والرقصات العربية ، كما استخدم الكثير من المفردات

العربية التى لا يزال بعضها فى حاجة إلى الشرح حتى الآن وتولى قرض أغانى للفتيات المسلمات واليهوديات واستنطق فتاة بالعربية وهو أول من استخدم الزجل ذا القافية الداخلية فى القشتالية ، وهو قالب شائع بين الشعراء العرب وعند ابن قزمان ، ويقول لنا إن كتابه " جديد " وأشعاره " غريبة " فهل كل ذلك يدخل فى دائرة العناصر الخارجية دون أن تكون له صلة بالتجربة الشعرية ؟ ليس الأمر كذلك فالحياة اليومية وأحداثها لا تسير بطريقة غامضة وغير مفهومة ، وخوان رويث شاعر مسيحى ويعرف جيداً كلا من النموذج الحياتى المسيحى والنموذج الإسلامى ، فالجدل يدور بين الأمور الدينية والدنيوية ويدور أيضاً بين التوجّه الروحى الإسلامى والمسيحى .

وفى عام ١٩٣١م نشر نيكل A. R. Nykl ترجمة رائعة – فى نظر المستشرقين – لطوق الحمامة للقرطبى بن حزم (٩٩٤ – ١٠٦٣م) وسهل بذلك الطريق للاطلاع على كتاب من أفضل الكتب الأدبية العربية ، وفى عام ١٩١٦م قام (M. Asín) (ميجل أسين) بترجمة " كلمة فى الأخلاق " وفى عام ١٩٢٧م ترجم كتاب " الفِصَل " لنفس المؤلف ، لكننا معشر الدارسين للإسبانية لم يكن لنا أى ردّ فعل فقد كنا ضحايا الهوس بالتخصص (٢٣) ولم تكد هذه الأعمال تشد انتباه الذين يتأملون الجمال والذكاء الإنسانى .

وكتاب " طوق الحمامة " هو نوع أدبى ليس له سابقة فى الأدب الرومانى حتى وقت قريب الاعتراف أو السيرة الذاتية الجنسية ، إنه الروح الرفيعة المفعمة بالأفلاطونية الجديدة والتجرد الزاهد ، فهو يقصّ – مستخدماً الشعر والنثر – تسليم قياده للحب وكذلك رفضه لأفضل المتع التى يمكن أن يجدها المرء – طبقًا لابن حزم – فى هذه الحياة . ولولا أن الدنيا دار ممرّ ومحنة وكدر ، والجنة دار جزاء وأمان من المكاره ، لقلنا إن وصل المحبوب هو الصفاء الذى لا كدر فيه ، والفرح الذى لا شائبة فيه ولا حزن معه وكمال الأمانى ، ومنتهى الأراجى . ولقد جرّبت اللذّات على تصرّفها ، وأدركت الحظوظ على اختلافها ..." {ص ١٣٥} .يتحدث ابن حزم عن حياته وحياة الآخرين وقد انغمس فى الحب وبعد ذلك رفض خدعه المتعة، وربما ما يهم الرجل

الغربى فى الوقت الحالى هو إحساسه بأنه عاشق وأن روحه حية سواء فى دائرة الحوار أو عزلة الحب ويستبعد كل ما ليس له صلة بالأنا الفردى الذى يستكن فى تجربته ، لكن الأنا العربى - السابق على الإسلام أو الإسلامى - هو بمثابة جزيرة تدرك ماهيتها عندما تشعر أنها محاطة ببحر ليس فيها ، ولا يمكن أن يتصور نفسه كقذيفة تخترق الفضاء فى عراك مع الجو المحيط . فالأدب العربى يفتقر للدراما والرواية والسبب هو أنه لا يتصور الصراع بين الشخص وعالمه أو بين " أنا " و " أنا " آخر ، ولا يمكن أن توجد به ملاحم على الطريقة الغربية ، ويمكن أن نجد - على أحسن الأحوال - أرْوَاحًا شفافة تدخل بوجودها فى دائرة الهالة التى تعكسها ثم تأخذ فى تكرار تجاربها الحياتية فى استمرارية ، وليس لها قرار ، من خلال كل ما يحيط بها ، والحياة - مثلها مثل باقى ملامح تلك الحضارة - تدخل فى إطار الأرابيسك والنقاط وليس فى دائرة المراحل من خلال زمان أو مكان يُدْخِلها فى مسار معين .

كما أن تدخل الإرادة ضئيل فالوجود - كما سبق أن تحدثنا - مرهون بإرادة الله أو مرهون بالحب الذى خلقه الله مثل باقى مخلوقاته ويسقط فوق رءوسنا وكأنه المطر الذى ينعش أو يغرق .

يقوم ابن حزم بتحليل آثار الحب على نفسه وعلى الآخرين دون أن يدخل فى علاقة حميمية قوية مع الموضوع فى الحالة الثانية أو الحالة الأولى ، فذاته وذوات الآخرين هى على نفس الشاكلة - غير قابلات للتغيير - كما أن الشخصيات النسائية اللاتى تسببن فى هذا الحب المجنون والرائع تذوب ملامحها وتتبخر ، وأحيانا ما يقوم برسم ملامحهن فى صورة خطوط عامة ، ويعرض القليل من الحوار ذى الطبيعة السردية وتتلون روح الشاعر بألوان قوس تحت التأثير المزدوج للحب والروح الإلهية الماثلين دائما ، فالعالم القائم هو أيضًا عالم الماورائية . ويتصرف ابن حزم كمسلم يحافظ على دينه فلا يرفض ما هو إنسانى وجيد طالما أحله الله " قلوبنا فى يد الله " إنها الإسلامية والأفلاطونية الجديدة (٢٤) ، وقد أدى هذان العنصران إلى الإبقاء على التعايش السلمى بين الجنس والدين ، وهذا أمر مستحيل بالنسبة للمسيحية التى

لا تسمح مفاهيمها بأن يترك المرء نفسه لمتع الحب الجسدى ، وعلى ذلك فلا نستغرب الخليط المثير للفضول الذى ورد فى طوق الحمامة حيث جمع بين المتعة الحسية والتأمل الصوفى ، فقد كان المؤلف مجتمعًا مع أصدقائه - الأدباء والأرستقراطيين - فى حديقة خلال فصل الربيع حيث ينسج الفن والطبيعة أفضل مباهجهما :

" فى يوم ربيعى ذى شمس ظليلة ، تارة يغطيها الغيم الرقيق ، والمزن اللطيف ، وتارة تتجلى ، فهى كالعذراء الخفرة ، والخريدة الخجلة ، تتراءى لعاشقها من بين الأستار ، ... .

وعندما دعى ابن حزم لارتجال بعض الأبيات قدم وصفًا رائعًا لأعظم الحدائق والجنان لكنه يعترف بأن كل ذلك ليس له :

تنغصّ عندى كل ما قد وصفته ولم يهننى إذا غاب عنّى سيدى
فيا ليتنى فى السجن وهو معانقى وأنتم معًا فى قصر دار المجدّد .

فقال هو ومن حضر " آمين ، آمين " (٢٥)

وكان ذلك بمثابة وداع ابن حزم للشباب ولكل ما ليس مدعاة للتأمل فى قضايا الخلود ، فالهيام بجسد امرأة جميلة والانشغال بالله - رغم أنه من الأدنى إلى الأعلى - هى أمور بيد الله ، وهنا نجد أن خوان رويث المؤلف المسيحى يصف الحب الجسدى بأنه جنون غير أنه يتوقف طويلا عنده وكأنه ليس كذلك :

فلو كان الله الذى خلق الإنسان يعرف
أن المرأة رفيق غير جيد للإنسان لما
وهبها إياه كرفيقة ولم يخلقها من ضلعه
وإذا لم تكن للخير فما جاءت بهذا الحال . (١٠٩)
فلا أعرف قديسًا أو قديسة يمكن أن يكون
نموذجًا للعزلة وعدم الرغبة فى الرفقة (١١٠)

فلا أحد يقدر على مقاومة مشاعر الحب " ما رأيت أجلب للقلوب ولا أغوص على حياتها ولا أنفع للمقاتل من هذا العقل " {ص ١٤٠} ، كما أشار قبل ذلك كيف أن منصور بن نذار حاكم مصر " ادعى الألوهية ، بعد مدة من مولده مساعدة الجارية كان يحبها حبًا شديداً " {ص ٤٩} ويلاحظ أن الخطوط الفاصلة بين الحب الطاهر والحب الجسدى تزول عند كلا المؤلفين ، وليس السبب هو أن المذنب يؤمن برحمة الله بل لأن المصدر نبع الشر والخير معًا وهذا أراده الله فالمرأة الشابة الجميلة والراقية/ هى كل خير الدنيا وهى كل متعتها " {١٠٨} - الحب عند ابن حزم هو : عَرَض ، " والعرض لا تحتمل الأعراض ، وصفة ، والصفة لا توصف فهذا على مجاز اللغة فى إقامة الوصف مقام الموصوف {ابن حزم ص ٤٤} فالإسلام يصدر عن تفاؤل وقدرية كونية ، فالله هو الخير كله ولم يخلق شيئًا إلا وكان خيراً ، حتى الاختلاف فى الأديان فلو شاء الله لجعل الناس يؤمنون بدين واحد ، وبناء على هذا التفاؤل الذى ورد فى القرآن تأسس التسامح الإسبانى خلال العصور الوسطى وهذا ما عرضت له فى الفصل الخامس ، وهناك بعض الكتاب الغربيين الذين يوردون بشكل عَرَضىّ فكرة التسامح ، وليس مجالنا الآن مناقشة الأمر .

فالمرأة - مثل باقى الأمور التى يعيشها الرجل - خادعة ، والإنسان الذى يسير فى طريق الله لا يجب أن يتوقف عندها طويلاً أو يثق فى أى شىء آخر ؛ ومن هنا نرى الأفق الواسع للواقعية والطبيعية العربية فى زمن لم تكن للمسيحية عيون لترى الحياة من حولها ففى القرن التاسع عشر كتب أبو عقال كتابًا عن طبائع غير المثقفين ، كما أن قاضى سيمارا (المتوفى ٨٨٨م) ألف كتابًا عنوانه " أخبار العامة"، وقد وصف الجاحظ (٨٦٩م) الطبقات الاجتماعية فى كتابه " طراز المجالس " ، وهو معروف بأنه كتب عن كل شئ بدءًا بمدرس المدرسة وحتى عِلية القوم وهم بنو هاشم ، وكتب عن قطاع الطرق وعن الضبّ ، وعن صفات الله تعالى وعن ألاعيب النساء . ويشير المسعودى إلى أن الجاحظ كان ينتقل من الجدّ إلى الهزل ومن الدقة العلمية إلى الإبداع الطريف عندما يخشى ملل القارئ ، كما أن هذا التوجه يجعل المؤلف يتحدث عن كل شىء وكأنه حطّاب يربط حزمة الحطب بحبل المرح (٢٦) .

فالزهد والتصوف الإسلاميان بدءا من أوائل القرن التاسع ، كانا بمثابة عصر نهضة جديد فى الميدان الروحى المشرقى وتداخل ذلك مع تأثيرات مسيحية ، وقد كانت لهما جوانب ونتائج عديدة فالمسلم المشغول بالروحانيات يغوص فى أعماق نفسه وفى العالم المحيط به ، نجده يتحدث فى الفلسفة ويرافق البسطاء فى عاداتهم والغاية هى نشر مفاهيمه ، وهناك تعايش بين المادية الفجّة والروحانية الشفّافة فى نمط حياتى أُسميّه " الثقافى - الشعبى " ، ولم يكن ابن حزم صوفيًا رغم أنه كان يتحرك فى عالم تعمّه الروحانية (٢٧) فابن حزم الذى كتب فقرات مثل تلك التى عرضنا لها عن جمال السحب ، يتناول فى كتابه طرائف أخرى لا يمكن لغَرْبىّ أن يتخيلها فلا يمكن لأى ناسك مسيحى أن يجمع بين ما هو إلهى وما هو جنسى فُجّ (٢٨) ، كما أن اللغة الأدبية عند العرب لها قدرة - تضيع مع الترجمة - على تنقية كل ما تنقله : فهى تلفّ المعانى فى سحاب وفى شكل لغوى ومجازى يطمح إلى بلوغ ذلك الواقع الإلهى المغلّف بالظواهر المرئية ، وأن تكتب للعربى فهذا يتطلب نوعًا من التبجيل حيث أن كل تعبير يتضمن معانى مزدوجة وتكرارًا ونثرًا منظومًا وصورًا بلاغية ، فالفنان سواء كان كاتبًا أو محدِّثا يأسر بكلماته التى لا تعتبر شكلاً خارجيًا طبقًا للمفاهيم الغربية بل هى " الجوهر " الوحيد الذى يمكن بلوغه ، فالشكل والحجاب والرمز تعود من جديد وتلبس أردية لا نهائية فى عملية تردّد مستمر بين الداخل والخارج ، وهى فى الوقت ذاته الأنا والآخر ولا يمكن أن تكون غير ذلك (٢٩) وليس ذلك من باب السفسطة ، بل هذا هو العالم الوحيد الممكن الذى يتشكل ويذوب بشكل دائم وكأننا نشهد أمواجًا لا نهائية من الأشكال ، ويعيش المرء فى إطار اليقين الكاذب للدنيا وهو يعبد الله لكنه لا يلعن شيئًا مما هو موجود بفضل إرادة الله .

وعلينا أن نربط بكل ما سبق الخلط المستمر والعادى بين الأسلوب القصصى وبين الأسلوب الشعرى سواء كان ذلك فى الأعمال المتعلقة بالروحانيات أو الأعمال الفنية الخالصة (ألف ليلة وليلة على سبيل المثال) ولا يمكن فصل هذه الأعمال عن بعضها طبقًا للمفاهيم الغربية ذلك أن ما هو دينى وما هو دنيوى قد تشابكا لدرجة من الصعب معها التمييز بين القوانين الإنسانية والقوانين الإلهية والتى نجدها كلها فى القرآن

الكريم ، وفى الأحاديث النبوية ، وبالنسبة للمنظور الإسلامى لا يوجد واقع على أساس أنه ثابت ونهائى على الطريقة المعمول بها فى الغرب الذى يقوم فكْره على الفكرة اليونانية القائلة بجوهر الأشياء ، لكنها بالنسبة للمسلم هى أمر عارض وواقعى من خلال تجربة المستيقظ وحلم النائم ، فلا شىء تدبّ فيه الحياة بفضل تصرفات الإنسان ولا شئ يمكن أن تعود إليه الحياة وإلا فمعنى هذا الدخول فى مناقشة مع الله خالق كل شىء ، وبذلك ندرك أن اللغة الأدبية عندما تتضمن الاستعارات فهذا ليس معناه محاولة عيش اللحظة من جديد بل تشكيل وتجسيد الذكرى الجديدة بذاتها كشكل للواقع الظاهرى وغير المترابط لكل ما هو موجود ، فالله واحد أحد ، رغم أن الشيطان هو الوحيد الذى يحاول أن يضفى على هذه الدنيا الزائلة – وسوف تبوء محاولاته بالفشل – سمة الثبات والجوهرية (٣٠) .

أعتقد أننا سنفهم الآن مغزى الجمع بين الشعر والنثر فى الأدب العربى فالقصائد هى بالنسبة للنثر مثلما هى الاستعارة أو التشبيه بالنسبة للمشبه به ، أو طبيعة العلاقة بين النثر ذى الطابع الوعظى والحيوية ، فالكاتب لا يتمعن بشكل نهائى فيما يسرد أو يصف كما لا يتأمله كجزء من عالم مثالى ، فهو يعالجه كموضوع " له تنويعات " ويحوّله إلى صدى أو ذكرى ، ويجعله يتبخّر من خلال الشعر أو الموعظة أو التهذيب ، ويعود ما تم سرده ووصفه إلى ما يجب أن يكون عليه ، أى إلى واقع زائل ومتغير .

ويشير ماسينيون Massignon – فى مقاله الرائع – إلى مثالين يؤكدان ما سبق قوله . فالنظرية الفنية للحب تعنى أن العاشق يجب أن يبتعد عن المحبوب ويعيش فى لا واقع الذكرى ، فطبقًا لقصة ليلى وقيس نجد المجنون يلتقى بليلى حبيبته ، إذ تدعوه لتُسَامره ، فيقول " اصمتى وإلا فأنت تباعديننى عن حب ليلى " ، وهناك مثال آخر يسأل فيه رسّام عن إمكانية تصوير الحيوانات ، فيقولون له " نعم لكن عليك أن تطمس أى شبه لهم بالكائنات الحية ، وتجعلها تشبه الزهور " وهذان المثالان يوضحان لنا كيف أن الشعر يحول " الزهرة " إلى تشبيه وذكرى لكل ما قيل نثرًا .

ومن الواضح أن هذا الجمع بين الشعر والنثر فى الأدب العربى قديم ، نجد ذلك عند الفرزدق أحد شعراء القرن السابع الميلادى [٣١] كما أن ذلك أمر معهود فى ألف ليلة وليلة وفى كتب التصوف والزهد وعند ابن حزم .. وقد أسهم هذا الشكل فى الإبداع الأدبى فى إحداث تأثير عميق على الأدب المكتوب باللغات الرومانية وخاصة على إنتاج قمّص إيتا ، [٣٢] فنحن لا نعثر فى ديوانه على نصوص نثرية إلا الجزء الذى ورد فى المقدمة ، غير أن بنية العمل تقوم على أساس عملية تبادلية بين الشعر القصصى والشعر الغنائى أو شعر المواعظ وبمعنى آخر نجده يتخذ اتجاهًا يصلح أن يكون عظة واستعارة حيث يعود الموضوع نفسه إلى الصورة المفتوحة وهى الأرابيسك الذى لا ينتهى ، ويقول القمص إنه أحب امرأة " غير قديسة " وحتى يتصل بها يرسل لها بأحد الرسل الذى يخدعه ، أى عملية إحلال واستمرار للعاشق الأول ، وقد ألّف الشاعر عدة أبيات تتعلق بهذه الواقعة .

فلن ترى عيناى النور

فقد فقدت كروث (١١٥)

ويتحول المقلب الذى وقع له إلى شعر ساخر

لابد أنهم وصفونى بالغباء وأنى حمار

إذا لم أقم بالرّد على هذا المقلب الكبير بآخر (١١٤)

وفى هذه الأشعار يختفى الخطّ الفاصل بين اسم Gruz الذى هو اسم الفتاة وبين Cruz (الصليب) الخاص بالمسيح (فى عملية تبادلية بين الاسم والشخص) :

عندما كنت أرى كرو (أى اسم الفتاة والصليب)

كنت أشعر بالخضوع

وأشير بعلامة الصليب حيثما وجدتها (١٢١)

والأمر كثير الشيوع هو تحول حكم أخلاقى شائع إلى مثال ذى أسلوب تعبيرى وفنى : إذ يحدث للرجل المتغطرس " ما يحدث للحمار مع الحصان المدجج بالسلاح :

كان الحصان سيذهب للقتال فى الميدان

لأن المالكة أجبرت سيدها المِقْدام (٢٣٧)

وهنا نجد أن الانتباه والتركيز يتردد تارة بين البساطة الفجة والتسامى الشعرى وبين ما هو معروف وما هو متخيل ، وعموما فالموضوع الرئيسى للديوان هو ذلك التردد بين غموض الكلمات وبين الأخلاق والخيال ، وبين الحب المحمود والحب المجنون ، وبين الفظاظة الشعبية والتسامى الفنى ، لقد كان خوان رويث يعرف الفن الإسلامى معرفة ممتازة .

يتضمن " كتاب الحب المحمود " قصائد غنائية يقول الشاعر عنها إنه ألفها لكنها لا توجد فى ديوان :

أرسلت إليه هذه القصيدة التى وضعت أسفل (٨٠)

هى قصيدة حزينة مثلها مثل ذلك الحب الحزين

كانت المالكة تغنيها بنغمة شجية وحزينة(٩٢)

أخذ الأمر على أنه شىء وضيع ومنفّر ومثير للغيظ (١٠٣) (٣٣)

كتبت هذه القصائد عن إبداع حقيقى

وقلت بأن تُغنى أثناء الليل أو عند طلوع الفجر (١٠٤)

وهذه القصائد المكتوبة أسفله (١٧١)

أعطى له هذه القصائد التى ربطها على وسطه (٩١٨)

أرسلت إليه هدايا وأنا فى شيخوختى [٣٤]

وهذه القصائد التى مهرْتها هنا (٣١٩)

وعن التلميذ المحب للصعلكة

كتبت هذه القصيدة الأخرى فلا تعتبروها غريبة (١٢٢)

وعندما قالت لى إن وزنها سىء

قرضت ثلاث قصائد أخرى : لم أتمكن من رسمها جيدًا (١٠٢١)

لليهوديات والمسلمات والوسيطات (١٥١٣)

كنا ننتظر العثور فى النص على بعض هذه القصائد الغنائية مثل (de yuso puestas de yuso) وألا نجد أخرى مثل (" después fize muchas cantigas"، etc) ولم نجد قصائد غنائية مستقلة إلا تلك التى تحمل عنوان Cruz Cruzada، وكذلك قصيدتين للعميان ، والأشعار الدينية التى تحدثنا عنها سابقًا . كما أن تلك المخصّصة للحب الحزين والمقهور فهى تلك التى تعتبر علامة مطروقة تشير إلى شىء قائم فى النموذج الذى سار عليه المؤلف ، لكنه يترك مكانه خاليًا ، وإذا لم تتوافر لدينا أدلّة جديدة حول النماذج العربية التى سار عليها القمّص ، فهذا النموذج هو الفيصل فخوان رويث يضع نصب عينيه كتاب ابن حزم " طوق الحمامة " ، حيث يتم الانتقال من النثر إلى الشعر من خلال قالب متكرر . وفى ذلك أقول ، وأنا أقول ، ففى ذلك أقول شعرا منه ، وفى (...) أقول قطعة منها الخ " (٣٥) وهكذا من البداية إلى النهاية فكيف لنا أن نتصور – من خلال الفقرات التى ذكرناها – أن خوان رويث يترك فراغًا يتمثل فى جزء مهم من القالب الأدبى الذى قدمه ابن حزم ، وهو الاعتراف الجنسى – الأخلاقى ؟ لا يجدر بنا التفكير فى مبدأ السّهو أو أن المحرّرين أزالوا كل ما يتعلق بهذا الموضوع من الندم الغنائى ؛ يجب علينا إذن التفكير فى أسباب أعمق ؛ والسبب الوحيد الذى يطرأ على ذهنى هو الطبيعة القشتالية المسيحية للمؤلف التى تحول دون إفصاحه عن نفسه عندما يقرض الشعر " بشكل جاد " ويعبر عن مكنون نفسه ، فتحدث عن الحب كواحد من المشاعر التى يمكن التعبير عنها، فربما رغب فى ذلك لكنه

لم يتمكن أو لم يجرؤ وهو بذلك يقدم لنا شاهداً رائعًا حول بواعث حياته الفنية والحدود المرسومة ، كما أن نموذج ابن حزم حفّزه على فعل ذلك : " ولى أبيات فى شىء من هذا أوردتها وإن كان فيها غير هذا المعنى على ما شرطنا ، منها " {ص ١٤٦} .

إذن فموضوع الجنس المباشر لا يظهر إلا من وراء حجاب فى الشعر الكوميدى (القصيدة الزجلية Cruz Cruzada {١١٦} والقصائد الغنائية الدينية أو سرد ووصف المغامرات التى جرت مع كل هؤلاء العشيقات اللاتى يظهرن المرّة تلو المرة فى تتابع مثل الأرابيسك ، وأكثر تلك الحكايات دقة وتحديداً نجدها فى تلك المأخوذة عن قصة De amore " عن الحب " مع مراعاة نسبة الجانب القبيح فى الرواية إلى بانفيلو Pánfilo وناسون Nasón {٨٩١} .

لم يكن سهلاً على قشتالة بدء طريق التعبير الغنائى ، أو أن تسلّم نفسها للمتعة بجمال لا يستند على مصلحة عامة مثل الشعر الملحمى أو المواعظ والأخلاق ، ولقد كانت اللغة تقصر وتخجل عند قولبة الحَدْس الشعرى فى صور بلاغية (٣٦) وقد تحدثنا قبل ذلك عن لجوء ألفونسو العالم إلى اللغة الجليقية عندما أراد أن يكتب أشعاراً غنائية:

Ca Deus que é lua et día

Segund'a nodda natura

Non Viramos sa figura,

إلا أن قمّص إيتا تمكن بعد ذلك بخمسين أو ستين عامًا من قرض أبيات مثل هذه:

رأيت الراهبة الممتلئة بالحيوية تصلى

رقبة البلشون ولدن بنبض بالنضرة والحمرة :

من جعلها ترتدى الصوف كان غير حكيم (١٤٩٩ - ١٥٠٠)

غير أنه عند الحديث عن الحب مستخدمًا ضمير المتكلم يتراجع رغم معرفته العميقة بكيفية معالجة الموضوع من خلال القصائد العربية ، وقبل ذلك بثلاثمائة عام تحدث ابن حزم الذى كان خوان رويث يعرفه جيداً :

وددت بأن القلب شق بمدية	وأدخلت فيه ثم أطبق فى صدرى
فأصبحت فيه لا تحلين غيره	إلى منقضى يوم القيامة والحشر
تعيشين فيه ما حييت ، فإن أمت	سكنت شغاف القلب فى ظُلَم القبر

(ص ١٣٩)

وكان ابن حزم يضمّن كتابه شعراً من هذا الصنف ، وقد تحدث الشعر المكتوب بالرومانية عن الحب باستخدام ضمير المتكلم ولكن دون أن يصل إلى هذا الحد الذى وصل إليه عند ابن حزم وكان ذلك فى بروفنسا :

Ja de sos pes no'm parira

S'il plagues ni m'o consentis . (٣٨)

وخلال القرن الثانى عشر نجد Châtelain لكوسى Coucy يشير إلى :

Or me laist Dieus en tel honor monter,

Que Cele ou j'ai mon Cuer et mon penser,

Tiegne une foig entre mez braz nüete,

ainz que Voise outre mer. (٣٩)

إلا أن خوان رويث لا يمكن له السير فى هذه النقطة على منهاج الشمال أو منهاج الجنوب لأنه قشتالى ، ومهما كانت عروبة النماذج التى اطلع عليها فلن ينفتح قلبه على النهج الذى سار عليه ابن حزم ، وهنا نجده يتحدث بطريقة موضوعية عن السيدة / إندرينا :

" تجرح بسهام حبها عندما ترنو بعينيها " {٦٥٣} وهو تشبيه قديم مثل آلهة الحب فى الأزمنة الغابرة (٤٠) غير أن التشبيه يضم هنا عيون السيدة إندرينا ، وهنا يحدو بنا إلى التفكير فى فقرة مثل هذه " صوبت سهام اللحظ على ما فى القلب ... تلقى بنظرة وتنغرس عيونها الفانى ، وإذا ما نظرنا إلى قلب خال ، لألقت نحوه بسهام الموت (٤١) .

ولنفترض أن خوان رويث قد أخذ هذه الصورة البلاغية عن مؤلف عربى ، إلا أن فنه لا يسمح له بتقليد ما ورد بعد ذلك فى قصيدة " بياض ورياض " :

يتلألأ الجمال على محياها ومنها يفوح عطر المسك والكافور

وهذه سمة مشرقية تتضافر بشكل حميم مع المقامة ، فموضوع الشعر المكتوب شعراً ينبثق من الشعر المكتوب نثراً مثلما تخرج السهم من العينين ، وكذا الشعاع من المحيا ، والنّسمات العطرة وجمال المرأة . وقد أفاد الشعر الرومانى أيّما إفادة من الموضوعات المشرقية وهى جمال المرأة الذى يشع نوراً ، وهى موضوعات لا نكاد نلمحها عند قمّص إيتا ، وأنا الآن بصدد الحديث عن القيود والمحاذير قبل التعرض لدقائق بنية الأسلوب الذى استخدمه ، فموضوع الحب الذى يفيض نوراً هو أحد الجوانب الشعرية لعملية الإبداع التى تحدثنا عنها فى أبواب العقيدة واللغة والحديث وهو أحد ظواهر العيش فى المسار المتجدد:

كست الأشجار بنظراتها الذهبية ونورها زاد من نور الشمس (٤٢)

"لقد بانت دون حجاب فى الليل وهنا رفعت ظلمة الليل حجابها"

وهو بيت شعر لابن فرج سبقت الإشارة إليه ، وهى صورة شعرية مطروقة يمكننا أن نعثر عليها فى الشعر الإسبانى العبرى التى نقلت النماذج العربية نقلاً حرفياً ولنأخذ مثالاً على ذلك عند يهوذا اللاوى (١٠٨٦م – ١١٤١م) .

وجهك الشمس وفوقه تنشرين سحب ظلام الليل

أوفرا تغسل رداءها بدموعى وتنشره تحت شعاع الشمس

هى الشمس عندما تظهر فى الأفق ، تحمّر السحب بضوئها

ص (٣٤)

وينقل لنا الشعر الرومانى بقايا من هذه الصورة الشعرية

عندما تغرب الشمس

يَظل المكان الذى هى به ساطعًا

وهناك أحد الحجاج - الذين يعانون من الدّوار - يشفى فجأة عندما يتأمل السيقان الجميلة لنيكوليت التى يبارك جمالها كل شىء .

Si Soulevas ton träin

et ton peliçon ermin,

La Cemise de blauc lin,

tant que ta ganbete vit.

Garis fu li pelerins

كما نجد أن معشوقة دانتى تُشع منها العذوبة الرقيقة :

يخشع لها كل شىء عند طلعتها البهية

ولا تجعلها محببة هى وحدها

بل كل شىء يكتسب شرفا من أجلها .

وسيرًا على تلك التقاليد الإسبانية عند العرب واليهود كان خوان رويث يمكن أن يكتب بعبارات فيها الشوق والجنس ، وليس المواعظ ، لملء الفراغ الشعرى الذى تركه فى " كتاب الحب المحمود " غير أن النمط الفنى الذى سار عليه كان عبارة عن المواءمة

بين الاتجاهين الرئيسيين فى الأدب العربى خلال القرون السابقة وهما الحكم والأمثال والغزل .

آن الأوان لنعود إلى الكتاب الرائع لابن حزم ، حيث نجد المقامة المكتملة التى يتناوب فيها الشعر مع النثر والروحانية والدنيوية ، والحب المحمود الذى يمارسه التجّار مع بعض النسوة العائدات من فريضة الحج ، وكذلك الحب المحمود الذى عاشه ابن حزم حيث نجده يحوّل التجربة العاطفية إلى ألوان من قوس قزح فى جمالها وبهائها . وقد ألّف ابن حزم كتابه " طوق الحمامة " فى سن الشباب ، غير أن ذلك جاء فى مرحلة يميل فيها إلى التأمل الروحى والعظة أكثر من ميله لرغبات الجسد ، وبذلك يمكن تصويره على أنه وداع للمرأة فى لحظة لم تنته فيها بعد آثار الرعشات الناجمة عن مفاتنها ومتاعبها . وقد ظهرت كتب الحب ذات الإطار الأفلاطونى الجديد والمواعظ ابتداءً من القرن التاسع (٤٧) ويرى جولدزيهر Goldzieher أن ابن حزم " هو الأفضل لتميزه الشديد " ، ولا توجد صلة بين هذه الكتب وأشعار أوفيديو Ovidio ، غير أن لها صلة بالشعر الفارسى والشعر الهندى ، وما يهمنا فى هذا المقام هو أن كتاب ابن حزم انتشر فى أرجاء إسبانيا المسيحية سواء شفاهة أو بأى شكل كان ، كما نجد فى " كتاب الحب المحمود " آثاراً متأخرة لكتاب ابن حزم مجتمعة مع تأثيرات دينية واردة من أوربا ، وقد طرأ على بال خوان رويث إضافتها بغية الأصالة فى هذا العمل العبقرى ، وليس للصيغة الخاصة بالسيرة الذاتية أى علاقة بالتعليمية السائدة فى العصور الوسطى المسيحية ، بل هى وسيلة للتعبير مُصَفّاة ومتخذة من الأدب العربى ، كما شهدنا أصداءها المباشرة فى " تاريخ الملك خايمى " وعند دون/ خوان مانويل ؛ وهذا التوليف بين الشرق والغرب يَطْبَع إسهام قمّص إيتا بأنه من الأعمال المدجّنة ، ولم يقتصر التأثير العربى على الحكم والأمثال والطرائف والمواعظ مثل ذم السكّر ، بل إن فكرة الكتاب الرئيسية إسلامية وهى التجربة الجنسية فى مساريها الحسّى والصوفى ؛ ويمكن أن نعثر على القصص ذات المواعظ والتكرار الذى لا يكل لموضوعات متشابهة وازدواجية المقصد لكل ما يقال فى " طوق الحمامة " وفى العديد من كتب الزهد والتصوف العربى ؛ ويعتبر كل من كتاب رامون لول ، الذى قمت بتحليله فى موضع

آخر من هذا الكتاب ، وكتاب قمّص إيتا تفريعات مختلفة تخرج من نفس المعين ، وإذا ما نظرنا إلى " كتاب الحب المحمود " من منظور رومانى فقط فإننا نشوّهه ونزيّفه كواقع تاريخى ويصبح مجرد تجريد علمى ، أما إذا أعدناه إلى مركزه الحقيقى لوجدناه يتسق مع الروح الخلاقة لمؤلفه ومع المجتمع القشتالى خلال زمن ألونسو أونثيو A. Onceso

وقد وصل إلينا كتاب ابن حزم من خلال نسخة تعود إلى القرن الرابع عشر تم إعدادها فى دائرة من الحرية تجعلنا نسترجع العادة الإسبانية فى إعادة صياغة الأعمال الأدبية القديمة دون مراعاة الاحترام الكامل للشخصية العلمية للمؤلفين ، وما أجهله هو هل عرف خوان رويث كتاب طوق الحمامة شفاهة أم من خلال المخطوطة؟ ومن المعروف أن النقل الشفاهى كان متوفراً عن بعض الأشخاص القادرين على فهم محتوى الموضوع ونقله إلى اللغة الأخرى ، إلا أننا نعرف ضياع العديد من النصوص الأدبية سواء بالإسبانية أو العربية ، وهنا يزداد استغرابنا عندما نقرر التأمل العميق فى العلاقة القائمة بين الأدبين ، وقد عثرنا فى عام ١٦٠١ على تأثير كتاب طوق الحمامة فى كتاب لأحد رهبان جماعة الكرمل ، وهو جوزيف دى خيسوس ماريا ، بعنوان " مزايا الفضيلة والمحموداف":

> يرى الأطباء العرب أن علامات الشبق هو الصوت العذب والكلمات المعسولة والتنهدات العميقة ، كما أن الرأس مطأطأ والوجه حزين ومستغرق فى التفكير ، كما يهرب من التعامل المباشر والحديث مع الأصدقاء ويبحث عن الأماكن المنعزلة (وكل ذلك علامة على الخيال الجامح) ، كما أن العينين غائرتان وتطرف الأهداب بسرعة والصمت لفترات فى زمن قصير ، وأحياناً ما يُلاحظ على المرء السعادة الزائدة أو الحزن الشديد ، وتهدُّج الأنفاس وكأن القلب تجرّع السمّ

ويمتقع لونه عندما يسمع اسم الحبيب ، ويتلعثم إذا ما رآه فجأة ويمتقع وتعلو نبضات قلبه ... ومن علامات العاشق النظرة الرطبة وحلق اللحية والتأنق " (٤٨) .

والأطباء العرب المشار إليهم فى النص السابق يعرفون الفصل الخاص بعلامات الحب" فى طوق الحمامة " ومنها بُهْتٌ يقع ، وروعة تبدو على المحب عند رؤية من يحب فجأة وطلوعه بغتة ...{ ص ٥٨ } ومنها حب الوحدة والأنس بالانفراد وتحول الجسم دون حد يكون فيه..الخ {ص٦١} (٤٩) .

وإذا ما حدث خلال عام ١٦١٠م أن نقلت فقرات من كتاب ابن حزم فلن تشعر بالمفاجأة عند التأكيد على أن خوان رويث عرف الكتاب قبل ذلك بثلاثة قرون ، ومن غير المجدى تكرار العبارة القائلة بأن الفوارق بينهما جوهرية وأن وجه الشبه يتمثل فقط فى الموضوعات والمواقف الأساسية وليس فى التشابه النصّى ، ومع هذا نعرض مقارنة يمكن أن تكون رهن أى متخصص فى الرومانيات اعتباراً من عام ١٩٣١م .

ولولا أن أنبه عليها لذكرتها النظر فيها ، وقلة الثقة بكل واحد والسعيد من وعظ بغيره وبالضد تتميز الأشياء (ص ٩٧ - ٩٨)

ويعلم الله أن مقصدى ليس الدعوة إلى الإثم والعصيان أو ذكر فحش القول بل القصد هو العظة... وحتى يفطن الجميع ويحذروا من هذه الخزعبلات التى يلجأ إليها البعض من جراء هذا الحب المجنون (ص ٧)

(السبب الذى دفع ابن حزم لتأليف هذا الكتاب هو أن نستخدم الحياة الدنيا القصيرة الأجل لنفكر فى الحياة الأخرى) إذ يقول أبو الدرداء :

أَجمّوا النفوس بشئ من الباطل ليكون عونًا لها على الحق ومن بعِض أقوال الصالحين من السّلف المرضى : " من لم يحسن (أن) يتغنّى لم يحسن (أن) يتوقى " وفى بعض الأثر " أريحوا النفوس فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد " (ص ٤٣) .

هى كلمات قالها حكيم وقالها كاتون Cató على المرء أن يعنى بقلبه بأن يروح عنه بالمتع بين الحين والآخر فحذار من كثرة الحزن ﴿٤٤﴾

يعتمد كتاب ابن حزم على تجربة حية هى تجربته من خلال تراث تليد ، وهنا نجد فيها أن الأشخاص وما تتعرض له الروح والجسد أهم من الأفكار أو المفاهيم ؛ فالحديث عن الحب يأخذ فى الاعتبار هؤلاء الذين يحضون عليه أو يُعْرِضون عنه وهما نمطان معروفان فى العالم الإسلامى : الوسيط ، من يفشى السر ، والحارس أى Ar-gos بين العاشق والحبيبة ، وبعد ذلك نرى جوانب أخرى لعلاقة الحب : حفظ السّر أو إفشاءه ومتعة الوصال والحزن عند البعاد . وبغض النظر عن اختلاف التناول بين العملين فالأمر المهم هو أن كل تلك العناصر توجد فى كليهما ، والانطباع العام الذى سوف يخرج به القارئ من هذا الكتاب " إسبانيا عبر تاريخها " سوف يوفر علىّ ذكر الأسباب التى دفعتنى إلى عدم إحداث مقارنة بين " كتاب الحب المحمود " والأدب البروفنسالى ، فلم يكن خوان رويث فى حاجة إلى البحث عن شىء خارج البيت مع توفره فى منزله ، وهذا بمعزل عن تكهننا بأنه كان يقرأ البروفنسالية أو لا .

ومن آفات الحب الرقيب ، وأنه لحمى باطنة ، وبِرْسام مُلِحّ، وفكر يُكبه (ص ١٢٢)

وإذاعة السّر...فهذا داعية نفار المحبوب وفساد فى التدبير وضعف... (ص ١٠٥)

وأنات الحب الواشى... يستخدم الوشاة ضروبًا من التنقيل فمنهـا أن يذكر للمحبـوب عمن يحـبه، أنـه غـيـر كـاتم السّر (ص ١٢٦ - ١٢٧)

وفى ذلك أقول :

لا أسـتطيع أن أكون مـعهـا ولو سـاعة فـهناك الكثيـر من الناس عند بيتها وهم كُثُر كأنهم اليهود يرتلون التوراة (٨٧).

كانت نقـائى ثم خرجت إلى الميدان خرجت مـتخفيـة بعد رحيلى [g.]

إننى أعشقها عشقى للصيد (٩٣ - ٩٤)

عجبت لواش ظل يكشف أمرنا

وما بِسوَى أخبارنا يتنفّس

(ص ١٢٨ - ١٢٩)

(باب البيت) فلا شيء يعدل عنه مصيبة

البين (E . فهو حاضّ للبكاء على إلفه (ص١٨٠)

(ولقد توفى لابن حزم جارية كـان يعشقها) : فلقد أقمت بعـدها سـبعـة أشـهـر لا أتجرّد عن ثيابى ولا تـفتـر لى دمعـة (ص ١٧٩)

وحول هذا قلت شعراً غاية فى الحزن (١٠٣)

(تتمكن العجوز أورّاكا أن تصطاد للقمص أو قرينه الأدبى) طفلة لا يتجاوز عمرها عدة أيام ، وتوفيت عنه بعد ذلك : الألم يعتصر القلب والحزن عظيم قضيت يومين لم أتمكن من النهوض من مرقدى (١٥١٧ - ١٥٠٦ cf) .

والعرض من خلال المقارنة السابقة يكتسب أهمية كبرى ، فهانحن نجد شاعراً يعرف فنه وقادراً على التوصل إلى صيغ محكمة يصب فيها تجربته الحميمة ، وهاهو يحدثنا ببساطة عن لزومه الفراش ، وظل يومين بلا حراك فكأننا بذلك نرى اعترافًا عائليًا أسهم فى تخفيف حدة التوتر الشعرى ، كما أن التعبير غير الأدبى يرى نفسه على حق فى الظهور ببساطة كاملة . وليفكر القارئ الحديث فى أن القمّص " منشد " شعبى وفيه شىء من الصعلكة وشىء من الكوميدية بالإفصاح عن تفاهات حميمة بُغْية إمتاع الجمهور دون أن يضع فى حسبانه أن خوان رويث سوف يكون شخصية فريدة فى دائرة هذا النوع الأدبى ، كما ندرك جيداً وضعه المؤلف فى نفس الجوّ فالمؤرخ الذكى هو الذى يحاول تفادى الفراغ التاريخى ، إلا أن الجانب غير الحميد هو أن المنظور كان مزيفًا ، فخوان رويث لا يتحدث عن لزومه الفراش أو أموراً من هذا النوع مهما كانت درجة بساطتها بل لأن وجوده الشعرى يدخل كذلك فى منظومة الفن الإسلامى الذى لم يكن أى نوع من الكوميديا فى الحياة البسيطة ، ويلاحظ الشاعر هذه الطّرفة وتلك الأخريات (هى كذلك فى مفهومها المعاصر) لأن ابن حزم – ومن سار على دربه من هؤلاء الذين ذكرناهم – كتب عن تأثير ما يعتمل فى نفسه على جسده وعلى حياته بكافة جوانبها ، والحدث هنا هو الحزن على فتاة فارقت الحياة كان يُكِنّ لها حبًا جمًا فهى سرّ بقائه فى الدنيا ، ويمكن للعاشق أن يفعل ما شاء : ألا يغير ملابسه طوال سبعة أشهر أو يلزم الفراش ويخيم عليه الإحساس بأنه يموت ..الخ. فالأدب الإسلامى يفشى مكنون التجربة الوجودية ذلك أن الوجود الإسلامى هو أرابيسك بدون حدود أو قيود ، إلا أن العربىّ لا يمكن أن يَفْهم ذلك الذى يطلق عليه ببساطة ، " الواقعية " الإسبانية فى شكلها المجرّد واللاتاريخى . وقد أشار أحد الألمان إلى أن الأدب الإسبانى يفتقر إلى حسن الأدب وربما كان الأمر على هذا النحو، ومع

ذلك فمن المناسب الاعتماد على مفاهيم أقل بساطة إذا ما أراد المرء فهم التاريخ، وعلى ذلك فالخليط المكون مما هو جسدى وعاطفى وعقلانى هو الأساس الذى تقوم عليه أنماط متميزة فى الفن وفى الوقت ذاته أساس أيضا لتلك الأنماط التى تتسم بالشعبية والحسّية التى يقع فيها الإنسان الإسبانى بسهولة . وفى أعماق كل ذلك هناك تسعمائة عام من الوجود الإسلامى ، ويصعب على من تربّى فى الأجواء العقلانيـة فى باريس أو برلين فهمها.

وخلاصة الموضوع أنه لا يمكن فصل اللغة الأدبية أو البعد الإنسانى عن المنظور التاريخى الذى ولدت فيه ، " فلاجمال " عبارة ولا تاريخيتها تساوى " لا إنسانيتها " فمشاعر الفنان هى مشاعره هو لكنها غير قاصرة عليه وحده ، والمبدع الأدبى يتصرف وكأنه حلقة الوصل بين الجملة التى يبدعها والعالم البعيد الذى يغمس فيه ريشته ، ولمّا لم نر كيفيّة العيش الذى كان عليه قمّص إيتا فقد رسمنا له لوحة لا تليق له . هيا بنا نواصلْ عملية المقارنة :

لا تتبع النفس الهوى

ودع التعرّض للمحن (ص٢٣٠)

ولنر ما يحدثه الحب فى العاشق:

الأبله يصبح ذكيًا ..

والجبان شجاعًا .. والعجوز يصبح شابًا

... الخ (باب علامات الحب ص ٥٧ وما بعدها)

لما ... لا يمكن للمرء أن يخمن /

ما يدبّر الله وكيف يكون / فلا يمكن

الوقوف فى طريق المسار الطبيعى (١٣٦) [٥٠]

يرقق الحب قلب الإنسان الفظ ... ويجعل
المرء الجبان مقدامًا ... ويجعل الطاعن فى
السّن وقد ازداد حيوية (١٥٦ - ١٥٧)

نرى أن الترجمة حرفية ولا نستغرب أن يقوم ليكوى Lecoy {ص ٣٠٤} بمحاولة العثور عند أوفيديو على أساس لهذه الجمل :

(الحب فيه تعمية لعقل المحب) : فما يكاد يقبل على
سوى محبوبه ولو تعمّد ذلك وإن التكلف ليستبين فيه لمن
يرمقه والإنصات لحديثه إذ حدث واستغراب كل ما يأتى به
وكأنه عين المحال وخرق العادات وتصديقه إن كذب
(ص ٨٥) .

من أحب ، مهما كان قبيحًا / ومهما كانت حبيبته قبيحة
/ فلا يرى أحدهما فى الآخر شيئًا/ إلا وبداله جميلاً ... فكل
شىء يقوله يبدو جيداً .

ونرى ابن حزم يلح هنا على الخطأ الأخلاقى ، أما خوان رويث فهو يركز أكثر على العيوب الخِلقية .

ورغم أننى سوف أتحدث بعد ذلك عن شخصية تروتا كونبنتوس Trota Conven tos إلا أننا يجب أن نلاحظ الآن أن الوسيط فى الحب يمكن أن يكون رجلاً أو امرأة ، وأحيانًا ما يحصل على الثمرة الخاصة بمن أرسله

ومن قبيح الغدر ، أن يكون للمحب سفير إلى محبوبه
يستريح إليه بأسراره فيسعى حتى يقلبه إلى نفسه ويستأثر به
دونه وفيه أقول :

أقمت سفيرًا قاصدًا فى مطالبى

وثقت به جهلاً فضرّب بيننا

وحلّ عرى ودّى وأثبت ودّه

فأبعد عنى كل ما كان ممكنا

فصرت شهيدًا بعدما كان مُشْهِدا

وأصبحت ضيفًا بعدما كان ضيفنا

(ص ١٦٩)

هذا هو مصدر الحكاية المعروفة لفيرّان جارثيا (١١٣ – ١٣١) حيث نجد تناوبًا بين النثر والشعر ، كما أن العنصر الكوميدى نراه كإرهاصة فى الأبيات الأخيرة عند ابن حزم ومن المعروف أن خوان رويث قد حوّل عبارة ابن حزم إلى تعبير فكاهى رائع ، ولم يحتفظ من الموضوع إلا بالإطار ، وقد كان للعظة الإسلامية طعم الحياة ، فالوزن العروضى Trova المقلد يتحول إلى زجل عربى ، وهناك يبلغ قمّص إيتا أقصى ما أطلقته عليه وهو النمط المدجّن ، كما أعتقد أنه غير مجد الاطلاع على أوفيديو أو الكوميديا اللاتينية فى العصور الوسطى [Lecoy p.304] بغرض البحث عن مصادر إلهام المؤلف .

وعندما نُدخل خوان رويث فى دائرة المصادر الفعلية التى اعتمد عليها فليس المقصد هو إرضاء فضولنا أو فضول غيرنا فلو كانت الغاية هى تلك أى مجرد القول بأن هذا مصدره ذاك لأصبحت سذاجة ما بعدها سذاجة ، وبعد أن مارس الإنسان الحياة الأكاديمية لأعوام طويلة أؤكد أن هذه القضية لا تشغلنى إلا قليلاً ، وإذا ما كان

النموذج – الذى اعتمد عليه المؤلف فى صياغة أسلوبه الشخصى – عربيًا ، فإننا نذكره هنا لأنه يساعد على أن ندرك أنماطًا جديدة فى الفن ونطرق أبوابا جديدة تفتح أمامنا، وإذا لم يكن الضغط الحيوى للأدب الإسلامى هو الذى وراء إدخال موضوع الخبّازة كروث كروثادا إلى دائرة القشتالى المسيحى ، ووراء سعة خيال أهل الأندلس أى وراء التجربة الحسّية والمباشرة التى تأخذ شكلاً أكبر من خلال الملاحظة المؤثرة على الحالة المعنوية لبعض الإسبان ، فكيف إذن كان السبب وراءهما ؟ (٥٢) ومن المؤشرات بالغة الدلالة البساطة الشديدة لدى الكاتب عندما يتحدث بلسان المتكلم عن العالم المحيط به سواء المرئى أو غير المرئى ، فالمسلمون لم يسهموا بالموضوعات فقط ، وبفضل الهمّة القشتالية واطلاعها على الرؤية الإسلامية للواقع بمختلف جوانبه ، دونما حوائط فاصلة ، استطاع قمّص إيتا أن يتوفر على مساحة شاسعة من الخبرة الذاتية والتى كثيراً ما انبثقت عن العالم المحيط به

فوق الجسر

كنت على وشك الموت

من الجليد والبرد

وهذا الندى

وذلك الصقيع (١٠٢٣)

وإذا ما تركنا جانبًا مناقشة إمكانية حدوث ذلك لخوان رويث أو لا أقول إن الجديد هنا هو أننا أمام شخص يَعْبر المنطقة الجبلية ويقرض الشعر وهو يشعر بالبرد فى مكان ما فى سلسلة جبال جوادارّاما Guadarrama ، كما أنه معروف لدى قرّائه وله خبرة شعرية بالموضوع المحيط به ألا وهو النساء الجَبَليّات ، أى الاعتقاد بإمكانية نظم الشعر فى المرأة التى تعيش فى المناطق الجبلية ، فالشخصية المطلقة والعارية عن أى شىء تدخل فى تناغم فنى مع المحيط الذى تعيش فيه بشكل لم تعرف أوربا مثيلاً له آنذاك . وقد كان ذلك ممكنًا لأن شاعر الحِكَم والأمثال – ابن حزم – يقول : " ومنهم

جَمُود العين ، عديم الدمع ، وأنا منهم . وكان الأصل فى ذلك إدمان أكل الكُنْدر لخفقان القلب ، وكان عرض لى فى الصبا {ص ٦٤ - ٦٥} .

كما يتحدث ابن حزم عن حالة العشق التى عاشها {باب من لا يحب إلا مع المطاولة} ويعالج ملمحين أساسيين لطبيعته {باب السلو} ويصف المثال السىء الذى أصبحت فيه أسرته ، ونفيه وفقدانه لأمواله {باب قبح المعصية} كما أنه يتحدث عن بعض الميول التى لا يمكن الاعتراف بها ، وكل هذا فى إطار من الاستعارات والمواعظ الأخلاقية والدينية ، فالمؤلف يعيش كيانه من الداخل والعالم المحيط به دون نهاية للاستمرارية .

وإذا ما كان هناك لبس من قمص إيتا فهذا مرجعه إلى أن البعض يريد أن يطبق عليه المنظور الحديث الخاص بما هو فردى (أى التعبير عن الأنا الذى يتم عزلة عقلانياً عن العالم المحيط به) أى عن شىء غير موجود بهذا الشكل فى العالم المسيحى الإسلامى فى قشتالة ، وعندما لاحظ آخرون أن قمصّ إيتا ليس "حديثًا" بالمفهوم المعاصر لهذا المصطلح ، حولوّه إلى مؤلف من العصور الوسطى دون ملامح ذاتية . ويمكننا أن نفهم كل هذا الطرح ونعذرهم عليه لأننا جميعًا - وأنا منهم - قد سرنا فى الطريق ونحن مغُمضو العيون ثم تحدثنا عن أفضل عصور الأدب الإسبانى ، فالنموذج الفنى الذى أتحدث عنه هو الخاص بثربانتس ولوبى دى بيجا و كيبيدو ، وهو نموذج غريب وغير مفهوم لدى العقلية الغربية اليوم وخاصة عندما يحاول أن يفهم ما الذى تعنيه كلمة فن بالنسبة لمن أبدعوه ، فقبل كل شىء نجد أنفسنا أمام وعى بالذات يسبق عصر النهضة وليس ذلك من منطلق رؤية ما هو إنسانى بل من خلال الواقع الحيوى للأشياء (٥٣) ومع هذا فلم يصل خوان رويث أو الأدب الإسبانى الذى يطلق عليه الأدب الكلاسيكى " إلى " الحداثة " أو العقلانية النهضوية . ولقد بلغ الأدب الإسبانى وكذا خوان رويث أشكالاً من الفن والجمال لم يبلغها كاملة خارج إسبانيا إلا شكسبير ، غير أن الانطباع القائل بأن هذا الأدب أصبح على هامش المسار العقلى ومسار الآداب الأوربية العقلانية أصبح له مايبرره، ورغم ذلك فهذا لا يمنع أن الأدب الأوربى استطاع

أن يثرى نفسه ويبدع أنواعًا أدبية جديدة لم تكن لتخطر على البال بدون إسبانيا ، وهنا نجد أن ما هو إسبانى يترك أثره على ما هو فرنسى مثلما كان عليه حال التداخل بين ما هو إسلامى وما هو مسيحى فى إسبانيا (٥٤) .

هذه " النهضة " السابقة لأوانها عند خوان رويث لن تدخل فى وفاق مع حضارة " عصر النهضة " وهى : ملازمة الذات Inmanencia أمام الجوهر الإلهى وما ينبثق عنه فالعنصر الذى هو فى حد ذاته شخص وحديث لم ينفصل أبدًا عن العناصر " المؤقتة " والتعليمية .. إلخ كما أن الفلسفة لم تصبح كذلك فى إسبانيا إلا عندما أصبح لها قيمة بالنسبة للحياة - أى الحياتّى - وليس بالنسبة للمعرفة المحضة ، فالشخصية الإسبانية عادة ما تحمل معها العنصر الجوهرى الذى تسكن تحت قبوه ، ولو انزاح عنها ذلك القبو لأصبحت تعيش حالة من الفوضى والهمجية .

إذن يجب أن ندخل بالمشكلة الخاصة بالآداب الإسبانية خلال الفترة بين القرنين الرابع عشر والسابع عشر تحت مظلة جديدة . فقمصّ إيتا يدين للإسلام بكيفية مواجهته لنفسه ومواجهه الأشياء المحيطة به وهذا أمر غير مفهوم فى باقى الآداب الأوربية ، ومع هذا فقد أسس بناء وإبداعًا ليس إسلاميًا ولو أن المبنى لم يكن ليوجد دون البعد الحيوى للإسلام ، فالعالم بما فيه - صغر أم كبر - له قيمة فى حد ذاتها بالنسبة لهذا المسيحى القشتالى ، فالأشياء البسيطة كلها حيوية ومن هنا نجد الفارق - طبقًا (لليكوى Lecoy - بين النقاش " Caresme et de Charnage " الفرنسية ، والشجار بين السيد كارنال Carnal والسيدة كوارسما Cuaresma ، فالله موجود فى كل مكان وكل شىء ، جمادًا أو كائنًا حيًا كما أن كل شىء يساعد على التسامى الصوفى وتطهير البطن عملاً بأحاديث الرسول . ولقد ساعد التراث العربى الإسلامى العظيم قمص إيتا على القيام بلعبة الرفيع والوضيع وشرعية السلوك وعدم مشروعيته ، فمن خلال النصف يُعْتَقَد فى صلاح العالم وجوهريته ومن خلال النصف الآخر يتحول كل شىء إلى سراب ، فالواقعية الوجودية غير مصحوبة بالواقعية الثقافية فالأشياء تعود إلى الله لكنها فى حياتى ، غير أنها لن تكون أبدًا مجرد أشياء عقلية محضة

نحن إذن نبحر فى عالم المحسات ، حيث يطفو على سطحه كل شىء بتنوع ووفرة وتناقض فى نظر الغرب ، والجسد بجماله موقفه مهم مؤكد وكذلك الأمر بالنسبة للأحجار والزهور والمفاهيم المتعلقة بالشرائع السماوية والعلم عندما يكون فى خدمة السلوك (٥٥) والأشياء على مختلف أنواعها أما ما هو نظرى محض فلا يكاد يحظى بعناية . وعندما كانت اللغة الأدبية تتسم فى أوربا بالضحالة نجدها فى العالم الإسلامى قد بلغت شأوًا رفيعًا ؛ فهذه النظرة الوجودية للأشياء سوف تساعد فى يوم من الأيام لوبى دى بيجا على أن تتوافر لديه هذه الثروة الهائلة من المفردات التى هى ثمرة التراث الذى عود الإسبان على إزالة الحواجز بين هذا وذاك ، فكل ما يتعلق بالوجود - سواء فى السُّهاد أو النوم أو الخيال - يطفو على سطح التعبير الأدبى ، وهذا ما نراه فى أشعار خوان رويث التى تعتبر الحجر الأساسى الذى يحدد معالم الطريق للآداب الآتية بعد ذلك، أى للواقعية والشعبية الإسبانية .

ولهذا يتحدث فن القوادة وكأنها واقع فى الحياة اليومية خلال القرن الرابع عشر ويسير فى هذا على نهج ابن حزم ، حيث تنصهر عنده التجربة الأدبية ومشاعره الشخصية ، فالقوادة هى شخصية متجسّدة ومحسوسة

وأكثر ما يستعمل المحبون... الطبيعة، والحجامة والدلالة والكاهنة (٩٧)

فلديهن الكثير من الحيل (٤٣٨ ... الجأ إلى العجوز فهى خبيرة...(٤٤٠) يستخدمن تلك الحيلة (٤٤٣) هى بائعة جوالة (٧٢٣)..

كانت الطاعنات فى السن على هذه الشاكلة سواء فى الكتب أو الحياة اليومية كما أن هذا الموضوع يتشابك مع تجارب آتية مثل تدخل تلك النساء فى شراء العبيد .

قل لها ألا تكذب عليك وأعرب لها عن حُبك الطيب

فكم من حيوانات بَشعة تبيعك مُهْرَةً رائعة

ومرجع الأوصاف الجسدية للمرأة {٤٤٤ – ٤٤٥} هو النماذج الشعرية اللاتينية والتراث الإسلامي [٥٦] والملاحظة الواردة فى " إذا ما قلت أن الإبطين بهما بعض العرق " {٤٤٥} تعتبر نوعًا من الشبق المنفّر من المنظور المسيحى ، لكنها ملاحظة بريئة لدى المسلم ؛ " هذه المرأة تنجح فى كل الأسواق " {٤٤٥} أى فى أسواق المسلمين فلسنا نعرف هل كان فى إسبانيا المسيحية سوق للجوارى ؟ لكن الأسواق التى يعرفها خوان رويث نجد أن الفتيات يتميزن بنحافة السيقان وامتلاء العجز " ومن المعروف أن هذه التفاصيل الخاصة بالخبرات الحياتية لا نجدها فى الشعر كما أن اللغة المستخدمة تَرِنّ فى آذاننا كأنها لغة شفاهية مثل " عجز ، واربط ، وبَلّل، وأقدام غير مستوية البطن" .

كما أن الجو العام ـ المدجن ـ نجده فى صورة النساء المتحجبات {٣٨٦} متحجبات ونحجب أنفسنا عن الجيران {٧٠٤} وهذه عادة نجهلها عند الكثير سواء فيما يتعلق بأصولها و دائرة انتشارها ونقائها حتى اليوم فى بعض الأوساط الشعبية (سواء فى طريف Tarifa أو فى بيروت) .

كما قلد خوان رويث التراث الإسلامى فى تأليفه مجموعات أبيات تتناول المكفوفين وهى نوع من المقاومة {انظر الموسوعة الإسلامية E. of Islam } كما تحدثنا قبل ذلك عن أهمية هيئة التسوّل فى العالم الإسلامى ، وقد كتب الهمدانى (القرن العاشر) شعرًا رقيقًا فى ذلك النوع البوهيمى الذى يأخذ فى اعتباره الميراث الأدبى لعصر فجر الإسلام .

ويمكن فهم كل هذه الوقائع جيدًا من منظور معرفة خوان رويث لكتاب طوق الحمامة وسَيْره على خطوط العامة ، وقد عرضنا الكثير من البراهين ، ولازال فى جعبتنا المزيد ، نرى ابن حزم وقد خصص فصلاً كاملاً يتحدث فيه عن الإذعان الكامل للعاشق تجاه حبيبته { صـ ٦٠ – ٦٥ } وهو موضوع عربى معروف لدى الأدب البروفنسالى [٥٧] كما أن خوان رويث يورده فى أسلوب حميم بالنسبة للقارئ اليوم :

يعلم الله أن هذه المحبوبة وكل من رأيتهن

هو أننى أردت الحفاظ عليهن وخدمتهن

وإذا لم أستطع خدمتهن فلم أخدعهن

أكون وقحًا ومن بيئة وضيعة

إذا ما قلت عن المرأة الشريفة شيئًا مشينًا.. (١٠٧ - ١٠٨)

يضع الشاعر نفسه فى عالم آخر بالنسبة للحب ، وهذا ما يحدث فى حالة الصبر الاستسلامى ويحدث أيضًا فى عملية الانتقال من الحب الدنيوى إلى العشق الإلهى

> وإن من هام قلبه ، وشُغل باله ، واشتد شوقه، وعظم وجده ، ثم ظفر فرام هواه أنْ يغلب عقله/ وشهوته ، وأن يقصر دينَه ، ثم أقام العدل لنفسه حصنًا وعلم أنها النفس الأمارة بالسوء وذكّرها بعقاب الله تعالى (صـ ٢٤٠) .
>
> وأما أنا فبعد الخلاص من كل هذا الصَّخَب رجوت الله ألا ينسينى ذلك

لكن ذلك لا يمنع من إطلالة جديدة للحب الدنيوى " عدت إلى أرضى لأسترد أنفاسى " {١٠٦٧} وهذا ما ينطبق مع العبارة التى تدعو إلى الترويح عن القلوب ، ولا تتوقف حلقة الوصل الإنسانية عن ترددها بين هذا الجانب وذاك فهى غير قادرة على مقاومة مشاعر الحب اللهّم إلا ما حفظ الله {ابن حزم صـ ٤٢} ، والغموض يكتنف كلا الكتابين وكذلك زوال الحدود الفاصلة بين كلا النوعين من الحب وليس ذلك لأن أحدهما صالح والآخر طالح بل لأن الحب الدنيوى هو من خلق الله . (٥٩) .

وفى هذا المقام نرى أن كتاب ابن حزم لا يعتبر دعوة مبتسمة للحياة أو إعراضًا عنها فهو لا يفصح عن عملية انتقال " الرجل المُسّن " إلى " الرجل الجديد " من المنظور اللاهوتى المسيحى ، ولا يحدث نفس الشىء فى " كتاب الحب المحمود " ؛ إذن يتضمن

كتاب طوق الحمامة إحساسًا بالألم وحزنًا ووعيًا بضرورة ترك الملذات سواء تدريجيًا أو عنوة ، ومن الضرورى علينا أن نسرع إلى الأدب الحديث لنعثر على اعتراف حميم يتسم بهذا الصدق والطاقة التعبيرية : فالطفولة الدارسة والمرتكبة للمعاصى التى نشأت فى أحضان حريم أرستقراطى تعلمتْ عدم التمييز بين الأمور ، وهناك صداقات تنشأ مع أطفال آخرين ، وكذلك بعض الميول التى يتم التعبير عنها على استحياء وبكلمات مقتضبة ، كما نجد تجارب شوق أليمة مع النساء ، وبالتحديد مع امرأتين ماتت إحداهما أما الأخرى فرفضته ، وقد أدت وفاة الأولى إلى عدم تغييره الملابس سبعة أشهر ، وقد كان ذلك الفتى الذى اعتاد على البذخ وحياة الرفاهية ، ولم يكن فى الإمكان التعبير عن هذا الحزن من خلال الدموع فقد نضبت الدموع فى عينيه وربما كان السبب فى ذلك اللجوء إلى المُسَكِّنَات للتغلْب على الآلام ، وبعد ذلك تغرق الخلافة ، أى " تغرق بالنسبة له " ، وهنا يعرف النَّفْى والسجن والفقر والخيانة وعدم وفاء الأصدقاء ويهبط من قمة الهرم الاجتماعى فى قرطبة الأحلام ، وبعد ذلك يستغرق ثلاث سنوات فى الدراسات الدينية ، كما أن موقفه الشخصى إزاء القضايا المتعلقة بالفقه تثير حوله المتاعب والمطاردات - وقد أُحْرِقَتَ كتبه ، ولا نعرف إلا معلومات ضئيلة عن بعضها (٦٠) .وتحت عنوان "فهرسة " نجده يتحدث عن الكتب التى درسها ، وسوف يتبع نفس الطريقة بعد ذلك ابن عربى حيث يقص علينا سيرة معلميه الروحيين ، وبذلك يصل الغوص إلى أعماق النفس أعماق نفسه هو ولكن فى دائرة زمنية ومكانية معاصرة .

لكن خوان رويث لا يحدثنا عن شيء من هذا فهو قشتالى ولد عام ١٣٣٠م وعلى ذلك فقلمه يقصر ويخجل - كما قلتُ سابقًا - عندما يتعلق الأمر بالحديث عن مكنون الذات ، غير أن محاولته فى كتابة سيرته الذاتية وعدم دخولها فى إطار الأدب المسيحى الأوربى ليست ظاهرة أقل " تاريخية " ، فأن يتحدث المرء فى قشتالة ذلك العصر عن حياته الشخصية كان أمرًا مطروقًا ، ذلك أن الاتجاه إلى كتابة السيرة الذاتية .كان أمرًا معروفًا فى الكتب العربية التى أحيانًا ما يسير خوان رويث على نهجها حرفيًا وهنا نجد أن خوان رويث يمكن أن يتحدث عن نفسه عندما يعرض لقلة ثقافته وأن

رأسـه " هى رأس ثور " وأنه " فظ وقليل العلم " ، ويمكن أن يكون حـديثـه عن نفسـه عندمـا يصف جسـده وصوته وطريقتـه فى السـيـر رغم أنه يلجـأ فى رصـد ذلك إلى النماذج التـقليدية (٦١) كما أن النمـاذج " التى تتجـاوز حـدود الشـخص " والموروثة عن التراث القشتالى كانت تحث على " الذاتية " مثلما هو الحال فى الرومانسية فى عصرنا الحديث ، مع اختـلاف المفاهيم فكل كاتب شـعر بضـرورة أن يبوح بما فى نفسـه على الورق لدرجة أنه أحيانًا يبتكر حتى يكون على إيقاع الموضـة السائدة . واعتبارًا من الآن أقول إن الذين لا ينوون التـجوال التـاريخى عليـهم أن يروا مـا يحدث فى القطاع العربى فى إسـبانيا عندما يتولون إصدار الأحكام بشـأن الأدب الأيبيـرى وليست القضية هى أن الكُتّاب المسيحيين قد نهلوا من المصادر العربية بل الأمر مختلف (٦٢).

ازدواجية المعنى فى كتاب الحب المحمود

كثيرًا ما نلاحظ خوان رويث وهو يلح على الطريقة التى يحب أن يُفهم بها الكتاب، فليس على القارئ أن يقف عند الانطباع الأول عند قراءة أشعاره بل عليه إدراك المعنى الآخر الذى بين السطور وهو الأصدق ، وهنا نلتقى مع المقاصد الحقيقية للمؤلف (٦٣) ؛ وهذا النوع من الإلحـاح لا نعثر على مثيل له فى الأعمال المتعلقة بالعصور الوسطى ، كما أن كثرته تقول لنا إنه ملمح مُتَمَيِّز ، فلسنا نعثر فقط على " معنى مزدوج " بل نجد كذلك قلق المؤلف على الموضوع، وإلا فلم يكن ليتحدث عنه ويذكره كثيرًا ، وحتى يشرح لنا دلالة إحدى العبارات المجازية يقول :

أيها السادة والأصدقاء ، ما قلناه

كلمة غامضة نريد إيضاحها :

فلنقطع اللحاء وندلف إلى الجوهر

ولنمسك الجوهر ونترك الظاهرى {milagses. 16]

وهنا نجد الشاعر يجعل مشكلته الصغيرة موضوعية ثم يطرح الحل ، فهو لا يخشى تردد القارئ بين معنيين ولا يعتقد أن بنية العمل الشعرى الذى ألفه يمكن أن تثير إشكاليات ويتم تفسيرها بأكثر من معنى ، والحقيقة والواقع الدينى لكل ما يسرده بيرثيو Berceo هى أمور ثابتة لا تتغير ، إلا أن خوان رويث لا يتناول المعجزات بل يتحدث عن الحب الغامض فى حد ذاته على أنه أكبر الأسباب فى الإبهام، فالحب هذا صانع المعجزات ، يجعل كل شىء يبدل من طبيعته : فالقبيح يبدو جميلاً ، والعجوز يصبح شاباً، فهو يجمل فى عين المرء ما بدا له قبل ذلك قبيحًا ، كما يجعل الصعب سهلاً لدرجة أنه يغير من طبيعة الأشياء الثابتة . {ابن حزم : صـ ٤٧ وما بعدها} وأن يركب المرء سفينة الحب فهذا معناه الإبحار فى محيط اللاأمان ويسعد المسلم وهو يتأمل بداخله اللعبة الحاوية لكافة الظواهر فكل ذلك موجود خارج الذات الإلهية (٦٤) فالحب له وجهان – إنسانى وإلهى – كما أن كل شىء يلمسه قابل للتبديل ، فالصغير كبير والكبير صغير " فالمرأة صغيرة الحجم طعمها لذيذ ... وفى الفتاة الوردية ألوان رائعة، {١٦١٢} ومن هنا يجب أن ننظر إلى الازدواجية فى كتاب الحب المحمود ، فالقمصّ يقرض الشعر من منظور خاص لرؤية الحياة سواء كانت حياته أو حياة الآخرين أو حياة العالم المحيط به ، لا يريد أن يعطينا دروسًا فى الأخلاق لأغراض لاهوتية أو ما إلى ذلك ، يتسم كتاب القمص بتكامله وليس فيه فصل على طريقة " المعصية هذه والأخلاق الفاضلة تلك " فالمشكلة أعمق من ذلك بسبب التشابك بين الأنماط الحياتية العربية والمسيحية فى فهم الواقع خلال العصور الوسطى ، وقد أسهمت الفلسفة ودراسة اللاهوت فى إشاعة الحدود الفاصلة بين الأمور الظاهرية والأمور الجوهرية وبين الانطباع والوعى ، فالعالم الزائل والظاهر يقابله الإيمان بالخلود والعبارات الإنسانية التى تتسم بتغيرها وعدم ثبات معناها – والتى يتضمنها النص المقدس – تخفى تحتها معنى مطلقًا وإلهيًا . إلا أننا نرتكب خطأ تاريخيًا إذا ما تصورنا أن " كتاب الحب المحمود " لا يتضمن إلا هذا؛ والسبب أننا لا نجد فى ذلك أرضًا صلبة وأخرى متحركة حيث يجد الكاتب نفسه يسير فى خط موضوعى ويستخدم المنهج المنطقى ، فكل شىء هنا يتسم بالأمان واللاأمان ، ذلك إن المؤلف يقول لنا إن

عمله يمكن أن يكون درسًا في " الحب المثالي " ، ونحن لا نجد عملية تبادلية بين الحب المحمود والحب المجنون فقط ، بل إن الكاتب يقوم بنفسه بدور الربط بين كليهما ، وهنا لا نعثر في أدب العصور الوسطى على أمر مشابه فاللاهوت ليس موضوعًا للفكاهة والكوميديا ، وهما صفتان تظهران هنا لأن خوان رويث سوف ينقل إلى الأجواء المسيحية هذا الوجود واللاوجود للواقع الأخلاقى ، ويقوم لنا ابن حزم هذا اللبس دون أى روح مزاح ، وقد كان أمام خوان رويث أو فى ذاكرته ، إلا أن هذه الوثبة - فى الإطار المسيحي - كانت فى حاجة إلى ابتسامة .

وحتى لا يفقد القارئ الخط الذى أسير عليه لعدم توفر المعلومات أقول : إن علوم اللاهوت بين المسيحيين كانت تتسم بشىء من المهنية التى لا ترتبط بجذور الحياة غير التورائية ، ومعنى هذا أن "الوردة" هى بالنسبة للغربى مُجَردٌ وردة ، وأن الحصان مجرّد حصان ولم تكن هناك صعوبة للتعبير عن جوهره ، فهو جوهر مهما كانت درجة حفظ الله له ، ومن المنظور المدرسى أن الحيوان كان الحيوان ، وعلى العقل أن يتأقلم على ذلك ، أما بالنسبة للمسلم فتفسير القرآن الكريم ليس إلا حالة من حالات التفسير ذلك أن الطبيعة الإلهية للنص هى نفسها الطبيعة الإلهية للحياة ، إذ يشير الهدجويرى - على سبيل المثال - إلى أنه يجب أن تعرف أن دقة الحقيقة الروحية محجوبة عن كافة الناس اللهم إلا أولياء الله ومن اصطفاهم (٦٥) كما أن ما يحدث للروح نراه فى عالم الماديات ، فربما ساعدت السنبلة على إخراج سيف من غمده عندما خرجت من الماء حيث كان بعيدًا عن ناظرينا وكأنه فى غمده (٦٦) ، وفيما يتعلق بالمشاعر يشير إلى أنه قد حانت اللحظة لينهض فيها القلب من غفوته وينزع عنه الحجاب الذى كان يتدثر به { ابن حزم : صـ ٢٤٩ وما بعدها - فضل التعفف } .

فالعيش إذن بمثابة نزع الحجاب عن النفس أو الكشف عن الظلال التى يسير الإنسان فيها ولا يستطيع الوصول إلى واقع جوهرى ونهائى .

وعلى ضوء ذلك يجب أن ندرس معنى العبارات التى ذكرناها سلفًا وهى" A la raçón Primera Tornéle la pelleja ... De prieto fazen blanco , Vol viendale la Pel

leja (827 - 929) وكذلك العبارات الأخرى التى وردت فى " الحب المحمود " مشيرة إلى معنى يجب على القارئ أن يقتنصه.

والعالم الباطن الإسلامى ليس إلا جانبًا من موقف المسلم من الدنيا ، وطائفة الباطنية الإسلامية تبحث عن المعنى الذى يستكن فى النصوص المقدسة (٦٧) وقد نفذت هذه المفاهيم إلى عالم الأدب وتعكسها أحيانًا المناقشات بين الباطنية والظاهرية ، وقام المعتمد بن عباد برش ماء الورد على جسد إحدى محظياته التى أشار إليها أحد الشعراء بأن مفاتنها خلابة ولها بشرة شديدة النعومة لدرجة أن المرء يستكنه ما فى الباطن (٦٨) .

الداخل والخارج وتكامل البيئة الشعرية :-

اتخذنا – عند تحليلنا للكلمات السابقة – موقعًا مرتفعًا نستطيع من خلاله تأمل سمات ذلك الديوان ، فهناك ما تم سرده وما عاشه المؤلف والمواعظ وهناك الجمل المتناثرة ، وكل ذلك يقدم لنا اللعبة المتبادلة بين " الداخل " و" الخارج " وكلاهما على نفس الدرجة دون أى فصل بين واقع أساسى وظاهر مشكوك فيه وهذا الفصل هو ما تفضله العقلية الغربية

نبات ajenuz ظاهره أكثر سوادًا من القِدْر

لكنه ناصع البياض من الداخل أكثر من Pe?avera

دقيق أبيض يستكن تحت غطاء أسود

سكر أبيض حلو المذاق فى قصب حقير الشكل

والوردة تحت الشوكة ، وهى زهرة نبيلة

والمعرفة العظيمة تكتب بخط سيئ

وعاشق النبيذ يرتدى سترة مهلهلة

وتحت الرداء السيئ هناك الحب العف

فالشوكة ليست " الظاهر " لجوهر الوردة ولا هذه لتلك ؛ فكلاهما يتعايشان مثل توءمين، ومثل السكر الأبيض والأسود في داخل قصب السكر الذى يحتوى عليهما ، وسوف يكون ملائمًا أن نذكرّ هنا " بالمادة " و " الشكل " . ويفضلّ التذكير بالتشبيه الذى ورد فيه السيف والغمد أى الباطن والظاهر وبذلك نضع أنفسنا فى نفس الزاوية التي يقف عندها القمص ويشير ابن المقفع فى مقدمته لكتاب كليلة ودمنة إلى أن علماء من الهند ومن أماكن أخرى بحثوا عن الوسائل المتاحة للإفصاح عما يعتمل فى نفوسهم ، ولهذا استنطقوا الحيوانات البرية ، كما أن هذه الوسيلة لها ميزة هى أن يقولوا ما يريدون بطريقة مغطاة، وبذلك يشجعون على الفلسفة (أى المعرفة المتعلقة بالسلوك الإنسانى) ويعوّدون العقل على اكتشاف الباطن المستكن وراء الظاهر وبدون ذلك لا يمكن الإفادة منه حتى يكسر القشرة ويستخرج ما فى القلب {ص ٥} والمعرفة هنا لا تنحصر فى المعلومة وإنما فى العمل ، فالمعرفة هى بمثابة الشجرة أما العمل فهو الثمرة والعالم لا يبغى المعلومة إلا للإفادة منها { صـ ٧} (٦٩)، ولا تتركز هذه المعرفة على الطبيعة بل على الإنسان والغاية هى تقويم السلوك دون أن نخرج من ذلك بقواعد مطلقة وموضوعية ، وهنا يجب أن نتذكر أن الإسلام لا يفرق بين القوانين ذات الطبيعة القانونية والتعاليم الدينية ، كما أن ابن حزم يخلط الحب الإنسانى بالعشق الإلهى ، فالعيش هو السّير محاطًا بالرموز ، وليس بين ظواهر الجوهر بل فى الجوهر نفسه (٧٠) .

هانحن ندرك السبب الذى يفتقر الحب بسببه (فى ديوان القمصّ) إلى مفهوم ثابت ، فكل حكم وكل رأى يتحول إلى موضوع فيه ازدواجية المفاهيم أو إلى نوع من السخّرية ؛ ولهذا نجد خوان رويث وقد استهوته هذه الدُّعابات التى يستخدمها بطريقة متفرّدة لا نجد لها مثيلاً (٧١) ، فلم يخطر على بال أحد استخدام مواقيت الصلوات اللاهوتية كهدف له ، كما أن تصرفه بهذه الطريقة فيه نوع من إرضاء رغبته فى التعبير

الحيوى ذلك أن تلك الصلوات تشكل حياة رجل الدين منذ الفجر وحتى حلول الظلام وهى رمز لإنسانية شخص ما ، ورغم أن ذلك الشخص قد لا يكون فى زمان ومكان معينين فإن موضوع الدعابة هو ما يمكن أن يقوم به أى إنسان وليس مجرد التصنيف الأخلاقى لتصرفاته ، وهناك من يتولّون – بعد ذلك – ملء هذا الإطار بحيوية مجددة :

حيث اعتادت صديقتك المسلمة إثارتك

يا سيدى، شفتى تبدأ فى الغناء

أولاً وقبل كل شيء تعزف على الآلات

كى يسمع صلواتنا وتسابيحنا

يلاحظ أن الأبيات تجمع بين فقرات من التسابيح والمزامير الدينية (٧٢) وبين الرغبات الحسية لرجل الدين فالدعاء بصوت مرتفع يختلط بالإصباح المليء بالجلبة عند من يستيقظ ويبدأ فى عزف الموسيقى ، ويمتد الاستيقاظ إلى الأدوات الموسيقية فى توافق مع الأشكال أى فى أرابيسك وفى الوقت نفسه نجد الدعاء باللغة اللاتينية ينساب فى إطار الرومانث يقول المزمور " سوف تفتح أيها الربّ شفتاى { وسوف ينطق فمى بتسبيحك } " غير أن الشفاه لم تعد شفاه المُصلّي وبذلك تفتح الطريق أمام " الصوت المرتفع " لرجل الدين الذى استيقظ مبكراً ، والمهتم بالأمور الدنيوية ، وبعد ذلك تأتى عبارة " فى أول يوم من الأيام جميعها " ، مشيراً بذلك إلى أيام الخلق وهو معنى ينزلق نحو ذلك الآخر .

"وفى أول كل يوم يبدأ رجل الدين العزف على آلاته " ، وفى النهاية " حتى يسمع ضراعاتنا" سواء كان الله فى العبارات اللاتينية ، أو الصديقة فى سياق أبيات الشعر ، فحتى تتمكن هى من سماع أغانى العاشق يقوم هو بإيقاظ الآلات الموسيقية وتستمر عملية التبادل بين الدعاء والحسية أو بين الداخل والخارج . وحتى نفهم مجموعتى الأبيات رقم ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، علينا أن نفترض أن رجل الدين وحبيبته يعيشان فى نفس المنزل ، ففى المجموعة رقم ٣٧٧ يتم الانتقال إلى تخيل أنهما يعيشان فى مكانين

منفصلين ، وهنا يكلف رجل الدين " xaquama أن تذهب لرؤيتها ، ويتذرع بحجة المساعدة فى البحث عن المياه يدفعها للخروج من البيت ، وهنا نجد أول إشارة أدبية إلى الفتاة التى تحمل الجرة وإلى المرأة التى تخرج للبحث عن مياه فى جدول صغير ترافقها كثيرات ينتظرن دورهن لملء الجرة وهذا كثيراً ما يحدث فى إسبانيا اليوم وبهذه الطريقة نجد أن الحياة اليومية تداخلت مع ساعات الصلوات ، وإذا لم تكن الفتاة من هؤلاء اللاتى يستطعن التحرّك بسهولة فى شوارع القرية وأزقتها {٣٧٨} نجد العجوز الوسيط تذهب بها إلى الحدائق والذريعة هنا هى قطف بعض الوردات الأقحوانية " إذا ما كانت مرنة وتصدق ما " تقوله وما تنصح به " (٧٣) وتنتهى المجموعة بهذا البيت المعقد Quod Eva tristis trae de quicunque vult redr uejas {٣٧٨} .

ويمكن أن يكون معناه " وما تخرج به ابيا (مواء) الحزينة فمن تسلم قيادها له ليس إلا " redruejas" وهى ثمار ظاهرية لا جدوى من ورائها " .

وهناك الكثير من هذا الخليط ، ولذلك من الضرورى إعادة طبعه وإيضاحه ، بالإضافة إلى أجزاء أخرى من العمل لم يتم معرفتها بدقة بعد ، كما أننا بحاجة إلى نصوص تفصح لنا عن لغة الخطاب خلال القرن الرابع عشر فلم نعد نتلقى ، اليوم ، وندرك تلك الجمل البسيطة المتداولة آنذاك ، وهذا هو العائق الذى يقف أمام علم اللغة أى أن خوان رويث يجمع فى أسلوبه الثقافى - الشعبى طرفى النقيض فى حياته المعاصرة ، فلست هنا فى دائرة البحث وتمحيص الأجزاء الغامضة فى الكتاب ، ودورى هنا يقتصر على إبراز الرابطة بين الصلاة بشكل مجرد وخبرات الحياة الدنيوية حيث يتداخلان ويتناوبان ، وهاهو عقل اللاتينى يفرد شراعه فى الرومانث ونظل هنا تحت تأثير انطباع خاطئ هو الصلاة الظاهرية والرغبة الحسّية ، " فالحب العف " للذات الإلهية يتحول إلى حب حسّى رغم أن الكلمات والعبارات الدينية تظل بوابة للنجاة فكل شيء يقال بغية الطعن فى "السيد حب" :

لا يمكن أن تتوقف للتأمل عندما تقوم بعمل ورع (٣٧٣)

ونرى ذلك كله فى إطار الازدواجية التى عليها الديوان " يسعد القلوب ويروح عن النفس " ، والازدواجية لا تشمل المعنى والتعبير فقط وإنما تمتد إلى القالب الشعرى فالعبارات اللاتينية نراها فى الشطر الأول للبيت كما تقوم بنفس دور الموشحات ذات القافية الداخلية ، أى التّظْم نحو الداخل ونحو الخارج .

وهنا ندرك السبب فى أن الأحكام الصادرة بشأن الأشياء وتقييم التصرفات الإنسانية تتسم بالذبذبة والغموض ، وهو غموض لا يقارن بالتقابل بين الفضيلة والرذيلة ، ثم يتم التوصل إلى حل لذلك بالدخول فى رحمة الله ، وليس هناك شبه بين ما نقول به وبين المناقشات المحتدمة بين النفس والجسد، أو بين الماء والخمر ، أو بين رجل الدين والفارس وهى موضوعات كتب فيها شعراء لهم مفاهيم حياتية مختلفة إذن نجد أن الديوان يتضمن تناوبًا وليس نقاشًا ، كما أن الأسلوبية لا ترتبط فى الأساس بالنوازع الخطابية والتعليمية أو الدينية أو الهروب من العالم على الطريقة المسيحية أو الرغبة فى كسب لقمة العيش أمام جمهور متكاسل ، فلو كان الأمر كذلك لما أضاف للمسار الفنّى شيئًا أى للشكل الحياتى الشعرى للقمص وهو شكل مكون منه ومن عالمه المحيط به - أى قشتالة - وليس مجرد الاقتصار على ما ورد فى كتب العصور الوسطى، وهذه السمة الأسلوبية نراها حتى ولو لم يكن هناك تعرض من قريب أو بعيد لمسائل دينية أو أخلاقية ، بأن يتحدث عن الشئون الزراعية

عنب أبيض يتحول إلى داكن بفضل عمال ممتازين (١٢٨١)

فقلب الأشجار يكسوه لحاء غريب (١٢٩١)

هنا نجد تمثيلاً للتطعيم وتناوب الألوان واللحاء الغريب الذى يكسو الكائن الحى وهى تقوم بدور يتجاوز مجرد الحديث عن تطعيم الأشجار فالكتاب كله على هذا النحو إذ هناك كائن أبيض وكائن داكن اللون وكلاهما صالحان ، وليس مجرد تفسير لجوهر الأشياء الذى يكسوه المظهر الخادع . والشىء الموثوق منه والمؤكد هو وعى خوان رويث بما يعبر عنه وانه " عامل " طيب فى ميدان " الحب العف " و " الحب غير العف" وأنه أيضًا يعرف كيف يعزف على الآلات الموسيقية وأحيانًا " لا يعرف شيئًا " ، ليس هناك

تردد بشأن الأحاسيس البسيطة وهنا يشعر المرء بالبرد الشديد أو السعادة أو الحزن أو يتم تدوين الانطباعات البصرية أو السمعية البصرية أو المسار الذى عليه الكلب السلوقى خفيف الحركة والجرىء .

هناك رغبة فى حب النساء وهنا يتم تفضيل طريقة أو أخرى ، أو أن يرق القلب بالصلاة على العذراء فداخل المرء هو من " أبيض وأسود " وعلى أية حال نلاحظ أن بنية الكتاب لا ترتبط بتفضيل نمط على آخر بل الأساس هو أن كل مستوى يصلح كانتقال للمستوى الآخر وكأننا أمام وجهى عملة ، و " الكتاب " :

له أملاك طيبة ، أينما تقرؤه

فإذا ما سمعت عن رجل له امرأة دميمة

وإذا ما سمعت عن امرأة لها رجل فظ

فإنه يتضرع إلى الله بما يريد

يحضر القُدّاس ويقدم الهبات

ويتصدق على المساكين بالطعام

وينفق الكثير ويردد الصلوات

وهو بذلك يعبد الله حسبما ترون أيها الرجال (١٦٢٧ - ١٦٢٨)

إذن فصفات الحب لا تتأتى من أية مواعظ بل هى المحور الذى يتناوله الخط الوجودى انطلاقًا من الظروف المحيطة بالرجل أو المرأة ، فاللحم القبيح ينزلق نحو الجملة العذبة والمشاعر الدينية تعادل متاعب الحب وكذلك الحياة الدنيا تساعد فى الإعانة على الواجبات المقدسة :

وبالاقتراب سوف يأتى زمن الله تقدّس فى عليين

فقد ذهبت إلى بيتى لأرتاح بعض الشىء (١٠٦٧)

ومجرد الحديث عن الاقتراب إلى طريق الله يجعل المرء يخصص بعضًا من وقته للحياة الدنيا وذلك هو المنصوح به {٤٤} ، ويرى كل هذا فى بداية الكتاب " يسعد القلوب ويروح عن النفوس " {١٣} وليس الأمر ارتكاب الإنسان المعصية ثم غفران الله بل الشىء الفريد هو أن الورع فيه شدة ، والمتعة منصوح بها ويجب الجمع بينهما فهذا حال كل ما يحيط بالانسان : " من الطبيعى أن يولد المرء ويموت" {٩٤٣} والحدس والإحساس والفكرة الخاصة بهذا التناوب ليست داخلة فى باب النظريات بل تعبيرًا عن موقف حيوى فى إطار العمل نفسه ، نراه من خلال الكلمة ومجموعة الأبيات والمَغْنَى والجو العام للنص فى طرافته أو شدته أى فى إجمالى التعبير ، ولا نجد ذلك فى القصائد اللاتينية لتلك الفترة أو فى Roman de la Rose أو عند شوسر Chaucer وهما عملان رائعان ولكن من منظور آخر .

نعثر فى هذا العمل على الجديد الذى يرسم معالم الطريق لتطورات لاحقة وعظيمة فى الأدب الإسبانى بشكل مباشر وفى الأدب الأوربى بشكل غير مباشر ، إلا أننا فى حاجة إلى طبعة جديدة من هذا العمل رغم أن الطبعة التى صدرت تحت رعاية ماريا روسا ليدا M. R. Lida هى طبعة جزئية ولأغراض مدرسية ، كما لا نعثر على ترجمة " لكتاب الحب المحمود " إلى أى لغة من لغات العالم ، ورغم هذه العقبات فالكتاب هو أثر ضخم يمكن أن توضع له عدة صفات ليكون فى مصاف أفضل الأعمال الأدبية الأوربية وليس مجرد لمحة فكرية توجه ناظريها إلى الماضى . يعمل خوان رويث على أن يشعرنا بأن الإنسان وعالمه إنما هو لعبة لها جوانب مختلفة تتناوب المكان : من الأسود إلى الأبيض والموت والحياة والطهارة والدنس ، والصلاة والغلمة ودعاء العذراء وفتيات عريضات العجز رشيقات الساقين وإبطين رطبين ، وهذه المقابلات لا تقتصر على عملية التعايش مع بعضها البعض مثلما هو الحال فى إبداعات العصور الوسطى بل إن ما يميز هذا الديوان هو أن المقابلة هنا هى بين الأنماط وطرائق الحياة وليس المقابلة بين مفاهيمها الجوهرية ، الأمر عبارة عن تيارات تتسم بتناوبها مع بعضها البعض .

وما عدا ذلك فهو ثانوى وإلحاق للبنية الأساسية ، وأحيانًا ما يجرى الحديث عن نص وخاتمة:

تؤلفون كتابًا صغيرًا إلا أن الخاتمة

ليست صغيرة . (١٦٣١)

ويستفاد من الصفحات السابقة أن ما عرضناه عبارة عن مقارنة قمتُ بها ، وتلك كانت أفضل وسيلة بين يدى لتبيان التقنية الفنية للكتاب ، ويلاحظ أن التعليقات والشروح التوراتية أو النصوص القانونية ليس لها مكان هنا فالفقهاء لا يلعبون بمفهومين مقبولين على السواء، فالفقيه أو الواعظ يستهدف التوصل إلى مفهوم ثابت وجوهرى غير أن كل نص فى هذا المقام خُلاصة والعكس صحيح ، ومن غير الملائم فى هذا المجال مقارنة الكتاب بالأسلوب المجازى الذى يعود إلى التوجه الأفلاطونى الجديد ويقوم على مفهوم للواقع يختلف عن الذى عليه خوان رويث فالمجاز هو قناع عبقرى لما وراءه وله قاعدة يؤمن بها فـ Rosede Roman هو علامة أو رمز على فتاة جميلة ، إلا أن " السيد حب" هو نفسه القمص كما أن هذا هو ذاك ، ويكشف السيد " ميلون " عن نفسه من خلال القمص ثم ينتزع عن نفسه ذلك الغطاء ويقول ببساطة إنه لم يحدث له شيء من ذلك الذى تحدث عنه ، فالقوّادة هى " تروتاكونبنتوس" مثلما هى " أورّاكا" هذا الوجه وذاك الآخر ، لكن ليس لكل هذا علاقة بالممثل الذى يتقمص شخصية إذ يعتمد فى ذلك على أرضية ثابتة وواقعية ، وهنا نسقط فى الجدل الدائر حول ما إذا كان " الكتاب " مجرد إبداع أو سيرة ذاتية ، إننى ألمح شيطان الإبداع العربى يتجول فى هذه الأبيات ونحن نحاول اقتفاء أثره بالغوص فى أعماق التاريخ الذى ليس مجرد تجريد يطلق عليه تاريخ الأدب .

أسباب الحب المحمود مغطاة	Las del Buen Amor sones encubiertas;
وحاول البحث عن إشارتها الحقيقية	trabaja do hallares sus/senales ciertas
فإذا ما فهمت وأدركت بعقلك	siala raz?n entiendes,oen el seso aciertas;
فلن تتحدث بسوء عن الكتاب الذى بين يديك	no dirás mal del Libroqueahora rehiertas;

Do coidares que miente, وفى اللحظة التى تظن أنه يكذب فكل مـا يقـول حق
dizemayor verdat

yaze la٤٧En las coplas pintadas ففى مجموعات الأبيات الجميلة هناك الزيف
falsedat;

dicha buena o mala, por puntos la فاحكمـوا على القـول الصـالح والطالح
juzgat

las coplas con les والأبيات من خلال الشـروح محـمودة ومذمومة(٦٨ – ٩٦٩)
puntes, load o denostat (68 - 69)

يجب أن نشـرح هـذا المثـال " فـالصـدق " و " الكذب" يقـعـان فى دائرة التبـادل المعروفة كما أنهما الخارج والداخل وكلاهما صالحان ووجهان لعملة واحدة " أما لفظة Pintadas (مرسـومة) فتعنى مزيفة وغير حقيقية ومرذولة ، وقد أثارت لفظة أسباب الحب المحمود مغطاة Pintadas مخيلة الشاعر من الناحية الصوتية فذكر كلمة " Punto " فى البيت الثانى (٧٥) وهى تعنى نقطة الربط بين النجوم وهى حاسمة فى تحديد الحظ الطيب والحظ العاثر، ولفظة " d icha" وعبارة dicha buena O mala يمكن أن تعنى ببسـاطة " قول " ، ومن الواضح أن معنى عبارة d icha- ventuna يدخل ضـمنيًـا فى السابقة ، ومع هذا فمعناها فى هذا المقام " قول " أو "قول تكهنّى" ؛ فـهناك " منذ أن رأوا النقطة التى ولد فيها {١٣٠} وهذه النقاط النجمـية تلقى بشكلها على " نقاط " بيت الشعر التالى (مجموعات الأبيات مثل النقاط) وهى تراكيب لغوية ذات إيقاع موسيقى معين ، غير أن الموسيقى ليست هى المقصودة بل المعنى، فالنوتة الموسيقية تؤثر على الديوان وتحولّه إلى آلة موسيقية :

أنا الكتاب ، قريب لكل الآلات الموسيقية

وهل النص المشّكل جيد أم لا ، كل ذلك ستعرفه

وكل ما تريد قوله ، ضع نقطة وأبطئ

فإذا ما عرفت تشكيلى سوف تجدنى فى رأسك (٧٠)

وعبارة Statua antiqua or dinis Cartusiensis تساعدنا على حل ألغاز هذه الأبيات ، فالقاعدة الرهبانية تشير إلى أنه عند الفناء يجب حذف التغيرات فى طبقة الصوت التى تجلب البهجة والغناء وعلى الراهب ألا يتوقف عند نقاط وتشبيهات تؤدى بالضرورة إلى الفضول " ولهذا لا يمكن لأحد أن يمسك بنقطة محددة " (٧٦) ولما لم يكن قمصّ إيتا رهبانيًا ولم يكن يعنى بالبهجة " delectatio أو الفضول " Curiositas" فهو ينصح بعكس ذلك ، أى عند " قول" أى التغنى بأشعاره فعلى المنشد أن يبطئ عند القراءة ويركز على مخارج الحروف " وهناك " ضع نقطة و" أبطئ " لكن هذا الكتاب ليس فيه نوتة مثل الكورس ، وبذلك نجد أن تلك المقارنة هى نوع من الدعابة مع المفاهيم الدينية (٧٧) غير أن ذلك ليس بالأمر المهم بل أن يوكل إلى القارئ القيام بعملية التنغيم لمعانى الكتاب على هواه ، وهذه الأبيات هى تعبير خالص عن معايشات الشاعر ويجب التعبير عنها على التوالى : وهو تعبير نابض وحىّ وكلا العنصرين نجدهما فى الأسلوب وفى عصب عملية الإبداع الشعرى ، أما القارئ الناسك الذى انتزع بعض صفحات الكتاب واعتبرها فاحشة القول فهو بذلك يصوغ الكتاب على طريقته ، أما الحسّى فهو آخر ، والكتاب بالنسبة لأحدهما ذو معنى باطنى وآخر ظاهرى ، ولازال العلماء يتناقشون حول ذلك حتى الآن . الديوان إذن هو تعبير صادق عن حياة شعرية (أى العيش شعرًا من خلال الأبيات) وقد امتلأ بالحيوية وتحولّ إلى آلة موسيقية يعزف عليها كل فرد بالطريقة التى شاءوبذلك " يتراقص" العمل على وقع من يعزفون عليه ، ونحن هنا أمام مشكلة الحياة والفن ولا نتحدث عن الأخلاق واللاهوت .

تجربة الوجود فى عالم متذبذب :

كثيرًا ما يطل الشاعر علينا من خلال أشعاره (٧٨) ليرشد القارئ إلى المضمون المزدوج لها ، وينضم بذلك إلى النسيج الشعرى للعمل ويعبر عن وعيه الصادق

بالتذبذبات والغموض الناجم ، وسبق القول بعدم وجود فاصل بين النص والتأويل اللهم إلا إذا قلنا بإبداع المؤلف للنص والتأويل والمنهج التحليلي وهنا نصل إلى ثربانتس رغم أننا لا نصل إلى نص معين أو إلى تأويل أضافه شخص آخر . الأمر الجوهرى إذن هو الشعور بالانخراط فى تيار وقائع يقوم وجودها على تقديم جوانب غير موثوق منها ومتذبذبة.

وقد تحدثت منذ سنوات عن ثربانتس ، وبالتحديد عن روايته دون كيخوته : " يظهر بيننا دائمًا زمرة من السحرة يحركون بها الأشياء ويبدلونها ... فما يبدو أمامك الطشت الصغير (الطاس) للحلاق يبدو فى ناظرى خوذة مامبرينو **Mambrino** كما يبدو شيئًا مختلفًا فى عين فرد ثالث " {الجزء الأول صـ ٢٥} ؛ نجد العالم المحيط بالسيد كيخوته وثربانتس ، مهتزًا سواء كان خوذة مامبرينو أو مفهوم الخير والشر [٧٩] وحتى يتم شرح بنية أعظم عمل إبداعى إسبانى فلن ألجأ اليوم إلى مفاهيم عصر النهضة إلا بحذر شديد وإنّما أركز على الاستمرار الداخلى للوجود الإسبانى وعلى السنوات التى قضاها ثربانتس فى أرض المورويس ، وعندما يتم التوصل إلى المفتاح الشعرى وإلى الروابط التاريخية القائمة " لكتاب الحب المحمود " فلن يصعب علينا إدراك الشبه بين الطرائق الفنية لخوان رويث وثربانتس ، إلا أننا بذلك نقول بأن قمصّ إيتا هو مصدر إلهام ثربانتس .

ومن المعروف أن خوذة مامبرينو وطاس الحلاق ظواهر تحدث فى حياة شخص ما كما أنها قابلة للتناوب مثل كل ما نعثر عليه عند قمصّ إيتا وفى كافة الأعمال الأدبية الإسبانية القائمة على التجربة الوجودية لمن يكتبها فألونسو كيخانو **A. Qujano** ينزلق نحو السيد / كيخوته ، كما أن هذا الأمير يتخفىّ وراء الأول ، وهى نفس الطريقة التى يدخل بها القمصّ فى السيد ميلون **Melón**، ويخرج منه وكذلك الحال بشأن شخصية تروتاكو نبنتوس بدخوله فى العجوز أو فى أورّاكا ، أو ما يحدث بين الحب المحمود والحب المجنون والحسية والدين ؛ فها هو ثربانتس وليس ظله التعليمى يطل علينا من بين صفحات روايته ليبشر بترجمتها إلى كل اللغات ويقول للقارئ إن

عليه أن يشكره كثيراً لا على ما كتبه وإنما على ما لم يكتبه ، وفى الجزء الثانى من الرواية نجد البطل يخرج من عباءة الخيال ليتناقش مع السيد كيخوته المزيف والمسمى كيخوته دى أبيانيا وهذا هو نوع آخر من الخيال المستنبط من الأول ، وهى رواية تعتبر سحراً عظيماً سوف يدخل تجديداً على الأدب الأوربى ، كما أنه سحر يضرب بجذوره فى الأسلوب الإسلامى المسيحى الذى عليه الحياة الإسبانية وهو أسلوب يدخل فى نسيج واحد – فى هذه الرواية – مع الرواقية الجديدة والأيراسمية والكدر الوجودى الذى عليه ما هو إسبانى . واعتباراً من القرن الرابع عشر أصاب الثقافة الإسلامية الجمود غير أنها أصبحت ثقافة عالمية عبر البوابة الإسبانية واكتسبت حداثة وصلاحية واستطاعت خلق آفاق جديدة فى دائرة الإبداع الفنى ، وبدون هذا السحر أو الذاتية المغرقة لم يكن بمقدور خوان رويث أو ثربانتس التحدث بطلاقة عن هذه الأشياء مجتمعة – الروح والجسد والعقل – بنفس درجة الأصالة التى عليها أعمالهما ، ولولا هذا السحر ما قامت القديسة تيريسا بمبادلة وجودها ، بوجود الطفل يسوع المسيح – " أنا تيريسادى خيسوس – وأنا خيسوس دى تيريسا" ، ولم يكن بيلاثكيث بمقدوره أن يرسم لوحة لاس مينيناس" أو لوحة " hilanderas الغزّالات " ، ولم يكن الإسبان ليستخدموا الحرف الكبير عند الكتابة سيراً على نظام معين لا يفهمه العالم المثقف !إذ يكتب صاحب التوجهات الملكية لفظة الملك بهذه الطريقة Rey ، أما الجمهورى فيكتبها بشكل عادى ، وهى نفس الطريقة التى يستخدمها قمصّ إيتا عندما يريد منا أن نفسرّ " كتابه L ibro" طبقًا لدائرة وجودنا ، فالحروف تستخدم وكأنها آلات موسيقية ويتقولب تعبيرها من خلال التضخيم أو التصغير طبقًا للحالة المزاجية والعاطفية لكل واحد .

لقد آن الأوان لنعيد تقييمنا للأدب الإسبانى انطلاقًا من واقعه الحقيقى وأن نعيد إلى التاريخ المتكامل لإسبانيا ماله ، فنصّ " كتاب الحب المحمود " يتضمن معانى مختلفة كما يتضمن الطريقة التى يحيا بها المؤلف وأبطال العمل والقراء هذه المعانى المختلفة . وبالنسبة لرواية " دون كيخوته " فهى كتاب عن الفروسية من حق كل واحد – سواء داخل العمل أو خارجه – أن يفسره ويحياه فى أعمق أعماق وجوده ، قد لَفَتّ

الانتباه – منذ عشرين عامًا – إلى عنوان كوميديا مفقودة لثربانتس وهى "خداع البصر" El engaño a los ajos وربط ذلك بالنسيج الحميم لأعماله الكاملة ؛ ومن هنا كانت بداية الفكرة التى أقوم بإدخال المزيد عليها منذ زمن والقائلة بأن إسهام ثربانتس هو استمرار لعمل بدأ مع Galatea وانتهى بـ Persiles وكل ذلك انعكاس لا يتجزأ للمنظور الفنى للمؤلف ، ولن يؤثر على فكرتى هذه القول بأن رواية دون كيخوته هى أفضل وأبرز أعمال المؤلف ، فالنيل يبدأ مساره العظيم من خلال مصادر ومنابع صغيرة ويمرّ بقفزات غريبة قبل أن يأخذ مجراه العظيم والخصب ثم يتفرع بعد ذلك فى دهاليز الدلتا ، وسوف تكون Persiles دلتا الرافد الشعرى لثربانتس قبل أن تصب فى بحر الخلود ، لكن علينا أن نترك توسيع إطار هذا الموضوع لمقام آخر . والشكر نوجهه لقمص إيتا الذى نادانا وحفزنا للقيام بتلك المهمة الشاقة ، لكنها محببة إلى النفس ، لتفسير وفهم أمر لم يكن قبل ذلك مفهومًا .

وتعدد المعانى فى كتاب القمص أو غموض المفهوم عند خوذة مامبرينو ليس لهما علاقة بإشكالية التعرف على واقع الأشياء ، وإنما هى أنماط حياتية يعيش بها كل فرد الواقع المحيط به والمتصل بوجوده، وليس الغاية فصل ما هو موضوعى بل تبيان أثر الشىء فى حياة الكائن ، وهنا يصبح استخدام العلم مستحيلاً ، ولنتذكر مثالاً عند ثربانتس ، فالفعل { Parecer يبدو } الذى يعتمد عليه أسلوبه ، لا يشير إلى الفارق بين الظاهر والجوهر العقلى بل إلى شىء مثل هذا بما أتى على هذا النحو وأجد نفسى فى هذا الموقف فهذا الشىء يبدو لى على هذا الشكل ، الوجود إذن هو محصلة سلسلة لا تنتهى من " وجهات النظر " (٨٠) ويتم التصرف فى الحياة طبقًا لوجهة النظر بشأن الحالة ، دون فصل " الحالة " عن الحياة ، وهذا يختلف عن اللجوء " إلى وجهه النظر " واستخدامها كوسيلة للوصول إلى (الكينونة " الخاصة بواقع الشىء أو الكائن الموضوعى وفصله عن الظواهر ، واللجوء إلى استخدام " الأنا " العقلى البعيد عن الظروف المحيطة به ، وكأنها مِبْضع قاطع أو جهاز تفكير ، وهذا ما فعله مونتين Mon-taigne : " يتواصل المؤلفون مع الشعب عن طريق بعض الرموز الخاصة والغريبة ، فأنا الأول من خلال شخصى الكونى مثل ميشيل دى مونتين ، وليس لكونى النحوى أو الشاعر أو رجل القانون {{ Essais , III , p.2 }}

ولما كان الأنا قد تجرد وشاع بابتعاده عن المواقف الخاصة بالحياة الشخصية لكل فرد هنا أصبح من الممكن التعرف على الحقائق المجردة والمفاهيم التى تقوم عليها العلوم والتى لا تعنى بآلام المعدة أو اعتلال مزاجية العالم ، ومحصلة ذلك تمثل فى الانتصار الرائع الذى حققه الإنسان الغربى على الطبيعة واكتشاف قوانين الطبيعة ، غير أن ذلك النصر اتسم بالغموض مثل انتصار " الحب الطيب" و" المجنون " فهذا التجريد لم يشمل ما يعتمل فى العقل بل شمل أيضًا الإنسان الموجود ، وأصبح الإنسان مسمارًا فى ماكينة التفكير وفقد سمة ربط الحياة بشخصية ، وبدلا من أن يصبح مهندس حياته تحوّل إلى شاهد غير واع لما يحدث حوله وله ولا شىء يبدو له شيئًا ، وحتى يبدو له هذا الشىء لابد من أن تتحدث عنه الصحف والراديو والكتب أو ضربة موجعة من ضربات القدر ، وانفصلت الأنشطة الإنسانية عن أى هدف ممكن ، وأخذ التجريد العقلى يصب فى عالم الظواهر التى تتسم بسحريتها ونفعها فى دائرة سد الحاجات البيولوجية لكنها ذات عواقب وخيمة على الكبرياء والإبداع الإنسانى .

نلاحظ هنا أن النتائج الأدبية لكلا الاتجاهين مختلفة فخوان روييث يدعو الفرد إلى العمل بكل كيانه :

وهل النص المشكل جيد أم لا كل ذلك ستعرفه (٧٠) .

والسبب هو أن الأمور ليست مؤكدة ـ سوداء وبيضاء وسيئة ـ وما هو أهم من وجودك أمامها . ولّما حدث نوع من التقهقر أمام ذلك الواقع المهزوز نجد أن الفرد المتكامل الذى يعيشه يؤكد ذاته ووجوده من خلاله ، فلما كانت الدنيا تهتز من حولنا فعلينا أن نثبت فوقها أقدام إرادتنا وعزمنا ، وبدون هذه الإرادة وذلك العزم أصبحت قشتالة وإسبانيا اليوم امتدادًا لشمال أفريقيا وليس فيها ثربانتس أو جويًا أو أى من آلاف الأعمال الرائعة الأخرى ، ولقد بزغت الثقافة الفرنسية العظيمة من خلال انغلاق الإنسان على نفسه وعزلته عن الله وعن الدنيا ، ولقد كان لهذين المفهومين نتائج حديثة وقيّمة وبدون الخميرة الإسبانية الشرقية أصبح الأدب الأوربى مثيرًا للضجر ، وأقولها بصراحة أكثر أن لولا ذلك لما كان هناك وجود للمسرح والرواية فى فرنسا [٨١].

ولما كان الإنسان يحمل ظروفه على ظهره ، كأنه الكاراكول المتنقل يحمل منزله ، فهو - من الناحية الفنية - حديث جدا مثل ذلك يظهر جوهره فى ظاهر يخلو من وجهات النظر ومن الظروف التى تفصح عنه ، ومن هنا ندرك سر جمال الحوار الداخلى لأبطال راسين Racine بعد تأكيدات مثل هذه " أنا سيد نفسى مثل الكون " ، وعلى مدى قرنين من الزمان نسيت الثقافة الفرنسية وجود العالم المحيط بنا والذى يسير فيه الناس بأقدامهم ، النظيفة أو القذرة ، ويعانون جوعًا هو لقمة العيش ومعرفة الله والشيطان أحيانا ، وقد أطلق على هذا الفن الذى يخلو من العالم المحيط - إذ كان موضوعه الفكر والمشاعر - " فن الذوق الرفيع " (٨٢) ولو استمرت الاتجاهات الأدبية فى هذا المسار لكانت قد تحولت إلى ألوان الطيف ، لكن - ولحسن الحظ - فتح الأوربى الرومانسى عينيه وهنا عادت للظهور من جديد الحياة الواقعية التى تضم التجربة الحيوية ، فالأشخاص لا تقوم دعاماتها على " ما يجب أن يكون " بل على علاقاتها بالعالم المحيط ، ومن خلالها الوحدة الاختيارية يجتمع ما هو كائن مع ما يُرَاد له أن يكون وقد حدث بينهما تداخل ، وهنا تتم العودة إلى إسبانيا دون أن يدرى المرء أن هذا يعنى العودة إلى أشكال من حياة وعن هذا القمص عريض الرقبة أحد الذين سبقوا ثربانتس ، يقول جوليان سوريل Julien Sorel : " خياله به أفكار شديدة الجموح ، وهذه هى سمة إسبانية أصيلة ، كما أن روحه تجوب السحاب كما قرأ المعلق المذكور أحد كتب الفروسية وهو " مذكرات سانتا إيلينا Memorial de Santa Elena، ويفضل هذه القراءة انتقل نشاطه إلى النثر وإلى الدور الذى يريد القيام به وكذلك ما يشكل جزءًا فى أطر وجوده ، وهنا نتساءل : من هو جوليان سوريل ؟ إنه مثل كل من قمصّ إيتا ودون كيخوته وابن حزم بمعنى أنهم جميعا موضوع لحياتهم الشعرية وحياتهم الواقعية ، وخلف هؤلاء هناك صفوف متراصة من الأشخاص - الشخصيات التى تنفصل عن بعضها البعض وهى وجهان لعملة واحدة كما أنها محملة بالحلم - السهاد الخاص بوجودها ، ومن هى مدام بوفارى ؟ هل هى امرأة من الأقاليم ليس لها ملامح بارزة ؟ وهل هى شخصية لقصة رومانسية ؟ فما هو موجود فى كل هؤلاء عبارة عن كائن إنسانى يريد تشكيل وجوده من خلال قيامه بالعزف على " آلة " العالم على

طريقتـه أى " العالم كله " ومن هنا نجد من الضرورى نفاذ الكائن الحى فى المنطقة التى أبدعها من خلال باعثه الحيوى ويأمل من خلاله تحقيق وجوده بين الرجاء وخيبة الأمل ، ونجد ذلك بشكل متناثر ومتشابك فى " كتاب الحب المحمود"

إذا ما أراد البعض (أى إذا ما بدا لهم الأمر جيداً) الإفادة من

الحب المجنون فسوف يجدون بعض الوسائل لتحقيقه (صـ ٦)

الباعث الحيوي والقدرية والشخصية :

لا يتضمن هذا الكتاب مجرد خيالات ورسوماً متحركة فى تحولات دائمة لا تتوقف وانتهى الأمر، وإنما هناك شيء يستكن خلف الألوان والمشاعر والشخصيات والمعانى وهذا الشيء ليس مجرد ظاهرة أرابيسك بل هى التوجه أو الباعث الحيوى الذى يعبر عنه أى كائن حى لو دبت فيه روح الحياة بما أودعه الله فيه من مصير محتوم لوجوده ، ويتم التعبير عن وجود كل واحد من الداخل ومن هنا تظهر لها ملامحها" -Carac ter أو أنها شاخصة وليست موصوفة أو مسرودة :

جاء التيس الجبلى ومعه اليحامير والحمام المطوق

يرغى ويزبد ويطلق تهديداته (١٠٩١)

فالرغو والزبد والعنف الصادر عن ذلك الحيوان هى الصادرة عنه وليست تلك التى يطلقها عليه الشاعر ، ويأتى الثور بعد ذلك فهو حيوان قد كلّ من حرث الأرض

أتى الثور ذو الخطى الوئيدة ، الجار العجوز (١٠٩١)

ذلك أنه استخدم صفة الملكية للغائب المفرد [Su] بكل ما فيها من قدرية ، كما أن الصفات وأدوات التعريف والتنكير تسهم فى خلق شخصيات حية كاملة الملامح بحيث تتوافق معها حدقة العين .

أنا كالحمامة نظيف وضئيل

أنا الديك حيوى ووديع (٥٦٣)

ولا توجد روشتة لأى من المفاهيم الشعرية للعصور الوسطى ، يمكن أن تساعدنا على فهم فن ملىء بالحيوية كهذا .

لم يُتح الأخطبوط للديوك الحركة

فلما كان متعدد الأذرع يمكن الصراع بكثير منها (١١١٦)

ويظهر كل كائن حى وقد خلقت فيه السمات التى تميزه (٨٣) وليس هذا على الطريقة التى يمكن أن يكون رجل الأخلاق أو رجل الطبيعة قد صورها بل من خلال تطويرها بالتعبير عنها من الداخل نحو الخارج كما يطلب موافقتنا وتأييدنا له ، و لا أعرف أعمالاً لا تنسب إلى نفس الفترة وبها تظهر تلك الملاحظات مليئة بالحيوية والدعابة دون أن يشعر المرء أن الشاعر قد أضفى عليها تلك السمات :

كان هناك فارسه المتواضع ، رث الهيئة

مصابًا بطعنات فى ركبتيه ويده على البرميل (٠٩٦)

انطلق الجميع مهاجمين وهم يرددون " هيا

وكان أول من أصاب كانال (١١٠١ - ١١٠٢)

كان " التّن" يتنقل كأنه الأسد

فالتقى بالسيد " توثينو"وسبّه

ولولا " ثيثينا " التى غيرت اتجاه السهم

لأصاب السيد " توثينو " فى القلب (١١٠٦)

Estaba delante [de don Carnal] el su alférez homil,

el inojo fincado, en la mano el barril;

tan?a a menudo con él el añafil (1.096).

Todos amodorridos fueron a la pelea ...

El primero de todos que ferió a don Carnal

Fue el puerro cuellialvo (1.101 - 1.102)

Aí andava el atún como un bravo león,

Fallóse con don Tocino, díjole mucho balaón;

sinon por doña Cecina quel desvió el pendón,

dierale a don Lardón por medio del coraçón (1.106).

تتضمن المجموعة السابقة {رقم٢٣} حروفًا متحركة هى (o u) منها عشرة عليها نبـرة (acentuadas) وهذا مـا ينسـجم مع لفظة atún ومع أهـميـة دوره وخطورته فى الصراع ، وخلافًا لتلك المجموعة من الأبيات نرى تلك الأخرى رقم {١١٠٥} .

كان ثعبان الماء يأتى من بلنسية

مُمَلّحلاً ومتبّلاً بكميات كبيرة

ليضرب السيد"كارينال"فى ضلوعه الكبيرة (٨٤)

كما يُجْلبَ سمك"الترونشا" من ألبرتشى ليضربه

فى خدوده (١١٠٥)

De parte de Valencia veníen las anguillas,

salpresas e trechadas, a grandes manadillas;

davan a don Carnal por medio de las costillas,

las truchas de Alverche dávanle en las mexillas.

فأسماك الأنجيلا anguila توجد في جماعة تتسم بانسيابيتها وهروبها (في مجموعات كبيرة) كما أن واقعها خارج الماء (مُملّحة ومتبلة) وهذا يتوافق مع السياق الأسلوبي الذى هو الغموض الناجم عن الازدواجية التى تعم أرجاء الكتاب ، أما شكل هذا النوع من السمك - الخفة وصغر الحجم - فيسحب على باقى الأشياء المحيطة به كما يلاحظ فى الأحرف المتحركة ذات الطابع الأنثوى وهى e و a ذات النبرة بينما نجد حرف o وقد تكرر مرتين بدون النبر ، وكذا الحرف u؛ إذن فاللغة كشكل هى أحد عناصر اللعبة الفنية التى يديرها ذلك الأستاذ المحترف . وكل ما كان هنا نجده ينتشر على شكل صفات وإيقاعات صوتية من خلال الحروف المتحركة وكأننا نتأمل كوناً صغيراً متكاملاً مع وجوده الخاص به ، وتصل السيمفونية الكلامية إلى ذروتها عندما تكون الموسيقى موضوع معايشة الشاعر :

الربّاب الصادح بإيقاعاته العالية

هناك موسيقى موريسكى يعزف ويواصل طريقة

ومعهم كتاب المزامير أعلى من البقعة (Mota)

نغمات عذبة وواضحة أُجيدَ عزفها

آلة الأرب والناى والمزمار الملىء بالهواء .

El rabé gritador, con la su alta nota...

La viuela de arco faz dulces devailadas,

adormiendo a vezes, muy alto a las vegadas,

bozes dulzes, sabrosas, claras e bien pintadas (1.229- 1231).

El finchado albogón...la reclancha mandurria 1.233).

هذا الانفجار للواقع الحيوى وذو الطابع الإنسانى هو إبداع فريد على يد خوان رويث ، غير أن الإبداع قد يصبح مستحيلاً إذا لم يقم التراث العربى اليهودى بوضع أكاليل القيم على كل ما هو مُحَسّ . ولقد كانت الحياة سلسلة من الانطباعات الحسية والجميلة فها نحن نلاحظ التناغم الموسيقى لعبارة **a las gentes alegres todas las tiene pagadas** (١٢٣١) ويترك الشاعر الفنان العنان لنفسه فى هذه المُتَع، وإذا ما اقتصر تعبيره على التراكيب الغنائية وتقديم عالم من الأطياف وتموّجات الجمال لَماَ تعرض فنه لأيّة عقبات ، لكننا أمام حالة يُرَاد من خلالها إدخال الأحداث الإنسانية وهذه تتطلب دعامة أخلاقية وغاية وطريقًا لتحقيقها ، وهنا يتوه العمل فى تعرّجات ودهاليز ، ومن السهل على الشاعر أن يحدد نواحى الجمال فى المحسات دون الدخول فى لعبة معرفة صاحبها أو السبب فيما هى عليه والغاية من ورائها ، غير أن الصعوبة تبدأ عند إدخال الحياة الإنسانية فى هذه اللعبة الممتعة ذلك أن من الضرورى توجيهها وتوقّع ردود أفعالها ، وكل ما يعرفه قمصّ إيتا هو أن النجوم تتدخل فى حياة الإنسان طبقًا للنجم الصاعد وباقى النجوم / المحيطة به تعرف القليل ذلك أنه قائدهم (١٢٤) كما أن خوان رويث لا يفهم من كل هذا إلا كما " يفهم ثور ديسن " {١٥١} ، ولمزيد من التعقيدات هنا أمور مشروعة وأخرى غير مشروعة من الصعب الجمع بينهما وبين الميل " إلى الأنثى الجميلة " {٧١} وهؤلاء النسوة الفاتنات "الراقيات " يجدن أنفسهن تحت وطأة الأخلاق القشتالية ، كما أن المسلمين الذين لا يثقون فى الآخرين يحافظون على هذا الصنف منهن ، وهنا من الصعب اختراق الحواجز المفروضة ، ولأول وهلة نجد بعض العقلاء الذين يكشفون عن " الطهارة " ويفشون أسرار كل شىء ، وأحيانًا ما يتدخل القدر وينتزع المحبوبة بموتها فالحياة والحب كلاهما غير آمن ، وهناك رُسُل غير أمناء ينتظرون الفريسة لينقضوا عليها ويتركوا العاشق بذلك فى موقف لا يحسد عليه ، ويفقد الشاعر العاشق القدرة على تحديد معالم الطريق فلا شىء مؤكدًا فى عالم المواقف التى تحمل الوجهين ومن هنا يُفضل اللجوء إلى التزام الفراش بدلا من الخروج والقيام بالمغامرات :

الفـتى مـريض ، الفـتى مـريـض ، والأفـضل المرض على
العافية (٩٤٥)

ذلك أن المحصلة هى " السمعة والشهرة التى لا تخفى وراءها إلا القليل "[٩٤٦]
ومن هنا نجد أن البعد الأخلاقى فى الكتاب ليس له وجهة محددة ، ففى بداية الأمر
نلاحظ أن " الحب المحمود " لابد أن يشكل " داخله"، أما الحب المجنون فيتولى "
خارجه " غير أن المحمود والمجنون هما مثله الأبيض والأسود مثل نبات Ajaeuz حيث
يغطى كل منهما الآخر ، وهذا السّر فى شطحات القلم ويتحول " الحب المحمود " إلى
ما عليه ترويتاكونبنتوس:

بفضل حب العجوز ولقول الحق

حب عفّ سميت الكتاب (٩٣٣)

وهذا ليس نكتة كما يمكن أن يكون ، وهذه هى طبيعة الكتاب من البداية للنهاية،
فمن يدرى أين هو السبب الثابت الذى لا يتزحزح إذا ما كانت قلوبنا تسير على ما قدّر
الله وعلى بعض العناصر الأخرى مثل الفلك والنجوم ؟ ومما لا شك فيه أن حالة اليقين
كاملة عنده فيما يتعلق بديانته المسيحية (هانحن نرى القصائد الغنائية فى مدح
العذراء) كما أن روح الشاعر تطوف وتهيم فى الدروب الأدبية والأخلاقية للإسلام .

وكل ما كتب فى الأخلاق فى إسبانيا المسيحية خلال الفترة السابقة على القرن
الرابع عشر ما هو إلا سذاجة صبيانية إذا ما قارناه بما كتبه ابن حزم فى كتابه "
الأخلاق والسّير " والذى ترجمه لنا أسين بلاثيوس عام ١٩١٦م فلا يمكن أن نعثر فى
أوربا العصور الوسطى على ما يمكن أن يكون على نفس الشاكلة ، وهنا علينا العودة
إلى القديس أغسطين وبلوثينيو وإلى بعض اليونانيين حتى نقرأ شيئًا دقيقًا عن مشاكل
النفس :

" وقد رأيت من غمار العامة من يجرى من الاعتدال وحميد الأخلاق إلى ما لا يتقدمه فيه حكيم عالم رائض لنفسه، ولكنه قليل جداً . ورأيت ممنّ طالع العلوم وعرف عهود الأنبياء عليهم السلام ووصايا الحكماء وهو لا يتقدمه فى خبث السيرة وفساد العلانية والسريرة شرار الخلق وهذا كثير جداً ، فعلمت أنها مواهب وحرمان من الله تعالى (صـ ٢٤ – طبعة اللجنة الدولية لترجمة الروائع ـ بيروت ١٩١٦م (...) التهويل بالتزام زى ما والا كفهرار وقلة الانبساط ستائر جعلها الجهالّ الذين مكنتهم الدنيا أمام جهلهم (صـ ٢٧) أشبه ما رأيت بالدنيا خيال الظلّ وهى تماثيل مركبّة على مطحنة خشب تدار بسرعة فتغيب طائفة وتبدو أخرى " (صـ ٢٨) .

وها هى حالة اعتراف على الملأ

" كانت فىّ عيوب، فلم أزل بالرياضة واطلاعى على ما قالت الأنبياء (...) والأفاضل من الحكماء المتأخرين والمتقدمين فى الأخلاق ، وفى آداب النفس أعانى مداواتها حتى أعان الله عزّ وجلّ على أكثر من ذلك بتوفيقه ومَنِّه (...) فمنها تكلف فى الرضا وإفراط فى الغضب (...) (ومنها) دعاية غالية فالذى قدرت على فيها إمساكى عما يخضب الممازج ، وسامحت نفسى فيها إذ رأيته تركها من الانغلاق مماثلة للكبر (...) (ومنها) عجيب شديد (...) (ومنها) حركات كانت تولدّها غرارة الصبا وضعف الأعضاء (...) (ومنها) محبة فى بعد الصيت والغلبة (...) (ومنها) إفراط فى الأنفة يؤدى إلى

إنكاح الحرم جملة بكل وجه وصح ذلك في طبيعتي ( ) ، وكأني توقفت عن مغالبة هذا الإفراط الذي أعرف قبحه لعوارض اعترضت عليّ والله المستعان " (نفس المصدر صـ ٣١ ، ٣٢) .

ويرى أسين أن خيبة الأمل وقعت له أكثر من مرة كانت إحداها مع فتاة كانت تعيش في نفس قصر والده ، وهو يشير إلى ذلك في كتابه " طوق الحمامة " وسوف أنقلها كاملة حتى نرى الحالة التي عليها الوضع الروحي والفني للإسباني المسيحي في تلك الآونة أي عندما يتأمل القطاع الإسلامي :

" وإني لأخبرك عني ، إني ألفت أيام صباي ألفة المحبة جارية نشأت في دارنا، وكانت في ذلك الوقت بنت ستة عشر عاما وكانت غاية في حسن وجهها وعقلها وعفافها ، وطهارتها وخفرها ودماثتها ، عديمة الهزل ، صنيعة البذل، بديعة الشر ، مسلية الستر، فقيدة الذام ، قليلة الكلام ، مغضوضة البصر ، شديدة الحذر ، نقية من العيوب ، دائمة القطوب ، حلوة الأعراض ، مطبوعة الانقياض ، مليحة الصدود ،رزينة العقود، كثيرة الوقار مستلذة النفار ،لا توجّه الأراجي نحوها،ولا تقف المطامع عليها ، ولا معرّس للأمل لديها فوجهها جالب كل القلوب ، وحالها طارد من أمها ، تزدان في المنع والبخل ، مالا يزدان غيرها بالسماحة والبذل ، موقوفة على الجدّ في أمرها غير راغبة في اللهو ، على أنها كانت تحسن العود إحسانًا جيدًا ، فجنحت إليها وأحببتها حبًا مفرطًا شديدًا فسعيت عامين أو نحوها أن تجيبني بكلمة ، وأسمع من فيها لفظة ، غير مايقع في الحديث الظاهر إلى كل سامع ،بأبلغ السّعي ، فما وصلت من ذلك إلى شيء ألبتة .

فلعهدي بمصطنع كان في دارنا لبعض ما يصطنع له في دور الرؤساء ، تجمعت فيه دخلتنا ودخلة أخي رحمه الله من النساء ونساء فتياننا ومن لاذ بنا من خدمنا ، مما يخفف موضعه ويلطف محله فلبثن صدراً من النهار ، ثم تنقلن إلى قصبة كانت في دارنا مشرفة على بستان الدار ويطلع منها على جميع قرطبة وفحوطها مفتحة الأبواب فصرن ينظرن من خلال الشراجيب وأنا بينهن فإني لأذكر أني كنت أقصد نحو الباب الذي هي فيه أنسًا بقربها متعرضًا للدنّو منها ، فما هو إلا أن تراني في جوارها ، فتترك ذلك الباب وتقصد غيره في لطف الحركة فأتعمد أنا القصد إلى الباب الذي صارت إليه فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزوال إلى غيره وكانت قد علمت كلفي بها ولم نشعر سائر النسوان بما نحن فيه لأنهن كن عدداً كثيراً وإذا كلهن يتنقلن من باب إلى باب لسبب الاطلاع من بعض الأبواب على جهات لا يطلع من غيرها عليها . وأعلم أن قيافة النساء فيمن يميل إليهن أنفذ من قيافة مدلج في الآثار . ثم نزلن إلى البستان فرغب عجائزنا وكرائمنا إلى سيدتها في سماع غنائها ، فأمرتها فأخذت العود وسوّته بخفر وخجل لاعهد لي بمثله ، وإن الشيء يتضاعف حسنه في عين مستحسنة، ثم اندفعت تغني بأبيات العباس بن الأحنف حيث يقول :

إني طربت إلى شمس إذا غربت	كانت مغاربها جوف المقاصير
شمس ممثلة في خلق جارية	كأن أعطافها طي الطوامير

... (صـ ٢٠٥ - ٢٠٦)

وهنا نجده ينتقل من النثر إلى الشعر فيكتب بيتين يفصح من خلالهما عن هرب المحبوبة مثل تلك التى اتفق معها على موعد عند الغروب ،

ويصف لنا قيام عائلته بالانتقال إلى مكان آخر فى قرطبة فى نهاية فبراير لعام ١٠٠٩م ، وكانت فترة تهاوى الخلافة وبداية الحروب الأهلية التى طحنت أسرته ، فمات والده ، الوزير يوم ٢٢ يونيو عام ١٠١٢م وكانت حبيبته بين النائحات :

" فلقد أثارت وجداً دفيناً وحركت ساكناً وذكّرتنى عهدا قديماً وحبًا تليداً ، ودهر ماضيًا .....، وما كنت نسيت ولكن زاد الشجى وتوقّدت اللوعة وتأكد الحزن وتضاعف الأسف ، واستجلب الوجد ما كان منه كامنًا مجيبًا .... ثم ضرب الدهر ضرباته وأُجلينا عن منازلنا ، وتغلب علينا البربر فخرجت عن قرطبة أول المحرم سنة أربع وأربعمائة وغابت عن بصرى بعد تلك الرؤية الواحدة ستة أعوام وأكثر ، ثم دخلت قرطبة فى شوال سنة تسع وأربعمائة فنزلت على بعض نسائنا فرأيتها هناك وما كدت أن أميزها حتى قيل لى : هذه فلانة ، وقد تغير أكثر محاسنها ، وذهبت نضارتها وفنيت تلك البهجة وغاض ذلك الماء الذى كان يرى كالسيف الصقيل والمرآة الهندية وذبل ذلك النوار الذى كان البصر يقصد نحوه متنوراً ويرتاد فيه متخيراً وينصرف عنه متحيراً ، فلم يبق إلا البعض المنبئ عن الكل ، والخبر المخبر عن الجميع ، وذلك لقلة اهتبالها بنفسها وعدمها الصيانة التى عذبت بها أيام دولتنا وامتداد ظلنا ولتبذلها فى الخروج فيما لابد لها منه مما كانت تصان وترفع عنه قبل ذلك . وإنما النساء رياحين متى لم تتعاهد نقصت ، وبنية متى لم نهتبل بها استهدمت . ولذلك قال من قال : إن حسن الرجال أصدق صدقًا ، وأثبت أصلاً ، وأعتق جودةً ، لصبره على ما لو لقى بعض وجوه النساء لتغيرت أشد التغير ، مثل الهجير والسموم والرياح واختلاف الهواء، وعدم الكنّ ، وإنى لو نلت منها أقل وصل ، وأنست لى بعض أنس ، لخولطت طربا ، أو لمت فرحا . " { ص ٢٠٨ – ٢٠٩٨ } (٨٦) .

ولو أن أحد أبناء العصور الوسطى المسيحية كتب عدة صفحات مثل السابقة لأصبح اسمه بين عمالقة الأدب الأوربى ، {وعليك عزيزى القارئ أن تلاحظ أن ترجماتى

فقيرة كما أنها لم تتضمن الأشعار الواردة فى ثنايا النثر وكذلك العديد من التفاصيل} غير أن الذّواقة فى مجالات التقنية والتعبير عن الجمال الأسلوبى لم يمارسوا هواياتهم لدراسة إنتاج هذا القرطبى ابن القرن الحادى عشر ، كما لم يقم علماء النفس بدراسة هذا المنبع الضخم ، ومع هذا " فالله وحده أعلم بالحقيقة " وأقولها على طريقة المور.

كان ابن حزم يقف أمام قمص إيتا كعالم للجمال واللايقين وعالم القيَم والسعادة والحزن العميق ، ولا يمكن تجاهله أو إدراجه فى دائرة الوعظ ، أما خوان رويث فقد حلّ الموقف من خلال البعد الكوميدى والغموض وهما طريقان مناسبان لتفادى الدخول إلى جوهر المشكلة المعقدة ، ومن هنا نجد الشعر المباشر والذاتى فى طوق الحمامة يعود للظهور من جديد عند خوان رويث فى " كتاب الحب المحمود " كفراغ ملحوظ وما هو عند ابن حزم شعر مفعم بالحياة نجده عند خوان رويث شعراً يتضمن موضوعات وشخصيات مجردّة ، ولا يجرؤ أن يحدد لنا ملامح إنسان يعيش فى زمان ومكان معينين ، والفن عند ابن حزم لابد له أن يفيض كأنه نهر وادى أنه Cuadiana نحو قشتالة الملاحم والمبادئ الأخلاقية التى شكلها " رجال طيبون " هم رجال الكونت فرنان جومث ، وكان يكفى سماع شىء من همهمة تلك الأعمال الرائعة ، التى لم تكن الوحيدة، اليوم ، وهذا الديوان ليس عملاً عربيًا بل مدجنًا مثل الباب المشغول بهذه الطريقة خلال القرن الخامس عشر ، فى المذبح الكبير لكاتدرائية بابيثا Baeza ، وقد باعته إسبانيا ، وهى لا تدرى ماذا تفعل ، للجمعية الإسبانية فى نيويورك . نحن أمام إطار قوطى ومسيحى وأوربى لتغليف زخرفة أرابيسك ذات تصميمات مفتوحة ولا نهائية حيث يتبادل الداخل والخارج المواقع ونقفز من السعادة إلى خيبة الأمل ومن الحب المحمود إلى الحب المجنون ومن دولسينيا إلى ماريتورنس .

وإلى جانب اللا يقين الكوميدى الذى نراه فى " كتاب الحب المحمود " هناك حدْس الحيوية والثبات وهذا ما يعبر عنه لفظ العمل Trabajar" العالم يعمل من أجل شيئين" وذلك حتى يتغذى الإنسان وحتى يجتمع بالمرأة {٧١} وسواء كان الموقف مقصوداً به الدعابة أو لا إلا أن الاشارة إلى أسطورة فى هذا المقام تكشف عن اهتمام المؤلف

بالحياة الدنيا ولا يذكر شيئًا هنا عن الحياة الآخرة التى كان يجب أن تحتل مركز الصدارة إذا ما كانت الغاية تعليمية ، وعلى أية حال فالقمص يعالج أساسًا مشكلة الحياة ويضعها فى دائرة العمل الحيوى رغم أنه لا يتفوّه بشىء بشأن الغاية الدينية ، وهو بعيد عن الاعتراف بأن طاعة الله يمكن أن تكون مهربًا وملجأً لمن كانت له امرأة دميمة أو الزوجة التى لها زوج وضيع {١٦٢٧ - ١٣٢٨} . ولقد تركز الاهتمام الإبداعى للشاعر على عالم الكائنات التى من لحم ودم أو تلك التى يبث فيها الحياة بأسلوبه القوى - مثل الكلب السلوقى الجرىء - فكل شىء وكل حيوان وكل إنسان ينظر إليه من واقع " عمله " الحيوى ، فهناك السيدة / أندرينا وهناك تروتاكوبنتوس والأخطبوط والثور والتونة والآلات الموسيقية ، ولم يتم وصف هذه الكائنات وتلك الأشياء فقط بل تم النظر إليها والإحساس بها والتعبير عنها من داخلها أى كأنها حَديث" من الإبداع والتعبير وهذه فكرة مألوفة لدينا الآن كما أن الديوان يدخل فى نفس الدائرة حيث يرسل لنا نفحات من شعره الجميل والأخاذ وكأننا نرى " الأخطبوط ذا الأذرع الكثيرة وبذلك يتمكن من الدخول فى الصراع "، وهذه الخلفية الحياتية - وهى فى طور الإبداع والحياة - لا نراها كجزء من أى نظام أو محددة على شكل كائنات من لحم ودم ، ولهذا لا نجد " كتاب الحب المحمود " فى شكل عمل مسرحى أو قصص رغم أن به بذورًا وإرهاصات لهما ، هو إذن عمل غريب ويثير القلق ويساعدنا على أن نتلقى ونقترب كثيراً من " عمل " تاريخ إسبانيا الذى شاء له القدر أن يكون بين فرسى رهان: الشرق والغرب .

وهنا من العسير أن نفصل - عند القمص - بين ما هو مسيحى وما هو مشرقى بغضّ النظر عما تعكسه لنا الملامح الأسلوبية ، ونتساءل بالنسبة لغموض شعره : هل السبب فيها هو الذى تحدثنا عنه سابقًا أم أن السبب هو أصداء الإبداع الأدبى العربى ؟

" يقول مؤلف فارسى إن الشعر هو الفن الذى من خلاله
تظهر فيه

المسائل المفترضة والنتائج المترتبة عليها بشكل يجعل الصغير كبيراً والكبير صغيراً ، أو أن يُلبس الصالح لباس الطالح وللباس الطالح الصالح ، ويحدث تأثيره على الخيال فيثير الغضب والهوى وتسمو المزاجية أو تشعر بالإحباط وبذلك يتمكن الشاعر من فعل الكثير فى تنظيم العالم [٨٧]

ومن هنا ندرك السرّ فى الإطراء على " الفتيات الشابات " إذ إن للموضوع جذوراً مشرقيةً لا أستطيع تحديدها الآن .

ويقول شاعر آخر " ليس أمام الشاعر إلا أن يقص الأكاذيب أو يضحك الناس فالشعر يسير على نهج الحياة الإنسانية ونهج الطبيعة وهى أمور تنسب إلى هذا العالم وليست زيفًا بالكامل " [٨٨] كما يعرف المعّرى الذى ولد بالقرب من مدينة حلب (وأحد معاصرى ابن حزم) أن هناك رجالاً حادى الذكاء يطلقون علىّ زاهداً وهم مخدوعون فى تصورهم ، فأنا أسيطر على أهوائى فقد عزفت عن متع الدنيا فلم تعد فى متناولى " [٨٩] وهذا كله من شأنه مساعدتنا على إدراك شىء من التوجه والمقاصد الشعرية للقمصّ بغض النظر عن معرفته بشعر " رجال الدين الجوّالين " وكذا أشعار fabliaux وقصائد الجبليات وكل ما من شأنه أن يجعل منه شاعراً مسيحيًا أوربيًا وإسلاميًا فى الوقت ذاته ، ولهذا قمنا بمقارنة بالابداعات المدجنة ، إلا أن جوهر فنه يكمن فى حيوية وإنسانية موضوعاته ومصدرهما هو الشرق ولا ريب ، ويقول الشاعر الفارسى مونشهرى (القرنين العاشر والحادى عشر) بأن القافلة تسير " وهى تعد الأيام بعدد خطواتها وكأننا أمام رجل يقوم بقياس مساحة من الأرض " كما يذوب الثلج " وكأنه المريض الذى يستهلكه السّل " [٩٠] وبالنسبة للمعرىّ " فالزمن صامت إلا أن الأحداث تعيره صوتًا مرتفعًا وهكذا يبدو أنه يتكلم [٩١] وبقراءة أو سماع تلك التعبيرات بدأت القدرات التعبيرية للقمصّ تأخذ ملامحها .

مغزى تروتاكونبنتوس Trotaconventos

يعكس لنا الاسم [ومعناه التجوال بين الأديرة] روح الترحال التى كان عليها القمصّ وهى تلك الهواية التى تتوافق مع طبيعة رجل يمرّ ببصره على كل الأشياء دون أن يستقر على واحد منها ، وهذا النوع من العيش هو التنقل المستمر من هذا الجانب إلى ذاك سيرًا وهرولة وذهابًا وجيئة ومن المدينة إلى الجبل ومن الريف إلى بحر السيدة كوارسما Cuaresma، وهذه الطبيعة لها ما يقابلها فى العالم المحيط حيث لا يتوقف أى شىء فيه فلا يقر على قرار ولا يجد مرفأ ، وهنا نجد أنفسنا فى مواجهة دوامة الحياة حيث تتشابك الأصوات سواء تلك التى يتم عزفها أو لا ، وتتسم حياة رجل الدين بعدم التوقف من أول صلاة وحتى الأخيرة ، فهناك الذهاب والرواح ، والرقص ورسائل الحب ، ومرافقة السيدة / إندرينا وهى تعبر الميدان ، والقرويات اللاتى يتنقلن من دير إلى دير وفى إطار كل هذا هناك التنقل بين حب الله وحب رجل الدين .

هانحن نرى منظورًا مشوّقًا ، فالانتقال من مكان إلى آخر ومن حب لحب آخر يمكن مقارنته بتنقل الصعلوك من يد سيد إلى يد سيد آخر حيث يتبدى لنا كل واحد بظاهره وباطنه ، كما أن أطباء رواية جوثمان دى ألفاراتشى " هم الشكل الظاهرى للتذاكر الطبية التى يحملونها فى جيوبهم ويوزعونها على مرضاهم : " شفاك الله " فالله وحده هو العليم بجوهر الكائن الإنسانى والجمادات ، كما أن الشطّار المنتشرين فى هذه القصص التى كُتبت خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر هم عبارة عن إسبان غير قادرين على الشعور بتحقيق ذواتهم من خلال البعد البطولى فهم يفتقدونه ، والخلاص هو البحث عن ملاذ من خلال حياة الآخرين أو فى الأشياء التى يتعثرون بها وهم يهرولون فى أرجاء هذه الدنيا الواسعة وهنا يجدون أن لا شىء به موضوعية يمكن الاعتماد عليها فالكرسىّ يتهاوى عند الجلوس عليه وهو نفس ما يحدث للصفات الفاضلة للمحبوبة ،إن كل شىء يبدو شيئًا ولاشىء :

وكثيرًا ما قالت لى العجوز ورددت بألم

يا قمصّ : الجلبة هى أكثر من الجوهر (٩٤٦)

وتشبه التنقلات التى حدثت للفتى فى قصص الشطار مغامرات الحب التى كان عليها القمصّ إيتا أى الانتقال لنفس الغاية وعدم التوقف هنيهة ، ومن خلال قصص الشطار تتم محاولة أخرى لتقديم وتصوير الحياة على أنها حلقات تتراكب على حياة أخرى ، فلم يكن مؤلف قصص الشطار يحاول وصف العادات أو تقديم نماذج لحياة فاشلة أو الهروب زاهدًا فى الدنيا ، فكل من خوان رويث والصعاليك والزهّاد قد حاولوا تسليط الضوء على النمط الوحيد للحياة الذى كان يحيط بهم ولا يتلقون منه إلا الصورة الظاهرية للأشياء والكائنات ، وهنا يَقْبل القمصّ مبتسمًا بالدور الملقى على عاتقه وهو الوثب والهرولة التى عليها جماع ما عنده من تجارب (الأنماط والألوان والأصوات والحركات) فهذه تنتقل به من أحد جوانب الأشياء إلى جانب آخر ، إلا أن المتصوّفة - أثناء القرن السادس عشر - كانوا يغضبون بشدة عندما يواجهون زيف الحياة الدنيا (٩٢) فالإسبانى ابن القرن السادس عشر كان يشعر بالكدر والرضا معًا وهو فى تلك الدائرة التى تركها له البنّاءون والمفكرون فى الدائرة الروحية الإسلامية التى أخذت تشتد و تيرتها باختفاء اليهود من الساحة ، غير أن الإسبانى كانت تحدوه رغبات وغايات غير معروفة فى المشرق وبالتالى فهو لا يقنع ولا يذعن لهذه الأعراض الزائلة والفانية التى خلفّها له تاريخه القدرىّ ، فمسيحيته ، ويهوديته بشكل جزئى ، دفعته إلى البحث عن واقع قيم لم يكن المسلم ليشغل نفسه بها لو غابت عنه، بل يقلق الإسبانى بشأنها وهو ذلك الذى يتقلب تحت وطأة كتب التصوف (عدة آلاف) أو يقف حائرًا أمام مسالك خادعة ؛ وفى " مراكب الحياة الإنسانية، التى قامت قصص الشطّار ببنائها نلاحظ أن البطل الحقيقى ليس هو الشاطر بل العالم المحيط به حيث يؤكد له وبإصرار لا واقعيته وأنه مجرد شىء ظاهرى وغير عاقل ذلك الذى يظن العثور فيه على أرضية أكثر ثباتًا :

من يبحث عن الخبز والقمح ليس له عقل (٩٥٠)

وهو نفس ما نسمعه، فى عبارات أخرى - على لسان دون جوان فى El burla-dor de sevilla.

آه ! لقد تعبت وليس فى يدى شىء

من كثرة ضرباتى فى الهواء .

لقد كنت أشعر دوما أن شخصية تيرسو دى مولينا Tirso de Molina لغز بالنسبة لى فهو راهب جيد ومؤلف أعمال كوميدية نرى فيها أشياء كثيرة ومنها أن مدريد القرن السابع عشر عاصرت الملائكة " الحبالى " ذلك أن " الجمال والبلاط أشياء تبعث على التناقض " ، ولما تعودنا ألا نشعر بالمفاجأة عندما تصادفنا الظواهر الغريبة فى التاريخ الإسبانى قبلنا إطلاق لقب " بوكاشيو الإسبانى " على تيرسودى مولينا ولكن ما هو النمط الحياتى وما هى الدرجة التاريخية الملائمة لنقبل على أساسها وصف المؤلف الإسبانى بأنه بوكاشيو الإسبانى ؟ إننى أعتقد أنه بالامكان أن نطبق عليه ما طبقناه على خوان رويث عندما درسنا تاريخه الحقيقى ، ولنذهب إلى مقصدنا بشكل مباشر ونؤكد أن شخصية دون جوان الذى خلده تيرسو دى مولينا يصبح ذا معنى ومفهوم إذا ما أدخلناه فى إطار حياة إسبانيا الإسلامية أى فى نفس الدائرة التى بها كل من ابن حزم وقمصّ إيتا " وتفتقر نمطية مثل دون جوان إلى معنى فى إطار الأدب القديم أو الأدب الأوربى ، ولقد تهاوت السوابق الفلكورية التى سيقت كبرهان فى هذه القضية ، وأصبحت لا طائل من ورائها ، هانحن نرى السيد / خوان يقفز من حب إلى حب مثله مثل شخصية القمصّ فى الديوان وهانحن نراه يطرح أمامنا جوانب للحب فى أرابيسك لا ينتهى ودون أن يستقر على قرار (٩٣) والنمطية الأولية الممكنة لشخصية مثل هذه نراها فى العالم الإسلامى فى بداية القرن الحادى عشر من خلال كتاب ابن حزم ، كما أتصور أن هذا الكتاب قد سبقه أو لحقه أعمال أخرى، ولقد كان – وسيكون – هناك أناس يتصرفون على طريق دون جوان ، إلا أن الأدب العربى – وبعده جاء الأدب الإسبانى – توافرت لهما الوسائل الفنية لتصوير هذا الحب الفجّ المتمثل فى الانتقال من امرأة إلى أخرى والملل منهن جميعًا ، ولقد أدرك كل من العربى والإسبانى المتأثر بالحضارة الإسلامية مغزى ذلك الأمر على أنه مثل آخر يؤكد رؤيته اليقينية بأن الدنيا عبارة عن ظواهر عارضة وخادعة ، كما أن القدرة على التوقف أدبيًا

على حب امرأة واحدة أصبح من سمات الإسبان عندما احتكوا بالأدب الإيطالى والأدب الأفلاطونى الجديد خلال عصر النهضة (جارثيلاسو و ايرّيرا..) ، وبالنسبة لموضوع الحب خلال العصور الوسطى نجده إما غائبًا وإما مصورًا على أنه سلسلة من التجارب المتعاقبة وكأنه حلقات شبق و غلمة ، وهذا ما يحدث من خلال " كتاب الحب المحمود " ومن خلال قصائد النساء الجبليّات لماركيز سانتيانا . Marqués de S.

ولقد دخلت الدونجوانية الفنية (فمحاولات التحليل البيولوجى لدون خوان ليست إلا سذاجة) عالم الإبداع الأدبى لمزيد من اليقين بأن كل مظاهر الواقع ما هى إلا خادعة ويجب ألا نعتمد عليها فى خياراتنا وإلا فإننا نَضع أيدينا على سراب:

وعلى صفحة المياه كان ظله يشبهه

فأراد أن يأخذ منه قطعة اللحم فسقطت التى فى يده

من خلال الظل الكاذب وحرصه الخادع

فقد الكلب قطعة اللحم من بين أنيابه (٢٢٦ - ٢٢٧)

كما أن ذلك الفتى الجرىء الذى طلب من والديه زواجه بثلاث نساء انتهى به الأمر إلى أن نصف واحدة تكفى ... وسيرًا فى هذا الطريق بدأت عملية مغازلة النساء وخداعهن تأخذ بعدًا إنسانيًا وشعريًا ، فالمخدوع الأساسى هو نفسه الخادع الذى ملّ وتعب من كثرة توجيه الضربات فى الهواء فمحبوبات " نموذج دون جوان " وهو أبو عامر كن يعبون من خلال وجوده وكأنهن أخيلة اللمبة السحرية التى تتعاقب فى مقلتى ابن حزم ، وهو ذلك الرجل الذى يكتب عن الموضوعين من منظور إسلامى لكن علينا أن ننقل هذه الفقرات الرائعة .

" ولقد كان أبو عامر المحدَّثُ عنه ، يرى الجارية فلا يصبر عنها ، ويحيق به من الاغتمام والهم، ما يكاد يأتى عليه حتى يملكها ولو حال دون ذلك شوك القتاد، فإذا أيقن بتصّيرها إليه عادت المحبة نفارًا ، وذلك الأنس شرودًا ، والقلق إليها قلقًا منها

ونزاعه نحوها ، نزاعًا عنها ، فيبيعها بأوكس الأثمان ، هذا كان رأيه ، حتى أتلف فيما ذكرنا من عشرات ألوف الدنانير عددًا عظيمًا ، وكان (رحمه الله) مع هذا من أهل الأدب الحذق والذكاء والنبل والحلاوة والتوقّد مع الشرف العظيم ، والمنصب الفخم والجاه العريض (٩٤) وأما حسن وجهه وكمال صورته فشيء تقف الحدود عنه وتكل الأفهام عن وصف أقله ولا يتعاطى أحد وصفه ... ولقد كانت الشوارع تُخَلّىٰ من السيّارة ويتعمدون الحضور على باب داره فى الشارع الآخذ من النهر الصغير على باب دارنا فى الجانب الشرقى بقرطبة إلى الدرب المتصل بقصر الزاهرة ، وفى هذا الدرب كانت داره ، لا شيء إلا للنظر منه . ولقد مات عن محبته جوار كنّ علقن / أومهمهن به ، وربين له فخانهن مما أملنه منه فصرن رهائن البلى وقتلتهن الوحدة .

وأنا أعرف جارية منهن كانت تسمى " عفراء" عهدى بها ، لا تتستر بمحبته حيثما جلست ، ولا تجف دموعها ، وكانت قد تصيرت من داره إلى أبى البركات الخيالى ... ولقد كان رحمة الله يخبرنى عن نفسه أنه يمل اسمه فضلا عن غير ذلك . وأما إخوانه فقد تبدّل بهم فى عمره على قِصره ، مرارًا وكان لا يثبت على زى واحد ... وفى ذلك أقول

لا ترجــــــونّ ملــولاً ليــس الملـول بُعــــدّة
ودّ الملـول فـــدعــــه عــارية مـســتــردّة (٩٥)

نعثر عند هذا الأرستقراطى (فريسة الملل) على المصادر الأولية لدون جوان من خلال تراث مكون من سلسلة من الحلقات التى لا يهم أن نراها رأى العين أو لا (٢٦)، فغموض شخصية دون جوان – الصفات النبيلة فى إحدى روافد نفسه والمفاهيم والمشاعر الأخلاقية فى الرافد الآخر – اتخذت الآن طابعًا تاريخيًا مثل الاستعارات الشعرية ذات الأصول العربية التى نجدها عند لوبى دى بيجا و جونجورا وكالديرون .. الخ ، وهذه كلها ظواهر سرعان ما يعثر عليها هؤلاء الذين يعنيهم التخلى عن طريق التجريد التاريخى .

قام تيرسو دى مولينا بوضع دون جوان فى قالب كاثوليكى وصوّره على أنه تناقض درامى مع الناس والمعتقدات السائدة فى عصره ، وقد فعل ذلك على أنه مسيحى وجعله يعيش فى إطار التراث الخاص بعصر النهضة ، غير أن جوهر وأعماق دون جوان لا يمكن فهمهما إلا فى إطار بنية حياتية تتضمن تقابلاً بين العناصر الإنسانية وما هو إلهى ، كما أنها تدخل فى مسار مستمر ومتعاقب ، ويتحول الحاكم Comendada إلى تمثال وكائن به حياة وطيف ميت وحى ، وحامل للرسالة الإلهية ، وشاطر لايفى بكلمته ويخدع دون جوان الذى هو أفضل من ذلك الرجل التمثال – الشبح ، ودون جوان صالح وطالح فى آن معًا إذ هو قادر على التضحية بحياته لينقذ حياة خادمته ، مثله مثل إنريكو فى مسرحية " أُدين بسبب عدم ثقته " من تأليف تيرسو، وهى شخصية مجرم وابن عاقّ . هانحن نرى هذا المؤلف المسرحى وشخصياته ضالعين فى إطار النمط الحياتى الذى كشفنا النقاب عنه عند خوان رويث .

ولقد تخصص الأدب الإسبانى تخصصًا لم يضارعه فيه الأدب الأوربى وهو فن تحويل بعض الشخصيات الأدبية إلى كائنات حية : تروتاكونبنتوس والقوادة ولا ثاريوّ ودون كيخوته و دوليثينا و دون جوان . وقد ظهرت هذه المقدرة وذلك التخصص خلال القرن الرابع عشر ثم خبا نوره مع نهاية القرن السابع عشر (٩٧) وهناك بعض الآداب التى تقدم هذا التخصص ولكن بدرجة أقل بكثير وبشكل آخر ، فالأدب الفرنسى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر وهب كلاً من طرطوف Tartuffe وجارجانتوا gargantúa حياة بصفتهما ملامح لحياة هى النهم والنفاق وليس كتمثيل كامل لشخص ما؛ لكن اللغة الإسبانية تتسم بفقرها الشديد أو عدم قدرتها على إبداع أسماء الأشياء القائمة على أسماء الشخصيات : فاللفظة (Volto) من Volta ايطالية وفرنسية هى mansarde (Mansard) و Silhouette (مــن de Silhuette Etieuare) و ampére (من Ampére) ... أما فى اللغة الإسبانية فيمكن أن نطلق لفظة Churrigueresco (من Churriguerra) على نمط من أنماط الفن ، ولا يمكن أن ينسحب ذلك على ميدان الفكر العلمى أو الأشياء العامة على الطريقة الفرنسية . فالعالم الإسبانى مُتْرع ومفعم بالوعى الشخصى وخال من المحسّات وهاهو يكشف عن ملامحه مرة أخرى من خلال اللغة (٩٨) .

وإذا ما تحولت شخصية أدبية إلى شخصية تتجول فى الشارع فهذا يرتبط بوجودها كشخصية متخيلة وكشخص من لحم ودم أمام عينى القارئ أو المشاهد :

يقولون لك هذه الكلمة لكنهم يشعرون بأخرى

(خوان رويث ٩٥) .

وعندما انتهى ألفونسو باراديناس A. Paradinas من تحرير نسخة من " كتاب الحب المحمود"، فى بداية القرن الخامس عشر ، شعر بذلك العمل على أنه اعتراف شخصى ، ثم أضاف فى نهاية المخطوطة التى نسخها بأن خوان رويث ألف كتابه " عندما أسرَ بناء على أوامر الكاردينال السيد / خيل أسقف طليطلة " {طبعة Duca-min} صـ ٣٢٧ ، وكان باراديناس طالبًا مجتهداً فاتخذ خوان رويث نموذجًا لكائن حى من لحم ودم فهو فى الأربعين بيتًا الأولى يطلب من الله " أن يخرجنى معافى من هذا السجن ... وإنقذنى أيها المخلصّ دون ذنب أو ألم " { ١ ، ٤ } ، ويشير كل من ليو اسبتزر Leo Spitzer وآخرين إلى أن السجن كان سجنًا روحيًا وهو سجن عالم العاصى ، غير أن الناسخ ابن مدينة سلمنقة وغيره كثيرين اعتقدوا شيئًا آخر ، وعليك أيها القارئ أن تلاحظ أن خوان رويث ينسب " هذا الحظ العاثر " ليس فقط لما ارتكبه من معاصٍ، وإنما إلى هؤلاء الذين " خانوه " و" اتهموه " بتهم لا أساس لها من الصحة { ٧ ، ١٠ } . نحن إذن – ومنذ البداية – أمام اللعبة المزدوجة التى تدور على صفحات الكتاب ، فهنا نراها تدور بين العاصى والمجرم وبين الرجل الروحى والرجل الذى هو من لحم و دم ، وإلا لفقد إشارة الشاعر إلى الخونة ومن وجهوا إليه الاتهام ، أى مغزى إذا ما كان يفكر فى المحكمة الإلهية وليس فى محكمة البشر ، فالله لا يحكم على أساس الأقاويل .

وتستمر الشخصية الشعرية فى طريقها الهابط وتصل فى وجودها إلى المستوى غير الشعرى ، وهذا ما نراه فى لوحة " تشييع جثمان كونت أورجاز El entierro del conde de Orgaz للجريكو Greco حيث يظهر الجسد الذى صعد للأمجاد السماوية وهو يحوم حول جثة ذلك الكونت ، وبذلك تدخل شخصية خوان رويث فى دائرة

المعروفين عندما يقول " اللهم أدر الدائرة على من اتهمونى " {١٠} هو نفس ما يحدث عندما يعلن أنه أجهل " من ثور الجّر " {١٥١} ؛ وهنا نجد القارئ وقد وضع نفسه على مستوى هذا الكائن المرئى والمُحَسّ ويتخذه كشخص من لحم ودم يتحدث مستخدمًا ضمير المتكلم ، وعندما يطلع القارئ على العمل سوف نجد البُعدين أى النمط " القنطورى " وهذا أهم بكثير مما لو كان القمصّ هو السيد خوان رويث بالفعل والذى سجنه أسقف طليطلة أو لم يسجنه .

ومن خلال نفس البوابة التى مكنت القمص من الهروب من مخدعه الشعرى (٩٩) فقد ظهر فى صورة رجل دين عريض الرقبة به شبق وغلمة ، ثم خرج كل من تروتاكونبنتوس والقوادة من نفس البوابة بعد ذلك ، ومهما فعل المنطق العقلانى فى وضع هذه الشخصيات فى إطار موضوعات غير شخصية فلن يجدى . ولقد صدقت تلك المرأة غير العاقلة – زوجة الـ Corbacho عندما خرجت عن شعورها لأنها فقدت دجاجتها إذ أخذت تصيح وتطلب بأن ينادوا " تروتاكونبنتوس أو ابنة عمى أن تأتى وتدور على البيوت بيتًا بيتًا لتسأل عن دجاجتى " ، كما نجد بلذاك – أثناء النزع الأخير وعندما أخذت الحقائق الكبرى تطل برأسها – يطالب بحضور طبيب رواياته الدكتور بيانشون Bianchon كأمل أخير لديه

وعندما يتم الخروج عن الإطار ، تتحول تروتاكو نبنتوس إلى تروتاكونبنتوس : " يقول بارمينو Pármeno فى القوادة : إن أقصى ماآلم له هو أننى أتيت على يد تروتاكونبنتوس هذه بعد ثلاث مرات .. " {الفصل الثالث} وإذا لم تكن زميلتها ثيلستينا " القوادة " قد حجبتها لكانت " تروتاكو نبنتوس " قد أصبحت الاسم الذى يطلق على القوادة باللغة الإسبانية ؛ فالأسماء ذات الأصول الأدبية (باستثناء دون كيخوته) هى تعبيرات ومسميات لأنماط توجد : ثيلستينا – القوادة ، لا ثاريوّ – من يقوم بقيادة الأعمى ، والسيد خوان – مخادع النساء .

وما يهمنا الآن هو تحليل الجذور العربية للقوّادة alcahueta وما تفّرع عنها alsabuete, alcabote, alcayuete, وبالثنائى الثانى diptongo للفظة al-qwwâd

(بالإسبانية العربية Caguîd المشتقة من (qawwçd –al) تمت مساواته بالثنائى الخاص بلفظة Puertaوتم التعبير عنه وكأنه حرف متحرك " O"بالقطلانية والبروفنسالية والجليقية وهى لغات لا تظهر فيها الثنائية عند هذا الحرف المتحرك { القطلانى arcabot، الجليقى alcayote و البرفنسالى alcaotو [alcavot، وقد أطلق لفظ القواد على ذلك الذى يقود جواداً قدمه صاحبه كهدية ، ولما كان ذلك وسيلة لإظهار رقة الزوج للوصول إلى قلب المرأة فقد تحوَّل المعنى إلى مفهوم الغواية (١٠٠) .

وعلى هذا يجب ألا نبحث عن نموذج تروتاكونبتوس فى الأدب اللاتينى بل فى التراث العربى وفى الحياة الإسبانية التى تداخل فيها ذلك التراث ، " وهناك آخرون يحاولون الغواية {غواية النساء} ويطلق عليهن قوادات .. .. {كتاب القوانين – القانون السابع – المادة السادسة فقرة ٥ } ويصبح مديناً بالعار ذلك الذى يقوم بحض النساء وغوايتهن للاتصال بآخر " {نفس المصدر – فقرة ٤} وذلك الذى يقوم بغواية امرأة متزوجة أو عذراء أو ترهبنت فعقوبته الإعدام " {القانون السابع – المادة الثانية عشرة – فقرة ٢} كما تشير نصوص قانونية أخرى إلى الربط بين القوادات والعارفين والمشعوذين الذين يمارسون السحر ،

وقد رأينا أنه خلال القرن السابع عشر تم طرح الموضوع من منظور ساخر وهذا ما رأيناه أيضًا مع سانتياجو ، كما أن أسباب الحياة التقليدية كانت موزعة آنذاك بين وجودها وباعث وجودها عند النظر إليها من زاوية البعد الاجتماعى ، فقد كان " المجتمع " الشخصية الجديدة لعصر يتم فيه النظر إلى التراث نظرة إجلال أو نظرة استنكار أو أن يزول عندما يتم تحليله اجتماعيًا ، ويرى ثربانتس أن وظيفة القوادة لابد أن يقوم بها " أناس من ذوى أصل طيب وأن يكون هناك رقابة على هؤلاء (الجزء الأول صـ ٢٢) ، إذن هناك وعى " اجتماعى " بدور القوادة ، وبمفهوم الشرف والدين والنبل والسياسة المعاصرة ومن هنا أمكن لثربانتس أن يعبر عن موقفه بسخرية ، وبعده نجد لوبى دى بيجا يقول " لابد أن توجد / وأن يكون لها أجر ، وحسنة السمعة / هؤلاء وسيطات الحب / لأخذ الرسائل وجلبها " (١٠١) وعند وجود تحليل " ساخر – منطقى "

(وهو نقد ظاهرة الحكم العقلى نقوم عندئذ بتفكيك التشبية الخاص بالموضوع ، فالتشبيهات المتعلقة بالموضوع الاجتماعى تسجل زلزال زواله وقد رأينا قبل ذلك أن سانت ياجو يتحول إلى سان-تراجو San-Trago ، وهانحن نرى تيرسو يطلق على القوادة " ميدكوريو " أما كالديرون فيسميها " رجل أعمال كيوبيد Cupído.

وظلت وظيفة القوادة باقية حتى بداية القرن السابع عشر كسلوك موروث ، ليس عن أوفيديو ، بل عن التراث العربى ، ولقد قام لوبى دى بيجا بكتابة رسائل الحب لدوق ديسيسًا Sessa طوال عدة سنوات : وقد كانت هناك قوادات فى مسرح حياته وفى حياة مسرحه على أساس وجود علاقة بين الحياة والفن وكلها تذكرنا بعالم " كتاب الحب المحمود " ، والجديد فى الأمر هو أن نمط الحياة ذلك قد تحوّر وسط طقس لم يكن موجوداً قبل ذلك وبواسطة الوعى بالمجتمع " الاجتماعى " ، وليس مجرد البعد الدينى والقانونى أو السياسى ، ولقد أصبح التعايش بين الإسبان مشكلة فى حد ذاتها وبالتالى لا مناص من مواجهتها .

وعودة إلى ديوان خوان رويث نرى أن موضوع القوادة يحدث كظاهرة فى الأدب العربى وكإشارة إلى شىء يعرفه القارئ أو المستمع اللذان تعوّدا على تلك المرأة الموريسكية التى تطوف فى الشارع وتضرب الدف وتعرض بضاعتها وتدخل البيوت إما لتلقى رسائل وإما لتوصيلها ، وهاهو الخيال يصافح التجربة فى تواؤم عجيب مثلما هو الحال فى النماذج العربية السابقة ، فقوادة كتاب " طوق الحمامة " تعيش فى أشعار ابن حزم وفى مفاهيمه عنها وفى مدينة قرطبة :

رسولك سيف فى يمينك فاستجد حُسامًا ولا تضرب به قبل صقله /
فمن يك ذا سيف كَمهم فضرّه يعود على المعنى منه بجهله (٩٧)

وما أكثر هذا فى النساء ، ولا سيما ذوات العكاكيز والتسابيح والثوبين الأحمرين. وأنى لأذكر بقرطبة التحذير للنساء المحدثات من هذه الصفات حيثما رأينها . {صـ ٩٧ } .

ولقد كان خوان رويث يعرف هذه المعالجات الأدبية أو تلك الخاصة بالموضوع القديم الآتى من المشرق [١٠٢] كما أن الأسلوب الذى يتخيله به مشرقى أيضا ، فالعجوز هى وسط بين التجريد والغموض الذى عليه الاسم كما أنها شخصية لها ملامح وتصرفات وتجرى حوارات مع أشخاص آخرين، وهذه الشخصية التى تدخل فى أطُر كثيرة هى واحدة وأكثر من واحدة فى آن معًا سيرًا على النموذج الشرقى فاسمها أورّاكا أو تروثاكونبنتوس، وهناك شعور بأن اسمها معروف وشائع :

وهؤلاء القوادات تفعلن الكثير (٤٤١)

وقد بحثت عن تروتاكونبنتوس بعث إلىّ الحب (٦٩٧)

كانت عجوزًا جوالة تبيع الحلى (٦٩٩)

الجوالة تقرع الأجراس

وتعلن عن الحلى التى تبيع والدبابيس

وتصيح منادية " من يشترى هذه الملاءات ؟" (٧٢٣) [١٠٣]

ويتضمن البيت الأخير ملامح غامضة وعامة لها غير أن ذلك يتم إصلاحه عند النداء ، فالصياح لبيع الفوط ليس أمرًا غير محدد مثل " هؤلاء اللاتى يبعن الحلى " .

أما هذه الشخصية فتكتسب حياة من خلال ما نعتبره أول محاولة حوارية سردية باللغة الإسبانية، ففى القصة القصيرة De amore التى استخدمها القمصّ فى المشهد الخاص بالسيدة أندرينا (تسمى جالاثيا فى النص الأصلى) نجد أنها ليس لها أم أما هنا فالسيدة أندرينا هى آبنة السيدة راما Rama وبذلك تطل علينا من خلال مشهد درامى – قصصى ، وهذا شئ فريد خلال العصور الوسطى الإسبانية ، فالعجوز تخترع حجة لدخول منزل السيدة / راما ، وقد لجأت إلى المنزل بعد أن تقطّعت أنفاسها هربًا من رجل ضخم الجثة أخذ يطاردها طوال اليوم حتى تعيد إليه قطعة حلّى سلمها لها لتبيعها ، لكن العجوز لا تفهم هذا النوع من المطاردة فذلك

الرجل غني جداً ، ولما شغلت السيدة راما نفسها بفهم هذه الحكاية خرجت إلى الشارع لتتحرى الأمر وترى ذلك الرجل ، وهذا هو"البعد النفسي " الذى خططت له العجوز لتنتهز الفرصة وتتحدث مع الفتاة على انفراد .

ذهبت إلى منزل الفتاة وقالت : " من يقيم هنا ؟ "

فأجابت الأم " من ينادى ؟

-" أنا السيدة راما ، ألجأ إليكم لتغيثونى

وإن سحرى الأسود لا " ينزاح عنى "

فقالت السيدة راما " هل أتيت كصديقة ؟

كيف آتى يا سيدتى ؟ لست أدرى ماذا أقول :

أهرول وأجرى هربًا من عدوّى

إذ يجرى ورائى طوال اليوم وكأنه يجرى وراء ظبى

ليأخذ منى قطعة الحلى التى أقوم ببيعها :

ومعه من المال الكثير لدرجة لا تعد .

وبعد أن سمعت العجوز هذا

تركتها مع الابنة وذهبت إلى الشارع (٨٢٤ - ٨٢٧)

ومن الواضح أن هذا المشهد الكوميدى يقوم على الحكايات الموريسكية ويذكرنا بالجو العام " لغواية النساء Enga?os y assyamientos de las mujeres وبعض الحكايات الواردة فى كليلة ودمنة وفى " القواعد الدينية Disciplina clericalis ، غير أن الجديد هو الحوار والأسلوب الشيقّ والجذاّب وحديث المرء من أعماق نفسه باستخدام نفس العبارات الشائعة بين النساء " كيف آتى يا سيدتى ؟ لست أدرى ماذا

أقول " وتظهر العجوز فى زمن ومكان معينين عندما تشير بإصبع لا يُرى إلى " تلك الدعامة " وذلك لقياس قامة الرجل الذى طاردها : " ظل ورائى طوال اليوم وكأنه وراء ظبى "، وهنا نجد نبض الحياة الذى يحاول التعبير عن نفسه .

غير أن الإيقاع الأكثر شيوعًا هوالعام والمجرد

قالت تروتاكونبنتوس : ، من أنت ؟ يا ابنتى يا سيدتى .

من حسن الحظ أن أتى بكم الله هنا (٧٣٨)

قالت تروتاكونبنتوس : إلى العجوز

" ليتهم يحملون لها الصليب والماء المقدس " (٨٤٥)

جاءت إلى تروتاكونبنتوس سعيدة بالرسالة (٨٦٨)

بحثتُ عن تروتاكونبنتوس لتواصل الرحلة

فهؤلاء هم البداية للرحلة المقدسة (٩١٢)

حيث يعود للحديث عن " تروتاكونبنتوس " غير معينة ، وفى البيت القائل " قالت لى تلك العجوز التى تدعى أورّاكا " {٩١٩} نجد أن الكائن المتنقل والذى نحاول تتبّع خطواته قد دخل فى اسم آخر هو أورّاكا ، وبدوره ينّحل فى " أورّاكا تتحدث وتنطق " وهنا تشعر العجوز بالغيظ وتخرج عن إطارها كقوّادة لتدخل فى إطار من يقوم بإفشاء الأسرار .

اغتاظت العجوز لدرجة عظيمة

وبعد ذلك قامت بكشف المستور (٩٢١)

غيرت العجوز من دورها ونمطها ذلك أن شخصها واسمها وتصرفاتها متغيرة ومتلّونة مثل " الكتاب " نفسه .

أعددت أربعة قصائد مديح ، وبها سوف أصنع

نهاية لما أكتب إلا أننى لن أختمه (١٩٢٦)

فالكتاب مفتوح ولا نهاية له مثل العجوز التى يطلق عليها مالا يقل عن ٤٢ اسمًا

{escofina, pala, campana, taravilla, escalera, abeján!} {٩٢٤} {٩٢٧} ، والعجوز هى أيضًا آلة موسيقية يظنها البعض جرسًا ويظنها الآخرون قطعة خشبية ، وهى طبقًا للاسم الذى يطلقه عليها كل واحد : " لا تقل لها طوافة رغم أنها تفعل ذلك لأجلك " ، فالأسماء تأتى من الوظيفة وتطوراتها .

شىء كبير عندى ذكر كافة أسمائها :

فالاسماء والمبهم كثيرة كثرة لا تحصى (٩٢٧)

ووجود العجوز عبارة عن انتشار ملامحها وأسمائها : العجوز أوراكا (الثرثارة) كثيرة الكلام والجوالة وتروتاكو نبنتوس ... أما حياتها فهى مفتوحة مثل القمص (سجين بسبب معاصيه ، وفى سجن القرية) وكذلك كتابه المفتوح على كل ما يراد له أن يكون فيه من خلال القلم ، فلا يوجد فى الأدب الإسبانى ولا فى الأدب العربى شىء تم تمثيله أو التفكير فيه كجزء من الوجود المطلق وله حدود فعلية أو مثالية ، فمحتوى الخبرة الداخلية والخارجية يتداخل ويدخل فى سياق جار ، وقد كان لابن حزم صديق يدعى ابن الطبنى " فإنه كان رحمه الله كأنه قد خلق الحسن على مثاله أو خلق من نفس كل من رآه ، لم أشاهد له مثلاً حسنًا وجمالاً " (١٠٥) ، بمعنى أن الاعتقاد بوجود كائن جميل يقوم بتجسيد فكرة الجمال المسبقة ، يتحول إلى أمر معاكس : أى أن الكائن هو الذى يتحدث عن جماله إلى الفكرة المثالية عن الجمال وينقلها أيضًا لكل من يقابله وبذلك يتحول إلى نموذج للجمال ، والكائنات وما عليه من جوهر ، أى الفكرة التى تجعلهم يدخلون فى دائرة الممكن ، تتحول أخيلة كالتى نراها فى المرآة وقد عكست ما معنى المرآة الأخرى بشكل لا نهائى ، وإذا ما كان الأمر كذلك فليس هناك فارق بين النظر إلى المصطلح " الشىء " كواقع يبرهن على القصد من وراء كلمة وبين ذكر شىء

كمصطلح على القصد فى تحققه من " شىء " تعكسه الكلمة ويعيش فيها ، وهكذا نجد أنه كلما ازداد الشوق للواقع ازداد عدد المفردات ، وتصبح " اللغة " انعكاسًا للرغبة فى الثراء الوجودى ، كما يصبح من غير اللائق تطبيق مفاهيمنا الغربية على تلك الظاهرة رغبة فى الوصول إلى الحقيقة عن طريق تقليص الظواهر غير الثابتة والتمسك بالجوهر الثابت والوحيد ، أو أن الجوهر يتحول عندئذ إلى الهدف الذى ترسمه الرغبة ، وإذا ما نجحت هذه الأخيرة فى " التخمين " والإيحاء بالأشكال أو الرموز التى يحاول بها "ذلك" الذى يوجد للتعبير عن نفسه ، فهنا يبرز أمامنا البعد الفنىّ فى الحياة الإنسانية، فالشاعر لا يقوم بالبرهنة على شىء بل بتخمين وجوده ، وهذا التخمين ليس له معنى إلا فى نظر هؤلاء الذين يريدون القيام بنفس النشاط .

كنا نقول بأن الكلمات يمكن أن تكون زجاجًا شفافًا يكشف أمامنا جوهر الأشياء أو ذوات يظهر من خلالها " ذلك "، ولهذا كلما زاد الشوق والرغبة فى الوصول إلى الواقع زادت المفردات فالكلمة هى وجود يُشع الواقع ودليل على الآثار اللانهائية التى يطوف فيها وجود الأشياء ، وهى بعيدة عن الرغبة فى الوجود فى شخص أو فى شىء أو فى صورة مفرد محدّد يستهدف وضع أساس واقع ثابت ويقينى فى حد ذاته . وهنا نجد ابن حزم يقوم بتفكيك صفات صاحبه و انعكاساتها من خلال ٢٩ إشارة قيمّة دون الالتزام بأى نظام أو تدرّج : الجمال ، ،الحلاوة وشكل الجسد والاعتدال والتحفظ ... والتعقل والرجولة ... وحفظ القرآن عن ظهر قلب وكذا الأحاديث والنحو والكتابة والفصاحة والفقه ... ، يتحوّل ذلك الرجل إلى إشعاعات ، لكنه يبدو جميلاً وكاتبًا أو رجل فقه أو له سمات عديدة أيًا كان المنظور الذى تتأمله منه ، ويجب التعبير عنه من خلال مفردات كثيرة وكأننا نشهد الأخطبوط بأذرعه الكثيرة (كما سبق القول) :

ولما كانت له أذرع كثيرة ، يمكنه القتال باستخدام الكثير (١١١٦)

ويلجأ ابن حزم إلى نفس الوسيلة ليفصح عن هو الصديق الجيد،فبدلا من محاولة تقليصه إلى نقطة مركزية وجوهرية يحوله ويبسطه فى ٨٤ ملمحًا: حلو الكلام وبسيط فى حياته، وهاد فى تصرفاته ... حيث يستقر الصديق فى كل هذه الكلمات ويتحول

جوهره أو ماهيته التى لا يمكن الإمساك بها إلى مجموعة من الأوتار ، وهذا ما نراه فى الماهية الإلهية التى تتبدى لنا من خلال أسمائها (١٠٦) .

والأسماء التى يجب ألا تطلق على العجائز هى نوع من تكرار الأسماء ولكن بطريقة معكوسة وهذه الأسماء ليست استعارات فوراء كل واحدة من هذه الاستعارات نجد أخرى فى سلسلة لا تنتهى ، والبعد الاستعارى هو أقصى شىء متحرك وقابل للانتقال عندما تحاول الانتقال من الاستعارة إلى ما ليست هى ، إذ يتم الانتقال من اسم إلى آخر كأننا ننتقل من حب امرأة إلى حب امرأة أخرى ، التكرار إذن هو وسيلة للتعبير لا تنفصل عن ماهية هذا الفن : " قلت لكم ... سبق أن قلت لكم ... العجوز المعروفة {٩٣٧ ، ٩٣٩ ، ١٣١٧} إلا أن التكرار الملحّ انتهى به الأمر ليقمع كلاً من الكاتب و القارئ ويبين أن هذه العجوز التى يذهبون ويجيئون بها لها كيان واحد حى ، ورغم أن أورّاكا و تروتاكونبنتوس قد تكونان جوانب اسمية لكيان " العجوز " وليس لها أى غاية أخرى مثل " الجرس والثرثارة الخ .. فقد انتهى الأمر باسم تروتاكوبنتنوس وكأنه يشير إلى شخص محدد، ذلك أن خوان رويث استخرج لها شهادة حياة عندما حكم عليها بالموت فى العمل :

أما أنا فأشعر بألم عظيم ولا أستطيع الإفصاح بشىء
ذلك أن تروتاكونبنتوس لم تعد تغدو أو تروح
ماتت عنى وهى تخدمنى وهذا ما أشعرنى بالكمد
لست أدرى ماذا أقول فالكثير من الأبواب الطيبة قد
أوصدت دونى ، وكانت قبل ذلك مفتوحة لى
(١٥١٨ - ١٥١٩)

والأبيات التالية هى تعبير حىّ لدرجة بدامعها فى عيون القراء والمستمعين أنه حقيقى :

آه أيها الموت ، أيها الموت اللعين !

قتلت عجوزى وقتلتنى قبلها (١٥٦٩)

ومن يسمع إنشاد أغانى الأحداث أو الرومانث يدرك أن السيد والملك السيد / سانشو كانا شخصين من لحم ودم رغم أن الشعر يقدمهما بطريقة مختلفة ، غير أن قمصّ إيتا يقول :

آه يا تروتا كونبتوَس آه أيتها الوفية الحقيقية

كان الكثير يجرى وراءك حية وعندما واتتك المنية رقدت (١٥٦٩)

ولِمَ لَمْ تكن هذه الشخصية كيانًا موجودًا بالفعل؟ فالموت والتعبير عن الألم من خلال النواح حولاّ تروتا كونبتوَس إلى كائن حى؛ولم يكتب الأدب حتى يكون هدفًا لمقالاتنا اليوم،فإذا ما ظلت تروتا كونينتوَس تعيش فى جوّ الشارع فهذا له معنى أكبر بالنسبة لحياتها مقارنةً بأى تحليل منطقى آخر (١٠٧) .

والنواح على موت تروتا كونبنتوَس يمثل موقفًا ممكنًا تكون فيه المشاعر موزعةً بين السماء والأرض فى آن معا ، وهذا ما كان مع بدايات ما أطلق عليه الفكاهة الإسبانية؛ فلقد حظيت تروتا كونبنتوس برحمة الله ذلك أنها كانت " جوألة جيدة " و " شهيدة " لأنها ماتت وهى تحارب فى ميدان الحب ، يقول ابن حزم : " وقد جاء فى الآثار : من عشق فعفّ (فمات) فهو شهيد ، وفى ذلك أقول قطعة منها :

فإن أهْلكْ هو أهْلكْ شهيدًا　　　وإن تمنن بقيت قرير عين (صـ ٢١٣)

أى مثل الذين يموتون فى ساحة القتال جهادًا فى سبيل الله ، وتتحول العجوز الجوألة إلى شهيد فى كنف الله مثلما يتحول القمصّ إلى شخص السيد / ميلون دى لا أويرتا .

اين أين ذهبوا بك ؟ لست أدرى

فلن يعود من يسير فى هذا الطريق

حقا إنك فى الجنة ساكنة

مع الشهداء وفى منازلهم

فـقـد كنت فى الدنيـا شـهيـدة فى سـبيل الله (١٥٦٩ - ١٥٧٠)

ويأخذ هذا التحول والتنقل فى السمات بعدا فكاهيًا عندما ينظر إليه من منظور مسيحى ، أما بالنسبة للمسلم فالله " رحيم بالنائحين " سواء فى الحياة الدنيا أو فى الآخرة ، وقد هيأت التوليفة الإسلامية المسيحية لكل من القمصّ وتروتا كونبنتوس أن يواصـلا حياتهمـا خـارج الكتاب وهذا مـا لم يحـدث للشـخـصـيات الأدبيـة فى الآداب الأخرى ، فـابن حزم الذى يطفو فـوق سـحب اسـتـعارته ، هـو الذى كتب أيضًـا " وأنا أخبرك عن أبى بكر أخى (رحمـه الله) وكان مـتزوجًا بعاتكة بنت قند صـاحب الثـغر الأعلى أيام المنصور بن أبى عـامـر مـحـمـد بن عامـر وكانت التى لا مـرمى وراءهـا فى جـمالهـا وكـريم أخلاقـهـا { صـ ٢١٥} . نلاحظ هنا اندمـاج الشـخـصـيـة الشـعـرية مع الشخصية الواقعية مثلما حدث عند قمصّ إيتا فهو " غبى كأنه ثور جرّ " كما يتنقل فى شوارع إيتا وألكالا أوطليطلة سواء كـان كائنًا شـعـريًا أو إشـارة إلى إنسـان من لحم ودم.

ويخـرج مـوضـوع الوسـيط فى الحب ، الذى نراه فى الحـيـاة والقـوانين والأدب الإسبانى ، عن دائرة التأثيرات الآتية من أو فيديو عندما نقوم بالمقارنة الكاملة بكافة تعـقيداتها ، وهذه الظاهرة - مثل غيرهـا من ظواهر أخرى كـثيـرة - لا تنفـصل عن الموقف الحيوى لبلد اختلط بالمور واليهود على مدى تسعمائة عام، ولا يوجد فى الأدب الأوربى ظاهـرة حوّلت أنماطًا أدبيـة إلى كـائنات مـوجـودة ، مـثل تروتاكـونبنتـوس أو ثيلستينا رغم أن موضوع الوساطة فى الحب موضـوع عالمى ، ويمكن أن يكون السـبب

هو أن التعامل مع النساء بالنسبة للشرقى كان يعنى الدخول فى تنظيم معقد ملىء بالصيّغ والدرجات والطقوس ، كما أن كتاب الحب ذا الأسلوب الشرقى لم يكن معروفًا فى اليونان أو روما (١٠٩) كما أن ظهوره خلال العصور الوسطى ليس إلا صدى لمؤلفات أناس مثل ابن حزم ؛ فظل المعصية الذى كان المسيحى (وقبله اليهود) يضفيه على الحياة الجنسية كان أمرًا غير معروف فى الشرق " فالعاهرة الجميلة جمالاً فتانًا والتى تتوفر بها أربع وستون صفة تمثل الصفات المنزلية والفنية والاجتماعية يطلق عليها اسم " جانيكا ganik ، وهى تحظى باحترام الملك ومدح العارفين بالأمر .. وتتحولّ إلى شخصية لها اعتبارها على الملأ (١١٠) .

لا يعيش المشرقى بمفرده بل ينخرط فى دائرة العقيدة الاجتماعية ، ويصبح الشخص بمثابة أعلى جزء فى موجة فى البحر حيث يوجد الدين والثروة والحب ، كما أن العلاقة بالحياة تحميها تواعد وميول ترتبط بالسلالة والطبقة ..الخ ، كما أن الاعتقاد والتوافق هما أساس كل هذا (وفى عالم هكذا لم يكن الملك روبرت الثانى - ملك فرنسا - ليرغب أن يكون هو وذريته من الذين يصنعون الخوارق) ، فالعالم لم يكن يشكل جزءًا من مجموعات اجتماعية يزدريها " الجمهور " ، وإلا لما رأينا { Tales de Mileto { طاليس دى ميليتو } الشغوُف باقتناص ومعرفة ماهية الكون من خلال فكره، فالشرقى كان يعتبر نفسه " مخلوقًا عن طريق الفكر " وليس كائنًا " مفكرًا " ، فالفكر هنا عبارة عن البحث عن الكيفية التى تم فيها التفكير فى شخص .

ومن خلال تروتاكونبنتوس وثلستينا يظهر على المستوى الأدبى طقسٌ من الطقوس القديمة وقد ارتبط بالنمط الكامل للحياة فى وسط وجنوب آسيا ، وهى حياة شاركت فيها إسبانيا على مدى تسعة قرون ، وفرّانتى جارثيا Ferrante Garcia ـ الوسيط الخائن الذى سرق من القمصّ فتاته كروث كروثادا ـ لم يكن ليدخل فى المقطوعة الزّجلية الشهيرة " كروث كروثادا الخبازة " ، وقد تقوْلب فى إطار الأسلوب الشرقى ، إلا أنه لم يكن فى Kama Surta نفس نمط الوسيط الخائن فى عالم الحب المعقد والمتشابك الدهاليز ؛ وهنا يظهر الوسيط بنفسه ، وهو ذلك الرجل أو تلك المرأة التى

تقوم " بدور القوادة لمصلحة شخص آخر ثم تغازل الحبيبة وتفوز بها وتجعل الآخر يشعر بالفشل " (صـ ١٨٩) ، ونشعر بذلك اليوم وكأنه صعلكة ، غير أن الهندى وابن حزم وقمص إيتا كانوا يعالجون ذلك الموضوع وكأننا اليوم أمام حالة خداع مندوب البورصة لأحد عملائه .

كان الشرقى فى بحر الروح مثلما هو حال الغربى اليوم فى بحر المال ،ففى بورصة الحب كانت تروتا كونيتوَس تتصرّف بمهارة كوسيط ، ولم يكن الشرقى أو القمصّ يتصوران العلاقة بالمرأة بشكل مُجزٍ أو حرّ (١١١) بل مرتبطٍ بالعقائد والطقوس المتعلقة بأسطورة جنسية مليئة بالملائكة الأبرار والأشرار (الصديق الصدوق والوسيطة الأمينة والإذعان والحب عن طريق الآذان ومن يكشف الأسرار .. إلخ) (١١٢) وكانت تلك الأساطير ضرورية للعشاق فهى بمثابة الماء للسمك (١١٣) وفى هذا الإطار الشامل يجب أن نفسر سرّ وجود الوسيطة فى الحب فى كتاب القمصّ .

علينا أن ننتهى من تحليل كتاب خوان رويث دون أن نقدم كل واحد من موضوعاته فى إطار صلات بديهية ، كما أن القارئ يمكن له أن يتم الموضوع على طريقته فالرافد المزدوج (الحب المحمود والحب المجنون ، الداخل والخارج ، الشكل البائس والحصيف والفعال .. الخ) هو القانون الحيوى الذى ينبض تحت سطح الإبداع الفنى لخوان رويث ، وأسوق فى نهاية المطاف مثالاً آخر يتعلق بالنقاش الحاد بين الدكتور اليونانى والصعلوك الرومانى ، فهو يرجع بوضوح إلى التأثيرات الشرقية ، كما إنه استمرار لجوانب تهذب وتنشأ فى سلسلة مفتوحة رغم أن القمص قدّمها هنا فى صورة كوميدية ومرحة بعد أن كانت ذات شكل جاد وصارم . وتقرأ فى **Boniumo** أو **Bocados de oro** أن أرسطو ،– خادم نيكوفوريس – **Nicóforis** كان يعرف أكثر من سيده عن أفكار أفلاطون ، وقد سمح له هذا بأن يبرهن على معرفة " فصعد الفتى على المنصة وهو يرتدى ملابس رثة وكان شكله لا يوحى بأنه رجل على قدر كبير من المعرفة، وعندما بدأ الحديث فغر الملك ومن كان معه أفواههم {طبعة **Kunset** صـ٧٨} .

بهذه الطريقة غير المتوقعة يجب عليّ أن أضع نهاية لفصل كان يريد أن يكون كتابًا للتعليق على " كتاب الحب المحمود " لكنه ليس إلا عرضًا لجانب واحد وشديد الارتباط بواقعه التاريخي الحيوي. وقد ظهرت لنا من خلال هذا العمل – ومن خلال الأعمال الأخرى التي قمنا بتحليلها قبل ذلك – البنية العجيبة للحياة الإسبانية

الـهـوامش

(١) رامون منذيث بيدال " الشعر الشعبى P. Juglaresca" صـ ٢٧٠

(٢) يقول ابن حزم فى طوق الحمامة " الحب - أعزك الله - أوله هزل وأخره جد ، دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف ، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة وليس بمنكر فى الديانة ولا بمحظور فى الشريعة ، إذ القلوب بيد الله عز وجل أحب من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين كثير (صـ ٤٧)

(٣) Así dicen los sacerdotes de ls conocida consultatio (véase The Latin Poems commonly attributed to Walter Napes, Th. Wright, ed., 1841, p. 174).

(٤) The Latin Poem commonly attributed Walter Napes, Th. Wright, ed., 1841, pp. XXXIX y XLV, y además el 'Goliae Dialogus inter Aquam et Vinum", p. 78, con sus adaptaciones románicas, p. 299. El tema, según se sabe, se halla en numerosas canciones potatoriae de los Carmina Burana, y de otras poesías medievales.

(٥) وهذا ما يناقض المفاهيم غير الدينية Sine Bacho et Cerere friget Venus" y al Ars" amandi, de Ovidio: ' Et Venus in uinis ignis in igne fuit" (1.244) ويتناقص كذلك مع المفاهيم الإسلامية التى ترى أن الخمر هى عدو للروح ومنغصٌ لما تقوم به من أعمال وكأننا نضرم المزيد من النار .

(٦) Véase F. Lecoy, Recherches sur la Libro de Buen Amor, 1938, pp. 150 - 154.

(٧) The Book of Delight por Joseph ben Meiz Zabara [judío catalán de fines del siglo xII], trad, de Moses Hadas 1932, p. 49.

(٨) نشره M. J. Müller en los Sitzunsberichte der k?nigl. Bayerischen Akademie der Wissenschaftem, Munich, 1960, pp. 201 y ss. وتوجد تلك المخطوطة فى مكتبة الإسكوريال ، كما اكتشفت عام ١٧٩٥م م عند تهّدم بيت فى أجريدا . ومعروف أن الموريسكيين اعتادوا تخبئة كتبهم بهذه الطريقة عندما أوشكت لحظة طردهم ، إذ كانوا واثقين من العودة مرة أخرى ، ولم يضع الناشر تاريخًا للمخطوطة ، لكن من خلال اللغة والأسلوب المكتوب بها يمكن أن يرجع إلى القرن الرابع عشر ، وعلينا أن نضع فى الاعتبار أن الإسبانية التى يتحدث بها الموريسكيون بها جذور أرغنية وقديمة كما أن طريقة الكتابة العربية تحول دون نطقها نطقًا سليمًا .

(٩) I. Goldzieher, Le dogme et la loi de l'Islam, p. 53.

(١٠) Véase Covarrupias, Tesoro; cf R. del Arco, La sociedad española, 1942, p. 645.

(١١) " وهذا من كتاب شهر رمضان وعيد الفطر ثم صغناه شعراً حتى يكون محبباً أكثر إلى المستمعين وينصتون إليه (صـ ٢٠١) .

(١٢) إننى لا أؤكد أو أنفى معرفة خوان رويث للغة العربية ، ولكن الأمر المؤكد أنه قرأ أو سمع بعض الأعمال العربية سواء بهذه اللغة أو من خلال ترجمات لا نعرفها .

(١٣) فهؤلاء كانوا يكتبون أشعاراً مثل هذه "Abbas qui monachum mittit ad curiam, / si non vult perdere stulte pecuniam, / huic prius geminos abscidat, quoniam / castrati proni sunt ad avaritiam". (En F. J. E. Raby, A History of Secular Latin Poetry, II, p. 224.)

(١٤) تُعرف قصة " تودّد الوصيفة " بأنها مشهورة ، وهى مأخوذة من قصة ألف ليلة وليلة وترجع أقدم مخطوطة لها إلى القرن الخامس عشر وهى نسخة من مخطوطة أخرى ترجع إلى القرن الرابع عشر اعتماداً على طبيعة الأسلوب المكتوبة به وقد نشر هذا النص عام ١٨٧٩ على يد H. Knust a Mitheilungen aus dem Eskurial كما يوجد لهذه القصة طبعات كثيرة تبدأ من القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر (انظر منديث بيلايو : أصول القصة ، الجزء الأول - صـ ٦٥) غير أن هذه الطبعات جميعها قد أضفت على النص طابعاً أخلاقياً فخلال القرن الرابع عشر (لا نعرف فيما إذا كان ذلك فى بدايته أو نهايته) تمت الترجمة ، من العربية ، لأعمال كان يمكن النظر إليها على أنها غير أخلاقية خلال القرن الثالث عشر ، ولهذا أشارك منديث بيلايو الرأى فى أن تلك قد لا ترجع إلى القرن الثالث عشر ، ومعروف أن هذه الوصيفة كانت جارية أسرت الجميع بمعارفها واستطاعت جمع الكثير من الأموال وبذلك أوجدت علاجاً لفقر سيدها الذى تزوج بها فيما بعد ، غير أن هذه الوصيفة الشهيرة تعرف أموراً معروفة وعادية بالعربية واعتبرها المترجم ممكنة الحدوث (مترجم القرن الرابع عشر) غير أن الروايات التالية قد تغاضت عنها . فقد كانت الوصيفة تعرف أن مضاجعة المرأة الطاعنة فى السن إثم (صـ ٥١٠) كما تعرف كيفية مضاجعة النساء (...) كما أن نموذج الجمال العربى الذى عبرت عنه تودد نرى شيئاً منه عند رسم خوان رويث لصورة كمال الجمال الأنثوى مثل " العَجُز العريض " (صـ ٥١٤) ... الخ .

(١٥) يمكن العثور على ترجمات لنصوص عربية مثل " ديوان ابن قزمان (ترجم عام ١٩٣٣ إلى الإنجليزية ، وكتاب آخر بالفرنسية بعنوان " الشعر الأندلسى بالعربية الفصحى خلال القرن الحادى عشر (١٩٣٣ بالفرنسية) - وكتاب لجارثيا جومث بعنوان " قصائد عربية - أندلسية " (١٩٤٠ بالإسبانية) - إضافة إلى المراجع التى أشرنا إليها سابقاً .

(١٦) ولم يكن ذلك سيراً على السعادة العقلانية التى عليها أوربا بالعصور الوسطى-Gawdeames igitur, jovenes dum Sumus

(١٧) وهناك اشتقاق آخر هو alegrançar (١٢٣٠) وهو ما لا أعرفه فى نصوص أخرى رغم إمكانية وجوده .

(١٨) كان خوان رويث قريبًا - زمنيًا - من المعارف العلمية فى طليطلة لكنه يجهلها ، وكان يعى ضَعْف معارفه وقد عبر عن ذلك بأسلوب شخصى " : أنا بعلمى الضئيل وجهلى الكثير " (طبعة Ducamin صـ ٥) فلا أعرف علم الفلك ولست جهبذًا / ولا أعرف عمل الأسطرلاب إلا ما يعرفه ثور / غير أنى أرى حدوث تلك الوقائع كل يوم / لهذا أعبر عنها (١٥١) بى غلظة وجهل ولا أجرؤ على المغامرة / اللّهم إلا القليل مما سمعت نقاشًا حوله (١١٣٣) أنا تلميذ على جهله كثير ولست أستاذًا جهبذا / تعلمت وأعرف القليل لأقدمه . ثم يختتم كتابه بعودته إلى نفس الموضوع الذى بدأ به وكأننا نشاهد فن الأرابيسك : أيها السادة ، هاأنا قدمت لكم خدماتى بمعارفى القليلة / وقد تحدثت إليكم بلغة شعبية حتى يفهم الجميع قصدى (١٦٣٣) إذن فهو مَثَل جيد للإسبانى الذى يتعلم من خلال الحوار والشارع (أرى كل يوم القليل مما سمعت الحديث عنه) ؛ ويفخر كذلك بأنه عبقرى جاهل " لكن ترتفع قامته عندما يتحدث عن فنه " قمت بتأليف هذا الكتاب ليكون بمثابة درس مثال فى قرض الشعر (...) (صـ ٧).

(١٩) سوف أذكر هنا نصًا واحدًا . فلقد رفض أبو غالب اللغوى الذى عاش خلال القرن الحادى عشر أن يكتب اسم ملك دانية (مجاهد العامرى) على غلاف كتابه رغم ما عرضه عليه من عرض سخىّ هو ألف دينار ومركوبٌ وكُسوةٌ وقال " كتاب ألفته لينتفع به الناس ، وأخلّد فيه همتى ، أجعل فى صدره اسم غيرى وأصرف الفخر له ؟ لا أفعل ذلك ! " فضائل الأندلس وأهلها " سلسلة ينشرها ويشرف عليها د . صلاح الدين المنجدّ - رقم ٥ دار الكتاب الجديد - ١٩٦٨م - القاهرة - صـ ٣٢

(٢٠) انظر أيضًا المجموعتين رقم ١٠٦٣ ، ١٠٦٤

(٢١) Si fart sudor dunques/ que cum lo sang a terra curren/ de sa sudor las "sanctas gutas" إنه لا يصح قائلاً " Heli heli ... " كما أن العذراء لا تظهر أمام الصليب Bartsch { chrestomathie 1927, P7 – ٩ } أما خوان رويث فتجذبه الصورة الجميلة ليسوع وهو نفس ما حدث للوبى دى بيجا عندما كان شابا " كنت أشعر بسعادة عظيمة عند رؤيتكم طفلاً بين ذراعى والدتكم الجميلة " ، لكن لا تروق صورة " المسيح الذى يقطر عرقًا هو الدم " وهى الصورة التى يفضلها لوبى عندما تقدم به العمر {رعاة بيت لحم صـ ٤٩ – ٥٠} .

(٢٢) كان رفض الحزن والكدر بمثابة انعكاس للشوق للفرح" كن عاقلاً وغير متهور أو حزين أو جامع الغضب (٥٦٣) " الحزن والتنازع يأتيان بالعداء " (٦٢٦) ويقول للعذراء " لقد ألقيت عنك الحزن " {١٦٦٦} " فرجّت عن المكروبين وأزحت الآلام والحزن (١٦٦٨) " لا يحزن أبدًا من أنت فى خاطره " (١٦٨٢) .. يناهض الموت لأنه يقلب الفرح حزنًا (١٥٤٩) وأن تداوى جروحى وأحزانى (٦٠٥) تعقب الحزن الأفراح الغامرة (٧٩٧) .

(٢٣) أو مدفوعون بهذه المصيبة الوضعية (المفيدة وغير الثرية فى الوقت ذاته) التى تسمى بالأدب المقارن (مقارنة ماذا ؟)

(٢٤) للاطلاع على أصداء الأفلاطونية الجديدة عند ابن حزم انظر N y k l صـ ١٠٦ (من المقدمة) التى أعدها لطوق الحمامة - باريس ١٩٣١م . أما فيما يتعلق بجوانب الاتصال الأخرى بين أفلوطين والفكر الإسلامى فى الأندلس انظر : أسين بلاثيوس فى " ابن مسرّة ومدرسته " مدريد ١٩١٤م صـ ٥٩ وما يليها .

(٢٥) حققه صلاح الدين القاسمى - الدار التونسية للنشر (١٩٨٦م) صـ ١٩٨ - ١٩٩ . وحققه أيضاً قبل ذلك الدكتور الطاهر مكى ، غير أننا اعتمدنا على الطبعة التونسية لا لشىء إلا لأنها فى متناول اليد . (المترجم) .

(٢٦) انظر أ . ميث فى " نهضة الإسلام " ترجمة إس . بيلا ص ٢٩٥ - ٢٩٦

إننا نرى تقييم الوجود الإنسانى الذى سوف يتم اللجوء إليه لتجاوز التجريد العقلانى . (...) .

(٢٧) يتحدث الشقندى فى " فضائل أهل الأندلس " الذى سبقت الإشارة إليه (حاشية رقم ١٩) مطاولاً ومفاخراً أمام البربر " هل لكم فى الحفظ مثل أبى محمد بن حزم الذى زهد فى الوزارة والمال، ومال إلى رتبة العلم ، ورآها فوق كل رتبة ، وقال وقد احترقت كتبه :

دعونى من إحراق رقّ وكاغد

وقولوا بعلم كى يرى الناس من يدرى

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذى

تضمنه القرطاس إذ هو فى صدرى ﴿صـ ٣٣ - ٣٤﴾

(٢٨) تحكى امرأة فاضلة ما وقع لها فى السفينة التى استقلها عندما عادت من مكة ، وقصّت ذلك بكلمات لا يمكن لى ذكرها .

(٢٩) علينا أن نلاحظ ابتداءً من الآن أنه انطلاقًا من هذه الزاوية يمكن فهم القيمة الأسلوبية لعبارات خوان رويث التى وردت فى شعره مثل Cambiole la pelleja: a la razón primera (٨٢٧) وقوله la pelleja de le negro hacen blanco cambiando (الأسود يجعلونه أبيض بتغيير لون الجلد) . وهنا نرى أثر موروث غربى غارق فى القدم ، وسوف أتحدث عن ذلك فيما بعد .

(٣٠) أعود للإشارة إلى الدراسة العظيمة التى أعدها لويس ماسينيون " المناهج الفنية لدى الشعوب الإسلامية " فى سوريا - ١٩٢١م - الجزء الثانى صـ ٤٠ ، ١٤٩ . كما أعتقد أن ما ينطبق على الفن عند ماسينيون يمكن أن ينسحب على اللغة ، فالشكل الحيوى لما هو عربى سابق على الإسلام وهذا ما نراه فى الصور البلاغية من استعارة وتشبيه يتضمنان دلالات متناوبة الوجوه مثل الزخرفة الأرابيسك ، وإذا ما نظرنا إلى الأبعاد الدلالية للفظ " هندى أوربى " لأضحى منطقياً وهو أن المفاهيم المختلفة تدور حول مفهوم أساسى بمثابة المحور لها جميعًا ، أما اللغة العربية فالأمر مختلف إذ يتم الانتقال من معنى لآخر وكأننا نشاهد ضفدعة تقفز هنا وهناك بشكل يلغى فكرة وجود نقطة انطلاق (...) .

(٣١) انظر ديوان الفرزدق .

(٣٢) كما نجد هذا المزيج المكوّن من الشعر والنثر فى اللغة اليونانية (...) غير أن W.von christ يقول " إن هذا المزيج الأسلوبى ، وبهذا الانتشار ، ليس يونانياً بل مشرقياً ويذكرنا بالمقامات العربية Ges-chiche der griechischen Literatur 192, P 89، ومن المعروف أن المزج بين الشعر والنثر أمر معتاد عند الكتاب العرب واليهود فى الأندلس (...) ورغم أن حجة فون كريست قد لا تؤكد لنا بأن تلك الظاهرة غير يونانية بل هى مشرقية فإن الاختلافات بين ابن حزم وبوكاشيو عميقة فهذا الأخير لا يمكن له أن يقول " وحول هذا الموضوع قلت بعض الأبيات (ثم يذكر بعض الأبيات ويواصل الحديث) . " وأقول شعراً فى استحسان النغمة دون وقوع العين على العيان منه :

قد حلّ جيش الغرام سمعى   وهو على مقلتىّ يبدو

وأقول أيضاً فى مخالفة الحقيقة لظن المحبوب عند وقوع الرؤية

وصفوك لى حتى إذا أبصرت ما   وصفوا علمت بأنه هذيان

وفى ضد هذا أقول :

لقد وصفوك لى حتى التقينا   فصار الظن حقاً فى العيان (صـ ٧١) "

ويستمر الموضوع ويمتد فى صورة قصة منثورة ويستمر التناوب دون توقف وأحياناً يتم الانتقال من ضمير المؤلف إلى ضمير شخص أخر يتقمصه المؤلف ؛ ومن المعروف أن هذا الشكل الأدبى ترك أثره فى Aucassin et Nicolette, كما يتحدث إ . جونثاليف جوبيرا J. G. Llubera من منظور آخر - عن المقامات ، أى عن أنها جانب من السرد القصصى المشرقى الذى انتقل إلى أدب العصور الوسطى فى أوربا (دراسات جامعية قطلانية - الثانى عشر - صـ ٤٦٣ - ٤٧٣) .

(٣٣) إلا أن النص المترجم إلى البرتغالية يقدم لنا مفهوماً أوضح " آه يا له من حزن عظيم ! " فى R F E , I, 1914, P 171

(٣٤) " حيث أن yacuamtoy, a que ذلك أن " لابد أنها ذات جذور عربية إلا أننى لا أتوفر الآن على الدليل .

(٣٥) صـ ١٠٠ ، ١٠١ ، (طبعة الدار التونسية للنشر) .

(٣٦) وهناك موقف له دلالة كبيرة ويتلخص فى أن محررّ " كتاب التاريخ العام " برعاية ألفونسو العالم ، قام بترجمة أوفيديو وهنا ألقى عليه مسئولية التشبيهات حيث يقول " وفى هذا المقام يقدم لنا أوفيديو بعض التشبيهات على طريقة فيلومينا (...) .

(٣٧) تعتبر نغمة المبالغة التى نراها فى الشعر الأندلسى (الذى ورد لنا عبر المورث الشعبى) ذات جذور عربية ، ومن يريد مقارنة " الأغانى الشعبية الإسبانية " التى جمعها ف.رود يجيث مارين ، بالشعر العربى فسوف يجد صدق ما نقول . فالمقارنات والمبالغات والصور الشعرية الشعبية التى نطلق عليها صفة " الأندلسية " ما هى إلا أشكال باهتة لعظمة الشعر الأندلسى خلال العصر الإسلامى ، كما أن شعر الغزل الجسدى فى الفلكلور الأوربى يختلف عن ذلك ، ولا يمكن لى التوقف فى هذه اللحظة لتأكيد ما أقول والبرهنة عليه .

(٣٨) Cercamon - القرن الثانى عشر - طبعة Jeanroy صـ ٢٧

(٣٩) Chrestomathie de Bartsch 1927, P. 164

(٤٠) وهنا بيت مشابه يتحدث عن حالة أخرى " جرحتنى هذه المرأة بسهم مسموم {٥٩٧} ومعروف أن أصله يرجع إلى Pamphilus de amore

(٤١) " قصة الحب بين بياض ورياض " {نص عربى يرجع إلى ما قبل القرن الثالث عشر} ترجمة أ . ر . نيكل صـ ١٣ ، ١٨

(٤٢) " Thousand Nights and a Night. " ترجمة د.ف.بورتون ، لندن، ١٨٩٤ ، الجزء الأول - صـ ٩ " لم يقبل الشعر الإسبانى - فى واقع الأمر - هذه الملامح الإسلامية دون تحفظ اللهّم إلا خلال الفترة المسمّاة بالعصر الذهبى حيث نجد شعراً يبدو للوهلة الأولى أنه ينسب إلى أسلوب الباروك " من هذه الرّية الإنسانية / التى على أقدامها الإلهية /تصير السماء وردة ؟ " " ...الاصباح / يمكنكم ، والسعادة / هيبتها للسرّاج الأكثر توهجًا { كالديرون : الحياة حلم - الثانى - صـ ٥} كما يعثر داماسو ألونسو على شاعر طليطلى عاش خلال القرن الحادى عشر يقدم وصفًا للجليقى شبيه بالوصف الشهير الذى طلع علينا به جونجورا : وهو - من مرجان ملتح - ليس من ذهب / بل من الأقحوان ، يلف عمامته {مجلة الأندلس - ١٩٤٣م - العدد الثامن صـ ١٤٥} ولقد تأخر المسيحيون والقشتاليون عدة قرون حتى تمثلوا الزهد والتصوف ووسائل التعبير القصصى والتشبيه والاستعارة فى الشعر ، وكل ذلك متوفر لدى مواطنيهم من المور ، وسوف يأتى يوم من الأيام لنتحدث عن ذلك بتلقائية مثل تلك التى نكون عليها عند الكلام عن أن كلا من فرجيل وأوفيديو هما ضمن أدب عصر النهضة والباروك .

(٤٣) {أورد المؤلف هنا ترجمة بالإسبانية للنص المذكور وهى التى اعتمدنا عليها عند الترجمة إلى العربية - المترجم } .

(٤٤) " عندما تظلم الدنيا فالمكان الذى هى فيه يبقى نورا {ثيركامون - طبعة جيناروى صـ ٢ } .

(٤٥) chrestomathie de Bartsch صـ ١٩٣

(٤٦) ورغم أن ما سأقول فيه تكرار فإننى أرى أن الشعر اللاتينى المتأخر ليس له علاقة بالأسلوب العربى الرومانى للنصوص المشار إليها حيث تقرأ لبيترونيو

Ipsatuos cum ferre velis per lilia gressus,

Nullos interimes leviori pondere flores ...

O en Venancio Fortunato :

O Virgo miranda mihi, placitura jugaens,

lumina gemmarum superasti lumine vultus ...

Sapphirus alba admans crvstalla zmaragdus

وهذه الأمثلة نجدها لدى ج إيرّانت " " Sulla lirica remanza delle origime نيويورك ، ١٩٤٣م – صـ ٢١٠ ، ٢٢٣ ، . ومن خلال هذه الأشعار نجد المرأة " مثل " المصباح المنير و" مثل " جوهرة ثمينة ، ورشيقة الخطى لدرجة تبقى معها الزنبقات كما هى بعد مرورها فوقها ، غير أننا يجب أن نلاحظ أنها – أى المرأة – ليست الكائن الذى يشع نورًا أو أنها الجوهرة ، فليست كائنا يضفى وجوده على ما هو محيط به .

(٤٧) أنظر أ. ر. نيكل - مقدمة طوق الحمامة صـ ١٠٣ .

(٤٨) ورقة رقم ١٨ apud ا.غ . دى أمثيوا " لوبى دى بيجا ورسائله " ١٩٣٦ صـ ٣٤٩ . كان فراى خوسيه من جماعة الكرمل الحفاة وتدرج حتى أصبح رئيس الجماعة، وعلى ما يبدو فإنه انخرط فى هذا التوجه الدينى بعد مرحلة الشباب ، وخلال القرن أطلق عليه اسم السيد / فرانثيسكو دى كيروجا ، ومن المعتقد أنه كان أحد أقرباء الكاردينال جاسبار دى كيروجا . ثم يضيف نيكولاس أنطونيو: At religiosum statum professvs vere sacrum Des induit homivem nvdatus veteri وهنا نتساءل كيف أمكن لذلك " الرجل العجوز " معرفة الملامح الدقيقة لمشاعر الحب طبقًا لمفهومها عند العرب ؟ ولما كان راهبًا فقد وضح ذلك من خلال روحه الصوفية وهذا أمر مفهوم لدى من يسير على نهج القديس خوان دى لاكروث ، وتوفى عام ١٦٢٩م . وهنا أعبر عن شديد أسفى للقليل الذى أعرفه عن هذا الكتاب وخاصة ما يتعلق بحياة الرهبنة خلال تلك الفترة لأننى لا زلت ألح على أن تاريخ إسبانيا لن يفصح لنا عن الكثير من معالمه الجوهرية إلا إذا سبرنا أغوار الحياة الدينية فى المسحورة إسبانيا ، وقد فعلت شيئًا من ذلك – من منطلقات جديدة – فيما يتعلق بجماعة القديس خيرونيمو ، ومما لا شك فيه أن المرء يشعر بتأثر شديد عندما لاحظ جذور الحب على الطريقة الإسلامية فى أعمال أحد الأبناء الروحيين للقديس خوان ديلاكروث .

(٤٩) ابن حزم صـ ٥٧ وما يليها فباب علامات الحب هو من الموضوعات المألوفة فى الأدب العربى الذى يعنى (لأسباب أشرنا اليها سابقًا) بالعلاقة بين الحياة الجسدية والحياة الروحية وبدراسة المزاجيات والملامح ؛وقد جاء ابن عربى بعد ابن حزم بقرن ونصف من الزمان وقدم لنا رؤية " على الطريقة الإلهية " لكيفية انعكاس الحب على الشخص المُحِبّ وهى ظواهر ترى فى هؤلاء الذين يحبون الله (الفتوحات – ترجمة أسين بلاثيوس فى كتابة : الإسلام على الطريقة المسيحية صـ ٤٩٦ وما عليها.

(٥٠) هذا أمر جوهرى حتى نفهم القَدَريّة التى عليها خوان رويث " أعتقد صدق ما يقوله علماء الفلك " {١٤٠} ومعنى هذا أننى أؤمن بصدق ما يقولون فى إطار النظام الطبيعى . " لكن الله الذى خلق الطبيعة وعرضها /بقدرته تغييرها فى الحقيقة / وطبقًا للديانة الكاثوليكية أومن بهذا " {١٤٠} وهنا نجد المؤلف يسبح بين المفهوم الإسلامى للقدر (. . .) والإيمان المسيحى بالمشيئة الإلهية ، أو بالأحرى الإيمان بقدرة الله على التحكم فى الأحداث الطبيعية من خلال المعجزات ، ومعنى ضم أفعال البشر فى دائرة القدريّة الطبيعية يجعل الميزان يميل إلى الجانب الآخر . وقد تحدث ليكوى فى كتابة عن " كتاب الحب المحمود " صـ ١٩٣م وقال بأن" ذلك ظهر كعمل استثنائى فى الأدب وهنا يظهر خوان رويث أكثر قربًا من العامة أكثر من قربه من العلماء " لكن ألم يكن العلماء الإسبان اليهود من هؤلاء الجهابذة ؟ " إن الخوف من الله حماية للمرء مهما صدر عن الأجرام السماوية"[ابن عذارى The Beginning of Wisdom, R. Levy y F.Cantera eds P.151]
نرى إذن كيف أمكن تغيير معنى كلمات خوان رويث عند إخراجها من إطارها الحيوى .

(٥١) يظهر هذا الموضوع من جديد فى مسرح خوان دى إنثينا وفى بعض الأعمال الأخرى .

(٥٢) كانت الحياة المشتركة محط اهتمام مثلها مثل حياة الفرد إذ يتحدث ابن عربى فى أعماله - ونقله عنه أسين بلاثيوس في كتابه " حياة المتصوفة الأندلسيين " - عن الأشبيليين والأشبيليات وشغفهم بالجمل والعبارات الساخرة ذات المعنى الدقيق [صـ ١٧٠] .

(٥٣) علينا ألا نحاول - مثلاً - استخدام بعض الأدوات فى القصائد العربية " لكن بالقوة والعزيمة يلمسونه بخجل " [١٥١٧] فهل هناك أدب رومانى يتحدث عن آلة موسيقية تخجل عندما يعزف عليها ذلك حتى لا ينفع فى شىء ؟

(٥٤) يشير Corneille إلى أنه مدين لمسرح لوبى دى بيجا بأنه ألهمه مأساته وملهاته وخاصة فيما يتعلق بالانتقال من هذا إلى ذاك .

(٥٥) ويشير الكاتب الأفغانى الحجيرى إلى أنه يجب تعلّم الفلك والطب والعلوم عامة طالما أنها تخدم الحياة الدينية فالعلم فريضة إذا ما استُخدم فى صالح الأعمال [كشف المحجوب - ترجمة ر . أ . نيكلسون - صـ ١١

(٥٦) انظر قائمة المراجع التى ذكرها H. pérés بشأن " الشعر الأندلسى خلال القرن الحادى عشر " صـ ٤٠١ - رقم ٢

(٥٧) أنظر :- Vèase L.Ecker, Arabischer, provenzalischer und deutscher Minne-sang, pp. 152 y siguientes.

(٥٨) لم تكن هذه المناسبة الوحيدة التى يتحدث فيها خوان رويث عن ذلك الموضوع ، فالحديث عن عشق المرأة النبيلة وتحمل المشاق فى هذا المقام هو موضوع من الموضوعات القديمة فى الأدب العربى كما يعرف الجميع ، ويتحدث ابن زيدون (القرن الحادى عشر) عن صبره وهو على اقتناع من يقاسى أكثر سوف تكون درجة وصوله إلى مراده (انظر Ecker, op. Cit. P.121) ، كما نعهد كثرة فشل الحب عند خوان رويث وهذا لا يرجع إلى الطبيعة المسيحية أو غير ذلك من الأسباب بل لأنه أحد المفاهيم العربية الموروثة " مالك تنأى عنى ! فكثيراً ما عاملتك بصبر طمعاً فى شىء منك لكنى خرجت خالى الوفاض (المصدر السابق) .

(٥٩) ورغم أن المفكرين العرب الذين هم على صلة بالثقافة اليونانية يميزون بين كيان الواقع وظواهره فإن الأدب والموروث التراثى وسلوك هؤلاء المفكرين يقوم على الاعتقاد بأن الجوهر الوحيد فى هذا الكون هو الله فابن حزم كمفكر لا يقبل بأن يقال مات زيد تعنى أن الله أمات زيدا ، كما أن عبارة بقاء المبنى تعنى أن ذلك بقدرة الله (تاريخ الأديان الجزء الثالث - صـ ٤٥٢) إلا أنه كفنان مسلم يرد كثيراً أن الله هو الذى يحرك القلوب .

(٦٠) قام أسين بلاثيوس بجمع كل ما قاله بن حزم عن حياته الخاصة ، وأودعه فى الجزء الأول لترجمته " التاريخ النقدى للأفكار الدينية "

(٦١) يمكن وصف شعر المرأة الكستنائي أو الأسود باستخدام صور الباروك أو أية صور شعرية أخرى دون أن تتغير طبيعة الشعر نفسه .

(٦٢) كتب أنخل جانييت في " رسائل فنلندية " : " للنفس أمورها الغامضة وليس من السهل أن نرى فجاة التأثير الذى تحدثه الأشكال الخارجية ، التى تحيط بنا و تشكلنا ، فى أرواحنا دون أن ندرك عملها الدوب ، ويدفعنا كبرياؤنا إلى الاعتقاد بأننا معرضون فقط لتأثير الأشياء التى نأخذها فى دائرة انتباهنا وربما هناك تأثير أكبر من الأشياء التى لا ندركها ولا نضعها فى اعتبارنا "

(٦٣) مجموعة الأبيات ١٦ - ١٨ ، ٤٦ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٤٤٣ ، ٨٩٢ ، ٩٠٤ ، ٩٥٦، ١٣٩٠ ، ١٦١٠ ، ١٦١٣ ، ١٦٣١ .

(٦٤) يقص علينا ابن حزم قصة زوجين أبيضين ولُد لهما طفل أسود وذلك لأن مكان الجماع كان فى أحد حوائطه صورة طفل أسود أخذت المرأة تنظر إليها كثيرًا ، وهناك الكثير من الشعراء ورجال الدين الذين يشيرون إلى ذلك عند الحديث عن العالم الخارجي المرئى وكأن ذلك إشارة إلى العالم الداخلى المتخيلّ ، فالظواهر لا تخرج من جوهر بل هى محصلة انجذاب ظاهرة أخرى نحوها فاللون الأسود فى الحائط ينتقل إلى لون بشرة الطفل .

(٦٥) " كشف المحجوب " ترجمة نيكلسون صـ ٤ .

(٦٦) جاء فى أشعار للمعتمد بن عباد الأشبيلى بعض الأبيات التى تتحدث عن المرأة التى تنزع عن نفسها لباسها ومعانقتها لذلك السيف الذى خرج من غمده { الشعر الأندلسى صـ ٣٠٢ ـ ترجمة H. pérés } كن تلك المرأة التى ترتدى لباسها ثم تنزعه عنها يمكن أن تظهر وكأنها صوره لها هى " هاهو قادم / السيف الجميل عريان / الذى أضعت حياتى فى سبيله " هكذا يقول لوبى دى بيجا عند مجىء دوقة كاسندرا فى " العقاب دون انتقام " - الجزء الثانى - ٧ - وقد استخدم تشبيهًا غير موجود فى الشعر الرومانى . فالإناء ينزع عن نفسه الماء والمرأة تنزع عن نفسها الحجاب أو تخرج من الظلال التى تحجبها . وإذا ما ربطنا ذلك بما قلناه سابقًا لقلنا إن التراث الشرقى كان حيًا خلال القرن السابع عشر وذلك أن كلا من لوبى دى بيجا وجونجورا وكالديرون يأتون بالتشبيهات سيرًا على النسّق العربى ـ انظر الملحق التاسع " الموضوعات الإسلامية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر " .

(٦٧) انظر الموسوعة الإسلامية .

(٦٨) " الشعر الأندلسى " صـ ٤٠٥ بـ H. Péré

(٦٩) انظر قبل ذلك صـ ٣٩٤ n

(٧٠) رأينا أنه طبقًا لما يُستنتج من نفس البنية اللغوية أن تلك الطريقة للتعامل مع العالم سابقة على الإسلام لكنى لا أدرى هل من العدل أن أطلق عليها طريقة بدائية أو لا ، وهذه قضية علىّ تنحيتها جانبا غير أنى سوف أركز هنا على أن المفاهيم الدلالية للعربية تضم فى دائرتها الشكل الكامل لأسلوبها الأدبى ، وهذا ما يطلق عليه بدرو دى ألكالا " أسلوب القول من خلال الصورة " أى " العبارة " . والفعل المشتق من هذه الكلمة هو " عبر " بمعنى قضاء الوقت وعبور نهر وتعنى مشتقاته قرأ ، وفسّر الأحلام أو الأفكار ، كما يعنى

أيضا " استعارة " . فأن نقوم بتفسير فكر ما فهذا معناه أننا نعبر النهر من شاطئ لآخر أو كما يقال فى كلية الانتقال من "الدماغ" إلى ما هو باطن، وهكذا نرى أن كلمة " سرّ " تعنى النقيضين أى المستخلص والظاهر {لأن :المعجم صـ ١٣٣٨} ؛ وكذلك الأمر لكلمة " لون " فهى أسود وأبيض ، فهناك دهان للباب باللون الأسود (باب الميت) ودهان باللون الأبيض (باب العروس) ؛ ونتساءل كيف ظهر ذلك النمط الحياتى وما هو الفارق بين العربية واللغات الشرقية الأخرى ؟ إنه موضوع لا استطيع الحديث عنه . وما يهمنى هنا هو القول بأن ذلك النمط الحياتى تداخل مع نسيج النمط الحياتى فى شبه جزيرة أيبيريا طوال تسعة قرون .

Le texte de l'Archiprêtre [coplas 374.387}], vu sa date, représente un té-" (٧١)
En algunas pastourelles del siglo xIII se mezcl? (Lecoy, p. 219). "moijnage unique
ya el francés con el lat?n y el resultado es un volver a lo divino una canci?n profana
o una parodia de las prédicas morales:

(٧٢) أنظر ليكوى صـ ٢٢٦ : تتسم القصائد الهزلية الأوربية بأنها عبارة عن نقد عام له مسحة ثقافية وتنحصر فى الحديث عن المثالب الكنيسة مثل : الشح والكبائر .. الخ . كما تولى جمع النصوص
P. Lehman

> " The Spanish Inquisition ... is even more noted in history for its ingenious devices and severity in disciplining heretics than the papal tribunal established in 1215 " (Enclopaedia of Religion ad Etvics, de J. Hastings, S.V. " Discipline " , vol . IV , p. 718 b).

ويتكامل كلا الوصفين بشكل منطقى فى إطار عام ومجرّد ولكن دون التعرض للحياة الفعلية

(٧٣) ربما كان ذلك نوعًا من التشاؤم الذى أجهله ، ولست أدرى فيما إذا كانت له علاقة بالاعتقاد القائل بأن من يقطف الوردة الجبلية فهذا يساعده على الشفاء من ألم يسمى ألم الوردة توثيقة رقم ١٤١٠ ، ضمن سلسلة الوثائق غير المنشورة ، التاسع عشر ، صت ١٨١ – ١٨٢ .

(٧٤) لا أصحح " "Pintadas إلى "Puntadas" ذلك أن كلتيهما تؤديان نفس الغرض الذى سوف أشرحه الآن .

(٧٥) هناك دراسة لداماسو ألونسو عنوانها " الشعر العربى الأندلسى وشعر جونجورا - مجلة الأندلس ١٩٤٣ العدد الثامن من صـ ١٢٩ – ١٥٣ ، وهذه الدراسة تؤكد ما سبق أن تحدثت به فى دراسة لى سابقة تقول بأن " اللغة العربية تنحو بطبيعتها إلى الجناس ، وهناك كتاب عنوانه " المُغرب فى أحوال المَغرب " ، وهنا نجد جونجورا يقول : " unos soldades <u>fiambres</u> / que perdonando a sus <u>hombres</u> / ... amenazan a <u>los hombres</u> ' (p. 147) هذا هو نفس ما فعله خوان رويث باستخدامه لفظتى Puntadas و Pintadas وقبل ذلك Cruz و cruz ، وما يمكن لى إضافته فى مقام المقارنة التى جاء بها داماسو

ألونسو هو أن " الجناس " ليس مجرد " محسّن بديعي " بل هو أحد جوانب الشكل العام والكامل للوجود العربي وهو ما لم أتمكن من فهمه إلا من خلال المنظور اللاهوتي والكوني للحياة والواقع حسبما شهدنا ذلك في الفصول السابقة ، وهنا نجد أن جونجورا ليس إلا فرعًا باللغة الإسبانية انبثق عن الجذع المشترك الإسباني الإسلامي ؛ ويحدث نفس الموقف بالنسبة لتراجيديا سنيكا التي يصعب علينا أن نفهمها إلا من خلال التراجيديا اليونانية ، كما أن الحالة المعنوية التي عليها الإسبان خلال القرن السابع عشر (فهم على قناعة بأن الحياة حلم ودخان ورياح وهواء .. الخ) قد وجدت لنفسها غذاء شعريًا في طرائق التعبير التي ورثناها وكذلك من خلال الحوارات بين الموريسكيين - المثقفين منهم وغير المثقفين - وبين اليهود ، وهي حوارات قائمة منذ قرون . كان ذلك عبارة عن مياه لكن لم يكن هناك اهتمام بتصريفها أو وجود وسائل لبناء قنوات لذلك ، وما حدث في ميدان الشعر نجده في ميدان الزهد والتصوف خلال القرن السادس عشر ، ويمكن لي مقارنة تلك الظاهرة بتلك المنتجات التي تتولى الصناعات المنزلية إنتاجها طوال زمن للاستخدام المحلي لكن يحدث فجأة ولظروف خاصة أن يتم تصنيع ذلك بكميات كبيرة لتغمر الأسواق جميعها .

" Latin never replaced Arabic as a medium of Jewish cultrue . It was only linguistically alien; it was spritually hostile and historically inimical " (A.A. New man, Tews in Spain, II, p. 99)

(٧٦) Glusarium de Du Cange, s. v. Punctum

(٧٧) وهناك احتمال كبير أن يكون المعنى الجديد لـ " Punto" في دماغ خوان رويث وهي لفظة لم تكن تعني فقط خلال القرن الرابع عشر نقطة نضعها أثناء الكتابة اللاهوتية بل كانت تشير بصفة عامة إلى صوت الآلة (cf. Poema de Alfanso Oncene (pp. 409) La farpa de don Trist?n/ que da los puntos doblados) وهذا ما يبدو وأن كلمة " أنوات " تؤكده وهي الكلمة التي وردت في البيت الأول لهذه المجموعة . (...) .

(٧٨) انظر قبل ذلك صـ ٣٩٨ (حاشية رقم ٦٣ . يبدأ الاقحام الشخص في المقدمة المكتوبة نثرًا " وأرجو وأنصح من يسمع ذلك ... أن يفهم أولا وجيدًا مقصدي والسبب الذي من أجله ألفته والخلاصة التي أخرج بها مما أقول وألا يتوقف عند الظاهر القبيح للكلمات ، وثانيًا فإن الكلمات تخدم المقاصد وليس العكس (صـ ٦ من طبعة دوماكين) .

(٧٩) انظر " فكر ثربانتس " صـ ٨٠

(٨٠) وهو عبارة عن " وجهة نظر " ليست الغاية منها البعد العقلي (...) بل بنية الحياة : حياتي وحياة الآخر وحياة الحيوان وحياة الجماد ، وجهة النظر " Parecer" يشير إلى شيء قائم ينخرط (أو قابل لذلك) في بنية الحياة المكونة من الأفعال والإمكانيات المتاحة ، وبالتالي فإن خوذة مامبرينو يمكن أن تكون أولا تكون كذلك طبقًا لطبيعة الحياة التي تشكل جزءًا منها وبناء على هذا المفهوم الكوني الحيوي (...) يمكن للأخطبوط والآلة الموسيقية أن تكون لكل منهما حياته الخاصة به في كتاب الحب المحمود أو روثينانتي وإناث الخيل في رواية دون كيخوته . وهنا نجد أن كتاب رويث يقدم لنا الكثير من الجوانب وأنماط الحياة التي يمكن قراءتها بطرق مختلفة ، فيرى الإسباني أن الجوانب أو " وجهة النظر " تنخرط في نمط حياة. وهذا أمر مهم للغاية ويماثل في درجة ضرورته ما يحدث لرؤية الفرنسي والإيطالي وانخراطها في أنماط عقلية .

(٨١) لابد أن الجميع يعرف ما يتعلق بالمسرح ، وسوف يثير الدهشة ما يتعلق بالرواية رغم أن الفرنسيين كانت لديهم رؤية واضحة خلال القرن الثامن عشر تتعلق بما ينقصهم ، ولهذا ذهب كورنيل Cor-neille للبحث عن الدراما والكوميديا في المسرح الإسباني (...) .

(٨٢) لم يكن مفهوم " الذوق الحسن " في بداية الأمر نوعا من الفرار من إصدار حكم جمالي بل كان منظورًا مجردًا وغير ذاتي يعني أكثر بالقبيح الغائب أكثر من عنايته بالجميل الحاضر ، وقد أشار منذيث بيدال إلى أن ذلك التعبير يرجع في جذوره إلى إسبانيا وألقت به ـ على ما يبدو - الملكة إيزابيل الكاثوليكية في الدوائر المختلفة " فمن كان ذا ذوق حسن يحمل رسالة توصية " [لغة كريستوفر كولمبوس ـ عام ١٩٤٢صـ ٥٩] ، ويمكننا أن نضيف بأننا عرفنا مقولة الملكة عن طريق ملتشور دى سانتا كروث ـ في Floresta generel عدد ٧٣ ، وفي بداية الأمر كان " الذوق الحسن " على الطريقة الإسبانية ما يبدو على المرء في حياته اليومية ، وعندما تم تصدير المصطلح إلى أوربا تحولت العبارة إلى [Madame de Sévigné] " Le bon goût "

(٨٣) من المعروف أن القدرية بالنسبة للإنسان موضوع شائع بين المفكرين العرب إذ يشير ابن حزم إلى أن من يعرف جيدًا مزاجيات النفس البشرية وميولها وتعقيداتها وكذلك سماتها الحسنة يدرك جيدًا أن ليس هناك من هو حر أو قادر على فعل أمر يختلف عما يفعل أى ما خلقه الله فيه ... فالإنسان ذو الذاكرة الجيدة ليس بوسعه إلا أن يتذكر وذلك الآخر ذو الذاكرة الضعيفة ليس بوسعه إلا أن ينسى .. [ترجمة أسين بلاثيوس : التاريخ النقدى للأديان ـ الجزء الثالث ـ صـ ٢٧٧] .

(٨٤) إذا ما كانت " ثعابين الماء " auguilas تلمس وتداعب أضلاع السيد " كارنال " فهذا يعني أن الشاعر يتخيله وهو يعوم عريانًا ، أما صورة الماء التى لم يتم التعبير عنها صراحة فإننا نجدها في الموقف الشعرى ، أضف إلى ذلك أن الصورة المُضَمَّنة ، وهي صورة السبّاح ، فهي تصور أسماك التروتTruchas وهي تتقافز على خَدَّى ذلك الرجل ؛ وهذه هي الرؤية الشعرية لكتاب الحب المحمود ، وهي رؤية تعتبر مقدمة للأحلام والكوابيس للرسام خيرونيموبوسكو،لكننا في حاجة إلى المزيد من التعليق للكشف عن مغاليقها مثلما هو الحال عند جونجورا رغم أن الأسباب تختلف . لكننا استطعنا الحصول على المفتاح الخاص بهذا التعليق رغم استحالة القيام به الآن، وما علينا إلا أن نقترب من خوان رويث وننسى القوالب المجرّدة وقواعد البلاغة ونعرّج على استخدام مفاهيم مثل " الانزلاق ، الوجه الآخر .. الخ " ونطبق ، كل ذلك في وقت واحد على الصوتيات والصور الشعرية وتصوير الشخصيات . وإذا ما عملنا بهذه الطريقة لوجدنا أن فن ذلك الرجل قد استعاد حياته من جديد وأنه فن لا يدين بشيء في جوهره لأوربا المسيحية أو للمفاهيم المجردة . وانطلاقًا من هذا الفن يمكننا أن نستشعر لوحات بوسكو وخياله وكذا والت ديزني (...) وأن نشعر أيضا بكل من ثربانتس وجونجورا وكيبيدو وإسبان آخرين . (...) .

(٨٥) حلت كلمة Reciancha محل الكلمة الخطأ neaciacha في المخطوطة وقام بالتصحيح منذيث بيدال " الشعر الشعبى " صـ ٦٥

(٨٦) طوق الحمامة (الطبعة المشار إليها سابقا ـ المترجم) .

(٨٧) " شعر مقالة " كتبه نظامى عروض سمرقند (حوالى ١١٥٠) ap. E. Brown, Aliteravy History of Pessia , 1906, P. 13.

(٨٨) R. A. N. Nicholson, Studies in Islamic Poetry, p. 51.

(٨٩) R. A. N. Nicholson, ibid., p. 125.

(٩٠) E. G. Brown, A Literary History of Persia, 1906, p. 32.

(٩١) R. A. N. Nicholson, Studies in Arabic Poetry, p. 59

(٩٢) "آه ! ليت العصاة يدرون أن الدنيا فانية ويرون كيف تنتهى الملكيات فى غضون وقت قصير وكيف يموت البابوات والأمراء وأصحاب الشأن ، حتى يتعظوا ولا يعشقوا شيئًا فانيًا (بياتو ألونسو دى أوروثكو : انتصار الموت – الفصل العشرون) (...) .

(٩٣) والوجه الآخر لذلك يقدمه لنا " دون جوان " لموليير وهى شخصية تعيش وسط الخداع وهى واثقة أنه كذلك : فهو يعرف أنه " لا يُعَرِّف شىء " (...) غير أنه يوجد شىء أخر يؤمن به مما يجعل الحياة مضمونًا واقعيًا فعندما يرفض الشحاذ حلف اليمين طبقًا لما يطالبه به السيد خوان حتى يعطيه العملة الذهبية ، فإننا نجد أن ذلك العقلانى ابن القرن السابع عشر ينتهى به الأمر إلى أن يقدم قطعة العملة رغم كل شىء . " إننى أعطيها لك باسم حب الإنسانية " (الثالث – ٣) وهنا ندرك مرة أخرى التناقض الواضح بين إسبانيا وفرنسا وهو ما لاحظناه قبل ذلك القرن الحادى عشر والقرن الثالث عشر . (...) .

(٩٤) يقول تيرسو عن دون خوان : ولما لم تسلّموا له حضرتكم / فتاة أو أى شىء له قيمة / يمكنكم الثقة به / ، فهو فظ فيما يتعلق بذلك / إلا أنه رجل شريف " [El burlador de sevilla – طبعة قمت أنا بها – الجزء الثانى صـ ١٦١ – ١٦٥ .

(٩٥) طوق الحمامة صـ ١٥٤ – ١٥٦ (المصدر السابق) كما يشير " نيكل " الباحث الذى ترجم طوق الحمامة إلى الإنجليزية إلى أن هذه الصورة الشعرية قد تشير إلى الوزير العربى الشهير المنصور بن أبى عامر .

(٩٦) ومن السهل سَوْق الأدلة المادية على أن التراث الأدبى لهذا الإشبيلى العاشق للنساء كان يدور فى إطار يضم السيد والأمة والفارس والقروية . فقصائد ماركيز دى سانتيانّا (النساء ساكنات الجبال) تطرح الموضوع من منظور السيد فى إطار مشهد موضوعى وراق ، (...) .

(٩٧) وهناك " خوان تيثوريو " أحد شخصيات مسرح ثوريّا (١٨٤٤م) وهو إعادة تجسيد لدون خوان ولم يكن ليوجد لولا سابقه . (...)

(٩٨) ولا يعنى هذا أن تلك الأسماء غير موجودة على الإطلاق (Simán nonio ، quevedos) إلا أنها نادرة إذا ما قارنّاها بمثيلاتها الأجنبية باستثناء nonio (من ابتكار اليهودى البرتغالى نونيث) فهى لا تشير إلى أشياء مبتكرة أو صنعها شخص ما . وكلمة Nonio مشتقة من Nonius، وهى الأصل اللاتينى لنونيث Nu ez

(٩٩) لنتذكر أنه عندما تشكك الحاج اليونانى فى العون الذى يقدمه سانتياجو عند الاستيلاء على كويمبرا ، ظهر له القديس الرسولى وأظهر له مفاتيح المدينة التى سيسلمها للملك فرناندو الأول .

(١٠٠) قادة : جلب له حصاناً . ، قاد : تصرف كقواد بالنسبة لزوجته لأنه تلقى هدية عبارة عن عدد من الخيول (لان : المعجم) وعلينا أن نلاحظ مرة أخرى الطبيعة التنقليّة لمفهوم الشخص : فالكلمة تشير إلى القواد ومن تم اقتياده ففى هذا الأخير تتدرج سمة من أتى له بالهدايا . وعلينا أن نشير هنا إلى أننا ندرك الآن المغزى الكامل " التاريخى " لقيام حاكم أوكانيا بإهداء عدد من البغال الممتازة إلى بيريبانيث ، وذلك حتى يستميله ويغازل امرأته بعد ذلك . (...) .

(١٠١) " صديق حتى الموت ـ ا

(١٠٢) ربما كان من الإطناب الحديث عن " المصادر " الأوفيدية ، ولما أصبح من الواضح التأثير المشرقى الذى يتضمنه كتاب خوان رويث فمن البديهى أن التفاصيل الجزئية تتوافق مع البنية الكلية . أما ديبساس Dipsas لأوفيديو (الحب – الجزء الأول ٨) فهى امرأة تحض على البغاء أكثر من كونها وسيطة بين العشاق ، فهى لا تقترح على الفتاة أن تحب إنساناً بعينه بل أن تسلم نفسها لمن يدفع أكثر (...) ومن هنا يمكن أن نرى أدبا مثل أدب أريتينو Aretino غير أن ذلك لا يصل إلى مرتبة أعمال ابن حزم أو خوان رويث (...) .

(١٠٣) المعنى هو : " كان ينادى ويحاول بيع " فوط " على أنها مفارش .

(١٠٤) طوق الحمامة المصدر المشار إليه .

(١٠٥) طوق الحمامة المصدر المشار إليه صـ ٢١٦

(١٠٦) نجد من جوانب التأثير المشرقى الإفادة من " الأبجدية " عند نظم الشعر ، وهذا ملاحظ عند لوبى دى بيجا وغيره : Amar y honrar su marido/ es letra de este abecé,/ Siendo buena por la B,/que es todo el bien que te pido./Har?te Cuerda la C,/la D dulce y entendida... etc" (Peribánez 1.9) ويلاحظ أن الكلمات تشع فضيلة مفعمة بالحياة ويحدث الشيء نفسه من جانب الفضيلة فالأمور ليست إما هذا أو ذاك ولكن ما تريد أن تكونه ، فالفجر فى ملحمة السيد ليس له " أصابع وردية " مثلما هو الحال عند هوميروث بل لديه " إراده الوجود "Ya quieren quebrar albores".

(١٠٧) فالقانون العقلانى فى دون كيخوته يرفض وجود الشخصيات الأدبية غير التاريخية وهو نفس الموقف الذى اتخذه الكثير من رجال الدين برفضهم وجود القديس سانتياجو فى جليقية ، غير أن دون كيخوته المتمسك بالحياة يسوق تلك الحجج الثابتة : " أتذكر أن جدتى لأبى عندما ترى بعض السيدات وهن يرتدين العباءات المهيبة الوقورة فتقول لى " هذه يا حفيدى تشبه سيد / كينتانيونا " ومن هنا أستنتج أنها لابد أن رأتها أو رأت صورة لها على أقل تقدير (الجزء الأول – ٤٩) .

(١٠٨) خففت مخطوطة سلمنقا درس طليطلة بعض الشيء : Con dos mártires.../...en este mundo fuste Por dos maridada" وهنا نجد المثال الأول على التصحيحات التى أدخلها كلٌ من ثربانتس وكيبيدو ومريانا وغيرهم على مخطوطاتهم .

(١٠٩) يعتبر " فن الحب " لأوفيديو نوعاً من السخرية من الأبحاث العلمية ، فموضوع الكتاب هو الحب غير المشروع كما أن أعمال اوفيديو يجب أن تكون انعكاساً وصدى للكتب المشرقية التى كانت تتحدث عن هذه الموضوعات بجدية دون أية تنويهات ، ومن الواضح أن هذا الكتاب لا يدخل جيداً فى إطار الطريقة الرومانية والسبب هو أن أوجوستو نفى أوفيديو ألف كتاباً لا يتفق مع النظام القضائى والاجتماعى لروما

(١١٠) Les Kams Sutra, de Vatsyayana, Paris. 1912, p. 42. Se trata del tan cono-cido libro indio sobrec el amor.

(١١١) إذا ما قرانا القصيدة الرعوية " بلاثيدا وبكتوريانو" لخوان دل إنثينا لوجدنا أن ثوبليثيو يقوم بدور الوسيط فى الحب ، إذ يريد بكتوريانو التحدث إلى فتاة سيرن على تعليمات ثوبليثيو . فيسأل هذا الأخير:

هل تريد ان نصل سويًا

أو أن تذهب وحدك

ومعك تنهداتك ؟

ليكن كل شيء مرتبًا

ومنظمًا ومعدًا بفن

ليكن هذا

فيما إذا كانت هناك

فأنا فى انتظارك هنا .

(١١٢) هذه الأنماط والمواقف تظهر بصورة مجازية ورمزية فى أعمال مثل " القصة الوردية " (Bel accueil, Faux Semblant..) حيث نلاحظ البنية القنطورية ، التى تجمع بين ما هو إسلامى وما هو إسبانى إسلامى ، تختفى ، وهذا نفس ما يحدث عندما تدلف المادة الدرامية الإسبانية فى فن كورنيل Cor-neille، وتختفى أيضا من الترجمات اللاتينية لابن سينا

(١١٣) وفى " كاما سترا Kama Sutra (الجزء الخامس – الفصل الرابع) فإن الأمر هو واجبات الوسيطة ، كما يتم وصف بعض منهن ، وتصدر التحذيرات من أن " المرأة عارفة بالفلك وخدومة وتقوم بدور الشحاذة أو الفنانة ، وهذا النوع من النساء على معرفة جيدة بهذه المهنة .

الفصل العاشر

اليـــهـــــود

يمكن أن نفـهم تاريخ باقى دول أوربا دون الحاجة لوضع اليـهود فى المقام الأول أما فى الحالة الإسبانية فالوضع مختلف فالوظيفة الرئيسية للإسبان العبريين لا تنفصل عن ظروف التعايش والتلاحق مع التاريخ الإسبانى الإسلامى ، وكانت العربية هى اللغة المستخدمة بين عمالقتهم (نذكر هنا ابن ميمون) ورغم ذلك كانوا يكتبونها بالحروف العبرية ،ومن الواضح أن تفوقهم على أقرانهم فى أوربا يرتبط بتفوق الإسلام على المسيحية خلال الفترة من القرن العاشر وحتى الثانى عشر ، ولولا احتكاكهم بالإسلام لما عنوا بالفلسفة الدينية [1] ومن الأمور والدلائل الواضحة على ما نقول هو أن اليهود كانت لهم فى إسبانيا فقط عمارة لها ملامحها الخاصة رغم أنها تقوم على أسس الفن الإسلامى ، فهاهى الروح الإسبانية العبرية تتحدث عن نفسها من خلال البِيَع اليهودية فى كل من طليطلة وشيقوبية ، وهى أعمال ذات قوة تعبيرية لا نجد لها مثيلاً فى أوربا فالعبرانيون لم يشعروا هناك فى – أوربا – أنهم فى منازلهم ، غير أن هذه التعبيرات المعمارية – التى تهدّمت كلها تقريبًا – إسلامية ، كما أن الشعر والفكر والتقنية التى توفر عليها الإسبان العبرانيون هى تعريفات للثقافة العربية .

وعندما طرد اليهود من وطنهم عام ١٤٩٢م كانوا يشعرون بأنهم إسبان مثل المسيحيين ولننصت لما يقوله واحد منهم يدعى فرانتيسكو دى كاثيرس ، حيث عاد إلى أرضه عام ١٥٠٠م بعد أن قبل الدخول ظاهريًا فى المسيحية مثلما فعل الكثيرون منهم وقد سأله رجال محاكم التفتيش – حيث وقع فى براثنهم – عن السبب فى مغادرته

فأجاب الرجل بذكر هذه الأسباب شديدة الذكاء " إذا ما أمر مولانا الملك المسيحيين بأن يعتنقوا اليهودية أو أن يغادروا ملكه فهناك من يتحول إلى اليهودية وهناك من يترك أرض المملكة ، فأما من غادروا فهم يشعرون بالضياع وعندئذ يتحولون إلى اليهودية حتى يعودوا إلى طبيعتهم ، ويصبحوا مسيحيين ومن ثم يصلون مثلهم ويخدعون الدنيا ويفكرون أنهم يهود لكنهم فى قلوبهم مسيحيون (٢) " .

وقد كان تاريخ إسبانيا خلال الفترة من القرن العاشر وحتى الخامس عشر سياقًا مسيحياً إسلاميًا يهوديًا ، ومن المستحيل فصلها فى قوالب منفصلة أو وضعها فى مسارات متوازية ومتوافقة زمنيًا فكل واحدة من هذه المجموعات السلالية الثلاث كانت متأثرة وجوديًا بالظروف التى عليها المجموعات الأخرى ، ولم تكن لتصل إلى كُنْه هذا الواقع من خلال جمع المعلومات وسرد الأحداث أو إضفاء الموضوعية عليها كظاهرة ثقافية ، وعلينا أن نحاول معرفة تأثير كل واحدة من هذه المجموعات فى الأخرى ، رغم أننا قد نخطئ فى محاولاتنا ، فالتاريخ كانت وقائعه على هذا النحو ، فالأحداث والأفكار وكل ما نريد أن نضمه إلى هذه القائمة لن تكون ذات معنى إذا فصلناه عن الحياة التى كانت لها بمثابة الشكل والتعبير .

التفوق من أسفل :

إذا ما تناولنا الشعب العبرى المنتشر والمشتت فى عالم العصور الوسطى سوف نلاحظ أن اليهود فى إسبانيا كانوا يشكلون مجموعة فريدة ومثيرة للانتباه ، ومنذ التاريخ المصرى القديم نجد أن ذلك الشعب قد عانى الهجمات التى تستهدف القضاء عليه ، كما أن عقيدته الروحية التى لا تنفصل عن وعيه بنفسه كشعب جعلته لا يتوافق مع المفهوم الرومانى للدولة وبالتالى جلبت عليه الويلات والمطاردات منذ القدم ، ولقد حرص اليهودى على عدم اختلاطه بشعوب أخرى " فهم يأكلون وينامون بشكل منفصل عن الآخرين .. ولا يتزوجون بنساء من سلالات أخرى [Tácito, Historias v,5 -] كما أن روحانيتهم العدوانية والحضرية لم تواكبها روح العراك ، فالخلاص الراديكالى الذى

يؤمن به العبرى يباعده عن الاتصال بالحاضر ويحرمه من رؤية دائرية للعالم المحيط به فروما قامت بإزالتهم من الناحية السياسية كما أن ميلاد المسيحية وضعهم فى موقف لا يحسدون عليه فقد كانوا يمثلون مفاهيم دينية ضرورية وعبئًا ثقيلاً على العقيدة المنتصرة فى آن معا [٣] فلقد قبلت المسيحية كتب العهد القديم وجعلتها بمثابة النخاع الشوكى وبذلك يتدعم إيمان العبرانيين حيث يرون عقيدتهم وقد جاء لهم الدعم والسند ، أما الوثنية اليونانية الرومانية فقد اندحرت تمامًا كمفاهيم دينية ، وفى ظل هذا الإطار كانت ظروف اليهود مأساوية فقد أصبحوا أحياءً ووراهم التراب فى آن معًا وكان قتلهم المسيح بمثابة الخطيئة الكبرى Felix culpa التى تشبه خطيئة آدم حيث إنها شرط مطلوب لميلاد المسيحية التى تلغى القانون القديم ، وليس مثار مفاجأة أن تميل المسيحية الأيبيرة المحصورة بين الإسلام وصهيون إلى التفاهم فى بعض الأحيان مع اليهودى أكثر من ميلها للتفاهم مع المور [٤] وكان هذا التفاهم يتجاوز اختلاف المعتقدات .

وقد عاش العالم الغربّى ما يقرب من ألفى عام وهو يعانى من هذه الآثار الناجمة عن ذلك الموقف الشاذ كما تأثرّ بالأوضاع فى أكثر من مرة وفى أكثر من شكل ، وقد خلفت المحاولة النازية للقضاء على هذه السلالة باستخدام العنف ، نتائج لا نعرف مداها حتى الآن ، كما أن وجودهم فى إسبانيا – خلال العصور الوسطى ، ثم طردهم بعد ذلك – قد أصبح واحداً من ملامح التاريخ الأيبيرى ، وقد قامت الحياة الإسبانية – المسيحية ، ولقرون عديدة على أكتاف هذا الشعب الغريب الذى يمثل الفروع والساق بالنسبة لتاريخه ، ولو تدخل منطق العقل فى السلوكيات الإنسانية لكانت إسبانيا المكان المفضل للترابط بين شعبين شديدى الشبه ، غير أن التفكير فى الأمر هو من باب المثاليات ، وما حدث هو أن الأرستقراطية الروحية للإسرائيليين وميلهم للتأقلم الظاهرى على أصعب الظروف هيأ لهذه السلالة أن تنقل نمط حياتها الشرقية فى دائرة العبقرية الغربية رغم أنهم حافظوا على أنفسهم كأمة لها دين واحد ولا رأس لها ودائمًا " فى أحزاب الخونة " ، كما أن مرارة النفى التى كادت تكون ميتا فيزيقية نظراً لضرورتها جعلتهم يطورّون صفات دفاعية ويتخذون ميولاً غريبة ليفروّا من أى منافذ

ويصعدوا إلى القمم ، وقد عرفوا الانكماش أو الانتصار فى ظل أحلك الظروف : فهناك منبوذون متواضعون فى الجبال المغربية ، ثم أسهموا فى تحويل مجرى الفيزياء فى أوربا المعاصرة ، وقد كان لليهود ملامح معينة فى القطاع الإسلامى وأخرى فى القطاع المسيحى ، وفي هذا القطاع الأخير كان يهود قشتالة يتميزون عن يهود الأندلس أو شرق إسبانيا (٥) .

لا توجد حضارة عبرية بمعنى الكلمة فقد أدت المطاردات التى تعرضّوا لها على يد القوط إلى قيامهم بمدّ يد العون للغزاة المشارقة ، ولنتخيل أنهم أفضل من كانوا يعرفون المعلومات عن الاتجاهات التى سار عليها الغزو الإسلامى فى شمال أفريقيا فى الوقت الذى أسلم فيه البلاط فى طليطلة نفسه إلى دائرة الصراعات الداخلية إضافة إلى فقدانه للوعى القومى ، وتحسنت أحوال اليهود مع مجيء المشارقة وشاركوا هؤلاء السيطرة على طليطلة خلال القرن الثامن (٦) وسرعان ما ساروا على عادات جديدة وأصبحوا من البارعين فى ميدان الأدب العربى ، وعندما بلغ الإسلام فى إسبانيا أزهى عصوره السياسية خلال القرن العاشر بدأت الشخصيات اليهودية الكبرى فى الظهور على الساحة فها هو حاشداى بن شبروط (٩١٠ - ٩٧٠) الرجل الذى مارس مهنة الطب ووزير المالية وسفيراً لعبد الرحمن الثالث كما أنه مشهور بترجمته Dioscórides ، وهناك صموئيل بن نغريلا - الذى عاش خلال الفترة من ٩٨٢ إلى ١٠٥٥م - حيث أصبح وزيراً لملك غرناطة والسبب فى ذلك حلاوة أسلوبه فى كتابة الرسائل ، وخلفه ابنه يوسف فى نفس المنصب ، وفي مملكة سرقطة احتل ابو الفضل بن حاشداى (٧) مركزاً مماثلاً فى عام ١٠٦٦م ، غير أن كل هؤلاء أصبحوا أقزاماً إلى جوار إبراهيم بن عزرا (١٠٩٣ - ١١٦٧) المولود فى طليطلة ، وكذلك شلومو بن جابيرول .(١٠٢١ - ١٠٥٢م) ابن مدينة ملقة ، والطليطلى يهوذا آل ليفى (١٠٨٠ - ١١٤٠) وعلى رأس كل هؤلاء هناك بن ميمون القرطبى الذى عاش خلال الفترة من ١١٣٥ حتى ١٢٠٤م حيث إن أعماله الأدبية والعلمية والفلسفية تحتل مكانةً بارزةً فى تاريخ الحضارة الأوربية ، وهنا لا يمكن لى القيام بدراسة تلك الأعمال من جديد . ولنقل أنه لم يكن ممكنًا أن نرى هذه الشخصيات الكبيرة بدون الإسلام الإسبانى

وعندما اضمحل الحكم الإسلامى بعد القرن الثانى عشر أخذت تضمحل العبقرية الإسبانية العبرية وأصبحت منذ تلك اللحظة تعيش على الماضى ، وكتاب " حوارات الحب " لصاحبه أبرابانيل Abrabanel شديد الارتباط بعصر النهضة الإيطالية خلال القرن الخامس عشر كما أن فكر بنيتو إسبينوزا Benito Espinosq يُعد ثمرة - أوربا العقلانية رغم الأصداء العميقة لعبقريته العبرانية ، ولقد كانت غزوات المرابطين والموحدين ذات وقع سيئ على الإسبان اليهود وعلى المستعربين المسيحيين ، ففى عام ١٠٦٦م وقعت فى غرناطة مذبحة قُضى فيها على آلاف اليهود (٨) وهرب الكثير منهم للبحث عن ملجأ فى القطاع المسيحى وأخذت أعدادهم تتزايد مع بداية حرب الاسترداد كما كانوا ناقلين لأنماط الحياة الإسلامية وأنماط حياة المستعربين ، كما أن العرب كانوا أساتذةً للمسيحيين فى فن استخدام اليهود كأطباء وعلماء ومصرفيين وموظفين عموميين ودبلوماسيين وقائمين على أمر أملاك الدولة والنبلاء ، وقد كانوا يحظون بميزة فهم غير مسلمين ، كما أن عقيدتهم وسلوكياتهم أقرب إلى المسيحيين ، وقد وثق فيهم بعض الملوك والنبلاء ثقة عمياء ، وإلا تعرضوا للقتل إذا ما ظهرت خيانتهم ، وهذا ما فعلوه أيضا مع المسيحيين ؛ فعندما أرسل ألفونسو السادس سفارة إلى المعتمد ملك إشبيلية لتحصيل الضرائب المفروضة لم يكن الموكل بتحصيل هذه الأموال رجلاً مسيحيًا بل كان اليهودى ابن شالب [دوزى . الجزء الثالث - صـ ١١٩] .

ونعرف أيضًا أن اليهود - خلال العصر القوطى - كانوا يرشون رجال الدين المسيحيين ويحظون بحماية النبلاء رغم القوانين الصارمة الصادرة ضدهم . إلا أن الموقف تغير تمامًا فى عصر الملوك المسيحيين فقد تسامحوا معهم كما أعلن الملوك أكثر من مرة أنه لولا أبناء إسرائيل لأصبحت حالتهم المالية متدهورة وقد كانت الطوائف تدفع مبلغًا معينًا عن كل فرد كما تقوم بتسليم الأعشار إلى الكنيسة ، وقد ظل اليهود طوال فترة حرب الاسترداد يقومون بجباية الضرائب الملكية والضرائب المستحقة على الطوائف الحربية وكبار السادة ، ولم يكن من المستغرب تقديم خدماتهم إلى رجال الكنيسة .

كانت الطوائف تدفع هذه المبالغ الكبيرة التي كانت تصادف هوى الملوك ، ذلك أن من يقوم على هذا الأمر هم اليهود الذين يتميزون بمهارة كبيرة فى استثمار رءوس الأموال ، فما من مهنة إلا وامتهنوها ، وما من مسألة تتعلق بالأموال إلا وكانت لهم يد فيها ؛ كانوا يقومون بعمليات التصدير والاستيراد ويُقرضون المال بفائدة سنوية قدرها ٣٣٪ (٩) وقد أدت نقمة المقترضين وكراهية دافعى الجبايات إلى إحداث تأثير سلبى عليهم فى زمن استطاع به البسطاء من الناس – خلال القرن الثالث عشر – أن يملكوا زمام مبادأة كانوا يفتقرون إليها حتى ذلك الحين (١٠) .

وفيما يتعلق بالمنطقة المسيحية فلم تظهر شخصية لها قامة يهوذا اللاّوى أو ابن ميمون كما لم يكن بين المسيحيين من هو على شاكلة ابن حزم أو ابن رشد أو أى مدارس فكرية تساهم فى خلق المناخ الملائم للتأمل اللاهوتى أو الفلسفىّ وقام اليهودى بتطبيق تراثه المعرفىّ على الحياة العملية (ممارسة الطب وعلم الفلك الذى ينبئ بالمستقبل والأخلاق والقانون وصناعة الأجهزة الفنية والترجمات ...) ، كما تأقلم على إطار المصالح الذى رسمه السادة المسيحيون وبذل جهده فى إرضائهم وأتى بكل مالا تعرفه المسيحية أو تريد فعله واستطاع بذلك العيش فى سلام بممارسة قدراته وتفوقه على سلالة السادة ، ولقد كان هؤلاء يكرهون العمل الدءوب المدرّ للدخل ولم يشغلوا أنفسهم كثيراً بإعمال الذهن فى المسائل الفكرية ، غير أن العقلية اليهودية – خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر – لم تبلغ فى هذه الآونة ما بلغته خلال المرحلة التالية أى خلال القرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر (١١) ؛ إذ صارت بصماتها واضحة فى الأعمال القانونية والتاريخية والفلكية التى ألفها ألفونسو العالم وبدونهم لا يمكن فهمها ، ومن بين اليهود فى بلاطه نجد " السيد يوسف عالم الفلك (Baer , II , 51) بالإضافة إلى آخرين سوف نتحدث عنهم ، أما اليهودى أبومار بن سوسن (Baer II, 21) فقد كان عالم فلك فى بلاط ألفونسو الثامن ، وفى عام ١٣٤٩ أمر بدرو الثالث ملك أرغن **Aragón** أن يؤتى بالمعلمّ سليمان ويسلّم له كتاب بالعربية ليقوم بترجمته " إلى لغتنا " ، ويتولى المعلم ألفونسو " عام ١٣٥١م " ترجمة كتاب عن الفلك والشخصيات " (١٢) ؛ وفى عام ١٣٤٦ يتعاقد بدور الرابع (ملك أرغن) مع

طبيب هو "المعلم مناحيم " للقيام ببعض التجارب العلمية ، ويقوم دافى بن جوريون بتصنيع عدة إسطرلابات لنفس الملك المذكور ، وقد كان كريسك دى بيبرس يعمل كعالم فلك لدى خوان الأول ملك أرغن (١٩٣١م) [Baer T 259, 310, 570] .

وفى المدن التى تتواجد بها جاليات يهودية كبيرة كانت هناك مدارس تنفق عليها الطوائف .، وهناك معلومات عن مدرسة فى ثيربيرا Cervera (١٣٢٣) وأخرى فى قلعة أيوب Calatayud ، ومن كان يدرس فى هذه المدارس يُعْفَى من دفع ضريبة الرءوس حتى الثالثة والعشرين من العمر ، وقد أسهم أغنياء اليهود فى الإنفاق على تلك المؤسسات ، ومن بينهم يوسف كوهين الذى بنى مدرسة فى طرطوشة Tortosa لفقراء اليهود وزودّها بدار للضيافة ومكتبة وتبرع بألف وحدة عملة بَرْشِلُونِيّة للإنفاق عليها (١٣) ولو لم تؤثر الكوارث وغضب الناس على حجم الوثائق المتوفرة لدينا ، لكنا قد عرفنا الكثير عن هؤلاء الناس ، وهنا نضيف إلى نمط إنسان العصور الوسطى من الطبقة المتوسطة ومن غير رجال الدين – والقائم بالعمل فى دائرة البحث العلمى وهو اليهودى ، وقد كان الأمر كذلك حتى نهاية القرن الرابع عشر ، ومن الأمثلة البارزة على ما نقول نجد ليوموسكونى الذى كان يسكن – فى عام ١٣٧٥م – فى منزل به آثاث مريح مرتفع الثمن ، ولديه عدد كبير من الكتب عن اللاهوت والفلسفة . والطب والرياضيات والآداب (١٤) .

ألفونسو العالم واليهود :

لا يمكننا أن نفسر ظهور عدد كبير من كتب التاريخ والقانون والفلك المكتوبة باللغة القشتالية فى بلاط ألفونسو العاشر إذا ما اقتصرنا على القول بوجود ملك مُحبّ للعلم ويريد نقل المعارف إلى لغة يعرفها الجميع ، فهذا نوع من التجريد ، حيث لم نضع فى الاعتبار المجال الحيوى الذى كان فيه الملك ، أو الظروف المحيطة به ، ولم يكن يخطر على بال أحد فى أى بلاط أوربى خلال القرن الثالث عشر ، تأليف كتب مثل " التاريخ العام ،" وكتب معرفة الفلك " أو القوانين السبعة " مكتوبة بالعامّية ، ولم يحدث أيضًا أن

تمت ترجمة الكتاب المقدس بكامله خارج إسبانيا خلال ذلك العصر (G. Gräber, Grundriss,II p.714) ، ويتضافر ذلك مع ظاهرة ندرة كتب اللاهوت والفلسفة والعلوم والقانون (ذات القيمة) والمكتوبة باللاتينية ، وعلينا أن نتأمل ببساطة شخصيات مثل سيجر دى باربانتى Siger de Barbante وروجير باكون والقديس توما أو فى مجموعة القانونيين فى بولندا .

وبين أيدينا الآن دراسة بيبليوغرافية مهمة عن المخطوطات العلمية خلال العصور الوسطى [١٥] وهى مخطوطات لم تكن معروفةً بشكل جيد حتى الآن ، وعند القيام بإجراء فحص دقيق للنصوص العربية التى ترجع إلى القرن العاشر وتليها تلك المتعلقة بالقرنين الثانى عشر والثالث عشر ، نجد أن المؤلف يلاحظ كيف أن " هذه الحركة الثقافية التى نراها بين المسلمين الإسبان سرعان ما انتشرت خارج هذه المنطقة وأشرقت كأنها الفجر على المسيحيين الأوربيين الذين كانوا شبه نائمين فى ظلمات العصور الوسطى " [صـ ٦] ، وهذا أمر معروف رغم أننا لم نُدَقّق النظر فيه كثيراً ذلك أن المسيحيين الأوربيين – وليس الإسبان – هم الذين أقاموا قنوات اتصال فكرى باستخدام مسائل كانت فى متناول المسيحيين الإسبان [١٦] ؛ وقد أفاد أقدم مركز علمى فرنسى ،(وهو مدرسة شارتر Chartres) من فكر العرب الإسبان قبل أن تبدأ فى طليطلة الترجمات خلال القرن الثانى عشر ، وقد قام كل من الأسقفين ميشيل وريموند أسقف تراثونا Tarazona وطليطلة بدور الجسر للأجانب الفضوليين والمتعطشين للمعرفة الشرقية فى بداية ذلك القرن ، وقد جاء إلى طليطلة وغيرها من المدن أناس متعطشون للمعرفة واستخدموا اليهود الإسبان كمترجمين للمخطوطات العربية ، ومن أشهر هؤلاء اليهود كان موسى السفردى (أى بدرو ألفونسو الذى تحول إلى المسيحية) وأبراهام بارجيه وابن داود (أى خوان اسبالنسى أو اسبانسى) وقد انتقلت علوم المسلمين من خلال هؤلاء وآخرين غيرهم أقل منهم مكانة إلى أوربا (وتشمل الفلسفة والفلك والرياضيات والطب) ، كما نعرف بعض أسماء الذين تولوا خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر صياغة بعض الأعمال المكتوبة باللاتينية الملحونة والقشتالية باللغة اللاتينية السليمة : هناك أفلاطون دى تيفولى (Plato Tiburti-

mus) وجيداردو دى كريمونا وهوجو سانتايِنسى Hugo Samctallemse وأديلاردو دى باخ A.de Bath دروبرتو دى رتينس R. de Retines وميـجل سكوتو M.Scoto وهرنان الدالماتا H. Dálmata ورودولفوى بروخاس R. de Brujas وهيرمان الألمانى (١٧) ، فما الذى كان يفعله مسيحيو قشتالة إلى جانب الاستيلاء نهائيًا على طليطلة وقرطبة وإشبيلية ومرسية ؟ لقد كان دومنجو جونثا ليث هو المفكرّ الوحيد ذو القامة (Dominicus Gundisalvus) الذى تلقىّ تعليمه فى جوٍّ إسلامى يهودى ولم يؤثر فكره على أى شىء فى قشتالة . وقد وضع السيدّ مياس بايكّروسا Mill?s Vallecrosa أسماء جديدة لكنها غير ذات دلالة وهى : الباروذى أبييدو . A. de Oviedo (فى نهاية القرن الثالث عشر) وهو من قام بتصحيح وتنقيح الترجمات من العربية وقد فعل ذلك بغية إيضاح " كافة أخطاء الفلاسفة العرب " وخاصة ابن رشد (١٨) . وعارضت قشتالة – ونحن نعرف كيف ولماذا – كل ما من شأنه إضعاف عقيدتها وعزيمتها ، بالإضافة إلى البارو دى أو بييدو فقد كان الأثر الثقافى العربى واضحًا فى نهاية القرن الثالث عشر وذلك فى I sagoge ad tegni Galeni لرجل الدين ماركوس {مياس صـ ١٢٠} .

نرى إذن قلة النصوص اللاتينية الصحيحة وهذا يتناقض مع كثرة الترجمات إلى اللغة القشتالية أثناء عصر الملك ألفونسو العالم ، ويجب أن نفهم ذلك كوسيلة للتعبير عن السياق المسيحى الإسلامى اليهودى ، الذى هو محصلة الأهمية التى بلغها الإسبان العبريون واهتمامهم بوضع المبادئ الأخلاقية والعلمية فى متناول مجتمع الصفوة حيث يقوم سلطانهم وشهرتهم ، ولقد عبرت قشتالة فرناندو الثالث عن قوتها وقدرتها على السيطرة على أفضل المناطق فى الأراضى الإسلامية ، كما أن تأثيرها على التاج فى أرغن كان واضحًا ، ولقد تمتع ألفونسو العاشر بثمرة إحدى الجهود العسكرية (معركة العُقاب وقرطبة واشبيلية) التى لم يكن ليقوم بها ، كما حاول توسيع دائرة ملكه من خلال مهاراته السياسية أكثر من استغلال قدراته العسكرية ولأول مرة نرى الشعر والعلوم يحظيان بمكانة رفيعة فى البلاط الملكى كما دخلت المعرفة والخيال إلى لعبة السياسة ، وهانحن نرى فارس معارك الاسترداد يتقمص تاج المعرفة وذلك حتى تتمكن اللغة من تكملة الجهود العسكرية للتوحيد ، وهذه الأخيرة

أصبحت على وشك أن تترك موقعها لسلطان القانون والعقل الأخلاقى ، فالطموح يأتى بعد الحدث ، فقد كان الملك يطمح للسيطرة على جاسكونيا Gascu´na وعلى المملكة الألمانية، وبذلك كانت قشتالة المنزوية فى أحد الأركان تعمل على أن تعلو إلى مصاف العالمية ، ولقد كان المنشدون البرفنساليون يتناقلون قدرات ألفونسو بالمديح والثناء (١٩)؛ كما أن علماء الإنسانيات فى إسبانيا وفرنسا أو إيطاليا كانوا يلبون العديد من المطالب المتعلقة بالثقافة بينما يحتل المور واليهود مكانة رفيعة خلال ما هم عليه من معارف وعلوم ، غير أن ذلك كله معروف ومعروفة نتائجه ، ولم يترك الملك شيئًا يتعلق بذاته ويمكنون نفسه ولم يتبوأ وضع الاعتراف كما فعل ذلك الكثير من الكتاب المسلمين ، ونحن نعرف ابن أخيه السيد / خوان مانويل بشكل أفضل من قريبه، وهذا ما يحدو بنا إلى القول بأن الملك العالم كان يتسم بالذكاء وبقدرته على إدارة الدفة الثقافية وهو فى هذا أكثر وأعمق من كونه روحًا ذات أبعاد عميقة ومضامين أصيلة غير أن إبراز طبيعته كسياسى عظيم فى ميدان العلم والمعرفة لا يعنى التقليل من قيمته بل المراد إيضاحها وفهمها .

نجهل كيف تربى ، وأسماء من قاموا على تنشئته ، وشجعوه على الاهتمام بالنواحى القضائية والتاريخية والفلكية ، والشىء الذى يميز قدرته هو رؤيته لمصير الإنسان ، وصلة ذلك بقوى الأفلاك والنجوم ، فى إطار الزمن التاريخى ، وجماع الحياة الاجتماعية التى نرى إيقاعها فى كتاب " القوانين السبعة " . وقد قام ألفونسو – بصفته إسبانيًا أصيلاً – بدمج عظمة مفهومه المسيحى الشرقى للعالم مع عظمة وجوده ، وحلُم بصعوده إلى القمة فى زمانه – أى التاج المقدس للإمبراطورية الرومانية – وهو حلُم لم يتحقق إلا فى الفخامة التى أحاط بها نفسه ، ومن المؤكد أنه منذ ريعان شبابه سمع أصواتًا تحفزه على الصعود ، ذلك أن مشوار حياة بهذه العظمة لا يبدأ من خلال ما يعن للمرء بطريقة عفوية .

وتبتعد عن ذهننا الفكرة التى تحاول أن تعزى هذه الظاهرة الضخمة إلى سبب واحد ، وبالتالى لابد من أن نضع نصب أعيننا الظروف التى كان عليها الإسبان

العبرانيون فى منتصف القرن الثالث عشر . وخلال القرن الثانى عشر كان ابن ميمون يكتب بالعربية كلغة من لغات الحضارات إذ كان الشرق المحور الذى يدور حوله وابتداءً من منتصف القرن الثالث عشر أصبحت قشتالة أفق الإسبان - العبرى وقد أخذ يداعب مخيلتها فكر إمبريالى كشفته العقلية اليهودية الحاذقة كما كان ذلك متوافقًا مع الازدهار الذى عاشه البلاط الملكى ، وهنا تكفى عملية المقارنة بين الوثائق الصادرة فى عهد ألفونسو العالم والوثائق الصادرة عن سابقيه حيث الخط الممتاز والقوائم المطوّلة لمن كانوا يسيرون فى الركب ، وحيث تظهر أسماء بعض الملوك المسلمين كتابعين وكذلك عدد كبير من رجال الدين والنبلاء ، ونجد اليهودى الذى شعر قبل ذلك مشدوهًا ومأخوذًا بصعود نجم صلاح الدين حيث ذهب ابن ميمون ليعيش فى بلاطه يتوجه الآن بناظريه نحو البلاط القشتالى ، ومع ذلك فهناك فارق وهو أن اللغة العربية التى كان يستخدمها الإسبانى العبرى هى ابنة حضارة تسيطر عليه كما أنها بلغت شأوًا عظيمًا بدونه ، والأمر فى قشتالة جد مختلف فالمعرفة قليلة وكان يكفى أن يقول اليهودى شيئًا عن الثقافة الإسلامية اليهودية أو يكتبه بالقشتالية (لغته مثل العربية) حتى يوضع فى مصاف الكبار ، وإذا لم يكن لهم منافسون فى علوم الإدارة خلال العصور السابقة وكذلك فى دائرة التجارة والطب ، نراهم الآن فى صراع مع أناس على علم قوى بالثقافة الإسلامية ، ولقد كانت المناطق الإسلامية التى سيطر عليها القشتاليون على نفس شاكلة إيطاليا التى احتلها ملوك أرغن : أى أنها كانت مصدر علم وتمييز ، وبذلك نرى اليهود يقومون خلال القرن الثالث عشر بدور شبيه بالذى قام به علماء الإنسانيات الإسبان خلال القرن الخامس عشر بعد أن تلقوا تعليمهم فى نابولى وروما وبولونيا ، وما تم البحث عنه بعد ذلك من المبادئ الأخلاقية القائمة على الفلسفة الجديدة لسنيكا Séneca والتى تنسب إلى بترارك Petrarca؛ نجده خلال القرن الثالث عشر فى المفاهيم الأخلاقية الإسلامية التى تم نقلها إلى القشتالية والاحتمال كبير أن المترجمين اليهود الذين قاموا بهذا العمل (٢٠) . وما أطلق عليها خطأ خلال القرن الثانى عشر " مدرسة المترجمين فى طليطلة " ، نجدها تعمل لحساب الأجانب المتعطشين للفلسفة والرياضيات والعلوم الطبيعية ، أما " مدرسة المترجمين "

خلال القرن الثالث عشر فقد قامت بالترجمة إلى اللغة العامية وليس إلى اللاتينية وحملت على عاتقها تلك الجوانب التى تخدم الأهداف التى يسعى إليها الملك ألفونسو وهى الإمساك بتلابيب ما هو " إنسانى " وما كان عليه الإنسان من الناحية التاريخية وماتحدثه النجوم من تأثير على قدره . إذن لم تشغل المشكلة " النظرية " لواقع الأشياء الملك العالم وهو نمط من الفكر يتسق تمامًا مع المنظور اليهودى ، الذى يعنى بالأخلاق والقانون والفلك والعلوم التطبيقية أكثر من ميله للرياضيات والفلسفة المحضة ، وعلى أية حال فشخصيات علمية مثل ابن رشد وابن سينا ليس لها نظير عند اليهود .

كان هناك بعض من كبار علماء اليهود فى بلاط ألفونسو العاشر ، ولم يكونوا صامتين أو متكاسلين سواء بالقلم أو اللسان ، وتمثل عملهم فى تقريب المعين الثقافى الإسلامى المشوِّق الذى كان يجهله علية القوم ولسنا نعرف شيئًا عن دورهم فى تنشئة الملك ثقافيًا ، لكننا نعرف أن حماه خايمى الأول ملك أرغن " تلقى العلم على يد الحاخام موسى بن نعمان " (٢١) أما ابنة الملكة بيولانتى Violante – زوجة ألفونسو العاشر – فقد كان أحد أقربائها السيد / تدرس آل ليفى أبو العافية (العراف والشاعر) (٢٢) وقد ظل مرافقًا للملكة فى بيربنيان Peripi´nán عندما ذهب السيد / ألفونسو لمقابلة جريجوريو العاشر فى بيوكير Beaucaire (عام ١٢٧٥م) بغية الحصول على مساندته فى نواياه الإمبريالية ؛ ويقول السيد تادرس فى أحد أشعاره : أمر جيد للغاية الوفاء بما يأمر به الملك ، فالسيد ألفونسو يقضى على كل من يناوئه ، وأوامره مطاعة ، وليس به أى شر ، ولا أحد يستطيع أن يحصى فضائله ، كما لا يمكن لأى قصيدة أن تتضمنها جميعها ، فمن ذا الذى يستطيع إحصاء كل خير وضعه فيه الله ؟ المهمة طويلة واليوم قصير " (٢٣) .

كان الإطراء على المملكة وعلى عظمة الملك عملاً من أعمال اليهود ، فها هما اسحاق بن سيد ويهوذا بن موسى مؤلفا " الوصايا " ،يطلقان على أنفسهما أتباع ألفونسو alfonsies وهاهما يعرضان فى الفصل الأول أن تكون مملكته بداية لتقويم جديد ، أما اليونانيون فقد بدءوا عصرهم الجديد مع الملك ألكسندر :

"فلقد اتخذ الرومان العام الذى بدأ فيه حكم قيصر كبداية تقويم جديد .. وفعل العرب ذلك ابتداء من العام الذى هاجر فيه محمد من مكة إلى المدينة . .. وفعلها المور أيضًا عندما انتصروا على ملك الفرس ... ونحن فى زماننا هذا نرى وقوع أحداث عظيمة وجليلة مثل تلك التى وقعت فى الماضى وهذه الأحداث هى بداية عهد السيد الملك ألفونسو الذى اتسم بالمعرفة والعقل والحكمة والقانون والرّحمة والنبل وتميز بكل هذا على سابقيه من الملوك العلماء ، ولهذا رأينا أن نبدأ تقويمًا جديدًا ومع بداية حكمه مثلما حدث ذلك فى العصور الأخرى وذلك حتى يُخلَّد ذلك الملك النبيل على مدى العصور (٢٤) .

ويلاحظ أن الفقرة السابقة مفعمة بالمعانى الجليلة ، وقد استثنيت منها تلك العصور القائمة على معتقدات سماوية " من عند الله " (٢٥) ، وهى قصة الخلق فى الديانة اليهودية وظهور المسيحية ... وهنا نجد المؤلف يهمل ظهور الإسلام ويعتبره من الأحداث التاريخية التى لا علاقة لها بالوحى ، كما ينسى المؤلف المعجزات السماوية ويستعرض خبراته المعرفية من خلال مفهوم الزمن ، أما الوعى بالزمن فكان العصا التى اتكأ عليها الإنسان المعاصر عندما بدأ مسيرته ككائن مستقل ، ويلاحظ أن غيبة ما هو إلهى فى النص الذى نحن بصدد تحليله، والتعبير عن الزمن كمُعَايشة شخصية، هما ظاهرتان تتلاقيان فى نفس الرافد ، أما موضوع الفقرة فهو الأمجاد السالفة ، ومحاولة وضع أسس أمجاد فى المستقبل بالبدء " بزماننا هذا " حتى " يستمر إلى الأبد " ، ولا يعنينا الآن إن كانت تلك المحاولة قد فشلت أو لا فالغاية هى أن نرى – وببساطة – ما يتضمنه نص قشتالى يرجع إلى القرن الثالث عشر حيث يتولى فرُد ما – من منظور معايشته لحاضر – من تغطية الماضى والمستقبل باستخدام نوع من التدرّج " . . . استولوا ... يستخدمون الآن من جديد ... نرى فى زماننا " ، ولا يمكن تصوّر أسلوب كهذا عند مسيحى من مسيحييّ القرن الثالث عشر كما أنه أسلوب يبشر

بالتيار الإنسانى الذى نجده فيما يسمى بعصر النهضة ويلحّ على وجود بذور نهضوية فى إسبانيا الإسلامية - اليهودية إلا أنها لم تثمر بالكامل (انظر الفصل السابق)

والإيقاع القوى الذى عليه الفقرة المذكورة يعتمد على يقين بأنه تمت السيطرة على قشتالة من الناحية الثقافية ، ومن هنا ندرك سرّ وضع ملمح الزمن المستقبلى فى محاولة من اليهودى لنسبتها لنفسه بشكل ما ، وإضفاء الصبغة الإسبانية على الثقافة الإسلامية كان أحد تلك المحاولات حيث يمكن للملك ولكبار السادة أن يفيدوا منها دون كثير حرج أو مضايقة للرجل القشتالى ، كان اليهود - وليس القشتاليون - يعرفون وينقلون الكنوز التى تخبئها لغة الإسلام ابنة الحضارة التى أخذت نارها تخبو ، وقد كان اليهود وحدهم الذين يستحثون الرغبة الملكيّة فى قراءة موسوعة المعرفة ، باللغة الوحيدة التى يتحدث بها ، وأن تكون نقطة البداية " العهد القديم الذى تم ضمّه إلى كتاب التاريخ العام بالإضافة إلى ترجمة له مع العهد الجديد ، وبهذه الطريقة ندرك السرّ فى توجه ملك - يعتبر عالمًا - نحو كتابة التاريخ والقانون والعلوم باللغة الدّارجة وليس باللاتينية التى كانت اللغة الوحيدة لنقل كل تلك المعارف فى أوربا المسيحية فى منتصف القرن الثالث عشر ، غير أن الثقافة الحية فى قشتالة كانت مسيحية وإسلامية ويهودية فى آن واحد والقاسم المشترك هو اللغة التى يفهمها هذا الخليط العجيب من البشر ، وقد وَضُح فشل القوة الأفريقية التى حاولت إنعاش الإمبراطورية الإسلامية فى إسبانيا وإخراجها من حالة الاحتضار فلم تعد قادرة على القيام برد فعل إزاء ما يحدث ، وتأكدت قشتالة كقوة مسيطرة بلا منازع ، كما سطع نجم الإمبراطورية فى شبه الجزيرة على عرش الفونسو العاشر ، وربما تجاوز ذلك إلى أوربا ، ولما كانت الإمبراطورية فى حاجة إلى لغة لثقافتها فقد عرض اليهود (اليقظون دوما) ظهور " عصر ألفونسو " وبحثوا عن المادة التى يثرون بها لغة الحوار اليومى ، والتى تتوافق مع النمطية الخاصة للحياة القشتالية ، ولم يكن السبب فى الإنجازات الأدبية لتلك اللغة هو الإبداع الجمالى على المستوى الفردى - كما هو الحال فى اللغة الإيطالية - بل الأعمال المتعلقة بالنظريات والأخلاق والتجرد والتحدث فى السلوكيات وليس تغذية الخيال والمشاعر والأحاسيس .

ويقول السيد ألفونسو فى تقديمه لكتاب الحدادة " El libro de las armellas"
أمرنا الحاخام كاج الطليطلى (إسحاق بن سيد) أن يقوم بترجمته وأن تكون لغته مفهومة بغية أن يفيد منه أى إنسان يطّلع عليه " (٢٦) ؛ وهذه عبارة توضح لنا مدى فهم الملك للعلم ، وهو فهم بسيط للغاية لدرجة لا يستثير معها أى تعليق ، ولو كان السيد ألفونسو معنيًا - فى واقع الأمر - بعلم الفلك لكان قد فكّر فى مشاكله وليس فى سهولة فهمها دونما متاعب ، غير أن اليهودى كان يناسبه كثيراً إذكاء الفضول الملكى حتى يظل فى حاجة إليه .

وتوافقت هذه الرغبة فى الكتابة باللغة العامية مع قلة ميل اليهودى إلى اللاتينية وسيلة التعبير الوحيدة التى توحّد المسيحية الغربية ، وقد كانت العبرية اللغة الوحيدة التى يتقنها ويفضلها ثم تليها العربية كوسيلة للتعبير عن الثقافة الأرقى ، وابتداءً من القرن الثالث عشر فُرضت عليهم القشتالية كلغة الوطن الوحيد الممكن لديهم آنذاك ولم يكن المسيحيون يعتمدون على النصوص القشتالية للإنجيل فى صلواتهم ، غير أن الإسبان اليهود كانوا يفعلونها ، واعتبروا أنفسهم الوحيدين الذين يقرءون العهد القديم باللغة القشتالية ، وفى عام ١٤٨٧م نجد محاكم التفتيش توجه اتهامها لشخص يدعى بدرو سيرّنو لأنه " يقرأ الإنجيل باللغة الرومانثية فى منازل اليهود " {Baer II, 476} ، وكان ذلك يحدث منذ القرن الثالث عشر وهو تاريخ أولى ترجمات العهد القديم ، وهو دليل تاريخى على ظهور - توجهات ثقافية مكتوبة باللغة الدارجة ، وهذا يرجع فى المقام الأول إلى الحاجات الحيوية لليهود ، وقد ساعدت اللغة الدارجة المستخدمة فى هذه المؤلفات كلاً من السادة ورجال الدين على معرفة جوانب من الفكر الإسلامى بعد أقلمتها على أنماط الحياة القشتالية ،وقد أدت هذه المؤلفات إلى إذكاء الحالة المعنوية وابتعدت عن الجوانب الذاتية .

ولو تمكنّا من التوصل إلى وسائل التعبير المنوعة فى القشتالية قبل القرن الرابع عشر لعثرنا على مفتاح رؤيتها للعالم ، لكننا اليوم فقدناها ، كما أننا نفسر غيبة الشعر الغنائى وميلاد النثر التعليمى بتدخل اليهود ، فما يدور فى الضمير يمكن وضعه

على الورق طالما لا يخل بالنظام الاجتماعى السائد (الدين والأخلاق والبذل) فى حياة قشتالة ، وقد كان ممكنًا كل ما له علاقة بالمُعتقَد أو يقوم عليه الاعتقاد فيما وراء الطبيعة (أشعار بيريثو Berceo) أو فى المزايا الأخلاقية للرجل المثالى الذى دفع بقشتالة إلى العلا (الأشعار الملحمية) أو فى القوانين ومبادئ الأخلاق ! كان الناس يعيشون فى إطار هذه المعتقدات بشكل شامل ومغلق ، ولم يكن ممكنًا أن يكتب ملك قشتالى - مثلما فعل خايمى الأول ملك أرغن - ويقول بأن غزو مدينة كبرى مثل بلنسية تم من وراء ظهر النبلاء ، أو أن يسدى النصح لملك آخر بإلغاء قوة كبار السادة فى بلاطه ، ولمّا كانت قشتالة على هذا النحو تمكنت بالتالى من السيطرة على أرغن وجليقية و لم يحدث العكس ، فالاعتقاد فى القيم المطلقة لم يكن مقدمًا على الحياة فى قشتالة مثلما حدث فى حالة جليقية واعتقادها فى سانتياجو ، لم تتخل العقيدة عن مكانتها للعقلانية أو الدهاء ، فقد كان سانتياجو هو سبب قوتها (بالتوافق مع القديس ميّان أو أى قديس آخر) وتتضافرمعه الأساطير الإنسانية (القضاة : لاين كالبو ، نونيو راسورا وكونتا قشتالة) ، والفقرة الرائعة التى كتبها ابن حيان عن الكونت سانشو جرثيا تقع فى مكانة وسط بين ما يتجاوز الحدود الإنسانية والقصائد الملحمية وقد كان الإيمان بهذه الشخصيات - فرنان جونثاليث وأميرى لارا والسيد والقديس دومنجو دى سيلوس - يتلاحم مع الوجود القشتالى إذ لم يكن مجرد عمل أدبى أو فرصة لسرد أحداث ووقائع ضخمة ، فالأدب المكتوب بالقشتالية (بمثابة بذخ وتسلية) لم يبدأ فى حقيقة الأمر إلا فى القرن الرابع عشر ، مع قمّص إيتا ، كما أن الملاحم كانت صدى للرغبات اليومية لهؤلاء البرجوازيين الذين يطلون من نوافذهم ليتأملوا السيد ، وقدّم بذلك رسمًا بيانيًا لحياة القشتالى بوجهيها - الحياة المتكاملة فى وحدة واحدة استقرت فى عقيدة متوافقة مع المنظور والأفق الذى يعيش فيه ، وكان المنشد يضم إلى قصائده الخبرة الحيوية للمستمع ويجعله مسموعًا من خلال نبض حياته ويلاحظ أن الطبعات المتتالية لأغانى الأحداث المتعلقة بأميرى لارا تضمنت أماكن مختلفة للمعركة التى سقط فيها هذان الأميران ، وهذا يتوافق مع كل مرحلة من مراحل حرب الاسترداد حسب تعليق مننديث بيدال ؛ إذن كانت الحدود الواردة فى العقيدة هى

التى يشعر بها المستمع على أنها حدوده وهذا يبرهن على تاريخية نص القصائد الملحمية ذلك أنها تعكس لنا حياة الفرد الذى يقرضها ، وكذلك الذى يستمع إليها ، لم يكن القصد من ورائها اللعب أو محض خيال ، فأسبرطة السلتية الأيبيرية باعدت نفسها عن كل أنواع البذخ سواء كانت النتيجة فى ذلك لصالحها أو ضدها ، ولم تكن القصائد الملحمية إلا ممارسة تتوازى مع الحياة فكل جملة تعكس لنا نبض الاعتقاد الذى يرى كل شىء بشكل بديهى ليس فيه تعقيد .

استطراد جديد حول الأسلوب الملحمى :

يبدأ حديث الطفلة فى ملحمة السيد (الأبيات من ٤١ – ٤٨) بعبارة تقول " سيف فى ساعة طيبة " وينتهى " لقد حباكم الله برعايته وفضله " ، أى أن البداية هى الاعتقاد فى النجوم والأفلاك وأن السيد قد نُصب فارسًا فى ساعة طيبة ، وكذلك الاعتقاد فى الحماية الربانية ، ويحدث نفس الشىء " وهم خارجون من بيبار رأوا الغربان عن يمينهم / وهم على مشارف برغش كانت تحلق على يسارهم" (١١ – ١٢) كما أن متاعب السيد تنجم لأن الملك ليس كما كان يُعتقد أنه يجب أن يكون : " يا إلهى ياله من تابع صالح ! آه لو كان هناك سيّد صالح ! " {٢٠} ويلاحظ أن الجملة تتضمن أداتى وصل وربط وهما " الله " و " السيد " أى الملك ، غير أن هذه الأميرة هى التى أخفقت ، أما باقى الشخصيات والأشياء المهمة فهى كذلك لأن وجودها يدخل فى إطار الهالة المرسومة لها وفى انسجام مع القيم التى عليها الجميع " إنه مارتين أنتولينييث البرغشى الوفى {٦٥} ، اسمعنى يا سيد يا صاحب اللحية الغزيرة {٢٦٨} وأحيانًا ما تضم السمّة القوية جماع الشخص " ففتح ذراعيه واحتضن طفلتيه صاحب اللحية الجميلة {٢٧٤} وعندما رأى سيدى ابن بيبار {٢٩٥} لتى فى قلب قشتالة . سان استبان ، مدينة طيبة {٣٩٧} وهى مدينة سان استيبان دى غرماج طبقًا لروايات الجميع ، " لم يرد الدخول فى حرب مع الفونسو سيدى {٥٣٨} ، ولو فعل ذلك لكان قد خرج عن ولائه ، الذى هو نواة وأساس ذلك المجتمع السياسى " ومينايا ألبار هانييث

وكان القائد فى ثورينا {٧٣٥} ، أما الكونت فقد" ركبه الغرور فرد مزهواً : ... " {٩٦٠} وبذلك يضع نفسه فى مركز القيمة السلبية واضحة المعالم .

ويعتمد تركيب الجملة على تدرّج القيم المعمول بها ، فالقيمة العليا (إيجابية أو سلبية) تظهر فى المستوى الثانى على أنها انعكاس وسبب شعرى ووجودى لما ذكر قبلها ، وعندما نلاحظ وجود قطبى البيت فى صورة اسمية وفردية نجد النظام يتغير وتصعد إلى المقدمة السمة الأولى " باسم الربّ وباسم القديس الرسولى سانتياجو " {١١٣٨} أتضرع إلى الله وإلى السيد إيسيدرو {١٨٦١} " إليكم يا سيدى مينايا ألبار هانييث وإلى بيرو برموديث " (١٨٧٠) ، أى أن نظام وترتيب الجملة يرتبط بنظام قيمى ويقوم على قواعد فنية ، وعادة ما يتكون البيت من جزءين (وليس شطرين) يتولى الجزء الثانى منهما الارتقاء بمستوى معنى الجزء الأول ويتم ذلك سيراً على وسائل لا داعى لذكرها الآن . ومن هنا نجد أن المُنشد لم يكن يعنى كثيراً بعدد المقاطع فى كل بيت أو الإيقاع ذلك أنه لا يعتمد على العناصر الصوتية بل التراكيب ، فكل بيت شعر أو سطر غير مقفّى له معنى مستقل كما أن الجزء الثانى منه عبارة عن خبر مفصلى (ليس قاعدياً أو منطقياً) للجزء الأول : De mios yernos de Carri?n, Dios me faga vengas (٢٨٩٤) " انتقم الله لى من صهرّى أميرى كاريوّن " .

ويلاحظ أن القاعدة الأساسية لهذا النظام الشعرى تتوافق مع نفس فكرة الحياة القشتالية ، فكل فرد أو شىء يتم النظر إليه على أساس دائرة القيم التى تشع منه ولا يظهر وكأنه نتائج مجردة للتعبير عن ذاته : Roland est preux et، " olivier es Sage، والبدل هو الطريقة المستخدمة للتعبير عن بديهية القيم ، ويظهر الفعل فى صورة الاسم ويأخذ وظيفة الثناء والإطراء " Pena Cadiella, que es una pena fuort"((1330) Masavulla es del cid, que su andra crece tanto {١٨٦١} ، وليس القصد معرفة شىء بل تبريره من خلال عملية حدْس والبعد عن الميول الفردية لمن يتحدث ، فغطاء رأس السيد " مصنوع من الذهب واستخدام العقل فى صناعته {٣٠٩٥} ، ملحمة السيد إذن هى جزء من نتاج عصور وسطى ذات طبيعة خاصة ، ومن المنطقى تصوّر

أن الملاحم التى ضاعت هى على نفس شاكلة التى عثرنا عليها ، فالقشتالى كان يهرب من كل شىء ليس موضوعياً ولا يحمل قيمة جمالية وأخلاقية واجتماعية فالأنا الفرد هو الفحش ومعه الخيال الجامح والحسيّة والنقد العقلى وكل ما من شأنه أن يؤدى إلى التشتت والفوضى ، فالشخص وما عليه من معتقدات يشكلان وحدة متكاملة لا تنفصم عراها ذلك أنه يوجد ما يجب أن يكون ، كما أن الحياة هى سلوك أخلاقى ، وعندما تتم الإشارة للسيد وما حدث لابنتيه ، حيث تركهما زوجاهما فى غابة مليئة بالوحوش المفترسة بعد أن قاما بضربهما بوحشية وتركاهما عريانتين ومربوطتين إلى جذع شجرة .

تأمل الأمر طويلاً وفكرّ

ثم رفع يده ، وأمسك بلحيته (٢٨٢٨ - ٢٨٢٩)

لسنا نرى أثراً للانفعالات أو أفكاراً تخرج عن دائرة القواعد التى يسير عليها الجميع ، فالفكر هنا لا يعنى البحث عن حلول جديدة بل Comedir : بمعنى التعامل مع الوضع بنفس الدرجة التى يجب أن تكون ، أى اللجوء إلى عدالة الملك وإلى التقاليد الطيبة التى عليها قشتالة ، ونحن هنا لا نرى أفراداً بل أشخاصاً يحكمهم إيمانهم بأنفسهم وترتبط بالعقيدة التى تنتقل آثارها للجميع ، ولهذا نجد القشتاليين - خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر - يطلقون أسماءهم على القرى التى يؤسسونها .

ولا تدخل الملاحم القشتالية والفرنسية فى نفس الدائرة وعلى نفس الدرجة فالملاحم الفرنسية هى " مَسْرَحة " منذ البداية ، ورغم وجود النعت التقريظى فى ملاحم العصور الوسطى مثلما هو الحال فى العصور القديمة فإن الوظيفة المنوطة به ومعانيه تختلف فى كل حالة ، ومن المعروف أن العمل الدرامى يتكون من مسرح وممثلين غير أن ذلك لا يجعلنا نفكر بأن التراجيديا اليونانية يمكن مقارنتها بالمسرح على شاكلة " السيد دى بيبار " فيما يتعلق بمعايشة الشاعر و مستمعيه .

ولا يعتمد أسلوب الملحمة الفرنسية على الحدس البديهى بل على التحليل (أخذ رولان يشعر بأن الأجل آت / فقد بدأ الموت بالرأس وأخذ ينزل إلى القلب {٢٣٥٥ – ٢٣٥٦} وهنا نجد البطل يشعر بأن الموت أخذ يدب فيه بادئًا من الرأس وحتى القلب ، ويعبر عن ذلك بمنطقية بينما يستمع الحضور وهم مشدوهون ، غير أنهم خارج دائرة خشبة المسرح ، وتتسم قصائد ملحمية أخرى مثل Aliocamps و Loherens بـ " مسرحتها " ويجرى سردها سيرًا على سرد منطقى ، وعندما يذكر فى قصيدة السيد أن " سان إستيبان مدينة جيدة " إلى غير ذلك من الأمور ، يتم تداخل بين القارئ والقصيدة ، أما شكل الحياة فى الملحمة الفرنسية فهو غير الذى يحياه المستمع، وهذا الأخير يترك قياده لما يقوله المنشدون ، وبالتالى لا يمكننا الحديث عن نظريات مجردة عن الملحمة بل النفاذ إلى أسلوب الحياة التى هى عليه وهنا تكمن أو يمكن أن تكمن قيمتها ، ولا يمكن التقليل من قيمة أى عمل لأنه ينسب لهذا الصنف أو ذاك .

الأدب بهدف المتعة أو المسْرحة لم يكن موجودًا :

لا يُعنى هذا الكتاب بالترتيب المنطقى بل الهدف هو تأمل بعض المشاكل من أكثر من منظور ، وهنا نعود لنتمعّن من جديد فى عدم وجود شعر غنائى قشتالى ، غير أن المنظور هنا هو محاولة فهم ميلاد النثر خلال القرن الثالث عشر ، فذلك النوع من الشعر القائم على التجربة الذاتية والبعيد عن الموضوعية لا نعثر له على أثر فى قشتالة القرن الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر ، بينما تكثر الملاحم ، ورغم هذا فالشعر الغنائى كان يحاصر قشتالة من الجهات الأربع ، إلا أنها بذلت جهدًا فى مقاومتها يساوى نفس الجهد الذى بذلته فى نشر القشتالية فى تلك المناطق التى كان فيها ذلك الفن ممكنًا ، وكان من السهل الإفادة من اليهود والمور الذين يتحدثون بأكثر من لغة ليقوموا بترجمة ألف ليلة وليلة وأشعار عصر ملوك الطوائف أو مؤلفات ابن حزم أو يهوذا اللاوى إلى اللغة الرومانسية ، إلا أن شيئًا من هذا لم يدخل اللغة القشتالية

كما لم يدخلها فكر ابن رشد أو ابن ميمون ، ولوحدث ذلك لما استطاعت قشتالة أن تصنع نفسها بنفسها ولم تكن بقادرة على إضفاء الروح الوطنية على إسبانيا ، فلم تكن قادرة على الهروب من دائرة معتقداتها فها نحن نرى برنال دياث دى كاستيا ينام بملابسه ويحمل السلاح حتى وهو طاعن فى السن . كان القشتالى يعيش الوضع بكامل كيانه حيث وجوده فى إطار العقيدة وقد خلا وتباعد عن أى تعبير عن الذات وهو الاتجاه الذى كان سائدًا عند المسلمين إذ يدخل متوائمًا مع عقيدتهم ، وكانت الأوضاع الاجتماعية والمحمودة والأرثوذكسية جدرانًا لا يمكن تجاوزها عند التعبير الكتابى ، ولقد عاش الشعر العربى فى قشتالة على طريقة نهر وادى أنه Guadiana وكان يسير تحت الأرض ولم يظهر إلا بعد ذلك على شكل جداول صغيرة وقليلة المياه . فلم يكن الأدب فى قشتالة بذخًا كاملاً للتعبير عن المشاعر والخيال (٢٧) ولو كان هناك شاعرٌ قشتالى على شاكلة Chrétiem de Troyes لما وجد لنفسه مكانًا فى بلاط ألفونسو الثامن أو ألفونسو العاشر اللذين لا يشبهان بلاط مارى دى شامبانيا ، وقد لاحظنا قبل ذلك أن جوانفيل Joinville عندما كان يحارب فى مصر كان يتذكر السيدات فى بلاط سان لويس (لم يكن مكانا للهو) . أما الذين كتبوا شعرًا غنائيًا للبلاط القشتالى فهم الشعراء البروفنساليون وظل الأمر كذلك حتى القرن الثالث عشر وتلاهم الجليقيون (٢٨) ، ففى عام ١١٣٨م نجد المنشد ماركابرو Marcabrú إلى جوار ألفونسو السابع ، وقد ألف له قصيدة موعظة يحث فيها السادة فى جنوب فرنسا على البعد عن الملذات وأن يهبوا لقتال المور ، كما قام المنشد كافادان Gavadân (١٢١١م) بفعل نفس الشيء عندما أخذ ألفونسو الثامن يعد العدة لقتال الموحدين ، نرى إذن أن فن المنشدين عندما يدخل إلى قشتالة يصبح فى خدمة السياسة الدينية ويأخذ الأبعاد القشتالية ، كما يستخدمه الملوك كوسيلة للدعاية على المستوى العالمى ، فألفونسو السابع الإمبراطور كان يطمح إلى أن تضم امبراطوريته دوقية أكيتانيا .

وفى بعض الحالات الأخرى نجد الإنشاد البروفنسالى يقوم بدور مسرحى لإمتاع الملوك فى بلاطهم ، وكان عمادهم فى هذا على الموسيقى أكثر من الكلمة ، غير أنه عرض مسرحى يبتعد عن المتعة على الطريقة التى كانت عليها الممالك الإسلامية ويقترب

من الأوبرا الإيطالية خلال القرن الثالث عشر والتى ظلت مصدر إمتاع ، حتى القرن العشرين ، بالنسبة للطبقات الثرية فى إسبانيا ورغم ذلك لم تسهم فى ميلاد أوبرا إسبانية. كما فشلت محاولات غناء الأعمال الأوبرالية بالإسبانية فقد كان ردّ الفعل غير مشجع على الإطلاق (٢٩) وقد حاز هذا النوع من المسرحة اهتمام الأجيال المتعاقبة بسبب الموسيقى أما الحديث الدرامى فلم يبدُ إلا وكأنه زيف أو عدم اتسّاق . وحدث شىء مشابه للإنشاد البروفنسالى فى قشتالة خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر والسبب فى ذلك هو عدم توافقه مع نمط الحياة القشتالية

وأقصى ما فعلته قشتالة هو أنها تركت الإنشاد البروفنسالى و أحلت محله الجليقى الذى هو تقليد له ، وكانت اللغة غير المعروفة (رغم أنها أكثر قربًا من اللغة البروفنسالية) بمثابة قناع يتوارى وراءه القشتالى وينسى القواعد و السلوكيات ويميل إلى رفع ساقه إلى أعلى قليلاً على طريقة ما كان يحدث فى كرنفالات القرن التاسع عشر ، ووصل الأمر بالفونسو العاشر إلى كتابة أعمال غير لائقة بالجليقية (٣٠) كما كتب فى الوقت ذاته قصائد للعذراء باستخدام خليط آخر من العبارات الإسبانية ، ولم يكن من الممكن كتابة هذا الصنف أو ذاك بالقشتالية ، وهنا تدخل اللغة الجليقية كصمام تنفيس وتعبير عن المشاعر والشطحات غير النقية .

وعودة إلى اليهود :

ولنطلق على هؤلاء الذين كانوا يعملون فى خدمة ألفونسو العاشر لقب "المعاونون" وهم أناس غير معروفين اللهم إلا هؤلاء الذين قاموا بترجمة وتحرير الكتب المتعلقة بعلم الفلك ، وبعد ذلك لاحظنا زيادة عدد القشتاليين من المحررين فى بلاط ألفونسو العاشر والعاملين فى مجال التاريخ والقانون ، لكن لا يمكن أن نعزى إليهم أنهم الباعث الجوهرى على تحرير المادة العلمية باستخدام اللغة الدارجة ، فقد كان ذلك بعيداً عن إطار المنظور المسيحى الأوربى ، ومن الواضح لدينا أنه لا يمكن الاعتماد على الوثائق لشرح ظاهرة مثل هذه، ومع ذلك يجب أن نبذل بعض الجهد لفهم تلك الوقائع التى كان

لها تأثير حاسم فى تاريخ اللغة الإسبانية ، فلا يكفى القول بأن الملك أراد ذلك وانتهى الأمر ، فلم يكن ألفونسو العاشر ليأمر بكتابة تاريخ العالم وعلم الفلك والموسوعة القانونية باللغة القشتالية لو لم يكن إلى جواره مجموعة من العلماء تساعده على فتح مغاليق الكتب العربية واللاتينية، و الميل إلى الكتابة بالرومانث أكثر من اللاتينية ، التى هى لغة المسيحية الأوربية ، وقد أحس اليهود بهذا الاهتمام [٣١] ، إذ يلاحظ أن التجدّيد باستخدام الرومانث فى كتابة النصوص التاريخية والعلمية كان يعضده ملك شبهّه اليهود بالقيصر وبالإسكندر ، كما أنه يَهَب ويعطى الكثير مقابل الخدمات التى تؤدى والإطراء عليه ، لم يكتب الملك شيئًا من عندياّته حتى نعرف مستواه العلمى ، فقد كان العلماء يحيطون به ويؤثرون على توجهاته وأذواقه ، وهذا ما فعله المنشدون الجليقيون الذين كانوا يَحضّونَهُ على نظم قصائده فى مدح العذراء مريم ، وكان السيد ألفونسو دبلوماسيًا أكثر منه رجل حرب ، كما كانت تجذبه الملذات الثانوية لعصر النهضة وهنا وجد نفسه فى إطار ظروف لم يصنعها وأصبح فى قمة يمكن أن يرى من خلالها طموحات إمبريالية ، ويتفق المؤرخون على ان السيد ألفونسو اتسم بعدم الحسم والشدة وكان محبًا لطيفًا وليس عنده شىء من السلالة المقدسة التى عليها والداه [٣٢] كما كان لنَاصحيه تأثير كبير عليه ، وهو الذى يقوم بتصحيح الأسلوب القشتالى الذى يكتب به اليهودَ [٣٣] ، ومن السهل التأثير عليه ليسهم فى إثراء العلوم القشتالية الفقيرة " إلى الكتب المهمة لأفضل الفلاسفة " ويستعين فى هذا بالعلوم التى عند اليهود ، وقد كان هؤلاء يمارسون أنشطة الوساطة مثلما هو الحال فى دائرة التجارة والإدارة والمال، وقد كان عيشهم دائمًا القيام بهذا الدور ،وبهذه الطريقة ظهرت فى أوربا بعض المؤلفات المكتوبة باللغة الدارجة فى ميدان الفلك وكان هذا عملاً غير مسبوق . [٣٤] .

ولو كان الملك محاطًا بالمسيحيين من أمثال بيثنتى دى بوفيه V.de Beauvais وروجر باكون R.Bcon أوتوما الأكويبنى لما طلب منهم أن ينزلوا بفكرهم إلى مستوى الشارع ويكتبوا باللغة " التى يستخدمها الجيران فيما بينهم " ، غير أن العلماء فى الحالة التى نتحدث عنها هم أناس يقومون باستيراد علومهم بغية تقديم خدمات ملائمة، أما القاعدة التى استندت إليها اللغة القشتالية ، كوسيلة للتعبير الثقافى ، فهى

إسلامية أو يهودية أو أجنبية [٣٥] ويكفى أن نتأمل أسماء هؤلاء الذين اسهموا فى تحرير تلك الأعمال : يهودا بن موسى [٣٦] وصموئيل اللاوى [٣٧] وإسحاق بن سيد [٣٨] والسيد خوسية [٣٩] والسيد/ إبرامهم الطبيب الخاص بالملك [٤٠] ، وقد قام اليهود والمسلمون أو الأجانب بتحرير كتب علوم الفلك التى خرجت من البلاط الملكى وهذا ما نراه من خلال أسماء بعض المتعاونين : جيبّن أرّيمون دى أسبا وخوان ديميسينا وخوان دى كريمونا ، ولا نستطيع ذكر أى اسم من أسماء الذين شاركوا فى تحرير الكتب التاريخية والقانونية لعدم ورودها ، وعندما نتحدث عن إسهام الملك فى كتابة " التاريخ العام " ننقل ما قاله أفضل من درسه :" فيما يتعلق بالنقاش الدائر حول إسهام الملك فى تحرير جزء من " التاريخ العام – الكتاب الأول " أصبح من الأمور الجليّة أن الملك لم يكتب العمل بالكامل أثناء حكمه ، وهذا ما يقلل من طبيعة هذا العمل " [٤١] ، كما لا نعرف شيئًا عن العقول التى ألهمت ونظمت " كتاب القوانين " " والتاريخ العام " ثم قام بعض رجال البلاط (وخاصة اليهود) والروتين المتبع بوضع اسم الملك ألفونسو العاشر عليها ، وهو الرجل الذى جعل هذه الأعمال العملاقة تظهر للوجود ، لكنه لم يؤلفها على شاكلة من يفكر ويكتب ما يدور برأسه ، كما أن الملك نفسه شعر بضرورة توضيح المسألة فقد كتب أو أملى فى مقدمة " كتب المرتبة الثامنة " فقرة تكررت الإشارة إليها كثيراً منذ زمن طويل : " كتبه بناء على أوامره كل من يهودا الكوهينى الطبيب وجيين أرّيمون دى أسبار رجل الدين ... وبعد ذلك وقعه وأمر الملك المذكور بتأليفه وسرد الأسباب التى رآها كافية وأن النص لم يكن بالقشتالية السليمة ، ثم وضع أجزاء أخرى قال إنها تكملة للسابقة وكذا كل ما يتعلق بتصحيح اللغة " [٤٢] كان الملك يأمر بقراءة النص المترجم والذى نسخه اليهود والأجانب ، ثم يقوم بتصحيحه لغوياً حتى يتسق مع لغة علية القوم ؛ غير أننا نقاوم فكرة توفره على الوقت الكافى والصبر للقيام بذلك العمل ، وخاصة إذا ما ضممنا إلى كل تلك الأعمال كل من العهد القديم والعهد الجديد [٤٣] ؛ ورغم كافة القيود والاعتراضات المتعلقة بالنشاط الفعلى للملك ألفونسو العاشر فلولاه لما وصلت إلينا هذه الكتب العظيمة ولم يكن تاريخ اللغة الإسبانية على الحالة التى هو عليها الآن ، والنشاط الدءوب الذى قام به يذكرنا بالجهد

الذى قام به الحكم الثانى (٩٦١ - ٩٧٦) الرجل الذى شجع على المعرفة فى شتى فروعها ، وبسبب الحرص والغيرة نجد ألفونسو العاشر يؤكد كثيراً على أهمية الجوانب الأخلاقية والقانونية وهذا ما كان سائداً فى عهده ، وقد أدت رغبته فى تنقية التعبير ووضوحه إلى إضفاء سمة خاصة على القشتالية بالنسبة لباقى اللغات المجاورة ، والنثر فى المستقبل سيكون " كتاب القوانين " وهو فى هذا أكثر من كتاب " التاريخ العام " ، وعموماً فما يستلفت انتباهنا هو أن المؤلفات القانونية والتاريخية مجهولة المؤلف ، فقد وضع اسم الملك عليها ، وهى عبارة عن مجموعة من الترجمات تم الربط بينها من خلال الخبرات المشتركة ، أما فيما يتعلق بكتب الفلك فالمؤلفون والمترجمون مذكورة أسماؤهم على الغلاف وليس اسم ألفونسو العاشر " نحن الملك السيد ألفونسو أمرنا الحاخام كاخ أن يؤلف هذا الكتاب بالكامل " { علم الفلك الجزء الرابع ، صـ ٣ } وعلى ذلك فالمؤلف هو اليهودى وليس الملك مهما كانت مرتبته الاجتماعية ودوره فى تشجيع التأليف وقيامه بدور المصحح [٤٤] .

وختاماً لهذا فظهور هذا الكّم الهائل من النثر الرصين فى بلاط ألفونسو العاشر استلزم ملكاً بهذه المواصفات حتى يرى النور ، ولم يكن ليرى النور أيضاً لو كان هناك بعض العلماء القشتاليين ممن هم على صلة بالمسيحية الأوربية خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، ولم يكن ليرى النور أيضاً بدون وجود علماء يهود يعرفون نوعية الثقافة المرادة والمرغوب فيها لقشتالة ألفونسو العاشر ، كما أنهم بعيدون عن التوجه " الكاثوليكى " المسيحى الذى كانت اللغة اللاتينية خير مؤشر عليه [٤٥] ويتوافق ازدهار النثر القشتالى خلال القرن الثالث عشر مع استخدام القشتالية كلغة التعبدّ لليهود مثل العبرية ، ولقد بدأت العائلة اليهودية الصلاة باستخدام الرومانث وهى ممارسة غير ذات معنى بالنسبة لجيرانهم المسيحيين خلال القرن الثالث عشر ، ولو توفر لدينا تدرج تاريخى دقيق للأعمال النثرية المكتوبة بالقشتالية لوقفنا على الدور الحاسم الذى لعبته الترجمات من العربية والتى قام بها الإسبان العبرانيون ليحظوا برأى السادة الذين يحمونهم .

وكنوع من التحديد للخطوط التى نسير فيها نقول بأن سمعة العلوم اليهودية خلال القرن الثالث عشر كانت ممكنة وهذا يرجع إلى أن الإسبان العبريين حولّوا اهتمامهم من العالم الإسلامى إلى العالم القشتالى ، كما أن أعداداً كبيرة من اليهود قد هاجرت إلى قشتالة خلال النصف الثانى من القرن الثانى عشر لعدم قدرتهم على تحمل ضغط الموحدين الأفارقة (٤٦) ، تلقت قشتالة إذن زيادة من السكان من ذوى الثقافة الإسلامية، أما الجيل الثانى من هؤلاء فسوف يستخدم القشتالية كلغته الأصلية ، وتعتبر ترجمة كتاب كليلة ودمنة مثالاً جيداً على هذه اللغة المليئة بالمفردات والتراكيب العربية ، وفى الوقت نفسه قلة المصطلحات الثقافية اللاتينية التى يطالب بها المسيحى أكثر من اليهودى ، ويشير موسى الراجل M. Arragel – فى عام ١٤٢٠م – إلى أن لغة المسيحيين أصبحت أكثر لاتينية " عن ذى قبل "، ووصل الأمر لدرجة بدا معها أن اللاتينية قد تحولّت إلى القشتالية ، وعندما صدرت النسخة الأولى للنص التوراتى الذى ترجمه نجده يستخدم الكثير من المفردات اللاتينية (الثقافية) ، وبعد ذلك حاول تغييرها بمفردات أكثر بساطة واضعًا فى اعتباره قرآء بنى جلدته فاليهودى لم يكن يعرف اللاتينية (٤٧) ، وهذا يؤكد ظنوننا فى أن اليهودى عاش بعيداً عن التراث اللاتينى الذى كان يصل إلى المسيحى عبر الكنيسة ، ورغم بدايات النهضة التى عاشتها التوجهات الإنسانية اللاتينية فى بداية القرن الخامس عشر نلاحظ أن الرّاجل Arragel يخشى أن يكون بنو قومه بعيدين عن هذه الأمور المستحدثة ولا يشعرون بالميل للمشاركة فيها ، ومن الواضح أن اهتمامهم أقل فيم يتعلق بكتابة النصوص باللغة اللاتينية خلال حكم ألفونسو العاشر ، ويلاحظ بلونهم Blondheim أن ترجمات اليهود للتوراة خلال العصور الوسطى ليس بها الكثير من اللاتينية الخاصة باللغة الكنسية (op.cit,p.xcv) (٤٨) .

وهناك نصوص أخرى للرّاجل يتضح لنا من خلالها وعى اليهودى القشتالى بتفوقّه، فقد كتب قائد قلعة تراب C alatrava السيد / لويس دى جوثمان إلى تابعه الحاخام يقول " قلت لنا إنكم على درجة كبيرة من المعرفة فى القانون اليهودى . أيها الحاخام موسى: تعرف أننا فى حاجة إلى التوراة بالرومانث مشروحة ومصورة وقد

قالوا لنا إنكم تستطيعون عمل ذلك بسهولة " {صـ ١} ، وقد اعترض الحاخام على ذلك فهو يرى أن وجود صور فى الكتاب المقدس تدنيس له ، لكنه بعد ذلك أذْعَن لأوامر سيده ، وقد ردَّ عليه بلهجة توضح لنا طبيعة العلاقة بين علماء اليهود وعلية القوم الذين لم يكونوا على نفس مشاعر الشعب فى معاداة السامية والتى تمثلت فى أعمال القتل والنهب فى اليهود منذ ٢٥ عامًا مضت :

> وفيما يتعلق بهذه الناحية فلقد وجد ملوك وسادة قشتالة أن مواطنيهم من اليهود يعملون على الإعلاء من شأن سادتهم وكانوا أكثر الناس علمًا، وبروزًا بين كافة اليهود الذين هم فى الدول المجاورة ، وكان تميزهم فى أربع صفات هى : السلالة والمال والصفات الحسنة والعلوم ، وبعد فلقد وجد ملوك وسادة قشتالة أن كافة اليهود أو أغلبهم قاموا بتحرير كتب القانون والعلوم فى قشتالة ، ونظرا لهذا فاليهود اليوم لهم مكانة فى كافة الأرجاء (صـ ٣)

يرفض الحاخام ترجمة التوراة إذا ما تضمنت بعض الصور ، لكن القائد يطلب منه ذلك نظرًا " لغزارة علمه وسعه خياله " {صـ ١٤} ويعين له مساعداً هو أرياس دى إنثيناس من طائفة الفرنسيسكان ، ويقوم هذا الأخير بإبلاغ الحاخام برغبة القائد فى قراءة شروحه وهذا " لا يرجع إلى قلة أعداد العلماء فى العالم المسيحى ، وإنما الغاية هى أن نرى فى ترجمة التوراة الشروح التى يقدمها المحدثون ، الذين لم يبلغهم نيكولاو دى ليدا" {صـ ١٥} ، وأيًا كانت هذه الأسباب الظاهرية فلم يكن أمام القائد والراهب الفرنسيسكانى إلا أن يطلبا من اليهودى ما لم يجداه فى العالم المسيحى وخاصة بين مسيحيى إسبانيا ، كما سمحا للحاخام أن تضم النسخة التى أعدها رسالته المتغطرسة وهذا مثال طيب على التسامح فى بلد سوف ينساها عمًا قريب كما أنها دليل واضح على الشكل الذى يتعامل به علماء اليهود مع علية القوم ، ودليل واضح على مبادلة المعرفة اليهودية بالمزايا التى يمنحها السادة .

وخلال تلك الفترة نجد جومث سواريث دى فيجيروا G.s.de Figueroa ابن قائد سانتياجو السيد/ لورنثو سواريث دى فيجيروا يكلف بدرو الطليطلى - يهودى انقلب إلى المسيحية - بترجمة معظم أعمال ابن ميمون بعنوان Moré Nebuchim ensa?ader de las turbadesei أو ما يطلق عليه اليوم " هدى الحائرين " Guia de lao descarri-ades أما ترجمة بدرو الطليطلى فلم تنشر حتى الآن (٤٩) وهو ما يجب فعله رغم أخطاء المترجم ، والهدف هو الوصول إلى كيفية فهم وتفسير كتاب يتحدث عن مشاكل فلسفية ، فى عصر لم يتم فيه التعبير بالقشتالية عن أمر بهذه الدقة والأهمية .

وفى نهاية القرن نجد القائد السيد / خوان دى ثونيجا قائد القنطرة A lcantaya يطلب من عالم الفلك أبراهم ساكوتو الحضور إلى قصر فى سلمية .Zalamea وما يهمنا الآن هو إيضاح أن القشتالية أصبحت وسيلةً من وسائل التحصيل الثقافى بفضل اليهود الذين أحاطوا بألفونسو العاشر وبعد ذلك بقرنين ظل الموقف على ما هو عليه ، فاليهود - وليس المسيحيون - هم الذين يستخدمون اللغة الدارجة فى تفسير النصوص المقدسة والنثر الفلسفى والدراسات الفلكية ، ومن المثير للانتباه أن هذه الأحداث الثقافية الثلاثة الكبرى فى حياة القشتالية تدور حول قائد لكل واحدة من الطوائف الحربية وهو مسار مناقض للكراهية الشعبية خلال نفس الفترة ، فكبار السادة ـ خلال القرن الخامس عشر- ظلوا يعيشون فى نفس الدائرة الثقافية لليهود وكذلك من تحولوا إلى المسيحية (مثل خوان دى مينا إلى جوار الملك خوان الثانى وكذا خوان دى لوثينا إلى جوار ماركيز سانتيانا والسيد/ ألونسو دى كارتاخينا الذى تمت ترقيته فى المجمع الكنسى الذى عقد فى Basilea) فلم تظهر طبقة من المثقفين خارج دوائر علية القوم والبلاط الملكى ، كما أن الاهتمام العملى بتلك الأنشطة العقلية التى تستهدف الربح أو تقديم الخدمة أكد للمسيحى عقيدته بأن تلك الأعمال هى من باب خدمات الولاء والطاعة ، وبالتالى لا نكاد نلاحظ فضولاً من أجل الفضول حتى بين اليهود أنفسهم ولم يخرج أحد بفائدة من كل هذا إلا اليهود خلال القرن الثالث عشر حيث وضعوا كل ذلك فى قلم ألفونسو العاشر " نحن الملك السيد الفونسو وجدنا أن الله أودع أموراً عجيبة فى خلقه وقد عرفها ودرسها رجال متخصصون بشكل يفيد منه

الجميع " (٥٠) وهذه " الأمور العجيبة " التى عليها الأشياء سوف تكون ذات يوم قوانين الطبيعة التى يتمكن المرء من خلالها من السيطرة على الظواهر الطبيعية ، غير أن السيد القشتالى وخادمه المثقف اليهودى لم يتجاوزا مرحلة بداية علم الفلك ، وقد كان القائد / خوان دى ثونيجا يفيد من خدمات أبراهم سكوتو ليعرف ما الذى سيحدث له، لكنه لم يشغل نفسه بطبيعة النجوم والأجرام السماوية .

ولقد عمل اليهودى الإسبانى فى خدمة الأرستقراطية وهذا ما يحدث اليوم حيث يتم تطوير العلوم والتقنية للوصول إلى أماكن فى ميدان التعليم أو الصناعة ، ولم يتعامل إلا مع موضوعات تروق لمن يحميه كما لم يكتب بحرية فى ميدان الفلسفة أو اللاهوت فقد كان يعانى مرارة المطاردة لأسباب أخرى ، واقتصر اليهودى على أن يعمل فى المجال القشتالى (المختلف عن العربى) بما يدرّ عليه نفعًا اقتصاديًا أو قيمة اجتماعية ، إذن نجد المسيحيين واليهود يؤثرون فى بعضهم البعض ويحاول كل جانب منهما أن يدعم سماته المميّزة له .

الأطباء اليهود :

من المعروف لدى الجميع أن مهنة الطب مارسها الكثير من اليهود المثقفين ، ونادرًا ما نجد أطباء فى القصر الملكى من أصول غير يهودية ، وهم فرنسيون فى هذه الحالة (٥١) وتشير الفهارس الخاصة بالوثائق التى جمعها فريتز باير Fritz Baer إلى ٥٥ طبيبًا فى قشتالة و ٥٨ فى أرغن ، وإضافة إلى ذلك نجد أن الملوك وعلية القوم ورجال الدين اعتادوا أن يكون لديهم أطباء يهود يطلق عليهم الطبيب الخاص ، فقد كان حاييم اللاوى طبيب السيد / بدرو أسقف طليطلة ، خلال عام ١٣٨٩م (Baer II, 230) وعندما صدرت الأوامر بطردهم كان دوق ألبوركيرك Alburquerque يفيد من خدمات الحاخام صموئيل Simuel والذى أطلق عليه اسم فابريثيو عندما تحول إلى المسيحية ، كما كان الحاخام / سالمون بيتون طبيب الملكة إيزابيل عام ١٤٧٦م؛ وكان ساماى لوبيل طبيب إنريكى الرابع ، خلال الفترة من ١٤٥٦م وحتى ١٤٦٥م ، وكان الحاخام /

جاكو بن نونيث عام ١٤٧٢م ، كما كان السيد/ زاج أبوكار طبيب ماركيز سانتيانا عام ١٤٦٥م ، وكان الحاخام سليمان طبيب السيدة / خوانا بيمنتيل ابنة أخ خوان الثانى فى عام ١٥٤١م .... إلخ .

كما تذكر الملفات الخاصة بمملكة أرغن وجود ٧٧ طبيبًا يهوديًا خلال القرن الرابع عشر (٥٣) ، وبفضل مهارة جراح وعالم فلك يهودى استطاع الملك خوان الثانى ملك أرغن أن يسترد بصره بعد عملية جراحية ناجحة [Baer I, 862] ، وهنا سوف أختار بعض المعلومات الغربية وذات الدلالة وهى أن مجلس طلبيرة C. de Talavera التابع للمملكة كان يدفع ثلاثة آلاف مرابطى {وحدة عملة} سنويًا ليهوذا الجراح ، كان ذلك فى عام ١٤٥٣م ، وفى عام ١٤٥٨م وصل الرقم إلى خمسة آلاف .وقد قبض عالم الفيزياء مامون Mamo´n مبلغ ألفى مرابطى عام ١٤٥٥م ، وتلقى الحاخام الفيزيقى المدعو أبرامهم مبلغ ثمانية آلاف عام ١٤٧٧م ، ويطلقون سراح موسن إسوق M ohsén Isoque(وكأنه أحد الأشراف) ويأمرون بألا تسحب منه البغلة لأنه فى حاجة ماسة لاستخدامها للقيام بالزيارات " (٥٤) ولو وصلت إلينا كافة الوثائق الخاصة بكافة القرى القشتالية أو تم دراسة ما هو ذو أهمية منها فإن المحصلة شبيهة بتلك التى خرجنا بها، ففى قرية مثل قرية إيتا Hita { وادى الحجارة} تظهر عام ١٤٩٢م – أى عام الطرد – أسماء مثل السيد/ يوسف ، الجراح ، والحاخام موسى أناكابا الفيزيقى ، والحاخام خوسيه باكس الفيزيقى ، والجراح السيد / دافى باكس " ، وهى أسماء وردت عند القيام بإحصاء أموال اليهود الذين طردوا ، وقد كان لأحد هؤلاء اليهود عدة منازل وعشرون جرّة وخمسة عشر حقل كروم " وهناك آخر له منزل وخمارة وثلاثة حقول كروم وبعض الجرار " وقد كان خوسيه باكس أغناهم جميعا (Baer II, 419 - 420) وقد رأينا فى حالة مثل حالة طلبيرة أن هؤلاء الأطباء لم يكونوا أطباء الطائفة العبرية فقط ، فلم يبق إلا القليل من العمل للأطباء المسيحيين إذا ما عرفنا أن قرية إيتا بها أربعة أطباء يهود .

وظل العبريون الذين تحولوا إلى النصرانية يمارسون مهنة الطب ، فعندما يذكر اسم البارو دى كاسترو وذريته - وهى عائلة شهيرة من الأطباء عاشت خلال الفترة بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر وقدمت خدماتها لكونت أورجاس Orgas -(٥٥) فلا نلاحظ أنهم يهود انقلبوا إلى المسيحية و ذلك أن هذا الرجل - البارو - كان يتحدث العربية والعبرية بطلاقة وهذا ما نراه فى مجموعة المصطلحات الطبية التى توجد فى Ianua Vital؛ فمن الملامح اليهودية القوية نجد إتقان العربية والعبرية وممارسة الطب ، ومن هنا نجد أن البارو جومث دى كاسترو كاتب سيرة الكاردينال ثيسنيروس من أسرة يهودية (٥٦) .

ومن المعروف أن وجود أطباء يهود للملوك والأرستقراطية هى عادة ذات أصول إسلامية ، فقد كان لخلفاء قرطبة أطباء يهود وكان ابن ميمون طبيب صلاح الدين ، كما نرى شهرتهم من خلال ما قاله السيد خوان مانويل فى وصيته ، التى سبق ذكرها ، أو مرافقة السيد / تادرس للملكة فيولانتى عندما ذهب ألفونسو العاشر للقاء البابا ، والشىء الغريب أن القوانين تمنع المسيحيين من استخدام اليهود كأطباء لهم (٥٧) ولدينا شاهد على عدم الانسجام بين القانون ومجريات الحياة اليومية ، وبين الدولة والمجتمع ، فالقوانين التى أملاها الملك وكان غير قادر على تطبيقها ، قامت الجماهير العريضة بتطبيقها بغلظة وقسوة، ولا يرجع هذا الوضع غير العادى إلى أن الإسبان كانوا إما أخياراً وإما أشراراً ، إما اجتماعيين وإما فوضويين ، وهى صفات عادة ما نستخدمها عندما نهرب من مناقشة المشاكل التاريخية :. ويكمن السبب فى هذا الموقف الشاذ فى طبيعة الطبقة الحاكمة وعدم تمكنها من الاهتمام " بالمحسوسات " ، فالصورة المثالية للملك الجيد الذى يقوم برعاية " فنون السلام " والعمل والصناعة والتجارة ، كانت فى حاجة إلى خلفية تتمثل فى مزارع هولندية بها أبقار منتجة وحقول مليئة بزهور التوليبان وبرجوازى بدين مثل هذه الصور التى نراها فى اللوحات الفلامنكية ، كانت قشتالة تسير نحو مناطق حدودية أهلكها هواء العنف والغضب مثل ممارسات من هم فى الربّاط والقلاع ، أما الحكم والإفادة من "الأشياء" الضرورية ليست تلك المتعلقة بالبذخ ، فقد ترك فى يد من هم فى المؤخرة من اليهود والمور

أو الأجانب الذين بهم نَهم ، أما السلالة المتزعمة فلم يكن أمامها إلا الحفاظ على سيادتها وهمتها، ولم تعن بشيء غير ذلك ، ومن أجل تهدئة احتجاجات الشعب الذى كان يشعر أنه فى أرض غير أرضه ، فى فترات السلام ، صدرت تلك القوانين التى تمنع ممارسة الأنشطة اليهودية ، وهذه كانت من الكثرة بحيث يستحيل إلغاؤها ، الأزمة إذن تكمن فى التناقض بين الرغبة أو ما يجب أن يكون الناس عليه وبين الحاجة للتنازل أمام الضغط اليهودى أولاً والأجنبى ثانيًا ، كان العيش على نمط معين وفى الوقت ذاته كان ضروريًا ممارسة آخر للبقاء ، وسوف تظهر هذه الفكرة مرات عديدة على صفحات هذا الكتاب، وهى الآن تساعدنا فى فهم الأوامر غير الموضوعية التى تحرّم على اليهود ممارسة الطب لدى المسيحيين وفى الوقت نفسه نجد أن كلاً من المشرّع والشعب الذى حاول القضاء عليهم لا يمكن لهما الاستغناء عن خدماتهم عندما يشعران بآلام فى المعدة (٥٨) .

ولا تكفى الإشارة هنا إلى أن الغالبية العظمى من الأطباء فى إسبانيا المسيحية كانوا يهودًا وقد ظل ذلك حتى نهاية القرن الخامس عشر ، كما أنهم كانوا منتشرين سواء فى البلاط الملكى أو المدن القشتالية ، وعبثًا حاولت القوانين الوقوف ضد وضع شائك متمثل فى الحاجة إلى الطب وفى ندرة أو قلة الفيزيقى القشتالى ، ولا يهمنا الآن مناقشة ما إذا كان العلاج اليهودى جيدًا أو لا ، علميًا أو فلكيًا ، فالأمر المُسلّم به هو أن المسيحيين - بدءا من الملك وحتى الطبقة الدنيا - كانوا يلجئون إلى الأطباء لاستشارتهم فى المصاعب الحميمة التى يواجهونها ، كما أن المستشار هو الوارث المباشر للنمط الإسلامى فى الفكر والشعور (٥٩) وقد كان هؤلاء الأطباء القناة الكبرى التى سار فيها التعليم والأسلوب الجزل والتعبير المتكامل عن الفرد والاهتمام بنقاء السلالة وبمبدأ ماذا سيقول الناس إلى غير ذلك من الظواهر الحياتية (بما فى ذلك فوره محاكم التفتيش) والتى سوف يلقى اليهود بظلالها فى الوعى الإسبانى ، وقد رأينا قبل ذلك أن أولى السمات التى تحدث عنها الراّجل **Arragel** تشير إلى السلالة التى منها يهود قشتالة ، وبعد ذلك سوف نرى ملامح أخرى مشتركة لكل من اليهود والمسيحيين ، ولا يمكن لنا ولا للتاريخ أن يهمل قرونًا وقرونًا من العناية الطبية اليهودية.

جُباة الأموال والضرائب :

وإذا كان الملوك وعلية القوم ورجال الدين يلجئون لليهود للاستشفاء من الأمراض التى يعانون منها ، فقد أوكلوا إليهم أيضًا جباية الضرائب وتحصيل الإيجار واستثمار الأموال ، ولا ندرى اليوم دراية كافية بما يعنيه وضع قطاعات حيوية فى الإدارة العامة فى يد اليهود الإسبان ، فلو كان هؤلاء أحد المكونات الطبيعية فى الحياة الإسبانية لكان سلوكهم كمجموعة من الإداريين والاقتصاديين قد أخذ توجهات مختلفة ، ولا يمكن التفكير فى انخراطهم فى الحياة من الناحية التاريخية ذلك أن اليهودى يفتقر للمكان ، الذى هو أحد عناصر الدولة لدى المسيحى ، وقد قامت كل من إنجلترا وفرنسا بطرد اليهود – وهم أعداد غير قليلة – خلال الفترة بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وكانت المبادأة هنا من جانب الطبقات الراقية ، أما الوضع فى إسبانيا فهو مختلف تمامًا ، وقد بقى معظم اليهود فى إسبانيا حتى عام ١٤٩٢م وكانوا فى ذلك خَدَماً للملوك وأعداءً للمسيحية ، إذن هم مجموعة من الضيوف غير المرغوب فيهم سُمح لهم بالتعايش مع الطبقة الحاكمة لأسباب هى المصلحة والحاجة ، غير أن الطبقة الأدنى سياسيًا كانت تقوم بممهم أساسية للحياة العامة، فقد مارس اليهود إلى جوار الطب والإدارة ، تدخلهم فى حياة من يحكمون إسبانيا ، والحياة أو التاريخ الخاص بالأحداث اليومية يحمل معه ثمرة الإحساس بالدّونية السلالية التى عليها اليهودى وعدم القدرة التقنية التى عليها المسيحى ، وهذا موقف غير مريح وغير ملائم لتعايش الأفكار والقيم إنه لأمر خطير أن تكون الخدمات التى نُقَدّمها أو تقدّم لنا غير موضوعية فى إطار التقدير والوفاء المتبادلين ، ولكنه وفاء كان يحدث فى إطار التنظيم الإقطاعى (٦٠) وفى أماكن مهمة ، فى إطار الحياة الإسبانية ، ذهب الوفاء والتقدير ، وحل محلّهما طغيان السيّد والمراهنة الخدومة لليهودى المضطر لممارسة البقاء ، كما كان من علامات الشؤم أيضًا أن يظن البسطاء أنهم الأعلى ، ومن حقهم أن يأخذوا أموال هؤلاء الذين يكرهونهم ويحتقرونهم ويحدث هذا فى اللحظة التى يتضح فيها تَفَوّقهم بجلاء ، ولا يمكن أن ينبثق عن كل هذا نمط دولة حديثة ، فقد كان من آثار تعقيدات الحياة فى

العصور الوسطى ، والاعتقاد فى " أن ذلك ليس من سلطان أحد على الإطلاق بما فى ذلك الذات الإلهية " يتضمن النظام القائل بأن كل سلطة تقوم على أساس العقل الحاكم (سواء الدولة أو الملك) ويدعمه عقل الفرد بأن يحكم نفسه بنفسه (حقوق الإنسان). (٦١) والأمر الجوهرى فى عملية ميلاد تنظيم الدولة ، التى وصلت إلى أوْجِهاً خلال القرن التاسع عشر فى أوربا ، يكمن فى شبكة الاتصالات الروحية ، التى تبدأ من الملوك وتنفذ حتى آخر مواطن فى أدنى طبقة ، ولقد كان النظام الإقطاعى فى تنظيمه الإنسانى ضعف ما عليه التنظيم الربّانى للكنيسة ، أما فى إسبانيا فقد كان وجود المور واليهود والممالك المسيحية حائلاً دون إقرار النظام الاجتماعى المسيحى الأوربى القائم على التعليمات البابوية ، وعلى مفاهيم الإمبراطورية الشارلمانية ، وهنا نجد أن الطرق الرئيسية المؤدية إلى الدولة المسيحية الإقطاعية تعترضها عقبة هى وجود اليهودى ، الغريب والضرورى ، وقد خرجت إسبانيا من النظام الإقطاعى لنفس الأسباب التى أسهمت فى إثراء النثر القشتالى من خلال ترجمة الأعمال الكبرى وأدارت ظهرها للغة اللاتينية ، ومن الأمور ذات الدلالة الرمزية أن البابا لم يعترف لألفونسو العاشر بحقوقه المشروعة فى الإمبراطورية التى يطمح لها ،

وهنا يمكن أن نبدأ تأملاّتنا بشأن تواجد اليهود بكثرة فى المراكز الحيوية للدولة لكننا لا نعرف الوقت أو الكيفية التى بدءوا بها كممثلين ماليين للملوك المسيحيين ، فعلى مدى قرون من القمع والمطاردة المسيحية تحولّ اليهودى إلى المرابى ومحصّل المكوس رغم أن ذلك ضد حَرْفية القانون وروحه ، إذْ كانت هى الوسيلة الوحيدة لبقائه فى مجتمعات تباعده عن مشاغلها العادية (٦٢) فقد كان النقل التجارى من أعمال الفينيقيين واليونان فى القديم ، ثم أصبح فى يد الإيطاليين (من أهالى جنوه ولومبارد و ..) ، ومع هذا فالكراهية لهؤلاء لم تتحول إلى مطاردات مستمرة ، فهم ليسوا " قتلة الآلهة " كما أنهم لم يكونوا سلالة منكفئة على نفسها فى الدائرة الحكومية فى إسبانيا ولما كان اليهود الذين يمارسون التجارة قد أُعْفُوا من " ضرائب الحرب والمشاركة فيها " أصبح لهم دورهم فى تموين القوات ، وتحوّلوا – خلال القرون الأولى لحرب الاسترداد – إلى موظفين فى غاية الأهمية فى ظل هذا الجو الفقير والمتخلف والداعى

إلى البطولات ، وأدت بهم مهارتهم العالية فى النقل والوساطة إلى القيام بدور الوسيط الدبلوماسى والمالى ، فتحصيل الأموال المستحقة للملك أو لِعلّية القوم كان شديد الشبه بتحصيل أموالهم هم (٦٣) .

غير أن الشىء الذى يصعب فهمه هو السرّ فى عدم ظهور موظفين مسيحيين مع تقدم مراحل حرب الاسترداد بحيث تتوافر لهم القدرة على القيام بالعمل المالى والإدارى ، وواقع الأمر هو أن الطبقة الحاكمة لم تُعْن كثيراً بخلق طبقة متوسطة غنية فى أوساط المسيحيين وقبلت بتعاون اليهود وكأنه شىء تقليدى لا مناص منه فقد كان الوسيلة الوحيدة للحصول بسرعة على ما تحتاجه من المال، أما المسيحى صاحب الهمة والألمعية فلم يكن يعنيه إلا السيادة على الأراضى وهذا ما فعلته الأجيال الأولى من أمريكا الشمالية إذ تذكّر اهتمامها بشئون التجارة أكثر من العناية بالفلسفة فالتحركات الكثيرة التى كان يقوم بها اليهود الإسبان بدت فى نظر المسيحى عملاً غير جدير بالاهتمام وقد حسم هذا الشعور مسار التاريخ فى شبه جزيرة أيبيريا ، وقد بدأ ذلك التاريخ فى شكل غير متوازن ، إذ كانت الكّفة ترجح لصالح المور واليهود المولعين بالأمور المادية ، لكن المسيحيين قاموا بعد ذلك برأب هذا الخلل من خلال تفوقهم وتميزهم بلعب دور السادة ، غير أن إسبانيا لم تعرف حتى منتصف القرن التاسع عشر شيئًا يمكن أن يقال عنه فى ميدان التجارة والصناعة إنه وطنى

وقد جمع اليهود فى أيديهم خلال القرون الوسطى كافة الأعمال اليدوية والتجارة وكل ما من شأنه أن يكون على شاكلة المؤسسات المصرفيّة ،ويمكن أن تحدث أمور مثل هذه فى أىّ مكان يتواجد فيه اليهود غير أن الوضع فى إسبانيا كان فريداً من نوعه (٦٤) ؛ وعندما زادت الاحتجاجات الشعبية على وجود العِبْريّين خلال القرن الرابع عشر ، فما كان من إنريكى الثانى تراستمارا Enrique II Trastámar إلا أن أجاب مطالب النواب فى بلاط برغش Burgos عام ١٣٦٧م على النحو التالى :

فيما يتعلق بما قلتم ... بأننا أجرّنا لليهود الديوان
والمتأخرات الواجبة

على قرى ومـدن مملكتنا وأننا لم نتحدث عـما يدين به لنا
من يقومون بالتأجير

والتـحصـيل ،وأن الأمور لو ظلت كـذلك فسـوف يكون
هناك عصيان وسوف

يقلّ الناس على هذه الأرض وأن علينا القـيام بتأجـير كل
ما سبق

للمسيحيين ...

نقول ردًا على هذا ، حـقًا لقد أجرنا ذلك لليـهود لأننا لم
نجد أحدًا آخر يتولى

المهمـة وأجّرنا ذلك شريطة ألا يُضـايقوا أحدًا ... فـإذا ما
أراد أحد المسيحيين

فإن العائد سوف يكون أقل بكثير مما لو أجرّنا لليهود . (٦٥)

وفى عام ١٣٦٧م كان إنريكى الثانى يعيش أحداث الحرب الأهلية ضد شقيقه بدروا الأول ، وقد أظهر همّة كبيرة لإرضاء مناصريه ، ومع ذلك كان من المستحيل عليه الاستغناء عن اليهود ، وقد رفع النواب أصواتهم بالاعتراض فى نفس المجلس :

هناك بعض المدن والقرى فى مملكتنا وبعـض الحصون التى
يوجد بها مور

ويهود ... وهنا نطلب منكم أن نكون نحن أوصـياء عليها
وأن تعطى لمسيحيين

ممن نثق بهم .

ورداً على هذا قال السيد إنريكى بأنه سيفعل هذا عندما لا يقع ضرر وإلا " فالعقل يقول بعدم فعل ذلك {المجالس الجزء الثانى - ١٤٦} .

وخلال العام نفسه نجد قلاعًا يسكنها المور واليهود، فالتاريخ لازال عبارة عن سياق مسيحى إسلامى يهودى , وبعد ذلك بأكثر من مائة عام فى ١٤٦٩م نجد أنفسنا أمام مشهد مماثل ، إذ يقوم الأعضاء بتذكير إنريكى الرابع فى مجلس النواب فى أوكانيا Oca´na بمنع قيام اليهود والمور بتحصيل الإيجار والضرائب

> وألا يكونوا جامعى ضرائب أو رؤساء الخدم عند المسيحيين أو بقوموا بممارسة الأعمال الأخرى لعلية القوم .. لكننا نرى أن هذه القوانين لا تراعى ... وقد رأينا قبل ذلك أن الأعمال الرئيسية لجامعى الضرائب وضرائب الرءوس خاصتكم يقوم بها اليهود ،ونعتقد أنه إذا كانت المبالغ معقولة فسوف يكون هناك مسيحيون يتولون ذلك ، وهذا طبقًا للقانون الذى عليه مملكتكم ، ويحدث فى مملكتكم ما هو أسوأ من هذا وهو أن كثيراً من رجال الدين يؤجرون أملاك الكنيسة وأعشارها لليهود والمور ويدخلون الكنيسة وفى يدهم الأعشار والقرابين ، وهذا عدوان على قداسة الكنيسة (castes III 803) (٦٦) .

وكل مكان يتطلب أهلية فى الشئون المالية أو الإدارية كان به يهود، وقبل قرار طردهم بأربع سنوات نجد أن الملوك الكاثوليك يعيّنون أبرامهم سنيور كمسئول عن خزانة " الأخوة المقدسة " Santa Hermandad – نظراً للولاء والوفاء الذى عهدناه فيكم – وذلك حتى يقوم بتحصيل الإسهمات المخصصة لدعم المؤسسة التى كانت إحدى ملامح ذلك العهد ، وأن يسدد الأجور الواجبة والتى سيحل سدادها للناس " [Baer, II 388} وفى عام ١٤٨٨م يمنح الملوك الكاثوليك تصريحًا للسيد/ صموئيل أبو العافية

وذلك حتى يحظى برعاية وحماية السلطات ، ذلك " أنه ساعدنا كثيراً أثناء الحرب " التى دارت فى غرناطة ، وهاهم الآن يقررّون أن " يذهب مع بعض الأشخاص إلى أماكن مختلفة سواء فى مملكتنا أو فى غيرها براً أو بحراً لما فيه أداء خدمات لنا " [Baer, II, 390] (٦٧) ؛ كما ظلت بعض الأسماء اليهودية فى قائمة الخدمات الدبلوماسية للملوك الكاثوليك ، وعوملوا على أساس أنهم من كبار الموظفين فى الوقت الذى تتم فيه العدة للإجهاز عليهم ، أما فيما يتعلق بالأمور الجوهرية فالعلاقة بين الملوك الكاثوليك واليهود ظلت كما هى منذ عهد ألفونسو السادس ، أى قبل ذلك بأربعة قرون ، وهذا يعنى أن فكرة طردهم خارج إسبانيا لم تكن من عند الملوك الكاثوليك (٦٨).

وتلزمنا الكثير من الصفحات حتى تدّون بالتفصيل الأنشطة التى قام بها رجال المال من اليهود ، وما نحن فى حاجة إليه هو الإشارة إلى بعض الوقائع ، وقد كانت البيع اليهودية المصدر الأساسى للثروة ، فكل واحد من أعضائها يسهم بمبلغ من المال لصالح خزانة الملك ، وبالتالى كان هذا الأخير معنيًا بألا يعانى أى من اليهود الفقر أما المسيحيون الذين استحقت عليهم ضريبة الرءوس ، فيرسلون بما عليهم من أموال إلى الملك عن طريق اليهود الذين يقومون بجباية الضرائب ، وعموماً فقد كانت مصادر خزانة الملك تأتى من اليهود أو من خلالهم ، وهو نفس الشىء الذى يحدث فى ميزانيات البلديات ، فكما رأينا قبل ذلك ، هو أن البيع قد غطّت ما يقرب من نصف نفقات بلدة طليبرة ، وكانت إسهمات البيع اليهودية فى قشتالة خلال حكم ألفونسو العاشر وسانشو الرابع بمبلغ ستة آلاف مرابطى (وحدة عملة) يوميًا (أى ٢١٩٠٠٠٠ سنويًا) تحت بند الضرائب الشخصية (٦٩) .

ومن خلال هذه الظروف يمكن أن نفهم سرّ حماية الملوك لهم والتى استمرت إلى قرب صدور قرار الطرد ، ففى عام ١٢١٥م أصدر المجمع الكنسى الرابع فى لاثيرانس Lateranse قراراً بأن يحمل اليهود علامة مميزة حتى يتم تمييز هم عن المسيحيين ، وعندما تمت محاولة تطبيق القرار فى إسبانيا هاجت حارات اليهود وماجت ، وهدد

بعض الأعضاء المهمين فى البيع بمغادرة المكان والذهاب إلى قطاع المور الذى مازال يتسّم آنذاك بالثراء والمساحات الشاسعة ، وهنا وجّه كلٌ من الملك فرناندو الثالث وأسقف طليطلة ضراعة إلى قداسة البابا بإلغاء القرار الصادر عن المجمع فيما يتعلق بقشتالة ، ذلك أن متحصلات الخزانة تأتى فى معظمها من الإسهامات اليهودية ،

وقبل أونوريو الثالث Honorio III ذلك الرجاء عام ١٢١٩م للحيلولة دون حدوث مشاكل خطيرة " حيث أن نجاح ذلك بين اليهود هو من أجل الغالبية العظمى " (٧٠) وبذلك يتضح أن تاريخ إسبانيا قام على أساس اقتصاد يهودى ، وعلينا أن نقرّ بذلك وبالنتائج التى ترتبت عليه ؛ وتاريخ إسبانيا ليس فى حاجة ماسّة للاطلاع على الكثير من الوثائق الكائنة فى الأرشيف والأهم من ذلك هو التمعن أكثر فيما تعرفه حتى نلمّ بكافة المناطق الغامضة ونستجلى الحقائق ، فالتاريخ ليس مجرد نتاج الظروف الاقتصادية كما يحلو للوضعية الفلسفية أن تقول ، فالاقتصاد هو ثمرة ظروف إنسانية مهمة لحالة نحن بصددها ، وهى قدرة اليهودى على الإنتاج وعدم قدرة المسيحى على الإفادة مما تعطيه الأرض ويقيم البشر بأدائه ، فلقد ظلوا هناك وهم ينتظرون من يفيدهم ، فقد تشرنق الإسبانى المسيحى فى عدم كفاءته الإنتاجية – بما فيها من خير أو شرّ يعود على وجوده – وأخذ ينظر ويَتحَسَّرُ بسلبية على قدرة اليهود على الإنتاج (وقدرة المسلم) وبعد ذلك آمن بالمنّ والسلوى الذى نزل عليه من البلاد المكتشفة ، إذن فالباعث الإنسانى لهذا الاقتصاد هو العنصر الحاسم وليس الثروة نفسها .

وما قاله فرناندو الثالث القديس للبابا هو نفس ماردّده الملوك الإسبان بعد ذلك حتى حانت لحظة الطرد ، فها هو ألفونسو الثالث ملك أرغن يأمر قضاة الإقطاعيات التابعين له بأن يتصرفوا مع اليهود بحكمة (عام ١٣٢٨م) " فكما تعرفون جيداً أن الملوك السابقين وأجداد ملك مايوركا تسامحوا مع اليهود ، وتركوهم يقيمون فى ملكهم وعلى أرضهم ، كما أن كنيسة روما تتسامح معهم ذلك " أن اليهود هم خدم الملوك وجباة الضرائب لديهم "، وإذا ما ترك اليهود الأرض وصودرت أموالهم فهذا سيسبب الكثير من المتاعب لملك مايوركا . (٧١) .

وفى عـام ١٣٩١ أدان خـوان الأول ملك أرغن مـذبحـة أويسكا Huesca إدانه صارمة ذلك أن اليهود " لهم امتيازات لدينا " [Baer, I ,686] (٧٢) . وفى عام ١٤١٧ رأى ألفونسو الخامس ضرورة إعادة بناء الكنيس اليهودى فى سرقسطة بعد المطاردات الشعبية والتى عرضت الكنيس للدمار الذى هدد باختفائه وضياع امتيازاتنا {باير ، الجزء الأول ، صـ ٨٣٩} ، كما أنبّ الملك فرناندو (الكاثوليكى) رئيس دير " سبيو" فى سرقسطة (١٤١٨م) لتصرفاته العنيفة ضد اليهود " الذين هُمْ كنزنا وميراثنا " ويلُّح على استخدام عبارة "كنزنا" ومن واجبنا الدفاع عنهم من خلال رجالات جيشنا { باير ، الجزء الأول ، ٨٩٨ ، ٨٩٩ } وهدد الملك أساقفة سرقسطة بقطع المؤن الدوّرية عنهم وأمر بلهجة صارمة أن يُقرأ على الملأ " بيان " يلغى ما سبق أن أعلنه الأسقف ، والذى هدد فيه بالقيام بإغلاق الأبواب والنوافذ الخاصة بالمنازل اليهودية التى تطّل على الجزء المسيحى للمدينة ، ومنعهم ممارسة بعض المهن وأن يرتدوا زيًا خاصًا " ، ويكتب السيد فرناندو إلى المجلس الملكى وإلى الأسقف " نحن معجبون بكم فى قيامكم دون سابق مشورة منا وخولتم الملكة زوجتنا العزيزة الغالية والمحبوبة بألا تقوم بدفع صكوك الغفران " ويكتب السيد فرناندو إلى المجلس الملكى معربًا عن رغبته " فى ألا يتعرض الكنيس اليهودى وملحقاته لأى خطر أو جلبة حوله " وإذا لم يذعن كل من رئيس دير لاسيو والأسقف بيلارس للأمر الملكى فسوف نمنع عنهما العطايا الدوّرية "حتى يكونا عبرة لمن تسوّل له نفسه ارتكاب أفعال مثل هذه تخالف ما أمرنا به {باير ، الجزء الأول ،صـ ٩٠٠} .

وهنا نرى إلى أى درجة كانت فكرة الطّرد بعيدة جداً عن ذهن الملك خلال عام ١٤٨١م ، غير أن مستشارى الملك يقولون له " بألا يعطى هذه الرسائل إلى رجال الدين فى سرقسطة وأن يتفادى " قراءتها علنا " وإلا فإن طوائف الشعب " سوف تثور وتحدث القلاقل " {الجزء الأول صـ ٩٠٢} ، فما كان من الملك إلا الإذعان للضغط الشعبى وأعلن قيامه برحلة إلى سرقسطة لحل هذه المشكلة المعقدة ،

وقد حاول الملوك وعلية القوم – على مدى قرون عديدة – كبح جماح مشاعر العداء التى يكنها الشعب المسيحى والطوائف الدينية ورجال الدين لليهود (٧٣) ، وكما هى

العادة بالنسبة لكافة المشاكل المتعلقة بتاريخ شبه الجزيرة الأيبيرية نجد أن هذه المشكلة من الصعب حلها فالمملكة تعيش فى وضع حرج سواء مع اليهود أو بدونهم ، والسبب فى هذا هو أن الواقع القَوىّ لا يمكن أن يعيش على المعتقدات والرغبات والطموحات وانتهى الأمر ، فقد كان على الملوك أن يكونوا إيجابيين وأن يغيروا من السياسة التى انتهجتها كل من قشتالة وأرغن على مدى قرون ، ولم يكن فرناندو الكاثوليكى رجلاً من الذين يخوضون المعارك وهم يعرفون سلفًا أنها معارك خاسرة ولهذا نجده لم يقم بإرسال الخطابات إلى أساقفة سرقسطة عام ١٤٨١م ، كما وقعّ القرار الملكى بالطرد فلم يك ممكنًا الإمساك بمقاليد ملك يكون فيه الشعب ورجال الدين قد وقفوا له بالمرصاد وخاصة إذا ما كانت هناك حاجة للاستعانة بالشعب للحرب فى الأراضى البعيدة ، وعندما يتم اتخاذ القرار يجب تنفيذه وفقا لميول الحزب الأقوى ، أما النظرة التاريخية العادية فقد صورت فرناندو الكاثوليكى على أنه إما مارد يمثل اللا تسامح والتعصب أو أنه الذراع المسلحّ الذى يمثل القوى الإلهية ، كما نلاحظ أن المؤرخين اليهود يعتمدون على الرواية الدرامية التى ذكرها إسحاق إبرابا نال ، الذى تضرع إلى الملك حتى بُحّ صوته " لكنه كان حيّة أصمت أذنيها ... كما أن الملكة كانت على يمينه تحضه على ما فعله وذكرت الأسباب الداعية لتنفيذ الأمر الصادر منه " ويرى ذلك المؤرخ اليهودى أن الاستيلاء على غرناطة هو الذى جعل فرناندو يحسم أمره " تشجع وصمم على رأيه واعتزازه بكلمته ونسب سلطانه إلى أنه مستمد من عند الله " (٧٤) .

وعلينا أن نضع القوى الإنسانية التى أسهمت فى هذه العملية البطيئة فى موضعها الصحيح ، فخزانة الملوك خلال القرون الأولى لحرب الاسترداد ، يتم تمويلها من الأموال التى يتم الاستيلاء عليها من المور ، ومن متحصلات الحجيج إلى سانتياجو؛ واعتباراً من النصف الثانى للقرن الثانى عشر وجدنا أن الهجرات الجماعية لليهود من المناطق الإسلامية إلى المناطق المسيحية كانت بمثابة مساعدة ضخمة للتاج ، ففى عام ١١٥٨م نجد سانشو الثالث يتبرع بقطعة أرض لجابى الأموال بونيودا وذلك " لخدماتكم الجليلة وأمانتكم فلقد عملتم من أجل أبى الإمبراطور ومن أجلى "(٧٥) وهذا

معناه أن ألفونسو السابع الإمبراطور قد أفاد من خدمات اليهود ، كما نجد ملحمة السيد تصورهم على أنهم الوحيدون القادرون على تسليف الأموال ، وهذا من خلال المشهد الذى يتحدث عن راشيل وبيداس ، وقد تبرع ألفونسو الثامن بقطعة أرض لأبى مار بن كوهين A vomas Avenxuxén" جابى الضرائب خاصتى الذى يتسم بالأمانة والوفاء " كما يعترف فى وصيته {عام ١٢٠٤م} أنه مدين له بمبلغ اثنى عشر ألف مرابطى (٧٦) ، وتعكس لنا النصوص التى عثرنا عليها جزءاً مما كان يحدث ، فتحصيل الضرائب وتزويد الملك بالمال كان تجارة رابحة ، وكانت النتائج المترتبة على ذلك ما شهدناه فى بداية القرن الثالث عشر حيث شعرت البِيَع بقوتها لدرجة هددت معها الملك فرناندو الثالث بمغادرة أرض المملكة إذا ما أجبرهم على أن يحملوا رمزاً يميزهم عن غيرهم (٧٧) ؛ وقد طلب الملك من البابا العفو حتى لا يتم العمل بهذا القرار وبالتالى تم السير على مفاهيم العصور الوسطى للمواءمة بين مصالح الكنيسة والملك والشعب.

وبعد ذلك بقرن من الزمان تغيرت العلاقات بين الملك والكنيسة واليهود ، وما يثير دهشتنا أن مجلس كاتدرائية طليطلة ـ الذى نرى ثروته طائلة من منظورنا المعاصر ـ يتحدث عن الربا اليهودى ، ومن المؤكد أن ديون رجال الدين كانت مرتفعة ، ذلك أنهم لجئوا إلى البابا ليسدّ عنهم من خلال " صكوك الغفران " التى تعفيهم من رد الدين لأصحابه سواء أصل المال أو الفوائد ، كما تفيد هذه الصكوك بأن على اليهود أن يردوا الفوائد التى أخذوها من رجال الدين ، ولجأت البيع اليهودية إلى الملك ، أى سيدها الطبيعى (فرناندو الرابع) عام ١٣٠٧م و كما لجأت مرتين إلى مجلس الأسقفية حتى تحول دون صدور المزيد من صكوك الغفران ، ولابد أن الرسائل الملكية كانت مكتوبة بلهجة عنيفة لدرجة لم يجرؤ معها فرّان إيبانيث بانتوخا ، فارس الملك الذى تولى قراءتها ، أن يقرأها بالكامل ، «فقد كان بهذه الرسالة الكثير من العبارات الفارسية التى لم تقرأ " ، يقول الملك " إننى شديد الاندهاش على جرأتكم بتطبيق هذه الرسائل {الواردة من البابا} ولا تنفذوا أوامرى وتقوموا بتنفيذها ضد أتباعى من اليهود" ، ويمنع الملك إلغاء الديون " فأنتم تعرفون أن اليهود وما معهم لى " ، فأى غبن يلحق باليهود سوف يقوم الملك بمعاقبة رجال الدين بدفع ضعف المقابل (٧٨) .

نرى فى الواقعة السابقة أولى حلقات الصراع بين رجال الدين واليهود ، وبعد ذلك بقرنين سوف يحسم الصراع لصالح الطرف الأول ، والشىء المثير للانتباه والمميز للحالة الإسبانية هو أن الملوك المسيحيين قد وقفوا ضد الكنيسة موقفًا حاسمًا ، فما يهدف إليه الملك هو الحفاظ على الدّجاجة التى تبيض ذهبا، أما الكنيسة فقد كانت تهدف – تدعمها النقمة الشعبية ـ للقضاء على تلك الدجاجة للوصول إلى كل المزايا ، وكانت الدولة ترى فى اليهود مصدر الثروة الدائمة ، أما الكنيسة والشعب فقد كانا يريان اليهود على أنهم غنيمة ثمينة ، وهنا يمكننا أن نلمس عن قرب الوضع الغريب الذى عليه التاريخ الإسبانى خلال العصور الوسطى ، حيث لا يوجد نظام داخلى يربطه بالنظام العام للمسيحية ، ولا تشبه مشكلته الداخلية الصراعات الدائرة بين البابا والإمبراطورية أو بين البابوات الشرعيين والمنشقين ، والملمح الخاص للحالة الإسبانية يكمن فى وجود هذا الضلع الشرقى الذى كان ولم يكن ـ فى آن معًا – جوهر إسبانيا ، أما باقى الدول الأوربية فهى تعيش على الطريقة التى ابتدعتها لنفسها بفقرها وثرائها وقساوتها أو حلاوتها ، وعندما لم تقم إسبانيا بغزو الأراضى عاشت على حساب الثروة التى صنعها اليهود الذين كانوا ولم يكونوا – فى آن معًا – إسبانيا نفسها ، وهذا لم يحدث فى أى مكان فى العالم ، وبالتالى فتاريخ إسبانيا لا يشبه تاريخ أى بلد آخر وعلينا أن نلاحظ اختفاء اليهود من إنجلترا خلال القرن الثالث عشر ومن فرنسا فى بداية القرن الرابع عشر ولم يكن لهما فى هذين البلدين وضعٌ يشبه من قريب أو بعيد الوضع الذى كانوا عليه فى شبة جزيرة أيبيريا .

وقد قرر مجمعٌ كنسى عقد فى سامورة Zamora عام ١٣١٣ – مؤسسًا قراره على ما ورد فى مجمع فيينا وعلى قرارات كليمنت الخامس ـ معاقبة اليهود " حتى لا يرتكبوا مخالفات أو يتذرعوا بما منحهم إياه الملوك من مزايا ... ونأمر بتصديق شهادة المسيحيين ضد اليهود فى كل القضايا المثارة ، وليس العكس ، كما لا يجوز الاستماع لشهادتهم " وإلا " حلت عليهم لعنة الله القوى القادر " أى من هو أعلى من سلطان الملك، كما قرر المجمع ألا يكون لليهود وظائف أو مزايا منحها الملوك أو الأمراء أو ربّات البيوت المسيحيات لأولادهن " وألا يمارسوا مهنة الطب على المسيحيين مهما كانت

درجة مهارتهم " {وهنا نعثر على عقدة الإحساس بالدونية} وألا يلجئوا إلى ممارسة الربًا مع المسيحيين فهذا كله تحرمه الأوامر الصادرة عن البابا / كليمنت الخامس " (٧٩) .

غير أن ذلك لم يتجاوز حدود الورق الذى كتب عليه ، والسبب هو أن الكنيسة والشعب لم يصلا بعد إلى درجة من القوة ليقفا ضد مصالح الملوك فى بند الشئون القانونية ، فخلف النغمة الحادة يختبئ حقد منافق ، فرجال الدين أنفسهم هم الذين ينادون اليهود ليتولوا تحصيل الأعشار الواجبة لصالح الكنيسة ، غير أن هذه الاتفاقيات كانت تسير فى خط مواز للمطالبات المستمرة لأعضاء البلاط والتى شهدنا جزءًا منها قبل ذلك ، وتم الهجوم على الحصن اليهودى عام ١٣٩١م ، وقام بذلك أهالى أشبيلية بعد أن حمّسهم فرّان مارتينث رئيس شمامسة إستيجة ,Ecija فقد اجتمع فى شخصه نقمة الشعب على اليهود وجرأته على مهاجمة الدولة التى كانت الشعب فى نظر الكنيسة ، وكان ذلك الرئيس يحمّس العامة على العصيان والهجوم على اليهود رغم معارضة الأسقف باروّسو الذى أعلن عصيان رئيس الشمامسة وتمرده " والاشتباه فى مناداته بإحدى أفكار الهرطقة " (٨٠) ؛ وعندما حاصرهم اللاهوتيون وباقى رجال الدين لتبيان الأسباب التى تكمن وراء هذا السلوك المضاد للمسيحية كان يرّد بأنه لن يتكلم " إلا أمام أفراد الشعب " ، وفى عام ١٣٩٠ تُوفى الأسقف باروّسو وهنا أخذت الجماهير الغاضبة فى نهب حارة اليهود فى أشبيلية وقتلت الكثير من أهلها وأحرقت البيع وأصابت الثقافة الإسبانية اليهودية بضربة قاتلة ، وسرعان ما تم تقليد المثل الذى أعطته أشبيلية وضعفت قوة الملوك تدريجيًا عن مواجهة غضب الجماهير .

وإذا ألقينا نظرة بانورامية على مشكلتنا لوجدنا أن فرناندو الثالث تولى فى عام ١٢١٥م حسم النزاع القائم بين مصالح البابا ومصالحه الشخصية دون اللجوء إلى العنف ، وفى عام ١٣٩٠٧م أمر فرناندو الرابع بأن يقوم أحد الفرسان بقراءة محتوى رسائل ذات طابع تهديدى موجهة إلى مجلس الكاتدرائية فى طليطلة ، وفى عام ١٤٨١

كتب فرناندو الكاثوليكى الرسائل ،لكن لم يكن هناك من يجرؤ على تقديمها لأساقفة سرقسطة ، و بعد ذلك بأحد عشر عاما ترك اليهود إسبانيا .

لقد طُرِدَ اليهود من بلد كانوا يعتبرونها وطنهم ذلك أن الشعب الذى تآخى ضدهم فى بداية القرن الرابع عشر (انظر الفصل الثامن) هو نفسه الذى شكل جزءاً أساسيًا فى الأخّوة " المقدسة S. Hessmandad التابعة للملوك الكاثوليك (١٤٩٢ م) وقد دعم هذا الشعب أيضا جماهير الذين اعتنقوا المسيحية وأسهموا إسهامًا كثيراً فى تنفيذ فظائع محاكم التفتيش ، فلم يعد الشعب يتسامح مع الوضع الذى عليه اليهود بعد أن تمكن من الانتصار على آخر المور ، والإحساس بالفخار لانتسابه لوطن يدين بجزء كبير من قوته وقدراته اليهود ، فالشعب المسيحى (المكون من الفلاحين والفرنسيسكان أو الدومينكان) كان يشعر بغيظ إزاء التفوق الاقتصادى والتقنى الذى عليه مواطنوه الساميون ، كان يريد منهم أن يغادروا البلاد ، ولم تكن تهمه النتائج المترتبة ، ورغم معرفة الناس بأن لا أحد سوف يشغل الكثير من هذه المهم الضرورية التى مارسها اليهود طوال قرون ، وقد رأى ذلك الموقف الإسبانى الأكثر ذكاء [٨١] ؛ فقد كتب مننديث بيلايو فى العصر الحديث قائلاً " كان صراعًا مقيتًا وهو السبب الرئيسى فى انحطاط شبه الجزيرة ... فمشكلة السلالة تفسّر الكثير من الظواهر وتفكك طلاسم تاريخنا " [٨٢] ؛ والأمر الخطير هو أن أبرز القيم الإسبانية وأكثرها استمرارية تمت قولبتها فى إطار هذا الجو المشحون بالضيق والكدر .

أنشطة أخري مارسها الإسبان العبريون :-

نفتقد تاريخًا مفصلاً ومصنفًا لحياة اليهود الإسبان ، ورغم كثرة الوثائق فلا زال هناك الكثير من النقاط الغامضة التى قد لا يتم استجلاؤها ، ولما كانت غايتنا الفهم وليس التعداد والإحصاء فالمواد التى نعرفها كافية لتأكيد الفكرة التى نتحدث عنها .

تقدم ألفونسو الحادى عشر برجاء إلى البابا كليمنت السادس (عام ١٣٤٢م) حتى يسمح ليهود أشبيلية باستخدام الكنيس الجديد الذى بناه جابى الضرائب عسأف

الأسْتُجىّ Juçaf de Ecija ومع هذا نضيف من جانبنا النواهى التى نصت عليها القوانين ، والسبب هو أن " اليهود كانوا من الأهمية بمكان حيث يسهمون فى توفير احتياجات المدينة كما أنهم يقومون بمحاربة المشارقة ، ويقفون فى خندق المسيحيين ولا يهابون الموت " { باير ، الجزء الثانى صـ ١٦٣} ، ولما كانت اشبيلية مدينة ضخمة أضحى من الضرورى تعميرها بالسكان من اليهود والمشارقة كما أن البيع اليهودية القائمة غير كافية (باير ، الجزء الثانى ، ١٦٣) ، ويتحدث الملك فى اليهود التابعين له مثل أى مجموعات أخرى من المواطنين ، ويربطهم بالهدف القومى الخاص بحرب الاسترداد ويثنى على بسالتهم (٨٣) ، غير أن ذكرهم كجنود يعكس ضرورة التحدث به وكذلك شك القارئ الذى لم يكن ينتظره رغم أننا نعرف أن اليهودى كان يشعر أن إسبانيا وطنه وخاصة فى عهد ألفونسو الحادى عشر، وبدرو القاسى (٨٤) ؛ وعلى أية حال فهذا الثناء على من يقدمون خدماتهم إليهم (٨٥) .

كان المرء يتوقع أن تتمكن الطوائف الحربية القوية بما تملك من موارد وما هى عليه من تنظيم من إدارة شئون نفسها مثلما حدث مع الطوائف المماثلة فى فرنسا وأوربا (٨٦) ، غير أن القادة والحكام لم يعرفوا كيفية الإفادة من الأراضى طبقا لما تشير إليه بعض الأمثلة ،وقد قام قائد طائفة سانتياجو (السيد / بيلايوبيريث) خلال أعوام ١٢٧٢ ، ١٢٧٣ ، ١٢٧٤ م بتأجير الأرباح الخاصة بكل من مرسية وطليطلة وحدود غرناطة إلى كل من السيد/ بونو والسيد/ يعقوب والسيد/ صموئيل ، " وأن يتم تحصيل ضرائب الرءوس الواجبة لنا سواء على المسيحيين أم على المور " ، وكان المتحصل عبارة عن ٥٢٠٠٠ مرابطى ، ١٢٠٠ جوال قمح و ١٢٠٠ جوال شعير وبُرّ وجاودار ، وطالب القائد بسداد مبلغ مقدّم قدرة ٢٦٠٠٠ مرابطى (٨٧) ، وفى عام ١٨٢١م أجرّت طائفة سانتياجو – لمدة خمسة أعوام – كل أملاكها فى كَرْمونة (إشبيلية) على سبيل دفع دين قدره ٨٣٥٠ مرابطى عليها لأحد اليهود ، وأرسلت بذلك الأخير ليشرف على الطواحين وأن تكون مصنوعة من الخامات الجيدة كما كان عهدها أيّام المور وتعود إلى سابق عهدها {باير ، الجزء الثانى ٧٨} ، ومن الواضح أن هذه الطائفة كانت تفتقر إلى من يدير لها تلك الطواحين وأن تعود لحالتها مثل التى كانت عليها منذ أربعين عاما أى عندما كان المور يقومون بتشغيلها (٨٨) .

كان السادة المسيحيون يتخلصون من مشاكل تسبب لهم الصداع بتسليم رعاية أموالهم لليهودى الخبير بالتعامل مع الماديات ، ومعنى هذا كسر الوحدة الأخلاقية بين السادة والأتباع وتخصيص اليهودى فى القيام بمهمة اعتصار جهود الفقير لمصلحة الغنى ،وبذلك اتسعت الهوّة ودامت بين الشعب والحكومة وبين الدولة والكنيسة ، فالملوك يرون فى اليهودى المصدر الوحيد للثروة ، ويرون فى الكنيسة المنافس الذى يحاول انتزاعه، فما كان يحصل عليه الملك من البيع اليهودية كضريبة وكذلك الخدمات الفنية والعامة التى يقدمها اليهود لم يكن إلا الوقائع – وليست الأسباب – التى تجعله يتعايش مع المسيحيين ، وعندما واجه المشرّع مؤلف " القوانين " مشكلة خطيرة نجده يعكس لنا وجهه النظر الرسمية للكنيسة رغم علمه بأن ذلك يفتقر إلى التنفيذ فى إسبانيا ، وقد كان اليهود يعيشون بالقرب من المسيحيين " لأنهم يعيشون كأنهم فى الأسْر وهم بمثابة تذكار للناس بأنهم الذين أسهموا فى صلب المسيح {السابع ، صـ ٢٤ ، ١} ، كما أن الأباطرة القدامى أمروا بألا يحصل اليهودى أبداً على مكانة رفيعة أو وظيفة عامة تمكنه من السيطرة على أى مسيحى بأى حال من الأحوال { السابع ، ٢٤ ، ٣ } .

ورغم هذه القوانين واحتجاجات الكنيسة والشعب كان الإسبان العبريّون يتدخلون فى إدارة وحكم الممالك المسيحية ابتداء من القرن الحادى عشر على الأقل ، ففى عام ١٠٨١م يعاقب البابا جريجوريو السابع الملك ألفونسو السادس" لاتسمح أن يكون اليهود على أرضك سادة المسيحيين بأى حال من الأحوال أو أن يكون لهم سلطان عليهم " (٩٠) ، وقد كان ملك قشتالة يستخدم بعض اليهود " كسفراء " و " رسل " فذلك ما كان المسلمون يفعلونه (٩١) ، وفى بداية القرن الثالث عشر نجد إينوثينثيو Inocen-cio الثالث يشكو من " الأفضال التى يمنحها ملك قشتالة للمشارقة واليهود" (٩٢)، ومن المؤكد أن هذه ليست النصوص الوحيدة الصادرة عن البابا ، فقد كان هناك بعض رجال الدين – من الدرجات الأدنى – لا يملّون من التعبير عن أسفهم للأفضال التى يمنحها ملوك إسبانيا لليهود وهنا يظهر التاريخ أمامنا وكأنه عملية شد وجذب بين السلطة الملكية والسلطة الدينية على مدى فترة تصل إلى أربعمائة عام . واستمرت

المشاكل الإسبانية تخطو خطى وئيدة طوال عدة قرون ، فقد أفاد ألفونسو السادس وكذلك فرناندو الكاثوليكى من الموظفين والسفراء اليهود وليس مستغربًا أن تعيش اللغة الإسبانية تغيرات أقل عمقًا من اللغات الأوربية الأخرى طوال الفترة من القرن الثانى عشر وحتى الرابع عشر .

وإذا نظرنا إلى مغزى التدخل اليهودى فى المراكز الحيوية للمجتمع المسيحى وما تسبب عنه من احتجاج رجال الدين والعامة من منظور حديث، أى على أنه صراع بين التقدميين (الملوك والنبلاء) والرجعيين (رجال الدين المحافظين والشعب الجاهل الذى يندفع بعواطفه) فإننا نزّيف الصورة . فلقد حكم ديزرائيلى Disraeli إنجلترا خلال القرن التاسع عشر ، وكان للولايات المتحدة وزراء مالية يهود خلال القرن العشرين والسبب هو أن الدول المتحدثة بالإنجليزية تقوم دعائمها على أسس عقلانية وطموحات من أجل السيطرة على الأراضى (أى القوة والازدهار) وهذه مفاهيم تعتبر الأساس بالنسبة للمؤمنين وغير المؤمنين ، أى للموظفين، وهذا مفهوم كان مجهولاً خلال القرون الوسطى ، كما أن البلاط الإسلامى فى خلال القرن التاسع والعاشر والحادى عشر يضم المتعاون اليهودى فى إطار العقيدة الإسلامية ، وهذا الموظف اليهودى نفسه لم تجده المفاهيم العقلانية (المستحيلة آنذاك فى إسبانيا) أو نظام العقيدة الدينية المسيحية ، إذن كان وجوده بمثابة نوع من الفوضى وعدم الاتساق (٩٣) خارج إطار الدائرة الروحية السائدة خلال العصور الوسطى وكأنه رومانث إسبانى مستخدم فى صياغة المادة العلمية والتحذيرات التى أطلقها البابوات – والتى سبقت الاشارة إليها – تُعَدّ بمثابة " فرض النظام " على الوضع السائد فى العصور الوسطى وهذا ما لم تكن إسبانيا على استعداد للاستماع إليه .

وانتهى الموقف عندما فرضت الطبقات الدنيا ديماجوجيتها على الرؤية السياسية للملوك ، وقد كان هذا محصلة خطوات وئيدة استمرت ما يزيد على أربعة قرون ، وهذا نوع من " حرب الاسترداد الثانوية " (٩٤) وأوضح صورها تمثل المذابح والسلب والنهب الذى حدث عام ١٣١٩ فى المدن التى كانت الحياة فيها مزدهرة وهى إشبيلية وبلنسية وبرشلونة (٩٥) .

وقد أسهم عمل اليهود وتجارتهم فى إحداث هذا الازدهار (٩٦) فالعمل اليدوى هو عادة قديمة عند اليهودى لها أسس دينية وأصبح بعد ذلك جزءًا من عادات البروتستانت وطبقًا للتلمود فواجب الأب نحو ابنه أن يعلمه " إحدى الحرف اليدوية السهلة ، وعليه أن يحاول دراسة التوراة وأن يتقن بعض الأعمال كوسيلة للارتزاق " ،كما أن أغلب جهابذة التّلمود كانوا وسطاء وحرفيين من مشارب مختلفة (٩٧) ، ولما كان ذلك من الأمور المعتادة أصبح من السهل أن يحتل الفراغ الذى تركه الإسبانى المسيحى الذى يميل إلى الحياة " المطلقة " والبعيدة عن كل ما لا يتصل بالضمير أو الإعلاء من قيمة الشخصية وعدم الانصياع لكل ما يتصل بتعامل الإنسان مع المحسوسات (٩٨) ، أما اليهودى فكان يفعل كل شىء ، وقد تضمن جَرْد عام ١٣٠٣ أملاك كاتدرائية أبيلا Avila الكثير من المنازل اليهودية والمهن التى كان يمتهنها أصحابها : ياكو صانع النعال ، وياكو مرشان صانع البرانع (البّردى) وموسى الحداد ويوسف صانع القبعّات، ويوسف الحداد ،وأبرامهم النجار ،واليهودى الجواهرجى وأبوراش تاجر العملات واليهودى "

وتتضمن وثائق أخرى المهن التالية : مناحيم الصباغ والحاخام يهودا الصباغ " (١٢٩٧م) والسيد أبرامهم الكاتب ،والسيد كاح المتخصص فى علاج الدمامل (١٣٠١) ... (١٣٧١) (٩٩) .

وإذاما كانت الصدفة هى العنصر الذى ساعدنا على العثور على بعض الوثائق المتعلقة ببعض المدن فى زمان ومكان معينين فهذا يساعدنا على تصور الموقف فى أماكن أخرى واستمراره حتى عام ١٤٩٢م ، وإذا ما تصورنا أن المسيحيين لا يقومون بهذه الأعمال فمن المنطقى القول بأن من قاموا بها هم اليهود والمور ، أضف إلى ذلك أن الوثائق المتعلقة بتلك الفترة لا تقول لنا شيئا عن المهن التى كان يقوم بها المسيحيون فى قشتالة .

وكان الموقف مماثلاً فى قطالونيا ، وينشر باير [١، صـ ٤٠٩ - ٤١٥] العديد من الوثائق المتعلقة بالقرن الرابع عشر حيث ورد فيها أسماء التجار وكذا باقى المهن الأخرى والخياطين والوسطاء والحريرّى وصانعى الخطاطيف، والسكاكين والصباغين

وصانعي الآلات والفضة والأحذية والعملات الذهبية وصناعة الأزرار وتغليف الكتب والصباغة واللمبات وترويض الأسود والصبانين والتطريز {الجزء الأول صـ ٤٩٥} ؛ وفي عام ١٣٢٦م صدرت الأوامر بألا يبيعوا كتب الصلوات وفيها صور للقديسين (١٠٠)

وفي عام ١٠٦٦ م كلف رامون بيرنجر الأول اثنين من المسيحيين بصك العملات الذهبية ومعهما اليهودي داود ، كما قام الطبيب أبرامهم ببناء حمام في حديقة رامون بيرنجر الرابع عام ١١٦٠م ، كما يظهر اليهود وهم يشغلون منصب القاضي الملكي في أرغن عام ١١٧٠ ، ١١٩٢، ١٢١٧، ١٢٣٦، ١٢٤٨م (١٠١) كما رأينا قبل ذلك شغلهم لحصون تابعة لملك قشتالة خلال القرن الرابع عشر .

نرى إذن أن اليهودي يفعل كل ما بوسعه بما في ذلك ممارسة النواح في الجنازات المسيحية : " يعطى اليهود النواحون ١٥ مرابطي"(١٠٢) ولسنا نعرف شيئًا عن نصوص النوّاح هذه ذات الأصول الإسلامية ، ذلك أن اليهود هم الذين يرتلونها .

لم يكن يهودي القرن الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر هو نفسه يهودي العصر القوطي الذي تطارده القوانين ،بل كان ذلك العنصر الإنساني شديد الاتصال بالمسلمين والمسيحيين ذلك أن الممارسات الإسلامية كانت تحمل معها اليهودية ، ومع هذا فالقوانين التي تضمنها " كتاب القوانين " {صـ ٤٩٨ وما بعدها} لا تتضمن أية حماية لليهودي ، أما كتاب " قوانين قشتالة " الذي يعود إلى القرن الثالث عشر وهو جمع لقوانين سابقة - فيعاقب اليهود الذين لا يلتزمون بما يفرضه يوم السبت " وإذا قام أحد منهم بصناعة أية أدوات حديدية فعليه أن يدفع غرامة قدرها ٢٢ يومية (١٠٣) ، ويحرم" القانون الملكي " الذي يرجع إلى عام ١٢٥٥م قيام أي يهودي بقراءة أي كتب تتحدث عن قوانينه أو أن يخبئها في منزله وإذا ما عثر عليها عند واحد منهم فلتحرق على باب البيعة {الرابع ، ٢، ١} .

ويقول كتاب "القوانين "إن المسيحيين واليهود " يعيشون ويقيمون على السواء في المدن ويلبسون الملابس المتماثلة {السابع ، ٢٤ ، ١١} ؛ إنها جرأة وعدوان عظيم ذلك

الذى يقوم به اليهود من مضاجعة المسيحيات {السابع ، ٤٢، ٩} ورغم ذلك ظل اليهود والمور يضاجعون مسيحيات بلدة نيبلا Niebla وأشبيلية {باير الجزء الثانى صـ ١٠٠} ذلك أن هذه التعليمات لم تكن لها فاعلية ، وعندما يتحدث كتاب " القوانين " { السابع ، ٢٤ ، ٨} عن منع تلقى أى أدوية قام اليهود بصناعتها فهذا معناه أنهم كانوا يصنعونها وظلوا على هذا الحال ، كما يستفاد من أوامر التحريم الصادرة عام ١٤١٢م أى بعد صدور الأوامر الأولى بقرن ونصف ، وقد كان ذلك القانون يحرم إفادة اليهود من الخدم المسيحيين فى "إضاءة اللمبات يوم السبت ، وتقديم النبيذ لهم ..." وألا يكون لديهم خادمات أولبّانون أورعاة أو بستانيون ، وألا يرتادوا الحفلات وعقود القران والجنازات الخاصة بالمسيحيين ،وألا يكونوا الآباء الاسميين أو الأمهات للمسيحيين فى التعميد ،ولا يسمح لهم بالقيام بممارسة مهن جمع الضرائب أو الاستئجار أو رئاسة الخدم أو جامعى الأموال الملكية أو الخاصة بالسادة وألا يكونوا من متداولى الأموال ، وألا يكون لهم قضاؤهم سواء فى المحاكم المدنية أو التى تبتّ فى الجرائم [١٠٤] وألا يزوروا المرضى من المسيحيين وألا يعطوهم أدوية أو أى نوع من الشراب وألا يستحموا فى نفس الحمامات العامة وألا يرسلوا للمسيحيين هدايا من الحلوى أو التوابل أو الخبز المطبوخ أو الطيور المذبوحة وألا يقوم أى يهودى بإطلاق لقب السيّد على نفسه سواء كتابة أو كلامًا وألا يمارسوا مهنة البيطرة " ولا مهن الحدادة أو صناعة الأحذية والخياطة والجوارب والجزارة والنسيج .. وألا يجلبوا البضائع بما فيها الزيت والعسل والأرز .. " {باير الجزء الثانى ٢٦٥ – ٢٦٩} .

ويتميز النص السابق بالقطعيّة وعدم الفاعلية ومنه نستشف طبيعة الحياة فى أى مدينة خلال القرن الخامس عشر ونشعر بضيق المسافة بين الشعب والبلاط إلى جوار الثقل الاجتماعى الذى كان للأقلية اليهودية ، وقد كان على المشرّع أن ينزل إلى تلك الأمور البسيطة المتمثلة فى قيام فتاة إسرائيلية بإهداء بعض الحلويات أو بعض المأكولات الأخرى ، وبعد هذا واصل أنطوان دى مونتورو ، الخياط والشاعر القرطبى ، صناعة الملابس لليهود والمسيحيين ، اما البيطرى وسائق الدوّاب فقد ظلا يمارسان عملهما، ولم يكن القانون قادرًا آنذاك على الخلاص من اليهود بجرّة قلم [١٠٥] .

وقد صدر قانون عام ١٤١٢، بعد عشرين عاما من المذابح والسلب والنهب بدأت عام ١٣٩١م (١٠٦) ، وهى مذابح لم تقض على التعايش بين كلتا السلالتين فقد كانت كل واحدة فى حاجة إلى الأخرى .

غير أن القانون السابق وتلك القوانين الأخرى المناظرة لا تكشف لنا عن كثير من عناصر الحياة الحميمة فى إسبانيا المسيحية اليهودية ، وهى ملامح يمكن استشفافها بشكل أفضل عند مراقبة بعض الظواهر ذات الطبيعة الاجتماعية ، وحقيقة الأمر هو قلة المعلومات المتوفرة لدينا عن المسيحية الإسبانية خلال العصور الوسطى ، ومن المثير للدهشة أن " القانون الملكى" الذى أشرنا إليه سابقًا عُنِىَ بنقاء العقيدة الموسوعةِ عندما حرمّ على الإسرائيليين قراءة الكتب الأرثوذكسية (١٠٧) وهناك بعض الوقائع التى تذهب إلى ما هو أبعد من هذا ، فإلى جوار المفاهيم الدينية على طريقة طائفة الدومينكان مثل سان بيثنت فيرّير وجدنا مظاهر تعبر عن اللاّمبالاة لأن إطلاق لفظة " التسامح " غير كاف ، وأسهمت الحياة التعايشية الحميمة بين الأديان الثلاثة فى نوع من التوافق بين النقائض على الطريقة الدينية لدى الشعب ، وإذا لم يكن الأمر كذلك فكيف نفسّر تولّى بعض اليهود دور الأب الأسمى فى التعميد المسيحى ، أو تكليف بعض اليهود بتحصيل الأعشار للكنيسة ؟ فهناك وقائع أخرى ليست أقل دلالة من السابقة ، ففى عام ١٤٤٩م صال الوباء وجال فى أشبيلية ، وقام المسيحيون بصلوات تضرعوا فيها لله (١٠٨) كما قام اليهود بإجراء مسيرة طافت أنحاء المدينة وخاصة شوارعها الرئيسية ، وهذه المسيرة بحمل التوراة تشبه الاحتفال ببعث المسيح وأصابت البلبلة الناس ذلك أن الضراعة اليهودية مصرح بها من قبل أسقف أشبيلية الذى أعفى من منصبه آنذاك ، واحتج رجل الدين أنطونيو فيرّارى بشدة ، غير أن المحكمة الدينية أمرت بسجنه ورفضت طلبه الاحتكام إلى البابا ، ومع هذا وصلت القضية إلى روما وصدر الحكم فيه لصالح فيرّارى ، وعندما أطلق سراحه ذهب إلى روما للمطالبة بحقوقه أمام نيكولاس الخامس ، فأمر هذا الأخير أسقف أشبيلية بمعاقبة من أسهموا فى تنفيذ الموكب اليهودى إذا كان ذلك ممكنًا وأن يتم تعويض فيرّارى .

وهناك قطاع من مجتمع إسبانيا القرن الخامس عشر - الملوك والنبلاء والكثير من الذين اعتنقوا الديانة المسيحية والتجار الأغنياء ورجال الدين من ذوى الميول الإنسانية ، أو الأبيقوريين - كانوا يرون أن اليهود الأغنياء هم من طبقة مميزة انضمت إلى الحياة الإسبانية منذ زمن بعيد وهى طبقة ضرورية لرفاهية هؤلاء وأنها طبقة لا خطر منها على عقائدهم ، وعندما نتحدث عن هذه المعاملة اللطيفة من قبل الملوك والأرستقراطيين ، ينبغى أن ننظر إليها بمنظور حديث ، إلا أن من يتأملها بشىء من الدقة يهوله الاستغراب من تهور وعدم وعى هؤلاء الذين حكموا إسبانيا طوال أربعة قرون ، فقد خلفوا وراء ظهورهم قطاعًا عريضًا لم يؤخذ فى الاعتبار ، أو لم يدخل نفسه ، ألا وهو الأغلبية الأعم للشعب الإسبانى ، وسوف يكون الرد أنهم لم يتمكنوا من فعل أى شىء نظرًا للظروف التى عاشتها إسبانيا فهى أرض محصورة بين أوربا الطموحة ، والإسلام الذى لا تفل عزيمته ، وعلى أية حال فطريقة العيش لليوم فقط دون أن يكون هناك تنظيم قانونى يفرض من أعلى ودون الوصول إلى التعايش فى وئام جعل أيبيريا تدخل عصرا كان بالنسبة للشعوب الأخرى العصر الحديث ولم يكن لها من سند أو معين إلا شخصيتها العظيمة وعلى مدى الأزمنة والعصور رأى القطاع الشعبى المسيحى ، الذى لم يكن له هدف أو غاية إلا الصراع وممارسة السيادة ، أن الدولة ونظامها كانت تحاصره بمخالب هؤلاء المتخصصين فى استنزاف الفقير دون أن يكون هناك مقابل على غرار الإقطاع الأوربى المسيحى ، وهذا لابد أن نلحّ عليه ، ومن ناحية أخرى ماذا كان أمام اليهودى ليفعل غير ما فعله ؟ فالأنهار يجرى فيها الماء الذى يتم ضخه (١٠٩) .

كان على السادة والشعب واليهود والمور أن يعيشوا وكل واحد يحاول استبعاد الآخر ، وإثارة القلاقل حوله ، وهذا ما يتحول إلى اللاعيش - بكل ما تعنيه الكلمة - أى فى لحظة لا تظهر فيها أية عناصر تلطّف الموقف ، وقد عبر عدم الوحدة الأخلاقية والدينية عن نفسه فى صورة الفصل العنيف بين اليهود وغيرهم (١٤٩٢م) وبعد ذلك مع الموريسكيين (عام ١٦٠٩) ، ويشير التاريخ اللاحق على ذلك إلى أن الروابط التى بقيت بعد ذلك لإيجاد التعايش والوئام اتسمت بضعفها .

وقد أسهم ميل الملوك والسادة إلى تفضيل مال اليهود ولو كان ذلك على حساب المسيحية فى زيادة قوة روح محاكم التفتيش التى كانت تقوم بها طائفة الدومنيكان وقد ولدت هذه الروح من جراء النقمة على السلطة الملكية ورافقتها نقمة الشعب على اليهود من جراء الدقة فى تطبيق جباية الضرائب ، وقد رأينا قبل ذلك أن الملوك الكاثوليك (١٤٩١) كانوا يلبّون مطالب اليهود من أهل سامورة بغية حمايتهم من هجمات الدومينيكان ، وعموما يمكن القول بأن الملوك خلال العصور الوسطى افتقروا لسياسة دينية تكون بمثابة نموذج لمن جاءوا بعد الملوك الكاثوليك (١١٠) .

ففى عام ١٣٠٥م شكا سانشو دى كانياس - وهو أحد الدومنيكان - إسحاق دى سالمة أمام الملك خايمى الثانى ملك أرغن ، وقد كان ذلك الرجل من " أغنى أغنياء اليهود وأكثرهم علمًا فى الناحية وقد قام هذا الرجل بالاستهزاء بالمسيح " إنهم يقدسون رجلاً معتبرين إياه ابن الله وهو ابن سفّاح " وصدر الحكم بسجن اليهودى ومصادرة أمواله ، وقد نظرت القضية فى البلاط ، وبعد ذلك تم إطلاق سراح المتهم خلال شهر سبتمبر من نفس العام (١١١) .

وقام الأمير السيد ألفونسو دى أراجون - خلال عام ١٣١٨م - بإطلاق سراح لوبى بن خيلى L. Abnexely المتهم بارتكاب جرائم أشد بشاعة وهى : السّب فى الذات الإلهية والعذراء مريم والقديسين وتزييف العملة وغواية النساء والسرقة والقتل ..الخ {باير الجزء الأول صـ ٢٠٩ ، ٢١٠} ، وأعاد بدرو الرابع لدافيد بيسالو شرفه عام ١٣٥٦م ، فقد أدانه كل من الملك ومحكمة التفتيش لأنه " تلفظ ببعض العبارات ضد ديننا " وخُوّل ممارسة المناصب بين أفراد الطائفة اليهودية]نفس المصدر - الجزء الأول صـ ٣٦٠} ؛ ويأمر بدرو الرابع خلال عام ١٣٦٧ أسقف مايوركا أن يسلمه إسحاق الأنالدى المسجون فى السجن التابع للكنيسة لأنه سبٌ العذراء واتهمها فى عذريتها ، وإذا لم يتم تنفيذ ما أمر به الملك فإنه سوف يصدر أحكامًا تتعلق بالأسقف وبأمواله {نفس المصدر - الجزء الأول - ٣٩١} .

وهذه الأمثلة كثيرة ولا نجد مبرراً للإكثار منها، غير أننا عندما نربطها بموقف فرناندو الكاثوليكي ضد أسقف سرقسطة عام ١٤٨١م وإلى البيان المتكرر بأن اليهود هم المصدر الأول للثروة للتاج الملكى فى أرغن وقشتالة نفهم الكيفية التى سارت عليها السياسة الملكية إزاء اليهود والكنيسة ، فمصالح الملوك كانت أهم من أية اعتبارات أخرى دون أن يعنى ذلك الابتعاد عن دائرة الاعتقاد فلم تظهر أية بادرة على فكر نقدى بين المسيحيين خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، كما كانت مصالح الملوك جزءاً من العقيدة مقابل تلك العقيدة الأخرى التى يمثلها رجال الدين ، وهنا يكفى مراجعة دفاتر مجالس البلاط خلال القرن الخامس عشر لنلاحظ السلبية التى كان عليها رجال الدين إزاء كل الأوامر الصادرة عن السلطة المرئية . وقد اصطدمت السلطة الملكية بحائط قوى لأنها لم تتمكن من إيضاح أسبابها ولا كيف فعلته فالأمر الجوهرى هو أن السلطة العامة كانت فى يد غير المسيحيين وهنا نرى أحد الأسباب الرئيسية التى جعلت السلطة المدنية تفشل فى إسبانيا ، وهو أمر لا نفهمه من الناحية التاريخية إذا لم نتأمل المشكلة فى إطار المصطلحات الخاصة بها .

والكلمة الساخرة التى قالتها إيزابيل الثانية : " إذا أردنا كلفنا قشتالة لكلفنا رهبان سان خيرونيمو بذلك " لها دلالتها العميقة ، فالمسيحى كان يجهل فن إنتاج الثروة وتحريكها وينظر شذراً واستغراباً إلى ما يقوم به اليهود والعرب من عمل وانهماكهم فى الأعمال اليدوية وخاصة التبادل التجارى الدولى الذى يقوم به اليهود فالأرض وما عليها يرعاها الله وبالتالى تخرج من دائرة المصالح الدنيوية، فالعقيدة تَضْحىَ كل يوم بمثابة حصن دفاعى ، وفى إطارها يصل الشخص - دون حاضر أو مستقبل - إلى آفاق الخلود ويسمو اجتماعياً، وتتحول العقيدة أيضاً إلى " فن ليبرالى " فيه بذخ كبير للممارسة الروحية وهى بذلك تقف أمام المشوار العقلى المتأنى والشائك ، فمن خلال العقيدة يصل المرء للحق بضربة واحدة مثلما هو الحال فى الوصول إلى مرتبة الأغنياء من خلال الذهب فى العالم الجديد.

لكن الأرض التى تملكها السلطة الملكية تستعصى عليها إذ أن الطوائف الدينية تحيط بها وتتحول الدولة الدنيوية إلى دولة سماوية ، وهنا تقوم الملكة الكاثوليكية بوضع نفسها فى مرحلة وسط بين السماء والأرض وتضفى مسحة من السخرية على ملاحظتها بالنسبة لكثرة عدد الرهبان التابعين لطائفة خيرونيمو

التكافل المسيحى اليهودى

التطهير العرقى ومحاكم التفتيش

اتسم الموقف الجديد والشائك الذى عليه اليهود إزاء المسيحيين خلال القرن الخامس عشر بتأثيره القوى على مسار الحياة الإسبانية أكثر من مرحلة ظهور الآداب الكلاسيكية والاتصالات بإيطاليا إلى غير ذلك من الأحداث التى عادة ما تستخدم لوضع سور حول نهاية العصور الوسطى والإيذان بالدخول فى عصر الحداثة ، فالمطاردة العنيفة التى تعرض لها العبريون غيرت طبيعة العلاقات التقليدية القائمة بين النبلاء ورجال الدين وعامة الناس واليهود (١١٤) وأسهمت فى بروز ذلك النمط الوحيد للحياة الإسبانية حيث نجد الدين والدولة وقد زالت الحدود بينهما وهذه سابقة لظهور الدول المتسلطة ذات الحزب الواحد الذى تفرضه لغة العنف .

ولقد اختلط الكثير من العائلات النابهة بأناس من أصول يهودية ، طوال العصور الوسطى ، ويرجع هذا الاختلاط إلى الوضع الاجتماعى والثروة وجمال نسائهم ، ولم يثر أحد أمام هذا الموقف قبل القرن الخامس عشر ، إضافة إلى أن اللغة المكتوبة لم تكن آنذاك مؤهلة للتعبير عن المشاعر الحميمة غير أن الفترة التى نتحدث عنها كان فيها الحديث عن المشاعر مباحًا وبالتالى تم تناول الوضع الدرامى ، الذى لا حل له ، بين السلالتين المتعاديتين ، أو بعبارة أدق الأفخاذ الإسبانية ، فهناك أشعار الهجاء مثل "مقطوعات الشاعر الإقليمى Coplas del Provincial" وغيرها ، وفيها يتم تناول الأصول اليهودية لبعض الأشخاص ، ويرد بعض الذين اعتنقوا الدين المسيحى على

هذا فهم واثقون من تميزهم وانحطاط من يهجونهم ، وقام أحد الناس بإرسال خطاب السيد/ لوبى بارينّتوس ، أسقف كونيكا وأحد الأنصار الجدد الذين اعتنقوا المسيحية ضد بدرو سارمينتو وضد الطالب ماركوس جارثيا ماثارا مبروس ، وهذان الأخيران هما من الذين حرّضوا على النهب والقتل الذى حدث فى طليطلة عام ١٤٤٩م (١١٥) ؛ ويرفض المؤلف إطلاق لفظة Conversos على الذين اعتنقوا المسيحية " فهم أبناء وأحفاد مسيحيين وولدوا فى حضن المسيحية ولا يعرفون شيئًا عن اليهودية أو طقوسها " (١١٦) ، وهؤلاء الجدد لا يجب أن يدفعوا ثمن إساءة الآخرين " كما لن نقوم بقتل الأندلسيين لأنهم يتحولون إلى الإسلام يومًا بعد يوم " ؛ ثم نرى بعد ذلك قائمةً مطولة لأسماء مشاهير لهم علاقة نسب بمن كانوا قبل ذلك يهودًا ولم تستثنِ القائمة أفرادًا من العائلة المالكة "وإذا ذهبنا إلى ما هو أبعد من ذلك فليس ضروريًا إحصاء عدد الأبناء والأحفاد وأحفاد الأحفاد لهذا النبيل الفارس ،وذلك صاحب الوظيفة الرفيعة وهو السيد ألونسو إنريكيث القائد البحرى فهو من سلالة الملك السيد ألفونسو {الحادى عشر} والملك إنريكى {الثانى } العجوز كما ينسب إلى تلك الأسرة عبر صلات قرابة أخرى " . ونضيف إلى ما سبق أن السيد خوان الثانى ملك أرغن تزوج زيجة ثانية بالسيدة خوانا إنريكيث ابنة القائد البحرى القشتالى ومن ثم فإن ابنه فرناندو الكاثوليكى له أصول يهودية من جهة أمه (١١٧) .

وهناك نصان آخران معروفان يعودان إلى القرن السادس عشر ، وفيهما تذكر الأسرات ذات الأصول اليهودية ،وأحد هذه النصوص هو " الكتاب الأخضر لأرغن " Libro verde de Aragón (١١٨) أما الآخر فهو " جذوة النبلاء الإسبان " Tizón de la nobleza de España للكاردينال فرانسيسكو مندوثا إى بوباديا ، أسقف برغش Burgos (١١٩) حيث يؤكد من خلاله أن أقرباءه وهما كونتا / تشنشون (المتهمان بعدم طهارة عرقهما) لهم أجدادهم من اليهود وليس هذا فقط بل كافة الطبقة الأرستقراطية فى ذلك العصر ، ولو كانت الحياة الإسبانية قد سارت فى إيقاع هادئ ومتناغم لم يكن ذلك الاختلاط بين المسيحيين واليهود قد أسفر عن أى أزمة فقد كانت إسبانيا – منذ القرن الثامن – سياقًا يضم ثلاثة شعوب وثلاثة معتقدات ، وكان

لليهودى قيمته وجدارته مثل المسيحى رغم كل المحاذير كما أن الملوك أنفسهم منحوا بعض اليهود اللقب الاجتماعى " السيد " الذى كان آنذاك علامة على أعلى الدرجات الاجتماعية بين النبلاء ، وأدى اختلاط الدم وتشابك الظروف إلى خلق نمط داخلى من الحياة وشعر اليهودى من ذوى العرق الطيب بأنه نبيل وأحيانًا نجده يحارب فى صفوف جيش الملك ضد المشارقة ويقيم دورًا عظيمة للعبادة مثل معبد الترانستو فى طليطلة حيث ترتع على أسواره أسلحة ليون وقشتالة ، وهنا نعود لنتذكر أفضل سمة أضفاها الحاخام الراحلّ Arragel على يهود قشتالة وهى الخاصة بالسلالة وأنهم من سلالة أفضل من اليهود غير الإسبان ، وقد كتب السيد / بابلو دى سانتا ماريا أسقف برغش (والذى كان اسمه قبل اعتناقه المسيحية الحاخام سليمان آل ليفى) خطابًا حول " نبل أصوله الأسريّة " (١٢٠) وقد كان الإحساس بالسيادة والانتساب للسلالات الرفيعة أمرًا مشتركًا بين اليهود والمسيحيين وكان رفيقًا لليهود حتى عند الطرد ، يقول ماكس جرونباوم Max Grünbaum : " من يحضر الصلاة فى الكنيس اليهودى البرتغالى فى أمستردام يلاحظ على الفور الفارق بين اليهود الإسبان واليهود الألمان ، فالجو المهيب والهادئ أثناء الصلاة يجعلها مختلفة عن البيع الألمانية الهولندية، كما نجد العظمة الإسبانية فى الكتب الإسبانية اليهودية المطبوعة فى أمستردام " (١٢١) ولازال العبريون من ذوى الأصول الإسبانية يحتفظون حتى اليوم بمشاعر التفوق وهذا ما لا يفهم إلا إذا أسندناه إلى الجو الذى سار قبل عام ١٤٩٢م ، أى الاعتقاد فى تَسيّد الفرد ، وهذا هو جوهر الروح القشتالية ، ويواصل اليهودى الفردى مشواره فى الحياة وهو يرتبط حيويًا بمناهضيه منذ ما يقرب من ٤٥٠ عامًا .

أما الآن فعلينا أن نعنى بالتأثيرات المعاكسة ، أى ما فعله اليهود بالمسيحيين ، فقد سبق القول بأنه بدون اليهود لم يك ممكنًا فهم ميلاد النثر الرصين خلال القرن الثالث عشر ، ويدين الأدب خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ببعض الإسهامات التى تحمل أسماء كل من السيد شيم طوب ، والسيد ألونسو دى كارتاخينا، وخوان دى مينا ، ورودريجو دى كوتا ، وفرناندو دى روخاس : وبعد ذلك نجد لويس بيبس ، وفراى لويس دى ليون ، وماتيو ألمان ، وقد أظهر هؤلاء نُدْبة

جذورهم الإسرائيلية ، غير أننا نود أن نلفت الانتباه إزاء بعض ملامح الطبيعة الإسبانية والتى تظهر بشكل جلىّ منذ نهاية القرن الخامس عشر ، ولا نجد بين المسيحيين من أبناء العصور الوسطى نفس القلق الذى أطلق عليه بعد ذلك " التطهير العرقى " ولو كان ذلك قائمًا لما وجدنا هذا الاختلاط اللعين الذى أدانه كتاب " جذوة النبلاء الإسبان Tizón de la n. de Espñn (١٢٢) ولَمّا احتل اليهود المناصب الرفيعة التى وجدناهم عليها فى لحظة الطرد .

ومن كانوا يعيشون حقًا حريصين على الطهارة العرقية هم اليهود ، ومن خلال الترجمات التى زوّدنا بها أ.أ. نيومان A.A.Neuman نعرف الآراء القانونية (التوبيخ) الصادر عن المحاكم اليهودية الأمر الذى يساعدنا على رفع الحجاب عن مكنون صدورهم ، ونلاحظ هنا قلقًا واضحًا إزاء طهارة السلالة الأسرية ، وماذا يقولون عنا ؟ وما يتعلق " بالحفاظ على الشرف " ، وهذه كلها عناصر موجودة فى الأدب خلال القرن السابع عشر (١٢٣) وقد عاشت الأقلية اليهودية فى وضع دفاعى أمام الأغلبية المسيحية التى كانت تحض وتحفز على التحول عن الديانة اليهودية وبالتالى يحمل ذلك خطر ذوبان السلالة ، ومن هنا ندرك سر الحصريّة الدينية ، وهذا شعور لم يعشه المسيحى قبل نهاية القرن الخامس عشر ، ومع هذا فقد تحول اعتناق الديانة بعد ذلك إلى نوع من الهوس الجماعى، ورأينا قبل ذلك كم كانت العدالة الملكية متسامحة مع اليهود الذين يطعنون فى الديانة المسيحية ، وهو اتجاه يجب علينا ألا ننظر إليه على أنه ناتج بفعل الزمن ، فالمسيحى ابن العصور الوسطى لم تكن لديه مشكلة كبيرة فى الحفاظ على طهارة دينه ونقاء سلالته ، وإنما كانت المشكلة هزيمة المسلم واستخدام اليهودى ، عمومًا لا يمكن أن نعثر فى نهاية القرن الثالث عشر أو بداية الرابع عشر على نص مسيحى بهذه الروح :

> ليعرف كل من يرى هذه الرسالة التى تحمل توقيعى أن هنا بعض الشهود الذين مثلوا أمام سيد الحاخام إسحاق رئيس الدائرة ، وأبلغوه بأمانة وإخلاص عن أناس كبار فى السن ومن

> أسر محترمة ، ويرى الشهود أن أسرة الأخوين داود وعزرائيل هى أسرة نقية السلالة وليس عليها أية نقيصة ، فداود وعزرائيل هما من الجديرين بالزوّاج بأشرف عائلات إسرائيل فلم يحدث أن سجلّ لهم أى اختلاط فى الدماء سواء من فرع الأب أو الأم أو الأفرع الأخرى يعقوب عيساشا (١٢٤) .

والسبب فى هذا النص المتعلق بطهارة الدماء هو ما ردده أحد الناس من أن أحد أصول هذين الشابين الأرستقراطيين كان من العبيد ، ولم يرض المتهمون بالقرار الصادر عن المحكمة المحلية فذهبوا إلى حاخامات أعلى ، ثم رفعت كل الأحكام والفتاوى إلى شلومو بن أدريت البرشلونى الذى أصدر حكمه التالى :

> عندما تلقيت رسالتكم وقرأتها أصبت بالذهول فالذى صدرت عنه هذه المسبّة ، أيًا كان وأيًا كانت دوافعه ، قد ارتكب إثمًا عظيمًا ويستحق عقوبة أكبر من إراقة دمه ، فالقاتل السفاح لا يقتل إلا فردين أو ثلاثة أما هذا الآثم فقد سب ثلاثين أو أربعين فردًا ، فصوت الدم الأسرى ينادى ويئن وهو تحت الأرض ، وكان على المحكمة الحاخامية أن تطرد الآثم من العقيدة كما أنى سأؤكد حكمها بتوقيعى {Loc - cit - 1, 7} .

نحن إذن أمام أقدم نص يتحدث عن الطهارة العرقية فى إسبانيا حيث يتضمن شهادة شهود حضروا من أماكن مختلفة ، وهذا النص ليس له مثيل بين مسيحيى ذلك الزمان ، وتحولت الطهارة العرقية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر إلى محور أساسى لدى النبلاء ورجال الدين ومرجع هذا هو القلق الذى بثه فيهم الذين اعتنقوا الديانة المسيحية Conversos ، كما أن الروح العدائية لليهود تطعمت بنوع من التقليد الدرامى لما يقوم به الخصم (١٢٥) .

كانت هناك يهودية من بلدة كوكا (محافظة شيقوبية) على علاقة حب بمسيحى ، وكان ذلك فى عام ١٣١٩م ، ونتوفر فى هذه الحالة على حكم الحاخام آشر الطليطلى ، وهو حكم يتسم بالأهمية القصوى نظراً لما يكشف عنه من خلفية اجتماعية (١٢٦) ، ذهب يهودا بن واكار (طبيب الأمير دون خوان مانويل) إلى بلدة كوكا مع سيده عام ١٣١٩ وهناك عرف بقصة أرملة يهودية حملت ، فقد كانت تحب مسيحياً كما تنازلت له عن جزء من أملاكها ؛ فقام المسيحيون بعرض الأمر على السيد خوان مانويل الذى أشار بصلاحية المحكمة اليهودية فى هذا الشأن فوضعت اليهودية توءمين مات أحدهما أما الأخر فقد أخذه المسيحيون لتعميده وهنا سأل يهودا الحاخام آشر :

> ما الذى نفعله حتى نظهر أمام أعين الناس ونحن نطبق قوانين التوراة ... ؟ وتتحدث كافة القرى المحيطة بكوكا عن المسألة وأخذت الألسنة تلوك حكاية المرأة وبالتالى الطعن والتقليل من شأن ديننا ... وأقترح - بناء على تخصصى - جدع أنفها حتى يزول عنها الجمال الذى يَشُدّ حبيبها إليها (١٢٧) .

لنلاحظ كيف أن يهودا يشعر بقلق أكيد إزاء انتشار الفضيحة وليس الإثم الذى ارتكبته الجميلة اليهودية ، وتشير قوانين " كتاب القوانين " الذى سبقت الإشارة إليه إلى تحريم التجارة غير المشروعة التى يقوم بها المسيحى مع غير المؤمن ويركز القانون على من يعود لارتكاب الجريمة ، أما القوانين الخاصة بالبيع اليهودية فكانت تركز على الآثار الناجمة وذات الفاعلية فى الرأى العام وتربط بين شهرة وشرف الفرد وبين شرف الجماعة ، لم نعثر على شىء مماثل فى قشتالة العصور الوسطى ، بل فى القرن السادس عشر حيث خلط الإسبان بين الشرف ـ السمعة الوطنية للفرد واعتبروا ارتكاب إسبانى لإحدى الهرطقات نوعًا من الإهانة الجماعية (١٢٨) ، وليس من المستغرب أن تُدين الكنيسة فى روما بعض الأخطاء التى ارتكبت ضد الأخلاق العامة مثل المعاشرة غير الشرعية بين الرجل والمرأة على نفس الدرجة الخاصة بالطعن فى الدين ، وهنا

نجد أن التشابه مع المحاكم اليهودية أقوى وأشد . (١٢٩) إذن نجد الدين والقانون والأخلاق والتشابك الاجتماعى كلاً فى واحد .

وهنا ندرك أن التماثل بين الكاثوليكية والدولة – وهو أمر غريب – ليس بمعزل عن السياق المسيحى الإسلامى اليهودى ، ولم نعثر على أى من الأسباب المادية والمكيافيلية التى تحكم المسار الذى مشى عليه الملوك والشعوب بعد عام ١٤٩٢ بحيث يكون له صلة بالهدف القائل بضرورة الحفاظ على وحدة المملكة حتى تتم إدارة الصراع خارجيًا دون أن تكون هناك قلاقل فى الداخل ، وإذا كانت هناك حجج فقد سيقت بعد ذلك ، وهنا علينا أن نفكر فى عدم كفايتها مذكرّين بأن الموريسكيين - الأكثر خطورة والأقل صلة بإدارة الدولة بالمقارنة بالعبريين - تم طردهم عام ١٦٠٩م ، كما أن فيليب الثانى لم ينفذ ذلك حرفيًا بعد العمليات الدامية التى وقعت فى البشرات Alpujarra ولقد كانت الدولة - الكنيسة إبداعًا انبثق من خلال همةّ هؤلاء الذين وجدوا أنفسهم فى وضع متميز ليفصحوا عن مكنون شعورهم الذى ظل حبيسًا طوال زمن ، وتمثل ذلك فيما يشبه الثورة التى قامت بها الجماهير الناقمة ، ومن اعتنقوا الديانة المسيحية هم وأحفادهم إذ كانوا فى حاجة لينسوا ما كانوا عليه قبل ذلك ، وهنا نرى أن أنماط الحياة اليهودية تتلقى تغذية ومضامين معادية لليهود وبغضب ونقمة على نفس درجة الرغبة فى البعد عن الجذور ، وها هى قرون التراث الإسلامى واليهودى تنفجر فى شكل عقيدة سوف تتحكم اعتباراً من الآن فى مسار الحياة القومية دون عوائق وتضم فى إطارها شتى مظاهر الحياة ، ويأتى إقرار محاكم التفتيش متوافقًا مع مفاهيم الخلاص التى أخذت تزدهر خلال الفترة بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر وكذلك التجارب الصوفية - الحسية للبعض (١٣٠) .

إذن ففكرتنا القائلة بأن المجتمع الإسبانى أخذ يمتص العناصر الخاصة بالثقافة اليهودية فى الوقت الذى كان يبتعد فيها عن تلك السلالة ، ليس فيها شىء من التناقض بل هى تعبير بسيط عما يحدث .والكاثوليكية الإسبانية خلال القرن السادس عشر اتسمت بأنها تعبير عن الدولة وبالهيمنة غير أنها لا تتوافق مع نفس الأفكار السائدة

فى العصور الوسطى أو تلك التى كانت سائدة فى أوربا أو روما البابوية ، وهنا لا نجد أى غضاضة فى البحث عن مأوى لكثير من اليهود الذين طردوا من إسبانيا ، وليكن حاضرًا فى الأذهان أنه خلال عام ١٤٩١م كان فرناندو الكاثوليكى يحمى يهود مدينة سامورة من غضبة الدومنيكان ، ويسلم إدارة " الأخوةّ المقدسة " إلى اليهود ويستخدمهم أيضًا فى بعض سفاراته ... الخ، ونعيش فى نهايةالقرن الخامس عشر حالة التقلبات القوية جعلت ما كان أمرًا عاديًا شيئًا مستحيل التحقيق ، إذ أدى نفاذ المسيحيين الجدد إلى المجتمع الإسبانى إلى حدوث ظواهر لها ما يشبهها فى أوربا المعاصرة ، أى عندما غير الكثير من المتطرفين اليمنيين أو اليساريين أدوارهم بين عشية وضحاها وبذلك رأينا الضحايا يظهرون فى صورة جلاّدين .

ولقد اختلط المسيحيون باليهود حتى القرن الخامس عشر ولم يروا غضاضة فى اختلاط السلالات وهكذا رأينا بعض المسيحيين ، بمن فيهم أناس من الأسرة الملكية ، يعشقون يهوديات وأن فرناندو الكاثوليكى به بعض الدماء اليهودية ، ونرى أن الوضع كان طبيعيًا وما يبرهن عليه هو الصمت إزاء هذا الاختلاط الذى أخذ الناس يخشون منه ويهاجمونه اعتبارًا من القرن الخامس عشر ، ومن هنا نجد الكثير من معتنقى الديانة المسيحية الجدد أخذوا يتسمون بالشراسة ويخرج من صفوفهم أعتى أعداء اليهود وأعداؤهم أنفسهم ، ويمكن العثور على هؤلاء فى كل مكان وأحيانًا ما نجدهم يحتلون مناصب رفيعة ، يقول إيرناندو دل بولجار H. del Pulgar عن اللاهوتى الدومنيكانى الشهير السيد / خوان دى توركيمادا كاردينال سان سيسو Sixto: " كان أجداده من أصول يهودية فقد تحولوا إلى ديانتنا الكاثوليكية المقدسة " (١٣١) وبالتالى فأول رئيس لمحاكم التفتيش الأخ توماس دى توركيمادا Tomás de Torquemada مسيحى من أصل يهودى ، كما نجد إيرناندو دل بولجار - ذلك الإنسان الغريب الرقيق - مسيحيًا من أصل يهودى رغم أن تاريخ الأدب لا يضعه فى هذا الإطار (١٣٢) وبمناسبة قرار منع أهالى جيبوثكوا Guipuzcua بأن يكون لأسرهم صلات رحم بالمسيحيين من أصول يهودية وان يقوم هؤلاء بمغادرة الأرض ، كتب بولجار Pulgar رسالة ساخرة إلى السيد / بدرو جونث ليث دى مندوثا كادينال إسبانيا يقول فيها :

تعرفـون فخـامتكـم القـانون الجـديـد الـــذى تم إقراره فى جيـبوتكوا والذى يـقضى بأن نـــذهب عـن هـــذه الأرض وألا نـتزوج مـن أهلـها ... أليس مـضـحكًـا أن كـل هـــؤلاء أو مـعظمهم ، الذين يرسلون أبنـاءهم لخدمـتنا ويعمل أغلبـهم كـرعاة للخـيول يرفـضون أن نكون نـحن حمـوهم فى اللحظة التى يرغبـون فيها القيـام بتأدية الخدمة لنا ؟ ... وها هـم اليهود يدفـعـون ثمن المنع الذى أصـدره مـويسن Moisen بألا يتـزوج ذووه من الأغراب (١٣٣) .

كان إيرناندو بولجار يعمل سكرتيراً لدى الملكة إيزابيل الكاثوليكية وكان مؤرخًا للوقـائع الملكية وصـديقًا للعزلة وقد عـاش الدراما القوية للتـحـولات الاجـتـمـاعيـة فى إسـبانيا، واستطاع بنظرته الدقيقة إدراك مـغزى الأحداث التى تدور من حـوله ، ومـا حـاولنا ه هو أن نضـبط عدسـة عـيوننا على رؤيتـه ، يقـول بحـرية شـديدة للكاردينال الأرستقراطى الكبير أن حصـرية معاصريه وقلقهم على طهارة الدماء إنما هى صـورة طبق الأصل من تلك التى كان عليها أجداد بولجار ، وحقيقة التاريخ فى حاجة إلى كلا الجانبين حتى يمكن أن تكون مقروءة : فالحصرية التى عليها إسـبانيا الكاثوليكيـة هى صدى للانغلاق الذى كانت تعيش فيه البيع اليهودية

وإذا كانت طهارة الدماء صورة طبق الأصل لمسيحية متهودة على غرار الانغلاق السـلالى للعـبرية ، فـالوضـع كـذلك بالنسبـة لإدراج الحيـاة بكاملـها فى الإطار الدينى والرفض العنيف لأى دراسة أو نظرية قد تؤذى تفوق وأسبقية المفاهيم العقدية ، ولكل هذا نجد سوابق واضحة بين اليهود ، فقد أعربت طائفة برشلونة عن معارضتها - عام ١٣٠٥م - عن قيام من هم أقل من ٢٥ سنة بدراسة المؤلفات اليونانية فى ميدان العلوم الطبيعية والميتافيزيقيا وذلك للحيلولة دون تأثير هذه العلوم فى إبعاد قلوبهم عن ديانة إسرائيل (١٣٤) وانهم يهود بروفنسا Provenza أهالى برشلونة بضيق عقولهم ، فقد كان الأوَّل من أنصار فلسفة بن ميمون ، ولقد " اتسّم أهل بروفنسا عن إخوانهم فى

إسبانيا وفرنسا باهتماماتهم الفلسفية والعلمية " وفيما يتعلق بما هو مشروع وما هو غير ذلك بالنسبة لمادة الدراسة نلاحظ ضيق الأفق مما سيؤدى إلى ظهور محاكم التفتيش فى إسبانيا ، وهو ضيق كان اليهودى قد تجاوزه فى أزهى عصور التقدم الإسلامى ، لكنه كان على اتساق مع عقيدته بأنه شعب الله المختار ، وهذه عقيدة حقنها لإسبانيا الملوك الكاثوليك وكارلوس الخامس ، فى المحاكمة الشهيرة التى جرت ضد فراى لويس دى ليون لأنه حاول تفسير الإنجيل بالجمع بين الإيمان والمشاعر العامة ، وهذا ما كان يؤجج المناقشات بين يهود إسبانيا ويهود بروفنسا .

بدأنا نفهم الوضع الذى كانت عليه محاكم التفتيش الإسبانية وهو وضع غير مفهوم إذا ما اقتصرنا على القول بأنها أنشئت لحماية نقاء العقيدة المسيحية فى تلك الممالك ، ولم يحدث فى إسبانيا أى جديد يتعلق بالميدان اللاهوتى ، ولم يحاول أحد – خلال القرن الخامس عشر – الدعوة لدين جديد أو يقضى على دعائم الدين القائم ومن تم إحراقهم فى أوربا (جان هوس ، إيتين دولت ، وميجيا سريت ، وجيوردانو برونو ...الخ) عبرّوا عن أفكارهم المعادية لما عليه روما ، أما من شنقوا وبعد ذلك أحرقوا على يد محاكم التفتيش الإسبانية فلم تصدر عنهم أية عقيدة أو نظرية ، وماتوا ضحية سلوكيات غير ملائمة فى نظر هؤلاء الساهرين على السلوك الذين هم أناس يميلون إلى القيل والقال وقليلو الحياء ، وقد ملأهم الغضب التلمودى ، والأمر الجديد فى محاكم التفتيش هو بشاعة ما تتخذه من إجراءات وغموض ما يدور وأن يكون أساس أحكامهم القيل والقال وأن تجمع بين نهش أحشاء الضحايا وبين الغيرة على نقاء العقيدة ، لم تعش إسبانيا صراعات دينية ، إذ كانت تتسم دومًا بالمعرفة اللاهوتية، إلا أنها كانت بعيدة عن العقيدة الأهلية والمنظمة بطريقة أرثوذكسية ، فالمعتقدات الإسبانية لم تكن إلا ما وضعه طوفان القرون فى الأرواح المصبوغة بالطابع المسيحى الإسلامى واليهودى وهو الخوارق التى تحدث على أيدى القديسين والحتمية القدرية وانتظار الخلاص اللذان كان عليهما الشعب ، ولم يكن يكمن وراء محاكم التفتيش خطة عقدية من أى نوع بل كانت محصلة انفجار الغضب الشعبى الذى ساعد عليه الروح غير الصافية التى كان عليها الكثير من المسيحيين ذوى الأصول اليهودية،

يجب علينا أن نبحث السوابق المتعلقة بظهور محاكم التفتيش فى حارات اليهود فى قشتالة وأرغن ، ويرى أحد علماء اليهود أن هؤلاء الذين وشوا بيهود قطالونيا فى نهاية القرن الرابع عشر " لم يكونوا المسيحيين عامتهم وإنما هؤلاء الذين تنصّروا والراغبون فى إظهار غيرتهم أو تخليص حسابات قديمة " (١٣٥) وأكثر سكان الحارات اليهودية إيذاء كان السبّاب وهو صنوان لتلك الشخصية الكارثة التى نجدها فى مقام آخر وهى " الواشى " الذى كان عنصراً رئيسياً فى المحاكم الإسلامية والمسيحية (١٣٦) وقد كان ذلك النمط منتشراً ومستشرياً لدرجة أن لفظة " malsin {الواشى} أصبحت ضمن مفردات اللغة الإسبانية (١٣٧) ومعها مشتقاتها مثل الفعل malsinas ، وهذا دليل على عدم وجود حواجز بين الحارات اليهودية والمجتمع المسيحى ، كان الواشى هو الذى يبلغ عن أهل دينه لدى السلطات المسيحية ، فلا تأخذها بالمتهم رحمة بنية انتزاع أكبر قدر من المال وهذا ما يفسر حرص القوانين على طهارة العقيدة الموسوية وتطبيق مبادئها وهذا جانب لم يبلغه أى شعب مسيحى ، وكان للواشى عائد مادى جزاء له على جهده أو متعة الانتقام ، فقد كانت السلطات العبرية تطارده بلا هوادة بينما يحاول ضباط الملك الإفادة من الواشى ومن الضحية ذلك أن من سمات الواشى والضحية أنهما فريسة لذيذة الطعم " ففى مؤتمر البيع اليهودية الذى عقد عام ١٣٥٤ تم طرح قضايا الألسنة والأقلام السامة التى أصبحت مشكلة قومية " (١٣٨) .

وكانت القضايا التى تطرح بناء على الوشايات ينتهى بها الأمر للدخول فى طريق يخلو من الضمانات العادية ودون إحداث مواجهة بين المتهم وأخذ اعترافاته تحت وطأة التعذيب " (١٣٩) .

ومن المنطقى والمعقول – بناء على كل ما سبق – أن نظن بأن الإجراءات التى طبقتها محاكم التفتيش الإسبانية صورة من تلك التى استخدمتها البيع اليهودية وأن نقل تلك التركيبة إلى المسيحيين كان عن طريق العديد من اليهود الذين أصبح عدد منهم – أثناء القرن الخامس عشر – يشغلون درجة الأسقفية والرهبنة كما أن البعض كان عضواً فى المجلس الأعلى للتفتيش ، وكتب البعض منهم كتباً غير إنسانية ضد بنى جلدتهم وهذا ما سوف نراه .

وليس هناك ما هو أفضل من المؤرخ التابع لجماعة الجيزويت ، وهو خان دى ماريانا ، ليؤكد لنا الانطباع بأن الكنيسة المقدسة عندما بدأت عملها عام ١٤٨٠م بالأسرار والوشاة ، كان ذلك جديداً لم نألفه من قبل كما كان علاجلاً نزل من السماء طبقا للمؤلف :

> "والشيء الغريب فى الأمر هو أن يدفع الأبناء ما ارتكبه الآباء ، كما أن المتهم لا يعرف من اتهمه ولا يواجهه ، ولم يكن هناك أى بيان عن الشهود ، وهذا كله مخالف لما حدث فى المحاكم السابقة ، كما بدا لهم جديراً معاقبة تلك التّهم بالموت ، والأخطر من كل هذا عدم ممارسة الحرية فى الحديث فيما بين الناس خشية أن يكون هناك من يَشُون بهم ويبلغونه عما يحدث الأمر الذى أدى إلى حالة خطيرة من الإذلال الذى هو على شفا الموت" .

ورغم أن المؤلف يشير إلى وجود محاكم التفتيش قبل ذلك فى بلاد أخرى يعترف بأن المسلك الذى جرى فى إسبانيا جديد فى إطار الكنيسة " فالعادات القديمة فى الكنيسة تتغير طبقًا لمقتضيات الزمن " (١٤٠) ؛ وكان من آثار إقرار محاكم التفتيش حرمان قشتالة من حريتها والدخول فى نظام جديد " هو الإذلال حتى يصبح المرء على شفا الموت " ، وكانت المناهج التى اتبعتها المحاكم غير مسبوقة ، كما أنها جديدة على القضاء المدنى والدينى ، ومن هنا ندرك سر الاستغراب الذى نراه فى اللغة الناعمة التى استخدمها عضو طائفة الجيزويت ، كانت روح اليهودية ـ الجديدة والغربية ـ تنطق وتتحدث على لسان الرهبان المتهوّدين الذين يمسكون بزمام محكمة التفتيش .

ولقد اجتمع فى هذه المحكمة الحقد المتأصل ، الذى لم يكن له بنية لدى العامة ، والرغبة المسمومة التى عليها بعض اللاهوتيين اليهود الذين اعتنقوا المسيحية لإيذاء العقيدة المسيحية وروح الشعب الإسبانى ، هاهو العنف ينبثق من العامة الذين لا اسم لهم ولا شكل ، وهو عنف أعمى أخذ يعصف بحارات اليهود منذ نهاية القرن الرابع

عشر ، وهناك بعض الطوائف الدينية ذات الطابع الشعبى والأرضية التى تعتمد السلب والنهب كمنهاج ، كما أنها تضم العديد من المسيحيين ، من ذوى الأصل اليهودى ، الناقمين . هذه الطوائف كانت تزود العامة ببرنامج الهجوم مستخدمة حججًا تطلقها من على منابرها وبالتالى كان لها تأثيرها غير المحسوب ، وهنا لم يكن كافيًا قيام الملوك بمحاولة كبح جماح غضب هؤلاء الذين افتقروا للقيام بمهمة مقيدّة (١٤١) وأسسوّا حياتهم على الرغبة وعدم الرغبة ، وكان شغفهم الأول الاستيلاء على ما أنجزه هؤلاء الذين يكرهونهم ، وكان من الصعب على السادة السيطرة على هؤلاء فالأمر أنهم أيضا لم يكن لهم هدف فى حياتهم إلا العيش لأنفسهم والتسلى والمتعة بمشهد التميّز الطبقى ، وقبل أن يكشف الملك الكاثوليكى الكيفية التى يستخدم بها هذا الحماس الذى عليه فرسانه لجأ إلى تدمير أرضه (١٤٢) وفى الوقت نفسه نجد أن من هُمْ فى قاع المجتمع أخذوا يعيشون على سلب الحارات اليهودية ويحدوهم فى هذا الخُطَب الغاضبة التى يطلقها بعض الرهبان (١٤٣) ولم يكن أمام بعض اليهود إزاء هذا الوضع إلا اتخاذ مواقف غريبة وفاقدة الأمل ، فلم يستطع السادة أو الملوك حمايتهم اعتبارًا من نهاية القرن الرابع عشر ، وظلت الملكية تسير على خط غير أمين خلال القرن الخامس عشر وما كانت تهدف إليه السيدة كاتالينا دى لانكستر - الملكة ذات الأصل الإنجليزى ، التى حكمت قشتالة عندما كان خوان الثانى صغير السن - هو حسم الأمر و إلغاء التعايش المسيحى اليهودى من خلال قرارها الصادر عام ١٤١٢م ، وأفترض هنا أن من قام بتحريره السيد / بابلو دى سانتا ماريا المسيحى ذو الأصل اليهود وكان المستشار السيد / البارو دى لونا وراء القرار الصادر عام ١٤٤٣م وهو قرار أكثر إنسانية وعقلانية حيث يسمح للمسيحيين بالعمل تحت إمرة اليهود ، وذلك بغية إذكاء التسامح بين أفراد الشعب (١٤٤) وقد كان لحماية السيد ألبارو لليهود والمسيحيين ذوى الأصل اليهودى تأثيرٌ مدمرٌ على حياته (١٤٥) .

وإذا تمكن الملوك والسادة فى بعض الأحيان من الإمساك بتلابيب الغضب الشعبى المادىّ ضد اليهود ، فلم يستطع أحد السيطرة على الغضب اللاهوتى لبعض أبرز المسيحيين من ذوى الأصل اليهودى ضد إخوانهم السابقين فى الديانة ، ورغم أن

الأمر غير معقول ظاهرياً فالحقيقة هى أن أعنف الضربات التى تلقاها بنو إسرائيل جاءت إليهم من نفس حاخاماتهم الذين اعتنقوا المسيحية ، ولقد أسهم الرعّب وفقدان الأمل فى هذا التعبير فى جبهة القتال ، كما أثرت أيضا الرغبة فى التميز التى رأيناها واضحة فى كلمات الراّجل Arragel ، فلقد حلم اليهودى خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر بالاستيلاء على قشتالة أرض الميعاد الجديدة ، فقد جمعوا فى أيديهم وسائل استثمار ثروة المملكة وإدارتها ، وكذلك التّقنّيَة والمعارف السائدة آنذاك . إلا أن يهوديتهم – مثل أغلب مظاهر الحياة الإسبانية - كانت تفتقر لحدود معلومة ، ولمبدأ الرصانة ، ومن هنا سقطت من أعلى عليين إلى الهّوة السحيقة ، وبعد عام ١٣٩١م تشتت اليهود وكأنهم فلول جيش منهزم ، فهناك استمروا فى المقاومة ببطولة أو انصاعوا للوضع الراهن حتى لحظة الطرد كما اعتنق البعض منهم الديانة المسيحية وأصبح أبناؤهم مثل باقى أفراد المسيحيين ، بينما نجد مجموعة صغيرة مؤلفة من الرجال الأذكياء ، الذين هم على علم ومعرفة ، وقد ضحّت بكل شىء فى سبيل البقاء فى أماكنها وتميزهما باحتلال مواقع اجتماعية مميزة ، ولم يتردد لحظة واحدة فى خيانة اليهود ومطاردة الذين اعتنقوا المسيحية ، وكانوا هم فى واقع الأمر الذين أوحوا بإنشاء محكمة التفتيش وباتخاذ الخطوات التى استغربها الأب خوان دى ماريانا ، غير أنه لابد من البرهنة جيداً على ما نقول .

فأول شخصيات تلك المجموعة هو سليمان آل ليفى ، المولود فى برغش عام ١٣٥٠م والحاخام الأكبر للمدينة ، وفى عام ١٣٩٠م اعتنق هو وأبناؤه وأشقاؤه المسيحية وتسمى منذ ذلك اليوم باسم بابلا سانت ماريا ، ومن أبنائه وأحفاده كل هؤلاء اللاهوتيين والقانونيين والمؤرخين الذين يحملون لقب "سانتا ماريا " وقد ملئوا القرن الخامس عشر بأعمالهم تلك كما تلقى السيد بابلو لقب دكتور فى اللاهوت فى باريس ؛ عام ١٣٩٦م كان كاهناً قانونياً فى كاتدرائية برغش ومنذ ذلك الحين أخذت تمطر فوقه ألقاب التشريف والتميز : فهو القس الخصوصى الأكبر لأنريكى الثالث، والقاصد الرسولى للبابا بندكتو الثالث عشر فى بلاط قشتالة ، والوصى ووزير خوان الثانى (الذى تم تحرير القانون الصادر ضد اليهود عام ١٤١٢م فى عهده) وأخيراً أسقف

برغش ، وكل ذلك يؤكد ذكاءه وعلمه إذ تمكن بذلك من الانتقال من الحاخام الأكبر إلى أسقف فى نفس المدينة وهذا شيء لم يتصوره أحد خارج إسبانيا وهى الدولة ذات التاريخ الفريد ، لكننا لم تعثر حتى الآن فى حياة السيد بابلو على ما نلومه فكثيراً ما كان يردد المسيحيون من ذوى الأصول اليهودية (القرن الخامس عشر) أن المسيحية بدأت مع ظهور عيسى ، ذلك الإلهى الذى تمسّح ، كما أن اليهود الذين ساروا على نهجه كانوا رسله وحوارييّه ، وإذا ما كان اعتناق سالمون آل ليفى المسيحية أمراً محترماً فالموقف الذى اتخذه إزاء يهود إسبانيا بالخسّة الكاملة مهما كانت طبيعة التبريرات التى تُساق فى معرض تاريخ إسبانيا ، ففى **Scrutimium, Secipturavum** الذى كتبه فى المرحلة الأخيرة من العمر ، يقول أسقف برغش إن اليهود الإسبان " هم عدّو قديم اقتنع (بوسوسة الشيطان) " وقد وصلوا إلى أماكن رفيعة فى القصور الملكية وعند علية القوم " وفرضوا الخوف والإذلال على المسيحيين لدرجة خشى معها الناس على أرواحهم ، وكانوا يحكمون مملكة قشتالة لصالحهم ، ويثنى السيد بابلو على المذابح التى جرت عام ١٣٩١م ويرى أن الله هو الذى أثار الشعب للانتقام لدم المسيح وهذا الذى يدعى فرّان مارتينث - الذى أثار أهل إشبيلية - لم يكن فى نظر أسقف برغش إلا رجلاً جاهلاً رغم أن حياته جديرة بالثناء عليها (١٤٦) .

والعلة الوحيدة لهذا الانحطاط هى القول بأن الحاخام الأسقف كان يكتب هذا حفاظاً على حياته ، ويصيح بأعلى صوته حتى لا يسمع صوت ضميره ، ولقد اعتنق السيد بابلو المسيحية للوصول إلى الدرجات الرفيعة فى القصر الملكى وليتحكم فى قشتالة على هواه وقد فعل ذلك أجداده لكنهم كانوا حاخامات وأطباء غير أنه لم يستطع الوصول إلى ما يريد إلا بإعراضه عن دينه ، وترتسم فى شخصية السيد بابلو تلك الشخصية الكارثة التى تمثل عضو محكمة التفتيش الذى يطارد شعبه (١٤٧).

وإذا ما احتفظ هؤلاء الأفذاذ لأنفسهم بمعتقداتهم الجديدة أو عاشوا مثل بعض الذين عرفهم بيريث دى جوثمان " أناس طيبون يقضون حياتهم الدينية الصعبة بما تمليه عليهم إرادتهم - فلم يكونوا ليتسببوا فى إحداث الأذى والضرر بالآخرين ، غير أن الخطير فى الموضوع هو أنهم شعروا بالحاجة إلى تبرير ما يفعلون من خلال

القضاء على أى أثر وذكرى لليهودية التى يحملونها فى صدورهم ، ويبرز من بين هؤلاء الحاخام ثم الأب الأخ ألونسو دى إسبينا . فعندما كان الملك إنريكى الرابع فى مدريد يرتاح من المهام التى يقوم بها :

> أتى إليه قائد إسبينا Espina وفراى فرناندو لى لابلاث ومعهما آخرون من رجال الدين ، من مراقبة سان فرانسيسكو، ليبلغوه أن فى مَمْلكته هرطقة كبرى أطلقها هؤلاء المتهودون الذين لا يزالون على الطقوس اليهودية رغم أنهم يحملون أسماء مسيحية ، فهم يقومون بختان أولادهم ويرجونه التحقيق فى ذلك حتى يُعاقَبَ المتهمون ، وقاموا بإلقاء بعض الخطب حول الموضوع ، وخاصة فراى فرناندو دى لابلاثا الذى قال بأن لديه قلفات الأبناء المسيحيين من ذوى الأصول اليهودية ... فأمر الملك باستدعائهم وقال لهم إن ما فعلوه عدوان على الديانة الكاثوليكية وأن عقابهم يخصه هو وأن يقوم بجلب القلفات معه وأسماء هؤلاء الذين فعلوها ... فأجابه فراى فرناندو بأنهم أفراد من ذوى المسئوليات والمناصب فسأله الملك عنهم ورفض أن يبدو الأمر كأنه كذبة ، وهنا قدم إليه فراى ألونسو دى أوروبيسا (١٤٨) القائد العام للطائفة الدينية سان خيرونيمو يرافقه قادة آخرون من نفس الطائفة ، وأعلن موقفه المضاد ، وخطب أمام الملك يشير إلى الوضع الذى أصبح عليه المراقبون من البلبة واللبّس" (١٤٩) .

ومن المعروف أن فراى ألونسو دى إسبينا مؤلف Fortalitium fidei الذى انتهى عام ١٤٨٥م ، وأعيدت طباعته كثيراً خلال القرن الخامس عشر ،ثم بعد ذلك (أى أعوام ١٤٨٥، ١٤٩٤، ١٥١١، ١٥٢٥م) ، ويوجد فى الكتاب فقرات مثل هذه " أعتقد

أنه إذا ما تم فى عصرنا هذا عقد محاكم تفتيش حقيقية وإنشاؤها فسوف يكون عدد الذين يتم حرقهم كثيراً من بين المتهودّين" (١٥٠) ، وقد بلغ فراى ألونسو رئاسة جامعة سلمنقة واستخدم جُلّ وقته فى العظة والكتابة ضد الشعب اليهودى ، وانتصرت غيرته ، وسعد وهو فى ختام حياته بمكان له فى المجلس الأعلى لمحاكم التفتيش ، حيث تمكنوا من إقامة هذه المحكمة ، وإقامة أخرى من المحاكم اليهودية السابقة ، وذلك بغية إشعال غضب البسطاء وأن يكونوا هم الوشاة لدى الملوك ، أى يمارسون دورهم عندما كانوا فى حارات اليهود . (١٥١) .

نحن نعرف بعض الشىء عن سلوكيات من فروا من ديانة إسرائيل فى الفترة السابقة على إقامة محاكم التفتيش ، ورغم هذا من السهل تمثّل الجو العام الذى كانت عليه أديرة الفرنسيسكان والدومنيكان خلال القرن الخامس عشر ، وقد قمت فى مكان آخر بتحليل الصراعات الموالية والمناهضة للمسيحيين من ذوى الأصل اليهودى فى طائفة القديس خيروينمو ، ويستفاد من كل هذا أن محاكم التفتيش أخذت تظهر ملامحها ابتداء من القرن الخامس عشر ، فلقد تم زرع الكراهية بشكل جيد وقام بذلك بعض الناس ومنهم السيد / بابلو دى سانتا ماريا وكذا معاصره جوزيه اللوركى (من لوركا) ، وهو عالم دين آخر اتخذ لنفسه اسم " خيروينمو دى سانتا فى " عندما اعتنق المسيحية ، مثله مثل السيد بابلو الصديق العزيز للبابا بندكتو الثالث عشر ، أما السيد لونا **Luna** المناهض للبابا والذى عقد فى عام ١٤١٣م مؤتمر طرطوشة **Canferencia de Tortosa** حيث تواجهت فيه عقائدياً المسيحية واليهودية ، وحضر المؤتمر أربعة عشر حاخاماً يهودياً ، وقد حمل صوت الكنيسة خيروينمو دى سانتا فى - رغم أن ذلك يبدو أكذوبة - الذى حمل التلمود فى يده وأخذ يتفقّد كل عقائد اليهود ، ولم يستطع مقاومة هذه الحجج إلا اثنان من الأربعة عشر حاخاماً وهما الحاخام فيرّير ، والحاخام يوسف ألبو ، وتحول اثنا عشر إلى المسيحية وأصبحوا جزءاً من القوات التى ستشكل جماع محاكم التفتيش ، فها هم ضحايا الإرهاب يشفون أنفسهم بتفزيع الآخرين ولجأ خيرونيمو سانتا فى إلى إكمال مهمته بكتابة مؤلفه الشهير **Hebraeomastix** (سوط اليهود) وهو كتاب يقول عنه أمادور دى لوس ريوس **A. de los Rios** : " وإذا

كان الهدف الرئيسى هو الاستئصال فمن الممكن تخيل ما يتضمنه هذا الكتاب والدافع إلى الكتابة" (١٥٢) .

وأدى النمط غير الحكيم الذى كانت عليه الحياة الإسبانية خلال القرون الوسطى إلى ثمار تحمل نفس الطابع ، فقد عاش اليهودى فى صورة أخطبوط بالنسبة للطبقة البسيطة ـ التى تتميز بجرأتها فى الصراع وعدم كفاءتها فى شتى المجالات الأخرى - ووضع حمايته فى يد كبار السادة ولم يكن الكثير منهم يشعر بالمسئولية الملقاة على عاتقهم ، وهذا ما يوضحه حادث مهم ، لو كان له من قلده لتغير مسار التاريخ ، فقد كانت أسرة كونتا أرو Haro ذات سمعة طيبة وحقيقية طوال القرن الخامس عشر ، وقد نهض أحد أفرادها وهو السيد بدرو فرنانديث دى بيلا سكو ليشير :

> لما كان فى القرى التابعة له الكثير من اليهود ، وأن ممارستهم للربّا بدت له نوعًا من الأفكّار أمر بعقاب شديد لمن تسوّل له نفسه سداد الربا ، ولما استمر ذلك بعض الوقت شكا إليه أتباعه من أنهم لا يجدون المال اللازم لسداد الربا وأن من الأنسب لهم بيع قطعانهم والأصواف والقمح وأشياء أخرى كمقدم ، ولهذا طلبوا منه العودة إلى ممارسة ذلك فأراد الكونت البحث عن حل للمشكلة بأن وضع ثلاثة خزانات فى مدينة بومار Medina Pumar وفى إيريرّا Herrera وفى بياديجو ووضع فى كل واحدة منها مائتى ألف مرابطى (وحدة عملة) ، وفى صوامع كل واحدة منها ألفى جوال من القمح وأمر بأن تسلم المفاتيح لأربعة من المسئولين ... وأمرهم بالوفاء بكل ما يحتاجه أى من أتباعه من المال والخبز فى حدود معينة وأن يزودهُم بالملبس والمزارع وأن يتم إقراضهم لأجل عام ، وبذلك حافظ على سكان هذه المدن حتى تم الوفاء

بحاجاتهم ، وقد كان ذلك تصرفًا كاثوليكيًا لرجل بمعنى الكلمة وجدير بالتذكّر (١٥٣) .

ومعنى هذا أن كونت دى آرو أسس أول بنك إقراضى فى إسبانيا وجعل الربا اليهودى غير ضرورى بالنسبة للبسطاء والسادة ، وفى مؤسسات مثل هذه كانت تكمن الإمكانية فى تطبيع الاقتصاد العام ، وتحويل العبريين إلى عناصر مفيدة وليست ضرورية أى الأخطبوط الذى يحيط بأذرعه الشعب ، ثم يعصره الملك والنبلاء بعد ذلك غير أن الحل الذكى الذى قدمه السيد / آرو (والذى لا أعرف عنه المزيد لعدم توفر المعلومات لدى) تم عزله وأصبح شاهدًا على أخلاقيات النبلاء خلال القرن الخامس عشر الذى يكاد يكون العصر الوحيد الذى شعر فيه نبلاء قشتالة بواجباتهم كسادة للناس والأرض .

غير أن البواعث المسيطرة كانت من صنف آخر ، وهنا نجد المواطن البسيط ابن القرية وهو خلو من القيام بمهمة ذكية ويفتقر إلى القدوة يلقى بنفسه على اليهودى الذى هو أعلى منه قدرة ، وانتاب اليهود الفزع فأخذوا يبدلون دينهم لإنقاذ حياتهم وثرواتهم لكنهم ظلوا على طبيعتهم السابقة ، فقد كانوا من الخاصة ومن الأطباء ومن سفراء الملك وتولوا إدارة الأموال والتجارة والأعمال اليدوية ، وكانوا لاهوتيين وكتابًا وأساقفة وكرادلة مثلما كانوا حاخامات سابقًا ، وخلال القرن الخامس عشر وجدنا اثنين من المسيحيين من ذوى الأصل اليهودى يحتلون منصب الأسقفية فى كل من برغش (اثنان)، وفى قورية Coria وكاردينال سان سيسنو وأخرى غيرها ، وكان بعضهم فى مجالس الكاتدرائيات وأديرة الرهبان والراهبات ، وفى الوقت نفسه حدث تشابك بالأيدى بين المسيحيين القدامى والجدد فى الأندلس وأماكن أخرى ، وقد حاول أحد كبار الأرستقراطيين وهو السيد / ألونسو دى أجيلاو إيقاف المطاردات ضد المسيحيين الجدد فى قرطبة ، وفى عام ١٣٩١م حاول ابن ملك أرغن فرض الاحترام ، والحيلولة دون وقوع هجمات على حارة اليهود فى بلنسية ، ولكن دون جدوى ، وفى قرطبة " فدون حياء أو خجل أو انصياع لأوامر السيد / ألونسو بدأت أعمال السرقة ، وهناك وقعت مشاجرة ضخمة وألقى أهل البلدة أحجارًا على السيد ألونسو لدرجة اضطر معها

للانسحاب إلى الحصن " [١٥٤] ، وبعد ذلك ببضع سنوات - أى فى عام ١٤٧٣م - تم اغتيال المشير ميجيل لوكاس دى إيرانثا فى جيان Jaen لأنه ناصر المسيحيين الجدد فقد قام البعض منهم - استناداً إلى عقيدته الجديدة - بمهاجمة العبريين سواء كانوا ممن اعتنقوا المسيحية أو لا وقد كان هجومهم من الخِسّة بحيث ترافقت درجة خوفهم وطموحهم ، أما اليهود فكانوا يدينون المسيحيين الجدد كنوع من العقاب ، وبذلك أخذت إسبانيا تغرق فى جو من الجاسوسية والجاسوسية المضادة ، وهنا نجد المسيحية الإسبانية تتلقى مع كل هذا بذوراً رائعة تمثلت فى فرناند دى روخاس F. de Rojas وفراى لويس دى ليون وكثيرين آخرين ممن لم يكن لأعمالهم وجود خارج دائرة الضيق والكدر التى وضعهم فيها القدر [١٥٥] ؛ غير أن هناك سموماً أخرى كثيرة جاءت أيضاً وخاصة محاكم التفتيش . وقد ضيعّ التاريخ وقته فى هذه المشكلة ومشاكل أخرى فى محاولة تبرير وجود محاكم " التفتيش " أو لعنها ، دون التمعن والاستغراب بالنسبة لإمكانية حدوث هذا الأمر الرّهيب وغير المسبوق ، فثلاثة قرون ونصف القرن تجعل المرء يظن أن الإسبانى مارس هذه السياسة نظراً لتعصبه وتحوّل الأمر لديه وكأنه الأفيون فى كوميديا موليير ، لكنها قد وقعت على الإسبانى وهو غير مستعد وأصبحت كنوع من " الإذلال حتى وصلت به إلى شفا الموت " ، فايرناندو دل بولجار الذى كان أحد الجلساء الحميمين للملوك الكاثوليك يذكر فى رسالة له، (طبعت عام ١٤٨٦م) ، تعليقاً على التجاوزات والاعتداءات التى وقعت فى بلدة فوين ساليدا Fuen-salida، " ولما كان أهالى {طليطلة} من حراس العقيدة فقد اكتشفوا الكثير من الهرطقات لدى العاملين فى فوين ساليدا فقد سرقوا كل شىء " { Letra xxv } .

وتأخرت إسبانيا سنوات عديدة حتى تعودت على تنفس ذلك الهواء الصعب الذى ورَثته عن التراث اليهودى ، وسوف نرى بعد ذلك أنه فى نهاية القرن السادس عشر تصدرت احتجاجات على التعسف الذى تمارسه محاكم التفتيش ، ومنذ قرون مضت كانت الحارات اليهودية تستخدم سلاحًا هو الحرم "herem" أو ما يسمى الإخراج من عضوية البيعَ وقد انتشر ذلك بشدة وقوة غير معروفتين فى مجتمع متساهل مثل المجتمع القشتالى ، وحتى يمكن الحصول على حضور الشهود غير المعروفين ، يلقى

بهذه الوسيلة وبذلك يمكن الوصول إلى الآثار غير المرئية للواشى والتخفيف من ذنوب الضحايا بسبب ما ارتكبوه من سبّ [١٥٦] ، وكان بيت الدين (أو المحكمة) يطارد المذنب بلا هوادة انطلاقًا من مبدأ " سوف تباعدون أنفسكم عن الملعون " ، و إذا ما أخل المرء بيمين القسم واجه عقوبة الجلد ، لأنه لا يوجد فاصل بين الإثم والجريمة وإخراج الفرد من الجماعة (حيث يتم عزل الضحية وكأنها مريضة مرضًا معديًا) كان يتعرض له عدد غير قليل ، ومنهم على سبيل المثال ، من يغشون جابى الضرائب وبالتالى فلا أحد يستطيع أن يتحدث معهم أو يساعدهم فى شىء . وقد انتقل هذا الخليط المتمثل فى المفاهيم الدينية والحياة المدنية ، والخاص بالبيع اليهودية إلى مجتمع القرنين السادس عشر والسابع عشر الذى عاش على كاثوليكية ضيقة وخانقة ، تختلف عن مثيلتها فى أوربا ذلك العصر ، وعن إسبانيا العصور الوسطى ، وهنا ندرك سرّ الجذور البعيدة للعبارات الساخرة التى أطلقها كبييدو فى الـ Buscon (المحتال) ، أى عندما يقوم بابلوس بتهديد المرأة التى نادت على الدجاج قائلة " Pío ، Pío" بإبلاغ محكمة التفتيش ذلك أن لفظة Pío هى اسم لبعض بابوات روما " لا يمكن إلا أن أبلغ محكمة التفتيش وإلا لطردت من جماعة المسيحيين " - والحاخامات السابقون الذين طرحوا – خلال القرن الخامس عشر – إمكانية إقامة محاكم التفتيش تصوروه مثل "بيت الدين" الملىء بالمضايقات القاسية والاتهامات السرية ، وقد وجدت علاقة العداء المتبادلة بين اليهود والمسيحيين خلال قرون عديدة تنفيسًا لها فى محاكم التفتيش ـ بيت الدين ،، فطبقًا لما قاله إيرناندو دل بولجار فالسرقة هى " دائما سرقة بكل ما فيها " وقد مارس دومًا كلّ الهيمنة وبلا حدود [١٥٧] .

الأدب اللاحق على دون شيم طوب من وجهة نظره

تزداد وجهه نظرنا قوة إذا ما تمكنّا من النفاّذ إلى النصوص العبرية الإسبانية التى لم تترجم ، وليس الهدف هو مجرد فهم ما تحتويه بل ما يوجد بين السطور ، ورغم هذه العقبة من الممكن توسيع دائرة منظورنا الحالية من خلال النصوص الإسبانية وبعض الترجمات الممتازة ، فإنتاج السيد / شيم طوب اليهودى ابن بلد

كـايريوّن دى لوس كـوندس] Carrion de los Candes بالنسـيـا [لم يُكْتَب على أنه عرض لتـاريخ الأدب خـلال القـرن الرابع عـشـر (١٥٨) ، فـهـذه المواعظ الأخـلاقـيـة أو النصائح الموجهة للملك السيد / بدرو تتضمن أول حالة من حالات التعبير الغنائى باستخدام اللغة القشتالية وبالتالى فهى ليست تابعة أو موازية لعملية غياب الشعر الغنائى لقشتالة ، إنها أول شعر " مطلق " دون أن تكون لها سابقة فى اللغة القشتالية. يغزو السيد / شيم طوب اللغة الأدبية لقشتالة بغنائيته العبرية مثلما فعلها قبل ذلك قمصّ إيتا بشعره ذى المذاق الإسلامى ، غير أن القُمصّ كان فى حاجة إلى الاعتماد على السرد والوصف أو الأحداث حتى ينطلق إبداعه ، أما السيد / طوب فيقدم لنا واقعًا شعريًا يتضمن مشاعر موضوعية ليس لها علاقة بأية واقعة إنسانية :

عندما تجف الوردة يخرج منها عبقها

ويصبح الماء ذا رائحة ،وردية ،ولا أحسن من هذا (٥)

لم يتم إدراج الزهور والورود فى موضوع شعرى قبل ذلك كموضوع فى حد ذاته إذ يتم الإشارة إليها فى "سبب الحب " Rozán de amor وهو غير قشتالى

هناك نباتات أخرى كثيرة

لم أكن أعرف أسماءها كلها

أو تظهر عند جونثالو دى بيرثيو كظاهرة طبيعية عادية ليس لها بعد إنسانى :

كانت الروائح الطبية للزهور تفوح (١٥٩)

غير أن وردة السيد / شيم طوب تحيا وهى تموت وذلك بفضل ما فيها من عبق قابل للانتقال كما أنها مصوّرة طبقًا للمفاهيم الكونية القريبة ، فجمالها يذبل طبقًا لإيقاع كَدَرِنَا الظريف ، ورغم هذا – فلحسن الحظ – نجد موتها وذبولها أفضل من وجودها وحياتها ، إذ تعود لتبعث من جديد فى شكل رائحة طيبة لا نراها ، فلقد تلاشى الشكل فى الرائحة وهذه دراما صغيرة تلامس حالة الضيق والكدر التى تشعر بها إزاء الموت والبعث ، كان يهوديًا إذن أول من ترجم معايشة دون أحداث خارجية

تمثلت فى شكل كلمات قشتالية جميلة ،فالوردة تقتصر على الوجود فى بستان مغلق، ولطيف وصغير حيث يتعايش الشعور من خلال الظاهرة التى يوجد فيها ولا شىء أكثر، نحن إذن على أعتاب البوابة الكبرى للغنائية الإسبانية ، وهو نفس ما وجدناه سابقًا عند الإسبان العبريين الذين عملوا على كتابة النثر الأدبى فى منتصف القرن الثالث عشر ،وبذلك يتضح لنا بجلاء أن الأصالة الشعرية للمسيحيين قاصرة على الشعر الملحمى الرائع ، فتلك كانت حياتهم وذلك كان تاريخهم ، وبعد ذلك سوف ترى الشعراء الإسبان العبريين فى البلاط الأدبى لخوان الثانى على نفس الدور الذى قام به علماء الفلك والأخلاق فى بلاط ألفونسو العاشر ، وسوف يسهم الشعراء فى خروج عدة ظواهر لا زالت تفتقر حتى الآن لتفسير مقنع .

إلا أن الشعر الإسبانى العبرى لا يمكن فصله عن الشعر الإسلامى سواء فى الموضوعات أو الأسلوب،ورغم هذا فالشعر العبرى يتسم بحدته وعدم إفصاحه ، وكثيراً ما نستشف منه الصدى العميق لحالة فقدان الأمل لبنى إسرائيل ، وما يهمنا الآن هو ملاحظة بعض الموضوعات العربية فى أشعار السيد (شيم طوب) نجد اليهودى البالنسى يقول بجرأة لم يكن خوان رويث قد اعتاد عليها بعد :

فى الحلم قبّلتُ جميلة ذات مرة

كانت أكثر أهل المنزل خفراً

وجدتُ ثغرا لذيذًا ولعابًا دافئًا :

ولم أذق ألذ من هذا الحصرم المُزّ (٢٣ - ٢٤) (١٦٠)

وهنا علينا أن نفكر فى الثقة والاطمئنان اللذين كان عليهما اليهود فى عهد ألفونسو أونثينو A. Oncene حتى يجرءوا على كتابة هذه الأشياء باللغة القشتالية أما قمصّ إيتا فقد كان عليه آنذاك أن يُلْبِسَ النماذج العربية لباس الخفر والحياء ولأول مرة يقوم شيم طوب بكسر الحواجز التى تقف عائقًا دون ذلك الشعر ، فأن يعشق المرء فى منامه هو أحد موضوعات ابن حزم حيث يتحدث عن أحد من الناس

عاش فى حلمه حب أَمَة : رأيتك فى نومى كأنك راحل × وقمنا إلى التوديع والدمع هامل {صـ ١٩٠} (١٦١) فالإشارة إلى اللعاب لها إيحاءات شبق وغلمة فى الشعر الغربى حتى اليوم، غير أنها فى الأدب العربى تعتبر أمراً شائعاً وعادياً مثلما نجده فى أحد أبيات ديوان الفرزدق الذى يتحدث عن شهد الرضاب (١٦٢) .

وخلال القرن الحادى عشر نجد ابن حزم يقول :

أرى ريقها ماء الحياة تيقنًا

على أنها لم تبق لى فى الهوى حشا (صـ١٨١)

وابن قزمان يتحدث عن **هذا الذى فى الفم هل هو سكر مذاب أو لعاب ؟ ... فبين شفتيك هناك شىء**

يطيب لى ، ياإلهى هو لعابك أو ماء فيه سكر مذاب

وقد قال يهوذا آل ليفى العظيم (الذى ولد فى طليطلة عام ١٠٨٦م) بالعبرية أبياتًا ها هى ترجمتها الإنجليزية التى قامت بها نينا سالامان :

يرتجف قلبى بين الخوف من الإخفاق وحلاوة اللقاء

من مأساة الفراق وشهد الرضاب

وهناك الكثير من الأمثلة من هذا النوع وبالتالى فلسنا فى حاجة إلى المزيد وموضوع المرأة التى تنتظر الحبيب هو موضوع عربى وقد وجدناه عند قمصّ إيتا .

والفضائل المحببة هنا هى من النوع الثقافى والدنيوى " الاقتضاب والصراحة والحرص والمعرفة / والبساطة والبراءة والخجل " {٤٨٢} ونظر لحب شميم طوب للذكاء يقوم بتقييم العلاقة بين البشر ويضفى على ما يسوقه من مواعظ جواً من الإنسانية البسيطة التى لاتجد لها مثيلاً فى قشتالة المسيحية خلال القرن الرابع عشر:

ولهذا لا تهمل مرافقة العلماء ، فهذا دائمًا يساعد التفح والتحسن / فهذا يمتع الرجل بهم وهم به / يفهمهم ويفهمونه / ولهذا فرفقة الصديق المتفهم / سعادة ما بعدها سعادة" {٤٨٦ - ٤٨٨} .

ويدخل إلى ميدان الأدب – لأول مرة – موضوع الرجل " الثقيل " : **الرجل الثقيل هو في كل ما يفعل ... لا أريد أن أتحدث معه حتى لو رجاني والأكثر من هذا الاستماع إليه وأنا أصطلي ناري " (٥١٤ – ٥١٥) والشيء المفضل هو " الركون إلى الجبال والعيش بين الشعابين بدلاً من مرافقة الإنسان النبي الثقيل ... إنه الموت والوحشة ما عدا تلك الرفقة من الأولى العيش وحيداً (٥٣٧ – ٥٤٤)** [١٦٤] .

هذه العقلانية الرفيعة التي تزدري الملل ، ترفض لقاء هؤلاء الذين يلعنون الدنيا

فلا شيء فيه سوء إلا نحن / ولا أشياء فظيعة .../ ...لا يدفع ولا يتعلم ، ولا يحب أو يكره / ولا توجد أية مهارة أو يجيب أو ينادي / حقًا الدنيا كلها / زمن لا فرق فيه / كأنه رجل في كل هذه الإنسانية / (٦٣٤ – ٦٣٧، ٦٢٥) فالإنسان والدنيا هما ما حددهما الكون السماوي " فالإنسان لا يساوي ولا بشخصه / إلا بما أودعه فيه الكون السماوي) [١٦٥] ورغم هذا لا ينصح شيم طوب بأن يركن الإنسان طبقًا للمفهوم الديني الذي رأيناه بشأن العمل عند اليهودي ، " **فالإنسان يعمل ولا يكل / بكل قواه / وجهد استطاعته / وكان في هذا شر المكسب والخسارة / {١٧٣}** وهذا المزج بين القدرية والعمل الذي لا يكل يذكرنا بالجمع بين القدرية والعمل الدءوب الذي ستكون عليه الطوائف الدينية التي تسير على مذهب كلفينوس ، وترجع إلى المصادر المشتركة المسيحية واليهودية ، والمفاهيم الأخلاقية التي يتحدث عنها شيم طوب تتسم بغربيتها في اللغة القشتالية رغم صدور عدة مخطوطات منها وجذبها اهتمام ماركيز سانتيانا **M.de Santillana** حيث رأى في هذه الأمثال **Praverbios**" عظات منصوحًا بها " ، وهي بالنسبة لنا تعبير عن الإمكانيات التي كان ممكنًا أن تظهر بها إسبانيا ، إلا أنها غرقت قبل اكتمال نمّوها وحيويتها .

والأشعار التي ذكرناها لطوب هي النص الوحيد الذي يرجع إلى ما قبل القرن الخامس عشر حيث تتم الإشارة إلى قضايا لا تتعلق فقط بالمعرفة أو المسائل الفقهية بل بالمسائل الثقافية ، رغم أنها لازالت تنظر إلى المشرق وليس إلى أوربا المسيحية :
" **السهم يقذف نحو هدف معين / والكلمة تنتقل من برغش إلى مصر / والسهم لا يبلغ إلا من وجده/ والكتابة تضرب من هو من الشرق (٤٥٠، ٤٥٢)** وهذا يؤكد الفكرة

القائلة بأن الإسباني اليهودى لم يعن بالمجتمع الدولى الذى كان يستخدم اللاتينية وبذلك أسهم فى عزلة إسبانيا المسيحية التى تأخرت فى الاقتراب من المعارف الغربية (١٦٦) .

وإطراء " أمثال" شيم طوب على الكتب له رنين تعليمى حديث وليس له سابقة فى الأدب الإسبانى المسيحى

المعرفة هى نعمة من الله ومنحة

لا يخطىء المرء عندما يدرس هذه الجواهر

ولا يجد صديقًا أنفع من الكتاب

فملازمة الكتاب هى أكثر من السلام مع النفس

فمعارف العلماء تجدها هناك

وسوف تتحدث معهم

العلماء يحيط بهم الثناء الذى يرنو إليه الإنسان

وهم للأسف شرفاء ...

فلا يوجد صديق أفضل من الكتاب .

وأقول للعلماء إننى لا أجالس الحمقى (٣١١- ٣٢٣) (١٦٧).

كان الثناء على الكتاب أمرًا مألوفًا فى الأدب الشرقى ، لكنه أمر جديد فى الأدب الغربى خلال القرن الرابع عشر ولقد تحدث المسعودى خلال القرن العاشر الميلادى عن أن العلماء قالوا – عن حق – بأن الكتاب هو أفضل وأوفى صديق ... ويجمع بين البعيد والقريب أى بين الماضى والحاضر ... فهـا هو الميت يتحدث إليك باسم الأموات ، ويترجم لك لغة الأحياء ... ويوفرّ عليك البحث المضنى والشعور بالذلّ عند اللجوء إلى من هم دونك ... ويكفى أن يطلع عليه المرء حتى يصل إلى المتعة الممتدة (١٦٨) .

وإذا ما قرأنا كل ما قاله المسعودى فى هذا الشأن لوجدنا ما قاله شيم طوب فقيرًا وضئيلاً فالعربى كان يتمتع بما تجود به القرائح فى الوقت الذى لم تكن أوربا تعلم شيئا عن هذا كما كان يصنع الكتاب فى نفس مستوى حياة الفرد ، فالكتاب نافع على نفس درجة نفع الحياة ومعرفتها ، ويسوق لنا شيم طوب نفحة متأخرة من هذا .

والعلاقة بين الداخل والخارج أو الظاهر والباطن عربية الأصل وهذا ما رأيناه فى "كتاب الحب المحمود "

إذا ما كنت على حق فَلَن يُسْتَخف بما أقول

فلما صدرت عن إنسان بدت ضعيفة ، لكن السيوف القوية

المصنوعة من أجود أنواع الصلب تخرج من الغمد المهلهل

ومن الدودة يخرج أفضل أنواع الحرير (٤٣- ٤٤)

ومع هذا فرغم تواضع شأن المؤلف فإن أفكاره صائبة مثلما هو الحال بالنسبة للسيف الصلب الذى يخرج من الغمد المهلهل ويلاحظ التوافق الصوتى بين طبيعة الدودة وطبيعة الحرير [١٦٩] فكل ما هو إنسانى لا يستقر على شىء إذ هو تنقل دائم سواء من ناحية الشكل أو القيم :

لا قبح ولا جمال فى العالم الذى تراه

يمكن بلوغ الشىء من وجهه الآخر (١٠٨)

وهذه مجموعة أبيات مقسمة إلى نصفين وكل واحدة منها وجه للأخرى ؛ كل شىء خواء

أريد أن أتحدث عن الدنيا وأشكالها

فلا توجد فى الحقيقة كلمات موضوعية (٥٤)

والسبب :

كل شيء يحدث بإرادة الله ، وأنا أشعر بذلك

فالإنسان لا يفعل شيئًا بعقله وقدرته (١٦٨) (١٧٠)

ومن خلال عدم الأمان ، الذى يمكن أن نطلق عليه كونيًا ، لكل ما يجده الإنسان فى حياته نجد الانسجام هو ملمح عجلة الحظ التى سيضع فيها اليهودى خوان دى مينا عالمه ، بعد ذلك بقليل ، يقول شيم طوب :

وفى غضون وقت قصير ،إذ ما شاءت عجلة الحظ ،

يتحول التاج الملكى إلى حذاء تطؤه الأقدام (٦١٤)

وبالإضافة إلى هذه الخلفية الأخلاقية والموضوعية التى يستند إليها " كتاب الأمثال " يتصرف المؤلف بصفته إسبانيًا عبريًا يحمل الطابع الإسلامى ، ويضفى شيئًا من نفسه على الشعر الذى ينظمه ، فالشاعر يعظ (حيث لم يكن هناك واعظ مسيحى) ، لكنه يضم إلى ما يقول شيئًا من الكدر وعدم الثقة التى عليها هذا الذى يكتب لقراء يعادون ويناقضون سلطان الواعظ فى توجهه إليهم ، وهنا يجب على الشاعر أن يقدم مسبقًا التبريرات :

فلما جاءت الوردة ومعها الشوك فأنا لا أشعر

أن النبيذ الطيب تقل قيمته لأنه خرج من الألياف

ولا تقل قيمة الصقر لأنه ولد فى عش حقير

ولا قيمة للأمثال الطيبة لأنها جاءت من يهودى (٤٧ - ٤٨)

يعيش الشاعر فى حالة قلق ودفاع عن النفس ، ومن الغريب أن تكون هذه المجموعة التى تتحدث عن العش والصقر هى الوحيدة التى يذكرها الماركيز دى سانتيّانا عندما يتحدث عن شيم طوب فى رسالته الشهيرة التاريخية الأدبية ، ولقد كان

اليهودى يشعر بأن حياته تمثل الأزمة بين الكائن الحيوى والجوّ المحيط به ، وبين الوعى بقيمته و المقاومة الاجتماعية فى الاعتراف به ، ومن هنا فالقلق يشغل اهتمامه بقضايا الشرف والسيادة ، وشيم طوب هو أول من يتحدث عن تألمه الروحى عندما يشعر بأنه فى وضع سيئ من الناحية الاجتماعية :

Tres viven, yo dir´ia, en cuyda- do Profundo,	أقول هناك ثلاثة يعيشون فى قلق عميق
de los que más de- :bria dolerse todo el mundo	ويتألمون من شيئ يمكن أن يتألم منه الناس جميعًا
Fidalgo que menester ،ha al hombre villano	الشريف ، إذهو فى حاجة إلى الإنسان البسيط
y con mengua meter se viene so su mano;	وعندما تضيق به الأمور يصبح رهن إشارته
fidalgo de natura, usado de franqueza,	شريف النسب لكنه ذليل الحاجة
que le trujo la ventura a mano de vileza,	فقدوضعته الأقدار فى يد السفلة
y justo que, mandado de senor torticero	وأصبح مأمورًا
ha de fazer forçado. Y el otro tercero:	وعليه أن يفعل كل ما بوسعه، أما الثالث فهو
El sabio aquien apre- mia servicio de honbre nescio,	العالم الذى يطلب منه الرجل الجاهل سرعه الخدمة
ca otra cualquier premia delante èsta non ha prescio (377 - 381).	فليس هناك أى عائق يقف أمامه {٣٧٧ - ٣٨١}

وقد خرجت من أعماق الإسبان العبرانيين تعبيرات تنقل الشعور " بالشرف الأسود " والنقد الاجتماعي اللاذع (١٧٢) ، وقد تم تخليدها في الشخصية الخالدة " التابع " {للفارس} في قصة " الشطار " فلم يعش أي من المسيحيين خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ضرورة الخوض في مثل هذه الأمور أو أن يكتب مثل ما فعله شيم طوب في الفقرات التي أشرنا إليها والتي كانت تتوافق مع الأهمية التي أولتها البيع لموضوع طهارة الدماء والشرف الذي يتوافق مع السمعة ،(١٧٣) ، ونلاحظ أن المسيحي ذا الأصل اليهودي خوان دي لوثينا Juan de Lucena وضع في كتابه " حياة النسّاك Libro de vida beata الدفاع عن السيادة العبرية على لسان السيد/ ألونسو دي كارتاخينا ،اليهودي المولد ، وبعد أسقف برغش : " لا تفكر في اتهامي بمناداة والديّ بالعبرانييّن ، فهما كذلك حقًا وأنا أود هذا ، فإذا ماكان القديم نبلاً فمن هو الأبعد من ذلك ؟ " ويفخر الكثيرون - يواصل الأسقف - بأنهم من أصول يونانية وقوطية أو من الأزواج الاثنى عشر Doce Pares ، لكن ذلك الذي ينتسب إلى اللاويين أو القبائل اليهودية الاثنتى عشرة " فهو فاضل كلما كان بعيدًا عن الإثم : هيا هيا { يقولون له } إنه خنزير " وهذا أقل من التراب بقليل ... لكنهم يتأكدون وهم صامتون من الحقيقة التورائية ويتولون بأن الضوء لا ينير لمن يأتون إليها " (١٧٤) .

فاليهودي " الشريف بطبعه " (كما يقول شيم طوب) والعالم بفضل جهده المبذول يشعر بأنه يعيش تابعًا " للرجل البسيط " وهذا " ما يثير عميق قلقه " ، وعندما نعثر على آثار لذلك " القلق " عند أي من أدباء القرن الخامس عشر فعلينا أن نتصورأنه مسيحي من أصول يهودية ، وهنا أعتقد أن موسن دييجو دي باليرا Mosen Diego de Valere كان كذلك ، رغم الأصول النبيلة التي تشكل قناعًا يخفي جذوره الحقيقية وعندما يطرح مسألة ما إذا كان " الذين اعتنقوا ديانتنا هم - طبقًا لعقائدهم وسلالتهم - من النبلاء ، فهل كانوا يحتفظون بهذه المكانة بعد تحولهم عن ديانتهم ، وهنا أجيب بأن هؤلاء لا يحتفظون بما كانوا عليه من مكانة بعد دخولهم المسيحية بل يزيدون .. وأن بين اليهود والمور نبلاء مثلما هو الحال عند المسيحيين ، وهذا واضح وضوح الرؤية عند العلماء رغم أن الجهّال يتصورون عكس ذلك ... فعند الحديث عن

اليهود يقول Deuteronomio: أى أمة أنبل من هذه ؟ " وهناك صفحات أخرى فيها من الإطراء على النّحو الذى بسطناه ، وهو أمر غير متصور إذا لم يكن للمؤلف مصلحة شخصية فيما يطرح والدليل على ذلك أنه يعرض للنبل الإسلامى فى سطور قليلة (١٧٥).

ومحصلة الكدر والضيق اليهودى - الشريف أو العالم - هو ازدهار موضوع الهروب من الدنيا واحتقار نواحى الشرف الإنسانى وإعلاء شأن الرجل البسيط الذى يقع على مهمش المجتمع ، وهو إطار يضم شخصية " التابع " فى قصة لاثاريو ويضمه هو :

رغبة الشريف يعانى من قلقه ...

هو إنسان حقير ... لا حياء عنده

يعيش فى خواء فلا يفكر ولا يعلم (٣٨٦ - ٤٠٦)

ونلاحظ فى إنتاج شيم طوب البوادر الأولية للزهد الذى بدأ خلال القرن السادس عشر وكذلك توجهات جوثمان دى ألفاراتشى Guzman de Alfarache

وكيبيدو :

ألا تقلق من أنك مخلوق من شيء حقير

ومن قطرة قذرة وفانية وهالكة ؟

.... (٢٨٣ - ٢٨٤)

كان الموضوع عادياً بالنسبة للتراث اليهودى فقد كتب يحيى بن باقودة القرطبى خلال القرن الحادى عشر :" ألاَ تعيش فى جسد حقير وجثة ستطؤها الأقدام ؟ لقد خرج من نبع غير صاف ومن عين آسنة ومن نقطة نتنة ... كما كان فى رحم غير طاهر وفى بطن متحللة خرج منها من خلال الكدر والألم ليتأمل العدم والفوضى " (١٧٦) ويعبر كيبيدو عن نفس الموضوع بعبارة مختلفة ، حيث نجد فى بعض " أحلامه " Suenos

روحًا فى الجحيم تصف مولدها " علىّ أن أكون بين كليتين ومنهما – وياللخزى إذ يقال أن البول يخرج من هناك – سوف أكون جارة لهما طوال تسعة أشهر وعلى أن أتغذى على قرف الشهور " الخ (١٧٧) .

وما يهمنا هو الوظيفة الاجتماعية والفنية التى تظهر فيها هذه القضايا فى الأدب خلال القرن السابع عشر والرابع عشر والحادى عشر وليست تلك المتعلقة بالكتب السماوية ، وعند تقديم تلك القضايا بشكل تجريدى فهذا يتسق مع المفاهيم التى يسير عليها الأدب المقارن أو مايسمى تاريخ الأفكار ، وعندما نجد أفكار نص معيّن مشوبة بالانفعال والسمات التعبيرية تصبح الأفكار بمثابة قذيفة ، ويتعين على المؤرخ تبين مغزى وهدف تلك القذيفة ، وأن يوضح لنا طبيعة هؤلاء الذين يعتنقون تلك الأفكار ، فلم يكن التراث المسيحى فى قشتالة قاتمًا أو فاقدًا الأمل خلال القرون الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ؛ وتخلف لنا بعض الأعمال الأدبية التى ورثناها عن تلك الفترة ، مثل ملحمة السيد وأشعار بيرثيو وخوان رويث وماركيز سانتيانا وخورخى ماتريكى ، انطباعًا لطيفًا وهدوءًا مريحًا ، وإذا ما نظرنا خارج إسبانيا – بعد هذه الفترة – فلن نجد فى أى من الآداب الكاثوليكية – خلال القرن السادس عشر – ما يشبه الزهد وقصص الشطار فى الأدب الإسبانى ، ومعنى هذا أنها ترتبط بالتراث المعتم الذى ورثناه عن شيم طوب وخوان دى مينا ، ورودريجو دى كوثا ، وفرناندو دى روخاس ، ثم استمر وانتشر بعد ذلك عبر قوافل المسيحيين من ذوى الأصل اليهودى الذين فقدوا الأمل ولم يجدوا مكانًا مريحًا لهم فى هذه الدنيا .

وعندما نتجاوز التاريخ المجرد ونقترب من " الموقف الحيوى " ، أى من الدراما التى كان يعيشها المسيحيون الجدد خلال القرن السادس عشر ، فالمنظور التاريخى يحدث عليه تغير جذرى (١٧٨) فمفهوم مناهضى الإصلاح **Contrarreforma** والدفاع ضد البرتستانتية لا يفسر – بما فيه الكفاية – حالة التعاسة ومناهضة الحياة وفقدان الأمل وتثبيط العزيمة التى نراها فى مساحات شاسعة فى الأدب خلال القرن السادس عشر ، فالأسلوب فاقد الأمل هو الشكل الذى يلف حالة فقدان الأمل فى الوجود، وهو المجرى الذى سارت فيه حياة القلة القليلة من النابهين والعلماء النهمين للتعبير عن

أنفسهم ، كما أن تأثيرهم فى المجتمع لا يتسق مع قلة الكتلة الاجتماعية التى ينسبون إليها ، وقبل أن تظهر البروتستانتية بوقت طويل - أى فى منتصف القرن الخامس عشر - كان المسيحى ذو الأصل اليهودى/ دييجو دى باليرا يعبر عن رضاه بتذكر سان جريجوريو ويترجمه :

"تلك هى حياة الإنسان مثل البخار الذى يخرج من الأرض ويدوم قليلاً ، والجسد هو على هذا النحو ، كما أن متاع الدنيا مثل زهرة سرعان ما يجففها الهواء ، وهو مثل القش الذى يَذْروه الريح ومثل الدخان ، ومثل الضباب الذى يصعد بخفة ويهبط كذلك ومثل الغيم الذى يأتى ويزول ومثل ندى الصباح الذى لا يدوم حتى المساء [١٧٩] (أه أن يتحدث عن نفسه فيشير إلى تأثير العواطف الإنسانية) :

أيتها العواطف التى عليها الإنسان ، والتى تحول دون الذاكرة وفانية الأموال الزائلة ، والمهلكة لقوة الجسد ، وعدوة السباب ، وموت الهرم .. والساكنة فى الصدور الخاوية [١٨٠].

وهذه الأماكن العامة عادة ما تحدث لمن يكرر كتابة :" لا تظن أننى لا أعرف ضعف حالى وشخصى" .

ولنتذكر حالة الرضا القاتمة التى عليها رودريجو دى كوثا عندما يحرض " العجوز " من خلال " الحوار Diálogo" الشهير للوقوع فى براثن الحب ليتولى بعد ذلك مواجهة الإنسان الطاعن فى السن بالمتاعب التى يحياها من فى مثل عمره ، وعدم واقعية حلمه:

أى خطأ كان يكفى

حتى يعود

شعر فوديك أشقر ؟ ...

وهذه القبلات الحارة

هى أسنان وأضراس فانية

(أظننت) أنها كانت لذيذة عند القبلة ؟

ثم يواصل الحديث عن " الفم اللّزج ، والخرقة المليئة بالعماص للعين الدامعة ، ولا تبصق مباشرة حتى لا تتسخ اللحية ، فالأقدام مليئة بالجروح والروح الحية أصبحت عصًا جافة تحيا ميتة وميتة حية " ، وهذا أسلوب ممكن فى بلد مثل إسبانيا ، فكل شئ يقال " بشكل جاد " ودون هزل وعلى مستوى أدب يريد أن يكون راقيًا .

ويكتب إيرناندو دل بولجار - أحد المسيحيين الجدد - خلال نفس الفترة ، حول متاعب الشيخوخة بأسلوب فيه فقدان للأمل " إذا ما وصل الإنسان إلى سن الشيخوخة يحاول الجميع الهرب منه ويسخر منه الصبية ويتناول المرء طعامه وهو يتألم ويتطهر بالعمل .... وتتدهور حالته الصحية من العينين والفم وباقى الحواس والأعضاء .. يتحدث العجوز كثيرًا ويعمل قليلاً ، فأى تدهور أكثر من ذلك فى الحياة ؟ ...لست أدرى ما الذى وجده توليو Tulio ليثنى على الهرَم [Letras ell. Cit. Pag 8] وتغطى عدمية بولجار Pulgar كل ما هو موجود " لا شك فيه أن الله غاضب على عباده الذين آذوا أنفسهم " { صـ ٩١} ، ويحاول المؤلف البحث عما يدعم حالته المعنوية من خلال القديس أغسطين ، كما فعلها باليرا Valera مع سان جريجوريو ، فالدنيا ليس فيها " إلا الأحزان والمخاوف والمتع المجنونة .. وإدانة الأبرياء والسّب والالتواء وزيف الظواهر والمفاهيم الملعونة ، والعنف والسرقات " ..الخ {١٠٤} " أرى الجميع يهيمون دون هدف أو معرفة ما يجرى لهم أو ما قد يحدث ، وقد ملأهم الخوف ، ويخشون السقوط وملأتهم المتعة من خلال نظرهم إلى ما عند الآخرين " {١٠٧} ؛ وهذه ملاحظات ليست من " مدينة الله " Ciudad de Dios { الكتاب رقم ٢٢ } بل من عند بولجار ، وهى تعكس بوضوح الكدر وخيبة الأمل عند كثيرين من النابهين فى نهاية القرن الخامس عشر ، وهنا تكمن مشكلة إسبانيا ما بعد بداية محاكم التفتيش : المبالغات الكنسية (تدخل ابنة بولجار الدير وهى ابنة اثنى عشر ربيعًا) واستعمار أمريكا كنوع من

الصراع غير المنطقى بين المصالح الإنسانية والرغبة فى أن تنشر الكنيسة سلطانها (المنازل Casas) ودون أن يكون لما يحدث مثيلٌ ، وفى إطار هذا الجو المفعم بالاضطهاد تنبت جذور حياة الزهد وحياة الشطّار وهما الابنتان التوءم لليهودية التى تمسّحت ، وللمسيحية التى لا تؤمن بالإنسان وقد فقدت الابتسامة الراضية والرحيمة لمؤسسها .

ويتحدث فرناندو دى روخاس بنفس الروح الفاقدة للأمل من خلال عمله العبقرى ثيلستينا Celèst?na

"أين ستعثر شيخوختى فاقدة الأمل على ملاذ ؟ .. آه أيتها الحياة المليئة بالزيف ورفيقة التعاسات ! آه أيتها الدنيا ، أيتها الدنيا .. والآن بلا وَجَل كم يعرف أن لا شىء ستخسره ... كأنه السائر الفقير الذى لا يخشى هجوم قطّاع الطرق فأخذ يغنّى بصوت مرتفع «سوف أغنى وأقول " أنك تبدين متاهة أخطاء وصحراء موحشة ، ومرتع الوحوش الضاربة وبشراً يسيرون فى حلقة مفرغة ، وبحيرة مليئة بالأسن وإقليمًا مليئًا بالشوك وجبلاً أشمّ وحقولاً مليئة بالحجارة وواديًا مليئًا بالحيّات وحديقةً مزهرة لا ثمار فيها ... أكاذيبك وأمانيك وسلاسلك وشباكك آه يا ابنتى المكلومة ... لماذا تركتنى حزينًا ووحيدًا فى وادى الدموع ؟

لم يكن ظاهر مولد الرواية والمسرح مسليًا ، فالرواية تقوم على " مشاعر مأساوية تجاه الحياة " ذلك أنها مأساوية منذ اللحظة الأولى للميلاد ، ولو كان الأمر غير هذا لظلت تسير على إيقاع " القوالب الجميلة " الموروثة عن العالم القديم التى اكتشفها جهابذة فى الدراسات الإنسانية ، وعندما لا نعثر على هذه المشاعر المأساوية إزاء الحياة مثلما هو الحال فى إيطاليا - لا نعثر على رواية أو مسرح ، غير أننا سوف

نناقش المشكلة فى وقت لاحق ، وإذا مـا كنت قد أشـرت إلى هذه الملاحظة الجانبـية فالغاية التذكير بأن هدفنا بنّاء ، فكأننا نشبه من يحاول تفسير خصوبة الحقول بما يرقد تحتها من طبقة بركانية.

كيف أمكن تحويل الحالة المعنوية التى وصفها الأب ماريانا Mariana بأنها " إذعان خطير يودى بالمرء إلى أن يكون على شفا الموت " إلى موضوع يناقشه رجال الدين ومناهضوهم ؟ وما الذى يحدث فى الوقت نفسه لحياة هؤلاء الذين كانوا على شفا الموت ؟ هاهو صوته يرن فى النصوص السابقة ، وبالتالى لسنا فى حاجة إلى سوق المزيد منها ، ويمكن أن نشعر بها بطريقة أكثر فجاجة ، وكأننا نتأمل ظهر السجادة ، وندلف تلك المناطق الحميمة التى تعكسها لنا القضايا التى تفصل فيها محاكم التفتيش ، ولا يمكننى الآن ذكرها بالكامل بل أشير فقط إلى مقتطفات ظهرت هنا وهناك لكن الغاية تختلف عن غايتى ، هاهو بدرو كاثايّا P. Cazalla، المسيحى ذو الأصل اليهودى والرجل الذى يموّل الجيش والرجل ذو التأثير ، يمثل أمام أعضاء محكمة التفتيش فى ١٥٣٠/٩/٢٢م ، غير أنه قبل ذلك .

> استدعى زوجته إلى فندق حيث كانت المذكورة / فرنثيسكا إيرنانديث ، واختلى بها فى حجرة منعزلة حتى لا يسمع أهل بيته شيئًا ، وهناك قال لزوجته إنه ليس لنا ملك وإنما هو أبله (أى كارلوس الخامس) وأن الشيطان قد أتى بالإمبراطورة إلى قشتالة وهى حيّة مثل جدتها (إيزابيل الكاثوليكية) وهى التى جلبت هذه الكارثة إلى المتمثلة فى محكمة التفتيش" (١٨٢) .

لقد حدت محاكم التفتيش بهذا الموظف العمومى ليفكر فى أن إسبانيا الإمبراطورية يحكمها أبله وزوج وحفيد لحيتين ، كان كاثايا Cazalla يريد الهرب فالحياة بالنسبة لهذا الصنف من الرجال لا يمكن إلا أن تكون فى صورة هروب أو هجوم ، أى الهروب جسديًا من البلاد حيث لا يعرف أحد أنهم مسيحيون من أصل

يهودى ، أو اللجوء إلى إحدى الطوائف الدينية أو اللاواقعية من خلال الخيالات الجميلة والحزينة ، وليس مصادفة أن يكتب خورخى دى مونتمايور J. de Montemayor" ديانا " Dianaويدفع بالغنائية السردية الإسبانية لتصبح القصة الرعوية (١٨٣) ، فكل هؤلاء الذين كانت معنوياتهم مترعة بالمرارة اختاروا اتخاذ موقف معاد للدنيا التى تطاردهم مثلما هو الحال عند ماتيو ألمان Mateo Aleman.

وعندما توجّب على ماتيو ألمان – عام ١٦٠٧م – أن يكتب اسم والديه فى وثيقة حكومية ذكر " ابن إيرناندو ألمان والسيدة خوانا " أى أننا نجد المسيحيين من أصل يهودى لازالوا يشعرون بكراهية الناس لهم حتى بعد مرور ١١٥ عامًا على طرد اليهود إذ نجد ماتيو ألمان لا يذكر لقب والدته ، فاللقب Enero كانت تشم رائحته فى أشبيلية ولو كان على بعد مائة فرسخ " وأحيانًا أخرى نجده يضع قناعًا على اسمه ويقول إن اسمه ماتيو ألمان دى أيالا ، وقد أشار رودريجيث مارتين R. Martin إلى أن لقب ألمان Aleman يرجع إلى أصول يهودية " من خلال عائلة الأب " رغم أن بعض ذويه حاولوا الإشارة إلى أن أصوله ترجع إلى ألمانيا .

> فالقول بأنهم جاءوا من هناك لخدمة كارلوس الخامس ، فرْية صراح مثل تلك التى ابتدعها ماتيو ألمان ليرسم سيرته من خلال الترس الذى يحمل النّسر ذا الرأسين ، فهذا الرجل وكل الأشبيليين الذين يحملون نفس اللقب ، يعودون إلى ذلك المدعو Aleman كبير الخدم فى أشبيلية على عهد الملوك الكاثوليك وأطلق عليه "والد الكثير من الأبناء الألمان" ، وقد مات فى محارق محاكم وهذا التفتيش (١٨٤) .

وهذا التناقض الذى يعيشه هؤلاء الناس – أى الشعور بأنهم مواطنون وهاربون فى الوقت نفسه وعليهم التخفى على أسطح المنازل – نجده شديد الوضوح فى الزهور المعتمة التى يتضمنها الأسلوب الخاص بالزهد والشطارة " ابن الأب غير المعروف الذى نشأ من تراب الأرض وأصبح إناء هشًا مليئًا بالفتحات ومكسوراً ... وأحوِّل زهرات

البنفسج إلى مادة ضارة ، وألطخ الثلج الأبيض ، والوردة اليانعة أعاملها بعنف وأدهسها " { جوثمان I، ٤.٢ – II ١.١ } ويرى فراى إيرناندى دى ثاراتى H. de Zárate أن من ينفقون حياتهم " فى النوايا وتحسين الحال ... مثلهم مثل هؤلاء الذين وجدوا أنفسهم فى ليلة ظلماء وسط بحيرة مليئة بالمياه والأوحال ، وقد غطّتهم حتى منتصف أجسادهم فلا يعرفون الخروج منها أو الوصول إلى مكان يتحسن من خلاله وضعهم ، وعادة ما تغوص أقدامهم ، فالقاع كله أوحال " (١٨٥) .

وفى القرن الحادى عشر كتب اسحاق بن غياط دى لوثينا (قرطبة) I. Gayyat de lucena :" ليدرك كل إنسان عاقل ورصين أن كل شىء إلى زوال ... فعسل هذه الدنيا به سمّ الموت " ، ويرى يوسف بن صديق (قرطبة) (القرن الثانى عشر) " ما بداخلى من فضلات هو تلوث من روحى " (١٨٦) ، وترينا أعمال مؤلفين آخرين نفس هذا الجو المفعم بالهروب والبعد ، فقد كان الشعب العبرى يشعر بزيادة جرعة الاحتضار عنده حيث يعيش محوطًا بين ديانتين سماويتين ، وفى الوقت نفسه تنتظر إسرائيل بلا أمل ودون أى عزاء بين الحياة الإنسانية التى لا معنى لها وبين الذات الإلهية ، فالمسيحى فى العصور الوسطى اهتزت روحه مع العذراء وحياة القديسين أو من خلال الاتصال بالكنيسة والرؤى الخاصة بجهنم وأهوال الألفية ، أما اليهودى فقد كان فى شرنقة العلاقة غير المتكافئة بين الألوهية والإنسانية ، ويعرب لنا عن كدره وضيقه من خلال الأبيات الشعرية (١٨٧) .

ولم يقم المسيحى ذو الأصل اليهودى بتجويد الإيقاع الشعرى فاقد الأمل خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وليس السبب هو أن الظروف لم تكن مواتية بل لأنها جعلته ينكفئ ويعود إلى جذوره الوجودية العميقة ، ولا نشعر بالمفاجأة لأن اليهودى يعبر عن نفسه بهذه الطريقة ، بل ما يثير الاستغراب هو أن المسيحية الإسبانية أخذ ينتابها الكدر والضيق رويدًا رويدًا حتى وصل الأمر بها إلى البعد عن الدنيا واقتربت من العدمية الكاملة ، ولو حاولنا العثور على مثيل لذلك لما تمكنا منه فى فرنسا (١٨٨) أو إيطاليا . والشىء الغريب هو ملاحظة هذا الجو المتشائم عند كتاب

علمانيين مثل ماتيو ألمان أو كيبيدو ، وهذا دون افتراض أنهما من أصول يهودية ، وتحول الأسلوب المفعم بالتشاؤم – الذى يرجع إلى التراث اليهودى – إلى وسيلة للتعبير عن بعض المسيحيين القدامى ، ولم نعد نرى هذا الانسجام والتوازن بين الدين والدنيا والذى لاحظناه فى القصائد Coplas التى ألّفها خورخى مانريكى لرثاء والده (١٨٩) .

وقد انتشر الشعور والاعتقاد بأن الإنسان يعيش محوطًا بالقلق والأعراض الزائلة ليعم الأرض الروحية لشبه جزيرة أيبيريا ، ورغم أننا قد نتحدث عن أن هذا الموقف الحيوى يمكن أن يشير إلى مؤلفات آباء الكنيسة أو إلى بعض أنماط الحياة الدينية خلال العصور الوسطى، إلا أن الظاهرة التى نحن بصددها هى المتعلقة بالحياة وليس بالبقاء الميكانيكى لبعض الأفكار ، فلقد رأينا خلال الفترة من القرن الحادى عشر وحتى الخامس عشر تشكّل القوة الإسبانية اليهودية وصعودها ثم السقوط فى الهاوية ، فقد راودتهم أحلام بداية عصرهم الذهبى فى عهد ألفونسو العاشر ، وظل ألفونسو الحادى عشر يبنى لهم بِيَعًا ، ويقدّمهم للبابا على أنهم أناس يضعون أرواحهم على أكفّهم دفاعًا عن إسبانيا المسيحية ، وهناك ثلاثى من قادة الطوائف الدينية الأكثر شهرة فى المملكة – خلال القرن الخامس عشر – يريدون أن يفيدوا من علوم اليهود وفلسفتهم وعلم الفلك . ومع نهاية القرن الرابع عشر أخذت منها تلك الإمبراطورية غير الشرعية ، التى قامت أسسها على العمل الفنى والمال والإدارة العامة والمعرفة ، وهنا بدأت الطائفة الإسرائيلية تنقسم إلى فريقين : أخذ أحدهما يقاوم الاضطهادات به وواجه مصيره فى قرار الطرد عام ١٤٩٢م ، أما الفريق الثانى – وهو الأضعف أخلاقيًا – فقد تحوّل إلى المسيحية الإسبانية منذ نهاية القرن الرابع عشر وأخذت أعدادهم فى ازدياد ، كما تعايشوا مع أنماط المسيحية ، حيث كانت نمطية حياة هذا الفريق عميقة وقيّمة لكنها مفعمة بالكدر وفقدان الأمل ، ومن خلال هذا التلاقح دخلت الغنائية الشعرية ذات التأثيرات العربية إلى المجتمع القشتالى (١٩٠) كما دخله التصوف اليهودى ، وكذلك البذور الأولى للرواية (القوّادة La Celestina) والفكر الفلسفى المتخفى فى الأجنبى (لويس بيبس ، فرانسيسكو سانشيث ، بنيتو اسبينوزا)؛

ومن خلال نفس المجرى دخل الرعب والوشاية ، وهما بعض مكوّنات محاكم التفتيش وكذلك الجشع وطهارة الدماء وقنص الآخر (وكل ذلك ترتبط أيضًا بمبدأ الدفاع عن النفس الذى خلفته محاكم التفتيش) ، والخوف من إبداء الرأى (الذى وصل إلى درجة الكرامة) ورغبة الجميع أن يصبحوا جميعًا من الأشراف (مثل ماتيو ألمان وذلك حتى يزيلوا عن أنفسهم كونهم غير ذلك) ، وهناك الزهد المتشدد (يخالف الكاثوليكية الإسبانية وخارج إسبانيا) والرؤية المتشائمة للدنيا (لاثاريّو ، ماتيو ألمان ، كيبيدو) وخيبة الأمل ، وغيبة القيم، ولم يكن اليهودى وأناه alter ego أناسًا عاديين ، بل كانا يحملان فى داخلهما حالة احتضار من يشعر أنه يسقط من مرتفع عال وجميل إلى هوّة المذابح والمحارق والفزع ومن سيقدم لمحكمة التفتيش ومناهضة مجتمع أصيب بالجنون وأخذ يبحث فى تصرفاته وفى ضميره الذى غالبًا ما يخرج للنور من جراء التعذيب وقد تضرع السيد/ اسحاق أبار بانيل ، حتى بُحّ صوته ، لفرناندو الكاثوليكى ، وهذه صورة حية للإسبانى العبرى الذى يتشبث بيديه بآخر حافة قبل السقوط الأخير ، وذلك هو رمز أكبر مأساة عاشها شعب ارتبط بعلاقة قوية استمرت خمسة قرون ، ولا يمكن لنا أن نفهم تاريخ إسبانيا على أساس الأقتصاديات العامة والخداع ولطم الخدود والسّب .

بعض البيانات الإضافية حول أرغن والبرتغال

رغم أننا لا نستهدف بناء التاريخ على أساس وفرة البيانات بل الاعتماد على البديهيات ذات الدلالة ، ربّما كان من المناسب أن نتبع ما أورَدْناه سابقا ببعض البيانات التوثيقية ، فلقد ظهر السياق اليهودى المسيحى فى أرغن متزامنًا معه فى قشتالة ، وحالات التعصب فى سرقسطة :

> "لم تكن إلا فصلاً آخر من الفصول (طبقًا لـ م . سيدّانو إى سانز) ومن هنا لا نستغرب أن يتحول الاحترام والتسامح الذى كان قائمًا بين المسيحيين واليهود إلى نوع من التداخل

الروحي وهو مـا يمتـد من خـلال الـكثيـر من المفـردات التى يستخدمها العبريون أنفسهم : فأفـراد البِّيـعة يطلق عليـهم الكنسيون Parroquianoy ، ومساعدو الحاخام يطلق عليهم اللفظ الكنسى Sacristán (خـادم الكنيسـة) ، وفيـمـا يتـعلق بتحرير النصـوص العامة لم يعترض اليـهود على وضع التاريخ الميـلادى ، ونادرًا مـا لا نجـد تقويمهـم الذى يرتبط ببـداية خلق العالم ، فـلا تكاد تكون هناك حواجز بين اليـهود والمسيـحيين . ويشغل اليـهود مرات كـثيرة مـناصب الإدارات العامة وأحـيانًا يقومون بدور الحكم بين المسيحيين" .

واختار اليهود ـ عام ١٤٧١م – أحد الرهبان المسيحيين كَحكَم وهو / خوان دى بيانا وهو أحد رجال الدين فى كنيسة سان أندرس ، وفى عام ١٤١٤م اجتمع ممثلو الكنيس اليـهودى ، فى سرقسطة للفصل فى أمـر عقـد مـعين ، " داخل دير سـان فرانسيسكو بتلك المدينة ..." (١٩١) .

كما أن عدم قدرة المسيحيين على القيام ببعض المهم التى برز فيها اليهود تبدو مرة أخرى واضحـة للعيان فى تحـويل هؤلاء إقـامـة مـحال تجـارية لبيع القمـاش فى سرقسطة (١٣٩٠م) حيث إن " اليـهود كـمـا هو مـعروف ومـلاحظ يجيـدون تجـارة وصناعة القماش بشكل أفضل بكثير بالمقارنة بالمسيحيين " [Serrano y Sanz op . cit. [p. xxx1x، ويحدث نفس الشىء عندما ننتقل إلى البرتغال ، ففى عام ١٤٩٢م يتكرر فى بلاط إيبور Evora نفس المشـهد الذى وقع عـام ١٣٦٧م فى قشـتالة ، فـقد طلب المستـشـارون من ملك البـرتغـال (خـوان الثـانى) أن يخلص الشـعب من تسلط اليهود ذلك أن لهم السيادة فى مملكتكم على المسيحيين والسبب أنهم أكثر إنتاجا وقدرة على تحصيل الضرائب " وكان رد الملك هو نفس الإجابة المكررة على لسان ملوك آخرين فى شبـه الجزيرة الأيبيرية : لا يوجد مسيـحيون قادرون على القيام بتلك الخدمات (١٩٢) .

كانت البرتغال أكثر تأثرًا باليهودية بالمقارنة بقشتالة وأرغن ، فلم يتمكن القديس بيثنتى فيريّو من الوعظ ضد اليهود ، فالملوك قد بذلوا جهدهم فى الابتعاد عن كل مايسير فى فلك السياسة القشتالية، ومما لاشك فيه صدور قوانين تحريمية مثل تلك الخاصة بالسيد / دوارتى Duarte (المتوفى عام ١٤٣٨م) ضد المزادات التى تجرى بين اليهود لتحصيل الأعشار والقرابين لصالح الكنيسة ، وكذلك شغل المناصب الإدارية ورئاسة مجموعات الخدم فى منازل الأمراء والأساقفة ورؤساء الأديرة و الفرسان ، غير أن اليهود ظلوا يمارسون هذه الأعمال مخالفين بذلك القانون كما كانوا يقومون بقراءة الطالع للملوك عند تتويجهم ، إلا أن القاعدة الشعبية فى البرتغال لم تكن كاسحة مثل تلك التى عليها أهل قشتالة ، فقد أمر الملك ألفونسو الخامس بتنفيذ حكم الإعدام فى الكثير من المسيحيين حتى أجبرته الاحتجاجات على إيقاف عقوباته التى تنزل " بالبسطاء وأفراد قاع المجتمع " ويطلب أحد الرهبان من الملك التوقف عن غزواته فيما وراء البحار ويلغى المساعدات الاقتصادية التى يتلقاها من اليهود " فكلما زادت الأرباح كلما زاد عدد المسيحيين الذين يتعرضون للقوانين اليهودية " (١٩٣).

لكن بدون المال والعلم الذى فى يد يهود البرتغال المسيحية لما توافرت لها الوسائل لتنفيذ مخططاتها وتوسعاتها ، فلقد استدعى الأمير السيد / إنريكى " رجلا على علم كبير بفن الملاحة البحرية حيث كان يقوم بتصميم الخرائط وصناعة العدد إلى مدرسة ساجرس Escuela de Sagres، وهو اليهودى خايمى فيرّير من أهل مايوركا ..." (١٩٤) وكان كلّ من المعلم جوزية José, والمعلم رود ريجو – طبيبى خوان الثانى – هما اللذان اكتشفا جداول درجة ميل الشمس ، وهكذا أصبح من الممكن الملاحة (طبقا لدرجة ارتفاع الشمس) فى أعالى البحار وليس على الشواطئ فقط (١٩٥) ؛ كما كان الملك خوان الثانى هو الذى بعث بكل من اليهودى إبراهم دى بيجا Beja وخوسيه ثباتيرو دى لاميجو Lemego إلى آسيا ، وقد سمع هذا الأخير ما يدور فى بغداد من حديث حول ميناء هرمز فى الخليج العربى ، حيث تتقاطر الثروات الضخمة القادمة من الهند ، وقام اليهود بنقل العلوم الجغرافية العربية إلى البرتغاليين ، فالخرائط التى رسمها المايوركى (من مايوركا) أبراهم كريسكس، خلال الفترة من ١٣٧٥م و ١٣٨٥م تؤكد

المعارف الدقيقة عن آسيا الجنوبية و وبيروبلوس Periplos، ومن المفترض أنها مؤسسة على خرائط عربية معاصرة (١٩٦) وعندما وصل البرتغاليون إلى شواطئ مالابار -Mala bar أصبح أمراً مألوفاً أن يقوم التجار المور واليهود المقيمون فى شمال أفريقيا وإسبانيا والبرتغال بزايارات دورية للمراكز التجارية فى الشرق : عدن وهرمز وكلكتا ومالاكا Malaca وهى الميناء التى يصل إليه الزئبق من إسبانيا (١٩٧) وقد قام القبطان العربى ابن مجيد بقيادة فاسكو دى جاما حتى كلكتا راحلاً من ميليندى Melinde وهذا ما يبرهن عليه ج فرّاند [G. Ferrand مدخل إلى علم الفلك صـ ٢٤٧] .

وقبل أن يقرر الملك السيد / مانويل طرد اليهود البرتغاليين (بناء على ضغط الطبقات الشعبية والملوك الكاثوليك) فعل كل ما فى وسعه لعدم تنفيذ المرسوم الذى أصدره ، حيث أمر بألا يتم البحث فى سلوكيات اليهود طوال ٢١ عاماً وهذا معناه تركهم يمارسون عقيدتهم بحرية (١٩٨) ، وبعد ذلك تطابق الموقف البرتغالى مع موقف قشتالة وزادت محاكم التفتيش من عمليات الوشاية وقامت باعتصار أموال المسيحيين من ذوى الأصل اليهودى وكذا أبناؤهم وأحفادهم للحصول على النفقات اللازمة ، وحتى يمكن سداد الأموال التى يجب إعادتها بعد مصادرتها ظلماً كان لابد من إعمال يد السجن فى ذرية اليهود من خلال إتهمات " تتجاهل الصداقة والشرف وحسن المعاملة ، وتحولت الغريزية العدوانية إلى فضيلة " [Lucio de` Azevedo. Op. Cit.p.go] .

وجرى الحديث كثيراً عن محاكم التفتيش كسبب لعدم توازن إسبانيا مع أوربا فى ميدان العلوم والحرية السياسية القائمين على استخدام العقل .. دون التمعن فى أن هذه الظواهر أصبحت خارج مجرى التاريخ الإسبانى وذلك بفضل مجموعة من العناصر غير المتعلقة بمحاكم التفتيش ، غير أن الجرح العميق الذى أحدثته محاكم التفتيش هو التخدير الأخلاقى للحواس والرغبة المجنونة التى دفعت الكثير من المسيحيين من ذوى الأصل اليهودى للقفز على إخوانهم فى السلالة ، ودافعهم فى ذلك الخوف والأنانية دفاعاً عن النفس وكممارسة لعادة قبيحة استحكمت فيهم وجعلتهم غير واعين بجذورهم ، وهى عادات متأصلة فى اليهود السابقين والمسيحيين المتعصبين

وكان دور ذلك البوليس السرى والدينى منْح الأمان والشرف والرفاهية الاقتصادية ، ولا يطلب من أعضائه إلا الإصرار على ممارسة العناء والسادية والروح المحمودنة ، وقد أسهمت القرون الثلاثة ، من ممارسة التفتيش فى التأثير الشديد على الحياة المدنية فى كل من إسبانيا والبرتغال ، وهذا ليس له علاقة باكتشاف النظريات الحديثة فى ميدان الفيزياء .

وتصرف المسيحيون من ذوى الأصل اليهودى فى أرغن مثل باقى أنحاء إسبانيا ففى عام ١٤١٧ م يلوم الملك الرهبان الدومنيكان فى بلنسية لأنهم بالغوا فى إجبار اليهود على تغيير دينهم ودين آبائهم :

> بلغنا أن هناك بعض رجال الدين فى ديركم يقومون بالعظات فى تلك المدينة لتحريض بعض الناس فيها ويقولون أشياء ضد اليهود تؤدى إلى إثارة الشعب ضدهم وهذا لا يروقنا ولا يرضينا أن تحدث أمور مثل هذه وأنتم تعرفون أننا قررنا الدفاع عن الكنيس اليهودى [Serrano y Sanz op. cit pa xxx 1]

وكان كل من المسيحيين ذوى الأصل اليهودى / فلورنت بيدال ، وخايمى تريجو هما اللذان حوّلا كنيسة سان أندرس إلى مركزلحملتهم المعادية للسامية .

ومن المعروف أن أسرة لوس كابايّريا Caballeria تنحدر من بونافوس دى كابايريا Bonaffos، وقد كانت أحد مكونات بلاط ملوك أرغن طوال القرن الخامس عشر وكذلك فى بلاط فرناندو الكاثوليكى ؛ وكان أحد أقوى أفراد البلاط هو السيد micer / بدرو دى لا كابايريا ، الرجل الذى بلغت به الجرأة ليعدّ فى عام ١٤٤٧م بيانًا عن طهارة الدم طبقًا للعادة المتبعة عند اليهود ، واتضح بذلك أن كل أسلافه مسيحيون خُلّص " فالمسيحيون الحقيقيون القدامى هم من دماء نقية على الرغم من تدهور اليهود والمور الذى لم يكتمل " وكان السيد بدرو مستشارًا لألفونسو الخامس " والقائد المحنك "

لأرغن (أى وزير المالية) فقد أصدر شهادات مزّيفة لإرضاء كبار النبلاء ، ولما لم يسعد بما فعل قام السيد / بدرو دى لاكاباريا بتأليف كتاب عام ١٤٥٠ م عنوانه " كتاب عن المسيحيين ضد اليهود والمشارقة والخارجين على الدين " وقد طبع هذا الكتاب فى فينسيا عام ١٥٩٢م ، ويشير المؤلف فى مقدمة الكتاب أنه ضليع فى اللغة اللاتينية بين أهله وبالتالى يكيل الاتهامات على صفحات هذا الكتاب (١٩٩) ، وهذا عنصر آخر يساعدنا على فهم كيفية قيام محاكم التفتيش ، وكان بلاط فرناندو الكاثوليكى يتألف أساسًا من المسيحيين ذوى الأصل اليهودى وخاصة فى مجال المالية ومجال الإدارة ، وقد درس سيّرانو أى سانز أبرز هؤلاء الأعضاء دراسة موثقة : سانتنجل Santángel وسانشيت Sanchez وكابايرياً ، وقد طاردت محاكم التفتيش بعض أفراد هذه الأسرات الثلاث لأسباب عدة من بينها أنها حاولت منع دخول نظام تلك المحكمة إلى آرغن وهذا ضد ما هو معمول به فى لوائح وقوانين هذه المملكة . لكن نتساءل قائلين أليس ذلك الحصار الذى ضربه كبار الموظفين ذوو الأصول اليهودية هو الذى سيفسر – من خلال توافر المستندات والوثائق - التحول المفاجئ فى سلوكيات فرناندو الكاثوليكى من موقف التسامح إلى العدوانية الشديدة ؟ أليست هى تلك السلوكيات النفسية التى عليها المسيحيون من ذوى الأصول اليهودية ؟ ألم يكن فرناندو الكاثوليكى منحدراً من اليهود من جهة أمه؟ .

الهوامش

(١) انظر H. Hirschfeld صـ ٢ – فى المقدمة التى أعدها " لكتاب الخزارى " ليهوذا اللاوى – لندن– ١٩٠٦ وعنوان الكتاب باللغة العربية " الحجة والدليل فى نصر الدين الذليل " وترجمة ابن بثون باسم الخزرى [ندين بهذه المعلومات للأستاذ الدكتور / شعبان سلام (المترجم)] .

(٢) Fritz Baer , " Die juden in christlichen Spanien", I 1929, II, 1936 وهذا العمل هو عبارة عن " سجل " ممتاز من الوثائق المتعلقة باليهود الإسبان وهى وثائق لم تنشر إلا فى جزء منها كما تم العثور عليها من مصادر مختلفة، وبناء على هذه الوثائق الثرية يمكننا الحديث عن المشكلة اليهودية فى الحياة الإسبانية ، وسوف أشير فيما بعد إلى هذا العمل بـ باير - ثم الجزء ورقم الصفحة . وقد قمت أحيانًا بتعديل علامات الترقيم وكذلك الإملاء ، فما يهم الآن ليس الصوتيات التاريخية بل ما تتضمنه النصوص .

(٣) للاطلاع على دراسة تفصيلية لهذه النقطة انظر جيمس باركس فى " The conflict of the church and the Synagogue," Lendres , 1934,pp. 370 y??

(٤) نقدم هنا ما كان يشعر به الأمير السيد خوان مانويل ، من خلال وصيته ، الذى يجب اعتباره على أنه أعلى نموذج للإسبانى خلال القرن الرابع عشر " حيث أن السيد / سلامون صليبى، يهودى ولا يمكن أن يكون منفذ الوصية ، غير أنى وجدته وفيًا دائمًا (. . .) لهذا أرجو من السيدة بلانكا ومن أبنائى أن يقبلوه ليقوم على خدمتهم وأن يولوّه على أموالهم ومن المؤكد أن ذلك سوف يكون فيه خير لهم ولو كان مسيحيًا فإننى أعرف ما يمكننى أن أقوله بشأنه " [نشرت هذا النص مرثيدس جايبروبس فى BAHو Xcix- ١٩٣١م – صـ ٢٥

(٥) طبقًا لكتاب " البريق " (حوالى ١٤٨٨م) فإن المسيحيين الجدد فى كلنا من قشتالة القديمة وليون وساهورة كانوا صرحاء " فلا يكاد يُعثر بينهم على أى ملحد " أما فى طليطلة وإكستر يمادورا والأندلس و مرسية " فلا يكاد المرء يعثر بينهم على مسيحى حق وهذا أمر ملحوظ فى كافة أرجاء إسبانيا [النص من الجزء الأول Loebنشر فى Rejـ الثامن عشر ـ ١٨٨٩م – صـ ٢٤١] وقد اطلقت لفظة "البريق " على المسيحيين الجدد المزيفون .

(٦) S. Dubnov, Die Geschichte des jüdischen Volkes in Europa, IV، 1926, p. 88.

(٧) R. Dozy, Histoire des musulmans d'Espagne, 1932، III, pp. 18 y71.S. Dub-nov,op. Cit.,IV,pp.22o y223.

R. Dozy, Histoire des musulmans d`Espagne, III, p. 72. (٨)

(٩) تراوحت نسبة الفائدة بين ٣٣، ٣٤ ٪ خلال العصور الوسطى ، وبعد طرد اليهود من نابولى (الذى شجع عليه المرابون فى كل من جنوه و فلورنسا) ارتفعت الفائدة عند المقرضين المسيحيين إلى ٢٤٠ ٪ – انظر إس . دبليو . بارون "A Social and Religious History of the Jews, columbia university pres
T . II PP . 16y 35

و كان اليهودى أول ضحية من ضحايا الاقتصاد خلال العصور الوسطى ، وقد أرهق كاهله أكثر من المسيحى (بارون ، الجزء الثانى صـ ١٨) ، ولم يعن العالم المسيحى باليهودى الفقير (ولابد أن الفقر كان مدقعًا فى عادة اليهود) (انظر بيلا Szekely فى " العداء للسامية " بوينوس أيرس ١٩٤٠ م صـ ١٦٢ – ١٦٣ ، ٢٠٣) ولقد كان ذلك الأمر حقيقيًا لدرجة أنه يفضل الأهمية الثقافية لليهود الإسبان الذين اعتنقوا المسيحية وصلت إلينا الأخبار عن اثنين من اليهود من السكان الأصليين وهما خوان بوتيا من بلد الوايد و أنطون دى مونتورو (. . .)

(١٠) ترسم لنا ملحمة السيد ملامح المجتمع من منظور القاعدة الشعبية وفيها نرى " كان راكيل وفيداس جالسين سويًا مشغولين كليهما / يعدان الأموال الطائلة التى ربحاها معا " [١٠٠ – ١٠١] كما أن بطل الملحمة هو من الفئة الدنيا من النبلاء ، وكان العامة يحيطونه بحبهم (البرجوازيون و البرجوازيات) حيث أن السيد يمثل بالنسبة لهم الضمان بأن قضيتهم عادلة ، فاليهوديان " راكيل وفيداس " ساعدا السيد بأموالهم فى أكثر من مناسبة : " يادون راكيل ، ويادون فيداس، لعلكما نسيتمانى !" (١٥٥) (. . .)

(١١) لم يكن هناك من يعيش عالة على غيره بين يهود بلنسية ، إذا كانوا جميعا من التجار المهرة والصناع ومن البارعين فى الآداب والعلوم ولقد استطاعوا أن يجعلوا النبلاء والبرجوازيين يقبلون عليهم وعلى منسوجاتهم والأثاث الذى يصنعون والملابس التى يحيكون والجواهر التى يصنعون ؛ كما كانوا يأتون إلى الحاخامات من أجل علاج الأمراض أو يعهدون إليهم تربية أبنائهم علميا وأدبيا " (انظر فرانثيسكوا دانفيلا " سرقة حارة اليهود فى بلنسية عام ١٩٣١م) وردد فى p.366 و BAH, VII 1886

(١٢) أ. روبيو إى لوتش " وثائق فى إطار تاريخ الثقافة القطلانية خلال العصور الوسطى "صـ ١٤٣ – ١٥٥

(١٣) أ . روبيو إى لوتس " ملاحظات حول العلوم المشرقية فى قطالونيا " الدراسات الجامعية القطلانية - الثالث صـ ٣٩٠ "

(١٤) تنظر REJ، الحادى والثلاثون (١٨٩٩) صـ ٢٤٢ ؛ الأربعون (١٩٠٠م) صـ ٦٢ ، ١٦٩

(١٥) خوسيه م. ميّاس بايّكروسا " الترجمات المشرقية فى مخطوطات المكتبة الكاتدرائية فى طليطلة . مدريد ـ ١٩٤٢م

(١٦) لم نذكر مراكز قطلانية مثل " Vic y Ripoll " حيث تولى السيد ميأس إبراز أهميتها فى " مختصر تاريخ الأفكار الفيزيقية والرياضية فى قطالونيا العصور الوسطى " ١٩٣١م. وقد تحدثنا قبل ذلك أن

الحياة فى قطالونيا خلال القرنين العاشر والحادى عشر كانت تدور فى فلك خارج دائرة شبه جزيرة أيبيريا ، ويؤكد التاريخ العلمى هذا الاتجاه .

(١٧) السيد: مياس بايكروسا (المصدر السابق - صـ ٨ وما يليها) كما يذكر قائمة المراجع الضرورية فى هذا السياق .

(١٨) المصدر السابق صـ ١٦٥

(١٩) فيما يتعلق بالشعراء الشعبيين فى بلاط ألفونسو انظر : رامون مننديث بيدال " الشعر الشعبى والشعراء " المصدر المشار إليه قبل ذلك .

(٢٠) تعتبر كل من كليلة ودمنة ، وكتاب العلماء الاثنى عشر ، وكتاب هذه النساء ، و، Poridal de pridadeو Bocado de oroمن الكتب المعروفة . ويشير كتابه Boniumإلى أن جمال المبانى المقامة فى القدم " والتى أشرف عليها ملوك عظام . . . كانت حافزًا قويًا ليذهب الفتية إلى المدارس ، ولهذا قام الكثير من اليهود بعمل الكثير من النقوش فى بيعهم ، وفعل المسيحيون نفس الشىء فى كنائسهم (التماثيل وكذلك المسلمون " طبعة H. Kunst صـ ٧٦) ولا أعتقد أن مسيحيًا قد أشار إلى الأديان الثلاثة بهذا الترتيب ،ولا يمكن أن يكون مسلمًا .

(٢١) ويؤكد ذلك كل من يوسف بن صادى من Arévalo و أبرامهم بن شلومو من توروثيل . انظر فرانثيسكو كانتيرا " كتاب القشير النقلى عند اليهود " صـ ٣٣، ٥٦

(٢٢) نشر هذا الديوان : دافيد يلين - القدس - ١٩٣٢ - انظر بايد ، الجزء الأول صـ ٥٢

(٢٣) طبعة يلين صـ ٢٩ . أشكر للسيد إبرامهم بيرجر (المكتبة العامة بنيويورك) على هذه الترجمة

(٢٤) " كتب معرفة الفلك " طبعة م. ريكو أى سينوباس ، الرابع ،صـ ١١٩ - ١٢٠

(٢٥) قارن

que siempre dueñas amó; mas siempre
ovo crianza en Alemania y en Francia;
moró mucho en Lombardía poraaprender
cortesia.

هذا هو الأسلوب العادى عند المسيحيين حيث نلاحظ أن الكلمة Otrossi تصنع التدرّج بين الذات الإلهية والمخلوقات فمقابل " الله والأنبياء والقديسين " هناك " الملوك وعلية القوم والشعوب"

(٢٦) " كتب معرفة الفلك " - الجزء الثانى ، ١

(٢٧) فقصائد مثل قصيدة " الإسكندر " و " كتاب أبولونيو " واردة من الخارج كما أنها لم تكن مؤلفات قشتالية بكاملها ، وعلى أية حال فإنها تتسم بطابع نموذجى إذ يقول مؤلف قصيدة " أبولونيو " فى النهاية :

Acomiendolos a todos al Rey spiritual

déxolos a la gracia del Senyor celestial (638)

وهناك استثناء هى "Razôn de amor" التى ترجع إلى القرن الثالث عشر حيث تقول فتاة جميلة ما يلى

Toliós el manto de los omhros, besóme
la boca e por los ojos; tan gran sabor de
mí avía, sol fablar non me podía.

لكن مؤلفها كان طالبًا :ـ

que siempre dueñas amó; mas siempre
ovo crianza en Alemania y en Francia;
moró mucho en Lombardía poraaprender
cortesia.

ومن الملاحظ أن هذا المؤلف الذى يميل إلى ما هو أجنبى كان يكتب بلغة مليئة بالألفاظ الأرغنية والبروفنسالية مثل : dreita, feita، miute, peyor plene، pleguem, cortesa, dona, bela, etc.

(٢٨) كما أن أفضل معلومات عن ذلك نجدها عند رامون منديث بيدال "الشعر الشعبى.." صـ ١٥٠-٢٥٩

(٢٩) يمكننا ملاحظة التفرّد الواضح لما هو إسبانى عندما نرى أن الأوبرا غير الإسبانية يمكن أن تغنى بأى لغة ما عدا الإسبانية

(٣٠) مثل الأغنية التى تبدأ بما يلى :ـ

Como la canción que empieza: «Joham
Rodriguiz foy desinar a Balteira / Sa per
que colha sa madeyra...» (Il canzoniere
portogbese della Biblioteca Vaticana,
Monaci, 1875, p. 31).

(٣١) انتهى السيد / لوكاس – أسقف توى – من إعداد كتابه Chronicon Mundi عام ١٢٣٦م الذى كلفته به السيدة / بيرينجيلا والدة فرناندو الثالث ، ومن الواضح أنه لم يفكر فى الأستفادة من اللغة

العامية . كما أن السيد/ رودريجو خيمنث دى رادا (١١٨٠؟ – ١٢٤٧) حرر كتابه Rerun in Hispania geslarum Chromican. وبعد هذين الرجلين قام خوان فيل دى سموره – مؤدب سانشو الرابع – بتأليف كتاب باللاتينية تناول بعض الموضوعات التاريخية Liber de Precaniis Hispanie (. . .) .

(٣٢) " كان هناك ابن لسيدة وهذا الابن يدعى السيد ألفونسو الطفل ، وهناك سيدة أخرى تدعى السيدة / مايور جيين يقال إنها ابنة السيدة بياتريث (تاريخ الفونسو العالم " مكتبة المؤلفين الإسبان – ٥٦ –٥) ، كما أن البدعة التى قال بها المؤرخ عن أن الملك أرسل فى طلب الأميرة كريستينا النروجية ليتزوجها نظرًا لأن السيدة بيولانتا عاقرٌ ، وأن السيد ألفونسو " شعر بخجل شديد"عندما علم أن الملكة حامل ، وهذه قصة لم ينسبها الخيال الشعبى أبدا إلى فرناندو الثالث .

(٣٣) قام يهوذا الكوهينى (أى بن موسى) بترجمة كتاب " أحكام النجوم " لابن أبى الرجال ، وقد كلفّه بذلك ألفونسو العاشر ، غير أن الكتاب لم يدخل ضمن المخطوطة الملكية الخاصة " يكتب معرفة الفلك " . والاطلاع على جزء منه يكفى حتى نعرف كيف كان يكتب بالقشتالية ذلك العبرى الإسبانى عندما لا يتدخل الملك أو المصحّحون فى تعديل أسلوبه .

> «Loores et gracias rendamos a Dios padre verdadero, omnipotente, que en este nuestro tiempo nos dennó der señor en tierra conocedor de derechura et de todo bien, amador de verdad, escodrinnador de sciencias, requeridor de doctrinas et de ensenna.
>
> mientos, que ama et allega a sí los sabios et los quienes se entrometen de saberes, et les faze algo et mercet porque cada uno de ellos se trabaje en espaladinar los saberes en que es introducto, et tornarlos en lengua castellana a laudo et a gloria del nomber de Dios, et a ondra et en prez del dicho sennor, el qui es el noble tey don Alfonso..., que siempre desque fue en este mundo amó et allegó a sí las sciencias et los sabidores en ellas et alumbró et cumplió assí la grand mengua que era en los ladinos por defallimiento de los libros de los buenos philosophos et peruddos (?); por que ['por lo cual'], Judá fe ed Mossé Alcohén, su alphaquí, et su mercet fallando tan boble libro, et tan acavado, et tan complido en todas las cosas que pertenescen en astronomía, cuemo es el que fizo Halí fe de Abén Ragel, por mandado del antedicho nuetro sennor, a qui Dios dé vida. trasldólo de lengua aráviga en castellana» (Libros del saber de astronomía, III, x).

وما يثير المفاجأة هو وجود تعبيرات مثل Los quienes y el aqui، ومفردات مثل espaladinar و intreducte، كما أن موسى الكوهينى يقول بأن الملك يبحث عن العلوم ولم يقل يملك العلوم ، وكان يجمع العلماء حوله حتى يبوحوا بتلك العلوم (esplandinas) . كما أن أى مسيحى لم يكن ليتحدث عن وضع كتاب فى علم الفلك يقوله " إن ذلك فى سبيل إعلاء كلمة الله "

(٣٤) لم يدخل المصطلح التقنى لليهود (الذى يعتبر تجديداً لذيذاً) ليشكل جزءاً من اللغة القشتالية " كل جرم فى طوله Longueza وعرضة Ladeza وعمقه baxamiento(علم الفلك - الأول - ٥٦) (...) ولا توجد مفردات من اللغة الغربية لهذه الكتب فقد سقطت فى صحراء جرداء ولم تنبت ، كما أن شعبيتها تعكس ابتعادها عن الأصول اللاتينية والدولية ، وكان الغرض من الكتابة هو العالم المليء بالمفردات الخاصة الذى نجده فى الأعمال التى كُتبت فى بلاط الألفونسى العاشر والتى تعتبر أول قاموس للغة القشتالية . وقد نبهت إلى ذلك فى دراسة قُمت بها بعنوان " قواميس موجزة لاتينية إسبانية خلال العصور الوسطى صـ٦٦ لكنى لم أدقق جيدا فى مغزاها . وقد قام أحد تلامذتى وهو السيد/ هربرت فان اسكوى يجمع كل هذه التعريفات ضمن أطروحته للدكتوراه وهى أطروحة لم تنشر للأسف حتى الآن ونقرأ فى أعمال البلاط الألفونسى ما يلى Cavernes تعنى Cavas أو Cuevas(كهوف) ؛ Scutulados هى ألوان مستديرة على شكل ترس " "adargas (الدرقة) ؛ و gidit تعنى : cabrito (ذكر الماعز) : addibبمعنى lobo (الذئب) .. الخ . وهنا يتضح لنا جليا وجود محاولة لإدخال الثقافة العربية اللاتينية إلى اللغة القشتالية .

(٣٥) أسس ألفونسو العاشر فى أشبيلية عام ١٢٥٤ (أى بعد اعتلائه العرش بعامين) " دراسات ومدارس عامة باللاتينية والعربية " ولا نعرف شيئًا عن هذا الموضوع " (انظر خ . أمادور دى لوس ريوس" تاريخ الأدب الإسبانى " م الجزء الثالث صـ ٤٨٠)

(٣٦) انظر Die hebraischen übersetzungen des Mittelaltess "Steinschneider, .M p979. لست أدرى فيما إذا كان السيد يهودا موسكا الذى أعطيت له دار فى مدينة فيريث "Jere" بناء على أوامر الملك " هو يهودا الكوهينى أو أنه والده (انظر باير - الجزء الأول - صـ ٥٨ - ٥٩) .

(٣٧) انظر steinschneider .M صـ ٩٨٦

(٣٨) تدعى أيضًا رابين بن كايوت . وقد اعتقد أم . ريكو أى سينوبياس (معرفة الفلك ، الجزء الأول ،صـ ٩٢ أنهما شخصان مختلفان ، وهو نفس ما حدث فى حالة يهودا بن موسى الذى أصبح يهودا الكوهينى ، ويهودا فى دى موسى فى موسكا (نفس المصدر) وهو خطأ نفسّره فى التردد بين بعض الصيغ العبرية والعربية والقشتالية لهذه الأسماء ، كما أن أسماء الأعلام هى أيضًا جانب مهم من سياق تلك الحياة .

(٣٩) السيد " "Xosse Alfaquim أو " يوسف الفقى " الذى وهب له الملك (فى عام ١٢٥٣) فى أشبيلية "e unas casas ،e diez Jugadas de hesedat ،Seys arançadas de Vinnas " {باير الجزء الأول صـ ٥٠} كما تشير نفس الوثيقة إلى هبات أخرى كثيرة للسيد سيا ، والسيد سليمان ، والسيد تادرس ، وإلى زاج المعلّم " ولما كان ذلك قد حدث بعد عام على بداية حكم السيد ألفونسو فمن المنطقى أن نفكر أن اليهود الذين تم منحهم هذه العطايا قد حازوا رضا الملك عندما كان وليًا للعهد أو أنهم قاموا بخدمات جليلة على عهد الملك فرناندو الثالث .

(٤٠) وقام بترجمة كتاب Tablas Alfonsies (الجداول الألفونسية) عن العربية لابن الرزقلى الذى كان يعيش فى طليطلة خلال الفترة من ١٠٦١ و ١٠٨٠(steinschneider, .M المصدر السابق صـ ٥٩٠ ؛ وريكو وسينوبياس ، الجزء الثالث صـ ١٣٥) وقد ترجم فرناندو دى طوليدو عمل الرزقلى وكان أول من قام بهذا

العمل وهو يهودى تحولّ حديثًا إلى المسيحية خاصة وأنه يعرف العربية كما أن نسبته إلى طليطلة تشير إلى يهوديته ، كما أن برناردو دى طوليدو (يهودى تحولّ إلى المسيحية) ترجم ابن ميمون خلال القرن الخامس عشر . كما تضم القائمة التى أوردها " باير " عدداً آخر ، أضف إلى ذلك أن الترجمة التى أعدها فرناندو دى طوليدو لم تعجب الملك أو مستشاريه وتولى برناردو العربى وأبراهام الفقى إعداد ترجمة أخرى .

(٤١) رامون منديث بيدال " دراسات أدبية " ١٩٣٨م صـ ١٤٤

(٤٢) طبعة " ريكو وسينوباس " الجزء الأول صـ٧

(٤٣) يقول كتاب " التاريخ " عن مملكته – الذى يتسم بغير الدقة أحيانًا – إن " الملك السيد فرناندو (والده) كان قد بدأ فى إعداد كتاب القوانين ، كما أن هذا الملك أى السيد ألفونسو تولى إكماله ...... كما أمر بعد ذلك بأن يكتب الإنجيل وكل كتب اللاهوت بلغة الرومانث ، ويدخل فى ذلك أيضاً كتب فنون الطبيعة الفلكية " (الفصل التاسع) . وأيا كان الأمر فما يثير الفضول هو أن ما يبدو أكثر ذاتية من بين أعمال ألفونسو العاشر (كتاب القوانين) يمكن أن ينظر إليه خلال منتصف القرن التالى على أنه جهد قام به كلا الملكين فالمؤرخ يكشف لنا من خلال أسلوبه البسيط وغير المنمق كيف يظهر الملك فى عينى أحد رعايا ابن حفيده الملك ألفونسو الحادى عشر

(٤٤) ويحدث الأمر نفسه بالنسبة لآخرين " نامر صمويل اللاوى ، الطليطلى، اليهودى التابع لنا ، القيام بإعداد كتاب عن " relogio de la Condelc (الرابع – صـ٧٧)، ولم يتضح حتى الآن وربما لن يتضح إلى اى درجة كان فيها هؤلاء اليهود مترجمين وأى الأجزاء أو التفاصيل التى يمكن اعتبارها أصلية فى كتاباتهم .

(45) «Latin never replaced Arabic as a medium of Jewish culture. It was not only linguistically alien; it was spiritually hostile and historically inimical» (A. A. Neuman, The Jews in Spain, II, p. 99).

وهذا لم يمنع أن يعرف الحاخامات والمثقفون اليهود اللغة اللاتينية لأسباب نفعية محضة ، فيعترف نيومان بأن اللغات الرومانية كان اليهود يعتبرونها " لغتنا " نفس المصدر صـ ١٠٠ – ١٠١

(٤٦) يشير إليه المؤرخ أبرامهم آل ليفى بن داود (١١١٠ – ١١٨٠ م) انظر :ب. سانشيث ألونـو ، " تاريخ التأريخ الإسبانى " ـ الفصل الأول صـ ٢٠٢

(٤٧) " كانت نيتى من وراء هذا العمل على أننا نرى الآن الأمة المسيحية حصلت على الكثير من المعرفة وأصبحت غاية فى الدقة التعبيرية فى القشتالية " [ينسى الرجل خبر الجملة ويتابع قولة] :" لكن اليوم أكثر من أى وقت مضى أصبح هناك العديد من العلماء ، وبعد أن تعامل الناس مع العلماء وتدربوا تعلموا منهم العلم ولغتهم اللاتينية ، وكان أن أصبحت اللغة اللاتينية منتشرة فى قشتالة لدرجة أن الفرسان وأتباعهم وجموع المواطنين تخلوا عن القشتالية الخالصة وخلطوها بالكثير من اللاتينية حتى أصبحت اللاتينية هى القشتالية ، وأقول ذلك لأن هناك العديد من المفردات اللاتينية التى يستخدمها الناس بدلاً من القشتالية ؛ وبذلك تحتّم على فى هذا العمل اللجوء إلى استخدام الكثير من الألفاظ الرومانثية بدلاً من اللاتينية (...) لكن ذلك لم يكن

مناسبًا للجميع فمقابل كل كلمة يتم فقدان درس ، ومقابل كل درس نفقد كتابًا وهذا فى جانب الكتاب الأعم من اليهود ، ولهذا السبب فكّرت فى تحويلها إلى الرومانث أى هذه الكلمات اللاتينية والعبرية لأن اليهودى لا يفزع من اللاتينية بل يفهمها كما أن المسيحى كذلك بالنسبة للمفردات العبرية " { توراة موسى الراجل من وادى الحجارة - الجزء الأول صـ ٢٠ - تولى أ. باث أى مليا أمر هذه الطبعة التى نشرت على حساب دوق ألبا) .
كما ذكر د.س.بلونديم جزءًا من النص (لأسباب أخرى) وذلك فى مُؤلَّفه " اللآلىء اليهودية الرومانية " صـ ٩٦
كما أ. المفردات اللاتينية التى لم يذكرها الراّجل نراها فى المعجم المصغّر الذى يسبق التوراه ، وهى مفردات تقدم لنا شاهدًا جيدًا على الكلمات غير شائعة الاستخدام بين اليهود مثل : poco o bequeno قليل أو صغير ؛ breve مجاور ؛Junte ، anxo خادمة ؛sierva ، ؛ ancilla عمل obra، acto...

(٤٨) بعد كتابة ما سبق قرأت عند م. Steinschneider فى Die hebraeischen übersetzungen صـ ٤٦١ ما يلى " كانت اللاتينية التى يطلق عليها اليهود " الرومانية المسيحية " ، وبعد ذلك " اللاهوتية " ،لغة لم تُدْرس لديهم إلا قليلاً إذا ما استثنينا النصوص العلمية العالمية (... . . .) والتى ليست لها صلة بديانة أو مواطنة ، فاللاتينية كانت تثير خوفهم وضيقهم ، فكانت لغة من هدموا المعبد ولغة هؤلاء الذين جعلوا شعب الله يعيش فى العبودية والذل وإطلاقهم على هؤلاء قتلة الإله" فالترجمة الشائعة للكتاب المقدس Vulgata كتبت باللاتينية وتمت الترجمة وفقًا للاهوت المسيحى لكنها تتناقض مع المفاهيم والموروثات التورائية اليهودية ، كما صنعت القوانين الرهيبة ضد اليهود بهذه اللغة . "

(٤٩) Véase Mario Schiff, La bibliothéque du Marguis de Sansillane, 1905, p. 428

(٥٠) كتاب معرفة الفلك ـ الجزء الأول ـ صـ ٨

(٥١) ذكر ألفونسو السابع عام ١١٤٥م

(٥٢)

Toliós el manto de los omhros, besóme
la boca e por los ojos; tan gran sabor de
mí avía, sol fablar non me podía.

(٥٣) : خ روبيو أى بلانجير فى " دراسات جامعية قطلانية - الثالث - ١٩٠٩م صـ ٤٨٩ - ٤٩٧

(٥٤) يضيف فيد فيتا فى BAH - الثانى (١٨٨٣م) صـ ٣١٨ - ٣٢١ أن جامع طليبرة كان جميلاً وقويًا لدرجة أنه كان يسهم بحوالى نصف الحصة المفروضة المخصصة لنفقات البلدية (صـ ٣٣٨) ، وإذا ما أردنا إحداث مقارنة تهم الاقتصاد لنرى إسهم هؤلاء الأطباء التابعين للبلدية مقارنا بإسهام الأطباء التابعين للقصر الملكى قبل ذلك بقرنين حيث " يدين السيد/ موسى طبيب الملك بمبلغ ١٠٨٠ mrs، والسيد كاخ طبيب الملك مبلغ ٠٨٠١] (mrsنقلنا ذلك من حسابات ترجع إلى عام ٤٩٢١م وردت عند منديث بيدال فى " وثائق لغوية صـ ٤٧٠ .

(٥٥) خ.مياس بايكروسا" الترجمات المشرقية في مخطوطات مكتبة كاتدرائية طليطلة"صـ ١٠٩ ، ١٢٩ .

(٥٦) كان حامل الثانوية خوان سبّرانو ، الجراح من قاطني طليطلة " من المسيحيين الجدد ، وقد ظهر اسمه في إحدى قضايا محاكم التفتيش عام ١٥١٥ (باير ـ الجزء الثاني ـ صـ ٥٤٤) وقد عاش في منزل خوان سيرانوسفير يهودي لملك المور في تلمسان ، الذي جاء لعلاج الملك أي لعلاج فرناندو الكاثوليكي . ويقدم لنا باير نص المحاكمة باللغة الألمانية ؛ على يد طبيب يهودي كان يقوم بدور سفير لملك مسلم وهذا طبقًا التقاليد المشتركة للمسيحيين والمسلمين والأسبان .

(٥٧) وحتى عام ١٤١٢ أي في زمن خوان الثاني ملك قشتالة " يمنع منعًا باتًا على اليهودي واليهودية والمسلم والمسلمة القيام بدور باعة التوابل أو الطبيب أو الجراحة أو الصيدلة " (باير – الجزء الثاني – صـ ٢٦٥) .

(٥٨) لا يدخل في اختصاصنا معرفة مدى ما كان عليه هؤلاء الأطباء من علم أو في أي مكان تعلموا ، ومن المؤكد أنهم كانوا يذهبون إلى مدرسة الطب ،ذلك أن الحاخام " يوشع اللبان " طبيب السيد بدرو دي لونا يقول عام ١٤٩١م " من الممكن أن يكون هناك ١٧ أو ١٨ عامًا قد مضت منذ أن جاء ذلك الطالب إلى هذه مدينة كويّار Cuéllar للبحث عن الحاخام صموئيل طبيب السيد دوق كويار فقد كان على كليهما أن يذهب للدراسة معا " (باير : الجزء الثاني صـ ٥٢٩) وربما كانت المعرفة هي التقليدية التي عليها حربوقراط و جالينو حيث نقلها ابن سينا هو وغيره واستمع اليها . كما أن القرطبي بن ميمون (١١٣٥م – ١٢٠٤م) طبيب صلاح الدين كان حجة كبرى لدى الإسبان ، أضف إلى ذلك أن التطّير والفلك لم يكونا غائبين عن الطب آنذاك بما في ذلك الاتجاه إلى استخدام " الرجيم " كوسيلة العلاج قبل اللجوء إلى المخدرات (انظر د.يلين و إ .أبرامهم : "ابن ميمون " صـ ١١٠ وهناك معلومات جيدة عن الطب العربي الذي يعتبر أساس الطب الإسباني العبري وهذا ما نجده عند ماكس ميرهوف Max Meyerhof في The medical work of Maimomdes: والمنشور في Essays on Maimom`des 1941, p.264 وهناك كتاب لابن ميمون لدى الأطباء اليهود وقام بترجمته بعد ذلك أحد السفرديين خلال القرن السابع عشر ، وهو كتاب يضمن العديد من النصائح لصحة الجسم والسيطرة على الروح ، أي أنه خليط من النصائح التعليمية العربية : " رسالة في الأخلاق ونظام الحياة " للسيد الشاهير الحاخام موسى المصري (de Egypto) وقد ترجم عن اللغة العبرية إلى الرومانث وقام بالترجمة داود ابن اسحاق كوهين دي لارا (لتصعد روحة إلى أعلى عليّين) ووجهت هذه الترجمة إلى سعادة السيد اسحاق دي سيلياسوليس . في مهمبورج اليوم الثاني عشر من سيفان Sivanعام ٥٤٢٢ من خلق العالم في منزل جورج ليبنلين {١٦٦٢} ، ويمكننا أن نلاحظ في هذا النثر الرقيق الذي كتب به هذا السفردي صدى الحياة الخاصة التي كانت عليها حياة الإسبان خلال العصور الوسطى والتي لا نعثر عليها في نصوص مسيحية . (..... ..) .

(٥٩) كان الرّاجل يطلق لفظة innovación (تجديد) على الخلق في التوراة التي عنده El ca-mençmient e ynovaci?n del mundo(الجزء الأول ٧٩ a) إذن كان الخلق " حديثًا " أو "حدوثًا" .

(٦٠) هكذا كان الجو الصحي الذي عليه السيد وكذلك القشتاليون في الملحمة ، وهو جو مليء بالانسجام والوفاء المتبادل سواء عند الحاكم أو المحكوم ، غير أن النظام التعسّ الذي نحن علية اليوم والقائم على الحساب والمال والميكنة يجعل المرء يشعر بعبوديته سواء كان صاحب العمل أو العامل .

(٦١) "مصلحة الدولة razin de Estado" هو مصلح كان يعنى خلال القرن السابع عشر نظر تبرر المبالغة فى استخدام السلطة

(٦٢) " نحن ... لا نسعد بالتجارة ... فنحن نعيش على أرض طيبة ونقوم بفلاحتها بجدّ " (جوزيفو: " ضد أبيون " الثانى عشر صـ ٦٠) وتوضح لنا التوراة والتلمود وجود مجتمع زراعى كما تعبر عن عدائها للتجارة (Bela Szekely المصدر السابق صـ ١٦٢ ، ٢٠٣) ، كما أن يهودى روما لم يسترعى الانتباه لثروته بل لما عليه من بؤس (جوفينال - الثالث - صـ ١٤ - ١٦ ؛ السادس صـ ٥٤٢ - ٥٤٧ ، مارثيال ، الثانى عشر صـ ٥٧ ؛ روتيليعو ناما ثيانو صـ ٣٨٥ - ٣٨٦) وبعد أن أصبحت الامبراطورية الرومانية مسيحية أغلقت الأبواب أمام اليهودى بالنسبة لبعض الحرف وكذلك ملكية الأرض (بارون - المصدر السابق - الجزء الثانى - صـ ١٠ - ١١) ؛ وبعد ذلك ناصر المجتمع المسيحى مجازيًا الشعب المختار فى العهد القديم (...) ؛ لكن لما كانت التوراة تحرم الربا فإن القانون الدينى حرّمها أيضًا على المسيحيين ، ولم يمنع هذا أن نرى، خلال القرن الثانى عشر - أن الاكليروس فى أوربا المسيحية وغير الإسبانية كان بشكل أكبر المجموعات المُقرضة (بارون - المصدر السبق ، الجزء الثانى صـ ١٦) . وبهذا نرى كيف أن اليهودى قد يقوم بإنجاز المهام (...) التى هجرها الإسبانى المسيحى (أدين بالفضل فى هذه الحاشية إلى ماريا روساليدا)

(٦٣) يعرف كارلو الكالبو (الأصلع) (٨٧٦ - ٨٧٧) عن طريق يهوذا " Judas "fidelis noster وأى ودّ يكنه أهل برشلونة ، كما كتب الملك :

الملك :

«per fidelem meum Judacot dirtgo ad Frodoynum episcopum libras X de argento ad suam eclesiam reparare» (Baer, I, 1).

وقد رأينا قبل ذلك كيف أن ألفونسو السادس (صـ ٤٥١) قد أرسل يهوديًا لتسلم الجزية المفروضة على ملك أشبيلية . (...)

(٦٤) " فمنذ أمر طويل كان من المعتاد فى قشتالة أن تضم القصور الملكية محصلّى الضرائب اليهود ولهذا فإن الملك (ألفونسو الحادى عشر) وبناء على رجاء من الأمير السيد/ فيليب (عمه) قرر اتخاذ محصل ضرائب يهودى يدعى يوسف الأستجىّ الذى يتمتع بسمعة طيبة فى القصر الملكى وسلطة واسعة فى المملكة وحظى برعاية الملك (تاريخ ألفونسو الحادى عشر) مكتبة المؤلفين الإسبان - الرابع والستون صـ ١٩٩ ٩)

(٦٥) مجالس ليون وقشتالة - الجزء الثانى - صـ ١٥ . ففى عام ١٣٢٧م اكتشف ألفونسو الحادى عشر أن جابى الضرائب " السيد / يوسف " قد احتفظ لنفسه بجزء من الخزانة الملكية " واعتبارًا من ذلك الحين أمر أن يتولى جميع خزائنه المسيحيون وليس اليهود وألا يطلق على هؤلاء أسماء جباة الضرائب بل خازنى المملكة (تاريخ ألفونسو الحادى عشر الفصل ٨٢) . وفى عام ١٣٢٩م عاد " السيد يوسف " للظهور كجابى ضرائب حيث توجه إليه ألفونسو الرابع ملك أرغن " إليكم يا سيد يوسف الأستجى جابى الضرائب الأكبر لهذه المملكة النبيلة مملكة قشتالة (باير - الجزء الأول صـ ٢٦٢) .

(٦٦) وتلك كانت ممارسة قديمة ، كما كانت الكنيسة تؤجر لليهود (وكذلك للمور) عمليات كاتدرائية طليطلة هذا البند للسيد/ مايد بن حامياس (باير الجزء الثانى صـ ١٧٧ انظر أيضًا صـ ٢٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٤٧

، ٣٤٨ ، ٣٨٧) وبعد ذلك يتم تخزين كافة أموال الأعشار التى يدفعها المؤمنون من قمح ونبيذ وماعز وخراف .. الخ حتى عيد القيامة ، وهنا يتم بيعها فى مزاد " فى الكنيسة عند القدّاس الكبير " وكان القانون ينص على أن المستأجرين " يرسون المزاد على من يدفع أكثر " ويقومون بتسليم المال للشخص المسئول : فهناك الثلث للملك والباقى للكنيسة (الأوامر الملكية فى قشتالة – الكتاب السادس المادة السادسة – القانون الأول) وهذا هو ما كان يفعله اليهود والمور فى الكنائس كمستأجرين للأعشار ، كما أن الكلمة العربية almneda "المناداة " تشكل جزءاً من مفردات اللغة القشتالية منذ القرن الحادى عشر وهذا يبرهن على أن المزادات العامة كانت أمراً قاصراً على المور واليهود ؛ والكلمة البرتغالية Leilão" مزاد " عربية أيضاً مشتقة من " ليلة " وملحق بها المقطع Serão ذلك أن المزادات كانت تقام ليلاً ، وظل ذلك حتى الآن .

(٦٧) " مترجماً وكاتبا بالعربية " كان جرابيل إسرائيل (باير – الجزء الثانى ٣٩٨) وهذا منصب آخر ذو أهمية كبيرة .

(٦٨) حتى ١٤٩١ كانت هناك عناية بشكاوى الكنيس اليهودى فى سامورة ضد فراى خوان وهو من الدومينكان ، وكان الرجل يؤلب المسيحيين على اليهود من خلال خطبه ومواعظه التى يلقيها . وبهذه المناسبة أصدر السيد / بدرودى بيلاسكو كونت أرو مرسومين ملكيين لسلطات سامورة ، وهو رجل كان يشغل منصب يوازى وزير الحربية اليوم : " بناء على هذا الأمر الصادر نضع الكنيس المذكور وأمواله.. . تحت حمايتنا ورعايتنا ودفاعاتنا الملكية " (باير الجزء الثانى – صـ ٤٠٠) وتجدر الإشارة إلى أن النغمة الواثقة التى تتسم بها هذه الأوامر لا تعكس أى عداء للسامية أو أى تعاطف مع الراهب الدومنيكى .

(٦٩) انظر باير – الجزء الثانى ، صـ ٥٨٧ . A.bgaben "v. .s إذ كانوا يدفعون ٣٠ ديناراً اعتباراً من بلوغ الخامسة عشر من العمر ، إضافة إلى الأعشار والتبرعات (وهذا ما كانوا يقاومونه بشدة) .

(٧٠) ف . فيتا ، فى B A H - السادس عشر (١٨٩٣) صـ ٥٧٤ . باير الجزء الثانى صـ ٢٤

(٧١) أ . روبيو إى لوتس " وثائق لتاريخ الثقافة القطلانية – الجزء الأول صـ ٩٢

(٧٢) أحياناً ما تتجاوز الحماية التى أولاها ملوك أرغن العبريين الحساسيات للكنيسة ، ففى عام ١٩٣١م نجد أن الملكة بيولانتا Violante تكتب للأمير السيد / مارثن الذى كان فى برشلونة آنذاك وتطلب منه إيقاف المحاكمة التى بدأها أسقف طرغونة Tarragona ضد بعض كتب الحاخام موسى بن ميمون ، والتى يشير فيها إلى وجود أخطاء فى الديانة المسيحية ، ولما كانت المحاكمة قد أثارت ضجة كبرى " فى كنيسنا فى برشلونة " فإنها ترجو وتستعطف أخاها " إيقافها " وألا تقام المحاكمة فى برشلونة أو أى مكان آخر فيه كنيس (باير – الجزء الأول صـ ٦٥٠ – ٦٥١) . وتؤكد هذه الحالة وأخرى غيرها أن الملوك كانوا بعيدين أكثر البعد عن روح محاكم التفتيش ، فكان ما يعنيهم هو شئون الافتقاد أكثر من البحث عن هرطقات .

(٧٣) فيما يتعلق بالدراسة المنشورة فى موضوع أخر عن جماعة القديس خيروينمو خلال القرن الخامس عشر (فى RFH – الرابع – ١٩٤٢ صـ ٢٣ وما يليها) فإننى قد رأيت من خلالها أن طرد اليهود كان حالة من الديماجوجية الجموحة والمعارضة لسياسة الملوك ، فعندما كانت جماعة خيروينمو على وشك عدم السماع لليهود الذين تحوّلوا إلى المسيحية بالدخول فى صفوفها أرسل الملوك الكاثوليك إلى مساعد القسّ / خوان داث القيام بتعديل الإنفاق الذى عليه هؤلاء الرهبان الذين استلهموا الكبرياء الدنيوى وابتعدوا عن الرحمة المسيحية ، وكان الملوك يفكرون فى هذا الأمر ويتخذون رأيا مثل رأى الكاردينال بدرو جونثا ليث دى مندوثا ودوق إنفانتادو .

(٧٤) سالمون بن بيرجا " عصا يهوذا Juda" ترجمة ف . كانتيرا صـ ٢٠٨ . ويستخلص من هذا النص أن الملك فرناندو لم يكن قد اتخذ قراره – قبل عام ١٤٩٢م – بطرد الإسرائيليين من المملكة ، كما أن إيزابيل كانت أكثر قناعة منه بضرورة اتخاذ تلك الخطوة . ولأسباب بديهية يعرفها القارئ فقد كانت قشتالة أكثر عداء للسامية مقارنة بارغن ، وقبل ذلك بسنوات كان قد تم طرد اليهود من أشبيلية و قرطبة .

(٧٥) :ف.فيتا : إسبانيا العبرية، ١٨٩٠م – الجزء الأول – صـ ٢٠ . باير – الجزء الثانى صـ ١٦ – ١٧

(٧٦) باير الجزء الثانى ، صـ ٢٠ – ٢١ . ويحرر إنريكى الأول اليهود " ثوريتا دى لوكانس " من ضريبة الرءوس والخدمة كان ذلك عام ١٢١٥م ذلك أنهم كثيراً ما ساعدوا ألفونسو الثامن فى الكثير من المسائل الضرورية (نفس المصدر صـ ٢٣) .

(٧٧) لم يتم تطبيق القوانين فى هذا المقام مثلما حدث مع باقى القوانين الأخرى ، وتكرر إصدار القوانين للقضاء على المزايا التى عليها اليهود لكنها لم تنفذ مثل تلك التى تمنع عليهم ممارسة الطب على المسيحيين . وتنص المجالس Cortes التى عقدت فى بلد الوليد عام ١٢٥٨م على أنه " لا يجوز لأى يهودى أن يرتدى ملابس بيضاء أو حرير من أى نوع أو أن يخضب ذقنه باللون الذهبى أو الأبيض الفضى أو ينتعل النعال الأقحوانية أو يلبس أى نوع من الملابس الحمراء بل اللون الأسود أو الإنجليزى (..) وكل ما يأمر به الملك "]مجالس ليون و قشتالة الجزء الأول صـ ٥٩[، ومن المعروف أن اليهود ميسورى الحال أو الأغنياء كانوا يرتدون ملابس مثل المسيحيين الذين هم من نفس طبقتهم

(٧٨) تولى أ.بينابيدس نشر هذه الوثيقة " مذكرات فرناندو الرابع " الجزء الثانى صـ ٥٥٤ . باير – الجزء الثانى صت ١١١ ١١٣

(٧٩) كان مجمع Concilio سامورة غير دقيق فى هذا ، وقد قام باير بفحص ذلك الدستور ووجد أن اليهود لم يذكروا فيه (الجزء الثانى – صـ ١٢٠) .

(٨٠)خ. أمادور دى لوس ريوس " تاريخ اليهود ، الجزء الثانى – صـ ٣٤٦

(٨١) يقول بيرو لويث دى أيالا عن المذابح التى جرت عام ١٣٩١م م " وكان مرد كل ذلك الرغبة فى السرقة – على ما يبدو – وليس علامة على التقوى " {التاريخ طبعة ياجونا – الجزء الثانى صـ ٣٩١} (...)

(٨٢) Heteradoxos، الثالث ، صـ ٣٩٨ . الخامس صـ ١٠٨ . ومع ذلك لم يحاول منتديث إى بيلايو تفسير أى شىء واستند إلى لمحة ثرية واتخذ فى دراساته اتجاهًا مناقضًا .

(٨٣) لا زال يذكر دفاعه الجيد عن الفارو فى مواجهته الفرنسيين ، وظل ذلك الذكر حتى عام ١٤٦٦ {باير – الجزء الثانى صـ ٣٢٣} .

(٨٤) من المهم أن تكون لدينا فكرة عن أعداد اليهود فى إسبانيا : فخلال القرن الخامس عشر كان يوجد بشبة جزيرة أيبيريا عدد يتراوح بين ٧ ، ٨ مليون نسمة ولم يتجاوز عدد اليهود عن ٢٣٥ ألفًا طبقًا لاحصائيات إيسيدورى لويب ، فى Rev. Etudes J uives ، العدد الرابع عشر لعام (١٨٨٧م) صـ ١٦١. نرى إذن أهمية اليهود الإسبان تكمن فى نوعية النشاط وليس فى التعداد .

(٨٥) " فى عام ١٣٤٠ خوَّل الملك فيليب الثالث {ملك نابارَة} كلاً من فرناندو إكسيميو كاهن قانونى من تطيلة ، وأبار يثيو السرقسطى .. والحاخام إسحق اليهودى للقيام بحفر قناة للرىّ لربط نهر أرعن بتطيلة "]خ.يانجواس،"قاموس المقتنيات القديمة فى مملكة نابارًا،الجزء الثالث ص ٤٢٤}، وفى عام ١٣٨٠م حل الفقر بتلك المملكة مع رحيل اليهود : " فكل يوم يقل عدد اليهود فى المملكة وبذلك أخذت حصيلة ضرائب الرءوس تقل "{خ.أمادور ديلوس ريوس:"تاريخ اليهود" الجزء الثالث صـ ٢٨٩} .

(٨٦) قامت الملكيّة الفرنسية باستئصالهم بغية تأميم خدماتها المالية .

(٨٧) كان السيد / بونو قد سددّ (فى مناسبة أخرى) ديونا كانت على الرئيس لجماعة من التجار من مونبلييه ولوكاً]باير ، الجزء الثانيصـ ٦٤ – ٦٥

(٨٨) أجَّر سانشو الرابع – فى عام ١٢٨٤ – للسيد أبراهيم البرشلونى كافة موارد المملكة : قطعان الماشية ، وما يسلمه الرعاة والمولدات والحديد والزئبق " {الجزء الثانى – صـ ٧٧} وفى عام ١٢٨٦م كان قد أجَّر الملاّحات التى كان يملكها فى مدينة سالم .

(٨٩) أرسل ألفونسو العاشر السيد / ماير فى مهمة دبلوماسية إلى المغرب وكان السيد ماير يتولى مهمة جابى ضرائب الملك (باير – الثانى صـ ٥٢) وفى عام ١٢٥٨ كان يهود بطليوس Badajoz لهم ديونهم المستحقة على المسيحيين ، وهنا منع ألفونسو العاشر " أن يقوم أى يهودى بممارسة الإقراض أو الربا أو أى شئ أخر على أى مسيحى " {باير ، الجزء الثانى ، ٥٧} ، وفى ١٢٦٤ كانت مدينة ثيوداد ريال (حينذاك بيأريال) تكاد تخلو من سكانها ذلك أن اليهود كانوا يبيعون منازل المدينين لتحصيل ما عليهم ، وهذا ما منعه ألفونسو العاشر (الثانى – ٥٨) غير أن القوانين المتعلقة باللحظة لم تغير موقفًا يقوم على الحاجة إلى المسيحى وعلى ثروة اليهودى .

(٩٠)

«Ipsum insontem invenerimus ... Idcirco ... visis presentibus absolvatis nec deinceps ipsum proptera molestetis vel molestari ab aliis permittatis» (Baer, I, p. 188).

(٩١) " يهوَى كان أحد أتباع الملك ألفونسو " وكان لمعاصره " القادر " الملك المسلم فى بلنسية وزيرٌ يهودى (التاريخ العام صـ ٥٥٢ a، ٥٥١ a)

(٩٢)

Como la canción que empieza: «Joham Rodriguiz foy desinar a Balteira / Sa per que colha .sa madeyra...» (Il canzoniere portogbese della Biblioteca Vaticana, Monaci, 1875, p. 31).

(٩٣) كان الأوتساج Utsages فى برشلونه (١٠٥٣) ينظرون لليهود على أنهم مختلفون

«Judei judent christianis; chtistiani vero illis unquam» (Baer, I, 13). Pero ya el fuero de Daroca (Aragón) dice en 1142: «Christiani, judaei, sarraceni unum et idem forum habeant»; y el de Salamanca (siglo XIII); «Los iodíos ayan foro como christiano» (nuestra edición, 259).

وهكذا كان اليهودى يعيش بين المسيحيين مثل عيشه بين المسلمين حتى مجىء الموحدين

(٩٤) وهاهنا نجد أمامنا واحدة من حلقات هذا الصراع الممتد " فقد كان السيد يوسف الأستجى -Eci ja 650 - جابى الضرائب لألفونسو الحادى عشر - يسيطر على أموال كثيرة للفرسان والتابعين " على أساس أنه مستشار الملك ، وهناك سيدة قوية الشخصية هى السيدة سانشا " التى كانت تثير التقلبات والتمردات" ، ودبرّت هذه السيدة مؤامرة " وقام من هم فى بلد الوليد بإثارة العمالّ وبسطاء القوم .. . وأرادوا قتل السيد يوسف ومن معه "[تاريخ ألفونسو الحادى عشر - الفصل ٦٨} .

(٩٥) يمكننا أن نلاحظ الفرق الكبير بين تاريخ إسبانيا وفرنسا فى أن ملوك هذا البلد الآخر هم الذين يصادرون أموال اليهود (سان لويس ، عام ١٢٥١م) ، أما فيليب - كونت بولونيا - فقد وزّع على رعاياه ، اليهود الذين كانوا فى حوزته قبل موته بوقت قصير (١٢٣٥م) وعندما طردوا على يد فيليب (الجميل Hermoso) فى بداية القرن الرابع عشر وجد الكثيرون منهم ملجأ له فى قطالونيا وأرغن ؛ وقام رئيس حصن تراب بإيواء ثلاثين أسرة فى الكانيث Alca?iz) Rej الخامس عشر ، عام ١٨٨٧م صـ ٢٣٣ ، السابع والعشرون ، عام ١٨٩٣م ، صـ ١٤٩) .

(٩٦) ومعها التجارة التى كان يقوم بها الإيطاليون حيث توجد صلات مشتركة بين حياة كلا الطرفين أكثر من وجودها مع المسيحيين الإسبان . وقد عرفنا بوجود أسر ملكية مكونة من كبار التجار فى جنوة خلال القرون الوسطى (أهل Grimaldos وأهل Centuriones) واستمر أهل جنوة فى الأعمال المصرفية بين إسبانيا وممتلكاتها فى أمريكا فى غيبة اليهود {خ.م.أوتس كابديكى ، فى جريدة معهد الأبحاث التاريخية ، العدد الثامن عشر ، ١٩٣٥ ، صـ ٦١} .

(٩٧) M.Kayserling, Das Moralgesetz des Judenthums فيينا ، ١٨٨٢ صـ ٢٧

(٩٨) وفى عام ١٤٦٥م أقام إنريكى الرابع معسكرًا فى سيمنقة ومعه جيش لا يكفى لمواجهة الحرب ، وحتى يزيد من تعداد جنوده عرض منح حق " الشريف " hidalguia" لهؤلاء الذين ينضمون للجيش ومعهم عدتهم ومستعدون للإنفاق على أنفسهم، وتقول وثائق المجالس بأن هناك الكثير من الناس قد لبوّا هذا النداء . ومعنى لقب الشريف هو الإعفاء من ضريبة الرءوس المستحقة للملك (وثائق مجالس قشتالة وليون – الجزء الثالث صـ ٧٨٢) ويرد الملك على النواب بأنه سوف يلغى هذه الخطابات الخاصة بمنح لقب الشريف (صـ ٧٨٤) غير أن دلالة هذا الأمر تظل كما هى ، إذن فالرغبة فى الحصول على هذا اللقب (الذى لا يجتمع مع العمل) تبدأ خلال القرون الوسطى .

(٩٩) باير – الثانى – صـ ١٠٤ – ١٠٦ ، وهناك شخص يدعى (بدرو دى أبيلا) مذكور فى عام ١٤٠٥م بصفته " جراح سيدى ملك قشتالة " (صـ ١٠٥) وربما كان يهوديًا اعتنق المسيحية

(١٠٠) M. Kayserling, en Rej , xxvIII (1894) p. 110 وكان صانعو الأحذية اليهود يشكلون طائفة فى سرقسطة ، كما أن ازدهار تلك المدينة مدين لما كان يقوم به اليهود من أعمال خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر . وقد خوّل ألفونسو الثالث مسيحيّى سرقسطة (عام ١٢٨٥) عدم ردّ الديون المستحقة لليهود عليهم حتى ولو كانوا قد أقسموا على ذلك (نفس المصدر صـ ١١٦) .

(١٠١) باير ، ١ ، ٤ ، ٢٢ ، ٢٧ ، ٤٦ ، ٥٣ ، ٩٠ ، ٩٧

(١٠٢) ورد ذلك فى قائمة مصروفات دفن السيدة / مايور بونثى ، طليطلة ، ١٣٤٤م. كما أن مصدر الوثيقة هو دير الكرمليون المنتعلون Carmelitas Calzados (باير – الجزء الأول صـ ١٦٢) .

(١٠٣) طبعة Galo Sa´nchez صـ ١١٦ حيث توجد عقوبات أخرى لارتكاب أخطاء مشابهة .

(١٠٤) ومن الملامح الخاصة باليهود فى إسبانيا أن كل مجموعة سكانية منهم كانت لهم محاكمهم المستقلة ، فعندما قدم الحاخام الشهير / Aser من ألمانيا لم يخف استغرابه: عندما وصلت إلى هنا سألت مستغربًا عن الأسس التى يعتمد عليها اليهود فى إدانة فرد ما بالموتى دون ... Sanhedrim وأنا لم أر فى أى بلد من البلدان التى أعرفها ماعدا إسبانيا تنظر قضايا تصدر فيها أحكام بالإعدام من خلال المحاكم اليهودية (A.A.Neuman, Jews in Spain,I,p.139 وهنا نرى قوة اليهود الإسبان حيث تشكل الطائفة اليهودية دولة داخل الدولة وهو نفس ما عليه الكنيسة وبالتالى لم يحدث توافق كامل بين مفهوم الأمة والدولة .

من الآن قضاه يهود أو مسلمين بينهم لفض المنازعات والجرائم المرتكبة " وهذه القضايا سوف يتم البتّ فيها بواسطة عُمَد المدن .. وعلى أن يقوم هؤلاء العمد بمراعاة العرف السائد حتى الآن بين المسلمين واليهود [باير الجزء الثاني ،صـ ٢٦٦ – ٢٦٧] وكانت إسبانيا حتى القرن الخامس عشر بها سكان يخضعون قضائيًا للقوانين المسيحية واليهودية والإسلامية وقوانين الكنيسة أضف إلى ذلك السمات والمزايا الخاصة بالممالك والأقاليم القديمة.

(١٠٥) سوف نرى فيما بعد على صفحات هذا الكتاب كيف أن المرسوم الصادر عام ١٤١٢م أُستلهم ، بل وكُتِبَ على يد يهودى اعتنق المسيحية حديثًا هو السيد بابلو دى سانتا ماريا وهو أول حاخام أكبر لبرغش ثم أصبح أسقفًا لنفس المدينة وقد قام ذلك الرجل بمطاردة إخوانه السابقين فى الدين بلا هوادة . وتعكس التفاصيل الدقيقة لهذا المرسوم وكشفه لأسرار الطائفة اليهودية أن من قام بصياغته شخص عاش ذلك الوضع من الداخل (......) .

(١٠٦) زالت طائفة برشلونة من الوجود عام ١٣٩٣م (REJ. x x v lll 1894,.M. Kyseslimy p.114) وقد أراد الملك خوان الثانى تأسيس بيعة جديدة عام ١٣٩٢ لكن لم يعد اليهود ، وفى عام ١٤٢٤م منع الملك ألفونسو الخامس من إقامة طائفة جديدة ، وخُوِّل اليهود الإقامة فى برشلونة كعابرين على ألا تتجاوز المدة خمسة عشر يومًا ، ومعنى هذا أن الحياة الصناعية والتجارية فى برشلونة ساعدت قبل ذلك على التخلص من اليهود ، ويعنى أيضًا أن محور الحياة السياسية ليس هناك ، فلقد دافعت السلطة الملكية عن يهود قشتالة القديمة ويهود سرقسطة حتى ما قبل قرار الطرد بوقت قصير .

(١٠٧) لا يكفى القول بأن الملوك كانوا يراقبون السلوك الدينى لليهود بغية الإفادة من الأحكام الصادرة بحق من خالفوا القانون " فمن يحلف كذبا يتحتم عليه سداد مائة راتب للملك "[A . A. Neuman, Jew in spain , I 128]

(١٠٨) قام بنشر هذه الوثيقة .

Stern, Urkundliicbe Beiträge über die Stellung der Päpste zu den Juden Kiel, 1895, I, 48; da un extracto Baer, II, 315. El azar nos revela este hecho que no debió ser único. En 1465 se prohíbe que los judíos celebren procesione con ocasión de perstlencias (Memorias de Enrique IV ed Castilla, II, n.° 109).

(١٠٩) لما لم يكن هناك وصف دقيق للحياة خلال العصور الوسطى فليس من المستغرب تخيل علاقة رومانسية بين الكنيسة وأتباعها الذين يقدمون لها الأعشار ، لكن واقع الأمر هو أن الشعب يكره كافة العناصر والجهات التى لها علاقة ما بالمسائل الاقتصادية ولم يكن يفكر إلا فى إيجاد وسيلة لخداع الكنيسة وسادته من

النبلاء ويشير تقرير يرجع إلى القرن الرابع عشر إلى أن الكهنة والرهبان لم يكونوا من الذين يدفعون الأعشار بشكل جيد وخاصة فيما يتعلق بأملاكهم الخاصة (وليست أملاك الكنيسة فهذه معفاة من الضرائب) ، وهذا موضوع كان يحظى باهتمام الملك، فثلث الأعشار كان يذهب للتاج " نعرف جيداً - يقول السيد خوان الأول - أنَّ الرهبان والكهنة عليهم أن يدفعوا الأعشار المستحقة على أملاكهم التى ورثوها والتى لا تخص الكنيسة، ولما كنا نعرف أن الكثير من الخدع تُرتكب ، فإننا نقرر أنه اعتباراً من الآن لا يجوز لأحد أن يقترب من كومة الغلال الموجودة فى الجرن الخاص به حتى يطلع عليها محصلو ثلث الأعشار الملكيون أو هؤلاء الذين يتولون عبء تحصيل الأعشار ، وما أمرنا به ليس تهديداً أو اعتداء على حقوق الآخرين " (الاوامر الملكية فى قشتالة . الكتاب الأول . المادة الخامسة ، قانون رقم ٢) وإذا كان الكهنة والرهبان يخدعون ملوكهم فكيف لا يفعل بالشعب ، فكل واحد يحاول تقدير كومة الغلال دون تدخل الجُبَاة أو محصِّلى الضرائب ، وغالباً ما كان هؤلاء من المور واليهود الذين اعتادوا تقدير الغلال "ليلا وخفية" . وهذا القانون نجده فى " القانون الملكى " الذى يرجع إلى القرن الثالث عشر (الكتاب الأول - المادة السادس - القانون الرابع) .

(١١٠) يبرز الوضع الخاص الذى كان عليه اليهود فى إسبانيا إذا ما تذكرنا ما وقع لهم فى صقلية وجنوب إيطاليا فى نهاية القرن الثالث عشر ، فلقد استطاع الدومنيكان ومحاكم التفتيش التابعة لهم تجاوز سياسة التسامح ذات المصلحة التى عليها الملوك الـ angevinos وهما كارلوس الأول وكارلوس الثانى ، ومحصلة ذلك نجدها فى أن الطوائف اليهودية قد تحولت إلى كتلة أو تم تفريق شملها . وقد أظهر بعض اليهود الذين اعتنقوا المسيحية عنفاً فى المطاردة ، وبرز من بينهم شخصياً يدعى مانو فورتى الذى استطاع أن يحصل من كارلوس الأول خلال عام ١٢٦٩م على مرسوم يحول دون ردَّة من اعتنق المسيحية (انظر Joshusa slarr فى " The Mass conuessien of Jevvs in Southern Italy ' {1290 - 1293} en : Spec- tum, XX I , 1946, PP. 203 - 211)

وهنا يتضح لنا أيضاً أن اليهود كانوا يلعبون خارج إسبانيا وظائف اجتماعية مختلفة عن تلك التى كانت لهم فى إسبانيا . ولقد تأخرت جماعة الدومنيكان الإسبانية ثلاثة قرون لتطبق فى إسبانيا ما كان سهلاً عليها تطبيقه فى الخارج

(111) «Ipsum insontem invenerimus ... Idcirco ... visis presentibus absolvatis nec deinceps ipsum proptera molestetis vel molestari ab aliis permittatis» (Baer, I, p. 188).

(١١٢) : ميلتشور دى سانتا كروث ، Floresta رقم ٦٨

(١١٣) وفى عام ١٤٧٣م م نجد أن يهود قرطبة عندما حاصرهم العامة حاولوا اللجوء إلى جبل طارق ، وكان دوق " مدينة ميدونيا " يميل إلى منحهم الإقامة فى جبل طارق وهو فى هذا يعارض وجهة نظر أصدقائه الذين كانوا يرون عدم " أهلية المسيحيين الجدد للحفاظ على أمن هذه المنطقة الكبيرة ... وأضافوا أن هؤلاء الرجال الضعاف لن يكونوا نافعين فى المهمة فهم معتادون على الخداع كما أن أغلبهم ممن كانوا يمارسون

حرفًا منحطّة مثل صانعي الأحذية أو المقرضين ... غير أن هذه الأسباب وغيرها لم تثبط من عزيمة الدوق الذى كان يصبو إلى ما سيجنبه من فائدة... الخ {ألفونسو دى بالنسيا : تاريخ إنركى الرابع (مكتوب باللاتينية) وترجمة أ . بات وملبا، الجزء الثالث ، صـ ١٣٢ - ١٣٣} .

(١١٤) كما أثرت على المهن الحرّة ، وقد كتب إيرناندو دل بولجار فى شأن التمردات التى وقعت فى طليطلة " ومن بين الأمور التى سمعت فرناندو بيرث يتحدث عنها هو أن الأسقف السيد ربابلو {دى سانتا ماريا} كتب إلى الحاكم القديم الذى أصابه المرض فى طليطلة قائلاً : " يسعدنى أنك فى مدينة بها أطباء مشهورون وعلماء طبيعة " لست أدرى هل أقول لك ذلك الآن ، لأننا نرى أن الزقاقين المشهورين (فأحد هؤلاء كان على رأس تمرد ضد المسيحيين الجدد) حلوا محل الأطباء المشهورين ، وعلى ذلك أعتقد أنكم الآن لديكم عدد كبير من الزقاقين من مثيرى الشغب بدلاً من علماء الطبيعة الممتازين" {انظر Clásices castellanes - المجلد رقم ٩٩ صـ ٢٤

(١١٥) انظر تاريخ " السيد خوان الثانى " - مكتبة المؤلفين الإسبان - الثامن والستون صـ ٦٦١ - ٦٦٢

(١١٦) تولى السيد فرمين كابا بيّرو نشر هذا النص " Conqwenes ilustres Docter Montalvo, 1873, PP. 243 y ss.. فيقوم من ابلغ أسقف قوينقة باستدعاء ماركوس جارثيا ، أى حامل الثانوية ماركيوّس،ويتهمه بأنه آثار التمرّد فى طليطلة، وأن ذلك ليس من الرجولة فىء (..) {ص ٢٥٢} .

(١١٧) ليس ذلك استنتاجا مثيرا للجدل ،فالجميع يعرف الأمر وذلك طبقًا لما تبرهن عليه هذه الطُرْفة التى يقصها لويس دى بينيدو فى " كتاب النكات " (طرائف إسبانية ، نقلها أ. بات إى مليا ،مدريد ، ١٨٩٠ صـ ٢٧٩) : قال سانشيث روخاس {ابن عم فرناندو الكاثوليكى} للملك الكاثوليكى {وهو يقص لباسا لاستخدامه فى الجبل}: أتوسل إليك يا صاحب الجلالة أن تعطينى ما بقى من هذا القماش ، فردّ عليه الملك بأنه سيفعل بكل سرور ، وفى يوم آخر قال سانشو جارثيا للملك : يا سيدى ، هل بقى شىء ؟ فرد عليه الملك : لا وحياتك ، ولا هذا - وأشار إليه بعلامة حرف O بيده على صدره (وهى العلامة التى كان من المعتاد أن يضعها اليهود على صدورهم) ، فقال له سانشودى روخس : لقد حدثنى ذلك الموريسكى بالعربية مثل ذلك الذى تعرفه جيداً . وهناك نكتة أخرى للويس بينيدو (صـ ٢٦٨) يبدو منها الإشارة إلى أن دوق ألباذو أصول يهودية . (...) .

(١١٨) استخدمه خ . أمادور دى لوس ريوس فى المجلد الثالث لكتابه تاريخ اليهود ثم نشر بعد ذلك فى " مجلة إسبانيا " العدد ١٠٥ - ١٠٦ (١٨٩٥) .

(١٩٩) نظر لندرة الطبعات فإننى أحيل القارئ إلى الموجز الذى ورد فى موسوعة دار نشرEspasa مقال : النبلاء . انظر R Hi ، السابع (١٩٠٠) صـ ٢٤٦

(١٢٠) يذكر ذلك خ أمادور دى لوس ريوس فى " دراسات عن يهود إسبانيا " عام ١٨٤٨ – طبعة بوينوس أيرس عام ١٩٤٢ ، صـ ٣٣٣ غير مطبوع ، ولا أعرف إشارات أخرى إلى تلك المخطوطة الموجودة فى المكتبة الوطنية بمدريد .

(١٢١) Jüdisch - spanische Chrestomathie , 1896, p.4

(١٢٢) ومن بين البنود التى يحرمها المرسوم الصادر عام ١٤١٢– والذى صدر بينما كان خوان الثانى حدثًا – نجد أنه لا يجوز لأية مسيحية أن تدخل الأماكن التى يقطنها اليهود والمور سواء كان ذلك ليلاً أو نهاراً " (باير – الجزء الثانى ، صـ ٦٨) .

(١٢٣) ولما لم تكن الموضوعات الأدبية أطيافًا تهيم فى الفضاء اللانهائى للقرون فإننى أشعر اليوم أننى بحاجة لمراجعة دراساتى حول مشاعر الشرف والتى نشرتها عام ١٩١٦ فى R F E على أساس أنه لم يكن فى إسبانيا مسلمون أو يهود وهذا خطأ عام وشائع .

(١٢٤) : أ . أ . نيومان The Jews in spain, II, 5 ، كما أن تلك الوثيقة موجودة فى " صلاة الجنازة " لشلومون بن أبرامهم بن أدريت الذى كان يعيش بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر .

(١٢٥) ولمزيد من السب والقذف أمام محاكم الحاخامات انظر يفومان – الجزء الثانى صـ ٨ .

(١٢٦) كتاب القوانين (السابع، ٢٤ ، ٩ ؛ ٢٥ ، ١٠) إذ يتم إدانة المسيحية التى تضاجع المسلم أو اليهودى بفقدان نصف أملاكها عند أول مرة وتسليم ذلك لوالديها ، وتفقد كل مالها عند المرة الثانية وبنفس الطريقة ، ثم يحكم عليها بالإعدام إذا ما عادت لذلك فيما بعد ، وإذا تعلق الأمر بالنساء المتزوجاتعيمكن للزوج أن يفعل بالمرأة ما يشاء بقتلها أو إطلاق سراحها .

(١٢٧) باير – الجزء الثانى – ١٣٨ ، يقدم لنا ترجمة ألمانية للأصل العبرى .

(١٢٨) انظر مارثيل باتايوّن " الشرف ومحاكم التفتيش " فى B H I ، السابع والعشرون (١٩٢٥) صـ ٥ – ١٧ . ميجيل سربيت ، يبث هرطقاته فى الخارج ويلحق العار بإسبانيا ، ولقد حاولت أسرته أن يأتى مرة ثانية إلى وطنه حتى تتمكن من تسليمه لمحاكم التفتيش .

(١٢٩) نبومان – الجزء الثانى – صـ ٢٧٨

(١٣٠) انظر " ما هو إسبانى والأيراسمية " ورد فى R F H، الثانى (١٩٤٠) صـ ١٤ وما يليها ، بخصوص التبشيرية لذلك العصر . وكانت هناك عقيدة فى المهمة التى تفوق طاقة البشر والتى أداها الملوك الكاثوليك ، والكاردينال ثيسنيروس ، كما أن هذا الأخير يحمى بدوره الراهبة خوانا دى لاكروث النبيّة التى كانت تأمل فى أن تحمل فى مخلصٍ جديد (M. Bataillen "ما هو إيراسمى وإسبانيا") وكان هناك راهب فرنسيسكانى يعتقد أنه مكلف بإنجاب نبى يتولى إنقاذ العالم وفى هذا المقام كتب للأم خوانا دى لاكروث العذراء التى لم يمسسها أحد (...) .

(١٣١) " "Clares Vasanes طبـعة Cl؟J ices Castellaues صـ ١١٩ ، وهناك مـؤرخ للدومنيكان هو الراهب إيرناندو دل كاستيوّ برفض خلال عام ١٦١٢ حقيقة Pulger(تاريخ القديس دومنجو وجماعته. صـ ٥٧٢) غير أن بولجار كان يعرف من هم معاصروه البارزون ، أما الراهب إيرناندو فقد حاول توطيد دعائم جماعته والتقليل من شأن " الوصمة " التى لحقت بالكاردينال الشهير .

(١٣٢) انظر المقدمة التى أعدها خوان دى ماتا كارياثو فى طبعة الرواية غير المنشورة لـ " تاريخ الملوك الكاثوليك " مدريد ١٩٤٣

(١٣٣) Letrasطبعة Clásices castellawes صـ ١٤٩ - ١٥٠

(١٣٤) أ .أ . نيومان . Jews in Spainالجزء الثانى صـ ١٣١ - ١٤٠

(١٣٥) Jean Regne en REJ, LII, (1906) P.xx7

(١٣٦) إن الحياة على الطريقة الشرقية هى مجرد " اعتساف " - أى عودة الوجه الآخر للعملة عندما يوجد - تنقضى وكأنها خيط مستمر انطلاقًا من نفس الفكرة الخالقة (حديث) وحتى القصة القصيرة والرواية حتى الوشاية وما هـو مثيـر للفضول (أى ظهور ما هو بالداخل) كما أن تفاصيل الحياة هى خيوط تقود إلى لغة ضبط الأسلوب الشامل ، فلا توجد أجزاء دون وجود الكل .

(١٣٧) بمعنى أن " الذى يبلغ سر العدالة عن بعض الجرائم بنية سيئة ولمصلحته الشخصية " [كنز دكوبارّ وبياس ، ١٦١١ وهى كلمة شائعة خلال القرن السابع عشر .

(١٣٨) أ . أ . نيومان The Jews in Spain , I ,PP. 128 - 132 وهنا نجد مثالاً بارزًا يبين كيفية الترابط بين العدالة الملكية وعدالة البيَع فى حالة " الواشى" . كان السيد يوسف بيتشون " رجلاً شريفًا بين اليهود وكان المحـاسب الأكـبـر للملك إنريكى [الثانى] وكان هناك بعض اليهود من كبار البيَع من الذين يرتادون البلاط ولا يكنون له مودّة ويتهمونه على زمن الملك إنريكى وأدى ذلك إلى حبسه ... وبعد ذلك إطلاق سراحه ، كما كان هو الأخر يتهم اليهود الآخرين " وأثناء الاحتفالات التى جرت لتتويج السيد خوان الأول (١٣٧٩م) طلب بعض اليهود ، من بيع الملك ، وهما السيد / زليمة والسيد زاج ، من السيد خوان رسالة توصية لتقديمها إلى حاكم المدينة ويأمره فيها بأن يقتل يهوديا " واشيًا " حدّاه " ويقولون أيضًا اعتاد قتل أى يهودى واش " وعندئذ ذهبوا إلى منزل السيد يوسف بيتشون وقتلوه . وعندما عرف الملك السيد خوان بذلك الأمر " هاله الأمر وانتابه غيظ شديد " وبناء على ذلك تم إعدام اليهود الذين شاركوا فى هذه الدراما التى تم فيها تبادل السبّاب والاتهمات ، وهذه إحدى سمات البيَع التى تكاد تختنق من كثرة ما فيها من آلام . " واعتبارًا من ذلك اليوم أمر الملك بسحب كافة الصلاحيات من اليهود لإقامة العدل عن طريق الدماء ، وهذا ما كانوا يفعلونه حتى ذلك الحين طبقًا لقوانينهم وتعاليمهم . وهذا ما تم " [تاريخ الملك السيد خوان الأول - مكتبة المؤلفين الإسبان ، الثامن والستون صـ ٦٦] .

(١٣٩) أ . أ. نيومان The Jews... الجزء الأول صـ ١٣٥، ١٤٥ . وفى نهاية القرن الرابع عشر عينت بيْعة تطيلة Tudeleلجنة مكونة من عشرين عضواً لمعاقبة من يخالفون التعاليم الدينية {باير- الجزء الأول ، صـ ٩٨٣ J. ;Yangvas" إضافات إلى قاموس نابارّة - ١٨٤٣م - صـ ١٦٦} ومما لا شك فيه وجود حالات مشابهة .

(١٤٠) تاريخ إسبانيا - الرابع والعشرون - صـ ١٧ " من المعروف أن محاكم التفتيش الإسبانية كانت لها سمات مختلفة عن مثيلاتها فى العصور الوسطى .

«The Spanish Inquisition ... is even more noted in history for its ingenious devices and severity in disciplining heretics than the papal tribunal established in 1215» (Encyclopaedia of Religion and Etbics, de J. Hastings, s. v. «Discipline», vol. IV, p. 718 b).

(١٤١) فى برغش نجد " أن أهل المدينة الذين ينتمون إلى الطبقة الدنيا أخذت أعدادهم تتناقص خلال عام ١٣٩١م لدرجة أنه خلال أسابيع قليلة أصبح الحىّ اليهودى شبه خال من السكان ، ولم يَحُل دون ذلك الخطاب الملكىّ فى السادس عشر من يوليو من نفس العام والذى يحض على التزام أقصى قدر من الاحترام والرعاية لليهود وأموالهم {لوثيانو سيرّانو : " المسيحيون الجدد: السيد بابلو دى سانتا ماريا والسيد ألفونسو القرطاجىّ " - ١٩٤٢م - صـ ٢٧} .

(١٤٢) يصف لنا السيد إيرناندو دل بولجار ما يحدث فى قشتالة خلال عام ١٤٧٣م بدقة ومرارة ، " فدوق مدينة Medina وماركيز قادس ، ودوق كابرا مع السيد ألونو دى أجيلار قد حملوا على عاتقهم تدمير أراضى الأندلس وإحلال المور فى المواضع التى هى فى حاجة إليها ...... وقد وقع على عاتق محافظة ليون تدمير النقطة الحصينة التى أطلق عليها " القنطرة " ... وفيما يتعلق بمملكتنا ، مملكة طليطلة فقد تم تكليف كل من : بدْرأرياس و المارشال فرناندو ...... والقائد ، كونت تريبنيو بالعمل على تدمير هذه الأراضى {جليقية} حتى بلدة Fuenterrabia ... فلا توجد قشتالة أخرى ، وإلا فالحرب" -(Letras, edi clásices castel-lanes, Vol,99 P.127) .

(١٤٣) ويصف لنا الأب خوشيه دى سيجوينثا الموقف الدينى فى قشتالة عام ١٤٦١م فى إطار من السخرية والتلميع المقصودين فالأرستقراطيون التابعون لجماعة القديس خيرونيمو لا يقدرون أفراد طائفة الفرنسيسكان تقديراً جيداً .

(١٤٤) انظر كتاب Amadevde las Rios بعنوان «تاريخ اليهود» (الجزء الثالث صـ ٥٨٦) .

(١٤٥) بلغت شكوك السيد البارو فى صدق المسيحيين الجدد حداً جعله لا يثق فى البارو دى قرطاجنة الرجل الذى عرض حياته للخطر لإنقاذه وقد تحدث فى هذا الأمر إلى المقرّبين إليه معبراً عن مشاعر عدم الح ، وكراهية أولئك المسحيين الجدد .

(١٤٦) انظر غ . أمادور دى لوس ريوس " تاريخ اليهود " الجزء الثالث صـ ٣٨ - ٤٣

(١٤٧) قام فرنان بيريث دى جوثمان برسم الصورة الأخلاقية للسيد بابلو دى سانتا مارياً فى كتابه " أجيال وملامح " حيث نلمح فيها العدل ونبل الأصل : فالسيد بابلو أسقف برغش كان عالمًا كبيرًا ورجلاً شجاعًا فى ميدان العلوم ، ولد فى برغش وكان عبريًا ممن ينسبون إلى جذور عريقة من أبناء تلك الأمة .. وكانت له مكانة رفيعة عند الملك إنريكى الثالث ... ونظر لرجاحة عقله كان محبوبًا من الملوك والأمراء ، وكان رصينًا يحسن النصيحة ويكتم السرّ وكلها فضائل تجعل من المرء جديرًا بمجالسة الملوك " ، ولقد كانت هذه الصفات هى المعتادة عند اليهود فى تعاملهم مع الكبار وبفضل ذلك حظوا برعايتهم منذ قرون ، وبعد ذلك ينقد بيريث دى جوثمان الرأى القائل بأن كافة المسيحيين الجدد هم أهل شرّ - وهذا ما كان يردده السيد بابلو - ويعلل ذلك باتخاذ السيد بابلو وعائلته كمثال . ويقول إنه قد تعرف على أناس طيبين من المسيحيين الجدد " مثل ذلك الأسقف وابنه المحترم السيد ألفونسو أسقف برغش وقد قاما بتأليف بعض الكتب المهمة فى اللاهوت المسيحى ، وإذا ما قال أحد الناس إنهما فعلا ذلك خوفًا من الملوك أو الكهنة أو للوصول إلى استلطاف الأمراء لهما وبالتالى الإفادة منهم فإننى أرد على هؤلاء مشيرًا إلى أن القانون والدين لا يطبقان اليوم بحذافيرهما وبالتالى فهما قد فعلا ذلك خوفًا من شىء أو أملا فى شىء " (طبعة Clasicos Castellanos صـ ٩٤ - ٩٥) . نجد أن بيريث دى جوثمان يقول بأن اعتناق آل ليفى للمسيحية كان بسبب الجبن والرغبة فى المصلحة لدى البلاط والكنيسة ، ثم يضيف برشاقة بائسة أن حالة الدين فى زمنه لا تبررّ سلوك تلك الاسرة

(١٤٨) كما كان من أسرة اعتنقت الديانة المسيحية ، لكن مسيحيته كان أفضل من الآخرين

(١٤٩) " تاريخ الملك انريكى الرابع " كتبها مساعد القس والمؤرخ دييجو إنديكيث كاستيّو - مكتبة المؤلفين الإسبان - السبعون - ١٣٠ - ٦ .

(١٥٠) وردت النصوص عند : غ . أمادور دى لوس ريوس : " تاريخ اليهود "، الجزء الثالث صـ١٤١؛ ويقول غ. رودريجيث دى كاسترو فى " الكتاب الحاخامات من الإسبان " المكتبة الإسبانية - مدريد ١٧٨١ - صـ ٣٥٤ " الأخ /الونسو دى إستيا ،رجل دين من جماعة " مينورس أوبرنانتس" (صغار المراقبين) وهو رجل علامّة وكان رئيسًا لجامعة سلمنقة ووزير المحكمة العليا للتفتيش ، وقبل اعتناقه المسيحية كان من أجلّ العلماء أو أحد اليهود العظام على زمانه .

(١٥١) كان يؤلم اسبينا ألا " يخضع يهود قشتالة للعبودية " مثل يهود فرنسا وإنجلترا

(١٥٢) :"تاريخ اليهود" الجزء الثالث صـ ١٠٦ وما يلها .لكن لايوجد فى حوزتى الآن أى من هذه الكتب

(١٥٣) موسن دييجو دى باليرا " مذكرات عدة حملات " الفصل الثانى والستون.

(١٥٤) موسن دييجو دى باليرا " مذكرات عدة حملات " الفصل الثالث والثمانون.

(١٥٥) من شبه المؤكد أن لويس بيبس هو من عائلة من المسيحيين الجدد "انظر الملحق رقم ١٠" بعنوان هل كان بيبس يهوديًا سابقًا ؟ "

(١٥٦) أ. أ. نيومان "The Jews in Spain, I, P 122 - 125"

(١٥٧) يمكن العثور على الكثير من النصوص بشأن " الوشاة " لدى باير ، الجزء الأول (انظر المراجع والحواشى الواردة فى صـ ١١٦٥) ، وكعينة على ما نقول نورد هذا المثال . فى عام ١٣٨٣ صرح بدرو الرابع ملك أرغن لبيعة مايوركا بمحاكمة الوشاة (. ..) وإذا ما تم إعدام الواشى فلابد أن تدفع البيعة للملك سبعين ريالاً ذهبيًا من أموال البيعة (باير ، الجزء الأول صـ ٥٣٨) ؛ وعلى زمن الملك السيد / مارتين (١٤٠٠م) قامت بيعة برشلونة بسداد ألف " سويلدو " Sueldo مقابل إعدام الواشى (نفس المصدر صـ ٧٦٤ ، الجزء الأول) ، وفيما يتعلق بارتكاب المعاصى (الحرمان ، herem، nitui niduy alatma aladma) انظر النصوص عند باير s.، v.، الجزء الأول ١١٦١ ؛ الجزء الثانى صـ ٥٨٧ حيث أن كلاً منHerem niduy كلمتان عبريتان ، أما لفظة aladama فهى مشتقة من dvd?nua" وتنسب إلى ميراث الهلنستى القديم القائم فى الرومانث الذى يتحدثه اليهود "طبقًا ى. مالكيل" اليهودى الأرغنى القديم حيث أن لفظة ,aldama و alalma (excomunión RFH . VIII)1946 P.136 - 141 ويمكن أن تضيف للأمثلة السابقة الكائنة فى وثائق من نابارّ ، وأرغن تلك الأخرى التالية التى توجد فى " كتاب قوانين قشتالة " طبعة جالو سانشيث صـ ٢١٧ " "etvedin[=albedin albedino العمدة أو قاضى فى الكنيس] .

(١٥٨) طبقًا لـ فرينز بايز فقد كان اسمه شيم طوب بن اسحاق ين أردوتيل ، وقد اختاره الشاعر صمويل بن يوسف ساسون ، وفى عام ١٣٤٥م ألفّ " حوارا بين القلم والمقص " وديوانين من الشعر الدينى بالعبرية ، ومن المؤسف أننا لم نر ترجمة لهذه المؤلفات حتى الآن إلى أى من اللغات الأوربية ، انظر قائمة المراجع عن ذلك والتى أوردها خ. م. ميّاس بايكروسا فى " الشعر الدينى العبرى الإسبانى " ١٩٤٠ صـ ١٥٠

(١٥٩) خ . م . بليكوا " الزهور فى الشعر الإسبانى "١٩٤٤م . وقد ضم كل الاشارات المتعلقة بالزهور خلال العصور الوسطى .

(١٦٠) أستعين فى هذا المقام بالطبعة الوحيدة المتاحة وهى الخاصة بالمجلد الثانى والخمسين (سلسلة مكتبة المؤلفين الإسبان) ، ومن الملاحظ أنه لم يقم أحد بطبع " الأمثال المواعظ " بالشكل اللائق وبالتالى فليس أمامنا إلا اللجوء إلى هذه الطبعة السيئة والغريبة ، وقد أعلن إ. جونثاليث يوبيرا فى RHI ، الحادى

والثمانون (١٩٣٣م) صـ ٤٢١ .ونأمل رؤية هذا العمل منشورًا حتى نتمكن من الحديث عن هذا الشاعر العظيم وتحت أيدينا نصٌ رائع .

(١٦١) Dove`s Neck - Ring, ترجمة نيكل صـ ٢٦

(١٦٢) ديوان الفرزدق – ترجمة بوشير صـ ١٤٣

(١٦٣) " الأغانى " Cancionero ترجمة نيكل صـ ٢٥٩ ، ٣٦٢

(١٦٤) untersuchungen üdie preverbies merales Von Santob de Carria"L. Stein, 1900, P.99. وهو هنا يقارن الفقرات السابقة بـ bocados de oro صـ ٤٠٦

(١٦٥) : (شرح للبيت الأخير وهو ما استعناً به فى الترجمة العربية – المترجم).

(١٦٦) ربما أعطى اليهودى للمسيحيين الانطباع بأنه بلغ أقصى حدود المعارف ؛ وعلى أية حال فما نعرفة عن الجوانب الثقافية المثيرة للفضول وذات الطابع الاجتماعى له علاقة باليهود . ففى عام ١٤٧٨م كان يعيش فى بلدة كويّار يهودى يدعى الحاخام صمويل وهو فيزيقى يتبع الدوق العجوز (وهو الآن يعيش فى " مدينة دل كامبو " كما أنه مسيحى ويدعى الرئيس فابديثيو) ، ولما كان فيلسوفًا عظيمًا حاز شهرة بين كل الذين يريدون تعلم الفلسفة أو تعليمها فى البيعة ، ويقول الشاهد أنه سواء كان يقرأ الفلسفة أو يعظ أو لا أو يلقى مواعظ يهودية أو لا ، فهذا أمر لا يعرفه لكن الشك هو أنه كان يريد إدراج أمر ما من قوانين اليهود ، وقد ذهب الكثير من المسيحيين إلى البيعة ليستمعوا إليه ... ووقع بمدينة كويّار ضجيج عظيم وخاصة فى دير سان فرانثيسكو فقد كان الكثير من المسيحيين يذهبون للاستماع إلى المواعظ التى يلقيها الحاخام صمويل فى البيعة ، وقد كان منهم المسيحيون الجدد والقدامى ومن بينهم تلاميذ المدارس والكثير من الخدم والسيدة ليو نور عمة الدوق وآخرون من البلاط ومن المدينة " [باير ، الجزء الثانى – صـ ٥٢٣ ، ٥٢٠] ونظرًا لضآلة المواد التوثيقية المتوفرة لدينا عن الحياة الخاصة فى قشتالة خلال العصور الوسطى فإن العثور على وثيقة مثل هذه توضح لنا بعض الشيء الجانب العام المتعلق بالنشاط الثقافى لليهود ، فالحاخام صمويل لم يكن ليتحدث بطريقة مكشوفة عن اليهودية وإلا فلم يكن ليحضر لقاءاته كبار المثقفين فى كويّار.

(١٦٧) أتذكر هنا الفقرة التى قالها ديكارت فى " خطاب المنهج

méthode: «La lecture de tous les bons livres est comme une conversation avec les plus honnêtes gens des siècles passés».

(١٦٨) bocados de oro – الترجمة المشار إليها – الجزء الثالث صـ ٣٦ – ١٣٨

(١٦٩) Canso, pago, quite, etc .Comp.

(١٧٠) الفكرة تتكرر بشكل مستمر : " اعرف الشيء / الجيد من وجهة الآخر / الجانب المرّ والجانب الحلو / الحزمة ، من الوجه الآخر "{١٦٠} " الشمس تضرب الملح / وهي في الوقت ذاته تجعله هشًا / فالطبعة الخارجية سوداء / أما الداخل فأبيض " {٦٤} .

(١٧١) Refollade, rehollido, Pisoteado : ويمكن أن يتحول التاج الملكى إلى "فرش"حذاء قديم .

(١٧٢) عادة ما تنسب المؤلفات الهزلية - خلال القرن الخامس عشر - إلى يهود اعتنقوا المسيحية فهناك " قصائد أيتها الخبازة " التى نسبت إلى خوان دى مينا، وهناك " قصائد منجو ديبولجو " لإيرناندو بولجار ، ومن المؤكد أنه صاحب التعليق المرفق بهذا العمل ، وهناك " قصائد البروبيتشيال " لبرودريجو دى كوتا إلى انطوان دى مونتورو وإلى ألونسو دى بالنسيا (أشك أنه كان يهوديًا ثم تنصّر) كما أن القصة الشهيرة فى أدب الشطار " جوثمان دى ألفاراتشى " هى عمل يهودى ، فالمؤلف هو ماثيو ألمان ، فأصوله يهودية سواء من نسب الأم أو الأب ، ونشك فى مغزى عدم وجود مؤلف معروف لقصة " لاثاريو دى تورمس " ونميل إلى الاحتمال القائل بأن المؤلف يهودى كما أن العداء لما هو اجتماعى وهو بعد نراه فى "القوادة " إنما يرجع إلى نفس الأصول.

(١٧٣) تختلف أنماط الدفاع عن الشعور بالكبرياء أو ذلك الشعور التى يوضع فيه الكبر عن أنماط الوعى والرغبة فى المجد والشهرة التى عليها المسيحى القشتالى .

(١٧٤) طبعة : Bibliófilos Espa´noles - التاسع والعشرون - صـ ١٤٦ - ١٤٨

(١٧٥) "رسائل epstolas" لموس دييجو دى باليرا - .Bibliofilas EsP السادس عشر ، صـ ٢٠٦ - ٢١٢ . قام المؤرخ الكبير للملوك الكاثوليك ولأنريكى الرابع برحلة إلى الخارج فى مهمة دبلوماسية على عهد خوان الثانى (انظر الدراسة التى نشرت حديثًا لـ خ.م. كاريّلثو كمقدمة لطبعة " مذكرات تتعلق بحملات مختلفة " ١٩٤١) وكان والدة طبيب الملك خوان الثانى وهى مهمة شديدة الارتباط باليهود سواء كان ذلك الطبيب من أصل يهودى أو لا . وتعكس لنا بعض الملامح الأسلوبية لهذا المؤلف شيئًا مما يعتمل فى صدره " لا تذكرنى بتدنى وضعى ... تدّنى وضعى ، ولا تظن أننى لا أعرف وضعى المتدنى وكذا شخص ، وأن الذى سأقوله لا يمكن أن يكون متأثرا بانحطاط وضعى {نتذكر موضوع شيم طوب} ... " {الرسائل " ص ٤ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٧ ، ٢٧} (...)

(١٧٦) : " واجبات القلب " ترجمة إدوارد فليج ، فى Antalogie Juive صـ ١١٧

(١٧٧) سلسلة مكتبة المؤلفين الإسبان - الثامن والأربعون - صـ ٣٦٣ ٩ ليس فى نيتنا أن نعزى هذا النص إلى مصدر محدد ، وهو يدور فى الفلك الإسبانى اليهودى ، ومن باب التكرار الحديث عن الثقافة العبرية التى كان عليها كيبيدو (...) .

(١٧٨) ورد فى " RFH" - الرابع (١٩٤٢) صـ ٦٣ أننى لفتُ الانتباه إلى وصية لشخص يدعى دييجو دى بيرالتا ، تحررت فى شيقوبية segovia عام ١٥٥٥م وكان لهذا الوصى ست بنات فى سن الزواج لكنه

منعهن من الزواج بأى من المسيحيين الجدد الذين ذكرهم فى الوصية ومن بينهم بدرو إيثكيردو وهو من نسل (اليمن) اليهودى الذى كان يعزف على البوق ويتقدم الصليب يوم أن صُلب المسيح " ولقد أشار مارسيل باتاليون M. Bataillon إلى تأثير اليهود فى التبشير خلال القرن السادس عشر (الأيراسمية وأسبانيا ، صـ ٦٥) ، لكن يجب أن نقوم بتوسيع دائرة هذه الفكرة الثرية والوصول بذلك إلى جذور الكدر الذى عليه النفس الإسبانية ، فالمسيحى الجديد كان يأمل الفوز بالوضع الرفيع من خلال لجوئه إلى الكنيسة والجامعة . لكن ها نحن نورد ما قيل فى المحاكمة الشهيرة التى جرت بحق جراخال ولويس دى ليون ، وهما من أساتذة سلمنقة " ولأنهما من مشاهير المسيحيين الجدد فى سلمنقة أعتقد أنهما لا يجب أن يحجبوا عقيدتنا الكاثوليكية والعودة إلى ديانتهم ولهذا أصوت على سجن فراى لويس وأن يسجن فى معتقلات الكنيسة " (م. دى لابينا يورنتى " قضا فى محاكم التفتيش procesos inquistoriales صـ ١٩) وكان جراخيل الذى ينحدر من عائلة تعمل بالتجارة قد درس فى كل من لوبَيْنا و باريس (صـ ٩٦) وهو نفس ما حدث لـ لويس بيبس L.ViVes انظر الملحق الخاص به .

(١٧٩) ذكر ذلك غ.دى م.كاريّاثو فى طبعته الخاصة بدييجو دى باليرا" مذكرات حملات مختلفة صـ ٣٤

(١٨٠) " كتاب فى الدفاع عن النساء المحموديفات "-Tratado en defensa de Vir tuases mu jeres"B.Espanoles، السادس عشر ، صـ ١٤١

(١٨١) يُنسب إلى خوان دى مينا – بناء على المنطق الحيوى وليس على المنطق العقلانى – أبوّته للفصل الأول لمسرحية " القوادة " "ففى المقال الذى كتبه حول العدالة " نشعر بنبض الروح العدوانية والفاقدة للأمل لهذا المسيحى الجديد ، وهو نفس ما نراه فى باقى مؤلفاته . فرحلة ألكسندر إلى السموات العلا (وهو موضوع مشرقى – لوثيانى) تساعده على تأمل الأرض من عَلٍ حيث " بدا له كل شيء لا قيمة له " (...) ولقد كان المسيحيون الجدد هم الذين طبعوا الزهد الوارد فى التوراة والسائد فى العصور الوسطى بالقتامة ، وحقنوا إسبانيا الفقرات التالية بالشعور بأن العالم فوضى ومحض زيف (قصص الشطار ، والزهد والهروب من الدنيا ..الخ) (...) . ولا يمكن القول بأن تلك الصور كانت شائعة وعامة للجميع وأننا نقرأ أمورًا مماثلة فى ثقافات أخرى ، فالمسألة ليست كذلك بل الأمر هو أننا نرى هنا حالة معنوية تتراكب مع الحياة الإسبانية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر . ونحن نرى أن كلا من خوان دى مينا وماثيو ألمان هما بمثابة الشقيقين التوءمين أى أنهما شخصيات من نفس سلالة فاقدى الأمل .

(١٨٢) ورد النص عند م. باتاليون فى " الأيراسمية وأسبانيا " صـ ١٩٥ . وللحيلولة دون أن يحل عليهم غضب محاكم التفتيش " أخفوا كل ما معهم من عملات وأفضل ما عندهم وأخذوا يستخدمون أطباقًا من الفخار " (...) .

(١٨٣) وسوف أتحدث فيما بعد عن الأنشودة التى ألفها المسيحى الجديد : فراى لويس دى ليون والتى تقول بعض أبياتها " حتى أتمكن من / التحررّ من هذا السجن لأصعد إلى السماء ..؟ " وهى عبارة مسيحية إلا أنها تستلهم الموضوع اللوثيانى Lucianesco والمتعلق بالهروب إلى السماء (...) .

(١٨٤) : – وثائق تتعلق بماثيـو ألمان ، ورد فى BAE، ١٩٢٣م العشـرون ، صـت ٢١٦

(١٨٥) " خطابات فى الصبر المسيحى " ١٥٩٣م ،سلسلة مكتبة المؤلفين الإسبان السابع والعشرون – ـ ٤٤٦ (...)

(١٨٦) :– وردت النصوص عند خ. م. مياس ، Vallicrosa" الشعر الدينى العبرى – الإسبانى " صـ ٢٣٨ – ٢٤٥

(١٨٧) لست أدرى هل من الممكن إعداد مختارات مسيحية من العصور الوسطى حول موضوع " الله والإنسان الباحث عنه " مثل التى أعدها خ.م. مياس باى كروسا (...)

(١٨٨) تقلل المفاهيم المسيحية التى يعتنقها سان فرانثيسكودى سالس، و دى بوسيت أو ما سيلون من زينة الحياة الدنيا لكنها لا تلغيها (...) .

(١٨٩) قال خورخى مانريكى فى مرثيته " حياتنا هى أنهار / تجرى لتصب فى البحر / وهو بحر الموت " وهنا يشعر بجريان مياه الأنهار على أنها المرور غير مجرى معين ،عبر أن هذا الجريان الهادئ أقضّ مضجع هؤلاء الذين لم يرضوا عن أى جريان يسير فى المجرى الطبيعى ،خلال القرن السادس عشر . (.. ..) .

(١٩٠) يجب أن يدخل " ديوان الأغانى لباينا " فى هذا الإطار بكل ما يتضمنه من مسيحـيين جـدد (فراى دييجو دى بلنسية) ، ومن الممكن مناقشة وتحليل الموضوعات المطروحة هناك مثلما حدث فى شعر شيم طوب ، لكن لا يمكن لى تطويل هذا العمل إلى هذه الدرجة .

(١٩١) .م. سيرّانو إى سانز y Sanz .M. S" أصول السيطرة الإسبانية فى أمريكا " – سلسلة المكتبة الجديدة للمؤلفين الإسبان – الخامس عشر صـ ٣٢ – وبمناسبة التعريف بأصدقاء كولمبس ورُعاته من أهل أرغن استطاع المؤلف أن يورد وثائق ممتازة وتحملّ المشاق فى سبيل العثور عليها فى أرشيف الثلج الأرغنى ، وفى " برتوكولات سرقسطة" وفى أرشيف " Indias العالم الجديد ، وفى أشبيلية ..الخ . ومن المعروف أن اليهود هم الذين ساعدوا كولمبس ماليًا ومعنويًا فى وقت تخلى عنه الجميع عندما كان يريد القيام بأول رحلة له.

(١٩٢) جوزية لوسيو دى أزفيدو " تاريخ المسيحيين الجدد فى البرتغال " ، ١٩٢٢م صـــ ١٨

(١٩٣) انظر خ.مندس دوس ريميدوس "J.M. dos Remedios اليهود فى البرتغال" (عام ١٨٩٥) صـ ٢١٠ – ٢٣٩

(١٩٤) خوان دى باروّس J.de Barres" عقـود " Oecádas I I, 1, 17(مندس دون ريميـديوس المصدر السابق صـ ٥٢٠

(١٩٥) ريبيرو دوس سانتوس Ribeiro dos Santos" مذكرات الأكاديمية " الثامن – صـ ١٦٦

(١٩٦) انظر جابريل فرّاند G. Ferrand "مدخل إلى علم الفلك البحرى عند العرب "- Geut hner - باريس ١٩٢٨

(١٩٧) انظر جابريل فرّاند فى " " Melanges René Basset الجزء الأول لعام ١٩٢٣م صـ ٢٠٢ - ٢٠٨ (...) .

(١٩٨) -ج لوسيو دى أزفيدو J.Lucio d`Azevedo -المصدر السابق صـ ٥٧

(١٩٩) م.سيرّانو إى سانز . المصدر السابق صـ ١٩٠ - ١٩١

الفصل الحادى عشر

"نتائج تعتمد على ما سبق عرضه"

وصل المسيحى الأيبيرى إلى مشارف القرن السادس عشر وهو على وعى كامل ببلوغه كمال وجوده ، لأنه ليس من المور أو اليهود ، وأنه تجاوز كلا الصنفين ، وهنا نجد أن شعوره بالفوقية والكفاية قد ولد واستقر بعد ثمانمائة عام من العيش بشكل لم تعرفه أوربا الغربية ، وانتشر الإسبان والبرتغاليون فى العالم ليجدوا لأنفسهم إطاراً يتسّع لوعيهم بسيادتهم ، ولم تكن الدولة ، بل الأفراد هم الذين يقومون بتلك العمليات الكبرى (غزو المكسيك و بيرو) كما أن التوسع الإسبانى غير مماثل لما جرى مع روما ، فقد كانت هذه الأخيرة تدخل الأراضى التى تم الاستيلاء عليها فى إطار مؤسسات حكومية ويَتَّحد كل من المفهوم الإمبراطورى والقانون والدين . أما فى إسبانيا فإننا نجد – منذ البداية المتعلقة بالحملات إلى ما وراء البحار – نزاعًا قائمًا حول شرعية هذه الحملات أو لا ، ودخل الملك والكنيسة والأفراد فى مناقشات ومنازعات طويلة حول حقوق كل فئة ، ولم يتم التوصل على أرض شبه الجزيرة الأيبيرية إلى وحدة موضوعية تكون بمثابة وعاء لسلطة الملوك فقد حكم فيليب الثانى شبه جزيرة أيبيريا وهى غير موحدة فيما يتعلق بمصالحه الدنيوية والمباشرة ودون إجماع وتكاتف حول الأعمال الناجمة والتقدمية وهذا ما يفسر أنه فى اللحظة التى رأينا فيها الروابط غير الظاهرية التى تربط كلاً من البرتغال وقطالونيا و ارغن بالمملكة نجدها تحاول التملص من هذه الجماعية .

فأهل شبه جزيرة أيبيريا لم يخرجوا للدنيا للقيام بتنفيذ مخططات حكومية بل ليرضوا رغباتهم وقد تمثلت تلك الأخيرة فى الطموح إلى الإثراء (البحث عن التوابل

والذهب سيرًا على النموذج الفينيسى) وكذلك فى التبشير الدينى كنوع من الردّ على الأميريالية الروحية الإسلامية ، وكذلك فى ممارسة عادة إسبانية خالصة وهى التشوق إلى السيادة بشكل لم يكن معروفًا حتى ذلك الحين ، أى الرغبة " فى رفعة الشرف " .

لم يكن هؤلاء الرجال يطمحون لزيادة قيمة الماديّات أو المعارف المتصلة بها من خلال النشاط الاقتصادى والتقنى وإعمال الفكر، فغايتهم الأساسية أن يحيطوا أنفسهم بهالة التميز الاجتماعى التى يرسمها كُل لنفسه ورجولته" فالنبلاء الذكور يجب أن يعيشوا حياتهم من حسن إلى أفضل ..وأن يعملوا على كسب المزيد من الشرف " وهذا ما كتبه برنال دياث دل كاستيو Bernal Diaz del castillo [1] وقد عكس بذلك مشاعر كل من ذهبوا إلى الحرب وإعمار الأرض ، كان الأمر هو البحث عن الموارد " أى العثور على طريقة لتحقيق ما عند المرء ، أى الوصول إلى الشرف الذى يجب أن تكون عليه السلالة المسيطرة .

وقد شعر أنطونيو دى نبريخا Antonio de Nebrija أن اللغة القشتالية (١٤٩٢م) بلغت أوجها ولا يُخشى " عليها من الضعف بل ينتظر لها الصعود "[2] ويقارن برنجا صعود نجم اللغة القشتالية بازدهار اللغة العبرية واليونانية واللاتينية من خلال نصوص الأناجيل ومن خلال " كثرة الشعراء والخطباء والفلاسفة الذين لم يملكوا ناصية اللغة فقط بل ملكوا كافة العلوم والفنون الأخرى ذات الأصول اليونانية ، وكان ذلك بفضل اللغة اللاتينية و جمالياتها : توليو Tulio وقيصر ولوكريثو وفرجيل وهوارس وأوفيديو وليبيو Livio ... كما كتب نبريخا بنغمة واثقة وجرأة واضحة يقول " إن ما قلناه عن اللغة العبرية واليونانية واللاتينية يمكننا أن نطبقه على اللغة القشتالية " ، واعتمد فى حجته على أعمال ألفونسو العالم حيث " بدأت اللغة تعبّر عن عافيتها وقوتها " ، فهناك كتاب القوانين وكتاب التاريخ العام وكذلك " الكثير من الكتب التى تم نقلها من اللاتينية والعربية " وهاتان كانتا تشكلان الميراث الثقافى الوحيد للقشتالية خلال عام ١٤٩٢م رغم أن نبريخا يقارن لغته بلغة القدماء ، ولم يكن ذلك هو السبب بل لأنها انتشرت بين أهل أرغن ونابارّة وإيطاليا " ورافقت الأمراء الذين كناّ نرسل بهم إلى تلك الممالك " ؛ إذن فعظمة اللغة لا ترجع إليها فى حد ذاتها بل إلى البنية الإمبراطورية التى تساندها

وهى وحدة إسبانيا والتوسع فى الخارج وانتصار جيوشها ، وهنا نجد أن الوعى بالسلطة السياسية يقارن بالاعتراف بالقيم العالمية التى تم التعبير عنها بالعبرية واللاتينية واليونانية ، فلقد شعر القشتاليون أن لغتهم فى القمة لأنهم السادة ولأنهم فرضوا سيادتهم على الآخرين أى أن الأسباب ترتبط بالوعى بالوجود فى إطار نمط له قيمة عالية وليس بسبب ارتفاع بعض القيم الموضوعية من خلال أعمال يمكن فصلها عمن قاموا بها ، فعظمة اللغة تكمن فى توسعها والاعتقاد فى الحاجة إلى مزيد من التوسع : " وبعد أن وضعت جلالتك العديد من الشعوب البربرية والأمم ذات اللغات المتعددة تحت إمرتك ... فبفضل هذا الفن يمكن أن يعرفوا "القشتالية ، وقد ألف نبريخا "قواعده" لأسباب قوية رغم أنها تخرج عن دائرة العلم ، إذ كان أحد الأسباب الحاسمة هو التوسع المستقبلى للغة سواء فى المكان أو السلطات ، ويحدوه فى ذلك اعتقاده وثقته المطلقة فى ملكة "تملك فى يديها أمر اللغة أكثر من سلطانها على منازلنا".

درس نبريخا فى بولونيا Bolonia على مدى عشر سنوات ، ولم يكن عالمًا فى الدراسات الإنسانية على الطريقة الإيطالية ، بل على الإسبانية ، وأخذ يسير على نمط حياة شبيه بنمطية الحياة اليهودية – الإسلامية أى أنه يرتبط بالاعتقاد فى المستقبل وليس فى بناء حاضر مؤسس على واقع ملموس ، وفيما يتعلق بالشخصية السامية الإسبانية نجدها لا تفصل بين وجودها ومعرفتها ،وبين " أنًا "يدلى بالمعارف وظروف موضوعية تحيط به ، عاش السامى فى مستقبل آماله وفى النبوءة وفى النمطية الإسلامية " الله عالم بكل شىء " وفى الخلاص وفى ما ورائية زمانية ومكانية ، وفى طريق لا يصل إلى غايات تنفصل عن النشاط الدءوب من أجلها ، ومن يبحث عن واقع حقيقى فى اللحظة الحاضرة هو بالضرورة من يبذر ثمار الأمس القابلة للإدراك والبارزة والوارفة الثمار ، حيث تبقى على الوجه الآخر لوجود المفكّر ، وعكس ذلك تمامًا نجده فيمن يربط عقيدته وآماله بالمستقبل ولا يحول الحاضر إلى إشكالية ولا يبقى وحيدًا مع نفسه فى حالة من البحث والاستقصاء الجاهل دون أن يقدم شيئًا معرفيًا أو عقائديًا ، وهنا يظهر العالم المحيط به ككل متكامل ويصبح هدفًا وغاية بالنسبة للإرادة

والأمل ، وليس من أجل التحليل الدقيق ، وفى هذه الحالة نجد الهمة تقوى وتزداد العزيمة بالدرجة التى يشعر بها المرء بثبات وجوده ولم ينفصل عنه شيء ، لتحقيق ذاته، يجعله ينفصل عن الوعى الكامل بحياتى ، وعندما تم اكتشاف نظرية فيثاغورث لم نعد فى حاجة لحياة مكتشفها، والعبارة الشهيرة " أنا أفكر إذن أنا موجود " تتطلب تلك الأخرى " تحديد ملامح الفكر فى تراكيب مطلقة وصالحة بغض النظر عن الوجود نفسه " ؛ ذلك أن التراكيب قد انفصلت عنه ، وإذا ماكانت قمة العقيدة تقود إلى الجهل فإن قمة التفكير (أو مجرد العيش بنوع من الموضوعية من خلال الأشياء والإسهامات الملموسة) يقود ذلك الصنف من الرجال إلى واقع وحيد هو المتعلق بفكره هو .

ومن يؤمن بالمستقبل - أى هذا الصنف الذى يباعده التنوير العقلى اللاحق على عصر النهضة - هو بمثابة مبدع فى " حالة إبداع " واعدة ، وقَدَرِيّة إزاء أى من الإمكانيات المتاحة دون أن يستقر على أى منها ، وربما كان لهذا الصنف من الناس شبه بالذات الإلهية (كما وردت فى التوراة) أكثر من رَجُل عصر النهضة الفخور بقدرته الذاتية والأمل فى تقليد الذّات الإلهية وإحلال نفسه محلها من خلال الأبنية الروحية الناجمة عن تفكيره وهى أبنية مطلقة وواثقة وليست فى حاجة إلى العناية الإلهية (٣) .

وهنا نجد أن الذات الإلهية فى التوراة وفى الإسلام (كما سبق أن رأينا) تصبح بمثابة فنان يشكل إبداعاته التى تتسم بأنها لا تنتهى أبداً من هذه العملية أو تكتسب صفة الكمال ، فالإنسان الذى صورته التوراة بات أكثر من مرة وكان من الضرورى إعادة صنعه وإنقاذه من وجوده السيئ من خلال مفهوم الذات الإلهية على الطريقة المسيحية ، أما الإنسان المسلم وكل ما هو موجود ، بالنسبة له ، إنما هو عملية تجريب مستمر لا تفرغ منها أصابع الذات الإلهية ، فكيانه وجوهره لا يكتملان إلا عند العودة إلى نقطة البداية ، أى عندما يعود إلى لا زمانية الخلود ، أما اليونانى ومن سار على دربه وهو العقلانى الأوربى فقد حاولوا بلوغ الحقيقة المطلقة للذات .

تحدثنا أكثر من مرة عن الطبيعة المشروطة والتطبيقية للمعرفة الإسلامية واليهودية خلال الفترة التى نحن بصددها ، وهنا نقول إن النظريات البحتة بدت لهما أمراً غريباً

اللهم إلا استثناءات قليلة [٤] ، فالمعرفة عندهم ترتبط بالحاجات الحياتية وبالدين والسلوك الأخلاقي وبالسياسة والزراعة والصناعة أى بالحاجة إلى العناية بالنفس والازدهار ، ورأينا أيضًا أن ازدهار المعارف اليهودية فى إسبانيا – قبل القرن الثالث عشر – لم يكن من عنديات اليهود بل كان مرتبطًا بالثقافة العربية ، وبعد ذلك أخذ اليهودى الإسبانى يعنى بالتقنيات والمهام التى تساعد على إبقائه فى وضع متميز مقارنة بالمسيحى المسيطر الذى أخذ يرى فى تلك المعارف أنها لا تخصه ويزدريها وهى معارف تتوفر عليها سلالة يدين لها بالفكرة القائلة بأن المستقبل فى الماورائية . والثقة فى كيان الفرد والأشياء المحيطة صالحان للإنسان فى إطاره المتكامل والجوهرى، وعلى هذه القاعدة وذاك المعتقد التقت الشعوب الثلاثة المتوجّهة نحو نفس الأفق يحدوها فى ذلك أيضًا نوع من الحّس الميتافيزيقى ، وعندئذ نجد أن الواقع هو ما سيكون وما يجب أن يكون وقد ارتبط هذا الجانب وذاك الآخر بالوجود الكامل للفرد دون فجوة أو فاصل ، فالعالم هو ذلك الذى أحمله فى اعتقادى وفى ثقتى فى نفسى ولا شىء أكثر أما واقع الحاضر فهو قابل للجدل ، وهذا لا يهم ، كما أنه قناع شفاف أو كثيف يخفى الماورائية [٥] .

ويكتمل المعنى الذى تضمنته الفقرة السابقة إذا ما طبقنا على الإسلام وعلى إسبانيا ما يقول به كل من فون سودن Von Soden والزبيرى Zubiri عن الشعب العبرى ، والصفحات السابقة تجعل ذلك التطبيق ضروريًا ، فالمسيحية الإسبانية - مثلما ظهرت عليه خلال الفترة التى أعقبت طرد اليهود وتمثّل الكثير من أفكارهم - مليئة بالأصداء العبرية أكثر من المفاهيم الدينية الأوربية ، ففلسفة الحشر فى المسرح الإسبانى – على سبيل المثال - تضرب بجذورها فى السامية مثل الصور البلاغية فى الشعر ومنها على سبيل المثال دون جوان والأنديكو Enrico فى Condenado por des cenfiado؛ إلى غير ذلك من مئات الظواهر الأخرى التى سرعان ما تطفو على السطح عندا تقرر النظر إليها تحت الأضواء المناسبة ، نحن فى عالم يكمن فيه تحسّن القيم إذا ما حدث ، فى " بلوغ القمة advenimiento وليس من خلال التطوّر أو " الصيرورة " "devenir" فليس فيها ما يتفق مع المصطلح الفرنسى devenir أو الألمانى werdon..

الخ ، والأمر هو أن واقع عالم الإسباني قد بني على أفكار مختلفة ، فالشيء يمكن " أن يتحول " إلى هذا أو ذاك ، لكنه لا يتطوّر أو يدخل في دائرة الصيرورة على غرار أفكار الإنسان ، فالحاضر هو إبداع الماضي وليس العكس ، وهذا ما حدث في الإيمان التطوّري خلال القرن التاسع عشر ، ومن يبحث في باب التطور الدلالي للمصطلحين Volverse، hacerse سوف يتأكد من هذه الطريقة في النظر إلى المعنى الخاص بكل واحد منها .

لننظر الآن إلى الوراء ، فنرى أن من بدءوا حرب الاسترداد - الجليقيين والأستوريين وأهالي كانتابريا والناباريين والأرغنيين وأهالي جبال البرانس - يفتقرون إلى مرشدين يوضحون لهم معالم الطريق ، فلم يكن هناك جامع مشترك إلا الهجوم على المسلمين في الجنوب ، ورغم هذا كانت الخلافات تقض مضجع تلك الوحدة ، وأصبحوا بعيدين عن مراكز المعرفة التقليدية سواء في إسبانيا (طليطلة وقيصر أو جوست وأشبيلية) أو في الخارج (إيرلندا وإنجلترا وبيزنطة .. الخ) وأخذ الإسباني المسيحي ابن القرون الثامن والتاسع والعاشر يبني حياته في طريق لا يقدم له إلا الضعف المؤقت والتفوق المستمر في الأراضي التابعة للمسلمين ، يثق في وجود الدار الآخرة وفي إمكانية استيلائه على ثروات المور الأمر الذي جعله يتجه نحو الحدود غير المستقرة وقد أسهمت هذه في تحديد ملامح تصرفاته وصهر وتشكيل عزيمته كمحارب وقد قضى في هذه الحالة ثلاثمائة عام وهي أعوام طويلة ، إنه يعيش على أمل على الأرض المجاورة حتى يكون فيها الغير ، كما كان يعيش وهو واثق أن القديس سانتياجو والقديس سان ميآن يجعلانه يشعر بالقوة والسيادة والثقافة وعلى قدم وساق بالمقارنة بعدوه الذي تكمن عزيمته في " إرادة الله "وفي " آمين " التي عليها اليهود .

ومما يدلل على عدم الارتباط بالحاضر هو عدم وجود عاصمة تكون بمثابة مركز ثابت لجميع المسيحيين ، فأنماط الحياة تنفتح على اللا أمان بالنسبة للمستقبل ولو تكن تنشب أظفارها في اليقين المتعلق ببناء الحاضر ، ولقد بدأت العقلانية الفرنسية مسيرتها منذ أن ثبتت عاصمتها (باريس) أما البلاط الإسباني فقد كان أكثر من واحد واتسمت كلها بعدم الاستقرار حتى عام ١٥٦٠م ، إذن تغلبت روح الترحال

والوصول إلى مناطق الحدود على هؤلاء الذين كرسوا حياتهم من أجل الدار الآخرة حتى عاشوا فى ظلها وهم على أرض المعسكر الخاصة بتاريخهم ، وهم يصارعون الجار الآخر سواء كان مسلمًا أو مسيحيًا ، ولقد عاش المحارب الذى تولى مهمة استرداد الأرض مرتبطًا بنداء القتال وبما يدفعه نحو آفاق جديدة وبعيدة (٦) أما الأمر الثابت عنده والذى لا يقبل التغيير فهو الإحساس بأنه شخص وذات تكمن فيه نقطة الانطلاق نحو مهمة محددة ، أى الاقتناع بأنه يعيش من أجل شىء محدد ، فقد جاء إلى الحياة وهو على يقين بأن كيانه هو ما يجب أن يكون ، أما باقى الأمور فهى مسألة وقت وثقة ، وهو نفس ما كان ابن النبيل يأمل الوصول إليه عندما يبلغ سنًا تمكنه من حمل السلاح ، إذن فأساس الوجود الإسبانى هو أنه مكرّس لشىء ما ، ولإضفاء قيمة كبرى على الوجود يكفى الصعود إلى مركب القدر المتوجهة إلى ما ورائية مفتوحة " رزقك الله الحظ ولست فى حاجة إلى المعرفة " ، وهنا يكمن ثبات المشاعر الشخصية والديمقراطية الشعبية لأهل إسبانيا ، وهى شعبية قائمة على دستور غير مكتوب وبالتالى يستعصى على تدخل الأفكار العقلية ، فالديمقراطية الإسبانية تمثل الجانب الآخر المناقض للديمقراطية القائمة على " حقوق الإنسان " وهذا أمر يدخل إلى حياة الإنسان أو رأسه .

ومن باب التكرار القول بأن محتويات التاريخ الإسبانى لم تكن تلك الخاصة بشعب إسرائيل رغم أننا لا ننفى أن البحث عن الحقيقة – بالنسبة لليهود والإسبان - كان ممكنًا وفاعلاً فقط عندما يتعلق بالفرد ، وبوعيه وسلوكياته فى الحياة :كما أن الطب اليهودى كان يركز اهتمامه على الطب الوقائى وليس على علاج آلام الحاضر ومعرفة اليهود بالنجوم والفَلَكَ لم يكن هدفها تبيان حقيقة الكون بل التكهن بتأثيرها فى حياة الناس ، وقد قام الإسبان بتنفيذ بعض الأعمال الجبارة و الرائعة فى البلاد التى اكتشفوها واستعمروها بغية تشريف عقيدتهم وتشريفًا لأنفسهم كأبناء الله وأبناء أشراف بالسليقة ، وتركوا للآخرين مهمة اكتشاف السمات الفيزيقية والكيماوية للكوكايين والكينين الأمريكى ، أو زراعة البطاطس فتلك ممهم لا يعنى بها من جعل الخلود مقصده .

وإذا ما كان القرن السادس عشر على هذا النحو ، فهو محصلة نُدْرة (ولا نقول العدم) الفكر الدينى والعلمى فى صفوف الإسبان المسيحيين خلال العصور الوسطى [٧] .

أما من لم يختفوا فهم الذين قاموا بدور الدعاية الدينية مثل القديس دومنجو دى جوثمان وسان بينت فيدّيو اللذين كان هدفهما القضاء على المسلمين واليهود ، والدخول فى ملف مع شعب نهمٍ للاستيلاء على ثروات ومقدرات العبريين ، وقد عاش الملوك والنبلاء وهم محاطون بالعامة والرهبان طوال قرنين من الزمان ، وفى النهاية انتصر هؤلاء ، وأصبح لدينا الهمة الفردية والوعى الثابت بالوجود وهما من القيم التى ظلت باقية مع نهاية القرن الخامس عشر ، لكن لولا الثروات الأمريكية لما تمكنت إسبانيا من الإبقاء على إمبراطوريتها فى أوربا أو تأكيد ذاتها على أنها أمة تملك زمام نفسها .

سلالات أكثر منها طبقات:

لم يتم تقدير المساعدة اليهودية ، فقد كان اليهودى يعيش ويقوم بدور الوسيط بين المور والمسيحيين وبالتالى يطلع علينا بملحمة غربية يستحيل توفرها فى المسلم ، فهو يتقن اللغات ودءوب ولا يسكن فى مكان واحد ومتأهب دائمًا ولهذا توطدت صلاته العرقية بالمسيحى أكثر من المور بالرغم من القوانين والمذابح التى جاءت بعد ذلك ، إلا أن تخصصه فى بعض الأنشطة التى لم يبلغها المسيحى فضلاً عن ازدرائه لها حَوّلّه إلى سلالة ذلك أن اعتقاده الدينى المختلف حال دون وجود صلة عضوية وتدريجية بين هذه الأنشطة وما يقوم به المسيحيون ، الذين شكلوا سلالة أخرى وليس طبقة ، وقد أدى التسامح الذى كان سائدًا فى العصور الوسطى أو ما أطلق عليه بالتعايش بين الأديان الثلاثة إلى الحيلولة دون استمرار النظام الإقطاعى التدرجّى السائد فى أوربا والمكون من طبقة الفلاحين والصناع والنبلاء ورجال الدين ، فلقد انقسمت إسبانيا إلى ثلاث درجات كل واحدة مستقلة عن الأخرى وهنا ندرك السّر فى غيبة المجتمع الإقطاعى [٨] وإذا ما رأينا سابقًا أنه – حتى القرن الرابع عشر – كان هناك بعض

المور وبعض اليهود الذين لهم حصونهم المخولة لهم من قبل الملك ، فأى مجتمع جيد التركيب يقوم على تلك القاعدة ؟

ولم يكن وجود فرسان يهود فى أرغن أو قادة من المور واليهود فى حصون قشتالة هو الذى حال دون قيام مجتمع إقطاعى فى إسبانيا بل لأن تلك الوقائع هى أحد جوانب شكل الحياة الذى يعتمد على العقيدة وليس على الفكر الموضوعى ، ولقد تطورت فكرة السلالة لدى المسيحى بنفس درجة اقتناعه بعقيدته وتحديدها لنمط حياته ووظائفه الاجتماعية فالتسامح والتآلف المؤقت بين الأديان يتسق جيداً مع ما بدأ به الإسبانى المسيحى حياته ممتطياً صهوة جواد العقيدة وهو جواد سانتياجو (ولقد بدأ الفرنجة مشوار حياتهم بتحديد وظائف كل من البابا والإمبراطور وتحديد السلطات الربانية التى عليها ملوك فرنسا فى المستقبل) . إننا نلح كثيراً على ضرورة عدم الخلط بين المفهوم الحالى للتسامح مع ذلك الآخر الذى كان عليه الإسبان المسيحيون وألا نطبق على ظاهرة تاريخية المفهوم والدرجة المتعلقة بظاهرة أخرى ، فليس سواء أن يكون لملك مسيحى قشتالى وزير مالية يهودى ، وأن يكون هناك وزراء يهود فى بعض البلدان فى الوقت الحالى ، فهذه الدول لا تؤسس حياتها على الاعتقاد فى الأديان بل على قواعد منطقية تتحول إلى استخدامات سياسية وتكون بمثابة القاعدة للمؤمنين وغير المؤمنين بالعالم الآخر ، إذ يحتل المواطن اليُوم كل المكانة التى كانت للمؤمن بالأمس ، والمواطنة تسير على مفهوم يتعلق بالفلسفة السياسية خلال القرن الثامن عشر وهذا ما لم يكن موجودا فى العصور الوسطى ، فلقد كان هناك موظفون يهود فى الحواشى الملكية أثناء العصور الوسطى وكان ذلك نوعًا من تقليد ما هو موجود فى العقيدة الإسلامية التى تقبل بوجود تعددية فى المعتقدات كنوع من التعبير عن الإرادة الإلهية ، وصاغ المسيحيون هذا المبدأ أيضًا فى قوانينهم وطبقوه فى حياتهم ونقضوه فى الوقت ذاته بمجموعة من القوانين (٩) ؛ إذن كانت الحياة المسيحية هجينًا ولدّته عادة غير مستقرة وإرادة قانونية عقيمة تماماً . ومما لا شك فيه أن هذا التناقض هو نوع من اللاعقلانية غير أنه لما عاشت الممالك المسيحية على هذا النحو طوال خمسة قرون فمن السذاجة أن نتوقف عند التوصيف السهل ، ولا بد من التفكير فى أن نمط الحياة تمثل فى التزام

قدرى بين عقيدتين ، أى بين الاعتقاد فى أن اليهودى قاتل المسيح وأن القبول بوجوده أمر مشروع ؛ فالكنيس اليهودى هو بيت الله طبقا لكتاب " القوانين " .

وفى الوقت نفسه تحوّل اليهودى إلى مملوك للملك ذلك أن العقيدة المسيحية أعلى من عقيدة اليهودى ، فلقد آمن المسيحى أنه أعلى ، وليس ذلك على أساس المبادئ المتعلقة بمفاهيم النبلاء الاقطاعيين ، أو (بمقولة أخرى) وهى الاقتناع بأنه يفعل مالا يعرفه الدهماء أو يقدرون عليه ، وإنما يرجع إلى الإيمان بأن المرء على عقيدة أفضل ، ومن هنا ينمو الاعتقاد بالسلالة أكثر من فكرة الطبقة فالطبقة الاجتماعية تَحدد دورها الموضوعى ودرجتها من خلال طبيعة وظيفتها ، أما السلالة فتضم ذلك فى دائرة الوعى بوجودها . وانتهى الأمر بالإسبان المسيحيين إلى الاعتقاد بأنهم سلالة أعلى وأرقى لأنهم مسيحيون وليسوا من المور أو اليهود ، وبالتالى أصبح نمط حياتهم اليومية بمثابة القاسم المشترك الحيوى للمور واليهود والمسيحيين .

والثراء التفسيرى لهذا المنظور الذى وضعناه لتأمل الظواهر الخاصة بنا يعتبر غير عادى فالسلالتان المحكومتان لم تكن تربطهما بالسلالة الأعلى القيم التى تبدعها وتخلقها ، فحصيلة العمل اليدوى والفنى والتجارى والصناعى والعلمى .. الخ تولد منقوصة لأنها جاءت من يد سلالة أدنى ، حقًا لقد كانت هذه الأمور تخدم للوفاء بحاجات محددة لكنها لم تتحول إلى قاعدة لقيم اجتماعية لها دورها المحدد فى المجتمع، كانت السلعة جيدة لكنها لم تتحول إلى طبقة اجتماعية لها شرعيتها ، ولم يتم تقديرها على أساس ما تقدمه [١٠] ؛ ولم يكن إنتاج الثروة آنذاك علامة على القيمة فى نظر السلالة المسيحية ، وهو ناتج هى فى حاجة إليه كما تزدريه ، ولو كان الأمر غير ذلك لكانت قد ضاعت معالم السلالة وتسربت سلالات غير المؤمنين إلى سلالة السادة وأحدثت بها أضرارًا تؤثر على وجودها كسلالة ، وكان من الضرورى تنوع المهام الاجتماعية ولم يكن ذلك بناء على قيمتها الموضوعية بل كان مرتبطًا بالسلالة التى تنتج تلك المهام ، فالمور يمارسون مهن : البناء والعريفّ والبغاّل وصانع الأحذية ...الخ كما مارس اليهود وظائف أخرى هى : جابى الضرائب والطبيب والبيطرى والتاجر ورجل الفلك .. إلى غير ذلك من المهن التى نعرفها ، كما كان المسيحى كل ذلك ولكن بدرجة

أقل ذلك أن غايته هى أن يكون شريفًا أو رجل دين ، وبقيت الطبقة الشعبية المسيحية خارج هذا الإطار وتعرضت لاعتصار النبلاء لها ومعهم رجال الدين اليهود ، وأثمرت الطموحات التى تولدت فى هذه الطبقة والمتعلقة بالوصول إلى درجة الشرف من خلال الجهد الحربى وفعل ما فى وسعها للانضمام إلى السلالة الحاكمة والمتسيِّدة (١١)، وهنا نفهم المغزى العميق الذى يشير إليه تعبير " إما البلاط ، وإما الأبعدية" O certe o cer-tijo أو تلك العبارة الأخرى " الكنيسة " أو البحر أو البلاط " كان الجميع يطمحون أن يكونوا حراس العقيدة وأن يقوموا بالمغامرة التى تقود إلى السيادة أو التمتع بوظيفة حكومية وأن يستقر فى مخيلة الموظف أنه شريف وليس من الدهماء . ولا يمكن تفسير الهوس بدرجة الشريف – أيًا كانت المتاعب الناجمة عنها وأيا كانت الانتقادات التى يوجهها الإسبان إليها – على أنها الأثر المباشر للغطرسة وعدم الرغبة فى العمل ، ورغم هذا فمن المفهوم أن وجود تلك الظاهرة فى مجتمع أوربى مدعاة للحيرة ، فالشرف لم يكن ثمرة مهجنة من الجهل والخيال بل ثمرة العيش على مدى قرون عديدة تحت ظل العقيدة والجهد . وهنا نجد أن مفهوم السلالة – أى سلالة الأشراف – يولد أمام ناظرينا .

أما الوضع المتعلق بالإسبانى العبرى الذى تحصَّن فى عقيدته فهو وضع مشابه للسابق حيويًا لكنه معكوس ؛ إذ يعتمد أساس وجوده على الدين ، وهو نفس ما يحدث بالنسبة للإسبان من المور ، ولا يمكن لأى التنازل عن ذلك إلا إذا كان مهددًا بالفناء . هناك حياة النبل ، والحياة التقنية والحياة العمالية : فقد وجدت هذه الأصناف الثلاثة فى إسبانيا بدرجة رفيعة ، ولم تكن هناك أسباب – من الناحية النظرية – حتى لا تتولد عنها أمة عادية ، غير أن ما نطلق عليه الحياة الإنسانية له قوانينه التى يوجد فيها عناصر وبُنى تؤثر إحداها فى الأخرى ، فما كانت تنتجه كل واحدة من هذه السلالات الثلاث لم تكن تقبله الأخريات ، أما العناصر الشخصية والمتعلقة بالوعى الإيمانى لدى كل واحدة منها فقد تم تبادلها بين تلك الأرواح المتعادية، فلقد عاش اليهودى تلح عليه مفاهيم النبل وترك المسيحى نفسه فى يد محاكم التفتيش ومفاهيم الدفاع عن النفس من خلال تطبيقه مبدأ طهارة الدم ووصل به الأمر إلى ابتكار الدرجة التاريخية المتهورة " المسيحى القديم " كنقيض " للمسيحى الجديد " المنحدر من المور واليهود .

أصبح الإسبانى المسيحى إنسانًا يعتد به بفضّل المنّ والسلوى الذى جاء من وراء الاعتقاد فى سانتياجو وأخذ يكسب أرضًا بفضل جهده الحربى الذى لم يكن يعرفه اليهود ،وعندما انتصر وجدنا أن أفضل أفراده وجدوا فى اتخاذ موقف المسيطر الطريقة الوحيدة للشعور بالرفعة بالمقارنة باليهود والمور الذين مارسوا أنشطة (العمل والتقنية والعلوم) تم الربط بينها وبين ما عليه من يمارسونها من هزيمة وإذلال ، وقد اعتاد المسيحى الاستغناء عن الاتصال بالماديات وضرورة تعديلها فلم تكن تلك المفاهيم تدخل فى إطار نمطية حياته كما لم تتطلبها غاياته الكبرى فى غزو الأراضى وتنظيم دولته ؛ وفى سبيل تلك المهمة نجده يسهم بالجرأة والإقدام الرفيعين ، أما باقى الأمور فقد وقعت على عاتق القديس سانتياجو والرهبان الفرنسيين وأهالى جنوة الذين قاموا بصناعة السفن وعلى المور الذين قاموا ببناء المنازل والحصون وعلى اليهود الذين كانوا يجيدون بعض الحرف ومداواة الأمراض والحصول على الأموال اللازمة للحصول على الأمور الضرورية للملوك والسادة ورجال الدين و " الناس الطيبين " الذين يسكنون المدن، كما أن الحاجة الماسة إلى الأموال هى التى تمثل ظهور اليهودى فى كل مكان فى كواليس التاريخ ، كما أن الميل والهوس (الذى جاء بعد ذلك) بالمعادن الثمينة القادمة من أمريكا لا يرجع إلى تطبيق أى نظرية اقتصادية : فلقد كان الجانب الذى تم إنتاجه خلال القرن السادس عشر بناء على الحصول على الأشياء ، المستحيل إبداعها بوسائل غير مباشرة ، ابتداء من الإبرة وحتى المنسوجات غالية الثمن ، فالأفراد يبرزون كنصب عالية تقوم على صحراء شاسعة من الوقائع الملموسة والمفيدة التى لازالت إسبانيا – والعالم المتحدث بالإسبانية معها – تقوم باستيرادها حتى عصرنا الحاضر .

ومن جهة أخرى نلفت الانتباه مرة أخرى إلى أن تاريخ إسبانيا قد ظهر فى المناطق الأقل رومانية وكثافة سكانية فى شبه جزيرة أيبيريا ، ولا تكفى هنا رؤية هذه الظاهرة بل يجب أن ندرجها فى السياق الحياتى التالى الذى لا يقوم على أشبيلية أو طليطلة أو قيصر أو جوست Caesar August(كاثيرس) أو تراّكو Tarraco بل على جليقية وكانتابريا والبرانس الأرغنى ، ولنتصور هزة زلزالية تؤثر على الولايات المتحدة

والأرجنتين لدرجة يبدأ معها التاريخ من جديد فى نيفادا أو أوتاه utah أو أركانساس ولا يبدأ فى الشرق أو فى شيكاغو أو كاليفورنيا ، أو يبدأ التاريخ فى جوجوى Jujuy وفى شاكو Chaco وفى نيوكين Neuquén وليس فى بوينوس أيرس أو فى روساريو Rosario . وتجدر الإشارة إلى أن المقارنة ليست دقيقة لكنها تعكس شيئًا مما نفكر فيه . ونتاجا لهذه الهزة تهدّم السياق الرومانى الجرمانى لإسبانيا وقام على أنقاضه - ذات القيمة -- الوعى بالشخصية الإسبانية التى عبرت عن نفسها لأول مرة من خلال القصيدة الملحمية (١٢) ومحصلة هذه الظروف - على المدى الطويل - هى حضارة من أبرز وأعظم الحضارات فى أوربا وحياة مليئة بالمشاكل والكدر ، وقد أخذت هذه العناصر أبعادًا عالمية من خلال صَبّها فى قوالب فنية وأخلاقية .

وهنا نجد التاريخ يصبح ذا مغزى ويفسّر نفسه ، والسلام بالنسبة للمسيحى الإسبانى لم يكن منتجًا أبدًا ، ومن هنا تأتى كتابات خوان دى لوثينا J. de Lucena عام ١٤٦٣م " المنزل بلا جلبة عندما تذهب الخنازير إلى الجبل ... يالها من أمجاد ملكية وشهرة البلاط ويالَه من تاج إسبانى حيث تعاونت الكنيسة معه للوقوف ضد غرناطة ، وأن يذهب الفرسان فى رفقة الملك إلى أفريقيا !... والثروة الكبرى من نماء المكعبات أكثر من الكنوز " (١٣) ، فقد كان الإسبانى يشعر وهو فى داره أنه لا يفعل شيئًا وكان يثير القلق فى أنحاء المملكة ، وبعد غزو غرناطة نجد العلاّمة خوان خنيس J. Ginés يشعر بالخطر لعدم وجود مهمة مناسبة للإسبانى :

> يرى الفلاسفة أن الطبيعة زودت الناس بنوع من النار الداخلية لإذكاء الفضيلة عندهم ، وهذه النيران إذا لم تتم الإفادة منها يخبو أوارها وأحيانًا ما تنطفئ ، ولهذا فأحيانًا ما يواتينى الشك فى أنه كان من الأفضل بقاء واستمرار مملكة غرناطة بدلاً من الغرق بالكامل ، وإذا ما كان حقيقيًا بسط نفوذ المملكة واتساع حدودها وتمكننا من الإلقاء بالعدو وراء البحر فإننا حرمنا الإسبان من فرصة ممارسة قدراتهم وحطمنا الباعث

العظيم لانتصاراتهم ، ومن هنا كانت خشيتى بعض الشىء فى أن يؤدى الأمان والدعة إلى ضعف القيم" (١٤) .

وعلى أساس ذلك يتضح أن المهم الحربية على عهد كارلوس الخامس لم تكن كافية عند سبيولبيدا Sepúlueda ، وهذه الفكرة التى نستغربها لأول وهلة ، لم تكن مجرد خاطرة معزولة ذلك أننى أعود للعثور عليها عند فراى ألونسو دى كابريرا A lon-so de cabrera واعظ فيليب الثانى :

"لقد عبر أجدادنا عن أسفهم أن غرناطة قد تم الاستيلاء عليها من المور فبعد هذا اليوم أصبحت الخيول عرجاء واعتلى الصدأ السيوف والحراب وتآكلت الدرقات وانتهت الفروسية المتميزة فى الأندلس وقصر الشباب بعد إقدامهم وجرأتهم المعهودة" (١٥) .

ولقد كانت إسبانيا على وعى كامل بأن وجودها يكمن فى التشكّل والتفكك ، وهذه حالة فريدة فى تاريخ شعب من الشعوب ، وكان الملك فرناندو الكاثوليكى يعرف شعبه جيداً ، ولذلك طرح أمامه مهمة القتال والسيادة التى يطمح إليها ولم يكن قادراً على تنفيذ غيرها ، وحانت بعد ذلك المهم الكبرى فى أمريكا وأوربا ، ولم تشعر الأمة بالثراء أو الرضا عن تلك المهم ، وهذا ما قاله لنا البعض مثل سيبوبيدا والأب كابريرا وثربانتس .. وهم من الشهود المتميزين ، ورفض كيبيدو بعد ذلك غزو أمريكا ، كما سنجد أن جراثيان Graci?n يشعر بأنه وسط عالم كله خواء مثلما هو الحال بالنسبة للزهّاد ومؤلفى روايات الشطّار ، ومسرح كالديرون Calderon ، فكيف حدث ذلك ؟

وربما كانت فكرتى المتعلقة بالسلالات – دون وجود أسباب موضوعية – تفسر ما نقول ، فقد ظنت السلالة الحاكمة أن بإمكانها العيش وحيدة ومرتبطة بمعتقداتها وشعورها بأنها الأعلى ، كما لاحظت الفراغ الذى لا مناص منه والذى وقعت فيه عندما حاولت الخروج من تقوقعها ، فلا شىء يوجد حولها فالواقع أصبح صامتًا وقاصراً عندما خلا من إعْمال الفكر والعمل ، وتمسك الإسبانى بهالة معتقداته ووثق بنفسه

ورغب فى التعبير عن مكنون روحه وهنا انطلق فى الكون ليملأه بأصداء بطولاته وليملأه بالجمال من خلال الكلمات والألوان والأشكال المعمارية ،ولم يحدثنا تاريخ أى أمة من الأمم قبل القرن السادس عشر عن ظهور هذا العدد الهائل من الأبطال والقادة الذين يصارعون كبريات العقبات الطبيعية ويكسبون المعركة دوما ، ومن هؤلاء يبرز كورتيس وبيثارّو ، وبالبوا ، وماجلان ، كابيثا دى باكا ، ودون خوان دى استوريا وفاسكو دى جاما ، وآلاف غيرهم نعرفهم ولا نشعر بالمفاجأة والاستغراب ، وقد قام هؤلاء وكثير من الرهبان الذين توفروا على طاقة ضخمة ، أنارت طريقها مشاعل العقيدة ، بإفناء أرواحهم فى سبيل تكامل الذات والذى كان يرنّ صداه فى عمق الضمير ، وأمام المبدأ الموروث عن اليونان والقائل بأن الواقع " هو كما هو " قال الإسبانى بأن الواقع ما يشعر هو به ويؤمن به ويتصوره ، وتوارى الخوف عنده فاستقر فى إيطاليا وصار من نصر إلى نصر فى أوربا أو على قمم جبال الإنديز (١٦) وبدون الخوف والمفاجأة كان من الممكن مواءمة كل شىء طبقًا للخيال الذى يمكن تحقيقه فقد بدا دخول رجال إيرنان كورتيس مظفرين إلى المكسيك ، كإحدى جولات أماديس أو شىء من السحر ، فالواقع كان لعبة بسيطة تراها على يد أصدقائنا أو أعدائنا من السّحرة وهذا ما تعلمه الإسبان من جيرانهم المسلمين .

فالإرادة والعزيمة والخيال تملأ المكان بنوع من التأمل بشأن الواقع الملموس فى هذه الدنيا ، وأسهمت فى إبداع نمط حياتى لا يمكن وصفه بالبدائية والتخلف وعدم السير على المناهج العلمية .. الخ ، ذلك أن هذا النمط قد تشكل طبقًا لسلّم قيم تصاعدية وعلى وعى بمخاطرها .

نمط الحياة الإسبانية : تكامل الفرد وغيبة الفكر الموضوعي

عادة ما يتم الحكم على الحياة الإسبانية انطلاقًا من المبدأ القائل بأن أكثر الأنماط تكاملاً فى الحضارة الغربية كانت هى الهدف الأعلى الذى يجب أن تتوجه إليه كل شعوب الأرض ، وهنا يتم النظر لكافة المجموعات الإنسانية ، التى لا تدخل بالكامل

فى دائرة الحضارة التى بدأت فى اليونان وتقولبت سياسيًا فى روما ووصلت إلى ذروتها من خلال الاكتشافات الفيزيائية الرائعة ، على أنها أمم متخلفة وبدائية وفى طور الطفولة أو بعيدة عن مسار الأمم المتقدمة . ومن يؤمنون بفاعلية هذا النمط الحياتى يرون أن الشعوب " المتخلفة " - بالمقارنة بما هم عليه - تعيش فى منطقة أعراف فى انتظار تَلَقّى نور الرسالة الجديدة مثلما فعل الوثنيون (طبقًا لمفاهيم العصور الوسطى) الذين أخذوا يعدون الأيام والليالى على أمل أن تصلهم الحقيقة على يد المسيح . وقد حل الإيمان بالتقدّم محل الفكرة المسيحية ، حدث هذا خلال القرن الثامن عشر ، وهؤلاء الذين لا يعرفون علوم الرياضيات واللغة الفرنسية والتحليل العقلانى للعالم وسلوكيات الصالونات الباريسية هم أناس ينتظرون لحظة خلاصهم والأمريكى الشمالى يشعر اليوم بأن هؤلاء الناس - الذين لا يتوفر لديهم تنظيم اجتماعى مشابه لنظامه - غير مكتملين وغرباء مهما كانت درجة " تحضرهم " التى يظنون أنفسهم عليها ، كما يشعر الروسى السوفيتى - بدوره - بأن الأمم التى ليست بها نظام بروليتارى لم تبلغ إنسانيتها الكاملة بعد . وقد كانت إسبانيا كارلوس الخامس تطمح فى ضَمّ أرجاء الكون تحت عباءة إيمانها الثيوقراطى النبيل، وبناء على ذلك اتسمت بالغطرسة التى لا تقل عن تلك التى عاشها البريطانيون خلال القرن التاسع عشر وهذه المفاهيم democentricos (وليس egocentricos حب الذات) تشير إلى أن الشعوب التى تعتنقها وتؤمن بها على وعى ثابت بقيمها ، إلا أنها تشكل فى الوقت ذاته عقبة خطيرة عندما نحاول التعرف على السمات الخاصة لشعب غريب الأطوار ، ولا تتوفر لديه ظاهريًا قيم ملموسة ومحسوبة فى عالم المنتصرين ، وهذا الانغلاق هو الذى تعيشه أية مجموعة إنسانية لها قيمها ، والذى لا يريد أن يفهم أنماطًا حياتية مختلفة ، وكذلك عدم قدرتها على التزام الموضوعية عندما يتحدث المؤرخ عن وطنه ، وكل هذا عادة ما يكون مصحوبًا بصبغة قروية عند الحديث عن التاريخ القومى لكل بلد بما فى ذلك تاريخ أكثر الأمم شهرة ، كالشعوب التى أسهمت فى إبداع واقع إنسانى عظيم يعيش فى حالة حرب نراها فى المقولة الشائعة إزاء الأجنبى " فلان رجل ظريف ، ولا يبدو إسبانيًا ، أو فرنسيًا ، أو ألمانيا ، أو إيطاليا أو أمريكيا " ، وهنا نصطدم بإحدى العوائق المتعلقة بالطبيعة الإنسانية الفقيرة وهى طبيعة تحاول اللجان

العالمية تفاديها بطريقة ساذجة من خلال محاولتها تأليف كتب تاريخ " دون أحكام مسبقة " وقادرة على إحداث وفاق بين سكان القرى الأرضية ، وسيراً على مقولة السيد / فرنثيسكو خينر "F. Giner" فنحن أشد قرباً الآن من منطقة الكهف التى ترجع إلى ما قبل التاريخ ، ومن يدرى فيما إذا كنا سنظل على هذا الحال دوما أو لا .

وأياً كان الموقف فنمط الحياة القومية يمكن قياسه تاريخياً بالنظر إلى القيم التى أبدعها وليس من خلال أمطار " التهانى " التى نزلت على المشاركين ، فكل الناس السعداء والتعساء " يبدون مثل الظلال " ، وتبقى القيمة التى لا تنضب ولا يجب أن تزول ، والموقف الذى عليه العالم الغربى فى منتصف القرن العشرين يبتعد عن تأكيد التوقعات المتغطرسة التى طرحها التقدميون والذين يؤمنون بقيم عصر التنوير ، ذلك أن النتاج الإنسانى الصادر عن أكثر الأمم الأوربية " ثقافة " يؤكد أن قيمته أقل من الإيثيين escita (جنوب روسيا) أو الليبيين القدامى Garanantas ؛ وإذا ما افترضنا أن المعرفة والعلم قد سارا فى اتجاه تصاعدى رياضى ، فالوحشية والحماقة تتصاعدان بشكل هندسى ، وإذا ما جاءت لنا سفارة من نجم الشعرى Sirio بغرض جمع الأفكار عن كيفية العيش وقمنا - وبأمانة - بشرح ما تم التخطيط له والتوصل إليه خلال المائة وخمسين عاما الأخيرة فلست أدرى هل من الممكن إقناع السفارة بكرم وسخاء نمط الحياة الغربية الخالصة أم لا ؟ فلقد اختفى بعد الخلود (بما فى ذلك بين من مهمتهم الإبقاء على الفكرة حية) ، ولا يعرف الإنسان إلى أى اتجاه هو ذاهب بكل ما يعرف الآن عن المفرقعات والذرّة والخلايا وغيرها (١٧) ؛ حقًا لقد تمكن العلم من إنقاذ حياة الكثيرين غير أن من تم إنقاذهم لا يعرفون كيف وماذا يفعلون اللهم إلا العيش بطريقة يتضح كل يوم أنها أصبحت عديمة الجدوى ، ففى مناطق كبيرة على الأرض نلاحظ أن استقرار الحياة الجمعية يتم التوصل إليه من خلال العنف والقهر بحيث تظهر الإمبراطوريات القديمة فى آسيا الأكثر قسوة فى صورة الحمل الوديع . ولما كنا لا نؤمن بأننا نمر بمرحلة " انتقالية " وأن ما يحدث الآن ليس مثلما يحدث دوماً فقد أخذنا نسلّى أنفسنا بتحليل العيش بطريقة فيها ألغاز وهى طريقة يمكن أن تكون طيبة أو سيئة مثل غيرها طالما أنها تسعد أو تشقى المشاركين فيها ، ولقد أردنا أن

نعرف ما الذى يوجد فى الأمر " من جذور " طبقًا لما يقوله ذلك المستمع الجيد فى رواية دون كيخوته .

وعند البدء فى هذا الكتاب كانت نقطة الانطلاق هى الافتراض بأن تاريخ إسبانيا عبارة عن " الحياة فى اللاحياة " وفى الإحساس بعدم الرضا عن النتائج المتعلقة بالظروف التى مرّ بها أو الدفاع عنها مهما كانت الأسباب ، والدافع هو الوعى بحاجته إلى أن يكون هكذا ، ولسنا نجد مثيلاً لهذه الظاهرة فى أى مكان آخر فى العالم فقد عاشت أوربا الغربية عمليات انتقال كان وراءها نشاطها التأملى ، وسقط المسلمون وكأنهم أصيبوا بالشلل دون أن يناقشوا ما هم عليه ، وأمام هذا الاطمئنان الذى عليه هذا الطرف أو ذاك نجد الإسبانى المسيحى على وعى كامل بافتقاره لشىء ما، وقيامه بالبحث عن مكملات لملء الفراغ ، وقَوْلبته حياته الداخلية قياسًا على البترونات اليهودية وصهر مفهومه للظواهر الخارجية بمشوار وجوده ،والدليل على ذلك نجده فى جمل " أصبح فقيرا وأمسى غنيًا " " البيت يمطر " إلى غير ذلك من التعبيرات المشابهة وكذلك نراه فى صورة المصدر الشخصى فى اللغة البرتغالية ، وفى " تاريخية "الشعر الملحمى والأسلوب المتكامل فى اللغة الدارجة وفى الأدب وفى عدم الاهتمام بالفكر ذلك أن هذا العنصر الأخير يعزل الانسان عن حياته الشعورية وكذلك عن الوجود الغامض للظواهر الخارجية (١٨) ، ووضع نفسه داخل سور الوعى الذى لا يفرق بين الداخل والخارج وبين الفكر والباعث وتمكن بذلك من كسب المعركة ضد المسلم ، وأقام لنفسه سلالة مغلقة ليس لها باب يؤدى إلى الذات والجوهر العقلانى للعالم وبالتالى انعدمت أى امكانية فى إبداع نقاط موضوعية ، ولقد تصوّر نفسه وتصوّر العالم من حوله فى حالة تشكّل وليست هناك أية إمكانية لتغيير الظروف المحيطة به ، ولولا دخول الماديات فى حياة الإسبانى لكان حتى الآن يستضىء بلمبة الزيت أو بالشمع أو بغيرها من وسائل الإضاءة الأولية .

إن هذا اللون من العيش وهو فى إطار البيت الذى صنعه لنفسه " وبكل كيانه" – طبقًا لمقولة ابن عربى – أدى إلى نتائج رائعة تتعلق بالسلوك الشخصى والتعبير المتكامل عن الحياة من خلال العمل الفنى ، ومع هذا فمن الواضح أن الإسبانى

المسيحى كان عليه أن يدفع ثمنًا غاليًا لكل هذا ، غير أن السلالة بدون الأمور المادية والأفكار الموضوعية لم تتمكن من التشكّل فى " طبقة" اجتماعية أو الارتباط بطبقات أخرى أصبح وجودها ممكنًا بناءً على وجود الماديات والأفكار (٢٠) وهنا لا يمكن أن تجدى أية تحولات اجتماعية دون وجود بنية من الأفكار الخارجة عن الدائرة الشخصية وأن تكون نافذة للناس ليعيشوا على أسس جديدة مليئة بالإيحاء ومناسبة وممكنة التحقيق ، ولقد عاشت أوربا الغربية مجموعة من التحولات الدينية والفلسفية والسياسية والاقتصادية والعلمية منذ عصر شارلمان وحتى القرن العشرين ، وكان ذلك ممكنًا لوجود أناس " تخلوا" عن المعتقدات التى كانوا عليها وأنشئوا مشروعات ذات بنى جديدة فى ميدان الدين والسياسة أو أى مجال آخر ، وكان لدى من يؤمنون بواقع العالم طبقًا لأسس الفلسفة الواقعية ـ منذ القرن الحادى عشر ـ إمكانية التفكير فى الواقع طبقًا للأفكار الموضوعية لفلسفة المذهب الاسمى nominalista, فخلال القرن الرابع عشر قدم لناأوكام Ockam مشروعه فى الفصل بين الحقائق اللاهوتية وبين الحقائق العقلية ، وفتح الطريق أمام الفكر العلمى المحض ، ومؤدى هذا هو أن القرن الخامس عشر – خارج الدائرة الإسبانية – اتسم بكثرة الأنماط الجذابة فى ميدان الفكر والتديّن ، فعلى سبيل المثال نجد أن الانجليز – خلال القرن السادس عشر – يقفون أمام الفكرة الموضوعية القائلة بأن الكنيسة الحقيقية ليست كنيسة الكهّان بل كنيسة المؤمنين ، وأسسوا حياتهم على البناء المثالى الجديد ، ثم ألقى إلى الساحة العامة بالفكرة القائلة بأن الشعوب لها حقوق فى تقرير مصيرها بدلا من قيام الملوك بذلك ، وقاموا بقطع رأس عاهلهم ، كما عرض الفرنسيون بعد ذلك مجموعة غريبة من الأفكار المتعلقة بعدم شرعية المزايا التى كان عليها النبلاء ورجال الدين ، وقاموا بإلغائها وسلّموا السلطة العامة إلى يد طبقة اجتماعية جديدة : هى الطبقة البرجوازية ، وقال بعض الألمان خلال القرن التاسع عشر – تعليقًا على كل ذلك – بأن السلطة يجب أن تنتقل من يد الأغنياء إلى يد الفقراء ، وكانت الفكرة جذابة جداً فى نظر الملايين من الفلاحين الروس وهذا ما أدى إلى تغيير فى الحياة الروسية وحياة الدول المجاورة لها .

وارتبط بتغيير الأفق الفكرى تغير وتحول كامل فى الميدان العلمى والعادات وباقى الجوانب الأخرى ، إلا أن السلالة الإسبانية لم تتمكن من أن تكون موضوعية إزاء الأفكار أو الماديات سواء فى العصور الوسطى أو العصور التالية ، أما إسبانيا فلم تتحرك وحافظت على لغتها دون أدنى تغيير وعلى عقيدتها وموقفها من حياتها وحياة الآخرين سواء فى القرن الحادى عشر أو فى القرن السابع عشر ، ومن المعروف أن الموضوعات الأدبية التى طرحها لوبى دى بيجا فى أعماله ترجع إلى الرومانث وإلى ملاحم العصور الوسطى (فلم تكن موضوعات من العصور الوسطى بالنسبة لإسبانيا) وكانت طموحات إسبانيا تراجعية أو جامدة وليست تقدميه - كتب الدكتور كارلوس جارثيا يقول " يتسم إدراك الإسبانى بأنه خواف وجبان فيما يتعلق بموضوع الإيمان وتحديد دور الكنيسة ، ففى اللحظة التى تطرح عليه فيها {أى تدعوه بالقيام بتحليل} مقالاً عن الإيمان تجده يتوقف ويضع حاجزًا أمام علمه ومعرفته وتأمله " (٢١) وإذا لم يتصرف بهذا الشكل لكان عليه أن يكسر نمط حياته والإطار المفروض حوله ولمادت الأرض تحت أقدامه ، غير أن هذه الظاهرة لا تندرج تحت ما يسمى " بالتعصب " و إلا فكل شكل من أشكال الحياة يمكن أن يطلق عليه ذلك الوصف ، فالزاوية الخاصة بالمنظور الأمريكى اليوم تقول " توقف وضع خطًا وحاجزًا أمام كل العلوم " هذا إذا ما كان هدفنا إجباره على الإفصاح عن مكنون شعوره ووعيه ، ومجرد التفكير فى أن يكون الإنجليزى أو الأمريكى وحيداً أمام شعوره المكشوف دون حماية القوالب التدريبية لحياته الاجتماعية يدخل عليه الرعب والنفور ، وما كانت تمثله الكنيسة بالنسبة للإسبان خلال القرن السابع عشر ، هو بالنسبة للأمريكان والإنجليز قانون سلوكياتهم الاجتماعية .

وهكذا نجد أنه إلى جوار نمطية الحياة الأوربية الغربية التى توصلت إلى مخترعات قادرة على إزالة الإنسان من على ظهر البسيطة ، توجد تلك النمطية الأخرى الخاصة بهؤلاء الذين حاولوا العيش دون أن يباعدوا أنفسهم عن منظور وجودهم وسكنوا العيش نفسه وشعروا وكأنهم صخرة تتكسر أمامها أمواج بحر التاريخ دون أن تحدث تأثيرًا كبيرًا عليها ، والشيء الغريب والقاصر على هذا النمط الحياتى هو أنه

لم يكن ساهيًا أو جامدًا فى نفسه مثلاً الحالة التى عليها المسلمون والصينيون ، بل تمكن من الإبقاء على نفسه والدفاع عنها بطريقة مثيرة للجدل وهو على وعى كامل بكينونته كما كان وبما يريد أن يكون ، ولقد دافعت نمطية العيش الإسبانية عن نفسها بنفس الصلابة التى دافع بها دون كيخوته عن " كيخوتته " ، أى عما يريد أن يكون رغم ما فيه من مخاطرة على وجوده ، والشىء الجوهرى فى هذه الرواية – دون كيخوته – لا يكمن فى المغامرات والسلوكيات التى عليها هذا"الخليط " المجنون بل فى إرادته الصلبة فى الإبقاء على نفسه مرفوع المهمة وهو يحمل الاسم والوضع الذى فرضه لنفسه فى مواجهة الجميع وكل شىء ، وهكذا الحال فى إسبانيا منذ ما يقرب من ألف عام .

عاش الرجل الإسبانى سجين نفسه وشعر بنفسه فى دائرة خبرته ، فلم نسمع هنا أصداء عبارات جميلة مثل " وجدتها " على لسان من يكتشفون أموراً وقوانين ثابتة لا تقبل التغيير بحيث تتوارى الظواهر عندما تعبر عن وجودها ، لقد كان هذا النمط الحياتى يرسم لنفسه أهدافًا تثير قوة الإرادة لكنها لا تثير إعمال الفكر .

أما إطار الموقف الذى تم اتخاذه فلابد من الثبات عليه فالمقصد الذى يرنو إليه الجميع هو المبدأ الثابت للعقيدة غير أن ما ينقص كان أحد الروابط يتم إقراره من خلال المفاهيم الموضوعية ابنة الفكر والأفكار ، وهما عنصران قابلان للتجدد والتحوّل ومن هنا نجد أن سكان الإمبراطورية الإسبانية لم يرتبطوا ببعضهم البعض من خلال المصالح الموجودة بالأفق (كما سبق أن قررت ذلك كثيراً) [٣٢] بل من خلال حزم خطوط صاعدة تتلاقى عند نقطة العقيدة أو عند الزعيم أو الملك أو القديس سانتياجو أو فى الله ؛ ففى إسبانيا وإسبانو أمريكا نجد أن الأقاليم والمناطق لم تتلاق على شبكة المهم المشتركة التكاملية ، ومن هنا فمن المعتاد " تاريخيًا " وجود الانفصالية فى إسبانيا وأسبانوأمريكا ، ولقد ظلت الأقاليم مترابطة فيما بينها إذا ما كانت هناك قوى خارجية وميكانيكية تجبر على هذا الموقف المترابط .

وقد يقول البعض إن إسبانيا اليوم ليست إسبانيا القرن السادس عشر أو الثامن عشر فهناك القطارات والتلغراف والحافلات وأعضاء مجلس النواب وأعضاء مجلس

الشيوخ والحقن تحت الجلد ، ونقول إن القرن السابع عشر به العديد من الأمور التى تبدو وكأنها الجديد " يأخذ من إسبانيا الصوف والنبيذ والزيت والذهب والفضة والثمار الأخرى ذات القيمة الجوهرية ، كما كان يُجلب إليها الخيط والإبر والمرايا والدبابيس والأصباغ والزجاج والأبواق والفلاوت والصفافير والدمى إلى غير ذلك من الأشياء التافهة التى تحتقرها أكثر الشعوب بربرية فى أثيوبيا " (٢٣) ، كما كان الموقف خلال القرون السابقة هو على ما هو عليه من الناحية الجوهرية مع الفارق وهو أن البلاد كان بها من يقومون بصنع الأدوات وهم المور واليهود الذين كان " السيد" يفيد منهم خلال القرن الحادى عشر ، وقد عاش المسيحيون آنذاك – وبعد ذلك الموقف – وهم يحتمون " بالقيمة الجوهرية " لشخصهم ، وإذا ما كان شكل التاريخ قد تغير فهذا يرجع إلى اتخاذ الأشياء التى تم إنتاجها بيد غير يد سلالة السيادة إعمالاً لغاية حرة يتم الإبقاء عليها ، كما أن الشكل الخاص بالحياة التاريخية يماثل فى حقيقة الأمر ما كان عليه خلال القرن العاشر والقرن التاسع عشر : الاستيراد من المسلمين آنذاك ومن الأوربيين اليوم ، وعندما تفوّه أونامونو Unamuno بعبارته الشهيرة " فليخترعوا هم ! " فقد كان يتحدث وهو فى أعماق التاريخ رغم أن الذين كانوا فى سن الشباب قد انتابنا الغيظ واحتججنا على ما نظرنا إليه (نظرة طائشة بالطبع) على أنه نوع من البربرية وهانحن اليوم نرى أن التاريخ – الذى نحن فى إطاره – عبارة عن مجموعة من التغيرات التى تحدث على الديكور لكنها لا تمس ما هو جوهرى فى إسبانيا انطلاقًا من موقف ثابت ورغبة فى الخلود ، كما أن الجمع بين الخلود والمؤقّت ، كان سببًا كافيًا لوجود إسبانيتين ، وهنا يكفى النظر إلى أن هذه الظاهرة توجد منذ ما يقرب من ألف عام لندرك عدم صدق هذا الافتراض ، فبدلاً من هذا التبسيط نجد أمامنا مشكلة عويصة تتعلق بتاريخ شعب من الشعوب الحديثة .

وكل ما من شأنه تجديد مهم فى إحدى ظواهر هذا التاريخ فإننا نجد أن الواقع غير الشخصى الذى يظهر من خلاله يرجع إلى منطقة توجد خارج إسبانيا المسيحية رغم أن الإدارة والرغبة فى هذه التحولات تنطلق دومًا من إسبانيا ، أى أن هذه " الأشياء " كانت مرغوبة ، مثل الجماعات الدينية الفرنسية خلال القرن الحادى عشر

(جماعة كلونى) وجماعة ثيثور خلال القرن الثانى عشر ، واليهود حتى القرن الخامس عشر والمور حتى القرن السادس عشر والايراسمية Erasmo خلال القرن السادس عشر والإيطالية الأدبية خلال نفس الفترة والتقنيات الإيطالية (البحرية والتجارة والصناعة) منذ زمن أبعد من هذا بكثير والأفكار والمؤسسات الفرنسية منذ نهاية القرن السابع عشر والعلوم والتقنية من كل أنحاء أوربا خلال القرن التاسع عشر والفلسفة الألمانية خلال القرن التاسع عشر (الكراوسية Krausismo) وخلال القرن العشرين (الحيوية التاريخية والظاهرية) ؛ كما أننى أعتبر الفكرة القائلة بأن إسبانيا كانت معبراً لثقافات العالم ، التى تلاقت وانصهرت بأبناء البلاد الأصليين ، مثل الفنيقيية والرومانية والقوطية والإسلامية .. الخ ، محض تجريد غير مقبول ، ومنظور مثل هذا يقود إلى الخلط العقلى ولا نجد من وراء ذلك إلا الطرفّ أو ما نطلق عليه الفوضى العقلية التى تحول دون رؤية الذات الفاعلة ومركز الأحداث الذى يرتبط به هذا الطوفان من الأحداث والتأثيرات .

لقد قرر المسيحيون - خلال العصور الوسطى - ممارسة التسامح ووضع معاييره، وأن تكون لهم طوائف حربية وأن تكون لهم مدارس مثل دراسات بالنسيا Estudios de Palencia كما رفضوا الكثير من الأمور الأخرى التى يمكن أن تكون لهم (مثل الشعر الغنائى) ، وإذا ما كانت هذه القرارات قد فرضتها الظروف فهذا لا يمنع وجود إدارة مركزية ، كما أننا لا نستبعد وجود ربّان ماهر للسفينة التى تتعرض لعاصفة .

ومن الواضح أن القرارات لم تصدر دومًا من نفس المناطق التابعة للجسد الاجتماعى ، كما أن التاريخ القاصر على إسبانيا يجب أن يحدد وبوضوح طبيعة المراكز التى تم فيها اتخاذ المبادرات ، ولقد رأينا فى حالة اليهود أن طردهم يرجع إلى الفئات الشعبية وليس إلى من هم فى أعلى الهرم الاجتماعى، وأن هؤلاء قد حافظوا على تلك السلالة ضد كل الأخطار طوال عدة قرون ، كما نعرف أيضا أنه خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر سار المسيحيون الجدد - من ذوى الأصول اليهودية - فى اتجاهات متعارضة سواء كانوا من الطبقة الدنيا أو الأرستقراطية ، حيث نراهم فى

إطار الفلسفة الأيراسمية وكذلك فى إطار محاكم التفتيش ، ورغم أن الإسبانى لم يبتعد عن شكل الحياة التى تعتمد على العقيدة (الذى فرضه عليه ، وعن حقه ، التراث الإسلامى اليهودى) كما أفاد منه لأغراض مختلفة ، لم تكن من أجل التعايش بل من أجل الصراع ضد المعتقدات المناوئة ، ولقد أشار باتايلون Bataillón إلى أهمية المسيحيين من ذوى الأصل اليهودى فى ميدان الإصلاح الكاثوليكى خلال القرن السادس عشر (وهو ما أطلق عليه مصطلحًا غير مناسب ، سيرًا على الطريقة الألمانية " Contrarreforma أى ضد الإصلاح ") [٢٤] .

وفى إطار الدائرة المغلقة والمتكاملة للحياة ، اعتمادًا على إيمان لا يُحَسّ ، نجد المبادرة تنطلق أحيانًا من الذات (القيمة ، والبطولة ، والرغبة فى المجد) وأحيانًا ما تنطلق من الدائرة المحيطة بتلك الأولى (وهى الكنيسة على أنها مؤسسة توسعية ودفاعية) ، وقد لوحظ كلا الجانبين فى العمليات التى تمت فى أمريكا وهنا تكفى المقارنة بين مؤلف فرانثيسكو لوبث F. López حول إيرنان كورتيس وبين ما كتبه الأب/ لاس كاساس Las Casas ، وهذا الشد والجذب بين طرفى نقيض بشأن النشاط الحيوى لإسبانيا لازال ملحوظًا خلال القرن الثامن عشر من خلال الثقافة العامة (حوراتين Moratin وفرسان أثكويتا Los caballeritos de Azcoitia والظرفاء Majos للسيد/ رامون دى لا كروث) ، وخلال القرن التاسع عشر (المتفرنسون الذين يعيدون روح سانشو الكبير ملك نابارّة ، وألفونسو السادس والمحاربون فى سبيل الاستقلال الذين كانت تحدوهم الروح الملحمية المتكاملة) ومن أجل إقرار نظام يشبه النظام الدستورى فقد تكلفت البلاد نار حربين أهليتين .

وبعد ذلك ظلت إسبانيا تستورد مفضلة الظواهر الخارجية التى ترى ضرورتها من خلال بعض الذين يتحدثون باسم الوعى الإسبانى الثابت والذى لا يتغير ، وبهذه الطريقة جاءت إلينا الاشتراكية والشيوعية والفاشية أو ما نطلق عليه مبدأ تغيير العقيدة التقليدية وإحلال الفكر الحر ذى الأصول الفرنسية محلها ، وهو فكر بدأ مع نهاية القرن الثامن عشر . وفى منتصف التاسع عشر نجد أيضًا إحدى الظواهر التى تتسق مع الطبيعة الإسبانية داخليًا وخارجيًا، وهى الكارلية Carlismo (وهى الإمبريالية

الجديدة فى ميدان العقيدة الدينية – الملكية) والنقابات العمالية حيث يمكن أن يتعايش العنف المادى والحلم المثالى فى صورة قنطورية ، وهانحن نرى مرة أخرى المدفع الإسبانى وهو يطمح إلى الانطلاق بِرُفْقة القذيفة .

وحقيقة الأمر هو أن الإنسان الإسبانى يقدّم فقط ما يطلق عليه باللغة الإنجليزية Lip - Service لكل ما يستورده أو يقلده من الخارج ، ثم ينتهى به الأمر إلى إلغائه أو تقليصه فى صورة أداة تستخدمها حيويته , والعالم الموضوعى أى عالم الأفكار (العلمية والسياسية أو الاجتماعية) لا يضرب بجذورها أو ينتشر فى أى بلد من البلاد المتحدثة بالإسبانية أو البرتغالية ، وليس ذلك مرجعه التخلف أو البربرية فالشعوب البربرية لم تكن لتؤكد وعيها بذاتها على مدى القرون ولم تكن لتحوّل هذا الوعى إلى مشكلة تثير الكدر ، فلا يمكن إقامة الأبنية الرائعة على نمطية عيش مُنْبَتّة وخاطئة ، ولم تكن هذه المبانى صالحة لمواجهة الأخطار المتعلقة بالاستمرارية الإنسانية.

" لقد علمتنا التجربة أن المصالح البراجماتية والقوانين الإصلاحية تدوم وقتًا قصيرًا فى إسبانيا ذلك أن أى فرد يحوّل معارضة تلك القواعد إلى مسألة شرف ، ومن النبل عدم الانصياع للقوانين" (٢٥) والناصح الرصين للملك كان يعرف أن عدم مراعاة القوانين لم يبدأ فى عهد فيليب الثالث بل كان سمة دائمة للطبيعة الإسبانية ، وهناك كثير من الناس يطلقون على هذه الظاهرة صفة " الفردية " ويطبقون على ما هو إسبانى مفاهيم تاريخية غير مناسبة ، فمن المعلوم أن البريطانى ابن القرن التاسع عشر كان " فرديًا " فهو من أنصار المنافسة الحرّة وحرية التبادل والتقسيم الفردى للأنشطة العمالية فى مجتمع يتكون من هيكل وتدرّج موضوعى : الطقوس التراثية للملك والنبلاء والبحرية والمستعمرات والابتكارات الميكانيكية والمصانع والتجمعات العمالية .. الخ فالفردية ذات النمط الأوربى تستلزم أن يتسم ما تم التفكير فيه وإبداعه أو التفاوض بشأنه بالموضوعية والأهمية من الناحية الاجتماعية ، وعندما نفكر فى أن الفرد كان شيئًا مستقلاً تمامًا عن المجتمع كافة (ماكس ستيرنر M. Stirner) ، فقد تم

طرح هذه الفكرة على أنها نظرية وتحولت إلى أمر موضوعى واجتماعى من خلال كتاب معروف عنوانه " الفرد وميراثه Der Einzige und sein Eigenthum. قرأناه فى شبابنا.

يظهر الإسبان على أنهم شديدو الفردية فى نظر الأجانب أو فى نظر الأقلية المثقفة فى إسبانيا ، وهو نفس ما يحدث بالنسبة للأطفال الصغار إذ يرى فيهم الكبار البراءة والسذاجة ، وكذلك الحال بالنسبة للسّمك ومن يراقبه وهو على الأرض ، إلا أن الإسبان لم يكونوا فرديين فيما يتعلق بالهياكل المثالية التى تنبسط فيها عقيدتهم أما ما هو " واقع " بالنسبة لهم وما هو حاضر وقائم فى خبراتهم الحميمة وليس ذلك الذى يفرزه العقل الموضوعى ، فالجنود الذين رآهم عقيد الفرسان المدرعين التابع لجوستافو أدولفو عام ١٦٣٤ لم يتصرفوا تصرفًا فرديًا ، ولم يكن كذلك أهل قرية فوينتيى أوبيخونا Fuenteovejuna عندما توحّدوا بفضل ما أشعلته فيهم امرأة من الإيمان بكرامة البلدةوعدالة الملوك الكاثوليك حتى يمكن تمزيق الحاكم إربا ، غير أن التضامن بين أفراد الوحدة العسكرية أو بين العامة فى القرية المذكورة أو فى وعى الفرد لم تكمن فيه طبيعة الاستمرارية ، فالإسبانى ليس فرديًا عندما نجد أن ما أطلقنا عليه الدائرة الشاملة للفرد تشعر بالتضامن مع دوائر أخرى لأفراد يمتد إليهم وعيه ، ولا بد أن يشعر باستمراريته من خلال أبنية أخرى يراها كتعظيم لما هو عليه ، وتدفعه إلى الدوران فى فلك شخص آخر دون أن يقوم هذا الأخير بصياغة أى برنامج ، فالناس تنجذب نحو شخص آخر ونحو فلكه الحيوى ولا شىء أكثر من هذا ، فمجموعة الأبطال التى تركت نفسها تنجذب نحو بيثارّو Pizarro فى هذه العزلة التى عليها الجزيرة الملعونة ، فعلت ذلك لأن بيثارو كان يلهمها الإيمان والعقيدة ، ومن المنطقى أن فكرة حصولهم عل الثروة من وراء عملهم كانت عبارة عن محرقة كما كانت شديدة الارتباط بالإيمان بشخص بيثارّو ، كما كان يتحدث بها الجنود عندما عادوا من معركة فلاندس Flandes وهم فى حالة سيئة من خلال أبيات كررتُها كثيرًا .

هذا لا يثقلنى أيها الملك

ولا أتألّم له

ففى سبيله وفى سبيل القانون

وفى سبيل مدام إيزابيل

يمكن أن نعرّض أنفسنا للمزيد

لم تعن الجراح شيئًا أو الآلام أو التخلى : فلقد كانوا يعيشون فى دائرة الاعتقاد فى القانون الكاثوليكى والملكى وكفى ، ولم تكن هناك فردية بل نوع من التوافق ، غير أنه عندما يُطرح على الإسبانى أفضل " برنامج " للعمل ، والقائم على العقل والمتطلب للجهد فإنه ينظر لمن يقوم بالدعاية السياسية له بأنه هزلى وانتهازى للفرص أو حالم بعيد عن أرض الواقع ، إذن فالبرنامج الذى تقبله الجماهير الإسبانية يجب أن يكون مثاليًا وغريبًا حتى يتم الإيمان به وليس فهمه وهذا ضمان لنجاحه، وهنا يتحول " البرنامج " إلى عقيدة مشوبة بمفهوم الخلاص ثم تنطلق وراءها الجماهير المهووسة ومعها مرشحوها فى طريق الاستشهاد .

لم يرتبط الإسبانى أبدًا بأى مشروع يقوم على المبدأ القائل " يجب أن يكون " الذى لا يتسق مع عقيدته فيما يجب أن يكون ، وإذا ما كان الوصول إلى هذا المشروع – غير القائم على العقيدة – يجب أن يكون من خلال العقل وتثبيط الحالة الوجدانية فرد الفعل فى هذه الحالة هو اللامبالاة أو التمرّد ، ويصل الأمر فى " تصوير الخروج على القانون بأنه عمل نبيل " طبقا لفرنانديث دى نابارّيتى.

لم يشعر الإنسان الإسبانى بأنه بدوى رحّال ومعزول عندما يجد نفسه أمام رجل مثله رغم أنه يتفوق عليه ، ومن هنا نجد سرّ الزعامة وقائد الجماعة والمخلص ؛ وواقع الأمر فإن نمط الحياة القائم على الوعى والذى لا ينفصل عن " الكيان الذاتى " يعنى النتائج المذكورة ، وفى إطار هذا النمط الحياتى نجد أن كل شخص عبارة عن إطار من دوائر المعتقدات التى تصدر عنه ، ويتم الخروج من إحدى هذه الدوائر عندما يدخل المرء فى دائرة أخرى .

وبغض النظر عن فكرة الاعتقاد ، لم نجد أبدًا أن الإيرادات قد تجمعت فى إسبانيا حول نظرية تخالف الإيمان التقليدى ، فبعد القرن الثامن وجدنا الملاحدة –

وهم نفر قليل ـ يمثلون أفكاراً آتية من الخارج وحدث نفس الشيء مع النظريات السياسية والاجتماعية القائمة ابتداءً من القرن الثامن عشر : النظام الدستورى ، والنظام الجمهورى والاشتراكى والفاشى .. الخ ، فلم تتحول هذه الأنظمة إلى كيان جوهرى حى لابن شبه الجزيرة الأيبيرية .

ولا نعثر على الجوهر التاريخى لإسبانيا وقيمها العليا فى شىء من هذا بل من خلال هؤلاء الذين عرفوا كيف يتحولّون إلى دوائر متراكزة ويصبحون مركزًا يدور حوله معاصروهم ، إنهم هؤلاء الذكور المتميزون الذين أصبحوا قيمة محضة لا يمكن الإمساك بها ، وهم الذين استطاعوا من خلال تكاملهم وإفناء ذواتهم خلق النخاع الشوكى لتاريخ فريد يتكون من جوهر إنسانى خالص دون أية إضافات مادية ، ولقد فعل هؤلاء الأفراد بأنفسهم وبتلك التى انضمت إليهم نفس ما يقوم به الفنان عندما يعبر بالكلمة واللون عن نفسه وعن غيره ، وتتسم وسائلنا فى اقتناص ورؤية تعقيدات البعد الإنسانى بأنها بدائية ولا تساعدنا على كتابة تاريخ للحياة أو العيش كفن وتعبير عن العيش نفسه من خلال أنواع مثل الأنواع الأدبية كالحياة الملحمية والحياة الغنائية والروائية أو الدرامية ، وكذلك الأساليب المتعلقة بالعمل واتخاذ المواقف والأنماط الروحية ، وهنا نتساءل : كيف يمكن الإمساك بتلابيب ذلك الواقع وهيكلته والإبقاء عليه حيًا ؟ ومع هذا فلا زلنا نتحدث عن العصور الوسطى وعصر النهضة ومناهضة الإصلاح وعصر الباروّك .. غير أن التاريخ الحقيقى والعظيم لما هو إسبانى يجب أن نعثر عليه من خلال الروايات والمسرح والنحت والكوميديا والقصائد التى تنبض بحب فرنان جونثاليث وملحمة السيد وفى دوق أوسونا **Osuna** العظيم وفى خوبيانو **Jovel-lanos** وفى لاراّ **Larra** وفى خنيـــر دى لوس ريوس **Giner de los RΣios** وفى أونامونو وفى مائة شخصية أخرى عظيمة استطاعت أن تملأ ألف عام بالروح الإسبانية الفاعلة، وإذا ما كنا نفتقر للوسائل المناسبة وبعد النظر فى تبيان هذه القيم والحدس الشعرى فهذا لا يستتبع أن نقول بأن المادة ذات القيمة لا نعثر عليها هنا ، ولقد مر علم الفيزياء بعدة قرون وهو يحاول اكتشاف السمات المجهولة للطبيعة ، وهى سمات تمكن العقل بفضل مهارة تقنياته من اكتشافها وإيضاحها ، ألن يتمكن الإنسان من التوصل

إلى أدوات وطرائق تساعده على تلقى وتوضيح " خضرة العصور " المتعلقة بالعيش ، فى شكل محض ينمو ويستهلك نفسه بنفسه ؟ وإذا ما فكرنا على هذا النحو نستطيع إدراك شغف الناس من المتحدثين باللغة الإسبانية بالفلسفة خلال الخمسين عامًا الأخيرة حيث يصبح للحياة الكاملة مغزى جديد ولا يقتصر الأمر هنا على نظرية المعرفة والنجاح المادى ؛ فالفكر هو واحد من الأنشطة المتعددة والنبيلة والمهمة التى يمكن للمرء أن يحققها وليست الوحيدة ، كما أن " الأشياء " يمكن أن تكون فى الحياة ولا يقتصر ذلك على كونها " أفكار واضحة ومختلفة " .

وبعد أن عالجنا موضوع الفردية ننتقل الآن لمناقشة الفكرة القائلة بأن الإسبانى عاش لحظات الذروة مرتبطًا برغبته فى الخلود ، وحاول الإمساك بالماورائية التى تنتقل إلى أفاق أخرى ، وقد تحدثنا جميعًا عن هذا الوضع ذات مرة ، إلا أننا إذا لم نُلْقِ المزيد من التحديد والضوء بخصوص ما نفهمه فإن حكمنا يصبح نوعًا من التجريد اللاتاريخى وهنا علينا أن نباعد أنفسنا عنه ، فكل فكرة عن الإنسان تظْل عالقة فى هواء اللاواقع طالما لم تندرج فى تاريخه – أى فى تاريخ شخص ومكان وزمان معينين – وأيًا كان ما سنفعله – جيدًا أو سيئًا – فعلينا أن نقوم به وترجمة هذه التعميمات فى صورة حياتية محددة .

هناك هوَسَ بالخلود – خورخى مانريكى ، والفارس المغوار والداعية المبشر فى أمريكا ، والجغرافى الذى رسمه ريبيرا Ribera وذلك الباسكىّ الذى رسمه الجريكو ودون كيخوته ، وأونانونو ، وأنطونيو ماتشادو ، والفلاح الفصيح – يعم مسار الحياة الإسبانية ولم ينزل هذا على الإسبان من السماء بل صعدوا إليه بحثًا عنه عندما وجدوا – منذ اثنى عشر قرنًا – أن ليس فى أيديهم إلا السماء والأرض التى كانت تفرّ منهم ، فلقد قام هؤلاء المسيحيون بقولبة حياتهم تحت سقف عقيدة وهناك حدث توافق مقعر ومحدب بين عقيدتهم والعقيدة التى تلفهم ، وأصبح جوهر الخلود ذاتيًا وأرضيًا على الطريقة التى نزل بها سانتياجو من السماء ، وعلى أساس خلود الاعتقاد قامت ايضًا حياة الشعوب المرتبطة بالمسيحيين فى نسيج واحد وهم المور واليهود ، رغم اختلاف الشكل ، وكان من الضرورى لهذا النمط الحياتى القائم على الاعتقاد أن يربط

ربطًا حميمًا بين الاعتقاد الذاتى والاعتقاد الجوهرى وإلا لما أصبحت إسبانيا حرب الاسترداد على ما كانت عليه ؛ ففى الوقت الذى كانت تبحث فيه بعض البلاد الأوربية عن أسس لحياتها كما أن ملوكها لم يكدوا يظهرون Primer inter pares (بعد شارلمان) نجد ملوك ليون وبعدهم ملوك قشتالة أقاموا ملكهم على أرض صلبة ووصل الأمر ببعضهم إلى حلم التحول إلى إمبراطورية ، كما كانت هذه الممالك تقوم على قاعدة مكونة من المور واليهود الخاضعين لهم غير أنهم متمسكون بعقائدهم . إذن فالتكامل الحياتى كان مؤازرًا لمثالية ذلك المعتقد ولهالة الخلود ، وتحت نور هذا الخلود أصبحت إسبانيا على وعى بذاتها وغير قادرة على تغيير نفسها بنفسها ، ومن هنا وجب الاتصال بأناس من الخارج لتجديد شكل المقرّ الذى لا يتغير جوهره ، وكان ذلك هو النمط لهذا النوع من الوجود الذى تم إخصابه وحمله ثم وضعه فى المنطقة الشمالية الغربية لشبه الجزيرة فى وقت كانت الأراضى قاحلة جرداء وكان الناس يعيشون بلا سيد يسيّر أمورهم .

حول الشريف Hidal guismo

بلغ الإسبانى المسيحى وعيه التاريخى بدوره كمحارب منتصر ، وعند الفوز يجد نفسه - دون إجراء خطوات أخرى - وقد سيطر على أناس آخرين يقومون بعمل " الأشياء " بشكل يتجاوز حدود قدرته على هضمها واستخدامها ، واستطاع أولئك الناس الوفاء بكل احتياجاته كما كانت الأشياء دليلاً على إذعان من يقومون بإنتاجها ، فلقد كان عمل المور واليهود والتقنيات التى يعرفونها من الغنائم الإنسانية الكبرى مثلما سيكون عليه الحال لاحقًا بشأن الثروات المادية المتمثلة فى المعادن الثمينة فى العالم الجديد ، وهنا نجد عالم التقنيات وعالم الثروات الطبيعية وقد دخلا فى إطار السيادة والسيطرة من خلال الإقدام والجهد العنيف ، ولقد دخل الإسبانى المسيحى تاريخه وهو يشعر بإمكانية تسلقه إلى أعلى القمم التاريخية دفعة واحدة ، فالقشتالى خلال عام ١٠٠٠م يشعر بإمكانية " تغلبه على المورو " وأن قرطبة الرائعة كانت على مرمى سيفه ، وجاء غزو طليطلة وبلنسية (رغم أن الغزو كان موفقًا فى حالة هذه الأخيرة) ليولد

شعوره بالتفوق خلال القرن الحادى عشر وهو تفوق يقوم على وعيه "بقيمته الجوهرية "، وسوف نرى قمصّ إيتا يقول بعد ذلك :

بالخدمة الجيدة يتتصر فرسان إسبانيا [٢٦]

وأخذ الإسباني المسيحى يوطد قوته من خلال إخضاعه للمور واليهود ومناوأته لهو وذلك من خلال تقليد بعض السلوكيات الشخصية عندهم (الملبس والعادات الإسلامية) لكنه لم يسر على نهجهم الموضوعى وغير الذاتى (أى أنشطتهم العلمية والعملية) ، كما أنه اتخذ لنفسه ما كان يمكن أن يصبح كحالة ثابتة ومرتبطة بعقيدته (التسامح والأخلاق) وليس ذلك البعد الذى ينفصل عن الذات (مثل الفكر والموضوعية) .

وبهذه الطريقة أخذت تتضح معالم الإيمان شبه الدينى " بالقيمة الجوهرية " لروح الإنسان وازدراء ما عدا ذلك أى ما يتمثل فى العمل الميكانيكى ، ويمكننى أن أضيف إلى الأمثلة التى سبق أن ذكرتها أمثلة أخرى مثل ذلك الذى حدث عام ١٤١٠ م عندما أذاعوا بيانًا فى بلنسية ضد " ألسنة السوء التى تتحدث فى سب الذات الإلهية أو العذراء مريم " حيث يدان من يرتكب من العامة ذلك بالجلد على الملأ وأن يمثل بهم، " أما من يرتكب ذلك من علية القوم الذين لا يمارسون عملاً فعليهم أن يدفعوا غرامة مالية من العملات الذهبية " [٢٧] .

وإذا ما تحدثنا من منظور تجريدى فسوف ننظر إلى تلك الواقعة بوصفها موضوعًا أو شيئًا معهوداً ونربطه باحتقار أفلاطون للعمل الإنسانى وتقليله من شأن الفنون وهى مفاهيم تعاود ظهورها فى العصور الوسطى : " إنها عمل إنسانى لأن الطبيعة لم تكن هناك لكنها قلّدت التقنية " [٢٨] .

غير أن الحالة التى ندرسها تجعل من غير المجدى إعداد بحث عن ازدراء العمل على مدى العصور فما نجده أمامنا هو نوعية من الناس بنت حياتها على " الاستحالة " الحيوية لممارسة أعمال ينظر إليها على أنها غير شريفة أى غير إنسانية بالنسبة لهم ، تقول الروح للجسد فى" حوارات الفلسفة الخيالية لثلاثة فى واحد **Dialogos de la fantástica filosofia de los Tres en uno** [٢٩] : لقد جعلتنى مشغولة دوما بالأمور

التافهة المتعلقة بوظيفتك الميكانيكية " ولقد تمكن المؤلف من اقتناص هذه الفكرة من مجموعة الأفكار السائدة فى العصور الوسطى غير أن فكرته كانت مليئة بعصارة حيوية تضفى عليه مغزى خاصًا قاصرًا على إسبانيا ذلك أنها كانت مصحوبة بالإعلاء من قيمة ما ليس له علاقة بالعمل الميكانيكى ، أى بذلك الذى كان ينظر إليه الإسبانى المسيحى كقيمة جوهرية (٣٠) .

ولم تكن تلك القيمة مجرد روح معنوية وجرأة وإقدام وعلى أساس أنها صفات للفرد ، بل كانت جوهرهُ وهى التى تجعله مكتملا وتزوده " بالكمال " ، e ntereza وهذه مفاهيم لها مغزى فريد ليس له قيمة خارج إطار الاقليم الإنسانى الإسبانى (٣١) ولقد كان الإسبانى النموذج الوحيد فى تاريخ العالم الغربى ، صاحب مشروع حياة يعيه ويؤمن به ويقوم على الفكرة القائلة بأن ما هو جدير بالإنسان هو أن يكون إنسانًا ولا شيء أكثر ، وعندما وكل بدرو كريسبو Pedro Crespo شئون ابنه للجنرال دون لوبى دى فيجيروا Lope de Fugueroa فقد كانت أسبابه هى التالية :

ما الذى يجب عليه فعله معى

اللهم إلا قضاء حياته كاملة

خاملاً وتائهًا ؟

عليك تقديم خدماتك للملك (٣٢)

فالقيام بصنع الأشياء (أى ذلك الذى يوجد خارج دائرة الشخص ومستقلاً عنه) يعنى ألا يكون رجلاً مكتملاً ، ولم تعش أى دولة أوربية مبدأ التقليل من شأن العمل اليدوى لدرجة أن القوانين تعترف بجدارته حتى عهد كارلوس الثالث أى خلال القرن الثامن عشر ، وتصادف ذلك مع غزو الكثير من الأفكار العقلانية القادمة من الخارج غير أنها لم تؤثر إلا على الشكل الظاهرى للحياة ، إلا أن الاعتقاد فى " القيمة الجوهرية " كانت تهزه حالة الضيق والكدر التى عليها هؤلاء الذين ينضوون تحت لواء نمط حياتى مثل هذا ، وكذلك حالة الكدر التى عليها هؤلاء الذين يرون الخطورة

الشديدة فى هذه الحَصْرية . كتب الحاصل على الليسانس بدرو فرنانديث دى نابارّتى : " امتلأ هذا البلاط بالعديد من الناس من ذوى الدرجة المتواضعة وهم الخدم وأفراد السقاية والحوذيون وبائعو القطائر والحمالون (...) ولقد أضحى واضحًا الضرر الناجم عن أن هؤلاء لا يفضلون العمل فى الحقل " ومع إدخال هذه المهنة غير الموغلة فى القدم بدأنا نتعود على أنه إذا كان هناك خادم يقوم بشراء فواكه بريال فعليه أن يعطى نصف ريال للحمال وهو نوع من السّقه والإنفاق مسموح به فى بلاط إسبانيا " (٣٣) وذلك له علاقة بهذا الآخر :

> إذا ما استطاع تاجر أو عامل أو مزارع الحصول على ٥٠٠ دوكادوس كربح من خلال الاستثمار فيما يسمى اليوم بالأوراق المالية ثم يوصى بها بعد ذلك لابنه الأكبر فإننا نجد أنه وباقى إخوته يشعرون بالخجل من القيام بالأعمال المتواضعة التى تم جمع ذلك المال من ورائها ، وهنا فمن ليسوا بنبلاء يطمحون للنبل ومن هم كذلك يطمحون إلى أعلى الدرجات (طبعة مذكورة سلفًا صـ ٤٧٣ ، ٤٧٥) .

وطبقا لإحصائية عثرت عليها بالصدفة فقد كان فى قشتالة وليون عام ١٥٤١م ٧٨١٥٨٢ فردًا من الذين يستحق عليهم دفع ضريبة الرءوس وحوالى ١٠٨٣٥٨ شريفًا أى أن حوالى ١٣٪ من أفراد المملكة لا يسددون ضرائب ويعيشون كسلالة مغلقة على نفسها ، وقد وصل الأمر بنمطية العيش على الطريقة الإسبانيّة إلى هذا الحد رغم أنها كانت تدرك عدم القدرة على " الإبقاء على جمهورية جميع أفرادها من النبلاء فحتى يكون هناك تعاون بين الجميع لابد من وجود رأس بارزة تمارس الحكم ، ومن وجود كهنة يؤدون الصلاة ومستشارين يدلون بنصائحهم وقضاة يصدرون أحكامهم ونبلاء يصدرون موافقاتهم وجنود يدافعون وعمال يفلحون الأرض تجار يعقدون الصفقات وصناع يعنون بالتقنية " (٣٥) وهاتان الوظيفتان الأخيرتان كانتا قاصرتين على المور واليهود .

أما الإسبان الذين قدموا إلى العالم الجديد فقد حملوا معهم نمط حياتهم وكرسوه فى الأرض التى نزلوا بها ، وقد كان سكان مدينتى بوينوس أيرس يكتبون إلى فيليب الثانى ، وقد فرغ صبرهم ، - ١٥٩٠ م - رسائل يعبرون فيها عن فقر الأرض الأرجنتينية ، وهذه الأرض كانت بمثابة الجنة الفيحاء بالنسبة للإنجليز النفعيين فالأرض لا تصنع الإنسان بل العكس ، رغم أهمية عنصر الطقس واللحظة التاريخية والوسيلة المتخذة ، فالأرجنتين لم يكن بها ذهب أو فضة أو مدن مثل المكسيك وبيرو ، وهنا لم يعرف الإسبانى - غير القادر على إبداع العاديات - ماذا يفعل ؟ " أصبحنا فقراء وفى حالة عوز وصلت إلى أقصى درجة ، ونشهد أننا نقوم بالحرث والحفر باستخدام أيدينا ... ونعانى كثيراً لدرجة أن الماء الذى نشربه تأتى به نساؤنا وأطفالنا من النهر ... وهى نساء إسبانية ، نبيلة ومن أسر محترمة إلا أنهن لما عليهن من عوز وحاجة قمن بجلب الماء للشرب على أكتافهن " ، ويؤكد حارس دير سان فرنثيسكو هذه الأفكار قائلا : " يقوم أهل المكان والمقيمون هنا بممارسة الأعمال اليدوية ويعنون بقطعانهم بأنفسهم فقد رأيتهم بأنفسهم على هذا الحال وهذا أمرٌ شديد الإيلام ، ويقوم أهل المكان بخدمة أنفسهم وكأنهم يعيشون فى أفقر قرية فى إسبانيا " (٣٦) .

لا أعرف وثيقة أكثر دلالة وأهمية لفهم تاريخ إسبانو أمريكا وأوجه الاختلاف بينها وبين أمريكا غير الإسبانية ، فلقد كان الإسبانى يحل بأقاليم نهر بلاتا Plata خلال القرن السادس عشر بنفس الطريقة التى كان يمدّ بها سلطانه ونفوذه - خلال القرنين العاشر والحادى عشر - نحو جنوب شبة جزيرة أيبيريا وغايته فى ذلك الرفعة والسيادة، غير أن بوينوس أيرس لم يكن بها مور أو يهود يمكن الإفادة منهم وكان الهنود يهربون وجلين إلى الأمام ، وهنا نجد أن الأرجنتين المستقبل كانت تعيش فى الفقر حتى قبل قرن من زماننا هذا ، فلقد كانت منازل بوينوس أيرس من " العشش" المبنية بالطوب المغطى بطبقة من القش فلم يستطع الغازى أن يستخدم مواد للبناء غير هذه ، فهو بلا ثروة أو أتباع يسودهم ، وفى عام ١٨٥٢ م كانت المدينة العظيمة فى المستقبل قرية كبيرة " إذ يختلط روث الثيران أو الخيل بطين الشارع كما كان أمام بعض الأبواب بقايا من أشلاء حيوانات وقد تعفنت " (٣٧) .

وخلال تلك الفترة طاف بأمريكا وأوربا كتاب" الفصيح " للأرجنتينى سارمينتو Sarmiento ، فمن أجل العمل المتكامل والتعبير عن الذات لم يكن من الضرورى القيام بالأعمال اليدوية المنحطة ، وهنا نجد سارمينتو يصنع حلولاً للتخلص من المشاكل التى تعانى منها بلاده وهى عبارة عن برنامج يشبه برنامج الحاصل على الليسانس فرنانديث دى نابارّتى عام ١٦٢٦م ويتمثل الحل فى جلب الناس من الخارج وأن يعمل آخرون " فى شق الأنهار القابلة للملاحة النهرية وبناء السواقى للرىّ... أما الجيل الثانى من أبناء هؤلاء فقد أصبحوا إسبانا ، ومن هنا يمكن توطين إسبانيا بالبشر وهذا هو هدف هذه الخطة " [صـ ٤٠٨] ويجب جلب السود " للإفادة من بعض المناجم كثيرة العدد المتوفرة فى إسبانيا " وهؤلاء السود " سوف يصبح الجيل الثانى أو الثالث منهم من البيض ، ولو لم يكونوا كذلك فلا مانع طالما أنهم قادرون على فلاحة الأرض والعمل " [صـ ٤٨٢] وبالنسبة لفلاحة الأرض كان هو ما حدث فى البرازيل .

يبدو كل شىء لأول وهلة وكأنه محاولة لتعديل وتصحيح مسار التاريخ الإسبانى غير أن الجوهر هو عكس ذلك ، فالنقد السلبى الذى مارسه فرنانديث نابارّتى وأسفه لفقر الأرض وقلة سكانها كان يمكن أن يعبر عنه واحد من أفراد عصر التنوير مع الفارق هو أن المؤلف لم يكن يشك فى أن حالة الخواء التى كان عليها الوضع لا تنفصل عن نمطية الحياة الإسبانية ، وكانت الحلول المطروحة تعنى الجمع بين عدة حلول ميكانيكية وجلب أناس للقيام بما كان يقوم به اليهود والمور ، دون أن تتخلى السلالة السائدة عما هى عليه ، وما كان مستوحشًا هو غيبة تلك السلالات الأخرى وهذا ما يظهر فى هذا الحنين إلى الماضى :

> فأنا على اقتناع بأنه لو جرى البحث عن نمط ليحصل هؤلاء (المور واليهود) على شىء من سمات الشرف ، وأن يكونوا خارج دائرة الاحتقار ، قبل أن يصلوا إلى حالة اليأس التى أدت بهم إلى الأفكار السوداء ، لكان من الممكن أن يدخلوا إلى معبد الفضيلة من خلال بوابة الشرف والعمل فى طاعة الكنيسة الكاثوليكية (صـ ٤٦٦) .

غير أن جهله بتاريخه والسذاجة العقلية لهذا النوع من الطرح أصبحا واضحين إذ كان فرنانديث نابارّتي يحكم بسلالة مثالية فريدة ،دون أن يفكر فى أنه لو انخرط اليهود والمور فى دائرة " القيمة الجوهرية " لكانوا قد تركوا الأعمال التى يقومون بها والتى بدونها لتعرضت إسبانيا للانهيار .

وإيجازاً للقول فكل ما تمت الإشارة إليه فى هذا الكتاب (٣٨) يتسم بالرصانة وهو ملىء بالمعانى والكدر عند من يعرف ماهيته وذاته ويرغب فى أن يكون شيئا آخر . إلا أن فرنانديث دى نابارّتي يتصور مجنون بيت القاصد الرسولى Casa del nuncio (رواية دون كيخوته ـ الجزء الثانى ،١) وقد شُفى من مرضه وعندما خرج صرح لواحد من زملائه قائلا " إذا ما كان هو جوبتر ولا يريد لها أن تمطر فأنا نبتون ...وسأمطر ما شئت " ويرى مستشار الملك أن الآداب

> عادة ما يترتب عليها بعض الحزن الذى يغلف العزيمة ويقف حائلاً دون المساهمة المرحة فى المهام الخطيرة دون أن يتولد عن ذلك أى توقف ، ولهذا أطلق على آلهة العلوم" مينرفا quasi minuens nervos والأمر هو ميدان ملىء بالنماذج الإسبانية ، فطوال الوقت الذى استغرقوه فى طرد المشارقة اتسموا بالفظاظة وقلة الأعمال الأدبية ومن أجل معالجة ذلك القصور أسس الملوك الجامعات والمدارس (٥٤٢) .

وهذه واردات من الخارج نضيفها الآن ، وليلاحظ القارئ مدى حميمية العلاقة بين نمط الحياة الإسبانية والدفاع عن وجودها ، كما لوحظت نواحى القصور فيها ، وهناك معاناة من الآثار الناجمة عنها .

وسارت على نفس الدرب المثالى أعمال السيد دييجو دى سابدرا فاخاردو de.D Saavedra الذى مثّل إسبانيا فى مؤتمر الإعداد للسلام فى ويستفاليا Westfalia {١٦٤٨م} وهو كاتب انتشرت أعماله وترجمت إلى اللغات الأجنبية ، ويأسف للفقر والمتاعب التى يعانيها وطنه وسرعان ما نظن أننا عثرنا فيه على شخص تأوْرَبَ وقرر

ضرب الأنماط التقليدية للحياة ، لكن لم يحدث شيء من ذلك ، فالسيد دييجو يشعر بمثل ما يشعر به إسبانى القرن العاشر عندما تحين ساعة إظهار آخر المبادئ ، عالمه هو عالم المعتقدات :

"أمر السيد خوان دى أستورياس بتطريز الليب على أعلامه وراياته ومعه هذه العبارة" استطعت بهذه الأسلحة هزيمة الأتراك ، وآمل أن أنتصر بها على الملاحدة" ... فأنا أعتمد عليها وعلى لواء قسطنطين بغية بث الثقة لدى الأمراء حتى يتمكنوا من هزيمة الأعداء فى الدين ... وإلى جوار هذا اللواء سوف تقف الأرواح الإلهية ، فقد شوهد اثنان ، وهما يمتطيان جوادين أبيضين ، ويحاربان فى مقدمة الصفوف فى معركة سيمانكس Simancas التى استطاع فيها الملك السيد / راميرو الثانى هزيمة المور ... ففى معركة ماردة Merida ، على عهد الملك ألونسو التاسع ، ظهر ذلك الشعاع الإلهى ابن الرعد سانتياجو حامى إسبانيا ، وقاد القوات بينما الدم يتقطر من السيوف المصنوعة من الصلب (٣٩) .

وهذه العقيدة ، الإسبانية الصرفة ، كانت بمثابة العصارة واللحاء لشجرة الحياة الإسبانية ، وفى إطارها نجد كيبيدو وجراثيان وكل هؤلاء الذين استطاعوا التعبير عن شيء مما يشعرون هم به نحو أنفسهم ونحو إسبانيا ، إنها عقيدة وليست فكراً (٤٠) وقيمة جوهرية وشرف وروح السلالة وكلها بمثابة شيء واحد وهو تسعمائة عام من التعايش المسيحى الإسلامى اليهودى .

كان يتم القضاء على كل محاولة للتفكير كما يتم رفض النتائج المتعلقة بمن سار على هذا النهج ، فكل من لا يحققون ذواتهم ، وكل من لا يضفون على حياتهم الواقعية الكافية من خلال الفن والبطولة أو السيادة يشعرون بخوائهم وفراغ نمط الحياة التى يحيونها وأنهم يسبحون فى لا واقع الحلم، ولقد فعل ليون دى كاسترو Leon de Cas-

tro، أحد اللاهوتيين فى سلمنقة ، كل ما فى وسعه للقضاء على لويس دى ليون L. de Leon والقضاء على الكلية البحثية التى أقامها ، وتمكن من ذلك ، لكن لويس دى ليون أصبح خالداً من خلال أشعاره ومن خلال إحساسه بالكدر ، لكنه مات ومعه الأفكار حبيسة رأسه ومسجونة فى دهاليز سجون محاكم التفتيش ، غير أن لويس دى كاسترو اعترف ببعض الأشياء لأنطونيو بيريث ذلك الرجل الغريب والملتوى الذى كان يقوم بأعمال السكرتارية لدى فيليب الثانى ، فقد طلب منه الملك أن يتنازل عن مكتبته ليضمها إلى مكتبه الأسكوريال ، فما كان من بيريث إلا أن أعطاها .

للسكرتير أنطونيو جراثيان والعالم ليون دى سلمنقة ذلك البارون اللاهوتى واليونانى ... وكانت المكتبة تضم أعمالاً لسان خوان كديسوستمو القديمة ... وكان العلامة ليون [٤١] يقول بأنه صديقه " يا سيد أنطونيو خذ هذا الكتاب فهو أحد كتبى ومن نتاج عملى وجهدى وسوف أذهب إلى باريس وسأطبع كل هذه الكتب وأؤكد لكم أن العملية سوف تكلفنا ٥٠,٠٠٠ اسكودو أما المكسب فسوف نتقاسمه مناصفة ... وهذه الكتب سوف تكون كنزاً تحت الأرض فى سان لورنثو " [٤٢] .

إلا أن مخطوطات الأسكوريال ظلت مثل كنز خفى بسبب آل دى كاسترو التى كانت فى إسبانيا حيث أن تاريخها (أى المخطوطات) الأساسى يقوم فى الأساس على الاعترافات العامة أو السرّية للإسبان أكثر من دخولها فى التاريخ الرسمى ، وقد كتب رجل الدراسات الإنسانية نونيث Nunez (مخترع nonio) إلى المؤرخ خيرونيمو دى ثوريتا يشكو من مطاردة الآداب الإنسانية " للأخطار التى تنطوى عليها مثل أن يعدل الإنسان مكان شيشرون Cicer?nوسوف يقوم بتعديل الكتابات المقدسة ، وهذه الحماقات وغيرها تثير حفيظتى وتحول دون مواصلة التقدم فى طريقى "

وهناك فقرة تزيد على السابقة وكل ما عرفناه سابقًا فى نغمة الكدر وهى من تأليف الأب خوان دى ماريان حيث يتحدث فيها عن أن محاكم التفتيش جعلت الإسبان يشعرون بأنهم " على شفا الموت " ، وقد علق باللغة اللاتينية – خارج إسبانيا – على نتائج محاكمة فراى لويس دى ليون :

> لقد أثارت هذه القضية فضول الكثيرين لمعرفة نتيجة المحاكمة ، وعادة ما يحدث أن يتولى أناس اشتهروا بعلمهم وحسن سمعتهم الدفاع عن أنفسهم ، وهم فى السجن ، ضد خطر غير هيّن على الحياة والسمعة الطيبة ، وهذا أمر محزن بالنسبة لأهل الفضيلة : فمقابل قيامهم بالجهد العملاق عليهم تحمل العقبات والاتهامات الصادرة عن هؤلاء الذين كان عليهم أن يدافعوا عنهم ، لكنهم أصبحوا مثالاً لتثبيط همة الكثير من الناس النابهين الذين ضعفوا وخارت عزائمهم ، ولقد ثبطت المسألة التى نتحدث عنها عزيمة من كانوا يتأملون الخطر البعيد والعواصف التى تهدد هؤلاء الذين يدافعون بحرية عما يفكرون فيه ، وبهذه الطريقة ينتقل الكثيرون إلى الميدان الآخر (٤٣) أو يسيرون على هوى الظروف . وماذا نحن فاعلون ؟ وأقصى درجات الجنون تكمن فى العناء بلا جدوى وإرهاق النفس ، وفى المقابل جَنْى الكراهية ، فمن يسيروا على آراء العامة يعيشوا فى رغد من العيش ويشجعوا على الأفكار التى تروق للناس وغير المحفوفة بالخطر غير أنها لا تعنى كثيراً بالبحث عن الحقيقة (٤٤) .

ويتضح من هذا النص الاختلاف مع سياسة محاكم التفتيش وما كتبه الأب دى ماريانا فى نهاية القرن السادس عشر له علاقة بالفقرة التى ذكرناها لإيرناندو دل بولجار والتى تعود إلى نهاية القرن السابق ، فالإسبان التقليديون لم يفكروا أبدًا فى

إدخال تعديل على عقيدتهم والسبب هو افتقارهم للروح الفكرية التى تقوم عليها أية محاولة للتعبير عن الاختلاف فى وجهات النظر ، غير أن هذا لم يحل دون قيام الكثيرين بالتعبير عن ضيقهم من محاكم التفتيش ، وإذا ما كنا نعرف أن تلك المحاكم ذات طبيعة عرضية وغير متسقة مع ماضى المسيحية فى شبه جزيرة أيبيريا فلا نشعر بالمفاجأة للانتقادات الموجهة لها ، وللحيلولة دون العدوان على العقيدة يتم إلحاق الكثير من الأذى بالكثير من الجوانب الأخرى ومنها التشجيع على الخمول العقلى والشلل الكامل فى استخدام الألمعية خشية حدوث مالا يحمد عقباه والدخول فى صدام مع رجال محاكم التفتيس ، ولقد كانت الأحكام تستند إلى أساس هش هو الاتمهم والشك وكان الضحايا يظلون فى السجون سنوات طويلة وأحيانًا يموتون هناك قبل أن تبدأ محاكمتهم [٤٥] وإذا كان الإسبانى ميّالاً بطبعه إلى عدم إعمال عقله فقد زاد منه الفزع والرعب من محاكم التفتيش ، يقول الأب دى ماريانا " لقد تم تثبيط عزائم الكثير من الرجال النابهين وإضعاف جهودهم والقضاء عليها " وقد أفصح محرر الصحائف الكبير/ دييجو دى ثونيجا ، عن أن أى محاولة لتفسير الإنجيل تختلف عن المصرح به كان ينظر إليها على أنها إسرائيليات : " فالصياح الأحمق لهؤلاء الناس (أى لمحاكم التفتيش ومن نحا نحوها) أثار الرعب لدى الكثير من المحررين وانتهى بهم الأمر إلى مباعدة أنفسهم عن مهمتهم النبيلة والمقدسة ، ذلك أنهم يعتقدون فى استحالة قيامهم بدراسة الكتب المقدسة وبعدهم عن الخطر المحدق بهم " [٤٦] وخلال نفس الفترة نجد واعظ فيليب الثانى وهو الأب ألونسو دى كابريرا يقول فى إحدى مواعظه " لقد انتقلنا من طرف إلى نقيضه : فحتى لا يوصف المرء بالنفاق أخذ يفصح عن فسقه أو يتظاهر به ، وأصبحنا نجد الخوف من الاتمهم بالإلحاد يحول الناس إلى الغباء وعدم الرغبة فى القراءة [٤٧] . ولابد أن عدم الرغبة فى القراءة خوفًا من محاكم التفتيش تحولت إلى صورة موروثة لدى العامة وارتبطت بخوف العلماء الذى عبر عنه كل من ثونييجا وماريانا ، وقد أدخل ثربانتس الحوار المرح التالى فى إحدى المشاهد المسرحية القصيرة entremeses

أجرّوبو : هل تعرف القراءة يا سيد أوميّوس

أوميّوس : لا ، فى واقع الأمر

ولم يثبت ذلك عن أسلافى

إن أى فرد منهم

أخذ يتعلم هذه الأمور

التى تذهب بالمرء إلى المحرقة

وبالنساء إلى منزل الساقطات

ولقد عبر لويس دى جونجورا L. de Góngora عن المخاطر المحدقة بالفكر والثقافة من وراء محاكم التفتيش عندما قال لأسقفه عام ١٥٨٨م إن معرفة اللاهوتية ضعيفة فقد رأيت أن من الأفضل اتهامى بالجهل بدلاً من اتهمى بالإلحاد " (٤٩) ويمكن القول بأن النصوص الخمسة التى أشرنا إليها تغطى الحياة الإسبانية خلال نهاية القرن السادس عشر بحيث تشمل المناطق الرفيعة والوسطى والشعبية ، فعدم الفكر وعدم المعرفة وعدم القراءة كانت كلها وسائل للحماية من السادية وممارسة رجال محاكم التفتيش قانون الطيور الجارحة فتلك كانت وسيلة فعالة للضعف الثقافى الذى كان عليه الإسبان خلال تلك الفترة وعوضًا عن ذلك وجدنا الأساليب المنمقة ، فالروح ترنو إلى الحرية وهى الحرية ، إلا أن نمط الوجود ، حتى القرن الخامس عشر ، المغلق أمام أى محاولة موضوعية ، فصل الغضب الشعبى لأعضاء محاكم التفتيش وبذلك أصبح هذا الغضب بالنسبة للروح يقوم بنفس الدور الذى تقوم به المؤسسة الاجتماعية والاقتصادية قبل عام ١٥٠٠م ، إزاء الحياة المادية للعامة والقهر والاعتساف ، والأمر الخطير هو أن الروح الإسبانية لم تكن آنذاك مهيأة للدخول فى صراع مفتوح فى ميدان الألمعية ، وربما حاول ذلك بعض من ذرية اليهود وضد هؤلاء نهض خبراء المحاكم الذين ورثوا الحقد الدفين من البيع اليهودية ؛ وتفادى الناس من المسيحيين الأسوياء ذلك الصراع الدّرامى وانتهى الأمر بالأب ماريانا إلى القول (أية صراحة ؟)

بأن محاكم التفتيش كانت عطية سماوية فطبقًا له نجد أن " أعلى مراحل الجنون هو بذل الجهد بلا طائل وإجهاد النفس للحيلولة دون حصاد الكراهية " ويلاحظ أن ماريانا يتراجع إلى الوراء إذا ما شعر أن خطواته إلى الأمام قد ذهبت إلى ما هو أبعد من اللازم فى دائرة تحديه للقهر الاجتماعى ومحاكم التفتيش ، ولهذا كان يكتب أحيانًا باللاتينية وأخرى بالرومانثية ؛ ولهذا السبب نفسه نجد ثربانتس كتب النسخة الأولى من " رينكونيتى وكورتاديو " Rinconete y Cortadillo وكتاب " ابن إكستريما دوراً الغيور " حيث نرى مساحة من الحرية أكبر من تلك التى كانت عنده عندما قام بإرسال النص إلى المطبعة ، ومن يجهلوا ولا يشعروا بالحياة الحميمة للإسبان خلال القرن السادس عشر فسوف لا يرضون عن تسميتنا لها بالنفاق ، إلا أن ماريانا وثربانتس وكيبيدو وآخرين غيرهم لم يكونوا غير صرحاء وغير صادقين فى عقيدتهم الدينية ، كانوا يأخذون حذرهم من السلطة القوية التى يعتبرونها حمقاء ومؤذية وعدوانية وأحيانًا ما يغلفون آراءهم المغايرة بمسحة من الحذر أو السخرية أو الفكاهة وهذا ما رأيناه عند ثربانتس ، وأكثر الناس ألمعية وحرية (ثربانتس ولوبى دى بيجا وفرنانديث دى نابارّتى وكيبيدو وآخرين) يقول بأن البلاد تعانى من تورّم فى مجال الرهبنة وأحيانًا يشيرون إلى الأمر على أنه أحد أسباب الانحطاط القومى ، ولم تكن إسبانيا القرن السابع عشر كلاً متكاملاً من الناحية الاجتماعية رغم عيشها فى إطار العقيدة ، وبغير ذلك لا نفهم التفكك الذى عاشته البلاد فى نهاية ذلك القرن وتغير معالم تاريخها خلال القرن التالى ، فالأدب والفن الباروّك هما مؤشر واضح على الانشقاق بين وعى الفرد والمجتمع الذى يعيش فيه ، ومن هنا ندرك أن محاكم التفتيش كانت مرغوبة وغير مرغوبة فى الوقت ذاته وحامية للعقيدة وجلاداً للمؤمنين ، وعند إقرار محاكم التفتيش لم ينج أحد من سلبياتها كما لم يتم قبولها من السماء ، كما أن الحجج القوية ضد محاكم التفتيش - التى ظلت قائمة حتى عام ١٨٣٣م - كان لابد من استيرادها من الخارج العقلانى ، ولإظهار الآثار المترتبة على نشاط محاكم التفتيش لابد من اللجوء إلى الفن الذى استخدمه خيرونيمو بوسكو J. Bosco أو فن جويا Goya فى لوحته " Capri-chos " " خطرات " ، ورغم هذا فإننا نجد الأسلوب اللاواقعى لكيبيدو وجراثيان والرسائل الحميمة للوبى دى بيجا (٥٠) يقربااننا أيضا من العدمية التى كان عليها مجتمع محاكم التفتيش حيث يتلوّى الخالد والفانى فى رقصة نشطة Zarabanda.

ولابد أن يكون كل شيء على هذا النحو ، طبقا لنمط العيش الإسباني ، ولا يجدر بنا تضييع الوقت في ذكر السلبيات التي سببتها إمبراطورية العقيدة أو البرهنة على أن الفظاظة والخمول العقلي هما الحجاج الذي تخلفه الشعوب التي تتماسك على أساس العقيدة فقط ، كان على إسبانيا أن تكون شعبًا بمن في ذلك العامة الذين نراهم من خلال مسرح القرن السابع عشر والفلاحون والفقراء الذين لا يجدون مكانًا لهم بين الأشراف (السيادة على الطريقة الحديثة) والمنتشرون في كافة أنحاء شبه الجزيرة ، لكن التاريخ ليس وقفات أو تسجيل وقائع بل عبارة عن رؤية الأسباب والعناصر المؤثرة فالرغبة والتشوق إلى القيم المطلقة على أنها واقع محض ومُعاَش لا تتسق مع الفكر الذي عليه الأب ماريانا وبعض المعارضين الآخرين ، كما كانت تتعارض أيضًا مع الرفاهية والازدهار اللذين يرنو إليهما فرنانديث دي نابارّتي ومعه جُلّ إسبان ذلك العصر والعصور التالية .

وختامًا مؤقتا :

من الأفضل أن يخدع المرء نفسه بالسير في الطريق الذي رسمناه في هذا الكتاب بدلاً من إدخال ما هو إنساني في دائرة " الوقائع " بمعنى إدخاله في أطباق ليس لها أي انسجام تاريخي حيوي ، إننا لم نحاول رسم معالم تاريخ بالمعنى المعتاد للكلمة بل حاولنا تقديم نوع من التوجيه حتى يمكن كتابته في يوم من الأيام ، وبالنسبة لهذا المشروع الخاص بسيرة إسبانيا فقد أفدنا من تلك الظواهر التي نرى أن نمط الحياة يعبر عن نفسه بطريقة مباشرة : أي من خلال اللغة والأدب والاعترافات الحميمة وكل ما يمكن أن ينطوي على البنية الحيوية للفرد ، ونودّ – لو كان ذلك ممكنا – أن نعالج الكيفية التي عاشت بها إسبانيا في اللاعيش خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، أي عندما أخذت السمات الإسبانية تكتسب أبعادًا عالمية ، لكننا رأينا حتى الآن أن مسار تلك الحياة لا يمكن تقسيمه على طريقة التاريخ – الحياة التي عليها بلاد أوربية أخرى ذلك أننا قد ذكرنا الأسباب كما أننا نجد أنفسنا محاطين بعودة ظواهر مشابهة ، فلقد تحدث مننديث بيدال عن سمات أساسية " في الأدب الإسباني عندما

لاحظ تكرار بعض القوالب والموضوعات الشعرية ، كما نوّه أورتيجا إى جاسيت إلى البطء الواضح " "tardígrado في التاريخ الإسبانى .

وظواهر الحياة خلال القرن السادس عشر ليست تلك التى نجدها خلال القرن الثالث عشر ، فلقد تدخلت في نسيجها خيوط ذات ألوان مختلفة ، وأيا كانت درجة ثبات الأفق والصعوبات والمنشطات التى كان على الإسبانى مواجهتها على زمن كارلوس الخامس وفيليب الثانى فإن النول والنساجين ظلوا على ما هم عليه فالسياق المسيحى الإسلامى اليهودى ظل كما هو : أصحاب الشطحات والمتصوفة والزهاد والهيمنة الدينية للدولة (٥١) والنقد فاقد الأمل للمجتمع وطهارة الدماء ومحاكم التفتيش وموضوعات الشعر العربى عند لوبى دى بيجا وجونجورا وتيرسو دى مولينا وكالديرون ..الخ (٥٢) . والمفهوم الساذج التاريخ قد ينتظر ظواهر ثقافية من نمط مختلف أى التحليل العقلانى للطبيعة والإنسان ، ومما لاشك فيه وجود انعكاسات مهمة للفكر الإيطالى (نبريخا وجارثيلاسو والبتراركية وأفكار عصر النهضة عند خنيس دى سيبولبيدا G. de Sepúlvída وفرانثيسكو لوبث دى جومارا والإيراسميين والدكتور أندرسن لاجونا والعمارة ذات الطراز الإيطالى في خدمة النبلاء والكنيسة ..الخ) إلا أن وجود هذه العناصر الغريبة يرتبط بضرورة التكامل التى شعر بها الإسبانى ثم دخلت إلى حياته كعناصر ضرورية وتوجهات عملية للحياة ، وحدث نفس الشيء خلال القرن الحادى عشر (كلونى) وخلال القرن الثالث عشر (القوطية والقصائد المسماة Cuadernaوالقانون الرومانى فى بولونيا) ثم نراه يحدث بعد ذلك خلال القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين ، ولتلاحظ عزيزى القارئ أن الاتصالات التى جرت مع الثقافة الإيطالية خلال القرن السادس عشر لم ينشأ عنها ظهور أى نوع أدبى إسبانى الطابع وصالح عالميا ، غير أن الرواية والمسرح كانا عكس ذلك حيث كانا على اتصال حميم بما يريده الإسبانى ويحلم به ويؤمن به ويكرهه في آن واحد ، أما ما لايزال يحتفظ بقيمته وما ترك أثرًا لا يمحى خارج إسبانيا فإننا نراه فى التعبيرات المتكاملة عن الحياة وهو الإنسان الحى من لحم ودم يحمل منزله على كتفيه .

وأحيانًا يشعر المرء بالمفاجأة عندما يرى الملامح الإسبانية ذات السياق المسيحى الإسلامى اليهودى تظهر بقوة فى الوقت الذى لا يوجد فيه مور أو يهود بشكل رسمى فى إسبانيا ، وفى العصور التى نجد فيها رجالها من حملة السلاح وحملة القلم يزهون بانتصاراتهم فى أوربا . وقد تحدثنا سلفًا عما كان يشعر به كيبيدو وسيأبدر فاخارد وعلى نهجهم كان الآخرون كافة اللهم إلا بعض من خرج من الصف من الملاحدة والذى لم يفعل ولم يصل إلى شىء من موقفه . كانت أوربا تشعر بالانزعاج عندما تصل إلى الطبقة العميقة لما هو إسبانى ، وعندما تم إغلاق الأبواب ، دفاعًا عن النفس فى مواجهة هؤلاء الذين يهددون بتفكيك " القيمة الجوهرية " ، وضد أى محاولة لكسر العيش المتكامل بين الفرد الذى يعرف أو يفعل ، وبين الشىء أو الحدث الموضوعيين اللذين يستعصيان على دائرة الإنسان الغارق فى معتقداته ، نجد إسبانيا تنكفئ على نفسها أكثر وأكثر وغاصت فى تلك العناصر التى ساعدتها على تحقيق الانتصار والخلاص من قرون من التبعية واللاأمان ، فإسبانيا التى حلمت أن تكون إمبراطورية (طبقا لأونامونو) عندما كان ملوك ليون يعتمدون على القديس سانتياجو ، أخذت أعلام نصرها - خلال القرن السادس عشر - ترفرف على أوربا وعلى الأراضى الخاصة بالعالم الجديد . وحقيقى أيضًا أن إسبانيا الإمبراطورية لم تعرف السلام ذات يوم أو تتخلى عن حالة الضيق والكدر ، فالمنجزات العظيمة التى حققتها هى تلك التى تمت من خلال إدراج حياة أخرى فى دائرة الحياة الإسبانية من خلال التوحد الحيوى وليس الانقسام إلى وحدات موضوعية ، فلم تحمل إسبانيا إلى العالم الجديد الفكر والتقنية لكنها تمسكت بالناس الجدد وضمتهم إلى دمها وإلى عقيدتها والى لغتها والى نمط العيش الذى هى عليه ، واتسعت الدائرة الإسبانية فقد اتسمت بالمرونة والقوة لدرجة استحال معها كسرها ، وسوف يظل الإسبانى - الأمريكى إسبانيًا هنديًا - فى أغلب الأحوال - أو إسبانيًا أسود وسوف يظل كاثوليكيًا (على الطريقة الإسبانية) وسوف يستخدم اللغة الإسبانية للتعبير عن نفسه باعتزاز وسوف يشارك فى النمط المتكامل للحياة الإسبانية وفى حالة الكدر الملازمة لهذا الكيان التاريخى ، فسلالة الشرف فى الزمن الماضى هى الآن سلالة السادة ، فى أسبانو أمريكا ، الذين فقدوا

صبرهم عندما فقدوه عام ١٥٩٠م حيث لم يكن لديهم خدم واعتبروا أن حمل الشنط والأحمال الأخرى أمرٌ غير مشرّف ، وهم السادة الذين أعربوا عام ١٦٢٦م عن خجلهم فى مدريد من نقل الفواكه التى يشترونها بأيديهم ، أمر جاد ذلك المتعلق بوجود الإنسان فى نمط حياتى معين ، ومن هنا علينا أن ندخل المزيد من التنظيم على اللبس الناجم عن إطلاق لفظة " الشعبية " على تدخل إسبانيا فى أمريكا أو الفصل بين تاريخ أسبانو أمريكا سيراً على مناهج سياسية صرفة أو محاولة طمس اسمها وإطلاق مصطلح أمريكا اللاتينية عليها ، وكل هذا إنما هو مجرد جوانب للتاريخ العميق الذى يذهب بنا ولا مناص إلى العيش فى اللاعيش وكأننا نشهد صراعًا دراميًا بين الإنسان وظله .

وبعد الحصبة العقلانية خلال القرن السادس عشر (الإيراسمية والإيطالية ..إلخ) التى لم تتمكن من كسر إطار نمط العيش ، نجد أن الإسبانى يفيد من كل ما تعلمه أو أضافه ليتخذه وسيلة يعبر بها عن جوهره من خلال هياكل ذات قيم رفيعة ، ولم يكن بيلاثكيت على ما هو عليه لولا التراث التصويرى الإيطالى ، لكن ما الذى يمكن أن يصل إليه لوتلّد ثيثيانو **Ticiano** أو تينتوريتو **Tintoreto**؟ إذن فلمحة العبقرية ترجع إلى جذور إسبانية ، فهى غير إيطالية أو فلامنكية ، فبيلاثكيث لم يُعْنَ بماهية البساط وهى منسوجات يسيطر عليها الفلامنك كما كانت قبل ذلك محتكرة من قبل المور أو اليهود ، فالأهم هو المشوار الوجودى للبساط فى إطار السياق الذى يعيش فيه من يقومون بتصنيعه ومن يتأملونه بعد ذلك ، فالفنان يتعايش مع نشأة إبداعه من العدم وذلك من خلال تلك النسّاجات التى تشكل العمل باليد ، وفى لحظة أخرى من لحظات وجود العمل الفنى نجد النسيج معلقًا ويظل يعيش فى وجود تلك السيدات الراقيات اللاتى يتأملنه ، فالبساط بكامل كيانه سواء بسواء فى لحظة الإبداع أو عند الانتهاء منه وتأمله بعد ذلك ، وتحين أمامنا الفرصة لنسير على نهجها وطبقًا لميولنا فى الطريق الواقع بين الوجود وبين الكيان الذى نتأمله على أنه موجود ونأخذ مسارنا نحو الأمام أو نحو الخلف ، لكن كيف لنا أن نقترب بفاعلية من تلك الظاهرة اللهم إلا من خلال الوعى الوجودى المسمى " حديث " أو جديد **nueva** أو رواية ؟ فالنسّاجة التى تستخدم

سيقانها الثابتة والعريانة ، هى بالنسبة للبساط مثل ما عليه رودريجيث دى بيبار عندما يكون مالكًا لطواحين فى قرية أوبيرنا بالنسبة للسيد " الذى تمنطق سيفه فى لحظة طيبة " وهى نفس العلاقة بين ألونسو الكيخانو الذى يأكل العدس وبين " فارس الشخصية الحزينة " C. de la Triste Figura وفارس الأسود .

ومن الإنجازات العظيمة " حديث " ما نجده فى لوحة " لاس منيناس " حيث نراقب المبدع والإبداع وما تم إبداعه ورؤية من يتأمل ذاته فى نهاية الأمر كمبدع فى إطار إبداعه – حديث ، حدوتة – وهو تيار دائرى لظواهر العالم والحياة فيه ، إنه نوع من الغرابة يلفنا جميعًا ، كما نجد ذلك فى لوحة " تشييع جنازة كونت أورجاز " (٥٣) حيث نجد هبوط الجسد السماوى لذلك السيد الطليطلى والتحامه بالجسد الفانى والأرض أو صعوده من الجسد الفانى إلى الجسد السماوى ، وكلا الشيئين مقبولان فهما جوانب يتم تأملها سواء من السماء أو من الأرض فوجودهما عبارة عن الظهور كجسد أرضى وسماوى ، وتظهر شخصية سان استيبان للجريكو كدائرة متراكزة وضيقة تمثيلاً لهذا النوع من الوجود ، وهى عبارة عن فتى يافع ملىء بالحياة والشهيد الذى صعدت روحه إلى بارئها إثر الرجم بالحجارة ، إنها عملية ذهاب وعودة دائمين وكل منهما وجّه للآخر حيث ينضم إليه " وأنا الذى أراه" و " أنت الذى تراه ، وهما تعبيران معتادان لهما مغزاهما ، كما يعكسان الحاجة الإسبانية للوجود كمتأمل وكهدف للتأمل ، وكأنه يمثل أحد الجوانب ، أو عيد غطاس أبديًا ، وهاهو ذا أمامنا هيكل العيش فى ملحمة السيد وعند بيرثيو ومن خلال أغانى العذراء للملك العالم وعند خوان رويث وثربانتس ولوبى دى بيجا وبيلا ثكيث وأونامونو ، وهذا الأخير كان أول من صوّر ذلك فى نظرية ورسالة وجعلها إنجيلاً إسبانيًا ليسمعه الناس وليكون مفتاح وسبب اللاعقلانية الإسبانية .

وإذا لم نكن قد أخطأنا المسار فما هو إسبانى هو الشىء كأنه " أنا أحيا حياتى أنا وكأنه ذاتية أبدية قاصرة على كل ما يتعلق بالوعى بأنه يعيش شريطة ألا يكون قد جاء بطريق تلقائى . وهنا نجد من غير المجدى محاولة الشئ الخارجى الدخول إلى

حصن الإقامة الحميمة بغية إنقاذه وتحويله إلى معرفة ، فالمعايشة لا يمكن جعلها موضوعية إلا على أنها " مُعَادل " ويوجد ما يراد له أن يوجد ، يتم العيش داخل الزمن الخاص بالوعى الفردى دون أن تكون هناك فرصة لتشكّله (الزمن) من خلال الأشياء الموضوعية ، وعند فصل العيش فى حد ذاته نجد تاريخه يسكن ويهدأ وكأننا أمام بحيرة تقوم بدور المرآة للأبدية وهذا موقف لا يرضى الإسبانى رضًا كاملاً ، والى جوار الإسبانى وبالقرب من حدوده نجد الزمن يتمحور فى طبقات متتالية ، فبعد صياغة كتاب بخط اليد يتم قولبة الكتب فى المطبعة ، وبعد إطلاق السهم نجد القذائف التى يستخدم فيها البارود وهكذا نجد الحياة مستمرة خارج إسبانيا حتى عصرنا الراهن وهى حياة ذات إيقاع تصاعدى وفى تحوّل دائم – من عصر البخار إلى عصر الكهرباء والراديو والطاقة النووية ..الخ .

وكان على الإسبانى أن يتخذ هذا الزمن الموضوعى كرداء خارجى ، إلا أنه عندما يدخل على حياته يؤدى إلى خلق مواقف غريبة وغير معتادة ، لكنها لا يمكن مقارنتها بما عليه تلك الشعوب الأخرى ذات الجوهر الضعيف وتقوم بالاستيراد الميكانيكى لما صنعته شعوب أخرى فلقد عاش الإسبانى ما يمكن أن نطلق عليه استيراد المور واليهود والفرنجة أو أيًا كان ، بشكل درامى وكأنه تقوقع نحو الداخل ، والعودة بعد الطلعات الكبرى إلى الخارج اتسمت بالدموية والمأساوية فى عملية تبادلية بين الإيجاب والنفى ـ وهنا يجب علينا أن ننظر إليها على أنها وظيفة أخرى للحياة على الطريقة الإسبانية ، ولقد عبر أونامونو عن هذا الشد والجذب القدَرى وقاد التعبير عنه بمهارة رغم أنه لم يلمح ماهية ذلك الفرد الذى يخوض كفاحًا عظيمًا ومثيرًا للكدر ، ولهذا كان أونامونو فى حاجة إلى من يضعه هو الآخر فى إطار تاريخه الذى لا يخرج عنه أى ملمح إنسانى .

وفى إطار هذا النمط من الوجود – مثلما هو الحال بالنسبة للعقلانية اليونانية الأوربية – يمكن أن تظهر قيم عظيمة الجدوى ، وهنا فلا نعتقد أنه يجب أن ننفى ما هو إسبانى أو نقدمه من خلال جهد فاشل وتصويره على أنه شبيه بالأوروبى ، ومرت

فترات – وسوف تمر – قامت فيها أوربا بالتغذى على العصارة الإسبانية ، وهنا نعتقد فيما هو أبعد من التقليد أو التأثيرات ، فتاريخ أوربا لا يمكن فهمه بدون وجود إسبانيا التى لم تقم بالاكتشافات العلمية أو قوانين الفيزياء لكنها كانت شيئًا لا يمكن لأوربا الاستغناء عنه ، وسوف يظهر ذلك بوضوح يوم أن تتم دراسة تاريخ كل بلد من منظور العيش فى أزمة مع النفس ، وإذا لم يكن لإسبانيا وزن فى ميدان المعرفة الفيزيائية فهذا لا يعنى أن مسلسل فرناندو دى روخاس (القوادة) وأيرنان كورتيس وثربانتس وبيلاثكيث وجويا ليس له وزن فى عالم القيم العليا للإنسانية وهى قيم ليست أقل أبدًا من ليوناردو وكوبرنيكوس وديكارت ونيوتن وكانط .وعندما لا يصبح المنظور البرجماتى والنفعى والموضوعى هو المقياس الوحيد الصالح لفهم الواقع الإنسانى فإن التاريخ يصبح إنسانيًا وسوف تنسى التجريدات التى تخلو من الروح أو المعنى .

الهوامش

(١) التاريخ الحقيقى لإسبانيا الجديدة – الفصل الأول .

(٢) مقدمة " قواعد الإسبانية " ١٤٩٢م .

(٣) وبعد قراءة ما سبق أجد فقرة لهيجل تقول " وعلى ذلك يجب النظر إلى المنطق على أنه منهج العقل الخالص وكأنه مملكة الفكر المحض ، وهذه المملكة هى الحقيقة بلا مواربة فى حد ذاتها ولذاتها ، وهنا يمكن القول بأن ذلك المحتوى هو عرض للذات الإلهية كما هى فى جوهرها قبل خلق الكون والروح المتناهية Wis-] senschaft der Logik, stuttgart 1928} صـ ٤٥ – ٤٦} .

(٤) نظرًا لطبيعة هذه الدراسة لا يمكن لى الدخول فى تحليل الخصائص المتعلقة بالفُرْس فى إطار الحضارة الإسلامية فقد كان هناك عدد من العلماء المسلمين من أصل فارسى مثل ابن سينا والباطنى ، كما أن هناك الكثير من المخطوطات ذات الأصل الفارسى التى تتضمن أشكالاً طبيعية للحيوان والإنسان ، وأتساءل : هل هناك علاقة بين ممارسة العلم ، كعلم فى حد ذاته ، وبين محاولة تمثيل الواقع على أنه كيان متكامل وقائم بذاته وليس كظاهرة مفتوحة وآخذة فى التشكّل ؟ ومن المؤكد أن المتخصصين فى هذا المجال يعرفون ما أجهله أنا وما أقصده هو تأمل السامية ونفاذها فى الحياة الإسبانية .

(٥) تحظى الاستنتاجات التى خرجت بها بعد البحث فى داخل نمط العيش الإسبانى بدعم من الدراسة التى أعدها هانز فون سودن بعنوان Was ist Wahrheit؟ لعام ١٩٢٧م والتى أعرفها من خلال مقال لخابيير زبيدى بعنوان "حول مشكلة الفلسفة" (مجلة Occidente– العدد ١١٨ لعام ١٩٣٣ صـ ٦٤ وما يليها) .

(٦) هانحن نرى المعنى الحيوى لكلمة apellido بمعنى لقب ، وهذا قاصر على اللغة الإسبانية ، وهى كلمة نشأت عن ظروف خارجة وهى النداء من أجل قيام كل فرد وكل جماعة بالوفاء بالمهمة الموكولة بها ، كما أن اسم الإسبانى يشير إلى ما وراء مستقبله .

(٧) لم يكن هناك شىء يمكن مقارنته بالقديس برناردو وإيكهارت وإسكوتو والقديس توماس وبيكون وأوكهم أو القديس أنسلمو ؛ وأقول فى موضع آخر إن خنيس دى سيبولبيدا لم يعثر فى العصور الوسطى على أسماء جديرة بالذكر إلا تلك المذكورة فى علم الفلك الذى تُرجم على عهد ألفونسو العاشر وهى أسماء عربية أو يهودية أضف إليها ابن رشد وابن باجة ، وعندما كان على فرنان بيدي دى جوثمان إعداد قائمة للعلماء قبل ذلك بمائة عام لم يكن أمامه إلا سنيكا ولوكانو (...)

(٨) أما النظام الإسلامى فنجده من خلال بعض نصوص تقول بأن العالم بيتان وراعيه مملكة والمملكة تحكمها القوانين والقوانين يقرّها الملك والملك راع والشعب يحرسه الفرسان والفرسان يحرسون المال والمال يصنعه الشعب والشعب خادم للعدالة ولا تستقيم شئون الدنيا إلا بالعدالة {الأمثال الطيبة . الفصل الثالث عشر طبعة H. Knust صـ ٢٧٦} (...) .

(٩) يقول كتاب " القوانين " يسمح لليهود بالعيش إلى جوار المسيحيين وهذا حتى يعيشوا فى سجن دائم وحتى يكونوا تذكرة للناس فهم من السلالة التى قتلت ربنا يسوع المسيح " (السابع - ٢٤ - ٢) .

(١٠) هناك كتاب يرجع إلى القرن الثالث عشر لمؤلفه إيتين بوالو بعنوان " Liver des métiers ، وفيه يظهر الصنّاع وهم يشغلون المكانة الملائمة لهم فى باريس وهذا أمر غير متصور فى قشتالة ، ولو حدث لكان أمرًا يتعلق بالمور أو اليهود .

(١١) يقول القرطبى خوان خنيس دى سيبولبيدا " التجارة غير معنىّ بها فى قرطبة أما حمل السلاح فهو من الأمور الرفيعة ، وهكذا نرى أن العناية بالأسرة تأتى فى المقام الأول وبعدها الزراعة ذلك النشاط الشريف والقريب من الطبيعة والذى يقوّى العزيمة والجسد ويعدهما للعمل وخوض غمار الحرب : ويصل الأمر إلى أن بعض القدماء يفضل العمل فى الزراعة على التجارة (....) De appetender gloria] طبعة مدريد ١٧٨٠م - الرابع - صـ ٢٠٦} (...) .

(١٢) يتحدث كتاب Laude Hispaniae لقديس إيسيدرو عن الأرض ومنتجات إسبانيا لكن شيئًا من ذلك لا يَلْمَحُ على روح أهلها ويساعدنا على تحديد سماتهم .

(١٣) De vita beata, en Bibli?filos Espa?oles, pp. 126y 166.

(١٤) حوار أطلق عليه Gonsalus seu de appetenda gloria- السادس والعشرون كما يقول أمبروسيو فى مقدمته لكتاب " أسس الإبحار فى نهر الوادى الكبير " لهرنان بيريث دى أوليبا :" كانت قرطبة ذلك الزمن (حوالى ١٥٢٠م) ليس بها إلا ما يقرب من نصف سكانها فمنذ أن انتهى غزو غرناطة لم يبق أمام سكانها إلا القليل من الممارسات الحربية وهذه الأنشطة كانوا يقضون معظم وقتهم فيها " .

(١٥) " حول الاعتبارات الخاصة بكافة أناجيل كوارسما ، لعام ١٦٠١م (المكتبة الجديدة للمؤلفين الإسبان - الثالث - صـ ٦٠) ياله من منظور رائع اتخذه ذلك النص لنضع فيه بداية رواية " دون كيخوته " .

(١٦) وحتى عام ١٦٣٤م كان ذلك الجيش يقرر مصير شئون أوربا ، وهنا نجد أن البارون/ جوستاف فون أوستو ، عقيد الفرسان المدرسية لدى جوستابو أدولفو السويدى يصف الجيش الإسبانى فى معركة جندلى - أكثر المعرك الدموية فى حرب الثلاثين عامًا - : عندئذ تقدمت بعض الفرق الإسبانية بخطى ثابتة وقد تلاحمت وأصبحت كتلة واحدة ، وكان الأفراد من ذوى الخبرة الطويلة وربما كانت تلك الفرق هى أقوى وأشد الفرق الحربية التى عملت فى صفوفها ولم أشهد مثلها طيلة حياتى ، وتفرّق شمل الجيش الإسبانى السويدى {انظر : بدرو دى مارّاديس فى " ملاحظات حول دراسة قضية بالتيلينا " ١٩٤٣م صـ ١٧٤} .

(١٧) إننا لا نتحدث هنا عن أى فكرة " رومانسية " أو نعبر عن تشاؤم أو عدم الإيمان بالتقدم أو ندعو للعودة إلى " الحياة الطبيعية "؛ فالقضية غاية فى البساطة مثل تذكّرنا أن المطر يبلل الأرض ، ولقد عبّر روسكين عن رؤيته فى احتلال الأشغال اليدوية الفنية محل العمل فى المصانع ، وقد كتب جورج سيمل عام ١٩١١م (وهو حالة من حالات التفكير الطريفة لدى الألمان - يقول : يعتبر العمل الفنى قيمة ثقافية لا يقاس عليها حيث لا يتم تقسيم العمل بشأنه أى أن الإبداع يحمل فى طياته ملامح المبدع فى وحدة حميمة ؛ وما يمكن أن يبدو كراهية فى لإعمال روسكين فليس إلا شغفًا بالثقافة فى واقع الأمر ؛ وبالتالى فتقسيم العمل يفرغ الثقافة وهذه الأخيرة ترتبط بموضوعية مضامينها وتسير فى تطور مأساوى ، وسرعان ما ينتهى الأمر بتلك المضامين بالانسياق فى دائرة منطقها ، فهى مضامين موضوعية لا تدخل فى إطار التصوّر الثقافى للأفراد (...) [Der Begriff und die Trag?die dir kultiu, en logos, 1911, II, p. 24] (...) .

(١٨) الدافع وراء سلوك الإنسان ككائن له روح " هو فى بداية الأمر الاستغناء عن الحالة الفسيولوجية للجسم الإنسانى والابتعاد عن دوافعه وعن الأجزاء الخارجية المتعلقة بالوسط والتى تظهر عادة ضمن هذه الدوافع (ماكس شيلر : مكانة الإنسان فى الكون " - ترجمة خ. جاوس صـ ٥٧ .

(١٩) كان اليهودى موجودًا فى نفس إطار الحياة المتكاملة ، وهنا يتحدث ابن فودة فى كتابه " واجبات القلب " : " إن غايات القلب وقيمة واجباته تكمن فى التضافر والتعاون بين الجسد والروح لعبادة الله أى أن يكون هناك توافق وتناغم بين القلب واللسان وباقى أعضاء الجسد ، وأن يساند بعضها بعضًا ولا تدخل فى تناقض أو اختلاف ... والإنسان الذى لا تتوافق أفكاره مع مظاهر حياته هو إنسان تدينه نصوص التوراة ... ولقد قمت بتعريف معنى وحدانية الله الكاملة وأنها مثل التوافق بين القلب واللسان فى الاعتراف والإيمان بوحدة الخالق " وهناك عادة إسبانية ترجع إلى أصول يهودية " أو مشرقية) ألا وهى الحديث فيما إذا كان على الكاتب أن يؤلفها أو لا ، والدخول فى شروح شخصية تتناول الحديث عن التواضع سواء الصادق أم الزائف إلى غير ذلك من نقاط الخطابة والبلاغة الشخصية التى تمرّس عليها الإسبان والبرتغاليون والتى تجعل الأجانب يشعرون باستغراب شديد ويقفون حائرين عند القيام بترجمة هذه العبارات إلى لغة أخرى ؛ ومردّ كل ذلك هو القلق الإسبانى إزاء التوافق بين " الظاهر " و " الباطن " والخوف من عدم ملاءمة الكتاب لقدرة المؤلف أو عدم وجود تلازم كامل بين الرفعة وجدارة من يحظى بها .. الخ .ورغم أن هذه الطريقة أصبحت مجرّد روتين وفرغت من محتواها إلا أنها لازالت تشير إلى المغزى الأساسى منها . يقول ابن فودة " رأيت أن رجلاً مثلى غير مؤهل لتأليف هذا العمل .. كما أن أسلوبى فى العربية غير رصين وهى اللغة التى كان يجب إن أسطّر بها هذا الكتاب ، ذلك أنها الشائعة بين أغلب معاصريها ... لكنى تخليت عن هذه الغاية (رغم أنه قرّر بعد ذلك الكتابة) {انظر The Duties of the Heart ed. Cit. Pp. 12, 14, 15, 24 } .

(٢٠) بدا واضحًا ذلك التفكك والإحساس به بين الفئات الاجتماعية المختلفة مع نهاية القرن السادس عشر ، فلم يعد هناك أرستقراطيون مثل الذين عاشوا خلال القرن الخامس عشر ، أى هؤلاء الذين يعنون بإبداعات اليهود والمسلمين ، فعندما يتولى أحد علية القوم رعاية الكاتب فإنه يفعل ذلك على سبيل الإحسان (...) أو الإفادة منه كخادم أو سكرتير (..) وقد عبر السيد فرانثيسكو ميراندا - رئيس المرتلين فى كاتدرائية

بلاسنثيا – عن عدم الاهتمام واللامبالاة بالأمور الموضوعية ، واعتذر عن نشر الكتاب بدون إهداء (وحوارات الفلسفة الخيالية لثلاثة فى واحد) ذلك أن " السادة فى هذا الزمان مشغولون بأمور أخرى تسترعى اهتمامهم وميولهم ، فهم غير مهتمين بأن تهدى إليهم هذه الأعمال أو أن يتصفحوها ، ومن هنا بدا لى يا صديقى القارى أن أقدم لك هذا الكتاب وكأننى أقدمه لشخص أعرفه جيدا "(صـ ٣ Ro) ، ولا يعنينا أن ذلك الكتاب كان جديراً برعاية أحد علية القوم أو لا بل ذلك إشارة إلى الفراغ الذى يشعر به الرجل المثقف ويعبر عنه بوضوح . (...)

(٢١) La oposici?n y conjunci?n de dos grandes luminarias de la tierra, Par?s, 1617, cap. Xi.

(٢٢) أشرنا قبل ذلك إلى نص جونثالو فرنانديث دى أوبيدو الذى يؤكد فيه أن الرابطة الوحيدة التى تجمع بين الإسبان المتجهين إلى العالم الجديد هى أنهم من رعيّة ملك إسبانيا ، لنر الآن واقعة تجعلنا نستشف ذلك المعنى من الداخل ، وهانحن نعرض لما كتبه السيد مارتين دى أيالا عن الشعور التى كان يسيطر على مدينة بلنسية فى عام ١٥٦٤م ، وقد كان ذلك الرجل معيناً كأسقف لكنيستها . " لم أكن أميل لقبول الأمر ذلك أنه يتطلب التعايش مع أناس جدد ولا ينتسبون كلية لأمتنا ومملكتنا ، فقد كانت هناك مدينة هى بابل أما الأخريات فقد كانت لغير المؤمنين " (حياة السيد مارتين أيالا ـ نشر فى " المجلة النقدية للتاريخ والأدب " العدد السابع لعام ١٩٠٢م ـ صـ ٣٧٤) (وهو عبارة عن نص قيمٌ للغاية ومفعم بخبرة حياتية ويزيد من قيمته قلة السير الذاتية خلال تلك الفترة ، وهناك بعض الملامح التى تذكّرنا بقصة الصعلوك " لا ثاريّو " " عندما كنت فى الحادية عشرة من عمرى حلت بوالدى مصيبة حيث توفى أحد أقرباء والدتى (...) .

(٢٣) بدرو فرنانديث دى نابارّتى " الحفاظ على الملكيات " مكتبة المؤلفين الإسبان ـ الخامس والعشرون . صـ ٥٣٣

(٢٤) فى الوقت الذى تهيأت فيه لإضفاء اللمسات النهائية على هذا الكتاب وصلنى من صديقى / باتالون ملخص أسمح لنفسى بذكره هنا : " تضمن الفصل الدراسى الذى قمت بتدريسه فى " كوليج دى فرانس " محاضرة عن بدايات " جماعة يسوع " وركزت فى دراستى على علاقتها بالرهبنة ، وقبل ذلك بما يقرب من عشرين عاما كتبت بأن الصوفية الأيراسمية أمكن لها التأثير على إثيجو دى لويولا عندما كان طالباً فى ألكالا ، وبذلك أسهمت فى تحديد الطبيعة غير الرهبانية لمشاريعه الدينية ، كما أننى أزداد اقتناعاً بأن أولئك قدأسهموا فى مشروعات مناهضة للرهبنة (...) وهذا ما ندركه جيداً عندما تقوم بدراسة علاقتهم بأعمال خوان دى أبيلا الذى قام عن وعى بتقليد القديس بابلو . وتوضح الدراسة المتزامنة لكلتا الحركتيْن والمحاولة الفاشلة للجمع بينها ودمجها أهمية المسيحيين الجدد لدى كل واحدة وهذا هو السبب الرئيسى فى معارضة الكاردينال سيليثو دخول اليسوعيين فى أسقفيته ، إننى أزداد اقتناعاً بأن الإصلاح الكاثوليكى فى إسبانيا هو فى أغلب جوانبه من عمل المسيحيين الجدد من ذوى الأصل اليهودى ، وأعتقد أن تلك الرؤية لابد أن تحظى باهتمامك يا سيدى ، فالشغف بأن يكون المرء مسيحيا " قديما " زيّف الكثير من الأمور المتعلقة بتاريخ إسبانيا . (...) .

(٢٥) ب . فرنانديث دى نابارّتى " الحفاظ على الملكيات " صـ ٥٢٩

(٢٦) كان الموقف مناقضاً تماماً لما عليه العيش اليوم فى الولايات المتحدة حيث يأتى الناس للحياة وقد استقر فى وعيهم اكتمال صنع الكون وهو مليء بالكثير من الأشياء التى لا تحصى والتى يمكن الحصول عليها جميعها بالمال وبالتالى يتم قياس أى غاية بما تكلفه من أموال والناس رهن الإشارة وهم تابعون "للأشياء " ، وقد بالغ الإسبانى فى تضخيم ذاته حتى انفجرت ، بينما نجد أن الذى يتم تفجيره على الجانب الآخر هو القنبلة الذرية (...) .

(٢٧) F . Danvila, en BAH, VIII (1886), p. 388.

(٢٨) E.R. Curtius, en.Hugo de San Victor, en Patrologia, vol 176, col 747 (ap ZRPh, LVIII, 23).

(٢٩) Por don Francisco Miranda Villafa?e, Salamanca, 1583, fol 21 r.?.

(٣٠) كتب السيد / أرتال دى ألاجون ، كونت ساستاجو ، يقول " إننى لا أريد إدانة كافة المعارك الخاصة أو تثبيط همم الرجال فى الدفاع عن شرفهم والعودة إلى الله وإلى رشدهم بالشكل الذى يجب أن يكون ... كنت أودّ قبل ذلك ، حفز همتّهم وتشجيعهم على ما أرى أنه ضرورى ، وألا أثبط العزيمة فهى مثبطة ومن المؤسف أنها كذلك عند الإنسان الذى يجب أن يكون متكاملا [توافق القوانين الإلهية والإنسانية – مدريد – ١٥٩٣م – صـ ١٢٦ ro } .

(٣١) غنى عن القول الإشارة إلى أن ذلك يختلف عن " التكامل الأخلاقى " ، وعن الحفاظ على المبادئ الأخلاقية التى يقوم عليها سلوك الفرد . ومن المعروف أن الإنسان المتكامل أخلاقياً لا يرتكب أفعالاً مشينة رغم الإغواء ، لكن فكرة الكمال " entereza" تتعلق بشيء فعاّل يفترض وجود الباعث والجرأة ولذلك يقولون " entereza de animo" بمعنى كما الهمة ، الأمر إذن هو " موقف

(٣٢) عمدة سلمية – الجزء الثانى – الأبيات : ٧٥٦ – ٧٦٨

(٣٣) " الحفاظ على الملكيات " ١٦٢٦ – الخطابة رقم ٢٦ (مكتب المؤلفين الإسبان – الخامس والعشرون) صـ ٥٠٤ b

(٣٤) يمكن الحصول على قائمة بأسماء غير المموّلين أو الدافعين للضرائب فى كل محافظة من المحافظات الثمانى عشرة التى تتألف منها المملكة ، وهى أسماء موزعه على الخدمات المختلفة خلال عام ١٥٤١ . {سلسلة الوثائق غير المنشورة والمتعلقة بتاريخ إسبانيا – ١٨٤٨م الجزء الثالث عشر – صـ ٥٢١ – ٥٢٨

(٣٥) فرنانديث دى نابارّتى " الحفاظ على الملكيّات " المصدر السابق صـ ٤٧٢

(٣٦) إميليو أ . كونى " الزراعة والتجارة والصناعة فى العصر الاستعمارى " بوينوس أيرس – ١٩٤١م – صـ ١٥

(٣٧) رفائيل ألبرتو أرّتيا " Centuria Porte?a" بوينوس أيرس ١٩٤٤ صـ ٣٧

(٣٨) ويُقترح فيه إنشاء مدارس للبحرية " لتستعين بها إسبانيا على قضاء حاجات الناس الأجانب (...) (صـ ٥٤٢) والمثير للغرابة (رغم أننا ندركه جيداً) هو أن مؤلفاتي ناباررتي لم تطبع بالشكل الجيد وتم تذّيل بالتعليقات التاريخية لتكون بمثابة الكلمات الأولى في يد هؤلاء الذين لهم خبرة في حكم الشعوب المتحدثة الإسبانية والبرتغالية ، وكلهم سواء في هذا المقام ، ومن الملاحظ أن أيا من الشعوب المتحدثة بالإسبانية أو البرتغالية غير قادرة على صنع سفنها بأيديها ، ونحن في القرن العشرين ، دون الاستعانة بالأيدى العاملة الأجنبية .

(٣٩) " فكرة أمير سياسى - مسيحى ممثلة في مائة مهمة - " المهمة رقم ٢٦ " .

(٤٠) كان من الطبيعى أن ينظر الأجانب إلى إسبانيا كبلد غريب وغير مفهوم ، فلم يدرك فواتير كيف أن سفير إسبانيا في لندن نظر إلى اثنين من العلماء الإنجليز على أنهما مجنونان لأنهما طلبا منه مساعدة للقيام برحلة علمية (ربما كانت الرحلة إلى بعض جبال أمريكا) بغية قياس وزن الهواء .

(٤١) أعتقد أنه ليون دى كاسترو، وليس مردّ ذلك الاعتقاد هو الأسلوب العنيف عند الكتابة فقط بل لاهتمامه المعروف بالقديس خوان كريستومو انظر . أ. ف .ج -بل لويس دى ليون صـ ١٢٠ وما يليها) (...) .

(٤٢) أنطونيو بيريث : " رسائل " - مكتبة المؤلفين الإسبان - الثالث عشر - صـ ٥٠٢

(٤٣) وهذا ما ظل اليهود يفعلونه ابتداء من نهاية القرن الرابع عشر واستمر عليه الإسبان الجدد خلال القرن السادس عشر .

(٤٤) قام " ريبيّا " الأغسطى بنشر النص اللاتيني مشيراً إلى المصدر في " المجلة الإسبانية للدراسات التوراتية " - العدد الثالث (١٩٢٨) صـ ٣٢ . وقد قمت بترجمة النص - لأول مرة - في الدراسة التى أعددتها بعنوان " الأيراسمية على زمن ثربانتس " RFE -الثامن عشر - (١٩٢١) صـ ٣٦٦ (...)

(٤٥) وهذا ما حدث لأساتذة سلمنقة : جاسبار دى مراخال ، مارتين مارتينث دى كانتا لابيدرا ، وفرانثيسكو سانشيث دى لاس بروثاس . وكذلك لأستاذ جامعة أوسونا فراى ألونسو ولكثيرين آخرين

(٤٦) " Quorum inepti clamores adeo formidabiles fuere multis sacrarum litterar-um studiosis hominibus, ut eos ab hoc honestissimo et sanctissimo studio vehement-er dete-rrerent ; docti vero homines sacirs litteris vix tuto se versari putabant ("Didaci a Stu-nica... In Job Commentaria, Toledo, 1584, cap . X ,pp 472 - 473). Tomo el tex-to de M. de la Pinta Llorente, Causa criminal contra el biblista Alonso Gudiel, Madrid, 1942, p.27.

(٤٧) طبعة المكتبة الجديدة للمؤلفين الاسبان صـ ٣٧

(٤٨) " عُمَد داجانثو " طبعة Schevill y Bonilla صـ ٤٧

(٤٩) م. أرتيجاس – " جونجورا " صـ ٦٤ .

(٥٠) يتضمن جزء من الرسالة الموجهة إلى دوق سيسًا الإشارة إلى وعَّاظ فليب الرابع وهما فلورنثيا وبدروسا " لم يكن ذلك المكان على ما هو عليه اليوم فالصعاليك هم : فلورنثياس والأحجار هى بدروساس ، هم يقدسون العدالة ويخشون الرحمة ... هاهو البابا يتحدث ، ويكتب فى علم الفلك ، "طيارات " فى السماء "] C. Alberto de la Barrera فى " السيرة الجديدة للوبى دى بيجا صـ ٦٢٢) . ومن المؤكد أن السيد أميثكوا سوف يشرح لنا هذه الألغاز وغيرها فى طبعته الجديد لرسائل لوبى دى بيجا .

(٥١) يتحدث ابن خلدون فى كتابه "العبد" [الجزء الأول صـ ٣١٣ ترجمة Slan] عن أنه نادرًا ما يوجد هناك وفاق طيب بين أبناء القبيلة فإذا ما قبلوا المعتقدات الدينية التى بشرها بهم رسول أو رجل دين فإن الرابطة بينهم هى ما فى قلوبهم وهناك نجد أن طباعهم ترق ويميلون إلى الوفاق والطاعة ، والدين هو بذلك العنصر الذى يقوم بهذا الدور (....) .

(٥٢) والشىء الغريب هو بقاء بعض الأفكار فهناك فقرة شهيرة للوبى دى بيجا (معجزات الاحتقار – مكتبة المؤلفين الإسبان – الرابع والثلاثون – صـ ٢٣٥ b) تتحدث عن الحروب الدينية وهى حروب لا طائل من ورائها كما أنها ليست إلا نكتة " خارجة " يقول إيرناندو :

لنتأمل جيدًا ، ما الذى فعله

اللوثريون بى ؟

لقد خلقهم يسوع

ويمكن له من خلال عدة طرق ،

إذا ما شاء ، القضاء عليهم

بطريقة أسهل من طريقتى

وهنا يكفى أن نتذكر الفصل الذى تحدثنا فيه عن التسامح الدينى وقلنا فيه إن الفكرة الأساسية هنا هى المستقاة من القرآن والقائلة بأن اختلاف الأديان هو أمر بإرادة الله الذى لو شاء لجعل الناس أمة واحدة وتظهر هذه الفكرة القديمة غير مرتبطة بالمحيط الاجتماعى الحىّ لكنها تظهر كتعبير كوميدى وساخر نابع من وجدان شخصية أدبية مثل لوبى ، إنه يشير إلى موقف جديد (اللوثريون بدلاً من المور) وهى النظرية التى تحدث عنها كل من ألفونسو العالم والسيد خوان مانويل ، كما يتضمن هذا المسرح الإسبانى العظيم لمحة من الاعتقاد بالله على الطريقة الإسلامية والتى يمكن للجمهور أن يفهمها على أنها لمحة للمقولة العامية " وماذا

يهمنىّ " أو من المقولة القديمة التى لازال أهل الأندلس يرددونها " خلقهم الله وهو وحده يميتهم " وهذا هو شاهد آخر من آثار التسامح الإسبانى – الإسلامى .

(٥٣) أن يأتى فنان مثل " الجريكو " من عالم مختلف ثم ينخرط فى الإطار الحيوى الجوهرى لإسبانيا إنما هو دليل على أن ما هو إسبانى لم يكن اللون أو درجاته بل تكشف لوحاته الطليطلية التعايش والتلاقح الناجمين عن الإعجاب بحياة مفعمة بالتعميم والآفاق الرحبة . والأمر ليس طريقة إسبانية بل هو " الإسبنة " نفسها حتى أقصى درجاتها . (...) .

المؤلف في سطور :

أميركو كاسترو (١٨٨٥ - ١٩٧٢م) واحد من أبرز النقاد والعلماء الإسبان ، ولد في كانتاجالو (البرازيل) كما يعتبر أبرز تلاميذ العلامة منـنديث بيـدال . عمل أستاذًا جامعيًا بجامعة مدريد، وكان المشرف العام على مركز الدراسات التاريخية . له العديد من المؤلفات المهمة في ميدان الدرسات اللغوية مثل كتاب « العنصر الغريب في اللغة » وكذا في ميدان الدراسات المتعلقة بالأدب الإسباني خلال العصر الذهبي مثل كتاب «فكر ثربانتس» ويعتبر كتابه الذي بين أيدينا - «إسبانيا في تاريخها» - من أثرى الإسهامات في ميدان تكامل العناصر الثقافية الإسبانية . وقد صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب في بوينيس أيرس (الأرجنتين) عام ١٩٤٨ ، كما صدر الكتاب نفسه ولكن بشكل مختصر تحت عنوان آخر هو« الواقع التاريخي لإسبانيا (المكسيك ١٨٥٤م) . وقام هذا المؤلف العملاق بالتدريس في العديد من الجامعات في الولايات المتحدة .

المترجم فى سطور

على إبراهيم منوفى ، يعمل حاليًا أستاذًا للأدب الإسبانى فى كل من كلية اللغات والترجمة جامعة الأزهر ، وكلية اللغات والترجمة جامعة الملك سعود . حصل على الدكتوراه من جامعة سلمنقة (إسبانيا) فى الشعر الإسبانى المعاصر .

له عدد من الأبحاث المنشورة باللغة الإسبانية واللغة العربية فى مجال الشعر والرواية والقصة القصيرة ، وقد نشرت له عدة عناوين مترجمة من خلال المشروع القومى للترجمة وبعض دور النشر الخاصة وكذا من خلال مركز الترجمة بجامعة الملك سعود .

المراجع فى سطور

حامد أبو أحمد أستاذ ورئيس قسم اللغة الإسبانية بكلية اللغات والترجمة – جامعة الأزهر . ناقد ومترجم أصدر عدداً كبيراً من المؤلفات من بينها « الواقعية السحرية والخطاب والقارئ – نظريات التلقى وتحليل الخطاب وما بعد الحداثة ، وعبد الوهاب البيانى فى إسبانيا ، و مسيرة الرواية فى مصر » وغيرها من الكتب.

وله عدد من الترجمات من الإسبانية إلى العربية من بينها «عائلة باشكوال دوارتى» و « زمن الفيوم » و « نظرية اللغة الأدبية » .

المشروع القومى للترجمة

المشـروع القومـى للترجمـة مشـروع تنميـة ثقافيـة بالدرجـة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التـوازن بين المعـارف الإنسـانيـة فى المجـالات العلمـيـة والفنيـة والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

العنوان	المؤلف	المترجم
١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ – نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ – واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ – نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ – الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ – قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ – ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحي / محمود ماجد
٤٢ – عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ – اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	ت : المهدى أخريف
٤٤ – بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥ – التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ – عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ١	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ – حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩ – الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢ – العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ – الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ – المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥ – ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ – مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ – المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ – التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ – موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢ – لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ – برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ – فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ – مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨ – نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ – العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ – السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

٧٢ – السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
٧٣ – نقد استجابة القارئ	چين . ب . تومبكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	ت : حسن بيومى
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ – چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجيل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
٩٥ – مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (المجلد الأول)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
٩٨ – الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديڤيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
١٠١ – النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣ – قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرامتى	ت : أشرف على دعدور
١٠٧ – صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدى

العنوان	المؤلف	المترجم
١٠٨ – ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩ – حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ – النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ – المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ – الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ – راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ – مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ – غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦ – امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ – المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ – النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩ – النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ – الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ – الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ – نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ – الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نينل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ – الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ – التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
١٢٦ – فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ – إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨ – الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ – الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ – الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١ – مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ – ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ – الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ – تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ – المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ – فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ – مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨ – عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ – پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ – حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١ – اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ – الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣ – قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤ – صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ - موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ - الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف اليمبى
١٤٧ - خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ - النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ - التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان بروديل	ت : بشير السباعى
١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ - غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ - مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ - الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت ڤيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ - خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان بروديل	ت : بشير السباعى
١٥٩ - الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ - آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ - من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ - تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
١٦٤ - شامپوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ - حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ - العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليقمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ - فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ - دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ - إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ - الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ - وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ - حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابى
١٧٣ - معنى الجمال	والتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ - صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ - التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو ڤيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ - نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ - أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ - مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ - حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ - قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ - النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

العنوان	المؤلف	المترجم
١٨٢ - العنف والنبوءة	و . ب . ييتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ - چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	ت : فتحى العشرى
١٨٤ - القاهرة .. حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	ت : دسوقى سعيد
١٨٥ - أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ - معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ - الأرضة	بُزُرْج علَوى	ت : علاء منصور
١٨٨ - موت الأدب	ألفين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ - العمى والبصيرة	پول دى مان	ت : سعيد الغانمى
١٩٠ - محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت : محسن سيد فرجانى
١٩١ - الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازى السيد
١٩٢ - سياحت نامه إبراهيم بك جـ١	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
١٩٣ - عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ - مختارات من النقد الأنجلو - أمريكى	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ - شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ - المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
١٩٧ - الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ - الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ - تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ - ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت : فخرى لبيب
٢٠١ - الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ - تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ - الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ - تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت : أحمد محمود هويدى
٢٠٥ - الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى - سفورزا	ت : أحمد مستجير
٢٠٦ - الهيولية تصنع علمًا جديدًا	جيمس جلايك	ت : على يوسف على
٢٠٧ - ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ - شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت : محمد أحمد صالح
٢٠٩ - السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٠ - مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ - فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	ت : محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢ - قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ - مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر	ريمون فلاور	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢١٤ - قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت : محمد محمود محى الدين
٢١٥ - سياحت نامه إبراهيم بك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢١٦ - جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٧ - مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت	ت : نادية البنهاوى
٢١٨ - رايولا	خوليو كورتازار	ت : على إبراهيم على منوفى

٢١٩ – بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ – الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت : على يوسف على
٢٢١ – شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ – فرانز كافكا	رونالد جراى	ت : نسيم مجلى
٢٢٣ – العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت : السيد محمد نفادى
٢٢٤ – دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ – حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ – أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت : طاهر محمد على البربرى
٢٢٧ – المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماريا ديف بوركى	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ – علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ – مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمان	ت : أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠ – عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ – الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ – مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ – فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ – الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ – ديوان شمس تبريزى ج١	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦ – الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ – مصر أرض الوادى	روبين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ – العولمة والتحرير	الانكتاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩ – العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلا رامراز – رايوخ	ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ – الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ – فى انتظار البرابرة	ك. م كويتز	ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ – سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت : صبرى محمد حسن عبد النبى
٢٤٣ – تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ١)	ليفى بروفنسال	ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ – الغليان	لاورا إسكيبيل	ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ – نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت : توفيق على منصور
٢٤٦ – قصص مختارة	جابرييل جرثيا ماركث	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٤٧ – الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	وولتر أرمبرست	ت : محمد الشرقاوى
٢٤٨ – حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ – لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت : رفعت سلام
٢٥٠ – علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ت : ماجدة أباظة
٢٥١ – موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٥٢ – رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت : على بدران
٢٥٣ – تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	ت : حسن بيومى
٢٥٤ – الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ – أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦ – ديكارت	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ – تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ – الغجر	سير أنجوس فريزر	ت : عُبادة كُحيلة
٢٥٩ – مختارات من الشعر الأرمنى	نخبة	ت : ڤاروچان كازانچيان
٢٦٠ – موسوعة علم الاجتماع ج٣	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٦١ – رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ – مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ – الكشف عن حافة الزمن	چون جريبن	ت : على يوسف على
٢٦٤ – إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلى	ت : لويس عوض
٢٦٥ – روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ – مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت : عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ – فن الرواية	ميلان كونديرا	ت : بدر الدين عرودكى
٢٦٨ – ديوان شمس تبريزى ج٢	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧٠ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧١ – الحضارة الغربية	توماس سى . باترسون	ت : شوقى جلال
٢٧٢ – الأديرة الأثرية فى مصر	س. س. والترز	ت : إبراهيم سلامة
٢٧٣ – الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان آر. لوك	ت : عنان الشهاوى
٢٧٤ – السيدة بربارا	رومولو جالاجوس	ت : محمود على مكى
٢٧٥ – ت. س. إليوت شاعرًا وناقدًا وكاتبًا مسرحيًا	أقلام مختلفة	ت : ماهر شفيق فريد
٢٧٦ – فنون السينما	فرانك جوتيران	ت : عبد القادر التلمسانى
٢٧٧ – الچينات : الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت : أحمد فوزى
٢٧٨ – البدايات	إسحق عظيموف	ت : ظريف عبد الله
٢٧٩ – الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	ت : طلعت الشايب
٢٨٠ – من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت : سمير عبد الحميد
٢٨١ – الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت : جلال الحفناوى
٢٨٢ – طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس وابيرت	ت : سمير حنا صادق
٢٨٣ – السهل يحترق	خوان رولفو	ت : على البمبى
٢٨٤ – هرقل مجنونًا	يوريبيدس	ت : أحمد عتمان
٢٨٥ – رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت : سمير عبد الحميد
٢٨٦ – سياحت نامه إبراهيم بك ج٣	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢٨٧ – الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كينج	ت : محمد يحيى وآخرون
٢٨٨ – الفن الروائى	ديفيد لودج	ت : ماهر البطوطى
٢٨٩ – ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت : محمد نور الدين
٢٩٠ – علم اللغة والترجمة	جورج مونان	ت : أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١ – المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج١	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر
٢٩٢ – المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج٢	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر

٢٩٣ – مقدمة للأدب العربى	روجر آلان	ت : نخبة من المترجمين
٢٩٤ – فن الشعر	بوالو	ت : رجاء ياقوت صالح
٢٩٥ – سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت : بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦ – مكبث	وليم شكسبير	ت : محمد مصطفى بدوى
٢٩٧ – فن النحو بين اليونانية والسوريانية	ديونيسيوس ثراكس – يوسف الأهوانى	ت : ماجدة محمد أنور
٢٩٨ – مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	ت : مصطفى حجازى السيد
٢٩٩ – ثورة التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت : هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠ – أسطورة بروميثيوس مج١	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى وبهاء چاهين
٣٠١ – أسطورة بروميثيوس مج٢	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى ومحمد الجندى
٣٠٢ – فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣ – بـوذا	جين هوب وبورن فان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤ – ماركس	ريـوس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥ – الجلد	كروزيو مالابارته	ت : صلاح عبد الصبور
٣٠٦ – الحماسة – النقد الكانطى للتاريخ	چان – فرانسوا ليوتار	ت : نبيل سعد
٣٠٧ – الشعور	ديفيد بابينو	ت : محمود محمد أحمد
٣٠٨ – علم الوراثة	ستيف جونز	ت : ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩ – الذهن والمخ	انجوس چيلاتى	ت : جمال الجزيرى
٣١٠ – يونج	ناجى هيد	ت : محيى الدين محمد حسن
٣١١ – مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	ت : فاطمة إسماعيل
٣١٢ – روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	ت : أسعد حليم
٣١٣ – أمثال فلسطينية	خابير بيان	ت : عبد الله الجعيدى
٣١٤ – الفن كعدم	جينس ميتيك	ت : هويدا السباعى
٣١٥ – جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	ت :كاميليا صبحى
٣١٦ – محاكمة سقراط	أ. ف. ستون	ت : نسيم مجلى
٣١٧ – بلا غد	شير لايموفا – زنيكين	ت : أشرف الصباغ
٣١٨ – الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت : أشرف الصباغ
٣١٩ – صور دريدا	جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس	ت : حسام نايل
٣٢٠ – لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٢١ – تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج١)	ليفى برو فنسال	ت : نخبة من المترجمين
٣٢٢ – وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو. إيوجين كليناور	ت : خالد مفلح حمزة
٣٢٣ – فن الساتورا	تراث يونانى قديم	ت : هانم سليمان
٣٢٤ – اللعب بالنار	أشرف أسدى	ت : محمود سلامة علاوى
٣٢٥ – عالم الآثار	فيليب بوسان	ت : كرستين يوسف
٣٢٦ – المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت : حسن صقر
٣٢٧ – مختارات شعرية مترجمة	نخبة	ت : توفيق على منصور
٣٢٨ – يوسف وزليخة	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٢٩ – رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	ت : محمد عيد إبراهيم

٣٣٠ – كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	ت : سامى صلاح
٣٣١ – عندما جاء السردين	ستيفن جراى	ت : سامية دياب
٣٣٢ – رحلة شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٣٣ – الإسلام فى بريطانيا	نبيل مطر	ت : بكر عباس
٣٣٤ – لقطات من المستقبل	أرثر س. كلارك	ت : مصطفى فهمى
٣٣٥ – عصر الشك	ناتالى ساروت	ت : فتحى العشرى
٣٣٦ – متون الأهرام	نصوص قديمة	ت : حسن صابر
٣٣٧ – فلسفة الولاء	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٣٣٨ – نظرات حائرة وقصص أخرى من الهند	نخبة	ت : جلال السعيد الحفناوى
٣٣٩ – تاريخ الأدب فى إيران جـ٣	على أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٤٠ – اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربيروجلو	ت : فخرى لبيب
٣٤١ – قصائد من رلكه	راينر ماريا رلكه	ت : حسن حلمى
٣٤٢ – سلامان وأبسال	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٤٣ – العالم البرجوازى الزائل	نادين جورديمر	ت : سمير عبد ربه
٣٤٤ – الموت فى الشمس	بيتر بلانجوه	ت : سمير عبد ربه
٣٤٥ – الركض خلف الزمن	بونه ندائى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦ – سحر مصر	رشاد رشدى	ت : جمال الجزيرى
٣٤٧ – الصبية الطائشون	جان كوكتو	ت : بكر الحلو
٣٤٨ – المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ١	محمد فؤاد كوبريلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٣٤٩ – دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدرون وآخرين	ت : أحمد عمر شاهين
٣٥٠ – بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	ت : عطية شحاتة
٣٥١ – مبادئ المنطق	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٣٥٢ – قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	ت : نعيم عطية
٣٥٣ – الفن الإسلامى فى الأندلس (هندسية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٥٤ – الفن الإسلامى فى الأندلس (نباتية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٥٥ – التيارات السياسية فى إيران	حجت مرتضى	ت : محمود سلامة علاوى
٣٥٦ – الميراث المر	بول سالم	ت : بدر الرفاعى
٣٥٧ – متون هيرميس	نصوص قديمة	ت : عمر الفاروق عمر
٣٥٨ – أمثال الهوسا العامية	نخبة	ت : مصطفى حجازى السيد
٣٥٩ – محاورات بارمنيدس	أفلاطون	ت : حبيب الشارونى
٣٦٠ – أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ت : ليلى الشربينى
٣٦١ – التصحر : التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	ت : عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢ – تلميذ بابنبرج	هاينرش شبورال	ت : سيد أحمد فتح الله
٣٦٣ – حركات التحرر الأفريقى	ريتشارد جيبسون	ت : صبرى محمد حسن
٣٦٤ – حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	ت : نجلاء أبو عجاج
٣٦٥ – سأم باريس	شارل بودلير	ت : محمد أحمد حمد
٣٦٦ – نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	ت : مصطفى محمود محمد
٣٦٧ – القلم الجرئ	نخبة	ت : البرّاق عبد الهادى رضا

العنوان	المؤلف	المترجم
٣٦٨ – المصطلح السردى	جيرالد برنس	ت : عابد خزندار
٣٦٩ – المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	ت : فوزية العشماوى
٣٧٠ – الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	ت : فاطمة عبد الله محمود
٣٧١ – المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ٢	محمد فؤاد كوبريلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٣٧٢ – عاش الشباب	وانغ مينغ	ت : وحيد السعيد عبد الحميد
٣٧٣ – كيف تعد رسالة دكتوراه	أمبرتو إيكو	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٧٤ – اليوم السادس	أندريه شديد	ت : حمادة إبراهيم
٣٧٥ – الخلود	ميلان كونديرا	ت : خالد أبو اليزيد
٣٧٦ – الغضب وأحلام السنين	نخبة	ت : إدوار الخراط
٣٧٧ – تاريخ الأدب فى إيران جـ٤	على أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٧٨ – المسافر	محمد إقبال	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٧٩ – ملك فى الحديقة	سنيل باث	ت : جمال عبد الرحمن
٣٨٠ – حديث عن الخسارة	جونتر جراس	ت : شيرين عبد السلام
٣٨١ – أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	ت : رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢ – تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	ت : أحمد محمد نادى
٣٨٣ – هدية الحجاز	محمد إقبال	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٣٨٤ – القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	ت : إيزابيل كمال
٣٨٥ – مشترى العشق	محمد على بهزادراد	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٨٦ – دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ت : ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧ – أغنيات وسوناتات	جون دن	ت : بهاء جاهين
٣٨٨ – مواعظ سعدى الشيرازى	سعدى الشيرازى	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٨٩ – من الأدب الباكستانى المعاصر	نخبة	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٣٩٠ – الأرشيفات والمدن الكبرى	نخبة	ت : عثمان مصطفى عثمان
٣٩١ – الحافلة الليلكية	مايف بينشى	ت : منى الدروبى
٣٩٢ – مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دى لاجرانخا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٣٩٣ – فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	ت : زينب محمود الخضيرى
٣٩٤ – القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	ت : هاشم أحمد محمد
٣٩٥ – آلام سياوش	إسماعيل فصيح	ت : سليم حمدان
٣٩٦ – السافاك	تقى نجارى راد	ت :محمود سلامة علاوى
٣٩٧ – نيتشه	لورانس جين	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٣٩٨ – سارتر	فيليب تودى	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٣٩٩ – كامى	ديفيد ميروفتس	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٤٠٠ – مومو	مشيائيل إنده	ت : باهر الجوهرى
٤٠١ – الرياضيات	زيادون ساردر	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٠٢ – هوكنج	ج . ب . ماك ايفوى	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٠٣ – ربة المطر والملابس تصنع الناس	تودور شتورم	ت : عماد حسن بكر
٤٠٤ – تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ت : ظبية خميس
٤٠٥ – إيزابيل	أندريه جيد	ت : حمادة إبراهيم
٤٠٦ – المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٤٠٧ – الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	أقلام مختلفة	ت : طلعت شاهين
٤٠٨ – معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	ت : عنان الشهاوى
٤٠٩ – انتصار السعادة	برتراند راسل	ت : إلهامى عمارة

٤١٠- خلاصة القرن	كارل بوبر	ت : الزواوى بغورة
٤١١ - همس من الماضى	جينيفر أكرمان	ت : أحمد مستجير
٤١٢ - تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج٢)	ليفى بروفنسال	ت : نخبة
٤١٣ - أغنيات المنفى	ناظم حكمت	ت : محمد البخارى
٤١٤ - الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	ت : أمل الصبان
٤١٥ - صورة كوكب	فريدريش دورنيمات	ت : أحمد كامل عبد الرحيم
٤١٦ - مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	ت : مصطفى بدوى
٤١٧ - تاريخ النقد الأدبى الحديث ج٥	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤١٨ - سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	جين هاثواى	ت : عبد الرحمن الشيخ
٤١٩ - العصر الذهبى للإسكندرية	جون ماريو	ت : نسيم مجلى
٤٢٠ - مكرو ميجاس	فولتير	ت : الطيب بن رجب
٤٢١ - الولاء والقيادة فى المجتمع الإسلامى	روى متحدة	ت : أشرف محمد كيلانى
٤٢٢ - رحلة لاستكشاف أفريقيا جـ١	نخبة	ت : عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٢٣ - إسراءات الرجل الطيف	نخبة	ت : وحيد النقاش
٤٢٤ - لوائح الحق ولوامع العشق	نور الدين عبد الرحمن الجامي	ت : محمد علاء الدين منصور
٤٢٥ - من طاووس حتى فرح	محمود طلوعى	ت : محمود سلامة علاوى
٤٢٦ - الخفافيش وقصص أخرى من أفغانستان	نخبة	ت : محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧ - بانديراس الطاغية	باى إنكلان	ت : ثريا شلبى
٤٢٨ - الخزانة الخفية	محمد هوتك	ت : محمد أمان صافى
٤٢٩ - هيجل	ليود سبنسر وأندرزجى كروز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٠ - كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣١ - فوكو	كريس هيروكس وزوران جفتيك	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٢ - ماكياڤلى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٣ - جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	ت : حمدى الجابرى
٤٣٤ - الرمانسية	دونكان هيث وجودن بورهام	ت : عصام حجازى
٤٣٥ - توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ت : ناجى رشوان
٤٣٦ - تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٧ - رحالة هندى فى بلاد الشرق	شيلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٤٣٨ - بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	ت : عايدة سيف الدولة
٤٣٩ - موت المرابى	صدر الدين عينى	ت : محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠ - قواعد اللهجات العربية	كرستن بروستاد	ت : محمد الشرقاوى
٤٤١ - رب الأشياء الصغيرة	أروندادتي روى	ت : فخرى لبيب
٤٤٢ - حتشبسوت (المرأة الفرعونية)	فوزية أسعد	ت : ماهر جويجاتى
٤٤٣ - اللغة العربية	كيس فرستيغ	ت : محمد الشرقاوى
٤٤٤ - أمريكا اللاتينية : الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	ت : صالح علمانى
٤٤٥ - حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	ت : محمد محمد يونس
٤٤٦ - التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	ت : أحمد محمود

العنوان	المؤلف	المترجم
٤٤٧ – نظرية الكم	ج. ب. ماك ايفوى	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٤٨ – علم نفس التطور	ديلان ايفانز – أوسكار زاريت	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٤٩ – الحركة النسائية	مجموعة	ت : جمال الجزيرى
٤٥٠ – ما بعد الحركة النسائية	صوفيا فوكا – ريبيكارايت	ت : جمال الجزيرى
٤٥١ – الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن / بورن ڤان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢ – لينين والثورة الروسية	ريتشارد إبجنانزى / أوسكار زاريت	ت : محى الدين مزيد
٤٥٣ – القاهرة : إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	ت : حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤ – خمسون عامًا من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	ت : سوزان خليل
٤٥٥ – تاريخ الفلسفة الحديثة (مج ٥)	فردريك كوبلستون	ت : محمود سيد أحمد
٤٥٦ – لا تنسنى	مريم جعفرى	ت : هويدا عزت محمد
٤٥٧ – النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان موللر اوكين	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٨ – الموريسكيون الأندلسيون	خوليو كارو باروخا	ت : جمال عبد الرحمن
٤٥٩ – نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
٤٦٠ – الفاشية والنازية	ستوارت هود – ليتزا جانستز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٦١ – لكان	داريان ليدر – جودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٦٢ – طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبد الرشيد الصادق محمودى	ت : عبد الرشيد الصادق محمودى
٤٦٣ – الدولة المارقة	ويليام بلوم	ت : كمال السيد
٤٦٤ – ديمقراطية القلة	ميكائيل بارنتى	ت : حصة منيف
٤٦٥ – قصص اليهود	لويس جنزبرج	ت : جمال الرفاعى
٤٦٦ – حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	ت : فاطمة محمود
٤٦٧ – التفكير السياسى	ستيفين ديلو	ت : ربيع وهبة
٤٦٨ – روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٤٦٩ – جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	ت : مجدى عبد الرازق
٤٧٠ – الأراضى والجودة البيئية	نخبة	ت : محمد السيد النتة
٤٧١ – رحلة لاستكشاف أفريقيا ج٢	نخبة	ت : عبد الله الرازق إبراهيم
٤٧٢ – دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	ت : سليمان العطار
٤٧٣ – دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	ت : سليمان العطار
٤٧٤ – الأدب والنسوية	بام موريس	ت : سهام عبد السلام
٤٧٥ – صوت مصر : أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	ت : عادل هلال عنانى
٤٧٦ – أرض الحبايب بعيدة : بيرم التونسى	ماريلين بوث	ت : سحر توفيق
٤٧٧ – تاريخ الصين	هيلدا هوخام	ت : أشرف كيلانى
٤٧٨ – الصين والولايات المتحدة	ليو شيه تشنج ولى شى دونج	ت : عبد العزيز حمدى
٤٧٩ – المقهى (مسرحية صينية)	لاوشه	ت : عبد العزيز حمدى
٤٨٠ – تساى ون جى (مسرحية صينية)	كو مو روا	ت : عبد العزيز حمدى
٤٨١ – عباءة النبى	روى متحدة	ت : رضوان السيد
٤٨٢ – موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	ت : فاطمة محمود
٤٨٣ – النسوية وما بعد النسوية	سارة جامبل	ت : أحمد الشامى
٤٨٤ – جمالية التلقى	هانس روبيرت ياوس	ت : رشيد بنحدو

٤٨٥ – التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٤٨٦ – الذاكرة الحضارية	يان أسمن	ت : عبد الحليم عبد الغنى رجب
٤٨٧ – الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد آبادى	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٤٨٨ – الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٤٨٩ – هُسِّرل : الفلسفة علمًا دقيقًا	هُسِّرل	ت : محمود رجب
٤٩٠ – أسمار الببغاء	محمد قدرى	ت : عبد الوهاب علوب
٤٩١ – نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	ت : سمير عبد ربه
٤٩٢ – محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	ت : محمد رفعت عواد
٤٩٣ – خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	ت : محمد صالح الضالع
٤٩٤ – كتاب الموتى (الخروج فى النهار)	نصوص مصرية قديمة	ت : شريف الصيفى
٤٩٥ – اللوبى	إدوارد تيفان	ت : حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦ – الحكم والسياسة فى أفريقيا جـ١	إكوادو بانولى	ت : مجموعة من المترجمين
٤٩٧ – العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلىّ	ت : مصطفى رياض
٤٩٨ – النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	ت : أحمد على بدوى
٤٩٩ – تقاطعات : والأمة والمجتمع والجنس	نخبة	ت : فيصل بن خضراء
٥٠٠ – فى طفولتى (دراسة فى السيرة الذاتية العربية)	تيتز رووكى	ت : طلعت الشايب
٥٠١ – تاريخ النساء فى الغرب	أرثر جولد هامر	ت : سحر فراج
٥٠٢ – أصوات بديلة	هدى الصدّة	ت : هالة كمال
٥٠٣ – مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة	ت : محمد نور الدين عبد المنعم
٥٠٤ – كتابات أساسية ج١	مارتن هايدجر	ت : إسماعيل المصدق
٥٠٥ – كتابات أساسية ج٢	مارتن هايدجر	ت : إسماعيل المصدق
٥٠٦ – ربما كان قديسًا	آن تيلر	ت : عبد الحميد فهمى الجمال
٥٠٧ – سيدة الماضى الجميل	بيتر شيفر	ت : شوقى فهيم
٥٠٨ – المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبد الباقى جلبنارلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٥٠٩ – الفقر والإحسان فى عهد سلاطين المماليك	أدم صبرة	ت : قاسم عبده قاسم
٥١٠ – الأرملة الماكرة	كارلو جولدونى	ت : عبد الرازق عيد
٥١١ – كوكب مرقّع	آن تيلر	ت : عبد الحميد فهمى الجمال
٥١٢ – كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	ت : جمال عبد الناصر
٥١٣ – العلم الجسور	تيد أنتون	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤ – مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	ت : مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥ – من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى دوجلاس	ت : فدوى مالطى دوجلاس
٥١٦ – إرادة الإنسان فى شفاء الإدمان	أرنولد واشنطون – ودونا باوندى	ت : صبرى محمد حسن
٥١٧ – نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨ – استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	ت : هاشم أحمد محمد
٥١٩ – محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٥٢٠ – الولع الفرنسى بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	ت : أمل الصبان
٥٢١ – قاموس تراجم مصر الحديثة	آرثر جولد سميث	ت : عبد الوهاب بكر
٥٢٢ – إسبانيا فى تاريخها	أميركو كاسترو	ت : على إبراهيم منوفى

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٠١٤٠ / ٢٠٠٣